

رَحَلَاتُ الْعَلَامَةِ

أبي الحسين علي بن الحسين النعماني

مُشَاهَدَاتُهُ - مُحَاضَرَاتُهُ - لِقَاءَاتُهُ - انْطِبَاعَاتُهُ

بِحَسَنَةِ تَرْجُمَانِهَا وَتَمَّتْ قَلْبَهَا

مسيّد عبد الماجد النعماني

دار ابن كثير

دمشق - بيروت

رَحَلَاتُ الْعَلَّامَةِ

أبي الحسن علي الحسيني الندوي

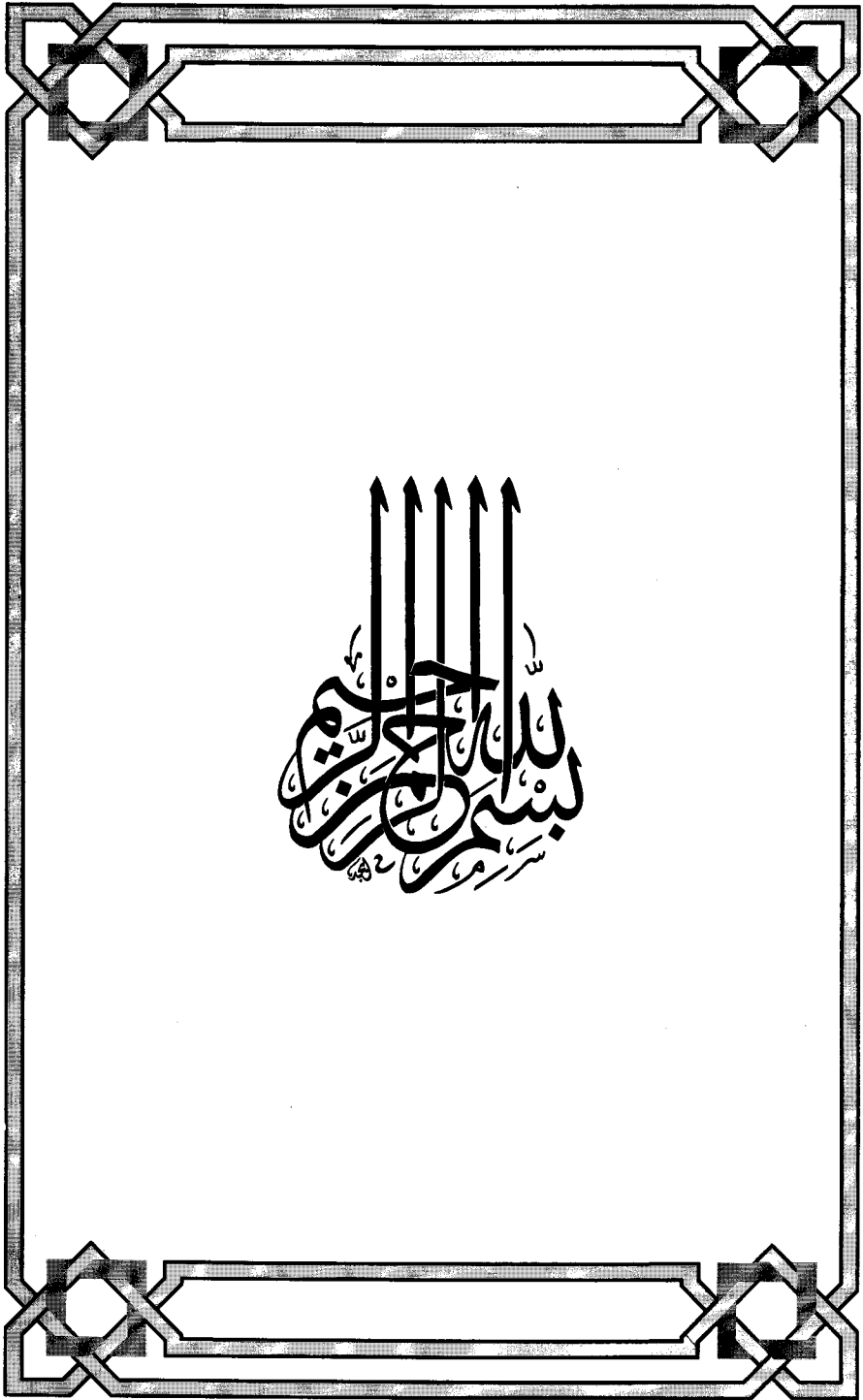
مُشَاهَدَاتُهُ - مُحَاضَرَاتُهُ - لِقَاءَاتُهُ - انْطِبَاعَاتُهُ

بِحَقِّهَا وَرَبِّهَا وَعَلَيْهَا

سيد عبد الماجد الغوري

د. آ. ا. ابن كثير

دمشق - بيروت



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٢م - ٢٠٠١م

دمشق - حلبوني - جادة ابن سينا - بناء الجبالي
ص.ب: ٣١١ - هاتف: ٢٢٢٥٨٧٧ - ٢٢٢٨٤٥ - فاكس: ٢٤٤٣٥٠٢
بغروت - برج أبي حيدر - خلف دبوس الأصلي - بناء الحديقة
ص.ب: ١١٣ / ٦٣١٨ - تليفاكس ٠١٨١٧٨٥٧ - ٣٢٠٤٤٥٩



للطباعة والنشر والتوزيع

تقديم

بقلم: فضيلة الأستاذ محمد الرابع الحسني الندوي
الأمين العام بجامعة ندوة العلماء ، لكهنؤ (الهند)
ونائب الرئيس لرابطة الأدب الإسلامي العالمية (الرياض)

لقد قضى العلامة الشيخ السيد أبو الحسن علي الحسني الندوي - رحمه الله تعالى - حياة حافلة بجلاتل الأعمال في مجالات مختلفة للفكر والتربية ، وذلك بالتأليف والكتابة ومخاطبة الجماهير من الناس ، وكان يجمع بين مخاطبة المسلمين وغير المسلمين جميعاً ، وذلك بلفت نظرهم إلى ضرورة الصلاح في السلوك ، والأخلاق إذا كان المخاطبون من غير المسلمين ، وضرورة الصلاح الديني والفكر الإسلامي ، والسلوك الديني إذا كان المخاطبون مسلمين . كان يتحرق في الشعور بحاجة المجتمع إلى التكوين الإنساني الفاضل ، وكان يدعو المسلمين إلى التمسك القوي بمقومات دينهم ، والالتزام الكامل بواجبهم الإسلامي اتباعاً لما ورد في الكتاب والسنة من توجيهات ودراسات وتعليمات ، وبذلك كسب محبة الجميع ، كما أنه أثر بدعوته وخلقته على جميع الناس ، ونال منهم التقدير والاعتراف . قضى بذلك حياة أصبحت مثلاً ونموذجاً لكل من يريد إصلاح نفسه ، وصياغة خلقه وفكره وعمله في المصاغ الإسلامي الجميل .

وقد قام بكل هذه النشاطات المفيدة برحلات كثيرة داخل الهند وخارجها ، ألقى فيها محاضرات وخطباً وكلمات كان أكثرها رائعاً وقيماً

ومفيداً ، وهي منتشرة في مختلف الجرائد والمجلات العربية ، وفي كتيباته في الرحلات وفي أجزاء كتابه في السيرة الذاتية «في مسيرة الحياة» ، ولقد أحسن العزيز السيد عبد الماجد الغوري أن اختار انطباعات زيارته للبلدان الأجنبية التي دونها هو نفسه ، ولقاءاته مع الشخصيات النابذة فيها ، وكلماته التي ألقاها في الحفلات التي حضرها ، وجمع الأخ العزيز كل ذلك في مجلد كبير ، وهو يقدمه إلى القراء ليجدوا فكر العلامة الشيخ الذي قدمه إلى الناس في كتاب واحد ، ولا يفتقرون من أجل معرفة هذا الفكر إلى كتبه العديدة .

أرجو أن يكون لعمله هذا نفع ظاهر ، وهو يستحق على ذلك شكر الجميع ، جزاه الله تعالى خير الجزاء .

كتبه الداعي

محمد الرابع الندوي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الكتاب

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد: فمما لاشكَّ فيه أن المكتبة العربية والإسلامية غنية بكتب الرحلات ، وقد امتاز العرب والمسلمون بالشغف بالأسفار النائية والمغامرات الخطيرة ، ونبغ فيهم من نبغ من الرحالين والمغامرين أمثال ابن جبير الأندلسي (المتوفى سنة ٦١٤ هـ) وابن بطوطة المغربي (المتوفى سنة ٧٧٧ هـ) ، وقد حفظ لنا هذان الرحالان الشيء الكثير من صور العالم الإسلامي الذي زاراه ، والمجتمع الإسلامي الذي عاصراه وشاهداه في كتابيهما المشهورين في الآفاق (رحلة ابن جبير ، ورحلة ابن بطوطة) ، ولكن ندرت الكتب في الرحلات التي سجّلت فيها الخواطر والآراء والانطباعات ، فقد مضى على تلك الرحلات والمشاهدات زمن طويل .

وكرثت كذلك كتب في الرحلات في عصرنا الحاضر ، ولكنها على ما تحتوي عليه من فوائد علمية وجغرافية ، ومادة للسمر وتزجية الوقت وترويح النفس ، وتعريفٍ يسيرٍ ببعض جوانب الحياة والمدنية والاجتماع ، فإنها تتجرد عن عاطفة وعقيدة مؤلفيها ، ومشاعرهم النفسية وأحاسيسهم ، فلا يسمع القارئ من خلال كتاباتهم - دقائق قلوبهم وهمسات ضمائرهم - ولا يرتبط هؤلاء المؤلفون فيها بعاطفة أو وجدان ، فإن الكتب مثل هذه

لا تدلُّ على عقيدتهم وفكرهم ، والقيم والمثل التي يحبونها ، وينتصرون لها ، فلا يشعر القارئ خلال قراءة كتبهم في هذا الموضوع بمرارة ألمهم وحزنهم ، وحلاوة إعجابهم ورضاهم ، إذ إنها كتب مصطنعة لا تؤثر في نفس القارئ ولا تصلح للبقاء .

لكن الكتاب الذي بين يديك أيها القارئ العزيز يختلف كل الاختلاف عن سائر تلك الكتب التي كُتبت وألِّفت في هذا الموضوع قديماً وحديثاً ، وقد التزم فيه - صاحب هذه الرحلات - العلامة السيد أبو الحسن علي الحسيني الندوي - رحمه الله - خلال رحلاته المختلفة في الخافقين أن يُسجِّل في يومه كلَّ أحداثه وانطباعاته ومشاهداته التي مرت به ، وأن يتحرى الدقة في النقل والصحة في الرواية ، وكذلك نرى فيه أنه التزم أن يُبدي آراءه وملاحظاته وانطباعاته للبلد الذي زاره أو الشخص الذي قابله ، وما أحدثه الحادث من ردِّ فعل ، أو أثر نفسي ، وذلك كله بأسلوب صريح مكشوف بعيد عن كل غموض وتحفظ وعن كل مجاملة وتكلف ، فهو وصف وتصوير من إنسان حي ، يحمل القلب والعاطفة والعقيدة ويؤمن بالمبادئ والقيم ، ونرى من ميزات هذه الرحلات أن صاحبها يلقي نظرةً عابرةً قبل أن يغادر بلداً من البلدان التي زارها على هذا البلد ، ويذكر محاسنه وجوانب الضعف فيه ، وما سره في زيارته وما أحزنه ، وما أثار فيه الاستكار والإشفاق ، وذلك كله مع غاية الدقة والاهتمام .

فإنَّ هذه الوقائع التي سجَّلها العلامة الندوي - رحمه الله - خلال رحلاته المختلفة كانت منتشرةً ومبعثرةً بين دفتي سيرته الذاتية «في مسيرة الحياة» وفي طيّات مختلف المجلات والجرائد - التي نشرت بين الحين والحين في أعدادها بالأقساط - والكتيبات المطبوعة - التي لم تستأنف طباعتها بعد الطبعة الأولى - والصحف المخطوطة ، معرضة للضياع ، فخيَّل إليَّ خلال عملي في التأليف عن حياة العلامة - رحمه الله - أن أفرد كتاباً خاصاً برحلاته نظراً إلى فوائدها القيمة لكل من يسلك في مجال الفكر والدعوة من العلماء والدعاة والطلاب .

فقدتُ بهذا العمل مُتفرِّغاً له مُستفيداً من مكتبة العلامة شبلي النُّعماني العامة - الواقعة في دار العلوم - ندوة العلماء ، لكهنؤ (الهند) - ومُستعيناً بما فيها من الكتب والمجلات والجرائد في جمع هذه الرحلات .

وهكذا سهل الآن على القارئ الاطلاعُ على هذه الرحلات - التي هي في الواقع وثيقة تاريخية قيمة - في كتاب واحد مستقل .

أسأل الله أن يتقبل ما بذلتُ من الجهد في تأليف هذا الكتاب خالصاً لوجهه ، إنه سميع مجيب وهو على كل شيء قدير .

دمشق ٢٧ / ٥ / ٢٠٠٠ م

كتبه

المعتزُ بالله تعالى

عبد الماجد الغوري

العلامة أبو الحسن الندوي وأدب الرحلة

إذا قلنا إن الرحلة في حياة الشيخ أبي الحسن الندوي هي الدافع لمعظم كتاباته فربما لا يجانبنا الصواب في هذا القول ، فالندوي عالم جليل ، عالم متبحر في التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية ، حرص على أن يضيء مشعل الحضارة الإسلامية في الهند بنور التعليمات الإسلامية الأصيلة والمضي على درب سنة الرسول ﷺ ولهذا اهتم كثيراً ببيان هذا الهدف في رحلاته خارج البلاد ، وكان دائماً يضع نتائج رحلاته في مقالاته (التي كان يكتبها أثر كل رحلة) والأمثلة على ذلك كثيرة سنجددها في هذا الكتاب .

ومن خلال قراءة ما كتب الشيخ الندوي يتضح : أنه عشق السفر ، لا للسياحة ، ذلك لأن الإسلام الدين الحنيف يدعو إلى السفر طلباً للمعرفة وطلباً للعلم ، ونشراً لدين الله الحنيف بين الناس ، وهكذا جعل الإسلام السفر تراثاً يتصل بالتاريخ الإسلامي لدى جميع الشعوب الإسلامية ، والتاريخ الإسلامي له مكانة خاصة لدى شيخنا الندوي ، ومن هنا كان السفر والارتحال جزءاً أصيلاً من فكره ، وكان السفر والارتحال هو الدافع لمعظم كتاباته بلا مبالغة .

وإذا كانت كتب الرحلات تقدم قصصاً وحكايات قد يكون بعضها حقيقياً وبعضها من نسج الخيال ، إلا أن الأمر يختلف عند شيخنا فهو لا يقدم حكاية ولا قصة ، بل يقدم رسالة سامية تحمل هدفاً سامياً هو الدعوة إلى الله ، ورفع شأن المسلمين .

لقد تعددت أسباب الرحلة وتنوعت ، وقسم البعض الرحلات إلى أقسام

عديدة وصلت أحياناً إلى خمسة عشر قسماً إلا أن أهم الرحلات كانت رحلات الحج ، ورحلات الدعوة والتبليغ ، ورحلات العمل خارج الوطن أو جمع تبرعات لأهداف دينية ، ورحلات علمية الهدف منها طلب العلم ، وهو سبب من أقدم الأسباب التي دفعت الناس للرحلة^(١).

وإذا كنا نبحث عن أسباب الرحلة لدى شيخنا الندوي فإن طلب العلم كان من الأسباب الرئيسة التي دفعته للرحلة خارج وداخل شبه القارة ، كما كانت رحلة الحج رحلة تاق إليها قلبه منذ صغره كما سيتضح لنا بعد ذلك ، وإذا كان قد ارتحل لأداء مهمة عمل بجامعة أو مؤسسة فإنه حول هذه المهمة إلى هدفه الأساسي وهو الدعوة إلى دين الله ، وهذا واضح من خلال الكتب التي صدرت بعد فترة الرحلة التي كان هدفها الظاهري عمل ما أو القيام بمهام علمية هنا أو هناك ، فلم تكن للرحلة الشخصية التي يقوم بها الشخص حياً منه في السفر والارتحال ، ورغبة منه في التمتع بالحياة؛ مجال في حياة شيخنا. فهو يسافر لهدف ويسافر لغاية وإلا فالأعمال في موطنه تحتاج إليه دائماً.

وكان الشيخ يتجول أحياناً عبر التاريخ ، يغمض عينيه وتترأى أمامه صور الماضي ، وعظمة الإسلام ، ويظل يطالع هذا التاريخ حتى ينتبه إلى الواقع ، وكان الشعور التاريخي لا يفارق شيخنا أبداً وقد اعترف بهذا حين قال:

«عفا الله عن المؤرخين والمشتغلين بالتاريخ إنهم لا يفارقهم الشعور التاريخي والتفكير التاريخي في أقدس مكان ، وأفضل زمان ، إنهم أينما كانوا يعيشون فيما درسوه ويصلون الحاضر بالماضي»^(٢).

ويتجول الشيخ في أعمال التاريخ ، رحلة في الخيال:

«حانت مني التفاتة فرأيت فريقاً يدخل من باب جبريل - وهو أقرب

(١) في مسيرة الحياة أدب الرحلة ص ١٩ - ٢٠ ، طبع مكتبة لبنان - بيروت .

(٢) الطريق إلى المدينة ، للعلامة الندوي ، ص ٣٨ ، طبع دار ابن كثير دمشق .

الأبواب إليّ - عليهم السكينة والوقار يعلوهم نور العلم وسيما التفكير ، وقد ملؤوا الرحاب بين باب جبريل باليسار إلى باب الرحلة باليمين ، منعت كثرتهم عن العد والتشخيص ، سألت البواب عنهم ، فقال : هؤلاء أعلام الأمة وأئمة العلم وعباقرة الإنسانية ونوابغ الوجود كل واحد منهم إمام أمة ومؤسس مكتبة . . . وقد سمى منهم على عجل واحتشام ، مالك بن أنس ، وأبا حنيفة النعمان ، ومحمد بن إدريس الشافعي ، وأبا عبد الله أحمد بن حنبل . . . وتقي الدين بن تيمية . . . وأحمد بن عبد الرحيم الدهلوي على تفاوتهم في الزمان والمكان وأصالة العلم وعلو الشأن .

رأيتهم بدؤوا بتحية المسجد وصلوا ركعتين في خشوع وقنوت . . . ولم أكن قد قضيت لبانتي من هذه الجماعة حتى لفت نظري فريق آخر يدخل من باب الرحمن عليهم سيما الصلاح والعبادة وفي وجوههم أثر التقشف والزهادة

ولم أستوف كلماتهم الحكيمة حتى لفت نظري فريق يدخل من باب النساء في حشمة وتستر» .

ويظل المؤلف ينظر ويشاهد جماعات وجماعات ، ويستمع إلى دعائهم ومناجاتهم حتى انتبه على صوت المؤذن يرتفع عالياً على منائر مسجد الرسول ﷺ أكبر الله أكبر الله أكبر الله أكبر .

وأفقت من غفوتي وما كنت أسبح فيه من عالم الخيال والتاريخ وإذا بي أمام الواقع رجال في الصلاة ورجال في تلاوة القرآن وجموع من المسلمين ووفود من العالم الإسلامي وخليط من الأصوات والانطباعات والعواطف^(١) .

وهكذا يرتحل الشيخ الندوي في التاريخ ويدون مشاهداته لنا ، وقد دون أيضاً مشاهدات إقبال في رحلته إلى جزيرة العرب ، وكان شيخنا حريصاً على ذلك أشد الحرص لأنه كان يشعر بنفسه مكان إقبال ، واتحدت مشاعر

(١) الطريق إلى المدينة ص ٤٩ .

الأديبين معاً؛ ولهذا حرص الندوي على أن يحكي رحلة إقبال وهو قادم إلى مدينة رسول الله ﷺ وخاصة أن إقبالاً كان كلما ذكرت المدينة فاضت عينه وانهمرت الدموع منها ، فلم يقدر له الحج وزيارة مسجد الرسول لمرض ألم به ولكنه رحل إلى الحجاز بخياله القوي .

وهكذا دخل الشيخ الندوي مجال تدوين الرحلة الخيالية سواء رحلة قام بها هو أو قام بها غيره ، كما أن رحلاته إذا ما تعددت أهدافها إلا أنها اتحدت كلها في هدف واحد هو الدعوة الإسلامية ، وهذا يتضح من بيانه للأمور التي اعتنى بها والمنهج الذي سلكه في تدوين الرحلة ، فهو لم يهتم بالأمور الجغرافية أو الاقتصادية إلا قليلاً وركز على الأمور الثقافية والاجتماعية والحضارية ، فتراه يذكر الأحوال العلمية في البلاد التي زارها ويذكر العلماء والأدباء والمدارس وحلقات الدرس والأدب والجامعات والمؤسسات التعليمية والثقافية وما إلى ذلك .

أما عن لغة الرحلة فماذا نقول ؟ إن شيخنا لأديب يشهد له الجميع إذا ما كتب بالأردية أو بالعربية ولهذا ساد الطابع الأدبي كتاباته وزخرت مادة رحلاته بالعناصر الأدبية ، مما يجعلنا نطلق هنا على كتاباته : أدب الرحلة ، فرحلاته صدرت عن مستوى أدبي رفيع ضمنها الأشعار والأمثال والحكم وأدمج في سطورها آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية التي ربما احتاج إليها للتعليق على موقف أو الفصل في قضية ما .

وعادة ما كانت المشاعر الفياضة تغلب على شيخنا فتفيض على أسلوبه فتأتي لغته العربية أو الأردية رفيعة المستوى عظيمة التأثير والإمتاع ، مما يجعل لرحلاته قيمة أدبية ، نظراً إلى روعة الأسلوب الذي يصل بها إلى مستوى الخيال الفني في معظم الأحيان^(١) .

* * *

(١) من مقدمة كتاب «الجزيرة العربية في أدب الرحلات الأردنية» للدكتور سمير عبد الحميد بتصرف .

ملامح من حياة العلامة

أبي الحسن علي الحسيني الندوي وشخصيته

اسمه ونسبه وأسرته:

* علي أبو الحسن بن عبد الحي بن فخر الدين الحسيني ، ينتهي نسبه إلى عبد الله الأشر بن محمّد ذي النفس الزكية بن عبد الله المحض ، بن الحسن (المنثى) بن الإمام الحسن السبط الأكبر بن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنهم ، أول من استوطنَ الهند من هذه الأسرة في أوائل القرن السابع الهجري هو الأمير السيّد قطب الدين المدني (٦٧٧ هـ) وقد بارك الله في ذرية الأمير السيد قطب ، وتقبلها بقبول حسن ونفع بها المسلمين ، إذ كثر فيها العلماء والمرّبون والمجاهدون في سبيل الله والدعاة إليه ، كان من أشهرهم وأبرزهم العارف الكبير والمربي العظيم السيد علم الله بن السيد فضيل الحسيني النقشبندي (١٠٩٦ هـ) خليفة الشيخ الجليل السيد آدم البنوري ، والسيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد ، قائد حركة الدعوة إلى الله ، والجهاد في سبيله في تاريخ الهند الإسلامي المجيد ، وأوّل من أقام دولةً إسلاميةً في الهند على منهج الخلافة الراشدة في الحدود الشمالية الغربية للهند في العصر الحديث لمواجهة الاستعمار البريطاني ، استشهد الإمام في معركة «بالاكوت»^(١) في ٢٤/ من ذي القعدة سنة ١٢٤٦ هـ^(٢).

(١) قرية في مديرية «هزارا» تقع في غربي باكستان.

(٢) اقرأ للاطلاع على حياة الإمام أحمد بن عرفان الشهيد وجهاده في سبيل الله كتاب «إذا =

* أبوه العلامة الطبيب السيّد عبد الحيّ بن السيد فخر الدين الحسني^(١) الذي استحق بجدارة لقب «ابن خلكان الهند» لمؤلفه القيم «نزهة الخواطر» في ثمانى مجلدات عن أعلام المسلمين في الهند وعمالقتهم ، طُبِعَ أخيراً باسم «الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام» في ثلاث مجلدات في دار ابن حزم ببيروت .

* أمّه - رحمها الله - كانت من السيّدات الفاضلات ، المربيّات النادرات ، المؤلّفات المعدودات ، والحافظات للقرآن الكريم ، تقرض الشعر ، وقد نظمت مجموعة من الأبيات في مدح رسول الله ﷺ .

ميلاده ونشأته :

* أبصرَ النورَ في ٦ محرم ١٣٣٣ هـ الموافق عام ١٩١٤ م بقريّة «تكية كلان» الواقعة قرب مديرية رائى بريلي في الولاية الشمالية (أترابرديش) .

* بدأَ دراسته الابتدائية من القرآن الكريم في البيت ، ثم دَخَلَ في الكُتّاب حيث تعلّم مبادئ اللغتين (الأردوية والفارسية) .

* توفي أبوه عام ١٣٤١ هـ (١٩٢٣ م) وكان عمره يتراوح آنذاك بين التاسعة والعاشرّة ، فتولّى تربيته أمّه الفاضلة ، وأخوه الأكبر الدكتور عبد العلي الحسني الذي كان يدرس آنذاك في كلية الطب بعد تخرّجه من دار العلوم ديوبند الإسلامية ودار العلوم ندوة العلماء ، وإليه يرجع الفضل في توجيه وتربية العلامة الشيخ الندوي .

* بدأَ دراسة العربية على الشيخ خليل بن محمّد الأنصاري اليماني في أواخر عام ١٩٢٤ م ، وتخرّج عليه مستفيداً في الأدب العربي ، ثمّ توسّع فيه

= هبت ربح الإيمان» لسماحة الشيخ الندوي صدر عن دار ابن كثير بدمشق عام ١٩٩٩ م .

(١) انظر للاطلاع على ترجمته بكاملها كتاب المحقق «الإعلام بمن في الهند من الأعلام في القرن العشرين» .

وتخصّصَ على الأستاذ الدكتور تقي الدين الهلالي المراكشي عند مقدمه إلى ندوة العلماء عام ١٩٣٠ م.

* التحق بجامعة لكهنؤو فرع الأدب العربي عام ١٩٢٧ م ، ولم يتجاوز عمره آنذاك الأربعة عشر عاماً ، وكان أصغر طلبة الجامعة سنّاً ، ونالَ منها شهادة فاضل أدب في اللغة العربية وآدابها ، قرأ خلال أيام دراسته في الجامعة كتباً تعتبر في القمة في اللغة العربية والأردوية ، ممّا أعانه على القيام بواجب الدعوة وشرح الفكرة الإسلامية الصحيحة ، وإقناع الطبقة المثقفة بالثقافة العصرية ، وتعلّم الإنجليزية مما مكّنته من قراءة الكتب المؤلفة بها في التاريخ والأدب والفكر.

* التحق بدار العلوم - ندوة العلماء عام ١٩٢٩ م وقرأ الحديث الشريف (صحيح البخاري ومسلم وسنن أبي داود وسنن الترمذي) حرفاً حرفاً مع شيء من تفسير البيضاوي على العلامة المحدّث الشيخ حيدر حسن خان الطونكي ، ودرس التفسير لكامل القرآن الكريم على العلامة المفسر المشهور أحمد علي اللاهوري في لاهور عام ١٣٥١ هـ / ١٩٣٢ م ، وحضّر دروس العلامة المجاهد حسين أحمد المدني في صحيح البخاري وسنن الترمذي خلال إقامته في دار العلوم ديوبند ، واستفاد منه في التفسير وعلوم القرآن أيضاً.

جهوده العلمية ونشاطاته الدعويّة:

* انخرطَ في سلك التدريس من عام ١٩٣٤ م ، وعيّنَ أستاذاً في دار العلوم ندوة العلماء لمادتي التفسير والأدب ، خلال تدريسه في دار العلوم ندوة العلماء ، استفاد من الصحف والمجالات العربية الصادرة في البلاد العربية ، ممّا عرّفه على البلاد العربية وأحوالها ، وعلمائها وأدبائها ومفكرها عن كثب ، واستفاد أيضاً من كتب المعاصرين من الدعاة والمفكرين العرب وفضلاء الغرب والزعماء السياسيين .

* قام برحلة استطلاعية للمراكز الدينية في الهند عام ١٩٣٩ م ، تعرّف فيها على الشيخ المرَبّي العارف بالله عبد القادر الرأْي في والداعية

المصلح الكبير الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي^(١) ، وكان هذا التعرّف نقطة تحوّل في حياته ، وبقي على الصلة حتى وافاهما الأجل المحتوم ، وتلقّى التربية الروحية من الشيخ عبد القادر الرأى فوري واستفاد من صحبته ومجالسته ، وتأسى بالشيخ محمّد إلياس الكاندهلوي في القيام بواجب الدّعوة وإصلاح المجتمع ، وقضى زمناً طويلاً في رحلات وجولات دعوية متتابعة للتربية والإصلاح والتوجيه الديني في الهند وخارجها .

* أسّس مركزاً للتعليمات الإسلامية لتنظيم حلقات درس القرآن الكريم والسنة النبوية عام ١٩٤٣ ، وأسّس حركة رسالة الإنسانية بين المسلمين والهندوس عام ١٩٥١ م ، والمجمع الإسلامي العلمي بدار العلوم - ندوة العلماء في لكهنؤ عام ١٩٥٩ م .

* عيّن أميناً عاماً لدار العلوم ندوة العلماء عام ١٩٦١ .

* شارك في تأسيس هيئة التعليم الديني للولاية الشمالية (أترابرديش) عام ١٩٦٠ م ، وفي تأسيس المجلس الاستشاري الإسلامي لعموم الهند عام ١٩٦٤ م ، وفي تأسيس هيئة الأحوال الشخصية الإسلامية لعموم الهند عام ١٩٧٢ .

أهمّ مؤلفاته :

* نشر له أول مقال بالعربية في مجلة «المنار» للعلامة السيّد رشيد رضا المصري عام ١٩٣١ م حول شخصية الإمام السيّد أحمد بن عرفان الشهيد ، وكان عمره - آنذاك - أربعة عشر عاماً .

* ظهر له أول كتاب بالأردوية عام ١٩٣٧ م يحمل اسمه «سيرت أحمد شهيد» ونال قبولاً عاماً في الأوساط الدينية والعلمية في الهند وباكستان .

* بدأ سلسلة تأليف الكتب المدرسية بالعربية ، وظهر أول كتاب فيها

(١) اقرأ للاطلاع على حياته وجهوده في مجال الدعوة إلى الله كتاب سماحة الشيخ الندوي «الداعية الكبير الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي ودعوته» صدر عن دار ابن كثير دمشق عام ١٩٩٩ م .

بعنوان «مختارات من أدب العرب» عام ١٩٤٠ ، و«قصص النبيين» للأطفال و«القراءة الراشدة» عام ١٩٤٤ م. وقررت جميع هذه الكتب في مقرّرات جامعات البلدان العربية والهندية .

* أَلَّفَ كتابه المشهور «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» عام ١٩٤٤ م ؛ الذي نال قبولاً بالغاً منذ صدوره في جميع العالم الإسلامي والعربي ، ونقل إلى سائر اللغات العالمية ، وقد صدر له حتى الآن ست وستون طبعة شرعية بالعربية^(١) .

* دَعِيَ أستاذاً زائراً في كلية الشريعة جامعة دمشق عام ١٩٥٦ م ، وألقى محاضرات بعنوان «التجديد والمجددون في تاريخ الفكر الإسلامي» نُشِرَتْ بعد ذلك في شكل كتاب مستقلّ ينضوي تحت أربع مجلدات باسم «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» .

* أَلَّفَ كتابه حول القاديانية بعنوان «القادياني والقاديانية» عام ١٩٥٨ م ، وكتابه «الصراع بين الفكرة الإسلامية والغربية في الأقطار الإسلامية» عام ١٩٦٥ م وكتابه «الأركان الأربعة» عام ١٩٦٧ ، و«السيرة النبوية» عام ١٩٧٦ م ، و«العقيدة والعبادة والسلوك» عام ١٩٨٠ م و«المرتضى» في سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عام ١٩٨٨ م .

* شارك في تحرير مجلة «الضياء» العربية الصادرة من دارالعلوم - ندوة العلماء عام ١٩٣٢ ومجلة «الندوة» الأردنية الصادرة منها أيضاً عام ١٩٤٠ ، وأصدرَ مجلّة باسم «تعميرحيات» في الأردنية عام ١٩٤٨ م ، وكتبَ مقالات في الأدب والدعوة والفكر في أمهات المجلّات العربية الصادرة من مصر ودمشق ك : «الرّسالة» للأستاذ أحمد حسن الزيات و«الفتح» للأستاذ محب الدين الخطيب و«حضارة الإسلام» للدكتور مصطفى السباعي .

* أشرفَ على إصدار جريدة «نداي ملّت» الأردنية عام ١٩٦٢ م ،

(١) صدرت طبعته الأخيرة من «دار ابن كثير» بدمشق عام ١٩٩٩ م محققاً ومنقحاً ومراجعاً .

وكذلك أشرف على مجلة «البعث الإسلامي» العربية الصادرة عام ١٩٥٥ م وجريدة «الرائد» العربية الصادرة منذ عام ١٩٥٩ م ومجلة «تعمير حيات» الأردنية الصادرة منذ عام ١٩٦٣ م ، وكلها تصدر من دار العلوم - ندوة العلماء في لكهنؤ ، (الهند).

تقدير وتكريم:

* انتخبه مجمع اللغة العربية بدمشق والقاهرة والأردن عضواً مراسلاً لما اتصف به من العلم الجَمِّ ، والبحث الدقيق في ميادين الثقافة العربية والإسلامية ، ولمساعيه المكثفة المشكورة في سبيلها.

* اختير عضواً في المجلس الاستشاري الأعلى للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة منذ تأسيسها عام ١٩٦٢ م.

* اختير عضواً في رابطة الجامعات الإسلامية منذ تأسيسها عام ١٩٧١ م.

* اختير لاستلام جائزة الملك فيصل العالمية عام ١٩٨٠ م ، لتأليفه القيم «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين».

* منح شهادة الدكتوراه الفخرية في الآداب من جامعة كشمير عام ١٩٨١ م.

* اختير رئيساً لمركز أكسفورد للدراسات الإسلامية بلندن عام ١٩٨٣ م.

* اختير عضواً في المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية وللبحث والتأليف والتحقيق في عمّان (الأردن).

* اختير رئيساً عاماً لرابطة الأدب الإسلامي العالمية (الرياض) عام ١٩٨٤ م.

* أقيمت ندوة أدبية كبيرة حول حياته وجهوده الحثيثة ومساعيه

المشكورة ، ومفاخره العظيمة في مجال الدعوة والأدب عام ١٩٩٩ م في إستانبول «تركية» .

* اختير لاستلام جائزة الشخصية الإسلامية لعام ١٤١٩ هـ لخدماته الجليلة ومآثره العظيمة في مجال الدعوة الإسلامية ، وقُدِّمَ إليه الجائزة سمو الشيخ محمد بن راشد المكتوم ولي العهد لحكومة الإمارات العربية المتحدة .

رئاسته وعضويته للجامعات والمجامع :

* تولَّى العلامةُ الرئاسة والعضوية لعدة جامعات إسلامية ومجامع عربية ومنظمات دعوية ومراكز دينية في العالم الإسلامي وخارجه ، ومنها على سبيل المثال :

الأمين العام لدار العلوم - ندوة العلماء (التي أخذت صفة العالمية منذ ترأس أمانتها ، وتَفَوَّقَتْ على معظم جامعات العالم التي تَهْتَمُّ بشؤون الدراسات الإسلامية والعربية لأنها تجمع بين القديم الصالح والجديد النافع) .

رئيس رابطة الأدب الإسلامي العالمية (الرياض) .

رئيس المجمع الإسلامي العلمي في لكهنؤ (الهند) .

رئيس مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية (إنجلترا) .

رئيس هيئة الأحوال الشخصية الإسلامية لعموم الهند .

رئيس هيئة التعليم الديني للولاية الشمالية (أترابرديش) .

عضو المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلام بمكة المكرمة .

عضو المجلس التأسيسي الأعلى العالمي للدعوة الإسلامية بالقاهرة .

عضو مجمع اللغة العربية بدمشق .

عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة .

عضو مجمع اللغة العربية الأردني .

عضو المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية (مؤسسة آل البيت)
بالأردن.

عضو رابطة الجامعات الإسلامية بالرباط.

عضو المجلس الاستشاري الأعلى للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

عضو المجلس الاستشاري الأعلى للجامعة الإسلامية العالمية
بإسلام آباد (باكستان).

عضو المجلس الاستشاري بدار العلوم ديوبند الإسلامية (الهند).

* وعدا ذلك تولّى العلامةُ الرئاسة والعضوية لكثير من الجامعات
الإسلامية ، والمراكز الدينية والمنظمات الدعوية ولجان التعليم والتربية في
العالم الإسلامي وخارجه .
وفاته :

توفي - رحمه الله - عن ستة وثمانين سنة من عمره بمقره ومسقط رأسه
«تكية كلان» (الهند ، في يوم الجمعة ٢٢/ من شهر رمضان المبارك ١٤٢٠هـ
(الموافق) ٣١ من شهر ديسمبر ١٩٩٩م وذلك عقب نوبة قلبية مفاجئة ،
تغمده الله تعالى بوسع رحمته ، وغفر له مغفرة شاملة ، وأكرم نزله في
فسيح جناته ، وجعله ممن أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء
والصالحين ، وحسن أولئك رفيقا^(١)

* * *

(١) انظر كتاب «أبو الحسن علي الحسيني الندوي الإمام المفكر الداعية الأديب» للمحقق ،
للاطلاع على حياة سماحة الشيخ السيد أبي الحسن علي الحسيني الندوي ، وجهوده
الحثيثة في خدمة الدعوة الإسلامية ، ومآثره القيمة في مجال الأدب ، وموقفه من
القضايا الإسلامية والعربية ، وتعريف بأهم مؤلفاته ، صدرَ عن «دار ابن كثير دمشق -
بيروت ١٩٩٩ م» .

الرحلة الأولى للحج

عام ١٩٤٧ م

الرحلة إلى الحجاز والإقامة بالحرمين الشريفين :

سافرنا في ١٩/ من شعبان عام ١٣٦٦ هـ الموافق ٩/ يوليو عام ١٩٤٧ م ، بالباخرة الإسلامية من كراتشي إلى جدة .

وصلنا جدة في ٢٩/ من شعبان الموافق ١٩/ يوليو ، وقد شعرنا لدى نزولنا على ميناء جدة بسرور ولذة غامرة ، وكيفية عجيبة ، قد يشعر بها السعداء والمحظوظون في الحرمين الشريفين ، وقد كانت السيدة الوالدة في حالة عجيبة من السرور والاستبشار ، ولما أن أيام الحج كانت بعيدة ، فبيننا وبين الحج ثلاثة أشهر ، لذلك قرّرنا أن نقضي هذه المدة في المدينة المنورة - على صاحبها الصلاة والسلام - وكان لميل شيخ الحديث الشيخ محمد زكريا^(١) وذوقه وإشارته أيضاً دخل في ذلك .

(١) هو الإمام العلامة المحدث الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي ، أحد كبار المحدثين البارعين والعلماء الراسخين في عصرنا الحاضر ، وُلِدَ بكاندهله سنة ١٣١٥ هـ ، وحفظ القرآن الكريم ، وتلقى مبادئ اللغة الأردوية والفارسية على عمّه الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي صاحب جماعة الدعوة والتبليغ المشهورة ثم انتقل مع والده إلى سهارنفور (المركز العلمي الكبير في الهند) وأقبل على العلم ، وبدأ درس الحديث على والده ، فقرأ عليه الصحاح - غير سنن ابن ماجه - ثم قرأ صحيح البخاري وسنن الترمذي على المحدث الكبير الشيخ خليل أحمد السهارنفوري ، وأبدى شيخه رغبته على وضع شرح لسنن أبي داود ، وطلب منه أن يساعده في ذلك وأن يكون له فيه عضده الأيمن وقلمه الكاتب ، وكان ذلك مبدأ سعادته وإقباله .
عين مدرساً في «جامعة مظاهر العلوم» التي كان يدرس فيها شيخه ووالده من قبل سنة =

وكنا رأينا هلال رمضان في جدة ، وصمنا بها يومين ، وأذكر أنني والعزيز محمد الثاني^(١) خرجنا ليلة الهلال نشترى بعض الحوائج للسحور ، فكان بيّاع من باعة الطريق ينادي : «تمر تمر يا صائم» في نغم خاص ، وطربنا لهذا النداء ، وشعرنا عند ذلك كيف يتأثر أهل القلوب بالحنين بسماع الأبيات الرقيقة المرققة .

وكان اليوم الأول من رمضان ، وكنت أصلي التراويح بالناس في ساحة ، إذا بالحافلة للمدينة قد وصلت ، فركبنا مع رفقتنا الحجاج الذين جاؤوا مع جماعة التبليغ من ميوات^(٢) ومراد آباد^(٣) ، وسرنا على بركة الله ،

= ١٣٣٥ هـ . وهو أصغر الأساتذة سناً ، وأسند إليه تدريس أمهات كتب الحديث ، لا تسند عادة إلى أمثاله في العمر ، تشرف بزيارة الحج والعمرة أربع مرات ، ولدى رحلته الخامسة إلى الحجاز صحبه سماحة الشيخ الندوي ، توفي - رحمه الله - سنة ١٤٠٣ هـ بالمدينة المنورة ودفن بجوار شيخه المحدث الكبير خليل أحمد السهارنفوري في حظيرة أهل البيت الكرام .

له من المؤلفات ما يزيد على (١٤٠) مؤلفاً منها المطبوع والمخطوط ، فمن مؤلفاته المطبوعة المشهورة : «أوجز المسالك إلى موطأ مالك» و«لامع الداري على جامع البخاري» و«الكواكب الدري على جامع الترمذي» و«الأبواب والتراجم» و«حجة الوداع و عمرات النبي ﷺ» و«فضائل الأعمال» . انظر ترجمته بكاملها في كتاب المحقق «أعلام المحدثين بالهند في القرن الرابع عشر الهجري» .

(١) هو الشيخ السيد محمد الثاني ابن أخت سماحة الشيخ الندوي ، كان عالماً صالحاً مؤلفاً أديباً ، شاعراً مفلحاً ، مؤرخاً بصيراً ، وبارعاً في الفرائض ، مشغلاً بخاصة نفسه ، وداعية اجتماعياً ، وكان تلميذ العلامة المحدث الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي ، وخليفته في التسليك ، وكان الشيخ عطوفاً عليه ، معنياً به ، وقد رافق الداعية الشيخ محمد يوسف الكاندهلوي (أمير جماعة الدعوة والتبليغ وصاحب حياة الصحابة) طويلاً في أسفاره وجولاته ، وطمعنه وإقامته ، ورافق في أسفار وإقامة سماحة الشيخ الندوي أكثر من غيره من أفراد الأسرة ، وله مؤلفات بالأردوية ، منها «حياة الداعية الشيخ محمد يوسف الكاندهلوي» و«حياة المحدث العلامة خليل أحمد السهارنفوري» انتقل إلى جوار ربه سنة ١٩٨٣ م .

(٢) منطقة تقع قرب مدينة «دهلي» .

(٣) مدينة صناعية معروفة في الهند تقع في ولاية «أترابرديش» .

واستغرق هذا السفر يوماً وليلتين ، ولا نستطيع أن نعبر بالألفاظ والكلمات عن الأشواق والسرور واللذة التي عشناها ، ويمكن أن يُقدَّر ذلك من مقالي بعنوان : (في مدينة الرسول ﷺ)^(١) ، أو من تلك الرسائل التي بعثت بها إلى الشيخ محمد زكريا في أثناء تلك الأيام ، لقد كانت الأيام أيام الصيف الشديد ، تلفحنا السموم ونحن صائمون ، وفي القلوب أشواق ولوعات ، وفي العيون دموع غزار ، وعلى اللسان أبيات من الشوق والحب ، وقصائد في مديح النبي الكريم عليه أفضل الصلوات والتسليم .

رسالة «إلى ممثلي البلاد الإسلامية» :

إن أي عامل في مجال الدعوة والإصلاح في بلاد جديدة ، وبيئة جديدة ، يحتاج إلى أمرين مهمين حاجة شديدة :

١- معرفة الناس به شخصاً ، ومعرفة أسرته وماضيه وتاريخ سلفه ، واحترامهم وإكبارهم له ، ولذلك يرى بعض المطلعين على تاريخ النبوات والدعوات والمنصفين من علماء النفس ، أن ذلك سرّ اختيار الأنبياء من أكرم أسر قومهم وبلادهم ، وأجلها مكاناً .

٢- الواجهة الظاهرة ، والتأثير الشخصي حتى تكون كلمة الداعي مسموعة تتأثر بها القلوب والعقول ، ومن أسبابهما العامة البسطة في العلم والجسم ، والخطابة القوية المؤثرة ، واللّسن وفصاحة البيان وقوة الحجّة .

فأما الأمر الأول فكان - والحمد لله - متحققاً في الهند ، ولكنني في الحجاز كنت غريباً ، لا يعرفني أحد ولا يعرف أسرتي ، ولم تكن قد طبعت إلى ذلك الحين كتبُ الوالد^(٢) - لا سيما «نزهة الخواطر» - ، وكنت قليل

(١) انظر هذا المقال في «الطريق إلى المدينة المنورة» لسماحة الشيخ الندوي . صدر عن دار ابن كثير بدمشق .

(٢) هو العلامة الطيب مؤرخ الهند الكبير الشيخ عبد الحي الحسني الذي استحق بجدارته لقب «ابن خلكان الهند» لمؤلفه القيم والمنقطع النظير «نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر» عن أعلام المسلمين وعمالقتهم ومشاهيرهم في الهند ، والذي أضحي بمجلداته الثمانية منهالاً ثراً لكل باحث ، و«الثقافة الإسلامية بالهند» و«تهذيب =

البضاعة في الأمر الثاني أيضاً ، فكنت نحيف العود ، ناحل الجسم ، في سن مبكرة لم يكن لي مظهر يسترعي الانتباه ، فرأيت من الحاجة الشديدة أن أصطحب معي رسالة أو كتاباً من مؤلفاتي في هذه الرحلة تكون وسيطاً بيني وبين الناس ، وتُهدّ الطريق لسماعهم لي ، فيكون لكلامي عندهم شيء من الاعتبار والوجاهة ، فحاولتُ جهدي أن يطبع مقالتي «إلى مُمثلي البلاد الإسلامية»^(١) الذي كنت أعددتُه للمندوبين العرب للمؤتمر الآسيوي المنعقد بدلهي ، وجاء الخطاب فيه في أسلوب أدبي قوي ، ومن مستوى الداعية الرفيع ، وكنت أعتقد أنه لا بدّ أن يؤثر ، فقدمته إلى مطبعة لطيفي بدلهي ، ليطلع قبل مغادرتي وأخذه معي ، ولكن رغم كل الجهود والمسعى لم أستطع أن أحصل عليه مطبوعاً ، وأحمد الله - تعالى - على أنه وصلني عدد منه مطبوعاً قبل مغادرتي ميناء كراتشي ، فكان زادي في السفر وكبطاقة زيارة محترمة للتقديم والتعريف .

وبدأت الرسالة تشق طريقها ، وتؤدي رسالتها في الطريق ، فقد وقفت الباخرة - خلاف العادة - بكامران ، ودخل البوليس المحلي والموظفون المحليون الباخرة ، وبعثت بواسطة هذه الرسالة إلى قاضي البلد وكبار العلماء فيه ، وجاءتني منهم رسالة شكر وتقدير .

وكانت الحجاز - حينئذ - لم تدخل أسواقها الكتب الدعوية الإسلامية إلا القليل ، الذي يستطيع أن يحرك ساكنهم ويجمع بين الحديث إلى القلب ، والحديث إلى العقل ، فيضرب على أوتار القلب ، ويؤثر في العقل ، في وقت واحد ، إنما كانت هناك إما رسائل وكتب كلامية تتعلق بمسائل الصفات وغيرها ، أو كتب علمية قديمة تتناول المباحث الفقهية وهي كتب

= الأخلاق» و«الغناء في الإسلام» و«القانون في انتفاع المرتبهن بالمرهون» كلها بالعربية ، كان أميناً عاماً لدار العلوم - ندوة العلماء بلكهنؤ ، توفي رحمه الله سنة ١٣٤١ هـ - انظر ترجمته بكاملها في كتاب المحقق «الإعلام بمن في الهند من الأعلام في القرن العشرين» .
(١) انظر هذا المقال بكامله في كتاب «مقالات إسلامية في الفكر والدعوة للعلامة أبي الحسن علي الحسيني الندوي» طبع دار ابن كثير بدمشق .

يزهد فيها الشباب المثقفون وأصحاب الذوق الأدبي ، ويضيقون بها صدراً ، أو مقالات وكتب ومجلات وجرائد أدبية أو نقدية بأقلام أدباء مصر تدعو إلى التجدد والتغريب ، أو قصص وروايات ترفيحية ممتعة ومسلية .

فكانت رسالة «إلى مُمثلي البلاد الإسلامية» نموذجاً جديداً للأدب الإسلامي الدّعوي ، خوطب فيه من مقام الداعي المعتمّر برسالته ، الواصل بسموها والحاجة إليها ، فكانت فيها حرارة واندفاع ، ولوعة قلب ، وحرقة نفس ، ودعوة إلى ثورة ، وبشارة بمستقبل زاهر ، يعلو على كل شائبة من شوائب التبعية والتقليد والدهشة بسلطة الغرب واستيلائه ، وحضارته السائدة ، ومركب النقص ، ولأجل ذلك تلقفها شباب الحجاز الذين بدأ فيهم الوعي ، وكانوا قد ملّوا كلا المنهجين الرتيبين للتفكير والكتابة ، وكانوا قلقين لأوضاع العالم العربي بصفة خاصة والعالم الإسلامي - بصفة عامة - فقرؤوها في شوق وإكبار ، وقرؤوها في نواديهم ومجالسهم وأشاروا بقراءتها على أصدقائهم ومعارفهم .

وأذكر أن أحد كبار علماء الحجاز ونجد ومدرسي الحديث الشريف في المسجد النبوي - على صاحبه الصلاة والسلام - الشيخ محمد علي الحرکان^(١) الذي كان يدرّس سنن أبي داود أو صحيح مسلم ، أوقف درسه يوماً وقرأ هذه الرسالة بنفسه على طلابه ، وكان هو - فيما بعد - قاضي

(١) وُلِدَ في المدينة المنورة ، حفظ القرآن الكريم وعمره سبع سنوات ، درس العلوم الدينية واللغوية ، وعلوم التفسير والحديث بالمسجد النبوي الشريف على طائفة من جلة العلماء ، عمل مدرساً بالمسجد النبوي منذ عام ١٣٥٢ هـ . عمل قاضياً لبلدة «العلاء» الواقعة في شمال المدينة المنورة عام ١٣٥٦ هـ ثم في جدة ، فريئساً للمحكمة بها من عام ١٣٧٨ هـ إلى ١٣٩٠ هـ ، ثم عيّن وزيراً للعدل عام ١٣٩٠ هـ حتى عام ١٣٩٦ هـ ، كان أول وزير في هذا المنصب في المملكة ، عمل رئيساً لمؤتمر المنظمات الإسلامية الذي عقدته رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة عام ١٣٩٤ هـ ، انتخب أميناً عاماً لرابطة العالم الإسلامي عام ١٣٩٦ هـ . وظل على هذا المنصب حتى وافاه أجله المحتوم عام ١٤٠٣ هـ كان أكبر همّه نشر الدعوة الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها ، فأبلى في هذا السبيل بلاءً حسناً . غفر له الله ورفع درجاته .

جدة ، ثم وزير العدل في المملكة ، وشغل أخيراً منصب الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي .

كذلك أعجبت الرسالة جداً أحد العلماء الأتراك: الشيخ عثمان الساعاتي ، الذي كان كسبه بإصلاح الساعات ، وكان يلقي درساً في القرآن الكريم بالمدينة المنورة ، وكان الأتراك الحجاج منهم والمقيمون في السعودية يتهافتون عليه في إكبار وإجلال ، وأبدى تأثره بالرسالة وأثنى عليها .

تقرير موجز عن إقامتي بالحجاز:

لا أريد هنا أن أقدم تقريراً مفصلاً عن الإقامة المباركة بالحجاز - التي امتدت إلى ما يقرب من ستة أشهر - والأشغال الدعوية المباركة فيها ، ولا مجال لذلك في هذا الكتاب الذي له مجاله وحدوده ، ويمكن أن يقرأ هذا في شيء من التفصيل في كتاب ابن أختي العزيز المرحوم الشيخ محمد الثاني بعنوان: «حياة الشيخ محمد يوسف الكاندهلوي» .

وموجز القول: إننا أقمنا في المدينة المنورة من ٣/ رمضان إلى ٢٠/ من ذي القعدة ، وكنا نقوم في أثناء هذه المدة بالعمل الدعوي في أوساط العلماء بعد صلاة التراويح ، ونقيم اجتماعاً في كل جمعة بعد صلاة الجمعة في قاعة من قاعات مدرسة العلوم الشرعية بالمدينة المنورة^(١) ونقوم بالجولات وعقد الاجتماعات في أعمال المدينة المنورة وقراها المجاورة ، وسافرنا إلى مكة المكرمة في آخر ذي القعدة ، وتوطدت بيننا وبين علمائها علاقات طيبة ، وممن أنسنا بهم وأنسوا بنا - بصفة خاصة - العلامة السيد علوي المالكي^(٢) ،

(١) أنشأها محدث الهند الكبير العلامة الشيخ السيد أحمد الفيض آبادي انظر: «السيد أحمد الفيض آبادي» للشيخ عبد القدوس بن القاسم الأنصاري للاطلاع على حياة العلامة الفيض آبادي وهذه المدرسة .

(٢) هو العلامة السيد علوي عباس المالكي ، كان موسوعة ناطقة في العلوم الدينية ، عالماً ضليعاً متفتناً في الفضائل العلمية ، يفتي في المذاهب الأربعة ويدرس في علوم شتى ، وكانت حلقاته في الحرم أوسع الحلقات عليها أكبر إقبال من المستفيدين والمستمعين ، وقد توثقت بينه وبين سماحة الشيخ الندوي الأخوة العلمية والصداقة =

والشيخ أمين الكتبي^(١) ، والشيخ حسن مشاط^(٢) ، والشيخ محمد العربي التّبّاني^(٣) ، والشيخ محمود شويل ، والشيخ عبد الرزاق حمزة^(٤) خطيب الحرم المكي الأول وإمامه .

وقد كان شباب الحجاز وأدباؤها وأصحاب الأفلام والصحافيون فيها - إذ ذاك - لا شأن لهم بأصحاب العمائم والفضيلة ، يتهيبونهم وبيتعدون عنهم ، وكانوا ينظرون إلى كل حركة دينية دعوية خالصة نظر الاستخفاف

= الأديبة الدينية مدة إقامة سماحة الشيخ الندوي في مكة المكرمة ، وكان بينهما مراسلات إلى أن توفي سنة ١٣٩١ هـ .

(١) هو العالم الضليع ، المدرس القدير ، الأديب الشاعر السيد أمين المكتبي من أسرة معروفة في الحجاز بالنسب والأدب ، ومن مدرسي الحرم المكي الشريف ، له نويات وشعر بليغ في الحنين إلى المدينة المنورة ، منورها عليه ألف ألف سلام ، توفي سنة ١٤٠٤ هـ .

(٢) هو الأستاذ والمربي الكبير الشيخ حسن محمد المشاط من كبار أساتذة مدرسة الفلاح ومدرسي الحرم المكي الشريف ، تخرج عليه عدد من العلماء الكبار ، منهم العلامة السيد علوي عباس المالكي وغيره ، كان يدرس ويؤلف ، انتفع به كثير من أبناء الحجاز ، ونبغوا في حياته ، وقد استقام وثابر على التدريس والتربية مدة طويلة ، وداوم على ذلك إلى آخر حياته ، حتى انتقل إلى رحمة الله في سنة ١٣٩٩ هـ .

(٣) هو العلامة الشيخ محمد العربي المالكي المغربي أصلاً والمكي سكناً وهجرةً ، تتلمذ عليه كثير من علماء مكة المكرمة وشيوخها ، درس زمناً طويلاً في الحرم المكي الشريف ، ومدرسه الفلاح ، كان محدثاً ، لغوياً ، نساباً ، قوي الحفظ ، كثير الاستحضار ، كريم الأخلاق ، يعطف على سماحة الشيخ الندوي في هذه الإقامة بمكة المكرمة ، لحق باللطيف الخبير سنة ١٣٩٠ هـ .

(٤) هو الأستاذ الكبير فضيلة الشيخ محمد عبد الرزاق حمزة ، إمام الحرم المكي الأسبق ، أصله من مصر ، كان أوسع أئمة الحرم المكي - وكلهم فضلاء - علماً وتفناً في أقسام الثقافة الإسلامية ، كان سماحة الشيخ الندوي كثير التردد إليه والجلوس معه في هذه الرحلة ، هو أول من أبدى إعجابه بكتابه (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) وحث على طبعه ونشره ، وكان سماحة الشيخ الندوي بعد عودته إلى الهند ، وبعد أن حصل تقسيم الهند كدولتين (الهند وباكستان) يرأسه ويخبره بواقع المسلمين والبلاد (انظر رسالته إلى سماحة الشيخ الندوي في كتاب المحقق «أبو الحسن علي الحسيني الندوي الإمام المفكر الداعية الأديب») توفي رحمه الله سنة ١٣٩٢ هـ .

والازدراء ، يُقدَّر ذلك من أنني ذات مرة تطرقت في حديثي مع أحد كبار الأدباء فيها ومدير إحدى المجلات الأدبية - الذي كان خرّيج مدرسة دينية - إلى تجربة العمل الدعوي في الهند ، وتأثيره ونتائجه ، فقال : (يا شيخ ، خلّ الدين للحرم وقل لي كيف خُدِع المسلمون في تقسيم البلاد ، وما هي أسباب الأوضاع الراهنة في الهند؟) .

وقد كان من ثمار الإقامة بمكة المكرمة التعرف على الشيخ عمر بن الحسن آل الشيخ^(١) ، وحبه وثقته فيّ التي كانت لها فائدتها الكبيرة في حق العمل الدعوي وجماعة الدعوة والتبليغ ، فقد كان هو من أعقاب شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله ، والأخ الشقيق لقاضي القضاة وشيخ الإسلام بالمملكة السعودية الشيخ عبد الله بن الحسن - الذي كان أكبر شخصية دينية في السعودية ، ورئيس هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالرياض ، وكان مستشاراً لولي العهد الأمير سعود وموضع ثقة عنده ، وقد عطفه الله تعالى إلى حبي ، وأقام صلة خاصة بي ، فكان يقرأ كتبي ورسائلي ، ويقرؤها لمن يستمع إليها ، وقضت هذه الصلة والثقة على تلك الأفاويل والإشاعات التي كان يثيرها بعض الناس لأسباب مختلفة لإثارة الشكوك والشبهات حول الجماعة ، وإساءة الظن بها ، وقد كان الشيخ عمر في هذا الأمر على ثقة ويقين إلى حد أنه دافع بنفسه عن الجماعة ، وأيدها وحماها من التعرض للمشاكل ، ولو لم يكن في ظاهر الأسباب هذا الموقف من الشيخ عمر ، لفاتت الجماعة فرصة العمل هنا بحريّة وانطلاق .

ولم يزل الشيخ عمر على هذه الصلة الوثيقة التي تحولت إلى صلة أخوية وصلة عطف وشفقة ، يمكن أن يقدر ذلك بتلك الرسائل الودّية التي بعث بها إليّ^(٢) ، والله جنود السموات والأرض .

(١) توفي رحمه الله في ٢٣ من رمضان المبارك سنة ١٣٩٥ هـ .

(٢) انظر للاطلاع على هذه الرسائل «رسائل الأعلام» للأستاذ محمد الرابع الحسني الندوي ، طبع من المجمع الإسلامي بلكهنؤ (الهند) ومكتبة الصحوة بالقاهرة ، وكتاب المحقق «أبو الحسن علي الحسني الندوي الإمام المفكر الداعية الأديب» طبع في «دار ابن كثير بدمشق» عام ١٩٩٩ م .

رسالة «بين الجباية والهداية»:

لقد لاحظتُ في إقامتي الطويلة في الحجاز - في تجربة دارس للقرآن ونهْم بالتاريخ - المرحلة الانتقالية التي هي من أدقِّ مراحل الشعوب والبلاد ، وكيف بدأ البلد يحذو حذو البلد النامي الذي تشيخُ فيه الرفاهية والرخاء ، وتتغيَّر أوضاعه بسرعة ، ويقفو أثر بلاد مصر والشام والعراق التي تتزعم التحرُّر والانطلاق ، ويقلِّد البلدان الغربية التي لا وازع لها من خلق ولا دين ، وكل ذلك إنما هو نتيجة تخلي هذه البلاد عن تلك الدعوة والحركة التي قامت لإصلاح العقيدة وإشعال العاطفة الدينية ، فتحقَّق بفضلها ما لم يكن يتصور ، وأصبح بها المستحيلُ ممكناً ، فقامت دولة واسعة تستطيع - إذا أراد الله - أن تعيد التاريخ على أعقابها ، وتحقق من تكوين المجتمع الإسلامي المثالي ما كان يحلم به المَعْنِيُونَ بالإسلام ، والذي هو من أشدِّ حاجات هذا العصر ، ولكنها مُنيت - على مرِّ الأيام - بمشاكل ومحن ، تُمنى بها الحكومات الناشئة ، من ضعف الدعوة والحسبة الدينية ، وفقد القُدوة الصالحة ، وسيطرة الدوافع الاقتصادية والاستغلالية على الجهاز الإداري ، وما قدَّر الله أخيراً من التضخُّم المالي ، والعثور على منابع الثروة وأسباب الرخاء ، فكانت تلك نتائج طبيعية منطقية نفسية ، يقرِّرها القرآن في إيجازه وإعجازه ، ويشهد به تاريخ الحكومات والمجتمعات في حدوده وأسلوبه^(١).

كانت الأيام الأخيرة من إقامتي ، بل لعله كان اليوم الأخير ، إذ أحسست في نفسي باندفاع شديد ورغبة ملحة في أن أتحدث بهذه الحقائق وهذا الواقع في صورة رسالة ، وأطلب من الشيخ عمر بن الحسن - وهو العالم الغيور الذي ما زال محافظاً على خصائص أسرته ومؤسَّسها - أن يقرأها على ولي العهد الأمير سعود الذي سيتولَّى الحكم والقيادة في المستقبل لهذه البلاد ،

(١) ليراجع للتفصيل والإيضاح كتاب سماحة الشيخ الندوي «كيف ينظر المسلمون إلى الحجاز وجزيرة العرب» صدر عن «المجمع الإسلامي العلمي» بلكهنؤ (الهند) وعن «دار ابن كثير» بدمشق .

فبدأتها بتلك الجملة التاريخية البليغة التي كتبها الخليفة عمر بن عبد العزيز إلى أحد عماله الذي شكوا إليه أن إقبال الناس في البلدان المفتوحة على الإسلام سيؤثر على مالية الدولة ، إذ لا تؤخذ الجزية منهم التي هي من أكبر وسائل الدخل للحكومة ، فكتب إليه عمر بن عبد العزيز : (ويحك ، إن محمداً ﷺ بُعثَ هادياً ولم يُبعثَ جابياً ، ويسعدني أن يدخل الناس كلهم في الإسلام ، ولو خَلَّتْ خزانة الدولة ويضطر الناس إلى اتخاذ طرق جديدة للكسب).

ثم ذكرت الفرق بين طبيعتي المنهجين للحكم ، حكم الهداية وحكم الجباية ، وطريقي تقليدهما وتنفيذهما ، وقيمهما ومثلهما ، وأشرت إلى نتائجهما ، ونَبَّهْتُ بطريق وأسلوب مناسب إلى أن الحكومة بدأت تسير على «طريق الجباية» ، وأن ذلك نذير خطر ، ثم بيَّنتُ ما يعلِّق المسلمون على هذه الدولة من آمال كبيرة ، وشرحت فضل «حكومة الهداية» وتأيد الله تعالى ونصره لها وحب المسلمين وفداءهم لها .

كتبت هذه الرسالة بعضها في مقرِّي وبعضها على الحافلة التي تنقلني مع الركاب من مكة إلى جدة ، وبعضها على الميناء في انتظار الباخرة ، ثم سلمتها إلى الشيخ عبيد الله البليايوي^(١) المقيم في مكة المكرمة ، الذي بلغها إلى الشيخ عمر بن الحسن ، وعلمت فيما بعد برسالة منه إليّ أنه قرأها على

(١) هو الشيخ عبيد الله البليايوي الكوركيهوري ، أحد كبار الدعاة إلى الله ، ولد في مدينة «بليا» ثم قطن «كوركيهبور» وتخرَّج من جامعة «مظاهر العلوم» بسهارنفور ، وانتسب إلى جماعة الدعوة والتبليغ في حياة الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي (مؤسس الجماعة) عندما كان طالباً في جامعة مظاهر العلوم ولم يتجاوز عمره ١٥ سنة وبعدما تخرج كرس حياته على الدعوة ، فكان العمل الدعوي شعاره ودثاره ، يصبح عليه ويمسي ، كان يقتفي أثر الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي ، الذي تربى على يده وتلقى منه أصول الدعوة إلى الله ، فتمسك بها ونذر حياته لهذا العمل .

وكان من زملاء سماحة الشيخ الندوي ، فكان رفيقه الكريم في الرحلة الدعوية والعلمية التي قام بها إلى مصر والسودان وسورية وفلسطين عام ١٣٧٠ هـ . كان من أهم أركان جماعة الدعوة والتبليغ ، وأبرز رجالها ، وأحد ألسنتها الفصيحة البليغة ، كانت خطباته ومحاضراته تشف عن معرفة بأعماق النفس البشرية والاتجاهات العقلية والفكرية ، توفي رحمه الله سنة ١٤٠٩ هـ (١٩٨٩ م) .

الأمير سعود ، وليتها كانت ذات نتيجة عملية مثمرة وبديء من حينها بتغيير المسار وتعديله وتصحيحه ، لكان الوضع لا في المملكة السعودية فحسب ، بل في العالم العربي والعالم الإسلامي كله غير هذا الوضع ، ولاختلفت الحال عمّا هو عليه الآن تماماً^(١) ، وبإيد الله التوفيق .

حماس القيام بالدعوة بين العرب :

وعندما رجعتُ من الحجاز عام ١٩٤٨ م ملكت عليّ عقلي وقلبي ومشاعري دعوة العرب إلى الإسلام من جديد ، ودعوتهم إلى أن يقوموا لا في العالم الإسلامي فحسب بل في العالم الإنساني كله بدورهم الدعوي والقيادي ، واستعادة مكانتهم المفقودة ومنصبهم القديم ، بحيث فكرت في أن أجعله هدف حياتي وموضوعه ، ويمكن أن يقدر القارئ عاطفتي وحماسي بهذه الرسالة التي كنت كتبتها إلى الصديق العزيز الكريم الأستاذ مسعود الندوي^(٢) بتاريخ ٦/ شوال ١٣٦٨ هـ الموافق ٣/ أغسطس عام ١٩٤٩ م حين كان مقيماً في العراق ، وأقدم فيما يلي مقتبساً منها :

(١) نشرت هذه الرسالة أولاً بتعديلات يسيرة بعنوان «بين الجباية والهداية» في رسالة مستقلة من مكتبة الإسلام بلكهنؤ (الهند) ، ثم نشرت ضمن مجموعة مقالات سماحة الشيخ الندوي التي نشرت بعنوان «إلى الإسلام من جديد» من «دار القلم» بدمشق ، و«المجمع الإسلامي العلمي» لكهنؤ (الهند).

(٢) هو كاتب العربية القدير والصحافي البارع الأستاذ مسعود الندوي ، كان من أنبغ تلاميذ الشيخ تقي الدين الهلالي المراكشي ، وأعز أصدقاء وزملاء سماحة الشيخ الندوي . مارس التدريس مدة طويلة كأستاذ الأدب العربي بدار العلوم - ندوة العلماء ، بعد استقلال الهند هاجر إلى باكستان إثر دعوة من الشيخ أبي الأعلى المودودي ، وأسس فيها «دار العروبة» ، إليه يرجع الفضل في ترجمة معظم مؤلفات الشيخ أبي الأعلى المودودي إلى العربية ، وله مؤلفات بالعربية منها ، «تاريخ الدعوة الإسلامية في الهند» و«محمد بن عبد الوهاب مصلح مظلوم ومفترى عليه» . توفي رحمه الله في باكستان سنة ١٣٧٣ هـ .

انظر ترجمته بكاملها في كتاب المحقق «الإعلام بمن في الهند من الأعلام في القرن العشرين» .

(لا تألُ جُهداً في بَذر بذور الدين في تلك الأرض الطيبة ، وأقم حجة الله عليهم ، وصلِّ الليل بالنهار ، وحرِّق القلب ، وأذب الجسم ، وأهرق دموع العين ودماء الكبد أهرقها سيلاً مدراراً حتى تبكي دجلة والفرات على قِصْرِ باعهما وقله بضاعتها ، أمسك بتلابيب كل شخص ، وقل له : أيها الغزال الضال في صحراء العرب ، ويا كرامة العالم وشرف الأمم ، ويا أمل إبراهيم ومحمد - عليهما الصلوات والتسليمات - أين أنت ، أهذه هي حصيلة دعاء سيدنا عمر بن الخطاب وإنابته بالأسحار ، ودماء سيدنا مُثنى بن حارثة الغزار ، ودوس أبي عبيد الثقفي وتحطّم عظامه ، ورفع سيدنا سعد بن أبي وقاص راية القتال والجهاد ، وحرقة سيدنا علي بن أبي طالب وبكاؤه وتململه وخطابته المثيرة وتأثيره البليغ ، وعطش سيد الشهداء ، فلذة كبد الرسول ﷺ ورخص دماء أهل البيت ، وتفكير أبي حنيفة وفقهه وتأمله ، وتعذيب أحمد بن حنبل وتضييق الخناق عليه ، وحماية ابن الجوزي للسنة والدفاع عنها ، وتألم الشيخ عبد القادر الجيلي ولوعته ، أن تخضع لأئمة الضلال ودعاة الانحراف ، وتمشي في ركبهم ، وتكون ذرة تائهة من غبار طريقهم ، انفخ الصور في مقبرة العراق ، وأحدث فيها جلبة القيامة ، وزلزلتها ، فيا لضياع «أهل الحرم» وغفلتهم ، ويقظة الأعداء وسهرهم).

الرحلة الثانية للحج

عام ١٩٥٠ م

لقد كانت هذه الرحلة في مرافقة الشيخ عبد القادر الرائي بوري^(١) ، فقد سافرنا بالباخرة الإسلامية في ٢٠/ ذي القعدة عام ١٣٦٩ هـ الموافق ٤/ سبتمبر عام ١٩٥٠ م من بمبائي ، وكان معي في هذه الرحلة أربعة من تلامذتي الأعماء ، رافقوني ليملكثوا في الحجاز بعد الحج ، ويشغلوا بعمل الدعوة والتذكير في العرب ، ويقوموا مع الفاضلين الندويين السابقين: (الشيخ محمد معين الندوي^(٢) ، والشيخ عبد الرشيد الندوي) بتعريف هذا العمل الدعوي ، وتوزيع كتبي ورسائلي في الطبقة المثقفة .

كان هؤلاء: الشيخ عبد الله عباس الندوي^(٣) ، والشيخ السيد رضوان

(١) هو الشيخ الكبير والمربي العظيم عبد القادر الرائي بوري ، كان نموذجاً حياً من نماذج الزوايا السنوسية ، وكان من كبار العلماء الربانيين المطلعين البصيرين من أصحاب الفراسة والذكاء ، والانفتاح الذهني الذين يجمعون بين العلم والعمل ، والتربية والتزكية ، وكان من أولئك القادة الروحيين والعلماء الصالحين الذين يحتاج إليهم المسلمون في كل زمان للقيادة والتوجيه ، والاستفادة من بركاتهم وطيب أنفاسهم . تلقى منه سماحة الشيخ الندوي التربية الروحية ، واستفاد من صحبته ومجالسه ، توفي رحمه الله بلاهور سنة ١٣٨٣ هـ .

(٢) هو نائب الأمين العام لدار العلوم - ندوة العلماء بلكنهؤ (الهند) .

(٣) هو الدكتور عبد الله عباس الندوي ، تخرج من ندوة العلماء ، ثم من جامعة القاهرة ، ونال الدكتوراه من جامعة أكسفورد في اللسانيات ، كان أستاذاً في جامعة أم القرى بمكة المكرمة ، ويعمل الآن أستاذاً للأدب العربي في دار العلوم - ندوة العلماء ومديراً فيها للشؤون التعليمية .

الندوي^(١) ، والشيخ محمد طاهر المظاهري المنصور فوري^(٢) ، وابن أخت الشيخ محمد الرابع الندوي^(٣) . وقد وقفت الباخرة في المكلا أكثر من المعتاد ، وقدمت رسائلتي العربية إلى بعض ضباط البلد الذين جاؤوا إلى الباخرة ليؤدوها إلى قاضي البلد والشخصيات العلمية الموقرة فيه ، ولم تكن الباخرة قد تحركت إذا ببعض الشرطة قد جاؤوا برسالة عليها أختامهم ، وقد أبدوا فيها انطباعات طيبة من الشكر والتقدير .

تأثير التعليم والحضارة الغربية في الحجاز :

لقد شعرتُ أثناء إقامتي بالحجاز بأن الحضارة الغربية قد أثرت في البلدان العربية تأثيراً كلياً ، بل شلت قواها ، وحطمت أعصابها ، ولا يستثنى من ذلك شباب جزيرة العرب والحجاز المقدس ، الذين رُزق بهم العالم نعمة الإيمان والإسلام ، وانقضت بهم ظلماته ، وظهرت منهم أمة خلقت للقيادة والإمامة .

وكنت كتبت في سبتمبر عام ١٩٥٠ م رسالة إلى أخي الأكبر^(٤) ذكرت

(١) هو الدكتور السيد رضوان علي الندوي ، تخرج من ندوة العلماء ، ثم من جامعة دمشق (سورية) ، ونال الدكتوراه من جامعة أكسفورد بلندن ، مارس في مجال التدريس في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض وجامعة كراتشي (باكستان) كأستاذ للأدب العربي .

(٢) مساعد أمين عام لدار العلوم - ندوة العلماء سابقاً .

(٣) هو الأمين العام لدار العلوم - ندوة العلماء ، ونائب رئيس لرابطة الأدب الإسلامي العالمية (الرياض) وأمين المجمع الإسلامي العلمي بلكهنؤ (الهند) ومرافق الشيخ الندوي في كثير من أسفاره ، وأقرب الناس به شياً ، فهو ابن أخته الكبرى ، له عدة كتب في الأدب والتعبير والنقد والتاريخ والثقافة الإسلامية باللغتين العربية والأردوية .

(٤) هو الدكتور السيد عبد العلي الحسني ، كان طبيياً حاذقاً وعالمماً تقياً ، وعلماً من أعلام الأمة الإسلامية ، ونادرة من نوادر الأيام في الجمع بين الثقافتين الشرقية والغربية ، ومحاسن القديم والجديد ، نشأ في حضانة المؤلف العظيم ، جده الشيخ فخر الدين الحسني ، ووالده الشيخ السيد عبد الحي الحسني ، قرأ الحديث والفقه وأصولهما ، وأدب اللغة العربية والمنطق والفلسفة في جد واجتهاد ، وفهم وإتقان على كبار أساتذة دار العلوم لندوة العلماء ، ثم التحق بدار العلوم ديوبند الإسلامية ، ونال الإجازة منها =

هذا الوضع المتردّي وتغيّر الحال ، وأبدت ألمي وانطباعاتي ، وأتعجب من قراءة هذه الرسالة اليوم كيف استطاع قلبي الضعيف أن يصور الوضع هذا التصوير الصادق الواقع ، ولم أكن قد تشرفت بالحضور مراراً ولا كانت لي إقامة طويلة ، وأحب أن أورد هنا مقتطفاً من تلك الرسالة :

(جئتُ إلى هذه البلاد عام ١٩٤٧ م لأول مرّة ، ثم جئتُ هذا العام عام ١٩٥٠ م فرأيتُ فرقاً هائلاً كبيراً ، وتغيّراً عظيماً في ظرف ثلاث سنين ، فقد أنشبت الحضارة الغربية ومدنيتها وتجاريتها واقتصادها وتصوراتها ونظرياتها أظفارها ، وأحكمت قبضتها على هذه البلاد من أسواقها إلى عقول رجالها ، ويشعر الإنسان بذلك حال نزوله بجدة ، وكلما ازداد اطلاعاً على الأوضاع والظروف انكشفت له هذه الحقيقة وظهرت للعيان ، ولا يدري أحدٌ كم من عقول وقلوب في ملابس عربية تحولت غريبة خالصة ، وكيف أصبحت اللغة القرآنية تُسخرٌ للتصورات الغربية والنظرات المادية البحتة ، لقد بلغ الشغف بكسب المعيشة ، وتوليد الثروة إلى الأزمة ، ولا يمكن عندهم تصور الحياة إلا بأن يعيشوا في ظلها ويتقدّموا في المادة والثروة .

إن جهودنا المتواضعة بمقابل ذلك ، وكتبنا القليلة ، ولقاءاتنا المعدودة ، وجولات الجماعة وتنقلاتها ليست إلا كما يُرمى خزف في البحر فيحدث موجات خفيفة صغيرة ، وأخاف أن هذه اللقاءات والاجتماعات ، واتفاق بعض الشخصيات وتأييدها يكون سبب الخطأ في التصور والفهم ، فإن الواقع أنها ليست إلا بحثاً عن الناس وسعيّاً وراء النجاح لا غير).

= في الحديث ، ثم رجع إلى لكهنؤ ، وعكف على دراسة الطب . وإليه يرجع الفضل في توجيه وتربية سماحة الشيخ الندوي بعد وفاة والده ، حيث كان عمره آنذاك في الثامنة ، فتولى تربيته ، وكان له مثل الأب الصالح ، والأستاذ الفاضل ، انتخب أميناً عاماً لدار العلوم - ندوة العلماء بعد رحيل أبيه ، كان شديد العناية بنشر وتعليم اللغة العربية وآدابها في الهند ، وكان له جهد مكثف ، وسعي مشكور في تغيير منهاج دراستها في دار العلوم - ندوة العلوم ، توفي رحمه الله سنة ١٣٨٠ هـ .
انظر ترجمته بكاملها في كتاب المحقق «الإعلام بمن في الهند من الأعلام في القرن العشرين» .

جلسة مع الأدباء وأصحاب الأقلام في الحجاز:

لم تكن قد نشأت صلتنا بالحجاز بطبقة الخواص والمثقفين والأدباء وأصحاب الأقلام ، وكنا نبحث عن شخص يعرفنا بهذا الوسط ، ويكون واسطة الصلة والعلاقة بيننا وبينهم ، وقيم لنا نحن الغرباء في ذهنهم تصوراً كريماً موقراً؛ إذ أنهم لا يعيرون العلماء الهنود والباكستانيين ودعاتها العاملين أي اهتمام وعناية ، ويحول دون ذلك - دائماً - الجهل باللغة والأساليب الجديدة فيها ، ويقوم حجاباً صفيقاً ، ولا سيما في هذا العصر الذي تضاعفت فيه أهمية اللغة والأدب فأصبح الحجاب سميكاً أكثر .

ذهبنا لهذا الغرض ذات يوم أنا والمفتي زين العابدين الذي كان من أهم الأعضاء للجماعة التبليغية بباكستان إلى السيد محمود حافظ نائب مدير مطبعة الحكومة ، وقد كانت علاقة أسرته بولاية «الحدود الشمالية الغربية للهند»^(١) ، وكان هو لهذه الصلة والنزعة الدينية يأنس بنا ويألفنا ، فأبدينا له حاجتنا ، فقال : سوف نجمع بينكم وبين شخص هو مفتاح هذا الوسط ، فعرفنا بالأستاذ أحمد عبد الغفور عطار^(٢) الذي كان عالماً أديباً ومحققاً باحثاً ، وكاتباً معروفاً في الحجاز ، فقبل هو هذه المسؤولية ، ودعا في يوم قريب أصدقاءه من الأدباء وأصحاب الأقلام والعاملين في الصحافة والإذاعة

(١) وهي ولاية مستقلة الآن في باكستان ، عاصمتها بشاور .

(٢) هو المفكر الباحث الأديب الإسلامي الكبير الأستاذ أحمد عبد الغفور عطار ، ولد في مكة المكرمة ، ودرس في كلية الآداب بجامعة القاهرة ، أسس جريدة «عكاظ» سنة ١٣٧٩ هـ ، نال جائزة الدولة التقديرية في الأدب عام ١٤٠٥ هـ ، قال سماحة الشيخ الندوي فيه بعد وفاته :

«أشهد الله سبحانه وتعالى أنني وجدته في كل ما قرأت له من كتاباته متحمساً في الدفاع عن الدين ، وشديد الحب والإعظام بمكانة رسول البشرية والسلام ﷺ ، وقد كتب آلاف الصفحات في المواضيع المختلفة ، ولم ينحرف عن المبدأ ، ولم يتجاوز حدود الأدب الإسلامي ، ولم يتطرف بموالة الملاحدة والمارقين عن الدين» توفي رحمه الله سنة ١٤١١ هـ .

على الغداء في «بستان بخارى» الذي كان موضعاً تعقد فيه الاجتماعات والحفلات الكبيرة ، ودعانا معهم .

ولما وصلنا إلى المكان رأينا جمعاً من الشباب الأدباء والصحفيين ، وعرفنا الأستاذ عطار بهم ، ثم كانت لنا جلسة معهم بعد الغداء ، وقد كان من بين هؤلاء الأدباء الذين حضروا: الشيخ سعيد العامودي^(١) مدير مجلة «الحج» وعضو المجلس الاستشاري للمملكة السعودية ، والشيخ عبد القدوس الأنصاري^(٢) مدير تحرير مجلة «المنهل» ، والسيد علي حسن فدق أحد الأدباء الموظفين في وزارة المالية ، والسيد محسن أحمد باروم أحد كبار الموظفين في الإذاعة ووزارة التعليم ، والشيخ حسين عرب الذي أصبح فيما بعد وزير الحج والأوقاف .

وبدأت الجلسة كأنها جلسة نقاش لأحد الطلاب ، فقد أراد الضيوف الكرام أن يقدروا مدى معرفة هذا الضيف الغريب باللغة العربية ، ويسبروا غوره في دراسته ومعلوماته العامة ، فكانوا يسألونه تارة عن الدكتور طه حسين ، وعباس محمود العقاد ، وأدباء مصر المعروفين ، ويقدرون من إجابته هل قرأ كتبهم أو لا ، وتارة أخرى يسألونه عن رأيه في الاشتراكية ، وحيناً عن الحضارة الغربية ، وآخر يقيسون اطلاعه على اللغة الإنجليزية ،

(١) هو صديق سماحة الشيخ الندوي الفاضل ، الكاتب الإسلامي الرشيق الشيخ محمد سعيد العامودي ، رئيس تحرير مجلة «الحج» سابقاً ، ومجلة رابطة العالم الإسلامي أخيراً ، وعضو في مجلس الشورى السعودي ، ومن أدباء الحجاز المبرزين الذي تخرج في مدرستهم الإنشائية الصحافية عدد من الشباب الكاتب المسلم ، وقد توطدت بينه وبين سماحة الشيخ الندوي صلوات الود والإخاء منذ سنة ١٣٦٦ هـ .

(٢) هو الأديب المؤرخ الصحفي الشيخ عبد القدوس بن القاسم الأنصاري ، ولد في المدينة المنورة ، تعلم مبادئ العلوم الإسلامية والعربية في المسجد النبوي الشريف ، وبعد مرحلة الدراسة عيّن في ديوان إمارة المدينة المنورة ، وعمل في الوقت نفسه أستاذاً للأدب العربي في مدرسة العلوم الشرعية في المدينة المنورة ، وقد تولى رئاسة تحرير جريدة أم القرى الرسمية في مكة المكرمة من عام ١٣٥٩ هـ حتى عام ١٣٦٢ هـ ، وتقاعد في عام ١٣٨٧ عن العمل ، وتفرغ للتأليف والبحث ، وأسس مجلة باسم «المنهل» توفي رحمه الله سنة ١٤٠٣ هـ .

وقد شعرت في ذلك بقيمة تلك الدراسة ، وذلك المنهج للتعليم والمطالعة الذي هيا الله - تعالى - أسبابه في الهند ، ولم أكن أقدرها حق قدرها في ذلك الحين .

أحاديث في الإذاعة السعودية:

ولم أستطع أن أقدر بعد هذا «الاختبار الشفوي» كم استحققت من «العلامات»؟ ولكنهم لما انتهوا من هذا الفحص والاختبار قالوا لي: هل لك أن تخرج معنا للنزهة؟ فأجبت ، وركبت السيارة معهم ، فدخلوا فجأة في مستشفى ، وذهبوا بي إلى الشيخ محمد سرور الصبان^(١) (نائب وزير المالية ومراقب الإذاعة السعودية) الذي كان في المستشفى إذ ذاك في اعتكاف صحي ، فعرفوني إليه ، ورغبوا إليه في أن ينظم لي أحاديث من الإذاعة ، وكان الشيخ محمد سليم مدير المدرسة الصولتية قد عرفني - من قبل - إلى الشيخ سرور ، وكنت قابلته أيضاً ، فقبل الشيخ ذلك بكل رغبة وسرور ، وطلب مني من قبل الإذاعة إلقاء سلسلة من الأحاديث ، اخترت لها - بعد روية وتفكير - عنوان «بين العالم وجزيرة العرب»^(٢) الذي كنت أتوقع أنني سوف أبدي فيه آرائي وانطباعاتي بأسلوب مناسب ، وأعبر عن قلبي وضميري على لسان العالم ، ثم أرد عليه بلسان جزيرة العرب ، فكان عنوان حديثي الأول «من العالم إلى جزيرة العرب» الذي يفتح فيه العالم الإنساني

(١) هو معالي الشيخ محمد سرور الصبان وزير المالية في المملكة العربية السعودية سابقاً ، والأمين العام لرابطة العالم الإسلامي منذ نشوئها في سنة ١٣٨٣ هـ إلى وفاته سنة ١٣٩١ هـ .

كان أحد العقول الموجهة سياسياً وإدارياً في المملكة ، وأحد أذكىاء الحجاز وأدبائها ، كان ذا أخلاق مرضية ومروءة وكرم ، ذكياً المعياً ، حائز على ثقة عاهل المملكة المرحوم الملك فيصل وتقديره .
توفي رحمه الله سنة ١٣٩١ هـ .

(٢) انظر هذا الحديث في كتاب «إلى الإسلام من جديد» لسماحة الشيخ الندوي ، و«محاضرات إسلامية في الفكر والدعوة للعلامة الشيخ أبي الحسن علي الحسيني الندوي» صدر من دار ابن كثير بدمشق .

- بعد أداء حقوق الشكر والتقدير على تلك المنن والهدايا الكريمة التي قدمتها إليه جزيرة العرب عن طريق سيدنا محمد ﷺ ، والتي أعادت الحياة من جديد - صفحات الشكوى ويعرض جروح قلبه وفزع نفسه على أنه لماذا تخلت الجزيرة العربية - التي كانت قد طلعت من أفقها الوضاء شمس الإسلام الساطعة - عن قيادته وإمامته ، وخاطبها في صراحة ووضوح : إننا لسنا في حاجة إلى زيتك الذي تسير به العجلات والماكينات ، إننا في حاجة إلى ذلك الإيمان وتلك الحرارة والنور الذي اختصك الله به ، وتستضيء به العقول والقلوب ، ثم رددتُ على العالم من جزيرة العرب ، رداً فيه اعتراف بالقصور ، واعتذار ومواعيد ، وكان هناك قبل هذين الحديثين حديث تمهيدي وتعريفي للشيخ أحمد عبد الغفور عطار ، ونحمد الله - تعالى - على أن هذه الخطب تُلقيت باستحسان وقبول ، واستمع إليها في رغبة وشوق وشاع ذكرها في الشباب والأدباء .

وقد أصبحتُ بعد هذه الجلسة الناجحة ، والأحاديث التي ألقيتها في الإذاعة ، معروفاً في الأوساط الأدبية بالحجاز ، وقامت بيننا وبين الأدباء وأصحاب الأقلام من الشباب روابط وصلات ، فكنا ندعوهم إلى مقرّنا تارة ويدعوننا إلى بيوتهم تارة أخرى .

الرحلة إلى مصر والشرق العربي

عام ١٩٥١ م

مصر مركز العالم العربي العلمي والفكري:

لقد توصلت بعد لقائي واجتماعي بشباب الحجاز المُثَقِّين وأدبائها وكتّابها إلى نتيجة أنهم كلهم خاضعون لأدباء مصر وكتّابها ومؤلفيها وباحثيها ، مقتطفون منهم ومتطفّلون على مائدتهم ، وأنهم يعتبرونهم أساتذة وقادة لا في الأدب والفكر فحسب ، بل في التصور الإسلامي وفهم الدين ، ورأيت في بعضهم نزعة إسلامية ، وأثراً من آثار الاعتداد بالنفس والثقة بها ، وبحث عن مصدره فوجدت أن هذا من نتائج حركة الإخوان ، وقد اعترف بعض الأصدقاء منهم بأنه لولا تعرفهم على شخصية الإمام حسن البنا ودعوته لكانوا فريسة الإلحاد واليأس الكامل عن مستقبل هذا الدين والانتفاضة الإسلامية ونهضة المسلمين من جديد .

وقد لاحظتُ في إقامتي هذه بالحجاز التي كانت مدتها قرابة أربعة أشهر ، والتي وجدت فيها فرصة أكثر للاجتماع بالشباب المثقفين وأصحاب الفكر وحملة الأقلام الناهضين ، ما لمصر من مكانة في القيادة والإمامة الأدبية والفكرية في العالم العربي ، وعلمت أن الأدب المريض والكتابات المثيرة التي تحدث الفوضى في الأخلاق والنزعات ، وبإزائها التصورات الصحيحة والقيادة العلمية والفكرية الرشيدة ، مصدر كل واحد منهما ومركزه ليس إلاّ مصر في العالم العربي ، فلو أريد نشر شيء وإذاعته ، ولفت الأنظار إليه ورفع قيمته ، أو إحداث ثورة وتغيير في شيء ، فلا يأتي

ذلك إلا عن طريق مصر لا غير ، وظهرت لي بذلك أهمية التوجه إلى مصر وفائدته ، وعزمت عليه .

ولكني كجندي متطوع لا ينتمي إلى مؤسسة حكومية أو جمعية منظمة لم أكن أملك وسائل السفر وتكاليفه وما أعتمد عليه في فترة الإقامة في مصر من المال ، وقد ظهرت هذه الرغبة التي كنت أحملها في تلك الرسائل التي كنت أبعث بها إلى أصدقائي ومشايخي ، ونشأت بقراءتها في قلب أخي الأكبر والشيخ محمد زكريا وبعض الأصدقاء المحترمين عاطفة تحقيق هذه الرغبة وتيسير هذه المهمة ، فأيدوني برسائلهم وشجعوني على هذه الفكرة ، وهيئوا لي مبلغاً مناسباً ، كنت أستطيع به أن أسافر مع اثنين من رفقتي عن طريق البحر وأمكث فيها لمدة لا بأس بها .

على أرض مصر :

توجهت بنا في ١٢/ربيع الثاني عام ١٣٧٠هـ الموافق ٢٠/يناير عام ١٩٥١م باخرة «أوندا» الإيطالية من جدة إلى السويس ، وكان معي العزيز محمد معين الندوي والعزيز عبد الرشيد الندوي ، وقد التزمت في هذه الرحلة بتقييد مذكراتي في هذه الرحلة ، وكتبت عند بدء هذه الرحلة في الصفحة الأولى من مذكراتي ما يدل على أهداف الرحلة ودوافعها وهو كما يلي :

(وداعاً أيتها الجزيرة العربية غير مهجورة ولا مملولة ، فليست هذه الرحلة إلا في سبيلك والاتصال بأسرتك العزيزة المنتشرة في ساحل البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط ، أبلغها تحياتك ، وأرى ما فعلت الأيام بها بعد انفصالها عنك ، وما فعلت برسالتك التي حملتها عنك للعالم والأمانة التي تقلدتها).

مكثت في القاهرة ستة أشهر إلا أياماً قليلة ، وقد جاءت مذكرات هذه الرحلة وقصة اللقاءات والاجتماعات ، وملخصات الخطب والحاضرات ، وحكاية الصلوات والعلاقات بمختلف الأوساط ، والتعريف بالهند والدعوة

الإسلامية فيها ، بكاملها في كتاب المؤلف ، «مذكرات سائح في الشرق العربي»^(١).

مصر قبل عهد عبد الناصر :

لقد كانت هذه الإقامة بمصر مفيدة ممتعة من النواحي الدعوية والعلمية والفكرية والأدبية ، وكانت هذه الفترة حين كانت مصر على أصالتها وصورتها الحقيقية التي امتدَّ بها الزمن وتسلسلت مع العصور والأجيال ، وكانت فيها حرية إبداء الرأي والصحافة والخطابة ، وقد بلغ العلم والأدب والصحافة أوجها ، وكانت الأحزاب السياسية تتمتع بالحرية ، وكانت فيها عقليات تمثل الأجيال الماضية خير تمثيل ، كما كان فيها صنائع التعليم القديم والجديد ، والمتخرجون في مدارسها .

وكان هناك نشاط ملحوظ في وسط المفكرين والأدباء والمنشئين ، ومنهم من كان صاحب مدرسة أدبية خاصة وأسلوب متميز يُقلد خارج مصر ويُفتخر به في العراق والشام ، والحجاز ونجد ، والمغرب الأقصى ، يمكن أن نذكر منهم : الدكتور أحمد أمين بك ، والدكتور طه حسين باشا ، وعباس محمود العقاد ، والدكتور محمد حسين هيكل ، وتوفيق الحكيم ، وأحمد حسن الزيات ، ومنصور فهمي باشا ، وفكري أباطة باشا . وكان عدد من كبار العلماء وأصحاب الاختصاص في العلوم الدينية ، نخص منهم بالذكر شيخ الأزهر الأستاذ الأكبر الشيخ عبد المجيد سليم ، والشيخ محمود شلتوت ، والشيخ أحمد محمد شاكر ، والشيخ حسنين محمد مخلوف ، والشيخ أحمد عبد الرحمن البنا الساعاتي (والد الإمام حسن البنا) ، والشيخ حامد الفقي ، والشيخ عبد الوهاب بك خلاف ، والشيخ زاهد الكوثري ، والشيخ محمد عبد اللطيف دراز ، والدكتور عبد الله دراز ، والشيخ محمد فؤاد عبد الباقي ، والشيخ مصطفى صبري أفندي (شيخ الإسلام سابقاً بالدولة العثمانية).

(١) نشر الكتاب بإضافات وزيادات في دمشق وبيروت من دار ابن كثير مع تعليقات المحقق .

وكان في القادة والزعماء - وفيهم من هاجر من وطنه وأهله ، ولجأ إلى مصر - سماحة المفتي أمين الحسيني ، والمجاهد المعروف الأمير عبد الكريم الريفي ، وفضيلة العلامة السيد مبشر الطرازي التركستاني ، وعبد الرحمن عزام باشا (سكرتير عام الجامعة العربية) واللواء صالح حرب باشا (رئيس عام جمعيات الشبان المسلمين) وأمين محمود خطاب (رئيس الجمعية الشرعية) وحسين يوسف (قائد شباب سيدنا محمد ﷺ) ومحمد علي علوبة باشا (وزير حزب الأحرار الدستوريين سابقاً).

وكان في الأدباء والدعاة والمفكرين الإسلاميين ، الأستاذ محب الدين الخطيب (صاحب مجلة «الفتح») وسيد قطب ، ومحمد أحمد بك الغمراوي ، ومحمود محمد شاكر ، وأحمد الشرباصي ، ومحمد الغزالي ، وفريد وجدي ، وسعيد رمضان ، وصالح العشماوي (مدير تحرير مجلة «الدعوة») ويكفي في أسماء الدعاة إلى التجدد والتفكير الغربي وممن يستحق أن نعتبره من مربي الجيل الجديد في مصر ، ذكر اسم أحمد لطفي السيد باشا (رئيس مجمع فؤاد الأول) مجمع اللغة العربية الآن ، الذي كان على قيد الحياة.

وكانت من الجماعات والمُنظَّمات العاملة النشيطة ، الإخوان المسلمون ، وشباب سيدنا محمد ، وجمعية الشبان المسلمين ، ومصر الفتاة ، وجمعية أنصار السنة المحمدية ، والجمعية الشرعية ، وجمعية العشيرة المحمدية ، وجمعية مكارم الأخلاق ، وكانت من المجلات السائدة في أوساط الشباب والمثقفين مجلة «الثقافة» للدكتور أحمد أمين ، ومجلة «الرسالة» لأحمد حسن الزيات ، وقد كانت لهما مدرستان أدبيتان مستقلتان ، وكانت لهما الكلمة النافذة والرأي المسموع.

والزمن زمن الملك فاروق ، وقد كانت مصر في هذا العهد رغم علاقتها ومواطن ضعفها الخلقية والاجتماعية والفردية التي هي من خصائص الحكم الوراثي والأمراء الأثرياء الطليقيين ، تتمتع بشيء كثير من حرية الرأي واحترام الدين وعلماء الدين ، والأزهر له مهابته والمركز الديني الكبير ،

وكان الجمهور والدهماء متميزون بسلامة الطبيعة والحماس الإسلامي والاتجاه إلى الجامعة الإسلامية ، وكانت تشاهد فيها الأخلاق الإسلامية العربية وكرم النفس ورحابة الصدر والحب وقوة العاطفة ، تلك الخلال التي تميز بها الشعب المصري واتصف بها في أطول فترة من تاريخها .

ولم تكن إلى ذلك الحين قد هبت عاصفة العهد الناصري التي استهدفت لها شجرة العلم والأدب والفكر الإسلامي ، والسياسة الحرة ، والجراءة الخلقية والنقد البناء ، وقضت على نضارتها وروائها ونموها وازدهارها ، واكتسحت البلاد وكنتها كنساً ، فلا ترى فيها أثراً للحياة والحيوية والنشاط ، غير الغبار المتراكم والدخان المتصاعد ، وقد كان من تقدير العزيز العليم أنه هياً لي فرصة زيارة مصر والسودان والشام والتجول فيها قبل طغيان القومية العربية و«الاشتراكية العلمية» - التي ظهرت عام ٦٠ - ١٩٦١ م - من أفق مصر ، ثم احتوت على العالم كله .

التعرّف على الأوساط العلمية والأدبية وتبادل الآراء والأنظار :

لما وصلنا إلى القاهرة انضمّ إلينا في هذه الرحلة الشيخ عبيد الله البلباوي أيضاً الذي كان قد سافر إلى السودان في جولة دعوية ، وأقمنا أياماً في فندق البرلمان بالعتبة الخضراء ، ثم نزلنا في إدارة جمعية كانت بالطابق الأعلى في السكة الجديدة (سوق الصيارفة) .

لم يكن لنا نحن الشباب الناهضين والغرباء الخاملين في مدينة القاهرة العامرة الصاخبة شيء يلفت أنظار الأوساط العلمية والأدبية والدعوية إلينا ، وكنت أنا - ترجمان هذه الجماعة وممثلها - شاباً نحيفاً ، لم يبلغ من العمر إلا ٣٦ أو ٣٧ سنة ، وملابس هندية ، فلا عندي عباءة علماء الأزهر ، ولا بذلة الأفنديين والمثقفين العصريين والأغنياء والموسرين من القميص والبنطلون والطربوش الأحمر ، فملابنا الخفيفة لا تتجاوز قدراً ملابس النوم في الشرق العربي إلا قليلاً ، أما الإقامة فكانت في مكتب متواضع لجمعية خيرية بدل فندق كبير يُحدّد في أوربة وفي الشرق العربي مكانة الضيف الاجتماعية ، ويعتبر مقياساً لأهميته وجلالة شأنه ، حيث لم تكن

غرفة لاستقبال الضيوف ولا غرف منفردة للأكل والنوم ، ولا أثاث وحوائح ضرورية . وقد كانت كل القرائن تشير إلى أننا سوف نقيم عدة أشهر في القاهرة ، ونستفيد من جوها العلمي والأدبي ، ثم نعود ولا يسمع بنا أحد ولا يعلم عنا ، فمن يسمع الصوت الخافت في جلبة كجلبة القاهرة وصخبها؟

ولكن الله - تعالى - هيئاً لي من قبل أسباب الاستفادة من هذه الإقامة ، فقد كان كتابي «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» ، سبقني إلى الأوساط العلمية والفكرية والدعوية ووجد مكانه ، فكان لي كبطاقة الزيارة ووسيط تعارف ، وكان يكفي أن يقال في تعريفني إنه مؤلف «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» وفي جانب آخر بدأت لي سلسلة أحاديث ومحاضرات في مختلف النوادي والجمعيات الموقرة ، التي لم أتعرف فيها إلى شباب مصر والأوساط القديمة والجديدة فيها فحسب ، بل استرعت انتباههم ولفت أنظارهم وكانت لكلماتي وزن وقيمة .

أحاديث ومحاضرات مهمة :

وقد كان لي حديث في دار الشُّبَّان المسلمين - التي كانت أكبر منبر موقر للإسلام في مصر - في قاعة عبد الحميد سعيد ، بعنوان «العالم على مفترق الطرق»^(١) ، حضرها بعض كبار علماء الأزهر ومشايخه ، وعدد طيب من

(١) كان موضوع المحاضرة علمياً تاريخياً ، وكان الأولى بسماحة الشيخ الندوي أن يكتب المحاضرة ويقرأها ، ولكنه أراد أن يرتجلها وظن أن هذا ينافي تقاليد المحاضرات في هذه البلاد ، فإذ المستمعون ينتظرون أنه كان قد كتبها ، ولكن رد فعل السامعين كان جيداً ، فقابل المستمعون الكلمة بنشاط ورغبة .

ويجدر بأن تعرض هنا خلاصة هذه المحاضرة وجوهرها: أن التاريخ البشري في امتداده وانعطافه يمكن أن يشبه بالنيل يجري طويلاً على خط واحد ثم ينعطف ويتحول ، كذلك التاريخ ينقسم بين قسمين (١) دور الاستمرار (٢) دور التحول ، فالاستمرار أن يتجه التاريخ اتجاهاً واحداً ويجري في مجرى واحد ، وقد يستمر هذا الاتجاه مئات من السنين أو آلاف من السنين ولا تنافيه التغيرات في الحكومة إذا كانت فلسفة الحياة واحدة ، وأساس الحضارة واحداً ، ونظرية الحياة واحدة .

الكتاب والمفكرين ، ولم يكن هذا الحديث حسب العادة في مصر مُعدّاً ومُسجلاً من قبل ، بل كان خطبة مرتجلة ، وكانت هي تجربة جديدة عن شخص عجمي لأهل مصر ، ولم يكن هذا الخطاب - حسب وجداني وشعوري - كما صرحت بذلك في المذكرات - ناجحاً جداً وعلى مستوى عال ، ولكنه كان يكفي للفت أنظار فضلاء مصر وشبابها ، فشاع ذكره في

= وقد كان ذلك من عهد الإغريق إلى عهد البيزنطيين فقد كان الاعتماد في تصميم الحياة على الحواس والقياس والأهواء ، قد تم إفلاس هذه الحياة وانكشف فشلها في القرن السادس المسيحي وكانت البعثة المحمدية نقطة التحول للعالم ، فاتجه العالم من الاعتماد على الحواس والقياس والأهواء إلى الاعتماد على الوحي السماوي والتشريع الإلهي .

واستمر هذا الاتجاه قروناً وبقي هذا النهر البشري يجري في مجرى واحد إلا أنه يختلف في الاتساع والضييق ، والقوة والضعف ، واعترض هذا النهر صخرتان كادت تحولان اتجاه هذا التيار ، الأولى الحروب الصليبية في القرن الهجري ولكن العالم الإسلامي تحت قيادة السلطان صلاح الدين الأيوبي استطاع أن يحرك هذه الصخرة ويتغلب على هذا الخطر ، والثانية غزو التتار وقد تحطم فيه العالم الإسلامي ولكن لم تتحطم فيه قوته المعنوية ودوحه ، وقد انتصرت الدعوة الإسلامية على التتار وأسلموا جميعاً ولكن بعد ذلك حدث ما حول هذا الاتجاه تحويلاً كلياً وغير مجرى التاريخ وهو الهجوم الغربي على العالم الإسلامي واستيلائه عليه بفلسفته وحكمته وتجاربه واكتشافاته ، وبقي العالم العربي يبرز ما عنده ، ويطبق ما يدين به نحو قرنين ، وهذان القرنان يساويان آلافاً من السنين لأن أوربة وصلت إلى غايتها في مدة أقل من مدة الأمم السابقة لسرعة آلتها وقوتها وقد نثرت في هذه المدة كنانتها وأفرغت جعبتها .

وظهر إفلاسها وفشلها في قيادة الإنسانية وزعامة العالم البشري ، وأن المعسكرين الرأسمالي والشيوعي متحذان في أساس الحياة ونظريتها وفلسفتها وليست قوى الشيوعية إلا لمحاربة الرأسمالية وسوء تصرفها ، فإذا انهارت الرأسمالية انهارت الشيوعية ، وبدأت الإنسانية تياس من الشيوعية ولا يبقى إذاً إلا الدعوة الإسلامية والنظام الإسلامي . وقد نضجت أوربة بمعسكرها ، كالثمرة الناضجة وحن قفافها والعالم واقف على مفترق الطرق وهذا دور القيادة الإسلامية ، فإذا تقدم المسلمون وتسلموا قيادة العالم الحائر فذاك وإلا اتجه العالم اتجاهاً آخر ، واستمر هذا الاتجاه قروناً وآلافاً من السنين وبقي الإسلام منعزلاً .

الناس ، وعلق عليه الأستاذ أحمد الشرباصي^(١) ، ثم الأستاذ عبد المتعال الصعيدي ، ثم الشيخ محمد الغزالي^(٢) ، ثم الأستاذ عبد المنعم خلّاف تعليقات طيبة .

وكان من توفيق الله - تعالى - وتهيئته للأسباب أن نظّم لي رئيس عام جمعيات الشُّبَّان المسلمين «اللواء صالح حرب باشا» حفلة تكريم وتعارف ، حضرها بعض الشخصيات المحترمة الكبيرة كالأمير عبد الكريم الخطابي ، والشيخ حسنين محمد مخلوف (مفتي الديار المصرية سابقاً) ، والشيخ محمد عبد اللطيف دراز (مدير المعهد الديني بالأزهر) ، والشيخ محمد الشربيني (رئيس جمعية علماء الأزهر) ذكرت في حديثي نبذة عن الشخصيات الإصلاحية والتجديدية في الهند وتاريخ الدعوة الإسلامية ، ومختلف أدوارها وعهودها وأساليبها ومناهجها ، وقدمته لعلماء مصر كتحفة من الهند ، وقلت لو تقدمت إليكم بشيء مما عندكم لكان لكم أن تقولوا: بضاعتنا رُذِّت إلينا ، لذلك أفتح أمامكم صفحات من التاريخ الإسلامي وخدمة الدعوة الإسلامية لم يقع عليها بصركم من قبل ، وقد نشرت هذه المحاضرة أيام إقامتي بمصر بعنوان: «الدعوة الإسلامية وتطوراتها في الهند» ، نشرتها المطبعة السلفية لصاحبها محب الدين الخطيب ، وتلقيت بقبول واستحسان وقرأها الناس بعناية واهتمام .

(١) هو صديق سماحة الشيخ الندوي ومساعدته في أعماله الكتابية ونشر الكتب في مصر ، عرض في الطبعة الثانية لكتاب «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» صورة وصفية للمؤلف ، وقدم لكتابه «قصص النبيين للأطفال» تخرج في الأزهر ونال الدكتوراه منها ، كان كاتباً مترسلاً وخطيباً مصقلاً ، توفي - رحمه الله - سنة ١٤٠٠هـ .

(٢) أحد كبار الدعاة إلى الله ، وعظام المفكرين الإسلاميين ، وأركان حركة التأليف الإسلامية الحديثة ، ومن أنشط أعضاء حركة الإخوان وأكثرهم وعياً ومقدرة ، تخرج في الأزهر ، وتقلد منصب الوعظ والإرشاد ، وألف ودرس ، وخطب وكتب ، واضطر إلى مغادرة مصر لكثير من زملائه ، وعين أستاذاً في جامعة قطر ، وجامعة أم القرى بمكة المكرمة ، وجامعة عبد القادر الجزائري بالجزائر توفي رحمه الله بمكة المكرمة سنة ١٩٩٥ م .

وعدا هاتين المناسبتين كانت لي محاضرتان مهمتان ، إحداهما بعنوان : «شعر إقبال ورسالته» في مؤسسة «دار العلوم» الموقرة التاريخية ، والأخرى بعنوان : «الإنسان الكامل في نظر الدكتور إقبال»^(١) في جامعة فؤاد الأول (جامعة القاهرة) . وقد كانت مناسبات أخرى في عدد من المراكز الدعوية والجمعيات - كشباب سيدنا محمد ﷺ وجمعية أنصار السنة المحمدية والجمعية الشرعية ، وجمعية العشيرة المحمدية ، وجمعية مكارم الأخلاق ، والرابطة الإسلامية - كانت هي سبب تعارف في أسر هذه المنظمات والأوساط وأعضائها ، وتمهيد الطريق للعلاقات والصلات .

اللقاءات مع الطلاب ، والجولات في القرى والأرياف :

وبدأنا - عدا هذه المحاضرات في الجمعيات - سلسلة اللقاءات بالطلاب المقيمين في أروقة الأزهر والفنادق ، الذين جاؤوا من أصقاع العالم البعيدة وخاصة من البلدان الإفريقية في آلاف مؤلفة ، والخطاب فيهم ، لقد كانت هذه ثروة بشرية عظيمة تكدست في القاهرة باسم الأزهر وشهرته الدينية والعلمية العالمية ، وقد كان من الممكن استغلال هذه الثروة وتسخيرها لا في القارة الإفريقية (التي كان طلابها الموجودون فيه بأكثر عدد) بل في البلدان العربية كلها ، وفي جزء كبير من العالم الإسلامي للدعوة والإصلاح في المسلمين ، والتربية والتعليم الديني والقيادة الإسلامية الصحيحة ، ولكن للأسف لم يكن هناك نظام منسق لتربيتهم العقلية والفكرية ، ودراستهم الإسلامية الصحيحة ، والتوجيه والإرشاد في البلاد ، فلم يكن في أروقتهم وفنادقهم التي كانوا يقيمون فيها ، ولا في الأزهر من يتولى توجيههم وإرشادهم في مطالعة الكتب المفيدة ، وتنشئة ملكاتهم ودلالاتهم على ما يواجهونه من تحديات وقضايا في بلادهم ، وكيف يستطيعون أن يتغلبوا عليها ، وكيف يستطيعون التأثير في المجتمع ، وماذا عليهم من

(١) انظر هذه المحاضرة في كتاب «روائع إقبال» لسماحة الشيخ الندوي .

الواجبات والمسؤوليات إذا رجعوا إلى بلادهم ، وما هي وضعية الاستعداد الذي لا بد منه لمواجهة تلك القضايا والمسائل .

لقد كان الطلاب أحراراً لا رقابة عليهم ، فكان لهم أن يحضروا الدروس في المعاهد والكليات التي كانوا يدرسون فيها ولا بأس إذا غابوا عنها أيضاً ، ثم يشاركون فيما شاؤوا من اللهو والمسليات في البلد وهي كثيرة ، ويحضروا ما شاؤوا من النوادي والمحافل أضرت أو نفعت ، ويتأثروا بأجوائها وتصوراتها ، فلهم الحرية في كل ذلك ، وقد تحدثت في هذا الموضوع مع شيخ الأزهر الشيخ عبد المجيد سليم - الذي كان يحتل مكاناً دينياً مرموقاً ، وكان الأزهر قد تمتع بعد مدة طويلة بمثل هذا الرئيس الذي اعترف بمكانته الدينية والعلمية - وتقدمتُ إليه ببعض الآراء والاقتراحات ، فأراد مني أن أقدمها إليه في صورة مذكرة مكتوبة ، وأوصى الشيخ محمود شلتوت أن يأخذ مني هذه المذكرة ويعرضها في اللجنة للتأمل والدراسة ، فأعددت هذه المذكرة وقدمتها إلى الشيخ شلتوت ، ثم لم أدر ماذا كان مصيرها .

وقد كان ارتباطي بالطلبة الأتراك - الذين بُعثوا إلى الأزهر لأول مرة بعد ثورة أتاتورك لدراسة العلوم الدينية ، وكان أكثرهم مقيماً في لوكاندة بغداد - أكثر من غيرهم ، وألقيت فيهم عدة محاضرات ، وكنت أتوسم في عدد من هؤلاء الشباب ذكاءً نادراً ، وصلاحية كبيرة ، وبقي بعضهم على صلة بي بعد عودتهم إلى بلادهم وتولوا مناصب دينية موقرة ، وقد شعرت تجاه هؤلاء الشباب الأتراك - للعلاقة القريبة بين الهند وتركيا ، التي زادتها وقوتها حركة الخلافة في الهند ، وصبغتها بصبغة عاطفية دينية - بمناسبة وقرب ، وسرعان ما أنسوا بي وأحبوني ، ووجدت فرصة طيبة للخطاب في الطلاب السوريين والأندونيسيين والأريتيريين ، وكان طلاب كلية الشريعة وأصول الدين بالأزهر أقرب إليّ ، وأكثرهم حفاوة بي ، وقد زرتهم في سكنهم مراراً ، وكانوا يزوروني في مقري في غير كلفة وحرص^(١) .

(١) كان من أبرز هؤلاء الطلاب طالب اسمه يوسف القرضاوي ، قد نبغ وفاق بعون الله ، =

وقد نظم الإخوان - الذين سيأتي ذكرهم سوى هذه الجمعيات والجماعات - رحلاتي وجولاتي التي كان يرافقني فيها دائماً ترجمان الإخوان الداعية الكبير الشيخ محمد الغزالي ، وقد قمنا بهذا الصدد بجولات دعوية في القناطر الخيرية ، وطنطا ، وبنها ، وحامول ، وحلوان ، وستريس ، والمحلة الكبرى ، ونكله ، والعزيرية ، وقويسنا ، ونبروه ، وقد تألفت جماعة في المحلة الكبرى - التي هي أكبر مركز صناعي في مصر - فخرجت إلى نبروه متطوعة داعية .

لقد كان أخي الأكبر يعرف العالم الإسلامي معرفة عميقة واسعة ، فكانت دراسته محيطة جامعة ، وقلبه عامراً فائضاً بعاطفة الدعوة الإسلامية وقوتها وازدهارها ، ولما أنه كان درس - أيام طلبه - موضوع الجغرافية إلى المرحلة الثانوية ، وكان يعرف نتيجة دراسته الشخصية وهوايته أوضاع الجزيرة العربية والبلدان الإسلامية الجغرافية ، والسياسية ، والاقتصادية ، وإمكانيات النهضة الإسلامية وعقباتها فيها ، فكان يكتب إليّ من لكهنؤ رسائل تَقْفُنِي على أهمية مصر الدعوية والقيادية ، وتوفر المجال الفسيح للدعوة الإسلامية في إفريقية ، وتحثني على أن أقوم بمحاولتي في الطبقة الدينية بمصر ، ليتولوا مهمة الدعوة ونشر الإسلام في إفريقية ، وأقدم هنا مقتطفاً من إحدى رسائله :

(أدعو الله تعالى أن ينور إفريقية بنور الإسلام ، ويجعلك وسيلة لذلك ، ويجازيك كما هو أهله من الكرم والعطاء . إن كثيراً من البلدان ازدهرت فيها

= وهو يعرف الآن بالدكتور يوسف القرضاوي صاحب الكتاب المشهور «فقه الزكاة» ، وأصله من مصر ، تخرج من كلية أصول الدين في الأزهر وظهر نبوغه وتجلت قدرته على الخطابة والكتابة وهو شاب ، انتقل إلى قطر في أوائل السبعينيات ، وتولى التدريس في جامعة قطر حتى وصل إلى عمادة كلية الشريعة ، مع اشتغال بالتأليف والدعوة إلى الله ، تعرف عليه سماحة الشيخ الندوي أثناء هذه الزيارة ، وتوثقت بينهما الصداقة التي دامت وأثمرت ، وكل ما كان لله يبقى .
والطالب عبد الله العقيل الذي قد تعين مستشار وزارة الأوقاف بالكويت ، وكان الأمين العام الأسبق لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة .

المدنية منذ زمن قديم مثل الهند ، فيحول استكبار غير المسلمين فيها عن قبول الحق والخضوع له ، أما إفريقية فإنها لم تعرف المدنية - سوى مصر - ، ولا تزال البقاع الكثيرة منها لا تعرف الديانة المتمدنة غير الوثنية الجاهلية البدائية ، فكأن هذه القارة بأسرها كلوحة ساذجة نقية ، ومن المعقول جداً أن تتوفر فيها صلاحية قبول الحق والاعتراف به كما كانت في العرب الجاهليين والأتراك والبربر .

تقبل الله جهودك ، وفتح قلوب أهالي إفريقية بقبول الحق ، إن مصر هي باب إفريقية ، فلو شعر أهل مصر بمسؤوليتهم ، وحاولوا استغلال الفرص الطيبة مع كونهم في بلادهم ، وإذا مر حجاج المغرب والصحراء وجنوب الصحراء ومناطق المغرب المختلفة ، الذين يحج أكثرهم مشاة على الأقدام بمصر فليجتهد فيهم ، ويحملوهم على الاشتغال بالدعوة الدينية والخروج في بلادهم ، وبين غير المسلمين الساكنين في المناطق المجاورة القريبة ، فإنه سوف تصبح إفريقية كلها في يوم من الأيام مستضيئة بنور الإسلام).

اسمعي يا مصر :

شعرت بعد وصولي إلى القاهرة بأيام بضرورة أن أخطب مصر خطاباً يذكرها برسالتها ودورها ومكانتها ، ويشعرها بأنها تستطيع أن تقوم بالدور القيادي والتوجيهي للعالم العربي بل للعالم الإسلامي كله ، فماذا تأخذ من الغرب وتعطيه بعد الفحص والاختبار للعالم العربي؟ وماذا عليها في مقابل ذلك أن تعطيه للغرب حتى يجد الغرب طريقاً جديداً للحياة ويخرج من المستنقع الذي لا يزال يتورط فيه . على مصر أن تقضي في ذلك وتصدر حكماً فاصلاً ، وليس ذلك إلا لمصر وحدها التي تقع على نقطة الاتصال بين الشرق والغرب حيث تلتقي حضارتان وتجتمعان ، ثم إن مصر في حاجة إلى قناة معنوية فكرية تكون واسطة التبادل الحُر بين الشرق والغرب على قدم المساواة والثقة بالنفس ، فينبغي أن تقدم مصر أنفس أشياءها وأغلاها - وهي رسالة الإسلام - إلى الغرب ، وتأخذ من الغرب ما تفوق فيه وسبق ، وهي التكنولوجيا الحديثة والعلوم والصناعات الجديدة .

فبدأت لأجل هذا الغرض أكتب مقالاً شعرت فيه بورود المعاني وانثيالها ما لم أشعر به إلا قليلاً ، أشدت فيه أولاً - برحابة صدر وسخاء - بدور مصر الديني والعلمي القيادي الرائع ، ومآثرها العظيمة في النشر والتوزيع ، وفتوحه الأدبية ، والعلمية ، وتاريخ الأزهر الزاهر ، ومآثرها في خدمة العلم والدين ، ثم صارحتها ، فقلت :

(يا مصر ، إن لك يدين ، فخذني بإحداهما الأشياء النافعة المفيدة وأعطي بالأخرى الروح والحياة ، وقدّمي إلى الغرب تحائف الإيمان والإسلام ، ولا تنسي هذه الحكمة النبوية: إن اليد العليا خير من اليد السفلى).

ثم أشرت إلى مواطن الضعف التي كانت نتيجة عهود الحكومة الماضية ، والمجتمعات الفاسدة والصحافة الخليعة الماجنة ، دعوت مصر إلى التحلّي بصفات الرجولة وتبني الأخلاق الإسلامية ، وتجنب تلك الأشياء التي أدت بالشعوب الماضية إلى الانقراض والاندثار ، ثم قلت لها: إن الله تعالى قد اختار لها قارة عظيمة واسعة ، وإن عليها أن تقوم بدورها القيادي والدعوي فيها حيث لا تزال تشاهد في أكثر أصقاعها وبقاعها الحياة الجاهلية وعقائدها ، وعبادتها للأصنام ، ولكن كثيراً من الشعوب فيها لا تزال على بساطتها وسذاجتها ، وإن قلوبها كلوحة صافية يمكن أن تثبت عليها بدون جهد ومشقة كبيرة حروف ونقوش جديدة .

هذا المقال الذي أعدته في معظم الليل وجزء من النهار ، نشر في مجلة «الرسالة» السائدة ، ثم نشرتها بعد مدة قليلة بمصر بعنوان «اسمعي يا مصر» في صورة رسالة مستقلة ، تلقفها الناس وتلقوها بشوق ورغبة واستحسان ، وقابلت سيد قطب وأنا قريب العهد بإخراج هذه الرسالة ، فقال: قرأت «اسمعي يا مصر» ويا ليت مصر قد سمعت^(١).

(١) نشرت هذه الرسالة في ضمن رسائل ومقالات سماحة الشيخ الندوي في كتاب «العرب والإسلام».

رسائل أخرى:

ونشرت لي - عدا هذا المقال - ثلاث مقالات أخرى أيام إقامتي بمصر ،
إحداها: «المدّ والجزر في تاريخ الإسلام»^(١) ، والثانية: «شاعر الإسلام
الدكتور محمد إقبال»^(٢) ، والثالثة: مجموع الأحاديث الإذاعية السعودية ،
بعنوان: «بين العالم وجزيرة العرب»^(٣) ، وقد انتشرت عن طريق هذه
الرسائل - التي قُدِّمت إلى العلماء وأصحاب الفكر باهتمام بالغ - آرائي
وملاحظات وأفكار وعُرفْتُ بها في الأوساط الأدبية والعلمية .

الصلات الخاصة:

لقد كانت لي لقاءات مع جميع أدياء مصر تقريباً سوى الدكتور طه حسين
باشا الذي كان قد أصبح وزير التربية ، وكانت له جولات متصلة في
الخارج . والدكتور محمد حسين هيكل الذي لا أذكر سبب عدم اجتماعي
به ، وشاركت في مجالس بعضهم ممن تقدم ذكرهم ، وقد كانت صلتي
بالأستاذ الدكتور أحمد أمين أكثر بطبيعة الحال ، فإنه نشر لي كتاب «ماذا
خسر العالم بانحطاط المسلمين» كذلك كان ارتباطي وصلتي أقوى بالشيخ
حسنين محمد مخلوف والشيخ أحمد محمد شاعر في العلماء ، وباللواء
صالح حرب باشا ، والمفتي أمين الحسيني في القادة والزعماء ، وبالدكتور
محمد يوسف موسى أستاذ كلية أصول الدين ، والدكتور أحمد الشرباصي
في الأساتذة الفضلاء ، وجماعة الإخوان المسلمين وشبابها الدعاة والقادة
في الجماعات والمنظمات .

الإخوان المسلمون في مصر وصلتي بهم:

لما سافرتُ إلى مصر كانت عندي رغبة شديدة في الاطلاع على حركة

(١) نشر هذا المقال فيما بعد من: المجمع الإسلامي العلمي بلكهنؤ (الهند) ومن دار القلم
بدمشق ، ومن دار ابن كثير دمشق - بيروت سنة ١٩٩٩ م .

(٢) طبع هذا المقال من دار الكتاب العربي بالقاهرة ، ونشر أخيراً في ضمن مقالات
ومحاضرات حول محمد إقبال في كتاب «روائع إقبال» لسماحة الشيخ الندوي .

(٣) صدر هذا الكتاب عن دار ابن كثير بدمشق ١٩٩٩ م .

الإخوان المسلمين ودراستها ، وأن أجمع المعلومات المباشرة عنها وأقابل أصحاب الإمام حسن البنا ورفقته والشباب الذين رباهم تربية إخوانية ، وأتعرف على أصول هذه الدعوة ومبادئها وأسباب نجاحها وانتشارها ، وقد كان الإمام قد استشهد عام ١٩٤٩ م ، ولكن كان جميع أصحاب الشيخ ورفقته والعاملين معه وتلامذته وأصدقائه موجودين إذ ذلك لحسن حظي ، وكان كتابي «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» - الذي كان قد طبع في مصر قبل رحلتي بشهور - قرىء في وسط الإخوان وحلقاتهم بشوق واهتمام ، ووضع الإخوان لسعة صدورهم وعدم تعصبهم الذي امتازوا به من بين المنظمات الإسلامية ، في ضمن مقرراتهم ومنهجهم الدعوي الخاص ، فكان هذا الكتاب وسيلة تعريف بي ، ثم كوني مسلماً هندياً وعلاقتي بمؤسسة تعليمية معروفة كان سبباً كافياً لجذب انتباه الإخوان - الذين كانوا دعاة إلى وحدة العالم الإسلامي والتعارف والتضامن بين أفرادهم . أما شخصية الإمام حسن البنا والمعلومات الذاتية والتاريخية عنها ، فقد كان أوثق مصدر وأولاه بالأخذ والاعتماد شخصية والده الموقر الشيخ أحمد عبد الرحمن البنا ، الذي أفادني بجميع المعلومات الضرورية حتى الجزئية عن ولده الذي هو مفخرته وذخره في الآخرة إن شاء الله .

وعدا ذلك كان زميل الإمام في الدرس ومشاركه في العمل ومرتبّي الإخوان الأستاذ بهي الخولي^(١) (مؤلف «تذكرة الدعوة») من خاصة أصدقائي وأحبابي ، فقد حكى لي عن الإمام البنا تفاصيل من مشاهداته وانطباعاته

(١) أحد المرربين والموجهين الكبار من جماعة الإخوان بمصر ، درس في جامعة القاهرة ، وكان زميلاً للإمام حسن البنا وكان مدة حياته على العهد والوفاء له ، يحبه ويذكر مآثره بلذة وإعجاب ، له كتاب «تذكرة الدعوة» وهو كتاب مفيد مثير ، أحب سماحة الشيخ الندوي ، وقرأ ما كتبه باهتمام وشغف ، توطدت العلاقات بينه وبين سماحة الشيخ الندوي منذ هذه الزيادة وظلت إلى وفاته ، كان - رحمه الله - يعطف كثيراً على سماحة الشيخ الندوي ، وكان من المعجبين بشخصيته العبقريّة ومن المشيدين بأعماله الجليلة في مجال الفكر والدعوة .

ومعلوماته كصديق له وزميل ومعاصر له مشاهد ، كما كانت لي لقاءات - سوى هذين الشيخين - بعدد من أولئك الشباب الذين كانوا موضع ثقة الإمام وبمثابة أمين سرّه وعضده الأيمن ، كالأستاذ صالح العشماوي^(١) ، مدير تحرير «الدعوة» والأستاذ منير دلّه (القاضي في المحكمة العليا) والأستاذ عبد الحكيم عابدين^(٢) ، والأستاذ سعيد رمضان^(٣) ، والأستاذ فريد عبد الخالق ، وقد حصلتُ منهم على معلومات صحيحة معتبرة عن حياة الإمام وجوانب شخصيته المتنوعة ، وشعرت بعد الاجتماع بهؤلاء ومقابلتهم أنني لم أحرم - كلياً - زيارة الإمام .

إن ما سمعته من هؤلاء وما شاهدته من أثر الشيخ أيقنتُ معه بأنَّ شخصيته كانت من الشخصيات التاريخية غير العادية التي يخلقها الله تعالى لقيادة حركة أو القيام بدعوة أو إحداث ثورة إسلامية في عهد من عهود التاريخ ، ويهبهم للقيادة والإرشاد صلاحيات متنوعة فائقة ، وعقلاً كبيراً

(١) هو الكاتب الإسلامي القدير والصحافي المسلم البار ، الأستاذ صالح عشماوي ، منشئ صحيفة «الدعوة» لسان حال الإخوان ، والصحيفة الإسلامية السائرة المقبولة عند المسلمين . جاهد وثابر ، واستقام على الطريقة التي انتهجها قائد الحركة الإمام البنا . واختارها لنفسه ، توفي بالقاهرة سنة ١٤٠٤هـ ، رحمه الله وأثابه .

(٢) خطيب داعية شاعر ، نال إجازتي الآداب والحقوق من جامعة القاهرة ، انضمَّ إلى جماعة الإخوان المسلمين واختير سكرتيراً لها ، وكان أحد المرشحين لخلافة مرشدنا الشيخ حسن البنا ، حج عام ١٩٥٤م ولم يستطع العودة إلى مصر ، فعاش متنقلاً بين السعودية وسورية ولبنان وعيّن مستشاراً للهيئة العربية العليا في بيروت ، توفي فيها سنة ١٤١١هـ .

(٣) هو صديق سماحة الشيخ الندوي العزيز الدكتور سعيد رمضان المصري ، كان من الأعضاء النشيطين البارزين لحركة الإخوان ، تخرج من جامعة القاهرة ، وأحرز شهادة في الحقوق ، وضاعت به مصر ، فقصده باكستان ، وأقام فيها مدة ، ثم لجأ إلى جنيف ، وأنشأ فيها المركز الإسلامي ، ونال الدكتوراه من جامعة بون الألمانية ، وكان من أصحاب فكرة قيام رابطة العالم الإسلامي (بمكة المكرمة) الأولين ، وأعضاء المجلس التأسيسي الموجهين ، أنشأ مجلة «المسلمون» من جنيف ، التي لم تكن مجرد مجلة ، بل كانت مدرسة سيارة في الأقطار الإسلامية التي تتكلم أو تفهم العربية . كان الدكتور صهر الإمام حسن البنا رحمه الله .

واسعاً ، وقلباً ولوعاً فائضاً بالحب والحنان ، ولساناً فصيحاً بليغاً ، وأخلاقاً طيبة كريمة ، وشخصية حبيبة أثيرة . لقد كانت هذه هي العناصر التكوينية في شخصية حسن البنا ، وإني كلما أنشدت هذا البيت من الشعر ، تمثلت لعيني شخصية الإمام ويخيل إليّ كأن محمد إقبال وصفه بقوله :

(نظرة عالية سامية ، وكلمة رقيقة حانية ، وقلب ولوع متألم ، هذا هو زاد الطريق لأمير الركب وقائد القافلة).

وقد كانت حركة الإخوان - لسوء حظي - عندما كنتُ في مصر مفروضاً عليها الحظر ، لا يسمع باجتماعاتهم وندواتهم ، ولكن للثقة التي وضعها أصحابها والمسؤولون عنها فيّ تشرفت بالحضور في مجالسهم ونواديبهم الخاصة ، ووجدتُ فرصة الاستماع إلى خواطريهم وآرائهم ، وعرض آرائي وأفكاري عليهم ، وقد تمتعت بفرصة طيبة لتقديم آرائي واقتراحاتي بصورة مرتبة منسقة لمكتب الإرشاد للإخوان ، حضره عقول الإخوان وقلوبهم وشخصياتهم الرئيسية ، وذلك بعنوان «أريد أن أتحدث إلى الإخوان»^(١) ، يقدر مدى استجابتهم لها وإشادتهم وتنويههم بها ، أنهم نشروها في صورة رسالة مستقلة ، وصدرت لها إلى حين لم يفرض الحظر على حركة الإخوان مرة ثانية ثلاث طبعات ، والواقع أنني لم أجرب مثل هذه السماحة ورحابة الصدر وسعة الأفق والترحيب بالنقد، من أي جماعة دينية أو سياسية أخرى .

وقد خرجت في تلك الفترة مع الشيخ محمد الغزالي - الذي هو أكبر كاتب وباحث إخواني وأوثق ترجمان للجماعة - إلى كثير من قرى مصر وأريافها مراراً وتكراراً ، وقد رأيت في هذه الجولات مشاهد رائعة من

(١) لقد قدم الطبعة الأولى من هذه الرسالة الشيخ محمد الغزالي ، وقدم الطبعة الثانية خليفة الإمام البنا المرشد العام الشيخ حسن الهضيبي ، وإنه لأمر يمتاز في تاريخ الجماعات بأهمية وغرابة أن يقدم أكبر مسؤول في الجماعة كتاباً أو رسالة فيها ملاحظات عن الدعوة وشرح وجهة نظر خاصة ربما لا يوافقون عليها كلياً . نشرت هذه الرسالة مرات من مصر ونشرت أخيراً من المجمع الإسلامي العلمي بلكنهؤ (الهند).

حماس الإخوان الديني وضيافتهم الكريمة وحفاوتهم البالغة ، وإسلاميتهم وحبهم وإخلاصهم وعدم تعصبهم ورحابة صدورهم لا أنساها أبداً ، وأمکن لي أن أقيس بذلك تربية الإمام البنا وتأثيره وصنعه للرجال وإحداث ثورة في السيرة والأخلاق ، وعلمت كيف أن هذه الشعلة الجواله ألهمت مئات من القلوب بالحرارة الإيمانية ، وأن الجوانب التي تأثرت بها بعد دراسة هذه الحركة ومقابلة من ينتمون إليها ويعملون فيها ومشاهدتهم عن كثب ، هي كالتالي :

١ - إنَّ هذه الحركة أحدثت في مجتمع وشعب تأثر بالحضارة الغربية والمدنية الغربية وعلاقتها وأدائها تأثيراً كبيراً ، وتأثر بالحكم التركي والمملكة الوراثية ، وحوّلت إلى طبقة من «المترفين» قوة عملية جبارة ، وعاطفة قوية للتضحية والجهاد ، وبساطة وتقشفاً في المعيشة ، بحيث لا يوجد لها نظير في هذا العصر ، وفي تعبير أحد قادتها وموجهيها الشيخ بهي الخولي : (إنها نفخت في الشعب الرخو الرقيق حياة جديدة ، وقوة جديدة) وينبغي للاطلاع على هذه الروح المعنوية القوية ، وعاطفة العمل والتضحية والاستماتة فيهم وجرائتهم وعلو همتهم دراسة كتاب «الإخوان المسلمون في حرب فلسطين» .

٢ - والشيء الثاني الذي أثر فيّ ، هو حبّ الإخوان وحفاوتهم البالغة وحرارتهم والصلوات القوية المستحكمة بينهم ، وقلّ ما شاهدت مثل هذه الصلاة الأخوية الودّية والشعور بالأخوة الصادقة والزمالة الطيبة بين أفراد جماعة في الجماعات والحركات والدعوات الأخرى . إنَّ حركة الإخوان أنشأت أخوة عالمية يعتقد فيها كل فرد من أفرادها بعضهم بعضاً كأخيه الشقيق ، ويكون دائماً على استعداد - من دون عصبية للجماعة أو حميّة جاهلية - لنصرته وتأييده والدفاع عنه .

لقد كتبت إحدى الصحف المصرية ساخرة هازلة ، وأعتقد أنها اعترفت بالحق وأنطقها الله بلسان الصدق : (لو عطس حسن البنا في القاهرة لقال الإخوان في أسوان : «يرحمك الله») وليس هذا شأنهم مع مرشدهم

العام ، بل هو الشأن فيما بينهم مع كل عضو من أعضاء الجماعة ، وهي عاطفة مشتركة وموقف مشترك بينهم ، إنهم إذا تعارفوا فيما بينهم يبدؤون في تعريفهم بقولهم : «أخوك في الله» ، ويبدو من هذا الطريق أنهم يعتقدون في هذه الأخوة في الله ، ويؤمنون بها إيماناً صادقاً ، ويحاولون جهدهم في تحقيقها وتطبيقها .

٣ - والجانب الثالث الذي تأثرت به كثيراً هو أن هذه الحركة متصلة بالحياة وقضاياها ومشاكلها اتصالاً عملياً قريباً فهي لا تنأى بنفسها عن قضايا الحياة ، بل تؤثر فيها وتحاول حلها وعلاجها ، فلها صلة قائمة بالعامية والحياة ، ولها دخل ومواقف في حياة الجماهير ، فقد قامت بإصلاحهم وإزالة فسادهم ، وحاولت في كل خطوة من خطواتها علاج مشاكلهم ومساعدتهم ، وأرى أن لذلك دخلاً كبيراً في تأثيرها ونفوذها وقبولها في الناس .

٤ - والجانب المضيء الرابع الذي تمتاز به هذه الحركة أنها تحاشت الخلافات الدينية والعلمية والمذهبية في عملها ، ويمكن أن يعتبر ذلك في جوانب ضعفها ، ولكن لو نظرنا إلى انحطاط العالم الإسلامي الديني والخلقي ، والغزو الأجنبي الثقافي ، وغزو الإلحاد والإباحية ، والفوضى العقلية في المسلمين ، لكان هذا من حسن حظ الدعوة الإسلامية أن تصرف كل جهودها وأوقاتها وقوتها وصلاحتها في العمل الإيجابي البناء ، ونشر الدعوة الأساسية ، والقيام بأساسيات الدين .

٥ - وإن أنجح الجوانب وأضوأها في حركة الإخوان ، أنها وقفت - بقوة - في طريق تيار الإباحية واللا دينية الجارف في مصر - ويتبعها البلدان العربية الأخرى - وأثرت على نزعة الاستهزاء بالدين والاستخفاف به والردة العقلية والثقافية والثورة على العقائد والتعاليم الدينية التي كانت تسود وتطغى . والذين لهم اطلاع على صحافة مصر وأدبها يعرفون جيداً أنه كانت هنالك محاولة ومؤامرة منظمة دقيقة ضد الدين في هذه البلاد ، وأن أدباء مصر وصحفيها وباحثيها ومؤلفيها كلهم كانوا قد أقاموا جبهة

قوية ضد الدين وكل ما يمت إليه بصلة ، وكانوا يتحكمون بكفافة الثورة الفرنسية وحملة رايتها بأدبهم «التقديمي» وآرائهم وبحوثهم التي تبث الشكوك وتبذر الشبهات وتبليبل الأفكار والعقائد - على المجتمع المصري الإسلامي ويحطمون كيانه ويدمرون شخصيته ، وكان يصدق عليهم قول الله تعالى : ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ عُرْوَةً﴾ ولم تكن هناك جماعة دينية حتى الجامع الأزهر يجرؤ على مواجهة هذه الجبهة الطاغية ويرفع صوته ضدها .

ويعترف أعداء الإخوان والمخالفون لهم أيضاً أنّ حركة الإخوان هي التي أضعفت هذه الجبهة وقاومتها ، وأدخلت في قلوب أهلها الذعر والخوف ، فلم يعد يقدر أي زعيم من زعماء الأدب الكبار أن يدعو إلى الإلحاد واللا دينية دعوة سافرة ويستخف بالدين جهاراً وعلناً ، فقد أنشأت الحركة الإخوانية جنداً قوياً من الشباب الغياري وأصحاب الحمية من المسلمين ، حتى لم يكن للزنادقة والملحدين أن يجرؤوا على نشر أفكارهم وكتبهم الإلحادية ، ولا للصحف والجرائد والمجلات أن تجرؤ على الاستهزاء بالدين الإسلامي والحضارة الإسلامية وتسخر منهما ، كما أنشأت جنباً إلى جنب جماعة من الأدباء والنقاد والكتّاب الإسلاميين والبارعين في كل فن وعلم يقدرّون على مواجهة هؤلاء الملحدين ومقاومة تياراتهم وعرض الأدب الإسلامي أمام النشء الجديد .

إنها لمأثرة عظيمة للإخوان لا يمكن أن يستهين بقيمتها كل من في قلبه ضوء من إيمان ، ولما أن مؤلف هذه السطور مطّلع على حياة هذه البلدان وأوضاعها الماضية والثورة الدينية والفكرية الحاضرة ، وقد تيسرت له بفضل فرصة الإقامة الطويلة بها مشاهدات وتجارب شخصية ، فهو يعرف معرفة جيدة كيف أثر الإخوان في النشء الجديد فكرياً وعاطفياً ، وإلى أي مدى أحدث فيهم القوى والجراءة على إظهار شعائر الدين وإعلانها ، وكيف بدأ أولئك الذين كانوا يخجلون من الظهور بالمظاهر والشعائر الدينية وإظهار العقائد والحقائق الدينية يتظاهرون - علناً - بالفرائض والشعائر الدينية على مشهد من الناس ، ويحملون الشعور بالاستعلاء بدلاً من الشعور بمركب

النقص ، وقد كان نتيجة هذه المشاهدات والملاحظات والتجارب الشخصية أن قلت في إحدى محاضراتي بالهند ، وأنا أتحدث عن الإخوان : (لا يحبهم إلا مؤمن ولا يبغضهم إلا منافق).

وإن من أعظم الجرائم أعمال السفك والقتل والتشريد التي أدت في التاريخ الإسلامي إلى خسائر عظيمة فادحة للأمة الإسلامية وحولت تيار الزمن ، جريمة قتل حسن البنا ، الجريمة التي حرمت الشرق العربي - على الأقل - قائداً كبيراً من قادة الحركة الإسلامية من الانتفاع وحرمة من الانتفاع بصحوة دينية إصلاحية شاملة وانتفاضة إسلامية بناءة .

والواقع أن الإخوان لو لم يشاركوا - لفترة قليلة أخرى - في السياسة العملية أو لو لم يتورطوا في تلك السياسة العملية ، واشتغلوا بعملهم الدعوي والإصلاحي بكل ما أوتوا من قوة وصلاحية ، لظهرت هناك صورة إسلامية في البلدان العربية ونشأت حياة جديدة ، وقد علمت من عدد من المصادر الصحيحة التي يعتمد عليها أن الإمام حسن البنا كان يتأسف في آخر أيام من حياته ويتألم من أنه اضطر للدخول في المجال السياسي قبل أوانه ، وأحاط به الطريق الشائك ، وأنه كان يتمنى كثيراً إلى أن يعود - مرة ثانية - إلى العمل الدعوي التربوي الخالص ، ويجد فرصة كافية لإعداد الجماعة ، وتربية المسلمين حتى يستطيعوا القيام بكل مسؤولية تناط بهم ، ويمر بكل محن يصابون بها ، وبلاء يختبرون به بسلام آمنين .

توديع لمصر :

وها نحن أولاً نودع مصر العزيزة بعدما أقمنا فيها نصف عام تقريباً وطاب لنا المقام فيها فغز علينا الفراق ، لقد نزلنا في مصر ونحن لا نقدر من الإقامة فيها إلا شهراً أو شهرين فإذا بنا نفسح الأجل ونتساهل في السفر ونتعلل بعسى ولعل حتى أربت الإقامة على خمسة أشهر ، ولو قيل لنا عند قصدنا لمصر أنكم ستقيمون فيها نحو ستة أشهر لضاقت صدورنا وأنكرنا ذلك أشد الإنكار ، فقد كانت أماننا رحلة طويلة في الشرق الأوسط وما كان نصيب مصر في أيامنا - لو دققنا في الحساب - إلا بضعة أسابيع ولكننا غلبنا على

أمرنا فأرخبنا لمصر العنان وتساهلنا لها في الزمان ، وكذلك الحبيب يأخذ أكثر من النصيب ، وما كل شيء في الدنيا خاضع لقوانين رياضية ، وخير أن لا يكون ذلك! فلو تحكمت الرياضيات في الحياة لضاقت بأهلها ولضاقوا بها ذرعاً. وأصبحت الحياة حركة ميكانيكية لا قلب لها ، ولا جدة فيها ولا طرافة ، ولا متعة فيها ولا سلوى ، ولكن كثيراً ما يثور القلب على العقل والعاطفة ، والهوى على القوانين الوضعية والنظم الرتيبة فتعيدان إلى الدنيا الحياة والنشاط .

إن مصر - على ما فيها من جمال الطبيعة وضخامة المدينة - لم تكن لتحولنا عن نظامنا المرسوم لهذه الرحلة ، ولم تكن لتستهوي قلوبنا لتأخذ منا أكثر من حقها فقد نشأنا في بلاد عرفت من فجر التاريخ بالطبيعة الفاتنة ، والمناظر الساحرة والخصب الزائد والمدينة الراقية ، ولكن الذي راودنا عن نظامنا المرسوم فلم نستعصم هو وجود إخوان مخلصين التقت قلوبهم بقلوبنا وأرواحهم بأرواحنا ، فكأنما كانت من اللقاء والاجتماع على ميعاد ، هو وجود أحبة كرام غمرونا بلطفهم وأنسهم حتى أنسونا متاعب السفر ووحشة الغربة ، بل الشعور بالغربة ، هو وجود قلوب متفتحة كالأزهار دافقة كالعيون ، مشتعلة بالإيمان كالجمرات أحببتنا وأحببناها ، هو وجود فتية آمنوا بربهم وزادهم الله هدى ، ولكنهم خرجوا من الكهف وتحذوا الشر ونازلوا الباطل وصارعوا قواه ، هو وجود حركة دينية وثابتة ونشاط علمي قوي ، وإنتاج سريع ضخم يجعل من مصر مركز العالم العربي ، مدرسة الشرق الأوسط بلا نزاع ، ويكتب لها الإمامة والزعامة والتوجيه العقلي والعلمي ، إن وجود هذا وذاك هو الذي فرض علينا طول الإقامة في ربوع مصر وحسن لنا التخلي عما رسمنا لأنفسنا والزيادة لمصر في قسطها من رحلتنا .

وكم من سائل بعد الرحلة من مصر: ماذا أعجبك في مصر؟ وماذا لم يعجبك .

إن السؤال عسير وإنه لسؤال محرج ولكنه سؤال مهم وسؤال مفيد ، فلا بد من مواجهة هذه المشكلة ولا بد من الإجابة عن السؤال .

أما الذي أعجبني في مصر فحيويتها ونشاطها وعظم إنتاجها العلمي والأدبي وسرعته ، وعنايتها باللغة العربية وتبنيها لها وغيرتها عليها وجهادها في سبيلها ، والنظرة الواسعة إلى القضايا العربية والإسلامية والعطف عليها ، ووجود اليقظة والوعي بالنسبة إلى الأقطار العربية الأخرى .

وأعجبني من أخلاق أهلها سلامة صدورهم ورحابتها ، وحسن الوفادة للضيف المسلم ، وتكريمه وتشجيعه ، والاعتراف بما عنده ، وقوة العاطفة والإيمان ، وخفة الروح ، وقلة العبوس ، وسرعة الائتناس ، والصدقة ، والشغف بالعلم ، والجد فيه ، والإقبال على المطالعة ، واقتناء الكتب .

أما الذي لم يعجبني في مصر ، وبالصراحة الذي أنكرته وأنتقده - ومعدرتي إلى قلبي الذي أحب مصر وأهلها - فهو الميل الفاشي في الشعب إلى التسلية والمتعة الرخيصة ، ووجود طبقة كبيرة العدد واسعة النفوذ تتجر بالأدب الفاجر وتعيش على أثمان الأعراض والأخلاق وتتمتع في مصر الإسلامية بالحرية والاحترام .

ولم يعجبني في مصر وجود الأحزاب السياسية الكثيرة من غير فارق كبير بينها في العقيدة والمبدأ ، واحتدام الخلاف بينها ، واستغلالها للشعب السليم استغلال الأدوات أو الجمادات .

ولم يعجبني كذلك كثرة الجمعيات والهيئات ، وكثير منها ليس لها رسالة خاصة ولا دعوة ممتازة ، وأنكرت منها ومن رجالها المناقشات الشخصية والخلافات الجزئية ، وتحرش بعضها ببعض ، وتخطى الحدود الخلقية والدينية لذلك .

أنكرت في مصر وجود طبقة مثقفة تملك زمام البلاد وزمام التعليم والصحافة والأدب قد تعفن ضميرها وتعفنت عقليتها ، فهي لا تهضم الإسلام ولا تصدق أن له مستقبلاً ، ولا تخلص للإسلام والمسلمين ، وهي الطبقة التي عرفناها في الهند والباكستان وفي تركيا وإيران وسورية

والعراق ، وهي ثمرة التربية السابقة ونتاج التعليم الذي أحسن المستعمرون الغربيون وضعه ، ودققوا في تجريده من الروح الإسلامية والتربية الدينية وهي طبقة متشابهة في العقيدة والعقلية لأن المرخصة واحدة .

أنكرت في مصر التفاوت الفاحش بين الطبقات في الثراء ومستوى المعيشة ووسائل الحياة ، إنه لا مانع من التفاوت ولكن وجود عدد ضخم من الفقراء الذين لا يجدون قوت يومهم وكسوة جسمهم ، ووجود أغنياء يتخمون بفضول أموالهم ومطاعمهم وملابسهم في مجتمع واحد وفي صعيد واحد ، ثم لا يرحم هؤلاء أولئك ولا يرثون لما هم فيه من فقر مدقع وجوع قاتل ، ولا ينفقون في سبيلهم العفو ، تفاوت لا يقره دين ولا يقبله عقل ولا عدل ، وضع شاذ غير قابل للبقاء والاستمرار .

إن كل ذلك أو بعضه ، لا شك أنه من رواسب العصور المنحطة الأولى وعهد الاستعمار الأوربي ، وإن الحركات الدينية والإصلاحية الصحيحة ووجود اليقظة الإسلامية خليق بمعالجة نواحي الضعف والعلل الاجتماعية ، وإن مصر لا شك تجيش بثورات دينية إصلاحية وتمخض بعهد جديد للإسلام والعرب .

أما بعد فسلام على مصر وأهلها ، وتحية من زائر لقي في هذا البلد الإسلامي كل ما يتوقعه مسلم من عطف وكرم وحسن وفادة .

في السودان

خرجنا يوم ٢٨/ شعبان عام ١٣٧٠هـ الموافق ٣/ يونيو عام ١٩٥١م من القاهرة إلى شلال ، ووصلنا مروراً بـ «أقصر» في صعيد مصر عاصمة حكومة الفراغة القديمة إلى ضلال حيث انتهى سفرنا ، ثم ركبنا الباخرة إلى وادي الحلفة ، ثم ركبنا القطار من هناك غرة رمضان الموافق ٦/ يونيو ، وصلنا الخرطوم البحري في ٢/ رمضان ، ونزلنا كضيف للزعيم الديني والروحي في السودان السيد ميرغني باشا^(١) عند أحد أصحابه وخلفائه الشيخ طيب عبد المقصود ، وقد كان يرافقني الشيخ عبيد الله البلياوي أيضاً في هذه الرحلة ، أقمنا في الخرطوم البحري عشرة أيام ، وكانت أيام

(١) يقول فيه سماحة الشيخ الندوي في كتابه «مذكرات سائح في الشرق العربي»: وهو الرجل الذي يتمتع بنفوذ واسع ، وثقة كبيرة من الشعب السوداني ، ويحل في قرارة نفوس أتباعه الذين يعدون بألوف وألوف ، وهو الذي استطاع بنفوذه الروحي وشخصيته القوية وعقله الكبير أن يقوم في وجه الإنكليز ، أن يحافظ على زعامته الروحية ومكانته السياسية ، وهو زعيم حركة «وحدة وادي النيل» الأكبر في السودان ، وقد كنتُ سمعتُ أنه صاحب اطلاع واسع مطلع على الحركات السياسية والدينية شغوف بالمطالعة حريص على المعرفة والدراسة ، وأنه رجل يقظ نشيط ، وأنه نظم ألقاً من السودانيين وشغل الشباب السوداني بنظام يجمع بين الرياضة والذكر والنظافة والنشاط ، كان له الشغل الشاغل عن الحركات الهدامة والأشغال المفسدة للأخلاق ، ويرجع إليه فضل كبير في تهذيب أخلاق هؤلاء الشباب ، وانتشار الدعوة في السودان ، سمعت كل ذلك عن زاروه واجتمعوا به في مصر والسودان ، ولكن الأمر الذي بعث في نفسي الإعجاب بشخصيته والإجلال لها ، هو أنه لم يقع في شرك الأجانب وأنهم لم يستطيعوا أن يشتروه ويستغلوه ، ولم ينخدع بهم على كثرة من انخدع بهم من المشايخ والعلماء والزعماء والعظماء .

رمضان ، والحر شديد ، ولكننا حاولنا جهدنا في انتهاز هذه الفرصة الطيبة للإقامة القصيرة ، وقد كانت لنا لقاءات غنية طويلة مع أعيان السودان وكبار رجالها ، نخص بالذكر منهم السيد: علي ميرغني باشا ، والأستاذ إسماعيل بك الأزهري^(١) ، الذي أصبح فيما بعد رئيس وزراء السودان ، والشيخ شوقي أسد سكرتير جمعية التبشير الإسلامي ، والشيخ محمد عوض إمام المسجد الجامع ، والحاج محمد موسى سليمان قائد العمال ورئيس جمعية الشبان المسلمين بالسودان. وتحدثت معهم عن تجارب الدعوة الإسلامية في الهند ، ونَبَّهت إلى مسؤوليات هذا الشعب المسلم العربي المليء بالحيوية والنشاط الذي لا يزال يحمل كثيراً من الأخلاق والسمات الإسلامية العربية ، ولكنه تحت نفوذ مصر العلمي والسياسي وتأثيرها ، والإمكانات الكبيرة للدعوة الإسلامية في إفريقية والمستقبل الزاهر ، وصرحت بأن السودان وإفريقية - بصفة عامة - تستطيع أن تلعب دوراً خطيراً كبيراً في تاريخ العالم ، وقد لعبت كل قارة دورها واستنفدت طاقاتها وصلاحياتها وأفرغت جعبتها، وقد بقيت إفريقية وحدها ، فإذا تبنت الدعوة الإسلامية في إخلاص وحماس ، احتضنت رسالة العصر التي يحتاج إليها العالم المعاصر ، فإن الله تعالى سوف يُبَوِّئها منصب القيادة في الدعوة الإسلامية في إفريقية ثم في العالم الإسلامي ، ولكن ذلك لا يتيسر إلا إذا عرف الإخوان السودانيون قيمتهم ومكانتهم ووضعوهما في مكانهما اللائق .

السودان طبيعياً وجغرافياً وسياسياً ودينياً:

قبل أن نغادر السودان يحسن بنا أن نلقي نظرة عابرة على السودان وجغرافيتها فإنها من حقوق البلاد التي يزورها الإنسان ويقوم بها مدة من الزمان .

(١) كان مدرساً في أول عهده ، انتخب رئيساً لحزب الاتحاد الوطني السوداني سنة ١٩٥٢م ، وتولى وزارة الداخلية ، فرئاسة الوزارة سنة ١٩٥٤ ، ثم رئاسة جمهورية السودان ، توفي بالخرطوم سنة ١٩٦٩م .

تبلغ مساحة السودان مليونين و٦٢٧ ألف كلم ، ويبلغ طوله من الشمال إلى الجنوب ١٢٠٠ كلم من وادي حلفا شمالاً إلى «جوبا» جنوباً ، وأقصى عرض من الشرق إلى الغرب ١٥٠٠ كلم ، بين البحر الأحمر وحدود مديرية (دارفور) و(إفريقية) الاستوائية غرباً ، فهو أكبر أقطار إفريقية من حيث المساحة ويبلغ عدد سكانه حسب إحصاء ١٩٤٧م مقدار سبعة ملايين نسمة .

ينقسم السودان من الناحية الطبيعة إلى المناطق الثلاث التالية :

١- المنطقة الصحراوية : وتمتد بين دائرة عرض ٥١٧ وبين الحدود المصرية وهي منطقة جافة ذات مناخ صحراوي . وتدعى هذه الصحراء باسم صحراء النوبة .

٢- المنطقة السهلية ، وتمتد خمس درجات عرضية بين دائرتي عرض ٥١٢ و١٧ شمال خط الاستواء ، وهي العصب الحساس في السودان من الناحية الزراعية بعد قيام مشروع الجزيرة لإنتاج القطن ، والجزيرة منطقة واقعة في هذا الإقليم بين النيل الأزرق والنيل الأبيض ، وسكان هذا الإقليم خليط من عرب وسودانيين ، وهم أنشط أهل السودان .

٣- المنطقة الاستوائية وتمتد من دائرة عرض ٥١٢ إلى أقصى الجنوب وتهطل الأمطار أكثر أيام السنة وتزداد صيفاً ، وهي منطقة غنية جداً بمواردها الطبيعية ، وأكثر السكان سودانيون ، وفيهم زنج وثنون .

أكثر سكان السودان من العرب ومن السودانيين ، وقد اختلطوا كثيراً وخاصة في المناطق الشمالية ، ودان كثير منهم بالإسلام ، وقد رحل العرب إلى السودان قبل الفتح الإسلامي عن طريق باب المندب ، وامتزجوا بالسودانيين امتزاجاً قوياً وصاهروهم ، ولا تزال فيه قبائل من أصل عربي احتفظت بكثير من عادات العرب وأخلاقهم ولهجاتهم ، ويشعر الزائر بالطابع العربي والطبيعة العربية في اختلاطه بهذه القبائل .

نظام الحكم : يخضع السودان رسمياً - وبالأصح اسماً - لحكم ثنائي ،

مصري إنجلزي وهو الحكم الإنجلزي البحت ، وأخذت مصر بعد الحرب العالمية الثانية تطالب بجلاء الجيوش الإنجلزية عن وادي النيل فخلقت بريطانيا لها مشكلة السودان ، وقامت حركة قوية في مصر والسودان تعتبر أنها جزء من مصر كما هو الواقع طبيعياً - وعاكستها بريطانيا وأخيراً ألغت حكومة مصر معاهدة ١٩٣٦م واتفاقيتي السودان وأعلنت اتحاد وادي النيل ونادت بملك مصر ملكاً للوادي .

مديريات السودان: وفي السودان خمس عشرة مديرية أهمها مديريات (دارفور) ، (الجزيرة) ، (كسلا) ، (الخرطوم) ، (كردفان) ، (المديرية الشمالية) ، (خط الاستواء) ، (أعالي النيل).

المدن الهامة: الخرطوم (٥٠ ألف نسمة) وتقع على لسان يشبه خرطوم الفيل عند ملتقى النيل الأزرق بالنيل الأبيض وهي عاصمة السودان وأكبر مدينة وأعظمها تجارة وكانت قديماً «أم درمان» الواقعة مقابلها على الضفة اليسرى للنيل الأبيض هي العاصمة ولا تزال مدينة شعبية كبرى يزيد عدد سكانها على مئة ألف نسمة .

والخرطوم مدينة حديثة فيها شوارع منظمة ، وفيها مدرسة كتشنر الطبية ، وكلية (غوردون) التي افتتحت سنة ١٩٠٢م وبدأت بتعليم ابتدائي وثانوي ، وفي سنة ١٩٤٠ أصبح فيها تعليم جامعي .

عطبرة: أهم مركز للسكك الحديدية في السودان ، وتشتهر بنشاطها التجاري والإداري وتقع على النهاية الغربية لخطوط السودان الحديدية .

ومن المدن الهامة: (بور سودان) و(سواكن) و(وبربر) و(شندي) وغيرهما .

الحياة الاقتصادية: اعتماد السودان على الزراعة قبل كل شيء ثم على الرعي وجمع الصمغ العربي وأهم زراعتها الحالية القطن ، شجر الصمغ العربي ، الذرة ، غذاء السودان الرئيسي وغللات أخرى .

الصناعة والتجارة: ليس في السودان صناعة راقية ، أما التجارة

فقد تقدمت بفضل زراعة القطن الذي تحتكره بريطانيا تقريباً بنفسها^(١).

الحالة الخلقية: كان السودانيون على فطرتهم وسذاجتهم حتى ابتلوا بالاستعمار الإنجليزي الذي رافقه - بطبيعة الحال - الأدواء الخلقية التي تحملها الحضارة الغربية والدول المستعمرة معها ففشا فيهم شرب الخمر وتقليد الإنجليز في كثير من عاداتهم وأزيائهم ، ونشأ عنصر مزيج مضطرب بين الطبيعة الشرقية والعادات الغربية كما نشأ في الهند في فجر الحكم الإنجليزي فيها وفي مصر وغيرها ، وهو عنصر غريب لا تنتفع الأمة والبلاد به ، وأكثر ما ترى هذه الطبقة في العواصم الثلاث والمدن الكبيرة.

الحالة الدينية: كان السودانيون معروفين بالتصلب في الدين والمحافظة وقوة العاطفة الدينية بعيدين عن التحلل والإلحاد وخلع ربة الدين حتى دهاهم الاستعمار فظهر فيهم الاضطراب في الدين وأثر فيهم التعليم العصري كما أثر في غيرهم ، إلا أنهم بحكم طبيعتهم وطبيعة إقليمهم وتغلغل الدعوة الإسلامية فيهم لا يزال التدين غالباً فيهم ، إلا أن هذا التدين يغلبه التقديس الزائد لرجال الطرق والمشايخ والخضوع لهم والمبالغة في تعظيمهم وإجلالهم حتى يتخطى ذلك الحدود التي رسمها الشرع ويبلغ حد العبادة والشرك ، وأقوى الطرق تأثيراً في السودانيين وأعظمها انتشاراً في السودان الطريقة الختمية الميرغنية التي يرأسها الآن السيد علي الميرغني فترى صور السيد معلقة في كثير من المساجد فضلاً عن البيوت وكثير من الجوامع في السودان والحبشة! لا يخطب فيها إلا من ينتمي إلى الطريقة الختمية ويكون من أتباع السيد.

(١) المعلومات الجغرافية والأرقام منتقاة من كتاب «جغرافية البلاد العربية» لمؤلفها الأستاذة بسام كرد علي ، شاکر مصطفى ، أنور الرفاعي .

وداع السودان:

توجهنا إلى المحطة وعرفنا أن الحاج سليمان موسى قد سبقنا إلى المحطة وحجز لنا مكانين في القطار كما وعد ، مع أن الوقت كان ضيقاً وكان الحجز في هذا الوقت الضيق يكاد يكون مستحيلاً .

وودعنا إخواننا الذين كنا في ضيافتهم وهم متأثرون بفراقنا ونحن كذلك ، ف سبحان الله ما أقوى الرابطة الإسلامية وما أعمقها .

* * *

في دمشق

غادرنا السودان في ١٢/ رمضان عام ١٣٧٠هـ - الموافق ١٧/ يونيو عام ١٩٥١م إلى القاهرة، ووصلنا القاهرة ١٧/ رمضان الموافق ٢٢/ يونيو، حيث مكثنا يومين، ثم سافرنا بالطائرة إلى دمشق بتاريخ ١٩/ رمضان الموافق ٢٤/ يونيو، ووصلنا من القارة الإفريقية في ساعتين إلى القارة الآسيوية، ونزلنا على أرض دمشق الحبيبة التي هي مرقد الصحابة الكرام رضي الله عنهم، ومنشأ الأولياء والصالحين والعلماء النابغين ومسكنهم ومضجعهم^(١).

نزلنا بدمشق في فندق قصر الأندلس بالمرجة المنطقة الرئيسية الجميلة بدمشق، ثم انتقلنا بعد أيام بالحاح من صديقنا الكريم السيد محمود الحافظ إلى بيت والد زوجته الشيخ عبد الوهاب الصلاحي، الذي كان إماماً في القصر الجمهوري وكان معدوداً في أعيان البلد وصالحيه، وقد تيسرت لنا فيه جميع أسباب الراحة والهدوء، كأننا في بيتنا، كانت مدة إقامتنا كلها

(١) يرى المؤرخون أنه لا توجد مقابر للصحابة - رضي الله عنهم - سوى الحرمين الشريفين بهذه الكثرة كما توجد في الشام ودمشق بصفة خاصة، فمن الصحابة الذين توجد قبورهم بالشام: سيدنا بلال الحبشي مؤذن رسول الله ﷺ، وأبو عبيدة بن الجراح أمين الأمة، ومعاذ بن جبل، وأبو الدرداء، وسعد بن عباد، وأبي بن كعب، ودحية الكلبي، ومن العلماء والمحدثين: ابن الصلاح، والذهبي، والمزي.

ومن المؤرخين: ابن خلكان، وابن عساكر، وابن كثير، ومن أئمة الإسلام: الإمام النووي، وابن تيمية، وابن القيم.

ومن كبار الصوفية: إبراهيم بن أدهم، وأبا يزيد البسطامي، ومحبي الدين بن عربي، ومن الأبطال المجاهدين الكبار: نور الدين الزنكي، وصلاح الدين الأيوبي، كلهم دفنوا في هذه الأرض الطيبة.

بالشام ٤٨ يوماً ، وإقامتنا بدمشق منها ٢٤ يوماً ، ولم تكن هذه المدة نظراً إلى الكمية طويلة ولكنها كانت عديدة عريضة نظراً إلى قيمتها وبهجتها وفوائدها ، فقد حاولنا جهدنا في الاستفادة من هذه المدة التي كانت تمتد على شهر ونصف ، وحاولنا الاتصال بالأوساط العلمية والدينية والأدبية المختلفة ومقابلة شخصياتها الموقرة وتبادل الآراء معها ، وكانت الأوساط السياسية والحكومية خارج دائرتنا في مصر ، كذلك كانت هي في الشام .

وعلى كل فقد قامت الصلات بيننا وبين الشيخ مكّي الكتاني ، والشيخ أحمد الدقر ، والعلامة الشيخ محمد بهجة البيطار ، والشيخ أبي الخير الميداني ، والدكتور مصطفى السباعي ، والأستاذ محمد المبارك ، والأستاذ مصطفى أحمد الزرقاء ، والشيخ محمد أحمد دهمان رئيس الدراسات الإسلامية ، والدكتور أبي اليسر عابدين حفيد العلامة الشامي ومفتي الجمهورية ، والشيخ أحمد كفتارو ، والشيخ محمد سعيد البرهاني ، من العلماء والمشايخ الأجلة ، والشاعر المعروف محمد علي الحوماني ، والأستاذ تيسير ظبيان ، ومحمد كمال خطيب ، من الأدباء الفضلاء ، والعلامة محمد كرد علي ، والأستاذ محمد عزة دروزة ، والأستاذ خليل مردم بك ، والعلامة الشيخ عبد القادر المغربي من المؤلفين المحققين ، وقد كان لي اتصال خاص بالسيد عبد الرحمن الباني من الشباب والأساتذة الذين يمتازون بسلامة الفكر وصفاء الذهن ، فقد كان هو أثناء إقامتي بدمشق كسكرتيرنا المتطوع يصحبنا ويرافقنا ويساعدنا في الوصول إلى الناس وزياراتهم ، وكان مدرساً شاباً ممتازاً لبقاً مطلعاً ، بكلية المعلمين^(١) .

وقد زُرنا في مؤسسات دمشق والشام ومراكزها العلمية والأدبية ، مركز الإخوان المسلمين بجامع الدقاق ، وأقدم مجمع علمي في الشرق العربي وأكثره إنتاجاً المجمع العلمي ، والمكتبة المعروفة المشتملة على كتب خطية نادرة المكتبة الظاهرية ، والمدرسة التاريخية القديمة «دار الحديث»

التي درّس فيها الإمام النووي ، والمنتزه التاريخي العظيم «غوة دمشق» وحضرت إحدى جلسات البرلمان السوري المهمة المثيرة .

في بيت المقدس والخليل :

وتشرّفت في بيت المقدس بزيارة المسجد الأقصى وقضيت الأيام الأخيرة من رمضان وصلّيْتُ العيد بها ، وزُرت قبر زعيم بلادنا المحبوب وقائد حركة الخلافة الكبرى في شبه القارة الهندية مولانا محمد علي جوهر^(١) ، وقضيت يومين في مدينة الخليل المباركة ، ومررنا ببيت لحم ، وحضرنا اجتماع الهيئة العلمية الإسلامية ، وزرنا الكلية العلمية الإسلامية ، وشاركنا جلسات واجتماعات الجمعية الغراء ، والنادي العربي ، وجمعية التمدن الإسلامي بدمشق .

(١) أحد كبار زعماء المسلمين بالهند في القرن الحاضر ، وعظام وقادة حركة تحرير الهند من الإنكليز ، كان يتمنى أن يرى الدول الإسلامية كلها مستقلة وحرّة في أمورها وشؤونها ، وأن تخلع من أعناقها قلادة الاستعباد ، وتكون على منجاة من سيطرة الأجانب ، ويكون الإسلام ومبادئه وأسسها القيمة سائدة على تلك الدول فوجد في هذا السبيل كل العقبات والمشاكل .

كان له في الهند مواقف نبيلة ومشهورة في نصرة العثمانيين والدفاع عن الخلافة العثمانية ، كما كانت مواقف مصطفى كامل في مصر ، والأمير شكيب أرسلان في سورية ، وله مساع جبارة وجهود حميدة في تحرير الهند من الإنكليز ، وكان ذلك هو البطل العظيم الذي أعلن في مؤتمر المائدة المستديرة بلندن سنة ١٩٣٠ أثناء خطبة أمام الإنكليز المستعمرين بكل صراحة وصرامة «لا أستطيع أن أغادر بلادكم إلا ويدي ورقة التحرير لاستقلال الهند إني لا أؤوب إلى بلاد سيطر عليها الأجانب وجعلوا أهلها عبيداً لهم ، وأوثر أن أموت في أرض نائية عن إدارتها ، فاجعلوا إلى هناك أرضاً ليدفن فيها جسدي» .

وكان كذلك . . . فقد سلم روحه الطاهرة إلى بارئها في ٤ من يناير سنة ١٩٣١م في لندن بعدما عاش أكثر من نصف قرن مناضلاً ومحارباً لمحو الاستعمار والأوضاع الباطلة ولصالح الإسلام والمسلمين ، نقل جثمانه إلى القدس حيث دفن في المسجد الأقصى ، انظر ترجمته بكاملها في كتاب المؤلف «الإعلام بمن في الهند من الأعلام في القرن العشرين» .

مدن وأمكنة تاريخية أخرى:

وتفرجنا من المدن والأمكنة على حمص وحماة ومعرة النعمان وحلب ،
ووصلنا إلى «حارم» عند الحدود التركية .

لقاء الملك عبد الله حاكم الأردن والقدس:

قابلنا في عودتنا من بيت المقدس الملك عبد الله بن الملك الشريف حسين بن علي ملك الأردن ، وقد كان علم بقدمنا عن طريق الشيخ محمد صادق المجددي - سفير أفغانستان - الذي كان يعرفني من مصر ، والذي قضينا في ضيافته الكريمة أواخر أيام رمضان بالمسجد الأقصى ، كنا في بيت مضيفنا في عمان ، وقد جلسنا على المائدة ، إذ جاء الطلب من الملك فذهبنا إليه وتعشينا عنده ، وتحدثنا إليه - في غير كلفة - في الأسلوب الدعوي عن أسرته ، وتاريخها الماضي والمسؤولية الدقيقة لتولي بيت المقدس والمسجد الأقصى ومقتضياته ، ثم كان لنا لقاء آخر مع الملك بعد ثلاثة أيام ، وكنا صلينا صلاة الجمعة معاً في جامع البلد فوق بصره عليّ ، ودعانا على الغداء ، وكان قد قرأ في هذه الفترة كتابي «ماذا خسّر العالم بانحطاط المسلمين» الذي كنت قدّمته إليه في زيارتي الأولى ، فعلق عليه تعليقاً طيباً ، ولفّت نظره إلى رعاية المسجد الأقصى والعناية به وباللاجئين الفلسطينيين ، وقدّمت رسالتين من رسائلي: إحداهما: «بين العالم وجزيرة العرب» والثانية: «شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال» وكان من تقدير الله تعالى أنه ذهب لصلاة الجمعة إلى الجامع في الجمعة القادمة ، واغتيل هناك وأخبرتُ به في نفس اليوم في حلقة درس الشيخ أحمد كفتارو^(١)

(١) هو صديق سماحة الشيخ الندوي العزيز والقديم العلامة الكبير الداعي إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة الشيخ أحمد كفتارو ، المفتي العام للجمهورية العربية السورية . نذر نفسه وحياته من أجل إعلاء كلمة الله ، طاف أرجاء العالم ، شرقه وغربه داعياً إلى الله ، إيمانه بالدعوة إلى الحق لا يتزعزع ، يعمل بهمة الشباب ، رغم تجاوزه الخامسة والثمانين من عمره . تعرّف عليه سماحة الشيخ الندوي أول مرة بمكة المكرمة إبان =

في جامع الشيخ محيي الدين بن عربي بدمشق ، وكان أمر الله قادراً مقدوراً.

معلومات موثوق بها وشهادات عينية عن مأساة فلسطين :
لقد علمنا في رحلتنا إلى عَمَّان وبيت المقدس عن طريق الرجال والمسؤولين الثقات تلك الحقائق المؤسفة الأليمة عن مأساة فلسطين التي لم نكن لنطلع عليها بدراسة الكتب ، وخلاصتها: أن قضية فلسطين كانت مسرحية قد أخرجها الإنجليز وأصدقاؤهم من قبل ، وكان الممثلون فيها الملوك العرب وحكوماتهم ، وقد ظهرت هذه المسرحية على منصة فلسطين ، وحققت مؤامرات بريطانيا واليهود وخططهم المدبرة بذر الرماد في أعين العالم العربي والعالم الإسلامي ، ولقد كانت هذه خُطة مدبرة ، وأمرأ مبيّتاً ، وإنَّ أبرا الرجلين من تبعة فلسطين ونكبتها وذُلَّ المسلمين وهوانهم هو الشعب الفلسطيني الحرّ ، والواقع أن المسؤول الأول عن دماء فلسطين هو الحكومات العربية وقادتها والجامعة العربية ، وقد حكى لبعض الناس وهو يبكي هذه الحكاية المخزية ، كان منهم إمام المسجد الأقصى وسكانه وعمّاره ، والشيوخ المعمرين ، وأصحاب الحمية من العرب ، وقد شاهدت الفلسطينيين - أيام إقامتي القصيرة - كاليتامى والغرباء المساكين ، قلوبهم مكسورة محطمة ، ورؤوسهم مطأطأة منكوسة ، ووجدتهم مكلومين كئيبين ، منكسري الخاطر ، فقد كانوا يقصون علينا من الوقائع ما تدمع العيون ، وتحزن القلوب ، وقد زالت ثقفتهم تماماً بالزعماء العرب وقادة البلاد^(١).

خطاب حول قضية فلسطين :

إن ما وُقِّتُ إليه في الشام من محاضرات وخطابات كان أهمها تلك المحاضرة التي ألقيتها أمام جمع من الفضلاء وأصحاب الفكر في قاعة

= الحج ، وتوطدت بينهما الثقة والصداقة خلال هذه الزيارة لدمشق ، نفع الله به المسلمين وحمى به الدين .

(١) وقد نشرت هذه المحاضرة فيما بعد بعنوان «العوامل الأساسية في كارثة فلسطين» وضمنت إلى كتاب «المسلمون وقضية فلسطين» .

جامعة دمشق بتاريخ ٢٣/يوليو عام ١٩٥١م ، وقد كنت أعددتُ هذه المحاضرة في سفري بين عمان وبيت المقدس ، وكان عنوانها: «شهادة العلم والتاريخ في قضية فلسطين» وقد رأس الجلسة نائب رئيس الجامعة المسيحي الأستاذ قسطنطين زُرَيْق ، الذي كان قد صدرت بقلمه رسالة في تحليل قضية فلسطين العلمي والنفسي وفق وجهة نظره ودراسته الخاصة بعنوان «معنى النكبة» ، وقد حضر الجلسة عدد كبير من المستمعين ، واكتظت القاعة على سعتها ، وكان في الحضور الدكتور معروف الدواليبي^(١) رئيس المجلس النيابي ، والأستاذ عمر بهاء الأميري^(٢) السفير السوري بباكستان ، وعدد من نواب البرلمان ، وأساتذة الجامعة ورجال المعارف ، وحضر كبار علماء دمشق: العلامة بهجة البيطار ، والأستاذ سعيد الأفغاني ، والأستاذ نمر المصري ، والدكتور أمين المصري ، والشيخ أحمد كفتارو ، والشيخ مكي الكتاني ، والشيخ أحمد الدقر ، وتقدم الشيخ محمد بهجة البيطار^(٣) وقدم المحاضر إلى المستمعين ، وعلّق

(١) هو الأستاذ الدكتور معروف الدواليبي ، من أعر أصدقاء سماحة الشيخ الندوي ، تعرّف عليه سماحته في هذه الزيارة ، ولا تزال بينهما صداقة ودية وعلاقة وطيدة ، كان رئيساً للمجلس النيابي السوري ، انتقل إلى السعودية في أوائل السبعينيات ، والآن هو مستشار الملك (في المملكة العربية السعودية) حفظه الله ورعاه .

(٢) هو شاعر الإسلام الحنون ، صاحب فكر وجهد ، وإبداع ، وتفوق ، الأستاذ عمر بهاء الدين الأميري ، ولد ونشأ في حلب ، تخرج من جامعة دمشق وجامعة السوربون بباريس ، وعمل بالمحاماة مدة من الزمن ، مثّل بلاده وزيراً مفوضاً في السعودية وباكستان ، وأسهم في عدد من المؤتمرات العربية والإسلامية في العالم ، وعمل أستاذاً في عدة من الجامعات الكبرى في البلاد العربية ، وكان عضو شرف في رابطة الأدب الإسلامي ، توفي سنة ١٩٩٢ ، كان رحمه الله يعطف كثيراً على سماحة الشيخ الندوي .

(٣) هو العلامة الكبير الشيخ محمد بهجة البيطار الدمشقي الميداني ، كان مفسراً محدثاً ، إماماً في اللغة والنحو ، مؤرخاً أديباً ، قرأ على الشيخ عبد الرزاق البيطار ، والعلامة السيد خضر حسين التونسي ، والعلامة جمال الدين القاسمي ، واستفاد من العلامة السيد رشيد رضا المصري ، وأكمل تفسير سورة يوسف الذي بدأ به العلامة رشيد رضا ، وكتابه: «المعاملات في الإسلام وتحقيق ما ورد في الربا» .

الشيخ مصطفى السباعي^(١) على المحاضرة بكلمة بليغة ، أيد ما جاء فيها من آراء وملاحظات .

وقد اشتملت المحاضرة على دراسة تلك العوامل المهمة التي أدت إلى هذه المأساة ، كان العامل الأول منها فقد الدوافع النفسية إلى الاستماتة والتفاني في سبيل المبدأ والعقيدة ، والعامل الثاني : طغيان العقل على العاطفة ، وضعف روح المغامرة ، والعامل الثالث : هو عدم وجود شخصية في الشعوب العربية والحكومات العربية كلها تملك فلسطين وقضيتها عليها مشاعرها وتفكيرها ، ويصبح حالها كحال صلاح الدين الذي وصفه أمين سره القاضي ابن شدّاد : (إنما كان كالوالدة الثكلى التي ذبح ولدها الوحيد في حجرها) ، وإنه متى تحل هذه القضية الفلسطينية لا تحل إلا بهذا الطريق لا عن طريق المؤتمرات والقرارات والمجاملات^(٢) .

= تولى تدريس مادة التفسير في جامعة دمشق ، وأسهم في أعمال مجمع اللغة العربية التحقيقية بدمشق الذي كان من أبرز أعضائه . تعرّف عليه سماحة الشيخ الندوي في هذه الزيارة ، وتوثق بينهما ما يتوثق بين مؤلف شاب ، ومحقق محنك ، من صداقة واعتراف وتقدير ، كما يظهر من تلك الرسائل التي وجّهها إلى سماحة الشيخ الندوي ، توفي - رحمه الله وأثابه - بدمشق سنة ١٣٩٦هـ .

(١) هو صديق سماحة الشيخ الندوي العزيز الدكتور مصطفى السباعي ، صاحب الكتاب المشهور «السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي» الذي هو أقوى ما كتب في هذا الباب .

يتصف أسلوبه بالصبغة العلمية ، والرشاقة والسهولة ، في عبارة فصيحة وقوية ، يغلب عليه الطابع الدعوي ، له مساهمات مشكورة في الجهاد والإصلاح ومحاربة البدع ، يشهد له سماحة الشيخ الندوي بالنبوغ والفضل وطول الباع في الأدب والخطابة والجهاد حيث يقول : له علم جم ، وإطلاع واسع ، وبصر نافذ ، وقلم مترسل ، وأدب رفيع ، وأسلوب مطبوع ، ومن خطباء الشرق المعدودين ، والمجاهد عملياً في حرب فلسطين ، كان من قادة الإخوان في سورية ، وإليه يرجع الفضل في إنشاء كلية الشريعة بجامعة دمشق ، انتقل إلى رحمة الله في سنة ١٣٨٤هـ .

(٢) وقد بنيت هذه المحاضرة على تلك العوامل الثلاثة المهمة المذكورة لضياح فلسطين ، وجدير أن نقدم هنا بشيء من التفصيل ما جاء منها في محاضرة سماحة الشيخ الندوي ، فيقول سماحته :

محاضرات وأحاديث أخرى في الشام:

وعلاوة على هذا الخطاب الذي كان له أثره الطيب البالغ في الأوساط العلمية الدينية بدمشق ، ألقى عدداً من المحاضرات في الهيئة العلمية الإسلامية ، وجمعية التمدن الإسلامي ، والجمعية الغراء ، وتقدّمت فيها بتجاريبي وآرائي ، وأكدت أمام العلماء ضرورة الاتصال المباشر بالشعب ، والدعوة العامة ، وأهمية هذا العمل الدعوي في المدارس والكليات ، ونبهت إلى تلك الأخطار التي يمكن أن تتحول إلى الواقع إذا بقي العلماء بمعزل عن العامة ولم يقوموا بالاتصال بهم وإيقاظ شعورهم الديني .

وقلت في إحدى خطبي بدمشق: إن الطبقة التي تملك زمام البلاد ، لم

= العامل الأول: منها فقدان الدوافع النفسية إلى الاستماتة والتفاني في سبيل المبدأ والعقيدة ، وهنا أريد أن أحكي كيف أوجد رسول الله ﷺ الإيمان والحنين إلى الشهادة والجنة في نفوس المسلمين صغارهم وكبارهم ، وكيف ضعف هذا الإيمان الذي كان أكبر قوة وأعظم ثروة عند العرب ، وكيف أثرت فيهم الحضارات والمادة ، وكيف ضيعوا هذا المفتاح للحياة وأفلسوا في رأس مالهم .

والعامل الثاني: طغيان العقل على العاطفة وفقدان روح المغامرة والإسراف في التفكير والحذر من العواقب ، وهنا أريد أن أتحدث عن قوة العاطفة وروح المغامرة التي تستمد قوتها من الإيمان وفضلها في تاريخ العرب ، وأذكر المغامرات العظيمة التي عادت على العرب بالفتوح الرائعة والانتصار الباهر ، وعلى الإنسانية بالسعادة وعلى الحضارة بالازدهار ، وكونت هذه المملكة الإسلامية العظيمة وأقامت هذه المدينة الزاهية المباركة حتى نعم في ظلها المسلمون والعالم ، وأذكر كيف فقد العرب الجرأة والافتحام وسرعة التنفيذ والمخاطرة بالنفس في سبيل العقيدة والشرف ، وكيف أسرفوا في التفكير واعتمدوا على غيرهم وفقدوا الثقة بأنفسهم والاعتماد على الله حتى أضاعوا بلادهم ومقدساتهم وهانوا على الأمم كلها حتى المشردة الذليلة منها .

والعامل الثالث: هو عدم وجود شخصية في الشعوب العربية والحكومات العربية كلها تملك فلسطين وقضيتها عليها مشاعرها وتفكيرها وتصبح همها الشاغل فلا تفكر إلا فيها ولا تعيش إلا لأجلها ولا تجاهد إلا في سبيلها ، وهنا أريد أن أعرض أمثالا ونماذج من التاريخ الإسلامي ومن سيرة سيدنا أبي بكر والسلطان صلاح الدين الأيوبي وأبين كيف استولت عليهما قضايا الإسلام والدفاع عن الدين حتى كان كل منهما لفرط اهتمامه ووجده كالوالدة الثكلى فقدت وحيدها .

تهضم الإسلام هضماً صحيحاً ، بل لم يجاوز الإسلام تراقيها ، إنها لا تؤمن بالإسلام كدين ونظام للحياة كما تؤمن بمبادئ الحضارة الغربية وأهميتها وفائدتها ، كذلك فإن أكثرية سكان البلدان العربية تعيش في مرحلة الطفولة في الوعي السياسي واليقظة الاجتماعية ، وما دامت هي لم تصح من غفوتها فلا أمل في شيء ، وألقيت - عدا هذه الخطب - خطبة الجمعة أيضاً في المسجد الجامع بجامعة دمشق ، راعيت فيها عقلية الطلاب والشباب ومستواهم ، وتعليمهم وتربيتهم .

خطاب في حمص بلسيف الله سيدنا خالد بن الوليد رضي الله عنه :

ألقيت في مركز الإخوان المسلمين بحمص التي هي حلقة كبيرة من سلسلة الفتوح الإسلامية ، ومرقد سيف الله سيدنا خالد بن الوليد رضي الله عنه في ٢٩/ يوليو عام ١٩٥١م خطاباً حماسياً مثيراً ، ذكرت فيه صلتني بالشام وبمدينة حمص التاريخية بصفة خاصة واطلاعي عليها وحببي لها ، وذكرت كيف كانت العادة في أسرنا - أيام الطفولة - أن السيدات كن يجتمعن في أيام حادثة أو اجتماع وينشدن «صمصام الإسلام» الملحمة الإسلامية المنظومة ، وهي ترجمة «فتوح الشام» للواقدي^(١) ، وكيف كان لها من تأثير كبير في تجديد إيماننا وتربيتنا العقلية والفكرية ، وقلت لأهل حمص :

هذا التاريخ الذي صنع في بلادكم يا أهل الشام ويا أهل حمص بوجه خاص هو الذي أبقى على المسلمين في الهند أن يندمجوا في الكثرة المحيطة بهم ، وأن يُخلدوا إلى الحياة التي لا يرضاها الإسلام ، وهو التاريخ الذي لم يزل مصدر القوة والحياة والثورة على الباطل ، وله فضل كبير في إشعال العاطفة الدينية وبقائها واستمرارها في هذا الشعب المسلم ، إن العالم

(١) والمنظومة تشتمل على خمسة وعشرين ألف (٢٥٠٠٠) بيت في أسلوب شعري قوي ، يصور المعارك الحربية الدائرة بين الغزاة المسلمين وجيوش الشام ، كأنها رأي عين ، وهي من نظم أحد أعضاء الأسرة الحسينية التي ينتمي إليها سماحة الشيخ الندوي وهو السيد عبد الرزاق الحسيني الملقب في الشعر بـ «كلامي» .

الإسلامي اليوم في حاجة إلى سيف من سيوف الله ، وفي أرضكم دُفِنَ هذا السيف يا أهل حمص ، فهل لكم أن تُغِيثُوا العالم الإسلامي وتُعيروه هذا السيف المفقود ، إن أكبر موضع ضعف في العالم الإسلامي أنه أصبح صورة مجردة عن الحقيقة ولا غوث للعالم الإسلامي ولا طريق إلى حياة وقوة جديدة حتى يتحلَّى بالحقيقة .

ولما أن هذا الخطاب كان حسب رغبة أهل حمص وعلى هواهم لذلك ، تأثر به الناس كثيراً وأعجبوا به .

وكان لي خطاب يشبه هذا الخطاب في مركز الإخوان بحماة ، كما أُلقيت في اجتماع كبير بحلب خطبة حماسية قوية ، ذكرت فيها سرّ انتصار العرب وغلبتهم في الماضي ، وميزة الدعاة المسلمين والفاثحين في القرن الأول ، الذين خرجوا من جزيرة العرب لنشر رسالة الإسلام وإخراج العالم من عبادة الناس وجور الأديان وقصص الحياة المادية الضيق المظلم إلى الدين الخالص والتوحيد الكامل والآفاق الواسعة العريضة في القلب والروح ، ثم ذكرت كيف يستعيد العرب مركزهم العالمي ، وأنه لا أمل في استعادة المركز العالمي والقيادة الروحية بنعرات القومية وهتافاتنا ، وأنهم إذا فعلوا ذلك فسوف تتذكر الشعوب كلها قومياتها التي تركتها وتخلت عنها ودخلت في دائرة الوحدة الإسلامية والأخوة الإنسانية ، وترى العودة إليها طبعياً جائزاً ، وكرّد فعل القومية العربية .

نظرة شاملة على سورية :

وقبل أن نودع سورية - لا وداعاً كوداع هرقل ، بل وداع مسلم له إلى بلاده رحلات وجولات وزيارات ورجعات - يحسن بنا أن نلقي نظرة شاملة على هذه البلاد ونذكر بعض المعلومات عنها .

المساحة وإحصاء النفوس :

مساحة سورية بعد ما انفصل - بالأصح بعدما فصل - عنها لبنان وفلسطين وشرق الأردن ، أي مساحة الجمهورية السورية وحدها (١٨١,٣٣٧) كم ونفوسها (٣,٤٣٠,٠٠٠) نسمة كما أذيع في مطلع سنة

١٩٤٨ ويقدر في سنة ١٩٥١ أكثر من ٣,١٠٠,٠٠٠ نسمة المسلمون يشكلون (٢,٥٤٥,٠٠٠) نسمة أي ٨٥٪ من السكان ، والسنونيون هم الأغلبية ويشكلون ٨٢,٥٪ من المسلمين والشيعية لا يزيدون عن ١٨,٥٪ والدروز يزيدون عن ٨٧ ألفاً أي ٣,٥٪ وهناك فرقة متطرفة هي اليزيدية يبلغ عدد أتباعها إلى ٢٧٠٠ فرد والمسيحيون ويؤلفون ١٥,٥٪ من سكان سورية أي (٤٦٠) ألفاً.

تقسيم سورية إدارياً:

تقسم سورية إدارياً إلى محافظات ، وتنقسم المحافظات إلى أفضية والأفضية إلى نواح ويتبع النواحي القرى ، وفي سورية تسع محافظات وهي دمشق وحلب وحمص وحمص وحماة والفرات والجزيرة واللاذقية وجبل الدروز ، و٣٦ قضاء و٩٢ ناحية ويتبعها ٢٧٠٣ قرية .

نسبة المتعلمين والحالة الاقتصادية:

تمتاز سورية من بين الأقطار العربية عدا لبنان^(١) بارتفاع نسبة المتعلمين منهم خمس وأربعون في المائة ٤٥٪ وبوجود الطبقة الوسطى في عدد أكبر من عددها في مصر والحجاز ، والفلاح السوري في الغالب يملك من الأرض ما يعيش به ، ولا يبلغ ما بلغ الفلاح المصري أو الفلاح الهندي من الفقر المدقع ، لذلك تستطيع سورية إذا ازداد التوزيع الاقتصادي تحسناً وكان ولاية الأمور مخلصين عقلاء استطاعوا أن يحافظوا على نظام معتدل وسط بين الرأسمالية الغاشمة والشيوعية المتطرفة .

نظام التعليم:

أما نظام التعليم المتبع الآن في سورية - فأريد - بحكم مهنتي السابقة (التعليم) ولأهمية الموضوع أن أفيض في شرحه .

ينقسم التعليم في سورية إلى ثلاث مراحل أساسية:

(١) نسبة المتعلمين في لبنان تقدر بحوالي ٨٠٪.

(أ) الابتدائي .

(ب) الثانوي وما إليه .

(ج) الجامعي .

والتعليم قبل الابتدائي (أعني رياض الأطفال) ليس رسمياً ولا أساسياً ، وإنما هناك رياض أطفال يرسل من شاء إليها ولده .

١- التعليم الابتدائي مجاني وإجباري مدته خمس سنوات تنتهي بالحصول على شهادة إتمام الدراسة الابتدائية، والغاية منه إعطاء المعلومات النامة الضرورية في العلوم الأساسية ، وهو تمهيد لما بعده في الوقت نفسه .

يقبل في السنة الأولى من الدراسة الابتدائية من كان عمره ٧ سنوات وهو منتشر بشكل واسع ، لا يوجد في هذا المرحلة تنوع فضلاً عن التخصص ، إلا ما ينص عليه المنهج من وجوب مراعاة البيئة في تطبيق المنهج والدروس في التعليم الابتدائي ما عدا القراءة والكتابة التي تتم في السنة الأولى هي :

١ - الدين والتهديب .

٢ - الحساب والهندسة .

٣ - التاريخ والجغرافيا .

٤ - الأشياء : معلومات مبسطة عن العلوم الطبيعية والظواهر المحيطة بنا .

٥ - اللغة العربية .

(إملاء ، قواعد اللغة العربية ، قراءة ، محفوظات ، مفردات ، ومحادثة، إنشاء).

٦ - التربية الوطنية (الأخلاق والمعلومات المدنية) في الصف الأخير الخامس .

المرحلة الثانية : التعليم الثانوي وما إليه .

في هذه المرحلة يوجد أنواع من التعليم تبدأ كلها بعد الحصول على الشهادة الابتدائية ، ونستطيع أن نقسمه إلى مرحلتين جزئيتين :

(أ) المرحلة المتوسطة مدتها أربع سنوات .

(ب) المرحلة العالية مدتها سنتان .

فجميع ست سنوات .

المرحلة المتوسطة يوجد منها أنواع هي :

١ - الدراسة المتوسطة العامة .

٢ - الدراسة المتوسطة التجارية .

٣ - الدراسة المتوسطة الصناعية .

٤ - الدراسة المتوسطة الزراعية .

وتنتهي كل دراسة بامتحان عام يحصل من اجتازه بنجاح على شهادة الدراسة المتوسطة العامة التجارية ، وهكذا ، واسمها «شهادة الكفاءة العامة التجارية الصناعية الزراعية» حسب النوع الذي تخرج به .

المواد التي تدرس هي - عدا الديانة - :

١ - اللغة العربية .

٢ - اللغة الإنجليزية أو الفرنسية (حسب اختيار الطالب) ويلاحظ أن سورية ألغت اللغة الأجنبية من المرحلة الابتدائية لتعزيز لغتها العربية وملاحظات تربوية أخرى .

٣ - الحساب والجبر .

٤ - الهندسة .

الرياضة

٥ - الفيزياء .

٦ - الكيمياء .

العلوم الطبيعية

٧ - التاريخ الطبيعي وتشريح الإنسان .

٨- التاريخ .
 ٩- الجغرافيا . [الاجتماعيات

١٠- التربية الوطنية (في صف الكفاءة).

الغاية من الدراسة المتوسطة هي :

١- إما إعداد الطالب لمهنة من المهن (الكفاءة الصناعية ، الزراعية ، التجارية).

٢- أو الحصول على الثقافة العامة تمهيداً لمتابعة دراسات ثقافية أعلى وأوسع كما في الثقافة العامة .

المرحلة العالية (وهي الجزء الثاني من الدراسة الثانوية) وهي أعلى من سابقتها ، مدتها سنتان تنتهي بالحصول على شهادة الدراسة الثانوية في العلوم أو الآداب ، أو في الزراعة ، ويدخل في هذه المرحلة من حصل على شهادة الكفاءة وهنا إعداد للجامعة عن طريق التعليم الثانوي العام (لكلية العلوم أو كلية الآداب أو الهندسة أو الحقوق وهكذا).

التعليم الجامعي

الجامعة السورية فيها عدة كليات مدة الدراسة في كل هي ثلاث سنوات تنتهي بالحصول على إجازة في العلوم التي درسها الطالب في الكلية (ليسانس في الحقوق مثلاً أو في الآداب أو في العلوم) إلخ. وفي بعض الكليات كالحقوق صف اختصاصي في علم واحد من العلوم التي درسها في الكلية مع تقديم أطروحة (رسالة بحث). كليات الجامعة السورية هي :

١- كلية الحقوق .

٢- كلية الطب بفروعها .

٣- كلية العلوم .

٤- كلية الهندسة .

٥ - كلية الآداب^(١).

وفي كل كلية فرع خاص يُهيئاً الطلاب ليكونوا أساتذة في التعليم الثانوي يدرسون في هذا الفرع (إلى جانب دراستهم في الجامعة) ما يتعلق بالتربية والتدريس واسم هذا النوع دار المعلمين العليا ، فيستطيع الطالب مع دراسته الجامعية أن يتابع الدروس في هذا المعهد.

ملخص:

رياض الأطفال (قبل السابعة).

الدراسة الابتدائية (مدتها خمس سنوات) تنتهي بشهادة إتمام التحصيل الابتدائي (سرتفيكا).

الدراسة المتوسطة (من الثانوي) مدتها أربع سنوات تنتهي بشهادة الكفاءة (البروفه).

الدراسة العالية (من الثانوي) مدتها سنتان ، تنتهي بشهادة الدراسة الثانوية (البكالوريا).

الدراسة الجامعية تنتهي بالحصول على إجازة ليسانس:

كلية الحقوق

كلية الآداب

كلية الطب وفروعها مدتها ثلاث سنوات

كلية الهندسة

كلية العلوم

ثم يأتي صف اختصاص في بعض الصفوف .

الديانات والأحزاب في سورية

إن سورية بجانب ما حباها الله من جمال الطبيعة واعتدال المناخ وخصب

(١) ولم تقم كلية الشريعة إلا بعد سنوات (٥٥ - ١٩٥٦) وأضيفت إلى الكليات السابقة وذلك بجهد صديقنا الفاضل الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله .

الأرض وذكاء الشعب ، والأهمية الاستراتيجية لها مشكلتان عظيمتان الأولى كثرة الديانات ، وتطرف العقائد ، ولعل من أقوى أسباب انتشار هذه الديانات والفرق الدينية المتطرفة في بلاد الشام طبيعة البلاد الجبلية ووجود معازل للجماعات المضطهدة والديانات المطاردة من سواد المسلمين ، فدائماً تلتجئ الفرق الثائرة وأصحاب الآراء المتطرفة إلى الحصون والجبال ووعرة المسالك ، لذلك ازدهرت هذه الديانات في الشام أكثر مما ازدهرت في مصر ، ثم كان مما أغرى هذه الفرق ورجالها بالزروح إلى الشام واتخاذها مقراً لهم هو جمال الإقليم وما هو عليه من الفتنة والاستهواء وسلامة صدر الشعب وسداجته ، فإن كون الشام ممراً للفاتحين القادمين من الشمال جعله ميداناً للحضارات والديانات والنزعات وجعل الشعب يخضع لكل وافد جديد ويتأثر بكل طريف وتليد ، لذلك وجدت الباطنية والدرزية والبهائية وغيرها من الفرق والديانات مضطرباً واسعاً في هذه البلاد الجميلة .

والمشكلة الثانية وهي أعظم من الأولى وأكثر منها تعقداً وأقوى منها سلطاناً على النفوس ومجاري الأمور في سورية كثرة الأحزاب والمذاهب السياسية التي تتوزع سورية وتتنازع القيادة والزعامة ، ويخشى على سورية واستقلالها ووحدتها من هذه الأحزاب المتنافسة والمذاهب المتصارعة أكثر مما يخشى عليها من الديانات والفرق الدينية التي فقدت شيئاً كثيراً من سلطانها الروحي ونفوذها السياسي .

وإلى القارىء تعريفاً موجزاً بهذه الأحزاب

الأحزاب المذهبية السياسية :

١ - حزب البعث العربي : شعاره «أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة» يعتبر الوطن العربي البقعة من الأرض التي تسكنها الأمة العربية والتي تمتد ما بين جبال طوروس وجبال بشتكويه وخليج البصرة والبحر العربي وجبال الحبشة والصحراء الكبرى والمحيط الأطلسي والبحر الأبيض المتوسط ، والأمة العربية ذات رسالة خالدة تظهر بأشكال متجددة

متكاملة في مراحل التاريخ وترمي إلى تجديد القيم الإنسانية وحفز التقدم البشري وتنمية الانسجام والتعاون بين الأمم وهي وحدة روحية ثقافية وجميع الفوارق القائمة بين أبنائها^(١) عرضية زائفة تزول جميعها بيقظة الوجدان العربي .

وحزب البعث العربي اشتراكي يؤمن بأن الاشتراكية منبعثة من صميم القومية العربية .

٢- الحزب العربي الاشتراكي : حزب عربي اشتراكي النزعة ويتزعمه أكرم الحوراني ، وهو أحدث من حزب البعث .

٣- الحزب القومي السوري يدعو إلى سورية الطبيعية ويقول : سورية للسوريين والسوريون أمة تامة فهو يناهض فكرة القومية العربية . كما ينادي بفصل الدين عن الدولة ، وبمبادئ اجتماعية إيجابية تغاير مبادئ الدين ، أكثر أنصاره من المسيحيين والأقليات غير العربية وخاصة في لبنان .

٤- الحزب التعاوني الاشتراكي : اشتراكي النزعة . قريب من الإسلام بمبادئه ونزعات بعض قاداته ، بعيد من الإسلام في واقع أفراد الخلق والعملية ، يسير على نهج دكتاتوري ، الزعيم فيه هو كل شيء ، وزعيمه الآن فيصل العسلي .

أحزاب سياسية

٥- الحزب الوطني : مكون من بعض عناصر حزب الكتلة الوطنية التي قادت الحركة الوطنية في السابق ثم تفرقت عنها الشعب لعدم صلاحها وإيثارها مصالح أفرادها .

٦- حزب الشعب : مكون من العناصر التي عارضت حكم جماعة الكتلة ويمتاز بعض أفراده بشيء من النزاهة والثقافة ، إلا أنه لا يجمع بين أفرادهم فهم موحد للحياة أو رأي موحد في مشكلة البلاد ، وهذا الحزب

(١) كاختلاف الديانات مثلاً .

يملك الآن الأكثرية في المجلس وزعيمه رشدي الكخيا والدكتور ناظم القدسي .

سوريا وما لها وما عليها :

وهنا أتحدث عن بعض ما تمتاز بها سورية والشعب السوري وما تتسم به الحياة في سورية من فضائل ، وكذلك عن بعض ما أخذ عليها ويعتبر من جوانب الضعف :

مما استرعى انتباهي في سورية أول ما دخلتها هي بقايا الحياة الدينية والتقاليد الإسلامية التي تستلفت السائح في سورية أكثر مما تستلفته في غيرها من الأقطار العربية ، فالمساجد في سورية أكثر عمراناً من المساجد في الأقطار الأخرى . وفي الناس اهتمام زائد بالصلوات والجماعات ، والعلماء ورجال الدين أكثر محافظة على بعض شعائر الدين من العلماء ورجال الدين في غيرها والتجار والفلاحون وطبقات الشعب أوضح ديانة منها في غيرها وإن كان المصريون أقوى روحاً وعاطفة وأكثر حيوية وأعظم اندفاعاً إلى الدعوات الدينية والحركات الإسلامية من السوريين ، وكذلك التستر في النساء - وإن كان إلى ضعف وتقلص مع الأيام - لا يزال في أكثر الطبقات في سورية ، وقد ألغى أو كاد يلغى بتاتاً في مصر .

والأمر الآخر الذي يمتاز به الشعب السوري : هو النظافة ، والأناقة فقد كادت تكون دمشق بوجه خاص وسورية بوجه عام من أنظف بلاد المسلمين وأكثرها ظرافة وأناقة إذا استثنينا تركية .

والأمر الثالث يمتاز به السوري : الوداعة ، ودماثة الخلق ، ورقة الشعور ، ولين الجانب ، ولا شك أن للمناخ وطبيعة الإقليم فضلاً كبيراً في تكوين هذه الأخلاق .

أما بقايا الحياة الدينية فلعل السبب الأكبر في وجودها هو انتشار الدعاة إلى الله وأهل الذكر في سورية انتشاراً ملحوظاً فإن وجود هؤلاء قد حد نشاط المادية وطغيانها ، ووقف حاجزاً إلى مدة طويلة في سبيل انطلاق الشهوات وجماع النزوات وبريق الماديات ، ولا شك أن البلاد التي انهار فيها هذا

الحاجز من قديم اندفعت إلى المادية والحضارة الغربية اندفاعاً متهوراً لم يكن فيه اقتصاد ولا تفكير ، والحياة الروحية في سورية - وإن كانت تلفظ نفسها الأخير - يرجع الفضل الأكبر فيها إلى مولانا خالد الرومي من رجال القرن الثالث عشر الذي سافر إلى دهلي وترى على يد الشيخ الكبير مولانا عبد الله الدهلوي ، وقد رجع مولانا خالد الرومي بعد ما استخلفه شيخه في الإرشاد والتعليم فملاً بلاد الشام والروم وبلاد الكرد والعراق بتلاميذه ومن أفادوا منه وتخرجوا عليه ولا تزال آثاره لائحة لامعة في سورية .

ومما لاحظته في سورية من الظواهر الوفاء للأمويين والبيت الأموي فلا تزال سورية متشبثة بأسمائهم وذكرياتهم ، وكثيراً ما رأيت على الدكاكين والفنادق لوحات بأسماء أموية ، فيستلفت نظرك وأنت تمشي في دمشق «المطعم الأموي» «أوتيل بني أمية» «تجليد بني أمية» «مدرسة مروان» وقد وقع لي مرة حادث طريف كدت ألقى فيه متاعب جمّة ولكن الله سلم . خرجت يوماً مبكراً في الصباح أتمشى وأتنزه ولما تقدمت بناء الجامعة السورية وكلية الحقوق استوقفتني لوحة كان مكتوباً عليها «ثكنة معاوية بن أبي سفيان» ووقفت أستعذب هذه الكلمات التي جددت ذكريات التاريخ الماضي ، وأستعرض العهد الذي كان فيه سيدنا معاوية بن أبي سفيان هو أمير المسلمين في العالم وأكبر ملك على وجه الأرض ، وكانت سورية كلها فضلاً عن دمشق ثكنته وقد ذهلت في تأملاتي هذه عن المحيط فرابت وقفتي هذه وتحديقي البصر في ثكنة من الثكنات الحارس الواقف على الباب في بدلته العسكرية فتقدم إلي وقال : من أنت؟ قلت : رجل من المسلمين؟ قال : ولماذا تحدد البصر في هذا المركز العسكري؟ قلت : لا شيء إنما استوقفتني هذه اللوحة وشغلني هذا الاسم العظيم ولكنه لم يفهم هذا الذوق التاريخي ولم يصدقني فيما أقول ، ولعله ظنني جاسوساً من جواسيس اليهود وكانت ملابسي الهندية مزركشة فقال : أين (هويتك) يعني جواز السفر قلت في البيت قال : لماذا لا تحمله معك أنا أقودك إلى نقطة البوليس قلت يا هذا أنا مسلم وقرأت له بعض الآيات ، أثبت ببعض الدلائل إسلامي ولكنه لم يقتنع ، وكاد يقودني إلى مركز الشرطة ولكن الله ألهمني أن أقول له أنا

حاج وأنا في طريقي إلى مكة ، وهذه هي اللغة التي يفهمها هؤلاء الأميون ، ففي جميع بلاد المسلمين وخصوصاً في مصر والشام تقدير عظيم وإجلال لهم وهنا استسلم العسكري وخلي سبيلي .

العودة إلى الحجاز والأعمال فيها :

غادرنا دمشق ١٢ / أغسطس عام ١٩٥١م بالطائرة إلى المدينة المنورة ، وقد رافقنا في طول هذا السفر الشيخ عبيد الله البلياوي ، ولما وصلنا إلى المدينة المنورة وجدت مرافقي العزيز محمد الرابع والشيخ محمد طاهر ، ومكثنا في المدينة أياماً ، ثم سافرنا إلى مكة المكرمة التي كانت نهاية المطاف في هذا السفر ، وأقمنا بمكة المكرمة خمسة أشهر أخرى تشرفنا فيها بأداء الحج للمرة الثالثة ، وكان معنا في هذه الحجة زميلي المحترم الشيخ محمد منظور النعماني ، وقد كانت في أيام الحر الشديد .

وطالت إقامتنا بمكة المكرمة بعد الحج جدّنا فيها العلاقات والصلات بأولئك المعارف والأصدقاء الذين تعرفنا عليهم أثناء الإقامة بمكة المكرمة لا سيما في اجتماع بستان بخارى ، وكان لي حديثان نشرتهما الإذاعة السعودية أحدهما بعنوان : «من غار حراء»^(١) ألقى فيه الضوء على أنه كيف استنارت الدنيا بطلوع شمس الإسلام ، وانحلت عقد الإنسانية المعقدة وقضايا الحياة المعقدة الشائكة ، وكيف فتحت البعثة المحمدية والدعوة الإسلامية أفعال الحياة ، وما هو المفتاح الذي فتحت به القلوب ، وقاومت المحن والفتن ، والذي لا يزال هو المفتاح الرئيسي لجميع مشاكل الحياة ، وكيف صنعت المدرسة النبوية نماذج بشرية لمختلف شعب الحياة وحاجاتها ، ووفقتها على كل رباط وثغر من ثغور الحياة ، وما هي الثورة العظيمة التي أحدثتها ، وقد كان هذا موضوعاً مقترحاً من قبل الشيخ محمد شطا مدير الإذاعة باسم «القضايا الإنسانية وحلولها الإسلامية» الذي غيّرت

(١) نُشر هذا الحديث في شكل كتيب من مكتبة المنار بالكويت ، ثم ضمّ إلى كتاب سماحة الشيخ الندوي «الطريق إلى المدينة المنورة» .

إلى «من غار حراء» لأن غار حراء هو مطلع صبح الإنسانية الصادق ومبدأ التاريخ الإنساني الجديد.

وكان الحديث الثاني بعنوان «الدكتور محمد إقبال حياته ورسالته» كان الغرض منه توجيه الشباب العرب إلى دراسة الإسلام ومطالعة من جديد واحتضان الفكرة الإسلامية والاعتزاز بها ، وقد نشر مقال لي مهم بعنوان «كيف تُوجَّه المعارف» في صحيفة الحجاز العربية الوحيدة في تلك الفترة وهي «البلاد السعودية» وقد علّق بعض كبار العلماء وأصحاب الفكر على هذا المقال ، أخصّ منهم بالذكر الشيخ محمد علي الحركان قاضي جدة في ذلك الوقت ووزير العدل ثم أمين عام رابطة العالم الإسلامي بعد ، وألقيت محاضرات في المعهد السعودي ، وكلية تحضير البعثات ، وكلية الشريعة بالطائف .

وقد كانت الرحلة إلى الطائف رحلة تذكارية ، قمنا بها على دعوة من الشيخ محمد سرور الصبّان وفي ضيافته ، وكان يرافقني في هذا السفر العزيزان محمد الرابع الندوي والشيخ معين الندوي ، كان الشيخ أحمد عبد الغفور عطار دليلنا في السفر وواسطة التعرف بيننا وبين الشخصيات المرموقة بالطائف ، نزلنا هناك بفندق التيسير المعروف ، وحضرنا مأدبة خاصة عند أمير الطائف .

وكانت لنا جولة دعوية إلى وادي فاطمة شاركنا فيها عدد من أدباء الحجاز وصحفيها المعروفين والشباب المثقفين .

عدنا إلى الهند بعد هذه الإقامة الطويلة بالحجاز بباخرة «رضواني» في أكتوبر عام ١٩٥١م ، يرافقني العزيز محمد الرابع ، وكان البحر هادئاً والجو لطيفاً ، وهكذا عدنا بعد ١٣ - أو ١٤ - شهراً من رحلة الحجاز والشرق العربي إلى الهند .

وقد كان في استقبالنا على محطة القطار بلكهنو عدد كبير من أصحاب جماعة التبليغ وأصدقائنا في لكهنؤ ، فطلبوا مني أن أقدم إليهم انطباعاتي

عن الرحلة ، فألقيت كلمة موجزة ، وأنشدت بيتين من شعر إقبال ، يقول
فيهما:

(لم أسمع في مصر ولا في فلسطين ذلك الأذان الذي ارتجفت له الجبال
بالأمس ، إنَّ السجدة التي كانت تهتئُّ لها روح الأرض ، لقد طال عهد
المحراب بها ، واشتاق إليها المسجد كما تشتاق الأرض الجدبية الخاشعة
إلى المطر).

* * *

الرحلة إلى الشام ولبنان وتركيا عام ١٩٥٦ م ومحاضرات في جامعة دمشق

دعوة من جامعة دمشق:

لقد كان مضى على عودتي من رحلة مصر والشام قرابة خمسة أعوام ، ولم يكن هناك مجال قريب أو مناسبة لأي سفر آخر إلى الشرق العربي والبلاد العربية ، وكانت صلتي بالحجاز والبلاد العربية صلة المراسلة والمكاتبة أو عن طريق بعث رسائلتي ومنشوراتي ، إذ جاءني في يونيو عام ١٩٥٥ رسالة من صديقنا الفاضل الدكتور مصطفى السباعي الذي كانت قد توطدت بيننا وبينه أثناء الإقامة بالشام صلوات الودّ والأخوة ، وكان يشيد بكتابي «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» وينوّه به كثيراً ، كنت كبير التقدير والإعجاب بكتابه الذي يمتاز بالدقة والتحقيق والعاطفة الإيمانية الصادقة ، وهو كتاب «السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي» وهو كتاب فريد في بابهِ ، وقد كان هو عضو البرلمان السوري ورئيس حزبه الإسلامي الخاص والمراقب العام للإخوان وأستاذاً في الجامعة السورية .

وقد بشرني في إحدى رسائله بكل اعتزاز وسرور بفتح كلية الشريعة في الجامعة السورية ، وأنه بذلك قد غمرت أوساط الشام الدينية موجة من الشُّرور والاستبشار ، واعتبروه فتحاً ومكسباً كبيراً للدراسات الإسلامية وانتصاراً في مجال التربية ، وقد ذكر في الرسالة أيضاً أنه عهد إليّ بأن أبلغكم طلب الجامعة بأن تفضلوا بقبول مسؤولية التدريس فيها لعام أو

عامين ، وتشرفوا الجامعة بالحضور ، وأخبرونا بشروطكم لقبول هذا المنصب وما تتقدمون به من مطالبات ، وقد كُتبت هذه الرسالة في ٢٢/ شوال عام ١٣٧٤ هـ الموافق ١٢/ يونيو عام ١٩٥٥ م ، وكان عليها توقيع عميد كلية الشريعة^(١) .

وكتبت ردّاً على رسالته وهنأته على هذا النجاح ، واعتذرت من الانضمام إلى المدرسين الموظفين وبقائي بعيداً عن مقرّي ومركز نشاطي الذي له حق أكبر وهو المجال الواسع للعمل الإسلامي لعام أو عامين ، ولكنني أبدت استعدادي للحضور لفترة محدودة ألقى فيها سلسلة من المحاضرات حول موضوع من المواضيع الإسلامية بصورة منتظمة . وقبلت لجنة الكلية هذا العرض ووقّع^(٢) فخامة رئيس جمهورية الشام السيد شكري القوتلي على مرسوم طلبي كأستاذ زائر ، وأشعرني الدكتور السباعي بقبول هذا العرض في رسالته المؤرخة ١١/ ديسمبر عام ١٩٥٥ م وقبل اقتراحي أيضاً إلقاء سلسلة المحاضرات حول الشخصيات الإصلاحية والتجديدية في التاريخ الإسلامي وجهودها العظيمة ، وقد كنت اخترت هذا العنوان لأعرض أمام طلاب الكلية وشبابها الناهضين الأذكياء وأساتذتها البارعين الفضلاء خلاصة دراساتي للتاريخ الإسلامي ونتائجها التي تحملهم على العمل الديني الدعوي والإصلاح ، وتغير الأوضاع من جديد في هذه الأرض التي صنعت التاريخ ، وتكون دافعاً قوياً لهم .

ولا أريد أن أكتّم حقيقة ، وهي أنني قد غمرتني موجة من السرور والاعتزاز على هذه الدعوة التي صدرت من جامعة موقرة محترمة في بلد عربي متقدم كالشام ، واعتبرتها رمزاً للثقة العلمية والاعتماد والإكرام ، ولم

(١) راجع «رسائل الأعلام» للأستاذ محمد الرابع الحسني الندوي ، وكتاب المحقق «أبو الحسن علي الحسني الندوي الإمام المفكر الداعية الأديب» وراجع لترجمة الأستاذ السباعي وانطباعات سماحة الشيخ الندوي عنه وتقديره له كتاب «شخصيات وكتب» طبع دار القلم بدمشق وندوة العلماء لكهنؤ - الهند ، دار ابن كثير بدمشق عام ١٩٩٩ م .

(٢) مرسوم رقم ١٥٢٧ ، تاريخ ١٥/ أبريل عام ١٩٥٦ م ، وعلى المرسوم توقيع وزير التربية معالي الأستاذ مأمون الكزبري أيضاً .

أكن أجهل صلاحياتي العلمية والعقلية المحدودة ومستواي ومكاني المتواضعة ، وأحمد الله تعالى على أنني لم أصب في هذا الصدد بأي غرور وخداع نفس وتقدير خاطيء ، بل اعتبرت هذا التكريم منحة من الله الكريم ، واستجابة لدعوات والدتي الضارعة ، وثمرة من ثمار تربية الأخ الأكبر وجهود الأساتذة والمرّيين .

وصلت إلى دمشق ، وقد كان في استقبالني على المطار الدكتور السباعي وعدد من زملائه وأصحابه ، منهم الأستاذ محمد المبارك^(١) ، والأستاذ مصطفى أحمد الزرقاء^(٢) ، وقد قابلوني بحب وحفاوة بالغة وأبدوا سرورهم بقدمي ، وكان الجو مقبولاً لطيفاً ، وأنزلني الدكتور السباعي كضيف للجامعة في فندق اليرموك في شارع النصر حيث أقمت أياماً ثم انتقلت إلى مقرّي القديم في بيت الشيخ عبد الوهاب الصلاحي في حي الحلبوني .

وكان من سوء الحظ أن الدكتور السباعي كان على أهبة السفر إلى أوربة بعد يومين أو ثلاثة أيام في جولة تعليمية تقرر من قبل ، فدعاني اليوم

(١) كان من كبار الأساتذة ورجال التربية والمفكرين الإسلاميين ، ومن الأدباء الراسخين في فقه اللغة العربية وآدابها ، درس الحقوق في جامعة دمشق وسافر إلى باريس وأتقن اللغة الفرنسية ، ودرس الأدب والاجتماع ، ودرس في جامعة دمشق في كلية الآداب ، ثم أصبح عميداً لكلية الشريعة ، ومارس السياسة وخاض معركة الانتخابات ، وعين وزيراً للأشغال والمواصلات والزراعة ، وألجأته أحداث سورية الأخيرة إلى مغادرة الوطن واللجوء إلى السعودية حيث تعين أستاذاً في جامعة الملك عبد العزيز ، وكان من أعز أصدقاء سماحة الشيخ الندوي ، توفي بالمدينة المنورة سنة ١٤٠٢هـ .

(٢) كان من كبار علماء العالم الإسلامي وفقهائه ، يعتبر مرجعاً وموسوعة حية ناطقة في الفقه وأصول الفقه وعلم الشريعة ، درس مدةً في جامعة دمشق ، كان قد مثل سورية مع زميله الأستاذ الكبير الدكتور معروف الدواليبي في مؤتمر أسبوع الفقه الإسلامي الذي انعقد في تموز سنة ١٩٥١م في باريس ، وقد أحسنا تمثيل الشريعة الإسلامية ، اضطر - مع عدد من زملائه وأصدقائه - إلى مغادرة سورية ، أقام في الأردن ، وتولّى عمادة كلية الشريعة بجامعة الأردن ، وكان صديقاً حميماً لسماحة الشيخ الندوي ، توفي رحمه الله سنة ١٩٩٩م .

القادم على الغداء ، وأكمل الإجراءات الرسمية كلها أثناء وجوده في دمشق ، وبدأت سلسلة محاضراتي . كانت المحاضرة الأولى منها في يوم الأربعاء ٢٢/ شعبان عام ١٣٧٥هـ الموافق ٤/ أبريل ١٩٥٦م في قاعة الجامعة الرئيسية ، كان عنوانها «التجديد والمجددون في تاريخ الفكر الإسلامي» وقد كانت وجهت الدعوة من قبل الجامعة إلى أساتذة الجامعة وأعيان المدينة وكبار العلماء والمهتمين بالفكر الإسلامي ، وقد اكتظت القاعة ، وكانت الطالبات والنساء في البلکونة فوق القاعة ، ولم يكن الداعي والسبب لهذه المحاضرات الدكتور السباعي - للأسف - موجوداً وكان هو أيضاً أسفأً على ذلك ، وقد أبدى أسفه هذا في مقدمته التي قدّم بها الجزء الأول من كتاب «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» ، وقرر أن تكون المحاضرة كل يوم أربعاء ، وترسل لها بطاقات الدعوة الجديدة ، وقد كانت ثماني محاضرات ، وكانت المحاضرة الثامنة في ١٩/ شوال عام ١٣٧٥هـ الموافق ٣٠/ مايو عام ١٩٥٦م ، وكان موضوعها «حجة الإسلام الغزالي ، مصلحاً اجتماعياً» .

وقد كان الحضور يكثرون ويزيدون في المحاضرات وتغصّ القاعة بهم وتضيق ، والغريب أن كبار أساتذة الجامعة وفضلاءها كالأستاذ محمد المبارك والأستاذ مصطفى الزرقاء ، والدكتور معروف الدواليبي ، والعلامة محمد بهجة البيطار من العلماء الكبار وأمثال هؤلاء كانوا يواظبون على حضور هذه المحاضرات كمواظبة الطلاب والشباب . وأغرب من ذلك ، أنه بدأ شهر رمضان من المحاضرة الثالثة التي كانت في ١٩/ أبريل عام ١٩٥٦م وكانت المحاضرة بعنوان «الإمام حسن البصري وخلفاؤه» في ٩/ من رمضان عام ١٣٧٥هـ ، وكانت ثلاث محاضرات في رمضان ، فصادق الموعد الوقت بين المغرب والعشاء ، ورغم ذلك لم تتأثر الحفلات ، ولم يحصل أي تغير في الحضور والاهتمام .

ودعينا قبل المحاضرة الأخيرة بتاريخ ١٥/ شوال ١٣٧٥هـ الموافق ٢٦/ مايو ١٩٥٦م ، من قبل سعادة الدكتور أحمد السمان نائب رئيس الجامعة على حفلة الغداء في فندق نادي الشرق ، دعي إليها أساتذة الجامعة

وعدد كبير من أعيان البلد ووجهائه ، وكان العلامة الشيخ محمد بشير الإبراهيمي^(١) ، مجاهد الجزائر وقائدها الفاضل - لحسن حظي - موجوداً حينذاك في دمشق ، وحضر هذه الحفلة .

هكذا تمت سلسلة هذه المحاضرات بنجاح وتكريم وتوقير ، ودُرّست مرة بإلحاح مني في أحد الفصول الدراسية أيضاً ، وتعرفت مباشرة على طلاب الفصل ، وألقيت فيهم كلمة .

وقد كنت أثناء هذه الإقامة بدمشق لمدة ثلاثة أشهر ، قضينا منها شهرين في إعداد المحاضرات وإلقائها ، على صلات وعلاقات دائمة بعلماء دمشق وأدبائها ومفكرها وقادة الحركات والمنظمات الإسلامية ، ورؤساء المؤسسات فيها ، وكان لحسن الحظ صديقنا المحب الحبيب الدكتور سعيد رمضان أيضاً مقيماً بدمشق ، وكان يصدر من هناك مجلته الموقرة «المسلمون» ، وكان بيته كبيتنا ، كنا نحضر السهرات فيه ، ونجلس إلى وقت متأخر من الليل ، يحضر فيه عدد من الشباب والعلماء من أصحاب الفكر الإسلامي .

ونظّمنا صلاة التراويح - لعادة الاكتفاء بالشُور الصغيرة في التراويح في المساجد - في البيت ، وكان العزيز محمد رضوان الندوي يقرأ كل ليلة جزءاً واحداً ، وكان ذلك أمراً غريباً لأصدقائنا العرب ، غير الإخوان الذين كانوا يهتمون بصلاة التراويح في مركزهم و يقيمونها حسب المعتاد عندنا .

حديثان في الإذاعة السورية :

وجدت أثناء الإقامة بدمشق فرصة للتحدث والخطاب في الإذاعة بدمشق مرتين ، ولعل بعض الأصدقاء لفت أنظار المسؤولين في الإذاعة الذين

(١) كان من كبار علماء العالم الإسلامي ، انتخب رئيساً لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، أقام في المدينة المنورة ودمشق عدة سنوات ، وعاد إلى الجزائر ، وتولّى رئاسة جمعية العلماء ، أنشأ ٧٣ مدرسة بالجزائر لنشر اللغة العربية ، وجعل ذلك عن طريق تحفيظ القرآن الكريم إبعاداً لتدخل سلطات الاحتلال ، وتهافت الجزائريون على بناء المدارس فزادت على ٤٠٠ ، وكان من أعضاء المجامع العلمية العربية في دمشق والقاهرة وبغداد ، توفي بالجزائر سنة ١٩٦٥ م .

طلبوا مني عدداً من الأحاديث ، فألقيت الحديث الأول بعنوان : «اسمعي ياسورية»^(١) ، حكيت فيها أولاً قصة معرفتي بالشام وصلتي الدينية والروحية والعاطفية بها التي بدأت أيام الصبا ، ثم ذكرت تلك الشخصيات الجليلة في الشام ، وعدد منها من الصحابة الكرام رضي الله عنهم ، وعظماء التاريخ الإسلامي - التي هي ثروة إسلامية دفينه في أرض الشام الطيبة ، وسبب اعتزاز وكرامة لها ، وزينة وحلية ، وذكرت لهم كيف يتذكر العالم كله الشام الحبيبة ، وما هي المناسبات التي تذكّره بالشام ويطلبها بإعادة دورها وتاريخها ، ثم شرحت لهم سرّ مجدها الغابر ، وكيف أنها شملت الجزء الكبير من العالم بعطفها ورحمتها وظلالها الوارفة ، وكيف تستعيد الآن هذا المجد والعزة ، وأن الشعوب لا تتبوأ منصب الحب والعزة والكرامة باللغات والآداب ، والمدنيات والقوميات ، بل إنها تتبوأ هذا المنصب برسالاتها ودعواتها الخاصة وأهدافها الصالحة ، وخدمتها المخلصة للإنسانية البائسة ، وأن على الشام أن تجاهد لها ، وأن نجاة العالم اليوم تعتمد على أن يتعاون الشرق والغرب في تخليصه من الأزمات المعاصرة ، الشرق بإيمانه وبقينه وروحه ، والغرب بتنظيماته وعلومه الحديدية ، وتستطيع الشام أن تساهم مساهمة فعّالة في هذا العمل البناء التاريخي .

وقلت أخيراً: إن نعمة الإسلام التي حظيت بها الهند على يد محمد بن قاسم الثقفي ، الذي كان أحد القادة الدعاة في عهد الخليفة الأموي الوليد ابن عبد الملك ، وكانت دمشق هذه هي عاصمة الوليد ، إن هذا النداء والاعتراف إنما هو نوع من المكافأة والشكر على ذلك الإحسان والمنة العظيمة ، وإنما هي ضريبة الحب والوفاء والإخلاص .

وكان الحديث الثاني بعنوان : «محمد إقبال في مدينة الرسول ﷺ»^(٢)

(١) نشر هذا الحديث في شكل كتيب من مطبعة الجامعة الإسلامية بحلب ، وأخيراً نشره المجمع الإسلامي العلمي بلكهنؤ (الهند) .

(٢) انظر هذا الحديث بكامله في «روائع إقبال» لسماحة الشيخ الندوي ، طبع من دار القلم بالكويت ، ومن دار الشامية ببيروت ، ودار ابن كثير بدمشق .

الذي نقلت فيه أبيات محمد إقبال في «أرمغان حجاز» الشوقية الدافقة بالعواطف ، والمفتحة للقرائح إلى العربية ، وحكيت قصة رحلة محمد إقبال إلى مدينة الرسول ﷺ التي طار فيها على جناح الشوق واللهفة والحب في عالم الخيال .

رحلة إلى لبنان وثلاثة أيام فيها :

توجهنا في اليوم السادس والعشرين من شعبان (٥ من أبريل ١٩٥٦) من فندق اليرموك في دمشق الذي كنت نازلاً فيه وودعنا الأخ الحبيب الأستاذ سعيد رمضان والإخوان الندويون المتعلمون في كلية الشريعة السورية ، وتوجهنا إلى الغرب ، والسيارة تسير بنا على شوارع مرصوفة تحيط بها أشجار ويرافقها بردى الذي يقول فيه سيدنا حسان بن ثابت رضي الله عنه يمدح بني جفنة :

يسقون من ورد البريص عليهم بردى يصفق بالرحيق السلسل
وكأن البلد حدائق متصلة ، ولم أرَ مدخل بلد أجمل من مدخل دمشق ، ومررنا في طريقنا بالربوة ودمر والهامة ومصائف دمشق ومنتزهاتها الجميلة حق وصلنا إلى حدود سورية الغربية ودخلنا في لبنان ومررنا بالمخافر ومراكز الأمن العام والجمارك ، ورأينا كيف عبثت يد الاستعمار الأثيمة بهذا القطر الجميل ومزقته وقسمته تقسيماً مصطنعاً ، فهنا تنتهي سورية وها هنا يبتدي لبنان وكلها أرض الله التي كانت تسمى بالشام ، مزقك الله أيها الغرب شرّ ممزق كما مزقت هذا الشرق الإسلامي ، وسلط عليك من يقطعك إرباً إرباً .

ودخلنا في لبنان ولا نرى اختلافاً في المناخ ولا في طبيعة الأرض ولا في سحنة الشعب ، فالأرض هي الأرض والشعب هو الشعب ، واللغة هي اللغة ، والأديان هي الأديان ، والحضارة هي الحضارة ، ولكن قالوا وسلمنا ، خرجت من قطر ودخلت في قطر ، ودعت حكومة واستقبلت حكومة ، وجواز السفر يشهد بذلك - ولا ترد شهادته - فقد ملئت صفحاته بالتوقيعات والختم والطوابع الملونة .

مررنا بعدة قرى عامرة جميلة بنيت مبانيها على أحدث طراز وفيها مطاعم فاخرة نذكر منها ظهر البيدر ورويسات صوفر ، وبحمدون وعالية ، وعلمنا أن المصطافين ينزلون فيها ويقيمون ، وتوفر لهم التسهيلات وكل ما يرغبون فيه من خمر ولهو ، وقد يمتاز بعضها بشيء من النزاهة والنظافة أو المحافظة كما يقول أهل هذا العصر .

وكنا نرى جبال لبنان تطل علينا وقممها مكسوة بالجليد الذي يدوم طول السنة ، وكان المنظر جميلاً حتى دخلنا بيروت وقت العصر وبين دمشق وبيروت ١٠٥ كيلو متراً ، وتوغلنا في البلد ، وشعرت بأن قلبي لم يفتح لهذا البلد .

نزلنا في أوتيل أمريكيان وصلينا العصر وتغدينا في مطعم قريب ، واتصل صديقي الاستاذ سعد ببعض أصدقائه في البلد هاتفياً ، واتصل بقائد حركة عباد الرحمن الإسلامية^(١) ومؤسسها محمد عمر الداوق الذي يخاطبه أصدقاؤه وتلاميذه دائماً بأبي عمر ، وبعد قليل شرف الاستاذ أبو عمر ومعه شاب لبناني مسلم ، وتعرف بعضنا على بعض ورحب بي الأستاذ أبو عمر في حرارة وإخلاص وذكر أنه لم يزل على صلة علمية فكرية بي عن طريق المؤلفات والمقالات ولم يكن ينقصنا إلا اللقاء ، وذكر الأستاذ ابن أخي العزيز محمد الحسيني ومجلة البعث الإسلامي وسأل عنه ، فقلت إن له صديقاً في بيروت يرأسه دائماً وهو السيد هاني فاخوري فقال ها هو هاني فاخوري وأشار إلى الشاب .

وهنا وقفة قصيرة مع الأستاذ أبي عمر ، أنه هو الرجل المهيأ للدعوة الإسلامية في لبنان ، وإذا قلنا الرجل المهيأ فقد قلنا كل شيء ، إن لبنان هو البلد الذي يسميه بعض العارفين - ومعذرة إلى الإخوان اللبنانيين - بماخورة الشرق العربي ، هو البلد الذي اختاره الغرب لبث السموم في البلاد

(١) قامت هذه الحركة بخدمات جليلة مشكورة في توجيه الشباب توجيهاً إسلامياً ، وحمايتهم من تأثير الحضارة الغربية ، والفوضى السائدة في لبنان وتماسكهم ، وتدريبهم على الرياضة البدنية ، والاستقامة الخلقية ، والنشاط الإسلامي .

العربية ، فما أحوجه إلى الدعوة الإسلامية ، ما أحوجه إلى الدعوة إلى الاستقامة والخلق الكريم ، واختار الله لنشر هذه الدعوة وتوجيه الشباب ومحاربة الفساد ، رجلاً ليس من العلماء ورجال الدين ، إنما مهندس ميكانيكي بارع يشتغل في شركة كبيرة يسمى بعمر الداعوق ، والداعوق أسرة لبنانية مسلمة منجبة ، اختار الله لذلك مهندساً ولم يختار عالماً وربك يخلق ما يشاء ويختار ، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون .

رافقنا الأستاذ «أبو عمر» إلى بيته وجمعنا بين العشاء والعشاء واطلعنا على نشاط العباد الرياضي وصور مخيماتهم ، ورأينا من براعتهم في السباحة والقفز في البحر والجري ، والوثوب ، وأنواع الرياضة ، وأعمال الكشافة ما لا يقل إتقاناً ومغامرة وتنظيماً عن أعمال أكبر كشافة ، وزد إلى ذلك محافظتهم على الصلوات بالجماعات ، والحراسة والخفارة والدروس الدينية والمحاضرات في المخيمات ، وعرفنا أنه قد يبلغ عدد المساهمين في هذا النشاط وحياة المخيمات إلى خمسمئة شاب ، وللجماعة سيارات خاصة تنقل أعضاءها إلى الضواحي التي يخيمون فيها .

رجعنا إلى الفندق ونحن معجبون بما رأينا وعلمنا ، وبتنا ليلة هادئة بعد ما قضينا النهار وقسماً كبيراً من الليل في التنقلات والزيارات .

حاولنا اليوم أن نصلي الفجر في المسجد المجاور ، فوجدناه مقفلاً . وعرفنا أن الحي غير إسلامي ، والتجار المسلمون ينصرفون في الليل إلى منازلهم فصلينا في الفندق ، واسترحنا قليلاً ، وتناولنا الفطور في مطعم الفندق ، وزرنا السيد توفيق حوري وهو عضو عامل نشيط في جماعة عباد الرحمن ومن مساعدي الأستاذ «أبو عمر» الكبار شاب ناهض درس في الجامعة الأميركية ببيروت وأكمل دراسته في جامعة لندن ، زرنه في محله التجاري ، وخرجنا معه على سيارته لزيارة البلد ، ومررنا بالكلية العاملة وهي كلية أسسها العاملون وهم شيعة لبنان ، وكان لهم اتصال بالهند ، وكان فيهم علماء زاروا الهند وأقاموا فيها ولهم تراجم في نزهة الخواطر ، وسرنا في شارع السباق بين أشجار الصنوبر ، وشاهدنا منطقة الحرج

الجميلة إلى أن وصلنا إلى مطار بيروت ، وهو أفخم مطار زرته في الشرق وأحسنه تنظيماً ، والطرق إليه من أجمل الطرق العالمية ، وإلى اليسار رأينا أكواخ اللاجئين الفلسطينيين الذين لا يزالون يذكرون في كل بقعة عربية بمأساة الإسلام والعرب .

زرنا في الرجوع سماحة مفتي الجمهورية اللبنانية الشيخ محمد عاليا ، دخلنا في بهو جميل فاخر كأنه ديوان رئيس حكومة أو أمير قديم ، وسلمنا عليه وتحدثنا قليلاً ، وبكل هذه المناسبات نذكر علماءنا في الهند وما هم فيه من بساطة وقلة مظاهر ، ونعتقد أن ذلك خير لهم ، وسمعنا أن موكب رئيس الوزارة ورئيس المجلس النيابي ورئيس الجمهورية يتحرك يومي العيد للتسليم على سماحة المفتي .

وزرنا الكلية الشرعية ، وحضرنا بعض الدروس ، والأساتذة هم علماء الأزهر ، وهم يكادون يكونون من طراز واحد؛ علم غزير ، فاستحضار للمادة واللقاء بارع .

وزرنا رئيس محكمة الاستئناف الشرعية الشيخ شفيق يموت وهو على غرار علماء الأزهر الشريف ، وتحدثنا مع سماحته برهة ، واستأذنا .

وفي الرجوع زرنا خلية الملك سعود وهي من أفخر البنايات التي زرناها وهي مؤسسة تشتمل على مسجد ومنتدى ، وهي قاعة محاضرات إسلامية كبرى في بيروت ، ومدرسة ، ومشغل يشتغل فيه الفتيات بتعلم تدبير المنزل ، والأشغال اليدوية ومستوصف ، دخلنا المسجد وهو في الطبقة الثانية ، وصلينا الظهر ، وهو مسجد فخم مزدان ، ووددت لو كان أكثر بساطة وتواضعاً وأقرب إلى المسجد الخاشع ، ولكنه هو المال الذي يضل طريقه إلى البؤساء واللاجئين فيصرف في الزخارف والزينات ، ورأيت فتيات يخرجن من المشغل - لا أعرف هل هن مسلمات أو مسيحيات والمظنون أنهن مسلمات - عاريات كاسيات أو متبرجات سافرات ، إلى متى هذه المهازل يا ناس؟ وما نهاية هذا التقليد الغربي الوقح أيها العرب؟!

وتحمل هذه المؤسسة العظيمة اسم عاهل المملكة السعودية العربية لأنه تبرع بقدر ٢٦١ ألف ليرة لبنانية ، وكان ذلك في عام ١٩٥٠م وكان أميراً وزار الخلية ، والقاعة الكبرى تتسع لأربعمئة شخص مجهزة بالسجاد وبالمقاعد المصنوعة من معدن الألمينيوم ويعلو جدرانها طبقة من خشب السنديان اللامع وهي أشبه بالبلاط الرخام فتعطي المنتدى روعة فنية ، وفي صدر القاعة رسم كبير للملك يحيط به العلمان السعودي واللبناني ، تحتها خزانة خشبية تعد من أروع ما صنع لدقتها وبساطتها وهي تحوي آلة الراديو والبيك آب ثم آلة الإذاعة وآلة التسجيل .

وهنا - مع الاعتذار إلى أصحاب الذوق الفني لا أمتنع من أن أقول: إن هذه المؤسسة التي هي آية في الروعة والفخامة والزينة لا تتفق مع أمة فقيرة لا تزال عاجزة عن إكمال المهمات والحاجيات الكثيرة ويكثر فيها الفقر والبؤس ، والجوع والعري ، مدارس لا تجد الكفاية من المال والوسائل ، وإلى الله المشتكى .

نسيت أن أذكر أننا زرنا الإمام الأوزاعي الكبير والحدث العظيم الذي طالما سمعنا الترمذي يقول في جامعه: «وإلى ذلك ذهب الأوزاعي» «وقال الأوزاعي إن الخ» والمحل يسمى بـ «الإمام الأوزاعي» وقد دفن في قرية على باب مدينة بيروت القديمة ، وقفت على قبره أستحضر جلالته في العلم وإخلاصه ومذهبه وإن كان قد اندرس ، ولكن اسمه خالد في الفقه والحديث وفضله لا ينكر .

خرجنا من «الإمام الأوزاعي» نمر بقصور العظماء وتفرجنا على البحر وعلى شاطئه مطاعم فاخرة يتوفر كل ما لا يببحة الشرع ولا يرضاه الله ، ولا يتخلى عنه المترفون ، ومررنا في طريقنا بصخرة الروشة التي هي في الحقيقة صخرة الانتحار ، وهي الصخرة التي تكثر عندها حوادث الانتحار ، عند المنتحرين لها قدسية ، وقد وقفت عندها أطل على البحر وأتصور الجو الرهيب اليائس الذي يقف فيه الكافرون بنعمة الحياة اليائسون من رحمة الله ، وإذا بالشرطي يتقدم إلي ويمنعني من الإطلال ،

لعله خاف علي فكرة الانتحار فتعوذ بالله من ذلك ، وسمعت أن أكثر المنتحرين من غير المسلمين ، ومن المقرر أن المسلمين - على ضعف إيمانهم - أقل الأمم انتحاراً. وذلك بفضل الإيمان الذي غرسه محمد ﷺ في نفوسهم .

دخلنا في مطعم البحرين المطل على البحر وجلسنا في طرفه البحري ، وتناولنا الغداء في ضيافة السيد توفيق ثم دخلنا مكتبة صاحبها من عباد الرحمن وهي بجوار المطعم ، ووجدت من مؤلفاتي «ماذا خسر العالم» و«مذكرات سائح» و«شاعر الإسلام» وأخذت نسخة من الكتب الثلاث ، ومررنا بمباني الجامعة الأميركية العظيمة التي تكاد تكون مدينة ، ورجعنا إلى الفندق واسترحنا فيه ، وكان ممن رافقنا في جولتنا اليوم الأستاذ عبد الودود معلم كلية الزراعة الذي هو من أنشط أعضاء عباد الرحمن ومن خاصة الأستاذ أبو عمر ، وفي المساء ذهبت لزيارة الأستاذ الكبير محمد أسد (LEOPOLD WEISS سابقاً)^(١) صاحب كتاب «الإسلام على مفترق الطرق» الشهير ، وهو مقيم في «عاليه» التي مررنا بها في طريقنا إلى بيروت مع قرينته الأوروبية ، عاكفاً على تأليف الجزء الثاني من كتابه الطريق إلى مكة ROAD TO MECCA وجلسنا معه ساعة ، وقد قابلته في مكة المكرمة عام ١٩٥١ وكان يذكر هذه المقابلة ، وهو يتكلم الآن بالعربية بسهولة .

انصرفنا من عنده وزرنا الدكتور مصطفى الخالدي^(٢) المسلم الغيور

(١) أحد كبار المفكرين الإسلاميين ، أعلن إسلامه وتخلّى عن اليهودية سنة ١٩٢٦م ، وعيّر اسمه (LEOPOLD WEISS) وقضى ست سنوات في السعودية ، ثم سافر إلى الهند ، والتقى بمحمد إقبال ، لما قامت باكستان كدولة إسلامية مثلها بصفة سفير لها في الأمم المتحدة ، وارتبط بصداقة مع عدد من الزعماء والأعلام في العالم الإسلامي ، رحل في آفاق الأرض وجاب بلداناً عديدة ، ثم استقرّ أخيراً بإسبانيا وتوفي بمدينة ميخاها (قرب مالقة) سنة ١٩٩٢م. كانت بينه وبين سماحة الشيخ الندوي علاقات وطيدة .

(٢) طبيب أديب من أهالي لبنان ، عرف بدفاعه عن القضايا القومية والإسلامية ، تخرج =

وكنت أسمع به . وسررت بهذه المقابلة والدكتور يلتهب غيرة للإسلام ويشكو من تقصير المسلمين في نشر الأدب الإسلامي بالإنجليزية فقدم إلينا بعض مطبوعاته الإنجليزية وذكر أنه نشر محاضرتي «كارثة فلسطين» طبع منها نحو خمسة آلاف نسخة طباعة جميلة ووزعها .

كان الحاج حسن الكواء وهو من كبار تجار بيروت وأثرياء البلد دعانا إلى العشاء في بيته وصادفنا الأستاذ الفضيل الورتلاني مجاهد الجزائر الشهير ، وكان أول لقاء بيننا ، بعد ما تعارفنا علمياً وفكرياً وطلب مني إلقاء كلمة فارتجلت ما حضرني حول مسؤولية العرب ومركز المسلمين في الهند ، وألقى الفضيل كلمة بليغة قوية تشهد بأنه من كبار خطباء العرب ، وقد نوه بي في هذه الكلمة وقال ما أملاه حبه وحسن ظنه وتعشينا وقد لاحظت أن مستوى المعيشة في هذه البلاد ارتفع ارتفاعاً ، وأن الهند لا تزال في مؤخر المركب وعلى خط كبير من البساطة والزهد .

رجعنا ورجع معنا الأستاذ الفضيل وجلس يتحدث ويؤنس بحديثه العذب وحبّه العامر ومننا متأخرين .

تقرر أمس (في ٣٠/شعبان) أن نقوم بزيارة قصيرة لطرابلس بلد لبنان الإسلامي الوحيد فتهيأنا وتوكلنا على الله ، وسارت بنا السيارة على ساحل البحر ، ونحن نمر بقري عامرة ، ومناظر فاتنة ، والبحر يرافقنا طول الطريق ، لا ينقطع عنه ولا ينقطع عنا ومررنا بقرية جبيل وبترون وللمسلمين فيها نشاط ، ومررنا بمنطقة معامل الإسمنت ، ومررنا بقلمون قرية العلامة السيد رشيد رضا رحمه الله ، حتى وصلنا إلى طرابلس ، ونزلنا في مركز عباد الرحمن فأطاف بنا الشباب الإسلامي الناهض والتفوا حولنا ، وقد شعرت فيهم بالحماسة الدينية ، والحب البريء والعاطفة القوية التي كنت أشعر بها عند شباب الإخوان في مصر ، ولا شك أن العباد نسخة لبنانية من

= من الجامعة الأمريكية ببيروت وعمل فيها ، أصدر مجلة «الممرضة» توفي ببيروت سنة ١٣٩٧هـ ، وله في مسقط رأسه (بيروت) مؤسسة خيرية باسمه ، ومن مؤلفاته «التبشير والاستعمار» و«حاضر لبنان المسلم» .

الإخوان ، وقد انشرح صدري وتفتح قلبي في طرابلس ووجدت فيه ما كنت أفقده في بيروت من الانشراح ، وأحبيت هؤلاء الشباب ، وكل واحد منهم حريص على الحديث وعلى الاقتراب .

انتهزنا الفرصة وخرجنا للزيارات ، زرنا الكلية الشرعية أو المدرسة الثانوية - لا أذكر - وهي تحمل الطابع الإسلامي الديني وتمتاز في النظافة والأناقة والتنظيم ، واجتمعنا بأحد معلميها وهو شيخ ذهب من بالي اسمه رجب بنا ترحيب العلماء ، ولما سمع اسمي عرفني بالكتب التي قرأها وأبدى إعجابه بهذه الكتب وظهر أنه صاحب دراسة للأدب الإسلامي الحديث وصاحب فكرة وعقيدة وفيه تواضع العلماء ، وأعجبني شخصيته وتواضعه ، وأعجبني هذه المدرسة أكثر من كل مدرسة زرتها في سورية ولبنان .

وتشرفنا بزيارة القاضي الشرعي ، ووجدنا عنده من النشاط الفكري والوعي ما لم نجده في زملائه في لبنان ، وقصدنا منطقة أبو سمرة الجميلة الخضراء ومنها تجمع الماء وفاض وسبب خسائر عظيمة ، وشاهدنا نهر أبو علي وشاهدنا خرائب الفيضان ، أحياء متهدمة ، ومباني محطمة وجسراً منسوقاً ، لا يصدق أن هذا النهر المتواضع الوداع يثور هذه الثورة .

رأينا مركز المولوية - نسبة إلى مولانا جلال الدين الرومي - ومدرسة ابن خلدون الرسمية ، ومدرسة الغزالي الرسمية ، وصلينا الظهر في جامع المدينة وتفرجنا على ميناء طرابلس ، وسمعت أن مقاهي الميناء تعم فيها المسكرات هي بلية قد عمت في لبنان . ولم يزل الإخوان يرافقوننا في هذه الجولة البلدية في حب وإخلاص أذكر منهم الإخوان مدحت بلحوص أمين صندوق الجماعة ، وفتحي شريف رئيس قسم الأسر وسعيد شعبان تلميذ الأزهر ، ومحمود عباس قائد الأشبال ، ومحجم مسلم وقد أراني دفتره وفيه مقالتي «المسلمون في الهند» وقال إنه قرأها في إحدى حفلات الجماعة ، ومعذرتي إذا كنت نسيت منهم أحداً فإني أكتب هذا الحديث بعد ما مضى أكثر من شهر على الرحلة .

تغدينا في ضيافة الجماعة في مطعم قهوة التل العليا في جو جميل وهواء منعش ومنظر بهيج في صحبة إخوان تجاوزت قلوبهم وشعت أفكارهم ، ورجعنا إلى المراكز واجتمع الإخوان وأكثرهم تلاميذ في المدارس وشباب غض ، وارتجل الأستاذ سعد الدين الوليلي خطبة تجلت فيها خطابته وبراعته - وهو خطيب شأن أكثر الإخوان - وألقيت كلمة وجيزة ، وكان الوقت ضيقاً ولا بد من الرجوع إلى بيروت ، فالיום موعد المحاضرة في خلية الملك سعود ، وفي نفوس الشباب حاجة ما قضوها من اللقاء ، فأمرهم بالجلوس معه ، وفي نفس الزائر حاجة ما قضاها من تحية إخوانه والحديث إليهم وقضاء بعض الوقت في هذا البلد الإسلامي الحبيب ، وقد عزم الإخوان عليّ بالعودة إلى طرابلس بعد رمضان .

وكلمة عن طرابلس ، هي مركز المحافظة ولبنان كسورية تشتمل على محافظات ، وعاصمة الشمال ، وفيها سبعون أو ثمانون ألفاً من النفوس ونسبة المسلمين في طرابلس ٧٥٪ ، وقد انفصل عن سورية وضمّ إلى لبنان ، ولا يزال يحن إلى سورية التي يشاركها في الإسلامية والديانة ، ولا يزال يسمّى طرابلس الشام ، ولاحظت أن جماعة العباد في طرابلس نشيطة ولها مركز قوي في المدينة ودعوة منتشرة متغلغلة في الشباب ، ولاحظت للشباب اطلاعاً على ما ينشر من المؤلفات الإسلامية الحديثة ، ولشيوخها ومثقفها اطلاع على نشاط ندوة العلماء وتقدير لأبنائها ومؤلفاتهم وعندهم إعجاب بالجماعة الإسلامية في باكستان وتقدير لما تنشره وتقوم به .

صلينا العصر وتوجهنا إلى بيروت ، وفي «قلمون» استقبلنا الأخ شفيح مع مجموعة من الشباب ، وتشرفنا بمقابلة ابن عم العلامة السيد رشيد رضا رحمه الله ، وهو يعرف أن السيد رحمه الله سافر إلى الهند لرئاسة حفلة ندوة العلماء ، وقد ألح الإخوان علينا بالمكث في قلمون ولكن اعتذرنا بسبب المحاضرة ، وودعناهم .

وصلنا إلى بيروت ، وصلينا صلاة المغرب في مسجد الخلية متأخرين ، وحن وقت المحاضرة ، فترلنا وحضر الأستاذ الفضيل الورتلاني ومجموعة

طيبة من المثقفين ، وقدمني الأستاذ سعد الدين الويلي^(١) ، وقمت وألقيت محاضرة قلت فيها: إن الأمم لا تعيش بالحضارات إنما تعيش بالرسالات ، والروح والخصائص ، وشرحت رسالة هذه الأمة وذكرت الروح والخصائص التي تنتصر بها هذه الأمة على الأمم ، منها الإيمان بالغيب ، وذكرت قوته وتأثيره وما يأتي به من عجائب وخوارق ، وذكرت أمثله الرائعة من تاريخ الإسلام الأول وذكرت أسلوب الحياة الذي كان يعيش عليه الصحابة رضي الله تعالى عنهم وذكرت تسخيرهم للقلوب والنفوس وضربت أمثلة له وذكرت تغلبهم على المادة وزهدهم في الحياة وعزوفهم عن الشهوات وإغراءات المادة وبريقها وذكرت أن هذا الأسلوب جدير بالتسخير ولا يزال له سحر في النفوس ، إلى آخر ما فتح الله به عليّ بهذه المناسبة ، وقام الأستاذ «أبو عمر» فليخص المحاضرة وشكر المحاضر وانفض المجلس .

ومن الخلية توجهنا إلى بيت الشيخ حسن الكواء مرة ثانية واجتمعنا بالسيد راشد الحوري وجماعة من العلماء وأعيان البلد وهنا فوجئنا - وهي مفاجأة سارة - بحلول رمضان فقد تحققت الرؤية في المحكمة الشرعية وانطلقت المدافع ، ورجعنا إلى محلنا وقضينا آخر ليلة في بيروت .

كلمة وداع عن بيروت :

لقد ذكرت أن قلبي لم يفتح لبيروت ، ولم أستطع أن أصف المدينة وأعبر عن شعوري وأسعفني الأستاذ سعد الدين فقال إنها مدينة داكنة ، ويغلب عليها الطابع المسيحي ، فالكنائس منتشرة والصلبان ظاهرة ، والتحلل فاش ، وحرمة العباد هي الحركة الإسلامية الوحيدة في هذا البلد المتحلل الخاضع لسلطان النصرانية الثقافي وسلطان الغرب الخلقي .

ولاحظت أن حركة العباد يتغلب عليها الجانب الرياضي والتنظيم العصري ، ولا شك أنهما عاملان مهمان في نشوء الحركات وتقدمها في هذا

(١) أحد أعضاء حركة الإخوان المسلمين النشيطين في مصر ، كان مرافقاً ودليلاً لسماحة الشيخ الندوي في هذه الزيارة .

العصر وفي البيئة اللبنانية بصفة خاصة ، وللحركة نشاط ملحوظ في نشر التوجيهات الإسلامية ونتمنى أن يزداد الاعتناء بالجانب الروحي فهو أساس الحركات الدينية ، ولو ألهم الله قائدها وموجهها الكبير النشط المؤثر ، العناية الكبيرة بإحياء السنن والمحافظة على الآداب الإسلامية بدقة وقوة - وفي استطاعة القائد أن يفعل ذلك وقد سنحت الفرصة وتغلغت الدعوة - لأنتج إنتاجاً هائلاً وكانت قوة كبيرة في البلد وتياراً إسلامياً كبيراً . وفي إخلاص الأستاذ «أبو عمر» وحرصه على الإصلاح وسلامة تفكيره وفي توفيق الله تعالى الذي لا يزال حليفاً لهذه الجماعة ما يبعث الأمل الكبير . وعلى الله قصد السبيل .



رحلة إلى تركيا^(١)

وبعد الانتهاء من المحاضرات انتهزت فرصة أسبوعين ، وتوجهت في ٢/ ذي القعدة ١٣٧٥ هـ الموافق ١٢/ يونيو ١٩٥٦ م إلى تركيا ، وأقيمت ليلة بحلب حيث ألقى محاضرة مهمة في مركز الإخوان بعنوان «حاجتنا إلى إيمان جديد» ، وكان الخطاب في أسلوب دعوي ، وقد صارت فيه العرب إلى حد المرارة الشديدة ، ولكن الجمع كان يستمع إليه بإصغاء وإنصات كبير ، وكان يخيل إلينا كأن هذه الصراحة ضربت على الوتر الحساس من قلوبهم ومشاعرهم ، وكان فيها انتقاد شديد للقومية العربية ، كأنني قلت لهم: إنكم لو اتخذتم القومية العربية دينكم وإيمانكم فكأنكم تخدعون المسلمين في شبه القارة الهندية الذين لم يزالوا على مدى تاريخهم الطويل متمسكين بالقومية الإسلامية ، وإذ دعوتهم إلى الإسلام ورجعتم أنفسكم إلى جاهليتكم القديمة .

ولما انتهى الخطاب فكأنما قد سال سيل الحب ، وقلماً رأيت في جمع مثل هذا الحب والودّ وإبداء عواطف التقدير والثناء ، وهذا دليل على رحابة صدر العرب وسعة أفقهم وأريحيتهم يصعب أن يوجد له مثل بعد هذا الانتقاد اللاذع الشديد في أي شعب أو بلد آخر .

توجهنا من دمشق في اليوم الثاني من شهر ذي القعدة سنة ١٣٧٥ هـ المصادف ١٣ يونيو ١٩٥٦ م^(٢) في الساعة الحادية عشرة نهاراً ، وعزم على

(١) قد نشرت هذه الرحلة في مجلة «البعث الإسلامية» على أقساط في أعدادها المختلفة .
 (٢) سافر العلامة الندوي إلى تركيا الإسلامية ١٩٥٦ م وقضى في ربوعها وقتاً لا بأس به وأقر عينه بما رأى فيها من طلائع النهضة الإسلامية في ذلك الوقت ، وإن كانت هذه =

المسير معي الأستاذ سعد الدين الوليلي تكرماً منه ، والأستاذ سعد الدين إنما هو رجل جمع الله فيه صفات كريمة من التنظيم والاستعداد والنشاط واليقظة ، واطلع على كل ما يحتاج إليه ضعيف مثلي ويساعده بما يغنيه عن اهتمام أو تفكير في شيء ، إن المسافة بين دمشق وحلب تقارب خمسمئة كيلو متر ، وتستغرق ست أو سبع ساعات ، وقد مررنا على حمص تلك المدينة التي فيها قبر سيف الله سيدنا خالد بن الوليد ، نزلنا وصلينا الظهر في مركز الإخوان وبينما نحن كذلك إذ جاءنا أحد الإخوان وألح علينا بالغداء وكنا لم نخبر أحداً بمرورنا ، وسألني تسجيل كلمة على دفتر المركز ، فكتبت عليه البيت التالي الذي كان يلائم الحال :

وما حب الديار شغفن قلبي ولكن حب من سكن الديارا
لم نتمكن من زيارة خالد بن الوليد نظراً إلى ضيق الوقت وقد مررنا بقبره
وقرأنا الفاتحة ، وكنت تشرفت بزيارته في رحلتي السابقة إلى حمص .

وقد كان الإخوان في حماة بلغهم سفرنا إلى حلب فكانوا في انتظار على جانب من الشارع فتلقونا وطلبوا منا التعرّيج عليهم لوقت قليل ، فنزلنا من السيارة وجلسنا في بيت كان مكتباً لأحد المهندسين ، وما هي إلا دقائق إذ اجتمع عدد وجيه من الإخوان ، وكنت قد تلقيت دعوة منهم للإقامة في حماة ، ولم يطمئنوا حتى أخذوا مني موعداً للرجوع إليهم بعد إنهاء هذه الرحلة ، والحقيقة أن حماة حقل خصب لعمل الدعوة والتوجيه الديني ، وهي تستحق بدون شك أن نقضي فيها بعض الوقت لهذا الغرض .

في حلب : سرنا عقب صلاة العصر من حماة ، ووصلنا إلى حدود حلب والشمس على وشك الغروب ، وكنا على بعد ثلاثة أو أربعة أميال إذ لمحت لنا عدة سيارات ، أشار أهلها بالوقوف ، وقفت السيارة ونزلنا فإذا نحن بجماعة من إخواننا في حلب نعرف منهم فضيلة الشيخ عبد الفتاح

= الرحلة قد مر عليها عدة سنوات ولكنها لا تخلو عن انطباعات وتوجيهات وهي تلقي الضوء على مدى وفاء الشعب التركي للإسلام وقوة عاطفته ، وسيجد فيها القارئ متعة وزاداً فكرياً ، كما ستكون حافزاً للشعب التركي على إسلامه ورسالته .

أبي غدة ، والشيخ محمد الشامي ، والأستاذ عبد القادر السبسي محامي حلب ورئيس الإخوان فيها ، والأستاذ عمر بهاء الدين الأميري سفير الشام في باكستان ، تلقانا الأستاذ بهاء بحرارة وحب ، وتوجهنا معهم إلى حلب ، وصلينا المغرب في الثانوية الشرعية ، وكان الإخوان هيؤوا المقاعد في فناء الجامع فجلسنا معهم ، وشربنا مع الإخوان الحاضرين مشروباً بارداً ، وأكبر الظن أن أغلبية علماء حلب قد حضروا المجلس ، واستقبل أحد الإخوان الضيوف ، وأعرب عن عواطف شكره وتقديره ، وقمت فألقيت كلمة وشكرت فيهم هذه الروح المخلصة .

ورجعنا من الثانوية إلى بيت أحد القضاة الذي يقع في حدود المحكمة ، وشكا الإخوان قصر الإقامة في حلب وألحوا علينا أن نطيل الإقامة لبعض الوقت ، ونسافر إلى تركية عن طريق الإسكندرونة بالطائرة عوضاً عن القطار ، وذلك ليتوفر لنا يوم مزيد نقضي في حلب ، ولكن تبين لنا بعد التحقيق من القنصلية التركية أن الطائرة تسافر رأساً إلى تركية ولا تعرج في الإسكندرونة إلا إذا كان عدد الركاب قليلاً . ويكلف هذا الطريق الذهاب إلى أطنة حيث توجد برامج الرحلة الجوية منظمة ، أما أنا فقد كنت حريصاً على سفر القطار لأتمكن من دراسة وضع البلاد والتمتع بها أكثر ، ورسخ عزمي على السفر بالقطار وقررناه أخيراً ، وجلسنا قليلاً ، ثم تعشينا وتوجهنا إلى الحفل حيث كان المستمعون ينتظروننا .

وقاربنا المركز فإذا نحن بصفين من الشباب الذين كانوا ينتظرون قدومنا ، ورحبوا بنا بهتاف الفرح والتكبير والتحميد ، ولما دخلنا بناء المركز رأينا عدداً كبيراً من المستمعين يغص بهم فناؤه ، كما رأينا عدداً فوق الجدران والسقوف ، وكان أكثرهم من الشباب ، أما العلماء والشيخوخ فكانوا جالسين على المنصة ، ولم أكن أتوقع هذا الاهتمام الزائد والحفل الحاشد ، والحقيقة أن تتابع السفر تسع ساعات قد أرهقني ولكن شوق المستمعين وحرصهم الشديد يقضي إلقاء كلمة فياضة تصدر عن الأعماق ، وقد حضر الإخوان جهاز التسجيل ، وأعلنوا بالموضوع الذي سيدور حوله الحديث وهو «حاجتنا إلى إيمان جديد» .

وبدأت بالحديث واثقاً بنصر الله ، فلمست بادىء ذي البدء بفتور وإعياء ولكنني شعرت بقوة ودفق في البيان ، واسترسلت في الكلام ، وكان الحديث يغلب عليه طابع الدعوة ، وكان موجهاً إلى العرب خاصة تتجلى فيه صراحة الخطاب ومرارة الحق ، وكان نقداً لاذعاً لفكرة القومية العربية وأصحابها الغلاة ، وقد ذكر الخطيب أن المسلمين في الهند عاشوا بفضل الجامعة الإسلامية والعاطفة الدينية ، واستمدوا قوتهم وحياتهم دائماً من تاريخ الغزوات الإسلامية والمد الإسلامي في القرن الأول ، واستلهموا تاريخ فتوح الشام بصفة خاصة ، واستطاعوا بذلك أن يقاوموا دعوة القومية الهندية وتطرفها ، وقد فوجئوا أخيراً أن العرب أنفسهم التجؤوا إلى القومية العربية ، وأخذوا بسحرها ، فاعتبروا ذلك شبه خداع وقلة وفاء ، رأوا أن أسيادهم الذين حملوا إليهم مشعل الإسلام ووحدته تركوهم حيارى في الطريق ، غير أن الحفل كله كان أذنأ صاغية للحديث ، ويبدو أنهم لا يشتمزون بمرارة الكلام وصراحته بل وعلى العكس قد ضرب على الوتر الحساس .

ولما انتهى الحديث أبدى الحفل انطباعاته العميقة في أسلوبه الخاص ورفعوا هتاف التكبير والتحميد عالياً ، وانفض المجلس فرأيت بحراً فيفيضُ بالحب العميق والإخلاص ، ولا أتذكر أن حفلاً غمرني بحبه وأعرب من إخلاصه وتقديره البالغين مثل ما شهدته اليوم ، وأعتقد أن هذه الصراحة والانتقاد اللاذع لو كان موجهاً إلى أمة من أمم الأرض لم تحتمله بمثل هذه الرحابة وسعة الصدر ، ولا شك أن هذا دليل على سماحة العرب وكرم خلقهم وأن الأمة العربية على بعض ما اعترأها من ضعف وتطور لا تزال تمتاز بسعة الصدر وسماحة النفس .

ولما أردنا الرجوع من المركز بعد انتهاء الحفل رأينا أن الشباب العرب الذي كان معظمه يدرس في الكليات يتهافت علينا معرباً عن حبه وتقديره تهافت الفراش على النور ، فكان يقبل اليد والرأس ، وعلى رغم ما كان الإخوان يعلنون أن الأستاذ تعبان مرهق لا يحتمل ذلك يتقدم إلينا جمع بعد

جمع ، ولما رأيت حرصهم على الزيارة وحبهم العميق قلت لا حاجة إلى المنع ، ورافقني الأستاذ بهاء الأميري ومعه جماعة من الإخوان إلى المقر ، وكان من بينهم شيخ من أصحاب القلوب يعبر عن عواطف حبه بما يثير الاستغراب والدهشة ، وكان يثني على صراحة الخطاب والصدع بالحق بالغ الثناء .

فيا لمعجزة الإسلام التي تؤلف بين القلوب وتعمرها بالحب والانسجام والإخوة ، وودعني الإخوان على نحو الساعة الثانية عشرة ونمت على اسم الله .

وبدأ الإخوان يأتوننا من بعد صلاة الفجر وقد تكفل الشيخ عبد الفتاح أبو غدة والشيخ محمد الشامي والأستاذ بهاء الأميري والشيخ محمد حمودة وبعض الإخوان الآخرين بتجهيز أهبة السفر وتسهيل ما يلزم في هذه الرحلة ، وكان القطار متأخراً جداً فتوجهنا إلى المحطة في الساعة السابعة صباحاً مع جماعة من الإخوان وهم لم يألوا جهداً في تسهيل هذه الرحلة وتهيئة كل حاجة ، أما ذلك الشيخ المذكور فكان يعبر عن حبه وتقديره مرة بعد أخرى ، وكنت أخجل بضعفي وقلة بضاعتي غير أنني كنت أتسلى بذكر الشخصية التي أنتمي إليها والدعوة التي أتشرف بحملها .

وكنا كالسهام إذا أصابت مراميها فراميتها أصابا وودعني الإخوان وعرفوني إلى عدة ركاب ممن يسافرون إلى إستانبول وأكدوا عليهم أن يقوموا بكل حاجة وتسهيل في السفر ، فقالوا إننا مستعدون لكل خدمة طول الطريق .

ولا أنسى ما رأيته قبل سنوات في نفس هذه المحطة ، من أن القطار يتوجه إلى تركية فأثار ذلك المنظر شجوني ، ومن كان يدري أن الله يحقق لي هذه الأمنية اليوم وأسافر إلى تركية ، ذلك البلد الإسلامي الحبيب الذي مثل دوراً رائعاً في تاريخ الإسلام سبعة قرون .

الزملاء الأتراك وعاطفتهم الدينية :

ركبنا في القطار ودخلنا إحدى عربات الدرجة الثانية فوجدنا أسرة تركية

تسافر في نفس العربة ، وجعلت سيدات هذه الأسرة ينظرن إلينا نظرة ملؤها استغراب وسؤال ، وما لبثن إذ قالت إحداهن بلغتها التركية : لقد سررنا كثيراً للحيتكم وعمامتكم ، ولفت نظري أحد الإخوان وقال انظر إلى عينيها كيف تترقق فيها الدموع ، فسبحان الله ما أقوى بذرة الإيمان التي لم تقلعها العواصف والزلازل مهما اشتدت وعتت وقد رأيت من شدة إجلال هؤلاء السيدات أنني كلما أمد قدمي لألبس حذائي يسوين الحذاء بدون تلكؤ ، أما الرجل التركي فيعاملني معاملة الخادم مع سيده ، وإذا جلس أمامي يجلس كالمريد في الحلقة .

يرافقني في هذه الرحلة أخ سوري وهو في الدرجة الأولى من القطار وهو يأتيني ساعة بعد أخرى ، ويسأل عن حاجتي ، وجاء لي بطعام من عنده ، وإن كان معي طعام زودنيه الإخوان في حلب ، إن القطار متجه نحو أرض ارتجت سهولها وجبالها بصوت الله أكبر لمدة طويلة ، ووطئت تربتها سنابك خيول الفرسان العرب والمجاهدين الأتراك الباسلين مراراً في التاريخ ، فغنيت بنعمة الإسلام لأن هؤلاء المجاهدين ، إنما كانوا يتمتعون بشرف النسبة إلى الشخصية التي قال عنها الشاعر ما معناه :

«إن الأرض التي وطئتها قدمك اهتزت وربت ، وإن الشجرة التي نزلت تحتها نالت حياة ونضارة من جديد» .

القطار سريع يسافر من بغداد إلى إستانبول مرتين كل أسبوع ، يسمونه «قطار طورس السريع» وصل القطار بعد الساعة الثانية عشرة إلى ميدان أكبس ، وهو آخر محطة في حدود الشام ، وجرى فيه الفحص عن جوازات الركاب الأجانب .

حدود تركية : وصلنا إلى «إصلاحية» في الساعة الثانية نهاراً ، وجدنا تذكرة السفر إلى «حيدر باشا» وهي محطة إستانبول ، واشترينا هذه التذكرة بالعملة التركية مقابل ٦٧ ليرة و ٢٠ قرشاً تركية ، والتفاوت بين العملة التركية والعملة الشامية كبير ، إذ كانت قيمة ١٤٥ ليرة شامية ٥٠٠ ليرة تركية ولذلك فلا يخلو من فائدة أن تشتري تذاكر السفر في الحدود الشامية بعملة

سورية ، وفي الحدود التركية بالعملة التركية ، وتكرم رفيقنا الشامي في محطة «إصلاحية» بشراء تذكرة السفر لنا ، وأخبرنا أن عربات النوم كلها مشغولة اليوم ، فلا بد لنا من المبيت في نفس العربة التي ركبناها .

في أرض تركية: الساعة الآن الثالثة نهاراً ، والحر أكثر بالنسبة إلى سورية ، وها هو العلم التركي الأحمر الذي يحمل شارة الهلال والنجم يخفق أمام عربتنا . وهو شعار ألفناه نحن المسلمين الهنود منذ صغرنا ، فقد كان ذلك رمز قوة الإسلام في زمن مضى ، وإلى ذلك أشار شاعر الإسلام محمد إقبال بقوله : «إن خنجر الهلال شعارنا القومي» ، وقد نزلت من العربة لأروح عن نفسي قليلاً فإذا برهط من الشباب الأتراك يجيؤونني ممن كانوا يتزهون في ضواحي قريتهم ، وما كانوا يعرفون لغة غير التركية ، فتكلمت معهم بمساعدة بعض العارفين بالعربية ، وبالإشارة ، وهم يحملون أسماء إسلامية ، ومنهم عدد كان اسمه محمداً ، وعندما سأله هل هم يصلون أم لا؟ قالوا: نصلي الجمعة فقط ، وتقع جبال خضراء في جانب القطار ، ويبدو أن الأرض خصبة منتجة مثل الهند .

هذه هي المرة الأولى التي واجهت فيها مشكلة اللغة ، فليس هنا من يفهم العربية غير عدد من الإخوة السوريين الذين يرافقوننا في السفر ، وهنا عرفت قدر التفاهم عن طريق اللغة ، ومما يؤسف له أن الترك رغم ما حكموا الأفطار العربية قروناً لم يتصلوا باللغة العربية حق الاتصال وإذا كانت لهم معرفة بالعربية قضى عليها الرجل المشؤوم الذي يدعى بكمال أتاتورك ، إنني بدأت أشعر الآن بميزتين بارزتين تتألم بهما عيني ، الأولى : الخط اللاتيني الذي عرفته منذ دخولي في الثغور التركية ، والأخرى : القبعة التي ترى على رأس كل تركي ، حتى إن أهل القرى الذين نراهم من القطار لا ينفكون عن لبسها ، غير أنها تبدو من المصنوعات الوطنية ومن صنع أيديهم .

وأسرع القطار بعد محطة «فوزي باشا» ورأينا أن الخط الحديدي يمر في الأنفاق من حين لآخر ، وقد تمتد بعضها في مسافة ثمانية أو عشرة أميال ،

وتقع الجبال الخضراء على جانبي الخط الحديدي وتتخللها عيون من الماء ، والأرض إلى مدى بعيد ، وقد أقبل المساء والجو هادىء ، وكل شيء يتمتع بالهدوء في هذا المحيط الهادىء ، غير أن القرى ومآذن جوامعها تعلن بأن هذه الأرض حكمها الإسلام وكانت له فيها كلمة نافذة ، وإن الرسالة التي جاء بها الدعاة العرب والغزاة الفاتحون تحتضنها هذه الأرض ، ونحن أمناؤها اليوم .

وصلنا إلى «أطنة» بعد المغرب ، ويبدو أنها مدينة كبيرة ومركز صناعي وتصدر فيها بعض الجرائد ، قرأت اسم واحدة منها بيد بعض الركاب «ابن أطنة» وقد ركب القطار عدد لا بأس به في هذه المحطة ، وحصلنا على مكان للمبيت بفضل ما تكرم به رفاقنا الركاب من الإيثار والحب .

انطباعات الأسرة التركية : ١٤ ذو القعدة ١٣٧٥ هـ المصادف ١٤ يونيو

١٩٥٦ م .

ودّعتني الأسرة التركية في محطة «قيصرية» وأبدت عواطف الحزن والأسف عند مفارقتنا ، وجاء أخ سوري كان بجوار عربتنا ، وقدم لنا الشاي ، والذي لفت نظري مما يوجد طول هذا الطريق من سورية إلى تركية ، إنما هو الخيار و«البندورة» (الباذنجان الأحمر) يأكلهما الركاب بشهية وإقبال ، كما يوجد الجبن والزيتون والخبز والبيض المسلوق ، وقد قام رفيقنا التركي الأخ أحمد بخدمتنا طوال الطريق ، وكان يبدي عواطف الحب نحونا فينة بعد أخرى وهو يقدر على التعبير بلغة عربية متكسرة ، فقال مرة ما معناه : لولا اضطررت بحكم الحاجة الشديدة إلى أن أفارقكم في أنقرة لصحبتكم إلى إستانبول ، ثم قال ولكن قلبي معكم ، وبدأ يبكي وظلت عيناه دامتتين برهة من الزمان ، ومررنا بمحطة كبيرة اسمها «فارقلي» وسنصل إلى «أنقرة» نحواً من الساعة الثانية .

يمتاز القطار بالنظافة فلا نزال نرى أن الخادم يأتي بعد كل ساعة وساعتين ويكنس أرض القطار ويذهب معه بالكناس ، وكنت أعتقد أن أهل الشام يتفوقون بالنظافة ولكن أرى أن الأتراك يفوقونهم في هذه الناحية .

ووقع نظري على لفيف من الشباب الأتراك ، تعلو وجوههم ملامح الفطانة والهمة البعيدة ، ويبدو أن الشباب الذين حلمهم الشاعر الإسلامي محمد إقبال ، وأفنى في التمني بهم عمره ، وأن أولاد القصور الذين تغنى بمدحهم وأشاد بذكورهم إنما هم أبناء هذه الأمة التركية .

من أنقرة إلى القسطنطينية: وصل القطار إلى محطة أنقرة في الساعة الثانية ، وقد ظهرت طلائع هذه المدينة وآثارها من قبل ، وبذلك قدرنا أن مدينة أنقرة ستكون واسعة الأرجاء ، وصدق هذا الظن عندما وصلنا إليها ، فقد كان يبدو أنها عاصمة تركية ، وأشار بعض الركاب إلى بناية بيضاء ، وقالوا إنها مقبرة كمال أتاتورك ، والمدينة جميلة وأنيقة ، والمحطة مبنية على طراز حديث ، وكانت نفسي تتوق إلى الأذان وأداء الصلاة مع الجماعة في محطة هذه المدينة ، التي كانت مركزاً لحركة التطوير الكمالي ، وفيها صدر الأمر بتحويل الأذان العربي إلى الأذان التركي ، فتزلت على الرصيف وسألت أحد الشرطة عن القبلة فأصبحني دليلاً يدلني على مكان ملائم للصلاة في داخل المحطة. فصليت وسار القطار فور رجوعنا إليه ، وما كنت أظن أن المسافة بين أنقرة والقسطنطينية تكون بعيدة هذا البعد كما هو الشأن عادة بين ولايتين ، وإنما كنت أعتقد أنهما تكونان متجاورتين ، ولكن علمت أن القطار السريع يواصل سيره أربع عشرة ساعة إلى القسطنطينية ، وقد رأيت أن النسوة التركيات والعربيات اللاتي يسافرن معنا في القطار سافرات ، ولا فرق بينهن وبين الإفرنجيات ، ولم أر في الرجال من يصلي إلا رجالاً معدودين ، يبدو أن الحضارة الغربية مسيطرة على الحياة تماماً.

وصل القطار إلى محطة «اسكي شهر» وقد حان المغرب ، وهي مدينة تركية كبيرة جميلة ، نزلت من القطار على المحطة فإذا أنا بجماعة من الناس قد أحاطوا بي معجبين بزبي ، وصادفني أحد الأتراك من الموظفين في القطار وكان يعرف العربية لأنه قضى بعض الوقت في سورية ، فتحدثت إلى الجماعة بمساعدته ، وكانوا أذناً صاغية إلى كلامي يسمعونه بغاية شوق

ولهف ، وعندما آذن القطار بالرحيل قبل يدي بعض الشباب لشدة إعجابهم وحبهم ، وودعوني على اسم الله .

سار القطار طول الليل بسرعة فائقة ، وقد كان الإخوة في حلب والركاب في الطريق أخبروني أن القطار لا يصل إلى إستانبول قبل الساعة الثامنة صباحاً ، وبما أن القطار كان متأخراً جداً كنت أتوقع وصوله إلى إستانبول متأخراً أيضاً ، ولكنني في الساعة الثالثة ليلاً فوجئت بأنه وصل إلى إستانبول ، ولم أصدق الخبر بادىء ذي بدء ، وأخيراً عرفت أنني في إستانبول ، فأخذت الأمتعة ونزلت من القطار بمزيج من الحيرة وصليت الفجر على الرصيف مخافة أن لا أتمكن من أدائها في الباخرة ، وقد تكرم الأخوة في حلب فأبرقوا أحد أصدقائهم في إستانبول بوصولي إليها بقطار اليوم ، غير أنني لم أجد أحداً يتلقاني في المحطة . فأيقنت أن وصول القطار مبكراً هو الذي سبب تأخر الأخ المضيف .

وجاء الحمال فطلب مني أن أركب الباخرة لأنها على وشك الرحيل وركبت عليها فتوجهت من محطة حيدر باشا (وهي محطة إستانبول) إلى القسطنطينية ، وقد مرت على بحيرة «مرامر» وكانت المدينة تبدو أمامي وأنا أتقدم نحوها ، تلك المدينة العظيمة التي لعبت دوراً هاماً في التاريخ ، والتي دامت عاصمة العالم الإسلامي ومركز الحكومة المسلمة قروناً كثيرة ، وأرست الباخرة في إحدى الموانئ ، وانتهى سفري بإذن الله ، ونزلت من الباخرة فإذا برجلين يرافقاني تكرباً منهما لزائر مسلم ، ويبدو أنهما من موظفي القطار ، وطلبوا أن أركب السيارة وصحباني إلى البلد .

حيرة واضطراب: سجل لي الإخوان في حلب عناوين عدد من الطلبة السوريين الذين يدرسون في كلية الطب بجامعة إستانبول ، وحملت معي رسالة إلى أحد الأخوة بطيها شيك بقيمة ٤٠٠ ليرة تركية ، وكان من المقرر أن أصرفه فور وصولي إلى إستانبول ، لأنه كان زادي في هذه الرحلة ، ووصلنا إلى محلة تاشكساب بمساعدة العنوان المكتوب على ظرف الرسالة ، وسألت عن مقر ذلك الطالب السوري الذي أنزل عنده ، وبعد

صعوبة وتساؤل وبحث عثرت على مقره وضربت الجرس فلم يجيني أحد ، وعدت فضربت الجرس مراراً ولكن دون جدوى ، أما صاحباي فلم يكونا يعرفان لغة عدا التركية ، ولم يكن بوسعهما أن يساعداني في حل هذه المشكلة ، وعندما ضربت الجرس أخيراً نزل إلينا حارس المبنى ، وأشار أن الأستاذ عبد الفتاح غير موجود ، وأصابتنى من الحيرة والدهشة ما الله به عليم ، وفكرت فيما أحتال لنفسي ، وبينما أنا مشغول الخاطر مشوش البال إذ طلب مني صاحباي أجرة السيارة عشرين ليرة تركية ، ومن سوء الحظ ما كنت أملك في ذلك الوقت إلا عشرين ليرة وعدة آتات ، لأن القانون لا يسمح بحمل أكثر من مئة ليرة ، وقد كنت واثقاً بأن أصرف الشيك في إستانبول وأملك أربعمئة ليرة ، وقلت لهما بإشارة اليد إن الأجرة غالية فاصرا على ذلك وقالوا إن الطريق قد طال بنا في البحث عن صاحب المقر ، واستغرق ذلك وقتاً كثيراً ، وزدت قلقاً على قلق ، لأنني ما كنت أملك أكثر من هذا المبلغ وأخيراً أعطيتهم ١٧ أو ١٨ ليرة ومكثت على باب الأخ المضيف .

فلما طال بي الوقت ولم يرجع الأخ عبد الفتاح سألت عنه الحارس فأجاب بما لم أفهمه ، إذ أنه كان يكرر كلمة «كلر كلر» وسجلت هذه الكلمة حتى أسأل أحداً معناها ، ولم يكتف الحارس بكلمة «كلر كلر» بل ألقى خطبة طويلة بلغته التي لم نكن نفهم عنها شيئاً ، وسئمت كلامه وضجرت مقاله فسألته عما إذا كان هنا من يعرف العربية أو الإنجليزية ، وعلمت بجوابهم أن هناك مهندساً يعرف الإنجليزية ولكنه لا يمكن الاتصال به قبل الساعة التاسعة ، وقد تفاهمنا كل ذلك بالإشارة ، مثلاً إذا أراد أن يقول الساعة التاسعة ، وضع أصبعه فوق الرقم التاسع في ميناء الساعة ، وقد شق علي الانتظار ، بجانب ما ألم بي من هم وحزن حينما فكرت في مصيري وقلت في نفسي ماذا أصنع إذا كان مضيفي خارج إستانبول ، لقد كانت اللغة والمال سلاحين ، ولم أكن أملك أي واحد منهما ، فلا الإقامة متيسرة ، ولا العودة ميسورة .

وأخيراً بعثت بطاقة الزيارة إلى ذلك المهندس عن طريق الحارس فجاء

وكان يستطيع الكلام بالإنجليزية ، فقال إن الأخ عبد الفتاح غير موجود ولكن الحارس يقول إنه سيأتي في الساعة الثانية عشرة ليتناول غداءه ، وقلت للمهندس إنني أحمل بعض العناوين فإذا دلّني الحارس على أهلها لكنت متشكراً ، وأمکن لي تسهيل الأمر ، وعندما رأى العناوين أشار علي أن أتصل برجل هو رئيس تحرير جريدة إسلامية إسبوعية ، وهو من جملة أصحاب العناوين ، فإن لم يكن موجوداً فلا بد أن المكتب مفتوح ويوجد هناك أحد من موظفي الجريدة ، واغتنمت هذا الاقتراح وتوجهت مع الحارس «كامل تركي» ولم نزل نتحدث طول الطريق بالإشارة ، وشعرت بكلال وإعياء ، وكنت كطفل يقبض على يده في زحام مخافة أن يضل الطريق ، لقد كنت أسير مع كامل والناس ينظرون إلى زبي بنظر ملؤه استغراب ، فقد كانت اللحية والقلنسوة شيئاً غريباً في أعينهم .

نزلنا من الترام فإذا بشاب يرافقني وقد تكلم معي بالإنجليزية وقلت له إنني ذاهب إلى رجل كذا فقال أنا أدلكم عليه ، ولكن معرفته بالإنجليزية كانت محدودة غير أنه كان يبدو شاباً نجيباً وكريماً ، والحقيقة أنني لم أكن أصل إلى من قصده بدون دلالته ، إذ لم يكن «كامل» دليلاً كاملاً لنا ، وصلنا إلى مكتبه فلم نجده ، وكان أحد مساعديه موجوداً فقال إنه سيأتي بعد نحو ساعة ، ولم يكن يعرف الإنجليزية ولا العربية تحدثت معه بالإشارة ومساعدة ميناء الساعة ، ورجع عني كامل وبقيت الآن وحيداً ، وقد حانت صلاة الجمعة فدلنا الخادم على جامع قريب ورجع هو قائلاً: إن مفتاح المكتب معي ، ومما زاد قلقي أنها كانت أول صلاة الجمعة وآخرها في إستانبول بالنسبة إلي في هذه الرحلة ، ولولا هذا الاضطراب الذي واجهني لصليت الجمعة في أحد الجوامع الكبيرة ، وجاءني شاب تركي آخر وتحدثنا بالإشارة ، وبدأ الجامع يغص بالمصلين قبل أن يؤذن للصلاة ، فقد كان الناس يأتون ويبدلون قبعاتهم بقلانس القماش ويجلسون في هدوء ووقار ، وكان أحد الواعظين الأتراك يلقي مواعظه بالتركية والناس يستمعون إلى كلامه بإصغاء تام ، فلم يكن هناك ضجيج ولا رفع أصوات كما في مصر وسورية ، وأذن الأذان العربي ، فقام الناس جميعاً يصلون ركعات السنة ،

وجاء الخطيب مرتدياً العمامة محلوق الذقن وهو شاب ، فخطب بالعربية ، وكانت الخطبة مكتوبة ، ولما فرغ عن الخطبة الأولى تكلم بالتركية ما لم نفهمه ، وصلى بالناس والمسجد غاص بالمصلين ، وبدا أنني لست في إستانبول التي تحولت إلى مدينة أفرنجية وأصبحت كأن لا علاقة لها بالإسلام وتعاليمه ولا يسكنها المسلمون بل وقد شعرت الآن بأنها مدينة إسلامية خالصة لا يسكنها إلا المسلمون .

ولما انتهيت عن الصلاة فكرت فيما إذا لم أجد خادم المكتب لصعب علي الوصول إلى المكتب وإلى محلة الأخ عبد الفتاح ، ولكن من حسن حظي وجدته واقفاً ينتظرني فجاء بي إلى المكتب ، وصادفت هناك حادثاً عجبياً لن أنساه طول حياتي ، وقد انهارت له أعصابي لوقت قصير .

دخلت في المكتب وقابلت رئيس التحرير وتبادلنا التحيات وقد أوعز الخادم إلى إحضار الشاي ، وقدمت إليه عنوان الذي حملته معي فانتقل بي إلى غرفة أخرى ، وهو رجل كهل في زي تركي جديد ، وكنت أتوقع أنه يجيد العربية لأن جريدته تحتوي على مقالات مترجمة من العربية كما رأيت في مكتبته كتباً عربية ، ولكن علمت أنه لا يقدر على التكلم بالعربية ، ولم أدر هل كان يفهم العربية أم لا؟ إنه قرأ الأسماء والعناوين التي سجلها الإخوان على مذكرتي في حلب فشق تلك الأوراق من المذكرة ، وكتب منها عنواناً على ورقة ، ثم فتح رسالة التعريف التي حملتها معي وبطيها الشك ، الذي كان جل ما أعتمد عليه في هذه الرحلة ، وقد جمع هذه الأوراق وتلك الرسالة ومزقها تمزيقاً وكل ذلك حدث بصورة مفاجئة ، ولم أفهم معنى هذه العملية إلى أن سألته عما فعل؟ فأجابني بقوله: «لا يجوز لا يجوز» وتلك هي الكلمة العربية التي سمعت منه أولاً وآخرأ .

أحاطت بي حيرة شديدة ، ولم أفهم السر في ذلك ، وقلت في نفسي : لعل هذا الرجل مجنون وقعت فريسة جنونه ، أو لعله زعمني من المتسولين ، وأراد أن لا أتمكن من ذلك في هذا البلد ، أو ظن بي التزوير والخداع ، على كل فقدت رشدي وبقيت حيراناً لا حيلة لي فيه ، وتصور

حالة غريب في مثل هذا الموقف المربك لا يستطيع أن يفهم لأحد أو يفهم له أحد ، وبقي صفر اليد .

أما صاحبي فقد دخل غرفته واشتغل بعمله دون أن يهمله أمري وانتظرت ساعة عسى أن يشعر بحالتي ، ولكن رأيت أن لا فائدة بهذا الانتظار ، بل ينبغي أن أطلب منه ذلك العنوان الذي كتبه على ورقة واحتفظ بها ، ولما دخلت الغرفة وجدت فيها رجلاً آخر كان يعرف العربية فحكيت له قصتي ، واهتم بما سمعه وقال إن هذا الرجل جبان خاف على نفسه الضرر من لقاءكم والعناوين التي حملتموها معكم ، فرجوته أن يطلب منه ذلك العنوان المكتوب عنده ، وحصلت عليه .

وقد تكرم هذا الرجل فأصبحني مساعده لكي يدلنا على بيت الأخ عبد الفتاح ، وقد كان معي عنوان ورسالة أخرى وتذكرت اسماً آخر فكتب لي الرجل هذين العنوانين على ورقة ، وأمر مساعده بأن يدلني عليهما وقال لي إذا لم يتيسر اللقاء مع الأخ عبد الفتاح فالأحسن أن تزوروا صاحب العنوان الآخر الحاج نظيف جلبي ، وهو رجل مسلم جريء يعرف العربية أيضاً ، ويمكن لكم الإقامة عنده .

توكلت على الله وخرجت مع الدليل فذهب بي أولاً إلى الأستاذ يوسف ضياء الذي كتب إليه الشيخ عبد الله زين العابدين في حلب رسالة تعريف فقرأ رسالته وفرح بها كثيراً وقابلني بغاية الإكرام والتوقير ، ولكن واجهت معه نفس المشكلة ، إذ أنه كان لا يعرف الإنجليزية ولا العربية فلما رأى المشكلة طلب أحد أصدقائه الذي كان يتكلم كلمات بالإنجليزية ، وألح على الإقامة عنده ، فاعتذرت لأن الذي كان يهمني هو لقاء الأخ عبد الفتاح فقد كان مضيفي الذي أنزل عنده ، وأصرف الشيك عن طريقه ، وانصرفت من عنده وما أن وصلت إلى الشارع إذ فاجئني وأخذ بيدي إلى سيارة ركبتها ، وأدى هو أجرتها راجياً مني أن نجتمع مرة أخرى ، وقد كان لكرمه هذا تأثير في نفسي وشعرت بسرور وهدوء .

وصلنا إلى بيت الأخ عبد الفتاح فلم نجده ، وعرفنا بإشارة الحارس أنه

لم يرجع بعد ، واستحوذ علي القلق وزدت همأ على هم فقد كان الأصيل ينقضي ويقبل الليل ، وفكرت فيما إذا لم أتمكن من لقائه فأين أبيت وماذا سأعمل ، فلا المال ميسور ولا اللغة مفهومة ، حتى أقيم في فندق ، وأخيراً وبعد يأس من لقاء الأخ عبد الفتاح توجهت إلى منزل الحاج نظيف جلبي ، وبعد بحث عثرت عليه ولكنه غير موجود ، قام أهل بيته بإكرام الضيف وقدموا إلي القهوة ، وتوسمت في البيت ذوقاً عربياً دينياً ، وتراجعت إلى نفسي واستطلعت خبره فتحدثت معه بالتليفون فرحب بي بالعربية ، وبدا كأنه يعرفني ، وقلت له إني جئت لزيارتكم إلى بيتكم وأنا أنتظركم هنا ، فوعدني بالرجوع ولكن تأخر كثيراً ولم يرجع ، واستولى علي اليأس وعاودني الهم والقلق ، واستأذن الدليل وقال مشيراً إلى ميناء الساعة إن وقت انتهاء المكتب وصل والمفتاح عندي فلا بد من أن أرجع الآن ، وطلبت منه أن يتوقف قليلاً ريثما يرجع الحاج نظيف إلى بيته ولكنه لم يرض بذلك واعتذر .

انصرف عني الدليل وفكرت في مصيري إذا لم يرجع صاحب البيت ولم يرض أهله بإقامتي عندهم ، وبعد لأي رجعت الدليل ولم ير من كرم الخلق والمروءة أن يتركني وحيداً في بيت ليس لي به عهد ، فتكلم مع بنية للحاج نظيف بلغة تركية وأشار لي بالخروج ، وإذا بالبنية تمشي أمامنا ونحن نمشي وراءها تمر بالدروب والشوارع ، أما أنا فكانت كما حدث القرآن : ﴿ صَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَصَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ﴾ وهناك شعرت بعجزتي وضعفي ، وقلة حيلتي وضآلة بضاعتي شعوراً كاملاً ، ووضحت على حقيقتي وقلت في نفسي ألسنت الذي كان يحاول في دمشق أن لا يراه أحد من المعارف فيزعجه ، فإن كثرة الزائرين والداعين فيها قد شوشوا بالي وعكروا صفو الهدوء والراحة ، أما في إستانبول فأشتاق إلي من يكلمني ويعرف لغتي ولا أجده .

لا أصادف أحداً يعرفني أو يفهم لغتي ، ولم تغن عني قوة الخطابة واللغة ، ولم تسعفني ثقافتني شيئاً ، فقد عجزت الوسائل وضعفت ، وكنت أقرأ قول الله تعالى : ﴿ أَمَّنْ يُمِيطُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ ﴾ وأنا مشوش

العقل مشغول القلب ، وبينما كنت أمشي وراء البنية والدليل ، إذ صادفت أولئك الأخوة الأربعة السوريين الذين كانوا يرافقونني في القطار ، واقفين على جانب من الشارع وهم يأكلون الفواكه ، فلما رأوني قالوا أين أنتم يا أستاذ؟ وحكيت لهم القصة بإيجاز وقلت إذا لم أنجح في هذه المحاولة الأخيرة أبيت معكم ، فرحبوا بي ، وسألتهم اصطحاب واحد منهم لكي يتيسر لي الوصول إليهم إذا قدر لي المبيت معهم ، وكنت أتحدث معهم إذ رأيت ذا ذقن قصير ، وعلى رأسه قبة جاءني بخطوات فسيحة ، وأخذ بيدي وسألني بالعربية: متى قدمتم؟ وسألته عن اسمه فقال ألم أجتمع بكم في دمشق ، وأعطيتكم عنواني ، وقلت لكم إذا وصلت في حدود تركيا أبرقوني ، فإن كنت على مسافة ثمانمئة ميل أحضركم وأرافقكم .

وظننته رحمة من الله وتأييداً منه ، وكنت كمن انفلتت منه راحلته بأرض فلاة ، وعليها طعامه وشرابه فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع في ظلها ، فيينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده فأخذ خطامها .

وسألته أن يمشي معي إلى الحاج نظيف فقال ما كنت أذهب في هذا الوقت إلا إليه ، وأخبرني أن الحاج نظيف سألني كتابة رسالة إلى الأستاذ سعيد رمضان ، وجئته صباحاً فلم أجده ، ولذلك تأخر سفري إلى أنقرة صباح اليوم ، وأريد أن أفوض إليه هذه الرسالة في هذا الوقت ، وسرنا نحن الأربعة ووصلنا إلى دكان الحاج نظيف ، ويبدو أنه دكان قماش كبير ، وبعد قليل جاءنا الحاج نظيف واستقبلنا برحابة صدر وأبدى بنا فرحه وسروره ، وحكيت له القصة بطولها ، فقال: أنتم ضيفي من الآن ، ونحن مستعدون لكل خدمة ، فلا تخفوا علينا شيئاً من حاجتكم ، وقد أوعز إليه بعض زملائه ، أن لا يستعجل في الثقة برجل غريب ، فإن الظروف تقضي الحيلة في كل أمر ، فرد عليهم قائلاً: ومهما يكن من شيء فأنا ملحٌ على نزوله عندي ، فجاء بي إلى بيته قبيل صلاة المغرب ، وأكرمني وتحدث إلي ، وبعد برهة من الوقت جاء بالعشاء ، وكأني أفطرت الصوم ، إذ لم يتيسر لي طول النهار طعام سوى ما قدم إلي عدد من فناجين الشاي والقهوة .

نهاية الحيرة: دخل شابان في الغرفة بخطى سريعة ونحن نتعشى وحيانا بالسلام عليكم وقالوا: «الحمد لله الذي جمعنا بكم» وكان اسم واحد منهما عدنان الحلبي والآخر طه العراقي ، وكلاهما طالبان في كلية الطب ، وأخبراني أن عدداً كبيراً من الطلبة العرب يبحثون عن سماحتكم من الصباح الباكر ، فلم نترك ركناً من أركان المدينة يرجي فيه لقاءكم إلا وقد وصلنا إليه ، وقد بعثنا الإخوان في الجوامع والفنادق الكبرى يسألون عنكم ويبحثون ، وأخيراً التجأنا إلى سفارة الهند وباكستان ، ومكتب إعلام السياحة واستطلعنا خبركم فلم ننجح ، وفي الأخير أخبرنا شرطة الأمن العام لتسعفنا في هذه المشكلة ولكن بدون فائدة ، ولما وصلنا إلى غرفة الأخ عبد الفتاح بعد يأس اطلعنا على رقعة منكم مكتوب فيها عنوان المجلة الإسلامية والحاج نظيف ، وبذلك وصلنا الآن هنا ، وسألتهم عما سبب لهم هذه المشكلة ، فقالوا إن موعد القطار تغير اليوم فجأة ولم نكن على علم بذلك فخرجنا من هنا باعتبار الموعد السابق بعد الساعة الرابعة لنستقبلكم في المحطة ، فلما وصلنا المحطة قالوا إن القطار وصل اليوم في الساعة الثالثة صباحاً ، ونزل الركاب ، ومنذ ذلك الحين لا نزال نبحث عنكم دون أن نتغدى أو نستريح ، وأنا الآن أخبر الأخوة لكي يهدؤوا ويطمئنوا فإنهم حزينون لعدم لقاءكم ، ومما يثير الاستغراب أن المسافة بين هذا البيت وبين منزلنا لا تعدو خمساً وعشرين ذراعاً ، ولكن لم يطلع أي واحد منا على الآخر .

ومن مصادفات القدر العجيبة أن أفقد كل الوسائل والأسباب ، وأبحث عن المعارف ولا أجد ، ثم إذا أراد الله بي الخير بعث لي كلاً من المعارف والمحبين والمخلصين ، وقد ألح الحاج نظيف على أن يتعشى الإخوان عنده ، وبعد ما فرغنا عن العشاء وأدينا صلاة العشاء ، بدأ الإخوان يأتوننا ، وجاء الأخ زين العابدين ، والأخ خير الله (وهما يشرفان على تربية هؤلاء الطلبة الخلقية والدينية ، ويدرسان في السنة الخامسة في كلية الطب ، وإليهما حملت رسالة التعريف والشيك) فرحبا بي ، وأبديا إخلاصهما وحبهما ، واعتذرا على ما فرط منهما في جنب الضيف ، ولما سمعا قصة

الشيك قالوا إننا نقدم لكم المبلغ في هذا الوقت ، ولكن قلت لا حاجة إلى هذا التعجيل ، ودعني الأخوة بعد صلاة العشاء وقالوا إنكم تبيتون هذه الليلة في بيت الحاج نظيف إكراماً له ، وستقيمون من غد في مقرمك إن شاء الله .

زيارة سيدنا أبي أيوب الأنصاري :

جاءني الإخوان مبكرين فخرجنا إلى السوق حيث تناولنا الشاي واستأجرنا سيارة لنبداً برنامج جولة النهار وسألني الإخوان عما نبداً به هذه الجولة ، فقلت لهم : «نبداً بما بدأ الله به ^(١) ، ونزور أولاً قبر سيدنا أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه الذي يعتبر أول رمز للإسلام في هذه الديار ، والذي فتح هذه البلاد للإسلام ، وقفنا على قبره برهة من الزمان وقرأنا الفاتحة ، وسلمنا على من رزقه الله سعادة ضيافة رسول الله ﷺ ونزوله عنده ، هو الذي دخل هذه البلاد منتصراً للإسلام وحمل إليها راية الإسلام وهو يريد إخضاعها لحكم الله ، فلما حضرته الوفاة أوصى أصحابه أن يدفنه في أقصى ما يمكن من حدود هذه البلاد لكي يسعد بوصوله إليها ميتاً إذا لم يسعد به حياً ، ولذلك فلا تزال أمانة الإيمان وعلو الهمة هذه مودعة على باب القسطنطينية ، وهي أعز متاع في هذه الأرض لم تقم في وجه إيمانه وشرف صحبته مع النبي ﷺ مهابة الملوك الأتراك ، وإنما تواضع له هؤلاء الملوك العام وذلك هو السر في سعادة جد الملوك العثمانيين في الدنيا ، وما أكرمهم الله به من ملك واسع دام أطول مدة في التاريخ الإسلامي ، سلام الله على مضيف الرسول عليه الصلاة والسلام وعلى البطل المجاهد .

في جامع أياصوفيا :

ولما انتهينا من زيارة سيدنا أبي أيوب الأنصاري توجهنا إلى جامع السلطان أحمد الذي يعد أول جامع وأحسنه في القسطنطينية من الوجهة

(١) هو لفظ الحديث ، وقد ورد عن الصفا والمروة ، محله هنا أن فتح القسطنطينية جاء بعد دفن سيدنا أبي أيوب في ضواحيها ، قد أراد الله أن يكون مؤسساً لهذا البلد الإسلامي بشهادته وقبره .

المعمارية والزينة والزخارف الفنية ، وأوسع جامع بعد الجامع السلیماني ، ومن خصائص الجوامع التركية أن الجزء الكبير فيها مسقف ومربع بخلاف ما نراه في مساجد العهد المغولي ، فإن الجزء المسقف فيها أقل بكثير من أفنيته ، وهذا يرجع إلى مناخ البلاد وفصولها ، وزرنا جامع أياصوفيا ، الذي كان أكبر صومعة في العهد البيزنطي ، فحولها الملوك الأتراك بتعديل يسير إلى جامع ، ولما جاء كمال أتاتورك زاد إلى «مآثره الإصلاحية» «مآثره» تحويل هذا الجامع الذي صلى فيه الناس قروناً وأجيالاً إلى متحف ، وجعله بناية تاريخية كمنتزه عام ، ومنع فيه الصلاة رسمياً ، فلا يجوز لأحد أن يصلي فيه ، وقد أخبرني الإخوة أن الدكتور مصطفى السباعي صلى فيه ركعتين عند زيارته الأخيرة للقسطنطينية على رغم ما كان يعلم أن الصلاة ممنوعة فيه ، فأردت أن لا أحرم هذه السعادة وانتهزت الفرصة وقمت أصلي ركعتين وإذا بالدليل الذي يراقب الجامع بدأ يمنعي عن الصلاة ويردد كلمته التركية «ياسك ياسك» ولكنني أبيت إلا أن أتم الصلاة ، ثم جلسنا في المكتبة برهة ، حيث لقينا شاب يوغسلافي يدرس في الجامعة ويهتئء بحثاً حول شاعر جاهلي . وقد كان يعرف الفارسية فتحدثت معه بالفارسية .

إلى حديقة كلهانة^(١) :

خرجنا من جامع أياصوفيا إلى حديقة كلهانه ، وهي أكبر الحدائق والمنتزهات العامة في هذه المدينة ، ويدخلها الناس بالتذكرة ، وقد عرفنا أن كمال أتاتورك كان يحبها ويؤثرها على غيرها ، ويوجد تمثاله في ركن من أركان الحديقة ، وما أن رأيت هذا التمثال إلا بدرت مني كلمة وهي «ما ولدت الأمة التركية أشأم منه» وقد فرح بها الإخوان إذ كان ذلك تعبيراً صادقاً عن عواطفهم نحوه .

ولا شك أن هذه الحديقة أوسع وأكبر من جميع الحدائق في هذه المدينة ، فهي عامرة بالمطاعم والمقاهي ، ويزدحم فيها الناس رجالاً ونساء

(١) اسمها كل خانة يعني محل الورود لكن الأتراك لا ينطقون بالخاء .

بحرية وسفور بالغبين ، حتى ينسى الإنسان أنه في حديقة لبلد إسلامي بل يظن أنه في حديقة «هائيد» في إنجلترا .

في بحيرة باسفورس :

رجعنا من الحديقة إلى مطعم في محلة «سركجي» حيث كان الأخ زين العابدين خير الله قد نظم لنا الغداء فتناولت الغداء مع الطلبة العرب ، وكان من المقرر أن أزور بعض الشباب الأتراك في منزل أحد الإخوان على بحيرة باسفورس ، وألقي فيهم كلمة ، فتوجهنا على باخرة كانت حافلة بالركاب الذين كانوا ينزلون على محطة بعد أخرى ، ويتراءى على جانبي البحيرة عمران وضواحي البلد .

سارت الباخرة في بحيرة باسفورس التي كنت أسمع بها منذ صغري ، وتقع على الجانب الغربي من البحيرة مدينة القسطنطينية العظيمة ، وذلك الجزء من أرض تركية الذي يقع في قارة أوربة ، أما الجانب الشرقي فيحتوي على أناطولية ، والجزء الآسيوي الكبير للدولة التركية الذي يحيط بأكبر جزء من الدولة ، ويبدو على جانبي الشاطئ بنايات ضخمة وحصون منيعة ومناظر بهيجة خلابة ، وتقدمنا قليلاً فإذا بتمثال يمثل خير الدين بيبرس وهو أول من أسس الأسطول التركي المشهور الذي أثار ضجة في أوربة كلها ، واضطرها إلى الاعتراف بفضل تركية ، وقد رأينا على جانبه قصر (دولما باغيجه) الذي يقع على ساحل البحر ، وهو قصر السلطان عبد العزيز السلطان العثماني قبل السلطان عبد الحميد .

إن هذه المناظر كلها تدل على أن القسطنطينية حصن طبيعي حصنته اليد الإلهية ، كما أنها ملتقى أوربة وآسيا ، وأتذكر بهذه المناسبة ما قاله «نابولين» في القسطنطينية: «إذا تجمعت سائر دول العالم في دولة واحدة فلا تجد لها عاصمة أحسن من القسطنطينية» .

خطابي في حفل الشباب الأتراك :

مررنا على ذلك المضيق الذي يقع في جانبه الشرقي «حصارانا ضولو» وفي الجانب الغربي «حصاروملي» وهذا هو المكان الذي كانت الجنود

الأتراك يهاجمون منه البواخر والأساطيل الغربية ، ويضايقون أهلها ، لقد تجاوزنا هذا المضيق ونزلنا من الباخرة في جانب من «حصاروملي» وصلينا الظهر في أحد الجوامع وذهبنا إلى منزل طالب سوري حيث كان الطلبة من كلية الطب وكلية الهندسة ممن يتصلون بالدعوة الإسلامية ينتظروننا ، وقد تذكرت قول الشاعر الإسلامي محمد إقبال حينما رأيت هؤلاء الشباب الأتراك وما يتسمون به من صرامة ووجاهة ، وهذا معناه :

«إن الله سيرزق المؤمن من فضله : شوكة الأتراك ، وطفانة الهنود ، ونطق العرب» .

إن هؤلاء الشباب يدرسون في السنة الأخيرة من كليتي الطب والهندسة ومنهم من تخرجوا ويكادون ينضمون إلى صفوف الأساتذة في هذه الكليات ، وقد تولى الأخ زين العابدين ترجمة خطابي إلى العربية ، وبدأت أتحدث إليهم بما يلي :

يروى أن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لأصحابه يوماً وهم في بيت : ليطمن كل واحد منا ، ويسأل الله عزوجل تحقيق أمنيته ، فقال واحد منهم إنني أتمنى أن يكون هذا البيت مملوءاً بالذهب والفضة ، وأنا أنفق ذلك في سبيل الله ، وهكذا أبدى كل شخص أمنيته ، فلما انتهى كل واحد منهم بذكر أمنيته وجاء دور عمر رضي الله عنه قال : إنني أتمنى أن يكون ملء هذا البيت أمثال خالد وأبي عبيدة وأنا أبعثهم في سبيل الله ، وأفتح البلاد لله ، هذه قصة كبار أصحاب رسول الله ﷺ وأنا أصغر وأحقر أن أجاريهم في هذا أو أضاهيهم ولكن الله لم يحرمه وأباح لكل واحد أن يتمنى عليه بما شاء إذا لم يكن حراماً أو إثماً وهنالك قلت إن من أمنيته أن تنهضوا بالدعوة الإسلامية وبعث الإسلام في هذه البلاد من جديد ، فإنني أرجو الله تعالى وأومن أنكم إذا قمتم بهذا العمل وتوليتم هذا المنصب الجليل وعزمتم على أن تمنحوا الإسلام انتفاضة وتبعثوه من جديد في هذه البلاد تحدثون أتمم وحدكم ثورة دينية فيها ، ولكن ذلك يحتاج إلى أمرين :

١ - إلى معرفة ما أودع الله فيكم من قوى كامنة ، ومعرفة قيمتها والاحتفاظ بها من كل ثمن بخس .

٢ - وإلى العزم الأكيد الراسخ في النفس .

وقلت لهم إني أضرب لكم أمثلة للعزم الأكيد القوي :

أولاً: إن أماننا مثلاً للعهد الأول محمد بن قاسم الثقفي ، ذلك الفتى الناهض الذي فتح السند وهو في السابعة عشرة من عمره ، لم يبلغ سن تلاميذ الكلمات اليوم .

ثانياً: وهذا محمد الفاتح في العهد المتوسط ، هل تعرفون سنه عندما فتح القسطنطينية؟ وأجابني واحد من الشباب ، نعم إنه فتح القسطنطينية في الثانية والعشرين من عمره ، وضربت لهم مثلاً ثالثاً للشيخ أحمد السرهندي الذي يعرف في تركية بطريقته في السلوك ، وقد نالت رواجاً وازدهاراً فيها ، فقد كان الإمبراطور «أكبر» ذلك الملك الطاغية في عهد الشيخ عزم على أن يعود بالهند إلى الجاهلية الأولى ويدعو الناس في زمنه إلى الإلحاد واللاينية ، ويغير مجرى تاريخ هذه البلاد للأبد ، فقد عادى الإسلام معادة شديدة حتى لم يحتمل أن يسمى أحد ولده بـ «محمد» ولكن الشيخ أحمد السرهندي قام بإزائه وأقسم على نفسه أن لا يهدأ حتى يدخل الناس في دين الله أفواجاً بعد ما خرجوا منه ، إنه عزم على محو آثار الطاغية «أكبر» وإقصاء ما جاء به من أمور تضاد الإسلام ، ومن الذي لا يدري أن «أكبر» وأصحابه كانوا يتمتعون بجميع تلك الوسائل والطاقت التي يملكها كبار الملوك في دولتهم ، ولكن الشيخ أحمد السرهندي ما كان يملك شيئاً من مثل هذه الوسائل المادية سوى العزم والتوكل والإخلاص ، إنه تفرس بفراسسته الإيمانية الصادقة التي وهبها الله أن الثورة العسكرية لا تصلح في الظروف الحاضرة فإن القوى الأخرى تترقب الفرصة ، وبدأ يتصل بخاصة البلاط الملكي وأعضاء الحكومة حتى نزل إلى قلوبهم وكسب تأييدهم بإخلاصه وروحانيته ، فأحبهه غاية الحب وأكرموه كل الإكرام ، وهنالك بدأ الشيخ يعمل عمله في صمت وخفاء إلى أن مات «أكبر» ووليه ابنه «جهانكير» الذي

كان يجلب الدين ويحترم أهله ، وخلفه «شاهجهان» الذي لم ينس ربه في نشوة الملوكية والحكم ، فخر الله ساجداً حين تربع على عرش الطاووس لأول مرة ، وخلق «شاهجهان» ابنه «أورنك زيب عالمكير» الذي عرف بفضل ما قام به من مآثر إصلاحية واشتهر بتصلبه في الدين وهو الذي أمر بتدوين «الفتاوى العالمية» التي تسمى بالفتاوى الهندية في العالم الإسلامي ، واهتم بجمعها وترتيبها ، أليس هذا مثلاً للعزم الإنساني وقوته ونجاحه؟ إن هذه الحصون المنبثة على جانبي البحيرة ، وهذا الحصار وهذه المدينة العظيمة كلها مثال للعزم الإنساني .

وقلت لهم: إن العمل الذي يحتاجه العالم اليوم هو أن نجتمع بين قوة الإيمان ووسائل المدنية الحاضرة وقواها ، ونقوم بتنظيم صحيح للحياة الإنسانية ، فإن منبع الإيمان واحد وهو تعاليم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وشخصية الرسول ﷺ ، أما الوسائل فلا شك أنكم تستطيعون أن تصنعوها أو تستعيروها من الأجانب فالحكمة ضالة المؤمن حيث وجدها فهو أحق بها ، ومن شقاء الإنسانية اليوم أن أصحاب الوسائل والآلات مفلسون في الإيمان ، وذلك ما حول الحياة جحيماً لا تطاق ، ولو أن الله سبحانه وتعالى وفق قادة تركية الجديدة للجمع بين الإيمان والوسائل ، ولو أنهم عرفوا ذلك وعقلوه لكانت تركية زعيمة أوربة اليوم واحتلت مركز الإمامة ، وما أصدق قول الشاعر الإسلامي محمد إقبال ما معناه: «ما أعجب شأن الذي كان قائد زمنه وإمام عصره أصبح يقلد عصر غيره ويتبع زمنه» .

وتحدثت معهم قائلاً: بإمكانكم أيها الإخوة أن تقلدوا أوربة في نهضتها ومدينتها وتصبحوا تلاميذها النجباء في ذلك ، غير أنكم إذا نهضتم إليها بدعوة الإيمان تبوأتم منصب الإمامة وأصبحتم قادتها ، فأيهما أحب إليكم ، التلمذة المتواضعة أم الإمامة المشرفة؟ وأجابوني بصوت واحد: الإمامة والقيادة ، وأخيراً أنشدت لهم بيتين للشاعر محمد إقبال وهذا معناهما:

«حيا الله شبابك أيها الشيخ ، علمهم كيف يتواضعون وينكرون الذات ، وكيف يعتزون بنفوسهم ويعتمدون على مواهبهم ، علمهم كيف يفلقون

الصخور ويذوبون الحجارة بإيمانهم وصولتهم ، فإن الغرب الداهية لم يزد على أن علمهم صنع الزجاج والعيش في برج من العاج» .

وعندما أدلى إليهم الترجمان بترجمة البيت الثاني وشرح لهم معنى فلق الصخور وإذابة الحجارة رأيت الأثر بادياً في وجوههم ، لقد كنت أتحدث إلى هؤلاء الشباب وشباك الغرفة كان يطل على البحر الزاخر ، وكم تمنيت أن يعود هذا البر والبحر تحت راية الإسلام وظله .

ولما انتهيت من حديثي قام الأخ إسماعيل وهو طالب في السنة الأخيرة لكلية الطب فأبدى عواطف الشكر والإعجاب بكلمة ملائمة ، ووجه إلي بعض الأسئلة التي كانت تدل على الذكاء والوعي ، وخرجنا من المجلس وصلينا صلاة العصر في أحد الجوامع القريبة ، وافترقنا على اسم الله .

الكتب العربية بثمن بخس : انصرفنا من «روملي» إلى البلد ، بالسيارة وقد آثرنا الأخ زين العابدين خير الله العودة بطريق البر ، والشارع يساير البحر إلى البلد ، أما السيارة فكان يسوقها أستاذ مساعد في كلية الهندسة ، فلما مر بالكلية أوقف السيارة ، وخرجنا نشاهد البحر أمام مبنى الكلية ونتمتع بمنظره البهيج برهة ، وقد كانت حديقة دولمة (دولمة باغچه) تتراءى لنا من قريب ، وتعطينا درساً في دورة الزمان ، وذهاب الدولة والسلطان ، فليس يدري أحد اليوم أينما دفن السلطان عبد العزيز ، وإنما الذي يرى أن القصر مقفل ، وساكنه في التراب ﴿ وَيَتْرُكُ مَعْطَلَةً وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴾ .

عرجنا في الطريق على بعض المكتبات فرأينا أن الكتب العربية تباع بثمن بخس ، في نفس تلك المدينة التي كانت تعتبر في يوم من الأيام من المراكز العلمية الكبرى ، وقامت بإحياء ذخائر كبيرة للتراث العلمي ومن يقدر الكتب العربية ويعرف قيمتها في بلد ألغيت فيه الحروف العربية ، وربما لا يوجد في الجيل القادم من يقدر على قراءة أسمائها ، قد كان من عادة الأمراء الأتراك أن تكون لديهم مكتبة شخصية عامرة يرونها من تقاليد الأغنياء والوجهاء ومن شعائر الغنى والرئاسة ولعل ورثتهم المنكوبين يتخذونها وسيلة للمعاش ، ببيع ما فيها من ذخائر الكتب القيمة .

وزرنا سوقاً جديدة تدعى بـ«قابالي جارشي» ومعناه السوق المسقفة ، وهي مسقفة شأن الأسواق في العهد التركي ، وعامرة تمتد في مسافة بعيدة ، أصابها الحريق قبل عدة أشهر فسبب خسارة فادحة تبلغ الآلاف ، وقد قامت الحكومة بإصلاحها وتعميرها ، ولا تزال آثار الحريق باقية في بعض الأماكن منها .

أدينا صلاة المغرب في جامع والده ، هو جامع بنته والدة السلطان عبد الحميد ، رأينا فيه عدداً من الشيوخ الأتراك جالسين قرب الميضاة وأكثرهم ملتحمون ذوو وجوه مشرقة ، ولكن تباً لكمال أتاتورك الذي أرغم هذه الأمة على لبس القبعات الإفرنجية ، ولما أذن المؤذن أبدلوا القبعات بقلانس من قماش تلتصق بالرؤوس ، وجلسوا في المسجد بغاية من الخشوع ، وغص داخل المسجد بالمصلين ، وقد لاحظت أن نسبة المصلين هنا أكثر من بلادنا .

في حفل الطلبة العرب: توجهنا بعد صلاة المغرب نحو «محلة تاش كساب» إلى منزل الأخ إدريس وهو طالب عراقي ، حيث وجدنا معظم طلاب الجامعة العرب مجتمعين ، وكان أكثرهم من العراق وسورية وعدد من طرابلس وليبيا ، فتحدثت إليهم عن صفات الداعي وواجباته وكل هؤلاء الطلاب يتصلون بالإخوان ، وذلك ما وقاهم شر إستانبول ومفاسدها ، وجعلهم من دعاة الإسلام في هذا البلد ، ومنعهم من أن يصبحوا فريسة الدعوات والفلسفات الأخرى ، ولا شك أن إيمانهم القوي الراسخ موضع غبطة ، ولهم اتصال قوي بحركتهم ودعوتهم وثقة كاملة بصحتها وقداستها ، إن لهذه الدعوة أثراً عميقاً في أخلاقهم وحياتهم حتى إنهم متمسكون بأخلاق الإسلام في إستانبول التي تعتبر مركز الفساد والدعارة في تركية كلها ، ويحافظون على الصلوات ، ويتحمسون لدعوتهم ويبدون لها نشاطاً بالغاً ، وهم على ذلك متجانبون كل عصبية جماعية ، ويعيدون عن داء الاحتقار الذي يبعث على ازدراء كل جماعة وحركة تغيير جماعتهم وحركتهم ، وإنما ينظرون إلى كل جماعة تعمل للإسلام نظرة تقدير

واعتراف ، ويستفيدون من برامجها ، كما تنشر صدورهم للإفادة من كل داع إلى الدين وكل عالم من علماء الإسلام ، متحمسون للغاية ، حافلون بالحب ، مخلصون لله ، بت الليلة في هذا المنزل استجابة لدعوتهم المخلصة ونزولاً على رغبتهم الملحة ، وشعرت كأني بين أقرائي وطلاب دار العلوم لندوة العلماء .

إلى المكتبة السليمانية: اشتغلنا اليوم ببعض أعمال الكتابة حتى نحو الساعة العاشرة ثم زرنا المكتبة السليمانية مع الأخ طه الموصلي ، وكان مدير المكتبة فتاة تركية ، ويح للحضارة الغربية والفكر الغربي الذي يجني على القيم والأفكار ولا يبالي بالتوفيق بين شؤون الحياة وأعمالها ، أليس من السخافة أن تختار فتاة لمنصب مدير مكتبة تحتوي على ذخائر علمية في المواضيع الإسلامية بدل أن يشغل هذا المنصب أحد علماء الدين .

وقد تبين لي أن الاستفادة من مكتبات هذا البلد صعبة بدون مساعدة عالم تركي أو أستاذ خبير ، فطلبت من مضيفي الأخ زين العابدين خير الله أن يتفضل بتعريفني إلى أحد أساتذة الدين في الجامعة ، ويسأله أن يضع لي برنامجاً للجولة في المكتبات ، ويخبرني بنوادرها وآثارها ، إن المكتبات في إستانبول تمتاز عن سائر المكتبات في العالم الإسلامي ، ويقدر أصحاب العلم والخبرة أن الذخائر العلمية النادرة التي توجد في مكتبات إستانبول لا يمكن العثور على مثلها في أي بلد آخر ، وهذا أمر طبيعي ، فإن الدولة العثمانية عندما ورثت الخلافة انتقلت ذخائر العالم الإسلامي كله إلى دار الخلافة ، وللأسف أنني لا أستطيع أن أزور هذه المكتبات وأستفيد من آثارها كطالب يحقق ويؤلف لضيق الوقت ، ولكن ما لا يدرك كله لا يترك كله .

الجامع السليماني: صلينا الظهر في الجامع السليماني ، وهو أعظم جوامع إستانبول سعة وفخامة ، ويقدر أن الأتراك حينما فتحوا القسطنطينية أعجبوا ببنائة أياصوفيا فابتنوا جوامعهم على طرازها ، وزادوا إليها منائر ، والسائح يجد الجوامع في إستانبول متماثلة البناء والشكل إذ أنه يراها مبنية

بشكل أياصوفيا ، وتمتاز هذه الجوامع بسعة الجزء المسقف ، ورفعة السقف ، وإحكام سمكه ، إن الجزء المسقف في الجامع السليمانى واسع يسع ما بين ثلاثين وأربعين ألف مصلى على وجه التقدير ، ولقد علمنا أنه كان يغص بالمصلين أيام رمضان في صلاة العشاء والتراويح ، حتى كان الناس يصلون خارج الفناء أيضاً.

قامت صلاة الظهر بعد ما أكملوا جميع التقاليد والتمهيدات التي تعد ميزة جوامع تركية ، وهي أنهم قاموا بإيصال الثواب إلى أرواح الأنبياء والصحابة والأولياء أولاً وإلى روح مؤسس هذا الجامع السلطان سليمان القانوني أخيراً والاستغفار له ، وقد توسط بين هذا وذاك الفاتحة ، ثم قرأ المكبر سورة الإخلاص ثلاث مرات بصوت رفيع ، وكان ذلك إيذاناً بإقامة الصلاة ، وانتهت الصلاة ، وصلى الناس السنة ، ثم سبح بصوت عال وذكر الناس فريضتهم ، ثم آذن بالدعاء ، ودعا الإمام .

وهذا كله من التزامات الصلاة لدى الأتراك ، فإن قام أحد بدون إكمالها ينظرون إليه شزراً ، ويرونه قليل الأدب ، متحرراً من التقاليد ، أسفاً على أن سيل الإلحاد والردة جارف جميع القيم الخلقية والمثل العليا في جانب ، والإلحاح على الأمور الزائدة مما لا علاقة له بصميم الدين مستمر في جانب آخر .

متحف توبى كابي : خرجنا بعد الصلاة إلى متحف توب كابي وتفرجنا عليه ، ويقع هذا المتحف في بناية قديمة بمقربة من جامع أياصوفيا ، وتبدو أنها بناية ملكية ، دخلنا المتحف بالتذكرة ، وشاهدنا فيه مجموعة من ذخائر عهد الملوك الأتراك ونواديرهم ، ولعل هذه الكمية الكبيرة التي توجد في هذا المتحف من الذهب والفضة والجواهر ، والأواني المرصعة وغير ذلك من الأشياء القيّمة الثمينة لا توجد في أي متحف آخر في العالم ، ولا يخفى أن الملوك العثمانيين حكموا الجزء الكبير من العالم المتمدن قروناً ، وكانت لهم كلمة مسموعة ويد مرفوعة مدة طويلة من الزمن يأتهم الخراج من كبار الملوك والدول ، وكانت تبعث إليهم هؤلاء الملوك وتلك الدول هدايا فاخرة ، فكل ما أتاهم من نوادر الهدايا وكل ما هيؤوه لأنفسهم

ولأزواجهم من الكماليات وأدوات الزينة جمعه هذا المتحف ، ويشاهده السياح والزوار ، ويقضون منه العجب .

دخلنا غرفة ، وكان المتحف مزدحماً بالمتفرجين لأجل يوم الأحد ، فشهدنا فيها كل ما كان الملوك يستعملونه في حوائجهم وزينتهم من العلب الفاخرة ، وأدوات الزينة ، وغلاف القرآن ، والمصباح والمسرجة والسيوف ، والأعماد ، والأسلحة ، ومما أدهشنا بين هذه الأشياء هو استعمال اللآلي الثمينة والذهب والفضة فيها بسخاء منقطع النظير ، وقد شاهدنا في ركن من المتحف عروشاً ومقاعد لبعض الملوك كلها مصنوعة بالذهب الخالص ومرصعة بالجواهر ، وانتقلنا منه إلى ركن آخر فرأينا ملابس الملوك من عهد السلطان سليم إلى عهد السلطان عبد الحميد ، بجميع ما مرت به من تطورات وتقلبات ، وزرنا عرش الشاه إسماعيل السنوسي الذي كان أنموذجاً لصناعة وزخرفة تجمع بين الفن الهندي والفارسي ، ورأينا مجوهرات السيدات المسيحيات وحلاهم التي كان يتعلق فيها الصليب ، ورأينا صندوقاً ذهبياً للسلطان مراد كان يحفظ فيه الخرقه ، وشاهدنا مسارج من الإبريز الخالص لا يقل وزن كل منها عن عشرين كيلو غراماً ، لقد كان هذا من الذهب خالصاً يلعب من بعيد كأنه جمرة من النار ، ويظن بعض الناس أن تركية إذا أفلست في يوم من الأيام كفاها ذهب هذا المتحف لمدة من الزمان ، إن هذا الإسراف والفخفة والتنعيم والمدنية العجمية هو السر في انقراض هذه الدولة ونهاية أيامها ، ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ .

قصر يلدز للسلطان عبد الحميد : ولما انتهينا من مشاهدة المتحف توجهنا إلى زيارة قصر يلدز ، وإن هذا القصر هو مقر السلطان عبد الحميد الذي كان يبعث الرعب في القلوب في زمن مضى ، وقد كان في الزمن الماضي بمثابة مركز الأعصاب للعالم الإسلامي ، وكان السلطان عبد الحميد ملكاً ذكياً وحاكماً جباراً أراد أن يدير دفة الدولة العثمانية من هذا القصر ، وقد أساء ظنه بنصحاء الدولة العثمانية وكبار المصلحين ذكائه الخارق ، وتهوره بالأمر وطمعه في الحكم ، وأقامه في صف أعدائهم .

وفي هذا القصر كان السيد جمال الدين الأفغاني يزور السلطان عبد الحميد ويتحدث معه ساعات طوال ، إن الدخول ممنوع في القصر ولكن زيارة الحديقة الضخمة التي تحيط به مسموحة ، وقد شيد في الجوانب الأربعة من القصر حصار منيع واسع يبدو كحصن ، إن هذا القصر يرثي لصاحبه اليوم ، فقد حالت بينهما شقة بعيدة ، وقد تحول هذا القصر اليوم إلى دائرة حكومية أو مركز لتربية الشرطة السرية ، وأصبحت حديقته مزاراً للسياح والزوار ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعَيُْونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَكَيْهِنَ ﴿٢٧﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴾ إن هذه المناظر أورثت تعباً شديداً وددت به العودة إلى مقري لكي آخذ قسطاً من الراحة والهدوء .

اليوم يوم الأحد ويختص هذا اليوم بالعطلة العامة الحكومية في تركيا الجديدة ، وهذا أيضاً من مخلفات أتاتورك وسوءاته في بلد تبلغ نسبة سكانه المسلمين تسعين في المئة ، ويعرف ذلك البلد بحبه وولائه للإسلام .

الحمامات النظيفة المنظمة: حمامات تركية معروفة في العالم كله بنظافتها ونظامها ، وقد أراد الأخ زين العابدين أن أستحم يوماً في الحمام فذهبنا إلى أفخر الحمامات وأنظفها في البلد ، ودخلت الحمام فوجدتها نظيفة منظمة منسقة ، تحتوي على عدة طوابق وتشبه غرفها بغرف الدرجة الأولى في الباخرة ، ففي غرفة تنزع الملابس ، وفي الأخرى ترتدي ملابس الاستحمام ، وتتوسطها ردهة واسعة تخصص بالبخار ، فإذا دخلها المستحم يبتل جسده بالبخار ويلين درنه ويزول بكل سهولة ، وهناك غرف أخرى يوجد فيه الماء البارد والماء الساخن ، وقد ناب الأخ إدريس الموصلي عن خادم الحمام فقام بخدمة الاستحمام ، وشعرت بعده بخفة ونشاط .

متحف الجامع السليمانى: تغدينا بعد الاستحمام وأدينا صلاة الظهر في جامع بايزيد حيث لقينا الأخ زين العابدين ، وزرت معه متحف الجامع السليمانى ، وقد رأيت فيه المصاحف من القرن الثاني الهجري إلى القرن الثامن والقرن الحادي عشر ، كما رأيت بعض المخطوطات لياقوت

مستعصي - أشهر خطاط عرف في عهده - ونماذج رائعة للتصوير والرسم والتجبير الذهبي ، وشاهدت الوثائق التاريخية والمستمسكات ، والتواقيع وخريطة آسيا الصغرى وما إلى ذلك ، وقد لفت نظري في هذا المتحف أيضاً استعمال الذهب والفضة بسخاء في الأواني التي هي تذكارات للعهد العثماني ، أما المسرحية التي يبلغ طوله نصف قامة الإنسان ، فقد كانت مرصعة من أولها إلى آخرها بالياقوت والزمرد .

زيارة الشيخ حسن بصري كبير علماء تركية : رافقني الأخ زين العابدين إلى زيارة الشيخ حسن بصري أفندي وهو من علماء تركيا ومؤلفيها ومن بقايا علماء تركيا القدامى ، يبلغ من العمر سبعين سنة ، ويشبه بالعلامة زاهد الكوثري^(١) ، وقد سألته هل أدرك عهد السلطان عبد الحميد فقال نعم ، واستطلعت رأيه نحوه فقال : لقد كان السلطان عبد الحميد مسلماً راسخ الإيمان ، وهو يعد من المتدينين بالنسبة إلى المسلمين اليوم ، غير أنه وقع فريسة الشكوك والأوهام في الأخير ، وسألته عن مدحت باشا فأخبرني أنه كان عضو «الماسونية» وعلمت بحديثه أن حركة الماسونية نالت قبولاً في تركية ، ولها يد طويلة في ثورة تركية الدينية الجديدة ، لقد كان كبار أركان الدولة أعضاء الماسونية ، ولما سألته عن المرحوم أنور باشا أجبني : إنه كان مؤمناً قوي الإيمان رزق من القبول والسمعة الجيدة قسطاً وافراً .

وحصلت لي معلومات عن كمال أتاتورك من طريق الشيخ لم أكن لأحصل عليها بسهولة ، وصدقت بعض ما كنت أتصور عنه ، إن الشيخ حسن بصري يتوقع عودة تركية إلى الإسلام ويؤمن به ، ولكنه يقول إن الأمة التركية أنشختها جراح الحوادث المستمرة وهي في حاجة إلى اندمالتها لكي تعود إلى سابق عهدها بالإسلام في هذه البلاد ، وذلك ما يستغرق بعض الوقت ، والشيخ حسن بصري معجب بكتاب حجة الله البالغة لشيخ الإسلام

(١) كان أمين شيخ الإسلام الأخير في تركية ، هاجر إلى مصر بعد ثورة تركية وتوطنها ، وكان من العلماء المتبحرين حمل لواء المذهب الحنفي وتحمس له ، يقل نظيره في سعة العلم وكثرة الاطلاع ، انتقل إلى رحمة الله قبل سنتين (يعني عام ١٩٥٤م) .

الشاه ولي الله بن عبد الرحيم الدهلوي ، ترجمه إلى اللغة التركية على طلب من الجمعية الدينية في تركيا ، وقال لي أشكل علي مفهوم عبارة في الكتاب ، وذلك بتعارض لَمَسْتُهُ بين السطر الأول من الصفحة والأخير منها ، فحاولت كثيراً دفع هذا التعارض ليتضح المفهوم ، وأخيراً عرضته على مجلس علماء الجمعية ولكنهم لم ينجحوا في المرام ، وذات يوم حينما كنت أتوضأ سمعت شخصاً يقول بالعربية : إن كلمة «لم» التي هي في السطر الأول فوقها فتحة ، فإذا قرأت العبارة بفتحة «لم» اتضح المفهوم وزال الإشكال ، وكان كما قال إذ أنني فتحت «لم» واتضح المفهوم .

شاعر تركية الإسلامي المشهور محمد عاكف : وسألت الشيخ حسن بصري عما يعرفه عن شاعر تركية الإسلامي المغفور له محمد عاكف فقال إنه كان رجلاً قوي الإيمان وشاعر تركية العظيم ، وكان يحب شاعر الإسلام محمد إقبال ، الذي كان يبعث إليه دواوينه وكلامه ، وقد ترجم كثيراً من شعره إلى اللغة التركية ، وأنشد لي الشيخ بعض شعره الذي كان ترجمة شعر محمد إقبال ، وقال إن محمد عاكف كان يعرف العربية أيضاً ، وكنا نتذاكر أحياناً بالعربية ، وقلت له : لقد سمعت أن كتاب سيرة النبي للعلامة شبلي النعماني والعلامة السيد سليمان الندوي نقل إلى اللغة التركية؟ قال نعم نقله إلى التركية صهر محمد عاكف الأستاذ عمر رضا ، غير أنه حرف كثيراً في الترجمة ولم يكن أميناً ، إذ أنه حاد عن الطريق بعد وفاة محمد عاكف وتغيرت عقائده وأفكاره ، واتصل بالماسونية ، وقال : إن هذه الترجمة مفقودة اليوم .

مكتبة راغب باشا وكلية العلوم : خرجنا من عند الشيخ حسن بصري وزرنا مكتبة راغب باشا ، وقد رأيت كذلك امرأة من بين موظفي المكتبة ، ولا أدري لماذا يحرصون على توظيف المرأة في مكاتب هذا البلد ، ولم أعثر على نادرة في هذه المكتبة ، وصادفنا في الطريق مبنى كلية العلوم الفخم ، ما رأيت مثله في أي جامعة إلى الآن ، وقد أخبرني الأخ زين العابدين أن الحكومة أنفقت عليه خمسين مليوناً من الروبيات ، ولو حملنا

هذا المقدار الهائل على المبالغة فلا شك أن المبلغ الذي أنفق عليه يتراوح بين خمسة وعشرة ملايين .

زيارة المؤرخ التركي إسماعيل حامي دانشمند: زرنا إسماعيل حامي دانشمند بعد ما صلينا العصر ، وهو من كبار علماء تاريخ العهد العثماني والباحثين فيه ، وقد ألف تاريخ العهد العثماني في أربعة مجلدات سماه «تقويم التاريخ العثماني» إنه أتم دراسته في فرنسا ويعيش عيشة غربية ، ولكنه يحمل من الغيرة الإسلامية والأفكار الدينية قسطاً كبيراً ، وهو من المتحمسين للاتحاد بين العرب والترك ، ومن المؤيدين للحركات الإسلامية والاتحاد الإسلامي ، ويتمنى انتفاضة تركيا الدينية ، يقول: إن في تركيا ثلاث أسر يرجع تاريخها إلى الزمن القديم ، وهي الأسرة العثمانية ، والأسرة السلجوقية ، وأسرة دانشمند التي تنبع من أبناء أعمام السلاجقة .

وقد أفاض في إبداء أفكاره الإسلامية وتأسف على تلك الوقائع والأسباب التي جرت التنافر والبعد بين الترك والعرب ، إنه يتألم على أن العرب لا يهتمون بإنشاء جو ودي ، ولا يراعون الحيطة في الأمور ، وقال: إنني قرأت بياناً صادراً من بعض الجهات المسؤولة عن أمور الحكم في سورية يصرح بأن حدود سورية تبتدىء من جبال طوروس ، وذلك يعني أن المناطق التركية الواقعة في طوروس كلها جزء طبيعي من أرض سورية ، وأعتقد أن هذا وما أشبهه لا ينتج إلا التوتر في العلاقات وعقد القلوب على الخلافات .

كما أبدى تألمه وإشفاقه على ما تنبعث في مصر نزعة لاتخاذ الحروف اللاتينية خطها ، ونشرت بعض الجرائد أن الحكومة تدرس هذه الفكرة ، وقال: إن فكرة إحياء الخط العربي في تركية لم تمت ، ولا تزال تراود النفوس ، ويمكن أن تتحقق هذه الفكرة في يوم من الأيام ، غير أن تبني تركية الخط اللاتيني لا يضر بها كما إذا تبنته بلاد عربية وبخاصة مصر ، فإن ذلك يعود خطراً عليها وعلى الإسلام ، وذلك لأن اللغة التركية لغة غير

عربية على كل حال ، أما اتخاذ الخط اللاتيني للغة العربية فيإيدان بنهاية اللغة العربية والقضاء على الثقافة الإسلامية ، وقد كتبت في الجرائد مقالاً حول هذا الموضوع .

عن السلطان عبد الحميد خان: واستفسر عن رأيي حول السلطان عبد الحميد خان ، فقلت له : إن هذا السؤال قد دار في خاطري وأردت أن أوجهه إليكم لأن لكم اتصالاً بهذا الموضوع أكثر مني ، وإن لرأيكم قيمة وأهمية لا تنكر ، وأني أستطيع أن أطلع عن طريقكم على حقائق لا تيسر لي من طريق آخر ، فقال: إنني أرى أنه أحد الملوك المسلمين الخمسة الذين جاؤوا من عهد بني أمية إلى الآن ، إنه كان يتمتع بعقل واسع كبير يعتبر الدول الأوروبية ألعوبة .

أما حميته الدينية فقد بلغت مبلغاً عظيماً ، وكلما حدث في أوروبا نوع من الهجوم على الرسول ﷺ ثارت نائرتة واشتد استنكاره ، وقام باحتجاج شديد ، بلغه ذات مرة أن مسرحية لفوليتير ستمثل في فرنسا ويعرض فيها النبي ﷺ بطريق غير ملائم ، فأسرع الكتابة إلى سفيره في فرنسا ليحتج على ذلك ويستنكره من قبل حكومته ، وأمره بأن يغادر باريس حالاً إذا لم تمتنع حكومة فرنسا عن تمثيل هذه المسرحية ، فلما علمت الحكومة باستنكار السلطان عبد الحميد أوقفت تمثيل المسرحية رغم ما سبقت الدعاية الواسعة عنها .

وفي بعض الأيام كان الإنجليز في الهند يعاملون المسلمين معاملة قاسية ويظلمونهم ، وبلغ السلطان عبد الحميد أخبار الظلم والقسوة فاحتج على ذلك احتجاجاً شديداً وأنكر معاملتهم مع المسلمين ، فامتنع الإنجليز عن ذلك وأقنعوا السلطان عن طريق سفيرهم في تركيا ، وكذلك عندما أبدى اليهود رغبتهم في اتخاذ فلسطين وطنهم القومي وأداء جميع تلك الديون التي استدانها تركيا عوضاً عن ذلك ، أنكر السلطان ووجه تعليمات ملكية تحظر دخول أي يهودي من الخارج في فلسطين ، وهنا توقف الأستاذ دانشمند وقال لي: ألا يستحق السلطان عبد الحميد الذي كان يحمل مثل هذه العواطف النبيلة أن ينال إعجاب المسلمين الهنود؟

مدحت باشا في نظر الأستاذ دانشمند: وقلت له: إن معاملة السلطان مع مدحت باشا من حبسه ونفيه ثم وفاته في الطائف لمما يلبس رأي المؤرخ حول السلطان ، وإن هذا الحادث وصمة سوداء على جبينه ، إنني درست حياة مدحت باشا فما وجدته إلا مدبراً كبيراً ومصلحاً من بناء تركية ، ولا شك أن القضاء على رجل هذا شأنه ليس مما يستحسن ، وأجابني بأن المؤرخين يصورون المَلَكَ شيطاناً والشيطان مَلَكاً ، ومن الصعب العسير أن يطلع الإنسان على الحقائق والوقائع الصحيحة ، وقد بحثت هذا الموضوع بتفصيل في المجلد الرابع للتاريخ العثماني ، وأيدته بالشواهد التاريخية والوثائق المتعددة ، وأعتقد أن وجود مدحت باشا في تركية إنما كان خطراً كبيراً عليها ، إنه بالنسبة إلى حاكم ولاية كان نافعاً وناصحاً ، أما بالنسبة إلى كونه رئيس البلاد فقد كان خطراً كبيراً عليها .

ومن أراد أن يطلع على مكانته وموقفه ويفهم نزعاته واتجاهاته يجب أن يستعرض أحوال ذلك العصر السياسية بتفصيل ، وخلاصة القول: إن عالي باشا رئيس تركية حينما أعفي عنه منصبه نهض للحصول عليه محمود باشا ومدحت باشا وكل واحد منها كان يضاد صاحبه في النظرة السياسية ، إذ كان محمود باشا من مؤيدي روسيا وحمايتها ، وبما أن روسيا كانت تحت دولة دكتاتورية كان محمود باشا يؤيد الدكتاتورية ويرغب في تنفيذها في تركية ، ولكن مدحت باشا بحكم رحلته إلى إنجلترا وإقامته هناك كان يؤيد النظرة الديمقراطية والسياسة البرلمانية الدستورية في الحكم ، واتخذ لتحقيق فكرته جميع الوسائل ، حتى إنه طلب الأسطول الإنجليزي مرة إلى مضيق دانيال ، وسأل الإنجليز حمل مسؤولية الإبقاء على الحكومة البرلمانية في تركية ، ومعنى ذلك أنه مهد الطريق لسيطرة الإنجليز على زمان الحكم في تركية ، وإملاء إرادتهم وحكمهم عليها .

وإن لديّ دليلاً على أنه كان يريد تحرير الأقطار العربية كلها وتبوء منصب الرياسة فيها ، كما كان يقترح أن يكون العلم التركي حاملاً لشعار الصليب مع الهلال ، وقد قرأت في مذكرته التي سجلها بقلمه أنه كان يرى

ذلك ضرورة البلاد ، لأن في تركية عدداً من المسيحيين أيضاً ، فلا بد أن ينالوا تمثيلهم في العلم التركي .

آثار السلطان عبد الحميد: يبلغ إعجاب الأستاذ دانشمند بالسلطان عبد الحميد إلى حد أنه جمع عدة آثار للسلطان ، وأصبحت لديه ذخيرة تذكارية ، قال لي: هل تحبون أن تشاهدوا بعض آثار السلطان عبد الحميد واستحسنت هذا الاقتراح فذهب بنا إلى متحف داره ، ورأينا فيه طربوشين أو ثلاثة كان السلطان يلبسها ، وكانت مصحوبة بشهادة من كريمته السيدة عائشة ، أن هذه الطرايش إنما هي للسلطان عبد الحميد وأنا أهديها للأستاذ دانشمند ، كما شاهدنا بعض الملابس والرسائل التي تحمل شعار السلطان ، ومما أثار استغرابنا في هذا المتحف هو ورق كتب عليه السلطان رباعية (بيتين من الشعر) بقلمه أيام عزله ونفيه ، وهي تصور حالته في ذلك الوقت ، نترجمها فيما يلي :

« يارب أيها الملك القهار إنني لا أحب غيرك ، وأنت عزيز لا يماثل عزك وعظمتك شيء في الكون» .

« يارب أيها الملك العظيم خذ بيدي وارحمني في هذه المصيبة التي اجتازها ، فأليك أشكو بثي وحزني ، وأستغيثك يا أرحم الراحمين فأعثنني» .
وقد وقع تحت هذه الرباعية باسمه (عبد الحميد) تليه كتابة كريمته السيدة عائشة التي تصدق أن هذه الكتابة بيد والدها السلطان عبد الحميد .

آثار ملوك آل عثمان: وقد شاهدنا في متحف الأستاذ دانشمند من بين آثار السلطان عبد الحميد آثاراً تاريخية لملوك آل عثمان مثل بطاقة السلطان محمد رشاد ، وتقويم السلطان عبد الحميد ، الذي كان مكتوباً بخط جيد جميل على جلد الظبي .

الأستاذ صدري مقصودي رئيس الجمهورية القازانية سابقاً: قابلنا في بيت الأستاذ دانشمند الأستاذ صدري مقصودي رئيس الجمهورية القازانية سابقاً ، وقد هاجر إلى تركية بعد ثورة «بال شويكي» وهو رجل فاضل مارس تدريس القانون في جماعة إستانبول وقد تقاعد الآن ، إنه رجل متحمس ،

ينتمي إلى سلالة تركية وكان يعاتب العرب بحماس وصراحة ويقول: إن الأتراك حملوا راية الإسلام نحو خمسة أو ستة قرون ، وظلوا حماة شوكة الإسلام وحوزته ، ينبغي للعرب أن يعرفوا هذا الجميل ويتفجعوا بتجاربههم ، يحكى أن الخليفة القائم بأمر الله أوعز إلى رؤساء مجلسه الأتراك أننا نصرنا الإسلام وقمنا بواجب خدمته ولكن هذا الواجب يتحول إليكم الآن ، فلم ينس الملوك الأتراك وصية الخليفة ولم يخونوا أمانة الدين التي سلمها إليهم ، كما يجب أن لا ينسى العرب أن الدولة التركية هي التي تحمي حمى الشام والعراق ، ولولاها لكانتا على فوهة خطر كبير .

نور الدين طوبجو ورفيقنا إسماعيل: صليت صلاة المغرب في بيت الأستاذ دانشمند ثم تفارقنا ، وقد ودعني بحرارة وحب ، إن الشارع الذي يقع عليه منزله هو شارع إستانبول الفخم الواسع ، ويواجه بيته فندق «هلتن» الذي يعد من أفخم فنادق الشرق وأكبرها ، ولما خرجت من بيته وصلت إلى ميدان فيه تمثال لأتاتورك ، يسمى بميدان التقسيم وزرت الأستاذ نور الدين طوبجو الذي كان أستاذ الفلسفة في جامعة إستانبول ويدرس الآن في إحدى كليات حيدر باشا ، وهو رجل مسلم جلست معه برهة وصليت العشاء معه ثم رجعت إلى مقري ، وقد كان الأخ إسماعيل يرافقني في جميع هذه الزيارات والمقابلات ، الذي يدرس في السنة الأخيرة من كلية الطب ، وهو شاب وقور ومتدين ، وهو الذي يساعدني في مقابلات رجالات تركية وزياراتهم أكثر الأحيان .

دولمة باغجة من أهم قصور الدنيا: «ابتدأ برنامج اليوم من زيارة قصر دولمة باغجه ، فقد ألح علي الأخ العزيز ومنظم برامجي زين العابدين أن لا تفوتني زيارة هذا القصر العجيب ، الذي هو من أهم قصور الدنيا يعدل في فخامته وزينته قصر فرساي ، ولا يسمح بالدخول في هذا القصر للجماهير من الناس فحصل الأخ زين العابدين على إذن خاص عن طريق سفير سورية ، إن هذا القصر يقع على ساحل البحر بالقرب من مضيق البوسفور ، وقد ظل هذا القصر البلاط الملكي للقسطنطينية من عهد السلطان عبد العزيز إلى عهد السلطان عبد المجيد ، وكأنه كان قصر حكومة

تركية ، وقد كانت المناسبات الرسمية ، وحفلات العيد وزيارات السفراء تعقد في هذا القصر .

أقبلنا على زيارة القصر ومشاهدة عجائبه مع خدم القصر فمن آداب الزيارة لهذا القصر أن يصاحب خادمان أمام الزائر وخلفه ، كنا نمر بالأواوين والغرف الخاصة وغرف الزيارة ونقضي العجب من زخارفها ونتعجب من سعة البناء وفخامة العمارة ، وقد أخبرنا الدليل إن بناء القصر استغرق سبع سنين ، وسبع سنين بعدها في التزيين والتزيين ، وأظن أن سبع سنين أقل مدة بالنسبة إلى هذه العمارة الضخمة ، رأينا لوحات من الصور في أمكنة متعددة تصور المناظر التاريخية القديمة وأحداث التاريخ ووقائعه ، وخاصة مناظر محاربة الجيوش التركية كما رأيت عدداً من اللوحات التي تمثل دخول محمد الفاتح في القسطنطينية ، وصوراً لملوك أوربة الذين أهدوها إلى ملوك الأتراك وخاصة للسلطان عبد الحميد ، ورأيت طاولة أهدها «نابولين بونابارت» تحمل صورته وصور زوجته ونسوة عديدات ، وقد لا تكون بلاد كبيرة من بلدان العالم إلا وتوجد هديتها المبعوثة إلى هذا القصر ، وفيه بعض الهدايا من الهند ، ومنها فانوس معلق يوزن أربع طنات ينطوي على سبعة وخمسين مصباحاً ، بعثته ملكة فكتورية ، أما استعمال الذهب والفضة فكثير عام ، وقد أخبرني الدليل أن مجموع الذهب الذي استعمل في هذا القصر يبلغ أربعة عشر طناً .

الغرفة التي مات فيها أتاتورك: مررنا على الأواوين وصالونات الزينة والحمامات ، ووصلنا إلى فرغة تطل على البحر ، وهي لا تمتاز في فخامتها وزينتها من الغرف الأخرى ، وتلك هي الغرفة التي قضى فيها أتاتورك آخر أيام حياته ومات ، ولا يزال أثاث هذه الغرفة على ما كان عليه أيام مرضه ووفاته ، إن السرير الذي كان ينام عليه لا يزال على حاله ويتصل به مقعد مريح مات عليه ، وقد وضع عليه الآن صورة كبيرة لأتاتورك ، إن الكأس والأكواب كلها على حالها السابقة ، إنه مات في الساعة التاسعة والربع نهاراً فأوقفت الساعة من وقتها ، ومن عجيب المصادفات أننا عندما دخلنا في هذه الغرفة كانت الساعة تشير إلى نفس هذا الوقت .

ويجاورها غرفة أخرى كان أتاتورك يباشر فيها أعماله ، ولا تزال فيها المقاعد والطاولة على الحال التي كانت عليه يومذاك ، ويبدو كأن أتاتورك كان يشغل إلى هذه اللحظة ، وبجوارها إيوان كبير وضعت فيه جنازته لترأه الجماهير أخيراً ، ومن عبدة المكان أن السلطان عبد الحميد والسلطان عبد العزيز كليهما قضى نحبهما في نفس هذا القصر ، ولكن أتاتورك الذي ولد في أسرة فقيرة بلغ إلى ذروة العز والشرف التي ورث فيها عظمة الملوك العثمانيين وشوكتهم ، وصار إلى ما صاروا إليه ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾ وقد أتعبت زيارة هذا القصر التي استغرقت ساعة أو أكثر فكري وبالي ، فلما خرجت منه شعرت بفرح وهدوء ، ولا أدري كيف كان أولئك الرجال الذين لم يكن يتعبهم هذا المحيط الصناعي والجو الغير الملائم .

مصارع تركية المشهور: استقبلني على الباب أحد العسكريين الذي كان يمتاز بشخصيته وقامته بحرارة وحماس ، وأخبرني الأخ زين العابدين أنه مصارع تركية المشهور الذي أحرز درجة البطولة في المصارعة قبل عدة سنين في ألمانيا ، وهزم جميع المصارعين الذين بارزوه ، وقال: إنني أحافظ على الصلوات الخمس ، وقد صليت ركعتين قبل بدء المصارعة ، ودعوت الله تعالى أن ينصرني ويجعلني من الفائزين .

الاجتماع بالدكتور علي فؤاد باشكيل في جامعة إستانبول: كان من المقرر أن أجمع بالدكتور علي فؤاد باشكيل في الساعة الحادية عشرة في الجامعة ، وهو أستاذ التشكيلات الأساسية للحقوق ، ويمتاز بفكره الإسلامي ونظريته الإسلامية بين أساتذة الجامعة المسلمين ، رجعنا من دولمة باغجه إلى ميدان بايزيد حيث مبنى الجامعة المركزي ، ودخلنا من باب فخم مكتوب عليه بالعربية «الإدارة العسكرية» وعلى يمين الباب ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ وعلى اليسار ﴿ وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيمًا ﴾ بالخط العربي الواضح ، فقد كان ذلك المكتب الرئيسي لوزارة الدفاع ، ولعل ذلك يكون مركز العمل للمغفور له

أنور باشا أيام وزارة دفاعه ، وقد كتب الآن على جبهة هذا الباب بالخط الروماني Istanbul University .

مررنا بحديقة واسعة حتى وصلنا إلى باب آخر يقابله تمثال لأتاتورك ، وبجانبه تمثالان لفتى وفتاة تشيران إلى أن أتاتورك يريد تربية هاتين الطبقتين للأمة التركية ، وعندما دخلنا في الباب صادفنا بناية قديمة فخمة كانت مركز الدوائر لوزارة الدفاع وشعبها ، أما الآن ففيها كلية الحقوق للجامعة ، ودوائر أخرى ، وصلنا إلى غرفة الأساتذة حيث استقبلنا الدكتور علي فؤاد بعد برهة ، إنه يستطيع أن يفهم بعض العربية غير أنه لا يقدر على التكلم بها ، فكان الأخ زين العابدين مترجماً بيني وبينه كالمعتاد ، إن الدكتور علي فؤاد يبغض اللادينية ويدعو إلى العودة إلى الدين ، إنه أهدى إلي كتاباً ألف حول موضوع «الدين واللاينية» بالتركية .

حول الدين واللاينية: تحدثت معه عن هذا الموضوع ، وقلت له إن تركية سبقت الدول الإسلامية التي واجهت الحضارة الغربية وتقدمتها بطبيعة الحال ، وكان الطريق الوحيد آنذاك للتخلص من اللادينية أن تبذل الجهود للجمع بين الإيمان وأصول الدين وحقائقه وبين وسائل العصر الحديث وتنظيماته ، فإن هذه المرحلة من التاريخ لم تكن تبرر الهروب من الوسائل والتنظيمات الحديثة ، ولا الحرمان من أصول الدين وحقائقه وقوته الروحية واليقين التي تأخذ بيد الإنسان إلى طريق الأنبياء وتحث على اتباعهم الصحيح ، ومع الأسف لم ينجح أي بلد إسلامي في هذا الامتحان وأصبح فريسة اللادينية الغربية ، وحرمت تلك الثروة الضخمة والشخصية الممتازة التي كان يملكها ولم يعد بمكانة ممتازة في العصر الحاضر .

وافقني الدكتور في هذه الفكرة موافقة تامة وقال لي : بما أنه لا تعارض بين الدين والعقل لم يكن من الصعب أن يتم هذا الأمر لو تحمس له القادة ، وقلت له : يخطيء الناس في هذه المرحلة أكثر الأحيان وذلك حينما يلح أهل الدين على إبقاء بعض العادات والتقاليد التي لا تساير بعض الأحيان التطورات الحديثة والحاجات الحاضرة ، وهناك يعتقدونها دعاة التجديد

جزءاً أساسياً من الدين وينكرون الدين كله ، ويحكمون أن الدين لا يساير الزمان ، فلو كان في تركية رجال من أصحاب الفكر العميق والعلماء المتفهمين ألقوا بهذه المناسبة على جوهر الدين وأساسه ، ورضوا في المباحات بمندوحة تسمح بها الشريعة الإسلامية ، لم يواجه العالم الإسلامي مشكلة الحضارة الغربية بمثل ما واجهه اليوم ، إن الدكتور علي فؤاد حريص على أن يتفق العلماء ويجمعوا في بعض القضايا المستحدثة كما أنه لا يرى الاجتهاد نصيب كل فرد وحق كل شخص ، إنه معجب بعقلية المذهب الحنفي في الفقه الإسلامي .

زيارة الشيخ يوسف ضياء : ولما خرجنا من عند الدكتور علي فؤاد أتينا إلى جامع بايزيد وصلينا فيه صلاة الظهر ، ثم ذهبنا إلى متحف توب كابي لنشاهد فيه بعض النواحي المهمة التي فاتت زيارتها ، ولكن علمنا أن يوم الثلاثاء يوم العطلة في المتحف ، فتوجهنا منه إلى زيارة الشيخ يوسف ضياء ، وهو رجل متصوف منقطع عن الدنيا وزخارفها وكنت قد حملت إليه رسالة من الشيخ عبد الله بن زين العابدين من حلب ، وقد اتصلت به يوم وصولي إلى إستانبول حينما كنت حائراً مضطرباً ووعدته الاجتماع به مرة أخرى ، ففرح بزيارتي قال إنني نادم على ما صدر من التقصير نحوكم ، وسألني عما إذا كنت مقيماً غداً ليضع لي برنامج الزيارة لبعض أهل القلوب والصالحين ، وتأسفت على أنني أُحرم زيارتهم لكون برنامج السفر غداً قد تعين ، ولولا هذا المانع لحضرتهم وقضيت بعض الوقت في رحاب هؤلاء الصالحين ، وطلب مني عنوان مقري بالحاح بالغ ووعدني بالقدوم ، وكان يقول مراراً وتكراراً وبإخلاص : يسرني كثيراً أن أقوم بخدمة نحوكم ، وشكرت له هذا الاهتمام بشخصي العاجز ، وقد توسمت فيه التواضع والأخلاق ، والحقيقة أنه ممن تذوق طعم الدين ، ونال تربية الزهاد والصالحين وعاش بينهم ، وهو يتصل بالسلسلة النقشبندية .

وقد رأيت أن هذه الطبقة من الناس تعيش كحاشية ملك معزول معتوب ، ومقربيه الذين يشعرون أنفسهم في خطر دائم وتحوم حولهم الشبهات ، وتدب نحوهم عقارب الحسد والعداوة ، إنه شرفني بالقدوم إلى

مقري عند صلاة المغرب ، وتحدث إلي بتواضع وإخلاص ، وقال إنني جئتكم في هذا الوقت لكي أصلي صلاة المغرب معكم ، لقد فرحت كثيراً بما رأيت فيه من تواضع وإخلاص ، وانشرح لذلك صدري .

الاجتماع الأخير بالطلبة العرب: كان من المقرر أن يجتمع الطلاب العرب في منزل الأخ عبد الفتاح عقب صلاة المغرب في تاشكباب ، فلما وصلت وجدت عدداً وجيهاً من الطلبة ينتظرونني ، وكان معظمهم ممن لم يكونوا قد حضروا في الاجتماع الأول ، وكان عدد الطلبة الليبيين بارزاً بين هؤلاء .

التهيؤ للسفر إلى أنقرة: وكان الأخ زين العابدين قد دبر لي السفر إلى أنقرة ، إنه حاول أن أسافر صباحاً بالقطار السريع ولكنه علم أخيراً أن المقاعد في هذا القطار كلها محجوزة ، وذلك لأن أنقرة هي العاصمة حيث البرلمان ودوائر الحكومة الكبرى فيحجز الناس مقاعدهم في القطار من قبل ، ولم يجدوا مقعداً في الطائرة أيضاً فاضطرت إلى السفر بالسيارة وهي تستغرق أكثر من عشر ساعات من إستانبول إلى أنقرة ، وبالرغم من أن السفر بالسيارة شاق ولكنني سأتمكن هكذا من مشاهدة هذه البلاد من كثب ، وأزور ما بين إستانبول وأنقرة عن طريق السيارة كما زرته من طريق القطار .

وقد بالغ الأخ زين العابدين في تسهيل السفر حتى أصبحني رقيقاً يعرف التركية والعربية ويتقنهما كأهلها وهو يرافقني إلى أنقرة وقونية وإن سافرت من أنقرة إلى أطنة بالطائرة فسأجد هناك رقيقاً آخر يرافقني إلى حدود تركيا ، وقد أخبر الأخ زين العابدين الإخوة في كل مكان بسفري هذا ، ويبرق إلى حلب بموعد وصولي إليها .

إيثار الأخ زين العابدين والطلبة العرب وحسن إفادتهم: ومما لا شك فيه أن الراحة التي تيسرت لي في هذه الرحلة من الطلبة العرب ولا سيما الأخ زين العابدين تفوق كل شكر وتقدير ، فإنهم لم يألوا جهداً في الترويح والتسهيل ، ولم يتركوني لمحة أشعر فيها بأنني في السفر خارج بلدي وأسرتي وإخواني ، وبالرغم من أنهم طلبة أبدوا سماحتهم وخلقهم بأسلوب

يبعث على الاستغراب أن المزيج الغريب من النشاط والحماس والهدوء والاتزان الذي لمستته في هؤلاء الشباب وبالأخص في الأخ زين العابدين قلما يوجد مثله في العاملين في حقل الدعوة والحركات الدينية ، إن زين العابدين يحمل من صفة القيادة وإخوانه من جوهر الطاعة والتنظيم ما يبشر بخير ، وأدعو الله سبحانه أن يزيد فيهم كفاءة العمل ويقوي مواهبهم ، فإن الحركة التي تتمتع بمثل هؤلاء العاملين إنما هي موضع غبطة وتقليد ، ولا شك فقد كان الإمام حسن البنا يحمل شخصية جليلة تصنع الرجال وتربي الأبطال ، وبفضل دعوته وتربيته وجدت هذه الطبقة من الشباب ، وممن استأنس بي من الإخوان بعد الأخ زين العابدين هم الأخوة عبد الفتاح ، طه ياسين ، وبشير حنون ، والثلاثة المذكورون في الأخير من الموصل وقد رافقوني منذ اللقاء الأول ليل نهار ، وهم الذين نزلت في منزلهم .

رفيقي في السفر: ١٠ من ذي القعدة ١٣٧٥ هـ المصادف ٢٠ يونيو ١٩٥٦ م جاءني الأخ زين العابدين في الساعة الثامنة صباحاً ، فنظم الحوائج ووصلنا إلى محطة السيارة في الساعة التاسعة في جماعة من الإخوان ، أما الأخ الذي يرافقني في السفر فاسمه مأمون ، وهو من كركوك وطالب في السنة الثانية لكلية الهندسة ، يعرف اللغتين التركية والعربية كلغة الأم .

نظرة على إستانبول: يجب أن ألقى نظرة على إستانبول قبل أن أغادرها ، إن هذه المدينة العظيمة ظلت عاصمة الدولة العثمانية نحو خمسة قرون ، وعلى أنها حرمت هذه الميزة اليوم ولكنها لا تزال ملتقى الشرق والغرب ، وأعظم مدينة في تركية ، أما المدفون تحت ترابها فاسألوا عنه التاريخ الذي يعلن بجهر وصراحة ويقول بلسان حاله «إن الزمان بمثله لبخيل» ولكن الذي نشاهده فوق أرضها يكفي لعظمتها ، وإحصاء المدينة مليون ونصف مليون نسمة ، وتمتد المدينة في مساحة واسعة ، توزعه بحيرة مرمر ومضيق بوسفورس بين جزئين من أوربة وآسيا في جانب ، وفي جانب آخر يوزعها خليج القرن الذهبي Golden Horn بين العاصمة البيزنطية القديمة والجزء الذي يدعى بـ«غلطه» .

يحتوي جزء كبير من أهاليها على اليهود والمسيحين ، ويمتاز كالعادة في الثراء والتجارة والنفوذ ، وله تأثير في حياة المدينة وأخلاقها ، إن السفور والانطلاق الزائد في هذه المدينة نتيجة لهذا العنصر ، ويبدو فيها جلياً مزيج بين القديم والجديد ، والشرق والغرب وبعض أجزاء المدينة تشبه مدن أوربة الكبرى ، كما أن بعضاً منها تجدد ذكرى مدن الشرق القديمة والكبيرة ، والمواصلات في هذه المدينة ووسائل النقل موفورة معظمة ، فالترام والسيارات ميسورة موجودة في كل مكان ، وهي مركز تجاري وتعليمي كبير في تركية ، إن كثرة المصارف والبنوك التي رأيتها في هذه المدينة لم أرها في أي مدينة من الشرق ولعل ذلك من تأثير اليهود وكثرتهم ، وتصدر منها جرائد يومية عديدة تجدر بالذكر منها ، «جمهورية» «حرية» «يني صباح» يعني الصبح الجديد «بيوك» يعني الشرق العظيم .

معاشرة الأتراك: تتجلى السذاجة والنظافة في معاشرة الأتراك وحياتهم ، فلم أشاهد فيها ذلك التجمل والزينة وشأن الثراء والغنى الذي نشعر به نحن الهنود في سورية بصفة خاصة ، فإن الأمة التركية تنصف إلى الآن بصفات البطولة والمغامرة والسذاجة في الحياة ، ويميلون إلى الرياضة والتربية البدنية كثيراً ، وقلما يلمس الفرق بين ألوان الطعام وذوق الأكل في تركية وسورية ، وذلك لأن الأتراك حكموا الشام والعراق والحجاز أربعة قرون وخلفوا فيها أثراً لمدينتهم وأذواقهم .

حكومة تركية الحاضرة والاتجاه الديني: الطبقة الدينية في تركية تشني على رئيس الوزراء عدنان فيدرس؛ لأن الحكومة التركية اليوم قد منحت الأمة التركية بعض الحرية في الأمور الدينية لحكمة سياسية أو إخلاص ، وخففت تلك الشدة والضغط التي سادت البلاد منذ الثورة الكمالية ، إن الحزب الحاكم اليوم شعر بأن الأتراك أمة مفطورة على التدين ، ولذلك فإن الوضع الموجود لا يتفق وطبيعتها ، والأمة التركية لا تزال على عهدها في مناصرة الحزب الذي يمنحها الحرية الدينية ويسمح لها بتطبيق شعائر الإسلام الحياة ، وبذلك هتف هذا الحزب في معركة الانتخابات حتى

انتخب خمسمئة عضو منه في الانتخاب الجديد ، وانتخب واحد وثلاثون عضواً فقط من الحزب الكمالي الذي كان يحكم منذ الثورة إلى الآن والذي كان يقوده عصمت أنونو .

ولو أن الحزب الحاكم لم يوف بجميع مواعيده شأن الأحزاب السياسية ولكن الذي أنجز منها كان بمثابة نعمة كبيرة لهذه الأمة المظلومة في دينها وعقيدتها ، وقد سمحت الحكومة الجديدة بالأذان العربي ، وعندما أذن بالعربية بعد مدة وسمعه الناس خروا على الشوارع سجداً وبكياً ، وذبحوا آلافاً من الخراف والغنم إيفاء لنذرهم الذي نذروه ، وفرحاً بما أنعم الله عليهم من نعمة الاستماع إلى الأذان بالعربية ، كما سمح بالتعليم الديني الذي كان ممنوعاً من قبل ، وقد استعجل بعض المتحمسين من المتدينين في استغلال هذا السماح والتغيير وبدؤوا يحطمون تماثيل أتاتورك ويهدمونها (الذي كان يعتبر لدى الجيل الجديد والحكومة التركية منقذ البلاد والأمة) وبدؤوا يهاجموه على شخصيته ، فاضطرت الحكومة لمنع هذا الاتجاه وإلى وضع قوانين حفظ ، وأقامت على بعض الجماعات الدينية المتحمسة رقابة شديدة ، ويأمل الفاهمون أن الوضع يستقيم تدريجياً ، وينتهي الإعراض عن الدين ومعاداة الإسلام بمر الزمن .

أهم حاجات الساعة: من أهم حاجات الساعة وجود علماء راسخين وقادة دين متيقظين يستطيعون أن يحدثوا ثورة دينية في البلاد باتزان عقلي وحكمة تامة ، ويعرضوا الدين بأسلوب يبدو به حياً نامياً ومتحركاً فعلاً ، يقدر على أن يتقدم بتركية إلى الإمام عوضاً عن أن يتأخر بها ويعيد إليها مكانة الإمامة والقيادة ، ولا يصير على أمور زائدة لم تكن لها صلة بالدين وإنما كانت جزءاً من المدنية الشرقية كما يفعل العلماء في زمن الثورة ، ويتظاهر بالتصلب والاستقامة في جوهر الإسلام وشعائر الدين ، ولكن يقر بكامل الحرية في المباحات التي تقرُّ بها الشريعة الإسلامية واعترف بها فقهاء الإسلام في كل عصر .

هل توجد هذه الطبقة في تركيا أم لا؟ يصعب أن أبدي في ذلك رأياً واضحاً في مثل هذه الإقامة القصيرة.

من إستانبول إلى أنقرة: سارت السيارة في الساعة التاسعة والنصف صباحاً ، والمسافة بين إستانبول وأنقرة خمسة وسبعون وأربعمئة كيل إن السيارة تمر بمنطقة خضراء جميلة ، وتقع على جانبي الشارع قرى أناطولية والأرياف التركية ، وسوف لا توجد قرية من هذه القرى إلا وفيها جامع فقد كانت الجوامع ذات المنارة الواحدة تتراءى طول الطريق ، وتبدو بهيجة رائعة بين منازل القرية وبيوتها .

وقفت السيارة بمقربة من سوق فنزلنا وأدينا صلاة الظهر ، وأردنا التغدي في أحد المطاعم ، فأخبرني رفيقي الأخ مأمون أن الناس في هذه المطاعم ، يتعاطون الخمر ، فألغينا عزم الدخول فيه ، وقصدنا مطعماً متواضعاً لرجل مسلم ، وتغدينا فيها ، وأخبرني الأخ مأمون أن هذه الكارثة عامة في كل مكان في إستانبول ، وقال بما أننا نعرف المطاعم ونميز حلالها من حرامها نختار منها ما لا يسمح فيه بمثل هذه المحرمات ، ويتخذ الحيطة في مثل هذه الأمور ، أليس مما يثير الأسف والشجى أن نواجه مثل هذه المشكلة في بلد مسلم بحت ، ولعل ذلك جاء من تأثير السكان الأوربيين ومن غير المسلمين الذين هم منبثون في جميع مدن تركيا الكريمة .

في أنقرة: لقد انتهينا من هذا السفر في الساعة العاشرة والنصف ووصلنا إلى أنقرة ، وبالرغم من أن هذه الرحلة استغرقت ١٣ ساعة وأتعبتني كثيراً سنحت لي فرصة الاتصال بالحياة التركية ومشاهدتها عن كثب ، وقد تمكن رفيقي من اختيار فندق موثوق به في تقاليد وعاداته ، كما أنه مريح ورخيص بالنسبة إلى الفنادق الأخرى ، واسم الفندق (جهجك بالاس هوتيل) يعني (فندق الأزهار والأوراد).

في المكتب الرئيسي للأمر الشرعية: ١١ من ذي القعدة ١٣٧٥ هـ المصادف ٢١ يوليو ١٩٥٦ م ، وبعد ما أفطرنا اليوم ذهبنا إلى مكتب «مجلة إسلام» الذي يقع إزاء جامع الحاج بيرم ، ولكن لم نجد فيه أحداً ، وسألنا

بعض الناس عن مقر المكتب الرئيسي لإدارة الأمور الشرعية فتوجهنا إليه ، وكنت أحمل عدة عناوين من رجال هذا المكتب ، وقد دخلنا في بناية أنيقة جميلة ، وفي إحدى الغرف التي كانت تنطوي على قسم من أقسام هذا المكتب سألنا عن بعض العناوين ، وبينما كنا نتساءل إذ دخل شاب مرتدياً ملابس تركية الغربية ، وما أن رأيته إذ قال سائلاً: الأستاذ أبو الحسن؟ وقلنا: الأستاذ مصطفى رضا؟ وصافحنا بحرارة وحب .

الأخ مصطفى رضا: استأنس بي شابان تركيان في المدينة المنورة عندما زرتها في عام ١٩٤٧ م ومكثت فيها ثلاثة أشهر كان اسم واحد منهما علي علوي والآخر مصطفى رضا ، ويرجع تاريخ هذا التعارف والصلة إلى منزل الشيخ عثمان أفندي وهو عالم تركي ذو ذكاء وعقل قويين من قونيه ، وقد ألقى محاضرات وخطب في حفل الأتراك في منزله مراراً وتكراراً ، ترجمها إلى التركية الشيخ عثمان أو الأخ مصطفى رضا .

وما زال هذان الشابان يزورانني في مقري وقرأت مقالاتي وكتاباتي ، بعد مدة أراد الأخ مصطفى أن يرحل إلى تركية واستشارني في هذا الأمر ، ووافقته نظراً إلى ذكائه وكفاءته ، ورجاء أن وجوده في تركية سيكون مبعث خير كبير في حقل الدعوة الإسلامية ، ولقد كان عندي من بين العناوين والأسماء التي حملتها من دمشق وإستانبول إلى أنقرة اسم للأخ مصطفى رينون ، ومصطفى رينون هو صاحبي مصطفى رضا الذي كان معي في المدينة المنورة ، ولا بد في تركيا من إرداف كل اسم إسلامي بلقب ربما يكون نسبة إلى الأسرة والنسب ورينون كذلك لقب نسبي .

إن وجود مصطفى رضا في هذا السفر بمثابة مفتاح لهذا البلد الذي أزوره ، إنه موظف في إدارة الأمور الشرعية ويشغل فيها منصباً هاماً وقد أبدى كل منهما سروراً بالغاً بهذا اللقاء ، وحسبناه نعمة مفاجئة من الله ، وقاما بتعريفني إلى الناس الحاضرين وذكرنا تلك الأيام التي قضياها معي في المدينة المنورة .

العاملون في إدارة الأمور الشرعية: وطلب مني الأخ مصطفى رضا أن

أجتمع بالعاملين في هذه الإدارة فحبذت رأيه وأتينا أولاً إلى رئيس الأمور الشرعية الأستاذ أيوب صبري خيري أوغلو أفندي فرحب بي وتبادلنا التحيات والتعارف الإسلامي ، وقال : ربما يكون المسلمون في الهند يعتقدون أننا تركنا الدين الإسلامي وأقبلنا على المسيحية ، فقلت له : لقد قامت الدول الغربية إلى مدة بنشر هذه الإشاعة ، ولكن الآن بدأت تنكشف عليهم الحقائق ويطلعون على الوضع الصحيح .

وبعد ما قضينا عنده بعض الوقت خرج بنا الأخ مصطفى إلى مكتب الهيئة الدينية وهي هيئة استشارية للعلماء ، فاجتمعنا بالعلماء الموجودين هناك ، وكان من بينهم رجل اسمه شهداء وال Shahid Ovel فسألني عن حال الشيخ حسين أحمد المدني ، واستفسرته من أين تعرفون الشيخ ؟ فقال إنه أستاذه قرأت عليه في المدينة المنورة ، وأخذت منه الشهادة ، وبدأ يبدي حبه وإعجابه بشخصيته ، وقال : إنني كلما أذكره فيفيض قلبي حباً وعيني دمعاً ، ثم كلفني بتبليغ تحياته إليه .

الأعمال التي أنجزتها دار الترجمة : وزرت فضيلة مفتي أنقرة ، فجاءه بعض الموظفين في دار الترجمة ، الذين حدثوا إلي ببعض التفاصيل عن جميع ما قامت به دار الترجمة من خدمات وأنجزته من أعمال ، ولأول مرة خلال هذه الرحلة فرح قلبي وانشرح صدري حينما سمعت أن الناس في تركية مقبلون على إنجاز بعض المشاريع العلمية والخدمات الدينية ، وقدم إلي هؤلاء الشباب الموظفون بعض منشورات هذا القسم بين رسائل وكتب ، وقالوا إن هذه الكتب والرسائل تنشر وتوزع على نطاق واسع ، وقد وزع ٨٥ ألف نسخة من رسالة اسمها «المعلومات الدينية التي تسع في الجيب» في ظرف سنة واحدة ، وقد طلبت ألمانيا خمسة آلاف نسخة من هذه الرسالة ، كما أن كوريا تبعث طلباتها للرسائل والمنشورات الإسلامية .

وسألتهم : ما الذي لفت كوريا إلى ذلك؟ فقالوا: إن الجنود الأتراك الذين بعثوا إلى كوريا كان معهم أحد المفتين الذي أسس هناك جمعية

استلقت أنظار الناس إلى ذلك ، وقد وصلت إلى أيديهم حتى الآن أربعون ألف نسخة من كتاب «دين الإسلام» .

وقام هذا القسم بترجمة كتاب «رياض الصالحين» للإمام النووي في ثلاثة أجزاء ، ونشر رسائل عن حياة الخلفاء الراشدين ، أهدوا إلي نسخة من كل رسالة ، وإن كتاب «خطبات مدراس» للعلامة السيد سليمان الندوي الذي نقله إلى العربية صديقنا الفاضل الأستاذ ناظم الندوي قبل مدة ، وطبع في مصر منذ سنوات ، باسم «الرسالة المحمدية» قام هذا القسم بترجمته إلى التركية وسينشر قريباً ، وقد سرني أنهم ينوون إعادة طبع كتاب «سيرة النبي» الذي نقل إلى التركية وطبع قبل مدة باسم «عصر السعادة» وهو الآن مفقود ، ويهتم هذا القسم بطبعه بالخط الجديد ، وقد كانوا يستفسرونني عن بعض الأمور حول هذا الكتاب ، ويحبون أن تكون لديهم نسخة كاملة من الكتاب بجميع أجزائه بالأردية حتى يتمكنوا من تقدير محتوياته ومقالاته ، وتحقيقاً لهذا الغرض كتبت إلى فضيلة الشيخ مسعود علي الندوي مدير مؤسسة دار المصنفين التي قامت بطبع هذا الكتاب ونشره وتوزيعه ، وطلبت منه إرسال نسخة كاملة منه إلى قسم دار الترجمة لدائرة الأمور الشرعية في تركية .

إن رجال العاملين في هذا القسم يمتازون بالفهم الجيد والاستعداد للعمل ، وبالرغم من أنني لقيتهم ورأيتهم لأول مرة استشاروني في مشاريعهم وبرامجهم العلمية برحابة صدر ، واستفسروني عن كتب جديدة بالإنجليزية والعربية تستحق الترجمة والنقل إلى التركية وتنفع الطبقة المثقفة الجديدة ، وقدمت لهم قائمة لمثل هذه الكتب حسب ما بدا لي .

ثم عدنا إلى المقر ، وعلمت في أثناء الطريق أن الأخ مصطفى رضا قائم بأعمال نافعة وخدمة مفيدة في الحقل الديني هنا ، فإنه عضو في إدارة الأمور الشرعية ، ويدرس في مدرسة الخطباء وأئمة المساجد ، وخطيب في جامع الحاج بيرم ، وهو جامع البلد المركزي ، ويذيع أحاديثه الدينية بالإذاعة ، كما أنه عضو للمجلس الذي يقوم بإعادة النظر على الخطب ، ولما وصلت

إلى منزله أراني تلك الرسائل العربية التي كانت تصل إليه عن طريق صديقه علي علوي منذ مفارقتنا .

الأستاذ إسماعيل حقي : تكلم الأخ مع الأستاذ إسماعيل حقي بالهاتف من منزله ، وأخبره بوصولي إلى أنقره ، فوعده باللقاء في الفندق بعد صلاة الظهر ، وجاء بعد الظهر وجلس معي طويلاً ، وهو خريج الجامع الأزهر له اطلاع واسع ونظرة على العلوم ، وهو من أتراك بلغارية أصلاً ، هاجر إلى تركيا ، إنه ترجم كتاب «محمد الفاتح» للدكتور سالم الرشيدى إلى التركية ، ومما يبعث السرور أن الأمة التركية لا تزال تعتز بمحمد الفاتح ، ومنذ أيام أقيمت ذكرى فتح القسطنطينية لمرور خمسة قرون عليه ، ولا شك أن هذه الدوافع وأمثالها تساعد كثيراً في بعث الروح الإسلامية في تركيا .

دخول محمد الفاتح في القسطنطينية : وسألت الأستاذ إسماعيل عن دخول محمد الفاتح في القسطنطينية وتفصيله نظراً إلى اطلاعه الواسع على حياته وتاريخه ، وقلت له أن يدلني بواسطة الخريطة على الجهة التي دخل منها ، والمكان الذي ربح في الخليج بالسلاسل ، وأن يعين لي ذلك البر الذي سير فيه السفن وأدخلها في البحر .

وفيما يلي ملخص بيانه في هذا الموضوع :

دخل محمد الفاتح عن طريق «أدرنه» التي كان يملكها من قبل ، وكانت عاصمة الأسرة العثمانية ، فتقدم محمد بأساطيله وجيوشه البرية وكان عددها ثلاثمئة ألف إلى «أدرنه» التي تدعى بجزء غلطة اليوم ، وكانت تحت سيطرة البندقين (أهل ويس) كما كان البيزنطيون يسيطرون على القسطنطينية القديمة ، وكان الحصار شديداً ، أما أسطول محمد الفاتح فكان متوجهاً عن طريق بحيرة مرمر من البحر الأسود إلى القسطنطينية ، وقد سد البيزنطيون طريق خليج القرن الذهبي بسلاسل من حديد خوفاً من أساطيل محمد الفاتح ، فلما رأى محمد أن الطريق مسدود أزلق خمسين سفينة وأدخلها من طريق قاسم باشا في خليج القرن الذهبي ، وأصبح البيزنطيون على مرأى من

سفن محمد الفاتح التي فاجأتهم في الخليج ، ولكن هذه الحيلة لم تكف لفتح القسطنطينية ، واضطر محمد علي إلى بذل جهود متتالية استمرت طوال أسبوع كامل ليدخل القسطنطينية بجيوشه عن طريق سيدنا أبي أيوب الأنصاري ونجح في ذلك أخيراً ، وكان ذلك يوم الثلاثاء ، وصلى الجمعة الأولى في جامع أياصوفيا وألقى خطبة الجمعة بنفسه .

عبقرية محمد الفاتح : إن التفاصيل التي اطلعت عليها من طرق الأستاذ إسماعيل حقي زادني إجلالاً لشخصية محمد الفاتح ، وقوى شعوري نحو عبقريته وعظمته ، إنه قال لي : لقد ألف الكاتب الفرنسي Guillet عام ١٦٨١ م كتاباً حول محمد الفاتح يقول فيه : يجب على كل مسيحي أن يدعو على الدوام أن لا يخلق الله رجلاً كمحمد الفاتح ، ورد عليه الدكتور سالم الرشيدى مؤلف كتاب «محمد الفاتح» فقال : يجب على كل مسلم في هذا العصر أن يدعو الله سبحانه وتعالى أن يخلق محمد الفاتح مرة أخرى في التاريخ .

جامع الحاج بيرم : خرجت إلى السوق مع الأستاذ إسماعيل عقب صلاة العصر ، ووصلنا إلى جامع الحاج بيرم مارين على عدة شوارع وأسواق ، وقد رحب بي الأتراك الحاضرون هنا وقابلوني بحب وحرارة ، وكأنهم كانوا يقولون لي بلسان الحال : لقد كنا يوماً متحررين في اختيار اللباس ، وكأنهم كانوا يستبصرون أعز متاع فقد غاب عنهم ، ويبدو كأنهم يريدون أن يبوحووا بسرهم ولكنهم لا يستطيعون .

في مكتب مجلة «الإسلام» : وذهبنا إلى مكتب مجلة «الإسلام» بعد صلاة المغرب وقد تلقانا فيه عدة شباب ورحبوا بي بحرارة بالغة ، ولعل هؤلاء الشباب يقومون بخدمة هذه المجلة الإسلامية ويسهمون في نشاطها متطوعين ، دون أن يبغوا مقابل ذلك أجراً أو غنيمة في الدنيا ، وكانت برقيتي وصلت إليهم من إستانبول ولكنهم لم يتمكنوا من اللقاء لتغير البرنامج في الأخير ومواصلة السفر بالسيارة . إنهم استأنسوا بي وتحديثوا معي في جو من الحب والإخاء ، وسألوا تناول الطعام معهم في مطعم

وألحوا على ذلك ، وجاؤوا معي إلى مقري ، وقالوا سنعود إليكم مع الأستاذ مصطفى رضا بعد العشاء .

هتاف الحركة الدينية الجديد : وجاؤوا إلى مقري بعد العشاء ، وجلسوا طويلاً ، فقلت لهم : إنه يجب أن يكون لأمثالكم للعاملين في حقل الدعوة والدعاء إلى الدين جميعاً هتاف واحد ونداء واحد ودعوة واحدة ، وذلك أن تقولوا : «إلى الراية المحمدية أيتها الأمة التركية» لقد بعث هؤلاء الشباب سروراً عظيماً في قلبي ، فإن بريق أعينهم وعلو جبهاتهم ، ووقارهم وورزانتهم وإخلاصهم كل ذلك كان ينم عن علو همتهم ، ويدل على أنهم أعضاء أمة عظيمة يستطيعون أن ينجزوا أعمالاً عظيمة ضخمة ويقوموا بدور رائع في المستقبل .

ضريح أتاتورك : كان الأخ زين العابدين أشار علي بزيارة ضريح أتاتورك في أنقرة ، وقال لي : إنني أرى أن لا تفوتكم مشاهدته على رغم كراهتكم لذلك ، وذلك لكي يمكن لكم تقدير ما أنفق على تشييده ، ومدى اتصال الجيل الجديد به .

فلما زرتة وجدته بناية ضخمة فخمة ، تتقدمها حديقة واسعة ، والبناية شامخة شيدت على طراز فن العمارة الرومية ، وقد كتب على الجدران خطابان لأناتورك موجهان إلى الشباب ، ولا يبدو من أي زاوية من زوايا هذه البناية ولا من كلمة من كلمات هذين الخطابين أن الضريح والخطاب لفرد من أفراد المسلمين ، لقد أثارت هذه المناظر شجوني ، ونغصت قلبي .

في كلية الإلهيات : جاءني الأستاذ أديب كامل في الساعة العاشرة ليذهب بي إلى «كلية الإلهيات» ويجمعني بالأساتذة هناك ، وهذه الكلية بمثابة كلية الشريعة هنا ، شيدت بنايتها على طراز جديد ، كما أن الأسلوب المتبع في النظام والتربية حديث ، وقد اجتمعت ببعض الأساتذة في غرفة مدير الكلية ، وكان من بينهم أستاذ اسمه «نافذ دانشمن» كان يقدر على التكلم بالعربية الفصحى ، ويبدو أن دراسته واسعة وجديدة ، فقلت له : إن الظروف العصيبة تحتاج دائماً إلى ذكاء فائق ومواهب قوية تواجهها بفراسة

وإيمان ، فإن الموقف الذي تقفه تركيا الآن يتطلب الفكر المجتهد والنظرة الثاقبة لتمثيل الدين وأداء دوره الفائق فيها ، إن حاجة تركيا اليوم إلى محمد آخر يفتح هذه البلاد بالحكمة والموعظة لا بالسيف والقتال ، ويخضع الجيل الجديد أمام قوة الإسلام عقلاً وقلباً ، ويصف له الإكسير ، بالجمع بين الدين والدنيا ، وقد لاحظت مدى ذكائه ودراسته في حديثه الذي دار بيني وبينه .

مع أساتذة الكلية: وأتيت إلى دار الأساتذة حيث لقيت عدداً من أساتذة الكلية واجتمعت بهم ، وكان من بينهم الأستاذ محمد طنجي وهو من طنجة من المغرب يدرس فلسفة الإسلام في الكلية ، والأستاذ نشأة جغنائي وهو أستاذ التاريخ الإسلامي ، والأستاذ كمال أديب الذي كان دليلي ورفيقي في هذه الجولة وهو يدرس التصوف الإسلامي وأصول الدين ، والأستاذ نافذ دانشمن الذي يدرس علم الكلام ، والأستاذ عزت حسن وهو أستاذ اللغة العربية والأدب العربي ، وهو من سورية وأمّه تركية فيعرف اللغتين العربية والتركية ويجيدهما كلغة الأم ، ولقد ظهر لي بما سمعت من كلامهم وقدرت من دراستهم أنهم يستحقون بكل جدارة أن يكونوا موضع غبطة واعتزاز لكل كلية كبرى .

كفاءات المعلمين: وأعتقد أن هؤلاء الأساتذة لا يألون جهداً في أداء مسؤوليتهم وواجبهم نحو الطلاب ، نظراً إلى دراستهم العميقة وفضلهم العلمي ، واطلاعهم الواسع ، ولكن التبخر في العلوم والتوسع في الدراسات وحده لا يكفي لتوجيه الطلبة وتربيتهم الخلقية والعملية وبعث العزم والحماس والقوة والروحانية فيهم ، إن ذلك يتطلب أنواعاً من المؤهلات والكفاءات التي أشار إليها الشاعر محمد إقبال في بيت من شعره ، فيقول: «النظر العميق ، والكلام المؤثر الجذاب ، والقلب الذائب المتحرق كل ذلك زاد «القائد المؤمن» ولا أدري إلى أي مدى يتصفون بهذه الصفات ، والتجربة خير شاهد على أن عمل الدعوة والتربية لا ينال قبولاً بدون ذلك ، وقد قال الشاعر قديماً ما معناه:

«لا قيمة لأي عمل إذا لم يتصل بدعاء السحر والتنجي مع الله ، فإن التاريخ لم يعرف عطاراً والرومي والرازي والغزالي إلا لأنهم كانوا يتصلون بدعاء السحر وصاحبه» .

ولكن بالرغم من ذلك يبدو أن المسؤولين موفقون في اختيار الأساتذة .

مقررات الكلية ونظامها الدراسي : إن المقررات الدراسية للكلية تحتوي على القرآن وأركان الإسلام والتفسير والحديث ، وفلسفة الإسلام وتاريخ الإسلام ، والفقه الإسلامي وعلم الكلام ، والتصوف وموضوع النفسية الدينية والعلوم العمرانية للدين ، وتتضمن تدريس اللغات التركية والعربية والفارسية واللغات الأجنبية مثل الألمانية والفرنسية والإنجليزية .

إن مواضيع هذه المقررات والفنون التي تضمها لا تهمننا ولا تحتاج إلى ملاحظات أو إبداء رأي عنها ، ولكن الذي يجب أن لا نغفله هو أن نقدر مدى إساعة الطلاب إياها ، ونرى إلى أي حد يستفيد منها الطلاب من الناحية الدينية والعقلية ، ولا يمكن تقدير ذلك إلا بالطلبة الذين يدرسون في هذه الكلية ، ولكن الفرصة غير سانحة لتحين موعد الامتحان السنوي وانتهاء السنة الدراسية .

وتتألف أسرة المعلمين في الكلية من تسعة أساتذة وأستاذين مساعدين وثلاثة محاضرين ، يبلغ المجموع إلى أربعة عشر معلماً ، أما الطلاب فأربعة وستون طالباً ، منهم ٥٢ طالباً و١٢ طالبة ، ولا بأس بهذا العدد نظراً إلى عمر هذه الكلية القصير ، وقد أخبرني بعض الأساتذة أن الأسر الشريفة المسلمة من أناطولية تحرص على بعث أبنائها إلى هذه الكلية ليدرسوا فيها ، وهم لا يأتون إليها إلا لتحصيل علوم الدين بغاية إخلاص وصدق نية ، وهم لا يحملون وأولياؤهم إلا دافعاً واحداً ، وهو أن يطلعوا على الدين ويعضوا عليه بالنواجذ .

وقال لي هؤلاء الأساتذة : إننا لا ندري إلى أي مدى ننجح في تحقيق أملهم هذا ، والتوفيق بيد الله .

التعليم الديني للجيل الجديد: بعثت زيارة كلية الإلهيات سروراً في قلبي ، والحقيقة أن هناك معهدين يعنىان بتعليم الدين ، قسم الترجمة والنشر في إدارة الأمور الشرعية ، وكلية الإلهيات ، وكلاهما يبذلان جهداً في حقل الدين للجيل التركي الجديد ، وبالرغم من أن هذه الجهود لا تعدو قطرة إزاء سيل الإلحاد والتعليم العصري ولكنها بريق أمل في الظلام ، ونعمة من الله لا تنكر ، وقد أخبروني أن المدارس الدينية الابتدائية في مختلف المدن ثماني عشرة مدرسة دينية ، وسبع منها مدارس ثانوية ، وست عشرة مدرسة لتعليم الأئمة وتخريج الخطباء ، ويرجى أن هذا العدد سيتزايد ، ولا شك أن هذه الخطوة التي خطتها الحكومة مهما كانت بواعثها وعواملها تستحق التشجيع والاستحسان ، نظراً إلى ما كانت عليه تركيا في الماضي القريب .

صلاة الجمعة في أنقرة: صلينا الجمعة في جامع بيرم ، ولم نتمكن من إحراز مكان في داخل الجامع رغم وصولنا إليه قبل البدء في الخطبة ، ولم يزل حشد المصلين يتزايد ويبدو كأنها صلاة العيد ، وكان الشيخ عمر بيلن يلقي موعظة بالتركية قبل بدء الخطبة ، وهو من وعاظ هذا الجامع وعضو البرلمان ، وقد كان الأتراك ينصتون إلى الواعظ بغاية خشوع وأدب وإجلال ، ولما انتهى الشيخ عمر من إلقاء وعظه قام الأخ العزيز مصطفى وخطب الناس خطبة بدأها بالعربية وختمها بالتركية ، غير أن الخطبة بالتركية كانت أطول من العربية ، أما قوله في الخطبة الأخيرة: «لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا» فكان بليغاً يحمل في طيه معنى غزيراً ، ويعبر عن الوضع الصحيح في تركيا .

العلماء في الملابس الإفرنجية: ولقيني الشيخ عمر بيلن بعد انتهاء صلاة الجمعة ، فكان يبدو إماماً وواعظاً في ملابس عربية وعمامة عربية ، فلما خرج من المسجد إذ هو في ملابس أفرنجية يرتدي بذلة وقبعة كأنه إنجليزي جاء من أورية .

أليس من المهازل أن يتمثل العلماء في الجامع وعلى المنبر شيوخاً ،

وفي الحياة العادية يبدو كأنهم مستشرقو ألمانية أو أساتذة كيمبردج المعمرون.

تغديت اليوم مع الشيخ عمر ، وكان من قصدي أن أزور برلمان تركية اليوم وأتفرج عليه قليلاً ، وقد احتفظ لي الشيخ عمر ببطاقتين للدخول فيه ، وأردنا أن ندخل البرلمان ونشاهد إجراءات البرلمان من رواق الزائرين غير أن حشد المشاهدين قد حال دون ذلك ، ولم نجد فيه مكاناً شاغراً ، ورجعنا .

نظرة على أنقرة: لقد كان من المقرر أن أغادر أنقرة إلى قونية في الساعة الخامسة والنصف ، ووصلت إلى محطة السيارات في الموعد ، وكان الأخ مصطفى رينون معي ليقوم بتسهيل السفر حسبما تيسر ويودعني ، وهو نفسه من قونية فأعطاني رسائل التعارف باسم أصدقائه هناك ، والمسافة بين أنقرة وقونية ٢٤٥ كيلومتراً ، والأمل قوي - بإذن الله - أن أصل إلى موطن مولانا جلال الدين الرومي حتى الساعة العاشرة ليلاً .

أما أنقرة فهي مدينة جميلة يناهز عدد سكانها نصف مليون نفس ، وكثيراً ما تشبه في العمران وسعة الأرجاء بمدينة لكهنؤ (في الهند) ، إن المباني الجديدة ذات روعة وجمال ، والدوائر الرسمية كشأنها في دولة كبيرة ، ولكن مبنى البرلمان قديم ومتواضع ، والبنية الجديدة للبرلمان لا تزال في دور التعمير والبناء ، وهي لا شك بناية فخمة على طراز جديد وتحمل من الروعة والجمال شيئاً كثيراً ، إن تاريخ هذه المدينة يرجع إلى ماضٍ سحيق ، فقد ظلت مدينة مركزية كبيرة في عهد الروم ، ولا تزال للعهد الروماني بقايا وأطلال من العمارات القديمة والكنائس ، وعندما جاء الشاعر العربي الجاهلي امرؤ القيس للاستعانة من ملك الروم توجه نحو هذه المدينة ومات على مقربة منها .

إن أنقره بالعكس من إستانبول تقع في مناطق أناطولية التي تحتل مكانة مركزية للقوة والمدينة في تركية ، وبمعزل عن مؤامرات أوربة التي تُحاك خيوطها في الظلام ، كما هي مصنونة عن تأثير إستانبول وتقاليدها ولعل ذلك هو السبب في انتقال العاصمة منها إليها .

مع الدكتور علي كمال في قونية: الثلاثاء ١٣ من ذي القعدة ١٣٧٥هـ
المصادف ٢٣ يونيو ١٩٥٦ م.

وصلت السيارة إلى قونية بعد العاشرة والنصف ليلاً ، وقد حصل لي
تعارف مع بعض الرفاق في السفر فجاؤوا بي إلى فندق يدعى بـ«شهير
بالاس» وأنزلوني فيه ، والفندق نظيف ورخيص أيضاً ، وقد قال لي شاب
منهم: إن والذي سيتصل بكم صباحاً ويرافقكم في زيارة الآثار التاريخية
والشخصيات البارزة هنا .

وصل الحاج أحمد برنع والد الشاب في الصباح الباكر حسب
ما وعدني ، وهو يقدر على التكلم بعربية ضعيفة متكسرة . فزرت معه
أولاً الدكتور علي كمال وكانت معي رسالة باسمه من صديقه مصطفى رضا
حملتها من أنقرة ، فرحب بي بحرارة وحماس ، ولما رأى كلمة «الندوي»
في الرسالة سألني عن صلتني بالعلامة السيد سليمان الندوي ، فقلت له
إنه أستاذي ، وسألته: كيف عرفتموه أنتم؟ فقال عن طريق كتابه «عصر
سعادت» ثم طلب مني أن أتعشى معه ، واعتذرت إليه ولكنه ألح وأبى إلا
أن أتعشى معه اليوم ، ونظراً إلى كرم خلقه قبلت طلبه .

إلى جامع السلطان سليم ومكتبته: واستأذنت الدكتور علي كمال
وتوجهت إلى جامع السلطان سليم مع الحاج أحمد ، والجامع من عمل
معمار تركية المعروف بسنان ، ومبنى الجامع في غاية من الجمال والروعة
لا تفارقهما السداجة ، أما محراب الجامع فجميل ومبني من الحجارة
الشمينة ، التي تحمل زخرفة جيدة .

وتتصل بالجامع مكتبة منظمة تحوي عدداً كبيراً من الكتب ، ومعظمه
من كتب العصر الحديث ، وظهر لي من القائمة أن مقداراً كبيراً من ذخائر
الفكر الإسلامي والعلوم الحديثة كان قد انتقل إلى التركية ، وقد ساءني
وآلمني أن هذه الذخيرة الكبرى ستذهب سدى من جراء تغيير الحروف
التركية وخطها ، ولا شك أن بلاداً تقع فريسة هذه البدعة يتعطل تراثها
العلمي القديم وذخائر الفكر التي جمعت في قرون وأجيال للجيل الجديد .

وقد دام أثر هذه الكآبة والنغص على قلبي لمدة من الزمان ، وهنا اطلعت على مجموعة شعر للشاعر التركي الكبير محمد عاكف باسم «صفحات» وهي تتضمن أجزاء عدة ، ويضارع الشاعر محمد عاكف في تركية بالشاعر محمد إقبال في الهند وباكستان ، ويدانيه في التفكير والأسلوب .

إلى قبر جلال الدين الرومي : توجهت من هنا إلى قبر مولانا جلال الدين الرومي ، ولما وصلت إلى باب المقبرة صادفت عليه لوحة تشير إلى أن عمارة المقبرة والجامع تحولت إلى متحف ، وذلك لأن الكماليين لا يقيمون اعتباراً لمثل هذه الأشياء ، ودخلت الباب فإذا بكل ما كتب وألف عن الرومي باللغات التركية والفارسية والإنجليزية والفرنسية وجدته مزيناً كأثر تاريخي ، ولكن مع الأسف ما وجدت في كل ذلك ما يمثل الهند إلا كتاباً صغيراً نشر حول حياة الرومي عن مكتبة «فيروز سنس» بـلاهور ، على أن للهند أكبر نصيب في هذا المجال قد لا يكون لأي بلد إسلامي آخر ، غير أنني ما رأيت في هذا المتحف شرح المثنوي لمولانا بحر العلوم ولا للشيخ التهانوي ، ولا كتاب «حياة مولانا روم» للعلامة شبلي النعماني ولا «مرآة المثنوي» للقاضي تلمذ حسين .

وتقدمت إلى الإمام فسعدت بزيارة إمام العارفين مولانا جلال الدين الرومي الذي قال عنه الشاعر محمد إقبال ما معناه :

«إن العارف الرومي والإمام الروحي ذا القلب الكبير والفكر المستنير أمير قافلة الحب والشوق والإيمان والحنان» .

وجلست عنده برهة أستعيد ذكريات التاريخ الماضي وأتذكر تقلبات الزمان ، فتارة كنت أقرأ أبياته ، وأحياناً أنظر ما حوله فأجد كل شيء قد تغير ، أما مديرية الآثار التاريخية القديمة فقد جمعت حوله ركاباً من التحائف والعجائب والآثار ، يستلفت نظر كل زائر إليه ، ولكنني لم أجد ميلاً إلى أي شيء مثل ما وجدته نحو كومة هذا التراب ، التي تكمن في طيها

كنزاً ثميناً من العلم والحكمة والشوق والحب ، لقد كنت أكرر نظري إليها وأقرأ هذا البيت الذي معناه :

«ما أنجبت أرض العجم رومياً جديداً بعده مع أنها لا تزال على ما كانت عليه أولاً» .

وقد زرت بجوار قبره والده سلطان بهاء الدين ولد ، وولده الكبير سلطان ولد ، وبعض أولاده وأحفاده وخلفائه ، ويتصل بها الجامع والزاوية ، ولكن الآن قد تحول كل شيء إلى متحف لا يسمح فيه بالصلاة .

تذكار للعهد القديم: ولما خرجت من المتحف أشار دليلي ورفيقي في هذه الجولة إلى حجرة ، وقال: يسكن فيها أحد المعمرين من خدم هذه الزاوية اسمه محمد ودا فلنزره بهذه المناسبة ، ودخلت الحجرة فإذا بشيخ يشتعل شيباً كان يتغدى جالساً ، وأمامه خادم لابساً قبعة كان يطعمه ، فلما رأني وعلم أنني من الهند اغرورقت عيناه بالدموع ، وأنشد بيتاً كان يكرره ، معناه :

«أريد كبداً مقروحة مقطعة من ألم الفراق ، لكي أشرح ألم الحب والشوق» .

وكان البيت يمثل الحال الحاضرة فتأثرت به ، ولا أدري كيف رضيت مديرية الآثار القديمة بإقامة هذا الشيخ في حدود المتحف ، ولعلها رآته أيضاً أثراً تاريخياً من بين الآثار الأخرى .

إلى دائرة الآثار القديمة: وأتيت إلى دائرة الآثار القديمة ، فوجدت شاباً تركياً يعلوه سيما الوقار ، والأب يشتغل بالعمل فيها ، فلما علم أنني من الهند قال لي: هل يوجد في الهند شاعر يقلد أسلوب الرومي ويتبعه في الشعر ، فقلت: ربما لا يوجد في الوقت الحاضر أحد. ثم سألني عن عالم يمكن معه المراسلة حول جلال الدين الرومي ، فسجلت له عنوان الأستاذ عبد الماجد الدرايبادي ، ثم استلقت نظره إلى أن مكتبة المتحف تنقصها آثار المثنوي وما كتب حوله ، وقلت له إن كتاب «مرآة المثنوي» ليتفرد

بأسلوبه بين جميع ما كتب حول المثنوي ، فلا بد من أن يوجد في هذه المكتبة ، فسجل اسمه وقال إنني أحاول إحضاره عن طريق السفارة التركية .

آثار العهد السلجوقي : وخرجت من الدائرة فزرت آثاراً عدة للعهد السلجوقي ، والسلاجقة هم سلف العثمانيين الذين حكموا هذه الرقعة بشوكة بالغة ، وكان الرومي قد جاء في عهدهم ، أما هذه الآثار فشاهدة على عظمتهم ومدنية عصرهم ، ويوجد من بين عمارات هذا العهد التي تحولت الآن إلى متحف ، دار حديث ، ودار تفسير ، ودار فقه ، وكلها مدرسة مستقلة قامت بتدريس المادة المختصة بها ، شأن الكليات في هذا العصر وكأنها تقول بلسان حالها :

«في كل زخرفة من زخارف الجدران البالية آثار ظاهرة لصناديد العجم» .

وزرت خلال ذلك جامع السلطان علاء الدين السلجوقي الذي لا يزال جامع البلد ، هو شامخ البنيان ، واسع الأرجاء ، محاربه في غاية من الجمال ، والحجارة التي استعملت في البناء جيدة ، وزخرفته بديعة تبعث على الاستغراب ، ويختلف طراز عمارته عن طراز عمارة العهد العثماني ، إن هذا الجامع جميل جداً لا يكاد يملأ منه الناظر عينه .

الشيخ صدرالدين القونوي : ولما فرغت من زيارة الجامع أتيت إلى قبر الشيخ صدر الدين القونوي ، وهو من أشهر خلفاء الشيخ الأكبر وحامل نسبه ، وصليت الظهر في جامعهم ، وأعجبني قول المؤذن خلال التسبيحات «على نعمة الإسلام دائماً الحمد لله» وأرجو الله أن يوفق الأتراك للحمد على نعمة الإسلام على الدوام ، الإسلام الذي أكرمهم في الدين والدنيا وأخرجهم من ظلمات أواسط آسيا إلى منصب الإمامة ، وما أحسن قول الشاعر الذي معناه :

«إن خسرو لم يرتفع إلى المنزلة العليا إلا بدخوله في حماك رقيقاً ، فإن العبد الذي يشتريه الملك يعتبر أمير الولاية» .

جامع قرادايء: زرت جامع قرادايء ومررت على قبور وزراء هذه الأسرة أقرأ عليهم الفاتحة ، وأتذكر تقلبات الزمان التي لم تبق على ملك الملوك ووزارة الوزراء ، وأنشدت قول الشاعر محمد إقبال الذي معناه:

«كيف امحت آثار العظماء والكبراء؟ وكم من أمة أتى عليها الدهر.

حينما انتهيت من الزيارات والمشاهدات أتيت إلى مطعم حيث تكرم رفيقي في الجولة بإطعام طعام محليّ خالص ، ويبدو أن استعمال اللبن محل الماء عام هنا كما في البنجاب ، وهم يسمون اللبن «آيرن».

مدينة قونية: وخرجت أنا ورفيقي بعد صلاة العصر للتفرج على البلد ، والبلد يهيج للغاية ، يمتاز في تركية كلها في التدين والإسلامية ، أما أهله فمتدينون ، يحملون من دماء الخلق وكرم النفس والحمية الدينية مقداراً كبيراً ، ولقد شعرت في هذا البلد بنوع من الهدوء والطمأنينة والميل إليه ، ولم ينشرح قلبي في أي مكان مثلما انشرح في هذه المدينة ، يناهز عدد سكانها مئة ألف ، والمدينة جميلة وأنيقة وهادئة.

وعرّجت على دكان شيخ متدين في السوق ، فعرض علي نسخة من المثنوي فيه شرح الأبيات باللغة التركية ، فتمتعت بأبيات من شعر المثنوي وبينما كنت أقرأ الأبيات إذ وقع بصري على بيت كان يناسب الحال ، ولعل الناس يتفاءلون بمثل هذا الأسلوب من ديوان الحافظ وأمثاله.

في منزل الدكتور علي كمال: وخرجت من عند الشيخ فأتيت إلى جامع صليت فيه المغرب ، وقد صادفني الدكتور علي كمال بعد الصلاة ، وسألني أن أذهب معه إلى منزله حيث اجتمعت بوالده وبعض الإخوان ، أما علي كمال فإنه يمثل الأدب الجميل والخلق الكريم ، وهو شاب صالح دمّ الخلق ، بسام الوجه ، حلو اللسان متواضع للغاية ، وأسرته كلها جد متدينة صالحة ، وقد شعرت في نفسي بانسجام معه وانبسط عنده قلبي ، وقد صلى بنا العشاء في جامعهم ، ثم استأذنته ورجعت إلى مقري ولا أنسى بهذه المناسبة ما تجشمه الحاج أحمد برلغ دليلي في هذه الجولة ، فإنه قضى معي النهار كله في الزيارات والتجوال.

مغادرة قونية: الأربعاء ١٤ من ذي القعدة ١٣٧٥ هـ المصادف ٢٤ يونيو ١٩٥٦ م أغادر اليوم هذه المدينة الحبيبة ، وكأني أغادر اليوم تركيا الحبيبة ، ولكن لا أجد نفسي راضية بمغادرة هذا البلد الذي يتفرد بهدوئه ومناخه ، وجوّه وسكانه ، وبهجته من كل ناحية ، ولولا وصولي إلى دمشق للحضور في المؤتمر الإسلامي الذي سينعقد من ٢٦ يونيو لأطلت إقامتي في قونية واستمتعت منها أكثر من هذا .

مناظر الطريق: ركبت في القطار في الساعة التاسعة والنصف صباحاً ، وبقي السفر غير ممتع والمنطقة التي كنت أمر عليها جافة غير خصبة ، ولكن ذلك لم يدم إلا عدة ساعات ثم ابتدأت مناظر جميلة ومر القطار بواجهة جبال شامخة لا تزال قممها متغطية بالثلج إلى الآن وهي سلسلة من جبال طوروس ، وقد مررت عليها عند قدومي إلى إستانبول ، ولكن كان ذلك في الليل فلم أقدر على مشاهدتها ، ويبدو لي أن هذه المناظر جد جميلة ، فالجبال الخضراء ذات القمم العالية تقع في جانبي الطريق ، والأودية التي خلعت عليها يد الصانع ملابس خضراء والعيون الجبلية المتفجرة في مكان دون مكان تسر الناظرين .

المنطقة الفقيرة: كلما يقف القطار على المحطات يهرع إليها أولاد القرى المجاورة بالخيار ويبيعونه حتى إذا لم يتيسر لهم شيء آخر جاؤوا بالماء ، والفقير عام مع الأسف في كل مكان سوى المدن الكبرى ، على أن الوضع الاقتصادي في تركيا غير جيد ، أما القرى فقد وجدتها فقيرة في كل بلد إسلامي ، إن هؤلاء الأولاد وإن كانوا فقراء ولكنهم نظيفون ومتأدبون بالعكس من أولاد القرى في الهند .

ولا يزال القطار يمر بسرعة من خلال الأنفاق الطويلة ، وإنني إذ أكتب هذه السطور يجري القطار في نفق منذ زمن ، ولكن المناظر الجميلة تتغلب وتقول بلسان الحال: إن الكتابة في مثل هذا الوقت والانكفاف عن ملء العيون ببهجتي تدل على بلادة الذوق والحس فدع القلم وأقبل عليّ ، وسيصل القطار إلى أطنة بعد ساعة أو يزيد ، حيث تنتهي رحلة القطار ، ويواصل السفر بالسيارة إلى إسكندرونة ومنها إلى حلب .

أطنه: وصلت إلى أطنه والشمس مائلة للغروب ، فصليت المغرب ، ولقيني بعد برهة وانتظار قليل صديق الأخ زين العابدين الذي كان قد دلني عليه ، وكتب لي اسمه ، فأخبرني أنه لا توجد الآن سيارة تسافر نحو إسكندرونة ، فلا بد من المبيت هنا ومواصلة السفر إلى إسكندرونة صباحاً ، ويبدو أن أطنه بلد واسع كبير يتجاوز سكانه مئة ألف نسمة وهو مركز صناعي كبير في تركية ، ويعد مطار البلد أهم مطار في الشرق الأوسط من الناحية العسكرية .

من إسكندرونة إلى حلب: بت الليلة في فندق أنقرة بالاس ، وغادرت أطنه نحو إسكندرونة في الصباح ، واستغرقت المسافة إلى إسكندرونة ساعتين وربعاً ، ثم واصلت السفر بعد قليل إلى حلب بالسيارة والمسافة بينهما ٢٣٥ كيلومتراً ولكنها تستغرق وقتاً طويلاً لأجل الثغور والمراكز الجمركية في الطريق ، ويتمكن المسافر في إسكندرونة من التمتع بمناظر البحر والجبال الخضراء ، واستمتعت في الطريق بمناظر الطبيعة الجميلة وبدا لي كأنني في «منصوري» و«نيني تال» فقد مررت بطرق في الجبال والمنعرجات والخصوبة والمناظر الخضراء التي بعثت السرور والبهجة في النفس ، وكان الهواء عليلاً لطيفاً ، وبينما أنا كذلك إذ واجهتني المنطقة الصحراوية التي تمتد إلى سورية ، وقد كانت السيارة عبر الحدود التركية في نحو الساعة الثانية عشرة ودخلت في حدود سورية .

ولله الأمر من قبل ومن بعد!

العودة من تركية والمشاركة في المؤتمر الإسلامي بدمشق:

وعُقِدَ المؤتمر الإسلامي بدمشق فور عودتنا من تركية ، الذي كان الباعث والداعي الأول إليه صديقنا العزيز والأخ الحبيب الدكتور سعيد رمضان ، وكان من المنظمين والمؤيدين له الدكتور محمد معروف الدواليبي ، وكان بداية هذا المؤتمر في ٢٦ / يونيو ١٩٥٦ م ، وكنت وصلت إلى دمشق في منتصف ليلة ٢٥ ، وكانت الجلسة الأولى منه في الصباح ، وقد حضر لمشاركة هذا المؤتمر كبار رجال الفكر من عدد من البلدان العربية ، وكان

قد حضر العلامة المفتي محمد شفيح الديوبندي^(١) ، والأستاذ أبو الأعلى المودودي ، والأستاذ ظفر أحمد الأنصاري من باكستان. ووقع الاختيار في الجلسة الأولى على الدكتور محمد ناصر - رئيس وزراء أندونيسيا سابقاً - كرئيس ، والأستاذ أبي الأعلى المودودي وعلي كنائين للرئيس .

وكنت قد وعدت من قبل بإلقاء كلمة مكتوبة في هذا المؤتمر ، ولكني لم أجد الفرصة لإعداد الكلمة ، فأعددت هذه الكلمة ، بعد قيامي من النوم في الصباح كان عنوانها: «ارتباط قضية فلسطين بالوعي الإسلامي»^(٢) وقد ذكرت في هذه الكلمة ، أن الآمال التي علّقها بصدد قضية فلسطين المهتمون بها وقادتها وزعماءها بالعالم الإسلامي من التناصر والتعاقد والاهتمام والحماس التي هي أمضى سلاح في هذه القضية ، وأكبر قوة مؤثرة على الرأي العام العالمي إنها تعتمد - كلياً - على عواطف المسلمين الإيمانية ووعيهم لقضايا الأمة. ولعل المحامين عن هذه القضية والممثلين عنها لا يعرفون مدى الانحطاط والتردي الذي أصيبت به الأمة الإسلامية في هذا الجانب ، وإلى أي حد بردت هذه العاطفة وخدمت هذه الجذوة الإيمانية وضعف هذا الوعي الديني ، فليهتمّ قادتنا وساستنا والمهتمّون بهذه القضية وحماتها بهذا الجانب المعنويّ الحساس ، لأنه هو الحل الأساسي لكل مشكلة والمفتاح الوحيد لكل قفل ، إنهم في حاجة أكيدة إلى جهود جديدة مضاعفة للنهضة الإسلامية في العالم الإسلامي ، ثم شرحت باختصار منهج العمل والأسباب الحقيقية للانحطاط .

(١) كان من كبار علماء الهند ، ولد ونشأ في «ديوبند» وتلقى العلوم الابتدائية على علماء وشيوخ بلده ، ثم التحق بدار العلوم ديوبند الإسلامية وتخرج منها على كبار أساتذتها ، وعيّن فيها مدرساً بعد تخرّجه ، كانت له ملكة راسخة في علوم القرآن ، وبراعة تامة في الفقه ، بعد استقلال الهند من الإنكليز كدولتين (الهند وباكستان) هاجر إلى باكستان وأقام فيها ، وعيّن مفتياً عاماً لباكستان ، وله تفسير قيم للقرآن الكريم بالأردوية ، توفي بكراتشي .

(٢) انظر هذه الكلمة في كتاب سماحة الشيخ الندوي «إلى الإسلام من جديد» طبع المجمع الإسلامي العلمي بلكهنؤ (الهند).

كتبت هذا المقال على عجل ، وعفو الساعة ، وفيض خاطر ، وقدمه سكرتير المؤتمر للطباعة على الاستنسل ، وتمكنت من إلقائه في الجلسة الأولى أو الثانية من المؤتمر ، وقد كان المؤتمر ناجحاً من حيث إنه اجتمع عدد من قادة المسلمين الإسلاميين الممثلين للبلدان المختلفة في هذه المدينة التاريخية وتقابلوا وتلاقوا .

وقد وفرت الحكومة الشامية بدورها جميع التسهيلات - بتأثير الدكتور محمد معروف الدواليبي - لهؤلاء الضيوف ، وأقيمت أخيراً بتاريخ ٢٨/ يونيو حفلات استقبال وضيافة من قبل الدكتور ناظم القدسي رئيس البرلمان والذي تسلم رئاسة الوزارة أيضاً عدة مرات ، ثم من قبل فخامة السيد شكري القوتلي رئيس الجمهورية لضيوف المؤتمر ، ونُظِّم قطار خاص لزيارة الضيوف للقري الأمامية ولمخيمات اللاجئين الفلسطينيين ، لم أستطع أن أشاركها لموعد خطاب أمام مُدْرَسي مادة الدين بالجامعة .

الأيام الأخيرة من الإقامة بدمشق ومغادرتها :

لقد كانت الإقامة بدمشق لثلاثة أشهر من أحلى أيام العمر وأطيب ساعاته ، لم تَصْفُ لي ولم يتم السرور والأنس - غير الحرمين الشريفين - في أي مكان آخر ، فقد كان مزيجاً من تفتح القلب وانسراح الصدر والصحة البدنية وجمال الطقس ولطفه ، وحب الأصدقاء وحفاوتهم البالغة ، وجمال البلاد الطبيعي ، والروحانية الخاصة - التي لعلها كانت لأجل أنها مرقد الصحابة الكرام رضي الله عنهم ، والأولياء الكبار والصالحين ومركز الفتوح الإسلامية - كان المزيج من كل ذلك أنشأ جواً عجباً من السرور واللذة والمتعة ، وقد كان ذلك العهد عهد الهدوء والسكينة والرخاء ، وعهد «الإسلامية» لأهل دمشق ولأهل الشام كلهم أيضاً .

ثم بدأت هناك دوامة الثورات والانقلابات ، فلم يقر لها بعد ذلك قرار ولا استحکم لها بنیان ، وقد وقع بعد ذلك ما يعرفه الجميع من محنة الإسلام فيها ، ولعل الله يحدث بعد ذلك أمراً .

وقد كان من فوائد الإقامة بدمشق أن قبل المجمع العلمي^(١) نشر كتاب الوالد القيّم - رحمه الله - وهو كتاب أسماه «عوارف المعارف في أنواع العلوم والمعارف» نشره المجمع عام ١٩٥٨م باسم «الثقافة الإسلامية في الهند»، وهذا الكتاب دليل لمؤلفات علماء الهند الإسلامية ، ومذكرة شاملة لمساهماتهم في العلوم الإسلامية وإنتاجهم الرائع في مجالها في شبه القارة الهندية .

وقد تكررت زياراتي للمجمع العلمي بدمشق الذي كنت أسمع باسمه من أيام الطفولة ، والذي كانت العضوية فيه تكريماً كبيراً لأي عالم أو محقق وباحث ، وقد كان من أعضائه فاضلان معروفان من فضلاء الهند ، أحدهما العلامة عبد العزيز الميمني^(٢) ، والثاني مسيح الملك حكيم أجمل خان^(٣) ، وقد تعرف رئيس المجمع خليل مردم

(١) وهو يسمّى اليوم بـ«مجمع اللغة العربية بدمشق»

(٢) هو أديب ، باحث محقق ، لغوي ، خبير بالمخطوطات ونوادر الكتب ، تعمق في علوم اللغة والأدب ، وحفظ من الشعر العربي القديم ما يزيد على سبعين ألف بيت! كان رئيس قسم اللغة العربية بجامعة عليكره الإسلامية (الهند).

تمّ انتخابه عضواً مراسلاً في مجمع اللغة العربية بدمشق في سنة ١٩٢٨ ، وكان آنذاك في الأربعين من عمره ، وظلّ عضواً له خمسين عاماً ، ثم أصبح عضواً مراسلاً في مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، وحصل على وسام الاستحقاق السوري من الدرجة الأولى سنة ١٣٩٧هـ تقديراً لجهوده في تحقيق التراث الإسلامي ونشر العربية وآدابها ، توفي بكراتشي (باكستان) سنة ١٩٧٨م .
وله مؤلفات قيمة وتحقيقات رائعة في اللغة العربية .

(٣) انظر ترجمته بكاملها في كتاب المحقق «الإعلام بمن في الهند من الأعلام في القرن العشرين» .
أحد الأذكى الماهرين في الصناعة الطبية ، وله شهرة عظيمة في الهند ، لقبته الدولة البريطانية بحاذق الملك سنة ١٣٢٥هـ اعترافاً بخدماته الطبية وعلو المنزلة في أهل الهند ، ولما نشبت الحرب العالمية الأولى وظهرت معاداة الحلفاء للدولة العثمانية وتأمرها على مملكتها وبلادها وكان للدولة البريطانية النصيب الأوفر في هذه المعادة ، هاج المسلمون في الهند وأبدوا سخطهم واستنكارهم ، وكان الشيخ أجمل المترجم له من زعماء هؤلاء المسلمين ، فرد الوسامات التي نالها من الدولة البريطانية علامة للاستنكار ومجازاة لأهل ملته ، سافر إلى أوربة وزار عواصمها الكبيرة ، وزار سورية وفلسطين =

بك^(١) عليّ وأنس بي ، واختارني المَجْمَع بعد عودتي إلى الهند عضواً له ، وجاءتني من رئيس الجمهورية شهادة ذلك .

إبداء رأي في أتاتورك :

بدأت أصارح في الهند - بعد عودتي إليها من هذه الرحلة - بأرائي وانطباعاتي في أحاديثي وخطاباتي عن أتاتورك ، وبدأت أعلن موقف الإسلاميين منه في تركية بصفة عامة ، وما أصاب الإسلام والمسلمين بـ «إصلاحاته» المزعومة من خسارة عظيمة في تركية ، وما تحقق بها من الانتحار المعنوي ، والعلمي ، والروحي ، حتى والخط الذي كان تغييره وحده ثورة عظيمة وتغييراً جذرياً كبيراً ، وقد ذكره المؤرخ الفيلسوف توينبي^(٢) فقال: «لا حاجة الآن بعد ذلك إلى إحراق مكتبة عظيمة - الذي يجلب سوء الأحداث - فإن تغيير الخط لشعب من الشعوب يتكفل الإبادة المعنوية ، وقطع صلة الشعب والبلاد عن ماضيها وثقافتها» .

وقد كان هذا النقد الصريح مني ثقيلاً جداً على تلك الأوساط التي كانت تعتبر كمال أتاتورك منقذ تركية ، وتضعه في المنصب الأعلى للعظمة الإنسانية والخدمة الإسلامية ، فقد أبدت هي عواطف الغضب والكراهية لمثل هذا الانتقاد الصريح .

= ومصر ، واحتفت به هناك الأوساط الإسلامية ، كانت له مشاركة جيدة في العلوم الأدبية ، واختير عضواً في مجمع اللغة العربية بدمشق ، توفي بدهلي سنة ١٣٤٦هـ .

(١) هو الأديب المحقق الناقد الأستاذ خليل مردم بك ، صاحب بحوث وتحقيقات أدبية ، نقدية ، شعرية ، تعرف عليه سماحة الشيخ الندوي خلال هذه الزيارة ، ونشر كتاب والده العلامة عبد الحي الحسني «الثقافية الإسلامية في الهند» سنة ١٩٥٧م من مجمع اللغة العربية بدمشق حين كان له رئيساً ، توفي بدمشق سنة ١٣٧٩هـ .

(٢) Toyanbee .

في بغداد:

سافرتُ في يوم من أيام يوليو من دمشق ، واخترت من دمشق طريق بغداد وكراتشي ، إذ أنني لم أكن قد زرت بغداد من قبل ، وأن أول اسم لمكان - بعد مكة المكرمة والمدينة المنورة ، شرفهما الله تعالى - قرع أذني أيام صباي الأولى كان اسم بغداد ، فقد كنا نقرأ «القاعدة البغدادية»^(١) ، وهو كتاب صغير للتعريف بالحروف الهجائية والتمرين على استعمالها ، وكنا نسمع بيتاً من شعر «حالي»^(٢) يقول فيه :

(تلك البلدة التي كانت مفخرة البلاد التي كانت تحكم البر والبحر ، وأولئك الأبطال الذين ارتجت بهم البلاد ، وسمعت أصداؤهم في الدول والحكومات ، ينامون النومة الأخيرة في مقابر بغداد).

(١) سبب تسمية الكتاب بـ «القاعدة البغدادية» قصة رُويت في مفتح الكتاب ، وهي أن الخليفة هارون الرشيد جرب عدة معلمين لتعليم ابنه الأمين والمأمون ، فلم ينجحوا في تعليمهما ، فرشح أحد المعلمين في بغداد نفسه ، لتعليم ابني الخليفة ، وتطوع لهذه المهمة الخطيرة ، فابتكر لهما طريقة جديدة في تعليم حروف الهجاء والكلمات والجمل المركبة منها ، فنجح نجاحاً باهراً في مدة قصيرة ، فأجزل له الخليفة الصلات ، وخلع عليه ، ومن هنا سمي الكتاب «القاعدة البغدادية» وكان يعتمد عليها في التعليم الابتدائي ، في الكتابات المنتشرة في شبه القارة الهندية .

(٢) أحد الأفاضل المشهورين ، والشعراء البارعين في الهند ، وله مصنفات جليلة ، من أشهرها «المد والجزر في الإسلام» (المعروف بمسدس حالي) منظومة تلقاها الناس بالقبول ، وأولعوا بها ولعاً عظيماً ، وهي ملحمة إسلامية ذكر فيها ظهور الإسلام وما له من فضل على الإنسانية ، وذكر البعثة المحمدية والشخصية النبوية في أسلوب معجب مطرب ، وذكر الصحابة والعرب وما لهم من فضل في إحياء العلوم والحضارة ، ومآثر السلف وعلو همتهم ، ثم ذكر ما نكب به المسلمون في الدور الأخير من انحطاط في الأخلاق وانصراف عن معالي الأمور وسقوط في الهمة ، وصور المجتمع الإسلامي المعاصر تصويراً رقيقاً صادقاً. وله أبيات رائعة ورائعة ودقيقة بالعربية والأردوية والفارسية ، توفي في مسقط رأسه «باني بت» سنة ١٣٣٣هـ.

انظر ترجمته بكاملها في كتاب المحقق «الإعلام بمن في الهند من الإعلام في القرن العشرين» .

أقمت في بغداد يومين أو ثلاثة أيام لا تساوي شيئاً لزيارة الآثار والأماكن التاريخية في مثل هذه المدينة العظيمة العامرة الواسعة ، ولكن اغتبننا هذه الفرصة لحكمة «ما لا يدرك كله لا يترك جله».

* * *

رحلة إلى بورما

عام ١٩٦٠ م

كانت دار العلوم التابعة لندوة العلماء التي كنت مسؤولاً عنها أيضاً كنائب الأمين العام ولصليتي الأسرية الشخصية بها تعاني ضائقة وعجزاً مالياً ، فقد أصبحت وسائل المسلمين وقدرتهم على المساعدة والإنفاق محدودة ضعيفة بعد حادث التقسيم ، وكانت بورما هي الوحيدة في البلدان المجاورة التي كان فيها كثير من التجار المسلمين ، لا سيما من منطقة كجرات وسورت وما يجاورها من المدن والقرى - الذين سكنوا فيها ومضت منهم أجيال ، وكانوا ناجحين رابحين في تجارتهم ، وقد كانوا يساعدون من هناك كثيراً من المؤسسات بعزيمة وهمة - .

وكان من حسن الحظ أن وجّه إليّ أحد فضلاء ديوبند المقرء عبد الرحمن القاسمي للمعرفة والصلات الشخصية ، دعوة إلى زيارة رنجون^(١) ، حتى ينشأ في أوساطها الدينية والعلمية شيء من الحركة واليقظة ، وتوجه مع ذلك عنايتهم إلى دار العلوم التي كان يجهلها أكثرهم ، وتقرر - بعد استشارة المهتمين بدار العلوم ، وبإذن أخي الأكبر وإرشاده - الذي كان إذ ذاك مصاباً بضغط الدم - سفري إليها ، وكان معي الشيخ محمد معين الندوي ، ووصلنا رنجون في ١٨/ ديسمبر عام ١٩٦٠ م ، وقد نشر في الصحف أنه لم يستقبل في بورما - بعد حررتها واستقلالها - أي عالم ديني مثل هذا الاستقبال الرائع .

(١) عاصمة بورما .

وانتشر خبر وصولنا في الأوساط الدينية برنجون بعناية الشيخ المقرئ عبد الرحمن القاسمي ، والشيخ إبراهيم أحمد المظاهري^(١) ، والمفتي داود محمود وجهودهم ، وقد أقيمت أياماً ببيت الحاج عبد الحميد السورتي ، ثم نزلت بإلحاح الأصدقاء ورأيهم بمنزل الحاج أحمد علي الموكاتي ، الذي كان يملك مصنعاً كبيراً للنابلون ، وكان من كبار تجار المدينة .

مكثت في رنجون أكثر من شهر ، ألقى فيه عشرات من الخطب ، ووجهت المسلمين - بصفة خاصة - إلى العناية بتعريف المواطنين من غير المسلمين بالإسلام ، وتقريبهم إلى المسلمين ، وقلت بصراحة : (إنه إذا لم يتحقق هذا العمل هنا ، فلا حفاظ للمسلمين ، ولا ضمان لتجارتهم ورخائهم وعيشتهم الهيئية ، وقد كان الخطاب الأول في مسجد سورتي المعروف برنجون الذي بينتُ فيه حقيقة الحضارة الإبراهيمية المحمدية - على صاحبها الصلاة والسلام - بعد التنبيه إلى صلة هذه الأمة القوية المحكمة بالملّة الإبراهيمية والرسالة المحمدية ، وشرحت أنه لا تعارض بين حب الوطن وبين الانتماء إلى الحضارة المحمدية ، وليست الملّة الإبراهيمية وقفاً لأحد أو محتكراً له ، إنها يمكن أن تمثل في ظل أي بلد وأي لغة ، وإن اللغات كلها - سوى العربية - سواء ، لذلك فإن من الضروري أن يهتمّ المسلمون في بورما باللغة البورمية ويرعوا فيها ، ويقوموا بتعريف الإسلام عن طريقها ، ووضحت تلك المعالم والحدود التي لا بد من مراعاتها وعدم تجاوزها والعمل داخلها بكل حرية وانطلاق .

* * *

(١) لقد كانت شخصية الشيخ إبراهيم الظاهري (مدير تحرير «دور جديد») شخصية ممتازة حبيبة ، جامعة للفضائل ، وقصة حياته تحمل دروساً وعبراً ، توفي رحمه الله في ٧/ مارس عام ١٩٦٤ م ، وقد كتب سماحة الشيخ الندوي مقالاً حوله بعنوان : «رجل فقدناه» لمجلة «حضارة الإسلام» التي كان يُصدرها الدكتور مصطفى السباعي بدمشق .

رحلة إلى الكويت

عام ١٩٦٢ م

لقد أُلقيت المسؤولية الكبيرة بعد وفاة الأخ الأكبر - الذي كان رئيس ندوة العلماء - عليّ ، فقد تمّ اختياري في الجلسة الاستشارية بـ ١٨ / يونيو ١٩٦١ م كرئيس أو أمين عام ندوة العلماء ، وتضاعفت بذلك مسؤوليتي ، وكانت دار العلوم لا تزال تعاني الأزمة المالية ، ولم يعد لرحلة بورما - لعدم الحصول على المبالغ المطلوبة - كبير فائدة ، وكان الدكتور عبد اللطيف من أصحاب الخير في الكويت ، فوجه الدعوة لزيارة هذه الدولة الغنية المصدرة للبتروال والتي كان من السهل للغتها العربية تعريف الندوة بها وتأثيرها فيها ، وكان الدكتور عبد اللطيف - الذي كانت جنسيته باكستانية ، وكان لا يقدر على اللغة العربية القدرة المطلوبة - يعتمد في هذا الصدد على أحد تجار الكويت ، المخلص المتدين ومن أصحاب الخير والنفوذ ، وهو فضيلة الشيخ عبد الرزاق الصالح ، الذي كان قد تعرف بي من قبل عن طريق مؤلفاتي ، وكان يحب زيارتي ، وواعد نفسه بأنه إذا جاء وفد الندوة سوف يحاول في حلقة نفوذه لمساعدة ندوة العلماء والتبرع لها ، وسوف تكون هذه الجولة والزيارة ناجحة ، إن شاء الله ، فاشترطت أنني سوف لا أتردد على الناس ، وأنهم هم سيتكفلون بالحديث في هذا الموضوع والمحاولة له ، وأن زيارتي تكون دعوية دينية فحسب ، وقبل المضيفون الكرماء جميع الشروط ، وسافرت ومعني الشيخ محمد معين الندوي ، والعزيز محمد الرابع الحسيني الندوي بالطائرة من بومبائي بتاريخ ٢٤ / يناير ١٩٦٢ م ، وقد كان مضيفنا على مطار الكويت في استقبالنا ، وزاد في هذين المضيفين

الكريمين شخص كريم ثالث ، وهو العالم النجدي الفاضل الشيخ عبد الرحمن الدوسري المقيم بالكويت حينذاك ، وقد كان الشيخ داعية متحمساً وصاحب غيرة وحمية وعالماً جليلاً .

ولم يدخر الدكتور والشيخ عبد الرزاق الصالح وسعاً في المساعدة والتعاون ، وقد تأثرنا بتدين الشيخ عبد الرزاق الصالح ورسوخه فيه ، وتعاونه على البرّ والتقوى ، وإخلاصه وربانيته ، فلم يضطرنّا إلى الخروج إلى أي شخص وجعل الزيارة ناجحة جداً بالنظر إلى مساعدة ندوة العلماء ، وقد قضينا العشرة الأولى من رمضان بها ، واتصلنا بالشخصيات الموقرة من أوساطها الدينية والعلمية ، وألقيت عدة خطب للجمعة وخطابات عامة ، كنت أخطب بعد الجمعة في مسجد كبير ، وكان أسلوب الخطاب ، وموضوعه أنه لو شاهد الكفار والمشركون من قريش حال المسلمين اليوم لتظاهروا واحتجوا ضدهم ، وقالوا: ما كنا نتصور أن المسلمين سيصبحون طلاب الدنيا والمال والجاه ، وما كانت الحرب بيننا وبينهم إلا لأجل دعوة خاصة وعقيدة التوحيد وسيرة جديدة ومنهج جديد ، فلو كان المسلمون يريدون الدنيا ، فكنا قد عرضناها عليهم من قبل فرفضوها ، كنت أقول ذلك وإذا بهتاف عالٍ من إحدى نواحي المسجد ، فرأيت أن الناس يحملون شخصاً قد أُغْمِيَ عليه من شدة التأثير .

وألقيت في هذه الرحلة ذات يوم خطاباً بالإذاعة الكويتية بعنوان: «اسمعي يا زهرة الصحراء»^(١) الذي ذكرت فيه أولاً ظهور دولة الكويت فجأة ورقبها ، وازدهارها كما تظهر زهرة جديدة في الصحراء ، ثم لفت الأنظار إلى ما تستطيع الكويت أن تقوم به من دور في المدنية الحاضرة والخريطة العالمية ، وما هي شخصيتها ، وما هي سيرتها المثالية التي ينبغي أن تتظاهر بها أمام العالم ، وكيف يقدر على تبوء مكانة العزة والكرامة في العالم ،

(١) نُشر هذا الخطاب من مكتبة المنار بالكويت ، وضمّ هذا الخطاب أيضاً إلى كتاب «العرب والإسلام» لسماحة الشيخ الندوي ، صدر من المجمع الإسلامي العلمي بلكهنؤ (الهند) والمكتب الإسلامي ببيروت ، ودار المنارة بمكة المكرمة .

وقدمت في هذه الرحلة رسالة^(١) إلى أمير الكويت الشيخ عبد الله السالم الصباح ، شرحت فيها طريق رقي العرب وازدهارهم ، ووحدتهم ، وقيادتهم ، وحل قضاياهم ومشاكلهم ، ونبتهت - أخيراً - إلى خطر بناء معابد غير المسلمين في هذه الدولة المسلمة التي بدأت تؤسس وتقام في الكويت ، والإمارات العربية ، والتي تخالف صراحة وصية الرسول ﷺ : «لا يُترك دينان بجزيرة العرب»^(٢).

* * *

(١) مکتوب علی الرسالة تاریخ ٢٢/ شعبان ١٣٨١ هـ.

(٢) أخرجه أحمد والطبراني .

الرحلة الثالثة إلى الحجاز

عام ١٩٦٢ م

تأسيس الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة:

كان قد مضى على رحلتي الثانية إلى الحجاز (١٩٥٠م) أكثر من عشرة أعوام لم يسمح في هذه المدة باحث ولا مناسبة لزيارة الحجاز ، فكنت لا أستطيع أن أتحمّل تكاليف هذه الرحلة من قبل ولا من بعد ، ولم تكن هناك دعوة من جهة موقرة ، ولا تقدّم أحد بطلب الحج عن الغير ، وكان يخطر ببالي أحياناً لعلي قد صدر مني في زياراتي الأولى للحجاز شيء من سوء الأدب فحرمني هذا الشرف للأبد .

و حين زيارتنا للكويت عام ١٩٦٢م فوجئنا ببرقية من معالي الشيخ محمد سرور الصبّان - وزير المالية بالحكومة السعودية الذي علم بزيارتنا للكويت - يدعونا فيها لزيارة الحجاز والحج ، وكان معلوماً أن ذلك أمر بسيط وسهل بالنسبة إليه ومركزه ، وأن ما بيننا وبينه من صلة وثقة يسوغ لنا قبول هذه الدعوة الأخوية الكريمة ، ولكنني قلت لرفقتي : إننا لا نساfer على دعوة شخصية ، ولا نريد أن نحمل منة أحد بصفة شخصية ، وأرجو أن الله تعالى سيهيء أسباب ذلك في مستقبل قريب بنصرته الغيبية .

كنت في عليكراه ، لعلاج كترأكت^(١) وإجراء عملية جراحية صغيرة في أواخر مارس ١٩٦٢م ، وكنت في مستشفى غاندي ، إذ جاء لمقابلتي سفير السعودية سعادة الشيخ يوسف الفوزان ، ولم يستطع أن يصل إليّ لعدم

(١) Cataract (نزول الماء).

وجود الدليل ، فلما فرغت من العملية وجئت إلى كهنؤ جاءني رسالة منه يقول فيها: إن لدينا رسالة هامة موقرة ، فيما أن تتفضل بالمجيء إلى دهلي ، أو تبعث أحد الثقات عندك ، فبعثت العزيز محمد الرابع ، فأخبره سعادة السفير بأنه جاءت من المملكة السعودية رسالة موجهة إلى الشيخ أبي الحسن فيها الإخبار بقيام الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة ، واختيار فضيلة الشيخ عضواً في هيئة التدريس ، والجهات المختصة تريد أن تعرف رأي الشيخ وما يقرره في هذا الشأن .

فكان ردُّ فعلي على هذا كردّ فعلي عند الطلب من جامعة دمشق ، أي أنني لا أستطيع أن أشتغل هناك بوظيفة مستقلة ، ولكن يمكن أن أقدم لخدمة جزئية موقته ، كتبت هذا الرد إلى سعادة السفير وهو أبلغه بدوره إلى المملكة ، وتلقيت بعد ذلك بمدة الإشعار بعضويتي في المجلس الاستشاري للجامعة الإسلامية ، وأن جلسته الأولى ستعقد في الأسبوع الثالث من شهر ذي الحجة بالمدينة المنورة ، فاعتبرت ذلك في حقي نعمة غير مترقبة ، ورزقاً غير محتسب ، وأكمل السفير الموقر جميع إجراءات السفر ودعاني إلى دهلي .

خرجت في العشرة الأخيرة من ذي القعدة الموافق مايو ١٩٦٢ م بطائرة (A.W.A.) من بومباي ، يرافقني الشيخ محمد معين الندوي مساعد الأمين العام لندوة العلماء ، وبتنا ليلة في الظهران ، ثم توجهنا بالطائرة السعودية محرمين إلى مكة المكرمة ، وقد كان العزيز الأستاذ عبد الله عباس يعمل حينئذ في الإذاعة السعودية ، فنظّم حفلة تعريف وترحيب بنا ، حضرها سفراء بعض البلدان العربية وعدد من أعيان البلد ، والقائد الإخواني المجاهد بالعراق الشيخ محمد محمود الصواف^(١) ، وألقيت خطاباً في

(١) هو العالم المجاهد ، والخطيب المؤلف ، الشيخ محمد محمود الصواف العراقي وطناً ومولداً ، والمكي سكناً وملجأً ، تخرج في الأزهر ، وانضم إلى جماعة الإخوان ، واتصل بقائدها الإمام الشهيد اتصالاً وثيقاً ، وحمل السلاح وناضل في حرب فلسطين ، وأنشأ جمعية الأخوة الإسلامية ، وجمعية إنقاذ فلسطين في العراق ، =

موضوع الجامعة الإسلامية ، وأن الإسلام هو مصدر القوة والعزة ، وأن القومية العربية مصدر التخاذل والشقاء ، وعلّق على خطابي الشيخ الصواف تعليقاً لائقاً .

وقد كانت بدأت - إذ ذاك - على لسان الرئيس عبد الناصر الدعوة بقوة وحماس إلى القومية العربية ، وأنها موازية للجامعة الدينية والدعوة الإسلامية ، وقد أحدثت محاولة تأميم قناة السويس وهزيمة الحملة الإسرائيلية البريطانية تأثيراً سحرياً في هذه الدعوة الناصرية ، وكان الشباب العرب لا يملكون أن يسمعوا كلمة واحدة ضدها ، بل كانت الصحافة المصرية ، وبعض أصحاب الأقلام المصريين يدعون الرئيس عبد الناصر بنبيّ القومية العربية ، وكان هذا الوضع يؤثر على العقائد الإسلامية والتصورات الدينية ، وكانت تصدر - أحياناً - كلمات الكفر من أفواه كثير من الشباب .

ولقد كان كاتب هذه السطور بدأ انتقاده لهذه الفكرة الزائفة من ذلك الحين ، ولكنه جعل ذلك موضوعه الخاص ، واعتبره جهاد الساعة عندما لقيت مصر وجمال عبد الناصر الهزيمة النكراء في الحرب بين مصر وإسرائيل عام ١٩٦٧م وخرجت منطقة الضفة الغربية وبيت المقدس كلها من أيدي المسلمين .

وقد نشرت مجموعة هذه الخطب والمحاضرات عام ١٩٦٩م بعنوان :
«المسلمون وقضية فلسطين»^(١) .

= ثم ألبأتها الأوضاع المتقلبة في بلده إلى الانتقال إلى السعودية ، حيث جاز على ثقة ملكها رائد التضامن الإسلامي المرحوم الملك فيصل وعلى تقديره ، وعمل له كسفير متجول إسلامي غير رسمي في إفريقية وغيرها ، واختير مستشاراً لوزارة المعارف السعودية ، وعضواً في المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي من أول يومه .
توفي رحمه الله وأثابه .

(١) نشرت هذه المجموعة من الدار الكويتية للطباعة والنشر بالكويت .

وكان الحاج محمد أرشد البشاوري^(١) - الذي تقدم ذكره - قد تولّى عمله قبل وصولي بزمان قليل ، كمراقب ومدير لخطة التليفون الأوتوماتيكي ، وكان مقيماً بجدة ، وكنا نعتبر بيته كبيتنا ، فنزلنا عنده هذه المرة ، وأعددت في بيته على طلب من الإذاعة السعودية حديثاً بعنوان: «وفود الأمة بين يدي نبيها - ﷺ»^(٢) وقد تحدثت في هذا الحديث في عالم الخيال كيف حضرت وفود الأمة من طبقة الأئمة المجتهدين إلى واضعي العلوم والفنون ، وأئمة النحو والبلاغة ، وعباد الله الصالحين ، والربانيين والمربين إلى مؤسسي الدول والحكومات ، وقادة البلاد والمجاهدين في ساحات القتال ، إلى الشعراء وأمراء البيان ، وأصحاب الأقلام الذين نفخوا في الأمة روح الثورة الصالحة ، والحرية والجهاد ، إلى ممثلات فاضلات للسيدات المسلمات والنسوة الصالحات ، وهكذا كان طبقة من طبقات الأمة الإسلامية ، تقوم بواجب الشكر والاعتراف ، وتؤدّي هدية - ولا أقول ضريبة - الثناء الجميل والشكر الجزيل ، وتصلّي وتسلم على نبيها - ﷺ - وتعترف وتعلن أن كل

(١) لقد كان أحد أفراد معدودين تأثر بهم سماحة الشيخ الندوي في حياته وأعجب بهم ، وشاهد فيهم من الإخلاص والإدراك ، والاتزان الفكري ، والنشاط في عمل الدعوة إلى الله ما لا يوجد إلا في أفراد معدودين من آلاف بل مئات آلاف من الناس ، وقد كان اتصاله بسماحة الشيخ الندوي وانسجامه معه مما يندر نظيره بين الأصدقاء والأحباب . كانت علاقته قوية وصلته وطيدة بجامعة الدعوة والتبليغ ومؤسسها الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي ، قام بنشر الدعوة إلى الله أولاً في بشاور (باكستان) وكلكتة (الهند) ثم في اليابان ، والحجاز خير قيام ، وخدم خدمات جليلة في سبيلها ، وقد فتح بها باب الدخول في الإسلام في اليابان ، وعرف بهذا العمل الدعوي في الحجاز في طبقة الكبار والأعيان ، فأقبلوا عليه إقبالاً كبيراً ، وقد سافر هو لهذا الغرض إلى أمريكا ، ولما وافقت الحكومة السعودية على خطة الهاتف الأوتوماتيكي ، اختارته كأ كبير مدير وضابط لها ، فلو قدر الله تعالى وطالت حياته ، لانتفعت هذه الدعوة به انتفاعاً عظيماً .

(٢) انظر هذا الحديث في ضمن أحاديث سماحة الشيخ الندوي في كتابه «الطريق إلى المدينة المنورة» طبع من المجمع الإسلامي العلمي لكهنؤ (الهند) ومن دار ابن كثير دمشق بيروت .

ذلك رقد البعثة المحمدية ، ورشح منها العظيمة على مختلف شعب الحياة وجوانبها ، والفضائل الإنسانية ، وصناعتها للرجال وتربيتها للأجيال ، كان هذا المقال مقالاً مثيراً يمتلىء حماساً وإيماناً ، ويشير عواطف الحب والشوق والحنان ، نشرته الإذاعة السعودية ، كما نشرت ترجمته الأردنية إذاعة لكهنؤ - الهند - عدة مرات .

وصلنا إلى مكة المكرمة قرب أيام الحج ، ولما كنا ضيوف الحكومة هذه المرة نزلنا لأول مرة في «لوكاندة مصر» أكبر فنادق مكة المكرمة ، حيث كان كثير من أعيان الحجاج الوافدين من مختلف البلدان وضيوف الحكومة نازلين فيه ، ويقع الفندق على مقربة من الحرم الشريف ، فلم يكن يشق علينا حضوره .

تأسيس «رابطة العالم الإسلامي» بمكة المكرمة :

وبينما أنا في مكة أنتظر الحج إذ جاء شخص ذات يوم يبحث عني ، وسلم إلي رسالة من أحد الأصدقاء القدامى ، وأحد أعيان مكة المكرمة الشيخ محمد صالح القزاز ، ورد فيها أنه سوف يعقد مؤتمر إسلامي بتاريخ ١٤/ ذي الحجة ، وسوف تكون حفلته في القصر الملكي ، ويحضرها الملك سعود نفسه ، فالرجاء منكم التشریف .

وقد عقدت الحفلة في تاريخها المقرر ، وقد حضرها الملك إدريس السنوسي - حاكم ليبيا - وشخصيات أخرى ذات شأن ، وقد أسست هناك منظمة عالمية باسم رابطة العالم الإسلامي ، واختير الأعضاء المؤسسون ، كنت أنا منهم ، وقد اتفق مراراً أن رئيسها الدائم سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ - شيخ الإسلام بالمملكة السعودية ورئيس القضاة - إذا قام من الجلسة لحاجة من الحاجات ، أو لم يشرف بالحضور ، كنت أشرف برئاسة الجلسة ، وقد أقيمت في الجلسة الأولى للرابطة مقالاً حول عنوان : «الأخوة الإسلامية فوق العصبية» الذي ضم بعنوان : «القومية في ميزان العلم والتاريخ» إلى مجموعة مقالاتي ومحاضراتي باسم «العرب

والإسلام»^(١) وهكذا تحققت فرصة ومناسبة أخرى - سوى الجامعة الإسلامية - لزيارة الحجاز .

وتوجهت بعد الحج إلى المدينة المنورة ، وانعقدت جلسة المجلس الاستشاري في ٢٢/ ذي الحجة ، وقد كان في أعضائه صفوة العلماء والمفكرين ورجال التربية والتعليم ، ورؤساء المدارس والجامعات من مختلف البلدان ، واختير الأستاذ المودودي من باكستان الذي بقي عضواً فيه لعدة سنين ، وقد تقدمت في الجلسة الأولى بخطة وصورة لمركز تعليمي تربوي على مستوى عال يقوم في المدينة المنورة ، وألقيت الضوء على منهجه ونظامه وجوانبه المهمة ، وشرحت الغرض والغاية الأساسية منه ، ونزلت هذه المرة على رغبة من صديقنا المخلص الموقر الحاج محمد نور وليّ بـ «بستان نور ولي» ومن ثم بدأت أنزل فيه دائماً أثناء إقامتي بالمدينة المنورة .

وبدأت سلسلة الزيارات مرة أو مرتين في كل سنة بعد هذه البداية المباركة ، وتحقق وعد الله تعالى ﴿وَيَرْزُقُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ ورجعنا في شهر محرم إلى الهند .

سلسلة المحاضرات بالجامعة الإسلامية :

وَجَّهْتُ إِلَيَّ فِي الْعَامِ الْقَادِمِ عَامَ ١٣٨٢ هـ الموافق ١٩٦٣م دعوة من الجامعة الإسلامية لإلقاء محاضرات على الطُّلَّابِ ، واخترت لمكان المدينة المنورة عنوان : «النبوة والأنبياء في ضوء القرآن»^(٢) وتمثلت في مستهلّ المحاضرة الأولى ببيتي الشاعر العربي مستدلاً على سبب اختيار هذا الموضوع :

ولما نزلنا منزلاً طلّه النّدى أنيقاً وبستاناً من النور حالياً
أجدّ لنا طيب المكان وحسنه مُنَى فتمنينا فكنّت الأمانيا

(١) نشرها المجمع الإسلامي العلمي بلكهنؤ (الهند) (ودار ابن كثير دمشق بيروت .

(٢) انظر هذه المحاضرة بكاملها في «محاضرات إسلامية في الفكر والدعوة للعلامة الإمام

السيد أبي الحسن علي الحسيني الندوي» طبع دار ابن كثير ، دمشق - بيروت .

وأعددت المحاضرات ، التي صدرت فيما بعد بهذا العنوان نفسه في كتاب مستقل .

غادرنا إلى الحجاز في ١١/ مارس ١٩٦٣ م ، وكان يرافقني ابن أختي العزيز محمد الرابع الحسيني في هذا السفر ، بدأت سلسلة المحاضرات بتاريخ ٣/ ذي القعدة ١٣٨٢ هـ الموافق ٣٠/ مارس ١٩٦٣ م ، وتمت ثماني محاضرات ، وكانت تلقي هذه المحاضرات كل يوم إثنين وخميس ، وكان يحضرها نائب رئيس الجامعة المرّبي الكبير والداعية الموقّ سمّاحة الشيخ عبد العزيز بن باز^(١) ، وكان يعلّق على المحاضرة بنفسه .

لقاءات مع جلالة الملك فيصل :

لقد شاهدت في جميع زياراتي للحجاز التأثير المتزايد للشراء والحضارة الغربية ، وآثار الانحطاط الخلقي والديني في تلك الأرض المقدسة التي ليست هي مركز الإسلام فحسب ، بل هي قلبه الخفاق ، ورأيت أن الدعوة والتعاليم الدينية تفقد أثرها وسلطانها على مرّ الأيام ، وكانت هناك مؤسسة مستقلة قديمة باسم هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وكانت الحكومة تشرف عليها ، وترعاها ، ولكنها كذلك كانت لا تزال تفقد تأثيرها ونفوذها وهيبتها ، ويبدو أنه في الوقت الذي قامت فيه دعوة شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب بثورة إصلاحية في مجال العقائد وبيان التوحيد الخالص ونشره والرد على الشرك والبدع والمحدثات - الذي هو من أهم

(١) هو العلامة الكبير الداعي إلى الله سمّاحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز المفتي العام الأسبق للمملكة العربية السعودية ، كان أعجوبة الزمن في سعة الصدر ، وقوة الاحتمال والجمع بين أشتات الأعمال والأشغال ، من تدريس وإفتاء وفصل الخصومات والقضاء فيها يتنازع فيه الناس وتختلف فيه العوائل ، واستقبال الضيوف ، ولقاء كل منهم بما يستحقه من غير أن يعتريه ملل أو ضجر ، أو ضيق صدر وقلة صبر ، تعرف عليه سمّاحة الشيخ الندوي خلال هذه الزيارة وتوطدت بينهما الثقة والصدقة ، كان لم يزل على حب وثقة به ، إلى أن توفي سنة ١٩٩٩ م ، رحمه الله وأثابه .

مقاصد بعثة الأنبياء عليهم الصلوات والتسليمات - لم تستطع لضيق الوقت ولأسباب سياسية أو مشاكل وقتية ، إعداد ذلك الجيل الذي يقدم نماذج القناعة والزهد الإسلامي المثالي ، وإيثار الآخرة على الدنيا ، والصمود أمام الإغراءات المادية ، والثروات الطائلة وطغيان الرقي والمدنية ، ثم توارت البقية الباقية من الأمثلة العملية والنماذج الرائعة لتولي من يضطلع بأعباء الدعوة وضرب المثل العملي للحياة المثلى مناصب الدولة الرفيعة وتقاضي الرواتب الكبيرة من الحكومة .

ويفيد تاريخ الملل والديانات أن عملية الربط والتنسيق بين روح الدين وجوهره ، والخصائص الدينية والخلقية ، وبين روح العصر ومقتضياته ، والاستقامة على الصراط المستقيم ، رغم توفر وسائل الزيف والانحراف وفرصه وأسبابه من أصعب الأعمال وأشقها على النفس ، ويتطلب تربية عميقة شاملة واستقامة رفيعة ، وذكاءً فائقاً ، وأن مأثرة الصحابة الكرام - رضي الله عنهم - لا تزال فريدة في التاريخ البشري ، إذ أنهم مرّوا ببحر الدولة والسلطة الطاغية ، وفيض الثروة الفياض ، وأسباب الرخاء التي كانت في تصرفهم ، ولم تبتلّ أقدامهم ، وهكذا حقّقوا ما تصوره الشاعر المجربّ محالاً ، إذ قال :

ألقاه في البحر مكتوفاً وقال له إِيَّاكَ إِيَّاكَ أن تبتلّ بالماء

وللأسف لم يتيسّر للدولة السعودية - وهي الحكومة المسلمة الوحيدة في هذا العهد ، التي كان أساسها على الدعوة والجهاد - أولئك المُخطّطون والمستشارون المخلصون الأوفياء الأذكياء الذين لا يطمعون في جاه أو ثراء ، والذين يوائمون بين هذه البداية للحكومة وأوجها وازدهارها ، ويحدثون تفاهماً وتعاوناً بين التعاليم الدينية ومتطلبات المدنية والرقيّ الضرورية ، بل كان كثير من هؤلاء المستشارين إنما هدفهم استغلال هذه الدولة والثراء الفاحش ، وكان من مصلحتهم أن تبقى هذه الدولة الناشئة - التي كان يمكن أن تصبح بروح التوحيد والجهاد فيها ، أكبر قوة في العالم الإسلامي - في دائرة دينية ضيقة ، حتى لا تفوتهم فرصة تكوين مستقبلهم الاقتصادي واستثمارهم .

وكانت المحنة الثانية في جانب آخر أن رفع عبد الناصر في أثناء حكمه لواء القومية العربية ، وبذل جميع محاولاته لسيادته الكاملة على الشرق العربي ، وكانت أكبر أهدافه في هذا الصدد الحكومة السعودية - التي كان قد ظهر فيها البترول كأعظم مصدر ورصيد للثراء - فبدأ باستمرار يتحدث في هذه الدولة ويشهّر بمواطن الضعف في حكامها وقادتها ، وإحداث البلبلة والفوضى في هذه الدولة ، الأمر الذي أدى إلى زحزحة الثقة في المملكة ، ومُرْكَب النقص فيها ، وقد كانت الصحافة والإذاعة المصرية أقوى صحافة وإذاعة في العالم العربي .

ورأى بعض العقلاء علاجاً لهذه المشكلة أن تظهر هذه البلاد أيضاً في مظاهر الرقي والمدنية الجديدة ، وتهياً فيها جميع وسائل التسلية والترفيه ، حتى لا يشعر فيها أي تقدّمٍ حُرّ بالخناق ، ولا يضطر للخروج إلى مصر والتسلي ببرامجها الإذاعية والتلفزيونية .

لقد كنت شعرت في زيارتي للحجاز عام ١٩٦٣ م بهذا النوع من التفكير الذي بدت طلائعه ، وقد كان الملك سعود إذ ذاك ملك البلاد وكان الأمير فيصل ولي عهده ، وكان من حسن المصادفة أن زار هو أثناء إقامتي بالمدينة المنورة ، فطلبت من مضيفي الكريم سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله الباز ، الذي كان نائب رئيس الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، وكان عند الأمير فيصل احترام وتقدير خاص له ، أن يحصل لي على فرصة الاجتماع به على انفراد ، فنظم الشيخ ذلك ، وقابلته في القصر الملكي في جلسة خاصة ، وترجّيت منه أن يستمع إليّ أثناء حديثي الذي أريد الإفضاء به إليه ، فقبل ذلك ، وتحدثت إليه ، وأبدت شعوري بالخطر من أن المملكة ولا سيما الحجاز يُساق بها على طريق البلدان العربية «الراقية» ، ويخطط لها ما يخاف منها على أهداف زيارة الحرمين الشريفين ، وكونهما بلدين إسلاميين مثاليين ، وتتأثر قداستهما وجلالتهما بذلك ، فاستمع إلى حديثي بإنصات ، وأبدى احتياط مملكته البالغ وحسن طويتها فيما يتعلق بالتخطيط للحجاز ، وطمأنني على أنه سوف لا يحدث

شيء مما تتوقعه وتخاف منه ، والذي يخالف مكانة هذا المركز للإسلام ورسالته .

ثم لما تسلّم هو زمام الحكومة في البلاد كتبت إليه رسالة مفصلة ، كان موضوعها الأساسي أن الحجاز لها شخصية خاصة ورسالة ومكانة خاصة ، ولا بد من الحفاظ عليها في كل عصر ، ولا يجوز فيها أي إجراء «تقدمي» و«تغريبي» أو أي خطة للترفيه والتسلية تضر - أدنى ضرر - بشخصيتها وأهدافها ورسالتها ، ثم كتبت إليه رسالة أخرى صرّحت فيها بأن تجربة تهيئة الأسباب والوسائل المادية للتسلية والترفيه ، والرّخاء والثراء ، والعيش الهنيء اللذيذ ، وشغلهم وإلهاءهم بذلك عن فكرة انتقاد الحكومة وتغيير الأوضاع ومطالبة الإصلاح - لم تزل فاشلة منذ عهد بني أمية إلى يومنا هذا ، فإن هذه الطبقة نفسها التي تعيش في ثراء فاحش ، وغنى مُطغ ، ولا يكون لها - في ظاهر الأمر - فرصة التفكير في شيء تكون أكثر الناس فقداً للطمأنينة والقناعة ، وقلة شكر ، ونكراناً للجميل ، وأنها هي التي تكون مصدر الثورة والطغيان ، وبالعكس منها الطبقة المتدينة تكون أكثر الناس وفاءً وأمانة وثقة^(١) ، فبعث إليّ ردّاً على هذه الرسالة بتاريخ ٩/ صفر عام ١٣٨٥هـ وعليه توقيعه^(٢) .

وقد كان لي معه - عدا هاتين المقابلتين - لقاءان آخران : أحدهما بجدة ، والثاني بمكة المكرمة ، وقد أبديت فيهما آرائي وملاحظاتي وتخوّفاتي ، وشرح هو موقفه وموقف حكومته ، وقد تأثرت بذكائه الفائق وحسن وفادته وطيب أخلاقه وصبره على الاستماع وبساطته تأثراً كبيراً ، وبقي هذا التأثير ولكن ظهر لي أنه مهما كانت الأسباب والحالات

(١) انظر هذه الرسالة في كتاب سماحة الشيخ الندوي «كيف ينظر المسلمون إلى الحجاز وجزيرة العرب» نشره المجمع الإسلامي العلمي بلكهنؤ (الهند) ودار ابن كثير - دمشق بيروت .

(٢) انظر صورة هذه الرسالة في المصدر السابق .

الاضطرارية ، فإن المملكة لم تزل متجهة ذلك الاتجاه المرسوم الذي تقدمت إليه عام ٦٣ - ١٩٦٤ م .

في طريق الصحافة الإسلامية :

كنا بدأنا عام ٦٠ - ١٩٦١ م نشعر بشدة عدم وجود قيادة إسلامية جريئة في مجال السياسة والصحافة تكون مؤسسة على المعرفة العميقة الواسعة والتحليل الدقيق الأمين والتعليقات والتوصيات الجريئة ، ويغلب عليها - مع ذلك - اللون الديني ، والصبغة الإسلامية ، فاضطررنا - أنا والشيخ محمد منظور النعماني^(١) - هذا الشعور القوي إلى إصدار جريدة «ندائي ملت» ، فتوكلنا على الله ، وأصدرنا العدد الأول منها في ١٢/ مارس عام ١٩٦٢ م ، وقد نالت هذه الجريدة بسرعة رواجاً وقبولاً في أوساط المسلمين الفكرية الجادة ، ووجدت مكانتها اللائقة بين الصحف والمجلات ، والجرائد الإسلامية ، وبدأ يخيّل للناظر القارئ أن هناك قيادة دينية ناهضة .

* * *

(١) أحد كبار الدعاة إلى الله والعلماء الراسخين والمحدثين البارعين في الهند ، رافقه سماحة الشيخ الندوي مدة طويلة في القيام بعمل الدعوة إلى الله ونشرها ، له دور كبير في نشر الإسلام بين غير المسلمين في الهند ، أصدر أول مجلة إسلامية ودعوية بالأردنية باسم «الفرقان» ، وانتخب عضواً لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة لدى تأسيسها .

له كتب قيمة بالأردنية ، أشهرها «معارف الحديث» في ثمانية مجلدات . نقله الله إلى دار كرامته عام ١٩٩٦ هـ . انظر ترجمته بكاملها في كتاب المحقق «الإعلام بمن في الهند من الأعلام في القرن العشرين» .

الرحلة الأولى إلى أوربة

وزيارة الأندلس

عام ١٩٦٣ م

قمت في سبتمبر سنة ١٩٦٣ م برحلة إلى أوربة ، كانت أولى الرحلات في حياتي إلى بلاد الغرب ، والتي بدأت في ١٩ سبتمبر ١٩٦٣ م ، وانتهت في نوفمبر ١٩٦٣ م ، وقد اخترت لمرافقتي في هذا السفر الدكتور اشتياق حسين القرشي الذي كان قد أقام من قبل في لندن لدراسة الطب ، وكان هذا السفر في الأصل على دعوة من الدكتور سعيد رمضان للمشاركة في اجتماعات المركز الإسلامي بجنيف الذي كنت عضواً في مجلسه الاستشاري ، وكان الدكتور دعا الطلاب المسلمين العرب وغيرهم المقيمين في المنطقة الوسطى بأوربة ، للتوعية والتربية والاستفادة كمخيم تربوي ثقافي .

وقد زُرْتُ في هذه الرحلة جنيف ، ولوزان ، وبرن ، وباريس ، ولندن ، وكمبرج ، وآكسفورد ، وغلاسغو ، وإيدامبرا ، وفي إسبانيا: مدريد ، وطليلطة ، وإشبيلية ، وقرطبة ، وغرناطة ، وقد ألقيت أحاديث ومحاضرات ، منها حديث في المجلس الإسلامي بجامعة إيدامبرا ، وخطاب في قاعة الاتحاد الطلابي بجامعة لندن ، وخطابان في إذاعة B.B.C. أحدهما بعنوان: «انطباعات لأحد زوّار لندن» وكان الثاني حواراً حول موضوع الإمكانات لرقى اللغة العربية وتقدمها وصلات البلدان الإسلامية بها ، وكان أهم محاضرة في جامعة لندن بعنوان: «بين الشرق

والغرب»^(١) ، وقد كان نقله الدكتور ظفر إسحاق الأنصاري - الذي كان مقيماً إذ ذاك بلندن - إلى الإنكليزية بعنوان (Between The East And West) وقد ألقى هذه الترجمة أحد الإنكليز المهتمين الجدد مصطفى إيوانس بحماس وتأثر واندفاع.

وقابلت في هذا السفر من فضلاء الغرب والمستشرقين: رئيس القسم العربي بجامعة أكسفورد البروفيسور Beeston ، والمستشرق الفاضل المعروف DR . Arbery ، والأستاذ Bashem أستاذ تاريخ الهند (قبل الإسلام) في School of Oriental and African Languages (مدرسة اللغات الشرقية والإفريقية) ، والمستشرق المعروف Ericberth الذي كان رئيس جمعية أصدقاء الشرق الغربي بأمريكا ، والذي كنت قرأت كتابه العلمي حول اليمن ، وقابلت من الفضلاء المسلمين الأستاذ محمد أسد ، والدكتور حميد الله ، والدكتور زكي علي ، وقد وجدت في هذه الرحلة تسهيلات كثيرة.

وقد استفدت أيام إقامتي بلندن بمكتبة المتحف البريطاني^(٢) ومكتبة أنديا آفس ، وكتبت في أثناء هذه الإقامة مقدمة كتابي «الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرية الغربية» وكان - لحسن الحظ - الدكتور عبد الله عباس الندوي مقيماً في تلك الفترة بلندن ، ولذلك نزلت بشقته رقم ١٠ بكوينس وي (Queen's Way) ووجدت فيه راحة وأنساً أكثر.

على أرض الأندلس:

لقد كان أهم أجزاء هذا السفر وأحبّه إليّ هو زيارة الفردوس المفقود: الأندلس (إسبانيا اليوم) ولا أذكر بلداً عاش فيه المسلمون ثم محيت منه آثارهم واندرست ديارهم ، وشعرت في زيارته بذلك الأنس والقرب والود والجادية ، والفتنة ، حتى كأنّ أجواءها تعانقني وتضمنني إلى جوانحها ،

(١) انظر هذه المحاضرة في كتاب «محاضرات إسلامية في الفكر والدعوة للعلامة الإمام السيد أبي الحسن علي الحسيني الندوي».

(٢) British Museum

وتحكي كل ذرة من ذراتها رسالة الحب والأنس ، كما شعرت في زيارتي للأندلس ، لقد وجدت في الصلوات هناك ، ووجدت في ذكر الله من الرقة والتأثير ما لم أجده إلا في أماكن معدودة ، زرت أطلال مدينة الزهراء ، وآثار الحمراء وسقوفها وجدرانها ونقوشها وجمالها ، وللأسف لم أستطع أن أقيّد مذكرات هذه الرحلة ، إلا أنني أذكر فيما يلي بعض مشاهداتي وانطباعاتي ، وكنت أنشد بلسان الحال :

لمن الديار ببرقة الروحان إذ لا نبيح زماننا بزمان
صدع الليالي إذ رمين دياره^(١) صدع الزجاجة ما لذاك تدان

لقد نكأت هذه الرحلة جروحي وقروح قلبي ، وأصبح تاريخ المجد الحافل والقوة والشوكة والسلطان ، والعلم والفضل والكمال عبر القرون والأجيال الذي انبث على آلاف من صفحات «نفح الطيب» و«الحلل السندسية» ، والذي كنت قرأته - أيام الطلب - في «غابر الأندلس وحاضرها» للعلامة كرد علي و«أخبار الأندلس» للشيخ خليل الرحمن - ماثلاً في عالم الخيال أمامي ، وعاد غضاً طرياً في ذاكرتي .

وتوجد أكثر الآثار الإسلامية في مدريد (مجربط سابقاً) ، وتوليد و(طليطلة سابقاً) خرجنا من مدريد إلى طليطلة بالحافلة (السيارة الكبيرة السياحية)^(٢) وقُسم السياح والزوار إلى قسمين ، قسم من يفهم الإنجليزية ، وقسم من يفهم الفرنسية ، وقد كان دليلنا يحدثنا بالإنجليزية ، ويعرفنا بالآثار والأماكن التاريخية ، وكان إذا عرّف بشيء بدأه بكلمته When We Expelled The Arabs (عندما أخرجنا العرب) سمعت هذه الكلمة مرة أو مرتين ، ثم لم أصبر ولم أتمالك ، وقلت له : من فضلك لا تكرر هذه العبارة فإنها تؤلمنا ، فأمسك عنها واعتذر إلينا ، وقال : إن لحاكمنا الجنرال فرانكو صلات طيبة مع العرب ، وإننا نأخذ بالتسامح .

ووقفتُ عند الشباك في رحلتنا من مدريد إلى قرطبة على القطار ،

(١) في الأصل فؤاده ، وبدل الليالي الغواني .

(٢) Tourist Bus .

أصدّق قول الدكتور إقبال: (لا تزال رائحة اليمين في أجوائها العطرة ، ولا تزال صبغة الحجاز ولونها في أنغامها وألحانها) ، وأنشد قول الشاعر الأندلسي:

جارك الغيث إذا الغيث هما يا زمان الوصل في الأندلس
ولما وصلت إلى قرطبة بدأت ترنُّ في أذني قصيدة إقبال الرائعة بعنوان:
«مسجد قرطبة» التي هي آية في الأدب ، وتحمل - حسب رأي البروفيسور
رشيد أحمد الصديقي ورأيي أيضاً - لا في ديوان إقبال فحسب بل في آداب
العالم مكانتها الخاصة الفريدة ، وقد تذكّرت هذه الأبيات منها - بصفة
خاصة - التي يقول فيها الشاعر:

(إن روعتك وجمالك وجلالك ومهابتك دليل رجال الله ، فهم من
الجمال والروعة والمهابة بمكانتك أنت من الجمال والجلال ، بنيانك قوي
محكم ، وإن أعمدتك كثيرة لا تعد ، كأنها في صحراء الشام جنات من
نخيل).

وقد غيرت الكنائس التي بنيت داخل المسجد شكل المسجد ، ويصعب
تعيين القبلة ، ولكن رغم ذلك تحرّيت وتحققت من القبلة ، وقمت في
المحراب ، وقال لي الدليل: إن أي صوت من هنا يسمع في أقصى نواحي
المسجد ، فهي مكبّرة طبيعية اكتشفها البناؤون العرب في الأندلس^(١) ، فلم
أملك أن رفعت صوتي وصرخت ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ
زَهُوقًا ﴾ وحاول الدليل بصخبه ورفع صوته أن يغلبني على صوتي ، فتذكّرت
قول الله - تعالى -: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ
تَعْلَمُونَ ﴾ وشاهدت ترجمتها العملية ، وصلت كالدكتور إقبال رغم عدم
السماح ، ركعتين في مكان^(٢) ، وكان وقت العصر ، وخرجنا ثم صلينا في

(١) توجد هذه الصنعة في مسجد بيجابور وفي أحد المساجد بدلهي الذي كان بُني قبل العهد المغولي.

(٢) نشر في الصحف قبل مدة من الزمن أنه فتح جامع قرطبة ، وأنه لا تحظر الصلاة الآن فيه ، ولكن لا ندري مدى صدق الخبر.

صحن المسجد صلاة العصر بأذان وجماعة ، وكان ينظر سكان المدينة المسيحيون في حيرة وعجب إلى هذا المشهد الغريب .

وقد ازداد هذا التأثير واشتدت هذه العواطف في غرناطة التي ودّعتها أخيراً البقية الباقية من المسلمين ، والتي شاهدت أرضها الأيام الأخيرة من حكومة العرب ومدنيتهم ، ورأيت هذا البيت من شعر إقبال يصدق عليها ، الذي يقول فيه :

(إن أرضك الطيبة في عين النجوم المتألثة كالسماء العالية ، يا للأسف الشديد إن أجواءك لم تسمع الأذان من قرون).

وجاء يوم الجمعة أثناء الإقامة بغرناطة ، فدعوت الطلاب العرب الذين كان أكثرهم من المغرب الأقصى إلى أن نقيم الجمعة ، ولم يحضر لضيق الوقت وقلة همة الشباب وعزيمتهم إلا عدد قليل ، ولكننا صلينا الجمعة في غرفة أحد الطلاب ، ولا أدري بعد كم قرن صليت الجمعة على هذه البقعة من الأرض ، وأخبرني بعد عودتي بزمن أحد الطلاب العرب بأن هذه الجمعة لم تزل تقام ، ولا أدري هل هي مستمرة أو لا ، وإنه ليتقطع القلب وينزف دماً على تخاذل المسلمين وقلة هممتهم وتوفيقهم .

إنه لم يحاول المسلمون في أي بلد - لا سيما المسلمين العرب - لاستعادة هذا الفردوس المفقود ، ولم تبذل الجهود في سبيل الدعوة الإسلامية والتعريف بالإسلام في هذه البلاد فضلاً عن استعادة الحكم والسلطان ، ولم يتحقق أيضاً أن يتفرغ عدد من الشباب لتعلم اللغة الإسبانية ، وليُعلموا أهل إسبانيا مدى ما خسروه وما مدى ما ربحوه بإخراج الإسلام والمسلمين من هذه الديار ، ومن أي رفعة وعلو نزلوا بشعبهم وبلادهم إلى الحضيض الأسفل ، فإلى الله المشتكى ولا حول ولا قوة إلا بالله .

انطباعات عن رحلة أوربة :

لا حاجة بي إلى تفصيل القول في رحلتي إلى أوربة ، فقد جاءت

مذكراته ومعلوماته الضرورية في رسائلي التي بعثتها من هناك إلى أقربائي وأحبابي^(١).

لقد كان الشيخ عبيد الله السندي^(٢) عندما زار لكهنؤ عام ١٩٤٤م لأول مرة ونزل ضيفاً في مضيف ندوة العلماء ، قال لي ذات يوم: يا شيخ أبا الحسن إنّ استعدادك عالٍ ، ولكن بيئتك محدودة ، فينبغي أن تسافر مرة إلى أوربة ، وكنت أيضاً أودّ أن تسنح لي فرصة زيارة أوربة ومشاهدتها عن كثب لا عن كتب ، لكوني انتقدت دائماً الحضارة الغربية والغرب بصفة عامة في كتاباتي ومحاضراتي ، ولكن ليس الخبر كالمعاينة ، وأحمد الله تعالى على أنني زرت الأماكن الرئيسية المهمة في أوربة وزالت البقية الباقية من مهابتها وخطرها ، ويحلو لي أن أنقل هنا بعض المقتطفات من رسائلي التي كنت بعثت بها من هناك أيام إقامتي ، ويمكن أن يقدرّ بها انطباعاتي ومشاعري نحوها ، فقد كتبت في الرسالة التي بعثت بها من باريس في أول أكتوبر عام

(١) نشرت في الأردوية هذه الرسائل بعنوان: «مكاتيب يورب أوربا» من مكتبة الإسلام بلكهنؤ (الهند).

(٢) أحد العلماء المشهورين في الهند ، كان من نوادر الرجال في قوة الإرادة وشهامة النفس واقتحام المخاطر ، والبعد في التخيل ، والاعتماد على النفس ، وكان مفرط الذكاء ، قوي المناسبة في العلوم ، جيد النظر في طبقات العلماء ، وتاريخ العلوم وتدوين الحديث ، وكان عظيم الشغف بكتب وعلوم الشيخ ولي الله الدهلوي ، وجعل كتابه «حجة الله البالغة» في كتبه أساس فكره وجهده ، وكان له مذهب في تفسير القرآن ، يستنبط منه دقائق السياسة العصرية ، والمذاهب الاقتصادية ، ويتوسع في الاعتبار والتأويل ، وقد تخرج عليه في هذا الأسلوب من التفسير بعض كبار العلماء الذين نفع الله بهم خلقاً كثيراً.

وكان شديد الانتقاد لزعيم الهند المشهور «غاندي» وسياسته ، ويراها خطراً على شخصية المسلمين ، وكان شديد الانتقاد لكمال أتا ترك ، شديد المعارضة للشيوعيين والملاحدة.

توفي رحمه الله سنة ، ١٣٦٣هـ.

انظر ترجمته بكاملها في كتاب المحقق «الإعلام بمن في الهند من الأعلام في القرن العشرين».

١٩٦٣ م إلى ابن أخي العزيز محمد الحسنی^(١) المرحوم عن المرأة ، وما تنال من «كرامة وشرف» في أوروپة ، والتي طَبَّلوا لها في العالم ، ما يلي :

(لقد تحطَّم طلسم مكانة المرأة وكرامتها في أوروپة وزال سحرها ، فقد ظلَّت المسكينة خادمة مهانة ، فهي البائعة في الدكان ، وهي الحَمَّالة للأثقال ، وهي الموظفة لكل عمل ، وتزاحم وتدفع في القطار ، والسيارات والباصات ، فالرجل جالس في راحة ، والمرأة واقفة في تعب ، لقد فُقدت منها كل عناصر الحياء والأنوثة والجمالية ، وبذلك أدركت السبب وراء هذا الأدب وهذه الصور والأفلام وهذه النزعة المعاصرة في الروايات والتمثيلات ، والعري الفاضح ، الذي يستمر يوماً في التقدم ، كل ذلك بسبب أن المرأة بفطرتها لم تعد تملك تلك الجاذبية والفتنة والجمال ، فيريدون أن ينشئوها بهذه الوسائل الصناعية ويوقظوا في الرجال نوازعهم الفطرية الميتة)^(٢).

وجاء في رسالة أخرى من لندن مؤرخة ١٥/ أكتوبر عام ١٩٦٣ م :

(ليس الخبر كالعيان ، وقد صدق من قال : أصبحت السيئات والحسنات

(١) هو ابن الدكتور عبد العلي الحسنی الأَخ الأكبر لسماحة الشيخ الندوي ، رئيس التحرير لمجلة «البعث الإسلامي» سابقاً ، كان آية في النبوغ المبكر ، والسليقة الكتابية ، وكان كاتباً مطبوعاً ، وأديباً موهوباً ، توصل إلى أسلوب خاص يجمع بين الرشاقة والاسترسال ، وقوة العاطفة والحماس ، كانت أكثر مقالاته عفو الساعة ، فيض الخاطر ، يجلس فيكتب مقالاً كاملاً في وقت قصير ، ويطلع به على أصحابه ، فيعجبون به .

ألَّف له عمّه - سماحة الشيخ الندوي - قصص النبيين للأطفال (عندما بدأ دراسة اللغة العربية) التي نالت قبولاً وانتشاراً في جميع الأقطار العربية .
وقد استأثرت به رحمه الله في ١٧/ رجب ١٣٩٩ هـ وهو في الرابعة والأربعين من عمره .

من كتبه : «الإسلام الممتحن» و«مصر تنفس» و«تناقض تحار فيه العيون» . انظر ترجمته بكاملها في كتاب المحقق «الإعلام بمن في الهند من الأعلام في القرن العشرين» .

(٢) رسائل أوروپة - ص ٢٧ .

شهود عيان ، وزاد ياسي واشمئزازي من الحضارة الغربية ، ويبدو أنها بلغت من فقدان الحس والشعور ما لا أمل معه في نهضتها ، وإذا رأيتها من بعيد تعجبك وتحسن بها الظن ، ولكن الحياة فيها حياة صناعية ميكانيكية ، وليس هناك إلا القدرة الإلهية التي تتصرف فيها ، حتى يمكن هؤلاء أن يفكروا في حقيقة أسمى وأرفع^(١).

ومقتطف آخر يلقي ضوءاً كاشفاً على الحياة الغربية ، وحضارتها وشخصيتها:

(إنه لا بدّ مع ذكر إنكلترا من ذكر الإنكليز ، ومع ذكر أوربة من ذكر الفرنج ، لقد قضت المادية وحبّ الدنيا ، والخوض في متاع الحياة والتنازع للبقاء والمقاييس المصطنعة والمُثُل المفروضة ، والسعي الحثيث وراء الحصول على الأغراض والأهداف التافهة ، على المشاعر الرقيقة والشعور بالفراغ الروحي ، وعواطف الخضوع لله ، ولذلك فإنهم - رغم جميع استعداداتهم وصلاحتهم العقلية وقوة إرادتهم وشعورهم بالمسؤولية ، ونظامهم وتمسكهم بالأصول وكثير من الحسنات فيهم - محرومون من الحركات الروحية الصحيحة ، والفتوح الدينية ، وإن هذه الأرض المليئة بالمتخصصين في كل فن خالية تماماً من الربانيين ، قد صدق الدكتور محمد إقبال المطَّلِعُ على خفايا هذه الحضارة إذ قال عن الغرب:

«إن هذا الوادي الأيمن لا يليق بـ «التجلي» ولا يستأهل له».

وقد احتجت فطرته السليمة ضد هؤلاء السَّحرة الإنكليز بعد أن مكث برهة من الدهر فيهم ، فقال:

«لقد جالست خيار هؤلاء وعاشرتهم مدة من الزمن ، فلم أرَ أياماً في حياتي أكثر ظلاماً منها ، وأشدّ خواءً وفراغاً روحياً».

وقد قضى الخنزير والخمر على البقية الباقية من سلامة الفطرة ووخز الضمير فيهم ، وقد أصبحت حكمة التحريم لُجَماع الإثم (الخمر) - التي

كنت مؤمناً بها ومقتنعاً بهذه الحكمة بالغيب - عين اليقين ، ومشاهدة عيان^(١) .

الرحلة الثانية إلى أوربة :

ومما جربته كثيراً أنه إذا لم يتفق للإنسان سفر إلى بلد ما من البلدان ، فيتأخر ذلك إلى مدة طويلة ، ولكنه إذا اتفق مرة ، فإنه يتكرر ويتفق مراراً ، كان هذا شأنني في الرحلة إلى أوربة ، فقد سافرت بعد ذلك في العام القادم ١٩٦٤م^(٢) في شهر أكتوبر لحضور مجلس المركز الإسلامي التنفيذي بجنيف ، ورافقني في هذه الرحلة العزيز محمد الرابع الندوي ، ونزلت هذه المرة في لندن في بيت الأستاذ السيد منور حسين البهاري (Finsbury Park) بلندن ، وقد كان السيد أمير جماعة التبليغ ، بها ، وكانت عنده الجنسية البريطانية ، وذهبتنا في هذه الرحلة إلى ألمانيا بدل فرنسا ، ومكثنا قليلاً في برلين ، وآخن ، وميونخ ، ومررنا ببون .

وما أخضه بالذكر أنني شاهدت بأم عيني في برلين الشرقية قهر النظام الاشتراكي وكتبته ، وأنه صناعي وغير فطري ، بحيث لو قرأت خمسين كتاباً في هذا الموضوع ما كنت أستطيع أن أقيس هذا الوضع الموجود ، ومن أهم خطاباتي ومحاضراتي في هذه الرحلة خطاب مهم في المركز الإسلامي في بيكر استريت لندن - ألقيته أمام الطلاب والشباب^(٣) ، وخطاب في برلين للشعب الألماني في جامعة الهندسة بتاريخ ٢٧ أكتوبر عام ١٩٦٤م ، وقد نقل هناك إلى اللغة الألمانية وألقي فيها ، وعرجت في العودة من هذه الرحلة على إستانبول (القسطنطينية) حيث مكثت يوماً ، وألقيت خطاباً أمام مجموعة طيبة من صفوف المستمعين ، ومكثت بدمشق ثلاثة أيام ، ثم رجعت عن طريق كراتشي إلى الهند .

(١) رسائل أوربة - ص ٥٥ - ٥٦ .

(٢) كان موضع ذكر هذه الرحلة بالترتيب التاريخي بعد قيام المجلس الاستشاري عام ١٩٦٤م ، ولكن يُكرَّر هنا مراعاةً للرحلة الأولى إلى أوربة ، وذكرها في سياق واحد .

(٣) الخطابان كلاهما موجودان في كتاب سماحة الشيخ الندوي «حديث مع الغرب» .

وكانت لي بعد هذه الرحلة رحلتان أخريان إلى أوربة ، ورحلة عام ١٩٧٨م إلى أمريكا ، وقد صدرت مذكراتها المفصلة في كتاب العزيز الأستاذ محمد الرابع في أردو (شهران في أمريكا).

* * *

الرحلة إلى الحجاز عام ١٩٦٥ م ومشاركة مؤتمر رابطة العالم الإسلامي

عقدت رابطة العالم الإسلامي - حسب قرارها السابق - مؤتمرها الأول في ذي الحجة ١٣٨٤هـ الموافق إبريل ١٩٦٥ م ، وقد دُعيت إليه كبار الشخصيات من مختلف بلدان العالم الإسلامي ، وبعثت لذلك أكثر بلدان العالم الإسلامي وبعض البلدان التي يحكمها الأكثرية غير المسلمة ويحتل فيها المسلمون مكانة خاصة وفودها للمؤتمر ، وشاركت أنا والشيخ محمد منظور النعماني - الذي كان اختير عضواً في الرابطة قبل مدة قليلة - كعضوين فيها .

جلسات المؤتمر :

وقد شاهدت في هذا المؤتمر الشيخ أحمد وبلو الداعية المجاهد والقائد المسلم ورئيس وزراء نايجيريا عن كئب ، وسمعت خطابه الإيماني المثير باللغة الإنجليزية الذي انتقد فيه القومية العربية انتقاداً صريحاً ، وقد كان افتتاح الملك فيصل الجلسة الأولى للمؤتمر ورأسها ، ورأس الجلسات التالية الأمير فهد ، وكنت قد أعددت لهذا المؤتمر مقالاً بعنوان : «تمثيل الحياة الإسلامية الصحيحة مسؤولية البلد الأمين» وذكرت فيه أنه يجب عليه أن يحافظ دائماً على خصائصه ومكانته ومميزاته ، وكنت قد أملت هذا المقال على عجل في مطار البحرين ، حيث كان علينا قضاء يوم كامل في انتظار الطائرة ، وكنت لا أقدر لضعف بصري على قراءة المقال ، فقرأه على طلب مني الأستاذ عمر الداعوق مؤسس جماعة عباد الرحمن في لبنان .

وقد كان يرافقتني في هذا السفر الشيخ محمد معين الندوي ، وقد كان

سفرنا عن طريق كراتشي والبحرين ، وزرنا المدينة المنورة بعد الفراغ من المؤتمر والحج ، وحضرنا جلسات المجلس الاستشاري للجامعة الإسلامية.

* * *

رحلة تذكارية إلى الحجاز

عام ١٩٦٩ م

كنت أشرّف سنوياً مرة أو مرتين أثناء حضوري جلسة الرابطة والمجلس الاستشاري للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة بزيارة الحرمين الشريفين ، ولكن رحلتي التي كانت في ٨ / صفر عام ١٣٨٩ هـ - الموافق ٢٦ / أبريل عام ١٩٦٩ م لحضور المجلس الاستشاري للجامعة الإسلامية كانت رحلة تذكارية ، من حيث إنها كانت برفقة ريحانة الهند شيخ الحديث مولانا محمد زكريا الكاندهلوي رحمه الله تعالى ، صاحب المؤلفات المشهورة في شرح الحديث والمقاصد الدينية^(١) .

* * *

(١) أشهرها وأكبرها: «أوجز المسالك في شرح موطأ الإمام مالك» في ستة أجزاء كبار.

رحلة ثالثة إلى إنكلترا

عام ١٩٦٩ م

كنت في المدينة المنورة إذ تلقَّيتُ دعوة من الدكتور سعيد رمضان لحضور جلسة المجلس التنفيذي للمركز الإسلامي بجنيف ، وقد أصرَّ عليَّ فيها ، فعزمت على السفر ، وسافرت وكان معي الشيخ محمد معين الندوي ، فمكثنا في جنيف أياماً ، ثم جئنا في وسط يونيو إلى لندن .

لقد كانت هذه الرحلة لإنكلترا رحلة طويلة مفضَّلة لم تسبقها لي رحلة مثلها إلى تلك البقاع ، ولم تعقبها كذلك ، والأماكن التي زرتها فيها أذكر منها ما يلي : برمنغم ، مانشستر ، بليك برن ، شيفلد ، ديوزبري ، ليدس .

وقد ألقىت خطابات أمام المسلمين في جميع هذه الأماكن ، وكانت عامة الخطب تدور حول تذكير المسلمين بمسؤوليتهم الدعوية ، وإثبات وجودهم ونفعهم للبلاد ، والحفاظ على خصائصهم ومعتقدات الجيل الناشئ في هذه البلاد ، وتربيته على الأسس الإسلامية .

وكانت جامعة برمنغم ، وجامعة ليدس من الجامعات التي ألقىت فيها محاضرات أمام الطلبة والأساتذة المسلمين ، وأصرَّ عليَّ بعض الطلاب العرب الذين كانوا على معرفة واتصال بي عن طريق كتبي لزيارة غلاسغو ، فزرتها معهم ، وألقىت فيها بعض الخطب بالأردية والعربية يوم الجمعة ، وقضيت فيها سهرة في المسجد الجامع مع هؤلاء الطلاب العرب الذين كان أكثرهم من الإخوان .

الرحلة إلى الحجاز والكويت عام ١٩٦٧ م وأحاديثي فيهما

لم أستطع السفر خارج الهند عام ١٩٦٦ م لأن الحكومة الهندية استردت جوازي^(١) ، ثم بدأت عام ١٩٦٧ م سلسلة أسفاري خارج الهند ، ولم يكن قد مضى على هزيمة مصر إلا أربعة أشهر ، ولم يندمل الجرح بعد ، وكنت في مكة المكرمة ، فطلب مني أثناء إقامتي بها في شعبان ١٣٨٧ هـ الموافق نوفمبر ١٩٦٧ م أن ألقى كلمة في نادي الوحدة الرياضي ، وقد أيد هذا الطلب معالي الشيخ محمد سرور الصبان أمين عام رابطة العالم الإسلامي إذ ذاك ، وأصرّ عليّ ، فألقيت في ٦/ نوفمبر ١٩٦٧ م محاضرة في النادي بعنوان: «ميزان الربح والخسارة» وقد حضر الندوة لفيف طيب من أعيان مكة المكرمة وأدبائها وصحفيها ، واساتذة الكليات وطلبتها ، فألقيت

(١) إثر حادث هزيمة مصر النكراء أمام إسرائيل في ٢٩ من صفر ١٣٨٧ هـ (٥ حزيران عام ١٩٦٧ م) ، واستيلاء إسرائيل على القدس الشريف ، وخروج الضفة الغربية بكاملها - التي تشتمل على القدس والخليل ونابلس - وأرض سيناء ، وتمخض الجبهة العربية عن خزي وعار ، وانتكاس القومية العربية وفضيحتها ، وعجز العالم الإسلامي العريض الواسع وتخاذله .

لقد ركّز هذا الحادث الأليم كل قوى سماحة الشيخ الندوي ومواهبه في الخطابة والكتابة ، وجُلَّ أوقاته وعنايته على المعارضة الشديدة ، لصاحب هذا الخزي والمسؤول عن هذه الهزيمة الشنيعة الرئيس جمال عبد الناصر ، استولى هذا الموضوع على أعصاب سماحة الشيخ الندوي وتفكيره ، وأصبح الموضوع الأساسي لخطاباته وكتاباتاته ، وقد منعت بعض الدُول العربية للسفر إليها بعد هذا الحادث ، واستردت حكومة الهند جواز سفره إشارة من تلك الدول .

الضوء على موازين الأرباح والخسائر والنجاح والإخفاق ، وأثبت أن قيادة عبد الناصر فاشلة تماماً ، وذكرت ما ربحتنا منها وما خسرتنا .

وقد صرحت بأنه كيف ديس المجد والكرامة العريقة ، وكيف لُطِّخ تاريخنا بوصمة عار ، وماذا ينبغي للشعوب الأبية عند ذلك وماذا يجب عليها من محاسبة قادتها وزعمائها ، والتبري من المسؤولين عن هزيمة الخزي ونكسة العار ، وقلت إن رمي الجمرات يعلمنا نحن المسلمين كيف نبغض أعداءنا وكيف نذلهم ونكرههم ، ثم ذكرت طريقة استعادة هذا المجد الضائع ، وأنه لا سبيل إليه إلا بالعودة إلى الإسلام ، وإني أهيّب بالعلماء العرب أن يتقدموا في المضمار ويضربوا لنا أمثلة تُحتذى .

ثم كان لي خطاب في شعبان العام التالي ١٣٨٨هـ الموافق نوفمبر ١٩٦٨م في قاعة المدرسة الثانوية بالمدينة المنورة حول هذا الموضوع نفسه ، حضره عدد كبير من أساتذة الجامعة الإسلامية والمدارس الثانوية وطلابها وعلمائها ، وأعيان المدينة وأهلها ، كان عنوانه : «نظامات إلهيان للغلبة والانتصار»^(١) ، فقلت في شرح هذا الموضوع :

إن هناك نظاماً سارياً في هذا الكون من إعداد القوة المادية وتهيئة الأسباب والوسائل ، وقد نجح هذا النظام مراراً ، وقامت به حكومات قوية ودول عريقة ، وهُزم به الأعداء وغيّر مجرى التاريخ ، وهو نظام طبيعي تكويني ، نافذ في هذا الكون وساري المفعول فيه ، ولكن هناك نظاماً آخر للإيمان والعقيدة والغايات النافعة الصالحة والحياة الصالحة الطيبة ، تكفل الله - تعالى - له بالنجاح ، وانتصر به المسلمون على العالم ، وقد ثارت قيادة مصر الجديدة على كلا النظامين ، فظهرت نتيجته الحتمية وذكرت ما كان من وضع مصر المُتردّي ، أيام الحرب دينياً وخلقياً ، وصرّحت بأن هذه الهزيمة ليست غريبة ومثيرة للعجب ، بل نتيجة طبيعية لغرسها ، وقلت

(١) ضم هذا الخطاب إلى كتاب «المسلمون وقضية فلسطين» لسماحة الشيخ الندوي ، طبع من المجمع الإسلامي العلمي بلكهنؤ (الهند).

إن القومية العربية لا تملك أي جاذبية لغير العرب ، إنهم لا يستجيبون إلاّ لدعوة الإيمان والعمل الصالح ، ورسالة الإسلام الخالدة العالمية .

وفي هذا العام نفسه عرّجتُ على الكويت ليومين في العودة من الحجاز بتاريخ ٢٤/ شعبان ١٣٨٨ هـ الموافق ١٧/ نوفمبر ١٩٦٨ م ، وألقيت خطاباً في الموضوع نفسه بقاعة جمعية الإصلاح الاجتماعي ، كان عنوانه ، بل روحه وجوهره : « إن العالم العربي ليس في خطر من إسرائيل ، بل من ذلك الضمير الذي ترك عمله وتخلّى عن مسؤوليته » ، وقد صرّحت فيه بأن التفاوض عن الحقائق والواقع وتعطّل الضمير الإسلامي ، وعدم احتساب القادة ومحاسبتهم ، وقلة الاتّعاظ والاعتبار بالحوادث والوقائع خطر حقيقي كبير ، هذا هو الخطر الذي يواجهه العالم العربي .

ثم كانت لي فرصة الخطاب في العام التالي ١٣٨٩ هـ الموافق ١٩٦٩ م في هذا الموضوع بالذات في المدرسة الثانوية بالمدينة المنورة ، وكان الحفل قد ضمّ عدداً من أعضاء رابطة العالم الإسلامي ، وأساتذة الجامعة وطلابها ، وأعيان المدينة والممثلين للطبقة المثقفة في المجتمع ، وقد اكتظت القاعة بالمستمعين ، وكانت خلاصة ما قلت في الخطاب ما دار حول «ثلاثة دروس من مأساة فلسطين» وقد شرحت فيه قول الله تعالى : ﴿ إِن شَأْنُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾ ، وقلت في ضوء الآية الكريمة : إن أعداءه - ﷺ - الذين يتحدّون قيادته العالمية الأبدية ، لا تزال عاقبتهم الحرمان والخسران ، وانقطاع سلسلتهم وأثرهم ، وليس ﴿ الْأَبْتَرُ ﴾ يعني انقطاع النسل والسّلالة فحسب ، بل إن معناه أوسع مدلولاً ، يشمل قلة التوفيق أو سوء التوفيق ، والذل والنكسة والخمول والذبول ، وإنه لم تزل ولا تزال القيادات اللادينية تواجه الفشل والإخفاق ، فلنكن منها على حذر ، ولنعرف الزعماء المغرضين النفعيين ، ولتجتنب الحكومات والمجتمعات تلك الحياة التي تبدأ بالزمجرة والسيوف ، وتنتهي بالطبول والكؤوس والمزمار والطاووس .

مقابلة صحفية مهمة :

وقد جاءت بعض جوانب هذا الموضوع وبعض حقائقه وانطباعاتي فيه بصورة واضحة في مقابلة صحفية أجراها معي مندوب جريدة الندوة الأستاذ عبد الكريم نيازي ، فور وصولي مكة المكرمة في أكتوبر عام ١٩٦٧ م ، ونشرت هذه المقابلة في عددها (١٧/أكتوبر ١٩٦٧م) ، أنقل بعض مقتطفاتها فيما يلي :

«سؤال : ما هو ردُّ فعل الحادثة في نفسكم؟»

كان جوابي : إن رد فعل الحادث في نفسي لم يكن مفاجأة ، فقد كانت كل الآثار والدلائل تدل على وقوع هذه النكبة في يوم من الأيام ، فقد كان بعض الناس ممن رزقهم الله البصيرة والعقل المؤمن والتدبر في القرآن يتنبأ بوقوعها ، كأنه يراها رؤيا عين . ولا يدل ذلك على عبقرية أو ألمعية خارقة للعادة أو نبوة أو إلهام ، فمن رأى قرية منفوخة وجسَّها بيده تكهَّن بمصيرها إذا مستها إبرة أو خرقتها شوكة ، فقد كانت القيادة التي تزعمت هذه المعركة تقاوم كل استعداد حربي ، وكل صرامة وجد من جهة القوة المنافسة بحذلقة الكلام ، وبراعة الصحافة ، وضجة الإذاعة ، ولذع الشتيمة ، قد كان بأسها أشد على من يشاركها في العقيدة والدم والنصر منه على الأعداء الذين يتربصون بها الدوائر ، ويقعدون لها بالمرصاد .

وقد انعكست الآية على أصحابها فكانوا أعزَّة على المؤمنين ، أذلة على الكافرين ، وأشداء على أنفسهم ، ورحماء على غيرهم ، وكان الأمر كله مناورة ومظاهرة ومسرحية كمسرحية علي بابا واللصوص التي تمثلها فرقة من أبناء المدارس ، فلما جدَّ الجدُّ وجاء الجنود الحقيقيون تفرق هؤلاء الممثلون وتركوا المسرح تحت رحمة المغيرين .

وهكذا تغلب الحقيقة على الصورة ، وقد دَعَم ذلك الحادث إيماني وعقيدتي بإعجاز القرآن وخلوده ونزاهته وتجرده من كل وشيجة وعصبية أو حمية الجاهلية ، فلا يمكن لكتاب من تأليف إنسان أو نتاج عقل بشري أن يتجرّد عن الوشائج والأنساب والدماء والأرحام ، ويقوم القسط والميزان ،

ويحكم بين الناس بالعدل ، كما فعل هذا الكتاب ، فحوّل الحقائق والأعمال والأخلاق والسعي والأخذ بالجد والباب ، لا القشور والمظاهر .

ومما يبعث على الأمل أن الإسم لا يزال جديداً في قوته ، دافقاً بالحياة ، لم يخض هذه المعركة ، فتتلوث شهرته أو تتلخخ كرامته ، أو تضعف الثقة به ، وإنما أقصِي عن الميدان ، واستغني عنه ، وكان كل الاعتماد على الشعارات الجاهلية والنعرات القومية والمبادئ المستوردة ، وأخفق كل ذلك الإخفاق الذريع ، وانهار الانهيار الفظيع الذي لا يترك حقاً لأحد في تجربة جديدة لها ، أما الإسلام فإنه لم يُجْرَب ولم تمتحن جدارته وقوته في هذه المعركة .

إذاً فلا داعي إلى اليأس والتشاؤم ، فالإسلام مستعد لصنع المعجزة ، وإعادة الأيام ، وتبديد الظلام ، وشق الطريق إلى الأمام .

سؤال : لقد زرت هذه البلاد بعد وقوع النكبة ، فهل شعرت بتأثيرها العميق في حياة أهلها ومشاعرهم وفي الحياة العامة والمدنية؟

الجواب : إنني لم أشعر بأثر ملحوظ لهذه النكبة في حياة هذه البلاد ، فإنني أرى رَحَى الحياة تدور كما كانت قبل النكبة ، كأن لم يحدث حادث ، ولم نكب في أعز مقدساتنا وفي كرامتنا ، ولم نفقد من اعتبارنا وقيمتنا ما فقدناه!!

سؤال : ما هو الطريق الوحيد للخلاص من آثار هذه النكبة ونتائجها؟

الجواب : الطريق الوحيد هو : إلى الإسلام من جديد ، هو تكوين جيل جديد مؤمن لا يحتمل الضيم ولا يرضى بالهوان ، ولا يتسلّى بالملاهي ، جيل يعيش على الجدّ والصرامة والخلق والعقيدة ، جيل يحمل حقيقة الإسلام لا صورته ، فلتتعاون صحافتنا وأدبنا وإذاعتنا والمعارف والتربية والإرشاد الوطني ، وكل أداة مؤثرة ووسيلة ميسرة في إنشاء هذا الجيل ، ولنحتفظ بالبقية الباقية من ديننا وخلقنا وكرامتنا وأعصابنا ورجولتنا ، فلا يبعث بها العابثون فإنها إذا ضاعت لا تعود ، وإنها من وراثه النبوة التي انقطعت عن الأرض وخُتِمت بمحمد رسول الله ﷺ ، ومن آثار المصلحين

والمرئيين ، وثروة هذه البلاد التي كانت ترسلها وتصدرها إلى أطراف العالم الإسلامي ، والآفاق البعيدة من هذا العالم المترامي .

الفتح للعرب المسلمين :

لقد شعرت بإلقاء هذه الخطب والمقالات في هذا الموضوع أنها قد تنتج في أذهان القراء السلبية واليأس من المستقبل الزاهر ، فرأيت أن أكتب مقالاً يورث في نفوسهم ثقة جديدة ، وطموحاً جديداً ، وحماساً جديداً ، ويعتقدوا اعتقاداً جازماً بأن اليهود مهما انتصروا وحازوا من النجاح والغلبة ما حازوا ، حتى ولو سيطروا - لا سمح الله - على نصف العالم ، فإنهم إلى انكسار وهزيمة ، لأنه لا مستقبل لهم ، وقد ضمن الله - تعالى - ببقاء الأنفع للناس : ﴿ فَأَمَّا الزُّبْدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ﴾ ، وإن الله رب العالمين ليس رب بني إسرائيل ، لا صلة له بأحد ، إنه يريد انتشار الخير والصلاح والعدل والمساواة ، واحترام الإنسانية في الدنيا ، لا سيطرة سلالة خاصة وغلبتها ، واستعباد الإنسان للإنسان ، ولا يملك اليهود رسالة عامة ولا احتراماً للإنسانية ، وأن العرب - رغم جميع علاتهم - حملوا هذه الخصائص والمميزات ، فهم لا يزالون يملكون ذلك الدين وتلك الصحيفة والشريعة التي تدعو إلى هذه المعاني النبيلة ، وذلك التاريخ الزاهر الذي يقدم أمثلة رائعة من احترام الإنسانية ووحدة بني البشر والمساواة الإنسانية ، ولذلك فإن المستقبل للعرب المسلمين ، فإنهم لو بقوا حملة الدعوة الإسلامية وأصحاب الدين الحق فالفتح والانتصار لهم لا محالة .

كتبت هذا المقال بعنوان : «الفتح للعرب المسلمين»^(١) ، ونشرتها في رسالة مستقلة ، ولما وصلت هذه الرسالة إلى سماحة المفتي الأكبر السيد أمين الحسيني تلقاها بإعجاب ، ونشرها من قبل اللجنة العليا لفلسطين بعنوان : «العاقبة للمتقين» .

(١) نشرت هذه الرسالة أولاً بنفس العنوان من المجمع الإسلامي العلمي بلكهنؤ (الهند) ثم نشرت أخيراً من دار المختار الإسلامي بالقاهرة بعنوان «العاقبة للمتقين» .

وقد نشرت هذه المجموعة من الخطابات والكتابات باسم: «المسلمون وقضية فلسطين»^(١) عدة مرات من دمشق وبيروت ، وكنت كتبت مقدمة مسهبة لهذه المجموعة ، وتناولت فيها أسباب النصر والهزيمة والذلة والعزة بالتحليل والدراسة ، في ضوء القرآن الحكيم والسنن الكونية الإلهية ، وضربت أمثلة من التاريخ لما تؤدي إليه الغفلة والترف والأمراض الخلقية والتعامي عن الحقائق بالقيادات والمجتمعات من العواقب الوخيمة ، وكيف نشأت هذه الأمراض ، ومواضع الضعف في جسم العالم العربي ، وما هي أسبابها الحقيقية ، وكيف كان يؤثر الأدب المنحرف والصحافة الماجنة في أخلاق الشعب وعقائده ، ويزلزل كيانه ، ويمهد الأرض لوقوع مأساة أليمة كهذه ، فليست هذه المأساة إلاّ النقطة الأخيرة في سلسلة الطريق والعمل الذي سار عليه الشعب .

* * *

(١) نشرتها: الدار الكويتية للطباعة والنشر بالكويت .

زيارة ستة أقطار إسلامية وعربية في غرب آسيا والشرق العربي^(١) عام ١٩٧٣ م في أرض الغزاة والفاثحين

دور أفغانستان في تاريخ الإسلام وفي تاريخ الهند:

إنَّ أفغانستان هي البلد الذي ظل في تاريخ الإسلام معدن الفروسية ، وعرين الأسود ، ومولد الفاثحين ، ومعقلاً من معاقل الإسلام ، وحين تحدّث أمير البيان الأمير شكيب أرسلان عن هذا البلد أخذته نشوة الحماس الإسلامي ، وتمثل له تاريخ هذا البلد المناضل ، فأطلق عنان القلم ، وقال : «ولعمري لو لم يبق للإسلام في الدنيا عرق ينبض لرأيت عرقه بين سكان جبال الهملايا والهندكوش نابضاً ، وعزمه هنالك ناهضاً»^(٢).

(١) قد كان لسماحة الشيخ الندوي شرف قيادة وفد زار ستة أقطار إسلامية وعربية في غرب آسيا ، وفي الشرق العربي وهي: أفغانستان ، وإيران ، ولبنان ، وسورية ، والعراق ، والأردن ، وكان هذا الوفد من ضمن الوفود الكثيرة التي أرسلتها رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة في سنة ١٣٩٣هـ (١٩٧٣م) إلى مختلف أنحاء العالم ، وانتظمت القارات الخمس؛ للتعرف على واقع المسلمين وأوضاعهم ومؤسساتهم ومتطلباتهم والتعريف بأهداف الرابطة ورسالتها .

وقد سجّل سماحة الشيخ الندوي أخبار هذه الجولة وانطباعاته وملاحظاته ، وما دار فيها من حديث وما ألقاه فيها من محاضرات ، وما حظي به من لقاءات وزيارات ، فجاء تسجيل أخبار هذه البلاد مصوراً لجوانب حياتها ، وما تواجهه من قضايا ومشكلات ، وما تعانیه من صراع فكري وحضاري ونفسي ، وما تحتاج إليه من إرشاد أو إسناد ، حتى يكون القارئ والمعني بمصير هذه البلاد على بينة من أمرها ، ووعي بطبيعة الأمور والأوضاع في هذه البلاد .

(٢) حواشي «حاضر العالم الإسلامي» للأمير شكيب أرسلان ، المجلد الثاني ص ١٩٧ .

وهو البلد المجاور للهند الذي اقترن تاريخه بتاريخها منذ فجر القرن الخامس الهجري^(١) ، وتداخلت حضارة إحداهما وثقافتها وآدابها وأساليب حكمها في حضارة الأخرى وثقافتها وآدابها وسياستها ، وتفاعلت هذه العوامل ، واختمرت حتى حدث من ذلك مزيج من حضارة وثقافة وإدارة لم تكن أفغانية خالصة ولا هندية مجردة ، حتى ولا إسلامية بحتة ، سمي في العهد الأخير بالحضارة الإسلامية الهنديّة .

وقد حكمت الهند منذ القرن الخامس الهجري إمّا سلاطات وأسر تركية الأصل ، قد دخلت الهند عن طريق أفغانستان ورافقها فرسان ومتطوعون من البلاد التي مرّوا بها ، كالغزنوية والمماليك والخلج والتغلق والمغول أخيراً ، وإما كانت أفغانية الأصل والحضارة والتقاليد ، كالأسر الغوريّة واللوديّة والسوريّة ، وكانت الهند منتجع أصحاب الطموح والفروسية ، والعصاميين والنوابغ الذين لم يجدوا مجالاً واسعاً لإرضاء غريزة الطموح والتسامي في بلادهم المحصورة بالجبال فيدخلون الهند - وقد أصيبت في فترات تاريخية بالإعياء الفكري وضعف في الإرادة والإدارة واضطراب في الحكم - فيدخلون وهم متدفقون بالحيوية والنشاط زاحرون بالطموح والحماس ، أصحاب جلدٍ وتقشف ، وأحلاس خيل ومغاوير حرب ، فينتصرون بالعدد القليل على العدد الكثير ، ويؤسسون حكومات قوية فتيّة ، ويدخلون في هيكل المجتمع الهندي دماً فائراً جديداً .

وكان كثير من الأسر الأفغانية التي تقطن في داخل البلاد أو على حدودها تنزح لضيق مواردها إلى الهند في التماس الرزق الكريم أو المركز العظيم ، وقد اتجهت هذه الموجات البشرية منذ العصر الإسلامي الأول ، وكانت تحمل معها خير خصائصها السلالية ومواهبها الموروثة ، وتضيف إليها ما تكتسبه من الشعوب الهندية والمجتمع الهندي من خصائص وأعراف وآداب إسلامية وأخلاق هندية فتزداد بذلك فتوة ، ومروءة على مروءة ، وذكاء على

(١) حين غزا السلطان محمود الغزنوي (المتوفى ٤١١هـ) الهند ، وأسس فيها حكومة إسلامية .

ذكاء ، حتى تتفوق - في كثير من الأحيان - على أبناء وطنها القديم في الشجاعة والنخوة والإباء والشمم ورقة الشعور ولطافة الحسّ ، وقد انتشرت هذه القبائل في الهند ، وكونت أمارات وإقطاعات ، وتكوّن منها جهاز الحكم في الحكومات المختلفة ، وكانت مادة الجيش في كل عهد وعموده الفقري .

وظل المسلمون مدّة طويلة ينظرون إلى أفغانستان كبلادٍ تصدّر إلى الهند ولاية وحكاماً وإداريين وعسكريين ، وكانوا يسمونها «ولاية»^(١) كما اعتادوا أن يسمّوا إنجلترا وعاصمتها بذلك في الحكم الإنجليزي ، وكانوا يسمّون الوارد من بلاد أفغانستان «ولايتي» ولم تقتصر حركة «التصدير» على الغزاة والفاثحين والقادة العسكريين بل عمت وتوسّعت ، فورد من أفغانستان إلى الهند خيرة العلماء والأساتذة الذين أحدثوا في الهند حركة علمية جديدة^(٢) وأتحفوها ببعض الكتب والمؤلفات التي شغل علماء الهند زمناً طويلاً بتفهمها وشرحها وتدريسها .

نظرة مسلمي الهند إلى أفغانستان :

وكان المسلمون في الهند ينظرون إلى أفغانستان في فترات حالكة وساعات عصيبة يشتد فيها اليأس ، ويغلب فيها الاتكال على المفاجآت والنجادات الخارجية - كبلاد منقذة لها من هذه الأزمات - وقد استرسلوا في الخيال ، وأغرقوا في التفاؤل حتى وصلوا في ذلك إلى حد الأحلام والأمانى المعسولة ، والتواكل الذي أضر بهم ، وقد تحقّق هذا الظن مرة بشكل رائع حين استفحل أمر المرهته ، وكادوا يستولون على الهند كلها ويقضون على البقية الباقية من نفوذ المسلمين واعتبارهم السياسي ، وكانت حكومة

(١) يعني مركز الأمراء والحكّام .

(٢) كالعلامة محمد أسلم الهروي (م ١٠٦١هـ) وابنه البارح مير زاهد صاحب الكتاب المعروف «مير زاهد رسالة» في المنطق (م ١١٠١هـ) أقرأ ترجمتها وتراجم العلماء الأفغان في الهند في كتاب «نزهة الخوطة» لوالد سماحة الشيخ الندوي العلامة السيد عبد الحي الحسني ، خاصة المجلد الخامس والسادس من هذا الكتاب .

«دهلي» لعبة في أيديهم ، والمسلمون تحت رحمتهم ، وعجزت قوة المسلمين العسكرية المصابة بالشلل والإعياء والتمزق عن مقاومة هذه القوة الناهضة ، وصار المسلمون ينظرون إلى أفغانستان كمخلص لهم من هذا الاحتضار واستحث بعض زعماء المسلمين^(١) همّة القائد العسكري الشرقي الأكبر أحمد شاه أبدالي ، الذي علا نجمه ، وظهرت صلاحيته القيادية في معارك حربية كثيرة ، وكان ذلك في سنة ١٧٦١م واجتمعت القوات الإسلامية - على اختلاف نزعاتها ومذاهبها - تحت رايته وحاربت «مرهته» فكانت معركة حاسمة وضربة قاضية عليهم ، ولم تقم لهم قائمة بعد.

وقد تطرّف المسلمون في اعتمادهم الزائد على أفغانستان والنظر إليها كمسعف أو منجد أيام الحكم الإنجليزي ، فكانوا يستشرفون الحدود الشمالية الغربية وينتظرون أن يدخل من مضيق «خير» قائد كأحمد شاه بجيشه الكثيف ، ويحررهم من حكم الإنجليز الأجنبي ، وكان طبيعياً أن يخيب ظنهم في كل مرة ، فقد شغلت أفغانستان بقضاياها الداخلية ، وبالمحافظة على استقلالها المهدد من روسيا من جانب ومن بريطانيا من جانب آخر ، وكانت أصغر وأضعف من أن تهاجم الهند وتنتصر على الحكومة الإنجليزية القوية الموطدة ، وعلى كلّ فقد عاش المسلمون وكثير من المواطنين الهائمين بالحرية والاستقلال زمناً رغداً من هذه الأمانى والأحلام.

ولما قتل الأمير حبيب الله خان بن عبد الرحمن خان سنة ١٩١٩م وبويع ابنه أمان الله خان بالملك ، ووقف أمام السياسة الإنجليزية موقفاً فيه القوة والرجولة ، وحقّق الجيش الأفغاني على الجيش الإنجليزي تحت قيادة الجنرال محمد نادر خان بعض الانتصارات ؛ شغف المسلمون وأنصار حركة

(١) كان في مقدمتهم حكيم الإسلام الشيخ ولي الله الدهلوي (م ١١٧٦هـ) وله رسائل كتبها إلى القائد الأفغاني ، تدل على بعد نظره ومعرفته بالأوضاع ، انظر كتاب «رسائل ولي الله السياسية» للبروفيسور خليق أحمد نظامي ، واقرأ الجزء الرابع من سلسلة «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» لسماحة الشيخ الندوي ، طبع من دار ابن كثير بدمشق.

التحرير بأمان الله خان شغفاً عظيماً ، وكان الحديث عنه حديث المحافل والشغل الشاغل ، وضاق المسلمون ذرعاً بالسياسة الإنجليزية ، وضاعت عليهم البلاد بما رحبت وانطلقت فيهم موجة الهجرة إلى أفغانستان ، فهاجر مئات من المسلمين الغياري ، والشباب الجامعي الثائر إلى كابل ، ولما كانت هذه الخطة غير مدروسة ولم يفكر أحد من زعمائها في عواقبها ولم يتفاهموا مع الحكومة الأفغانية أخفقت هذه الحركة ، وواجه أصحابها مشاكل كثيرة .

ثم وقع في أفغانستان من الاضطراب ما يعرفه الجميع ، لشذوذ أمان الله خان في بعض تصرفاته ، وخروجه عن العادات الإسلامية والتشبه بالإفرنج تقليداً لمصطفى كمال ، وسفور قرينته ، الذي هاج عليه الشعب الأفغاني ، واستغله الإنكليز الذين كانوا بالمرصاد وقضوا به وطهرهم في التخلص منه ، وكان ذلك في سنة ١٩٢٨ م ، وخلع الملك أمان الله خان ، واستولى حبيب الله المعروف بـ «بجّه سقّه» على البلاد ، وأقلقت هذه الحوادث أهل الهند ، واهتموا بها اهتمامهم بقضية بلادهم ، فكانت موضوع كل متحدث ، حتى جاء الجنرال محمد نارد خان ، وأخذ زمام الحكم في يده واستقرت الأمور ، وفرح الذين يهتمهم مصير تلك البلاد .

ولا أنسى دعوته للدكتور محمد إقبال وسر رأس مسعود^(١) رئيس الجامعة الإسلامية في عليكره ، والعلامة السيد سليمان الندوي^(٢) إلى كابل

(١) حفيد سرسيد أحمد خان مؤسس جامعة عليكره الإسلامية (الهند) كان من كبار رجال العلم بالهند في هذا العصر .

(٢) أحد كبار علماء المسلمين في القارة الهندية ، تفوق في الحديث وتاريخ الإسلام ، تخرج في دار العلوم - ندوة العلماء - على كبار أساتذتها ، كالعلامة شبلي نعماني ، ولي القضاء في بهوبال ، وتولى مناصب علمية أخرى ، أصدر مجلة «المعارف» بالأردوية ، ذاعت شهرتها في الآفاق في مدة قصيرة ، انتقل إلى باكستان عام ١٣٧٠ هـ ، فكان فيها رئيساً لجمعية علماء الإسلام ، له تصانيف قيمة مطبوعة بالعربية والأردوية ، ومن أشهرها بالعربية «الرسالة المحمدية» والأردوية «السيرة النبوية» في عشر مجلدات ضخمة . توفي - رحمه الله - بكراتشي سنة ١٣٧٣ هـ .

سنة ١٩٣٣م للبحث والمذاكرة في قضايا تعليمية وإسلامية ، وقد لبوا دعوته وAntهزوا هذه الفرصة لزيارة هذه البلاد العريقة في تاريخ الإسلام ومقابلة الملك المسلم المجاهد ، ولا أزال أذكر عودة أستاذنا العلامة السيد سليمان الندوي وحديثه الشائق المثير عن كابل ومعالمها ، وما تركته مقابلة الملك في نفسه من الأثر الطيب العميق ، ولكنه فوجيء وهو مقيم في لكهنؤ بنبا اغتياله وقد حزن للحادث حزناً شديداً ، وقد كان أمر الله قدراً مقدوراً.

وكانت الحدود مفتوحة بين أفغانستان والهند أيام الحكومة الإنجليزية يرد منها التجار وطلبة العلم والعلماء ، وكان أهل البلاد ينظرون إليهم نظر إكبار واحترام ، ويعتقدون فيهم قوة فائقة ، ونخوة زائدة ، وكنا نراهم في الصبا في القرى والمدن يحملون معهم بضائع بلادهم ويحافظون على الصلوات محافظة شديدة ، وكان فيهم فضل قوة جسمانية وهيئة ولباس يجذب الأنظار ويسترعي الانتباه ، فكنا نتهيهم ونحن أطفال ، ونسميهم «آغا» ولم نجرب ونحن في أيام الصبا إلا صنفاً واحداً من هؤلاء التجار والمتنقلين في البلاد ، فلما تقدمنا في السن والدراسة قرأنا عن جيراننا الشيء الكثير ، وعرفنا الشيء الكثير فتاقت نفوسنا إلى زيارة هذه البلاد.

تأخير زيارة أفغانستان:

وجاء دور الرحلات في حياتي ، فكانت إلى الشرق العربي ، ولم تبق عاصمة من عواصمه إلا وزرتها ، وزرت «تركية» مرتين ، وأوربة ثلاث مرات بما فيها من عواصم شهيرة ومدن كبيرة ، وإسبانيا - الفردوس الإسلامي المفقود - وزرت بعض بلاد المحيط الهندي في شرق آسيا. وكانت كل القرائن تدل على أن تكتب لي زيارة لهذا البلد المجاور القريب خصوصاً بعدما تحررت الهند وتوثقت بينها وبين أفغانستان صداقة ، وكان لنا في كابل وغزنين أصدقاء ورجال تربطنا بهم رابطة الدين والعلم.

وكان لأفغانستان دور خطير في تاريخ الإصلاح والتجديد والكفاح والجهاد الذي انبثق عن دعوة السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد المتوفى

١٢٤٦هـ وجهاده ، وفي حركته التي قادها فقد وصل إلى مركزه الذي بدأ منه نشاطه وتحركاته العسكرية عن طريق أفغانستان ، واستقبلته البلاد استقبالاً منقطع النظير ، وتقاطر عليه أهلها حكومة وشعباً ، وطابت إقامته في كابل ، وكانت له مع الأسرة الحاكمة حينئذٍ صلات تضعف أحياناً ، وتقوى أحياناً ، وله معهم قصة طويلة زخرت بها كتب التاريخ^(١) ، ولو عرف أمراء أفغانستان في تلك الفترة التاريخية الحاسمة قيمة الوقت وعرفوا فضل هذه الدعوة ومكانة قائدها العظيم ومدى إخلاصه وتألمه وتأثيره؛ لكان للإسلام والمسلمين في هذه المنطقة تاريخ أجمل وأشرف بكثير من تاريخها اليوم ، وقد ألفت كتاباً في سيرة هذا الإمام وتاريخ هذه الدعوة وأنا في ريعان الشباب ، وزرت المنطقة التي وقعت فيها المعارك وقام فيها نظامه الإسلامي في الحدود الشمالية الغربية أكثر من مرّة ، ولم تكتب لي زيارة أفغانستان مع ولعي بهذا التاريخ وعكوفي على البحث والتحقيق في هذا الموضوع وحببي للشعب الأفغاني الباسل الغيور ، ووطنه العريق في النضال في سبيل الإسلام ، وفي سبيل الاحتفاظ بالاستقلال والكرامة .

في وفد رابطة العالم الإسلامي :

وجزى الله رابطة العالم الإسلامي خيراً إذ أتاحت لي فرصة زيارة هذه البلاد ، وهيأت لي أسبابها وتغلب جدّها وإلحاحها على معاذيري وكثرة أشغالي والعوائق التي تعترضني في تحقيق هذه الأمنية؛ فشكلت وفداً من وفودها يزور أفغانستان وإيران وبعض الأقطار العربية في غربي آسيا ، واختارت اثنين من أعضاء المجلس التأسيسي للرابطة ليكونا عضوين في هذا الوفد واختارت الدكتور عبد الله عباس الندوي المسؤول عن المنظمات الإسلامية في الرابطة ، ليكون سكرتيراً للوفد ومرافقي الخاص ومساعدني في هذه الرحلة ، إلا أن العضوين الكريمين ، وهما فضيلة الشيخ سعدي ياسين من بيروت ومعالي الشيخ حنيفة محمد حنيفة من سيلان - لم يتمكنوا

(١) اقرأ كتاب «إذا هبت ريح الإيمان» لسماحة العلامة الندوي صدر عن دار ابن كثير بدمشق .

من الوصول إلى الهند لبعض الأسباب ، فوقع اختيار الأمانة العامة على الكاتب الإسلامي المعروف سعادة الأستاذ أحمد محمد جمال^(١) عضو مجلس الشورى في المملكة العربية السعودية وأستاذ الثقافة الإسلامية في جامعة الملك عبد العزيز بجدة ، فكان اختياراً موفقاً قد صادف أهله ، ووصل إلى كابل من مكة رأساً يوم الأحد ٣/ يونيه ١٩٧٣ م صباحاً وتأخر سفرنا لبعض الأسباب إلى يوم الإثنين ٤/ يونيه مساءً .

وكانت الأمانة العامة وعلى رأسها معالي الشيخ محمد صالح القزاز^(٢) الأمين العام للرابطة - قد اتصلت بالجهات الرسمية في أفغانستان وبسفارة المملكة العربية السعودية في كابل بشأن هذه الزيارة وتخطيط برامجها ، وتمكين الوفد من القيام بمهمته وأداء رسالته على أفضل طريق ، وقد رحبت حكومة أفغانستان بهذا الوفد الذي يمثل أكبر مؤسسة إسلامية ، يمثل فيها أكبر عدد من كبار علماء الأقطار الإسلامية ، قادة الرأي وأصحاب الفكرة ، وتقوم في بلد له في قلوب المسلمين أشرف مكان ، ويشرف على هذه المؤسسة جلال الملك فيصل المعظم خادم الحرمين الشريفين والداعي الأكبر إلى التضامن الإسلامي .

وألحت - والأفغان معروفون بالاحتفاء بالضيوف والحرص الشديد على

(١) كان من كبار الكُتَّاب الإسلاميين ، وعظام المفكرين المعاصرين . تخرَّج من المعهد العلمي السعودي بمكة المكرمة سنة ١٣٥٩ هـ . واختير أستاذاً للثقافة الإسلامية بجامعة الملك عبد العزيز ، ثم بجامعة أم القرى ، وكان ذا ثقافة عميقة وعالية ، شغوفاً بكتب الشيخ حسن البنا ، والأستاذ سيد قطب ، وسماحة الشيخ الندوي ، أشرف على سلسلة «دعوة الحق» التي تصدرها رابطة العالم الإسلامي حتى وفاته ، وله كتب قيمة في الفكر والدعوة ، ومن أشهرها «مفتريات على الإسلام» توفي بالإسكندرية سنة ١٤١٣ هـ ودفن بمكة المكرمة ، تغمد الله بواسع رحمته .

(٢) الذي أجرى الله على يده الخير الكثير وخصه بكرامة الإشراف على مشروع توسيع الحرم المكي ، وتوسيع المسجد النبوي الشريف ، كان اسماً طابق المسمى ، ورجلاً جمع بين الصلاح والديانة المتينة ، والنبيل والكرم ، والقوة على الأمور الإدارية التنظيمية ، وقلما تجتمع هذه الخلال في شخص واحد ، توفي رحمه الله بمكة المكرمة سنة ١٤٠٩ هـ .

إكرامهم - على أن ينزل الوفد في ضيافتها الكريمة ، وأن تكون وزارة المعارف هي النائبة عنها والقائمة بتسيير مهمته ورسم مخططة وبرامج الزيارة واللقاءات ، وقبلت السفارة شاكراً هذا العرض الكريم .

في كابل :

وكان توجهنا من دهلي مساء يوم الإثنين ٤/ يونيه بطائرة أفغانية ، ولما أعلن المذيع دنو الطائرة من كابل كان لهذا الاسم رنين في الآذان وحين في القلوب فقد آن لأمنية قديمة أن تتحقق ، ووصلت الطائرة إلى مطار كابل في الساعة الخامسة نهاراً بتوقيت كابل ، وكان الطقس مقبولاً وأميل إلى الاعتدال بالنسبة إلى طقس دهلي القاسي ، وكان في استقبالنا سعادة سفير المملكة العربية السعودية الصديق القديم والأخ الأكبر الحميم الشيخ محمد الحمد الشيلي سفير المملكة في دهلي سابقاً ، وقد أحبه المسلمون في الهند وأحبهم ، وسعادة الأستاذ علي الفوزان المستشار الأول في السفارة ، وسعادة الأستاذ أحمد محمد جمال عضو الوفد ، والأستاذ غلام محمد نيازي عميد كلية الشريعة في جامعة كابل ، وفضيلة الشيخ محمد إسلام تسليم المشرف على المدارس الدينية والتعليم الديني في وزارة المعارف الأفغانية ، وسيد محمد يعقوب الهاشمي مدير دار الحفاظ في كابل ، والأستاذ عبد الرسول سيف أستاذ كلية الشريعة ، وهو الذي اختارته وزارة المعارف ليكون مرافقاً لنا في هذه الزيارة ومترجماً للوفد ، وعدد من علماء كابل ورجال العلم والدين .

وكان نزولنا في فندق «أوتيل كابل» ومن حسن المصادفة أن الوفد المؤلف من سماحة مولانا السيد سليمان الندوي والعلامة محمد إقبال وسرّ رأس مسعود نزل في هذا الفندق قبل أربعين عاماً؛ إلا أنه قد تجدد بناؤه وأدخلت عليه تحسينات كثيرة ، وكانت نافذة الغرفة التي نزلت فيها تفتح على مقبرة الأمير عبد الرحمن الغازي الذي كانت له مواقف محمودة مشرفة

في محاربة الإنجليز وفي نشر الإسلام في المناطق التي ظلت بعيدة عنه^(١). فاستحضرنا تاريخه المجيد وأيامه الطيبة.

في ضيافة وزارة المعارف وتوجيهها:

وكانت الأيام التي كنا نقضيها في كابل ستة أيام ، وضعت وزارة المعارف برامجها بالتعاون مع السفارة السعودية للزيارات واللقاءات والحفلات والأحاديث ، وكان الفضل الأكبر في هذا التخطيط والرسم بل في الاهتمام بموضوع الوفد والاحتفاء به للأستاذ الكبير ريوهاند غلام محمد نيازي عميد كلية فاكثوله شرعيات - بوهنتون - كابل ، يعني عميد كلية الشريعة في جامعة كابل ، وكان أول التوفيق اختيار الأستاذ عبد الرسول^(٢) سياف أستاذ كلية الشريعة كمرافق ومترجم ، وهو رجل مهياً لهذه المهمة الدقيقة الصعبة ، فكرة ومقدرة وعقيدة وحماساً ، ولم أجد مترجماً أقدر على الترجمة وأكثر إخلاصاً ووفاءً لما ينقله من لغة المتحدث إلى لغتهم ، وله اتصال وثيق بالشباب الجامعي واهتمام خاص بالتوجيه الإسلامي والتربية الفكرية على الأسس السليمة في طلبة الكليات والجامعة ، وقد تخرج من كلية أصول الدين في الأزهر ، وقرأ بعض مؤلفاتي قبل أن يلتقاني ، وهو وكثير من زملائه معجبون بكتب الأستاذ سيد قطب والأستاذ المودودي ومؤلفات كاتب السطور ، وحريص على نقلها إلى لغتي البلاد الفارسية والبشتوية ، ويشاركه في هذا الاتجاه أستاذان آخران وهما الدكتور

(١) يقول الأمير شكيب أرسلان في حواشيه المعروفة عن الأمير عبد الرحمن خان بعدما ذكر فضائله الإدارية والسياسية: «ووسع حدود البلاد من جهة الشرق ، واستولى على ولاية كافرستان التي هدى الله أهلها على يده إلى الإسلام ، فسمها «نورستان» وبالإجمال فقد ذاقت مملكة الأفغان في زمانه طعم الراحة وعرفت معنى الوحدة ، وما زال يسدد أمورها إلى أن قبضه الله إليه سنة ١٣١٩ هجرية وفق ١٩٠١ ميلادية ، وهو معدود من أفضل ملوك هذا العصر في سداه وحكمه ومضاء عزيمته» (حاضر العالم الإسلامي ، المجلد الثاني ، ص ٢٠٩).

(٢) إن هذه التسمية محل نظر (وأمثال هذه الأسماء شائعة في بلاد العجم ، وكان الأولى أن يكون الاسم عبد رب الرسول).

محمد موسى توانا وبرهان الدين رباني^(١) وللأخير تراجم منشورة وكتابات مطبوعة .

وكانت الأيام الستة التي قضيناها في كابل قليلة بالعدد غير كافية بالنظر إلى أهمية البلاد ، وسعتها ، ولكنها كانت كبيرة القيمة كثيرة الجدوى بالنظر إلى البرامج والأعمال . وقد دفعنا غرامة قصر الإقامة - الذي كنا مضطرين إليه لبعض الأسباب - وتحملنا عقوبته في الاشتغال المرهق والعمل الدائب والبرامج المتصلة بعضها ببعض ، فقد تجتمع في يوم واحد أربعة برامج أو خمسة ، فيها زيارة المعاهد الكبيرة والحديث فيها ولقاء شخصيات بارزة وحضور مادب ، وكنا لا نرجع في بعض الأيام إلا متأخرين في الليل متعبين لكثرة التنقل والحديث والسهر ، ولكن كان فيما كنا نلقاه من ترحيب إخواننا الأفاضل وحماسة الشباب وحسن استجابتهم تعويض كريم لما كنا نبذله من قوتنا ونشاطنا ، ونفقده من راحتنا واستجمامنا .

زيارة المعاهد العلمية والمراكز الثقافية :

وكانت في مقدمة المعاهد العلمية والمراكز الثقافية التي زرناها وتحدثنا إلى أساتذتها وطلبتها مدرسة أبي حنيفة في «بكرامي» من ضواحي كابل ، وهي مدرسة تشتمل على المراحل الثلاث الابتدائية والمتوسطة والثانوية ، وقد طاف بنا مدير المدرسة الفاضل الأستاذ محمد سيلاني على فصولها ورواقتها ومطعمها ، ثم تحدثنا إلى عدد كبير من الشباب والأساتذة وطمانونا على أن المستمعين يفهمون اللغة العربية فلم نحتج إلى ترجمان ، وكان المعهد الثاني الذي زرناه مدرسة دار الحفاظ وقد استقبلنا مديرها السيد محمد يعقوب الهاشمي وعقد حفلة تكريم حضرها أساتذة الدار وعدد من علماء كابل وشيوخه ، والمعهد الثالث الذي زرناه دار العلوم ، وهو المركز العلمي الديني الرئيسي في كابل وأكبر مدرسة دينية في العاصمة ، وسمعت أن رئيس الوزراء الحالي الدكتور محمد موسى شفيق من

(١) الذي صار فيما بعد رئيساً لأفغانستان .

المتخرجين فيها ، وفيها أساتذة فضلاء وشيوخ أجلاء ورؤيس الأساتذة فيها وشيخ الحديث هو الشيخ محمد كل ، وقد عقدت في فنائها حفلة كبيرة حضرها أكثر علماء البلد وكثير من الأعيان والوجهاء واستقبل الوفد بحماسة وحفاوة ، وتكلمت أنا والأستاذ أحمد محمد جمال وكان حديثي عن مآثر خليفة رسول الله أبي بكر الصديق في غيرته على الدين وحمايته من المحرفين والمرتدين ، وكلمته المأثورة الخالدة: «أينقص الدين وأنا حيّ» ومسؤولية العلماء في بلادهم ، وأرسلنا النفس على سجيتهما لأن الجو علمي ديني ، وأكثر الحاضرين يفهمون اللغة العربية .

وكان في مقدمة المؤسسات العلمية الكبيرة التي سعدنا بزيارتها والتحدث إلى أساتذتها وشبابها: كلية الشريعة ، وهي المكان الطبيعي لأعضاء الوفد الذين ينتمون إلى الأسرة العلمية الدينيّة ويشغلون بالبحث في الموضوعات الشرعية ، وهي المضيئة الحقيقية للوفد ، وعميدها الدكتور غلام محمد نيازي من كبار الأساتذة والباحثين المتعمقين في فهم الدين والمتوسعين في الدراسات الإسلامية ، وقد عقدت الكلية حفلة عشاء للتعارف بالإخوان والزلاء الأفاضل ، وإليها يرجع الفضل في الحفلة الكبيرة التي انعقدت في مدرج جامعة كابل الكبير ، وحضرها بعض السفراء وكبار الأساتذة والمثقفين والموظفين ، وعدد كبير من طلبة الكليات والشباب الجامعي ، ونص المحاضرة التي ألقيت فيها سيمر بالقارىء قريباً .

وزرنا ثانوية «ملالي» للبنات ، المنسوبة إلى سيدة أفغانية اسمها «ملالي» قادت حركة الاستقلال ، وألقى فيها سعادة الأستاذ أحمد محمد جمال كلمة لطيفة تلقي ضوءاً على مركز الفتاة المسلمة في الشريعة الإسلامية وحقوقها وكرامتها ومكانتها في المجتمع ، وكنا نشعر ونحن في هذه الثانوية أننا في معهد للبنات في عاصمة أوروبية أو مركز من مراكز الثقافة الغربية ، وقد كان السفور عامّاً يشوبه شيء من الحياء الذي امتاز به الشعب الأفغاني ، وقد وجهت إلى الخطيب بعض الأسئلة في رزانه وتحفظ ، وأجاب عنها في لباقة ولياقة ، وهو صاحب اختصاص في موضوع حقوق المرأة المسلمة ودراسة مقارنة للتشريع الإسلامي والتشريعات الأجنبية ، وطالبت الناظرة أن تصدر

فتوى جماعية في تحريم حقّ تعدّد الزوجات لأنه إهانة للمرأة ، وشرح الأستاذ الأسباب التي جعلت الإسلام يقي على إباحة هذا الحق .

وزرنا ثانوية للبنين تسمّى «مدرسة الاستقلال» على أحدث طراز يغلب عليه الطابع الفرنسي (ومديرها الأستاذ عبد الهادي تثقف في فرنسا) وكان لي فيها شرف التحدث إلى الشباب ، وكان حديثي يدور حول (المثل الكامل) أو القدوة وما لها من تأثير في تربية الشباب وصياغة السيرة والأخلاق .

حديث مع السيدات الأفغانيات «المتجددات» :

وكانت السفارة العربية السعودية حريصة شديدة الحرص على الاستفادة والإفادة من هذه الفترة القصيرة التي نقضيها في كابل ، وانتهاز فرصة لعقد ندوات علمية ودينية ، وللتعرف على أبرز الشخصيات المثقفة من مختلف الطبقات ، فعقدت ندوتين في منزل سعادة السفير الواسع العامر ، إحداهما ندوة للسيدات المسلمات المنتميات إلى البيوتات الكريمة والأسر المحترمة ذات الاتجاه الديني ، لم تكن السيدات اللاتي حضرن هذه الندوة ناثرات على العقيدة الإسلامية ، متنكرات للدين رغم ثقافتهن العصرية .

تغلغل الثقافة العصرية وأفكار المستشرقين في المجتمع الأفغاني النسوي :

ولكن لاحظنا أن المدنية الغربية قد قطعت شوطاً بعيداً في هذه البلاد ، وأن الثقافة الغربية قد آتت أكلها يانعة ناضجة ، وأن المسافة بين الفترتين ١٩٢٨م - ١٩٧٣م كانت واسعة بعيدة ، فقد كان الشعب الأفغاني عاضاً عليها بالنواجذ ، حتى بلغ في ذلك حد التطرف والمغالاة ، وكان نتيجة ذلك أن خروج الملك أمان الله خان عن بعض هذه التقاليد أحدث ثورة أطاحت بعرشه ، أما الوضع الآن فمختلف جداً ، إنها مسافة قصيرة بالحساب الرياضي ، وهي مدة خمس وأربعين سنة ، ولكن المسافة الفكرية والثقافية هي مسافة شاسعة يقطعها بعض الشعوب في قرن ، فقد أصبح الحجاب الآن رمزاً للتخلف والجهل والفقر ، ولذلك انكمش ولجأ إلى القرى والأرياف وبيوت بعض العلماء المحافظين والفلاحين البعيدين عن

العاصمة ، كان اللباس أفرنجياً خالصاً. ولكن البيئة القديمة والطبيعة الأفغانية المسلمة كانت لا تزال لها بقايا في حديث هؤلاء السيدات المسلمات المثقفات ، ولم تكن هنالك ثورة عارمة على الدين وعلى الشريعة الإسلامية ولم يبلغن إلى حدّ السخرية والاستهزاء بالدين ، بل كن في غالب ما يتحدثن به محتشمات عارفات قيمة الدين ومكانته ، يبدن رغبتهم في معرفة مكانة المرأة في الإسلام وما منحها من حقوق وكرامة ، وكانت أسئلتهم تنم عن مدى تأثير كتابات المستشرقين ، وما قاموا به من دعاية دقيقة مصمّمة تصميماً حكيماً حول الإسلام ومبادئه ونظمه ، وما نشرته الحضارة الغربية من فكرة مساواة المرأة والرجل مساواة كليّة ، وبجانب ذلك كنا نلاحظ تقصير علماء المسلمين وكتّابهم ودعاتهم في عرض الشريعة الإسلامية في الأسلوب العصري الجذاب وفي إقناع الطبقات المثقفة إقناعاً عقلياً ، وعلى كل فقد اتسعت الفجوة بين الطبقتين ، طبقة العلماء ممثلي الدين وبين الطبقة المثقفة ، واتسع الخرق على الراقع .

وكانت الكلمة في هذه الندوة لزميلنا الفاضل سعادة الأستاذ أحمد محمد جمال ، فهو كما قدمنا صاحب الاختصاص في هذا الموضوع وله فيه جولات ، وكتابه «مكانك تحمدي» من أحسن ما كتب في هذا الموضوع ، ورأيت من المناسب أن ألقى كلمة عامة تهيئة للعقول والأسماع فقلت :

«إنني عنيت بدراسة تاريخ الحضارات والمجتمعات وخاصة تاريخ أسباب التقدم والانحطاط في الأمم والمدنيات. فوجدت أن من أعظم أسباب الانحطاط والفوضى التي أدت إلى زوال الأمم وانقراضها وانحطاط المدنيات وانهارها - هو تفكك نظام الأسرة واختلال الميزان في الحياة المنزلية وسوء علاقة الرجل بالمرأة ، والمرأة بالرجل ، وزهد النساء في الحياة المنزلية والتهرب من مسؤولياتها ، فما رأينا مجتمعاً مائلاً إلى التدلي والانحطاط وأمة تسير بخطى سريعة واسعة إلى النزول والانقراض إلا وقد فشا فيها هذا الداء ، وبدأت السيدات فيها ينصرفن عن الحياة المنزلية وتكليفها ، ويزهدن في (الأمومة) ومسؤولياتها وحضانة الأولاد وإنشاء الجيل الجديد ، والاعتناء بتكوين البيت الصالح الذي يجد فيه الرجل جميع

أسباب الراحة والهدوء ويتخيل إذا دخله أنه الجنة؛ إلى مشاركة الرجال في وظائفهم ومجالات نشاطهم ومزاحمتهم بالمناكب ومسايرتهم بل ومنافستهم في جميع ميادين الحياة ، وهذا الذي جرّ على تلك المجتمعات قلقاً فكرياً وفوضى اجتماعية وثورة خلقية ، وعجّل وصولها إلى الهاوية التي لا قرار لها وهذه قصة اليونان القديم وروما وفارس القديمة ، وإني أخشى على الأمم الشرقية هذا المصير المؤلم وقد بدت طلائعه في مجتمعنا الإسلامي الشرقي» .

هذه خلاصة كلمتي مع زيادة وإيضاح للفكرة ، فإن الكتابة تبلغ حيث لا تبلغ الخطابة ، ولعل هذه السطور التي نسطرها الآن تصل إلى أخواتنا الأفغانيات الفاضلات الكريمات فيتنبهن إلى الخطر المحدق بالمجتمع الأفغاني المسلم ويحرصن على ألا يكن أقوى العوامل في الوصول إلى هذه النهاية الأليمة .

ثم تحدّث الأستاذ أحمد محمد جمال حديثاً علمياً ، وشرح نظرة الإسلام إلى المرأة وتحديد مكانتها في المجتمع ووظيفتها في الحياة وفضلها في تكوين الأسرة الصالحة والمجتمع الفاضل السليم ، وتوجه فيض من الأسئلة يدور أكثرها حول تعدد الزوجات ، وتخصيص حق الطلاق بالرجل ، والحجاب الشرعي ، وانتهت الندوة في جو من الهدوء والوقار ، وانصرف الضيوف والضيفات إلى العشاء وصلاة العشاء .

وقد حضر زميلنا الفاضل الأستاذ أحمد محمد جمال ندوة نسوية أخرى لإحدى الجمعيات النسائية في كابل لم أحضرها لكوني في ذلك الوقت في غزني ، فأخبرني بأن المناقشة كانت حادة في موضوع الحجاب وتعدّد الزوجات وحق الرجل في الطلاق ، وقد دل ذلك على القلق الفكري الشديد الذي يوجد في المجتمع النسوي الأفغاني ومدى تأثير الدعاية الأجنبية في ثقافته .

حديث مع علماء كابل :

وكانت الندوة الثانية خاصة بالعلماء ، وقد لبي دعوة السفارة التي تتمتع

بالاحترام الزائد في الأوساط الدينية والمجتمعات الإسلامية في البلد أكبر عدد من العلماء ، والشيوخ وجلسنا في جو من الإخاء ، والبساطة والبعد عن التكلف ، وكان حديثي في هذه الليلة يدور حول مسؤولية العلماء نحو الدعوة والاتصال بالشعب اتصالاً مباشراً ، ونوهت بأهمية طبقتين بصفة خاصة: الجماهير والشباب ، وذكرت في ذلك تجارب بعض الجماعات والدعوات ، وأشارت إلى جماعة التبليغ في شبه القارة الهندية ، ومنهج دعوتها وكيف نجحت إلى حد كبير في الاتصال بالشعب والوصول إلى عامة المسلمين في بيوتهم ومتاجرهم ، وما كان لها من انتشار في الأقطار الإسلامية ومن تأثير وفضل في إيقاظ الشعور الديني وإثارة العاطفة الدينية والبعث على الرجوع إلى الله وإصلاح الحال وتقويم الأخلاق والأعمال والإيثار وبذل الجهود وعلو الهمة في سبيل الله ، وقلت: إن بقاء الشعب من غير توجيه ديني وتربية إسلامية ووعي شامل خطر كبير ، وأنه يصير لقمة سائغة ومالاً سائباً لكل مفسد وملحد ، وللدعوات الهدامة والفلسفات المحاربة للإسلام.

ثم نوهت بضرورة العناية بالشباب وخاصة الشباب الجامعي وأنهم رجال الغد وأمة المستقبل وهم الذين يتولون قيادة البلاد وصياغة الحياة وتشريع القوانين وتوجيه المعارف ، ويملكون مفاتيح الأمور وزمام الحكم ، وفي صلاحهم صلاح البلاد وفي اقتناعهم بفضل الإسلام وإيمانهم بقيمه ومفاهيمه وحماسهم للدين بقاء الإسلام وقوته وسيطرته ، وفي عدم ثقتهم بصلاحية الإسلام واضطرابهم في العقيدة ويأسهم من مستقبل الإسلام وصلاحيته للقيادة وإيمانهم بأن الحضارة الغربية هي آخر ما وصل إليه الإنسان من التقدم والتحرر والسعادة والعز ، وإنها هي القدر المحتوم الذي لا محيد عنه ولا مفر ، زوال للإسلام أو انسحاب عن ميدان الحياة وردة فكرية وحضارية تغزو البلاد كلها وتنطلق موجتها العارمة فلا تدع بيتاً من مدر ولا وبر ، ولا تدع مزرعة فلاح ولا مدرسة عالم ولا زاوية شيخ ، ويئنت مصير بعض البلاد الإسلامية التي فرط علماؤها في العناية بالشباب وإحراز ثقتهم وإعجابهم ، وتركهم حبلهم على غاربهم يفترسهم من شاء من

دعاة الإلحاد والإفساد أو الشيوعية والوجودية والتحليل ، كيف استحوذ على هؤلاء الشباب الملحدون والزنادقة ودعاة القومية المتطرفة أو الشيوعية الملحدة ، واختاروا لعملهم مجالين : مجال الجامعة ومجال الجيش ، فاستطاعوا في مدة قصيرة لا تزيد على بضع سنين أن يسرقوا البلاد بعصاهم ويتقلدوا مفاتيح الحكم ، ويسيطروا على كل ماله تأثير في توجيه البلاد وسياستها .

وذكرت أن العمل في الشباب يحتاج إلى الأسلوب الجديد واللغة العصرية ومعرفة دقيقة بنفسيتهم ومشكلاتهم التي يعانونها ، وأنه لا بدّ في ذلك من العمل بالوصية التي نسبت إلى سيدنا علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - «كلموا الناس على قدر عقولهم ، أتريدون أن يكذب الله ورسوله» وإن المهم في هذا الموضوع هو إعادة الثقة فيهم بصلاحية الإسلام للحياة والقيادة ، وأنه ليس مسaireاً للزمن فحسب بل هو سابق للزمن ، وصنع الله الذي أتقن كل شيء ، ويفيد في هذا المجال عرض الكتب الإسلامية التي تلائم ذوقهم وتفتح عقولهم ، وتأليفها ونشرها أو نقلها إلى اللغات المنتشرة في هذه البلاد .

وتكلم الأستاذ أحمد محمد جمال أيضاً ، وأثار بعض الجوانب المهمة ، ثم بدأت المذاكرة وعلّق بعض الحاضرين الفضلاء ، وفي مقدمتهم الأستاذ بشار المدين العام للوعظ والإرشاد بوزارة الصحافة والإعلام ، والأستاذ محمد هاشم المجدّدي وعلّق على الحديث ، أوضح بعض النقط الهامة وانفضّ المجلس ، وكان الإعجاب والتأثر باديين على الوجوه ، والسرور يغمر الجوانح .

لقاءات مع الوزراء والمسؤولين :

أما اللقاءات فكان في مقدمتها مقابلة معالي وزير المعارف محمد ياسين عظيم ، ونائبه الدكتور محمد صدّيق في مكتبهما ، وتناول الحديث موضوع توجيه المعارف وسياستها في الأقطار الإسلامية ، ورأينا من معالي الوزير حسن إصغاء وعناية بالموضوع وشعوراً بالمسؤولية الصخمة ، ولما كانت وزارة المعارف لها الفضل الكبير في تخطيط برامجنا وتيسير مهمة الوفد ،

وكانت هي المضيئة بالنيابة عن الحكومة ، شكرنا معالي الوزير وسعادة نائبه على الضيافة الكريمة وأبدينا عواطفنا ، وقد عقدت وزارة المعارف مأدبة تكريم للوفد، وقابلنا كذلك معالي الأستاذ عبد الستار سيرت المستشار الأول للصدر الأعظم (رئيس الوزراء) وهو تعلم في مصر وتخرج من الأزهر وكان يتكلم اللغة العربية بطلاقة كأبنائها ، وقابلنا سعادة سميع الدين (زونند) وكيل وزارة العدل ، وسعادة عبد الهادي هدايت ، وكيل الوزارة لشؤون النيابة العامة ، والأستاذ كمال شنواري ، رئيس إدارة الأوقاف العليا ، والأستاذ محمد صديق كباري رئيس جمعية العلماء ، وكانت عندهم مجموعة كريمة من الموظفين في وزارة العدل ورؤساء بعض شعبها وفروعها ، وقابل سعادة الأستاذ أحمد محمد جمال قبل وصولي إلى كابل معالي وزير الإعلام.

وكان الأستاذ عبد الرسول سيف يقوم بوظيفة الترجمة والتعبير عن حديثنا في جميع الاجتماعات واللقاءات باللغة الفارسية في مقدرة ومهارة ، ولاحظنا أن اللغة الفارسية هي اللغة التي يتكلم بها المثقفون والوزراء والموظفون الكبار ، وإن كانت اللغة البشتوية هي اللغة الرسمية التي تكتب فيها الرسائل الحكومية وتصدر فيها أحكامها وتوجه فيها الدعوات ، ولكن اللغة الفارسية يفهمها الجميع ويتكلمون بها في مناسبات علمية وندوات أدبية ، وسمعت أنها أكثر انتشاراً ورواجاً في قندهار المتاخمة لحدود بلوخستان ومركز دعوة بختونستان .

وكان من أفضل من تعرفنا عليهم في الزيارة وسعدنا بمرافقته وتوجيهاته ومساعدته صاحب الفضيلة الشيخ «محمد إسلام تسليم» الذي هو نموذج العلماء الذين يجمعون بين الرسوخ في الدين والاستقامة والمحافظة على مكانته في أفغانستان الجديد ، وهو يتمتع بثقة زائدة واحترام من أولياء الأمور في وزارة المعارف وكبار المسؤولين .

ضعف نفوذ العلماء في الشعب ونتائجه :

وكانت أفغانستان بلد العلماء والمشايخ قبل فترة قصيرة ، وكان الشعب

خاضعاً لنفوذ العلماء خضوعاً لم يعرف لشعب شرقي آخر ، وكان لتزكيتهم وإعجابهم بشخصية أو حكومة ولنقدهم وعدم ارتياحهم قيمة كبيرة وتأثير عميق يحسب له حساب كبير في الحكومة والشعب ، وكان لهاتفهم بالجهاد الذي يسمونه عادة «غزا» صدى واسع في القرى والأرياف والمدن واستجابة ليست لدعوة أخرى ، وإليهم يرجع الفضل في محاربة الإنجليز ومحافظة البلاد على استقلالها وحرّيتها وتمسّكها بالغيرة الدينية وكثير من الأخلاق والآداب الإسلامية ومحاربة الدعوات المنافية للإسلام الشاذة المنحرفة عن الإسلام ، ولعل ذلك من أسباب بقاء المحاكم الشرعية والحكم بالشرع الإسلامي في أفغانستان حين قضى على ذلك في أكثر البلاد الإسلامية ، ولا شك أن حكومة أفغانستان في ذلك تستحق التهنئة والاعتراف بالفضل .

وقد تخرّج مئات من طلبة العلم في مدارسنا الدينية الكبيرة في الهند ، وفي مقدمتها جامعة ديوبند المشهورة ، ومعلوم أنّ الشعب الأفغاني - كالشعب التركي - سني حنفي ، لا يشذ عن ذلك إلا شاذ . وقد لاحظنا في زيارتنا أنّ هذا الجيل من العلماء قد انصرم أو كاد ينصرم .

وقد فقد العلماء الشيء الكثير مع مرّ الزمان وتغير الأحوال من نفوذهم وسلطانهم ، وكان ذلك من سياسة الحكومة الحكيمة ، في صالحها ، فقد تلقّت درساً من التجارب الماضية ، وعرفت كيف أثار العلماء الشعب على أمان الله خان فانقض عليه ، حتى اضطرّ إلى مغادرة البلاد ، ولعلها عملت بالوصية الحكيمة التي حكى الدكتور محمّد إقبال في نصائح إبليس لأتباعه من قادة الشعوب وزعمائها قائلاً : «إنّ العلاج الحاسم لغيرة الأفغان الدينية أن يقصّى «ملاً» يعني الحاكم الديني من جبال أفغانستان وسهولها» وقد ضعفت هذه الغيرة الدينية والنخوة الأفغانية ضعفاً ملموساً ، فحدثت تغيرات عظيمة في المجتمع وأساعها الشعب ولم يحرك فيها ساكناً ، وفشا السفور وتقليد الحضارة الغربية والتفرنج ، ولم يحدث ذلك اضطراباً في الحياة ، وأصبحت أفغانستان محطة كبيرة للشباب الخنافس (HIPPIES) لوجود المخدرات والحشيش في هذه البلاد بكثرة ، وقد شاهدنا عدداً كبيراً منهم يرافقوننا في الطائرة وينزلون في كابل وينتشرون فيها ، وتأثيرهم في

أخلاق الشعب ، واختلاط الجنسين معلوم مشاهد ، ثم لا يثير ذلك استنكاراً واضحاً واضطراباً كبيراً ، وكل ذلك يدل على درجة الهبوط في سلم الغيرة الدينية والنخوة الإسلامية ، وسببه الأكبر أنّ القيادة قد خرجت من أيدي العلماء إلى أيدي الساسة والزعماء الذين يزنون الأشياء في موازين الاقتصاد والسياسة ، ويخضعون للأمر الواقع .

وسمعت أن «هرات» لا تزال مدينة العلم والعلماء ومدينة المدارس والمساجد ، وأنه لا يزال منار العلم فيها عالياً وشعار الصلاح ظاهراً ، ولم أتمكن - رغم حرصي الشديد - من زيارة هذا البلد الأثري والمركز الديني الذي نهض منه علماء مصلحون ومؤلفون كالعارف الكبير والمحقق العظيم الإمام عبد الله الأنصاري صاحب (منازل السائرين) الذي شرحه العلامة ابن القيم بكتابه المشهور «مدارج السالكين» والعلامة الفقيه المحدث الإمام العالم المحقق الشيخ نور الدين علي بن سلطان محمد المعروف بـ «ملا علي قاري م ١٠١٤» .

الأسرة المجددية في كابل :

ولا تزال في العاصمة وضواحيها بقيّة من العلماء والمشايخ مشغولين بالعلم والتدريس والإرشاد والدعوة إلى الله ، وفي أحد ضواحي كابل المعروف بـ «قلعة جواد» زاوية للسادة المجددية ، وكانت لبعض مشايخها شهرة تخطت حدود أفغانستان ، وكان للشيخ الكبير مولانا فضل عمر المجددي المعروف بـ «شير آغا» والملقب بـ «نور المشايخ»^(١) أتباع ومريدون ويعدون بالآلاف في الهند والباكستان ، وشقيقه سعادة الشيخ محمد صادق المجددي سفير أفغانستان سابقاً في الشرق العربي ، وعضو المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي معروف ومحبوب في البلاد العربية لعلمه وصلاحه واعتنائه بالقضايا الإسلامية ، وقد مثل دوراً خطيراً في الثورة التي أدت أخيراً إلى خلع الملك أمان الله خان وجلس الملك نادر

(١) توفي إلى رحمة الله في ٢٥ محرم سنة ١٣٧٦ هـ .

خان على العرش ، وقد زرنا قلعة جواد فوجدنا فيها زاوية عامرة بالطالبيين ومسجداً مكتظاً بالمصلين ومدرسة معمورة بطلبة علوم الدين ، وقد أكرمنا سماحة الشيخ محمد إبراهيم المجددي خليفة والده نور المشايخ بعدة زيارات في الفندق الذي كنا نازلين فيه وغمرنا بعطفه ولطفه ، وتشرفنا كذلك بعدد من أفراد هذه الأسرة الكريمة كالشيخ عبد السلام المجدد وغيره ، وما ننسى فلن ننسى الأخ العزيز صبغة الله المجددي الذي تعرّفنا عليه شاباً في القاهرة سنة ١٩٥١ م ، وقضينا معه أياماً في المسجد الأقصى في معتكف جده الشيخ محمّد صادق وتبادلنا الزيارات في كابل ، وجلسنا جلسات طويلة تجاذبنا فيها أطراف الحديث وجدّدنا ذكريات الأيام الماضية يوم كان المسلمون أعزّ وأشرف ، وصحائف أعمالنا أنقى وأبيض ، وهو مؤسس جمعيّة العلماء في أفغانستان وعضو المجلس التأسيسي فيها ، وقد أبلى بلاءً حسناً في سبيل العقيدة والدعوة الإسلاميّة في بعض الوزارات ، واستأنسنا كذلك بالشيخ محمّد هاشم المجددي ابن صديقنا الكبير الشيخ محمّد صادق المجددي واستفدنا كثيراً من معلوماته وكلاهما يعملان في وزارة التربية والتعليم .

شخصيات دينية وعلمية :

وأنسنا كذلك بلقاء الشيخ عبد العزيز بن المجاهد الكبير الشيخ سيف الرحمن الطوكي المهاجر إلى كابل ، والمجاهد الكبير وابن أخيه عزيز الرحمن ، كما تشرفنا بلقاء الشيخ غلام ربّاني خطيبي إمام مسجد (بل خشتي) الذي هو جامع العاصمة الرئيسي ووجدنا فيه خفة ودماثة خلق ، كما أكرمنا بزيارته صاحب الفضيلة الشيخ محمد كل شيخ الحديث في دار العلوم ، ومعدرة إذا كنا نسينا بعض الأسماء الكريمة ، فقد شغلتنا دوامة البرامج المتصلة والتنقلات المستمرة عن تسجيل الأسماء وكتابة المذكرات .

في جامع كابل :

وصلينا الجمعة الوحيدة التي أدركناها في كابل في جامع (بل خشتي) وحضرها سعادة السفير السعودي ، وكان المسجد مكتظاً بالمصلين وخطبت

أنا والأستاذ أحمد محمد جمال قبل الخطبة والصلاة على عادة هذه البلاد ، وكان حديثي شرحاً لحديث «بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ ، فطوبى للغرباء» وبينما كنت أشرح هذا الحديث الشريف ، وأشير إشارات لطيفة إلى ما تقاسيه كثير من البلاد الإسلامية العريقة في الدين والعلم من محن في العقيدة والحياة ، وما يغزوها من تيارات التقليد الأجنبي والتنكر للإسلام ، صاح أحد الحاضرين في ناحية من نواحي المسجد صحيحة عظيمة ، وأخذته غيوبة وتواجد ، وقد دل ذلك على مدى تأسف أهل الغيرة مما يقع في البلاد . وتناول الأستاذ أحمد جمال حديث «أتدرون من المفلس إلخ» وحديث «الدنيا سوق قامت ثم انقضت . . . إلخ» .

معالم البلد وحدائقه :

وكان من معالم البلد التي زرناها ضريح مؤسس الحكومة المغولية الكبير في الهند الملك المسلم المؤيد السلطان ظهير الدين محمد بابر ، وهو على ربوة في ضواحي كابل وفي مكان ظريف وحديقة غناء ، وكان بابر مغرمًا بكابل فأثره الله ليكون مدفناً له ، وزرنا منتزه (بغمان) الشهير وهو منتزه يحق أن يعد من المنتزهات العالمية الكبيرة ، وعلى نسقه - كما لاحظ العلامة السيد سليمان الندوي - أنشئت حديقة شالامار في كشمير وفي لاهور - وكل هذه ذات طبقات مختلفة ومنتزه كاريزمير ، وهي حديقة فسيحة غناء ذات مياه غزيرة وأشجار ملتفة وشوارع مرصوفة .

إلى عاصمة السلطان محمود الغزنوي :

وكانت زيارتنا لأفغانستان مقتصرة على كابل وضواحيها ومؤسساتها وشخصياتها ومراكز ثقافتها ، لضيق الوقت وازدحام البرامج ، ولكني طلبت من معالي وزير المعارف وسعادة وكيله أن يسمحا لنا بزيارة غزني عاصمة إسكندر الإسلام يمين السلطنة السلطان محمود الغازي مؤسس الحكومة الإسلامية ورافع راية الإسلام في الهند ، المدينة التي صنع فيها تاريخ جديد للحضارة والعلوم والأدب والشعر ، وازدهرت في الشرق في

وأواخر القرن الرابع وفي أوائل القرن الخامس الهجريين ازدهار قرطبة وغرناطة في الغرب ، إنني اعتبر زيارتي لأفغانستان ناقصةً غير كاملة إذا لم أزر هذه المدينة التي تعيش في الأطلال والآثار وفي القصص والأخبار أكثر مما تعيش في البيوت والأسواق ومظاهر المدينة الحديثة والعمران ، وستبقى حاجة في نفسي إذا عدت إلى بلادي ولم أزر بلد محمود والحكيم والسنائي ، وأجاب وزير المعارف إلى طلبي مسروراً بهذا الاقتراح وأصدر نائب الوزير تعليمات إلى محافظ غزني ورئيس مكتب المعارف هناك لاستقبال الوفد وتهيئة الخبراء والمشتغلين الذين يساعدوننا في مشاهدة الآثار وزيارة معالم المدينة .

دور «غزني» الحضاري والعلمي :

وسافرنا يوم السبت ٩/ يونيو صباحاً إلى غزني وهي تبعد عن كابل ١٣٨ (كم) (٨٢ ميلاً) واستقبلنا في البلد سعادة المحافظ وبعض المسؤولين في وزارة المعارف وأرفقونا بعض الأدلاء والخبراء والمشتغلين في مصلحة الآثار القديمة والحفريات ، وتوجّهنا من ساعتنا إلى المدينة القديمة ، وهي تقع في شرق المدينة الموجودة على مسافة بضع (ك - م) ، وهي خرائب وأطلال وقد كانت هناك العاصمة الغزنوية التي كانت تلي دار السلام بغداد مركز الخلافة وعاصمة العالم الإسلامي في ذلك الحين في استفحال العمران واتساع المكان وازدهار المدينة ، وقد جذبت إليها أهل الفضل والكمال ونوابغ العلم والأدب والصناع الحاذقين والبنايين البارعين والشعراء المفلقين والعلماء المتبحّرين والزهاد الناسكين والعارفين المحققين والندماء المحاضرين والقادة الفاتحين والأدباء والنطاسيين والفلاسفة والرياضيين كما يجذب المغناطيس القطع الحديدية ، والسوق البضائع المستطرفة ، وتدفت إليها وانصبت فيها ثروة البلاد المفتوحة وغنائمها وطرفها المستملحة ونفائسها المدخرة كما تنصبّ الروافد والأنهار الصغيرة في البحر ، واجتمع من ذلك شيء لا يخطر على البال ، وكان من المتصلين بالبلاد الغزنوي والمعدودين في حاشيته ، مثل بديع الزمان الهمداني من الشعراء والأدباء ، وأبو الريحان البيروني من أئمة العلوم الرياضية والفلكية و«فردوسي» الشاعر الفارسي الخالد وعسجدي وعنصري واسدي وغضاري

وفزّخى ومنوجهري من شعراء الفارسيّة المعدودين ، وقد كانوا ندماءه ، ويبلغ عدد الشعراء الذين كان يحتضنهم السلطان ويربيهم إلى أربعمئة شاعر .

خراب «غزنين» ونكبتها:

وقد ظلت «غزنين» قرناً كاملاً في أوج المدنيّة والزخرفة تخشى وترجى ، وتأمّر وتنهى ، وترغب وترهب ؛ حتى أصبحت فريسة الهجمات من سلالة ناهضة طموح وهي سلالة الغوريّة - التي نبغ فيها أخيراً الملك المجاهد شهاب الدين الغوري - زحف أحد أفراد هذه الأسرة وهو علاء الدين الحسين بن الحسن الذي كان يحمل ترة على الملك الغزنوي ذاك اليوم بهرام شاه - الذي صلب أخاه سيف الدين - فدخلها ونهبها ثلاثة أيام ، فخرّب هذا البلد وأشعل فيها النيران وانتشر الحريق فيها حتى أتى على الأخضر واليابس وطمس معالم البلد وجعله خراباً يباباً ، وكان ذلك سنة ٥٤٧هـ^(١) ، واشتهر في التاريخ بلقب «جهان سوز» أي محرق العالم ، وصدق الله العظيم ﴿إِنَّكَ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ﴾ - وكنا نمشي في هذه الأطلال وننشد أبيات المعري :

خفف الوطاء ما أظنّ أديم الـ أرضٍ إلّا من هذه الأجساد
وقبيح بنا وإن قدم العهدـ ـ ـ هوان الآباء والأجداد
سر إن استطعت في الهواء رويداً لا اختيالاً على رفات العباد

وقد استخرجت بالحفر آثار وبقايا من أبنية يرجع تاريخها إلى عهد مسعود بن محمد ومن بعده ، ولا يزالون مشغولين باستخراج الآثار ، وأخبرني الخبراء بأن هذا العمل قد يستغرق عشر سنين حتى يتمكنوا من إبراز كثير من معالم هذه المدينة المظمورة والمدنيّة البائدة .

عند الحكماء والحكام ، والزهاد والملوك :

ووقفنا وقفة أمام قبر الحكيم السنائي^(٢) ودعونا له وقرأنا الفاتحة ،

(١) راجع «البداية والنهاية» لابن كثير ج ١٢ .

(٢) كان اسمه مجدود وكنيته أبو المجد ، كان في عهد بهرام شاه الغزنوي ، واختلف في سنة وفاته ، فقليل سنة ٥٢٥هـ وقليل ٥٧٦هـ ، وهو إمام من أئمة الشعر الصوفي ، =

وتذكرت أن العلامة محمد إقبال لما زاره في نوفمبر سنة ١٩٣٣م ووقف على قبره انفجر باكياً ، وقال قصيدته العصماء التي تعدّ من غرر قصائده^(١) ، وزرنا قبور الصالحين والأولياء كالسيد بهلول دانا والسيد علي لالا وخاجا بلغار وشمس العارفين .

وزرنا قبر الملك المجاهد الفاتح السلطان محمود الغزنوي الذي هانت عليه قيادة الجيوش والتوغّل في البلاد الأجنبية والمغامرة بعد المغامرة كما تهون على الشباب نزهة أو خرجة أو غدوة وروحة ، وقد مكن الإسلام في الهند وأرسى قواعد حكومته التي دامت في أشكال مختلفة وفي أسر تتداول الحكم ثمانية قرون تقريباً .

درس من الزيارة :

رجعت من هذه الزيارة حزيناً كثيراً مؤمناً بعظمة الله وبقائه وبضعف قوة الإنسان وقصر نظره وشدّة غروره بالمظاهر ، وزالت ثقتي بجميع العواصم الكبرى التي تتباهى الآن بكثرة العمران وقوّة البنين وتوطد الأركان ، ويعتمد عليها سادتها وأبنائها والمعجبون بها ، وزالت ثقتي بالحكومات القوية الواسعة ذات الحول والطول ، وذات الصولات والجولات ، وذات الجنود والبندود ، والقلاع الحصينة والبروج المشيدة ، والمباني الفخمة والمصانع الضخمة ، وقلت : ما بقاء هذه الحكومات وهذه العوالم والمدن ومراكز المدنية والثقافة بعد خراب بغداد وغزنين وقرطبة وسمرقند وبخارى ، وأجاد الشاعر العربي حين قال :

إذا ما الدهر جرّ على أناس كَلَاكَلَهُ أَنَاخُ بآخرينا
فقل للشامتين بنا أفيقوا سيلقى الشامتون كما لقينا

= وأول من قال الشعر في الأخلاق ، وتهذيب النفس والاعتزاز بالإنسانية ، والتركيز على شرف الإنسان ، وشعره يتسم بالحماس والتأثير .

(١) جاءت هذه القصيدة في مقدمة ديوانه «بال جبريل» وترجمتها في كتاب سماحة الشيخ الندوي «روائع إقبال» بعنوان «في غزنين» ، صدر عن دار ابن كثير بدمشق .

وصدق الله العظيم ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاوُلْهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾.

رجعنا من هذه الجولة التاريخية ونحن متخمون بالمعلومات والمشاهدات والانطباعات ، وتغدينا في دار الضيافة الحكومية للبلد واسترحنا قليلاً ، وصلينا الظهر ، وأخذنا فكرة عن البلد الحالي ، فإذا هو قرية يتراوح عدد نفوسها بين عشرة آلاف وخمسة عشر ألفاً فقلنا: أين هذه القرية الصغيرة من تلك المدينة العظيمة؟! وسبحان الله مقلب الليل والنهار ومصرف الدهور والأعصار .

كلمة عن الملك محمد ظاهر شاه وسردار داود خان :

كان الأمل وطيداً في أن يحظى الوفد بمقابلة مع جلالة الملك محمد ظاهر شاه ، كما أن كثيراً من وفود رابطة العالم الإسلامي قابلت رؤساء الجمهوريات ، والملوك في المناطق التي زارتها ، ولكن يبدو أن الجهات المختصة ، ورجال التشرقيات لم يريدوا ذلك ، وظللنا منتظرين للطلب إلى آخر يوم من أيام إقامتنا في كابل ، وسمعنا أن الملك علم بذلك في آخر لحظة ، فقال: لماذا لم تخبرونا به وفي الوقت متسع ، والملك يعيش في عزلة عن الشعب في قصره ، ولا يخرج إلا في النادر ، وليست عنده «شعبية» كبعض ملوك المسلمين في بلاد أخرى ، وقال سعادة سفير المملكة العربية السعودية الشيخ محمد الحمد الشيبلي: إنه لم يره إلا مرة واحدة حين قدم إليه أوراق الاعتماد ، وسألت بعض الإخوان: من المسؤول الأول عن اندفاع البلاد اندفاعاً متهوراً نحو الحضارة الغربية ومظاهرها وقشورها ، وعن سفور المرأة الأفغانية والاتجاه نحو المعسكر الشرقي؟ فقالوا: السردار محمد داود خان ابن عم الملك وصهره ، ولما زرنا بغمان أشاروا إلى قصره ، وقالوا: كان هنالك مدرسة دينية فأمر بنقلها إلى محل آخر ، وأثر المكان بالإقامة ، ورأيت أصحاب الاتجاه الديني غير مرتاحين إلى اتجاهاته

وتصرفاته^(١) ، وعرفت أنه زعيم حركة يحتونستان ، وأكثر الناس تحمساً لها^(٢) .

مسؤولية الأقطار الإسلامية :

وليست أفغانستان هي المسؤولة وحدها عن الارتداء في أحضان «الشيوعية» أو «العلمانية» ، والاندفاع إلى الحضارة الغربية ومظاهرها والسير في ركاب الشعوب الغربية ، بل الأقطار الإسلامية مسؤولة عن هذا الوضع أيضاً ، فكلنا يعلم أن أفغانستان مواردها محدودة ، وهي ليست من

(١) فوجئنا ونحن في مكة ، وقد مضى على مغادرتنا لكابل شهر وأسبوع بخبر حدوث الثورة والانقلاب في كابل ، وأن الجيش خلع محمد ظاهر شاه على أثر توجهه إلى إيطاليا للعلاج ، وسمعنا أن الذي قام بالثورة سردار محمد داؤد خان ، وهو الذي اختير أول رئيس للجمهورية ، والله الأمر من قبل ومن بعد (سماحة الشيخ الندوي) .

(٢) جاء في مجلة التضامن الإسلامي المغربية في مقال ظهر في العدد الأول - السنة الأولى - ذو القعدة ١٣٩٣ هـ ديسمبر ١٩٧٣ م بتوقيع أبي الفدا (ولعله الأستاذ الكبير علا الفاسي) ما يلقي الضوء على الدوافع الحقيقية إلى هذه الثورة نكتطف منه ما يلي : [وقعت هذه الأحداث في الأفغان في الوقت الذي كانت روسيا وأمريكا تتحاوران في مسائل العالم الكبرى ، والتي انتهت بأوافق المهمة بين برجنيف ونكسون ، وفي هذا الوقت بالذات كانت أفغانستان قد اكتشفت نبعاً كبيراً من الغاز فاتفقت مع الاتحاد السوفياتي على أن ينقل منه عبر الأنابيب من الأراضي الأفغانية إلى الاتحاد السوفياتي ٥٧/٧ ألف مليون متر مكعب خلال ١٨ عاماً ولكن لعل سائلاً يقول : وهل كان من الضروري أن تقوم الجمهورية ليتحقق هذا الغرض المقصود؟ .

والحقيقة أن الملك محمد ظاهر شاه كان يتعاون مع مجموعة من المفكرين الإسلاميين في مقدمتهم منهاج الدين الذي اغتيل في ٨ أغسطس الماضي ، وكان هذا الرجل متزعماً لنخبة آمنت بوجود مكافحة الخلايا الشيوعية ، التي كان الحزب الشيوعي الأفغاني قد أسسها باسم : «ديمقراطي خلق» وقد دعت هذه النخبة إلى اتخاذ الإسلام أساساً للتربية والتعليم ، وفضحت المخططات الهندية المؤيدة من روسيا لفصل بلوخستان من كل من الأفغان والباكستان لتقوم بالدور الذي تحدثنا عنه . ثم كشفت محاولات لتهريب السلاح الروسي عبر الحدود المتاخمة . إذأ كان لا بد أن يذهب الملك وتذهب النخبة التي تريد المحافظة على كيان الأفغان والباكستان .

البلاد الغنية ، ذات الموارد الواسعة والمعادن الطبيعية والمناجم و«الذهب الأسود» وليس عندها مرفأ ، فليست حرة في حركة التوريد والتصدير ، وكل اعتمادها في الاقتصاد على منتجات محدودة كالفواكه الناشفة ، وصوف الغنم وجلودها ، فكانت مضطرةً بطبيعة الحال إلى أن تطلب العون من البلاد الراقية ، ومن الدول الكبرى التي عندها فائض من الأموال والإيراد لسد عجزها المالي وتحقيق مشاريعها العمرانية والتعليمية والحضارية والدفاعية ، فلو وفق الله الحكومات الإسلامية الكبيرة لتمد إليها يد المعونة وساعدتها في إكمال مخططاتها ، وإنجاز مشروعاتها ، لاستغنت عن الاستعانة بالدول الكبرى ، بل استطاعت أن تحافظ على شخصيتها الإسلامية وتنميتها ، وأفادت العالم الإسلامي ، وكانت مصدراً من مصادر قوته وكرامته ، وتفادى هذا الشعب المسلم ، العريق في الدين ، والتاريخ الإسلامي ، والقوي في عاطفته الإسلامية وغيرته الدينية عن أن يكون فريسة للغارات الثقافية والعقائدية .

ولكن - مع الأسف الشديد - كانت الحكومات الإسلامية ذات الثروات الواسعة - ولا تزال - في شغل شاغل عن مساعدة الأقطار النامية والنهوض بها ، وبادرت البلاد السوفيتية ، والصين الشعبية^(١) إلى مساعدة أفغانستان ، وقدمت المساعدات السخية لإنجاز مشاريعها ، ولترقية البلاد وترقيتها ، فكان من الطبيعي أن يكون لكل هذا مردود فكري وثقافي ، وسياسي ، وأن تستفيد البلاد المساعدة في مجالات الحياة كلها .

وعاشت أفغانستان في عزلة علمية وثقافية عن العالم الإسلامي وعاشت بعيدة - لأسباب سياسية معلومة - عن جارتها «باكستان» وعن مصدر ثقافتها الكبيرة «الهند» لوقوع باكستان في طريقها ، فظلت مقتصرة على التراث العلمي القديم غير ملمة بنشاط علمي وديني ، ولولا مصر ولولا الأزهر

(١) سمعت من بعض أهل الخبرة أن أفغانستان طلبت المساعدة من أمريكا في أول أمرها ، ولكنها لم تجب لتخلف البلاد تخلفاً زائداً ، وانتهزت روسيا الفرصة فساعدتها ، وهكذا اضطرت أمريكا كثيراً من الأقطار الشرقية إلى اللجوء إلى المعسكر الشرقي .

الذي لم يزل يؤمه الشباب الأفغاني ، وينهلون من مناهله ويطلعون في خلال إقامتهم بمصر على الحديث الأحدث من الأدب الإسلامي والفكر الإسلامي ، لانقطعت صلة أفغانستان عن الثقافة الإسلامية وعن الحركات الإسلامية كلياً ، وكانت تعيش في برج عاجي ووراء الستار الحديدي ، لذلك نرى أن خيرة الشباب المطلعين الناضجين اليوم ، هم الذين تخرجوا في الأزهر ومعاهده ، وأقاموا بمصر مدة طويلة .

حديث في حفلة تكريم عقدتها السفارة السعودية :

وعقد سعادة سفير المملكة العربية السعودية الشيخ محمد الحمد الشيبلي حفلة عشاء فاخرة في أوتيل كابل الذي كنا نازلين فيه تكريماً للوفد وللاجتماع بصفوة أهل البلد وأعيانه ورجالاته ، وذلك ليلة الأحد ٩/ يونيه ١٩٧٣ م ، حضرها أكثر سفراء الدول العربية الممثلة في كابل ، ولم يتخلف منهم إلا النادر ، وعدد من وزراء الحكومة الأفغانية وحاكم كابل ، وبعض أعضاء الأسرة الحاكمة وكثير من أساتذة الجامعة ورجال الثقافة في كابل والعلماء والشيوخ وعدد من الأساتذة المسيحيين العرب المشتغلين في السفارات ، وكانت حفلة ضمت أكبر عدد من الأعيان والوجهاء ورجال الحكومة والسلك السياسي والأوساط العلمية والدينية ، وطلب سعادة السفير مني أن أرحب بالضيوف الكرام وأتحدث إليهم بهذه المناسبة الكريمة بما يليق بالمقام ويعبر عن مشاعر الوفد ورسائله ، وتكلمت بما فتح الله عليّ ولم أقصر على الشكر والترحيب التقليدي بل انتهزت هذه الفرصة التي لا تتسنى لكل داعية وحامل رسالة في كل مكان وزمان ، وكان حديثاً يجمع بين إبداء العواطف والتعبير عن الخواطر وبين الشكر والترحيب وبين ما هو أهم منهما وأعود على الجميع بالخير والصلاح ، وقد أملت هذه الكلمة اعتماداً على الذاكرة وسيطلع القارئ على نصها في هذا الكتاب . ووقف بعدي سعادة الأستاذ أحمد محمد جمال فألقى كلمة رقيقة بليغة ، شكر فيها الشعب الأفغاني والحكومة الأفغانية على حسن تلقيهما للوفد وحسن الضيافة وحسن الاستماع ، وشكر ضيوف الليلة على تليبتهم للدعوة وألم بمقاصد رابطة العالم الإسلامي ورسائلها وما قامت عليه من مبادئ وأهداف

وما يبذله جلالة الملك فيصل من مساعٍ مشكورة في مجال التضامن الإسلامي ، وذكر مسؤولية العلماء في تبليغ الرسالة والشهادة بالحق .

وانصرف الحاضرون إلى مأدبة العشاء ، ثم انصرفوا إلى بيوتهم شاكرين مسرورين ، وكان اللقاء الأخير في كابل . وكان السفر صباح يوم الإثنين ١١/ يونيو إلى طهران .

وإلى القارئ بعض المحاضرات التي ألقيتها في مناسبات مختلفة ، نوهت بها في هذه الكلمة وإلى اللقاء معهم في طهران .

مصدر الانقلاب والقوة في الشعب الأفغاني

حديثي في جامعة كابل^(١)

بعد الحمد والصلاة على رسول الله ﷺ .

صاحب السعادة سفير المملكة العربية السعودية ، مدير الجامعة ، عمداء الكليات ، أساتذة الجامعة ، إخواني الطلبة :

أشعر بسعادة وفرحة تغمر جوانحي إذ أقوم أمام هذه الوجوه المشرقة النيرة وأمام هذه النفوس النبيلة الأصيلة ، ولا أستطيع أن أفسر هذه السعادة التي تخامرني في هذا المقام الذي أقومه إلا بأني أزور هذه البلاد التي سمعت عنها كثيراً وقرأت عنها كثيراً ، وأستطيع أن أقول كما قلت في بعض المناسبات : إنني عشت في تاريخها ، وعشت في أخبار فتوحها وغزواتها ، وعشت في تراجم رجالها العباقره وقادتها الفاتحين ورجالها العصاميين حَمَلَة العلم والنور ورسالة الإسلام إلى ما وراء هذه الجبال إلى الهند وما يليها من البلاد ، إذأ فهذه السعادة التي أشعر بها غير دخيلة ولا غريبة ، وفوق ذلك هي فرحة المسلم الذي يلتقي بإخوانه المسلمين الذين يسكنون

(١) أُلْقِيَتْ هذه المحاضرة في مدرج جامعة كابل الكبير ليلة يوم الأربعاء في ٦/ يونيو ١٩٧٣ م . ونقلت من الشريط .

وراء الجبال . إنني سعيد بهذه الزيارة الكريمة سعيد بهذا اللقاء الكريم وبهذا المجلس الذي أكرمتومني بالوقوف والتحدث فيه .

إخواني ، إنكم تعرفون جميعاً ، وخصوصاً المهتمين بدراسة الآداب والذين ينصرفون إلى دراسة التاريخ ، أن الشعب الأفغاني من الشعوب العريقة في القدم ، من الشعوب التي عاشت مئات وآلاف السنين في حرية وكرامة وقد أكرمهم الله بسجايها ومواهب وطاقات فريدة منذ عهود بعيدة .

إنني أتساءل - وإنني أفتخر بأني عكفت على دراسة التاريخ ، وأنه هوايتي ، وأن التاريخ هو المادة المفضلة المحببة عندي - لماذا بقي هذا الشعب قروناً طويلة شعباً منعزلاً عن العالم؟ شعباً لا شأن له بما يجري في العالم من خير وشر وحسن وقبح ، ومن فتح وغزو ومن استبداد وجور . . . لماذا بقي هذا الشعب الباسل الجسور ، الصالح للقيادة ، المليء بالحيوية ، الغني في الذكاء ، الفائق في قوة السواعد وفي قوة العاطفة لماذا بقي هذا الشعب الأصيل المجيد هذه القرون الطويلة المتطاولة منطقياً على نفسه منعزلاً في ركن من أركان العالم هل كان ذلك لأنه كان بينه وبين العالم الخارجي سد منيع من الجبال؟ لا يا إخواني لقد سجّل التاريخ أن هذه الجبال الشاهقة المكسوة بالجليد لم تكن عائقاً قط في سبيل الغزاة والفاتحين ، إن هذه الجبال لم تستطع أن تقف في طريقهم ، وتعرفون جميعاً أن هذه المسالك الصعبة المنعطفة التي يتيه فيها الإنسان ، والتي تفصل أفغانستان عن باكستان والهند تهاوت تحت أقدام المد الإسلامي لما قيض الله لهذه الأمة قادة فاتحين كالسلطان محمود الغزنوي وشهاب الدين محمد الغوري وأحمد شاه الأبدالي رحمهم الله جميعاً ، هل كان هذا الشعب مصفّداً بالأصفاة مكتوف الأيدي؟ لا! لا! إن هذا الشعب قد جربت شجاعته مراراً وظهرت كفايته مراراً ، ولكن كان هذا الشعب مقتنعاً بما أوتي من مراع خصبة ومن ماشية وزروع ، وغير ذلك من وسائل المعيشة المحدودة وهذا سؤال يستحق منكم الإجابة!

لماذا نقرأ في التاريخ أنه لما دخل الإسلام في هذه المنطقة انتبه هذا

الشعب من سباته العميق الذي امتد على آلاف من السنين وقفز قفزة لا نظير لها في قفزات الأمم ، فإذا هذا الشعب من أقوى الشعوب ومن أشجعها ومن أكثر الشعوب علو همة وبعد نظر وقوى إرادة ، لما قفز هذا الشعب إلى الوجود كأنه كان كنزاً مخفياً أو كأنه كان سرّاً مكتوماً فاكشف ، هل كان هناك تيار كهربائي سرى في جسم هذا الشعب أو مسته عصاً سحرية حولت هذا الشعب من متعب قانع وادع هادئ قاعد منزل إلى شعب جسور فاتح منطلق ، هل كان هناك صخرة من الصخرات كانت تمنع تدفق هذا النهر الفياض؟

إن المفتاح الرئيسي لفتح هذا القفل هو أن الله سبحانه وتعالى قد أكرم هذا الشعب الأفغاني الكريم بثلاثة عناصر جاءت عن طريق الإسلام:

١ - الرسالة السامية وأهدافها .

٢ - النظرة الواسعة إلى الإنسانية والعالم الخارجي وحقائق الأشياء .

٣ - الثقة القوية بنصر الله وتأييده وبتائج الأعمال والمساعي .

هذه هي العناصر الثلاثة التي تكون للشعب شخصية جديدة وتصنع منها شعباً جديداً كأنه ولد ولادة جديدة ، فيصنع تاريخاً جديداً ويبهز العالم بطاقاته المخبوءة وآفاقه المجهولة .

كان هذا الشعب بلا رسالة ، وكان في حدود هذه البلاد يرعى الماشية ، ويغير بعضه على البعض ، كما يقول الشاعر العربي :

وأحياناً على بكر أخينا إذا ما لم نجد إلا أخانا

وطبيعة الغزو تأتي من نتيجة الفراغ الخلقي والروحي ، فكانت قبائل العرب في الجاهلية تتشاغل بحروب داخلية ، قبيلة تهاجم قبيلة ، وفصيلة تزحف على فصيلة ، وعشيرة تعادي عشيرة ، كذلك الشعب الأفغاني لم يجد ما يشغل به طبيعته الحربية وما يروي به غلته ، وما يقنع به طموحه الكبير. غير الحروب الداخلية حروب المراعي ، حروب على الماشية ، حروب على النخوة القبلية أو الفردية ، حروب على إهانات متخيلة مزعومة وصدق الشاعر العربي :

النار تَأْكُلُ نَفْسَهَا إِنَّ لِمَ تَجِدُ مَا تَأْكُلُهُ
 فلما جاء الإسلام أصبحت للعرب رسالة كما أصبحت للشعب الأفغاني
 رسالة كانوا يعيشون لأنفسهم فإذا بهم يسمعون قول الله سبحانه وتعالى:
 ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ
 وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ .

عرفت أنها ليست مما تلفظه الأرض ، ليست من الحشائش التي تنبت
 في الحقول إنما هي مقصودة مطلوبة ، أمة من ورائها أهداف وأغراض ، من
 رسالات وغايات آمنوا أنهم أمة أخرجت للناس لم تخرج ولم تنبت بنفسها
 لإشباع غريزتها الحربية من نهب وإغارة وغزو وسفك دماء ، فإذا هي تعتقد
 أنها أخرجت لتكافح حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله . . . وليخرج
 الناس من الظلمات إلى النور ومن عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن
 ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام .

يا أبناء الجامعة ، ويا شباب الأفغان المثقف!

كان هذا الشعب بلا رسالة فجاء الإسلام فكان شعباً له رسالة سامية في
 الحياة ، احتضن هذا الشعب هذه الرسالة السامية وتبناها وهي التي نفخت
 في هذا الشعب روحاً جديدة . كان يعيش في جاهلية جهلاء وفي ليلة
 ظلماء ، يتسكع في الخرافات والجهالات والسفالات ، وفي ظلم الإنسان
 للإنسان ، وفي ازدراء القوي الضعيف ، وفي هضم الحقوق وإهدار
 الكرامات ، وفي إشباع الغرائز ، وقد ملأت جوانحهم روح جديدة قد
 استولت على مشاعرهم وأعصابهم وتفكيرهم ، فإذا بها أمة غير أمة ، بل إذا
 بالإنسان غير الإنسان ، كانت السواعد هي السواعد والعقول هي العقول
 والأرض هي الأرض والمناخ هو المناخ ، ولكن هذه الرسالة الجديدة قد
 جعلت منهم أمة جديدة .

والعنصر الثاني أن الأفغان كانوا يعيشون حياة ضيقة محدودة ، كانوا
 ينظرون إلى الدنيا نظرة محدودة ، وكانت نظرهم إلى الإنسان والحياة ضيقة
 محدودة ، ما هو الإنسان؟ الإنسان هو الأفغاني ، ما هو الإنسان؟ الإنسان

هو الذي يسكن في هذه البلاد ، والذي يتغنى بحب هذه البلاد ، هذه النظرة الضيقة هي التي حبستهم في هذه المنطقة الضيقة .

ما هي الحياة؟

هي أكل وشرب ، ومتعة وتسلية ، وقوة وسيادة ، وغلبة ورياسة ، إنهم كانوا يعيشون كما يعيش السمك في الأحواض ، وكما تعيش الضفادع في البرك . وهكذا كان العرب قبل الإسلام والأتراك قبل الإسلام والفرس قبل الإسلام ، أخرجهم الإسلام جميعاً من هذا السجن المظلم الضيق كما قال رسول الإسلام : «لنخرج من شاء الله من ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة» كان آباؤكم ينظرون إلى الإنسان نظرة ضيقة ليس فيها تسامح وليس فيها بعد نظر وليس فيها عمق ، ومنحهم الإسلام هذه النظرة الواسعة فصاروا ينظرون إلى الإنسانية كأسرة واحدة ، إلى العالم كبيت واحد .

وكانت هذه هي عقيدتهم نحو الإنسانية كما قال رسول الله ﷺ : «كلكم من آدم وادم من تراب ، لا فضل لعربي على أعجمي ولا لعجمي على عربي إلا بالتقوى» فالنظرة التي كان ينظر بها القادة لا تؤمن بالحدود الجغرافية ولا تؤمن بالتقسيمات المصطنعة التي ما أنزل الله بها من سلطان ، المسلمون خرجوا من هذه الحدود إلى آفاق أوسع ، ولولا هذه النظرة الواسعة لبقوا كما بقي آباؤهم قروناً طويلة .

العنصر الثالث : وهي الثقة المتينة الوطيدة ، فلما آمنوا بالله وحده وآمنوا برسوله واليوم الآخر ، وآمنوا بقضاء الله وقدره ، وعرفوا أن الموت له وقت مقدر لا يتقدم ولا يتأخر ، وقد سمعوا قول الله وآمنوا به : ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ ﴾ .

وسمعوا قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ إن هذا الإيمان ملاًهم ثقة واعتزازاً وعرفوا أن الإنسان لا يموت إلا في اليوم الذي قدره الله ، فعرفوا أن لكل شيء أجلاً مسمى ، وأن كل شيء بيد الله تعالى وأمره .

ثم اكتسبوا ثقة أخرى من الرسالة السماوية وأنهم جند الله ، وأنهم أنصار

الله ، واستمعوا إلى قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿١٧٦﴾ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ **﴿ أَلَا إِنَّ حَرْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾** ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ ﴾ ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ إلى غير ذلك من الآيات ، وهذه الثقة كانت مضافة إلى الثقة الأولى .

وبهذه المناسبة أذكركم أيها الإخوان أنه لما أتى سيدنا سعد بن أبي وقاص أمام دجلة وهي تموج وتزبد ، هناك وقف سعد بن أبي وقاص هنيهة واستعرض الماء المائج وما حوله ، ونظر إلى سلمان الفارسي وقال له : هل نخوض هذا البحر المائج أو نرجع فنبنئ القناطر والجسور ، فقال سلمان الفارسي كلمته الخالدة التي حفظها التاريخ ، قال : إن هذا الدين لجديد ، إني مقتنع بأن الله تعالى سيظهر هذا الدين ، وإنه لم يصل القمة التي قدرها الله له أن يصلها ، فكيف أظن أن تغرق هذه السفينة التي فيها حملة هذه الرسالة ، كلمة عامرة بالمعاني عميقة كل العمق ، إذا كان هذا الدين جديداً فلا بد من دوره المقدر له في بناء العالم وفي قيادة الدنيا والعالم وفي هداية البشرية وإنقاذها ، وأمر سعد بن أبي وقاص جيشه أن يعبر النهر ، وكما يقول الطبري إنه لما رآهم الفرس قالوا : جاء الجن والعمالقة ، وهذه الثقة غمرت قلوبهم ونفتت فيهم حياة جديدة .

وارجعوا إلى تاريخكم كيف كان محمود الغزنوي يفتح البلاد الواسعة ، وقد أثبت التاريخ أنه زحف على الهند سبع عشرة مرة وتوغل فيها فيصل إلى أقصى الشرق وإلى أقصى الجنوب ، ولا مدد ولا ميرة ، ومركزه بعيد دونه الجبال الشاهقات ، والمسالك الوعرة والشعاب الضيقة ، ولا ينظر إلى هذه الغزوات إلا كما ينظر الشاب الرياضي القوي إلى الملعب والمباراة وإلى ميدان الرياضة ، إنه كان معتمداً على الله ثم يعرف أن الجهاد عبادة والموت في سبيله شهادة ، والشهداء لا يموتون بل أحياء عند ربهم يرزقون ، إنه كان مؤمناً كل الإيمان بأنه حامل رسالة الله وبأنه سينشر دين الله والإسلام في الهند .

هذه العناصر المكونة لشخصية الشعوب ليست لشخصية الأفراد ، وأن شخصية الأفراد لا شك قضية مهمة ، وقد تناولها بحثاً علماء علم النفس ورجال التربية ، ولكنني أتحدث الآن عن شخصية الشعوب ، فهذه العناصر منحت الشعب الأفغاني شخصية جبارة ، شخصية لا تقاوم ، شخصية لا تغالب ولا تنهزم ، وإن هذا كان مصير الأمم لما فقدت هذه العناصر المكونة للشخصية ولما أفلست في هذه العناصر ، وإني أخشى على الشعب الأفغاني العزيز أن يتجرد في هذه الفترة الدقيقة من تاريخ الإنسانية ومن تاريخ هذه الأمة من هذه العناصر القيادية القوية وأن يعود إلى سيرته الأولى حين لم يدخل الإسلام في هذه الأرض ولم يك مهتماً بالدعوة الإسلامية .

أقول لكم أيها الشباب: اغرسوا هذه العناصر في قلوب شعبكم واسقوها ، وغذوها ، واحرصوا عليها ، ولا تضيعوها ، فالشعب لم يزل من قديم الزمان هو الشعب ، والجبال هي الجبال ، والسماء هي السماء ، ونهر كابل هو نهر كابل يجري من آلاف السنين ، وهذه الخيرات التي أكرم الله بها هذه الأرض . هذه الثمرات الطيبة وهذه الفواكه اللذيذة وهذا الماء العذب السائغ وكل شيء أكرم الله به هذه البلاد من آلاف السنين ولا يزال ، ولكن القضية قضية العناصر وقضية الرسالة ، وقضية الثقة ، وقضية الأهداف والغايات ، حتى تكون للحياة غاية ، وللمواهب مجال للظهور ، وللقلوب مثل كامل في الحسن والإحسان تهيم بحبه ، وقد أدرك الدكتور محمد إقبال هذه الحقيقة ، وشكا إلى الله الجيل الإسلامي المعاصر في خموده وجموده ونكبته وتعاسته ، فكان الجواب «إنه يعيش بلا غاية وبلا رسالة ومن غير مثل كامل يهيم بحبه ويتغنى بجماله وكماله ويطرسم خطاه» .

شبي بيش خدا بكر يستم زار مسلمانان جرازارند وخوازند
ندا آمد نمى داني كه اين قوم دلي دارند ومحبوبي دارند

يا شباب الأفغان! إن الله سبحانه وتعالى أكرمكم ولم ينقص عليكم شيئاً ، وإن الله تعالى قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ إن الله أكرم من أن يسلب نعمة أنعمها على قوم إلا أن يكون هذا الشعب أو

هؤلاء الناس كفروا بهذه النعمة ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَعَبَدُوا غَيْرَ اللَّهِ كَانُوا كَالْحِجَارِ أَصْحَابُ نَارٍ يُوقَدُونَ فِيهَا كُلَّ غَيْرِ النَّاسِ بِغَيْرِ الْحِسَابِ ﴾ ﴿١﴾ هذا واقع تاريخي لا يشك فيه إنسان ، إن القضية قضية المعرفة ، معرفة الشخصية ، قضية معرفة القيمة ، اعرفوا قيمتكم يا شباب .

يقول شاعر الإسلام إقبال: انزل في أعماق قلبك ، وأدرك سر الحياة ، إن لم تكن صديقي ، فلا بأس ، ولكن كن صديق نفسك ، وإن لم تعرفني فلا بأس ولكن اعرف نفسك .

الأمم تعيش وتسود بالرسالة والشخصية^(١)

حديث في حفلة السفارة السعودية

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله .

حضرات السادة الأجلاء!

إنني أنتهز هذه الفرصة الكريمة فأحيي هذه المجموعة الطيبة النقية المصطفاة باسم رابطة العالم الإسلامي التي أتشرف بتمثيلها وباسم الوفد الذي يزور هذه البلاد العزيزة الحبيبة ، وأشكر أهل هذه البلاد حكومةً وشعباً على الحفاوة النادرة التي لقيناها منهم ، وعلى كرم الوفادة ودماثة الخلق التي قابلونا بها ، ولا غرابة في ذلك فالكرم أصيل وقديم في هذا الشعب وقديماً قالت العرب: «الشيء من معدنه لا يستغرب» وقد تجلت هذه الروح الطيبة - بمعناها الواسع - في بطولات هذا الشعب ومغامراته وإداراته وحكوماته ، وهي التي دفعته قديماً إلى اجتياز حدود بلاده واختراق هذه الجبال الشاهقة يحمل مشعل الإسلام والثقافة والحضارة وحسن الإدارة إلى الهند ، وقد عشت في تاريخه وأمجاده وأخباره زمناً طويلاً ، وكان من المعقول والمتوقع جداً أن أزور هذه البلاد قبل هذه الزيارة بمدة طويلة بحكم

(١) أُلقيت هذه المحاضرة في ليلة يوم السبت الموافق ٩ / يونيو ١٩٧٣ م في حفلة التكريم التي عقدتها سفارة المملكة السعودية بفندق «أوتيل كابل» وقد مرت الإشارة إليها .

وجودي في الهند البلد المجاور ، ولكن أراد الله أن تتأخر هذه الزيارة إلى هذا الوقت ، ولعل الله في ذلك حكمة خفية .

أيها السادة الأجلاء :

لقد كان العرب في العهد القديم يستبعدون هذه البلاد ويضربون بها المثل في البعد وصعوبة الوصول ، وكانوا يسمون هذه المنطقة الشرقية كلها «خراسان» .

فقال شاعرهم :

قالوا خراسان أقصى ما يراد بنا ثم القفول ، فقد جئنا خراسانا
وها قد وصلنا خراسان ، ودخلنا في أفغانستان ، وزرنا هذه الأرض
الطيبة الجميلة التي أكرمها الله بجمال الطبيعة وجودة المناخ وكثرة
الخيرات ، وقد قال الشاعر العربي :

ولما نزلنا منزلاً طلّه الندى أنيقاً وبستاناً من النور حالياً
أجدّ لنا طيب المكان وحسنه منى ، فتمنينا فكنت الأمانيا

وقد كان هذا شأننا عند ورودنا هذه البلاد والشيء بالشيء يذكر ، فقد
ذكرتنا هذه البلاد وما حباها الله من الحسن والإحسان ، شخصية كان لها
الفضل في هذه الحياة الجديدة ، شخصية نقلتنا من حياة إلى حياة ومن عالم
إلى عالم ومن طور إلى طور؛ ألا وهي شخصية سيدنا محمد
رسول الله ﷺ ، فقد كنا جسداً ولا روح ، واسماً ولا مسمى ، وصورة ولا
حقيقة ، شعوباً لا غاية لحياتها ولا رسالة ، فأفاضت وأضفت هذه الشخصية
الحبيبة على هذه الأمم والشعوب شخصية جديدة ومنحتها رسالة جديدة ،
أما الشخصية فهي الشخصية الإسلامية القوية التي تجمع أفضل صفات
الإنسان وعناصر القوة والفتوة والخلق ، وأما الرسالة فهي الرسالة التي عبر
عنها رسول العرب المسلمين في مجلس يزيد جرد إمبراطور إيران خير تعبير ،
فقال لما سأله الإمبراطور: ما الذي جاء بكم؟ «الله ابتعثنا لنخرج من شاء من
عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة ،
ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام» .

يا أصحاب السعادة السفراء ويا أصحاب المعالي الوزراء :

إنني أنظر إليكم كممثلين حقيقيين للشعوب والأقطار التي تمثلونها سياسياً وإدارياً ، وأتمنى أن تكونوا أكثر من ذلك وأعظم ، وأعتقد أن مهمتكم يجب أن لا تقتصر على الأعمال الرتيبة و«الروتينيات» .

إن الشرق يطلب منكم مجالاً أوسع من هذا المجال وعملاً أضخم من هذا العمل ، إن الشرق اليوم يعيش على هامش الحياة وفي مؤخر الركب ، إن الغرب يأمره فيطبع ، ويقول فيسمع ، ويقوده فينقاد ، ويعلمه فيتعلم ؛ لأنه يعيش على فئات مائدته . إنه لا شخصية له ولا رسالة ، والأمم والحضارات لا تعيش إلا بالشخصيات والرسالات ، فيجب أن تبحثوا لهذا الشرق عن شخصية ورسالة ، شخصية فيها القوى والثقة ، شخصية فيها الأصالة والاستقلال ، شخصية فيها الجدة والابتكار ، شخصية فيها الاعتداد والاعتزاز . ورسالة فيها الإخلاص والنزاهة ، والعطف والرحمة ، والعدل والمساواة ، والإخاء والسلام ، إنكم لا تحتاجون إلى أن تبعدوا النجعة وتشقوا الشعرة ، فإن هذه الرسالة بمتناول يديكم وبمقربة منكم ، وهي رسالة الإسلام التي أكرمكم الله بها وحملكم إياها ، ولسنا في حاجة إلى دين جديد إنما نحن في حاجة إلى إيمان جديد بهذا الدين ، ولسنا في حاجة إلى رسالة جديدة إنما نحن في حاجة إلى حماس جديد لهذه الرسالة ، إننا في حاجة إلى تقوية هذه الشخصية الإسلامية وتنميتها حتى يعيد التاريخ نفسه ، ويرتد الدهر على أعقابيه .

* * *

في أرض النوابع والشعراء

داعي الشوق لزيارة إيران:

كانت زيارة إيران - يونان الشرق ومولد الجم الغفير من نوابع الإسلام وعباقرته وأئمة الحديث والفقه وعلوم الحديث والنحو والبلاغة والآداب العربية - أمّية قديمة كانت تراود النفس وتعاودها بين حين وآخر ، فقد عشنا في أطرافها وربيعها وحدائقها التي تغنى بها شعراؤها وفي أدبها الخصب وشعرها الرقيق ، وطبيعتها المرححة القلقة التي تجلت في مذاهبها المتطرفة ، وأفكارها الثائرة ، وفي تصوفها الولوع الحنون الذي كانت لـ «إيران» فيه الزعامة في العصر القديم ، ولكن لم تتحقق هذه الأمنية إلا في العهد الأخير ، حين قطع ركب الحياة أكثر مراحل السفر ، وغلب البحث عن الحقيقة على التفتن في الخيال ، ولعل ذلك كان خيراً.

أصحاب الفضل في تيسير الرحلة:

والفضل في هذه الزيارة التاريخية يرجع إلى رابطة العالم الإسلامي ، كما يرجع في زيارة أفغانستان ، فهي صاحبة الفكرة في هذه الرحلة ، وكان لصيتها البعيد في العالم الإسلامي ومكانتها المرموقة في نفوس المسلمين لانتسابها إلى مهبط الوحي ومهد الإسلام ومولد الرسول ﷺ ، والآمال الكبار التي يعلقها المسلمون بها؛ فضل كبير في نجاح هذه الرحلة وما لقيه أعضاء الوفد من حفاوة بالغة من حكومة إيران الموقرة ، والشعب الإيراني المسلم ، والمنظمات الدينية والعلمية ، والشخصيات البارزة في هذا البلد الكبير.

وإن كان لرابطة العالم الإسلامي فضل في مشروع هذه الرحلة وتهيئة

أسبابها - ولا شك في ذلك - فقد كان لرئاسة مجلس الأوقاف التي يشرف عليها معالي الدكتور «منوچهر آزمون» نائب رئيس وزراء إيران ورئيس هيئة الأوقاف الفضل الكبير في تيسير هذه الرحلة ووضع مخططاتها وبرامجها ، فإنه لما علم قصد الوفد لإيران أبي إلا أن ينزل الوفد في ضيافة الحكومة ، وإن تكون رئاسة الأوقاف هي المضيفة الكريمة بالنيابة عنها ، وعني عناية فائقة بتيسير مهمة الوفد^(١) وتمكنه من أداء رسالته ، وأن يحمل عن البلد والشعب فكرة واضحة كاملة وصورة مشرقة زاهية ، ويرى الوفد لزماً عليه ، ومن قبيل الاعتراف بالواقع أن يشكر معاليه على هذه العاطفة الإسلامية النبيلة والأريحية الإيرانية المعروفة .

مساحة الرحلة الزمانية والمكانية :

كانت المدة التي كان الوفد يقضيها في إيران ويزور في خلالها معالمها ومظاهر نشاطها الإسلامي وحركتها العلمية ثمانية أيام ، ولكن كاتب هذه السطور الذي رضع بلبان حب الأدب الفارسي ، شأن أبناء الأسر المسلمة قبل نصف قرن ، وعرف «سعدي» و«حافظ» في مقدمة من تعرف بهم من شعراء العالم وأدبائه ، أبدى رغبته في زيارة «شيراز» مدينة الشعر والسحر ، فأجاب معالي الدكتور إلى ذلك بكل سرور ، مضيفاً إليها مدينة «أصفهان» عاصمة الصفويين ومركز الفن الإيراني ، وهكذا صارت هذه المدة عشرة أيام ، بدأت من يوم الإثنين ٩/ جمادى الأولى ١٣٩٣ هـ الموافق ١١/ من يونيه ١٩٧٣ م^(٢) وانتهت بيوم الأربعاء ١٨/ من جمادى الأولى ١٣٩٣ هـ الموافق ٢٠/ من يونيه ١٩٧٣ م ، وكان السفر صباح يوم الخميس ١٩/ من جمادى الأولى ١٣٩٣ هـ ٢١/ من يونيه ١٩٧٣ م من طهران إلى بيروت في طريقنا إلى جدة ، فقد قررنا أن تكون مكة نهاية المطاف في هذه الرحلة .

(١) وكان من هذا التيسير تعيين مرافق وترجمان فاضل للوفد كالدكتور أبي القاسم مشيري ، مدير الأوقاف في تهران ، وهو رجل مثقف نشيط يحسن اللغة الإنجليزية وله مشاركة في اللغة العربية .

(٢) وكان من ٢١/ من خرداد ١٣٥٢ بالتقويم الإيراني المنتشر في البلاد .

كانت هذه الأيام العشرة التاريخية التي قضها الوفد في إيران حافلة بالزيارات واللقاءات، والرحلات والتنقلات، والأحاديث والمحاضرات، وكان النزول في «بارك أوتيل» (Park Hotel) أحد فنادق العاصمة الكبرى.

لقاء مع الوزراء والعلماء:

وقد زار الوفد خلال هذه الأيام عدداً من الوزراء الكبار، نخص بالذكر منهم دولة عباس هويدا^(١) رئيس الوزراء، ومعالي الأستاذ كاظم زاده وزير التعليم العالي، فضلاً عن معالي الدكتور آزمون الذي قابلته الوفد عدة مرات مدة إقامته بطهران، وكانت مقابله يوم الثلاثاء صباحاً أول مقابلة تشرف بها الوفد، وقد جلس معه طويلاً في جو من الحرية والبساطة وعدم التكلف، وتشعب الحديث وتناول جوانب إسلامية وعلمية وتاريخية، وكانت مقابله كذلك هي الأخيرة، فقد أقام الدكتور حفلة عشاء فاخرة تكريماً لأعضاء الوفد في فندق «هلتون» (Hilton) ليلة الخميس ١٨/ من جمادى الأولى حضرها عدد من الوزراء وكثير من العلماء وأعيان البلد.

وكان من بين العلماء الذين زارهم الوفد وجلس إليهم وتداول معهم الحديث في موضوعات دينية وعلمية، أصحاب السماحة والفضيلة: «آية الله العظمى»^(٢) السيد محمد كاظم شريعة مداري، و«آية الله العظمى» الشيخ حبيب الله ميلاني، و«آية الله العظمى» المرزا محمد خليل كمره آي، و«آية الله» السيد حسن إمامي. إمام مسجد شاه في طهران، والأستاذ الكبير «آية الله» محمد تقي القمي، ومن الشخصيات العلمية والأساتذة الكبار العلامة وحيدى، المشرف على مسجد سبه سالار في طهران، والدكتور محمدي

(١) أقام دولته في شبابه في بيروت مدة طويلة، وتخرج من الجامعة الأمريكية البيروتية، لذلك يتكلم العربية بطلاقة وكأبناؤها، ويرأس الوزارة في إيران منذ عشر سنين أو أكثر.

(٢) أصحاب الفضيلة العلماء في إيران طبقتان، الطبقة الأولى هم الذين بلغوا الدرجة القصوى في التبحر العلمي والمكانة الدينية ويلقبون بـ«آية الله العظمى» والذين يلونهم يسمون بـ«آية الله».

عميد كلية الإلهيات ، والأستاذ شيخ الإسلام أستاذ الفقه الشافعي في كلية الإلهيات ، والدكتور عباس المهاجراني رئيس تحرير مجلة «الفكر الإسلامي» العربية الصادرة في طهران ، والدكتور سيد حسين نصر رئيس «جامعة آرية مهر» في طهران ، والكاتب الإسلامي الطائر الصيت ومؤلف كتب إسلامية قيمة باللغة الإنجليزية ، والأستاذ السيد هادي خسرو شاهي الكاتب الإسلامي المعروف ورئيس تحرير مجلة «الهادي» ، العربية في دار التبليغ الإسلامي بـ«قم»^(١).

زيارة المراكز الدينية والعلمية والمدن التاريخية الأثرية :

وكان من بين المدن التي زارها الوفد - عدا مدينة طهران عاصمة إيران مدينة «قم» المركز العلمي الديني الأكبر في إيران ، و«مشهد» المركز الروحي الأكبر ، ومدينة «أصفهان» التي كانت عاصمة إيران لأطول مدة ، وفي أزهر العهود مدنيّة وفناً ، ومدينة «شيراز» درة إيران الشعرية والأدبية ، وقد تجوّل الوفد في أحياء المدن القديمة والجديدة وشاهدها بنفسية المسلم المستطلع ، وعين المؤرخ المعني بالآثار ، وذوق السائح المتنقل في البلاد والأقطار ، وكان في مشاهداته هذه إشباع لكل هذه النواحي ، وقد أعجب بالفن الرفيع ، والهندسة البارعة ، والنقش البديع ، والذوق الرفيع والمدنية الزاهية التي بلغت أوجها في عهد الصفويين ، وشاهد المصنوعات الوطنية والتحف الفنية التي فاقت فيها إيران .

وكان من بين المشاهد التي زارها الوفد مسجد السيدة معصومة أخت «الإمام» علي الرضا بن موسى الكاظم ، وفيه ضريحها الذي يقصده الإيرانيون من أنحاء بعيدة ويغص المسجد بهم ، ومشهد «الإمام» علي الرضا الذي هو أكبر مشهد ومزار في إيران كلها ، تشد إليه الرحال ويؤمّه

(١) مع الأسف لم تقابل عدداً كبيراً من الأساتذة الجامعيين والمثقفين بالثقافة العصرية المدنية ، لأن الزمن كان زمن الإجازة الصيفية في الجامعات والكليات ولضيق الوقت .

الزوار من أقصى البلاد ولا ينقطع عنه الزائرون ولا تتوقف حركة السفر إليه في أي ساعة ليلاً ونهاراً.

ومن المساجد الأثرية التي زرناها مسجد سبه سالار في طهران الذي هو آية الفن والهندسة والنقش والتلوين ، ومسجد شاه الذي هو المسجد الجامع في العاصمة ، ومسجد «كوهر» في (المشهد) ، ومسجد شاه عباس الصفوي ، ومسجد شيخ لطف الله ، ومسجد الجامع ، ومسجد جهار باغ كلها في أصفهان ، ومسجد وكيل في «شيراز» .

ومن المؤسسات والمعاهد التي زرناها ، كلية الإلهيات والمعارف الإسلامية في جامعة طهران ، ودار التبليغ الإسلامي في مدينة «قم» ومركز التقريب بين المذاهب الإسلامية في طهران .

الندوات والمحافل :

أما الندوات والمحافل التي استقبل فيها الوفد ، وتكلم فيها أعضاؤه ، فمنها منزل العلامة شريعة مداري ، ودار التبليغ في «قم» وقد عقدت في هذه الدار حفلة تكريم كبيرة للوفد ، وألقيت فيها محاضرات وأنشدت قصائد ، ومنزل العلامة حبيب الله ميلاني في (مشهد) أقيمت فيه كلمة ترحيب للوفد ، وأجاب عنها عضو الوفد الأستاذ أحمد محمد جمال ، ومنزل العلامة مرزا محمد خليل كمرآني ، أقيمت فيه حفلة تكريم لطيفة واستقبل الوفد بهتافات حماسية وكلمات ترحيب رقيقة ، وأنشد نشيد إقبال الطائر الصيت الذي مطلع «الصين لنا والعرب لنا» معرباً بقلم الأستاذ صاوي شعلان المصري ، و مترجماً إلى الفارسية بالشعر ، وتكلم في هذه الحفلة عضو الوفد الأستاذ أحمد محمد جمال وكاتب هذه السطور ، وسيمر بالقارئ في هذا الكتاب نص الكلمة التي ألقاها كاتب هذه السطور نقلاً من الشريط المسجل مع تنقيح وتهذيب وزيادة يسيرة ، وزار الوفد مركز دعوة التقريب بين المذاهب الإسلامية ، تكلم فيه الأستاذ الكبير محمد تقي القمي ، وكاتب هذه السطور وحضر لفيف من علماء البلد ورجال الثقافة والفكر .

في «طوس» مدينة الآثار والأمجاد:

ومن الآثار التاريخية التي زارها الوفد في المشهد ضريح شاعر إيران الخالد «فردوسي» (م ٤١١ هـ) صاحب الملحمة الفارسية المعروفة بـ«شاهنامه» التي هامت بها إيران في كل زمان وإليها يرد الفضل في تخليد أمجادها وإحياء لغتها الفارسية ، وإثارة الشعور القومي ، وقد عنيت حكومة إيران بهذا الضريح عناية عظيمة ، وأدّت إلى الشاعر العظيم ضريبة الإجلال والإكبار وتوّجه بأعظم رمز لتخليد الآثار.

وقد تجولنا في «طوس»^(١) وهي الولاية القديمة الغنية بآثارها ورجالها ، وقد أنجبت نوابغ مثل حجة الإسلام محمد بن محمد بن محمد أبي حامد الغزالي ، والوزير الخير الشهير نظام الملك الطوسي رئيس وزراء الإمبراطورية السلجوقية ، والشاعر العظيم «فردوسي» ، والحكيم الكبير نصير الدين الطوسي وغيرهم .

على قبر الغزالي :

وقد هاجت هناك ذكريات تاريخية وتمثلنا أيامها الزاهرة ، يوم كانت مدرسة العلم ومربية الجيل ومأوى الفضل ، وكان طبيعياً ونحن نمشي في أطلالها وبين عرصاتها أن ينتقل ذهننا إلى مفخرة الإسلام عبر القرون والأجيال ، ونابغة النوابع ، وأحد العقول الإسلامية الكبرى ، حجة الإسلام وحسنة الأيام: الإمام أبي حامد الغزالي الذي لم يرزق أحد من بين علماء الإسلام - بعد مؤسسي المذاهب المعمول بها في العالم الإسلامي - من القبول والشهرة وخلود الآثار العلمية ما رزق هذا الإمام ، وسألنا عن مسكنه ومدفنه ومركز حركته العلمية التي أخذت من العالم الخراج ، وانحنى أمامها السرير والتاج ، فلم يكن الجواب مشجعاً ولا مسلياً ، مشى

(١) قال البغدادي في مراصد الاطلاع وهو يذكر «طوس»: «مدينة بينها وبين نيسابور عشرة فراسخ ، تشتمل على بلدين ، يقال لإحدهما: الطابران ، والأخرى نوقان ، وبهما أكثر من ألف قرية ، بها قبر الرشيد ، وعلي بن موسى الرضا في بستان كان بها» .

بنا الدليل أراضي مقفرة وأنقاضاً متراكمة ، ووقف بنا أمام بناء قديم يندب حظه ويشكو قسوة الزمان وقيل لنا: إنها «هارونية» التي كان الخليفة العباسي هارون الرشيد يحبس فيها من تنزل عليه نعمته . فلا يرى ضوء الشمس بعد ما يدخلها ، وقد وقع بيدنا كتاب ألفه أحد الأساتذة الإيرانيين الدكتور عيسى صديق أحد أساتذة جامعة طهران ، وقد أسماه «آرام كاه غزالي» يعني مرقد الغزالي ، فند فيه هذه الشائعة وبين أنها أسطورة لا تسند إلى التاريخ ، وقد بحث في هذا الكتاب الصغير عن ضريح الإمام الغزالي وموقعه في طوس ، واحتج بنصوص المستشرقين الأوربيين ، في مقدمتهم البروفيسور بوب الأميركي (Pope) والدكتور زويمير (Zwemer) ، ومن المؤرخين المسلمين تاج الدين السبكي من المتقدمين ، وأقاي علي أصغر حكمة من المتأخرين ، ووصل بكل ذلك إلى نتيجة أن قبر الغزالي بجوار هذه البناية العتيقة الأسطورية ، وحدانا الذوق التاريخي والاشتغال بآثار الغزالي والانتقاع بها إلى قبره ، فرأينا ضريحاً قد جدد حديثاً يقع عن يسار هذه البناية ، إذا استقبلها الواقف ، ولا كتابة عليه ولا لوحة ، وأخبرنا أن اللوحة لا تزال في جوف البناء ورأيناها فعلاً ، وقد انطمت كتابتها فلا تقرأ إلا بعض الكلمات بصعوبة ، وقد وقفنا خاشعين أمام عظمة الله تعالى ، وآمنا بأنه هو الحي الدائم ، وقرأنا قوله تعالى : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢١﴾ وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ .

نادر شاه أفشار :

ومن هذه الآثار التاريخية ضريح نادر شاه أفشار الذي غزا الهند في سنة ١١٥١ هـ (١٧٣٩ م) وفتح دهلي ، ووضع السيف في أهلها ، فما رفعه إلا بعد أن سالت دماء المسلمين غزيرة في شوارع دهلي^(١) ، وأدخل الذعر

(١) وسببه الذي ذكره المؤرخون أن جيش نادرشاه كان منتشرأ في المدينة نازلين مع أهلها ، فكان أوباش الهند إذا ظفروا بواحد منه قتلوه غيلة ، فبلغ نادرشاه ذلك ، فأمر جيوشه بقتل أهل المدينة ، فما زالوا يقتلون من وجدوه ثلاثة أيام حتى أربى القتلى من أهل الهند على مئة ألف ، ثم أمرهم بعد اليوم الثالث برفع السيف ، ونادى بالأمان . =

والخوف قلوب أهل البلاد ، وطأطأ أمامه رأس الملك المغولي (حفيد الإمبراطور أورنك زيب عالمكير) «محمد شاه» واستولى على عرش الطاووس الذي صنعه «شاهجهان» وكان مرصعاً بالجواهر الكريمة فأخذه إلى إيران ، وكان لا شك من أكبر القادة العسكريين الذين نبغوا في أوائل القرن الثاني عشر الهجري وهو الذي اتخذ «مشهد» عاصمة له ، وقاعدة لقيادة الجيوش إلى الهند ، وقد عنيت مصلحة الآثار القديمة بإبراز هذا الأثر التاريخي وأحاطته بالكتابات والصور التي تلقي ضوءاً على عصامية هذا القائد ومغامراته ، وقد قصدت أحد متاحف طهران ، وهو «كاخ كلستان» شوقاً إلى مشاهدة عرش الطاووس ؛ وتحكمت في الطبيعة الهندية والذوق التاريخي ، فعرفنا أنه جُزئ وقطع ، وأودعت الجواهر النفيسة في بعض «البنوك» أو المتاحف الأثرية ، وصنع سرير آخر تقليداً له يحاكيه في الهندسة ولم نعلق عليه أهمية.

ذكرى الرشيد:

ولم نعرف أثراً لضريح الخليفة هارون الرشيد الذي دوى اسمه في الآفاق ، ونال من الشهرة حظاً لم ينقله ملك من ملوك المسلمين بل من ملوك الشرق ، والذي قال لقطعة من سحاب مرت على رأسه: «أمطري حيث شئت فسيأتيني خراجك» وقد أحاطت به هالة من الأساطير والروايات لم تحط بشخصية أخرى ، ومن الثابت في التاريخ أنه دفن في طوس ، ولا يستبعد أن يكون قبره بجوار سيدنا علي الرضا^(١) ، ولكنه أصبح

= «الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام» للعلامة عبد الحي الحسني ، ج ٣ .
 (١) كانت وفاة الرشيد سنة ١٩٣ هـ بـ«طوس» ودفن بها ، وتوفي سيدنا علي الرضا سنة ٢٠٣ هـ بمدينة «طوس» كذلك ، قال ابن خلكان: «وصلى عليه المأمون ودفنه ملاصق قبر أبيه الرشيد» ، واختلف في سبب موته ، فقيل: إنه كان موتاً طبيعياً وقيل بل كان مسموماً ، سمه بنو العباس ، لأن المأمون عهد إليه بالخلافة . اقرأ التفصيل في كتب التاريخ ، واشتهرت طوس بـ«المشهد» بسبب دفنه ، لعل ذلك في أيام الصفويين ، وهذه المنطقة كلها كانت تسمى «خراسان» ولا يزال هذا الاسم باقياً في هذا العصر .

مغموراً مطموراً بجنب شخصيته الدينية ، وما تدين لها إيران من تعظيم وتقديس .

وفاتنا أن نזור نيسابور عاصمة السلاجقة^(١) والمدينة العلمية التاريخية العظيمة التي نهض منها علماء كبار وشعراء مفلقون ، وفيها قبر الشاعر المشهور عمر الخيام (م ٥١٧ هـ) وخاجا فريد الدين عطار الشاعر الصوفي (م ٦٣٧ هـ) وهي تبعد من «المشهد» في جهة الغرب مئة وثلاثين كيلو متراً ولم يتسع وقتنا لزيارته .

في أصفهان

وزرنا «أصفهان» مدينة العلم التي نبغ فيها كثير من العلماء والأدباء ، كأبي نعيم الأصفهاني صاحب «حلية الأولياء» (م ٤٣٠ هـ) والراغب الأصفهاني صاحب «مفردات في غريب القرآن» (م ٥٠٢ هـ) وأبي الفرج الأصفهاني (م ٤٦٨ هـ) صاحب الأغاني ، والإمام داود الظاهري (م ٢٧٠ هـ) صاحب المذهب والأستاذ أبو بكر محمد بن فورك المتكلم الأصولي (م ٤٠٦ هـ) وكانت مدينة مرموقة في أوائل التاريخ الإسلامي ، وخاصة في العهد العباسي ، واتخذها ملك شاه السلجوقي عاصمة مملكته الواسعة ، إلا أنها نالت قسطاً كبيراً من الشهرة ، واحتلت المكانة الأولى في إيران في عهد الصفويين ، وقد جرى تتويج الشاه إسماعيل الصفوي - مؤسس الأسرة الحاكمة - وجلسه على العرش في «تبريز» وهو الذي أعلن المذهب الشيعي ، كدين الدولة الرسمي ، واتخذ «قزوین» عاصمة ملكه ، وخلفه الشاه عباس الصفوي - أعظم ملوك الأسرة الصفوية وأشهرهم - سنة (١٦٠٢ م) ونقل العاصمة إلى «أصفهان» وإليه يرجع الفضل في تخطيط المدينة الجديدة ، والبلوغ بها إلى أوج المدنية والزخرفة ، وله آثار معمارية عظيمة في أصفهان ، تجلى فيها ذوقه الرفيع ، وعنايته البالغة ، وقد نزلنا

(١) كانت عاصمتهم في عهد «طغرل بك» و«ألب أرسلان» ، وقد أنشئت فيها مدارس كبيرة منها «المدرسة النظامية العظيمة» التي كان يدرس فيها إمام الحرمين أبو المعالي عبد الملك الجويني (م ٤٧٨ هـ) .

في فندق منسوب إليه يسمى «مهمان سراي شاه عباس صفوي» وهو بقصر ملوكي أشبه منه بفندق أو نزل ، وتحيط بالمدينة آثار تاريخية ، وحدائق ومشاهد لم يتسع وقتنا لزيارتها .

وحكم الصفويون مدة قرنين وهم في أوج القوة والإقبال ثم أصابهم الضعف والهزم شأن الأسر الحاكمة كلها في العالم ، وبدأ في إيران دور الاضطراب وعدم الاستقرار ، تتخلله فترات من حكم قوي وقيادة ثابتة حتى جاء دور القاجاريين وهم من أصل تركي وفي عهد آغا محمد شاه (١٧٧٩ م) انتقلت العاصمة إلى طهران ، وكانت مدينة صغيرة لا شأن لها ، فتوسعت وأخذت زخرفها وازينت في خلال القرن التاسع عشر والعشرين المسيحيين والله الأمر من قبل ومن بعد .

في شيراز:

وزرنا شيراز التي دخل اسمها في أدبنا الهندي وفي أمثال لغتنا ، وكان مثلنا ومثلها كما قال بشار بن برد:

..... والأذن تعشق قبل العين أحياناً

وبدأنا بزيارة قبر الشيخ مصلح الدين سعدي (م ٦٩١ هـ) صاحب الحديقتين الزاهرتين الخالدتين «كلستان» و«بوستان»^(١) ، ويسمى هذا المكان بـ«سعدي» ، وحضرنا ونحن واقفون على قبره بعض أبياته التي تمنى فيها دعاء رجل تهيجه عاطفة الحنان والرحمة ، فيدعو له ، ودعونا دعوة من نهل من موارده ، واقتطف زهوره ، ثم زرنا قبر خاجا حافظ (م ٧٩٣ هـ) من أكبر شعراء الحب والحنان ، والعاطفة والوجدان ، في عصره وبعد عصره ويسمى هذا المكان بـ«الحافظة» .

ونهضت من «شيراز» جماعة من كبار علماء الإسلام ، كالعلامة أبي إسحاق الشيرازي (م ٤١٨ هـ) رئيس أساتذة جامعة النظامية ببغداد ، وعلي بن عيسى أبو الحسن الربيعي تلميذ أبي علي الفارسي ، والإمام في

(١) معناهما الروضة والحديقة .

النحو (م ٤٢٠ هـ) وأصبحت في العهد الأخير مركزاً لعلوم الحكمة (الفلسفة والمنطق) ونهض منها العلامة صدر الدين الشيرازي (م ١٠٥٩ هـ) صاحب «الأسفار الأربعة» في الحكمة ، وشرح «هدية الحكمة» المعروف بـ«صدر»^(١) والأمير فتح الله الشيرازي (م ٩٩٧ هـ) الذي كان له تأثير عميق في المناهج الدراسية في الهند ، والأمير غياث الدين منصور .

وتدين شيراز الحديثة في عمرانها وجمالها ، ومساجدها الكثيرة لكريم خان من أسرة «زند» التي حكمت فارس بعد الصفويين واتخذت «شيراز» مركزاً لها .

وزرنا «تخت جمشيد» الذي هو من أقدم الآثار التاريخية في إيران ، وهي عاصمة «دارا» الأول ، يرجع تاريخها إلى ألفين وخمسمئة سنة ، وكانت قاعدة ملك كبير ، ومركز حضارة من أرقى حضارات العالم القديم ، وقد تجلى فيها الفن المعماري والهندسة البنائية وطريقة نقل الحجارة الضخمة الهائلة إلى الهضاب والمرتفعات ، وبناء العمدة الشامخة ، في أروع مظاهرها ، يذكر السائح بأهرام مصر وقدرة المصريين القدماء على نقل الحجارة وتركيب بعضها ببعض ، وقد عقدت حكومة إيران في هذا المكان في أكتوبر ١٩٧١م مهرجاناً بمناسبة مرور ألفين وخمسمئة سنة على الإمبراطورية الإيرانية ، حضره رؤساء الجمهوريات وملوك العالم ووزراء الدول وممثلو البلاد ، وأنفقت عليه الملايين من النقود ، وتفصيل هذا المهرجان لا تقل عن أساطير ألف ليلة وليلة في الغرابة ، والمحل يبعد عن شيراز ستين كيلو متراً تقريباً .

وقد ملكتني دهشة وأنا أجول في أطلال هذه المدينة البائدة فاستغرقت فيها ، كيف استطاع العرب رعاء الشاة والغنم ، وسكان الوبر والمدر أن يفتحوا هذه البلاد العريقة في المدنية ، الغنية في الحضارة والعلم ، التي كانت هذه المدينة بعض آثارها والتي توارثت الملك والمدينة منذ آلاف من

(١) قد دخل هذا الكتاب في المناهج الدراسية في الهند منذ القرن الحادي عشر الهجري ، واعتبر من الكتب الذي لا يعتبر الطالب محصلاً عالمياً ، إلا إذا قرأه وأتقنه .

السنين ، وبلغت بهما شأواً بعيداً لا يتصوره العقل؟! وكان الجواب: قوة الإيمان والدعوة وفضل تعاليم الإسلام ، والبعد عن أدواء المدينة المصطنعة ، وحياء الرقة والنعموة .

نزلنا في شيراز في «أوتيل سائرس» وسائرس هو من أعظم ملوك إيران ، ورمز عظمتها ومجدها الغابر ، ويرجح بعض الباحثين أنه الملك الذي تحدث عنه القرآن في سورة الكهف بلقب «ذي القرنين»^(١) وهو الذي خلص اليهود من أسر بختنصر وأعادهم إلى فلسطين ، فهم يعتبرونه المنقذ لليهود وصاحب الفضل عليهم ، وهو الذي احتفلت به حكومة إيران كما ذكرنا ، وهو فندق كبير يحافظ فيه على التقاليد الإيرانية القديمة ومظاهرها ، في لباس المضيفات والخدم ، ويظهر ذلك التقليد في مطاعم المدينة الأخرى .

ويمتاز أهل «شيراز» بخفة الروح والمرح وحب الألحان المطربة ، وقد جلست في شرفة الفندق في الليل ، والمدينة تسبح في فيض من الأغاني والأنوار والتسلية والتمتع ، وأنا أسبح في بحر من الذكريات ، وعهود التاريخ الماضي ، وأحداث الزمان وتقلباته ، وكأني أشاهد قصة مسرحية تتتابع فصولها ويتغير أبطالها ، وتختلف مناظرها ، ثم أذكر قول الله تعالى : ﴿ وَمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوةُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة العنكبوت: الآية: ٦٤] . وقوله تعالى : ﴿ أَوْلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [سورة الروم: الآية: ٩] .

هذا استعراض مجمل لهذه الجولة التي كان لها صدى في القلوب والنفوس ، وحديث في المجالس والمحافل ، ولم تغفل الإذاعة والتلفزيون أن تلعب دورها في الإشادة بهذه الجولة ، التي كانت جديدة في نوعها ،

(١) ذهب إلى ذلك مولانا أبو الكلام آزاد (وزير المعارف الأسبق في حكومة الهند والزعيم الهندي المشهور) في تفسيره «ترجمان القرآن» ورجحه الأستاذ أبو الأعلى المودودي في «تفهيم القرآن» .

ذات أهمية في نتائجها وآثارها ، ويستطيع القارئ المعني بالرحلات والجولات أن يأخذ عنه صورة مجملّة وفكرة عامّة عن طبيعة هذه الرحلة ، وقيمتها التاريخية والأثرية والاجتماعية والعلمية .

انطباعات ، ملاحظات ، اقتراحات :

ونريد بعدما انتهينا من هذه المرحلة التي لا بد منها ، أن نورد هنا بعض انطباعاتنا وملاحظاتنا في هذه الجولة التي لم تكن سياحة في بلد شرقي إسلامي فحسب ، ولا زيارة تحية ومجاملة ، وإنما كانت أبعد مدى وأعمق أثراً من الرحلات التاريخية ، والزيارات الأثرية ، وتبادل التحية بالتحية ، وهنا نضطر إلى أن نسجل بعض الجوانب المشرقة التي تفتح مجالاً واسعاً للآمال والأعمال ، وتبعث على السرور والتفاؤل ، ونسجل جوانب تثير الاستغراب ، وتطلب - إلى حدّ ما - سعة نظر ورحابة صدر ، وثقة بإخلاص القائل ، وحسن قصده ، ولا شك أن كثيراً من إخواننا الفضلاء في إيران متحلون بهذه الصراحة ، وقد لمسنا آثارها في الأيام التي عشناها بينهم :

١- أن أول شيء بهرنا وأثار فينا الاستغراب مع الإعجاب ، والحيرة مع المسرّة ، هي شدة رغبة إخواننا الإيرانيين على اختلاف طبقاتهم وثقافتهم في الوحدة الإسلامية والالتقاء على صعيد واحد من جوهر الإسلام ومبادئه الأولية ، وأعترف هنا أننا لم نكن نتوقع الموجة القوية من حب الوحدة ومدّ يد الأخوة والصداقة إلى سائر المسلمين في العالم وتكوين جبهة موحدة ضد اللادينية التي تتحدى جميع الأديان ، وجميع القيم الخلقية ، والتي لا تميز بين سني وشيعي ، وحنفي وشافعي ، ومحافظ ومجدد ، ومقلد ومجتهد ، إنه كان فاتحة الحديث وخاتمه في المجالس ، والهتاف الصارخ في الندوات والحفلات ، والرغبة الجامحة في النفوس والقلوب ، ولا شك أنها ظاهرة طيبة مباركة ، يجب على جميع المعنيين بقضية الإسلام والمسلمين أن يستثمروها ، ويستخدموها في صالح الإسلام؛ الذي جنت عليه المغالاة ، وتخطي الحدود في الاختلاف جناية كبيرة ، والذي جرّ في منتصف القرن السابع الهجري على بغداد - مركز الخلافة وعاصمة الإسلام -

الشقاء الأكبر ، وكان سبب كارثة لا يوجد لها نظير في التاريخ^(١) ، ومنع العثمانيين أن يفتحوا أوربة ويتوغلوا فيها إلى أقصى حد ، وأضعف الحكم الإسلامي في الهند ثم انتهى به إلى الانقراض التام .

٢- والشيء الثاني ما لمسناه في هذه الزيارة من عناية بالآثار الإسلامية ، والتأليف في اللغة العربية ، وإحياء التراث القديم ، والاعتناء بالمصاحف الأثرية ، وتحليلتها وتزيينها ، مما يدل على التقدير والاهتمام ، وقراءة القرآن - وأكثره من صوت القراء المصريين المسجل - في المشاهد والحفلات واحترامها .

٣- ومنها الغيرة الدينية ومحاربة الحركات الهدامة الشائنة على الإسلام ، وفي مقدمتها البهائية التي منعت في إيران منعاً قانونياً واعتبر معتنقوها مارقين من الإسلام^(٢) ، مع أنها ديانة ولدت في إيران ونشأت فيها ، وكذلك كراهة علماء إيران للديانة القاديانية ومحاربتهم لها . أضف إلى ذلك عداؤهم للإلحاد وللشيوعية في بلادهم ، وهذه الغيرة جديرة بأن يغتبط عليها ، وتقلد إيران فيها الأقطار الإسلامية الأخرى وخاصة باكستان التي بينها وبين إيران صلات الصداقة المتينة .

٤- ومنها دماثة الخلق ورقة العاطفة وكرم الضيافة الذي يلقي به المسلم الإيراني أخاه الوافد من بلاد الإسلام ، وإشعاره بأنه بين إخوانه وأحبابه وفي بلده ، وكنا لا ننزل في بلد إلا ويستقبلنا رجال الحكومة وأعيان البلد وعلمائهم الكبار ، وقد رأينا كبار المسؤولين وبعض العلماء المشهورين واقفين على حافة الطريق في الشمس لاستقبالنا ، ونحن متوجهون إلى «قم»

(١) اقرأ رثاء مصلح الدين سعدي الشاعر الإيراني على هذا الحادث، وقصيدته الحزينة الدامية على نكبة المسلمين في ديوان شعره والتي مطلعها:

آسمان راحق بودكر خون ببادر بر زمعين بر زوال أمر مستعصم أمير المؤمنين

(٢) وقد بلغنا أخيراً أن البهائية لا يزال لها أتباع في إيران ، ولا يزال لها نفوذ في الأوساط العليا .

وكان السفر بالسيارات ، وقد تأخرنا في الوصول ، هذا ما شهدناه ولمسناه في هذه الزيارة القصيرة .

أما الجوانب التي نريد أن نلفت إليها نظر إخواننا الإيرانيين وخاصة العلماء الأفاضل والموجهين والقادة فهي كما يلي :

١ - من المعلوم أن المقصود الحقيقي من إرسال الرسل وإنزال الكتب بل من خلق السموات والأرض وخلق الإنسان ، هو عبادة الله وحده ، بجميع ما تحتوي عليه هذه الكلمة البليغة المعجزة من معاني الحب والطاعة ، والخضوع ، والخشوع ، والإخبات والإنابة والالتجاء والافتقار ، وإنما جاءت الرسل صلوات الله عليهم أجمعين ؛ ليربطوا الخلق بالخالق قلباً وقالباً ، ويأخذوا بنواصيهم ويطأطئوا رؤوسهم على عتبة عبوديته ، وتلك غاية أمانهم ومنتهى سعادتهم ونجاحهم وفيها نعيم قلوبهم ولذة روحهم ، ولم يأتوا ليشغلوا العباد بنفوسهم ويقفوا حاجزاً بينهم وبين ربهم ، إنهم لم يأتوا لاستعباد الإنسان للإنسان ، أو لأسرة أو بيت أو سلالة أو عرق أو دم ، وإن كانت هي أسرتهم وبيتهم وأبناؤهم ، إن طبيعة تقديس الدماء والعروق والسلالات والأجيال ، وتأسيس الدول الكبيرة ، وإنشاء السیادات والزعامات للأبناء والأحفاد ، وتأمين مصالحهم ومركزهم في المستقبل ، ودعوة الناس إلى تمجيدهم وتقديسهم والتغني الدائم بامتيازاتهم ، وبكونهم فوق البشر أو مستوى العامة ، طبيعة تليق بالملوك الفاتحين والقادة الطامحين ، وطلاب الدنيا وعباد المادة ، قد عرفت في تاريخ الحكومات ، وفي تاريخ الأسر والبيوتات في الزمن القديم ، ولا تليق بالأنبياء والمرسلين ، ولا أبلغ من قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِشَيْءٍ أَنْ يُوْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٦﴾ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ٧٩ - ٨٠] .

ولذلك كان النبي ﷺ حذراً شديداً الحذر من كل ما يشغل الناس بالناس ، أو يقف حاجزاً بين العبد وربّه ، أو يوجه عاطفة العبودية

والإنابة ، أو التقديس والتمجيد إلى غير الله تعالى ، شخصاً كان أو أثراً أو معبداً أو مشهداً ، فقد صح أنه قال : «اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»^(١) وقال : «لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، يحذر ما صنعوا»^(٢) وقال : «لا تجعلوا قبري عيداً»^(٣) والأحاديث في ذلك كثيرة .

وذلك كله مخافة أن تتعلق القلوب وتتجه النفوس إلى غير الله ، وينشأ وينمو ذلك على حساب الإقبال على الله تعالى والإنابة إليه ، وعلى حساب البيوت التي ﴿إِنَّ اللَّهَ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ يُسَبِّحُ لَمْ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ رجال لا نلهمهم بحجرة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار﴾ [النور : ٣٦ - ٣٧] ، وقد أثبتت تجربة الأمم ، السابقة أنه ما فتنت أمة بالمشاهد والضرائح والآثار والأعياد ، إلا شغلت عن المناسك والمساجد ، وإقامة الجماعات فيها والعكوف عليها ، والفرع إليها وإلى الصلاة ، إذا حزبه أمر أو نزل بها حدث^(٤) .

وقد لاحظنا مدة إقامتنا القصيرة في إيران أن المشاهد أكثر عمراناً وازدحاماً ، والنفوس أعلق بها من المساجد ، فإذا دخل غريب في مشهد سيدنا علي الرضا لم يشعر إلا وأنه داخل في الحرم ، وهو غاصٌّ بالحجيج مدوّ بالبكاء والضجيج ، مكتظ بالرجال والنساء ، مزخرف بأفخر الزخارف والزينات ، قد تدفقت إليه ثروة الأثرياء وأموال الأغنياء وتبرعات

(١) رواه مالك مرسلًا في الموطأ عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار ، ورواه البزار عن زيد عن عطاء عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً .

(٢) حديث متفق عليه .

(٣) رواه أبو داود عن أبي هريرة وهو مروى بلفظ «لا تتخذوا قبري عيداً» برواية أهل البيت عن علي بن الحسين عن أبيه عن جده رسول الله ﷺ ، وعن الحسن بن الحسن عن أبيه عن جده عن رسول الله ﷺ ، روي الأول في المختارة ، وروي الثاني سعيد بن منصور في سننه ، والعيد اسم لما يعود من الاجتماع العام على وجه معتاد ، عائدًا إما بعود السنة أو بعود الأسبوع أو الشهر ونحو ذلك .

(٤) روي عن النبي ﷺ أنه كان إذا حزبه أمر صلى (رواه أبو داود) .

المتوسطين والفقراء ، فلا يكاد يفرق بينه وبين الحرم المكي والمسجد النبوي ، ويرى أقل من ذلك في مدفن السيدة معصومة بـ«قم» .

أما المساجد - وإيران من أغنى بلاد الله في كثرتها وسعتها وفخامتها ، وبعض مساجدها لا يوجد لها نظير في الأقطار الإسلامية - فلا يرى فيها هذا الزحام ، وهذا الحماس الديني والاندفاع العاطفي ، بل إن كثيراً منها تشكو قلة المصلين وزهد القاصدين ، هذا مع علمنا بما في المذهب الجعفري من أحكام خاصة عن الجمع بين الصلاتين ، وشروط الإمام الدقيقة ، فقد كان من الممكن أن تكون المساجد والجوامع رغم ذلك أكثر حظاً من العمارة والحيوية والأنس والتلاوة والذكر ، مما هي الآن ، ولا شك أن علماء إيران الأفاضل وأهل الغيرة الدينية يولون هذه النقطة اهتمامهم الخاص ، حتى لا يسوغ لزائر أن يشعر بهذا الفرق الواسع بين المساجد والمشاهد^(١) .

ومن آثار هذا الهيام - الذي قد تخطى الحدود - بكل ما يتصل بأئمة أهل البيت انتشار صورهم ، بل وجود صورة النبي ﷺ وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب بكثرة في المساجد والبيوت ، وقد رأينا ذلك وعزّ علينا في مسجد سبه سالار ، وفي بعض المساجد والبيوت ، ولا شك أن ذلك من باب

(١) ومن قبيل الاعتراف بالواقع والشهادة بالحق أن فتنة الضرائح والمشاهد ، وشد الرحال إليها من أنحاء بعيدة والاجتماع عليها سنوياً مما يخاف منه أن يدخل تحت نهْي «لا تتخذوا قبوري عيداً» والأعمال الشركية منتشرة عند جهلاء أهل السنة في مصر وفي شبه القارة الهندية ، ولا يمكن إنكارها ، ولكن مما لا شك فيه أن علماء أهل السنة الراسخين في العلم ، والمبينين للحق لم يزالوا من عهد السلف إلى عهد الخلف ينكرون على ذلك أشد الإنكار ، ويحذرون الناس منه أعظم تحذير ، ويتعرضون لسخط العامة ، ولا يخافون في الله لومة لائم ، ولم يخل من هؤلاء المصلحين قرن من القرون ولا بلد من بلاد الإسلام ، ولا يزال العلماء قائمين بفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والدعوة إلى التوحيد ، من غير مداهنة ومحاباة ، وكتب المذاهب الأربعة مملوءة بالإنكار على منكرات القبور وبدعها ، فهل وجد في إخواننا الشيعة دعاة ومصلحون ينكرون على الغلو في المشاهد والضرائح ، ويدعون الناس إلى الدين الخالص؟ إن علمنا بتاريخ الإصلاح والتجديد لعلماء الشيعة ضئيل ، فننتظر من إخواننا الأفاضل الإفادة في هذه الموضوع .

الذرائع إلى الشرك ، وقد تورطت الأمم السابقة بتصوير الصالحين والعباد منهم في الشرك الجليّ وعبادة الأصنام والتماثيل ، أعاذ الله الأمة الإسلامية وحماها من هذا الخطر الكبير^(١).

٢ - إننا شعرنا في كل مجتمع ينتمي إلى الطريقة الإمامية أن الصلة العاطفية والحماس الداخلي في حب أهل البيت وتعظيم الأئمة - الذين كانوا أئمة الهدى ومصايح الدجى ، لا يشك في ذلك مسلم - كاد يشغل كل فراغ في النفس والعاطفة والعقل والضمير ، ونخشى أن يكون قد أخذ الشيء الكثير من حق النبوة التي هي مصدر كل خير وسعادة ، ومن شخصية الرسول الأعظم الذي نال به أهل البيت الشرف واستحقوا الحب والتعظيم ، وإنه نما وازدهر على حساب الصلة العميقة التي يجب أن تكون بين المسلم وبين نبيّه ﷺ .

وقد ظهر ذلك الأثر في الشعر الذي قاله شعراء إيران في مدح النبي ﷺ ، وفيما قالوا في مناقب أهل البيت وخاصة في مناقب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، وسيدنا حسين بن علي ، فيفوق الثاني الأول في قوة العاطفة والتعبير عن القلب ، والقدرة الشعرية ، وفيض خاطر ، وتدفق القريحة ، لمسنا هذا الفرق في الشعر الذي قاله شعراء أردو في الهند من إخواننا الجعفرين ، والشعر الذي قالوه في المديح النبوي ، ولمسناه في الشعر الفارسي ، ورأينا هذا الفرق في الكتب التي ألقت في السيرة النبوية وفي مناقب أهل البيت كمّاً وكيفاً ، ورأيناه في الفرق الواسع بين العناية

(١) في الصحيح عن عائشة رضي الله عنها أن أم سلمة ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها بأرض الحبشة وما فيها من الصور ، فقال: «أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصور ، أولئك شرار الخلق عند الله». وذكر ابن هشام في سيرته أن رسول الله ﷺ دخل البيت يوم الفتح فرأى فيه صور الملائكة وغيرهم ، ورأى إبراهيم عليه السلام مصوراً في يده الأزام إلى أن قال: «ثم أمر بتلك الصور كلها فطمست». (ابن هشام ، الجزء الرابع ، ص: ٢١٣).

بالمشاهد ، والعناية بالمساجد ، وبين الشوق إلى السفر إلى النجف وكربلاء
و«العتبات العاليات» والسفر إلى الحرمين الشريفين^(١).

إنني أعترف بأنه لا يخلو من ردّ فعل لما وقع من بعض علماء أهل
السنة ، والمتحمسين من هذه الفرقة في بعض العصور والأوساط من
التقصير في التنويه بفضل أهل البيت وما لهم من حقوق على المسلمين ،
ولكنه أكثر من ردّ فعل ، وعلى كلّ فقد اتجه تيار الحب والحماسة الدينية ،
والعاطفة الفياضة إلى هذا المركز الروحي ، وأحاطت به هالات التقديس ،
وأهملت عليه نعوت وصفات ، أخشى أن تكون قد جعلت الإمامة منافسة
للنبوة أو مشاركة لها في كثير من الصفات ، واندفع بذلك تيار الحياة كلها
إلى مركز يبدو وينمو بجوار المركز الأصيل الذي هو نبوة خاتم النبيين ،
وأشرف الأنبياء والمرسلين ، وأثر ذلك في الأدب والشعر والتفكير
والعمل ، ولا نريد أن نطيل في ذلك ، فإذا تلمس إخواننا المنصفون قلوبهم
وخفقاتها واستجابتها وانفعالاتها ، رأوا أن هذه الملاحظة إن لم تكن
ما يوافقون عليها مئة في مئة ، فإنها تدعوهم إلى التفكير من جديد ،
ولا شك أن أئمة أهل البيت كانوا خلفاء الرسول من غير نزاع في الدعوة إلى
التوحيد والدين الخالص ، أعداء لما يصرف الناس عن الله ويشغلهم بغيره ،
أشد الناس غيرة على الدين ، الذي جاء به جدهم وسيدهم ونبيهم ﷺ ، فهم
لا يرتضون شيئاً يضعف صلة العبد بالربّ ، ويشغل أحداً من الخلق
بالخلق ، هذا ثابت بالبداهة ، وما تواتر عنهم من الغيرة على الإسلام
والزهد في الدنيا ، والعزوف عن كل مظاهر العظمة الزائفة ، وما استفاض
عنهم من الفرار عن الخلق إلى الحق ، والاشتغال بنشر العلم النافع والدعوة
إلى الله .

(١) ولا شك أن هناك تغيراً ملموساً في العناية بأداء فريضة الحج عند إخواننا الشيعة
خصوصاً في إيران ، فقد تضخم عدد قاصدي الحج من إيران في الأعوام الأخيرة ،
ولا يزال في ازدياد ونمو ، وهذا فضلاً عن تنظيم حركة الحج الذي فاق فيه إخواننا
الإيرانيون على أكثر البلاد الإسلامية .

ولا بدّ للتقريب بين المسلمين وملء الهوة الشاسعة الواقعة بين أهل السنة والشيعية ، أن يوجه هذا التيار إلى النبوة التي هي ملتقى كل مسلم ، والشخصية التي نبتت منها هذه العيون الدافقة ، وخرجت منها هذه الخيوط الذهبية ، التي أضاءت العالم كله ، إنه عمل تجديدي يحتاج إلى عمالقة في العلم والفكر ، وقوة الإرادة ، وعلوّ الهمة ، والعلم الراسخ ، والفكر الثاقب ، إنه إذا تمّ هذا العمل أحدث انقلاباً لا يوجد له نظير في تاريخ الانقلابات الفكرية والتجديد الإسلامي ، وهو الأساس السليم المتين الذي تقوم عليه الوحدة الإسلامية الفطرية الحقيقية .

٣ - يجب أن يتغير نظر إخواننا الجعفرين - إذا أرادوا التقريب بين المذاهب وجمع شمل المسلمين وتصافي القلوب - إلى صحابة الرسول ﷺ وأزواجه أمهات المؤمنين ، فلا يقوم تقارب حقيقي إلا بالاحترام المتبادل للشخصيات الحبيبة المحترمة بين الأشخاص أو الفئات ، ولا يعقل أن يتوآدّ اثنان ويتصافيا ويتعاونوا على عمل بإخلاص وحماس ، وأحدهما يذكر من يعتقد فيه صاحبه الخير والفضل ، أو يدين له بحب وولاء ، بسوء ، وينسب إليه الطامات ، ويتقرب إلى الله بالذم والتشنيع عليه ، وكلّنا جرّب ذلك ، وذاق مرارته ولذعه في حق آبائه وأساتذته وشيوخه ، ويفديهم بمهجته وروحه ، ويرى لهم الفضل في نصر نبيّه ، ونشر الإسلام إلى أقصى حدود العالم ، والجهاد في سبيله ، وحسن البلاء في الدعوة إلى الله ، والزهد في الدنيا والتقشف في الحياة والإيثار على النفس .

وبصرف النظر عن هذا الجانب العاطفي ، فإن لهذا الموضوع قيمة علمية وأهميةً دعويةً ، فقد اعتاد الناس في كل زمانٍ أن يقيسوا صدق الدعوة ، وفضل التعاليم التي يدعى إليها بكثرة ما أبرزته هذه الدعوة من نماذج رائعة ، وأمثلة كاملة ، وبفضل ذلك الرعيل الذي ربته هذه الدعوة ، وأنشأته هذه التعاليم ، وبقدر النجاح الذي لقيه صاحب الدعوة في دعوته وتربيته ، وهذا هو مقياس المعلمين والمربين ، والقادة والموجهين ، والحذاق في الصناعات ، والماهرين في كل عصر ، فإذا كان نتاجهم كثيراً

ونجاحهم كبيراً في تخريجهم وتربيتهم ، سلمت مهارتهم في فنونهم واختصاصاتهم ، وسلمت لهم الزعامة والإمامة والتفوق والتقدم ، أما إذا كان نتائجهم ضئيلاً ونجاحهم قليلاً ، أو ضاعت جهودهم في تلاميذهم وخريجيتهم في وقت قريب ، وأحبطوا مساعي أساتذتهم بعد أن فارقوا الدنيا وزال أثر تربيتهم سريعاً ، اعتبر هؤلاء الأساتذة والمربون فاشلين في مهمتهم ، مخفقين في تربيتهم ، وذلك بضعف تأثير الدعوة وقيمتها إلى هذه التعاليم ، وإلى الإيمان بعظمة هذا الداعي أو المربي وعبقريته ، ويقف حاجزاً بين هذه الدعوة وبين دخول الناس فيها والثقة بها ، ولهم أن يتساءلوا: ما أملنا في هذه الدعوة وتأثيرها وتركيتها للنفوس والوصول بها من حضيض الحيوانية إلى ذروة الإنسانية ، ولم تحدث هذه الدعوة على يد داعيها الأكبر ، وفي زمن أوجها أثراً عميقاً خالداً ، ولم يثبت ممن آمن بها أوفياء أمناء لها كما في عصرها الأول ، ولم يبق على هذه الجادة التي تركهم عليها نبيهم إلا بضعة رجال؟ .

فمن مطالب هذه الدعوة الإسلامية ومن الإنصاف لشخصية الرسول ﷺ وسيرته وتاريخه ، وإنارة لها في عيون الناقلين أن نعرف للصحابة فضلهم ونسبت عظمتهم وإخلاصهم ووفاءهم وتوادهم وتناصرهم على الحق وأن نعرض على العالم صفحة بيضاء مشرقة من هذا التاريخ الرائع ، وإن ما روي عنهم من هنات أو زلات فهي كنقطة سوداء في ملاءة بيضاء ، وهذا ما يقرره القرآن وتقرره الأحاديث المستفيضة ، والتاريخ الموثوق به ويقرره المنطق المستقيم ، والعقل السليم ، وقد مدح القرآن الكريم من نهج هذا المنهج في سلفه الصالح ، وفي السابقين الأولين ، فقال: ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [الحشر: ١٠] .

وقد عرفت الأمم السابقة بحب حوار رسلهم وأصحابهم ، وإيثارهم على غيرهم ، فاعتقدت أنهم كانوا خيار خلق الله ، ونحن أولى بذلك منها جميعاً ، فكان نبينا أعظم منهم نجاحاً ، وأكثر منهم تأثيراً بتصريح من القرآن ، وقد قال الله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ

عَائِيَهُمْ وَزُرَّكَهُمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿ [الجمعة: ٢] وقال: ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ، وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [الفتح: ٢٨].

إننا إذا أردنا التقريب بين المذاهب حقاً ، وكنا جادين في ذلك وجب أن يكون ذلك على أساس سليم فطري ، وكل محاولة لهذا التقريب من غير هذا التغيير النفسي محاولة غير ناجحة وغير طبيعية ، إنني قلت في مجلس الأستاذ الكبير العلامة محمد تقي القمي الذي يدعو إلى هذا التقريب منذ ثلاثين سنة أو أكثر: «إن التصفيق - كما يقول المثل العامي عندنا في الهند - لا يكون بيد واحدة ، إنه لا يكون إلا بيدين مخلصتين عازمتين جادتين ، وإذا كان في إحدهما تراخ أو استرخاء لم يتم التصفيق» وقلت كذلك: «إن التقريب ليس بشيء صناعي ميكانيكي ، إنه عمل القلب قبل أن يكون عمل اللسان ، وإنه قضية الداخل قبل أن يكون قضية الخارج ، إنه لم تكتشف إلى الآن مادة غرائية تلصق بها القلوب كما تلصق الأوراق ، فيجب أن ينبع هذا من القلب ، ويفيض حتى تشعر القلوب بقوته وحرارته» ولا بد لذلك من تفاهم وتنازل وتبادل ، فإذا تهيأت النفوس لذلك ، واستجابت له القلوب كان فيضاً من الحب والثقة ، لا يقف في طريقه شيء ، والحب يقهر كل ما يقع في طريقة من عدا و بغض ، ويجرف بهما .

٤ - وهنا وقفة قصيرة وأخيرة عند ضرورة زيادة العناية بالقرآن الكريم ، إن إخواننا الإيرانيين لا شك يحبون القرآن ويجعلونه ، قد تجلى في كتابة المصاحف بأجمل الخطوط والنقوش ، من أقدم العصور ، والاحتفاظ بهذه المصاحف في المكتبات والمتاحف ، والافتخار بها بحق وجدارة ، وطبع المصحف الكريم طبعاً دقيقاً أنيقاً ، لا يقل عن بلد آخر ، وقد عني كثير من علماء إيران القدامى والمحدثين بتفسير القرآن ، وأثرت عنهم كتب جلييلة اشتهر عدد منها في الهند وغيرها .

ولكني أشعر بحاجة إلى عناية أكثر من هذه العناية وأعمق منها ، إنني أعني به التذوق للقرآن والتضلع فيه ، الاهتمام الزائد الذي يظهر في كثرة

التلاوة وكثرة الحفاظ المتقنين وإثاره على كل شيء وتحكيمه في كل شيء ، واتخاذها ميزاناً في القبول والرفض ، والأخذ والترك ، والحب والبغض ، حتى يتغلب ذوق القرآن على كل ذوق ، وأن يكون هو سدره المنتهى والأفق الأعلى في العلم والأدب والعقيدة والعمل والمنهج والسلوك .

ولا شك أن إخواننا الفضلاء وقادة التفكير في إيران الحبيبة يشعرون بهذه الحقائق أو بعضها ، ويشعرون بالضرورة الملحة إلى إبرازها وتقويتها ، إنه عمل تجديدي عملاق لا ينوء به إلا العمالقة الذين يخاطرون بمركزهم العلمي والاحترام الذي يتمتعون به ويعرضون حياتهم للخطر ، ولكن السرور الذي يحصل بهذا النجاح لا يعدله سرور ، وإن الشرف الذي يسجله التاريخ لهم لا يعدله شرف ، إن إزالة الأنقاض التاريخية والركام الفكري والتقليدي ، الذي تراكم وتصلب ، ونفض الغبار الذي طرأ على جوهر الإسلام النقي وجبينه الصافي ، وإعادة الدين إلى ما كان عليه في عصر النبوة ، ليس بالخطب اليسير والعمل الهين ، إنه أكبر جهاد وأعظم تجديد ، وليست دعوة القرآن إلى التوحيد الخالص والتمسك بجوهر الدين ولبابه والعودة إلى الأصل المختصة بالأديان الأخرى ، والأمم غير الإسلامية ، بل هي موجهة إلى فرق الأمة الإسلامية وطوائفها كذلك في كل مكان وزمان ﴿ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَمْ إِلَّا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ [آل عمران : ٦٤] .

وأخيراً أؤكد لإخواننا الفضلاء أنه لم تصدر هذه السطور إلا عن إخلاص ، وحسن قصد وشعور بالأمانة وحرص على الوحدة الإسلامية ، ومعدرتي إذا وجدوا في هذه السطور فكرة لا يوافقون عليها ، أو تصويراً للواقع يرون فيه إفراطاً وتفريطاً ، أو تعبيراً لا يرتضونه ، فكل بشر يخطيء ويصيب والعصمة لله .

سؤال موجه إلى الشعب الإيراني الكريم :

وقبل أن نغادر إيران ونودع إخواننا ، نعرض عليهم سؤالاً طالما جال في خواطرننا وشغل عقولنا ، وهو : لماذا أصيب هذا القطر الولود للعباقرة

والأفذاذ في كل فن ، ومن كانوا فوق المستوى العادي في الذكاء والأصالة والنبوغ ، حتى يصبح الإنسان يعتقد وهو يقرأ كتب الطبقات والتراجم والسير والتاريخ أنه لم يكن يولد في إيران إلا عملاق ، لماذا أصيب هذا القطر الخصيب بضعف الإنتاج في العهد الأخير ، وهبوط المستوى في القرائح والمواهب البشرية والعلوم الأدبية والإسلامية ، فيمر بنا قرن بعد قرن ، وينصرم جيل إثر جيل ، ولا نسمع بعالم ، أو أديب ، أو شاعر ، أو مؤلف ، أو محقق ، أو «فارس» أو قائد يسترعي انتباه العالم ، ويشغل سمع الزمان وبصره ، ونلاحظ هذه الظاهرة بعد القرن العاشر الهجري ، حتى فاضت بذلك قريحة الشاعر العظيم الدكتور محمد إقبال ، الذي آثر اللغة الفارسية لشعره ورسالته ، وكان من كبار المعترفين بفضل إيران فقال بيته السائد:

«إنه لم ينهض من ربوع إيران ، وأرضها الخصبة رجل في منزلة جلال الدين الرومي منذ زمن طويل ، مع أن التربة هي التربة وتبريز^(١) هي تبريز»؟
عرضنا هذا السؤال على بعض العلماء والمفكرين في إيران الشقيقة ، وبحثنا هذا الموضوع معهم ، ولم نفتتح بجواب ، ولا يزال هذا الخاطر يشغل عقولنا ، ونتساءل: هل السبب في ذلك هو انقطاع حركة التصوف التي كان لها فضل في تفجير منابع الروحية وتحريك أوتار القلب ، والتمرد على المادة ، وفي علو الهمة وسمو الفكر؟ أم كان السبب استقرار الأوضاع ، وانتشار الرخاء ، وسهولة الحياة التي تسبب الهدوء والرخاوة؟ أو السبب الاقتصار على اتجاه خاص في العلم والدين منذ زمن بعيد والتنكر لكل ما يخالفه من آراء ومذاهب ، أم له سبب آخر أدق وأعرق؟

إنه سؤال في صميم فلسفة التاريخ ، ونهضة الأمم وتطورها ، لا يزال يطلب الجواب الشافي ، والفحص العلمي ، والغوص في الحقيقة ، وعلى إيران التي بهرت العالم القديم بذكائها وأصالتها العلمية ، وعبقريتها الأدبية

(١) مدينة في إيران ، ينسب إليها شمس تبريز الذي يرجع إليه الفضل في تفتيق قريحة جلال الدين الرومي ، وإشعال مواهبه الروحية والوجدانية .

أن تولي هذا الجانب اهتمامها ، وأن يعيد التاريخ فيها نفسه ، وسيكون ذلك في صالح البلد العظيم ، وفي صالح العالم الإسلامي والعالم البشري .
والله الموفق للسداد وهو الهادي إلى سبيل الرشاد .

فضل الإسلام ونبيه في إبراز إيران الإسلامية العظيمة

حديثي في حفلة التكريم في طهران^(١)

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، وخاتم النبيين ، سيدنا محمد وآله وأصحابه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

صاحب السماحة الأستاذ الأكبر وحضرات أصحاب الفضيلة والسيادة ،
يقول الله تبارك وتعالى :

﴿ وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٣] .

إن زميلي الفاضل الأستاذ أحمد محمد جمال تناول الجزء الأول من هذه الآية الكريمة وهو قول الله تعالى :

﴿ وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾ بحديث ، وإني أتناول الجزء الثاني منها ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا ﴾ بالحديث عنه ولفت النظر إليه والتأمل فيه .

سادتي وإخواني :

يجب أن تكون هذه الآية دائماً نصب أعيننا ومنقوشة على ألواح قلوبنا ،

(١) أُلقيت هذه الكلمة في منزل العلامة المرزا محمد خليل الكمرهني في حفلة تكريم عقدها فضيلته كما مر .

فتلك هي النعمة الجليلة التي منّ الله بها على هذه الأمة ، ولستم أنتم يا إخواني يا أهل إيران تنفردون بهذه النعمة والكرامة؛ بل نحن الهنود أبناء شبه القارة الهندية ، بل جميع المسلمين في أرض الله الواسعة ، بل أهل الجزيرة العربية التي انبثق منها هذا النور ، وعمّ البر والرغد يشاركونكم في هذه النعمة الجليلة ، فكنا جميعاً في جاهلية جهلاء لا نعرف الله ولا نعرف النبوة ، ولا نعرف الحشر والنشر ، ولا نعرف القيم الخلقية والمفاهيم الدينية الصحيحة ، نسكع في الجهالات والخرافات ونرزخ تحت أثقال حكومات مستبدة جائرة وسخرة ظالمة واستعباد شنيع وإهدار كرامة الإنسانية ودوسها بالأقدام ، وقد كان السلاطين والملوك في جانب والعلماء و«رجال الدين» المحتكرون للعلم والدين في جانب آخر - آلهة تعبد وأرباباً تطاع طاعة مطلقة عمياء ، كما قال تعالى: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا ﴾ [التوبة: ٣١] وجاء الإسلام وأشرفت شمسها على أرض الله كلها شرقياً وغربياً ، وشمالياً وجنوبياً ، وعربياً وعجمياً ، فعمت نعمة الإسلام البشرية كلها ، وكانت كغيث لا يميز بين أسود وأحمر وفقير وغني ، وكانت سحابة انتظمت منها الديار والبلاد والوهاد والأنجاد .

كان جديراً بأن يخاطب بقول الشاعر:

فاذهب كما ذهبت غواصي مزنة أنسى عليها السهل والأوعار

وأبلغ منه ما قاله شاعر فارسي:

برتو مهر بويرانه وآباد يكيست حسن جون تيغ كشد بنده وآزاد يكيست

وليست هناك نعمة أجل من هذه النعمة حتى الحياة نفسها التي هي مصدر كل لذة وسرور ، فلولا نعمة الإسلام ونعمة التوحيد الخالص والإيمان بالله والرسول واليوم الآخر لكانت الحياة عذاباً وشقاءً وسلسلة من محن وخطوب ، ولم تكن إلا قنطرة إلى جهنم .

لقد أنعم الله علينا بنعمة الإسلام وله الحمد والمنة ، ولا شك أن الفضل الأكبر في الوصول إلى هذه النعمة يرجع بعد الله تعالى إلى سيدنا محمد بن

عبد الله بن عبد المطلب الهاشمي القرشي العربي صلوات الله وسلامه عليه ، وبعثته ورسالته ودعوته وجهاده . لقد قال شاعركم العظيم فريد الدين عطار :

حمد بيحد حد مرخدائي باك را
آنكه إيمان داد مشت خاك را

وقد تناوله شاعرنا محمد إقبال الذي تغنيتم بنشيدته في هذه الحفلة بتغيير يسير فقال :

شكر بيحد مر بنِّي باك را
آنكه إيمان داد مشت خاك را

ولم يبالغ ولم يجانب الصواب فلولا محمد عليه ألف سلام من أعماق القلوب ، ولولا أصحابه وأهل بيته ، ولولا الدعاة الأولون إلى دينه والمجاهدون في سبيله ؛ لما كانت إيران الإسلامية والهند الإسلامية والبلاد الإسلامية الأخرى ، حتى الجزيرة العربية التي ندين بحبها ونولي وجوهنا شطرها ، ولما كانت بيننا وبينكم أي صلة ونحن في أقصى الشرق وأنتم هنا في إيران ، وهو الذي جمع الله به شمل الشعوب والأمم والأقاليم والبلاد ، فتعارفت القلوب وتلاقت الأفكار وتلقحت العلوم والمعارف ، فكان معين من العلم يجري في الهند ومعين من العلم يجري في إيران بينهما برزخ لا يبغيان ، وكانت عيون من العلوم والآداب تجري في مجراها الضيق منذ آلاف من السنين ، وجاء الإسلام فوصل بين هذه العيون المتفجرة المتفرقة ، فجعلها معيناً واحداً ، وحولها إلى غاية سامية مشتركة ، وجعلها كلها في صالح الإنسانية .

والتقى الفكر الهندي بالفكر الإيراني والتقى الفكر العربي بالفكر العجمي ، فكان تلقيحاً لا يوجد له نظير في تاريخ الحضارات والثقافات ، ولم يشاهد تلقيح أفضل من هذا التلقيح ولا أعود منه على الإنسانية بالخير والبركة ، والتقى تذوق الإيرانيين بالجمال ورقة شعورهم وخصوبة خيالهم بالعقيدة الإسلامية والإيمان الجديد ، وبسلامة طباع العرب وقوة إرادتهم

وحبهم للواقع ، فظهر من ذلك مزيج لم يعرف العالم أفضل منه ، وهبت إيران بعد رقدة طويلة واشتعلت مواهبها وتفتحت قرائحها ، فكأنما هي أرض خلقت لتنجب نوابع وعباقره ، وكأنما عجنت طينتها بالعلم والأدب ، وسرى ذوق الجمال في هوائها ومائها ، وكأنما هي أرض لا يولد فيها إلا عالم أو أديب أو شاعر أو فنان ، أو روحاني أو صوفي ، أو مرب أو مدرس أو كاتب أو مؤلف ، وإذا ذهب أحد يعد أولئك النوابع الذين كانوا في الطبقة الأولى ، وفي القمة من العلم والفقه والحديث والشعر والأدب والتأليف والتدريس عجز عن عدّهم واعترف بقصوره ، ولا تزال كتب التراجم والسير والتاريخ مشحونة بأسمائهم ، مملوءة بذكر مآثرهم وأخبارهم .

وقد تطلعت بلاد كثيرة مثل بلادنا الهندية على مائدة إيران العلمية والأدبية تغترف من بحار فضلهم وتتغنى بشعرهم وأدبهم ، وتتلמד عليهم في العلوم الإسلامية والأدبية ، وتفتخر بتقليدهم ومحاسنهم ، وتتظرف بذلك وتتنبل .

ولكن هؤلاء النوابع والعبقرين وأئمة العلم والدين المبرزين في الفنون الأدبية والكمالات البشرية كلهم غرس الإسلام ، وزرع الدعوة الإسلامية ، وصنائع الدين الجديد الذي جاء به محمد ﷺ .

أيها السادة :

إنني سعيد بهذا اللقاء الكريم والاحتفاء العظيم في ظلال الإسلام ورحاب الأخوة الإسلامية التي نجتمع عليها ونتفياً بظلمها وإنني أؤكد لكم أن المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها تصبو نفوسهم وتهفو قلوبهم نحو هذه الأخوة العالية التي تنبع من الإسلام وتقوم عليه ، ولكن لا تنسوا أن مصدر كل سعادة في الدنيا والآخرة هو الإسلام فقط ، ومحمد ﷺ الذي هدانا الله به بعد الضلال وأعزنا به بعد الذل ، وأغنانا به بعد الفقر ، وعلمنا به بعد الجهل ، ووحدنا به بعد الفرقة فلا حضارة إلا حضارة الإسلام ولا تاريخ لنا إلا تاريخ الإسلام ولا مجد لنا إلا مجد الإسلام ، وكلنا نعيش على فئات مائدة محمد ﷺ ، فنبوته هي فاتحة عهد جديد ، وكل من نال ذرة من

السعادة والخير من أفراد بين آدم ولو كان في درجة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب إنما نالها عن طريق سيدنا محمد بن عبد الله ﷺ ، فلولاه هو لما كان لأحد فضل في دين أو نصيب من إيمان و يقين ، ولما كانت لأحد مواقف ومآثر بها يشيد التاريخ ، ويعتز بها المسلمون ، وكل من ينال اليوم ذرة من هذه السعادة لا ينالها إلا عن طريق محمد ﷺ .

السبل كلها منقطعة والطرق كلها مسدودة والنوافذ كلها مغلقة ، أيها السادة ، إلاً طريق الإسلام ، والنافذة التي فتحها الله عن طريق محمد ﷺ ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ [آل عمران : ١٩] ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [آل عمران : ٨٥] والحمد لله إننا جميعاً نرد الفضل في العرب والعجم إلى سيدنا رسول الله ﷺ ، ونرجع بنسبنا العلمي ونسبنا العقلي ونسبنا الحضاري ونسبنا العقائدي إلى سيدنا محمد ﷺ . وكل من عداه فهو قيس من نوره وخريج من خريجي مدرسته لا غير ، ولا تزال الأمة بخير ما دامت مؤمنة بهذه الحقيقة متمسكة بهذا المبدأ .

وإنني أشكركم على هذه الحفاوة وحسن الوفادة وإكرام الضيف ، ونسأل الله أن يتم علينا نعمة الإيمان ويحفظها ، وأن يختم لنا بالحسنى ، ويكتبنا من الذين تبيض وجوههم يوم القيامة ، فهو يقول : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ فَبِهِمْ رَحْمَةُ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٦ - ١٠٧] .

في لبنان مُلتقى الشَّرْقِ وَالغَرْبِ

على أثار دعاة الإسلام:

قضينا فترة شهر ، وأسبوع في الحجاز - بعدما رجعنا من جولة في ربوع أفغانستان وإيران - قضيناها في ظلال الكعبة ، ورحاب المسجد النبوي ، فكانت هذه الأيام التي عشناها بين مكة والمدينة شحنة جديدة من ثقة جديدة بصلاحية الإسلام لتوحيد الشعوب ، وتأليف القلوب ، وحل المشكلات ، وقيادة ركب الحياة ، فكان زاداً جديداً لسفر جديد نستأنفه من مهد الإسلام ، ومركز الدعوة الإسلامية إلى الأقطار التي كانت في مقدمة البلاد التي أشرقت بنور الإسلام ، واحتضنت الدعوة الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين ، ثم تناوبت الخلافة فظلت محتفظة بها إلى أوائل القرن السابع الهجري ، ومنها اتجه المد الإسلامي إلى جبال الأطلس ، والجزيرة الخضراء في الشمال والغرب ، وجبال «هندوكش» ووادي نهر السند في الشرق والجنوب ، وفيها نشأت واختمرت العلوم الإسلامية ، وانتشرت في العالم ، وهي بلاد الشام - بما فيها سورية الحالية ، وفلسطين ، ولبنان ، وشرق الأردن - وبلاد الرافدين العراق ، وكان خطأً طبيعياً سلكه دعاة الإسلام حين خرجوا من الجزيرة .

وها نحن أولاء نقتفي آثارهم ، ونمشي على هداهم ، ولولاهم ولولا جهادهم ، ولولا إيمانهم وإخلاصهم ، وصدقهم ، وقوة نفسهم ، وعلو همتهم ، لما انتشر في هذه المنطقة هذا الدين الذي نلتقي على صعيده ، ونناشده به ، ولما كانت هذه الأخوة الإسلامية التي نتقياً بظلالها ، وننزل في رحابها ، ولما كانت هذه اللغة العربية القرآنية التي يتفاهم بها أبناء العجم مع

أبناء العرب ، ويفضلونها على لغاتهم الوطنية . ولما كان لهذه الأقطار دور بناء رائع في تاريخ المدنية والعلوم ، والفكر الإنساني ، لا يكمل تاريخ الإنسانية بغير الحديث عنه ، ولَمَّا كانت دمشق ولا بغداد ، وما كان الوليد ولا هارون الرشيد ، ولما كان أبو تمام ولا البحتري ، ولا المتنبي ولا المعري ، ولا سيويه ولا الكسائي ، ولا الكوفة ولا البصرة ، ولا الرصافة ولا الكرخ ، ولا أبو حنيفة ولا الأوزاعي^(١) ، ولا أبو يزيد البسطامي^(٢) ، ولا عبد القادر الكيلاني^(٣) ، ولا المستنصرية ولا النورية^(٤) ، فجزاهم الله عن الإسلام ، كما جزاهم عن العراق والشام ، وجزاهم الله عن الدين والعقيدة، كما جزاهم عن الإنسانية والمدنية ، وعن العلوم والآداب .

تركيب الوفد الجديد:

كان مؤلفاً من العضوين السابقين ، كاتب هذه السطور وسعادة الأستاذ أحمد محمد جمال ، وهو الوفد الذي زار أفغانستان وإيران ، وكان من المفروض أن يزور لبنان ، وشرق الأردن ، وسورية ، والعراق ، وكان الدكتور عبد الله عباس الندوي سكرتير الوفد ، إلا أنه اضطر إلى البقاء في مكة لبعض الأسباب القاهرة ، فاختارت الأمانة العامة للرابطة الأستاذ عبد الله باهبري سكرتير المنظمات الإسلامية في الرابطة ، سكرتيراً للوفد الذي سيزور هذه الأقطار العربية ، وهو شاب مثقف أديب ، خفيف الروح والظل ، وقد عاد حديثاً من جولته في المغرب العربي مع فضيلة الشيخ حسين محمد مخلوف مفتي الديار المصرية سابقاً ، وفضيلة الشيخ محمد محمود الصواف ، وفضيلة الشيخ عبد الله الأنصاري عضوي الرابطة ، وكانت له جولة أخرى في إمارات الخليج العربي ، ولكن كل ذلك لم يمنعه من زمالة هذا الوفد واستئناف سفر جديد ، إثارة للعمل على الراحة ، وكان

(١) الإمام أبو حنيفة مدفون في بغداد والإمام الأوزاعي مدفون في بيروت .

(٢) مات ودفن في دمشق .

(٣) قضى حياته في بغداد ودفن فيها .

(٤) مدرستان عظيمتان ، قامت الأولى في بغداد ، والأخرى في دمشق .

موضع الإعجاب والثقة من الوفد ، واضطلع بأعباء مهمات الوفد بقوة ونشاط .

وقد تكرمت الرابطة بإضافة زميل جديد ، ومساعد شخصي لي - نظراً إلى ضعف صحي وحاجتي إلى من يكون بجانبني في هذه الرحلة الطويلة - وهو ابن أختي العزيز الأستاذ محمد الرابع الحسيني الندوي ، أستاذ الأدب العربي في دار العلوم لندوة العلماء - لكهنؤ الهند - ومنشئ صحيفة «الرائد» العربية ، وقد وقعت الحاجة إليه بعدما تأخر الدكتور عبد الله عباس الندوي في مكة ، وقد تأخر وصوله من الهند إلى السعودية لمشاكل السفر التي يواجهها كل إنسان في هذا العصر ، رغم ما يزعمه المعجبون بهذه المدينة من تيسير السفر في هذا العصر ، فكان من أسباب تأخر هذه الرحلة ، حتى لم تتمكن منها إلا في آخر شهر جمادى الآخرة .

في بيروت :

ركبنا الطائرة السعودية يوم الأحد سلخ جمادى الآخرة ١٣٩٣ هـ (٢٩/ من يولييه سنة ١٩٧٣ م) في الساعة الرابعة عصراً ، وكان في توديعنا الأستاذ محمد صفوت السقا الأمين العام المساعد لشؤون المجلس التأسيسي والمؤتمرات ، والأستاذ محمد العيناني رئيس مكتب الرابطة في جدة ، والدكتور عبد الله عباس ، وأعضاء بيت نورولي في جدة ، وغيرهم من الإخوان والأصدقاء ، ووصلنا إلى بيروت قبل الغروب بساعتين .

استقبلنا في المطار السيد حسين القوتلي مدير عام الإفتاء ، وفضيلة مفتي جبل لبنان ، وفضيلة الشيخ محمد علي جوزو نيابة عن سماحة مفتي الجمهورية اللبنانية الشيخ حسن خالد ، وكان معهما القائم بالأعمال السعودي عبد المحسن السمان ، ومندوب من وزارة الخارجية اللبنانية ، وفضيلة الشيخ سعدي ياسين عضو رابطة العالم الإسلامي من لبنان ، كما حضر في المطار الأستاذ عبد الحكيم عابدين المحامي^(١) .

(١) الأستاذ عبد الحكيم عابدين معروف في وسط «الإخوان المسلمين» .

علمنا في المطار أن سماحة مفتي الجمهورية الشيخ حسن خالد سبق فحجز لنا غرفاً في أحد الفنادق الكبيرة في الجبل ، وفي أحد الفنادق في مدينة بيروت ، حتى يكون لنا الخيار في النزول ، وفضلنا الجبل نظراً إلى طقس البلد ، ومن هنا علمنا أننا ضيوف سماحة المفتي ، فشكرناه على ذلك وتوجهنا إلى بحمدون حيث نزلنا في فندق شبرد.

جولة في المؤسسات الإسلامية ومناطق بيروت :

في اليوم التالي يوم الإثنين غرة رجب ١٣٩٣ هـ (٣٠ يوليه ١٩٧٣ م) اجتمعنا بسماحة مفتي الجمهورية الشيخ حسن خالد^(١) في مكتبه بحضور مدير عام الإفتاء ، وتحدث سماحته مع الوفد زهاء ساعة ونصف ساعة حديثاً صريحاً واضحاً عن أحوال الشعب المسلم في لبنان ، وحاجة المؤسسات الإسلامية إلى الدعم الأدبي والمادي ، وعن الأخطار المحدقة بالشعب ، ثم رافق سماحته الوفد إلى أزهر لبنان ، في زيارة تفقدية ، وطاف الوفد في أنحاء المعهد ، وفي مكتبته ، وكانت الأيام أيام إجازة صيفية ، وكان في قاعة المكتبة عدد من القراء والباحثين ، منصرفين إلى دراساتهم وبحوثهم ، وكان مع الوفد في هذه الزيارة مدير أزهر لبنان الشيخ خليل الميس ، ثم انتقل إلى دار الأيتام الإسلامية في بيروت حيث استقبله مديرها الأستاذ محمد بركات ، وتجول مع الوفد في أنحاء الدار ، وشرح نشاطها ، وطبيعة مهمتها ، وكان كل شيء يدل على زيادة الاهتمام بالنظام والأناقة ، ورعاية اليتيم المسلم الكريم ، ورفع معنوياته .

وقد مررنا بمناطق البلد المختلفة المتناقضة أحياناً في المستوى الديني ، والاقتصادي ، والاجتماعي ، ومررنا في طريقنا إلى البحر ، وإلى الإمام

(١) وهو شخصية معروفة في المجالين العربي والإسلامي ، كان عضواً في رابطة العالم الإسلامي ، وعضواً في مجمع البحوث الإسلامية في الأزهر ، ومؤسسات إسلامية عالمية ، اختير مفتياً عاماً للجمهورية اللبنانية إثر وفاة الشيخ محمد عاليا ، وهو منصب شغله صاحبه مدى الحياة ، وقد توفي إثر انفجار سيارة ملغومة ببيروت سنة ١٤٠٩ هـ وله عدة مؤلفات دينية واجتماعية وسياسية .

الأوزاعي بالمناطق التي كانت مركزاً للفدائيين ، ووقعت فيها المعركة الحامية بين الجيش اللبناني والفدائيين وكيف اشتغلت العواصف الدينية المختلفة ، والأغراض السياسية في هذه المعركة ، وما كان لها من أثر في حياة البلد وفي علاقات العناصر المختلفة ، بعضها ببعض ، ورأينا ما تركه الرصاص والقنابل من آثار في البنايات ، وفي قلوب سكان هذا البلد ، وما تكتنفه قضية اللاجئين ، ومسألة فلسطين من تعقد وغموض ، وتناقض وتردد ، لا يوجد نظيرة في قضايا العالم المعاصر الأخرى .

مررنا بالمنطقة التي يسكنها اللاجئين الفلسطينيون وما تتسم به هذه المنطقة ، من تخلف ، وفقر ، وعدم نظافة ، وعدم ثقة بالمستقبل ، وتدمير من الأوضاع القائمة ، وكله نذير خطر ليس في هذا البلد فحسب ، بل في العالم العربي كله ، وهو وضع غير صالح للبقاء والاستمرار ، مهما طالت مدته ، وأرخي الستار عليه ، هذا والبلد يرفل في حلل من رغد العيش وفائض من الأموال والخيرات ، ويتقلب في أعطاف الحياة الرخية والعيش الهنيء .

نظرة إلى بيروت :

وقبل أن نتوجه إلى طرابلس وصيدا ، نلقي نظرة إجمالية على بيروت ، منتزه أبناء الشرق العربي ، ومصيفهم ، والبلد المحبب إليهم ، ومصب أموالهم وخيراتهم ، ومنتجع رواد المتعة والتسلية ، وينطبق عليه ما قاله الشاعر العربي الكبير أبو تمام حبيب بن أوس الطائي عن الربيع :

دنيا معاش للفتى حتى إذا حلَّ الربيع فإنما هي منظر

فيروت مركز تجاري كبير ، ولكنه منظر ، منتزه في أيام الصيف ، وإذا أراد إنسان أن يشاهد ما فعلته الحضارة الغربية ، والفلسفة المادية بطباع العرب ، وإلى أي مدى آمنوا بوجود التمتع بالحياة ، والتحرر من الحدود والقيود ، سواء فرضتها الأديان والشرائع أو الأعراف والتقاليد ، وما هو مستوى الثراء والتضخم المالي في العواصم العربية ، وإلى أي مدى وصلت الحرية في المجتمعات العربية الإسلامية ، فعليه زيارة هذا البلد وقضاء

بعض الوقت في مصائف لبنان ، وقد قدر الله أن تأتي زيارتنا لهذا البلد في أشد أيام الصيف ، وفي أوج حركة الاصطياف وزهو المدينة ، وقد سبقت لنا عدة زيارات لهذا البلد في الصيف وفي الشتاء ، ولكنها كانت أياماً موجهة إلى غاية مخصوصة ومحصورة بين المكتبات ، ودور النشر ، وزيارة بعض المؤسسات الإسلامية ، وقد مكنتنا هذه الزيارة الأخيرة من دراسة هذا البلد وأوضاعه ، وطبيعة ما لم تمكنه الزيارات السابقة .

وقد أحسن الأديب اللبناني المشهور أمين الريحاني في وصف بيروت ، في مقال له :

«بيروت حسنة من حسنات التمدن ، وآفة من آفاته ، بيروت لؤلؤة شرقية في صيغة من النحاس غربية ، هي خلخال في رجل سلطنة المشرق عند الصباح ، وسوار في معصم ربّة المغرب عند الغروب ، هي درة في أوحال تئن فوقها الكهرباء ، هي مرجانة على ساحل اختلط تبره برماله ولجينه بأوحاله .

بيروت إحدى وصيفات باريس ، هي قمر ينعكس فيه نور المغرب فيضيء المشرق ، وتنعكس فيه أيضاً ظلمة الغرب ، فتزيد الشرق ظلاماً ، بيروت منبت العلوم ومغرس الخرافات»^(١) .

ولا يعزبن عن البال أن هذا المقال قد كتب قبل ٦٢ سنة ؛ يوم كانت الشام كلها في حكم الدولة العثمانية ، ومعلوم أن لبنان وعاصمته بيروت بقيت في حكم فرنسا نحو ربع قرن ، وفرنسا من أرقى الدول الأوروبية في الحضارة والآداب الغربية ، والمجتمع الفرنسي من أكثر المجتمعات الأوروبية رقة وتطرفاً ، وغراماً بالحرية والانطلاق في كل شيء ، ثم جاء دور الاستقلال ، فزاد الطين بلة ، وكل هذه العوامل قد ساعدت على أن تحتل بيروت مكان الزعامة أو الصدارة في تقليد الحضارة الغربية والسير في ركابها .

(١) من مقال لأمين الريحاني في مجلة «المراقب» العدد ٧٢ ، السنة الثانية أيار سنة ١٩١٠ م جمادى الأولى سنة ١٣٢٨ هـ .

وقويت عناية أمريكا واهتمامها - لأغراض سياسية واقتصادية - بسط نفوذها في هذا البلد الذي هو باب الشرق والمنفذ الطبيعي للعالم العربي ، والبلد العربي الوحيد الذي يغلب عليه الطابع المسيحي ، فأُسست فيه المؤسسات العظيمة وأنشأت فيه المشاريع الضخمة ، ولا تزال الجامعة الأمريكية البيروتية كبرى الجامعات في الشرق العربي ، ولعبت دوراً خطيراً في التأثير في الفكر العربي ، والآداب العربية ، وكان لأساتذتها ومنتخرجيها نفوذ كبير في المجتمع العربي العلمي .

بيروت أكبر بلد سياحي في الشرق العربي ، والسياحة أكبر مواردها ، وأكثر ما تعتمد عليه في اقتصادها ، والمدن السياحية لها طبيعة خاصة ، يرخى فيها العنان للمتعة والتسلية ، ويتساهل كثيراً مع ما تعتبره مجتمعات كثيرة مناقضاً للفضيلة والمروءة ، فأصبحت مصائف لبنان أيام القipzig والحر اللافح في العواصم العربية ، تسبح في بحر من الخيال والجمال ، ورخاء البال وتدقق الأموال .

وأصيب عدد من الأقطار العربية بثورات عسكرية وانقلابات سياسية ، وضاعت أرضها على كثير من القادة والزعماء وأصحاب الفكرة والصلاحية ، فغادروا البلاد ولجؤوا إلى لبنان فأوتهم فهي «سويسرا» العالم العربي ، يكثر فيها عدد اللاجئين السياسيين ، وهم يتمتعون فيها بحرية النقد ، والتأليف ، والنشر وبث الفكرة ، حرية لا يجدونها في كثير من البلاد العربية ، وفي البلاد التي ولدوا ونشؤوا فيها .

ونقلوا إليها رؤوس أموالهم ، واستثمروها في بيروت ، وكان مجال النشر والطباعة ، أصلح مجال لهم بحكم ثقافتهم ، وإقبال الشباب العرب على القراءة واقتناء الكتب ، فثمروا أموالهم فيها ، وكان في بيروت أضخم مطابع عربية في الشرق ، وقد استفادت من انتقال هذه العقول ، والأيدي العاملة ، والأموال الطائلة ، فقويت حركة النشر والتأليف ، والطباعة والإخراج ، وازداد عدد المكتبات ازدياداً هائلاً ، وأما المؤلفون من كل ناحية ، خصوصاً بعدما ضعفت حركة النشر والتأليف في القاهرة ، وحدّ من

حريتها في الفترة الأخيرة ، فأصبحت بيروت أكبر مركز لحركة التأليف والنشر ، وإخراج الكتاب العربي والإسلامي .

هذه نظرة إجمالية على بيروت ، وسنلقي نظرة إجمالية على القطر اللبناني بعدما ننتهي من زيارة طرابلس وصيدا .

في طرابلس :

توجهنا يوم الثلاثاء ٢/ رجب ١٣٩٣ هـ (٣١/ يولييه ١٩٧٣ م) إلى طرابلس البلد الإسلامي الجميل ، وهي تبعد من بيروت ٨٣ كم وقد سبقت لكاتب هذه السطور زيارة قصيرة لها في شعبان ١٣٧٥ هـ (أبريل ١٩٥٦ م) وأعجب بهذا البلد ، وتمنى العودة إليه وقضاء بعض الوقت فيه ، ولم يكتب له ذلك إلا بعد سبع عشرة سنة ، وتوجهنا إلى طرابلس ومعنا الأستاذ حسين القوتلي صباح يوم الثلاثاء ، نسير على ساحل البحر ، وهو من أجمل الطرق التي رأيناها في الشرق ، يسايرنا البحر الأبيض المتوسط ، ولا يفارقنا إلا قليلاً ، نمر بقرى ومدن جميلة نظيفة ، وتواجهنا مناظر طبيعية حلوة .

وصلنا إلى طرابلس ، فاستقبلنا عدد من العلماء ، والمشتغلين في القضاء الشرعي ، والإفتاء ، وبدأنا بزيارة مديرية الأوقاف ، وزرنا المسجد الكبير الذي لا يزال في دور البناء والتكميل ، ثم زرنا دار الأيتام الإسلامية ، وزرنا المستشفى الإسلامي ، وطاف بنا الشيخ عدنان الجسر رئيس مجلس إدارة المستشفى في البناية الكبيرة ، المؤتثة المنظمة تنظيمياً عصرياً ، ولفت الوفد نظر رئيس مجلس الإدارة إلى ضرورة تقيد الممرضات بالزي الإسلامي ، والآداب الإسلامية ، حتى يكون ذلك شعاراً للمستشفيات الإسلامية وميزة لها ، وقد تجلى في جميع هذه المؤسسات الذوق الرفيع ، والأناقة التي اشتهرت بها طرابلس ، والقدرة على التنظيم .

وزرنا مدرسة الإيمان النموذجية ، وفوجئنا فيها بلقاء الشيخ صبغة الله المجددي الذي قابلناه في كابل ، وقد حضر المؤتمر الثقافي الليبي وكان عائداً إلى كابل ، ففوجيء بنبا الانقلاب على مطار بيروت ، فألغى السفر ، وقرر البقاء في لبنان حتى يتضح الأمر .

ثم قام الوفد بزيارة عالم طرابلس الكبير ، وابن عالمها الأكبر فضيلة الشيخ نديم الجسر^(١) ، وقد كنت قرأت له كتاب «قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن» وهو من أعمق الكتب التي قرأتها ، وأغزرها مادة في السنين القريبة ، وقد عرفنا نحن أبناء شبه القارة الهندية علامة الشام الشيخ حسين الجسر الطرابلسي بكتابه «الرسالة الحميدية» الذي سارت بذكره الركبان في فجر هذا القرن الهجري ، وقد أعجب به علماء الهند واعتبروه دفاعاً علمياً قوياً عن العقيدة الإسلامية والدين ، والشيخ نديم الجسر ، هو ابنه ووارث علمه ، ومفتي طرابلس ، وتوجهنا إلى «سير» وهو مصيف جميل ، ومحل لطيف في ضواحي طرابلس ، يرتفع عن سطح البحر ٩٠٠ متر.

جلسنا مع الشيخ جلسة لطيفة تجاذبنا فيها أطراف الحديث ، وكان حديث الشيخ يدور حول تمثيل السيرة النبوية الذي وافقت عليه بعض الدول العربية ، وكان شديد التخوف من هذه البدعة ، لأنه يعتقد أن بعض كتب السيرة والتفسير التي ليست في المنزلة العالية من الإسناد والتحقيق ، والأحاديث الضعيفة ، مرتع خصب لأغراض المستشرقين والمعاندين على الإسلام يستغلونها لتشويه جمال السيرة ، وعرضها في أسلوب قصص غرامية وأسلوب روائي مثير ، ولا يمكن الحد من ذلك والحظر عليه .

حديثي في حفلة الغداء :

وتناولنا طعام الغداء في «سير» على مائدة مفتي الجمهورية بحضور نفر كبير من العلماء ، وألقيت كلمة الترحيب للوفد ، وقام كاتب هذه السطور فشكره على هذه الضيافة الكريمة ، والحفاوة البليغة ، وقال : إن الشعب المسلم في لبنان يواجه وضعاً دقيقاً شاذاً ، فيه محنة لذكائه وقوة إرادته ،

(١) العالم المفكر ، مفتي طرابلس الشام ، كان ذا علم غزير ، ومواقف إسلامية كريمة ، وهو صاحب كتاب «قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن» الذي طبقت شهرته الآفاق ، توفي بطرابلس سنة ١٤٠٠ هـ ، شارك الآلاف في الصلاة عليه . رحمه الله وتغمده برحمته الواسعة .

ومتانة عقيدته ، وإنه خليق بأن يعتمد في ذلك على نصر الله ، ثم على فضل رسالته وقوة إرادته ، ويحمد الله على أنه رآه أهلاً لذلك ، واختاره لمواجهة هذه المشكلة ، والاضطلاع بهذه المسؤولية ، إنه موقف يدعو إلى الشكر والصبر ، لا الجزع والضجر ، وإن شعباً قد ظهرت كفاءته وجدارته وإنتاجه في هذه المؤسسات الإسلامية التي كان لنا شرف زيارتها ، والاطلاع عليها ، لا يضيعه الله ، فالله ينصر دائماً من يعمل ويسعى ، ويثبت صلاحيته للحياة ، ويشق طريقه بين المحن والخطوب .

لقاء وتعارف:

والتقى الوفد خلال زيارته لطرابلس بنفر من العلماء ، منهم الأستاذ فيصل مولوي ، والشيخ طه الصابونجي ، والشيخ رشيد الميقاتي ، والأستاذ محمد علي ضناوي ، والشيخ ناصر الصالح ، وتحدث معهم في موضوعات إسلامية ، ومقاصد دينية ، وأوضاع البلد الاجتماعية والسياسية ، واستفاد بمعلوماتهم ووجهات نظرهم ، وعاد إلى بجمدون مسروراً بهذه الزيارة ، شاكراً فضل العلماء والسادة الذين احتفوا به ، وهيؤوا له فرص اللقاء والتعارف والاطلاع والمعرفة .

في صيدا:

وصباح يوم الأربعاء ٣/ رجب ١٣٩٣ هـ (١/ آب - أغسطس ١٩٧٣ م) توجه الوفد إلى «صيدا» ثالثة المدن اللبنانية ، ورافقه الشيخ خليل مدير أزهر لبنان ، وكان طريقاً جميلاً مرصوفاً ، وكان السفر مسلياً ممتعاً ، نمر بالقرى والمدن اللبنانية الجميلة النظيفة ، حتى وصلنا إلى «صيدا» ، وهي تبعد عن بيروت ٤٣ كم .

وزار الوفد فور وصوله مديرية أوقاف صيدا ، وجلس في مكتبها برهة من الزمان ، حيث حضر لفيف من العلماء ، والشخصيات الدينية ، ثم خرج في معية مديرها الفاضل النشيط الشيخ سليم سوسان لزيارة مفتي «صيدا» الشيخ محمد أنيس حمود ، وطاب الجلوس وطال في قاعة الاستقبال في منزله العامر ، وأخذنا بأطراف الأحاديث ، وبحثنا في موضوع

مشاكل المسلمين وقضاياهم الكبرى ، والوضع الشاذ المزري الذي يعيشون فيه والذي لم يسبق له مثيل في التاريخ ، وأبدى كل واحد وجهة نظره ، وجاء دور كاتب هذه السطور ، فقال ما خلاصته :

مركز علماء الدين في الأمة ، ولماذا ضعف نفوذهم على العامة :

إن مجال الحديث واسع ، وإذا تناولنا العالم الإسلامي بجميع طبقاته وأوساطه ، وتحديثنا عن تقصيرها في أداء واجبها ومسؤوليتها ، لم نرجع بطائل ، ولم نصل إلى نتيجة ، فقد اتسع الخرق على الراقع ، فلنحدد حديثنا في واجب العلماء ومسؤوليتهم ، فذلك حديث مفيد وعملي ، وهذا مجلس خاص بالعلماء ، فأقول : إن صلاح الأمة بصلاح علمائها ، واستقامتها بقدر استقامتهم ، وانحرافها بقدر انحرافهم وعدم صمودهم ، وضعف مقاومتهم للإغراءات المادية ، والتقدير الزائد للحياة ومتطلباتها ، وارتفاع مستوى المعيشة عندهم والخضوع لـ«الأمر الواقع» ، وقلة الزهد والقناعة ، والتقيد بالكماليات ، ومظاهر البذخ والرفاهية ، وقد قال الشاعر قديماً :

يا معشرَ القراء ، يا ملحَ البلد ما يصلح الملح ، إذا الملح فسدُ

والإنسان مفطور على الهيام بالشيء الذي لا يجده عند نفسه ، ولا يتحلى به ، فكان المجتمع الإسلامي يجعل العلماء الذين كانوا على جانب عظيم من الزهد والقناعة ، وكبر النفس ، وغنى القلب ، وعلى شيء من التقشف والبساطة ، حتى كان السلاطين والأمراء يهابونهم ويحترمونهم ، ويرونهم فوق نفوسهم ، أما وقد أصبح العلماء في مستوى المتنافسين في ترفيه الحياة ، والحصول على الكماليات ، وأصبحوا لا فرق بينهم وبين أبناء بلدهم وأفراد جيلهم ، أصبح المجتمع ينظر إليهم كعامة الناس ، وأصبح لا يخضع لما يصدر عنهم من وعظ أو توجيه ، أو نقد وحسبة ، ومن واجب الإصلاح والدعوة أن يعود العلماء إلى مكانتهم الأولى ، ويعود إليهم اعتبارهم وقيمتهم الدينية والاجتماعية ، وقد لاحظنا في تاريخ الإصلاح والتجديد ، أنه إذا اشتدت الأزمة بالإسلام والمسلمين ،

واستولى اليأس ، وكثر التشاؤم ، لمع عالم من علماء الإسلام ، وبرز في ميدان الإصلاح والكفاح ، وتحدى الأمر الواقع ، فغير مجرى التاريخ والحوادث ، وحفظ على العقيدة سلامتها ، وعلى الشريعة الإسلامية كرامتها ، ونفخ في جسد الأمة روحاً جديدة ، وحياة جديدة ، وهذا مطرد مستمر من عهد الإمام حسن البصري إلى الشيخ عبد القادر الكيلاني ، إلى الشيخ ابن تيمية الحراني ، إلى الشيخ أحمد السرهندي المشهور بالإمام الرباني ، إلى العلماء الربانيين ، الأئمة المصلحين في هذا القرن ، ويجب أن يستمر هذا النشاط والإنتاج ، وهذا الكفاح والنضال إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وقد سلم أكثر الحاضرين والمستمعين لهذه الملاحظة ووقفوا عليها ، وأيدوها .

جولة في «صيدا» :

وخرجنا لزيارة جمعية رعاية اليتيم ، وهي دار واسعة ذات شعب وقاعات ورحاب ، قد تأنق مؤسسوها والقائمون عليها في بنائها وتزيينها ، حتى أصبحت تنافس المؤسسات الخيرية الحديثة من الطراز الراقي العصري ، وقد بالغ القائمون عليها في «تحضير» هذه المؤسسة ، ومسائرتها للأساليب الحديثة ، فأدخلوا فيها بعض مظاهر لا توافق عليها الشريعة والآداب الإسلامية ، فنرى صورة في نشرتها ظهر فيها أبنائها وبناتها في رقصة الدبكة ، وسررنا بتعليم الخياطة والأعمال اليدوية للطالبات .

وتوجهنا إلى منزل صاحب الفضيلة الشيخ سليم جلال الدين قاضي الشع بـ«صيدا» وهو واقع على ربوة جميلة محاطة بالحدائق والمزارع ، والزهور والرياحين ، وأمامه واد تقوم فيه الأشجار الباسقة ، وتملؤه الأزهار والأنوار ، وقد أعجبنا بجمال هذه الوادي ، وبموقع هذه الربوة الطبيعي ، وطاب لنا الوقت فيها مع علماء أفاضل ، وإخوان كرام ، والتقى جمال الطبيعة بعذوبة الحديث ، وحلاوة الأخلاق وكرم النفس .

وزار الوفد القلعة الأثرية البحرية ، وتناول طعام الغداء في مطعم فاخر على ساحل البحر ، وعاد إلى بحدون شاكراً مسروراً بزيارة هذه المدينة الإسلامية الجميلة .

في ضيافة سماحة المفتي أمين الحسيني :

وأقام مساء ذلك اليوم سماحة المفتي الحاج أمين الحسيني رئيس مؤتمر العالم الإسلامي ، ورئيس الهيئة العربية العليا لفلسطين حفل استقبال تكريماً للوفد في منزله بمنصورية المتن ، حضره عدد من العلماء والفضلاء ، وأعيان البلد ، والمهتمين بالحركة الإسلامية .

نظرة إجمالية إلى وضع الشعب المسلم اللبناني :

وقد آن الأوان للحديث عن وضع الشعب المسلم اللبناني السياسي والاجتماعي ، وهو وضع شاذ معقد ، لا يعرفه كثير من المسلمين والسياسيين ، الذين يعيشون بعيداً عن لبنان ، ولا يحسن فهمه كثير ممن لم يزر هذا البلد ، ولم يدقق في فهم وضعه .

وخلاصة القول أن هذا الشعب المسلم العربي السوري الكريم لا يزال ينوء بأعباء ثورة العرب ، وخصوصاً عرب الشام على الدولة العثمانية ، وثقتهم لمواعيد الحلفاء واعتمادهم عليهم ، والخروج من دائرة الخلافة العثمانية التي كانت - على علاقتها وأخطائها الكثيرة - رمزاً للقوة الإسلامية ، والوحدة الإسلامية ، مرهوبة الجانب حامية للمقدسات الإسلامية ، ولعل نصيب الشعب المسلم اللبناني في هذه الغرامة التي دفعها العرب ، ولا يزالون يدفعونها أعظم من نصيب أبناء سورية الآخرين ، فلا يزال يئن تحت وطأة هذا الوضع الشاذ الطريف المعقد الذي يخصه .

وتفصيل هذا الإجمال: أن جبل لبنان كانت الأكثرية فيه للطائفة المسيحية بخلاف الساحل ، والبقاع التي كانت للمسلمين فيها أغلبية ، ثم ضم طرابلس ، وبيروت ، وصيدا ، وبعبك والبقاع ، وحاصبيا وراشيا ، في ١٩٢٠ م ، إلى لبنان وجعل جبل لبنان أساساً ونواة للجمهورية الجديدة ، وأجرى الفرنسيون إحصاء في ١٩٣٢ م ، وجرى بتاريخ ٣١

كانون الثاني سنة ١٩٣٢م ، وكان إحصاء مغرضاً خاضعاً لإرادة فرنسا وعزمها على تغليب طائفة على أخرى في التعداد السكاني ، ورافقت شائعة أن غرضه التجنيد الإجباري في الجيوش الفرنسية من أجل القتال في مستعمراتها ، والمسلمون يتخرجون من ذلك ، وضاعف المشكلة أنهم يرفضون التجزئة السورية ، فكان لكل ذلك أن تهرب عدد كبير من المسلمين من الإحصاء بكل طريق ، وكانت النتيجة أن أسفر هذا الإحصاء المزور عن أكثرية المسيحيين ، ورفضت السلطات العليا في لبنان ، ولا تزال ترفض إجراء إحصاء شامل دقيق آخر ، وقد مر على الإحصاء أكثر من أربعين سنة .

وعلى أساس هذا الإحصاء تم تركيز الميثاق الوطني ، وتقسيم الوظائف ، ومقاعد المجلس النيابي ، ومن هنا تقرر مصير المسلمين في هذا البلد العربي الإسلامي ، وكان من حظهم أن يعيشوا في وطنهم كأقلية دائمة؛ رغم أنهم أكثرية عدداً ، ويزيد الأمر خطورة منح الجنسية اللبنانية لغير المسلمين بسخاء ، وذلك يؤمن وضعهم السياسي في المستقبل .

وقد سلمت فرنسا عند مغادرتها لهذه البلاد الطائفة المارونية الحكم في لبنان ، وقررت دستوراً: السلطة كلها فيها بيد رئيس الجمهورية - وهو دائماً مسيحي ويتمتع بصلاحيات زائدة - وهو ليس مسؤولاً أمام أحد ، أما رئيس الوزراء الذي ينص الدستور على أن يختار من المسلمين ، فهو معين من قبل رئيس الجمهورية ومسؤول أمام مجلس النواب ، الذي بإمكانه حجب الثقة عنه وعن وزرائه ، ولا سلطات خاصة له ، ويصح أن يقال أنه كباش كاتب لرئيس الجمهورية ، وإن كان هو الدرع الواقى لفخامته عملياً .

هذا هو الدستور المكتوب ، وهو لا ينصف الشعب المسلم اللبناني إنصافاً كلياً ، ولا يعطيه حقه كله ، ولكن هناك دستوراً غير مكتوب ، وهو العرف أو المنهج الذي تتبعه الجمهورية اللبنانية ، فهناك تناقض واضح بين الدستور المكتوب والدستور غير المكتوب ، فالوظائف الكبرى الرئيسية حكر على غير المسلمين ، والبرامج الإنمائية ، والمدارس والمعاهد ، والمنح كلها تصب على المناطق غير الإسلامية ، وهذا كله علاوة على

محاربة الأخلاق والقيم ، والدعوة للزواج المدني الذي له خطورته في حياة هذا البلد ، وقد قررت الحكومة تعطيل يومي السبت والأحد بدل الجمعة ، وأوصت بإلغاء طائفية الوظيفة ، والمناطق الإسلامية ذات الأثرية المسلمة عرضة للإهمال في تهيئة أسباب الرقي والرفاهية ، والمسلمون الذين هجروا بلادهم - بسبب ما - يواجهون المضايقة في منح الجنسية اللبنانية^(١).

ولا شك أن المسلمين في لبنان لا يتخلون عن المسؤولية ، ويرجع بعض ذلك إلى قصر نظرهم ، وقلة تقديرهم للأمر الواقع ، فقد سارت الأمور في لبنان دون تخطيط من قبل المسلمين ، وبتخطيط من قبل غير المسلمين ، ويرجع كذلك إلى أنانية زعماء الأحزاب والقادة السياسيين ، وتنافسهم في القيادة ، وتولي رئاسة الوزراء بكل قيمة وثمان ، وعلى حساب مصلحة الشعب المسلم اللبناني في كثير من الأحيان ، وعدم تركيزهم على مطالبة المساواة للمسلمين ، وبحقوقهم الطبيعية المدنية ، وتسرعهم في بعض الأحيان ، إلى إجابة «فخامة الرئيس» في قبول رئاسة الوزراء والتمتع بها ، ولو مدة أسابيع وأيام .

يضاف إلى ذلك أن الشعب المسلم اللبناني يعيش في عزلة عن العالم العربي ، والحكومات العربية ، فلا يجد سنداً أو دعماً من حكومة عربية ، وعظفاً على قضاياها واهتماماً بمشكلاته التي يواجهها ، بالعكس من ذلك الطائفة المسيحية مدعومة من جميع الشعوب الأوروبية المسيحية ، ومن أمريكا ، ومن الفاتيكان ، تنصب عليها مساعدات وتشجيعات وتأييدات من العالم المسيحي ، أما الشعب المسلم اللبناني فلا حظ له من مساعدات الدول العربية والإسلامية إلا ما ترصخه بعض الحكومات ، أو بعض الأغنياء في بعض البلاد العربية من تبرعات لبعض المؤسسات الإسلامية والمشاريع الخيرية ، وذلك لا يقدم ولا يؤخر في الواقع الذي يعيش فيه المسلمون في هذا البلد العربي الإسلامي ، وفي مستقبل أجيالهم التي

(١) أكثر المعلومات التي جاءت في هذا العرض مستفادة من رسالة «المسلمون في لبنان مواطنون لا رعايا» للأستاذ محمد علي الضناوي المحامي .

ارتبط مصيرها بهذا البلد ، مع أن هذا البلد بموقعه الجغرافي ، والاستراتيجي والسياسي ، بلد له أهميته البالغة ، وأثره البعيد في مصير الشعوب العربية والحكومات العربية .

في حفلة تكريم في دار الإفتاء :

أقام سماحة مفتي لبنان الشيخ حسن خالد حفل غداء تكريماً للوفد يوم الخميس في ٤ من رجب ١٣٩٣ هـ (٢ من آب ١٩٧٣ م) في دار الإفتاء ، حضرها دولة الرئيس الأستاذ تقي الدين الصلح رئيس وزراء لبنان ودولة الرئيس الأستاذ صائب سلام رئيس الوزراء الأسبق ، وعدد من الوزراء ، وأعضاء مجلس النواب ، وأعيان البلد ، وكبار العلماء ، والقضاة الشرعيين والأساتذة الكبار ، ورجال الفكر والثقافة في لبنان .

ألقى الدكتور صبحي الصالح^(١) الأستاذ بالجامعة اللبنانية وجامعة بيروت العربية كلمة تعريف ، نوّه فيها في تفصيل وتوسع بمؤلفات كاتب هذه السطور ، وخاصة كتابه «العرب والإسلام» ونوه بحركة ندوة العلماء في الهند ، ثم ألقى كاتب هذه السطور كلمة شكّر فيها السادة والإخوان الذين كان لهم فضل في تيسير مهمة الوفد ، وطيب الإقامة في هذا البلد ، ثم نوّه بدقة موقف الشعب المسلم العربي اللبناني ، ووضع في هذا البلد العظيم العجيب ، وضخامة مسؤوليته نحو الإسلام ، ونحو البلد الذي يعيش فيه ، والمشكلات التي يواجهها ، وهنا خلاصة هذا الحديث ، أملاها صاحبه اعتماداً على ذاكرته ، وعلى الخطوط العريضة التي قيدت .

(١) أحد أبرز رجالات الفكر والعلم في العالم الإسلامي ، نائب رئيس المجلس الإسلامي الشرعي الأعلى في لبنان ، تعلم في الأزهر وكلية الآداب - جامعة القاهرة ، وحصل على الدكتوراه من جامعة السوربون ، درّس بجامعة لبنان وسورية والعراق والأردن ، قتل غيلة في الحرب الأهلية اللبنانية سنة ١٤٠٧ هـ . وله كتب نافعة وبحوث قيمة في الحديث والفكر والدعوة .

حديثي في حفلة تكريم سماحة المفتي

موقف الشعب المسلم في ملتقى الحضارات والمسرح العالمي :

إنني أصالة عن نفسي ، ونيابة عن أعضاء وفد رابطة العالم الإسلامي ، وعن زميلي المحترم الكاتب الإسلامي الكبير سعادة الأستاذ أحمد محمد جمال عضو مجلس الشورى في المملكة العربية السعودية ، والأستاذ في جامعة الملك عبد العزيز بجدة ، وعضو الوفد ، أشكر سماحة المفتي الأكبر على ضيافته الكريمة ، وحفاوته البالغة التي لقيناها من سماحته مدة إقامتنا في لبنان ، وأشكره بصفة خاصة على هذه الفرصة الطيبة التي أتاحتها لنا للتعرف على هذه المجموعة الكريمة التي تمثل لبنان بمختلف طبقاته ، وثقافته ، واتجاهاته ، والتحدث إلى هذه المجموعة ، فلو سعينا إليها بأنفسنا في هذا البلد الكبير لما تمكنا من لقائها والحديث إليها ، فله فضل كبير في تهيئة هذه الفرصة المباركة .

إنني أشعر كل الشعور بدقة موقفكم وضحامة مسؤوليتكم أيها السادة الأجلة ، فإنكم تعيشون في بلد هو ملتقى الثقافات والحضارات ، والآداب واللغات ، ومسؤوليتكم عظيمة ، ومهمتكم دقيقة ، وتطلب مقداراً كبيراً من الذكاء والألمعية وبعد النظر وعمل الفكر وحكمة الدعوة ، وقوة الإيمان بالدين الذي تمثلونه ، والرسالة التي تحملونها ، والصمود في وجه التيارات التي تغزو هذا البلد ، والعواصف التي تهب حولكم ، فأنتم تمثلون دور المسلم المثقف والمؤمن القوي الحكيم على هذا المسرح العالمي ، الذي تشخص إليه الأبصار وتشرئب إليه الأعناق ، وتصبو إليه النفوس ، فكل عملكم وكل تصرفكم ، والخطوة التي تخطونها والموقف الذي تتخذونه مسجل ومجسم ومحسوب على الإسلام وتعاليمه ومبادئه ، إنكم تستطيعون أيها السادة النبلاء أن تثبتوا صلاحية الإسلام ، لا أقول للبقاء ، فإنني أربأ به عن أن يستجدي حق البقاء والصلاحية للحياة ، لا بل صلاحيته للقيادة وحل المشكلات التي تشغل فكر المصلحين والمشرعين ، وبذلك تسدون خدمة لدينكم ، لا يقدر عليها كل شعب ، وكل بلد في العالم العربي بل في العالم الإسلامي .

سادتي : لم أعرف في دراستي المحدودة لتاريخ المدنيات والحضارات والمجتمعات الإنسانية حضارة ، إذا استثنينا الحضارة الإسلامية مع تفاوت الزمان والمكان ، والملابسات والأجواء ، كانت أقوى وأوسع وأعظم سيطرة ونفوذاً من الحضارة الغربية ، فقد تغلغلت في أحشاء المجتمع البشري ، وسيطرت على مشاعره وتفكيره ، وغيرت المفاهيم والقيم ، وأسلوب التفكير ووجهة النظر ، وما تركت بيت مدر ولا وبر ، ولا كوخ فقير وقصر غني ، إلا ودخلته ، ولهذه الحضارة الغربية وللحضارة الإسلامية التقاءات وانفصالات وموافقات ومفارقات ، بحكم أنهما حضارتان تتصلان بالإنسان ، والحياة الإنسانية ، وتبحثان عن قضاياهما وحاجاتهما ، فمسؤوليتكم كقادة للفكر وفقهاء للإسلام ، وبفضل وجودكم في هذا البلد المتناقض أن ترسموا خطأً دقيقاً واضحاً بين هاتين الحضارتين ، بين ما يجوز اقتباسه من الحضارة الغربية وبين ما لا يجوز ، بين السفور والوقح والتبرج الجاهلي ، وبين ما أمر الله به المرأة المسلمة من التستر والاحتشام ، وإبداء ما أحله من الزينة ، بين المتعة المباحة والتسلية البريئة ، وبين الوقوع في المشتبهات والتمتع بالنهم الذي لا حد له ، خطأً يجمع بين الدقة والوضوح ، خطأً لا يكون بمكان من الدقة لا يرى ولا يظهر ، فإنه لا فائدة في خط دقيق لا يكون واضحاً للأبصار ، ولا يكون من الوضوح بمكان يثقل ويمنع من ممارسة واجبات الحياة ، خطأً يقف عنده المسلم الذي يؤمن بدينه ويحترم شريعته ، ولا يريد أن يتخطاها أو يثور عليها ، وهذا الخط غير موجود في أي بلد إسلامي ابتلي بالحضارة الغربية والتيارات العصرية ، فأصبح الأمر فوضى ، وتخطى المسلمون جميع الحدود في الاستفادة من هذه الحضارة وأساليبها ، ومرافقها وعلومها وأفكارها ، واستسلم الشباب المثقفون ، بل وقادة الفكر وحملة العلم استسلاماً كلياً «للأمر الواقع» لا يملكون من أمرهم شيئاً ، وأنتم على رسم هذا الخط الدقيق الواضح أقدر ، بفضل وجودكم في هذا البلد الذي قطع شوطاً واسعاً في الحضارة الغربية ، وبلغ شأواً بعيداً فيها ، وعندكم - وأنا أتحدث بهذا الحديث إلى دار الإفتاء اللبنانية - العلم الواسع العميق بروح الإسلام

وبالتشريع الإسلامي ، وإني أدعو لكم وأتمنى كل توفيق ونجاح ، فإن هذا العمل له آثاره الواسعة العميقة في حياتنا ، وفي مصير الشعوب الإسلامية .

ومسؤوليتكم الثالثة - كما أتصور أيها السادة العلماء - : أن تقدموا لهذا المجتمع الذي تعيشون فيه ما يفقده ، وتملؤوا ذلك الفراغ الذي وقع منذ مدة بعيدة ، إن هذا المجتمع قد أتخم بالعلم والثقافة ، والمدنية والحضارة ، والمظاهر والصورة ، والرفاهية والبذخ ، والإنسان مفطور على احترام الشيء المفقود وإجلال من يحمله ويملكه كما قلت في حديثي في «صيدا» ، فهذا المجتمع الذي بلغ أوجه في العلم والمدنية ، وعنده نوع من أنواع الرقي ، لا يخضع لكثرة المعلومات وغزارة العلم وذلاقة اللسان وقوة الخطابة والأناقة في المظاهر ، إنما يخضع لما أفلس فيه ، وهو القناعة باليسير ، والزهد في الكماليات ، وفضول الحياة ، والمظاهر الجوفاء وللغزوف عن الشهوات ، والتغلب على نزوات النفس ، والابتعاد عن التهالك على المناصب والجاه الكاذب ، إن هذا المجتمع قد أصبح فقيراً في هذا المجال ، لا يكاد يصدق أن في الدنيا من يستهين بهذه اللذة والعزة ، ويتمرد على المادة و«المثل العليا» التي يؤمن بها الناس جميعاً ، ويعكفون عليها عبادة وتقديساً ، إن الأزمة اليوم ليست أزمة عقل وعلم ، ولا مال ولا مادة ولا مدنية ولا حضارة ، إنما هي أزمة ضمير حي لا يشتري . ولا يقبل المساومة ، إنما هي أزمة قلب فائض بالحياة والإيمان ، إن الضمائر اليوم - ولا أقصد بلداً ولا أحداً- أصبحت سلعة وبضاعة تشتري وتباع ، وتقوّم وتساوم وإنما القضية قضية الثمن الذي يدفع ، والسعر الذي تشتري به الضمائر والمبادئ ، فأصبح الزعماء والقادة يتهاكون على كراسي الحكم ، ومناصب الحكومة ، وقيادات الأحزاب ، مهما دفعوا في ذلك من الثمن ، إن هذه الأزمة - أزمة الضمائر والقلوب وأزمة الأخلاق والشخصية - هي التي سببت أزمة القيادة ، والزعامة الصحيحة في الأقطار الإسلامية ، وخلقت مشكلات لا حل لها ، وأفقدت الثقة بالقيادة والزعماء ، وأنتم بصفتم حملة الدين والدعاة إلى الله تستطيعون أن تملؤوا هذا الفراغ وتسدوا الثغر ، وتقدموا إلى المجتمع المعاصر والمدنية التي

تعيشونها طرازاً جديداً من الحياة ، ومن الخلق ، ومن الشخصية ، وبذلك تعيدون الثقة بالدين ، والاحترام للعلم والعلماء .

وأعود فأشكر سماحة مفتي الجمهورية اللبنانية فضيلة الشيخ حسن خالد ، وتلاميذه وزملاءه والعاملين معه ، على حفاوتهم ، وإتاحتهم الفرص للقاءات والاجتماعات ، والتعرف على نشاط هذا الشعب الكريم ، والمؤسسات العلمية والخيرية^(١) .

أمكنة فاتتنا زيارتها :

كان سماحة المفتي حسن خالد حريصاً على أن نزور البقاع ، المنطقة الإسلامية الكبيرة ، وقد زارنا وفد من هذه المنطقة يدعوننا إليها ، وكانت فرصة لزيارة بعلبك ، المدينة الأثرية الشهيرة ، التي قرع اسمها آذاننا منذ قرأنا أول كتاب في النحو ، ولكننا اعتذرنا لضيق الوقت ، فقد قررنا التوجه إلى دمشق يوم الجمعة ٥/ رجب ١٣٩٣ هـ (٣/ آب ١٩٧٣ م) ، وكان سائناً يسوقنا إليها لنلقى تجربة من نوع جديد ، فلم نستطع له دفعا ، وسيأتي تفصيلها .

لقاءات واجتماعات :

كان من اللقاءات التي سعدنا بها في هذه الزيارة لقاء مع العالم المجاهد فضيلة الشيخ محمد نمر الخطيب ، وهو صديق قديم لنا منذ سنة ١٩٥١ م ، وكان نزيراً في دمشق ، حين قضينا فيها فترة من الزمن ، وهو الآن يرأس جمعية الرابطة الإسلامية في بيروت ، ويشرف على مدرسة الفتح الثانوية التابعة لهذه الجمعية ، وهي مدرسة خاصة بالبنات ، تأسست سنة ١٩٦٦ م ، وسدت فراغاً عظيماً في المجتمع اللبناني المسلم ، وقامت بدور مشكور في تخريج شابات صالحات ، وأمهات واعيات ، وكان لها أثر محمود في الأخذ بالآداب الإسلامية ، والشعائر الدينية . والأستاذ محمد المبارك عميد

(١) انظر هذا الحديث بكامله بعنوان «موقف الشعب المسلم في ملتقى الحضارات» في كتاب «محاضرات إسلامية في الفكر والدعوة للعلامة أبي الحسن علي الحسيني الندوي» .

كلية الشريعة في دمشق سابقاً ، وأحد الوزراء السابقين ، وأستاذ كلية الشريعة في مكة حالياً ، وهو في طليعة المربين والمفكرين الإسلاميين . والأستاذ محمد عمر الداعوق مؤسس جماعة «عباد الرحمن» في لبنان ، وأحد الدعاة العاملين المربين . والأستاذ زهير شاويش صاحب المكتب الإسلامي في بيروت ، وصاحب الفضل في نشر كتب علمية إسلامية لجهازة الفكر الإسلامي ، بتحقيق ودقة وإتقان . والصديق الحبيب الأستاذ علي حسن فدعق رئيس بلدية جدة سابقاً .

لسنا في موقف استقصاء الجمعيات والمنظمات الإسلامية والحكم عليها وتزكيتهما وتجريحها^(١) ، فهذا يحتاج إلى إقامة طويلة ومعرفة دقيقة ، ولكن لا بأس من التلويح ببعضها كالتي كان لها أثر طيب ، وفي مقدمتها جمعية المقاصد الإسلامية ، وجمعية تعليم أبناء المسلمين في القرى ، ومؤسسة الخدمات الاجتماعية ، وجمعية المحافظة على القرآن الكريم ، والرابطة الإسلامية في بيروت ، هذا عدا مؤسسات وجمعيات ورد ذكرها في هذه العجالة .

في حفلة السفارة السعودية :

وفي مساء يوم الخميس ٤ من رجب ١٣٩٣ هـ أقامت سفارة المملكة العربية السعودية حفل استقبال للوفد ، حضره سمو الأمير متعب بن عبد العزيز وعدد من سفراء الحكومات الإسلامية والعربية ، ورجال السلك السياسي ، وكبار العلماء والوجهاء والصحفيين ، وكان آخر اجتماع بمناسبة زيارة الوفد للبنان ، وكان ختاماً للمدة التي قضاها في ربوع لبنان العزيز ، وقد قرر السفر إلى دمشق على سلامة الله صباح يوم الجمعة ٥/ رجب ١٣٩٣ هـ (٣/ آب ١٩٧٣) .

* * *

(١) سمعنا أن عددها يصل إلى المئة ، وأكثرها في بيروت .

زِيَارَةُ خَاطِفَةَ لِدِمَشْق

من بيروت إلى دمشق:

اتصلت السفارة السعودية في بيروت بالسفارة السعودية في دمشق ، وأخبرتها ببرنامج سفر الوفد من بيروت إلى دمشق صباح يوم الجمعة ٥/ رجب ١٣٩٣ هـ (٣/ آب ١٩٧٣ م) وتأهبنا للسفر ، من الصباح الباكر ، وكنا حريصين على التبكير في السفر ، لأن اليوم يوم جمعة ، وكنا مكلفين بالمرور بحدود البلدين لبنان وسورية ، وكانت الحدود مغلقة بينهما في تلك الفترة ، ولكن وضعنا كان غير عادي ، فكنا نساغر في وفد لرابطة العالم الإسلامي في مكة ، وكانت الرابطة قد اتصلت بالجهات الرسمية في جدة وفي دمشق ، وقد حصلت على تأشيرة لأعضاء الوفد لزيارة سورية ، ورحبت الحكومة السورية بدورها بالوفد ، وأبدت استعدادها لاستقباله وضيافته^(١) .

وجاء مندوب من السفارة السعودية في دمشق إلى بيروت وطمأن الوفد على الوضع ، وذكر أن كل شيء على ما يرام ، وسبقنا إلى «شتورة» لينجز الإجراءات الرسمية ، ويوفر علينا الوقت ولحقنا به ، وانتهينا مما لا بد منه .

صلتي القديمة بدمشق:

وتقدمنا إلى دمشق ، وهو البلد الذي أحبنا وأحببناه ، وقضينا فيها - أكثر من مرة - أياماً من أصفى أيام العمر وأطيبها ، وأحلاها ، وأبعدها عن الأكدار والأحزان ، ولا أعرف مدينة - بعد الحرمين الشريفين - حلت من

(١) قد علمنا من بعض المصادر أن الحكومة السورية لم تكن عندها الخبرة الكافية بمقاصد الرابطة والأعضاء الذين كانوا يشكلون وفدنا ، وكانت لا تزال في دور التحقيق والتثبت في الأمر ، والله أعلم بحقيقة الحال .

قلبي محل دمشق ، وألفتها وعرفت كثيراً من أحيائها ، وشوارعها ، ودروبها ، وحدائقها ، ومناظرها ، وكان لي فيها خيرة أصدقاء وأحباب تجاوزت نفسي مع نفوسهم ، والتقى فكري بفكرهم ، وقد طابت لي الإقامة فيها في كل مرة ، وطابت الأسفار والآصال ، واستقرت النفس وهدأ البال ، واعتدلت الصحة ، ووافق المناخ ، وكنت إذا قرأت لشوقي بيته الذي قاله في دمشق وجدته دائماً لم يبالغ ولم يجانب الصواب :

أمنت بالله واستثنيت جنته دمشق رَوْح ، وجنات ، وريحان

كنا نتقدم إلى دمشق ، ومدخلها من أجمل المداخل في الدنيا ، وتمر بنا أمكنة معروفة مألوفة فأنشد أبيات الشاعر الحماسي الصمة بن عبد الله :

بنفسي تلك الأرض ما أطيب الربى وما أحسن المصطاف والمتربعا
وليست عشيات الحمى برواجع عليك ولكن خلّ عينيك تدمعا

كانت زيارتي الأولى لدمشق في رمضان - ذي القعدة سنة ١٣٧٠ هـ (حزيران - آب ١٩٥١ م) وكانت الأيام أيام حكم العقيد أديب الشيشكلي^(١) ، وقد قيدت انطباعاتي في مذكراتي^(٢) ، وكانت زيارتي الثانية في سنة ١٣٧٥ هـ (١٩٥٦ م) وطالت ثلاثة أشهر ، حين زرتها كأستاذ محاضر في كلية الشريعة في الجامعة السورية ، وكانت أيام رئاسة شكري القوتلي للجمهورية .

ملامح الحياة البارزة في العهد الماضي :

وكانت من أوضح ملامح الحياة العامة والمجتمع السوري التي كانت تميز سورية بين شقيقتها وجاراتها العربية ، وما كان للدين في كلتا الفترتين - رغم ما كان بينهما من تفاوت واختلاف - من نفوذ ومكانة في القلوب والنفوس ، ما كان للعلماء من احترام في المجتمع ، وقد كانت البلاد لا تزال متمسكة بكثير من الآداب الإسلامية ، والتقاليد الشرقية ، والطابع

(١) اقرأ تفاصيل هذه الزيارة ، ومذكراتها اليومية في كتاب سماحة الندوي «مذكرات سائح في الشرق العربي» طبع دار ابن كثير بدمشق .

(٢) راجع فصل «سورية» ، ما لها وما عليها» في هذا الكتاب .

العربي الإسلامي ، وقد كان السفور نادراً في الفترة الأولى ، قليلاً في الفترة الثانية ، وإن كانت قد بدت طلائع الانتقال من عهد إلى عهد ، ومن اتجاه إلى اتجاه ، ومن «محافظة» إلى «تجدد» كانت واضحة يراها أهل الأبصار ، فضلاً عن أهل البصائر ، ويفهمها الأذكياء فضلاً عن الألمعيين المتوسمين .

وكانت هنالك نُذُرُ خطر تطلب عناية سريعة من المعنيين بمستقبل الإسلام وبمستقبل هذا البلد ، منها كثرة المذاهب السياسية ، والأحزاب المؤسسة عليها ، وسرعة سقوط الوزارات ، الأمر الذي يحدث عدم الاستقرار في الأمور ، ومنها الخلاف بين العلماء العاملين للإسلام والفرقة بينهم ، وعدم انسجام الجمعيات الدينية ، والمنظمات الإسلامية .

والسمة الثانية التي كانت تميز سورية من بين الأقطار العربية والتي كان يشعر بها كل زائر لها من الخارج ، هو الرخاء العام الذي كان يعيش فيه أهل هذا القطر السعيد ، والهدوء الشامل الذي كان يسود على البلد كله ، وقد أكرم الله هذا البلد من قديم الزمان بكثرة الخيرات والطيبات ، من الحبوب والفواكه ، والثمرات والخضراوات ، وكثرة العيون والأنهار ، ووفرة المياه وكثرة البساتين والحدائق ، ونفّاق التجارة والسلع ، وكان هنالك مجال واسع للتكسب الشريف ، والرزق الكريم ، فلا غلاء ولا جذب - إلا نادراً - ولا بطالة ولا كساد ، ولا تخلف أمطار ولا نقص في الثمرات - إلا على فترات طويلة - فلا تجد في البلاد شاكياً للبطالة ، متذمراً من الأوضاع ، عاتباً على الزمان زارياً ، إلا من فطر على ذلك ، وكان كثير التشكي ، قليل التشكر ، وترى الناس يتمتعون بالحياة ، ويقضون أوقاتهم في أنس وصفاء ، تهون عليهم الولاثم والمآذب ويتوسعون في المطاعم والمشارب ، ويخرجون إلى المصائف والجبال ، وإلى غوطة دمشق ، ومنزهاتها ، فيجتمعون على أكل وشرب ، وحديث وسمر^(١) ، وكنت إذا رأيتهم محفوفين بهذه النعم ، راتعين في هذه الخيرات ، تخوفت عليهم من قلة الشكر وعدم الوفاء بحقها ومعرفة قيمتها .

(١) يسمي ذلك أهل دمشق وأهل سورية بـ«سيران» ويسميه أهل الحجاز بـ«قيلة» .

ومن ملامح هذه الحياة الرخية وهذا المجتمع الوداع الهاديء الذي كان يؤمن بالتعاليم الخلقية الإسلامية في قليل أو كثير ، ويتمسك بالتقاليد الشرقية ، هو وجود الثقة المتبادلة بين أفراد الشعب وحب الخير من بعض لبعض ، بل وإيثاره على نفسه في كثير من الأحيان ، وما سبب ذلك من استقرار روحي ، وأمن عاطفي ، وقد هال هذا الجانب زائراً فاضلاً زار هذه البلد من أوروبا في فترة بين الحربين العالميتين ، وقضى فيه مدة من الزمن ، يقول الأستاذ محمد أسد (Leopold veiss سابقاً) ، في كتابه المشهور «الطريق إلى مكة»^(١) (Road to mecca) في الحديث عن دمشق :

«وقفت على ذلك الاستقرار الروحي في حياة سكانها ، إن أمنهم الباطني كان يمكن أن يرى في الطريقة التي كان أحدهم يتصرف بها نحو الآخر» .

ويذكر تلك الطرق ، ثم يقول :

«وفي الطريقة التي كان أصحاب الدكاكين يعاملون بعضهم بعضاً ، أولئك التجار في الحوانيت الصغيرة ، الذين كانوا يبدون ، وكأنما ليس فيهم أيما قدر من الخوف والحسد ، حتى إن صاحب دكان فيهم ليترك دكانه في عهدة جاره ومزاحمه كلما دعتة حاجة إلى التغييب بعض الوقت ، وما أكثر ما رأيت زبوناً يقف أمام دكان غاب صاحبه عنه يتساءل في ما بينه وبين نفسه ما إذا كان ينتظر عودة البائع أو ينتقل إلى الدكان المجاور ، فيتقدم التاجر المجاور دائماً - التاجر المزاحم - ويسأل الزبون عن حاجته ، ويبيعه ما يطلب من البضاعة - لا بضاعته هو بل بضاعة جاره الغائب - ويترك له الثمن على مقعده ، أين في أوربة يستطيع المرء أن يشاهد مثل هذه الصفقة؟»^(٢) .

ولا شك أن البلاد الشرقية بما فيها مركز الإسلام ومهده قد فقدت مع الأيام ، وبفعل الحضارة الغربية ، والإيمان بالفلسفة المادية ، الشيء الكثير

(١) أصبح اسم هذا الكتاب فيما بعد «الطريق إلى الإسلام» .

(٢) «الطريق إلى مكة» ص : ١٦٧ .

من هذه الثقة المتبادلة ، والإخاء العام ، والتناصح الجماعي ، ففقد بفقد ذلك هذا الاستقرار الروحي ، والهدوء الباطني ، ولكنني كنت ألاحظ بقاياها في المجتمع السوري في كلتا الفترتين المتين زرت سورية فيهما .

تطور الحياة والأوضاع في سورية في العهد الأخير:

وكانت زيارتي الثالثة في أول شتاء ١٩٦٤ م في عودتي من أوربة وفي طريقي إلى الهند ، وقد قضيت في دمشق ثلاثة أيام . وقد مرت بسورية عدة انقلابات عسكرية اهتزت فيها جذور المجتمع ودعائم الحياة ، فرأيت كثيراً من هذه الملامح الجميلة قد غابت ، وغاب هذا الرخاء الذي كانت تنعم به سورية ، وأصببت البساتين التي هي من أكبر موارد السوريين الاقتصادية بقلّة الحاصل ونقص في الثمرات ، وتخلفت الأمطار ، وأصببت العيون التي كانت تخترق دمشق بالجفاف وقلة الماء .

وللناس أن يقولوا: هذه حوادث طبيعية لا شأن لها بسياسة أو تخطيط ، ونحن لا نناقشهم في ذلك ، ولكن المؤسف أن الناس قد أصيبوا بعدم ثقة بالمستقبل لعدم ثبات الحكومات وبقاء رؤسائها وقادتها في مراكز الحكم والقيادة زمناً طويلاً ، وتدخل الجيش في سياسة البلاد وانتزاعه الحكم الفينة بعد الفينة ، وظهر ضعف الثقة بالمستقبل في كل مجال من مجالات الحياة ومظاهرها ، من الإنتاج العلمي والتعليمي إلى المجال الفكري والأدبي ، من الدوائر الرسمية إلى الحياة المنزلية ، والمناسبات الاجتماعية ، وظهر ذلك في حديث الأصدقاء وفي وجوههم ، وعرفت من هنالك نتيجة الانقلابات السريعة ، والحكومات العسكرية ، وعرفت مقدار تحقق وعود الزعماء الاشتراكيين في إسعاد البلاد وإنهاضها ، وبث الرخاء والأمن ، والشعور بسلامة النفس وكرامة الإنسان ، وحرية الفكر وإبداء الرأي ، ووجهات النظر فضلاً عن تحقيق الغايات التي لا يدعونها ، ولا يعنون بها ، بل ينفونها ويحاربونها في كثير من الأحيان ، كالدين والأخلاق والروح ، لقد كان هتاف هؤلاء القادة: الرغبة ، ولقمة عيش للجائع ، وتهيئة «الحاجيات» للشعب ، والكفالة بالعيش لرجل الشارع ، وكان جهادهم في

سبيل ذلك ، فإذا لم يتحقق ذلك وتحقق كل شيء - على فرض أنه تحقق - فمعنى ذلك أن الاشتراكية ، والقومية ، والشيوعية نظم وفلسفات «تعبدية»^(١) تقوم على مجرد عقيدة وإيمان وعاطفة ، لا توزن في ميزان العقل ، والتطبيق والنتائج ، أو مبادئ سلبية لا يقصد منها إلا هدم كيان أو تخلص من النظام .

وكانت هذه الزيارة الرابعة جاءت على فترة ثمانية أعوام ، وهي فترة ليست طويلة ، ولكنها مليئة بالحوادث ، قامت فيها عدة انقلابات ، وعدة تحولات ، وذهبت حكومات وجاءت حكومات ، وهي الفترة التي وقعت فيها نكبة حزيران ١٩٦٧ م ، وحدثت تغيرات عظيمة في خارطة البلاد العربية المتاخمة لإسرائيل التي تواجه المشكلة وجهاً لوجه ، إذ أفضت فترة حاسمة عميقة الجذور بعيدة الأثر في تاريخ الأمة العربية الإسلامية ، وكنت أتلمس آثار هذه التحولات والتحديات في حياة هذه الشعوب المواجهة للخطر وفي أوضاع البلاد الواقعة على الثغر .

إن أول ما لفت نظرنا لافتة على الحدود السورية ، كتب فيها بقلم عربيض «البعث تمرد على الحدود ، وحرب على الإقليمية» .

في دمشق :

ودخلنا دمشق على بركة الله ، وزرنا سفارة المملكة العربية السعودية ، وسلمنا على سعادة السفير الشيخ محمد المطلق الذي رحب بنا ، وأخبرنا أن نزولنا في الفندق الأموي الجديد ، ولما وصلنا إلى الفندق عرفنا أن سماحة مفتي الجمهورية السورية الشيخ أحمد كفتارو جاء يستقبلنا في هذا الفندق ، وجلس طويلاً وكان عنده موعد إلقاء محاضرة في جامع يلبغا ، وسيقابلنا بعد أن ينتهي منها ، وناب عنه الشيخ بشير الباني قاضي دمشق ، وولد سماحة المفتي السيد زاهر كفتارو ، وبلغانا تحياته ورحبنا بنا ، وبعد قليل شرفنا الشيخ أحمد ، وتقابلنا بعد فترة ثماني سنين ، وجددنا ذكريات الأيام

(١) ما يقوم على مجرد أمر (من مصدر غير بشري) من غير أن يدرك بالعقول .

الماضية ، أيام كنا نتلاقى كثيراً ونجلس طويلاً في منزله في حي الأكراد وفي الشيخ محيي الدين^(١) ، وفي الغوطة .

ارتسامات في الجامع الأموي :

وخرجنا نصلي الجمعة في الجامع الأموي ، الجامع الذي كنا نَحْنُ إلى صلاة الجمعة فيه ، ولذلك تعمدنا يوم الجمعة لزيارة دمشق ، فصلاة الجمعة في الجامع الأموي سعادة وشرف ، ومرتعة روحية ، وقد دمت عيني ، وهاجت الأحزان والأشواق والذكريات حين دخلت في هذا المسجد ، وسمعت خطبة الجمعة ، وتذكرت دمشقية شوقي ، التي يقول فيها :

وقفت بالمسجد المحزون أسأله هل في المصلى أو المحراب مروان
تغير المسجد المحزون واختلفت على المنابر أحرار وعبدان
فلا الأذان أذان في منارته إذا تعالى ، ولا الأذان أذان

لقاء وتحية :

تسرب إلى أصدقائنا نبأ زيارتنا لدمشق بعد فترة طويلة وقد غادر أكثرهم هذا البلد ، وما بقي منهم إلا من قعدت به الشيخوخة ، أو رأى لزاماً عليه أن يبقى في هذا البلد يحرس الأمانة الإسلامية التي كان لبلاد الشام فيها القيادة والزعامة ، والتي وردت لأجلها في فضائلها أحاديث لم ترد ولم تصح عن بلد آخر من بلاد العالم الإسلامي ، فشرفنا بعضهم باللقاء والتحية ، وقررنا أن نزرور الآخرين غداً ، ويكون لنا شرف زيارتهم والسعي إليهم .

لقاءات وزيارات :

جلسنا مع سماحة الشيخ أحمد كفتارو مجلساً طيباً في مزرعته الجميلة في شارع المطار ، تطرق الحديث فيه إلى الربانية الصافية ، والتربية الإسلامية ، وحكمة الدعوة ، وسماحته كبير الثقة ، كثير التفاؤل ، قوي الأمل في النهضة الدينية ، وإقبال الشباب والجيل المثقف على الدين ، إذا

(١) حي من أحياء دمشق منسوب إلى الشيخ محيي الدين بن عربي المدفون في هذا الحي .

تهيأ الدعاة المخلصون ، أصحاب الحكمة في الدعوة ، وأصحاب الإيجابية ، وقد ذكر تفصيل تجاربه المشجعة في حقل الدعوة والإصلاح ، وما لقيه من استجابة وقبول في أمريكا وروسيا .

وزرناه في الصباح كذلك واتفقنا على أن نقابل وزير الأوقاف عبد الستار السيد صباح يوم الأحد ، وهو الذي يرسم لنا برنامج هذه الزيارة ، وكيف نقضي هذه الأيام في دمشق ، وزرنا بعض المعالم العصرية ، والأحياء الإسلامية ، وتغدينا مع فضيلة الشيخ حسن حبنكة^(١) في بيت أحد أولاده؛ وحضر الغداء أفراد أسرته ؛ وبعض تلاميذه ، وكانت جلسة أخوية ، وضيافة كريمة ، كان الحديث فيها دائراً حول مركز المرأة في الشريعة الإسلامية ، والمجتمع الإسلامي ، وما فطرها الله عليه من خصائص وطبائع .

قررت السفارة السعودية في دمشق إقامة حفلة تكريم للوفد مساء يوم الأحد تدعو إليها الوزراء والسفراء ، وأعيان البلد وكبار العلماء ، وقررنا رحلة صباح يوم الإثنين إلى «حلب» نخرج في الطريق إلى حمص أو حماة ، ونقضي فيها ساعة وساعتين ونرجع إلى دمشق يوم الأربعاء ، حيث نمكث يومين نحضر فيهما حفلات وتعارف ولقاء؛ ينظمها سماحة المفتي ويوافق عليها معالي وزير الأوقاف ، ثم نتوجه بإذن الله إلى عمان .

توجهنا بعد العصر إلى الزبداني أحد مصائف دمشق المشهورة لزيارة فضيلة الشيخ السيد مكّي الكتاني رئيس رابطة العلماء في دمشق ، وعضو رابطة العالم الإسلامي ، وهو مريض وفي سن عالية ، يصعب عليه

(١) أحد كبار العلماء بدمشق ، لم يكن عالماً من علماء الدين فحسب ، ولا مدرساً لعلوم الدين واللغة والأدب وغيرها . بل كان كذلك مجاهداً ، شجاعاً ، شريفاً ، مقداماً . كان ثائراً ، شارك في الثورة السورية ، ضد المحتل الأجنبي ، وسجل صفحات ناصعة في البطولة ، والإقدام ، والوطنية الصادقة ، إنه كان إنساناً قلّ نظيره بين الرجال ، أسهم في تأسيس رابطة العلماء بدمشق ، وكان أمينها العام ، ثم رئيسها ، انتخب عضواً للمجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي ، توفي - رحمه الله - بدمشق سنة ١٣٩٨ هـ ، ومن مصنفاته «شرح نظم الغاية والتقريب» للعمريطي ، و«مولد نبوي شريف» و«مقالات دينية وإرشادية» .

التنقل ، وقد اضطر إلى التغيب عن اجتماعات الرابطة من سنتين ، وقضينا معه بعض الوقت في أنس وصفاء وفي عزلة وهدوء ، وهو من أسرة عريقة في العلم والدين ، وصاحب مواقف وجولات في مجال الدعوة والعمل الإسلامي .

* * *

في عاصِمَةِ الرّشيد

لا بد من بغداد :

قال شاعر قديم :

«لا بد من صنعا وإن طال السفر»

وكانت «صنعا» في الزمن القديم يضرب بها المثل في البعد ، ووعورة الطريق ، وكانت مدينة الخيال والجمال في الجزيرة العربية .

وليست بغداد لقاصديها وروادها بهذا المكان من البعد ، وصعوبة الوصول ؛ فالمواصلات موفورة والطرق ميسورة ، وقد قرب العلم البعيد وذل الصعاب ، واستطاع الإنسان بفضل العلم الذي ألهمه الله ، والقوة التي سخرها له أن يفطر في قطر ، ويتغدى في قطر ، ويصبح في الشرق ويمسي في الغرب .

المكان الذي تشغله بغداد في تاريخ الإسلام وثقافته :

وبغداد يرتبط بها جزء من التاريخ الإسلامي السياسي ، والثقافي والحضاري ، لا يرتبط ببلد آخر من بلاد الإسلام وعواصمه ، ويدور حولها حوادث وأساطير لا تدور حول مدينة أخرى لمعت في تاريخ الإسلام الطويل ، وقد ظلت مركز الخلافة الإسلامية العباسية خمسة قرون كوامل ، وحكمت معظم العالم المتمدن في العصر القديم ، وأنجبت أئمة في كل فن وفي كل علم ، وقصدها وآثرها بالإقامة الحذاق في كل علم وصناعة من أنحاء العالم ، فاجتمع فيها من أهل الفضل ، والحذق ، والنبوغ ، رجال لم يجتمعوا في مدينة أخرى من مدن الإسلام .

وقد رنّ اسمها في الآذان ونحن أطفال صغار؛ قبل أن يدخل اسم مدينة أخرى في الأذن من المدن البعيدة بعد مكة والمدينة ، فكان أول كتاب تعلمنا منه حروف الهجاء «القاعدة البغدادية» فكان مدخلاً إلى المكتبة الإسلامية بل مدخلاً إلى القرآن والسنة وعلوم الإسلام ، ومدخلاً كذلك إلى اللغة الأردية والفارسية ، ثم كانت كل الطرق التي نسلكتها في مطالعة التاريخ الإسلامي ، وفي دراسة الصرف والنحو ، وفي دراسة ثلاثة مذاهب من المذاهب الفقهية المنتشرة في العالم الإسلامي ، وهي: المذهب الحنفي ، والشافعي ، والحنبلي ، تمر ببغداد ، أو تنشق منها أو تعود إليها ، فلا بد من الإشارة إليها أو الإحالة عليها ، في تاريخ حدوث الآراء ونشوء المذاهب ، واختلاف بين مدرسة الكوفة والبصرة ، والمعتزلة والأشعرية مرة ، وأهل الكلام والمحدثين مرة أخرى ، وهنا كانت محنة إمام أهل السنة أحمد بن حنبل الذي ثبت فيها ثبوت الجبال ، وهنا بلغت حلقات درس الإمام أبي حامد الغزالي وشهرته العلمية أوجها ، حتى كانت تزري بمجالس الخلفاء ، وهنا قامت مجالس وعظ العلامة ابن الجوزي التي كان يكثر فيها عدد التائبين والخاصعين ، وهنا كانت مدرسة الشيخ الإمام عبد القادر الكيلاني التي كانت تجمع بين العلم وتركية النفوس ، وهنا كانت حياة الزهد والعفاف والتبتل التي يتحدث عنها كتاب «حلية الأولياء» لأبي نعيم الأصفهاني و«صفة الصفوة» لابن الجوزي ، وهنا كانت حياة المعجون واللهم والطرب التي يتحدث عنها كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ، وكتاب «ألف ليلة وليلة» لجماعة من المؤلفين المغمورين ، فكانت بغداد زعيمة في كلتا الحياتين ، وفي كلا الاتجاهين ، وكل من الكتب التي مر ذكرها يصور جانباً من جوانب هذه الحياة المتناقضة التي تجمعها مدينة فاضت فيها الأموال والخيرات فيضان دجلة والفرات ، وأمها أئمة كل فن ، وحذاق كل صناعة ، وزعماء كل دعوة ، واجتمع فيها دواعي الخير ودواعي الشر ودعاة الإصلاح ودعاة الإفساد ، وهو طابع العواصم الكبرى والمدن الزاخرة بال عمران والثروة والنفوذ السياسي .

إذا لا بد من بغداد وإن طال السفر ، وخشينا أن نلقى نفس التجربة التي لقيناها في دمشق .

من بيروت إلى بغداد :

قضينا في بيروت ثلاثة أيام في انتظار الطائرة التي تقلنا إلى بغداد . وكان موعد الطائرة اللبنانية يوم الثلاثاء ٧/٨/٧٣ م ، وقد اتصلت السفارة السعودية في بيروت بالسفارة السعودية في بغداد واتصل السفير السعودي بالجهات الرسمية ، وأخبرنا أن الحكومة العراقية ترحب بالوفد ، وهي مستعدة لاستقباله وضيافته مدة خمسة أيام .

وتوجهنا على بركة الله مساء الثلاثاء عند العشاء ووصلنا بغداد في منتصف الليل تقريباً ، وكان في استقبالنا سعادة الشيخ علي الصقير ، سفير المملكة العربية السعودية ، وسعادة الشيخ عبد الرزاق الفياض ، نائب رئيس ديوان الأوقاف العراقي ، ونفر من علماء بغداد وأعضاء السفارة السعودية ، وقضينا ساعة في قاعة الاستقبال في المطار حيث تعرفنا على أصحاب الفضيلة العلماء ، وأكثرهم موظفون في وزارة الأوقاف ، وأئمة وخطباء في المساجد ، وأساتذة في المدارس ، ثم توجهنا إلى فندق «أمبسادور» (Ambasador) وهو فندق فخم واقع في شارع أبي نواس ، مواجه لدجلة ، وقد استقبلنا حراً شديداً وسموماً لافحاً ، وإن كان قد انتصف الليل ، ولكن الفندق مكيف ، وقضينا الليلة في هدوء وراحة .

زيارات ومقابلات رسمية :

وفي صباح اليوم الثاني : يوم الأربعاء ٨/٨/٧٣ م بدأ الوفد نشاطه بزيارة ديوان الأوقاف ، حيث علمنا أن وزارة الخارجية ستتولى وضع برنامجنا الذي نسير في ضوئه ، وهي التي ستعين لنا اللقاءات والزيارات ، وقد عينت لنا مرافقاً ، وهو أحد الموظفين في وزارة الخارجية ، وأننا سوف لا نتحرك إلا في خفارتة ومرافقته ، وشعرنا بعدُ بوجود شخصين معينين من قبل الحكومة يظلان بجانبنا ، ويرافقاننا ونكون دائماً «تحت رعايتهما» .

ومن هنا توجهنا إلى القصر الجمهوري ، حيث سجلنا أسماءنا في سجل

التشريفات ، وعلمنا من مرافقتنا الرسمي أنه من الممكن أن يدعونا السيد رئيس الجمهورية الأستاذ أحمد حسن البكر للمقابلة ، فيحسن بنا أن لا نغادر بغداد خشية أن توجه إلينا الدعوة ونحن في الخارج .

بدأنا بزيارة مسجد الإمام الأعظم حيث صلينا الظهر ، ومسجد تلميذه الوفي النابغة وأحد أساطين مذهبه الإمام أبي يوسف ، وبعد العصر ذهبنا إلى الحضرة القادرية^(١) لزيارة سيدنا عبد القادر الكيلاني ، وصلينا العصر في مسجده وزرنا المكتبة المنسوبة إليه ، وألمنا بالكاظمية^(٢) إماماً .

وصباح يوم الخميس خرجنا لزيارة بعض الوزراء الذين نص على أسمائهم البرنامج الرسمي ، منهم وزير التعليم الابتدائي والمهني الأستاذ أحمد عبد الستار الجوارى ، ثم وزير التعليم العالم الدكتور حسين الشاوي ، وكان قد عاد حديثاً من زيارة للهند ، ودار الحديث حول طبيعة التوجيه والتربية في بلد إسلامي عربي كالعراق ، كان مصدر الإشعاع الإسلامي والقيادة العلمية في العالم الإسلامي كله ، وكان حديث الوزيرين حديثاً لبقاً فيه التحفظ وفيه الدقة ، وقد تبدر كلمة تنم عن شعور بشخصية هذا الشعب وماضي هذا البلد العريق في العلم والدين ، إن محاولة القضاء على المشاعر والعواطف ورواسب العهد الماضي وواقع الحياة قد أخفقت حتى في روسيا ، إنها معاكسة للطبيعة ومغالطة للحقائق .

في حفلة تكريم ديوان الأوقاف :

أقام ديوان الأوقاف الذي كان يرأسه الشيخ عبد الرزاق الفياض نيابة عن رئيسه الذي كان في زيارة لموسكو ، حفل عشاء بجامع الشهداء تكريماً للوفد ، حضره عدد كبير من علماء بغداد وأئمة المساجد والوعاظ والمشايخ ، كان على رأسهم وفي مقدمتهم فضيلة الشيخ نجم الدين الواعظ

(١) المكان الذي دفن فيه الشيخ عبد القادر الكيلاني ، مشهور في بغداد بالحضرة القادرية ، أو الحضرة الكيلانية .

(٢) مدفن الإمام موسى الكاظم بن الإمام جعفر وحفيده محمد التقي الجواد ، وهما من الأئمة الاثني عشر عند الشيعة ، والمكان يسمى بالكاظمية كذلك .

مفتي العراق سابقاً ، والشيخ عبد الكريم أستاذ مدرسة الشيخ عبد القادر الكيلاني ، وقد ساد الصمت على أكثر الوقت ، وإذا تكلم أحد تكلم بالقدر اللازم ، وكان سكوتهم أبلغ من كلامهم وأدل على الأمر الواقع ، وكانت أسارير وجوههم المضيئة ولمعان عيونهم الذكية تقول : «لقد كان لنا معكم شأن لو اتسع مجال الكلام ، وغاب الرقيب العتيد الذي يحسب علينا الأنفاس ، ويحصي علينا الألفاظ» وقد رأينا دمعة تترقق في بعض العيون ، وكلمة تحشرج في الصدور ، ولسان حالهم ينشد بيت المتنبي :

الحزن يقلق والتجمل يردع والدمع بينهما عصي طيّعُ
أمانٍ لم تتحقق :

زارنا وفد من علماء الرمادي - وهو مركز علمي وديني كبير - في العراق يدعوننا إلى بلدهم ليعبروا عن عاطفتهم الإسلامية وشعورهم الديني ولنطلع على نشاطهم العلمي والديني ، ونزور هذا البلد الذي كان مركزاً للعلماء الأفاضل ، وشكرنا روحهم الطيبة وعاطفتهم النبيلة ، وقلنا لا مانع عندنا إذا وافقت وزارة الخارجية التي رسمت برامجنا وخطت لنا خطأ نسير عليه ، وقد شعرنا بتوقهم الشديد لزيارتنا وتلهفهم للاجتماع بنا في بلدهم ، واتصلوا بالوزارة فعلاً ، وقدموا إليها طلباً يترجون فيه السماح لنا بزيارتهم في بلدهم والسماح لهم بتكريم إخوانهم في العلم والدين ، وفد لرابطة العالم الإسلامي يزور هذا البلد الإسلامي على فترة طويلة من الزمان ، ومسافة بعيدة من المكان ، وقد مهدوا لهذه الدعوة وهيئوا لها بذكر أنهم وجهوا مثل هذه الدعوة إلى فضيلة الشيخ ضياء الدين بابا خانوف كبير علماء روسيا عند زيارته للعراق ، وسمح لهم بذلك ، كأنهم يبررون بذلك موقفهم تجاه هذا الوفد الذي يمثل الرابطة ، ويستعطفون به قلوب ولاة الأمر الذين أذنوا لهم بتكريم أحد العلماء من الخارج ، وقد فهمنا من هذا المثال من المعاني والمضمرات وطبيعة الواقع الذي يعيش فيه هذا البلد ما لا نفهمه من كتاب كبير وعبارة بليغة ، وعرفنا بعدد أنهم لم ينجحوا في مهمتهم ، ولم توافق الخارجية على هذه الزيارة .

وطلبنا زيارة «النجف» بلد العلم والعلماء البلد الذي يقيم فيه آلاف من طلبة العلم وعدد كبير منهم من الهند ، ويدرس فيه كبار علماء الشيعة في العالم الإسلامي ، وزيارة «كربلاء» والكوفة ، فقبل لنا: إننا نخاف أن يطلبكم السيد رئيس الجمهورية للمقابلة فلا نجدكم في البلد ، وكان هذا هو الجواب والعدر ، كلما طلبنا زيارة مكان خارج بغداد باستثناء «سلمان باك» وزيارة معالم المدائن الأثرية التي تبعد من بغداد بمسافة ١٣٠ كم على الضفة الشرقية من دجلة في جنوب بغداد ، وكانت زيارة خاطفة عابرة .

وزارنا وفد من علماء الشيعة فجلسوا معنا في الفندق جلسة قصيرة وعن يميننا رقيب وعن يسارنا رقيب ، وحيّونا على زيارة النجف وكربلاء ، وذكروا ضرورة هذه الزيارة ، وقيمتها العلمية والدينية ، وأن العلماء هناك في شوق إلينا ، فأبدينا استعدادنا لهذه الزيارة ، وقضاء بعض الوقت مع المشتغلين بالعلم هناك ، ولكننا قلنا: إننا لسنا أحراراً في التنقل في هذا البلد ، وعدر الوزارة في بقائنا في بغداد أن يطلبنا السيد رئيس الجمهورية ليكرمنا بلقائه ، ونكون بعيدين عن بغداد ، فلا نحظى بهذه الزيارة الكريمة .

في جامعة بغداد والمجمع العلمي العراقي والكردي:

وزرنا خلال هذه الإقامة القصيرة رئيس جامعة بغداد الدكتور سعد الراوي ، وجلسنا معه بعض الوقت يحدثنا في موضوع التعليم ورسالة الجامعة ، ويحدثنا عن نشوء جامعة بغداد وتوسعها وأقسامها واختصاصاتها ، فكانت الزيارة الرسمية الأخيرة التي نص عليها البرنامج الرسمي .

وحدانا الذوق العلمي والأدبي إلى زيارة المجمع العلمي العراقي والكردي الذي نقدر وجوده وإنتاجه ، واستقبلنا فيه العالم الباحثة الدكتور ناجي معروف^(١) الذي استفدنا من آثاره وبحوثه قديماً ، والأستاذ عبد الرزاق محيي الدين رئيس المجمع ، وأمينه العام: الأستاذ فاضل

(١) توفي ببغداد سنة ١٣٩٧ هـ .

الطائي ، وصديقنا القديم الأستاذ وليد الأعظمي ، واقترح علينا رئيس المجمع والدكتور معروف زيارة المجمع العلمي الكردي كذلك ، وأتحنفنا كلا المجمعين ببعض مطبوعاتهما .

تجارب جديدة:

وزرنا بعض المكتبات الكبرى في شارع المتنبي وبحثنا عن بعض مؤلفاتنا فلم نجد لها عيناً ولا أثراً ، وكانت هي المكتبة الوحيدة التي تجردت عن هذه الكتب الإسلامية ، وعرفنا أن غالبها ممنوعة في هذا البلد الذي هو في مقدمة المراكز الثقافية في الشرق العربي ، والذي يحكمه حزب يدافع عن حرية الرأي والفكر والعقيدة والضمير ، ويقوم على التقديمية .

عقدت السفارة السعودية حفل عشاء تكريماً للوفد ، اقتصر على أعضاء السفارة ، ولم يحضره إلا المعينون لمرافقتنا ، وكانوا وحدهم يمثلون وزارة الخارجية والحكومة العراقية ، ولم يحضره أحد من العلماء رغم شدة حرصهم على الاجتماع بأعضاء الوفد وزملائهم في العلم والدين .

انطباعات في المتحف العراقي:

زرنا يوم الجمعة: ١٠/٨/٧٣ م المتحف العراقي ، وكان هناك مديره الفاضل المتخصص في الآثار والحفريات ، وقد طاف بنا على العهود والمراحل التي مرت بها حضارة هذه البلاد ، وتاريخها ومجتمعاتها وحكوماتها ، من زمن عريق في القدم إلى العهد الأكدي ببضعة آلاف من السنين قبل الميلاد إلى العهد البابلي ، إلى العهد الكشي ، إلى السلوقي ، إلى العهد الفرثي ، إلى آخرها ، وعيننا بصفة خاصة بالعهد الإسلامي والآثار الإسلامية على قلة بقاء هذه الآثار ، وكأننا نشاهد شريطاً من تمثيلية تاريخية ، يأتي فيها حاكم ، ويذهب حاكم ، وتقوم حكومة وتنقرض حكومة ، وتزدهر مدينة وتبيد مدينة ، وتقوم قصور وتنشأ حدائق ، ثم تتحول إلى أطلال وخرائب ، يمر بنا كل ذلك ، وكأن التاريخ رواية هزلية ، لا جدَّ فيها ولا حقيقة ، وكأنها مسرحية للأطفال يمثل فيها بعضهم دور الملك ، وبعضهم دور الوزير ، وبعضهم دور القائد ، وبعضهم دور القوي

وبعضهم دور الضعيف ، وكأنها قصة «علي بابا» أو قصة تاجر بغداد من قصص ألف ليلة وليلة ، وعجبنا لكل من يدخل في هذه التمثيلية ، يمثل دوراً أسند إليه من واضع القصة ، حاذق في صناعته ، قادر على إدارته ، يأمر أبطال القصة فيطيعون ، وينهاهم فينتهون ، وحبلهم في يده ، يتحركون بتحريكه ، ويقفون بإشارته ، وكل واحد ينسى أنه مسير لا مخير ، ومقيد لا حر ، فيسترسل في الخيال ويستغرق في الأماني ويعتقد أنه يقوم بدوره أبداً ، وأنه ملك دائم ، وحاكم دائم .

وقد أتخمت بهذه المعلومات التاريخية والتقلبات السريعة ، وزالت ثقتي بالقوة والقدرة ، والحكم والسلطان ، مهما طالت مدتها واتسعت رقعتها .

ذكريات عن مجالس الشيخ الإصلاحية :

زرنا ضريح الشيخ الإمام عبد القادر الكيلاني ، وصلينا في مسجده أكثر من مرة ، وهو من أعلام هذه الأمة الذي طبقت شهرتهم الآفاق ، وسارت بذكرهم الرفاق ، وقد رزق من القبول والشهرة حظاً لم يرزقه إلا القليل النادر ، وتمثلت أمامي - وقد سعدت بترجمته والحديث عنه في كتابي «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» أيامه الزاهرة ومواقفه المجيدة ، في مجال الدعوة إلى الإسلام ، والإقبال إلى الله ، والإقلاع عن المعاصي ، وتهذيب الأخلاق وتزكية النفوس ، والثورة على الآلهة الزائفة ، وتحطيم الأصنام المصطنعة ، وإخلاص الدين لله ، وإفراد الرجاء منه والخوف^(١)

(١) ولكن من الغريب المؤسف أن دعوته للدين الخالص وقطع الرجاء من الخلق ودفاعه عن السنة المحضة ، لم يمنع الجهال والمسرفين في الحب والتعظيم أن يأتوا له بأعمال تنافي التوحيد ، وتعارض الإسلام ، من سجود وتمسح واستلام للقبر ، وطواف حوله ، وعن أن يتخذوا قبره عيداً ومسجداً ، وقد امتعضنا من مشاهدة هذه المناظر المخجلة ، ونبهنا بعض المسؤولين على العناية بهذا الموضوع ، وعدم تمكين الجهال من هذه المنكرات . ونعتقد أن وزارة الأوقاف أو نقابة الأشراف ، قادرة على ذلك إذا صح منها العزم .

له ، وكيف كانت مجالسه تكتظ بالحاضرين والمستمعين ، وكيف كان يسلم فيها عدد كبير من اليهود والنصارى ، ويتوب قطاع الطريق ، وقاتلو النفس ، والشطارون ، والعيارون ، ويستأنفون حياة جديدة ، وكيف كانت القلوب ترق ، والنفوس تخشع ، والعيون تدمع .

كيف لو عاش الشيخ عبد القادر ورأى بغداد في هذه الفترة التاريخية؟

وقد عاش الشيخ عبد القادر في أوج الخلافة العباسية الإسلامية ، والإسلام في إقبال ، والدين له صولة ، والدنيا خاضعة للمسلمين ، والأعداء راغمون ، ولكنه لم يكن راضياً بالوضع الذي كان يسود في بغداد وفي العالم الإسلامي ، وكان يرى أن الإسلام قد تطرق إليه الوهن ، والمسلمين قد تسرب فيهم النفاق ، ودب في المجتمع الإسلامي داء الأمم السابقة والمجتمعات الماضية ، من التقدير الزائد للمادة ، والانغماس في الشهوات ، والتكالب على حطام الدنيا وإجلال غير الله من الملوك والوزراء ، والأمراء والرؤساء ، والرجاء والخوف منهم ، وقلة العناية بالأخلاق والنفوس ولباب الدين وجوهره .

وقلت في نفسي : كيف لو عاش الشيخ في هذا العصر ، ورأى المسلمين من أبناء بلده قد ههوا لأصنام حديثة ، فعبدها ، من دون الله ، وضاقوا بالإسلام ذرعاً ، وزهدوا فيه ، واستبدلوا به شرائع وديانات أخرى ، ونظماً من صنع أيديهم ونسج خيالهم ، وكيف استوردوا مناهج الحياة وأساليب الحكم والنظم السياسية والاقتصادية من الخارج ، وكيف لو رأى - وكان ينكر على الخليفة المسلم الهاشمي كثيراً من تصرفاته وأخلاقه - قائداً مسيحياً أو زعيماً ملحداً لا يمت إلى هذه البلاد بصلة من دين أو نسب ، يتربع على كرسي هارون الرشيد وأبنائه ، ويسوق هذا الشعب المسلم العربي من الخارج بعصاه كما يسوق الراعي قطعاناً من الغنم؟

رثاؤه للإسلام وتوجهه لحال المسلمين :

وتذكرت أنه قال في بعض خطبه وهو في بغداد في القرن السادس

الهجري الذي قويت فيه حركة العلم والإصلاح ، وقويت شوكة الإسلام في داخل البلاد وخارجها .

«دين محمد - ﷺ - تتوابع حيطانه ، ويتناثر أساسه ، هلموا يا أهل الأرض ، نشيد ما انهدم ونشيد ما وقع ، هذا شيء ، وما يتم ، يا شمس ، يا قمر ، ويا نهار ، تعالوا .

ويا قوم ، الإسلام يبكي ويستغيث ، يده في رأسه من هؤلاء الفجار ، من هؤلاء الفساق ، من هؤلاء أهل البدع والضلال ، من الظلمة ومن اللابسين ثياب الزور»^(١) .

هذا تألمه مما كان يشاهده في عصره الذي كان عصر خير وبركة ، فكيف لو أدرك هذا العصر ، ورأى جفاء المسلمين للإسلام وإقصاءهم له من الحياة وما اختاروه لهم واستبدلوه بما كان الله أكرمهم به عن طريق محمد بن عبد الله الهاشمي القرشي ، وفي ظل نبوته وقيادته من علم صحيح ، وشريعة حكيمة عادلة ، وكتاب ناطق معجز نزل بلغتهم ، فنشرها في العالم وخلدها وحفظها من التحريف ، ومن رئاسة وشرف وقيادة للأمم ومحبة في النفوس ، فكانوا يحكمون من هنا نصف العالم ويجمعون بين سعادتي الدنيا والآخرة وبين السيطرة على القلوب والأجسام .

العراق قبل الثورة وبعدها :

كنا نخرج كل يوم في البلد نمر بشارع الرشيد الذي هو أقرب الشوارع إلى الفندق الذي كنا نازلين فيه ، نتردد بين «الرصافة» و«الكرخ»^(٢)

(١) الفتح الرباني ، ص ٦٦ .

(٢) الجانب الغربي من بغداد يسمى «الكرخ» وهو الذي يقول فيه أبو العلاء المعري :
 فيا برق ليس «الكرخ» داري وإنما رمانى إليه الدهر منذ ليال
 فهل فيك من ماء «المعرة» فطرة تغيث بها ظمآن ليس بسال
 وهو حي بغداد القديم ، ويسمى الجانب الشرقي منها بـ«الرصافة» ، سماه بذلك هارون الرشيد ، وكان قد بنى فيه قصرأ ، وفيها يقول علي بن الجهم :
 عيون المها بين «الرصافة» والجسر جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري
 أترن لي الشوق القديم ولم أكن سلوت ولكن زدن جمراً على جممر

فنستحضر تاريخهما والحوادث التي اقترنت بهما ، والأبيات التي قيلت فيهما ، ونمر بالجسر الذي كان يصل هاتين المنطقتين إحداهما بالأخرى ، وما قيل فيه من شعر غزلي ، وقد أحدثت عدة قناطر وجسور يعبر بها الإنسان دجلة التي تخترق هذا البلد العظيم .

وقد زرت بغداد في سنة ١٩٥٦ م في عهد الملك فيصل بن غازي ووزارة دولة نوري السعيد باشا ، إنه لا شك أنه لم يكن عهداً مثالياً ولم يكن الحكم على المنهج الإسلامي ، لقد كانت هنالك مأخذ شديدة على سياسة البلاد وتصرفات الولاة والأوضاع القائمة ، لقد كانت ثغرات وفجوات بين الشعب والحاكم ، لقد كان هناك استبداد وحيف وسوء تصرف ، لقد كان ارتباط الحكومة العراقية بعجلة السياسة البريطانية موضع نقد شديد ، ومجالاً لنقاش طويل ، لقد كان من الممكن للبلاد وللأمة أن تكون أسعد وأقوى وأهنأ عيشاً مما كانت عليه في ذلك العهد ، لو استقام الحكام ، وصلح الراعي وطبقت الشريعة الإسلامية والمبادئ العادلة .

ولكن كنت أشعر وأنا أتجول في شوارع بغداد ، وأطالع وجوه الناس وأسمع حديثهم ، وفي ضوء تجربتي الخاصة في هذه الزيارة الأخيرة أن البلاد كانت أكثر رخاءً وسعادةً ، والأمة أقوى ثقةً وأكثر حريةً قبل الثورة التي قام بها عبد الكريم قاسم منها الآن ، لقد زرت بغداد في سنة ١٩٥٦ م فما شعرت بكبتٍ ولا ضغطٍ ولا رقابة ولا تقييد ، كنت أمشي حراً في بغداد وفي خارج بغداد وأنتقل من مكان إلى مكان ، وقد زرت من شئت زيارته ، وزارني من شاء زيارتي من غير أن نخشى رقابةً أو تساؤلاً ، وألقيت محاضرتي التي نشرت بعد بعنوان «أزمة إيمان وأخلاق»^(١) في دار جمعية إنقاذ فلسطين ، حضرها عدد كبير من الشباب والمثقفين ، وتكلمت فيها بحرية ، وعلقت على الأوضاع الخلقية السائدة في البلد وفي العالم

(١) انظر هذه المحاضرة بأكملها في كتاب «محاضرات إسلامية في الفكر والدعوة للعلامة أبي الحسن علي الحسيني الندوي» صدر عن دار ابن كثير بدمشق .

الإسلامي وما يواجهه المجتمع المعاصر من أزمة إيمان وأخلاق ، وفقدان أصحاب الضمائر والمبادئ ، فلم يثر ذلك اهتماماً ولم يحدث ذلك لي مشكلةً ، وخرجت من بغداد كما دخلتها حراً كريماً راضياً مسروراً.

إن الإنسان مفطور على المقارنة بين الربح والخسارة ، وبين العطاء والحرمان ، وبين الكسب والخسران ، فما الذي استفادته هذه البلاد يا ترى بعد الثورات التي قامت لإعادة الأمور إلى نصابها ، والحقوق إلى أصحابها ، وتخليص الشعب من الظلم والحيث والاستبداد وخنق الحريات وسلبها؟ هذا سؤال نوجهه إلى جميع المعنيين بقضية الأقطار العربية الإسلامية ، ولكل محب للحقيقة ، ورائد للحق.

حديثي في جامع الشهداء :

عين لنا ديوان الأوقاف جامع الشهداء لنصلي فيه صلاة الجمعة ، وهو يبعد عن بغداد بعدة كيلو مترات ، ولا يصل إليه الناس في هذا الحر الشديد ، وفي وقت الظهيرة إلا بشق الأنفس ، ولست أدري كيف تسرب هذا الخبر إلى العلماء والشباب والمتعطين إلى سماع الكلمة الحسنة وزيارة إخوانهم في الإسلام؛ فقد امتلأ المسجد بالمصلين وفوجئت بطلب كلمة ألقيا عقب الصلاة ، فاعتذرت ، ولكن من غير جدوى ، فأحلت الأمر إلى المسؤولين ، وخشيت أن أتورط فيما لا يحمد ويؤثر على إخواني الذين طلبوا هذه الكلمة ، وحضروا الصلاة في هذا الجامع ، ووافق المسؤول .

وفكرت في موضوع الحديث الذي أتحدث به فوجدت مجال الحديث ضيقاً والموقف دقيقاً ، وهناك أسعفني القرآن - وهو دائماً يسعف الطالب الحائر وينير السبيل - وكان من الإلهام والتوفيق أن الأستاذ عبد الرزاق الفياض كان قد تلا سورة الأنبياء بصوته العذب الرنان ، فتمسكت بآية من آياتها ، وهي قوله تعالى :

﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [سورة الأنبياء :

الآية ، ١٠].

وفتحت لي هذه الآية الكريمة مجالاً واسعاً لحديث يمس القلوب ، ويتصل بالحياة ، وينطبق على الواقع .

فقلت : القرآن مرآة وضيئة يرى فيها الأفراد والجماعات وجوها وتعرف مكانتها .

إخواني وسادتي ، لقد سمعت أماً كريماً يتلو سورة الأنبياء ، ومرت بي آية أثارَت في نفسي معاني كثيرة ، وعبراً ودروساً عميقة ، وهي قوله تعالى :

﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ﴾ .

إن هذه الآية تنبهنا إلى أن القرآن مرآة صافية وضيئة ، صادقة أمينة وافية ، يرى فيها كل إنسان وجهه ، وملامحه ، وسماته ، فيعرف مكانه من بين الناس ، وطبقته من بين طبقات الناس ، ويعرف مكانته عند الله ، فإنه كتاب يحدث عن أخلاق الناس وصفاتهم ومخايلهم ، ومجموع صور لجميع أنماط البشرية ونماذج الإنسانية .

﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ﴾ .

يعني فيه حديثكم وخبركم كما فهمه كثير من العلماء ، وقد كان السلف ينظرون إلى القرآن ككتاب حي ناطق دافق بالحياة ، لا ككتاب تاريخي أثري يحدث عن الذين عاشوا في القرون الغابرة ، ومضوا لسبيلهم ، لا شأن بالأحياء ، ولا بالحياة الإنسانية المتطورة والأنماط البشرية الخالدة الموجودة في كل زمان ومكان .

وكانوا يعرفون نفوسهم وأخلاقهم جيداً ، ولا يلتبس عليهم أمرهم ، فكانوا يستوحون هذا القرآن ، ويتلمسون وجوههم وأخلاقهم وتصويرهم الدقيق في هذا الكتاب العجيب ، وكانوا يجدون أنفسهم بسهولة في هذا الكتاب ويهتدون إليها ويعرفونها ، فيحمدون الله إذا وجدوا خيراً ، ويستغفرون الله إذا وجدوا غير ذلك ، ثم يقبلون على أنفسهم فيصلحونها .

تذكرت بمناسبة تلاوة هذه الآية قصة كنت قرأتها لسيدنا الأحنف بن قيس ، وهو من فضلاء التابعين ومن أخص أصحاب سيدنا علي بن

أبي طالب كرم الله وجهه ، وبه يضرب المثل في الحلم فيقال : «أحلم من الأحنف بن قيس» وكان مع ذلك شديد الغيرة عظيم الحمية إذا ثار وغضب ، فكان يقال : «إذا غضب الأحنف غضبت معه مئة ألف سيف» ، قرأت هذه القصة في كتاب «قيام الليل» لأبي عبد الله محمد بن نصر المروزي (م ٢٧٥ هـ) أحد كبار تلاميذ الإمام أحمد بن حنبل ، والمرجح أن هذا الكتاب ألف في بلدكم : بغداد ، يقول :

«إن الأحنف بن قيس كان جالساً يوماً فعرضت له هذه الآية :

﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ .

فانتبه وقال : «عليّ بالمصحف لألتمس ذكري اليوم حتى أعلم من أنا ومن أشبهه؟» فنشر المصحف ، فمر بقوم :

﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَيَا لَأَسْحَارٍ هُمْ يَسْتَعْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات : ١٧ - ١٩] .

ومر بقوم :

﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة : ١٦] .

ومر بقوم :

﴿يَبْتَغُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ [الفرقان : ٦٤] .

ومر بقوم :

﴿يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران : ١٣٤] .

ومر بقوم :

﴿وَيُؤْتِرُونَكَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر : ٩] .

ومر بقوم :

﴿ وَالَّذِينَ يَجْنِبُونَ كِبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣٨﴾ [الشورى : ٣٧ - ٣٨].

قال: فوقف؛ ثم قال: «اللهم لست أعرف نفسي ههنا» ثم أخذ في السبيل الآخر؛ فمر بقوم:

﴿ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ إِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ [الصافات : ٣٥ - ٣٦].

ومر بقوم:

﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ [الزمر : ٤٥].

ومر بقوم يقال لهم:

﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمَصْلِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمِ الْمَسْكِينِ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَحْوُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نَكْذِبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤١﴾ حَتَّىٰ آتَانَا الْيَقِينَ ﴿٤٣﴾ [المدثر : ٤٢ - ٤٧].

قال: فوقف؛ ثم قال: «اللهم! إني أبرأ إليك من هؤلاء»: فما زال يقلب الورق؛ ويلتمس حتى وقع على هذه الآية:

﴿ وَآخِرُونَ اعْرِفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ [التوبة : ١٠٢].

فقال: «اللهم! هؤلاء».

وتعالوا نلتمس ذكرنا وتصويرنا في القرآن بأمانة ودقة وجد وعزم؛ إن القرآن يقرن بين التبشير والإنذار؛ ويأتي بوصف الصالحين والمنحرفين؛ ويصور الجماعات كما يصور الأفراد؛ فيقول:

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٣٩﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ

لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَيْسَ
الْمُهَادُ ﴿١﴾ [البقرة: ٢٠٤ - ٢٠٦].

ثم يعقب ذلك بقوله:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾
[البقرة: ٢٠٧].

ويصف جماعة بقوله:

﴿يَتَأْتِيَهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى
الْمُؤْمِنِينَ أَعْرَفٌ عَلَى الْكٰفِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ
مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤].

ويصف جماعة بقوله:

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّن قَضَىٰ نَجْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّن
يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا بَدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

ويحث على الشكر وتقدير النعمة؛ فيذكر الأنبياء وأتباعهم ويحذر من
كفران النعمة وبطرها؛ وتبديل نعمة الله كفرًا ومعاملة الإحسان بالإساءة؛
فيقول محذراً منذراً:

﴿الَّذِينَ تَرَىٰ إِلَى اللَّهِ بَدَلًا يُدْعَوْنَ لِيُحْمَلَ ذُنُوبُهُمْ لِيَفْجُرُوا فَا أَنفُسُهُمْ فَسَوْفَ يَلْمُهُمُ اللَّهُ
وَيَعْلَمُ مَا فِي صُلُوبِهِمْ يَوْمَ يُخْرَجُونَ مِنَ الْأَرْضِ وَهُمْ فِيهَا كَالْعِجَابِ طَائِفَتًا لَّا تَلْمِزُ
أُخْرَىٰ وَلَا يُؤْتُونَ فِيهَا سَوَاءً وَلَا يُذَمُّونَ﴾ [البقرة: ٢٥].

ويضرب مثلاً بقرية بطرت معيشتها وجحدت النعمة فقال: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ
مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ
بِأَنعَمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِيَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾
[النحل: ١١٢].

إن النماذج الخلقية والمعنوية التي عرضها القرآن باسم بعض الملوك
الجبابرة، كـ«فرعون»، وبعض الأمراء والوزراء الطغاة، كـ«هامان»،

وبعض الأغنياء الأثرياء الأشحاء المتكبرين كـ«قارون» ، وبعض الأمم القاهرة العاتية الظالمة كـ«عاد» و«إرم» ذات العماد ، وبعض الأمم الحاذقة في الصناعات ، المتأنقة في المدنيات كـ«ثمود» ، كلها أنماط بشرية خالدة لا تختص بزمان دون زمان ، وهي تمثل نواحي من الفطرة البشرية ، ومواضع ضعف وانحراف فيها ، وقد حدث القرآن عن هذه الجماعات والأفراد ومصيرها الذي صارت إليه ، وسيلقى كل من يسير على آثارها ويتخذها إماماً وقدوةً ، نفس المصير ونفس العاقبة ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب : ٦٢].

فانهال الناس عليّ يصافحون ويعانقون ويقبلون ، وهمس في أذني أحد الحاضرين فقال: «لقد كان الجمع عشرة أضعاف ، وأكبت بغداد عليك ، لو كانت الأوضاع طبيعيةً ، والناس في حريتهم».

أسف على عدم زيارة البصرة:

وطلبنا أن نزور «البصرة» بلد العلم والزهّد والدعوة في التاريخ القديم ، وأكبر مدينة بعد دمشق في العهد الأموي ، ومركز سيد التابعين الحسن البصري ، ولكن كان الجواب القديم: لعل السيد رئيس الجمهورية يطلبكم فلا يجدكم ، وأردنا أن نخرج على البصرة في طريقنا إلى الكويت ، ومن هنا نتوجه إلى عمان ، فلم يتفق لنا ذلك .

مغادرة بغداد:

وغادرنا بغداد مساء الأحد وفي النفس شوق إليها ، وتقدير لها .

في أرض الشُّهَدَاءِ وَالْمُرَابِطِينَ

من بغداد إلى عمان:

كانت نهاية المطاف في هذه الجولة التي انتظمت أربعة أقطار عربية إسلامية ، شرق الأردن ، ولعل ذلك كان خيراً ، فقد كان في هذا القطر متنفس ومجال للحديث والتعبير عن العواطف لم نجدهما في الأقطار التي تحكمها الحكومات الجمهورية الشعبية ، وهي تتعير وتعاف أن تحكمها أسرة أو شخص وتعتبر ذلك رجعية وتخلفاً لا مسوغ له في هذا العصر الراقي المتحرر .

غادرنا بغداد مساء ليلة الإثنين (١٢/٨/٧٣ م) في الساعة التاسعة في الليل تقريباً ، وكان في توديعنا السفير السعودي وبعض أساتذة بغداد ممن يشتغلون بالتدريس في السعودية . ونزلنا في مطار البصرة ، وقضينا هناك ساعة ، وقد أحيل بيننا وبين زيارة هذا البلد العلمي التاريخي الذي كان مدرسة مستقلة في الدين والعلم ، والأدب والنحو ، وفوجئنا في المطار بوجود القنصل السعودي . . . وكان حريصاً شديداً الحرص على زيارتنا للبصرة ، وقضاء بعض الوقت فيها تحت ضيافته الكريمة ، وقد سررنا جميعاً بهذه الزيارة المفاجئة ، وركبنا الطائرة للكويت حيث بتنا تلك الليلة ، ونزلنا في فندق «شيراتون» وأكرمنا فضيلة الشيخ عبد الرزاق الصالح ، وصديقنا الدكتور عبد اللطيف خان ، والأخ العزيز إبراهيم الحسني بزيارتهم ، وجلسوا معنا قليلاً ، ثم تركونا لنستريح .

وفي صباح يوم الإثنين (١٣/٨/٧٣ م) توجهنا إلى عمان ، ووصلنا قبل

الظهر ، واستقبلنا في المطار وكيل وزارة الأوقاف الأستاذ عبد خلف ، وسعادة الأستاذ كامل الشريف ، سفير الأردن في باكستان ، وعضو المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي ، والقائم بالأعمال في السفارة السعودية الأستاذ محمد ميمش وآخرون ، وتوجهنا من المطار إلى فندق الأردن «انتركونتيننتال» وذكر لنا الأستاذ كامل الشريف في الطريق أن جلالة الملك حسين لما علم قصد الوفد لزيارة المملكة الأردنية الهاشمية رحب بها ، وأبدى سروره ، وأنه من المتوقع أن يدعو أعضاء الوفد للمقابلة في ظرف إقامته في العاصمة ، وقد شكرنا بدورنا على هذه الروح الطيبة والكرم الذي لم يكن مستغرباً من هذه الأسرة الكريمة .

ضيافة وزارة الأوقاف ومناسبة الموسم الثقافي :

نزلنا في الفندق في ضيافة وزارة الأوقاف والشؤون والمقدسات الإسلامية ، التي يتولاها ويشرف عليها معالي الدكتور إسحاق الفرحان ، وكانت هذه الوزارة تحتفل في هذه الأيام بالموسم الثقافي ، وتنظم محاضرات ونوادي علمية لنشر الثقافة الإسلامية ، وإيجاد الوعي الإسلامي ، وكان قد اتصل بنا وكيل الوزارة ونحن في دمشق يدعونا للإسهام في هذا الموسم ، وكان معالي الوزير وجه دعوة إلى كاتب هذه السطور إلى مقره في الهند ، فانتهزت الوزارة فرصة زيارة هذا الوفد للأردن وأنزلت أعضاء الوفد في ضيافتها الكريمة ، ونظمت المحاضرات والزيارات واللقاءات ونشرت برنامج الزيارة .

زارنا في الفندق معالي وزير الأوقاف ، وهو من رجال التربية والتعليم المعدودين في الشرق العربي ، ومن أصحاب الفكرة الإسلامية ، وكان يجمع في السابق بين وزارة التربية والأوقاف ، ثم فصل بينهما أخيراً ، وقد عرفناه من خلال كتاباته الإسلامية ، وكان بعض بحوثه حول منهج التربية والتوجيه في البلاد الإسلامية من أحسن ما قرأناه في هذا الموضوع ، ووجوده في الوزارة مكسب كبير بالنسبة إلى البلاد ، وإن كان محله الطبيعي في وزارة التربية والتعليم ، وزارنا كذلك مدير الإعلام في الوزارة الأستاذ

«علي فريج» والدكتور عبد الله عزام ، الذي عين مرافقاً للوفد ، وهو من خيرة الإخوان الذين تعرفنا بهم في هذه الجولة التي ابتدأت من كابل وانتهت إلى عمان ، ديناً وتقوى ، وغيره ونشاطاً ، والأستاذ عز الدين الخطيب مدير عام الوزارة ، والأستاذ حسن التل رئيس تحرير «اللواء» الإسبوعية .

مع معالي الوزير وزملائه :

بدأ الوفد نشاطه يوم الثلاثاء ١٤/٨/١٩٧٣ م في الساعة التاسعة صباحاً بزيارة معالي وزير الأوقاف والشؤون والمقدسات الإسلامية في مكتبه ، وبقي أعضاء الوفد ساعتين مع معاليه ، يتحدث إليهم عن نشاط وزارة الأوقاف ، ومجالات عملها وإنتاجها وتطورها في العهد الأخير ، وأنها كانت تخاطب الأموات أولاً فأصبحت تخاطب الأحياء وتعنى بشؤونهم إضافة إلى مهمتها الأولى ، وتقوي الصلة بينهم وبين التعاليم الدينية ، والثقافة الإسلامية وتنميتها ، وكان حديثه حديث واع ناضج . قد فهم رسالة الإسلام ورسالة العلم وروح العصر ، ومرونة مؤسسة «الوقف» الإسلامية وصلاحتها لمسيرة العصر ومجاراة المسلمين في حاجاتهم ومتطلباتهم في ضوء الكتاب والسنة ، والفقهاء الإسلامي الواسع ، واستعرض في حديثه الجهاز الإداري ، والمؤسسات التابعة لوزارته ، ومظاهر النشاط في المملكة استعراضاً دقيقاً شاملاً ، استفدنا منه معلومات كثيرة في وقت قليل ، وأخذنا فكرة واضحة منسقة عن هذه الوزارة التي تستطيع أن تمثل دوراً خطيراً في الاحتفاظ بالثروة الإسلامية القديمة مع الزيادة في الثروة الحديثة .

وخرجنا في الساعة الحادية عشرة لزيارة المعهد الشرعي واجتمعنا بمديره الشيخ محمد إبراهيم شقرة ، وهو من خيار المرين والموجهين في هذا البلد الإسلامي وطاقة دينية تربوية ، يجمع بين الرسوخ في العلم ومثانة العقيدة ، واستنارة الفكر ، وقوة البيان؛ اشتغل مدرساً في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة مدة من الزمان؛ وقد زار الوفد كذلك مدرسة القرآن الملحقة .

لقاء مع الملك حسين :

وكان المفروض أن نزور المركز الثقافي الإسلامي - فرع النساء - ولكننا فوجئنا - ونحن نستعد لصلاة الظهر في المسجد المجاور للمعهد الشرعي - بطلب مستعجل من جلالة الملك حسين للمقابلة في القصر ، فصلينا الظهر ، ثم قصدنا مكتب معالي وزير الأوقاف لتتوجه منه إلى القصر في معية الأستاذ كامل الشريف ، الذي كان يرافق الوفد إلى القصر كعضو في الوفد ودليل .

وصلنا إلى القصر ووجدنا هناك سعادة الشيخ محمد أمين الشنقيطي سفير المملكة الأردنية الهاشمية في السعودية ، وقد جاء في مقابلة للملك وزيارة للعاصمة قريباً ، وتذكرنا بوجوده مقابلتنا الأولى لجلالة الملك المرحوم عبد الله بن حسين جد الملك الحالي قبل ٢٢ سنة في قصر «رغدان» يوم الثلاثاء ٦/١٠/٧٠ هـ ، ١٠/٧/٥١ م ، ومقابلته الثانية في يوم الجمعة ٩/١٠/٧٠ هـ ١٣/٧/٥١ م ، وها نحن نقابل اليوم حفيده الكبير ، ولكن ما أوسع الفرق وما أضخمه بين أمس واليوم .

إنها فترة قصيرة بالحساب الرياضي مدة اثنتين وعشرين سنة ، وما أقصرها من مدة في تاريخ الأمم والأشخاص ، وفي تاريخ الأسر والحكومات ، وقد تتوالى أعقاب وأجيال في مدة قليلة وتتداول الحكم ، وتتربع على العرش ، ولكنها فترة طويلة ، إذا قيست بالحوادث والتطورات ، والربح والخسارة ، والتغيير في خارطة العالم عموماً وفي هذا البلد خصوصاً ، السياسية والجغرافية .

إن الملك حسين قد ورث عن جده الكبير مملكة تواجه تحديات ومعضلات وتناقضات قلما تواجهها الحكومات والمملكات في هذا العصر ، وقد اختير للقيادة والحكم في فترة من أدق الفترات وأكثرها تعقداً ، ثقل لا ينوء به إلا القادة العصاميون ، وقد آمنت بضعف الإنسان وقصر هذه الحياة وسرعة التقلب حين كنت أمشي من غرفة الاستقبال إلى غرفة الانتظار ، ومن غرفة الانتظار إلى مكتب الملك ، وكأني أشاهد

مسرحية أو أرى رؤيا ، فقد فوجئت وأنا في بيت مضيبي الكريم الشيخ قاسم الأمعري تاجر عمان ، وعلى مائدته بطلب مستعجل من جلالة الملك عبد الله ، وقيل لي: «إن سيدنا^(١) يريدك». فليت الدعوة مسرعاً ، ثم فوجئت وقد انصرفت من صلاة الجمعة في الجامع الذي صلى فيه الملك ، وقيل لي: «إن سيدنا يريدك» وقد توجه هذا الطلب المفاجيء من حفيده العظيم وقيل لنا: «إن سيدنا في انتظاركم» ، فما أشبه الليلة بالبارحة ، ولكن ما أعظم الفرق بين الأمس واليوم!

دخلنا في مكتب جلالة الملك ، فمشى بضع خطوات لاستقبالنا ، وفتح الباب ، وأبدى دماثة وتواضعاً زائداً ، واعتذر أنه يقابلنا في هذا الزم الذي كان فيه ، ثم جلسنا جلسة لا تكلف فيها ولا آداب ملوكية ، وتكلمنا بكل حرية وصراحة ، وتطرق الحديث إلى وضع البلاد الدقيق المخرج الممتحن للذكاء والإيمان القوي والعزم الصادق ، وأنه تصوير لقوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ﴾ ، فقد شاهدنا بالعيان ، وجربنا عملياً أنه لا ملجأ للمسلمين وللعرب عموماً ، ولهذه المملكة التي تقع بين فكي الأسد ، أو طبقي الرحا ، وتعيش على شفرة السيف وسان الرمح خصوصاً إلا إلى الله ، ولا عاصم لها اليوم إلا الإيمان بالله ، والإخلاص لهذا الدين ، والاعتماد على صلاحية الإسلام للبقاء والقيادة ، وتطهير الحياة من كل ما يبعد النصر ، ويثير الغضب ، ويزيد في الضعف ، والدخول في السلم كافة ، كما يقول القرآن ، وترك المحاربة لله والرسول والإيمان بقوله تعالى: ﴿ وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَبِيعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ . وذكرته بمسؤوليته العظيمة نحو اللاجئين الفلسطينيين وعقيدتهم ، وعقيدة أطفالهم وأجيالهم المقبلة ، وأن لا يتركوا تحت رحمة المبشرين المسيحيين ، وجمعية غوث اللاجئين ، تستغل وضعهم الشاذ المزري المغربي الذي يعيشونه ، وقلت: «إنها أكبر مسؤولية

(١) أهل الأردن يخاطبون ملكهم بهذه الكلمة ، وقد اقتبسوها من الحجاز ، وجروا على هذه العادة .

في الدنيا والآخرة ، وإننا جميعاً موقوفون أمام الله ، مسؤولون عن هؤلاء البؤساء الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ، واعترفت ببعض مواقفه الحاسمة الحازمة ، والبطولة الفريدة التي ظهرت منه في بعض المجالات» .

وقلت للملك : (إن بعض الصالحين في الزمن السابق كان يقول : « لو لم تكن لي إلا دعوة مستجابة لجعلتها لولي الأمر ، فإن في صلاحه صلاح البلد ، وفي فساد فساد البلد» . وإني وإن لم أكن بهذه المكانة ولكنني أتجاسر وأقولها للملك) .

ولم يكن من جلالته إلا حسن الإصغاء والتواضع ، وقد شارك في الحديث الزميل المحترم سعادة الأستاذ أحمد محمد جمال . وسعادة الأستاذ كامل الشريف ، وقد قال الأستاذ أحمد محمد جمال : «إنني قلت في مناسبات كثيرة : ما بقي لنا أمل إلا في الفيصل والحسين» .

وانتهى المجلس ومشى الملك يودعنا ، وسلمنا عليه ، وعدنا إلى محلنا في الفندق .

زيارة المؤسسات الإسلامية في البلد :

وفي يوم الأربعاء ١٥/٨/٧٣ م خرجنا في الساعة التاسعة صباحاً ، وزرنا بناء المستشفى الإسلامي الخيري الكبير الذي تقوم بإنشائه جمعية المركز الإسلامية الخيرية في عمان ، وهو مشروع عملاق ، إذا كمل كان من أكبر المستشفيات في هذه المنطقة الإسلامية العربية ، وسد حاجة كبيرة في البلد الذي نشطت فيه الجمعيات التبشيرية ، والمؤسسات المسيحية الغربية في إنشاء المستشفيات ، ودور الإسعاف الطبي ، وكانت مركزاً كبيراً للدعوة إلى المسيحية ، والدخول إلى النفوس والعقول من جانب رقيق ناعم حسّاس . وهو العطف على المريض وإزالة ما يعانیه من وجع وسقم ، أو التخفيف منه على الأقل ، والكلمة الرقيقة اللطيفة التي تمس القلب ، وتحل عقد النفس ، ولا شك أنه أضعف جانب وأرقه في حياة الإنسان .

وقد قطع هذا المستشفى شوطاً كبيراً من البناء والتصميم ، وقد طاف بنا

الأستاذ محمد عبد الرحمن خليفة ومساعدته الأستاذ مشهور حسن حمود المدير العام للجمعية ، ولمشروع المستشفى ، وحكى لنا ما حققه هذا المشروع من النجاح ، وكيف استطاع أن يستفيد ببراعة المهندسين الكبار ، وحداقة الأطباء أصحاب الشهرة العالمية ، وهو مبني على أحدث طراز ، مؤثث بأرقى أثاث ، وسيلحق به مسجد كبير ، ومركز ثقافي ، وقاعة محاضرات ، ومكتبة إسلامية ، ومنزل للممرضات ، ومعهد تمرير وقبالة .

وزرنا مسجد الجامعة الأردنية ، ولا يزال في دور البناء ينبيء عن جامع كبير لائق بالمركز الجامعي الحساس ، وزرنا مديرية أوقاف عمان ، وقضينا بعض الوقت مع كبار المسؤولين ، وزرنا مكتبة الأقصى وهي من إحدى المكتبات الكبيرة التي زرناها في جولتنا ، وهي غنية بالكتب الإسلامية ، وجدت فيها أكثر مؤلفاتي المطبوعة في بيروت والقاهرة .

وزرنا مسجد أحمد قارة أحد المساجد الرئيسية في العاصمة ، ومنه يذاع الأذان الموحد في أوقات الصلاة الخمسة ، وهي فكرة طريفة لم نجدها في مكان آخر ، والفكرة جديدة للنقاش والتفكير ، فقد يتعطل بالمذيع أو ينام المؤذن ، ويفقد أهل البلد الأذان ، هذا عدا أن هذا يفقد فضل الأذان وما وعد عليه من الثواب في مساجد أخرى من مساجد البلد ، وتجولنا في أنحاء هذا المسجد العظيم وقاعاته ، ومكتبته المنسقة تنسيقاً حديثاً ، وأعجبنا بجمال البناء وحسن النظام .

وزرنا أرض مشروع دار الأيتام ، وبجوارها مركز لاستقبال الحجاج القادمين من القرى والبوادي واستراحتهم .

نظرة على اللاجئين الفلسطينيين :

ومررنا في طريقنا بأحد الملاجئ الفلسطينية ، ورأينا أطفال اللاجئين - وهم ينحدرون عن أصول شريفة كريمة لها دور في تاريخ الفتح الإسلامي والدعوة الإسلامية - وما يعانونه من فقر وبؤس ، تنفتت له الأكباد ، وتدمع له العيون ، ورأينا مركز جمعية «شلنر» الألمانية ، وما تحتوي عليه من شعب ومكاتب وإسعاف طبي ، وتموين وتغذية ، وتعليم وتربية ، فقلنا :

«لقد رفع الحاجز بين الذئب والخروف وتركنا وشأنهما ، فما بقاء الخروف المسكين الجائع الهزيل أمام هذا الذئب القوي السمين ، والفترة هي الفترة؟» .

في جمعية المركز الإسلامي الخيرية:

زرنا في المساء جمعية المركز الإسلامي الخيرية ، وهي في الحقيقة مركز نشاط بقايا «الإخوان المسلمون» ودعاتهم ، يقودهم ويشرف عليهم صديقنا القديم الزعيم الأردني المجاهد الأستاذ محمد عبد الرحمن خليفة ، وهو من خيرة العاملين في حقل العمل الإسلامي الذين تعرفنا بهم في الخمسينات الأولى ، وكان أول لقائنا به في دمشق عام ١٩٥٦ م يوم جاء إلى دمشق ليحضر المؤتمر الإسلامي الذي دعا إليه صديقنا العزيز الدكتور سعيد رمضان ، ويدعو الضيوف لزيارة القرى الأممية ، وملاجيء الفلسطينيين في الأردن ، ثم جاءنا في الهند وزار قريتنا الصغيرة ليدعوني لحضور المؤتمر الإسلامي ، الذي أزمع على عقده ، وأراد أن يكون له السبق في تكريمنا ، فعقد حفلة تكريم وتعارف في مركز الجمعية حضرها عدد كبير من أعيان البلد والعاملين في الحقل الإسلامي وأصحاب الفكرة الإسلامية ، وكبار المثقفين وعلماء البلد ، وحضر معالي وزير الأوقاف ، والأستاذ كامل الشريف وغيرهما ، وتقدم الأستاذ محمد عبد الرحمن خليفة ، فألقى كلمة رقيقة متحمسة ، رحب فيها بالوفد ، وعرف أعضائه إلى الحاضرين ، وذكر صلته العزيزة القديمة ببعض أعضاء الوفد ، وذكر ما لهذا البلد من مكانة ومركز دقيق حساس في العالم الإسلامي والعالم العربي .

حديثي عن مسؤولية البلد الإسلامي المرابط:

وقمت بعده ، فألقيت الكلمة الآتية:

«الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ، أما بعد: فإني أشكر الأستاذ محمد عبد الرحمن خليفة على كلمته الرقيقة الكريمة التي تفضل بها ، ولا نستغرب فإنها حديث أخ عن أخ ، ومحب عن محب ، يلتقيان على العقيدة والفكرة ، ويشتركان في العاطفة والشعور ، وأشكره بصفة

خاصة على إتاحتها فرصة التعرف على هذه الصفوة المختارة من رجال الفكر والدعوة ، وللتحدث إليهم ، إنها قيمة هذه الرحلة الطويلة ، فإننا لم نقم بهذه الرحلة لزيارة المعالم والآثار ، بل قمنا بها للاجتماع بالإخوان والحديث إليهم وتبادل الرأي معهم .

إخواني : لقد كان المتوقع المطلوب من إخواننا العرب الساكنين في هذه الديار حمل الدعوة الإسلامية ، وحمل مشعل الإسلام إلى الأقطار البعيدة ، ولا شك أنهم قاموا بدورهم في العصر الأول ، ونحن في شبه القارة الهندية ، ندين لهم بهذا الفضل ، فقد أكرمنا الله بالإسلام عن طريقهم ، ولم تزل بلادكم مصدر الإشعاع الإسلامي ، ولم نزل نستمد من تاريخ هذه البلاد - تاريخ الغزوات والفتوح ، والجهاد في سبيل الله ، وتاريخ البطولة الإسلامية - الإيمان والثقة والاعتزاز بالدين ، والصمود في وجه التيارات العنيفة التي كانت تغزو المسلمين بين حين وآخر ، وقوة المقاومة للدعوات المعارضة للإسلام ، بل الصبر على المكروه والمصائب ، ونستمد منه العزاء والسلوى في الحوادث ، فقد كان تاريخ فتوح الشام هو الملجأ الذي يلجأ إليه المسلمون ويستمدون منه الإيمان والحماس وقوة المقاومة للنوازل والحوادث ، إنني لا أزال أذكر أيام طفولتي حين كانت السيدات يجتمعن وتنشد إحداهن ترجمة فتوح الشام للواقدي في الشعر الأردني ، هذه الملحمة الإسلامية الكبيرة التي نظمها أحد أفراد أسرتنا نقلاً من فتوح الشام للواقدي ، وكانت تحتوي على خمسة وعشرين ألف بيت ، وكنا ندخل في هذه المجالس في حاجة من حاجات الأطفال التي تكثر وتتجدد ، فنأتي إلى أمهاتنا أو إخواننا فنرى العيون تذرف والدموع تهطل ، وسحابة من سكينه وإيمان تحلق على رؤوس السيدات المؤمنات القانتات الصالحات ، وهن يسمعن أخبار هذه المعارك التي يخوضها الصحابة والتابعون ، ويكثر فيها القتلى أو الجرحى وتتناثر فيها الرؤوس وتسيل فيها الدماء ، ويفجع المسلمون في أعز إخوانهم وأحب أقاربهم فينسين حادثتهن الشخصية بجانب هذه الحوادث الإسلامية العامة ، وتغمرهن موجة من الحماس الديني ، والشوق إلى لقاء الله ، والصبر على المكروه ، وهكذا كان الرجال يتناشدون

هذه الملحمة ويستمعون إليها في شوق ولهف ، ويسري في عروقهم تيار كهربائي من الإيمان والبطولة ، والحنين إلى الشهادة ، وكانت عادة متبعة وتقليداً شائعاً في الأسر الإسلامية الكريمة وأوساطهم .

أقول : لقد كان المتوقع المطلوب في ضوء هذه التجارب وفي ضوء هذا التاريخ المشرق الزاهر أن يقوم إخواننا العرب في هذه البلاد التي انطلقت منها قوافل الدعاة إلى الله ، والدعاة إلى دينه الذي جاء به محمد ﷺ ، فينقلون هذه الرسالة إلى أنحاء لا تزال بعيدة عن الإسلام ، ويفتحون للإسلام مناطق جديدة ، ولكن من المؤسف المحزن ، ومن عجائب الدهر أنه قد أصبح المطلوب المنتظر منكم اليوم أن تحافظوا على هذه الأرض التي هي مادة الإسلام ورصيده ورأسماله ، والعالم الإسلامي كله امتداد لهذا المركز الإسلامي ، وظل لهذا الأصل ، فأنتم في الصميم ونحن والمسلمون جميعاً على الهامش ، نستمد منكم القوة والثقة والاعتزاز ، والشرف والكرامة ، وبقدر قوتكم يقوى العالم الإسلامي ، وبقدر عزكم وشرفكم يعز العالم الإسلامي ويشرف ، إن كل وهن يقع هنا يتجسم ويتضخم في عواصم العالم الإسلامي ومدنه ، ولا يستطيع المسلمون أن يمشوا رافعي رؤوسهم معتزين في دهلي أو كراتشي ، أو في جاكرتا أو في أي بلد إذا أصابكم ذلٌّ أو ضيم .

تعلمون جميعاً أيها السادة أن هذه المنطقة كان يحكمها الرومان قبل الفتح الإسلامي ، وكانت المسيحية هي ديانتها السائدة وديانتها الرسمية ، وكانت من أعز ممتلكات الحكومة البيزنطية وأحبها إليها ، ومن أخصب البلاد وأكثرها خيرات وطيبات ، وكانت فيها مقدساتها الدينية ، ومولد المسيح ومنشأ النصرانية ، وأرادت حكمة الله ولطفه بعباده أن ينتشر فيها الإسلام وتدخل في وصاية المسلمين وحضانتهم ، ففتحها العرب ونشروا فيها الإسلام ، وانتشرت فيها حضارتهم ولغتهم ، وأصبحت وطناً إسلامياً وعربياً ، فكان طبيعياً أن تهتم بذلك أوروبا المسيحية وأن يشغل ذلك خاطرهم ، إنني لا أعتقد أن اهتمام القوى الكبرى في أوروبا بهذه المنطقة ظاهرة طارئة ، وتحول جديد في تفكيرها وتاريخها ، إنهم بالعكس ظلوا

مستشرقين لهذه المنطقة ، طامحين إليها ، لم تمر بهم ساعة تناسوها فيها وصرفوا النظر عنها ، وقد كانت منهم محاولات لاسترداد هذه المنطقة والاستيلاء عليها ، وكان من ضمنها الحروب الصليبية التي يعرفها الجميع ، وكانوا يستخدمون كل الطرق والوسائل لتحقيق هذا الغرض ، ولكنها تبوء بالفشل ، لأن الذين اختارهم الله للاحتفاظ بهذه البلاد والحكم عليها كانوا أقوياء أمناء أوفياء ، وكانوا فوق كل مساومة وأبعد من كل تنازل ومن كل استسلام ، ومن كل خذلان وخيانة ، أذكر منهم على سبيل المثال السلطان صلاح الدين الأيوبي داحر الصليبيين ، ومعيد مجد المسلمين ، وكان حكام هذه البلاد وقادة المسلمين - على علاقتهم واختلاف نزعاتهم - أمناء في قضية قدسية هذه البلاد وكرامتها ، وأقول: إن الأتراك العثمانيين كانوا غيارى على هذه المقدسات والأماكن الإسلامية ، فقد استطاعوا أن يحرسوا هذه البلاد ويظلوا محافظين عليها طيلة خمسة قرون ، إنني لا أتصل بهم بنسب ولا بوطنية ولا بقومية ، ولا لغة ولا ثقافة ، ولكنني أقوله تقريراً للواقع وإنصافاً للتاريخ ، وشهادة للحق ، فأخفقت هذه المحاولات كلها ، ومن الشواهد التاريخية على ذلك أن الدكتور هرتزل رئيس المؤتمر اليهودي الذي يعتبره كثير من الناس «نبي الصهيونية» قابل السلطان عبد الحميد خان وطلب منه أن يسمح بإنشاء وطن قومي لليهود في ظل العرش العثماني ، ووعد في مقابل ذلك بتسديد ديون الحكومة العثمانية - وكانت كثيرة باهظة - وإنشاء أسطول بحري للدولة على نفقة اليهود ، وقدم إضافة إلى ذلك أموالاً لإنعاش الدولة العثمانية ، هذا عدا الهدايا الثمينة ذات قيمة كبيرة يقدمها اليهود «للذات الهمايوني» يعني شخص السلطان عبد الحميد خان ، فكان جواب السلطان عبد الحميد خان رحمه الله على كل ذلك أن قال: ادخروا هذه الأموال لمصالحكم ، أما أنا فكل أموال اليهود في العالم لا تساوي حفنة تراب في القدس الشريف ، وكان نتيجة ذلك أن اليهود أطاحوا بعرش السلطان عبد الحميد خان واضطهدوه وأذوه وهو معتقل ، وعرف الطامحون الأوروبيون أنه لا سبيل لهم إلى ذلك ، وكانت الدولة العثمانية على ما أصابها من ضعف ووهن صرحاً كبيراً للقوة الإسلامية ، يهابه الأجانب ، وكانت

كعود^(١) ينصبه الفلاح في مزرعته ويلقي عليه ثوباً فيحسبه الطائر إنساناً واقفاً أو شبحاً مخيفاً فلا يقربه ، وحين يسقط العود ويطلع غراب ذكي على أنه عود أو يراه ساقطاً على الأرض تعيث فيه الطيور وتأتي عليه . وهذه قصة هذه البلاد التي كانت تحكمها الدولة العثمانية ، تهيئها الأعداء ، وابتعدوا عنها مهابة لهذه الدولة الحامية ، فلما انهار هذا الصرح ، وسقط هذا العود المخيف تجاسروا عليها وعاثوا فيها .

واجه الغرب بعد انسحاب الدولة العثمانية وبعد الحرب الأولى قادة وزعماء في هذه المنطقة ، قد أثرت فيهم المادية وأثرت فيهم الحضارة الغربية ، وأثر فيهم نظام التعليم الغربي الحديث ، ونخر فيهم كما ينخر السوس في الخشب فيكون أجوف لا تماسك فيه ، أو تراباً تذروه الرياح ، وأصيبوا بفقد الضمير والغيرة الدينية ، والأمانة والوفاء للبلاد ، والوطنية الصادقة ، فطمع الغرب في هذه البلاد ، وعرف أنه قد جاء دور المساومة وشراء الضمائر ، والاستحواذ على هذه المنطقة العزيزة إليهم في كل زمان ، فقد خضع قادتنا للقيم المادية خضوعاً لم يعرف من قبل ، وصاروا ينظرون إلى الدنيا العاجلة والحياة الفانية بغير العين التي كانوا ينظرون بها في السابق ، إن المسلمين كانوا يسمعون قول الله تعالى : ﴿ وَمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَازِلُ وَمَا هِيَ إِلَّا ذُكُورٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَسْفَلَ الْكُفَّارِ بَنَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ . وكانوا مع الرسول ﷺ في قوله : اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة . وصاروا ينظرون إلى الدنيا ومتاعها ، وفخارها وجاهها كأنها هي الغاية القصوى ، واستولت عليهم شهوة الحكم ولو كان ذلك على حساب المبادئ والأخلاق والكرامات والأعراض والمقدسات .

إن أول معركة أيها الإخوان تقوم في ضمير الإنسان وفي قلبه قبل أن تقوم في ساحة حرب أو ميدان قتال ، فإذا انتصر الإنسان في هذه المعركة

فالانتصار محقق في المعارك التي تقوم في الخارج ، إن معركة الضمائر تتقدم وتفوق على المعارك الحربية ، وقد انهزمتنا في معركة الضمائر وأصبحت ضمائرنا معروضة للبيع والشراء ، مستعدة للمساومة والمقابلة ، فزال كل عقبة في سبيل الطامعين والطامحين ، وأصبح الطريق مفتوحاً مكشوفاً للدخيلين والسالكين ، وحينئذ وقعت هذه البلاد تحت أقدامهم ، يتصرفون فيها كما يشاؤون وينفذون مخططاتهم ومشاريعهم وهي لا تدافع عن نفسها ، فإنما يمنع عن الخيانة والغدر بالبلاد والشعوب إما دين متين وهو الجدير بكل اعتماد وثقة ، وإما وطنية صادقة ، وهي التي تمنع قادة الشعوب الأوربية وبعض الشعوب الشرقية عن الخيانة وبيع البلاد بثمن بخس ، وماذا يمنع سادتنا وزعماءنا عن ذلك إذا كان لا دين ولا وطنية ، لذلك نسمع كثيراً أن بعض القادة وزعماء الأحزاب سلموا أجزاء ثمينة من الوطن العربي الإسلامي ، ومناطق استراتيجية للعدو ، أو أنهم وكلاء مصالحهم وأغراضهم السياسية ، وقد يبدو للناظر أنهم أشد إخلاصاً لهم وحرصاً على مصالحهم من أنفسهم .

إنكم أيها السادة على أدق ثغر من ثغور الإسلام وفي آخر حصن من حصونهم وقد وصل الفيضان إلى أسوار المدينة ، وإذا تخطى هذه الأسوار فلا شيء يوقفه ، أنتم على خط الدفاع الأخير ، فإذا تخطى هذا الخط فالعالم الإسلامي كله مفتوح مكشوف ، وأنظار المسلمين كلهم عليكم ، وأنتم مقياس قوتهم وشرفهم ، ومصدر عزهم وكرامتهم ، وإنني لا أقول لكم اتقوا الله في أنفسكم وبلادكم وفي شرفكم وكراماتكم ، بل أقول: اتقوا الله في أعراض المسلمين وكراماتهم ، وفي عز الإسلام وكرامته . اتقوا الله في الشعوب الإسلامية التي تنظر إليكم كمثال للمسلم الأول وحامل رسالة الإسلام الأولى ، اتقوا الله في النسمات والأرواح التي لا تزال في أصلاب الآباء وأرحام الأمهات ، التي لم تعرفكم ولم تعرفوها ، وهي إما تحمد الله وتشكركم على حماية المقدسات والحرمات ، وتهيئة أسباب الشرف والكرامة ، والاعتزاز بالماضي والافتخار بالآباء ، وإما تشكوكم إلى الله من تضييع هذه المقدسات ، وتلويث ماضيها وتوريثها في العار والذل .

إن هذا الاجتماع وهذه الفرصة الكريمة قد أثارت في قلبي شجناً وأحزاناً ونكأت الجروح ، فإنني أعتبر قضية الإسلام والمسلمين قضية واحدة ، وأعتبر البلد الإسلامي بلداً واحداً ، وأرى كل حادث يفتح المسلمين ، وكل شبر من العالم الإسلامي يتنازلون عنه رزية وفاجعة ، وأرى قضية فلسطين تتمثل في كل مكان ، فأقف عندها وقفة خاشع داعم ، وأنشد قول الشاعر العربي متمم بن نويرة :

لقد لامني عند القبور على البكا رفيقي لتذراف الدموع السوافك
فقال: أتبكي لك قبر رأيتَه لقبر ثوى بين اللوى فالدكادك
فقلت له ، إن الشجا يبعث الشجا فدعني فهذا كله قبر مالك

وقام بعدي الأستاذ يوسف العظم فألقى كلمة بليغة قوية في الترحيب بالوفد والشكر على زيارته ، تعرض فيها بما يقاسيه المسلمون بصفة عامة ، وهذا البلد بصفة خاصة من محنة قاسية وأوضاع شاذة ، وصراع فكري ونفسي .

في دار المؤتمر الإسلامي :

زرنا في الساعة السابعة مساءً المؤتمر الإسلامي الذي يرأسه الأستاذ كامل الشريف ، وتعرفنا على مجموعة طيبة من أعضاء المؤتمر والمتصلين به .

تكريم من معالي الوزير :

أقام معالي وزير الأوقاف حفلة عشاء على شرف الوفد الضيف في مجمع النقابات ، حضرها لفيف من كبار الوجهاء والأساتذة ، كان من جملتهم صديقنا القديم والعالم الجليل الشيخ مصطفى أحمد الزرقا ، وهو يشغل الآن مدرساً في كلية الشريعة في عمان ، وعاكفاً على وضع قانون إسلامي مدني ، من المؤمل أن يطبق في المملكة ويكون قانونها المدني العام .

لقاءات :

وفي يوم الخميس ١٦/٨/١٩٧٣ م أكرمنا بالزيارة واللقاء عدد من كبار العلماء والمثقفين ، منهم الأستاذ تيسير الظبيان رئيس رابطة العلوم

الإسلامية ، وسعادة الشيخ محمد أمين الشنقيطي ، والمجاهد الكردي الشيخ أمين بروسك ، وقد قابلناه في زيارتنا الأولى سنة ١٩٥١ م وحفظنا له بيتاً أ برق به إلى الدكتور مصدق رئيس وزراء إيران يومئذ الذي استرعى انتباه العالم بتأميمه للبتروول في إيران ومواقفه البطولية :

لقت عصاك عصيهم فتصايحوا لا سحر بعد اليوم ، أنت مصدق ولم يزل يمتعنا بحديثه ، وحكايات كفاحه وأبياته ، ولم يزل يتردد إلى الوفد مدة إقامته في عمان .

محاضرة في السلط :

كان اليوم موعد محاضرة لكاتب هذه السطور في السلط ، فتوجهنا في الساعة الرابعة في العصر ، وقد أيقظت فينا مناظر الجبال والأودية ، وانعطاف الطرق ووعورة المسالك ، الشعور بعلو همة العرب الفاتحين لهذه البلاد ، والحاملين لمشعل الإسلام ، وأوحت إلي بأن يكون حديثي اليوم عن العرب الأولين الذين أكرمهم الله برسالة الإسلام ، فنفتحت فيهم هذه الرسالة روحاً جديدة ، وحياة جديدة ، ونقلتهم من حياة محدودة مفصولة عن العالم ومن سجن مظلم ضيق إلى حياة أوسع ومجال أفسح ، وقارنتُ بين الجاهلية والإسلام؛ وذكرْتُ ما كان للإسلام من فضل في بعث العرب وبعث العالم من جديد ، وكان الحفل مشهوداً والمكان غاصّاً بالمجتمعيين ، ولقيت الكلمة حسن الاستجابة وحسن القبول .

في دار الأستاذ كامل الشريف :

أقام سعادة السفير السيد كامل الشريف حفلة عشاء في داره على شرف الوفد الضيف .

بين عمان وإربد :

كان يوم الجمعة ١٧/٨/١٩٧٣ م مخصصاً لزيارة «إربد» وهو البلد الإسلامي الرئيسي بعد عمان في الأردن ، عرف بوضوح السمة الإسلامية وقوة العاطفة والغيرة الدينية ، وهو يقع على الحدود الشمالية من الأردن ، وكانت رحلة تاريخية أثرية غنية بالمشاهد والمناظر ، والآثار «والعادات» ،

ومررنا في طريقنا بعد خروجنا من عمان بسهل يسمى البقعة ، وزرنا هناك مخيماً من مخيمات اللاجئين الفلسطينيين ، وهو عبارة عن بيوت حقيرة قامت على جدران رقيقة من قرميد أو صفائح من الإسمنت ، وفي القرية أسواق ودكاكين ، ويسودها جو من البؤس والفقر ، وبجوار هذه القرية مدرسة تبشيرية لتعليم الأطفال .

نزلنا عند مدينة «جرش» وهناك الآثار الرومانية العتيقة الباقية ، الناطقة بما بلغته المدينة في عهد الرومان من الزهو والأناقة والفن المعماري ، والولوع بالفنون الرياضية ، ومظاهر الفتوة حتى بلغت حد القسوة والوحشية ، والتفرج والتسلي بتعذيب الإنسان وإهانة إنسانيته ، ومناظر الاحتضار مما حدث عنه تاريخ الأخلاق وتاريخ المدينة في أوربا ، ولا يزال مدرج الألعاب الرياضية آثار ظاهرة ومقاعد مرصوفة وأعمدة شامخة ، ومن المدينة طرق مرصوفة تؤدي إلى الملعب المدرج ، وشوارع مبلطة تنبئ عن عناية بالنظام وذوق رفيع بالهندسة .

وبعد ما خلفنا جرش وراءنا استقبلنا سهل آخر ، وفيه مخيم اللاجئين الفلسطينيين يسمى : «الشوف» ، ومررنا قبل أن نصل إلى إربد بمخيم آخر يسمى بمخيمات الحسن .

ارتسامات الحدود الشمالية :

تركنا «إربد» بجانب وواصلنا سيرنا إلى الحدود الشمالية حتى وصلنا إلى المنطقة الجبلية ، ووقفنا في قرية تسمى «أم القيس» وهنا استقبلتنا مرتفعات «الجولان» التي دوى اسمها في العالم في الأيام الأخيرة لأهميتها الاستراتيجية ، وما بيننا وبينها إلا واد عميق نحن واقفون على رأسه ، وفي هذا الوادي يجري نهر اليرموك منعطفاً ملتوياً كأنه حية تلتوي وتنساب ، واستعرضنا قصة اليرموك ، واثارت الأحزان وهاجت الذكريات ، وتنكأت الجروح ، وأنشدنا بيتي الشاعر الأندلسي صالح بن شريف الرندي :

حتى المحاريب تبكي وهي جامدة حتى المنابر ترثي وهي عيدان
لمثل هذا يذوب القلب من كمد إن كان في القلب إسلام وإيمان

وتقع في هذا الوادي قريتان عامرتان إحداهما على جنوب النهر والأخرى على شماله ، وكان لسورية سيطرة وحكم في الجهة الشمالية من النهر ومن مرتفعات الجولان إلى مسافة بعيدة ، وكان الأردن ولا يزال يحكم الجهة الجنوبية ، وزال الحكم السوري من المنطقة الشمالية في سنة ١٩٦٧ م واستولت إسرائيل على الجولان .

ولما شاهدنا مرتفعات الجولان بعيوننا عرفنا من الحقيقة والواقع ما لم نكن نستطيع أن نفهمه ولو قرأنا خمسين كتاباً ، إننا وقفنا مشدوهين أمام هذه التحصينات الطبيعية التي أكرم الله بها بلاد الشام وحصنها تحصيناً لا يتطرق بفضلها وهن إلى هذه البلاد ، التي ظهرت فيها العناية الإلهية من طرق شتى ، ولا يدخلها عدو من هذا الجانب إلا إذا جحد أبناؤها بهذه النعمة ، وهانت عليهم هذه الأرض التي تدر لبناً وعسلاً ، ومثلت دوراً رائعاً بناءً في الدعوة الإسلامية والفتح الإسلامي والحضارة الإسلامية ، وهانت عليهم ذمهم وأعراضهم ، إنها قلعة تعطي ولا تؤخذ ، وتسلم خيانة ولا تنزع عنوة ، وهي الآن في يد إسرائيل ، وتستطيع مدافعها أن ترسل قنابلها إلى إربد في جانب ، وإلى دمشق في جانب آخر .

وفي شمال الجولان بحيرة طبرية وعلى ساحلها المدينة الإسرائيلية ، المعروفة بطبرية ، وهي تبدو واضحة جلية للواقف على قلل أم القيس ، ومن شاطئ نهر اليرموك الواقع في المنطقة الأردنية يستطيع الناظر أن يرى المنطقة السورية ، التي استولت عليها إسرائيل ، وهي لا تبعد عنها إلا بضعة كيلو مترات ، وفيها تقوم القرية المعروفة السورية «الحمة» مع منائر مساجدها الخالية ، وبيوتها الخاوية ، وقد أنشأت إسرائيل في تلك الجهة شوارعاً وطرقاً كما اقتضت الضرورة .

رجعنا محزونين بهذه الزيارة وأدركنا صلاة الجمعة في أحد جوامع المدينة الكبرى ، وقد خطب للجمعة خطيب كان بارعاً في خطبته ، ثم تغدينا في بيت أحد أعيان البلد ، واسترحنا قليلاً ، وصلينا العصر ، وخرجنا إلى قاعة المحاضرات وهي غاصة بالمجتمعين ، وفيهم عدد كبير

من السيدات المثقفات ، وتلقانا الحاضرون بتحيات إسلامية ، وهتافات حماسية ، وقلوب متلهفة دلت على روح البلد الإسلامية .

محاضرتي في إربد «نظرات إلى الإسلام» :

وكان موضوع المحاضرة «نظرات إلى الإسلام»^(١) ، وقد ذكرت أنواعاً من النظرات التي ينظر بها طبقات مختلفة من المسلمين إلى الإسلام وقيمه ، ودوره ومستقبله ، فمنهم من ينظر إلى الإسلام كدين ونظام لا محل لهما في هذا العصر «العلمي الذري» ، وأحسنهم من يعتقد أنه دين قد أدى رسالته ، وقام بدوره الإصلاحي في دنيا محدودة ، وعصر متخلف ، فأزال بعض العيوب الاجتماعية ، وحارب بعض العقائد الخرافية ، وأدخل بعض إصلاحات طيبة ، وكان لا يخلو من الفائدة في عصر لم ينتشر فيه العلم ، ولم تتقدم فيه المدنية ، ولم تكتشف فيه الوسائل الحديثة ، فمنهم من يقول متسامحاً متنازلاً «كثّر خير» وقد ساهم في التقدم البشرية ، وأسدى معروفاً ، ولكنه الآن أشبه ببندقية فارغة قد أفرغت شحنتها وأطلقت رصاصتها ، ومن قبيل إضاعة الوقت وإضاعة القوة أن نجربه في هذا العصر الذي بلغ القمة في المدنية والصناعة ، وفي العلم والسياسة والحكمة ، وهو عصر «الذرة» .

وناقشت هذه النظرة الخاطئة التي لا تنصف الإسلام ولا تفهمه ، ولا تفهم طبيعة هذا العصر وما يعاني من مشكلات وأزمات لا حل لها ولا مفتاح عند قادة الفكر وزعماء العصر ، ولا يعرف الدور الذي يستطيع الإسلام أن يمثله في إنقاذ الإنسانية ، وحل المشكلات وإعادة الأمور إلى نصابها .

قلت: وفيما يختص بالعرب فقد أخفقت جميع تجاربهم للنظم والفلسفات التي آمنت بها الشعوب المعاصرة ، وجربتها ، ونجحت بعض

(١) انظر هذه المحاضرة بكاملها في «محاضرات إسلامية في الفكر والدعوة للعلامة أبي الحسن علي الندوي» .

النجاح ، أما العرب فلم يفلحوا ولم تستقم أمورهم حين تبنا الحركة القومية أو النظام الاشتراكي ، أو الفلسفة الشيوعية ، وكانوا أسوأ حالاً من قبل ، وقد دلَّ ذلك على أن الله ربط مصيرهم بمصير الإسلام وعقد بينهما صلة خالدة لا تنقطع ولا تنفصم ، ويدل على أنهم أمة مختارة ذات الرسالة المعينة ، والأهداف المعينة ، وأنهم قد اختيروا لحمل رسالة الإسلام والمحافظة عليها والاحتفاظ بها ، والغيرة عليها ، وإيثارها على كل رسالة ، وأن مثلهم في ذلك كمثل التلميذ الحبيب المدلل الذي قد هُيِّئَ لأن يكون معلماً حاذقاً ، وعالمأ كبيراً كان فيه إمارات النبوغ والعبقرية ، فتشدد به عناية المعلم فلا يسامح في الإهمال والتغيب عن الكتاب أو المدرسة ، ولا يترك حبله على غاربه ، ولا يتسامح معه ويغض الطرف عنه كما يتسامح عن التلاميذ الأغبياء ، والشباب الغرباء ، ولقطاء الطريق ، وشذاذ الآفاق ، بل يعاقبه إذا أخطأ ، ويطلبه إذا غاب ، وينبهه إذا غفل .

وقد دلت الحوادث الأخيرة ، وما تعيش فيه الأقطار العربية من قلق وذعر واضطراب ، أنه لا ملجأ لها إلا الإسلام وإخلاص الدين لله ، ونبذ النفاق والحياة اللاهية الساهية التي تكثر فيها المهازل والملاعب والرخاوة والرقعة ، والاستهتار والمجون ، والإيمان بفلسفة اللذة والمنفعة ، وأن تعيش كما تعيش الشعوب والبلاد في حالة الطوارئ وعلى الحدود والشعور ، حياة تقوم على التقشف والاقتصاد ، والجهد ، والتهيؤ والاستعداد ، وإعداد العدة والعتاد لتحيا حياة شريفة كريمة ، وتستحق النصر من الله .

استقبلت الكلمة بالتأييد والتحسين وسجلت . وخرجنا من إربد ونحن نسمع الكلمة المسجلة في الأسواق والبيوت .

وفاة القائد عبد الله التل وتعزية أسرته :

فوجئنا ونحن ندخل عمان نبأ وفاة القائد الإسلامي الكبير المجاهد الأستاذ عبد الله التل ، وقد قابلته في ١٩٥١ م في بيت الأستاذ محمد علي الطاهر ، وكنا نسمع أخبار جهاده في ميدان فلسطين وحسن بلائه واستقامته

في قضية فلسطين ، وهو كاتب مؤلف أيضاً ، وحزناً لهذا النبأ ، والقائد عبد الله التل من أبناء إربد ، ورأينا من حقه علينا وعلى كل مسلم يقدر جهاده ووفاء لمبدئه وللإسلام أن نعزي أسرة الفقيده ، ونجلس مع إخوته ساعة ، فزرناهم في بيتهم وعزيناهم في فقيدهم الكبير ، وتحدثنا عن مواقفه ، وأبدينا مشاعرنا نحوها .

وسائل الإضعاف المعنوي والخلقي :

رجعنا إلى عمان ونحن نمر كل مرة ذهاباً وإياباً بمدينة الملاهي التي تقوم في إحدى ضواحي العاصمة ، ونعجب لوجودها في هذا الطرف القاسي الذي أخذ فيه بخناق الشعب ، ويتوقع حالة حرب في كل وقت ، وسمعنا أن في المدينة سبعة أحواض للسباحة والاستحمام أو «مسبح» (Swimming pools) يختلط فيها الفتيان بالفتيات ، وكان أحد هذه الأحواض متصلاً بفندق عمان ، الذي كنا نازلين فيها ، وفي المدينة عدد كبير من دور السينما ، ومراكز التسلية الحرة ، والبلد واقف على فوهة بركان لا يدري أحد متى ينفجر ، وهذا وضع البلد السياسي والحربي والديني .

وقد علمنا أن القوة الخارجية الأجنبية تغذي هذا الوضع المنافي لروح الإسلام الجدية المتقشفة ، وتشجع على استمراره وتوسعه ، وقد اقتنعنا بدراسة أوضاع الأقطار الإسلامية ، وما تجتاحها من موجات التحلل والانهار الخلقي ، أن لأمريكا قسطاً كبيراً في اتجاه هذه الأقطار إلى ما يجعلها فريسة لهذه الغزوات الفكرية والخلقية ، وتلجئها إلى أن تعيش عيلاً على أمريكا متطفلة على فتات مائدتها ، وأن تبقى منافسة ضعيفة مهلهلة لإسرائيل الفتاة الدافقة بالحيوية والرجولة والنشاط ، وأن للفتايات كذلك مصالح في بقاء هذه الأوضاع واستفحالها .

في كهف أهل الكهف :

زرنا يوم السبت ١٨/٨/١٩٧٣ م مغارة أهل الكهف في إحدى ضواحي عمان في قيادة العالم الأثري الكبير الأستاذ رفيق وفا الدجاني المساعد الفني لمدير الآثار العامة في الأردن ، وهو مقتنع كل الاقتناع بأنه هو المكان الذي

أوى إليه أصحاب الكهف الذين جاءت قصتهم في سورة الكهف ، وفي المصادر المسيحية ، وكتب التاريخ والأدب ، ولما كنت عالجت الموضوع في كتابي «الصراع بين الإيمان والمادية» أو «تأملات في سورة الكهف»^(١) ، ورجحت ما ذهب إليه الأكثرون أن هذه القصة وقعت في مدينة «أفسوس» أو «أفيسس» وهي إحدى المدن الآيونية الاثني عشرة من الأناطول على الجانب الجنوبي من نهر قسيطرة ، على مسافة ٦٠ كم من أزمير في آسيا الصغرى^(٢) ، وهي الآن في تركيا ، ويسمى : «طرسوس» ، وأن كهفهم الذي آووا إليه كان في نواحي هذا البلد في جبل قريب كان يسمى بـ(Anchilis) والأستاذ يلح على أن المكان هو كهف الرجيب الذي كنا نزوره ذلك اليوم ، وهو يبرهن على ذلك بدلائل وآيات لها قيمتها العلمية ، والأثرية الكبيرة ، وقد استقصاها في كتابه «اكتشاف كهف أهل الكهف» وقد أهدى إلينا نسخة منه ، وطاف بنا الأستاذ الفاضل على هذه المغارة ووقف بنا على الآثار والشواهد التي تدل على أنه هو المكان الذي ينطبق عليه ما جاء في وصفه في القرآن ، وقد جعلنا بحثه العلمي واطلاعه الواسع على أن أستعرض ما كتبه وأستأنف النظر فيه ، وأستفيد بمعلوماته ، والحق قديم ، والعلم دائماً في حاجة إلى تجديد وزيادة ، وكهف الرجيب يقع على مسافة ٨ كم جنوب شرقي عمان ، ويقول الأستاذ أنه ذهب إلى ذلك المقدسي وياقوت والسائح الهروي والبيروني وغيرهم ، والله أعلم وعلمه أحكم ، ولا شك أن الأستاذ ثروة علمية غالية للمملكة ، يجب أن تقدر وتستثمر ، وهو من كبار المخلصين لفنه ، ومن كبار علماء الآثار في الشرق العربي .

تغدينا في ضيافة النائب المحترم الشيخ عبد الباقي جمو نائب الزرقاء في المجلس النيابي في بيته العامر بالزرقاء ، وقد حضر الغداء عدد كبير من العلماء وأعيان البلد وكبار الأساتذة .

(١) طُبِعَ هذا الكتاب في دار القلم بالكويت ودمشق ، ودار ابن كثير بدمشق .

(٢) راجع الكتاب ص: ٢٦ .

في الندوة العلمية :

كان اليوم يوم ندوة علمية كانت أفضل ثمار هذه الجولة ، وقد انعقدت في ٨/٣٠ الساعة الخامسة مساءً في قاعة الكلية العلمية الإسلامية ، حضرتها نخبة من الأساتذة الكبار والمثقفين وفضلاء البلد ، والمعنيين بالثقافة الإسلامية . وأدارها الأستاذ محمد إبراهيم شقرة بلباقة ومقدرة ، وشارك كاتب هذه السطور ، والأستاذ أحمد محمد جمال ، والأستاذ كامل الشريف ، وكان العنوان : « دور الشباب المسلم في المجتمعات المعاصرة » وإلى القارئ الكريم الأسئلة التي وجهها المدير الفاضل ، ونص ما أجاب به كاتب هذه السطور .

أسباب حيرة الشباب وعلاجها :

وقد قدم الأستاذ محمد إبراهيم شقرة للندوة مقدمة قيمة صور فيها واقع الشباب ووقوعهم فريسة لحيرة تورطوا فيها ، وصور العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه تصويراً دقيقاً شاملاً ، تعرض فيه للطاقات والفلسفات المتنافسة التي تتوزع وتتحكم فيه ، ثم وجه السؤال الأول وهو :

«أستاذنا ، العالم الإسلامي بأسره اليوم يعيش حيرة مردية ، عقيدة وتصوراً وسلوكاً ، وأبرز ما تكون هذه الحيرة في الشباب المسلم في بلادنا خاصة ، فنريد أن نعرف أولاً ، ما هي الأسباب التي خلقت هذه الحيرة أو ساعدت على وجودها؟» .

وكان جوابي على ذلك كما يلي منقولاً من الشريط المسجل بعد تنقيح وتهذيب :

يسعدني جداً أن أكون موضع ثقة في هذه الندوة العلمية ، وأن يوجه إلي وإلى زملائي هذا السؤال الذي هو في صميم الواقع ، وهو تصوير واقعي للواقع الذي نعيش فيه .

إني أصارحكم - أيها السادة - إني كنت مستغرباً جداً إذا لم يكن الشباب الإسلامي في حيرة كما تجدونه وتشعرون به ، إن الشجرة لا تلام على

ثمرتها ، إن في إمكان البستاني أن لا يغرس شجرة من الشجرات ولكن ليس من المعقول وليس من الطبيعي أنه إذا غرس شجرة معينة ، ثم سهر عليها ، وغذاها ونماها ، وسقاها وأحيا ليالي متوالية ، ووقف في وهج الشمس ، وفي البرد القارس ليحرس هذه الشجرة ، ولتؤتي أكلها بعد حين ، ثم إذا آتت أكلها الطبيعية لامها ونزل عليها غضباً وأنكر منها هذه الثمرة ، هذا شيء غير معقول وغير طبيعي ، لأن طبيعة الثمرة هي طبيعة الشجرة منذ خلق الله هذا الكون ، ومنذ خلق هذه الشجرة ، فشجرة الزيتون هي ستعطي ثمر الزيتون وشجرة الرمان ستعطي الرمان ، وهكذا .

إن من أعظم الأسباب في هذه الحيرة التي يعانيها الشباب المسلم بصفة خاصة وشباب العالم بصفة عامة ، هو التناقض في التوجيه والإعلام والتربية ، تناقض بين ما ورثوه وبين ما يعيشونه ، وبين ما يلقنونه تلقيناً وبين ما يطلبه منهم علماء الدين ، هذا التناقض العجيب الذي سلط عليهم ومنوا به هو السر في هذه الحيرة ، هذه الحيرة المردية ، هنالك عقائد آمنوا بها كمسلم ولد في بيت إسلامي في أسرة إسلامية ، ونشأ على كثير من العقائد وتلقاها بوعي أو بغير وعي ، ثم إنه نشأ في بيئة دينية تؤمن بمبادئ الإسلام ، وقرأ التاريخ الإسلامي - إذا أكرمه الله بذلك وتست له هذه الفرصة الكريمة - وكان سعيداً بوجوده في بيئة واعية دينية ، ثم سبق - ومعذرتي إلى اختيار هذه الكلمة ، لأنه لا يزال في سن مبكرة وليس له خيار - إلى دور ثقافة يسمع فيها من أولئك الأساتذة - الذين يجلهم ، لأنهم أصحاب اختصاص وأصحاب زعامة في كثير من العلوم - كل ما ينفض ما أبرمته البيئة ، وكل ما غرسته في قلبه وعقله من التربية الإسلامية . يسمع ويرى ما ينفي كل ذلك ، أو ما يقلل قيمته على الأقل ، فيقع في تناقض عجيب وفي صراع فكري عنيف ، وهذا الصراع الفكري يدوم معه إلى أن يشاء الله ، أو تحدث معجزة ، إنها معجزة حقاً في هذه البيئة التي نعيش فيها ، صراع من أدق أنواع الصراع ومن أصعب أنواعه ، الصراع بين القوى المتعارضة ، إنه قد يواجه الصراع في ساحة القتال ، ومدة ساعة القتال قصيرة وإن طالت ، ولكن هذا الصراع يعالجه دائماً ، إنه يعالجه في

المسجد ، ويعالجه في المدرسة ، ويعالجه في البيت ، ويعالجه فيما بينه وبين نفسه ، هذا الصراع المرير الهائل العميق يتلقى من مؤسسة «الإعلام» ومؤسسة الصحافة بالمعنى العام ، ومن التلفزيون الذي جاء حديثاً ، يسمعون إذاعات وأحاديث وبرامج تقضي على البقية الباقية من آثار التربية القديمة ، وتحدث فيهم ثورة فكرية وقلقاً نفسياً ، والصحافة التي هي «صاحبة الجلالة» في نظر كثير من الناس تقدم إليهم في أول النهار الغداء الفاسد العفن ، والمواد المثيرة المهيجة للعواطف ، قبل أن يكسر الضُّفراً على تعبير إخواننا السوريين ، وقبل أن يتلو شيئاً من القرآن ، فأول ما يقع عليه نظرهم صورة عارية لفتاة ، وعناوين مثيرة للغرائز ، أو مقالات مثيرة للشكوك مزعومة للإيمان والثقة ، فيتلقون هذا في رغبة ونهامة ، وفي شوق واستجابة ، إنه يقع في أيديهم كتب علمية لها عناوين هائلة ، وأسماء مرعبة صادرة من أناس آمنوا بفضلهم وعبقريتهم ، فيرون ما يشككهم في الدين ، يشككهم في التاريخ الإسلامي ، يشككهم في مصادر الشريعة الإسلامية ، وحتى في مصادر اللغة والأدب الأولى ، ويشككهم في صلاحية هذه الأمة ، وفي خلود الرسالة التي يحملونها ، يشككهم في صلاحية اللغة العربية ، فيتلقون هذا المزيج العجيب ، وهذه الخميرة العجيبة ، من أفكار ومبادئ وإغراءات ومن نظريات علمية ، ويقعون من كل ذلك في حيرة لا تعدلها حيرة ، فخليق بكل هذا أن يوقع الإنسان - وإن كان ناضج الفكرة ، مختمر العقل حصيف الرأي - في حيرة ، فكيف بالشباب الغض الناعم ، وكيف لهذه البراعم الناعمة التي لم تتفتح بعد ، كيف يرجى منهم أن يقفوا أمام التيارات المتصارعة؟!

إن مثل ذلك - أيها الإخوان السادة - كمثل عجلة أو مركبة ركب فيها فرس في الأمام وركب فيها فرس في الورا وكلاهما قويان ، فكما أن هذه العجلة من المعقول جداً أن يكون ركابها في حيرة من أمرهم ، هذا يجرها إلى الأمام ، وهذا يجرها إلى الورا ، فكذلك الشباب يتأرجحون في أرجوحة يميناً وشمالاً .

إن الأدب الذي لم يزل يواجهنا منذ خمسين سنة على الأقل من العواصم

العربية الكبرى ، التي كان لها التوجيه ، وكانت لها الزعامة الفكرية والدينية ، وهذه غرست في قلوب الناشئة وفي قلوب الشباب ، بل في قلوب كثير من الكهول بذوراً من الشك والاضطراب ، تشككوا حتى في وجودهم ، تشككوا في كل ما تواتر واستفاض وأصبح من قبيل البديهيات ، إن هذه الكتب التي أريد من ورائها رزق أو شهرة ، أو زعامة فكرية ، أو هتاف أو تصفيق حاد ، إن هذا كلها غرست في قلوب شبابنا الشك والحيرة والتناقض ، فأنا لا أستغرب هذا الوضع ، وهذا هو السبب الرئيسي والسر في حيرة الشباب .

ثم وجه الأستاذ سؤالاً ثانياً وهو «ما هو العلاج الصحيح لهذه الحيرة التي يقع فيها الشباب»؟ وكان جوابي على ذلك : «إنني أعتقد أن أول خطوة نخطوها نحو إنقاذ الشباب من هذه الحيرة المردية هي توحيد نظام التعليم ، ولستم في حاجة إلى شرح هذه النقطة ، إن المعسكر التعليمي موزع بين قسمين : المعسكر الديني ، والمعسكر اللاديني أو العلماني ، أو المعسكر القديم ، والمعسكر الجديد ، وهذا الثنوية أو الازدواجية في التعليم هو السبب الأكبر في خلق هذه الحيرة التي يعيشها الشباب ، فأول خطوة نخطوها إلى الغاية الصحيحة لإزالة هذه الحيرة ، هو تنسيق غايات التعليم ومواد التعليم ، لا أعني بالتنسيق بين تعليم قطر وبين تعليم قطر آخر ، إنما أعني به التنسيق في تعليم القطر ، فهناك كما قلت تناقض في المواد الدراسية ، فالذي يبينه تعليم يهدمه تعليم آخر ، والعلوم التي لم تكن لها صلة بالعقائد أصبحت لها اتصال بالعقائد ، وما أصبح التعليم مجرداً ، إن اعتقاد أن من التعليم ما هو محايد وما هو نزيه كل النزاهة ، وما هو بعيد كل البعد عن التأثير في العقيدة قد أصبح نظرية قديمة ولا نصيب لها من الصحة ، فالخطوة الأولى الخطوة الثورية الجذرية هي إحداث تنسيق في نظام التعليم . فلا قديم ولا جديد ولا ديني بالمعنى اللاهوتي ، وبالمعنى الكهنوتي المسيحي الأوروبي ، لا بالمعنى الإسلامي الصحيح ، فلا تعليم لاهوتي ولا تعليم دنيوي أو زماني أو علماني ، بل التعليم وحدة لا تتجزأ ،

إنما ينقسم بين غايات ووسائل ولا بد أن تكون بين هذه الوسائل وحدة تربطها وتخضعها للغاية الأساسية .

ثم إزالة هذه التناقض الذي يعبر عنه لسان الشريعة ، ولسان القرآن بكلمة: «النفاق» إن هذا يحتاج إلى قلب نظام التعليم رأساً على عقب ، يعني إحداث نظام تعليمي كوحدة متكاملة متناسقة ، وهذا يحتاج إلى ثورة عارمة ، إلى ثورة جريئة ودقيقة وشاملة ، ويحتاج طبعاً إلى أناس عندهم الأصالة الفكرية ، لا يعيشون متطفلين على مائدة الغرب . إنه يحتاج إلى الاجتهاد في المواد الدراسية ، وهذا يحتاج طبعاً إلى مشاريع عملاقة ، وإلى جهود كبيرة واسعة النطاق عميقة الجذور ، ويحتاج كذلك إلى أن تتبناها الحكومات الإسلامية والمجامع الإسلامية الكبيرة ، فإذا نجحنا في تطوير نظام التعليم تطوراً جديداً ، وإذا نجحنا في إزالة النفاق عن هذا المجتمع الذي نعيش فيه ، إذاً من المؤمل أن ننقذ الشباب من هذه الحيرة المردية .

ثم وجه الأستاذ سؤالاً ثالثاً وهو: «لعل أستاذنا أبا الحسن يبين لنا الدور الإيجابي الذي ينبغي للدولة أن تقدمه لهذه المؤسسات؛ حتى يتم التناسق الصحيح بين هذه المؤسسات كلها» .

وكان جوابي على ذلك :

في الحقيقة أن دور الدولة عظيم وحاسم في إزالة هذه العوامل الهدامة وفي رد المجتمع إلى حياة سليمة لا صراع فيها ولا حيرة ، ولكن هذا يتوقف على أن تكون عند الدولة فكرة واضحة - لست أعني دولة دون دولة ، ولا أعرض بدولة ، إنما هو موضوع علمي - فكرة واضحة عن الدين الذي تؤمن به وتدين ، وعن الأهداف التي تتبناها وتريد أن تعيش هذه الأهداف ، ولا تعيش فقط بل تنمو وتزدهر ، وإذا آثرنا التعبير الإسلامي الديني ، قلنا: «الإيمان والعقيدة» إيمان راسخ ، وعقيدة جازمة بفضل

الإسلام أو بفضل الأهداف التي تدعو إليها وتعيش لها ، وأن تكون متمسكة بمبدأ الهداية لا الجباية^(١) .

ثم الإخلاص والعزم الصادق والتضحية التي لا غنى عنها ، هذه كلها عوامل لوجود بيئة مناسبة أو الأجواء المناسبة لنمو الشخصية الإسلامية وإكمالها ووصولها إلى الغاية المطلوبة .

ثم ختم الندوة بالسؤال الأخير وهو: ونترك في الختام التعليق على هذه الخطوة الأخيرة للأستاذ أبي الحسن صاحب التجارب الكثيرة التي مر بها في دور الشباب والكهولة ، وهو الآن ، في دور الشيخوخة ، ولا بد أخيراً من نصيحة فيها إلى الشباب ببارك الله فيه .

قلت: لست متشائماً ولا يائساً من دور الشباب ومن صلاحيتهم ومن حرصهم على أن يعملوا شيئاً في مجال الدعوة الإسلامية ، والفكرة الإسلامية ، وفي أن يمثلوا دورهم كشباب مسلم في هذا المعترك الفكري الذي لم يشاهد تاريخ الإنسانية معتركاً فكرياً مثله ، إن الشباب طبقات وأقسام كثيرة وليس هناك طراز واحد من الشباب ، إننا شاهدنا عدداً كبيراً من الشباب يتلهفون شوقاً إلى أن يلعبوا دورهم ، وهم في الاستعداد التام وعندهم التألم الشديد مما وقع حولهم ، إن هؤلاء الشباب هم أمل اليوم وجيل المستقبل ، وفي الحقيقة أن الشباب هم الذين يستطيعون أن يحولوا هذا التيار ، وعندي من المعلومات ما تؤكد لي أن في الشباب مجالاً واسعاً للعمل الإسلامي والفكر الإسلامي ، وعندهم قلق والقلق أول خطوات النمو والتقدم والتحسين ، إن الشباب قلقون اليوم ، وإن الحضارة الغربية قد عجزت عن تسليتهم وإرضائهم ، وإن هنالك فراغاً لم يملأ ولا يمكن أن يملأ كما تفضل الأستاذ كامل الشريف ، إن هنالك ديناً واحداً يستطيع أن يملأ الفراغ الهائل الذي أحدثته أوروبا بين القلب والروح والجسم والمادة ،

(١) وتمثل هذه الفكرة خير تمثيل جملة مأثورة عن سيدنا عمر بن عبد العزيز يخاطب بها أحد عماله الذي شكوا إليه انتشار الإسلام ، والنقص في الجزية: «ويحك! إن محمداً ﷺ إنما بعث هادياً ولم يبعث جابياً» .

وهذا من خصائص الحضارة الغربية التي لها تجارب خاصة ، ومراحل معينة مرت في رحلتها الطويلة ، ولكن - مع الأسف الشديد ومن سوء حظ الإنسانية - لمآلت القيادة إلى أوروبا أثرت هذه التجارب في تفكير الأمم التي كانت في عزلة عن هذه التجارب ، تجارب مجتمع خاص ، كان لدينه طبيعة خاصة ، وقد حدث فيه صراع بين الكنيسة والحكم ، وصراع بين تعليم الدين ، وصراع بين الكهنوت والعقل السليم والعلم الحديث ، هذا كله من تجارب الغرب ، وكان الشرق غنياً عن هذه التجارب ، لم يكن منها في عير ولا نفير ، ولكن فرض الغرب وفرضت الثقافة الغربية هذه التجارب وانطباعات هذه التجارب ، ومردود هذه التجارب ، وقيمة هذه التجارب ، فنظرية «الدين قضية شخصية» و«الفصل بين الدين والسياسة» ، هذه كلها تجارب الأمم الأوروبية لظروف خاصة ، وأجواء خاصة وللطبيعة المسيحية التي دانت بها أوروبا ، ولكنها قد أشركت فيها الشعوب الشرقية من غير سبب ومن غير مبرر ، فهذا الفراغ موجود في الشباب ، والشباب بدؤوا يشعرون بهذا الفراغ ، إن ما نشاهده من انحرافات وشذوذ ومن مبالغات ومن تطرف في حياة الشباب ، كل ذلك شعور لهذا الفراغ ، وإنني أستطيع أن أقول في ضوء تجاربي ومشاهداتي في الشرق وفي آسيا: إن الشباب فيهم قابلية واستعداد كبير ليكونوا قادة حركة جديدة ، وليخوضوا هذه المعركة .

ولكننا نعيش في عزلة عن الشباب وعندنا كثير من سوء تفاهم ، ومن إساءة ظن ومن جهل للوضع الذي يعيش فيه الشباب ، فإذا ملئت هذه الفجوة بين الكهول والشباب ، وبين الدعوة إلى الدين وبين الشباب الجامعيين والشباب المثقفين بالثقافة الغربية ، يمكن أن نجرَّ عدداً كبيراً ونجعلهم مقتنعين مستجيبين لهذه الدعوة متحمسين لها ، ولكن ذلك يحتاج إلى مخططات دقيقة عميقة ، مخططات علمية مدروسة ، يحتاج ذلك إلى مكتبة جديدة ، يحتاج ذلك إلى أسلوب جديد في الحديث مع الشباب ، يحتاج ذلك إلى الحكمة التي أشار إليها القرآن بقوله: ﴿ اَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَحَدِّثْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ يحتاج ذلك إلى أن تكون عندنا أقلام قوية بليغة ، وأن تكون عندنا تلك المقدرة البيانية والطلاوة

الأدبية ، وحلاوة التعبير التي لا يمكن لدعوة أن تشق طريقها إلى الأمام وأن تنفذ في عقول الشباب وفي نفوسهم عن غير هذا الطريق .

إننا نرى - مع الأسف الشديد - أن كثيراً من علمائنا الأفاضل يعتبرون التضلع من آداب اللغة ، والحصول على تلك المقدرة البيانية والأسلوب البليغ الذي يدخل إلى قرارة النفوس من فضول واجبات العلماء وعلى هامشها ، وقد يعتبرون ذلك ابتعاداً عن وظيفتهم وانحرافاً عن جادتهم ، مع أننا نرى أن القرآن نوه بهذه الحقيقة ، وكلنا نؤمن أن الله سبحانه وتعالى هو أغنى الأغنياء ، ولكنه أنزل كتابه في أسلوب معجز ، وفي لسان عربي مبين ، ولم ينزل في لسان عربي مبين فحسب ، بل نوه بهذه الناحية في غير موضع من مواضع القرآن ، فقال : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٦﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٧﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ فمعنى ذلك أن ناحية اللفظ وناحية الأسلوب وناحية البلاغة ناحية مهمة ، وإذا رجعنا إلى تاريخ الإصلاح والتجديد رأينا أن الذين كانوا على قمة الإخلاص وعلى ذروة الانقطاع إلى الله وإلى الربانية الصادقة ، كانوا لا يستهينون بهذه الناحية ، إنما كانوا يهتمون بها كل الاهتمام ، ولا تضرب المثل بالنبي ﷺ في هذه المناسبة لأنه ﷺ أفصح الفصحاء وأبلغ البلغاء من غير شك وهذا معروف عند الجميع ، ولكنني أضرب المثل بسيدنا علي بن أبي طالب ، إنه كان في قمة من البلاغة ، ونواصل سيرنا إلى آخر القرون الإسلامية ، فنرى أن من تبوأ القيادة أو الزعامة في الدعوة الإسلامية كانوا على جانب عظيم من البلاغة ومن فهم نفسية المخاطبين ، إنني في الحقيقة أُؤخذ بالحيرة إذا قرأت خطب سيدنا عبد القادر الكيلاني ، فأنا أرى أن هذا الرجل الذي اشتهر في العالم كله ، وفي جميع العصور بزهده وبقناعته ، وبربانيته ، وبإشراقه وتبته ، إنه يخاطب الجيل المعاصر والمجتمع الذي كان يعيش فيه في بغداد البلد الذي ولد فيه الحريري وولد فيه ابن الجوزي ، وولد فيه الصابي وولد فيه هؤلاء الشعراء وتغنى فيه البحتري ، والشريف الرضي ، والمتنبي ، وأبو تمام ، والمعري .

كانت بغداد عاصمة عالم الإسلام ومركز الخلافة العباسية ، كانت محطة

كل عبقري من جميع الأصناف ، فسيدنا عبد القادر الكيلاني نراه يخاطب الجيل المعاصر في بغداد بلسان يحلق في البلاغة ، ويخاطبهم بأسلوب ساحر ، بأسلوب يبلغ إلى الأعماق ، بأسلوب لا تزال له الصولة إلى الآن ، وإذا قرأنا خطبه التي دوّنها المدونون ، وحرصوا على نقل اللفظ الصحيح لاعتقادهم أن ما يصدر من القلب يدخل في القلب ، وهذا كان من دواعي الحرص على نقل الكلام بالحرف .

وهذا كله يعطينا الفكرة عن أهمية الأدب والأسلوب . إننا إذا أردنا أن نوجه الشباب التوجيه الإسلامي العميق ، فعلياً أن نتسلح لذلك ، وأن نعد له عدته ، وأن نستوفي تلك الشروط التي كانت لكل زمان ومكان ، وهي لا تزال لها قيمتها وأهميتها وتأثيرها ، وهو إحداث مكتبة إسلامية علمية ، تلائم عقلية الشباب وتؤثر فيها ، ويتقبلها الشباب بقبول حسن بل يتشوقون إليها ويمدون إليها يدهم ، فإذا وفينا هذه الشروط فإني واثق بأن الشباب مستعدون ليكونوا لا مؤمنين بهذه الفكرة فحسب ، بل دعاة متحمسين لهذه الفكرة والدعوة ، متفانين فيها ، متهاكين عليها ، لا يعدلون بها شيئاً» .

ومساء هذا اليوم حضر الوفد حفلة العشاء التي أقامها سعادة الأستاذ محمد ميمش القائم بالأعمال في السفارة السعودية في عمان ، تكريماً للوفد ، وحضرها عدد كبير من الأعيان والفضلاء والشخصيات الإسلامية ورجال السلك السياسي .

من عمان إلى الكرك :

كان يوم الأحد ١٩/٨/١٩٧٣ م من أزخر الأيام في الأردن بالزيارات والتنقلات ، وأغناها مشاهدات أثرية وتاريخية .

توجهنا في الساعة السادسة والنصف صباحاً إلى الكرك ، يرافقتنا الأستاذ عبد خلف وكيل الوزارة ، وله خبرة فائقة واطلاع واسع على المشاهد والآثار ، والسيرة والتاريخ ، وهو كثير التردد إلى هذه الأمكنة ، لأن قريته تقع بجوار هذه الأمكنة ، وزادت هذه الزيارة قيمة علمية وأثرية مرافقة

الأستاذ رفيق وفا الدجاني العالم الأثري الكبير الذي سبق ذكره في زيارة الكهف ، فكانت زيارة تجمع بين المتعة و التسلية ، والدراسة والعبرة ، فسَّرت لنا شيئاً كثيراً مما قرأناه في كتب السيرة والتاريخ ، وكتب الجغرافية والآثار ، لم نكن لنعرف حقيقته وما اكتنفه من أجواء وحوادث ، لو لم نشاهد هذه الأمكنة التي تتصل بهذه الحوادث والحروب والمعارك مشاهدة عيان تحت قيادة أصحاب الاختصاص ودلالاتهم ، ولو قرأنا خمسين كتاباً في هذا الموضوع فضلاً عن تأثير المكان في النفس والقلب ، وما يوحيه من معان ويبعثه من شعور ، وقديماً قالت العرب : «ليس الخبر كالمعاينة» .

حديث إلى الجنود المرابطين :

بدأنا بزيارة مركز القوات المسلحة لإحدى الدول الإسلامية الكبيرة ، وقد طلب منا ونحن في عمان أن نزور هذه الثكنة ، ونخاطب الجنود المرابطين في ثغر كبير حسّاس ، وقد شكرنا هذه الثقة العالية والتقدير الكبير من قادة هذه المنطقة ، وكانت أول تجربة لي في حياتي أزور فيها القوات المسلحة لحكومة إسلامية كبيرة ، وأخاطب فيها المجاهدين المرابطين الذين وهبوا نفوسهم وأجسامهم للدفاع عن الإسلام ، والبلد الإسلامي ، وللذود عن حرّات المسلمين والمقدسات الإسلامية ، ولمواجهة أي خطر يأتي من قبلهم .

ولما اصطف الشباب المسلحون ، وحيونا بتحية إسلامية ، وكان أول منظر رأيته في حياتي غمرتني موجة من سرور وإيمان ونشوة لم يكن لي عهد بها قبل هذا اليوم ، وأخذتني هزة لم أعرفها من قبل ، فأدمعت عيني وفتقت قريحتي ، وتكلمت بلسان القلب قبل أن أتكلم بلسان الفم فقلت :

«إنني نشأت في بيئة دينية علمية ، نشأت بين العلماء وقادة الفكر وحملة الأفلام ، وحضرت حفلات ونوادي يكثر فيها عدد العلماء والخطباء ، وتزينها شخصيات فريدة ، تتزعم العلم وتقود المسلمين ، ولكنني لم أر كالיום تهتز نفس ولم ترق ولم تخشع ، ولم أشعر بسعادة ولذة كما شعرت بها اليوم ، وإنني لو استطعت - ولو سمح لي - لحاولت أن أقبل يد كل

جندي منكم ، فإنها اليد التي تناضل عن الإسلام ، وتأخذ السلاح لتذود عن الإسلام والمسلمين ، وقد قال الله تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ﴾ [النساء : ٩٥] ، وأنتم مرابطون حارسون للبلاد الإسلامية ، حارسون لكرامات المسلمين وأعراض نسائهم وحياة أطفالهم ، وقدسية مساجدهم ، وهدوء مدارسهم ومؤسساتهم الدينية التي يشتغلون فيها بعبادة الله وذكوره ، والدعوة إلى الله ، ونشر العلم ، وتعليم الفرائض والسنن ، وتزكية الأخلاق ، وتهذيب النفوس ، فلولا أنتم أيها المرابطون على الشغور الإسلامية ، ولولا رباطكم ومخاطرتكم بنفوسكم وأرواحكم ، ولولا فتوتكم وفروسيتمكم لما تمكن المؤذنون برفع صوتهم بالأذان ، ولما سعى المصلون لأداء الفريضة إلى بيوت الله في هدوء وأمان ، ولما كان لنشر العلم ونقل الأمانة من جيل إلى جيل مركز ومكان ، ولما استطاع الشيوخ والنساء والضعفاء والعجز أن يناموا نوماً هادئاً ، وأن يشتغل التجار بتجاراتهم ، وأهل الصنائع بصنائعهم ، فلکم فضل على كل شعار ديني ، واشتغال علمي ، وعمل مدني ، عرف الناس ذلك أم جهلوا ، وشكروه أو كفروا ، لذلك جاء في حديث أن رسول الله ﷺ قال : «عينان لا تمسهما النار : عين بكت من خشية الله ، وعين باتت تحرس في سبيل الله»^(١) . وجاء في حديث آخر : «رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها»^(٢) . وجاء في حديث آخر : «ما اغبرت قدما عبد في سبيل الله فتمسه النار»^(٣) . وفي حديث آخر : «الغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها»^(٤) . وقد سمي النبي ﷺ الجهاد ذروة سنام الإسلام ، فقد جاء في حديث صحيح أن النبي ﷺ قال لمعاذ بن جبل : «ألا أدلك برأس الأمر وعموده وذروة

(١) رواه الترمذي عن ابن عباس مرفوعاً .

(٢) متفق عليه .

(٣) رواه البخاري والترمذي والنسائي عن أبي عبيد مرفوعاً .

(٤) متفق عليه .

سنامه؟» قلت: بلى يا رسول الله ، قال: «رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد»^(١).

وحكيت لهم قصة من تاريخ الجهاد الإسلامي في شبه القارة الهندية ، لقائد دعوة التوحيد والجهاد في القرن الثالث عشر الهجري ، السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد ، وهي أنه لما رجع المجاهدون - تحت قيادة أميرهم «السيد أحمد» - من ساحة القتال في إحدى المعارك الكبرى ظافرين منتصرين ، وقد اغبرت وجوههم وثيابهم بالنقع ، حتى تقنعت وجوههم وتنكروا .

وقام الرئيس بهرام خان - من كبار المجاهدين - بالمنديل لينفض النقع عن وجه السيد الإمام ، فقال السيد: (مهلاً يا أخا الأفغان ، فإن هذا النقع هو الغبار الذي قال فيه النبي ﷺ: «لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم»^(٢) وما جئنا إلى هنا ، وما تحملنا المشاق إلا لأجل هذا الغبار ، فمهلاً يا أخا الأفغان مهلاً).

ومكث المجاهدون ، ولم ينفضوا هذا الغبار ذلك الحين^(٣).

ثم لفتُ نظر هؤلاء المرابطين إلى نقطتين هامتين: إحداهما إخلاص النية ، والتركيز على إعلاء كلمة الله ، وعلى أن يكون هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم ، ولا يكون من ورائه غرض إلا أن تكون كلمة الله هي العليا ، وذكرتهم بالحديث المشهور الوارد في الصحاح: «سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ، ويقاتل حمية ، ويقاتل رياءً ، أي

(١) أخرجه الترمذي وأحمد وابن ماجه عن معاذ بن جبل مرفوعاً في حديث طويل ، هذا وكنت قد ذكرت معنى هذه الأحاديث لضعف ذاكرتي ، ولما جاء دور تقييد هذه الكلمة رجعت فنقلتها بحرفها وزدت إليها بعض أحاديث في معناها .

(٢) في السنن .

(٣) اقرأُ القصة بتفصيلها ، وأخبار هذا الجهاد العظيم في كتاب سماحة الشيخ الندوي «إذا هبت ريح الإيمان» . طُبِعَ في «دار عرفات»: رائي بريلي ، الهند ١٣٧٩ هـ ومؤسسة الرسالة بيروت ١٣٩٤ هـ ، ودار ابن كثير في دمشق ١٤٢٠ هـ .

ذلك في سبيل الله؟ فقال رسول الله ﷺ: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»^(١).

والنقطة الثانية هي التحرز من المعاصي وعن كل ما يغضب الله ويمنع من نصره ، وقد جاء في كتاب وجهه الخليفة الراشد سيدنا عمر بن عبد العزيز إلى أحد قواده: «وأمره أن لا يكون من شيء من عدوه أشد احتراساً منه لنفسه ومن معه من معاصي الله ، فإن الذنوب أخوف عندي على الناس من مكيدة عدوهم»^(٢) إلى آخر ما حضرني وفتح الله به عليّ في هذا الموقف الرائع المثير .

وكان تأثير الحديث عميقاً في نفوس المجتمعين ، وقد سجل هذا الحديث ، وأعتقد أن قواتنا المسلحة في كل بلد إسلامي في حاجة ملحة إلى إثارة هذه المعاني ، والوعي الديني ، وما للجهاد من مكانة عند الله وعند رسوله ، وما للشهادة والشهداء من ثواب وفضل ، وما وعد الله عليه من الأجر الجزيل ، وقد كانت خسارة الإسلام والمسلمين فادحة بإهمال هذه الطاقة ، التي ليست فوقها طاقة ، وأصبحت الحكومات الإسلامية ، وقوتها الدفاعية والحربية ، والحكومات غير الإسلامية وقوتها الدفاعية والحربية في منزلة سواء ، إذا كان الفارق الأكبر بينها وبين حكومات الدنيا ، ما كان يمتاز به المسلمون من الإيمان والاحتساب ، والطمع في الأجر والثواب ، لذلك يقول الله تعالى مخاطباً للمسلمين الأولين: ﴿ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنْ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ .

وجاء دور الأستاذ الكبير أحمد محمد جمال وهو يمتاز باستحضار الآيات القرآنية ، وحسن الاقتباس منها وحفظ متون أحاديث كثيرة ، فأيد كلمته وزينها باستشهاد بالآيات المناسبة للمقام ، والأحاديث الواردة في

(١) حديث متفق عليه .

(٢) راجع كتاب «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» لسماحة الشيخ الندوي ج ١ ص ٥٦ دار ابن كثير بدمشق .

فضل الجهاد والرباط ، والشهادة في سبيل الله ، وتلقيت كلمته الفاضلة المؤمنة باستجابة من النفوس ، وحسن استماع وقبول ، وانصرفنا إلى مائدة الفطور ، وغادرنا المركز معجبين بكرم الضيافة ، مأخوذين بالروح الطيبة الإسلامية التي كانت تحلّق على هذا المكان والسكان ، داعين لإخواننا المرابطين بنصر الله وتأييده .

وقفة عند شهداء مؤتة :

واصلنا سيرنا إلى الأمام فوصلنا إلى مؤتة ، مكان المعركة الإسلامية الكبيرة المنسوبة إليها ، ونحن نقرأ أخبارها وقصص البطولة الفائقة ، التي تجلت في هذه الغزوة ، وهي على بعد اثني عشر كيلو متراً جنوب الكرك ، وسط سهل فسيح ، وكانت هذه الغزوة في السنة الثامنة من الهجرة النبوية^(١) . وكان عدد جيش المسلمين في هذه الواقعة ثلاثة آلاف رجل ، وعدد جيش الروم مع العرب المنتصرة ما يقرب من ألف رجل ، واستشهد في المعركة زيد بن حارثة قرب المكان المعروف الآن بالمشهد ، فحمل الراية جعفر بن أبي طالب ، فقطعت يده اليمنى ، فأخذ الراية بيده اليسرى ، فقطعت ، فاحتضن الراية بعضديه ، واستمر يقاتل حتى استشهد ، وبذلك لقب «بجعفر الطيار» ، و«ذي الجناحين» . فأخذ الراية سيدنا عبد الله بن رواحة ، وتقدم بها ، فقاتل حتى قتل ، ثم اصطاح المسلمون على خالد بن الوليد ، فأخذ الراية ، وقاتل قتال الأبطال ، حتى دخل الليل ، وانسحب الروم نحو الشمال ، وانسحب المسلمون نحو الجنوب ، «حتى أرخى الليل سدوله ، ووضع الجيشان السلاح إلى الصباح . أثناء ذلك أحكم خالد تدبير خطته ، فوزع عدداً غير قليل من رجاله في خط طويل من مؤخرة جيشه ، أحدثوا إذا أصبح الناس من الضجة ما أدخل في روع عدوه أن مدداً جاءه من عند النبي ﷺ ، وإذا كان ثلاثة آلاف

(١) اقرأ القصة بنصها وفصها والأسباب التي دفعت إليها في سيرة ابن هشام صفحة ٣٧٣ - ٣٨٩ ج ٣ طبع مصطفى البابي الحلبي مصر ، الطبعة الثانية ، وفي كتب المغازي والسير .

قد فعلوا بالروم الأفاعيل في اليوم الأول ، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً ، وإن لم يستطيعوا أن يصمدوا ، فما عسى أن يصنع هذا المدد الذي جاء لا يدري أحد عدته! لذلك تقاعس الروم عن مهاجمة خالد وسروا بعدم مهاجمته إياهم ، وكانوا أكثر سروراً بانسحابه ومن معه راجعين إلى المدينة بعد معركة لم ينتصر فيها المسلمون ، وإن كان حقاً كذلك أن عدوهم لم ينتصر عليهم فيها»^(١).

وقد وقفنا خاشعين أمام هذه الواقعة ومكانها ، مؤمنين بعلو همة هؤلاء الأبطال الذين جاؤوا من المدينة إلى مؤتة ، في منطقة مؤاب ، في بلد تحكمه أقوى دولة في الأرض ، وأغناها جيوشاً وميرة ، ووسائل حربية ، والمسافة بين المدينة ومؤتة (١١٠٠) كيلو متر تقريباً ، وقد قطعوها على ظهور الإبل والخيول ، وهم يدخلون في لهوات العدو وفي فكيه يفعل بهم ما يشاء ، وقد جاء في سيرة ابن هشام: «ثم مضوا حتى نزلوا معان من أرض الشام ، فبلغ الناس أن هرقل قد بلغ مآب من أرض البلقاء في مئة ألف من الروم ، وانضم إليهم من لخم وجذام ، والقين ، والبهاء ، وبلي مئة ألف منهم... فلما بلغ ذلك المسلمين أقاموا على معان ليلتين يفكرون في أمرهم ، وقالوا: نكتب إلى رسول الله ﷺ فنخبره بعدد عدونا ، فإما أن يمدنا بالرجال ، وإما أن يأمرنا بأمره فنمضي ، قال: فشجع الناس عبد الله بن رواحة ، فقال: يا قوم ، والله إن التي تكرهون لتي خرجتم تطلبون: الشهادة ، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به ، فانطلقوا ، فإنما هي إحدى الحسينين ، إما ظهور وأما شهادة ، قال: فقال الناس: قد - والله - صدق ابن رواحة ، فمضى الناس»^(٢).

وكان ما كان من أمر القتال وشهادة قادة المسلمين الثلاثة: زيد بن

(١) العبارة بين العمودين مقتبسة من كتاب «حياة محمد» للدكتور محمد حسين هيكل صفحة: ٣٧٧.

(٢) سيرة ابن هشام الجزء الثالث صفحة: ٣٧٥.

حارثة ، وجعفر بن أبي طالب ، وعبد الله بن رواحة ، رضي الله عنهم وأرضاهم ، وأجزل مثوبتهم ، وهذا نموذج من العقل المؤمن ، والتفكير الإيماني ، تحلى به المسلمون الأولون ، وتجرد عنه المتأخرون والمعاصرون ، فكان ما كان من الفرق الواسع الواضح الذي نكتوي بناره ونستظل بعاره .

وقد زرنا قبور القادة الثلاثة ، وهم دفنوا في مواضع شهادتهم ، وزرنا مسجد سيدنا جعفر بن أبي طالب ، وقفنا على قبره نستحضر بطولته الفريدة في تاريخ البطولات والشجاعة ، وقد بني هذا المسجد والقباب العالية فوق الأضرحة في العهد الهاشمي ، ولهذه المشاهد تاريخ يطلع عليه الزائر في النشرات التي تقدمها مصلحة الآثار ، وزرنا قبر رفيقيه ، وزميليه في البطولة والشهادة ، ودعونا لهم ، وصغرت في عيوننا نفوسنا واحتقرناها .

الآثار التاريخية في مؤتة :

وبجوار سيدنا جعفر وبمدخله متحف إسلامي لا يزال في دور التكوين ، وفي حالة بدائية ، عرضت فيه آثار ومخطوطات إسلامية ، أنشأته وتديره وزارة الأوقاف والشؤون والمقدسات الإسلامية ، وقيل : إن عمارة هذا المتحف يرجع تاريخها إلى زمن الملك الناصر ابن قلاوون ، قد بناه نائب السلطنة في الشوبك والكرك بهادر البدري المالكي الناصري في عام ٧٢٧ هـ ، وفي المتحف معروضات إسلامية من مجموعة الأستاذ محمود الأفغاني وغيره .

في الطريق إلى البتراء :

خرجنا من منطقة مؤتة متوجهين إلى «البتراء» و«معان» فمررنا في طريقنا بقرية «لحظة» وبها عين ماء معدني للرمل وإصلاح الجهاز الهضمي ، ومررنا بقرية «ضانة» ، وقضينا في الشوبك بعض الوقت ، وزرنا المدرسة الثانوية الزراعية فيها ، ومررنا بوادي «عربة» .

استرحنا بعد الغداء ساعة ، وصلينا العصر لنستعد لجولة أثرية سياحية

تحتاج إلى نشاط وهمة ، ثم توجهنا إلى البتراء^(١) المدينة القديمة التي يرجع تاريخها إلى آلاف من السنين ، وهي من إنشاء الأنباط العرب ، وهي مدينة محفورة في الجبال ، كالحجر ومدائن صالح ، ويلاحظ بعض الأثريين أنها أرقى صناعة ، وأبدع حفرأ ونحتاً وأكثر تنظيماً من آثار ثمود .

وقد سارت بنا سيارات في نفق طويل غير مسقف يرى فيه الإنسان السماء ، وفي طريق محفورة في الجبل يمتد على عدة كيلو مترات ، وينعطف ويلتوي مراراً ، ووقف بجانبه جبلان شامخان ، ثم دخلنا في مدينة منسقة تحتوي على جميع مظاهر المدنية من قصور وإيوانات ، ومحكمة وسوق ، وشوارع مبلطة ، وكلها حفر ونحت في الجبل ، ونحن نمشي في قيادة الأستاذ رفيق وفا الدجاني يشرح لنا الآثار وهندستها ، والغايات التي أنشأت لها ، ولولا هو لما استفدنا من هذه الجولة الأثرية ، وشعرنا بأننا نمشي في نفق مظلم لا ضوء فيه .

ولم نستوعب هذه المدينة الواسعة ، ولم يكن ذلك بوسعنا في هذا الوقت الضيق ، فإن مساحة البتراء ٣٠ كيلو متر مربعاً ، فرجعنا وقد جمعنا بين العلم والعبرة ، واستحضرنا قوله تعالى : ﴿ وَتَنحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرَّهِينَ ﴾ [الشعراء : ١٤٩] .

رجعنا إلى عمان في الليل ، وقد قطعنا مسافة طويلة من أطول مسافة قطعناها في السيارات في يوم واحد ، وقد أتخمننا من المعلومات والانطباعات والذكريات .

(١) هكذا ينطق بها الأردنيون ، وقد ضبطه المؤرخون والجغرافيون القدامى «ببطراء» و«بطرة» وذهب بعض المحققين إلى أنه الموضع الذي سماه العبرانيون بـ«سلع» وورد ذكره في أشعيا ١٦ - ١٧ وملوك ثان ١٤ - ٧ . وإنها القصبية العربية الصخرية المشهورة عند الرومانيين واليونانيين ، وقد أنشأها الأنباط ، وهم من أصل عربي قبل آلاف من السنين ، وقد بلغوا في المدنية والصناعة شأواً بعيداً ، وكان بينهم الشعراء والأطباء والتجار الكبار الذين كانوا يرحلون إلى مصر والشام وبلاد الفرات وروما ، وكانوا مع ذلك وثنيين ، يعبدون الأصنام منها اللات التي استوردها أهل شمالي الحجاز وجعلوها من أصنامهم الرئيسية .

مغادرة عمان :

كان يوم الإثنين ٢٠/٨/١٩٧٣ م هو اليوم الأخير الذي تغادر فيه عمان قافلين إلى الهند. وكان موعد إقلاع الطائرة الساعة الرابعة والنصف عصرًا تقريباً ، وقد أكرمنا الأصدقاء والإخوان بالزيارة والتوديع ، كان من بينهم الشيخ أسعد الحسيني خطيب المسجد الأقصى سابقاً ، وجلس معنا ساعة ، وتحدث بحديث أثار الشجون ، وأدمع العيون ، وزارنا الأستاذ تيسير ظبيان رئيس رابطة العلوم الإسلامية في جماعة من أهل العلم والثقافة ، وزارنا وفد تركي من قبرص ، شرح لنا الوضع الحالي في هذا البلد ، الذي يمر بمرحلة قاسية انتقالية ، يكافح فيه المسلمون الأتراك للاحتفاظ بشخصيتهم الإسلامية ، وكيانهم القومي .

وكان الأستاذ كامل الشريف أقام حفلة غداء باسم المؤتمر الإسلامي في المجمع تكريماً للوفد ، فحضرناه واجتمعنا ببعض الشخصيات العلمية والدينية ، التي لم نحظ بلقائها في هذه الأيام المعدودة المحدودة المزدهمة بالبرامج ، مثل الشيخ عبد العزيز الخياط عميد كلية الشريعة وغيره .

وشرف معالي الدكتور إسحاق فرحان مضيفنا الكريم في الفندق للتوديع ، وحضر بعض الأساتذة والسادة ، وتوجهنا بعد استراحة قصيرة إلى المطار ، وكان في تشييع الوفد الصديق الفاضل والمرافق الحبيب الذي ترك في نفوسنا أثراً عميقاً وارتسامات طيبة ، الدكتور عبد الله عزام ، وصديقنا القديم الدكتور أديب صالح ، رئيس تحرير مجلة «حضارة الإسلام» الدمشقية ، وأستاذ كلية الشريعة في الجامعة السورية ، وهو يشغل أستاذاً زائراً في كلية الشريعة في عمان ، وقد تقابلنا على فترة طويلة ، وسعادة الأستاذ محمد ميمش القائم بالأعمال في السفارة السعودية ، وسعادة الأستاذ كامل الشريف ، جزى الله الجميع عنا أفضل الجزاء ، وجمعنا على أحسن حال .

رحلة إلى الخليج العربي عام ١٩٧٤ م

قمتُ في شهر محرم ١٣٩٤ هـ الموافق يناير ١٩٧٤ م في عودتنا من مكة المكرمة حيث حضرنا جلسة الرابطة بزيارة قصيرة لأبو ظبي ودبي على دعوة من حاكم الشارقة الشيخ سلطان محمد القاسمي ، كان يرافقني فيها الأستاذ سعيد الأعظمي^(١) والأستاذ واضح رشيد الندوي^(٢) ، وألقيت خطاباً في الشارقة ٥/ محرم ١٣٩٤ هـ بمسجد علي بن أبي طالب عَنُونْتُهُ مراعيّاً للوضع الجغرافي للبلاد بـ «خليجُ بين الإسلام والمسلمين»^(٣) ، ذكرت فيها أنه كما يقع هذا الخليج بين إيران والبلاد العربية ، وانفصلت به القطعتان من الأرض ، كذلك من المؤسف المؤلم أنه قد وقع هناك خليج بين الإسلام والمسلمين ، فالتعاليم الإسلامية في وادٍ ، والمسلمون الذين يدينون بها في وادٍ ، وواجبات المنصب والمكانة والخلافة تتطلب شيئاً ، وسيرة المسلم ومنهجه ودوره على مسرح العالم تبغي شيئاً آخر. وفصّلت القول في هذا الانفصال الشديد الذي هو غير طبيعي ، ودعوت إلى العودة إلى الإسلام وسيرة المسلمين الحقيقية ، وذكرت ما يلحق المسلمين والعالم كله من الخسائر بسبب هذا الوضع الشاذ البعيد عن الفطرة والأصالة .

(١) أحد أكبر تلاميذ سماحة الشيخ الندوي ، عميد كلية اللغة العربية في دار العلوم - ندوة العلماء ، ورئيس التحرير لمجلة «البعث الإسلامي» .

(٢) من كبار أساتذة الأدب العربي في دار العلوم - ندوة العلماء ، ورئيس التحرير لجريدة «الرائد» وهو ابن أخت سماحة الشيخ الندوي .

(٣) قد طُبِعَ هذا الخطاب في صورة كُتِبَ من المجمع الإسلامي العلمي بلكهنؤ (الهند) .

وكان لي خطاب آخر في هذا السفر في المكتبة العامة بدبّي بتاريخ ٢٨/يناير حضره عدد كبير من أعيان البلد والعلماء والأساتذة الفضلاء ، وكان عنوان الخطاب: «كيف دخل العرب التاريخ؟»^(١) ذكرتُ فيه كيف استطاع العرب أن ينالوا هذه الأهمية العالمية في التاريخ ، وافتوا إليهم أنظار العالم ، وشغلوا أقلام المؤرخين بتسجيل مآثرهم وفضائلهم ، ما هي الأسباب الحقيقية وراء ذلك ، وما هو السرُّ في هذه المكانة المركزية؟ .

ثم سافرتُ إلى الخليج عام ١٩٧٦ م وكان يرافقني أيضاً الأستاذان: سعيد الأعظمي وواضح رشيد الندوي ، وألقيت كلمة في الديوان الأميري بأبوظبي في ٢٣/ديسمبر ١٩٧٦ م ، كان موضوعها: «نظرة مؤمن واع إلى المدنيات المعاصرة»^(٢) .



(١) قد طُبِعَ هذا الخطاب من المجمع الإسلامي العلمي بلكهنؤ .
 (٢) نشرت هذه الكلمة من دار عرفات للترجمة والنشر ، راي بريلي ، ومن المجمع الإسلامي العلمي بلكهنؤ (الهند) .

زيارة المغرب الأقصى

عام ١٩٧٦ م

مراكش استعراض تاريخي موجز^(١):

إذا كانت إسبانيا فردوسنا المفقود ، فإن مراكش هي الفردوس الذي استعرضناه واسترددناه ، وكانت مراكش هي مدخل المسلمين إلى الأندلس ، ولما ضاقت الأرض فيها على المسلمين لدى انحطاطها فإن أرض المغرب هي التي كانت ملاجئ المشردين التي احتضنتهم ، وقد ازدهرت على أرضها الكريمة ، البقية الباقية من حضارة الأندلس وثقافتها وعلى ذلك فكانت أندلساً ثانياً وخير بديل عن الأندلس الأولى .

إن مراكش (Morocco) تحمل أهمية كبيرة بالنسبة إلى موقعها الجغرافي ، إنها تقع على الجانب الغربي من قارة إفريقيا ، والبحر الأبيض المتوسط (Mediterranean) والمحيط الأطلنطي (Atlantic Sea) التجاريين ، ومساحتها ١٧٢٥٥٦ ميلاً مربعاً ، وعدد سكانها إلى سنة ١٩٦٢ م كان حوالي عشرة ملايين نفس ، وقد صرح أحمد عبد الله

(١) وقد نظّم رحلة العلامة الندوي هذه الشيخ محمد صالح القرزاز - رحمه الله - الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي السابق ورجا من العلامة الندوي أن يمثل رابطة العالم الإسلامي في مؤتمر رابطة الجامعات الإسلامية الذي عقد في الرباط في الفترة ما بين ١١ و١٧ أيار عام ١٩٧٦ م ، لدراسة المشكلات التعليمية والتربوية ووضع حلولها ، ومسائل المعاهد الكبرى والمؤسسات التعليمية في العالم الإسلامي ، فسافر العلامة مع مرافقه العزيز الأستاذ محمد الرابع الحسني الندوي الذي مثل جامعة ندوة العلماء في هذا المؤتمر .

المسدوسي أن مساحتها كانت ٤٤٣٦٨٠ ميلاً مربعاً وأما عدد سكانها في ١٩٦٣ م فكان قد بلغ إلى ١١٩٢٥٠٠٠ نفساً ، وأما مساحتها حسب إحصائية الحكومة فهي ٤٥٨٧٣٠ كياً، متراً مربعاً ، وبلغ عدد سكانها في يونيو ١٩٧١ م إلى ١٥٣٧٩٢٥٩ نفساً ، وعلى ذلك فأرّبي عدد سكانها على عشرين مليون نفس ، وأما موانئ مراكش الكبيرة فهي «مليية» ، «سبتة» ، «طنجة» ، «العرائش» ، «الرباط» ، «الدار البيضاء» ، «الجديدة» ، «أغادير» ، «تطوان» ، «القنيطرة» ، «سلا» ، «آسفي» وما إليها ، وأما مدنها الكبيرة بعد «الرباط» وهي عاصمتها ، فهي «فاس» و«مكناس» و«طنجة» و«الدار البيضاء» و«تطوان» و«مراكش» و«وجدة» .

مراكش ، تاريخها العريق :

يرجع تاريخ مراكش إلى ٥٠٠ ق.م ، إذ قام «هنو» أحد سكان «قرطاجنة» بالرحلة إلى جبل طارق ، من أجل إقامة مستعمرة ، وقد توجه بثلاثين ألفاً من الناس على ستين سفينة ، وأقام مستعمرات عديدة في أمكنة مختلفة من المغرب الأقصى .

ويرى معظم المؤرخين أن سكانها القدامى كانوا من فلسطين أصلاً وهم أولئك الذين نفاهم سيدنا داود عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام فقدموا إفريقية مع قيل من الأقبال ، وقد قال ابن خلدون أن البربر هم كنعانيو الأصل ، ولكن ابن حزم يرى أنهم ينحدرون من سلالة عربية ، وحينما تألبت الأقبال على رومة وتغلبوا عليها ، بعد فتح «قرطاجنة» بأربع وستين سنة ، وسعوا نفوذها إلى بعض مناطق المغرب الأقصى أيضاً ، وحينما تضايق الرومان بالبربر وذاقوا مرارة شرهم ، لاحقوهم في ٤١ م إلى «تافيلالت» وحولوها إلى ولاية رومية ، ومنذ ١٦١ م بدأ سقوط الرومان حيث أغارت على هذه المناطق بعض القبائل الأوروبية الوحشية ، ورغم ذلك استمرت حكومة الرومان إلى ٤٣١ م ، ثم تغلبت عليهم القبائل الوحشية ، ثم إن الرومان استعادوا المغرب في ٥٤٤ م وظلوا يحكمون

عليها إلى أن أشرقت شمس الإسلام في ربوعها ، ولا تزال أنقاض الأبنية الرومانية موجودة فيما حول «مكناس»^(١).

البربر:

البربر قوم عرفوا بالشجاعة والنخوة ، والفروسية ، وشدة الشكيمة وأسلموا بعد الفتوحات الإسلامية ، وقال ابن خلدون: إنهم ارتدوا ثم استقاموا على الإسلام منذ أيام موسى بن نصير^(٢).

وقد أشاد العلامة ابن خلدون بذكرهم ، وقال إنهم كانوا يتمتعون بالأخلاق الحسنة ، والنخوة والثقة بالنفس ، وقرى الضيف ، والوفاء بالوعد ، والصبر والثبات ، والتسامح والعفو والصفح ، والطموح وبعد الهمة والفروسية ، ونصرة دين الله ، وكانوا بجانب العرب والفرس والرومان واليونان في كل ذلك ، ومن أجل ذلك كله ملكوا زمام الحكم ، وكان فيهم قادة فاتحون ورجال عظام مثل يوسف بن تاشفين بطل وقعة الزلاقة وعبد المؤمن بن علي^(٣).

بداية الفتوح الإسلامية:

في ٢١ - ٢٢ هـ أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه فتح عمرو بن العاص مصر وليبيا وتونس ، وغزا عبد الله بن سعد بن أبي السرح إفريقية في عشرين ألفاً ، عام ٢٧ هـ بأمر سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وافتتح معظم مناطقها ، وصالح أهلها على مليونين ونصف درهم سنوياً^(٤) ، وكان عدد جيش جرجير ملك البربر مئة وعشرين ألفاً ، وخرج في هذه الغزوة ممن حول المدينة خلق كثير^(٥) ، كان فيهم عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن عمر ،

(١) انظر تاريخ ابن خلدون ٦ - ١٠٣ و«تاريخ مراكش» بقلم محمد إنشاء الله ١ - ٨ (لاهور ١٩٠١).

(٢) دائرة المعارف للقرن العشرين لفريد وجدي.

(٣) راجع تاريخ ابن خلدون ٦ - ١٠٤ طبع مصر.

(٤) انظر البداية والنهاية ٧ - ١٥٢ طبع ١٩٦٦ م.

(٥) البلاذري ص ٢٢٨ نقلاً عن «قادة فتح المغرب» ص ٥٦ ، ج ١.

وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن جعفر والحسن والحسين ولذلك سمي جيش العبادلة^(١) . وفي سنة ٣٣ هـ أعاد عبد الله بن سعد بن أبي السرح الكربة على إفريقية حين نقض أهلها العهد ، فانتصر عليهم وأعاد النظام إلى ربوعهم وأقرهم على الإسلام والجزية^(٢) ، وفي سنة ٤٣ هـ غزا عبد الله غزوة «ذات الصواري» في البحر من ناحية الإسكندرية ، وواجه قسطنطين ابن هرقل في خمسمئة مركب ، أو ستمئة ، وهزمهم عبد الله بمئتي مركب هزيمة نكراء^(٣) ، ولما عاد إلى مصر من غزوة «ذات الصواري» عام ٣٥ هـ وافاه خبير من ثار على عثمان بن عفان رضي الله عنه ، فخرج من مصر متوجهاً إلى عثمان^(٤) وقتل عثمان رضي الله عنه واستخلف علي بن أبي طالب ، فعزله عن مصر عام ٣٦ هـ بعد أن حكمها نحواً من عشر سنين^(٥) ، وسار عبد الله إلى الرملة وإلى عسقلان لما بلغه مقتل عثمان ووقوع الفتنة واعتزل الفتنة ، ولم يبايع لعلي ومعاوية ، وأقام بعسقلان ، ودعا على نفسه قائلاً: «اللهم اجعل خاتمتي على صلاة الصبح» ، فلما طلع الفجر من يوم وفاته توضأ وصلى الصبح وسلم عن يمينه ، وذهب ليسلم عن يساره فقبض الله روحه ، وذلك سنة ٣٦ هـ رضي الله عنه وأرضاه^(٦) .

ويتلوه في قائمة فاتحي المغرب اسم معاوية بن خديج السكوني ، المتوفى ٥٢ هـ الذي كان من ضباط عمرو بن العاص في فتح مصر ، ومن ضباط عبد الله بن سعد بن أبي السرح في فتح إفريقية والنوبة ، وقد غزا

(١) قادة فتح المغرب ١ - ٥٦ محالاً على تاريخ ابن خلدون ٢ - ١٢٨ الملحق .

(٢) نفس المصدر ص ٦١ ، ٦٢ .

(٣) نفس المصدر محالاً على الطبري ٣ - ٣٤٠ وابن الأثير ٣ - ٤٤ وفتح مصر والمغرب ٢٥٦ والنجوم الزاهرة ١ - ٨٠ .

(٤) نفس المصدر ص ٦٤ محالاً على النجوم الزاهرة ١ - ٨٠ ، ٨١ .

(٥) النجوم الزاهرة ١ - ٨٢ .

(٦) قادة فتح المغرب ١ - ٦٤ ، ٦٥ .

إفريقية ثلاث مرات ، فتح للمرة الأولى أيام عثمان بن عفان رضي الله عنه في ٣٤ هـ القيروان ، وفتح «بنزرت» في ٤١ هـ ثم نصبه معاوية رضي الله عنه لغزو الروم في ٤٥ هـ وكان معه عبد الله بن عمرو وعبد الملك بن مروان فهزم جيش العدو البالغ عدده ثلاثين ألفاً عند حصن «أجم» بعشرة آلاف ، وهو الذي بعث عبد الله بن الزبير رضي الله عنه لغزو «سوسة» ، ولقد بنى بناحية القرن مساكن ، وسماها قيرواناً ونشر الإسلام بين البربر ، وحفر الآبار في محل القيروان ، وخلد آثاراً حسنة في مصر والمغرب ، وتذكر له غزوة في ٥٠ هـ أيضاً ، وفي ٣٦ هـ بعث بأول مركب بحري إلى «صقلية»^(١).

ثم يأتي دور عقبة بن نافع الفهري القرشي ، الذي ولد قبل الهجرة بسنة واحدة (٦٢١ م) والذي قد كتب الله له استكمال فتح قارة إفريقية ، شهد فتح مصر مع عمرو بن العاص في ٢٠ هـ وتولى قيادة جيش من جيوش المسلمين في فتح «زويلة» في ٢١ هـ ، وخاض معارك عديدة بحرية وبرية مع الروم ، واستعمله عمرو بن العاص في عهد معاوية على إفريقية ، فجعل يتابع الفتح ، ويفتح بلداً بعد بلد ، ويسائل أهل البلد «هل من ورائكم؟» فلئن كان الجواب بنعم تقدم ، وكان في نية عقبة أن يمضي قدماً في مجاهل الصحراء الإفريقية ، فسأل أهل «كاوار» هل من ورائكم أحد؟ فقال الدليل : «ليس عندي بذلك معرفة ولا دلالة فانصرف عقبة راجعاً ، فمر بقصر «خاور» فلم يعرض له ولم ينزل بهم ثم سار ثلاثة أيام ، فأمنوا وفتحوا مدينتهم ، وأقام عقبة بماء اسمه اليوم «ماء فرس» ولم يكن به ماء ، فأصابهم عطش شديد أشرف منه عقبة وأصحابه على الموت ، فصلى عقبة ركعتين ودعا الله ، وجعل فرس عقبة يبحث بيديه في الأرض ، حتى كشف عن صفاة ، فانفجر الماء منها ، وأخذ الفرس يمص ذلك الماء ، وأبصر عقبة فنأدى في الناس : «أن احفروا» فحفروا ، وشربوا واستقوا ، فسمي ذلك المكان لذلك ماء الفرس»^(٢).

(١) نفس المصدر انظر الصفحات ٨٥ ، ٨٩ .

(٢) المصدر نفسه ٩٠ ، ١٠٠ .

ومضى عقبة بجيشه إلى المغرب ، وأخذ إلى أرض «هواره» وافتتح كل قصر بها ، ومضى إلى «صفر» فافتتح قلاعها وقصورها ، ثم بعث خيلاً إلى «غدامس» فاستعاد فتحها ثانية ، وتوجه إلى «قفصة» فافتتحها ، ثم افتتح «قسطيلية» ثم انصرف إلى «القيروان» وكان معه عشرة آلاف فارس ، وصفى بهذا الفتح كل المقاومات المعادية بين «برقة» و«القيروان» وأصبحت هذه المنطقة قاعدة رصينة ، تنطلق منها القوات الإسلامية لفتح شمال «إفريقية» حتى المحيط الأطلسي .

وكانت القيروان غيضة كثيرة الأشجار ، ومأوى الوحوش والحيات ، فقال له رجاله : «إنك أمرتنا بالبناء في شعار وغياض لا ترام ، ونحن نخاف من السباع والحيات ، وغير ذلك من دواب الأرض» ، وكان في عسكره خمسة عشر رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ وسائر ذلك تابعون ، فدعا الله عز وجل ، وجعل أصحابه يؤمنون على دعائه ، ومضى إلى السبخة ، وواديها ونادى : «أيتها الحيات والسباع ، نحن أصحاب رسول الله ﷺ فارحلوا عنا فإننا نازلون ومن وجدناه بعد ذلك قتلناه» ، ونظر الناس بعد ذلك إلى أمر عجيب ، من أن السباع تخرج من الشعائر تحمل أشبالها ، والذئب يحمل جروه ، والحيات تحمل أولادها ونادى في الناس «كفوا عنهم حتى يرتحلوا عنا» ، فلما خرج ما فيها من الوحش والهوام ، وهم ينظرون إليها ، نزل عقبة الوادي ، وأمرهم أن يقطعوا الشجر^(١) .

وأمر عقبة ببناء القيروان سنة ٥٠ هـ ، وبنى المسجد الجامع وبنى الناس مساجدهم ومساكنهم ، وفي سنة ٥٥ هـ استعمل معاوية بن أبي سفيان مسلمة ابن مخلد الأنصاري الخزرجي على مصر وإفريقية ، وعزل عقبة عن إفريقية ، فاستعمل مسلمة على إفريقية مولى له يقال له «أبو المهاجر دينار» فقد أساء وعزل عقبة ، واستخف به وسجنه ، وأوقره حديداً ، فأقام

(١) قادة فتح المغرب ١٠٢ ، ١٠٤ محالاً على رياض النفوس ٦/١ ، ٧ والبيان المغرب ١٣/١ ، ١٤ وآثار البلاد ٢٤٢ ، وابن الأثير ٣/١٨٤ وأسد الغابة ٣/٤٢٠ ، ٤٢١ .

في الحبس شهوراً ثم أطلقه حين أتاه كتاب معاوية بن أبي سفيان بتخلية سبيله وإشخاصه إليه^(١).

وسار عقبة إلى الشام وعاتب معاوية على ما فعله به أبو المهاجر ، فاعتذر معاوية إليه ووعده أن يعيده إلى عمله ، وردّه يزيد والياً على إفريقية ، سنة ٦٢ هـ ، وسار عقبة إلى إفريقية من الشام ، حتى قدم على القيروان بعشرة آلاف فارس ، فأخذ أبا المهاجر وحبسه وقيده وأخذ ما معه من الأموال ، وجدد بناء القيروان ، وشيدها ونقل الناس إليها فعمرت وعظم شأنها^(٢).

وخرج عقبة بأصحابه وبكثير من أهل القيروان ، إلى المغرب بعد أن ترك في القيروان جنداً مع الذراري والأموال ، واستخلف بها زهير بن قيس البلوي ، ودعا أولاده قبل مغادرته القيروان وقال لهم : «إني قد بعثت نفسي من الله عز وجل ، فلا أزال أجاهد من كفر بالله» ، ثم قال : «عليكم سلام الله ، وأراكم لا ترونني بعد يومكم هذا» ، ثم قال : «اللهم تقبل نفسي في رضاك واجعل الجهاد رحمتي ودار كرامتي»^(٣).

ثم وصل عقبة إلى «تلمسان» يفتح البلاد ، ويهزم العدو ويعلي كلمة الإسلام ورحل إلى «تاهرت» متابعاً عملية الفتح والانتصار واستغاث الروم بالبربر ، فأجابوهم ونصروهم ، فقام عقبة في الناس خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه وقال : «أيها الناس إن أشرافكم وخياركم الذين رضي الله عنهم وأنزل فيهم كتابه ، بايعوا رسول الله ﷺ بيعة الرضوان على من كفر بالله إلى يوم القيامة ، وهم أشرافكم والسابقون منكم إلى البيعة ، باعوا أنفسهم من رب العالمين بجنة بيعة رابحة ، وأنتم اليوم في دار غربة وإنما بايعتم رب العالمين ، وقد نظر إليكم في مكانكم هذا ؛ ولم تبلغوا هذه البلاد إلا طلباً لرضاه وإعزازاً لدينه ، فأبشروا ، فكلما كثر العدو كان أخزى لهم وأذل إن

(١) البيان المغرب ١٤/١ وابن الأثير ٣/١٨٤ ، وفتوح مصر والمغرب ٢٩ واليعقوبي ٢٠٤/٢ نقلاً عن المصدر نفسه.

(٢) نفس المصدر ١٠٩ - ١٠٧.

(٣) ابن الأثير ٤/٤٢ ، ورياض النفوس ١/٢٢ ، نقلاً عن المصدر نفسه ص ١٠٧.

شاء الله تعالى ، وربكم عز وجل لا يسلمكم ، فاقوهم بقلوب صادقة ، فإن الله عز وجل جعلكم بأسه الذي لا يرده عن القوم المجرمين ، فقاتلوا عدوكم على بركة الله وعونه والله لا يرد بأسه عن القوم المجرمين»^(١).

والتقى المسلمون بعدوهم ، وقاتلوهم قتالاً شديداً ، وانهزمت الروم والبربر وغنم المسلمون أموالهم وسلاحهم^(٢) ، وسار عقبة حتى نزل على «طنجة» فلقية بطريق من الروم اسمه «بليان» وأراد عقبة فتح الأندلس ، فقال له «بليان» : «أترك كفار البربر خلفك وترمي بنفسك في بحبوحة الهلاك مع الفرنج ، ويقطع البحر بينك وبين المدد» فتوجه عقبة ، فنزل على مدينة «وليلي» بإزاء جبل «زرهون» وهي يومئذ من أكبر مدن المغرب فيما بين النهرين العظيمين «سبو» و«درعة» ، وهذه المدينة هي المسماة اليوم على لسان العامة بـ«قصر فرعون» ، فافتتحها عقبة وغنم وسبى^(٣).

فقاتل عقبة البربر ، وهزمهم وسار حتى بلغ «مالبان» ورأى المحيط الأطلسي فقال : «يارب! لولا هذا البحر لمضيت في البلاد مجاهداً في سبيلك»^(٤) ، ثم قال : «اللهم اشهد ، أنني قد بلغت المجهود ، ولولا هذا البحر لمضيت في البلاد أقاتل من كفر بك حتى لا يعبد أحد من دونك»^(٥) وجاء في دائرة معارف القرن العشرين أن عقبة ألقى فرسه في المحيط حينما بلغ «أسفي» وقال : «اللهم إني لم أخرج بطراً ولا أشراً وإنك تعلم إنما نطلب السبب الذي طلبه عبدك ذو القرنين ، وهو أن تعبد ولا يشرك بك شيء ، اللهم إنا مدافعون عن دين الإسلام فكن لنا ولا تكن علينا يا ذا الجلال والإكرام»^(٦).

(١) رياض النفوس ٢٣/١ ، ٢٤ .

(٢) ابن الأثير ٤٢/٤ .

(٣) الاستقصاء ٣٧/١ نقلاً عن قادة فتح المغرب ١٠٩/١ ، ١١٠ .

(٤) ابن الأثير ٤٢/٣ ، ٤٣ .

(٥) رياض النفوس ٢٥/١ .

(٦) دائرة معارف القرن العشرين ج ٨ .

ورجع عقبة إلى القيروان ، فلما انتهى إلى «طنبة» أذن لمن معه من أصحابه أن يتفرقوا ويقدموا القيروان فوجاً فوجاً^(١) ، ومال عقبة بخيل يسيرة يريد «تهوذة» وكان معه حوالي ثلاثمئة فارس ، فلما رآه الروم في قلعة طمعوا فيه فأغلقوا الحصن ، وشتموه وهو يدعو إلى الإسلام ، فلم يقبلوا منه^(٢) ، وبعث الروم إلى كسيلة الذي كان في عسكر عقبة مضمرّاً للغدر ، فلما أرسل إليه الروم أظهر ما كان يضمه وجمع أهله وبني عمه وقصد عقبة فقال أبو المهاجر: «عاجله قبل أن يقوى جَمْعُهُ» ، وكان أبو المهاجر موثقاً في الحديد مع عقبة ، فزحف عقبة على كسيلة ، فتنحى كسيلة عن طريقه ليكثر جمعه ، فلما رأى أبو المهاجر ذلك تمثل بقول أبي محجن الشقفي:

كفى حَزَنًا أن ترتدي الخيل بالقنا وأترك مشدوداً عليّ وثاقيا
إذا قمت عَنّاني الحديد وغُلِّقت مصارع من دوني تصم المناديا

فبلغ عقبة ذلك فأطلقه ، وقال له: «الحق بالمسلمين وقم بأمرهم وأنا أغتتم الشهادة» ، فلم يفعل وقال: «وأنا أيضاً أريد الشهادة» وكسر عقبة والمسلمون أجفان سيوفهم وتقدموا إلى البربر وقتلوهم ، فقتل المسلمون جميعهم^(٣) ، ومعهم عقبة وقتل معه زهاء ثلاثمئة من كبار الصحابة والتابعين في أرض الزاب بتهوذة سنة ٦٣ هـ (٦٨٣ م) وقبر عقبة يزار بالزاب ، كما أن أجدات الصحابة الشهداء الذين استشهدوا بمكانهم من أرض الزاب يزارون لهذا العهد وقد جعل على قبورهم أسنة ثم جصصت ، واتخذ على المكان مسجد عرف باسم عقبة وهو في عداد المزارات^(٤) ، رضي الله عن عقبة وعنهم أجمعين وأرضاهم .

ولا يمكن بهذه المناسبة غض البصر عن أبي المهاجر دينار التابعي مولى

(١) ابن الأثير ٤/٤٣ ورياض النفوس ١/٢٥ .

(٢) الاستقصاء ١/٧٤ .

(٣) ابن الأثير ٤/٤٣ .

(٤) الاستقصاء ١/٧٤ نقلاً عن المصدر السابق ص/١١١ ، ١١٢ .

مسلمة بن مخلد الأنصاري ، وقدرته القيادية ومآثره الجسيمة ونشاطه العظيم في فتح المغرب الأوسط ، الذي بلغ من حماسه للجهاد إلى أنه «طبق مبدأ تحشيد القوة قبل البدء بحركاته ، فاستفاد من كل مقاتل مسلم ، ولم يُبق في القيروان إلا الشيوخ والنساء»^(١).

ويتلوه اسم زهير بن قيس البلوي الذي قيل فيه إن له شرف الصحبة^(٢) ، وقد جزم بعض القوم بصحبته فقال: «هو من الصحابة»^(٣) ، ذلك الذي حينما أشار على عبد الملك بن مروان أصحابه بإنفاذ الجيوش إلى إفريقية لإنقاذ المسلمين من يد كسيلة ولإعزاز الإسلام بها كما كان في أيام عقبة ، قال لهم عبد الملك: «من للأمر مثل عقبة؟» فاتفق رأيهم على زهير ، فهزم كسيلة والروم والبربر هزيمة لم تقم لهم بعده قائمة ، وذلوا ، وفتتت فرسانهم ورجالهم وكسرت شوكتهم ، وصاروا يخافون منذئذ زهيراً والعرب خوفاً شديداً وبعد فتح «تونس» عاد إلى القيروان ، فرأى بإفريقية ملكاً عظيماً ، فأبى أن يقيم بها وقال: «إني ما قدمت إلا للجهاد ، وأخاف أن أميل إلى الدنيا فأهلك»^(٤).

ثم خاض معركة هائلة مع الروم في برقة وكان المسلمون في عدد قليل ، والروم في خلق عظيم ، والتحم القتال ، وتكاثرت عليهم فقتل زهير وأشرف من كانوا معه من العرب^(٥) ولم ينج منهم أحد وعاد الروم بما غنموا إلى القسطنطينية^(٦) ، وحصلت هذه الكارثة الفاجعة في ٧١ هـ.

ويتبعه اسم حسان بن النعمان الأزدي الغساني ، الذي قال فيه

(١) قادة فتح المغرب ١ - ١٤٨ .

(٢) انظر الإصابة ٣ - ١٧ ، أسد الغابة ٢ - ٢١١ ، والاستقصاء ١ - ٧٦ .

(٣) تهذيب ابن عساكر ٥ - ٣٩٣ .

(٤) ابن الأثير ٤ - ٤٤ ، رياض النفوس ١ - ٢٩ .

(٥) البيان المغرب ١ - ٢١ .

(٦) ابن الأثير ٤ - ٤٤ .

عبد الملك بن مروان: «ما أعلم أحداً أكفأ بإفريقية من حسان بن النعمان الغساني»^(١) استعمله عبد الملك على إفريقية في سنة ٧٣ هـ إنه هزم الروم في «قرطاجنة» ثم اتجه إلى المرأة الكاهنة البربرية القوية الشخصية ، الزكية الفؤاد ، الكثيرة النفوذ في البربر لا يعصون لها أمراً التي كانت تخبر البربر بأشياء من الغيب ، قد اجتمع إليها البربر بعد قتل كسيلة ، وأصبحت ملكتهم دون منازع ، وزحف إليها حسان ، ونزل على نهر «نيني» وزحفت إليه الكاهنة في عدد لا يحصى ، حتى أتت أسفل النهر فنزلت عليه ، ودنا الطرفان من بعضهما ، واقتتلوا قتالاً شديداً ، وعظم البلاء ، وظن المسلمون أنه الفناء ، وانهزم حسان بعد بلاء عظيم ، وقتل من العرب خلق كثير فسمي ذلك اليوم يوم البلاء^(٢) ، وسمي النهر الذي التقوا عليه «نهر البلاء»^(٣) ، وبعد خمس سنوات في ٨٢ هـ أعاد حسان الكرة عليها وهزمها وقتلها ، وهزم في نفس السنة أسطول البطريق يوحنا (Patricius Jean) وكان حسان يفكر في إنشاء ميناء جديد للأسطول البحري القوي ، فوقع اختياره على «ترشيش» التي كانت ميناء يونانية قديمة ، فبدأ تخطيط المدينة من جديد ، وبنائها بناءً جديداً ، وضرب حسان السكة للمغرب دنانير ودراهم وفلوساً ، وجدّ في تعليم العربية للبربر ، لأنها أصل الدين ، وجعل الفتح الإسلامي في إفريقية فتحاً (مستداماً)^(٤).

ثم يأتي دور موسى بن نصير اللخمي ، ولد موسى في ١٩ هـ (٦٤٠ م) في خلافة عمر بن الخطاب ، ولاء معاوية بن أبي سفيان أيام خلافته البحر فغزا «قبرص» وبنى هناك حصوناً^(٥) ، وفي ٦٤ هـ شهد مع الضحاك بن قيس الفهري معركة «مرج راهط» وفي سنة ٦٥ هـ توجه مروان بن الحكم إلى

(١) رياض النفوس ١ - ٣١ .

(٢) رياض النفوس ١ - ٣٣ .

(٣) فتح مصر والمغرب ٢٧٠ .

(٤) راجع قادة فتح المغرب ج ١ .

(٥) البداية والنهاية ٩ - ١٧١ .

مصر ، فتملكها ، واستعمل عليها ابنه عبد العزيز^(١) وجعل له موسى بن نصير وزيراً ومشيراً^(٢) وفي سنة ٧١ هـ ولى عبد الملك بن مروان أخاه بشر بن مروان الكوفة ، وفي سنة ٧٣ هـ ولاه البصرة ، وجعل عبد الملك معه موسى وزيراً ومشيراً ، وجعله المسؤول الأول عن كل خلل وتقصير يقع في ديوان العراق^(٣) ، وفي سنة ٧٥ هـ مات بشر أمير العراقيين ، فولى عبد الملك بن مروان الحجاج بن يوسف الثقفي العراق ، وأوصاه أن لا يفوته موسى لأنه احتجن الأموال لنفسه حين كان والياً على خراج البصرة ، ولكن اتهامه بذلك موضع شك كبير نظراً إلى استقامته ونزاهة سلوكه^(٤).

وفيما بعد ٨٤ هـ عزل عبد العزيز بن مروان - الذي كان على مصر - حسان بن النعمان وولى مكانه موسى بن نصير على إفريقية والمغرب ، وبعدهما أخضع موسى المغرب الأوسط والمغرب الأقصى تطلع نحو «طنجة» وحاصرها ، حتى افتتحها ونزلها ، ثم سار إلى مدائن على شط البحر ورأس تلك المدائن «سبتة» وعليها «جيليان» (Julian) فقاتله ، فألفاه في نجدة وقوة وعدة فلم يطقه ، وعاد موسى إلى القيروان بعد أن استعمل على «طنجة» وأعمالها مولاه طارق بن زياد ، وفي ٨٥ هـ غزا موسى في بحر إفريقية «البحر الأبيض المتوسط» فأصاب في غزوته تلك «صقلية» وافتتح مدينة فيها^(٥).

وبعدما تم فتح المغرب تاق موسى وطارق إلى فتح الأندلس ، وبينما كان موسى يتربص الفرصة لتحقيق هذه الأمنية الحبيبة إذ وافته رسالة من «جيليان» يعرض فيها تسليم «سبتة» ويدعوه إلى فتح إسبانيا ، ففي رجب ٩٢ هـ (نيسان - أبريل ٧١١ م) جهز موسى جيشاً من العرب والبربر ، بقيادة

(١) العبرة ١ - ٧١ وشذرات الذهب ١ - ٧٣ .

(٢) الولاية والقضاة ٤٧ .

(٣) البداية والنهاية ٩ - ١٧١ .

(٤) قادة فتح المغرب ١ - ٢٢٣ - ٢٢٦ .

(٥) قادة فتح المغرب ١ - ٢٣٦ - ٢٣٨ .

طارق بن زياد الليثي ، فعبر البحر من «سبتة» بجيشه في سفن «جيليان» ونزل بالبقعة الصخرية التي لا تزال تحمل اسمه اللامع حتى اليوم أعني «جبل طارق» وتوالت الانتصارات والفتوح^(١).

كان موسى من التابعين ، ورعاً تقياً ، وكانت البلاد في قحط شديد ، فأمر الناس مرة بالصوم والصلاة وإصلاح ذات البين ، وخرج معهم إلى الصحراء ، ثم صلى وخطب في الناس ، ولم يذكر الوليد بن عبد الملك ، فقيل له ألا تدعو لأمير المؤمنين فقال: «هذا مقام لا يدعى فيه لغير الله تعالى» فسقوا حتى رووا ورخصت الأسعار^(٢).

سأله سليمان بن عبد الملك مرة: أخبرني كيف كانت الحروب بينك وبينهم أكانت عقباً؟ فقال: «يا أمير المؤمنين ، ما هزمت لي راية قط ، ولا فض لي جمع ولا نكب المسلمون معي نكبة منذ اقتحمت الأربعين إلى أن شارفت الثمانين»^(٣).

وقال سليمان بن عبد الملك لموسى في بعض المناسبات: «ما الذي كنت تفرغ إليه في مكان حربك من أمور عدوك؟» قال: «التوكل والدعاء إلى الله يا أمير المؤمنين» قال له سليمان: «هل كنت تمتنع في الحصون والخنادق ، أو كنت تخندق حولك؟» فقال: «كل هذا لم أفعله» قال: «فما كنت تفعل؟» قال: «كنت أنزل السهل ، وأستشعر الخوف والصبر ، وأتحصن بالسيف والمغفر ، وأستعين بالله وأرغب إليه في النصر»^(٤).

في ٩٧ هـ حج سليمان ، وحج معه موسى ، فتوفي موسى في «وادي القرى» ، عن ثمان وسبعين ، رحمه الله وجعل الجنة مثواه .

في ١٠٠ هـ ولي الخليفة المؤمن عمر بن عبد العزيز رحمه الله على

(١) نفس المصدر ٢٢٣ .

(٢) ابن الأثير ٤ - ٢٠٦ ، ووفيات الأعيان ٤ - ٤٠٣ نقلاً عن قادة فتح المغرب ١ - ٢٩١ - ٢٩٢ .

(٣) الإمامة والسياسة ٢ - ١٠٠ .

(٤) الإمامة والسياسة ٢ - ١٠٠ .

المغرب عبد الله بن أبي المهاجر ، الذي تم على يديه إسلام البربر ، لكنهم انتفضوا من حين لآخر بحكم طبيعتهم الثورية . وفي ١٥٥ هـ قضى ابن أخي المنصور ، يزيد بن حاتم على ثورة بربرية ، وجدد بناء جامع القيروان وبني مدينة القيروان بناءً جديداً .

بنو إدريس :

في ١٦٩ هـ خرج أهل البيت على موسى الهادي وسار إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن سيدنا علي المرتضى إلى مصر ، ثم إلى «وليلي» (المغرب) وأنزله الأمير البربري إسحاق بن محمد ، وأكرم مثواه ، وحمل البربر على طاعته ، وأعلن بخلافته ، وكسب إدريس بن عبد الله معارك كثيرة ، وافتتح المناطق فيما بين «تلمسان» و«سلا» واتسقت له الانتصارات ، حتى استشعر الخليفة العباسي هارون الرشيد منه الخطر ، وتوفي إدريس في ١٧٧ هـ .

في ١٩٢ هـ أسس إدريس بن إدريس مدينة «فاس» وقد حكمت هذه الأسرة ١٤٠ عاماً ولكن الحكومة عاشت طيلة الفترة حروباً داخلية ولم تتمتع بحاكم حازم قوي الساعد ، وإداري عاقل يلم شعثها ، ويجمع شملها ، وفي ٣٠٩ هـ هجم على حكومة بني إدريس أحد أمراء الخليفة الفاطمي ، ونفى ملكهم يحيى الثالث ، وبذلك طوي بساط بني إدريس ، ثم كان الأمر من ٣٠٥ هـ إلى ٤٢٧ هـ إلى العبيديين ، ولم يكن فيهم ملك ذو شأن ومكان .

وقد شغلت حكومة مصر الفاطميين بنفسها ، حتى انصرفت همته عن المغرب مع الأيام وعلى ذلك انحسرت سلطتهم عن المغرب^(١) .

المرابطون :

يرجع نسبهم إلى القبيلة البربرية «صنهاجة» ، كان يحيى بن إبراهيم الصنهاجي راجعاً من الحج فوافاه في القيروان أبو عمران أحد العلماء

(١) راجع تاريخ ابن خلكان ٢ - ٢٢٥ طبعة ١٢٨٤ هـ .

الأتقياء ، الذي أثار في قلبه روح الإصلاح والدعوة إلى الخير ، فأتى قبيلته مع عبد الله أحد العلماء الصلحاء وبنى زاوية ومدرسة ، جذبتا إليهما ألفاً من الصنهاجيين ، يشتغلون فيهما بالعلم والعبادة وتسلطوا على معظم مناطق السودان ومراكش ، ومن أجل إكثارهم من بناء الرباط أطلق عليهم اسم «المرابطين» وكانوا يغطون وجوههم لدى الرحلة والركوب باللثام فعرفوا بالملثمين أيضاً ، سقط عبد الله شهيداً في معركة في ٤٥٠ هـ ، وخلفه أبو بكر بن عمر اللمتوني الذي بسط نفوذه فيما بين تلمسان إلى البحر المحيط الأطلسي وتنازل عن الحكومة عندما شكت إليه عجوز وأسند الحكم إلى السلطان يوسف بن تاشفين الذي يزدان تاريخ مراكش بمآثره وبطولاته ، والذي صرف عمره في ترفيه الشعب ، كان شديداً على نفسه ، رحيماً على غيره ، يعيش حياة التقشف والجلادة ، ويلبس الصوف ، وعاش حياته كلها على خبز الشعير واللحم ولبن الإبل ، تولى الحكم في ٥٦ من عمره ومات في ١٠٠ من عمره بعدما حكم ٤٤ سنة .

وفي ٤٥٤ هـ - ١٠٦٢ م بنى مدينة مراكش ، وبنى بها قلعة ، وبجوارها مسجداً ، وساهم في بنائه كالعمال العاديين ، وقد افتتح المناطق إلى الجزائر ، وفي ٤٧٩ هـ - ١٠٨٦ م غزا يوسف الأندلس على طلب مسلميها البائسين المنكوبين ، وقتل من القوات المسيحية ٨٠ ألف فارس ، ومثي ألف راجل ، واستشهد من المسلمين ثلاثون ألفاً وغزا إسبانيا في ٤٨١ هـ ، ١٠٨٨ م ، وأعاد الكرة عليها في ٤٨٣ هـ - ١٠٩٠ م ، ورجع إلى مراكش بعدما استعمل عليها أحد رجاله .

الموحدون :

وحكم بعده ابنه علي ٣٧ عاماً ، لكنه كان ميالاً إلى العبادة وإصلاح النفس ، لكنه دام على الحكم ، حتى برز أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن تومرت كقوة محاذية له ، وظل يحارب أحدهما الآخر ١٣ عاماً حتى توفي علي بن يوسف في ٥٣٤ هـ - ١١٤٣ م ، وقد كان محمد بن تومرت يتمتع - إلى جانب العلم والورع والتقوى - بسليقة الحكم والإدارة ، ولد في بيت

فقير في المال والثروة ، كان أبوه موظفاً في مسجد يقوم بإنارة السراج فيه ، تعلم محمد أولاً في إسبانيا ، ثم هداه الحرص على التوسع إلى الإمام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي (م ٥٠٥ هـ) فلازمه ثلاث سنوات ، وتعلم عليه العلم والحكمة كما تعلم طريق الحكم الإسلامي ، يقول العلامة شبلي النعماني في كتابه «الغزالي» باللغة الأردية :

«تعمق في العلوم في صحبة الإمام الغزالي ، وعزم - بحكم طموحه أو بفضل تعليم وتربية الإمام - على أن يطوي بساط حكومة علي بن يوسف في إسبانيا ، ويحل محلها حكومة جديدة ، وعرض هذه الفكرة على الإمام فاستحسنه لأنه بدوره كان يتوق إلى حكومة تتولى نشر العدل والخير ، لكنه سأله عن الإعدادات اللائقة لهذه المهمة العظيمة ، وسمح له بذلك ، لما اطمأن إلى هذا الجانب»^(١).

واتخذ ابن تومرت جبل تينملل بجانب السوس قاعدته العسكرية ، وتجمع عنده نحو ٢٠ ألفاً من القوات بفضل قوة خطابته ، وادعائه المهدوية ، وخاض معارك عديدة مع المرابطين ، يقول فيه القاضي محمد سليمان المنصور فوري الهندي :

«والذي يستخرج الثناء على ابن تومرت هو زهده في الدنيا ، وظل يلزم عيشة الكفاف التي التزمها في أيام تحصيله ، إلى آخر حياته ، يقال : إن أخته كانت تغزل ، وكانا يعيشان على ذلك ، وكان يأتدم بالخل أحياناً ، وأحياناً بالزيتون ، وغنم مرة أموالاً كثيرة ، وطلب إليه الناس أن يوزعها عليهم وألحوا في ذلك ، حتى أحرقها ابن تومرت وأعلن مدوياً : «من كان معي من أجل المادة فقط فليكن نصيبه الحرمان واليأس» .

ولما حضره الموت استدعى عبد المؤمن ، وأهدى إليه كتاباً للإمام الغزالي وأوصاه بالتمسك به ، وتوفي في ٥٣٢ هـ ، وكانت ولادته في ٤٨٥ هـ ، وفي ٥٤٣ هـ افتتح عبد المؤمن مدينة مراكش وقضى على

حكومة المرابطين ، وزحف إلى إسبانيا بمئة ألف فارس وثلاثمئة راجل في ٥٥٧ هـ ، ولكن وافاه الأجل في ٥٥٨ ، يقول الأستاذ محمد فريد وجدي وهو يتحدث عنه :

«كان فصيحاً عالماً بالأصول والجدل والحديث ، مشاركاً في كثير من العلوم ، ذا حزم وسياسة وإقدام ، لم يقصد قط بلداً إلا فتحه ، ومن مآثره بناء مدينة جبل طارق»^(١).

ويقول : «وتولى بعده يوسف بن عبد المؤمن . . . وكان شجاعاً عارفاً بأساليب الحرب ، رقيق الطباع ، حافظاً مطلعاً على أيام العرب ، وأخبارهم ، ميالاً إلى الفلسفة ، وكان له دار كتب جمع إليها أنفس الآثار ، وكان ممن صحبه من العلماء أبو بكر محمد بن الطفيل الفيلسوف المشهور وابن رشد المعروف بالحفيد وغيرهما من فحول الرجال»^(٢).

وتولى بعده ابنه يوسف أبو يعقوب الذي هزم الفونس التاسع ملك قشتالة (كاستيل) وقتل عدداً كبيراً من رجاله ، واستولى على ذخائره .

يقول محمد فريد وجدي :

«كان المنصور هذا (يوسف أبو يعقوب) يعتبر أعظم ملوك الموحدين ، وكانت أيامه أيام أمن ورخاء وجلال ، فلما كانت سنة ٥٩٥ هـ جمع أعيان دولته وعهد بالملك لابنه محمد الناصر لدين الله وتنازل هو عن الحكم وانقطع لنفسه»^(٣).

وكان محمد الناصر لدين الله يملك من القوة والمنعة ما يخافه جميع الملوك المسيحيون كان عنده مليونان من القوات ، وحينما زحف بجيشه الجرار إلى الأندلس ، ارتجت له جميع بلاد الإفرنج المتاخمة للأندلس ، وكتب إليه كثير من ملوك البلاد يسألونه السلام وذلك في ٦٨٠ هـ وتألبت

(١) دائرة معارف القرن العشرين ٨ - ٦٧١ .

(٢) المصدر نفسه ٨ - ٦٧٢ .

(٣) المصدر نفسه ٨ - ٦٧٤ .

على مواجهته كل القوى المسيحية في أوربا ، وكان الانتصار في هذه المعركة من المؤكد ، ولكن المسلمين انهزموا شر هزيمة بسبب وزير الناصر المسمى بابن جامع ، فإنه أظهر الإسلام نفاقاً وتمكن من فؤاد الناصر ، فأقصى بمشورته وجوه العرب والبربر الذين كانوا يحيطون به ، وكانت هذه النكسة سنة ٦٠٩ هـ^(١) ، ومات محمد الناصر في ٦١٠ هـ .

وقام بالأمر بعده ابنه يعقوب بن يوسف ، وفي عهده أيضاً انهزم المسلمون هزيمة أخرى منكرة في ٦١٤ هـ ، وضعف أمرهم بها في البلاد جداً ، وتعاقب بعده ملوك صغار لقوا الهزيمة على يد بني مرين ، وكان آخر ملوكهم إسحاق بن إبراهيم ، يقول محمد فريد وجدي :

«فبايع الموحدون إسحاق بن إبراهيم أخا المرطضى بعد أن هربوا إلى جبال تينملل ، فبقي هناك إلى سنة ٦٧٤ هـ ، ثم قبض عليه وجيء به إلى سلطان بني مرين يعقوب عبد الحق فقتله هو وجميع أقاربه ، فانقرضت بهم دولة الموحدين بعد أن دامت ١٢٦ سنة» .

«كانت هذه الدولة من أعظم الدول التي سادت بلاد المغرب ، وأكبرها بطشاً ، وقد كانت لها أساطيل تمخر في البحر وتقاتل أعداءها وكانت حدودها تمتد إلى الصحراء الكبرى جنوباً ، وإلى بحر الظلمات غرباً ، وإلى الرمال الفاصلة لها عن مصر شرقاً ، وإلى بحر الروم ومضيق جبل طارق شمالاً ، وكانوا يمتلكون مع هذا بلاد الأندلس يتبعها مدائن إشبيلية وقرطبة وغرناطة ومالقة والمرية بحيث كانت جميع شواطئ النهر الإسباني المسمى بالوادي الكبير تابعة لهم ، وكانوا يملكون جميع القسم الجنوبي من بلاد البرتغال أيضاً»^(٢) .

دولة بني مرين من ٦١٤ هـ إلى ٨٩٠ هـ :

كان بنو مرين من جبل زناتة ، بسطوا نفوذهم على تونس ومراكش

(١) راجع دائرة معارف القرن العشرين ٨-٦٧٢-٦٧٥ .

(٢) نفس المصدر ص ٦٧٧ .

تدرجياً ، وكان سلطانهم الأول عبد الحق بن محيو ، وخلفه ابنه سعيد عثمان بن عبد الحق ، الذي حارب الموحدين ٢٣ عاماً ، حتى مات قتيلًا سنة ٦٣٨ هـ .

وقام بالأمر بعده أخوه أبو معروف بن عبد الحق ، الذي دحره الموحدون ، وقتلوه في الحرب في ٦٤٢ هـ ، ١٢٤٤ م ، وقد كان بنو مرين أحكموا نفوذهم في عهدهما في مراكش الشرقية .

وخلفه أبو بكر بن عبد الحق ، والذي افتتح في ٦٤٣ هـ ، ١٢٤٥ م مكناسة وفاس وتوفي عام ٦٥٦ هـ ، ١٢٥٨ م بعدما دام في الحكم ١٤ عاماً .

وتولى الأمر بعده يعقوب بن عبد الحق في ١٢٥٨ م ، الذي أحكم جذور بني مرين وجعل دولتهم لا تنال ، وقام بأعمال جليلة لامعة في التاريخ ، جاء في دائرة معارف القرن العشرين :

«كان هذا السلطان من كبار سلاطين المغرب ، فإن له غير هذه الفتوحات أعمالاً خيرية ، فقد بنى بيمارستانات للمجانين والمجذومين والعمي والفقراء وأجرى عليها جميعها المرتبات ، وبنى مدارس لطلبة العلم ، ووقف عليها أموالاً طائلة»^(١) .

وكان قد وزع أوقاته من الليل والنهار ، فكان يصرف الثلث الأخير من الليل في الصلاة والقيام ، وبعد صلاة الفجر يشتغل إلى نحو الساعة العاشرة بدراسة الأخلاق والفلسفة ، ثم ينصرف بعد صلاة الضحى إلى الأعمال الرسمية ، قد غزا إسبانيا في ٦٧٤ هـ ، ١٢٧٥ م ، ثم هجم عليها للمرة الثانية في ١٢٧٧ م ، وساعد ابن الأحمر صاحب الأندلس وباني الحمراء وخاض مع الفانوسو حروباً كثيرة ، حتى تسلم الأندلس ، وأسلمها إلى بني الأحمر ، ورجع إلى مقره ومات في ٦٨٥ هـ ، ١٢٨٦ م ، بعد أن حكم ١٩ عاماً .

(١) دائرة معارف القرن العشرين ٨ - ٦٨١ .

وخلفه ابنه الناصر الذي أكسب دولة بني مرين رونق الحضارة وعزة الملك وفي عهده اخترع العرب البارود واستعملوه في حروبهم^(١) ، وتوفي في ٧٠٦ هـ نائماً بطعنة خصي اسمه سعادة .

وبعد ذلك جاء على عرش دولة بني مرين المنصور بالله أبو الحسن علي ، وكان أفخم بني مرين دولة ، وأكبرهم ملكاً ، وأكثرهم أبهة ، وآثاراً بالمغربيين والأندلس^(٢) ولكن الإسبانيين والبرتغاليين استغلوا ضعف الحكام والسلطين الآخرين من بني مرين وبدؤوا يغيرون على مراكش ، وفي آخر عهد دولة بني مرين كان البرتغاليون قد استولوا على أكثر ثغور مراكش ، فاستولوا على سبتة ٨١٨ هـ ، ١٤١٥ م وعلى قصر المجاز أو قصر مصمودة سنة ٨٦٢ هـ وعلى طنجة سنة ٨٦٩ هـ وعلى أصيلا سنة ٨٧٦ هـ وعلى مدينة آسفي وبعض جهات السوس في السنة المذكورة وغير ذلك بحيث لم يبق من ثغور مراكش بيد أهلها إلا القليل^(٣) .

وكان عبد الله الثالث آخر سلاطين بني مرين ، وكانت دولة بني مرين قد تضعع بنيانها ، وتفككت عراها ، فتغلب عليها بنو وطاس ، وداموا يحمون منذ ٨٧٦ هـ إلى ٩٦١ هـ وكان أول سلاطينهم أبو عبد الله محمد الشيخ الذي في زمانه محيت دولة المسلمين من الأندلس ، وترامت بهم الأقطار ، وذهب غالبهم إلى المغرب الأقصى ، وتونس وطرابلس ومصر ومات السلطان محمد الشيخ سنة ٩١٠ هـ ، ١٥٠٠ م ، وقدم سلطان غرناطة أبو عبد الله بن الأحمر فاستوطن فاس تحت رعاية السلطان محمد الشيخ ، وخلفه ابنه محمد الملقب بالبرتغالي ، الذي ظل مصروفاً إلى حرب المسيحيين في مناطق الثغور ، مما مكن الأشراف السعديين من بسط النفوذ ، وظهور دولتهم سنة ٩١٥ هـ ، ومهد لانقلاب دولة بني وطاس .

(١) أيضاً ص ٦٨٢ .

(٢) أيضاً ص ٦٨٣ .

(٣) أيضاً ص ٦٨٧ .

دولة الأشراف السعديين من ٩١٥ هـ إلى ١٠٦٩ هـ:

الأشراف السعديون ينتسبون إلى محمد النفس الزكية بن عبد الله المنحصر بن الحسن السبط بن علي رضي الله عنهم وكان العهد عهد الانحطاط الشنيع ، فقد استولى البرتغاليون - بعدما استولوا على مغادور ومزغان في سنة ٣- ١٠١٢ هـ ، ٧- ١٥٠٦ م على آسفي وأغادير وآزمور ، وبلغت الحروب الأهلية إلى أن البرتغاليين كلما دعوا إلى الصلح قالوا: من هو أميركم الذي تجتمع عليه كلمتكم؟ حتى نكلمهم به ، فاتفقت كلمة جمع من العلماء والأمراء العقلاء على أن يبايعوا الشريف محمداً من أهل درعة .

وكان السبب في قدومهم إلى المغرب أن أهل درعة كانت لا تصلح ثمارهم فقيل لهم: لو أسكنتم بين ظهرانكم أحد الأشراف لصلحت زراعتكم ، فأتى أهل درعة بالمولى زيدان بن أحمد فصلحت زراعتهم وسموا بالسعديين تفاؤلاً بذلك^(١) ، وكان أصلهم من ينبع النخل من أرض الحجاز .

وكان أول ملوكهم القائم بأمر الله أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن ، الذي خاض معارك عديدة ضد البرتغاليين ، وخرج منها فائزاً منتصراً ، وتوفي سنة ٩٢٣ هـ .

وحكم بعده ابنان له ، وأصغرها محمد أبو عبد الله المهدي ، الذي طرد البرتغاليين من كثير من المناطق ، وافتتح مكناسة ، وفاس سنة ٩٥٧ هـ ، ١٥٥٠ م ، وطردها حسون الذي انحاز إلى الأتراك في الجزائر ثم عاد أبو حسون إلى فاس وافتتحها بمساعدة صالح باشا وقهر المهدي ، وبما أن المهدي كان يحقد على الأتراك العثمانيين لاستيلائهم على المغرب الأوسط ، ويطيل لسانه بسبب السلطان سليمان القانوني ، فأضمر له هؤلاء الشر وقتلوه ، قتلوه سنة ٩٦٤ هـ ، وكان المهدي عالي الكعب في العلم ، يحفظ القرآن الكريم ، وصحيح البخاري ، وديوان المتنبي ودواوين

(١) نفس المصدر ص ٦٩٠ .

الشعراء الآخرين ، وخلفه ابنه أبو محمد عبد الله الغالب بالله سنة ٩٦٤ هـ ،
وخاض عبد الله حروباً مع البرتغاليين وتوفي سنة ٩٨١ هـ .

وقام بالأمر بعده أبو عبد الله محمد المتوكل على الله ، فلما كانت سنة
٩٨٣ هـ قدم عليه عمه عبد الملك بن الشيخ بجيش من الترك ، فبدد ملكه ،
رغم تقدم المتوكل بجيش فيه ١٢٥٠٠٠ مقاتل ، ومعه حليفه ملك
البرتغاليين لقتال عبد الملك ، وحدث بين الفريقين قتال عنيف ، انتهى
بانتصار جيش عبد الملك ، وكان قد مات في خيمته ، وقتل ملك البرتغال
غريقاً في نهر ، وقتل المتوكل أيضاً^(١) .

وقام بالأمر بعد عبد الملك ، الشريف أبو العباس أحمد المنصور بالله
سنة ٩٨٦ هـ الذي اتسع ملكه حينما استولى على تومبكتو ، وكانم ،
وكاغو ، وغيرها من بلاد السودان ، وكانت بينه وبين القوى الأوربية
علاقات ود ، وكانت بينه وبين الملكة إليزابت مراسلات ومكاتبات وبني
المنصور مباني عظيمة منها القصر المشهور المسمى بالبديع ، صرف عليه
مالاً طائلاً ، فرشاه بالرخام والفسيفساء والطنافس والحريز ، وأتم بناءه في
١٧ عاماً ، وكانت وفاته سنة ١٠١٢ هـ بالبواب الذي كان انتشر في تلك
السنين^(٢) ، وقد هدمه مولاي إسماعيل في عهده .

ووقعت الدولة بعد المنصور فريسة حروب داخلية ، تولى الأمر بعده
ابنه السلطان الشريف أبو المعالي زيدان ، وفي عهده أصيب المسلمون في
الأندلس بالكارثة العظيمة ، فقد كانوا فقدوا غرناطة ٨٩٧ هـ ، ويعيشون
فيها ذعراً وخوفاً وبؤساً ، وفي ١٠١٦ هـ قد أجل فيليب الثاني ملك إسبانيا
لجلاء المسلمين عن الأندلس ثلاثة أيام وأعلن أنه من وجدناه بعد ذلك
قتلناه ، فتفرق المسلمون في الأمصار والأقطار ، وضوى غالبهم إلى
فاس وتلمسان وهران ، وبعضهم إلى الجزائر وسلا وتطوان وفي عهده
استولى على العرائش الإسبانيون ، وعلى مهدية البرتغاليون ، توفي

(١) المصدر نفسه ص ٦٩٢ .

(٢) راجع المصدر نفسه للاطلاع على التفاصيل .

زيدان في ١٠٣٧ هـ^(١) ، ولم يأت بعد ذلك ملك يذكر شأنه ، وتسجل أعماله .

دولة الأشراف السجلماسيين :

يتصل نسب سلاطين هذه الدولة إلى رسول الله ﷺ ، أصلهم من ينبع النخل بأرض الحجاز ، وكان أول من نزح منهم إلى المغرب المولى حسن بن قاسم في أواخر القرن السابع ، في أول عهد الدولة المرينية ، وكان مسلماً عالمياً بكثير من العلوم صالحاً زاهداً ، ومن أولاده السيد علي المثني ، وهو جد الأشراف الحاليين الحاكمين بالمغرب ، وكان له ولد سمي الشريف محمد ، وهو أول من تولى الرئاسة منهم ، وتوفي سنة ١٠٦٩ هـ ، وتولى الأمر في حياته ابنه محمد في ١٠٥٠ هـ الذي خرج عليه أخوه المولى الرشيد بن الشريف بعد وفاة أبيه ، وحاربه ، فمات المولى محمد في القتال برصاصة وذلك في سنة ١٠٧٥ هـ ، وقد استطاع الرشيد أن يجعل دولته خلال حكمته لثمانية أعوام أن تضرب بجرانها ، وكان الإنجليز يدعونها «تفيلة أعظم» توفي سنة ١٠٨٢ هـ .

وتولى بعده أخوه المظفر بالله أبو النصر الشريف إسماعيل في ٢٦ من سنه وحكم ٥٥ عاماً ، وكانت الدولة في عهده موطدة الأركان راسخة البنيان ، وكان هذا السلطان واسع الملك ، أما مبانيه بقلعة مكناسة ، وقصوره ، ومساجده ، ومساجده ومدارسه وبساتينه فشيء فوق المجهود^(٢) .

ويقول العقيد اسكات : «كان إسماعيل متوراً ، وأكثر حزماً بالنسبة إلى سلاطين مراكش الآخرين ، وأدنى ما يدل على ذلك ، أن كل ما رأيته في مراكش من المباني الخيرية ، كلها بنيت في عهده كما قيل لي» .

وكانت الشوارع في مكناسة ومراكش وفاس في عهده - فيما يقول مؤلف «نزهة الهادي» - معمورة بالغادين والرائحين ، وكانت المرأة وحدها تسافر

(١) راجع للتفصيل المصدر نفسه ص ٦٩٢ - ٦٩٤ .

(٢) المصدر نفسه ص ٦٩٥ - ٦٩٨ .

من تلمسان إلى دادنول ، ولا تحدث نفس أحد بأن يتعرض لها ، وكان يحافظ على الصلوات الخمس بالجماعة وأينما حل لأيام بنى مسجداً ، ويؤمه لميعاد كل صلاة مكتوبة ، وكان يحمل معه دائماً المصحف في الحل والترحال .

وكان إسماعيل كثير العيال ، وكانت صلواته مع الحكومات الأوربية جيدة ، وكانت كفته راجحة ، يقول الأديب الفرنسي الشهير والتير :

«كان ملك البرتغال وأمير البحر بقتالة وغيرهما قد خضعوا له إلى أن مدوا إليه يد طلب المساعدة ، لكن المولى إسماعيل الذي كان محارباً شجاعاً وحازماً بطاشاً ، قد رضي بتقديم المساعدة على شروط كانت خطراً على المسيحية ، وسبب عار وشنار لملك البرتغال ، فقد طلب منه مقابل ذلك أن يدفع إليه أبنية وحصوناً ، ومن أجل ذلك فلم تتم المساعدة ، وظل المسيحيون يبدد بعضهم بعضاً دون أن يفسحوا الطريق إلى بلادهم للوحشيين (المسلمين) .

وقد استطاع المولى إسماعيل تخليص جميع الموانئ من الأجانب سوى ستة ، تلك الموانئ التي كانوا مستولين عليها منذ عهد بعيد ، وتوفي في ١١٣٩ هـ ، ١٧٢٧ م عن ٨١ سنة»^(١) .

ولم يستطع أخلاف إسماعيل أن يحتفظوا بشوكة الحكومة ومنعتها ، وابقوا عليها مرهوبة الجانب ، مرفوعة الرأس ، وكان منهم المولى محمد الذي كان يتمتع بوفور العقل وحسن التدبير والحزم ، وخاض حروباً كثيرة ، والذي عقد في ١١٨٩ هـ شروط صلح بينه وبين الفرنسيين وأوجد بينه وبين السلطان مصطفى العثماني صلة صداقة وطيدة ، وعقد المعاهدة مع حكومات أوربية عديدة ، وزوج ابنته لشريف مكة ، وأرسل أموالاً طائلة توزع على أشرف الحجاز ، وجوائز عظيمة للعلماء والنقباء وغيرهم بمكة والمدينة ، وفي ١١٨٢ هـ ، ١٧٦٨ م هزم البرتغاليين في معركة أشنع

(١) راجع للتفصيل تاريخ مراكش ١ - ١٨٥ - ٢١٢ .

هزيمة ، وعقد مع فرنسا معاهدة تجارية وأمر بأن يخطب للسلطان العثماني على المنابر .

وكانت للمولى سليمان صلوات عميقة مع نابليون ، وحدث في عهده في ١٢٢٦ هـ حادث جلل ، وهو انتشار الثورة بين البربر .

وتولى الأمر بعده ابن أخيه المولى عبد الرحمن بن هشام الذي ساعد الأمير عبد القادر حينما استولى الفرنسيون على الجزائر في ١٢٤٦ هـ ، وبسبب عدم الأخذ بوصية الأمير لآقت مراکش هزيمة نكراء على يد فرنسا في ١٢٦٠ هـ ، ١٨٤٤ م ، توفي السلطان عبد الرحمن ١٢٧٦ هـ ، وقام بعده بالأمر ابنه المولى محمد .

يقول محمد فريد وجدي وهو يتحدث عن السلطان محمد ، ويلقي الضوء على عهده :

«في أول حكم هذا السلطان نشب القتال بين المراكشيين والإسبانيين ، وكان السبب في ذلك أن سبته كانت للإسبانيين ، وكانت العادة قد جرت بين جنود التخوم الفاصلة بين الحدين أن يبنوا لأنفسهم بيوتاً من خشب ليقيموا فيها ، رأى جنود مراکش ذات يوم أن جنود إسبانيا يقيمون لهم بناء بالحجر على شكل قلعة على الحدود ، فمنعوه من بنائها بالقول ، فلم يمتنعوا فهجموا عليهم وهدموا البناء ، وقتلوا منهم من قاوم ، فثارت نائرة سفير إسبانيا في طنجة ، وطلب معاينة الجناة وسمى منهم ١٢ رجلاً بالاسم ، وطلب قتلهم بعد استفادهم إلى طنجة فأخذ والي طنجة يهدىء من نائرتة ويحاول إقناعه فلم يقنع ، فتوسل إليه بسفير إنجلترا فلم يقد التوسل ، فأخبر السلطان الخبر فجمع السلطان وزراءه ومستشاريه ، وبسط لهم الأمر فعدوها إهانة لم يسبق لها مثيل ، وأجمعوا على وجوب الحرب إن اقتضت الحال ، فرفض السلطان طلبات إسبانيا ، فكان هذا الرفض داعياً لقطع العلاقات بين المملكتين ، وكتب السلطان للثغور بالاستعداد وللقبائل بجمع الجنود ، وما هي إلا أيام حتى برز في جهة سبته جيش من الإسبانيين مؤلف من ٢٠ ألف مقاتل ، كاملي العدد والآلات والذخائر ، فقابلهم المراكشيون

بشجاعتهم المعهودة ، ولكن ماذا تغني الشجاعة أمام النظام والآلات الجهنمية ، فكانت تحصدهم مدافع الإسبانيين ، وبعد عدة وقائع انهزموا ، وتبعهم الإسبانيون إلى مدينة «تطوان» ، وكان عددهم وهم بها ٧٠٠٠٠ مقاتل ، وكان ذلك سنة ١٢٧٦ - ١٨٥٨ م فاستولوا على ما بها من الأموال ، ولم يجدوا بها إلا مدفعاً واحداً وقليلاً من البارود ، فحولوا مسجد سيدي عبد الله البقال إلى كنيسة ، وعاملوا الأهالي بقساوة ، ثم ذهب أسطولهم إلى أصيلا فهدم وأتلف كثيراً منها ، ثم اضطرت مراكش لطلب الصلح فاجتمع المندوبون ، فتشدد الإسبانيون في مطالبهم ، وقدموا شروطاً لم يرض بها السلطان ، فعاد القتال أشد مما كان ، وحدثت عدة وقائع ، انتصر المراكشيون فيها كلها ، ومع هذا فقد تم الصلح على الشروط التي أرادها الإسبانيون إلا قليلاً ، وتم بينهم الاتفاق سنة ١٨٦٠ م ، ١٢٧٦ هـ .

وكان أهم شروط الصلح أن تدفع مراكش لإسبانيا مئة مليون فرنك ، وتتنازل لها عن قطعة أرض جنوب سبتة ، وأن يكون لها فرضة بحرية على المحيط الأطلنطيقي ، وهي التي سموها «سانت كروز» ، وأن يكون لها الحق في إقامة وكيل في مراكش ، والتصريح لقسوسها بإنشاء المدارس والأديرة ، وأن يكون لها نفس الامتيازات التي منحت لأعظم الدول الأوربية الأخرى^(١) .

وتولى الأمر بعد ذلك مولاي الحسن (١٢٩٢ هـ - ١٣١٢ هـ ، ١٨٧٥ م - ١٨٩٤ م) الذي شغله روع الثورات الداخلية خمس سنوات ، وكان ذا همة عالية إلى جانب الحزم والعزم ، وقد قام بإجراء إصلاحات كبيرة في المملكة ، وعني بتنظيم الجنود على الطراز الحديث وجلب الحديث الأحدث من الأسلحة آنذاك ، وأرسل عدة من شبان بلاده إلى بعض مدارس فرنسا وألمانيا للتدريب على الفنون العسكرية والعلوم الرياضية ، كما جلب من هذه البلدان خبراء وضباط عسكريين لتدريب قواته وأقام في ١٣٠١ هـ ، ١٨٨٣ م مطبعة في طنجة وأصدر صحيفة باسم «المغرب

(١) دائرة معارف القرن العشرين ٨ - ٧١٢ - ٧١٣ .

الأقصى» باللغة الإسبانية ، ثم أصدر «ريويل دومراكو» ، كما أصدر في ١٨٨٤ م «تايمز آف مراكو» ، وكان في طريقه إلى فاس والرباط لردع رعاياه فوافته المنية ١٣١١ هـ ، ١٨٩٤ م .

وقد أوقف استيراد التبغ بعدما استفتى العلماء ، وكان بعيد المهمة والنظر كسلفه ، وقد عرض عليه الإنجليز خطة ذات ١٦ مطلباً من أجل ترسيخ قدمهم في المملكة فرفضها رفضاً باتاً .

وخلفه ابنه المولى عبد العزيز الرابع ١٣١٢ هـ ، ١٨٩٤ م في ١٦ من سنه ، فثارت عليه القبائل على عادة أهل المغرب لدى تولي كل سلطان جديد ، ولما رأت الدول هذه الثورات عند إقامة المولى عبد العزيز سلطاناً ، اضطرت إلى المحافظة على رعاياها في المملكة ، فأرسلت كل من فرنسا وألمانيا وإنجلترا وإيطاليا وإسبانيا والبرتغال ، سفناً حربية إلى طنجة ، ولما استطاع السلطان إخضاع هذه القبائل حتى أذعنّت إلى الطاعة عادت سفن هذه الدول إلى بلادها .

وقد أدخل السلطان إصلاحات كثيرة على النظام العسكري وعني بتدريب القوات على النظم الأوربية ، وعندئذ نهض أخوه مولاي عبد الحفيظ ، وأثار عليه القبائل بحجة أنه ينزع لمجاراة الأوربيين في عوائدهم ، فتنحى السلطان عن السلطة على إيعاز من فرنسا . فاستبد بالأمر مولاي عبد الحفيظ في ١٣٢٩ هـ ، ١٩٠٨ م ، ولكن ما لبث حتى اضطر إلى الاستقالة ، وبسطت فرنسا في ١٣٣٠ هـ ، ١٩١٢ م حمايتها على «الدار البيضاء» وفاس ومدن أخرى ، وفي نفس العام خربت الرباط ، وصارت الحكومة لعبة بيديها ، وعينت مولاي يوسف سلطاناً الذي وقف موقف المهادنة مع فرنسا نظراً إلى الملابس^(١) .

يقول روم لاندو (أستاذ العلوم الإسلامية وعلوم إفريقية الشمالية في جامعة يسفك):

(١) انظر تاريخ مراکش ٢-٢٢ ، ٤٣ ، ودائرة معارف القرن العشرين المجلد الثامن .

في ١٣٤٦ هـ ، ١٩٢٧ م تولى الملك ابن مولاي يوسف محمد الخامس في ١٨ من سنه ، فأعلن في خطابه بطنجة الحق الشرعي لشعب مراكش ، وضغط على إيجاد العلاقات مع العالم العربي ، ولم يكن من الممكن كسب معركة التحرير في مراكش بدون اعتبار محمد الخامس قائداً دينياً ودينوياً^(١).

والسلطان محمد الخامس والد السلطان الحالي مولاي الحسن الثاني ، وكان سلطاناً ثاقب النظر ، قوي الإرادة ، صالحاً حازماً ، تقياً لله ، وكان موضع الحب والاحترام والقبول عند الشعب من أجل مزاياه وورعه وتقواه .

يقول روم لاندو:

«بز احترامه احترام جميع السلاطين الماضين ، وكانت كل طبقة كأنها تعبده ، وجعل الناس يعتبرونه ولياً مقدساً»^(١).

وكان السلطان الحالي الحسن الثاني سَاعِدَ والده الأيمن في حياته ، ومستشاره الخاص وزميله في حركة تحرير مراكش .

وقد اعتقلتهما حكومة فرنسا في ٢٠ أغسطس ١٩٥٣ م وعليهما ملابس متواضعة ، ووضعتهما على فرش الطائرة في برد قارس ، واتجهت الطائرة إلى (Corsica) ثم جيء بهما إلى «مدغشقر» وحبساً في فندق بال كان سقفه يترشح ، ثم عادا إلى مراكش في نوفمبر ١٩٥٥ م ، وتحررت البلاد في ٢ مارس ١٩٥٦ م^(٢) ، وبعدها رجع محمد الخامس من المنفى ، واستقلت البلاد ، أعطى ولده (الملك الحسن الثاني) مناصب حساسة ، ثم تولى الملك بعد وفاته في ٢٦ فبراير ١٩٦١ م .

ولازم السلطان الحسن الثاني موقف الاعتدال ، فهو صديق الدول العربية والإسلامية ، كما أن له علاقات الصداقة مع الدول الأوربية بحكم موقع بلاده ، ولكن ليس على حساب أنفته وإبائه ، وحينما أرادت إسبانيا أن

(١) Hassan II King Of Morocco .

(٢) نفس المصدر ص ٤٩ .

تخلي في الصحراء ، فقام للاستيلاء عليها بالمسيرة الخضراء عام ١٩٧٥ م في ثلاثمئة وخمسين ألفاً من أبناء وطنه ، واستولى على الصحراء ولم يبال بخطر هجمات إسبانيا ، وقد كانت الروح الدينية أحد العوامل في هذه المسيرة ، فقد كان الناس مقبلين إلى الدعاء والإنابة والصلاة والتلاوة ، ولما بلغوا الصحراء صلوا ركعتين شكراً لله .

وكان هتاف هؤلاء المجاهدين العزل - وكان فيهم ١٣ ألف سيدة أيضاً - الكفاح الكفاح ، القرآن هو السلاح ، وكانت الصحراء تحت استيلاء إسبانيا منذ ٩٠ سنة ، وقد قطع هؤلاء المجاهدون لتخليصها مشقة مسافة ٩٠ ميلاً إلى مدينة العيون ، وعانوا صعوبات في الطريق ، وتتصل حدود هذه الصحراء بعدد من البلاد ، فتتصل عبر ألف ميل بموريتانيا ، وعبر ٥٠ ميلاً بالجزائر ، وعدد سكانها نحو ٧٤ ألفاً من النفوس .

وهذه الصحراء جزء من الصحراء الإفريقية الكبرى ، التي تمتد على مسافة ٨٠ مليون كيلومتراً مربعاً ، هي في ملك ١٣ دولة إفريقية ، وقد بلغها المجاهد المؤمن عقبة بن نافع من جانبها الشمالي في ٦٢ هـ .

وأهميتها المادية أنها في الدرجة الرابعة من العالم في إنتاج «فاسفيت» وقود القوة النووية وكذلك سواحلها من أهم مراكز صيد الأسماك في العالم ، وقد جرت المفاوضات السياسية فيما يتصل بمصير هذه الصحراء فيما بين مراكش والجزائر وموريتانيا ، وإسبانيا إلى مدة طويلة ، ولم تسفر عن نتيجة ، فتقدمت مراكش واستخدمت بسالتها ، وقامت بهذه المسيرة الآمنة الموفقة المثمرة .

الطرق الصوفية :

سوف لا يتم أي تاريخ لمراكش ما لم تذكر الطرق الصوفية ، لأن المسلمين نالوها بفضل المجاهدين والصوفية ، الذين كانوا يجمعون بين الدعاء والتسبيح والمناجاة في خلوات الليل ، والتكبير المتواصل في النهار على سهوات الخيل ، فقد كان الإسلام عندهم ديناً ودولة ، وسيفاً

ومصحفاً ، وهؤلاء الذين قضوا على نفوذ المسيحية ، ونفخوا روح اليقظة الإسلامية في الرُّهاد والعلماء .

يقول الأمير شكيب أرسلان رواية عن المسيو بونه موري :

«في أواخر القرن الحادي عشر للمسيح طمست أكثر الكنائس الأرثوذكسية التي كانت ممتدة على ساحل إفريقية الشرقية ، ومن مصر إلى المغرب إلا بعض جماعات لبثت أشبه بجزر صغيرة مجهولة في وسط الإقيانوس الإسلامي»^(١) .

ويقول : «وكان الشرفاء أعقاب إدريس ، من أتباع العقيدة الصوفية ، وكانت هذه العقيدة تقرأ في فاس وتونس ، وهما أعظم مراكز العلم بإفريقية ، وقد أخذ بها خلق كثيرون ، ووصلت الطريقة القادرية إلى إسبانيا ، فما زالت دولة العرب من غرناطة حتى انتقل مركز الطريقة القادرية إلى فاس ، وبواسطة أنوار هذه الطريقة زالت البدع من البربر ، وتمسكوا بالسنة والجماعة . . أما الطريقة الثانية فهي الشاذلية نسبة إلى أبي الحسن الشاذلي ، أخذ عن عبد السلام بن مشيش ، الذي أخذ عن أبي مدين ، وكانت ولادة أبي مدين في إشبيلية ١١٢٧ م ، وقرأ في فاس ، وحج البيت الحرام ، ثم استقر بعلم التصوف في بجاية ، وتبعه خلق كثير انقسموا بعده إلى ثلاث فرق ، الأولى : الشاذلية المنتشرون في الجزائر ، والثانية : الدرقاوية الذين مركزهم في مراکش ، والثالثة : المدينة الذين هم كثيرون في طرابلس الغرب»^(٢) .

«وفي القرن الثامن عشر حصلت نهضة جديدة عند أتباع الطريقتين القادرية والشاذلية ووجدت طريقتان هما التيجانية والسنوسية .

وبالإجمال فالقادرية هم أحسن مبشر في الدين الإسلامي في غربي إفريقية . . ومن مريديهم من يخدمون مهنة الكتابة والتعليم ، ويفتحون

(١) حاضر العالم الإسلامي ٢ - ٣٦٠ طبع القاهرة ١٣٥٢ هـ .

(٢) نفس المصدر ص ٣٦٧ - ٣٦٨ .

كتاتيب، ليس في زوايا الطريقة فقط بل في كل القرى ، فيلقنون صغار الزوج الدين الإسلامي ، أثناء التعليم ، ويرسلون النجباء من تلاميذهم على نفقة الزوايا إلى مدارس طرابلس والقيروان وجامع القرويين بفاس ، والجامع الأزهر بمصر، ويعودون إلى تلك البلاد لأجل مقاومة التبشير المسيحي»^(١).

«أما الطريقة الشاذلية فقد تأسست في النصف الأول من القرن الثالث عشر للميلاد ، وهي من أوليات الطرق التي أدخلت التصوف في المغرب ، ومركزها بوبريت في مراكش ، وكان من أشياخها سيدي العربي الدرقاوي (المتوفى ١٢٤٩هـ ، ١٨٣٢ م) الذي أوجد عند مرديه حماسة دينية شديدة امتدت إلى المغرب الأوسط وكان للدرقاوية دور فعال في مقاومة الفتح الفرنسي .

وهناك الطريقة التيجانية ، مؤسسها أحمد بن محمد التيجاني المتوفى في فاس ١١٩٧ هـ - ١٧٨٢ م . . . ، ولقد تبع الطريقة التيجانية عدد كبير من أهالي ماسينه في السودان ، وأهالي فوتاتورو «Fautatoro» وفوتا جالون وأمة البلد ، وصاروا من أشد أنصار الإسلام وانضموا حول راية الحاج عمر ، فكانوا طيلة أربعين سنة ، هم سادة السودان من تمبكتو إلى الإقيانوس الأطلانطيقي»^(٢).

* * *

(١) نفس المصدر ص ٣٩٥ - ٣٩٦ .

(٢) نفس المصدر ص ٣٩٦ - ٣٩٧ .

أسبوعان في المغرب الأقصى الحنين إلى زيارة المغرب الحبيب وتحقيق هذه الأمنية الأثيرة

قد عشت في أمنية زيارة المغرب ، وذلك لأنها تحمل شخصية ممتازة أصيلة ، ومدرسة مستقلة ، في التاريخ الإسلامي ، والحضارة ، والعلوم الإسلامية والأدب والشعر ، والهندسة ، والفن المعماري ، وقد وجد الإسلام فيها مجالاً خصباً ليتجلى إعجازه ، وقدرته على التأثير والإنجاب ، والتخريج والإنتاج ، وكسب القلوب وفتح النفوس ، وسحر العقول ، فقد استطاع أن يخضع أمة عصية أبية مثل البربر ، وجعلهم جزءاً من أجزاء القومية الإسلامية العالمية ، وصهرهم في بوتقة الحضارة الإسلامية العربية ، حتى استطاع أحد أبنائهم ، طارق بن زياد ، في نهاية القرن الأول الهجري أن ينشئ في إسبانيا (الأندلس) حكومة الإسلام .

وظلت إسبانيا طيلة ثمانية قرون ترتع في حظيرة الإسلام ومركز الحضارة الإسلامية ، والعلوم والفنون الإسلامية ، وقد كان مع طارق بن زياد ١٢ ألفاً من المقاتلين شذ فيهم من كان من العرب ، وجلهم أو كلهم كانوا من البربر ، وقامت في إفريقية الشمالية حكومات مرهوبة الجانب دوت صداها عبر قرون طويلة من «برقة» و«طرابلس» إلى ساحل المحيط الأطلانتيكي بل في أرجاء أوربة أيضاً ، يجدر بالذكر منها بصورة خاصة حكومات «الفاطميين»^(١) و«المرابطين» و«الموحدين» (ويصح أن ندعوها

(١) ويدعوهم معظم المؤرخين العرب من أهل السنة «العبيدين» ويشكون في انتمائهم إلى =

«إمبراطوريات» إذا تحرينا الدقة في التعبير) ، وقد كان مؤسس دولة الموحدين ينحدر من السلالة البربرية .

وقد أنجبت المغرب نوابغ العلماء وكبار الأئمة ، أمثال القاضي عياض ، وأبو القاسم ، عبد الرحمن السهيلي (شارح سيرة ابن هشام) ، وأبو الوليد الباجي (شارح الموطأ) والقاضي أبو بكر ابن العربي (صاحب أحكام القرآن) والكتب الجليلة في علوم الكتاب والسنة ، وعبد الرحمن بن خلدون (صاحب المقدمة والسابق إلى فلسفة التاريخ والتمدن) ، ومحمد بن محمد الإدريسي في الجغرافية ، وابن رشيق القيرواني في النقد والشعر والأدب ، وابن بطوطة في السياحة ، أولئك الذين تشبث بمؤلفاتهم وكتاباتهم علماء الشرق عدة قرون .

وأما في الزهد والورع ، والإحسان وتركية النفوس ، فقد أجمع الناس على الإقرار بفضل المغاربة في هذه الناحية ، ومواهبهم الطبيعية في هذا الشأن ، حتى قالوا: «إن الشرق أرض الأنبياء ، والمغرب أرض الأولياء» وهاكم مثل الشيخ أبي الحسن الشاذلي ، مؤسس الطريقة الشاذلية ، ومحمد بن سليمان الجزولي مؤلف «دلائل الخيرات» ، وسيدي عبد العزيز الدباغ مؤلف «الإبريز» .

ولكنه من عجيب الصدف أني - على شهرتي بكثرة الرحلات والجولات والزيارات ، وقد زرت فعلاً في ١٩٦٣ م إسبانيا - ما تمكنت من زيارة هذه الضفة الغربية من إفريقية الشمالية التي تمتد من طرابلس (ليبيا) إلى «طنجة» ، وما تشرفت في قارة إفريقية إلا بزيارة مصر والسودان .

وقد ثار فيّ الحنين إلى زيارة المغرب الأقصى أرض الظرف والروعة والجمال الطبيعي ، بدراسة التاريخ حيناً ، وبتأثير مجالس أستاذه العلامة الدكتور الشيخ تقي الدين الهلالي وحديثه ، وصديقي وزميلي الفاضل

= السلالة النبوية الكريمة ، راجع للتفصيل «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» الجزء الأول المقال الذي يتحدث عن صلاح الدين الأيوبي .

الأستاذ محمد العربي الهلالي^(١) اللذان عشت معهما أعواماً طويلاً ، وكانا يذكران مراكش قياماً وعوداً ، ويتحدثان عن حضارتها ومدنيتها ، ومزاياها وخصائصها ، وقد وجه إلي مرة جلالة الملك الحسن الثاني عاهل مراكش دعوة ملحة لزيارتها ، ومن عادته أنه يدعو نخبة العلماء من الأقطار الإسلامية في شهر رمضان المبارك لإلقاء الدروس والمحاضرات في القصر الملكي ، ويحضرها في عناية بالغة ، ويحضرها عدد كبير من أبناء البلد ، ويعني بنشر هذه المحاضرات التلفاز والراديو ، وتكون له كلمة ختامية في نهاية سلسلة هذه الدروس ، تطبع وتنشر في صورة كتاب ، ولكن ما تمكنت من الحضور لأن هناك نظاماً رتيباً لشهر رمضان المبارك في وطني «راي بريلي» ، أبقى متقيداً به ، ويحضره عدد وجيه من خالص الأصدقاء وطلبة دار العلوم ندوة العلماء ، وبناءً على ذلك اعتذرت عن تلبية الدعوة الملكية الكريمة وفاتتني الفرصة السانحة لزيارة المغرب ، وكان ذلك تقدير العزيز العليم ، فلو حضرت بهذه المناسبة ، ما تمكنت من زيارة أرجاء البلد والاحتكاك بمختلف الطبقات ، والاجتماع في حرية بنخبة الأفراد وصفوة الأشخاص ولاسيما العلماء ورجال الفكر وقادة التعليم والتربية وزعماء السياسة .

أسباب التيسير لزيارة المغرب :

وقد أتاح الله فرصة لتحقيق هذه الأمنية القديمة ، حيث وجهت إلي «جمعية الجامعات الإسلامية» (التي تدعى الآن رابطة الجامعات الإسلامية) دعوة لحضور المؤتمر السنوي للجامعات الإسلامية المزمع عقده في الرباط في نيسان سنة ١٩٧٦ م ، وقد وصلت هذه الدعوة إلى الهند حين كنت في الحجاز ، وهي جمعية جامعة للجامعات الإسلامية وكبار المعاهد والمدارس الإسلامية

(١) كان الدكتور محمد تقي الدين الهلالي رئيس قسم الأدب العربي في دار العلوم ندوة العلماء مدة ثلاث سنوات أو أكثر ، وأما شقيقه الأستاذ محمد العربي الهلالي فكان صديق الشيخ الندوي ورفيقه في الحل والترحال والتنزه والقصص .

المنبثة في العالم ، أسست منذ أعوام في عاصمة الرباط وفيها مقرها الرئيسي ، وقد كانت دورة مجلسها الاستشاري منذ ثلاثة أعوام في المدينة المنورة ، وكنت موجوداً بمناسبة الحضور في المجلس الاستشاري للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، وقد انتخبت عضواً في الجمعية بصفتي أمين عام ندوة العلماء ولا أزال على عضويتها منذ ذلك الوقت ، ولكن لم أسعد بالحضور ولا مرة واحدة في مؤتمرها السنوي ، وربما كان من الممكن أن أعتذر عن الحضور في هذه المرة أيضاً لكثرة أشغالي ، وطول المسافة وضعف الصحة ، لو لم يكن قد اطلع على القصة أمين عام رابطة العالم الإسلامي سابقاً معالي الشيخ صالح الفوزان ، وقد تلقى دعوة الحضور فعلاً ، ولكنه عينني ممثلاً عن الرابطة ، فقد كان من المزمع أن تعقد الرابطة مؤتمراً صحفياً في موريتانيا في تلك الأيام ، وكان من الضروري أن يحضره ، على كل فقد أخطر معالي الشيخ صالح رئيس الجمعية الشيخ محمد الفاسي بأن كاتب هذه السطور سيمثل الرابطة في مؤتمر الجمعية ، وقد قام بإتمام جميع الإجراءات فيما يتصل برحلة مرافقي ابن أختي العزيز الأستاذ محمد الرابع الحسيني الندوي ، فلم تعد لي حجة في عدم الحضور ، فقررت الرحلة ، ورأيت أن ذلك تيسير إلهي فلا بد أن نستجيب له ، وقد علمت فيما بعد أنها كانت فرصة أحسن لزيارة المغرب ، وتبادل الآراء ، والاجتماع بالرجال ، فتنجمع في المغرب زبدة العلماء ورجال الفكر والدعوة في العالم الإسلامي ، واستطعت أن أرى في وقت قصير الشيء الكثير ، وأتوصل إلى نتائج هامة ، وأحضر حفلات وجلسات موقرة ، وأزور كبار الرجال ، كل كان يقول: قدمت المغرب في خير أوان وخير مناسبة .

من جدة إلى الدار البيضاء يوم الأربعاء ٥ مايو ١٩٧٦ م :

علمت في مكة المكرمة ، يوم الثلاثاء ٤ مايو ١٩٧٦ م ، بعد صلاة العصر فجأة أنه من المقرر أن أتوجه غداً بعد صلاة الفجر من جدة إلى الدار البيضاء (كاسابلانكا) وكان هذا النبأ مفاجأة بالنسبة إلي ، فأوقعني في حرج ، فقد كنت أريد أن أتوجه قبل انعقاد المؤتمر الذي يبتدىء من ١١

مايو ، بيوم أو يومين ، ولكنه بما أنه كانت لي رحلة إلى لندن ، فكان من الضروري قانونياً أن أسافر بالطائرة السعودية ، فقد أعطى الطيران السعودي تذكرة السفر من جدة إلى لندن ومن لندن إلى بومباي دون زيادة في النول ، وقد بذل صديقي الشيخ عبد الرحمن تاجر بومباي مجهوداً كبيراً في هذا الصدد ، وقد حضرني العزيزان السيد حسن عسكري طارق والسيد مصباح النبي الحسيني في مكة المكرمة ، وأخبراني بأن الإجراءات كلها قد تمت في هذا الشأن ، ولا بد أن تتوجهوا إلى جدة بعد المغرب ، وتغادرونها إلى الدار البيضاء بالطيران السعودي في الساعة السابعة صباحاً ، وقد رضينا بذلك على مضض لأنه كان فيه صعوبات ، وكان من الضروري أن أسافر ذلك اليوم لأن الطائرة السعودية إنما كانت تسافر إلى المغرب يوم الأربعاء وحده ، والذي كان مبعث سرور لي في الرحلة بهذه الطائرة لأنها كانت تمر بالضفة الشمالية بتمامها ، فكانت محطتها الأولى طرابلس والثانية تونس ، والثالثة الجزائر ، والأخيرة الدار البيضاء ، وكانت هذه الأمكنة كلها موضع حبي وعنايتي ، أحن إلى زيارتها ، وكان إلقاء نظرة خاطفة عليها مبعث سرور لي ، مما أكد لنا أن هذه الطائرة كانت أجدر بأن أستأثر بها للرحلة ، لأن الطائرة المغربية (Morocco Airline) كان طريقها لا يثير في اهتماماً.

توجهنا إلى مطار جدة دون أن نتناول الفطور ، لأن الوصول إلى المطار قبل إقلاع الطائرة بساعة واحدة ضروري قانونياً. وشيعنا إلى المطار عدد من أعضاء أسرة «نورولي»^(١) وبيتها مقري الدائم في جدة ، من بينهم الشيخ الحاج محمد نورولي ، والأخ العزيز محمد ولي ، وعدد من الأصدقاء المخلصين الهنود ، وكان ممثل الرابطة موجوداً على المطار ليساعدنا في

(١) أسرة عبد الغني محمد نورولي هي صاحبة شركة كبيرة تقيم في الحجاز منذ نحو قرن أو أكثر ، وأصلها من فتن (نهر والا القديم) في الهند في ولاية كجرات ، وقد ظلت محافظة على التقاليد الهندية الطيبة ، ومع استفادتها بالإقامة في مركز الإسلام ومهبط الوحي .

إتمام الإجراءات اللازمة ، وتأخر إقلاع الطائرة ساعتين ، وأقلعت في التاسعة والنصف ، بدل أن تقلع في ميعادها في الساعة السابعة والنصف .

في الطائرة السعودية :

وحيثما دخلت في الطائرة سرني وجود وفد الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة - المكون من نائب رئيس الجامعة فضيلة الشيخ عبد المحسن بن عباد ، وأستاذاها الشيخ أبي بكر الجزائري - في الطائرة ، وكان مقعدهما في الدرجة الأولى إزاء مقعدينا ، وقد تلقيناني بحفاوة .

مع الشيخ محمد الغزالي :

وكان يتصدر مقعدي مباشرة مقعد الكاتب الإسلامي الكبير فضيلة الشيخ محمد الغزالي أحد زعماء الإخوان المسلمين ، وعلمنا بعد دقيقة أن خمسين طالباً في كلية الشريعة بمكة المكرمة - التابعة لجامعة الملك عبد العزيز بجدة - يسافرون بالطائرة إلى زيارة المغرب على حساب المملكة السعودية ، وتحت إشراف الشيخ محمد الغزالي أستاذ الكلية ، وقد فرحنا جداً بهذه الزمالة السعيدة التي تشرفنا بها من غير إرادة ، قد سعدت في عام ١٩٥١ م بزيارة مصر العزيزة ودامت إقامتي بها خمسة أشهر تقريباً ، وذلك في الأيام التي استطاع الإخوان المسلمون أن يتنفسوا إلى حد كبير بعد محنة طويلة قاسية ، وتعذيب واعتقال وتشريد ، وشنق ونفي ، وبعدهما ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وكنت أتوق إلى أن أزور مراكز حركة الإخوان وألتقي بدوائرهم النشيطة ورجالها الأبطال ، وكانوا يعرفونني عن طريق كتابي «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» الذي كان قد صدر حديثاً ، والذي تلقاه الإخوان في إقبال وحماس ، وكانوا يتلقون في كل حفاوة كل ضيف يسمح دمتهم ويواسي قرحتهم ، ويخفف من غلواء الهموم والأحزان التي فتت كبدهم أو يستنشقون إلى حد ما فيه ريا الحب والحنان ، واليقين والإيمان ، الذي كان يذكر مؤسس حركة الإخوان الإمام الشهيد حسن البنا رحمه الله .

وظللت أواظب بهذا المناسبة على أن أقوم بالرحلة كل أيام الجمع إلى

ضاحية من ضواحي القاهرة ، وإلى محافظة مجاورة ، ولا بد أن يرافقنا في هذه الرحلات والجولات الشيخ محمد الغزالي ، وإنه كان ممثلاً صادقاً للإخوان ، ومن رجالها الأمناء البارزين ، يتمتع بشخصية جذابة ساحرة ، متزنة جامعة ، ولسان عذب ذرب ، وخطبة مؤثرة مثيرة ، علماً أزهرياً بارزاً وأكبر مؤلف وكاتب ومتحدث باسم الإخوان آنذاك ، وكان أكبر منافس في الأوساط الدينية للإلحاد والتجدد والتغريب الذي بدأ يبيض ويفرخ ، ويستهزئ بالعقائد والحقائق الإسلامية بعد كبت حركة الإخوان ، وقد تعرفت عليه وأعجبت به من خلال دراستي لبعض مؤلفاته وكتاباته في إقامتي بالحجاز سنة ١٩٥٠ م ، ودوى صوته في البرلمان المصري وصدع بالحق مدوياً مجلجلاً مخاطراً بنفسه في العهد الناصري ، حينما كتمت الأفواه ، وكسرت الأفلام وصار نداء الحق «كلمة حق عند سلطان جائر» وقد التقينا نحن الصديقين الزميلين في مكة المكرمة بعد ربع قرن كامل ، ولكن ما تمكنا من تبادل الحديث في طمأنينة فطلبنا إلى الأخ الذي كان بجواره أن يفسح لي المكان ويمكن الصديقين من التحدث ، وظل الشيخ محمد الغزالي يتحدث في إفاضة عن دور المحنة والأيام العصبية التي مرت على الإخوان ، والأيام التي عرضت فيها كرامة العروبة والإسلام وشرفهم للامتهان ، وتعطلت الحياة فلا روح ولا حركة ، ولا صحو ولا يقظة ، وكيف استطاع في هذه الظروف القاسية والملابسات الدقيقة أن يؤدي مسؤولية الداعي العالم المجاهد ، ودار الحديث بيننا طويلاً عن الانتفاضة الجديدة للإخوان ، ومدى الإمكانيات التي يمكن استغلالها في هذا الصدد .

انطباعات في مطار طرابلس :

وقد هبطت الطائرة على مطار طرابلس الغرب بعد أربع ساعات متواليات ، ولكن لم يسمح للمسافرين بالنزول ، وظللنا نلقي نظرة خاطفة ملؤها التلهف والتطلع على عاصمة المجاهدين السنوسيين التي أريقت على أرضها دماؤهم الزكية بسخاء ، فسقتها سقياً كريماً ، فأنبئت الاستقلال ، ولكن الحديث عنهم اليوم في هذه الأرض قد يعرض المرء للخطر ، أولئك الذين نال البلد وأهله شرفهم السليب وعزهم الفقيد بفضل دمهم الفائر

وإيمانهم الثائر ، ودموعهم الغزار التي سكبوها في خلوات الليالي ، والهجيع الأخير الذي يغط فيه المرء غطيظ البكر . . . إي والله قد شد نظير هذا النكران للجميل .

وقد جاءت محطة تونس بعد ساعة واحدة ، وسمح للمسافرين بالنزول ، وكان الماء موفراً في المطار ولكن لم يكن هناك إمكان التطهر به والاستفادة منه على طريقة إسلامية ، فقد كانت الحمامات كالحمامات الغربية تماماً ، ولكن سرنا تخصيص حجرة للصلاة باسم «بيت الصلاة» صلينا فيها الظهر ، وتعرفنا هناك ببعض الطلاب الهنود الذين يتعلمون في كلية الشريعة في جامعة الملك عبد العزيز بمكة .

ووصلت الطائرة بعد نحو ساعة إلى الجزائر ، ولم يكن الخروج من الطائرة مسموحاً به ههنا أيضاً ، لأن العلاقة بين المغرب والجزائر قد توترت بعد «المسيرة الخضراء» وما تراءى لنا من داخل الطائرة ، كان يدل على سعة المدينة وحسن تنظيمها ، وخصوبة هذه البلاد ، وقد وجدنا ههنا فرقاً كبيراً في الوقت .

في الدار البيضاء :

وأخيراً بدأت الطائرة تهبط على مطار الدار البيضاء (كاسابلانكا) ، وبدأ القلب يشعر بمزيج غريب من الفرح والهم ، فكان فرحاً قلقاً في وقت واحد ، وبدأنا نفكر فيما عسى أن نصنعه إذا كانت البرقية التي أرسلناها إلى أمين جمعية الجامعات ، لم تصل بعد ، فلا نعرف المسافة بين الرباط - التي انعقد فيها المؤتمر - وبين الدار البيضاء ، وأين نقضي الأيام الخمسة قبل المؤتمر؟ على كل هبطت الطائرة ، ونزلنا ، فما وجدنا أحداً يتلقانا ، وكانت الرحلة الأولى في بلد لا نعرف أحداً فيه ، فكنا واقفين على المطار في وضع ملؤه التردد والتفكير .

إن المدينة التي نزلناها هي مدينة المسلمين والعرب الذين يضرب بهم المثل في الحفاوة وحسن الوفادة والقرى ، فكنا واقفين في الوضع المقلق الذي وصفناه ، إذ تقدم أشخاص إلى الشيخ عبد المحسن والأستاذ أبي بكر

الجزائري ، وتلقوهما في حفاوة بالغة كعادتهم وعلمنا أنهم أعضاء «جماعة الدعوة إلى الله» ، قد اطلعوا على وصولهما بهذه الطائرة بالبرقية ، وقد تقدم إلينا أناس أيضاً ، ولما اطلعوا على اسمي قالوا: إن لهم معرفة سابقة بي عن طريق كتبي ومؤلفاتي ، وكانوا قد حضروا بسيارة للشيخ عبد المحسن والأستاذ أبي بكر الجزائري ، وهناك أخذ الشيخ عبد المحسن بيدي ويد مرافقي العزيز الأستاذ محمد الرابع وقال: «لا بد أن تكونوا معنا» .

وغادرت السيارة المطار وتوجهنا إلى الدار البيضاء التي كانت على مسافة نحو ٢٠ ميلاً من المطار ، ووصلنا إلى الدار البيضاء ، فعلمنا أن مضيفنا هو الأستاذ محمد الحريري الوراق أحد أثرياء المدينة ، وصاحب عقار وممتلكات ، ووقفت السيارة أمام قصر شامخ يضارع البلاط الملكي ، وتقاطر هناك أعضاء جماعة الدعوة إلى الله في عدد وفير ، مما علمنا أن الدعوة السلفية قد اتسع نطاقها ولقيت استجابة كبيرة ، وكان المتوافدون كلهم يرحبون بالضيوف ترحيباً حاراً ، تتهلل وجوههم ، ويقولون: «مرحباً بكم ، لا بأس عليكم» .

وقد غمرنا الفرح والعجب حينما دخل علينا بعد ساعة فجأة أستاذنا العلامة الدكتور تقي الدين الهلالي ، الذي حضر للقاء هؤلاء الضيوف - الذي علم بقدمهم - من وطنه «مكناس» التي تقع على مسافة ١٠٠ ميل من الدار البيضاء ، وليس بصعب تقدير الفرح الغامر الذي حصل للتلميذ والأستاذ إذ جمع الله بينهما على غير ميعاد وبدون إرادة ودام الحديث طويلاً حول مد الدعوة الإسلامية وما يواكبها من عوائق ومشكلات ، وحول مواضيع علمية وثقافية ودينية ، ثم صلينا العشاء وتناولنا العشاء ، ورغم أن القصر كان موفور السعة والراحة للضيوف ، ولكن الشيخ عبد المحسن بن عباد ألح على أن يكون نزولنا نحن الضيوف الأربعة في فندق ، فخرج بنا المضيف إلى فندق ، كانت في الدار البيضاء ثلاثة فنادق كبيرة على الترتيب الآتي: «الدار البيضاء» ، «مرحبا» ، «المنصور» ، وتوجهنا أولاً إلى «المنصور» فقالوا: عامر عامر ، يعني مشغول مملوء ، وما وجدنا هذا التعبير عن هذا الغرض في مكان ، وتستخدم الأقطار العربية الأخرى مكانها

كلمة «مليان» ولكن كلمة «عامر» أبلغ منها وأوفى بالمعنى ، وأقرب إلى العربية الصميمة الأصيلة ، الأمر الذي أكد رأيي الذي أراه منذ قديم أن القبائل العربية التي هاجرت من الجزيرة العربية إلى أقطار أخرى فتحها الإسلام ، لا تزال تحتفظ بالكلمات والتعبيرات العربية الأصيلة التي حملتها من نبعها ولم يمسهما حدثان الدهر بتغير ما على مضي القرون ، وعلى ذلك فإن تراث العربية منثور في البلاد والأقطار العربية ، ولكنه مصون محفوظ غير مخدوش أو منقوص ، وهاك التعبير عن شيء يستحسنه المرء ، فإن أهل العراق يقولون: «زين» ، وأهل الشام يقولون: «مليح» وأهل مصر يقولون: «كويس» ، هو تصغير: «كيس» ، وأهل الحجاز يقولون: «طيب» ، وعلمنا فيما بعد أن المغاربة يقولون: «خاوي» إذا أرادوا التعبير عن «الخالي» والبلاد العربية الأخرى تقول «خالي» أو «فاضي».

وتوجهنا بعد «المنصور» إلى فندق «مرحبا» ولكنه لم يرحب بنا ، وعلمنا أنه عامر كذلك ، وأخيراً قصدنا «الدار البيضاء» لنجرب الحظ ، ففسح لنا ذراعه ، ومد لنا باعه ، والفندق يشتمل على ثلاثمئة حجرة ، ولا يقل عن أكبر فندق في أوربة سعة وحسن إدارة .

زيارة الدار البيضاء والتجوال فيها وكلمة موجزة عما رأيناه فيها:

يوم الخميس ٦ مايو:

قضينا الليلة في راحة وهدوء ، كان الجو لطيفاً ، بارداً إلى حد ما ، ووجدنا في مستهل مايو البرودة التي نشعر بها في بلادنا في أواسط نوفمبر ، والطقس معتدل لأن المدينة تقع على شاطئ البحر ، وأخبرنا موظف في الفندق مثقف أن «كاسابلانكا» كلمة إسبانية ، معناها «الدار البيضاء» وسبب إطلاق هذا الاسم على المدينة أنه كانت هناك على هذا الساحل من المحيط الأطلنטיكي بيوت من مدر أو أكواخ كانت تطل على النورة البيضاء ، وذلك حين كان الملاحون البرتغاليون يقومون بالملاحة والتجارة على الساحل ، وكانوا يقولون: سنستجم عندما نصل «كاسابلانكا» ونتناول الطعام ، ومن هناك أطلق هذا الاسم على هذه المدينة .

وأعترف أن معلوماتي عن هذه المدينة العظيمة في المغرب - التي هي إحدى المدينتين الكبيرتين في قارة إفريقيا ، ولا تفوقها إلا «القاهرة» والتي تدعى «العاصمة التجارية» و«العاصمة المالية» - كانت قليلة جداً لا تغني غناء وما كنت أدري أنها في هذه الدرجة من السعة والعظمة وكثرة العمران وكثرة السكان ، وقد أحاطنا مضيفنا علماً بالأمس أن نسبة سكانها تتراوح بين أربعة ملايين وستة ملايين ، وقرأت في مذكرة سجلت في ١٩٣٢ م أن عدد سكانها لم يكن أكثر من مئتي ألف ، وتلك هي المدينة الشقية التي تسببت في استعباد فرنسا للمغرب كله ، فقد أسند إنشاء ميناء «الدار البيضاء» في ١٩٠٧ م إلى شركة فرنسية على المقاوله ، ووقع خصام عنيف شديد في ٣٠ يوليو بين العمال الفرنسيين والعمال العرب ، وذلك من أجل إهانة ضريح لشيخ من الشيوخ ، فثار العمال العرب ، ولقي ٦ أو ٧ أوربيين مصرعهم ، واستغلت فرنسا هذا الحادث لاستعباد هذا البلد الخصب المغل ، وحولوا «الرباط» خراباً يباباً ، وتغلبوا على ولايات عديدة إلى أن طُردوا في ١٩٥٥ م من أرجاء المغرب كلياً ، واعتلى عرش الحكم السلطان محمد الخامس .

وتعرفنا بالأمس على مائدة العشاء بتلميذ يحفظ صحيح مسلم متناً وسنداً اسمه السيد عبد الحميد واتفقنا معه ، على أنه سيزورنا اليوم في الفندق ، ويكون دليلاً لنا عند زيارة الآثار التاريخية والأمكنة الجديرة بالزيارة في المدينة ، وقد حضر الفندق ، ولكنه لم يتوصل إلينا ، فظللنا متعطلين إلى الظهر ، وأخيراً حضر مضيفنا بالأمس الأستاذ محمد الحريزي الوراق ، وتوجه بنا إلى منزل الشيخ الحاج مصطفى بن هاشم الذي كان من المقرر أن نتغدى عنده ، وطال المجلس بعد الغداء ، ورجعنا متأخرين .

وخرجنا بعد العصر لتتجول في المدينة ، فوجدناها نهاية في الجمال والظرف وطرز البناء ، واسعة جديدة البناء ، تقارب جنيف إحدى مدن «سويسرا» ، وزرنا مكاتب عديدة تجدر بالذكر منها «مكتبة الرشاد» و«مكتبة الثقافة» واستطلعنا عن وجود بعض مؤلفاتنا ، فقالوا: إنها موجودة فيها ،

وصلينا المغرب في الجامع المحمدي وبعد الصلاة ألقى الأستاذ أبو بكر الجزائري درسه ، والتقى بنا جماعة من الشباب وقالوا: كيف الشيخ أبو الحسن الندوي؟ ، فقلت: من أين تعرفونه؟ قالوا بكتابه «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» ، فقلت إنكم تتحدثون الآن مع مؤلف الكتاب ، وشف حديثهم عن قلقهم ، وتألمهم فيما يتصل بالدعاة الإسلاميين ، والحوادث الأخيرة .

وتعشنا عند صديق عربي آخر الأستاذ عمر محسن بن محمد ، وأهدى إلي أحد الإخوان من سكان المدينة وتجارها الكبار نسختين من كتابي «مذكرات سائح في الشرق العربي» اشتراها من بعض المكتبات ، وكتب في كلمات الإهداء إن الكتاب يهدى إلى مؤلفه .

أداء صلاة الجمعة في مكناس ٧ مايو:

تقرر في الليل أننا نتوجه بعد الفطور صباحاً إلى «مكناس» - المدينة التاريخية القديمة ، وإحدى المراكز الروحية - وقد ارتحل إليها أستاذنا الدكتور تقي الدين الهلالي بالأمس نهراً ، وسنصلي الجمعة اليوم خلفه .

ولكن لم نتمكن من الرحلة في الساعة السابعة صباحاً من أجل بعض الرفقة واستأنفنا السفر في الساعة العاشرة ، وخرجت سيارتنا من الدار البيضاء ، فاستقبلنا مناظر بهيجة فاتنة ، وأودية خضراء تمثل الجمال الساحر ، وقد يخيل إلينا ونحن نمر بها كأننا في كشمير .

وبعد قليل وصلنا «الرباط» العاصمة الحالية للمغرب ، تلك التي كان من المزمع قدومنا إليها بعد ثلاثة أيام ، للحضور في المؤتمر ، وبما أننا تأخرنا في بدء الرحلة وصلنا إلى مكناس وقد حان وقت الجمعة ، فلم نستطع أن نصل إلى المسجد الذي يؤم الجمعة فيه فضيلة الشيخ الدكتور تقي الدين الهلالي ، فصلينا الجمعة في جامع إيران ، أكبر مسجد في المدينة ، وكان موضوع خطبة الخطيب الآية الكريمة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ ، مما علمنا أنه عالم حريص على اتباع السنة يرغب في الإصلاح ، وبعد الصلاة صلوا على النبي ﷺ صلاة جماعة ،

ودعوا دعوة جماعية ، وتغدينا في منزل الحاج مصطفى بن سعيد ، في مأدبة أقامتها «جماعة الدعوة إلى الله» ، وكانت إقامتنا في فندق «الريف» وتعشنا في نفس المنزل وبعد تناول العشاء أشار إلي أستاذي الدكتور تقي الدين الهلالي أن أتحدث إلى الإخوة الحاضرين وأن يكون الموضوع هو التوحيد ، فتحدثت حول مكانة النبوة ، وحاجة البشرية إليها في الهداية ، وأن معرفة الله معرفة صحيحة منوطة بتعاليم النبوة على صاحبها الصلاة والسلام .

وتأسفنا على أننا لم نتمكن من قلة الوقت والارتباط بالرفقة أن نزور الأمكنة والآثار ذات القيمة التاريخية وأضرحة العلماء والمشايخ .

مدينة فاس التاريخية ، يوم السبت ٨ مايو :

ومضينا في الصباح إلى مدينة «فاس» ، وكانت الطريق إليها جميلة خضراء ، وهي إحدى المدينتين الكبيرتين في المغرب ، ومن أهم مراكز العلم والدين والتربية الروحية فيها ، ومكانتها في المغرب بالقياس إلى مركزها العلمي والثقافي وكثرة إنجاب الرجال والنوابغ وأئمة الفنون ، هي مكانة دلهي ، ولكهنثو ، ولاهور ، وملتان ، في شبه القارة الهندية ، وقد وضع الحجر الأساسي لهذه المدينة يد سعيدة في وقت سعيد ، فقد أسسها سيدي إدريس الحسني الثاني فرع النبعة النبوية الكريمة - في شهر ربيع الأول ١٩٢ هـ وخطط دائرة بفأسه ودعا متضرعاً إلى ربه فقال : «اللهم اجعلها دار علم وفقه يتلى بها كتابك وتقام بها حدودك ، واجعل أهلها متمسكين بالسنة والجماعة ما أبقيتها» .

وقد تقبل الله دعاءه بقبول حسن ، فلا تزال المدينة منذ نحو ١٢ قرناً منبع العلوم والفنون ، وتزدان بجامعة القرويين ، أقدم وأعرق جامعة في العالم الإسلامي ، لم تتوقف فيها قط الدراسة والتعليم منذ أن أسست عبر تاريخها الطويل ، مهما اختل نظام الحكم ، وعمت الفوضى في البلد ، وتخرج منها أفاضل العلماء في المغرب ، درسوا فيها وظلت مركز الحديث والفقهِ والتفسير وعلم التوحيد قروناً طوالاً ، وقد أهدت إلينا وزارة المعارف لدى إقامتنا بالرباط كتاباً قيماً في مجلدات باسم «جامعة القرويين» ، يتحدث في

تفصيل عن تاريخها ، وعن المتخرجين فيها ، وعن أحوالها في كل دور من أدوارها ، ولا يمكن في هذه العجالة إلقاء الضوء الكافي على خدماتها العلمية والدينية والفكرية ، وعلى الدور القيم الذي قامت به في حياة المغاربة الدينية والعلمية والروحانية والأخلاقية والسياسية ، وقد أدى متخرجوها - كالمعاهد والمدارس الإسلامية الكبرى في الهند - دوراً بطولياً في تحرير البلد من الاستعمار الأجنبي الجاثم على صدره ، وفيما يتعلق بمكافحة الفتن المعاصرة ، وكان أبنائها البررة فعلاً طلائع كفاح التحرير ، وهم الذين أثاروا النخوة العربية ، والغيرة الإسلامية ، والحماية الدينية وروح الجهاد في سبيل الله ، وقد لا يوجد في البلد قائد سياسي أو رجل إسلامي ، أو مجاهد ديني ، لم يعب من منهلها العلمي الفياض بطريق مباشر أو غير مباشر .

وفي سنة ١٩٣٠ م حينما حاول الفرنسيون أن يوقعوا العداوة والبغضاء بين البربر - الذين هم سكان هذه المناطق الأصليين - وبين العرب ، وأن يفصلوا أولئك عن هؤلاء ، وعملوا على إثارة شعور القومية في البربر ، والرغبة في احتضان الحضارة الجاهلية وإحياء الأعراف والتقاليد ، وقوانين الغابات البربرية التي عاشوها فيما قبل دخولهم في حظيرة الإسلام ، واستبدال اللغة البربرية القديمة باللغة العربية ، وجعلها لغة الخطابة والكتابة ، والتأليف والتصنيف ، والمكاتبة والمراسلة ، واختراع خط جديد لذلك ، وكان ذلك تكتيكاً خبيثاً ، واستراتيجية مآكرة ، لفصلهم عن الإسلام والعرب ، كانت تستطيع أن تجذبهم جذب المغناطيس للقطع الحديدية ، وتؤثر فيهم تأثير السحر ، وقد نجح الفرنسيون في تنفيذ «الظهير البربري»^(١) بحيل من بعض أفراد الحكومة المقربين إليها ، والمقدمين لها القرابين ، فكان ذلك فتنة عمياء ، ربما لا يوجد نظيرها في تاريخ الاستعمار الغربي ، وكانت محنة قاسية دقيقة لغيرة العرب والبربر ، وذكائهم ، يتوقف عليها مصير الإسلام في هذه البلاد ، وتلك هي قصة أواخر أيام تحصيلي

(١) يستخدم المغاربة للمرسم الملكي كلمة «الظهير» .

وكنت قد بلغت الرشد ، ولا أزال أتذكر أن الصحف والمجلات العربية التي كانت تعبر تعبيراً صادقاً - وكانت في طليعتها مجلة «الفتح» المصرية - عن عواطف المسلمين ، كانت زاخرة بالمقالات التي تتعلق بالقضية ، والتي كانت تحذر من مغبة هذه المكيدة الماكرة المشؤومة لو نجحت ، وهناك أيضاً قامت جامعة القرويين بالتوجيه المطلوب وأنارت الطريق أمام الشعب ، وأوصت الأمة كلها أن تداوم على قراءة الورد الآتي في جميع المساجد والمدارس :

«يالطيف! الطف بنا فيما جرت به المقادر ، ولا تفرق بيننا وبين إخواننا البرابر».

ولم يمض إلا قليل حتى صار الورد على ألسنة الشعب ، ودوت البلاد بالتضرع والابتهاال إلى الله ، وبطل سحر السامري الذي أرادت فرنسا ، أن تستخدمه ، وصان الله البربر من أن يقعوا فريسة في هذه الحباله «اللبقة» ، ولم يقع هناك أي تحول في وفائهم وولائهم للإسلام ولحضارته ، وافتضحت المكيدة التي نسجتها يد فرنسا الآثمة .

وكانت «مراكش» و«فاس» عاصمة الدولة مرة بعد أخرى ، ولئن كانت فاس لم تعد الآن عاصمة الحكم والسياسة ولكنها لا تزال عاصمة العلم والدين والثقافة ، ولا يزال ضريح مؤسسها سيدي إدريس الثاني في أرضها ، الذي يعرف بزاوية مولاي إدريس^(١) ، كما أنها تمتاز بوجود قبور كثير من العلماء وعباد الله والمشايخ ، أمثال سيدي عبد العزيز الدباغ والشيخ عبد القادر الفاسي .

وذهبنا توأ إلى قصر الحاج مصطفى بن هاشم الذي يقع في مكان ذي منظر رائع خارج المدينة ، وكان الشيخ تقي الدين الهلالي نزيلاً هناك ، فجلسنا إليه طويلاً ، وتجددت ذكريات لكهنئو وتحديثنا عن أيام إقامته بها وتدرسه في دار العلوم ندوة العلماء ، وبعدهما أخذنا حظنا من الاستجمام

(١) يدعو المغاربة السادات الحسنية بـ«مولاي».

خرجنا لزيارة جامعة القرويين الجديدة ، وقد أقيمت جامعة جديدة تحمل اسم «جامعة القرويين» ، أما جامعة القرويين القديمة فتحوّلت إلى أثر تاريخي يصلي فيها الناس ويزورونها ، ويشابه بناء الجامعة الذي لم يتم بعد ثكنة القوات المسلحة .

وبدأنا بكلية الآداب ، وقابلنا الأستاذ الدكتور عبد السلام الهراس ، أستاذ الكلية الفاضل ، والأديب الإسلامي المشغوف بالدراسة ، وكان كتابي «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» هو سبب تعرفه بي ، ذلك الذي كان قد قرأه عقب صدوره لأول مرة ، وكان يقول : «إنني لا أعتبر من لم يقرأ هذا الكتاب مثقفاً» .

وتحمل كلية الآداب في جامعات اليوم مكانة التوجيه الفكري كقسم الفلسفة في الماضي أو العلم في أوائل القرن العشرين ، وتتوقف تربية الشباب الذكي ، الفكرية والخلقية على اتجاهها الصحيح أو المحرف ، وعلى أساتذتها وإسلاميتهم ، أو تحررهم الفكري وشذوذهم العقلي ، أو تحاملهم على الإسلام ، وهناك تزداد أهمية وجود الأساتذة أولي الفكر المستقيم والعقل السليم ، فسرّنا جداً أن يكون مثل الدكتور عبد السلام الهراس - الذي يمتاز بالدعوة المتحمسة إلى الأدب الصالح ، والقيم والمثل الإسلامية - أستاذاً في هذه الكلية ، وقد ذهب بنا إلى عميد الكلية الدكتور محمد التازي ، وكان الحديث معه على موضوع الأدب ومفهومه وحدوده .

ثم انتقلنا إلى كلية الشريعة ، والتقىنا بعميدها مولاي عبد الواحد العلوي ، وظل يحادثنا طويلاً بلسانه السلسال ، والتقىنا هناك مع الأستاذ الدكتور صالح الأشر ، وسرّنا هذا اللقاء المفاجيء معه ، فقد سبقت معرفتي واجتماعاتي به في جامعة دمشق حينما زرتها أستاذاً محاضراً على دعوة منها في ١٩٥٦ م ، وكان من كبار أساتذة الأدب والنحو فيها ، وهو يمتاز بنظر عميق وذوق علمي وهو أديب فاضل ، وجددنا طويلاً ذكريات الأيام الحلوة في دمشق ، تلك التي كانت حقاً من أسعد أيام حياتي وأجملها .

وتوجهنا من هنا إلى جامع القرويين ، الذي يقع في المناطق القديمة للمدينة التي لا تزال تمثل المدينة العريقة ، وهبت علينا نفحات الأنس والحب التي افتقدناها في المدينة الجديدة ، كانت السكك الضيقة مفروشة بالأحجار ، ونزلت الأمطار ، فكنا نتحفظ في المشي ، وكنا نتصور كأننا نمر بأحياء قديمة في لكهنؤ أو حيدر آباد. فهذه سوق الصباغين ، وتلك سوق النحاسين ، والحمار هو الوسيلة الوحيدة للمواصلات في أغلب الأحيان ، وهو يصعد السلم متماسك الخطو ، ورأينا رجلاً من المشغوفين بالنفث في العقد والسحر مشغولاً بكتابة التائم والحجب .

وزرنا مكتبة القرويين التي تشتمل على ثلاثين ألف كتاب مطبوع ، وستة آلاف كتاب مخطوط ، ولم يكن لنوفي المكتبة حقها من الزيارة في هذا الوقت القصير ، لأن ذلك يحتاج إلى أسابيع ، ولكننا قلنا في أنفسنا: ما لا يدرك كله لا يترك جله ، فنهضنا لنلقي نظرة - تحت إشراف مدير المكتبة ابن عم زعيم المغرب وصديقنا الفاضل المرحوم الأستاذ علال الفاسي ، ألا وهو الشيخ محمد سعيد - على ما تشتمل عليه من مخطوطات ونوادير الكتب ، كان كل مؤلف مغربي يتمنى أن يتشرف كتابه بالدخول في هذه المكتبة العظيمة التي كانت موضع اهتمام العلماء المغاربة ومهبط أنظارهم .

كان من الكتب التي استطعنا أن نلقي عليها نظرة خاطفة شرح موطأ الإمام مالك في مجلدين ، مكتوباً في الرق وهو من نوادر المخطوطات ، وهو من مؤلفات الجزولي ورأينا نسخة مخطوطة لكتاب سعد البغدادي «الفصوص في اللغة» انتسخت في أواخر القرن العاشر ، ولا يوجد للكتاب إلا نسختان في المغرب كله ، ورأينا نسخة خطية لكتاب الهروي «كتاب الغريبين» الذي يشتمل على غريب القرآن ، وغريب الحديث ، انتسخت في القرن الثامن ، ورأينا نسخة للقرآن الكريم بخط والدته سلطان المغرب يعقوب المريني ، في كل جزء منها جزءان ، كتب في القرن الثامن ، ورأينا كتاب ابن الغروم المرادي «تنبيه الأنام» والتزم خطاطه أن يكتب «الله»

و«محمد» في كل مكان بماء الذهب ، ومن أقدم المخطوطات نسخة للمدونة للقرن الخامس ، والترجمة العربية لكتاب الخيل للقرن السادس ، ومن الكتب التي كانت بخط مؤلفيها ، منظومة في فن الطب لابن طفيل مؤلف رسالة «حي بن يقظان» ونسخة لمقدمة ابن خلدون عليها تعليق بخط ابن خلدون ، وبها زيادات على النسخة المتداولة بأيدي الناس ، ورأينا نسخة خطية لسيرة ابن إسحاق ، على حين شاع في الناس أنه لا توجد لها نسخة في العالم ، ومما يجدر بالذكر بالقياس إلى الغرابة والظرافة هو نسخة كتاب «البيان والتحصيل» في الفقه المالكي من مؤلفات جد ابن رشد ، تشتمل على ٣٧٠ صفحة ، وكل صفحة مكتوبة على رق واحد نزع من عضد الغزال ، وعلى ذلك فاستهلكت الكتابة ٣٧٠ غزلاً ، وقال لي مرافق أن غابات كثيرة أصبحت مقفرة من الغزال ، وذلك إن دل على شيء فإنما يدل على شغف العلماء السلف بالعلم ، وتقديرهم له تقديراً مستوفى .

وخرجنا من المكتبة والقلب مأخوذ بهذا التراث العلمي النادر ، ثم أخذنا الطريق إلى جامع القرويين ، وتجولنا في رواق المسجد الداخلي وفي فناءه الذي قد دوى في جنباته حيناً من الدهر صوت «قال الله وقال الرسول» وظل أئمة العلوم وعلماء الفنون يعمرون رحابه بالدراسة والتدريس والبحث والتحقيق ، وقد رأينا يخيم عليها الصمت والهدوء ، وصدق عنها ما قاله الشاعر الأردني في البيتين الآتيين :

«حينما كانت الحديقة تترين بالأزهار والرياحين تعمر جنباتها ألوف من العندليب بنشيدها العذب وتغريدها الحلو ، وصحا النرجس يوماً فلم ير شيئاً سوى الأشواك ، وعاد البستاني المسكين يقلب كفيه ويقول باكياً: كانت هناك أزهار لم تفتح ، وكانت ههنا أزهار مفتحة فائحة» .

وصعدنا العلامي ورأينا مزولة (الساعة الشمسية) ، والعجيب أن بالمسجد انحرافاً عن القبلة وأبقاه الناس حتى الآن على ما كان عليه .

ورجعنا بقلب متحسر على ما رأيناه إلى مضيفنا الحاج مصطفى الفلاحي ، وتغدينا ، وكان نزولنا في فندق (Holiday Inn) فقصدها ،

واسترحنا ، وحضرنا بعد المغرب حفلة الشاي في منزل الدكتور الهراس ، ولقينا هناك الأستاذ شاهد بوشيخي أستاذ في كلية الآداب ، ووجدناه رجلاً فاضلاً وشاباً وقوراً ، كان معجباً بحركة الدعوة والتبليغ التي أسسها الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي والتي مقرها في دهلي «الهند» وقد ساهم في بعض جولاتها ورحلاتها ، من أولي الفكر الصحيح ، وتعشنا عند الحاج مصطفى في منزله ورجعنا إلى الفندق .

زيارة «افران» ، ٩ مايو الأحد :

وتناولنا الفطور عند الدكتور الهراس ، وتفضل هناك مولاي مصطفى العلوي عميد «دار الحديث الحسنية» بالرباط ، وعضو المجلس الأعلى للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، الذي نتشرف منذ أعوام بلقائه بالمدينة المنورة مرة أو مرتين في العام بمناسبة الحضور في دورات المجلس ، فتلقنا بحب وإكرام ، ودعانا إلى زيارة «افران» التي تحل محل كشمير في المغرب ، وانطلقنا في الساعة التاسعة والنصف وخرجنا على منزل رئيس مجلس العلماء ومنه توجهنا إلى «افران» .

وكانت الطريق كلها جميلة ذات مناظر طبيعية فاتنة ، ووصلنا ظهراً إلى فندق كان غاية في الأناقة والظرافة والتنسيق ، وانتظرنا هناك الطلاب الذين رافقونا من جدة ، وكان من المقرر أن يتغدوا في الفندق ، بعد زيارة الأمكنة الجديرة بالزيارة ، وقد وصلوا بعد ما صلينا الظهر ، وكانت جلستي بجانب الشيخ محمد الغزالي ، فتمتعت بلذيذ الطعام وجميل الكلام في وقت واحد ، وتليت علينا أبيات مختارة لشعراء مطبوعين وساهم في ذلك الشيخ محمد الغزالي مساهمة كبيرة ، وتوجهنا بعد الغداء إلى الرباط ، ووصلناها قبل المغرب بنصف ساعة ، ونزلنا في فندق «هلتون» .

في الرباط عاصمة المغرب ١٠ مايو يوم الإثنين :

وكان اليوم أول يوم من أيام إقامتنا بالعاصمة «رباط الفتح» وقد وضع الحجر الأساسي للمدينة في مناسبة سعيدة جداً ، حين كان جد المسلمين صاعداً ، وكان النجاح حليفهم في كل عمل يقبلون عليه ، والانتصار قربهم

في كل معركة يخوضونها ، أعني بعد الانتصار الرائع في معركة الزلاقة ١٥ رجب ٤٧٩ هـ ، التي هزم فيها أمير المسلمين يوسف بن تاشفين مؤسس دولة المرابطين المسيحيين هزيمة نكراء ، أولئك الذين كانوا يغيرون من حين لآخر على الحكومات الإسلامية العربية ، في «إشبيلية» و«قرطبة» وضرب الحكم الإسلامي بجرانه في الأندلس ، فكان مرهوب الجانب نحو قرن كامل ، ولكن في نفس الوقت ازداد نفوذ الحكومة المسيحية في «طليطلة» (Tolado) التي نصبت نفسها لإقصاء المسلمين من أرض الأندلس ، هذا في جانب ، وفي جانب آخر ضعف في المسلمين الوعي السياسي ، وعمتهم روح الشقاق والافتراق ، التي هي داؤهم المتوارث ، فناموا عن مطامع الأعداء ، ولم يحسبوا حساباً لأعدائهم وعزائمهم ، وما كانوا يبيتون لهم في الظلام ، وكل ذلك وضع البقية الباقية من النفوذ الإسلامي والسلطة الإسلامية المنهارة في موقف الصراع بين الحياة والممات ، ولم يكن هناك من يقف بجانبهم في هذه الساعات الرهيبة العصيبة إلا الحكومات الإسلامية المغربية الفتية المليئة بالطموح التي أنقذتها فعلاً مرات عديدة من مخالب الموت الزؤام ، وقد منوا بمثل هذه المرحلة الدقيقة الحاسمة القاصمة أواخر القرن السادس المسيحي ، حين حاول حاكم طليطلة المسيحي «الفونس» أن يطفىء نور الحكومة الإسلامية للأبد ، وكانت في إفريقية الشمالية آنذاك حكومة الموحدين القوية التي كان داعيها الأول محمد بن تومرت ومؤسسها عبد المؤمن بن علي (٥٥٨ هـ) الذي كان بربري الأصل والذي كان نافذ الكلمة لا يعصى له أمر فيما بين «برقة» و«طرابلس» إلى «طنجة» و«تطوان» أعني إلى ساحل المحيط الأطلنطي ، وفي هذه المناطق الواسعة لا يخطب الخطيب في الجمعة إلا بأسماء خلفائهم .

وكان يعتلي عرش الحكم آنذاك حفيد عبد المؤمن أبو يوسف يعقوب المنصور (٥٥٤ - ٥٩٥ هـ) الذي كان يعاصر شهاب الدين الغوري ملك الهند في ذلك العهد وتجراً «الفونس» الحاكم المسيحي كثيراً حتى وجه إلى يعقوب رسالة بالعربية يهدده بالزحف إليه ، وغزوه في عقر داره ، وكتب

يتندر به : «إنك إذا لم تبادر بالحضور إلينا مجتازاً هذا البحر ، فإنني سأحضر لديك «إكراماً» لك ، فما كان من هذا الرجل المؤمن الغيور - حفيد عبد المؤمن - إلا أن كتب على الجانب الآخر من الرسالة رداً عليها الآية الكريمة التي كتبها سيدنا سليمان بن داود عليه السلام إلى ملكة سبأ رداً على رسالتها: ﴿ أَزِجْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأَيِّنَّهُمْ بِمِجْنُونٍ لَّا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَخَرَجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ وأعقبها بهذه الكلمات «الجواب ما ترى ، لا ما تسمع» ، نفس الجملة التي قالها الخليفة العباسي المعتصم بالله رداً على كتاب السلطان البيزنطي .

على كل فإنه أمر بجنوده الإسلامية أن تتجمع ، وتوجه بها في ٥٩٠ هـ إلى الأندلس ، وكانت المجابهة في شعبان ٥٩١ هـ بين الجنود الإسلامية والجنود المسيحية في ميدان مرج الحديد (هسبانيا) وهزم يعقوب المنصور الفونس هزيمة عادت مضرب المثل في إسبانيا إلى سنوات طويلة ، وتمائل هذه المعركة ، المعركة الأخيرة في ميدان باني بت بالهند بين المسلمين والمرهنة .

ورجع السلطان يعقوب بأربعين ألفاً من الأسرى وبمئة ألف من البغال وثمانين ألفاً من الأفراس ، وأربعمئة ألف من الحمير ، وستين ألفاً من الدروع ، وخمسين ألفاً من الخيام ، وأسس مدينة شكراً لله باسم «رباط الفتح» تذكراً لهذا الفتح المبين وهي بجنب «سلا» المدينة التاريخية المباركة ، وإنما أسسها السلطان الطموح بهذا الموطن ، وفي جانب القبلة من «بحر سلا» لكونه يحمل أهمية استراتيجية تماماً كتخطيط مدينة الإسكندرية بمصر .

وبعد تناول الفطور في الصباح انبعث في قلبي الرغبة الملحة أن أقيم انطباعاتي ، في ضوء حاضر هذه البلاد وغابرها ، والحديث الأحدث من التجارب التي كانت حصيلة رحلاتي وزياراتي ولقاءاتي وجولاتي الموسعة في هذه البلاد والأقطار الإسلامية ، فقد أتيت لي أن أتحدث إلى أبناء كل بلد وطأته قدمي ، وعلى ذلك فكانت مقالات و«اسمعيات» أمثال «اسمعي يا مصر» و«اسمعي يا سورية» و«اسمعي يا زهرة الصحراء (الكويت)»

و«اسمعي يا إيران» ، وكان ذلك رسالة إلى هذه البلاد وهدية لها . . في وقت واحد ، وتلك هي زيارتي الأولى للمغرب التي قدرت لي حين مالت شمس الحياة إلى الغروب ، على كل بدأت مقالاً بعنوان «نحن الآن في المغرب» الذي سيقروه القراء الكرام في نهاية هذا الكتاب ، فسوف تبتدىء منذ الغد نشاطات المؤتمر ، ومن يدري ، هل أجد فرصة للكتابة أو لا ، واستهلكت الكتابة معظم أوقاتي ، وكانت خلالها لقاءات مع بعض الإخوة أيضاً ، وقد وجدنا مساعدة غالية من الأخ العزيز الأستاذ ظهور الإسلام الندوي ، الذي يتطوع بمساهمة موفورة في إعداد المؤتمر .

الساعة الخامسة مساء :

وقدم فندق «هلتون» رئيس جمعية الجامعات الإسلامية الأستاذ محمد الفاسي يرحب بالضيوف ، وهو ذو شخصية وقور في البلد ، وقد سبق أن شغل منصب عمادة جامعة محمد الخامس ووزارة الثقافة والتعليم الأهلي وهو الآن رئيس «اللجنة الوطنية» بيونسكو ومندوب لجنتها الدولية في المغرب ، وبجانب ذلك هو عضو في «مجمع اللغة العربية بالقاهرة» وهو أستاذ جلاله الملك الحسن الثاني ، وقد حضر بهذه المناسبة ممثلو الأقطار الكثيرة ، وكان لقاؤنا معهم جميعاً ، وكان تبادل الآراء طويلاً في مواضيع أخلاقية وعلمية .

وكان في الساعة برنامج زيارة «دار الحديث الحسنية» وقد اشترك في ذلك عدد من الضيوف وقد زرنا متجولين مبنى هذه الدار الذي وقفه أحد من المسلمين الغيارى ، ومن المؤسف أننا لم نتشرف بهذه المناسبة بلقاء صديقنا المحترم الأستاذ عمر بهاء الدين الأميري (سفير سورية السابق بباكستان) والأستاذ في الدار منذ أعوام ، فقد كان غائباً عن الرباط ، ورجعنا بعد هذه الزيارة إلى الفندق .

وحضر في الساعة السابعة والنصف مساء الأستاذ أبو بكر القادري يقابلني ، وتلاقينا في حب وحماس ، وأبدى عن علاقته القلبية الوطيدة ، وهو من الشخصيات الإسلامية البارزة في المغرب ، وعضو اللجنة التنفيذية

في حزب الاستقلال الذي أسسه المرحوم الأستاذ علال الفاسي ، ورئيس جمعية شباب النهضة الإسلامية ، ورئيس تحرير مجلة «الإيمان» وهو ذو عناية كبيرة - بعد الأستاذ علال الفاسي - بقضايا مسلمي الهند - وكان اجتماعي به في ١٩٦٥ م في مؤتمر رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة ، وقد عملنا معاً في لجنة ، وسررت جداً بلقائه وشعرت بالتجاوب الفكري والانسجام الروحي بيني وبينه .

وأقام لنا الليلة مآذبة عشاء في منزله الدكتور عبد الكريم الخطيب ، وهو كذلك من الشخصيات البارزة في المغرب ، وهو رغم أنه طبيب ، يمتاز بذوق علمي رفيع ويعنى عناية كبيرة بالقضايا الإسلامية والوطنية ، وكان وزيراً أيضاً في حكومة سابقة ، وهو الآن رئيس حزب سياسي يحمل اسم «الحركة الشعبية الدستورية الديمقراطية» وحضر المآذبة نخبة من الضيوف وزبدة من الرجال ، من بينهم الدكتور المهدي بن عبود الذي كان منذ مدة قصيرة سفير المغرب في «واشنطن» ويعتبر من رجال الفكر الإسلامي الكبار في المغرب ، وله نصيب مشكور في نشر الأفكار الإسلامية في الطبقة المثقفة ، وهو وإن كان طبيباً في الطب البشري ، لكنه بجانب ذلك أستاذ علم النفس (سيكولوجيا) في كلية الآداب بالرباط ، وكذلك كان من خيرة الضيوف الدكتور رشدي فكار ، وهو مصري وأستاذ علم الاجتماع (سوسيولوجيا) في كلية الآداب بالرباط ، ومؤلف عدد من كتب الفلسفة في اللغة الفرنسية ، وعضو الأكاديمية العلمية في فرنسا ، وقد رشح اسمه هذا العام لنيل جائزة نوبل ، ومنهم الدكتور صبحي صالح مؤلف كتب عديدة ، ومن علماء لبنان الكبار ، وكان لقائي الأول معه في منزل الشيخ حسن خالد مفتي جمهورية لبنان بمناسبة جولة وفد رابطة العالم الإسلامي في ١٩٧٣ م ، وهو الذي ألقى كلمة تقديم وتعريف وترحيب في الحفلة التي عقدت تكريماً للوفد ، وكان فيهم الأستاذ أبو بكر القادري المذكور آنفاً ، وتاجر سوداني كبير ، يساهم في الحركات الإسلامية مساهمة فعالة ويقوم في الرباط منذ مدة طويلة .

وكان منزل الدكتور عبد الكريم الخطيب نموذجاً لطراز الفن الأندلسي

المعماري والتمدن الأندلسي ، فقد رأينا نفس الطريق للترتين والاستضاءة ، والتعاريج والرسوم التي تراها في الصور ، والتي رأيناها في قصور وبلاطات الحمراء «غرناطة» ، والواقع أن هناك اشتراكاً فيما يتعلق بحضارة الأندلس الإسلامية وحضارة المغرب الأقصى ، لأنهما تنبعان من أصل واحد ، ووليدتا ذوق التجميل والتأنق المشترك الذي اطرده فيه التبادل والأخذ والرد ، وإن أبناء الإسلام من المغرب الأقصى ، هم الذين عمروا إسبانيا ، ولما سحب المسلمون من إسبانيا ونبت بهم أرضها وسماؤها ، فإن المغرب هو الذي رحب بهم وأكرم مثواهم ، وطبعاً قد جاؤوا من الأندلس بمدنيتهم وذوقهم ، وطريق اجتماعهم وظلوا يحتضنونه قروناً ، وعلى ذلك التقى التياران اللذان لم يكن أحدهما غريباً عن الآخر .

وكان حديث المائدة طويل النفس ، وتطرق إلى أي مدى تصح الثقة بضحة الحوادث وقصص الاختلافات والمشاجرات النابعة بين الصحابة أيام سيدنا علي وسيدنا عثمان رضي الله عنهما ، والاعتماد عليها تاريخياً؟ وقد تحولت إلى حرب أهلية ، الأمر الذي يرويه التاريخ في صورة مهيبة قد تجعل المرء - الذي لم تتعمق دراسته ولم تتوسع معلوماته ولم يعرف معرفة صحيحة تأثير الصحبة النبوية وقوة التربية النبوية على التحويل والتغيير وقدرة الإسلام على التأثير والقلب - يستنتج منها أنهم عادوا تتحكم فيهم الأنانية والأهواء بمقتضى البشرية ، ولم يعودوا على المستوى الخلفي الذي وضعهم عليه نبيهم الأعظم محمد ﷺ .

ومن العجيب أن الأستاذ رشدي فكار - وهو من المثقفين ثقافة عصرية وأستاذ في علم الاجتماع - كان يحارب هذا التصور الخاطيء في أسلوب قوي ، يمدد قوة البيان وطلاقة اللسان ، وحقيقة الواقع ، ويؤكد أن هذه الروايات لا تخلو من المبالغة وتجسيم الوقائع وتهويلها ، وأن الصحابة كلهم ظلوا على مستواهم الخلفي الذي تركهم عليه مربيهم الأعظم عند لحوقه بالرفيق الأعلى ، وكل ما عاشوه من الحوادث كان رمزاً طبيعياً على الحياة ، ولا يخلو من ذلك أي مجتمع إنساني حي - إذا لم يكن صناعياً - ولذلك كله أسباب منطقية معقولة مقبولة تدل على أن الذي حدث كان ذا

نتائج مثمرة إيجابية ، ولو وقع الصحابة رضي الله عنهم فريسة الأنانية والأهواء لما بقي على ظهر الأرض مجتمع تقدمه مجتمعاً مثالياً ، أما الدكتور صبحي صالح فكان يضغط على أنه لا يمكن غض البصر عن القصص التاريخية ، وأن تلك الحوادث كلها كانت وليدة النزوات النفسية التي لا يخلو عنها بشر ولا يجوز لنا أن نعرض التاريخ على غير ما هو عليه ، وانتهينا من الطعام ورجعنا إلى الفندق .

افتتاح المؤتمر ، وحديثي فيه ، وأشغال النهار الأخرى ١١ مايو الثلاثاء :

وفي الساعة العاشرة افتتح المؤتمر ، واستهله وزير التعليم العالي (Minister of Higher Education) الأستاذ عبد اللطيف بن عبد الجليل بكلمته ، التي رحب فيها بالضيوف ، وأشاد بالأغراض التي يرمي إليها المؤتمر ، وأعقبه رئيس المؤتمر الأستاذ محمد الفاسي بكلمته القيمة ذات الطابع العلمي ، ثم تناوب خمسة ضيوف بكلماتهم على إيماء من الرئيس كان من بينهم كاتب هذه السطور .

وبدأت حديثي قائلاً: إنني أتشرف الآن بتمثيل رابطة العالم الإسلامي ، بمكة المكرمة التي يقع على علو من مقرها الرئيسي ، غار حراء الذي نزل فيه أول وحى إلهي على محمد رسول الله ﷺ ، ومما يسترعي انتباه العاقل ويدعوه إلى التفكير أن هذا الوحي الإلهي الأول لم يؤكد الحاجة إلى العلم ويشيد بعظمته والإقرار بفضله فحسب ، بل إنه لم يغض البصر عن وسيلته الدائمة وخادمه المخلص «القلم» ، وقد ربط به مصير العلم فقال عز من قائل: ﴿ أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٢﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٣﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ .

وأضفت قائلاً: إنه لغز من ألغاز التاريخ أن الحركة العلمية الكبرى في العالم الإنساني ، والحركة التأليفية والكتابية الكبرى في النوع البشري ، نبعتا من نبوة نبي أمي! إن ارتباط هذه الحركة العلمية وهذه الخدمة الهائلة للعلم والثقافة - التي كانت هذه الأمة حاملة لوائها - بهذا الأمية ، يثير تساؤلاً تاريخياً يتطلب من عقلاء العالم ورجالات فلسفة التاريخ إجابة مقنعة ، وصدق الشاعر الإيراني والحكيم الرباني الشيخ مصلح الدين الشيرازي

المعروف بسعدي حينما قال: «إن اليتيم الذي لم يتلقن مبادئ العلم ، استطاع أن ينسخ مكتبات الأديان ، جعلها لا تغني غناء ولا تحمل معنى» .

لكن المرء قد يفهم من هذا البيت أن معجزة النبي ﷺ في هذا الصد كانت سلبية ، حيث إنه نسخ المكتبات والذخائر العلمية القديمة التي كانت قد تجردت عن رسالتها ودورها الإيجابي ، وبدأت تمثل دور التضليل ونشر الأباطيل ، لكن الواقع أن هذه المعجزة كانت إيجابية بناءة أكثر من أن تكون سلبية ، إنه نسخ ذخيرة كتب محدودة لكنه حبا الإنسانية بمكتبات واسعة زاخرة ينقطع نظيرها في تاريخ الأمم .

ثم قلت : إن الانقلاب الذي أحدثته النبوة المحمدية ، على صاحبها الصلاة والسلام ، في دنيا العلوم يتجلى في مظهرين كبيرين ، إن الجانب الأول من جوانب دورها الانقلابي أنها وحدت بين العلوم الإنسانية المتوزعة في وحدات (Units) كان كل علم وحدة بنفسها ، ولم تكن كل وحدة بعيدة عن الأخرى ومجهولة لها ، بل كانت متحاربة متصارعة ، لا تلتقي على غاية ، ولا تتعاون في غرض .

والمظهر الثاني أنها كانت كلها تؤدي إلى نتائج مختلفة ، وتنضي إلى غايات متنافية ، فكل من الفلسفة ، والأدب وعلم الأخلاق وعلوم الرياضة كان يعيش في دنياه منطوياً على نفسه منشغلاً بذاته ، مفصلاً عن الآخر ، لا يستطيع أن يهدي إلى فاطر السموات والأرض وإلى معرفة ذاته وصفاته ، ومعرفة الأغراض التي يهدف إليها وجود هذا العالم والكون ، والقيمة الحقيقية للحياة الإنسانية ، ووحدة الإرادة والقدرة الإلهية القاهرة التي تتحكم في نظام العالم ، والاتجاه بالحياة والأخلاق الإنسانية إلى وجهتها الصحيحة ، ولكن النبوة المحمدية والتعاليم النبوية استطاعت أن تخرط هذه الوحدات المنتشرة المبعثرة في سلك واحد ، وجعلها متعاونة متعاضة ، ووسيلة صحيحة لمعرفة الله وذاته وصفاته ، والكون وغاياته ، وقد صور القرآن الكريم كل ذلك تصويراً دقيقاً حين قال : ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ

فَيَمَّا وَقَعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا ۖ

وختمت حديثي قائلاً: «إن هذه المؤسسة التي حضرناها جميعاً بمناسبة انعقاد مؤتمرها السنوي ، أسست من أجل تحقيق غرض كبير ، إنني أرى منذ مدة طويلة أن مصير البلاد الإسلامية وقضية بقاء الأجيال المسلمة اللاحقة على الإسلام ، أو انسلاخها عنه ، ليس منوطاً بالميدان السياسي ، إنما هو منوط بالميدان التعليمي والثقافي ، وطبعاً تستطيع الجامعات والمؤسسات ومعاهد التعليم والتربية الإسلامية أن تؤدي في ذلك دوراً مصيرياً حاسماً أكثر من الأحزاب السياسية ، ومن هنالك تتأكد أهمية جمعيتنا هذه وتقوم بخدمات غالية تكون غرة في جبين التاريخ» .

وبهذه الكلمات انتهت هذه الجلسة الأولى ، وابتدأت الجلسة الثانية في الساعة الرابعة مساءً ، التي انتخب فيها الأستاذ محمد الفاسي رئيساً للمؤتمر ، والأستاذ محمد بن البشير أميناً له ، والدكتور عبد الله عبد المحسن التركي رئيس جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض مقررأ له ، وكان هذا الانتخاب موضع استحسان الجميع ، ثم ألقى الدكتور عبد الله التركي كلمته التي ضغطت فيها على حب الواقعية والأخذ بها وعلى جانب العمل - فيما يتصل بالبحث والنقاش والمذاكرة - مكان الرأي وعرض الفكرة فحسب ، ثم جاء دور تشكيل اللجان ، وأسندت إليّ مسؤولية اللجنة التي شكلت من أجل العمل على ما يتصل بالجامعات الإسلامية وقضايا العالم الإسلامي والربط والتنسيق بينها .

وكان العشاء في «نادي جولف» ، وكان هناك إعداد للموسيقا والمعازف ، ولكنها أوقفت على تدخل واعتراض من الوفد السعودي ، واشترك في المؤتمر مندوب كل من المملكة العربية السعودية ، ومصر ، ولبنان ، والشام ، والعراق ، والأردن ، والكويت ، وتونس ، وأفغانستان ، وتركية ، والاتحاد السوفياتي ، ونيجيريا ، وإيران ، والفلبين ، وموريتانيا ، والهند ، وباكستان ، وكنت أظن أنه ربما يحضر من باكستان

رجل علم وفكر أعرفه من ذي قبل ، وعلى ذلك فيتاح للصدّيقين الذين فرق بينهما التقسيم والوضع السياسي الشاذ بين البلدين ، أن يلتقيا ويتبادلا عواطف الحب والأخوة ، فلم تعد هناك طريق إلى مقابلة العلماء الباكستانيين إلاّ هذه المؤتمرات الدولية ، لكنني تأسفت جداً وصدع قلبي حينما علمت أن الأستاذ السيد أبا بكر الغزنوي نائب رئيس جامعة بهاولبور هو الذي كان مدعوّاً في هذا المؤتمر من باكستان ، وكان قد قدم لندن ليحضر المؤتمر الإسلامي المنعقد بها ، ثم يحضر ويثني بالحضور في هذا المؤتمر ، ففوجيء باصطدام السيارة في لندن ، ولم يبل من الجراحات ، وكانت بين أسرته وأسرتنا علاقات دينية وروحية قديمة ، وقد تكرم عليّ في العام الماضي بإرسال كتاب وضعه في ترجمة والده العظيم فضيلة الشيخ محمد داود الغزنوي أمير جماعة أهل الحديث في باكستان ، وقد وجه إليّ رسالة ذكر فيها حنينه إلى لقائي وقضاء بعض الوقت عندي لأيام ، ولو كتب الله له هذه الرحلة لكان مبعث سرور للأخوين واعتبرنا هذا اللقاء مما يزيد في قيمة هذه الرحلة الطويلة ، ولكنه كما يقول الله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ إنه سافر إلى الآخرة بدل أن يسافر إلى «الرباط» وما عند الله خير وأبقى ، غفر الله له ورفع درجاته!

تشكيل اللجان والحضور في المآدب

١٢ مايو ، يوم الأربعاء :

واشتغلت اللجان بوظائفها بعد الفطور ، واللجنة التي عهد بها إليّ يشاطرنني فيها العمل الأستاذ المهدي بن عبود ، وعبد الكريم الخطيب ، وممثل لبنان الشيخ محمد مهدي شمس الدين مبعوث المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى ، ومندوب موسى الصدر القائد الديني للشيعية في لبنان ، وهو من المثقفين ثقافة واسعة يمتاز بطلاقة اللسان ، وله إلمام جيد باللغة الفرنسية ، وهو من علماء الفلسفة وعلم النفس البارعين ، وقد قام بالضبط والتحقيق لنهج البلاغة ، وقد أهدى إلي نسخة بتحقيقه ، وكذلك يجدر بالذكر من العاملين في هذه اللجنة الدكتور عبد الهادي التازي (المعهد الوطني للبحث العلمي) والشيخ مصطفى العلوي .

وأقام لنا مأدبة غداء رئيس المجلس البلدي بالرباط في فندق صومعة حسان ، و«صومعة حسان» بناء تاريخي عريق ذو منارة شامخة ، سمي الفندق باسمه ، والفندق نموذج رائع للفن المعماري الأندلسي ، وعقدت اللجنة بعد صلاة العصر جلستها الثانية ، وكانت حفلة العشاء من جانب أمين مصلحة البناء والإسكان والسياحة في فندق صومعة حسان وتعرفنا هناك بطعام أندلسي يدعى بـ«الدجاج واللوز مغلوفين في أوراق خفيفة من الطحين المصفى من القمح .

لقاءات وزيارات

١٣ مايو ، يوم الخميس :

زارنا اليوم في الصباح الأستاذ عبد العزيز بن عبد الله رئيس مكتب التنسيق بين الأكاديميات التي تقوم بعمل التعريب والترجمة ، التابع للجامعة العربية ، الذي مقره الرئيسي بالرباط ، ويصدر هذا المكتب مجموعة تقاريره باسم «اللسان العربي» في مجلد ضخم ويصلنا بانتظام ، وكان يشف حديثه عن اطلاعه الواسع ، وعنايته الكبيرة بالقضايا والأفكار الإسلامية ، وكان اللقاء ممتعاً نافعاً .

وكان غداء اليوم في «نادي جولف» من جانب وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية لكنني آثرت على الحضور فيه إتمام المقال العربي الذي بدأت منذ أيام في ١٠ مايو باسم: «نحن الآن في المغرب» ، ولكنه لم يتم من كثرة الأشغال وزحمة الأعمال ، ومن المقرر أن تنعقد جلسات اللجان في المساء .

كانت اليوم تلاوة القرآن الجماعية في منزل الفقيه الكبير الأستاذ علال الفاسي الذي يحتفل البلد كله بعام وفاته ، وكان المخلصون له والمعجبون به يتوافدون إلى منزله ويعزون ابنه ، وطلب إلي الأستاذ أبو بكر القادري - وهو من المعجبين به إعجاباً كبيراً - أن أحضر هذه المناسبة ولو لوقت قصير ، فلبيت ذلك وقصدت منزل المرحوم ، فرأيت هناك جماعة من حفاظ القرآن الكريم - الذين كانوا سبعة أو أكثر - يتلون سورة الكهف

متمايلين بقراءة «نافع» في لهجة مغربية خالصة ، وبعدها انتهوا من تلاوة سورة الكهف بدؤوا يقرؤون قصيدة البردة التي يهتم المغاربة بقراءتها عند هذه المناسبات .

وتوجهنا من هنا إلى «مسجد نور» الذي ينعقد فيه كل يوم خميس اجتماع دعوي تحت إشراف جماعة التبليغ في الرباط ، وتحديث أنا والشيخ أبو بكر الجزائري ، وكان المسجد غاصاً بالحاضرين ، ولقونا في حب وحماسة وأخوة هي شعار «جماعة التبليغ» وأميرها في المغرب الشيخ الحمداوي مدرس في مدرسة ثانوية ، ويمتاز بالفهم والاتزان في الفكر ، وقد سبق لقائنا معه فور وصولنا إلى الرباط ، وقد أخذ منا العهد بالحضور في اجتماعه .

أشغل يوم في الرباط ١٤ مايو ، يوم الجمعة :

وكان اليوم أشغل يوم من بين أيام إقامتنا بالرباط في يوم الثلاثاء أو الأربعاء ، سألتني السيدة حبيبة البورقادي إحدى المثقفات الفاضلات المتصلة بوزارة الثقافة اتصالاً وثيقاً ، عما إذا كانت هناك فسحة في وقتي لإلقاء كلمة على دعوة من وزارة الثقافة ، فوعدت لها بذلك دون تفكير طويل ، شبه الوعد ، وقد كنت بدوري أود أن أضع أفكارني وانطباعاتي أمام طبقة مثقفة جادة ، وقد سألتني عن موضوع الكلمة فقلت سيكون الموضوع «أزمة العالم الإسلامي الحقيقية» ، وقررت الوزارة أن يكون حديثي في اليوم الآتي يوم الجمعة بعد صلاة العصر ، وبدأ ينشر راديو الرباط هذا النبأ منذ يوم الأربعاء ، وحينما علمت أن هناك جلسة نهائية للمؤتمر قبل العصر تقدم فيها قرارات وتوصيات اللجان الجانبية للدراسة والموافقة ، شغلني التفكير في القضية ، وعدت أفكر كيف أغيب عن الحضور عن هذه الجلسة العامة لإلقاء حديثي الذي وعدت به والذي سيستمر إلى ما بعد المغرب أو قبل المغرب ، وأصبحت في تردد حائر ، وقد عرضت القضية على الرئيس المحترم ، والأمين الموقر ، فقالا: أرجو أن الإجراءات الضرورية ستنتهي قبل هذا الميعاد ، وسأحاول أن أحضر الحديث بنفسني ، ولكنني ظلمت في

حيرة من الأمر ، لأنني قد جربت مثل هذه الجلسات وعهدي بها ، أنها تتخطى الميعاد ، فقد تلتوي قضية من القضايا وتستقطب اهتمام المؤتمرين من أجل كثرة المساهمين والمناقشين وطول الأخذ والرد .

واتصل بي أمين السفارة الهندية الأول بالأمس تليفونياً وقال : إن سعادة السفير يريد أن يقيم مأدبة غداء على شرف قدمكم ، ولكن اعتذرت عن ذلك ، لأنني كنت قد علمت أن الجمعية المضيفة لنا بدورها ستقيم مأدبة غداء تكريماً للضيوف وقلت : إنني سأقابل سعادة السفير في الصباح ، وقد كان من السهل جداً أن أعتذر عن الحضور لو كانت المأدبة المقامة غداً من جانب أيّ وزارة أو شخصية ، ولكنها من جانب الجمعية التي عقدت المؤتمر ، وقامت بإضافتنا .

وتوجهنا إلى السفارة الهندية في الساعة التاسعة صباحاً وقابلنا السفير ، الذي بدا لنا بنغالياً ، وكان رجلاً لائقاً جداً ، اسمه «كرها» وطال بنا المجلس وتحادثنا ملياً ، وتوجهنا من السفارة إلى القنصلية البريطانية لأخذ التأشيرة ، فقد كان من المقرر أن أسافر من الرباط إلى لندن ، وشغل ذلك وقتاً طويلاً ، وعلمنا أخيراً أنه لا حاجة لنا إلى التأشيرة ، وأنه سيسمح لي بالإقامة لوقت مطلوب من مطار لندن على الوقت لأنني من سكان «الكومنولث» (Commonwealth) وآسفنا أننا لم نتمكن من مصاحبة رفقتنا في خروجهم لزيارة الآثار التاريخية في المدينة ، وأنهم سوف يزورون ضريح السلطان محمد الخامس ومسجده ، وذلك أن اليوم كان آخر يوم في الرباط ، وكانت الأشغال مزدحمة ، ولم يسمح الوقت لشيء إلا أن أستعد للجمعة ونتوجه إلى المسجد ، وكان من المقرر أن نصلي الجمعة في مسجد السنة .

ودخلنا المسجد فرأينا الناس منصرفين إلى تلاوة القرآن الكريم بالجهر ، وجلست أنتظر زوال الشمس ، ولكن بُدئ بأذان الخطبة فور الزوال ، ولم نر أحداً يصلي السنة ولا أدري إذا كان ذلك غير معمول به في هذا البلد ، وألقى الخطبة أحد مندوبي المؤتمر العالم المصري الشيخ

سليمان حسن ربيع (عميد كلية اللغة العربية بالأزهر الشريف) وهو يمتلك ناصية الكلام وسلاسة اللسان ، وقدرة الارتجال كغالب علماء مصر ، وكانت الخطبة طويلة ولكن بليغة .

وتوجه الضيوف بعد الصلاة ليتناولوا الطعام الذي كان مهياً في فندق الفردوس الذي يقع على مسافة ٢٠ - ٢٥ ميلاً من الرباط على ساحل المحيط الأطلسي ، ومررنا في الطريق بمدينة «سلا» التاريخية الشهيرة السعيدة التي يتكرر ذكرها في تاريخ المغرب ، والتي كانت موطن العلماء والصلحاء ومدفهمهم ، ووصلنا الفندق وكان جميلاً جداً على طراز الفن المعماري الأندلسي ، وزاده جمالاً وبهاء موقعه ، وكان منظر البحر رائعاً ، وكانت مقاعدنا في جهة البحر على أذرع منه ، وكانت الأمواج تداعب الساحل ، وكنت غارقاً في الذكريات القديمة والعواطف المتدفقة ، ومن خصائصي التي أصبحت محنة لي أن الشعور التاريخي والذوق الدراسي لا يفارقني في أي مكان وأوان ، ويطلان على عقلي وفكري بظلاله الكثيفة ، وقد تحول هذه الظلال بيني وبين التمتع بمناظر جذابة ، وكأن الدكتور محمد إقبال قال بلسان حالي أو صور موقفي إذ قال :

«إن شعري عبارة عن البحث عن القيم القديم وإن حياتي عبارة عن البحث عن المفقود» .

كان البحر موجاً أمامي ، وكنت غارقاً في دنيا التصورات والحقائق الماثلة ، وأتذكر طموح العرب ومغامرتهم ، الذين كانوا لا يبالون بالجبال والبحار والصحارى والقفار ، والذين اجتازوا هذا البحر الأطلسي ، وجعلوا راية الإسلام تخفق في إسبانيا ، وكنت أردد شطر البيت المشهور للشاعر الإسلامي الدكتور محمد إقبال: «إن البحار كانت ملعباً لسفن العرب» ، ولكن أين الحاضر من الغابر وأين الحال مما قال !؟

ورجعنا إلى الفندق الذي كنا نازلين فيه نلقي على «سلا» نظرة حب وحنين من بعيد .

وابتدأت الجلسة الخامسة للمؤتمر متأخرة في الساعة الخامسة مساءً ،

وجاءني الأخ العزيز ظهور الإسلام الندوي وناجاني في الجلسة ، وقال : إن وزير الثقافة يقول : إنه يود أن يشهد الحفلة التي ستحدثون فيها لكنه سيحضر بعد ذلك جلسة اللجنة ، فيود أن تكون كلمتكم لساعة واحدة ، وذهب ظهور الإسلام يطلب السماح من رئيس المؤتمر لغيابي عن هذه الجلسة ، فسمح بذلك وقال : لا بد من حضور الأستاذ محمد الرابع الندوي حتى ينوب عنكم .

وكانت الحفلة في قاعة المحاضرات التابعة لوزارة الثقافة ، ودخلنا أولاً في حجرة وزير الثقافة ، وقابلناه ، ثم تفضل هو ووزير الأوقاف والشؤون الإسلامية في قاعة المحاضرات وبدأت الحفلة ، ونهضت السيدة الفاضلة حبيبة البورقادي ، وقدمت كلمتها التي أعددتها في التعريف بكاتب السطور ، وقد جاء في المقال تعريف لائق بوالد كاتب هذه السطور ، وقد جاء في المقال تعريف لائق بوالد كاتب هذه السطور العلامة الشريف السيد عبد الحي الحسيني الأمين العام الأسبق لندوة العلماء ، وأشادت بصورة خاصة بكتابه «نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر» في تراجم أعيان الهنود وأعلامهم .

واستهللت حديثي فقلت : إن موضوع الحديث الذي أريد أن ألقيه اليوم ، لو قدمناه سؤالاً وتساءلنا : ما هي أزمة (CIRICIS) العالم الإسلامي الحقيقية اليوم؟ فستختلف الإجابة عليه وتكون له عشرات الأجوبة ، فقد يقول قائل : إنها الأزمة الاقتصادية ، ويقول الآخر : إنها الأزمة السياسية ، ويقول الثالث : إنها الأزمة الثقافية ، ولكنني أقول : إنها الأزمة الإيمانية والأخلاقية المحضنة ، إن أكبر ما يعانيه العالم الإسلامي من الفراغ والعوز ، وأشد ما يقاسيه من أزمات ، هي الضعف الإيماني والفساد الخلقي والتزعزع العقائدي ، ألق نظرة على العالم الإسلامي وانظر ماذا يعوزه ، إنه غني بكل شيء ، يقدر عدد المسلمين في العالم نحو ٦٠٠٠٠٠٠٠٠٠ ، وإن العالم الإسلامي يملك أحسن الأراضي الزراعية الخصبة الممتدة على رقعة واسعة ، الزاخرة بكل نوع من الثروات المعدنية والطبيعية والنباتية والحيوانية والإنسانية ، إنه يملك ذخيرة هائلة من البترول الذهب الأسود

الذي هو دم الجسم الصناعي والمدني ، ولا يعوزه التعليم والثقافة والذكاء والكفاءة ، ووسائل النشر والإعلام والدعاية والصحافة والخطابة ، ومعاهد التعليم والتربية ، ولكنه رغم ذلك كله لا يملك ثقلاً في الميزان العالمي ولا دوراً مؤثراً في اتجاهات العالم وأوضاعه وحوادثه ، وتجرد إلى حد كبير عن قدرة النفع والضرر التي تستوجب احترام الأمم والمِلل ولا يستطيع أن يقرر مصير الآخرين ، وإنما هم الذين يقررون مصيره ، وليس له في المسرح العلمي إلا دور المتفرج الصامت ولا يمكن أحداً أن يصوره تصويراً أبلغ وأدق وأشمل وأعمق مما جاء في الحديث النبوي الشريف :

«يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها ، فقال قائل: أو من قلة نحن يومئذ؟ ، قال: بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفن في قلوبكم الوهن ، قال قائل: يا رسول الله وما الوهن؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت»^(١).

وقلت: إني حين أرد هذا الوضع الذي يعيشه المسلمون إلى الأزمة الإيمانية فإني لا أريد به مفهوم الإيمان الكلامي والاعتقادي الذي يخرج به الإنسان من دائرة الكفر إلى دائرة الإسلام ، وتجري عليه الأحكام الشرعية ، ويكون مخاطباً بالآداب الدينية ، أما الإيمان بحقائق الإسلام الأساسية ، فإن المسلمين ، لا يزالون يفوقون جميع الأمم على ظهر البسيطة في هذا الجانب ، ولو وضع إيمانهم في كفة ، وإيمان أمم العالم أجمع في كفة أخرى لرجحت كفتهم ، وإنما أريد بذلك تلك الحرارة الإيمانية والصلابة العقيدية والإيمان كل الإيمان بكون الإسلام هو الوسيلة الوحيدة للنجاة والخلاص ، والفوز في الدنيا والآخرة ، التي كانت مزية الصحابة رضي الله عنهم ، الأمر الذي تغلغل في أحشائهم ، وملك عليهم عقولهم ، وجرى منهم مجرى الدم والروح .

(١) رواه أبو داود عن ثوبان رضي الله عنه .

أما الإسلام عندنا اليوم ، فقد عدنا نراه ديانة من الديانات الكثيرة في العالم ، تفوقها في بعض الأشياء ، وتبزهها في الصدق والصحة ، أما عند سلفنا الصالح والرعييل الإسلامي الأول فقد كان الإسلام هو الدين الحق وحده ، وما سواه جاهلية وظلمة وظلم ، وأوهام وأساطير ، ونحن ننشد باسم الإسلام أن يسمح له بالبقاء طبق مبدأ التعايش السلمي وأن يسمح للمسلمين بالحياة في كل بلد وقطر ، كما يسمح لكثير من الدواب والحيوانات في العالم بالتوالد والتناسل والبقاء ، وقد تتولى الحكومات الإبقاء على بعض السلالات الحيوانية ، وتصدر في ذلك أحكاماً خاصة ، وكما يحافظ في المتاحف على كثير من الأشياء الأثرية التي لم تعد تنفع اليوم وفقدت مصلحتها وقيمتها ، كذلك ينبغي أن يسمح ببقاء الحضارة الإسلامية والآداب الإسلامية ، وقوانين الأحوال الشخصية للمسلمين .

أما إيمان الصحابة وأسلوب تفكيرهم فيما يتعلق بالإسلام ، فقد كانا يختلفان عن ذلك كل الاختلاف ، يمثل ذلك ما قال رسولهم لقائد قواد الفرس ووزير الحربية عندهم «رستم» عندما سأله: ما الذي جاء بكم إلى هذا البلد؟ فقال: «الله بعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام» كان الإسلام عندهم شعلة جواله تحيل الأديان والمعتقدات كلها رماداً وتذبيها كالشمعة وتخففها كالندى ، لا تقف في وجهه الجبال ، ولا تحول دون مده البحار ، وقد قرأتهم قصص المغامرة والفتح والانتصار لقادة فتح المغرب كعقبة بن نافع ، وطارق بن زياد ، وموسى بن نصير ، إن هذا الإيمان هو الذي ملأ جوانح قلوبهم وعمر طوايا صدورهم ، ونور زوايا عقولهم ، فكانوا ناراً محرقة على أخضر الكفر ويابسه وسيفاً بتاراً لأباطيل الجاهلية فكان كما قال الدكتور محمد إقبال: «انفلقتم لصدمتهم البحار ، والصحاري ، وانكشمت لهيبتهم الجبال» وكانوا يرون البحار ملعباً لسفنهم كما ينظر اللاعبون اليوم إلى ميدان الهوكي والكريكيت أو كرة القدم ، كنت أتعدى اليوم في فندق الفردوس وأتذكر جرأة هؤلاء القادة الفاتحين

المغامرين ، وشجاعتهم وبطولتهم المثالية ، الذين قذوفوا خيلهم في البحر الأطلسي ، ووسعوا حدود الدولة الإسلامية إلى أوربة .

وكذلك لا أريد بالأخلاق ، الأخلاق والسلوك الظاهري ، فإن ذلك لا ينقص المسلمين ، وإنهم يملكون من ذلك كمية فائضة ، ولكني أريد الصلابة الخلقية والاستقامة السلوكية والمبدئية ، وإيثار المصالح الدينية على الأغراض الشخصية ، والسمو عن التضحية بالمبدأ ، لمنفعة مؤقتة ، وعن الإتيان بما يأباه الضمير ، ويشتمز منه القلب ، واستعذاب التضحيات في سبيل الحق مهما كانت كبيرة غالية ، فلو رحنا نزن أنفسنا بهذا الميزان ورأينا أنفسنا بهذا المنظار لوجدناها ، بل ووجدنا قادتنا وزعماءنا قد بلغ بهم الانهيار الخلقى والتزعزع السلوكي إلى المساومة على عرض الأمة وشرفها ، والوطن وكرامته ، ولم يعد الصواب الدكتور محمد إقبال حينما قال عن هذه الطبقة :

«إن شيخ الحرم^(١) هذا هو الذي قد يبيع كساء أبي ذر ، ورداء أويس القرني ، وملاءة سيدتنا فاطمة الزهراء بلقيمات ودرهيمات» .

ومن هنالك فإن أزمة العالم الإسلامي الحقيقية وقضيتها الحساسة هي الانحطاط الخلقى والإيماني ، ولا أمل في خير ما لم ينزل هذا الوضع .

ورجعنا إلى الفندق ، ثم حضرنا لمدة قليلة المجلس التنفيذي للجمعية ، ثم عدنا إلى حجرتنا ، وكان العشاء عند مولاي مصطفى العلوي وكان مجلس الطعام قد جمع بين نخبة الأصدقاء الذين لم يزد عددهم على (٥ أو ٦) ، على رأسهم نائب رئيس جمعية الجامعات وعلامة المغرب ومحققها العظيم الحبيب بلخوجة عميد كلية الزيتونة في تونس ، وكان الأخوة كلهم يتصلون بالدراسة والتدريس ، فتطرق الحديث إلى طلاب الكليات والجامعات وعدم اجتهادهم وقلة بضاعتهم في العلم ، وأرجع

(١) المراد من يمثل الإسلام ، من الزعماء والملوك وعلماء الدين .

العلامة الحبيب بلخوجة ذلك إلى الأساتذة الجدد الذين يتميزون بالسطحية وعدم إجهاد النفس ، وسرد في ذلك قصصاً عجيبة ، دلتنا على أن هذا الداء لم يعد داء بلادنا وحدها ، وإنما عم في البلاد العربية أيضاً عموم الوباء ، وقد أثر ذلك على النظام التعليمي من الرأس إلى أخمص القدم .

الحضور في حفلة التأيين للأستاذ علال الفاسي^(١) في الدار البيضاء والتوجه إلى مراكش - ١٥ مايو يوم السبت :

وكان من المقرر اليوم أن يتجه الركب بعد تناول الفطور صباحاً إلى مراكش ، وقد طلب إلي أن أتوقف قليلاً في الدار البيضاء ، وأحضر كممثل لجمعية الجامعات الإسلامية حفلة التأيين التي كانت تربط بيني وبينه ، وبسبب الحب والإعجاب اللذين أكنهما للمرحوم في قلبي ، وقد خصصت الجمعية سيارة لي ، ستكون تحت أمري وأستخدمها كيف أشاء إلى آخر عهدي بالمغرب .

ودخل الإخوة كلهم الدار البيضاء ، وذهبوا لساعتهم إلى الفندق وجلسوا على مائدة الغداء وتوجهوا بعد الطعام إلى مراكش ، وصلت الظهر في جامع الإمام محمد الخامس وألفت هناك طالباً صغير السن وتقدم إلي قائلاً: هل أنت هندي؟ فقلت: مالك وللهند؟ قال: في الهند لنا إخوان في الله ، وكان هناك في فناء المسجد شباب قابلوني في حب وحماسة وذكروا الدعاة والإسلاميين الذين يعيشون اليوم وراء الأسوار ، ولم أدر ما هو السبب في اعتقالهم والزج بهم في السجون ، ولكن ذلك لم يكن غريباً

(١) هو فقيه ، مؤرخ ، زعيم ، بحاثة ، ولد بفاس ، ودخل جامع القروين ، وتردد على حلقات أهل العلم ، تقلب في وظائف الحكومة ، ودرّس بكلية الشريعة والآداب بفاس ، ودار الحديث الحسنية ، انتدبه الملك محمد الخامس عضواً في المجلس الذي وضع إطاراً دستورياً للبلاد ، وكان عضواً في مجلس جامعة القروين وفي لجان علمية عديدة ، له كتب مشهورة ، ومقالات منتشرة في الجرائد والمجلات ، توفي سنة

عندي ، لأن جميع البلاد الإسلامية تعيش هذا التناقض العجيب ، وسمع التلميذ الصغير الذي لقينا على الباب حديثنا فقرأ على الحال: ﴿ أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ ، قلت: يا أخي إنك تبدو ذكياً مثقفاً ، وسأسجلك في مذكرتي ، فقال: أبداً ، قلت: هل تخاف السجن؟ قال: لا ولكن أخاف السمعة والرياء ، وكان يتعلم في مدرسة قريبة من المسجد ، جاء يصلي الظهر في الإجازة المتخللة ، وانتهيت من الصلاة إذ وقع علي بصر أحد من إخوة جماعة التبليغ الذي استمع إلى حديثي في «فاس» وكان يسمى علياً ولكن الناس يدعونه «علي ما شاء الله» لأن ما شاء الله على طرف لسانه دائماً ، وذهب بي إلى دكانه ، وجددت الضوء هناك ثم توجهت إلى حفلة التأبين .

وكانت الحفلة في قاعة شعبية على شارع الجيش ، وكانت قد ضاقت بالناس ، وكان كثير من الحضور واقفين خارج القاعة ، وكانت تدوي بالهتافات بتحبيذ الأستاذ المرحوم علال الفاسي حيناً بعد حين ، وكان يتلى مقال حول أفكار المرحوم ونظرياته وخدماته السياسية وخلفياتها ، وكان المقال ذا تحليل علمي دقيق يسلط الضوء على الوضع السياسي للبلد ومراحل ارتقاء الشعور والفكر السياسي .

ثم دعيت لإلقاء كلمتي ، وبدأت حديثي فقلت: إنه يؤسفني جداً أنني زرت المغرب حين كان الأستاذ علال الفاسي قد غادره إلى جوار ربه ، وقد صدق الشاعر العربي:

إذا زرت أرضاً بعد طول اجتنابها فقدت صديقي والبلاد كما هيا
ثم ألقيت الضوء على ثلاثة جوانب من جوانب حياته:

قلت: إنني أقدره تقديراً كبيراً ، إنه بدأ حياته كعالم ديني ، كان قد تخرج من جامع القرويين ، وحصل العلم جالساً على حصير المسجد والمدرسة ، فكان علمه راسخاً ودراسته عميقة ، ونظره نفاذاً ، وإنه فيما أعلم لم يتجرد عن ذوق الدراسة والمطالعة إلى آخر عمره بالحياة ، وإن الأشغال السياسية لم تقف حاجزاً بينه وبين دنيا العلم والدراسة والتدريس ،

كما حدث مع الكثيرين ، بل كانت ثقافته القديمة هي منبع محاولاته التحريرية وولائه الوطني ، وجهوده وجهاده في سبيل الاستقلال ، وإن هذه المزية يشاطره إياها العلماء المؤمنون في الهند الذين قادوا حركة التحرير في بلدهم فكانوا علماء الدين وقادة حرب التحرير في وقت واحد .

ومزيته الثانية أنه درس الأنظمة والفلسفات السياسية الجديدة دراسة عميقة فلم تكن معلوماته غير مباشرة SECONDHAND ولم يتخلف عن ركب الحياة ، وإني أعلم أنه كانت له آراء ونظريات خاصة ، وقد وضعت حول حياته كتب في اللغة الفرنسية والإنجليزية وأرجو أن سلسلة هذا التأليف ستبقى وتمتد .

ومزيته الثالثة أنه كان له اتصال ومعرفة بالهند وعلمائها ومؤلفيها ومفكريها أكثر من علماء البلاد العربية الأخرى ، ولا سيما مفخرة الهند حكيم الإسلام أحمد بن عبد الرحيم المعروف بولي الله الدهلوي ، والذي كان معجباً به إعجاباً كبيراً ، ويثني عليه كثيراً ، وكان شغوفاً بكتابه «حجة الله البالغة» ، وقلما كان يلقاني ولا يذكر «حجة الله البالغة» ، وكان يحله المحل الأرفع فيما يتعلق بعرض مقاصد الشريعة وأسرارها ، وكذلك كان يشيد بذكر الدكتور محمد إقبال كثيراً ، وكان يحفظ شيئاً كثيراً من الترجمة العريضة المنظومة لشعره .

وكان هذا الحديث موضع الاستحسان في الأغلب ، وقال لي الأستاذ أبو بكر القادري وهو من تلاميذ الأستاذ علال وزملائه: إن هذا الحديث أضاء بعض جوانب جديدة من حياة المرحوم ، وقد نشر في «العلم» لسان حال حزب الاستقلال خلال إقامتي بالمغرب .

وبعد ما انتهينا من إلقاء الكلمة توجهنا إلى مراکش التي تقع من هنا على نحو ٢٠٠ ميل ، ووصلنا عشاء إلى «العمالة» التي هي مقر حاكم مراکش ، وعلمنا هناك أننا سننزل في «فندق القرية» وهو فندق في مكان هادئ جميل في مراکش ، ونزلنا فيه وقضينا الليلة في راحة وهدوء .

زيارة الآثار التاريخية في مراكش

١٦ مايو ، يوم الأحد:

وكنت قد قررت أنني سأقوم برحلة مستقلة إلى مدينة مراكش التاريخية ، إذ لم يكن هناك مجال لزيارتها في البرنامج الذي اتخذته جمعية الجامعات الإسلامية ، لأن زيارة المغرب تبقى ناقصة بدون هذه الزيارة ، ولكن من حسن الحظ أن الجمعية بدورها قد أدخلت ذلك في برنامجها ، وكان من دواعي ذلك أن جلالة الملك الحسن الثاني ملك المغرب يقيم الآن في مراكش ، وكان قد تكرم بدعوة ضيوف المؤتمر إلى حفلة غداء أقامها على شرفهم ، وكان من المرجو زيارته ، على كل فاغتنمت زيارة يوم واحد لمراكش .

اختط مراكش السلطان الطموح المجاهد يوسف بن تاشفين ، مؤسس أسرة المرابطين الذين يدعون بالملثمين أيضاً ، كان ولادته في ٤٠٠ هـ قبل وفاة محمود الغزنوي بـ ٢١ سنة ، وحكم ٤٧ سنة ، وتوفي في ٥٠٠ هـ نحو ١٠٠ من عمره ، وكتب التاريخ والسير مشحونة بمناقبه وفضائله ، ومآثره وأخلاقه وبقصص حياته التي كان ملؤها الطهر والصفاء ، والنزاهة والعفاف ، والزهد والكفاف ، والعزم الراسخ والإيمان الصادق ، وكانت بطولته الكبرى هي معركة «الزلاقة» التي كانت في ١٢ رجب ٤٧٩ هـ ، يعني بعد فتح «سومنا»^(١) بـ ٦٤ سنة ، وقد استنجده لمحاربة المسيحيين الذين لا تفتقر غاراتهم وهجماتهم على الحكومة الإسلامية العربية الأديب الشاعر العظيم ، البطل المغوار المجاهد السلطان المعتمد بن عباد ، حينما حاولت الحكومة المسيحية في «طليطلة» أن تقضي للأبد على الحكومة الإسلامية

(١) المعبد الهندكي الأكبر في الهند ، الذي دخل فيه إسكندر الإسلام محمود الغزنوي فاتحاً ، وكسر صنمه الأكبر ، وقد حاول سدنته أن يصفوه عن ذلك وعرضوا عليه ثروة هائلة كقيمة للافتتاح ، فرفض ذلك قائلاً: «لا أحب أن أشتهر ببائع الصنم ، إنما أحب أن أشتهر في التاريخ بكاسر الصنم» .

التي كانت الرمز الأخير على عظمة الإسلام في إسبانيا ، والمعقل الأخير للحضارة الإسلامية العربية ، وحينما أدرك المعتمد بن عباد - الذي كانت بطولته ومغامرته كلمة إجماع عند الصديق والعدو - أنه لا يستطيع إخضاع هذا العدو القوي ، أرسل إلى السلطان يوسف بن تاشفين يستنصره ، رغم أن أعضاء الحكومة ، ومستشاري البلاط المحنكين حذروه من عواقب هذه المساعدة وقالوا: إن الملوك الذين يمدون يد العون والمساعدة ، لا يرجعون إلى بلادهم بعد أن تضع الحرب أوزارها ، إذًا فإن استدعاء يوسف بن تاشفين معناه الحرمان من الحكم وضياع السلطة ، وكان رد المعتمد على ذلك ما يدل على غيرته الإسلامية المتأججة ، التي يجدر بأن تسجل بماء الذهب ، قال : «أن يرعى أولادنا إبل العرب المراكشيين خير من أن يرعوا خنازير الصليبيين» ، يعني أن الحرب لو أسفرت عن كوننا مستعبدين للعرب الذين هم إخواننا في الدين ، خير من أن نظل عبيدًا لأذلاء للمسيحيين ، وقد هزم يوسف بن تاشفين المسيحيين في معركة الزلاقة هزيمة شنيعة جعلت منارة من رؤوس القتلى وجعلت كل أسرة مسيحية تبكي على قتلاها ، وسوف تبقى ماثرة يوسف بن تاشفين هذه غرة في جبين التاريخ ، وكفيلة بأن تدخله في قائمة المجاهدين الكبار والفاحين الأبطال في العالم ، لكن الذي كان نقطة سوداء في صفحة بيضاء هو أنه هجم على المعتمد بن عباد بعد عدة أعوام وجاء به أسيراً إلى مراكش ، وحبسه في «أغمات» وذلك على إغراء^(١) متكرر من ضباطه الذين تحلبت أفواههم وتلمظت شفاههم للثروة والمدنية الزاهرتين الزاهيتين في إشبيلية ، وقرطبة ، وعاش المعتمد في حبسه عيشة غيرة وإباء وشمم ، حتى تخلص من حبس الحياة وانتقل إلى جوار ربه وفسيح جناته ، وله قصص مؤلمة

(١) ويرى بعض المؤرخين الناقدين أنه أقدم على ذلك من أجل صيانة إسبانيا من خطر نفوذ المسيحيين ، ولم يكن هناك طريق إلى ذلك إلا أن تدخل إسبانيا تحت إشراف حكومة المرابطين القوية المتماسكة ، وأن لا يكون الخطأ الذي ارتكبه أحمد شاه الأبدالي في الهند حيث رجع من الهند أدراجه بعدما دال للمسلمين من المرهقة المعتدين ، وكسر شوكتهم .

وأبيات رقيقة مرققة قالها في هذه الأيام من حياته ، لا ينساها تاريخ الأدب العربي ، والمؤرخون لسان واحد على فضل المعتمد وشجاعته المنقطعة النظير وعظيم مروءته وشهامته .

ومراكش مدينة الآثار التاريخية ، وظلت مدة طويلة عاصمة المغرب الأقصى وكانت مقر الخلافة في عهد أسرة الموحدين ، والعاصمة لها مغناطيسيتها لا في داخل البلد وحده ، بل في العالم المعاصر أيضاً ، إنها تجذب رجال الفضل ، ونوابغ الفنون ، وأئمة العلوم والوجهاء والنبلاء ، والصناع والمجودين من كل نوع ، جذب المغناطيس للقطع الحديدية ، حتى المشايخ وأهل القلوب واليقين ، الحريصين على خدمة خلق الله ، وإرشادهم وتوجيههم إلى ما ينفعهم في دنياهم وعقباهم ، يؤمنون العواصم - حرصاً على إفادة كبيرة ، ومكاسب كثيرة ، في مدة قليلة ، والحصول على نتائج خيرة - رغم ما تموج به من أنواع المفساد التي بسببها يجعلونها مراكز جهودهم الإصلاحية ، وهذا ما يؤكد تاريخ بغداد ، وتاريخ غرني ودهلي ، وتاريخ قرطبة ومراكش .

ومن هنا نجد في كل مكان من مراكش أضرحة العلماء والمشايخ ، وأطلال مدارسهم وزواياهم ، وقصور الملوك والسلاطين أولي المنعة والقوة ، والشوكة والأبهة ، وقد أهدى إلي أحد الأصدقاء الأفاضل كتاباً باسم «الإعلام بمن ورد مراكش من الأعلام» دلّني دراسته على أن هذه المدينة كانت في عهدها الزاهرة منتجع أئمة العلوم والفنون ، وكبار الأولياء والصالحين ، ومرمى أبصار ذوي الحاجات من كل نوع ، ومحط الناس من كل حذب وصوب .

ولم يكن الأسبوع الكامل ليكفي لزيارة هذه الآثار ، فضلاً عن يوم واحد ، قد كان أمير جماعة التبليغ في الرباط الأستاذ الحمداوي وعدني أنه سيقدم مراكش ويعينني على زيارة الآثار القديمة والأمكنة التاريخية ، وقد أخطر هو بقدومي إلى مراكش ، للشاب المثقف الصالح شهاب عبد اللطيف محمد ، الذي قصد وطني «دار الشيخ علم الله الحسني» التي تقع على غلوة

من مدينة راي بريلي «في ولاية أترابرديش الهند» ، يزورني منذ مدة طويلة ، والشاب ذو اطلاع واسع على مدينة مراكش وما يقع فيها من آثار ، فحضر للفندق صباحاً هو والأستاذ الحمداوي مع تاجر كبير في المدينة يملك مصنع نسيج الثوب ، وخرجنا لزيارة الآثار على سيارته ، ولم يكن عندي من الوقت إلا الفترة ما بين الصباح إلى الظهر ، فحاولنا أن لا نضيع علينا لحظة منها وأن نزور من الآثار ما يمكن زيارته في هذا الوقت القصير .

وقد زرنا من أضرحة العلماء والصلحاء ، ضريح مفخرة المغرب القاضي عياض مؤلف كتاب «الشفاء في تعريف حقوق المصطفى» ، وضريح الإمام السهيلي شارح «سيرة ابن هشام» وضريح محمد بن سليمان الجزولي صاحب «دلائل الخيرات» ، ومن أضرحة المشايخ وأولياء الله ، ضريح الشيخ أبي العباس السبتي ، وضريح صاحب الغار أبي يعقوب يوسف بن علي ، ومن أضرحة الملوك والسلاطين ضريح أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ، منشئ مدينة مراكش ، وأضرحة الملوك السعديين ، وقد دعونا الله أن يغفر لهم ويسامحهم ، وهذه المقابر تقع في أمكنة خضراء ، وتقوم عليها مبانٍ رائعة ذات رسوم ونقوش بديعة ، وزرنا ضريح مولاي سليمان أيضاً ، وهو من أجداد الملك الحالي ، وأما من المساجد والمدارس فزرنا أطلال مسجد المرابطين ، الذي حول فيما بعد إلى مسجد الموحدين ، وهو من بناء يعقوب المنصور الموحدي ، باني الرباط ، ومررنا بمسجد علي بن يوسف الذي كان يحتضن مدرسة تداني جامع القرويين ، وزرنا مدرسة ابن يوسف التي كانت في عهد بني مرين ، وكذلك شاهدنا مسجد يعقوب بن منصور السعدي .

ومن بين القصور الملكية ، رأينا قصر الباهية ، الذي بناه وزير السلطان مولاي حسن والسلطان عبد العزيز أحمد بن موسى الحبشي الأصل ، في عهده الزاهر ، وتجلت في بنائه شهامته ورحابة صدره ، وندى راحته ، فجاء آية في البناء والهندسة ولا يزال محط السياح والزوار منذ اليوم الأول ، يتوافد إليه الناس يزورونه من قاصي الأرض ودانيتها ، وكان هذا الوزير ذا نفوذ كبير وصاحب كلمة عليا في المغرب كله ، وكان هذا القصر مقر

أمانته ، وبيت حريمه أيضاً ، وقصيدة البردة مرسومة على جدرانه ، وزيارته تعطي صورة واضحة عن عيشة الأمراء والوزراء ومدنيتهم في عصرهم ، وزرنا المنارة ، وهي بركة عريضة طويلة بنيت في عهد السعديين ، ولم يستطع المهندسون في يومنا هذا أن يتوصلوا إلى طريق جلب الماء إلى هذه البركة فيملاً فيها الماء على طريقة متبعة ، وبجانبها بستان الزيتون يرجع تاريخه إلى هذا العهد ، ورأينا السور الذي بناه علي بن يوسف بن تاشفين من أجل التحرز من غزو الموحديين ، وذلك على إيعاز من ابن رشد فيما يقال ، ورأينا باب الرباط الذي كانت الأحكام الشرعية تجري فيه ، ورأينا منتزه أكداً ، وهو منتزه كبير يقع بجانب القصر الملكي ، وفيه بركتان كبيرة وصغيرة ، وبستان الزيتون .

وقد سجلنا فيما يتعلق بالقصور شيئاً كان جديداً علينا ، أن معظم القبور القديمة وضعها يدل على أن أقدام الموتى إلى القبلة ، وقال لي مرافقي شهاب بن عبد اللطيف أن ذلك هو الأفضل في المذهب المالكي ، ولكن ذلك لم يقنعني لأن الإمام مالك نفسه وجميع القبور في البقيع وجنة المعلى ، وقبر النبي الكريم ﷺ أيضاً لا تتوجه إلى القبلة .

ورجعنا عن زيارة هذه الآثار ، والقلب مؤمن ببناء العالم ، وزوال الملك والسلطان وضعف الإنسان ، وطول عمر البنيان ، حتى كَلَّ عقلي ، وتعب فكري ، من مثل هذا الانفعال والتأثر وعادت الدنيا تبدو كأنها لعبة الصبيان ودمية الأطفال ، وعادت الحياة يخيل إليّ كأنها أضغاث أحلام ، وصدق الشاعر الأردني حينما قال : «كم محت الأيام والليالي آثار القادة والفاثحين والنوابغ والعبقريين ، وكم أكلت الأرض كباراً كانت عظمتهم تناطح السحاب» .

ثم جاء بنا مرافقنا الحاج محمد بن إدريس إلى بيته ، الذي يقع في قاعة بني ناهيد ، وصلينا الظهر وتغدينا ، وقد دعا إلى الطعام بعض أصدقائه الآخرين ، واسترحنا قليلاً ثم رجعنا إلى الفندق .

كانت بعد صلاة العصر ، حفلة المتخرجين في دار الحديث الحسنية ،

وتلا فيها سكرتير الملك رسالته ، ثم ألقى كلمات ، وكنت قد عزمت على أن أرتحل مساء اليوم بعد المغرب إلى الدار البيضاء ، ومنها إلى لندن ، وقد أبرقت إلى الأخ العزيز مسرور أحمد اللكهنوي في لندن بقدمي إليها ، لكن قابلني أمين جمعية الجامعات الإسلامية بعد انفضاض الحفلة وألح علي أن لا أغادر المغرب غداً ، لأن الملك يقيم مأدبة ، وسيكون لقاء مع الملك ، كذلك أصر على الإقامة الأستاذ محمد بن البشير ، فاضطرني ذلك كله إلى أفسخ عزمي ، ونويت المكوث ليوم واحد نية مترددة ، رجاء أن يكون اللقاء مع الملك مفيداً ، يتيح لي فرصة حديث معه وإلقاء كلمة فيما يهم الإسلام والمسلمين في هاته الديار .

ورجعت إلى الفندق ، وكنت متضايقاً جداً ، وأقول في نفسي مرة بعد أخرى ، قد تعجلت في تغيير رأبي وتبديل برنامجي ، هل يكون هذا التأجيل نافعاً أم لا ، واشتد فيّ هذا الشعور ، حتى عزمت على أني سأستميح الشيخ محمد الفاسي بالرحلة ، وأتوجه إلى لندن في الصباح المبكر ، وأركب من الدار البيضاء الطائرة التي حجزنا فيها المقاعد ، ولكن ما تمكنت من لقاء أحد من المسؤولين ، وما رأيت أن أغادر دون إخطار المسؤولين بذلك ، على كل أجلت الرحلة للغد ، ولكن قضيت الليلة في ضيق وتردد .

المأدبة الملكية ، وزيارة الملك ١٧ مايو ، يوم الإثنين :

وبدا لي أن أستكمل زيارة بعض الآثار التي فاتتني زيارتها بالأمس ، وقد ذكرت عدداً مما رأيته اليوم في السطور الماضية مع ما ذكرت ، من الآثار والأمكنة ، ورغم ذلك لم أستطع أن أوفي زيارة مراكش حقها ، إن معظم سياح أوربة يؤمّون مراكش ، ومن دواعي ذلك طقس مراكش في الشتاء والشمس التي يحرصون عليها حرصاً كبيراً ، ثم كثرة الآثار التاريخية والقصور الملكية ، ومما زرته اليوم كان جامع الكتبية ، الذي هو أكبر الجوامع وأشمخها ومن أجملها في المغرب ولكنه اليوم محتاج إلى الترميم والإصلاح ، ويقولون إنما سمي بذلك لأنه كان هنالك ثمانمئة دكان للوراقين والتجار في الكتب .

منارة الكتبية :

هذه المنارة ذات سبعة طوابق ، وارتفاعها ٢٧٠ قدماً وسعتها ٥٠ قدماً ، على حين أن منارة قطب الدين أيبك الشهيرة في الهند ، ارتفاعها ٢٣٨ قدماً ، وسعتها ٤٧ قدماً ونصف ، وقد بني هذا المسجد قبل منارة قطب بأربع سنوات .

وبما أنه كان من المقرر اليوم الحضور في المأدبة الملكية ، تعجلنا في الرجوع إلى الفندق ، حتى نحضرها مع جميع الرفقة ، وكانت المأدبة في بستان ، وكانت حياض الأزهار وصفوفها ، تمثل الجمال وتبعث الروعة والسحر ، مما كان يدل على أن أراضي هذه البلاد مخصبة مغلّة ، وقد كانت مقاعدنا في فناء بناء ، وكان الخدم الملكي مشمرين زيهم لتقديم النزل إلينا ، وكانوا يبدون سودانيين ، وكان مراقبهم أيضاً قائماً ، وكان يتلقى الضيوف سكرتير الملك الأول أحمد بن سودة ، وكان الطعام خمسة أنواع مغربية خالصة ، موضوعاً في صينيات كبيرة ، توضع كل صينية بين كل أربعة أو خمسة رجال ، كانوا جالسين مجتمعين ، وكان اللحم هو محل الصدارة في الطعام ، وكانت ترفع الصينية بعد قليل ، وتوضع أخرى .

ولما انتهوا من الطعام رجعوا إلى الفندق ، وتوجه الركب بعد صلاة العصر إلى قاعة المجلس البلدي ، وتناولوا فيها الشاي والكعك ، ثم توجهنا إلى القصر الملكي ودخلنا فيه ، فأقمنا في دائرة مثلثة ، وشرف الملك وسلم وعرف كلاً من الضيوف إلى الملك رئيس الجمعية الشيخ محمد الفاسي - وهو أستاذ الملك - وكان الملك يصافح كل واحد ويستخبر أحواله ، ولما انتهت سلسلة اللقاء والتعارف والتحية ، كلفت أن ألقى كلمة نيابة عن جميع الأخوة الضيوف .

وبدأت حديثي قائلاً : «إني أكتفي بالتحية التي علمنا إياها نبينا الأعظم وجدكم الأجل محمد ﷺ (أرواحنا فداه) أعني السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وكذلك أكتفي لكم بالدعاء الذي يدعو الخطباء في يوم مبارك في

ساعة مباركة وعلى منابر المساجد كل يوم جمعة أعني: «اللهم انصر من نصر دين محمد ﷺ واجعلنا منهم».

وأضفت قائلاً: إنني أسعد بتبليغ رسالة كريمة إليكم عن العالم الإسلامي ، أراها أمانة في عنقي ومسؤولية على عاتقي ، وهي أن المسلمين اليوم في مشارق الأرض ومغاربها ينتظرون بفارغ الصبر أن يطلع من أفق العالم الإسلامي نجم جديد ، يعلقون به آمالهم ، إنهم يعيشون وضعاً مردياً عصيباً عجبياً ، يحتاجون فيه إلى قائد عصامي ، مؤمن ألمعي ، يمتاز بإخلاصه وبقينه ، وعزمه الراسخ وقلبه الواثق ، وقد صور القرآن هذا الوضع تصويراً بليغاً معجزاً فقال: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ﴾ .

إن المسلمين يعيشون مثل هذا الوضع ولا يرون ملجأ من الله إلا إليه ، وقد كان يطلع من أفق العالم الإسلامي في الماضي شخصية عملاقة عصامية ، تحول مجرى التاريخ ، لكن ذلك يحتاج إلى الإيمان والإخلاص ، والشهامة والغيرة ، وصدق الولاء والوفاء وإنما ينهض بذلك من يريد أن يخدم الإسلام ويرضي ربه ، ويقنع ضميره ، ويؤدي مسؤوليته سامياً عن الأغراض السياسية والأغراض الشخصية ، وكان الناس يتطلعون في هذا العهد الأخير إلى والدكم العظيم السلطان محمد الخامس ، ولكن لم يمهله الأجل ، ومن يدري إذا كان الله قد كتب لكم هذا الشرف ، ويريد أن يسوق إليكم هذه السعادة» .

ثم استمач عميد كلية اللغة الشيخ سليمان حسن ربيع المصري بإلقاء حديثه ، فألقى كلمة موجزة يدور حول الأزهر الشريف ، ودوره وخدماته ، وأعقب بعض الأخوة الآخرين الذين أبدوا عن حبهم العميق للملك وإخلاصهم له .

ثم ارتجل الملك خطبة كانت فصيحة تجري في صميم العربية ، تتخللها متون بعض الأحاديث مما دل على أنه يدرس الحديث الشريف ، وأن له نظرة على دواوين الأحاديث أيضاً ، استهل حديثه بالتنويه بوالده وتربته له

وقال: إنه أخذني بتربية أشربت في قلبي حب العلماء واحترامهم ، وذلك الذي جعلني أشرف في وقت وآخر بلقاء هذا العدد الكبير من العلماء من مختلف البلاد والأقطار ، ثم ذكر العلماء بمسؤولياتهم ، وضغط على الجانب الخلقى والسلوكي في الدين ، ودعا إلى تعليم اللغات والعلوم الغربية .

ويبدو أن جلالة الملك في ٤٠ - ٤٥ من عمره ، وهو ربعة من الرجال ، كأنه قضيب ، يعلو وجهه الشرف والتواضع ، يرتدي الزي المغربي وينطق بالعربية الفصحى ، وينحدر من أشرف سلالة ، كل ذلك جعله موضع الحب والاحترام ، ولبعض العاملين في مجال الدعوة والعمل الإسلامي ملاحظات ، ووجهات نظر ، وتمنيات وترقيات ، يبعثها الحب للإسلام والحب لهذه الأسرة الشريفة التي أنقذت البلاد في فترات حالكة ، ولم نستطع أن نتوصل - من أجل ضيق الوقت وكثرة الأشغال - إلى المبررات والمصالح التي تحمل جلالة الملك على انتهاج سياسة خاصة وأن نحللها تحليلاً حيادياً ، ولكنه رغم ذلك يستطيع أن يكسب شعبه ، وأن يكون شخصية محترمة في أعين الجميع إذا أمده الإخلاص والعزيمة ، ووفق إلى جهود مخلصه صحيحة في صالح الدين والوطن ، وقد كان أول حاكم مسلم بعث قواته لمساعدة العرب في حربهم مع إسرائيل عام ١٩٦٧ م ، ولكن جمال عبد الناصر لم يسمح باستخدامها ، وكذلك قاد «المسيرة الخضراء» ضد إسبانيا ، فيما يتعلق بالصحراء المتنازع عليها بين المغرب وإسبانيا ، ونجح في ذلك نجاحاً موفقاً ، وزاد اعتباره في أعين الشعب ، ومن هناك فشلت محاولة قتله ، واغتياله مرتين ، ووضع القائمون بمكيدة الاغتيال السلاح .

والفضل في ذلك كله يرجع إلى والده الصالح السلطان محمد الخامس ، الذي وجدنا كل طبقة من طبقات الشعب المغربي لساناً واحداً في الثناء عليه ، وذلك أنه كان نزيهاً تقياً ، عاش حياة فوق كل شبهة ، ثم إنه قاوم الاستعمار الفرنسي مقاومة جريئة وثبت أمامه ثبوت الجبل الراسي ، ولم يرض بمساومتهم رغم ما قدمه الفرنسيون في ذلك من إغراءات وطالب

باستقلال المغرب كله ، وتمسك بمبدئه إلى آخر لحظة ، مما سبب له أن يعيش في المنفى منذ ١٩٥٣ م إلى ١٩٥٥ م .

وقد اشتهرت نكتة مليحة في عهد الاستعمار الفرنسي على طرف الألسنة في المغرب «السلطان محمد الخامس في القمر» «السلطان محمد الخامس في القمر» ، وكان الناس يقولون في لهجة ملؤها الثقة والقوة ، حتى صار الفرنسيون يفكرون فيما إذا كان ذلك صحيحاً ، ثم لما تحرر المغرب وتقلد زمام الحكم غمرت الناس موجة فرح وسرور ، ولو مد الله في عمره ، وكتب له أن يحكم سنوات أخرى ، لكانت المملكة المغربية دولة إسلامية قوية تستأثر بكثير من المزايا التي تجردت عنها معظم البلاد العربية الإسلامية ، لكن المغرب حرم هذه الشخصية المتميزة ، وتوفي إلى رحمة الله بعد عملية جراحية عادية ، وعادت المسؤولية على عاتق ولده الشاب الذي يعتبر ذا شخصية محنكة ذات عزيمة وطموح متفق عليها عند الشعب ، وهو يحكم هذه المملكة المخضبة الواسعة المترامية الزاخرة بالثروات الطبيعية - التي وسعت حدودها الصحراء التي حصلوا عليها بعد جهود وجهاد ، ويربو عدد سكانها على مليون ونصف ، يجمعهم دين واحد وهو الإسلام ومذهب فقهي واحد هو المذهب المالكي - وإنها تواجه تحدي الحضارة الغربية - بحكم كونها على باب المغرب - أكثر من أي بلد إسلامي أو عربي آخر مما يحوجها إلى ذكاء أكثر ، وجرأة أوفر ، ويزيد القضية تعقيداً أن العصر عصر القلق والاضطراب والثورات وأن كثيراً من القوى والحركات الداخلية والخارجية تمارس نشاطاتها السلبية .

وتوجهنا ليلاً إلى الدار البيضاء متأخرين رغم محاولة السرعة ، ووصلنا في الساعة الواحدة ، وقد حجز لنا أمين الجمعية غرفات في فندق «مرحبا» ، فنزلنا فيه ، واسترحنا قليلاً ، ثم بدأنا نستعد للرحلة ، وقد سبقنا إلى الدار البيضاء الأستاذ الحمداوي ، فذهبنا معه إلى مقر جماعة التبليغ وألقينا كلمة موجزة ، ثم توجهنا إلى المطار ، وأقلعت الطائرة في الساعة العاشرة نهاراً إلى لندن ، وهبطت على مطار «طنجة» لنصف ساعة تقريباً ، ويقيم في طنجة على قرب من تطوان العالم المغربي الضليع والمفكر الكبير

الأستاذ عبد الله كنون عضو رابطة العالم الإسلامي ، ورئيس رابطة علماء المغرب ، ولا يستطيع أن يبرح مكانه من أجل اشتداد المرض به ، وقد دعاني لزيارة طنجة وتطوان ، ولكن قلة الوقت لم تسمح بزيارة هذه المدينة السياحية التي هي من أجمل المدن في المغرب ، وأكثر من ذلك قلقاً وأسفاً أن صديقنا الفاضل وزميلنا القديم الأستاذ محمد العربي الهلالي يقيم في تطوان ولم يحضر الرباط من أجل وهن صحته ، وقد وجه إلي في حب وإخلاص دعوة الحضور والإقامة لأيام في تطوان لكن لم أتمكن من استجابة دعوته والآن تمر طائرتنا بطنجة ، فكانت لنا فرصة ذهبية للقاءه في المطار ، لكنه قد غادرها من ذي قبل إلى إسبانيا للتداوي .

وأخيراً وداعاً لأرض المغرب التاريخية وتحية لها من زائر شرقي ، وعليها رحمات رب المشرق والمغرب الذي ربط بينهما بالإسلام ربطاً حتى أصبحا لؤلؤتين في عقد واحد ، وتحية لأبنائها البررة الذين غمرونا بحبهم ، وتلقونا بالأخوة الإسلامية وكرم الوفادة العربية ، والذين لا يزالون على الوفاء والولاء للرسالة التي حملها إليهم الدعوة الأولون والقادة السابقون .

* * *

رحلة إلى أمريكا

عام ١٩٧٧ م

لقد كنت أرى رحلة إلى أمريكا حاجة دعوية دينية وعلمية ، فإنّ من دأبّ على نقد الحضارة الغربية والمجمع الغربي والأنظمة الغربية لا بدّ أن يشاهد أمريكا ، التي بلغت القمة في الرقي العلمي والصناعي والتكنولوجي ، والتي تترك آثارها - بطريق مباشر وغير مباشر - على سائر العالم .

وتهيأت لي فرصة السفر إلى أمريكا في إبريل ١٩٧٧ م بدعوة من منظمتها الإسلامية المعروفة «Muslim Students Association» (M.S.A) of America and Canada لحضور مؤتمرها السنوي المنعقد في (Indiana) Bloomington ، الذي كان يبدأ في ٢/مايو ١٩٧٧ م ، وقد جاءت مع هذه الدعوة رسائل إلحاح وطلب شديد ، ورسائل تأييد وشفاعة حتى لم يبق لي مجال للاعتذار .

وقد كان مما يبعث على السفر ويؤكد حاجته ضرورة طبية ، بل قضية مهمة في حياتي ، وهي إجراء عملية جراحية لكتريكت في عيني اليمنى ، وكان ينبني على نجاحها بدء حياة علمية تأليفية جديدة ، وقد أخبرني أصحاب التجربة والخبرة أن أنسب مكان لهذه العملية ليس إلا أمريكا .

وتحقّق هذا السفر ، وركبنا الطائرة من بومبائي إلى أمريكا ، ومكثنا ساعات في نيويورك ، ثم سافرنا إلى إنديانا بولس ، ومن ثمّ إلى بلومغتن ، حيث كان المؤتمر قد بدأ قبل وصولي بيوم ، وقد كان هذا المؤتمر الرابع عشر لهذه المنظمة ، واستمر أربعة أيام ، وقد ألقى خطابي

فيه مساء ١٨/ مايو ، كان موضوعه «العلاقات بين العاملين للإسلام»^(١) ، وألقيت كلمة أمام الأخوة العرب ، وكلمة أخرى عامة في صورة حديث حرّ ، وألقيت يوماً درساً في القرآن الكريم .

ولقد ضمّت هذه الرحلة جميع المدن بشمال أمريكا وكندا ، ذات الأهمية الصناعية والحضارية والتعليمية ، التي يقيم فيها عدد كبير من الطلاب والأساتذة والعاملين المسلمين في مختلف مجالات الحياة ، من هنود وباكستانيين وعرب ، وقد بدأت هذه الرحلة من مين هاتن ، نيويورك ستي ، وانتهت في شيكاغو ، وشملت الرحلة في شمال أمريكا مدن : نيويورك ، وجرسي ستي ، فلادلفيا ، بالتي مور ، بوستن ، شيكاغو ، دترايت ، سالت ليك ستي ، سان فرانسيسكو ، سان جوزي ، لاس أنجلس (كيلي فورنيا) ، ومن مدن كندا : مونتريال ، تورنتو .

أما برنامج منظمة M.S.A ، فقد زيد في مدينة واشنطن فحسب ، حيث ذهبت بعد هذه الرحلة ، وألقيت خطاباً في المركز الإسلامي بها .

وقد كانت الخطابات التي ألقيتها في هذه الرحلة حوالي عشرين خطاباً ، وقد ألقيت المحاضرات في هذه الرحلة بخمس جامعات من جامعات أمريكا وهي : جامعة كولمبيا (نيويورك) ، جامعة هارورد (كيمبرج) ، جامعة دترايت (آن آير) ، جامعة جنوب كيبي فورنيا (لاس أنجلس) ، جامعة أوتا (سالت ليك ستي) .

كما ألقيت خطب الجمعة في قاعة الصلاة بالأمام المتحدة ، وجوامع تورنتو ودترايت ، وقد كان يحضر هذه الخطب والمحاضرات عدد كبير من المثقفين المسلمين - وفي أمريكا أكثرية المسلمين من المثقفين - من الهنود والباكستان والعرب ، في شوق واهتمام ، وكانت توجه إلى الخطيب أسئلة بعد محاضراته أو خطابه ، تتعلق بالقضايا المعاصرة المهمة ، وكان الناس

(١) انظر هذا الخطاب بكامله في كتاب «محاضرات إسلامية في الفكر والدعوة للعلامة أبي الحسن علي الحسيني الندوي» .

في عدد كبير يسجلون هذه المحاضرات ، وينشرونها بين معارفهم وأصدقائهم ويقدمون نسخها هدايا للناس .

وقد تحدثت في هذه الخطب والمحاضرات بأحاديث صريحة واقعية ، وأشرت على المسلمين بأمريكا ما كان في صالحهم في الصميم ، وقدمت لهم خلاصة دراساتي وتجاربي ، أما ما يتعلق بالحضارة الغربية والمدنية الأمريكية فقد كان الحديث معهم من ذلك المستوى الرفيع العالي الذي يبوئه القرآن والإسلام كل أتباعه وطلابه المخلصين ، والذي إذا استوى عليه الإنسان تراءى له الدنيا القديمة والجديدة كسراب ، ويتراءى بريقها ولمعانها كفصوص مزورة مغشوشة ، لا يرجع ذلك إلى ذكاء الخطيب أو المحاضر وسعة دراسته ، أو بعد نظره ، وعمق تفكيره ، بل إنما الفضل لتلك التعاليم الجليلة والرسالة العالمية الخالدة التي ترفع الإنسان المتحلي بها إلى ربوة عالية ، بل قمة جبل سامقة يرى الدنيا منها كلها كأنها تحت قدميه ، ويزول عن عينه كل مهابة وجلال وتأثر ، ويشاهد الأشياء في حقيقتها .

ويُقدَّر مما يلي من بعض العناوين والخلاصات ما ارتكزت عليه محاضرات المؤلف وخطبه :

إن أمريكا تتمتع بحياة ميكانيكية ، ورقية مادي علمي وتكنولوجي ، ولكن الإنسانية فيها في سقوط وزوال ، فلو نالت هذه البقعة ثروة الدين القيم لكان تاريخ العالم اليوم غير تاريخه . إن أمريكا شقيّة وسعيدة في آن واحد ، سعيدة لأن الله تعالى قد أنعم عليها بالخيرات المادية الوفيرة القوية الكبيرة ، والوسائل الكثيرة ، وشقيّة لأنها حرمت نعمة الدين الحق ، ولأنها اعتنت بالمادة مثل ما لم تعتن بالأخلاق الفاضلة والوجهة الصحيحة ، فلو سألتك أي ديانة أنسب وأولى للغرب؟ وأي ديانة أضرُّ بها وأقل مناسبة؟ ، لكانت الإجابة الصريحة الواقعية أن أنسب ديانة لها كانت الإسلام ، وأن أضرَّ ديانة بها كانت المسيحية .

وقلت في المحاضرات التي ألقيتها أمام عامة المسلمين المقيمين

بأمريكا ، حذار حذار من أن ينشأ إسلامٌ أمريكيٌّ أو أوروبيٌّ!!! إن الإسلام يحتاج إلى طقس خاص وجو خاص ودرجة خاصة من الحرارة والبرودة ، وهو يجمع في وقت بين العقيدة والعمل ، والأخلاق والمعاملات ، والعواطف ، والوعي والشعور ، والذوق الخاص الذي يحيط بالإنسان ويصوغه في قالب جديد .

وقلت لإخواني المقيمين بأمريكا : إنه لا بدَّ من إثارة الإيمان والدين على كل رقي وتقدم مهما كلَّفكم ذلك ، واطمئنوا - قبل كل شيء - على النشء الجديد ، فإن كان هو في خطر الردة الفكرية والحضارية فلا مبرر لكم في بقائكم هنا ولو يوماً واحداً ، وإن كنتم على يقين وطمأنينة بأنكم تستطيعون أن تعيشوا هنا وفق مرضاة الله تعالى ، ويشهد لكم ضميركم الحي بأنكم تحافظون على إيمانكم وعقائدكم ومستقبل جيلكم الجديد ، فإن بقاءكم هنا لا يجوز فحسب ، بل يفيد ويُبارك فيه .

عملية جراحية ناجحة :

سافرنا إلى فلادلفيا لإجراء العملية الجراحية ، ووصلنا إلى محطة فلادلفيا ، حيث استقبلنا البروفيسور أنيس أحمد ، وأدخلت ٢٩/ يونيو في معهد العين ، وتمت إجراءات العملية ، وأُجريت فحوص طبية مختلفة ، وأخيراً أُجريت العملية في اليوم الأول من يوليو ، وقد كان الطبيب الذي أجرى العملية ، يبدي اهتماماً بالغاً ، وعطفاً كبيراً على المريض الغريب ، وكان قد أبدى طمأنينته واقتناعه بنجاح العملية .

وانتهت مدة السفر ، وقد عادت إليّ حياة جديدة بعد نجاح العملية ، ورجعنا إلى الوطن ، وصلنا لكهنؤ يوم الثلاثاء ٩/ أغسطس ١٩٧٧ م ، وهكذا انتهت هذه الرحلة الدعوية والطبّية بنجاح ، وأصبحت بحمد الله - تعالى - أتحرّك وأمشي بحرية ، بل أدرس وأبشر القراءة والمراجعة بنفسي^(١) ، وهكذا قرأت بعد ١٣ أو ١٤ عاماً كلمتي الافتتاحية في المؤتمر

(١) أُجريت لسماحة الشيخ الندوي عملية جراحية في العين اليسرى عام ١٩٦٤ م ، ولم =

الملي لعموم الهند المنعقدة في ٣-٤/أكتوبر ١٩٧٧ م ، وسُرّ بذلك الأحباب والأصدقاء ، وهنّؤوني على هذه النعمة ، والله الحمد في الأولى والآخرة .

* * *

= يقدر الله لها النجاح ، وبقي مضطراً إلى الاستعانة بغيره في القراءة والإملاء ، حوالي ١٤ عاماً حتى رحلته هذه لأمريكا ، وألّف خلال تلك السنوات وفي تلك الحال الحرج كتباً قيمة منها «الصراع بين الفكرة الإسلامية والغربية في الأقطار الإسلامية» و«الأركان الأربعة» و«العقيدة والعبادة والسلوك» و«صورتان متضادتان لنتائج جهود الرسول الأعظم والمسلمين الأوائل عند أهل السنة والشيعة» و«المرتضى» في سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب» .

رحلة باكستان عام ١٩٧٨ هـ

المؤتمر الآسيوي لرابطة العالم الإسلامي:

تلقيت في أواخر يونيو لعام ١٩٧٨ م دعوة من الرابطة لحضور مؤتمرها الآسيوي الأول المنعقد في كراتشي بباكستان بتاريخ ٦/ يوليو ١٩٧٨ م ، وقد كان حضورى فيها أمراً لا بدّ منه لكونى عضواً تأسيسياً فى الرابطة ، ومواطناً هندياً له علاقات دينية وعلمية وتاريخية بباكستان ، وهى جارة لبلاده .

وقد افتتح هذا المؤتمر الآسيوى الأول للرابطة الجنرال محمد ضياء الحق ، واختير أى كى بروهى الذى كان عند ذلك وزير القانون والشؤون الإسلامية بباكستان رئيساً للمؤتمر كممثل للحكومة المضيفة ، واخترت أنا والدكتور البروفيسور رشدي ممثل أندونيسيا والأستاذ أبو بكر ممثل الفلبين نائبى الرئيس من قبل سكرتارية الرابطة ، وقد كان حضر المؤتمر شخصيات موقرة كبيرة تمثل العالم الإسلامى ، وجميع أعضاء الرابطة تقريباً ، وحضر من الهند الشيخ قارى محمد طيب^(١) عميد دار العلوم ديوبند سابقاً ،

(١) من كبار العلماء بالهند ، أحد الدعاة إلى الإسلام ، رئيس دار العلوم ديوبند الإسلامية أدى لها خدمات جليلة ، وكان عضو المجلس الأعلى لدار العلوم التابعة لندوة العلماء ، ورئيس هيئة الأحوال الشخصية الإسلامية لعموم الهند ، اشترك فى تأسيس ورئاسة عشرات المجالس والجمعيات والجماعات والمدارس الإسلامية والتعليمية والاجتماعية التى أنشئت فى الهند لمصلحة الدعوة واستخدام طاقات الشباب لخدمة الإسلام والمسلمين . ومع إتقانه العربية إلّا أن مؤلفاته كلها بالأردوية ترجم بعضها إلى اللغات الأخرى وله شعر . توفي سنة ١٤٠٣ هـ .

والشيخ المفتي عتيق الرحمن^(١) رئيس المجلس الاستشاري الإسلامي بالهند ، والشيخ محمد أسعد المدني^(٢) رئيس جمعية العلماء ، والشيخ محمد يوسف^(٣) أمير الجماعة الإسلامية ، والشيخ محمد منظور النعماني عضو المجلس التأسيسي ، والأستاذ محمد الحسني رئيس تحرير مجلة «البعث الإسلامي» ، والأستاذ إسحاق جليس^(٤) محرر لسان حال الندوة «تعمير حيات» ، ومرافقي الشيخ محمد معين الندوي مساعد الأمين العام

(١) أحد كبار العلماء بالهند ، لم يكن لسماحة الشيخ الندوي من الحب والصلة والأنس والعلاقة بأحد من العلماء المعاصرين ، وقادة الأمة الإسلامية في الهند ، وأعضاء الهيئات والمؤسسات الإسلامية ، ما كان بالشيخ عتيق الرحمن ، فقد كانت بينه وبين سماحة الشيخ زمالة طويلة في الأسفار والرحلات والجولات ، حين توفي الشيخ قد أثر نبأ وفاته على قلب سماحة الشيخ الندوي ، نشر سماحته حديثاً من إذاعة جدة (حين وفاته كان سماحة الشيخ الندوي مقيماً في السعودية) عن الشيخ رحمه الله ، تحدث فيه بجلائل أعماله ، وعظيم خدماته للأمة الإسلامية ، وخصائصه ومزاياه ، وذكر ما وقع من الفراغ الكبير بوفاته في حياة المسلمين بالهند في قيادة الركب الإسلامي وفي معالجة القضايا الإسلامية ، كانت وفاته بدلهي سنة ١٩٨٤ م .

(٢) أحد كبار العلماء الموجودين بالهند ، وهو ابن المحدث الكبير الشيخ حسين أحمد المدني ، له مشاركة في السياسة وهو من أعضاء حزب المؤتمر الوطني بالهند ، شارك في عدة مؤتمرات في العالم العربي والإسلامي .

(٣) كان عضواً بارزاً في المجلس الاستشاري الإسلامي لعموم الهند وفي هيئة الأحوال الشخصية وعضواً أعلى للمساجد في رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة ، انتخب أميراً للجماعة الإسلامية لعموم الهند ، قضى حياة حافلة بالنشاط أيام إمرته للجماعة الإسلامية ، فقام بجولات كثيرة في العالم الإسلامي ، توفي رحمه الله سنة ١٤١١ هـ .

(٤) من كبار الصحافيين الإسلاميين والكتاب البارعين بالهند كان سماحة الشيخ الندوي يستعين به في شؤون حركة رسالة الإنسانية ، وكان ترجماناً قديراً ، وصحافياً بارعاً ، وكان سماحته يثق به في التمثيل عن الحركة أكثر من غيره ، وقد كان أوتي ملكة عجيبة في الحديث الذي يكون في محلّه وأوانه ، والتأثير في أصحابه ومخاطبيه ، وكان الناس يعجبون به ويحبونه أينما حلّ ونزل ، فقد انتقل إلى جوار ربه في سنة ١٩٧٩ م ، رحمه الله رحمةً واسعة .

لندوة العلماء ، وعدد من رؤساء تحرير الجرائد والمجلات والعلماء الفضلاء .

وقد انعقد المؤتمر في جو هاديء رزين ، وأسند إليّ الخطاب في جلسته الأخيرة ، وبدأت خطابي بثلاثة أبيات ؛ بيت عربي ، وبيت فارسي ، وبيت أردي ، وكان العربي :

حمامة جرعى دومة الجندلِ اسجعي فأنت بمرأى من سُعاد ومسمع
ثم ذكرت أن الرسالة التي ينبغي أن يحملها من هذا المؤتمر السادة
الحاضرون ، والتي هي روح المؤتمر وجوهره ، والتي لا تزال تذكرهم
بمسئوليتهم وواجبهم الكبير كقادة ودعاة ، وورثة للرسول الكريم في
بلادهم وأوضاعهم الخاصة ، لا يمكن أن تكون أفضل من تلك الكلمة
الصادقة الجريئة التي قالها سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه يوم الردّة ،
والتي تمثل مسؤوليته كخليفة للرسول الأعظم ﷺ ، وتعبر عن مشاعره
وغيرته الإيمانية المتأججة في صدره وصديقيته ، والتي غيرت مجرى
التاريخ حتى عاد تيار الردة تياراً آخر ، بل سيلاً عارماً اكتسح الكفر
والشرك ، وفتح البلدان ، وسخر الممالك ، كانت تلك الكلمة الجليلة :

«أينقص الدين وأنا حيّ؟» .

وقد كانت في هذه الرحلة خطابات ومحاضرات عديدة ، حضرها عدد كبير من أعيان المواطنين ورجال الفكر والتعليم ، وكبار العلماء والصحافيون والعاملون في المجالات الاجتماعية ، وقد قدّمت في هذه الكلمات خلاصة تجاربي ودراساتي ونتائج تفكيري واستعراضني ، وعصرت أمامهم ما عندي من قطرات الإخلاص ، لا يُبتغى وراءه غرض سياسي ، ولا يُفكّر في ردود الفعل الموافقة أو المخالفة .

وعرضت أمام الحاضرين تلك الحقائق التي قد يدركها من هو في الخارج أكثر وأجلى من أن يدركها أهل البلد ، لأن الذين يعيشون في درجة خاصة من الحرارة والبرودة يتعودونها ولا ينظرون إلى الأشياء إلاّ من خلالها ، وكان القدر المشترك في هذه الخطب والمحاضرات تذكير الإخوة

الباكستانيين بمسؤوليتهم ودورهم ، وتذكير بذلك الإعلان العظيم والدعوى العريضة الكبيرة التي قامت عليها باكستان ، والتي بذل لأجلها المسلمون الهنود أكبر تضحياتهم وجهودهم ولكنهم لم ينتفعوا بها ، ونبهتهم إلى أن دراسة التاريخ الإسلامي ، وقصة ازدهار الملل والحكومات ورقيا وسقوطها وانحطاطها تفيد أن أكبر خسارة جنتها الحكومات والمجتمعات والقوى الإسلامية إنما كانت على أيدي الطامعين الحريصين على الحكم والسلطان ، والطامحين الباغين للجاه ونزغات الشيطان .

وكان أهم حديث في هذه السلسلة ذلك الذي ألقته في حفلة ترحيب في بيت البروفيسور غفور ، وقد حضرته شخصيات موقرة تمثل الجماعات والأوساط الدينية والتعليمية والاجتماعية ، وقادة الأحزاب السياسية وكبار الصحفيين والأدباء والعلماء ورجال الفكر وأصحاب الأقلام ، وقد قلت فيه :

(إنه يجب عليكم القيام بأنواع ثلاثة من التضحيات ، ولنا إمام في تاريخنا لكل نوع من هذه التضحيات ، فتضحية قام بها سيدنا خالد بن الوليد في معركة اليرموك ، فإنه لما بلغه أن عمر بن الخطاب عزله عن القيادة لم يثُر ولم يقطّب ، وقال : لو كنت أقاتل في سبيل عمر لوقفت عن القتال ، ولو كنت أقاتل في سبيل الله ازددت اندفاعاً وحماساً ، وشهدت الدنيا أنه مثّل أروع الأمثلة في جهاده ، ولم يحدث هذا العزل فيه تغييراً ، بل زاده شوقاً وحينئذ إلى الشهادة .

وتضحية أخرى قدم نموذجها سيدنا الحسن بن علي رضي الله عنهما ، إذ تنازل عن حقه في الخلافة لسيدنا معاوية رضي الله عنه ، وقضى على الفرقة والخلاف .

والتضحية الثالثة : هي التي ضرب مثلها الرائع عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه بتغيير حياته ، والتغاضي عن مصالح أسرته في سبيل إقامة الحكومة الراشدة ، وإصلاح المجتمع على أسس الحياة الإسلامية الفاضلة والسيرة الإسلامية العالية .

وهذه التوضيحات الثلاث تواجهها الأمة الإسلامية في باكستان الآن).

ثم قلت: (إن القرن الحالي يبحث عن معتصم آخر ، يتظاهر كالمعتصم العباسي بغيرته وحميته الدينية والوحدة الإسلامية ، يلزمكم أن تكونوا حماة للحق والإنصاف والعدل والمساواة في العالم كله ، ولا يمكن لأحد في حدود قدرتكم وتأثيركم الخلفي والاجتماعي أن يظلم أحداً ، وتهضم حقوقه وتهدر كرامته).

وزرت لاهور وكان لا بدّ من أن أقابل هناك الأستاذ المودودي الذي كانت بيني وبينه علاقات قديمة ، فطلبت موعداً للمقابلة معه ، وتقرر الموعد ساعة ٩ أو ١٠ ضحى ، فاجتمعت به وكان لقاءً حاراً كريماً ، وقد كان الأستاذ لا يستطيع - لوجع ركبته - المشي ، وجاء ذكر الجنرال ضياء الحق أثناء الحديث معه ، فأثنى الأستاذ عليه ، وقال: إنه يلزمنا أن لا نخيّبه وندعه يفشل في مهمته ، وعرّفت الأستاذ بحركة «رسالة الإنسانية» ، التي نقوم بها في الهند ، فقال: إنها حاجة باكستان أيضاً لإصلاح المجتمع وإزالة المنكرات.

* * *

رحلة إلى قطر عام ١٩٧٩ م لمشاركة مؤتمر السيرة

توجّهت إلى جدة في آخر يوم من ذي الحجة سنة ١٣٩٩ هـ - ٢٠/نوفمبر ١٩٧٩ م ، يرافقتني العزيز عبد الله الحسني^(١) ابن العزيز محمد الحسني رحمه الله ، ووصلت جدة في نصف الليل ، وكان سفري هذا لمشاركة لجنة وزراء الأوقاف التي عينتها الرابطة ، وكان عملها قد بدأ من غرة محرم الحرام ١٤٠٠ هـ ، الموافق ٢١/نوفمبر ١٩٧٩ م بمكة المكرمة .

وقد كان من أعضاء هذه اللجنة وزير الأوقاف السعودي معالي الشيخ عبد الوهاب عبد الواسع ، ووزير الأوقاف السوري عبد الستار السيد ، ووزير الأوقاف الأردني السيد كامل الشريف ، ووزير الأوقاف لبلد إفريقي (لا يحضرني اسمه) ، وقد اختارت الرابطة الأمين العام الشيخ محمد علي الحركان وإيتاي لتمثل الرابطة ، ونزلت بجدة ، عند مضيفنا القديم الشيخ محمد نور عبد الغني نورولي ، وقد كنا أحرمانا ، وأردنا أن نعتمر صباح الليلة ونشارك بعدها في اللجنة ، فلما هبّتنا من النوم إذا بمضيفنا يخبرنا بأنه جاءه التليفون من مكة المكرمة بأن الإيرانيين استولوا على الحرم الشريف ،

(١) هو حفيد الدكتور عبد العلي الحسني الأخ الأكبر لسماحة الشيخ الندوي ، وابن الكاتب الإسلامي الفقيه الأستاذ محمد الحسني منشىء مجلة «البعث الإسلامي» العربية أستاذ الحديث بكلية الشريعة وأصول الدين في دار العلوم لندوة العلماء ، ومدير التحرير لجريدة «الرائد العربية» قد رافق سماحة الشيخ الندوي في جلّ أسفاره .

ثم نفى هذا الخبر بعد قليل ، وقال : بل إن ثلَّة من العرب السعوديين المتطرفين أثاروا هذه الفتنة ، ثم اتصل بعض مسؤولي الرابطة بنا هاتفياً ، وأمر بأن يقال للشيخ أبي الحسن أن لا يأتي الحرم مباشرة بل يأتي رأساً إلى فندق أنتر كونتيننتال ، ووصلنا رأساً إلى الفندق ، وحضرنا مأدبة الرابطة على شرف الضيوف ، وبدأت اللجنة في المساء عملها ، وسألت وزير الأوقاف السعودي الشيخ عبد الوهاب عبد الواسع : ما الأمر؟ فقال : إن عدداً من المتطرفين العُلاة أثاروا هذا الشغب ، ثم علمنا من بعد أن محمد عبد الله القحطاني كان قد ادَّعى المهدية غرة محرم الحرام ١٤٠٠ هـ ، وعندما كان الحرم مليئاً غاصاً بالناس ، وكانت أكثرية الحجاج لم ترجع إلى أوطانها بعدُ ، وبدأ يبايع الناس ، وهذا الذي أثار الناس ونشر الاضطراب ، وسرت به موجة من قلق وحيرة في العالم الإسلامي ، كان هذا أول حادث من نوعه بعد حادث القرامطة ، واستيلائهم البشع على الحرم ، وقد انتكست بهذا الحادث رؤوس المسلمين خجلاً وحياءً في العالم الإسلامي كله ، وتعرَّض أمان الحرم وهدوءه والأدب معه إلى الخطر الشديد ، وانقطع الحرم عن كل ما حوله وعن سائر مكة المكرمة .

وعلم فيما بعد أن هؤلاء كانوا يُسرَّبون الأسلحة إلى الحرم عن طريق توابيت الجنائز ، وكانوا يجمعونها في خلواته ، وتدخل البوليس والشرطة وأفراد الجيش ، ولكنهم كانوا يخافون القيام بأي إجراء عسكري لمكان الحرم ، ولا يصعب قياس ما جرَّ ذلك على الحجاج الغرباء الذين حوصروا فيه من ضيق واضطراب ومشاكل لا يمكن أن نقدرها ، وقد كنت سمعت قصة هذا الاستيلاء بتفصيل من بعض من حوصر في الحرم في صلاة الفجر .

مؤتمر السيرة بقطر :

هذا وكان هناك مؤتمر عالمي للسيرة النبوية في الدوحة بقطر ، في تاريخ ٥ - ٩ / محرم الحرام ١٤٠٠ هـ (٢٦ - ٣٠ / نوفمبر ١٩٧٩ م) وكنت عضواً في مجلسه الإداري ولجنة الاختيار ، وكان لا بدَّ من حضوره فيه ،

فسافرت ٣/ محرم الحرام إلى الدوحة ، وكان في الطائرة التي ركبناها الوفد الممثل للرابطة أيضاً ، ونزلنا في الدوحة بفندق الخليج .

ولما دخلنا يوم السبت ٥/ محرم ١٤٠٠ هـ مقر الاحتفال كان قد غص بالحضور ، وكانت فيه شخصيات محترمة موقرة من تركيا والمغرب الأقصى وأمريكا وأوربة إلى البلدان الشرقية والجنوبية ، وكنت أعرف كثيراً من الوجوه ورأيت أن البرامج المطبوعة للمؤتمر موضوعة على المقاعد ، وقد أسندت كلمة الوفود إليّ ، فلم يكن بدّ من أن يكون خطابي مرتجلاً ، وأتحدث بما يفتح الله به عليّ ، وافتتح المؤتمر ولي العهد - الذي هو وزير الدفاع أيضاً - لسفر حاكم قطر خليفة بن حمد آل ثاني خارج البلاد ، وقرأ كلمة حاكم البلاد ، ثم ألقى رئيس القضاة الشيخ عبد الله بن زيد المحمود كلمته .

مِنَّةُ البعثة المحمدية على الإنسانية^(١) :

وجاءت نوبتي في الخطاب فشعرتُ بأنّ عقلي وقلبي تغمرهما عذوبة هذا الموضوع وحب ذلك النبي الطاهر الذي أنتسب إليه ، والشعور بعظمته ومكانته ، فكأنني أشعر بلحظات صفاء وإشراق ، وتنهال عليّ الكلمات والمعاني ، وهناك علمتُ بحكمة كوني لم أعدّ المقال أو المحاضرة من قبل وقد أشرتُ في خطابي أولاً إلى مؤتمرات باكستان وتركيا في هذا الموضوع ، ومناسبتها وحسن موقعها ، وذكرت مِنَّةُ البعثة المحمدية - على صاحبها الصلاة والسلام - على هذه البلاد ، وتلك الثورة العظيمة والحياة الجديدة التي وهبت لهما عن طريق هذه البعثة ، وأن هذه المؤتمرات إنما هي شيء من الاعتراف بالفضل والمِنَّة والشكر على المنن والنعم ، وقلت :

(إن هذه الجزيرة يجب أن تعرف نعمة الإسلام وأن لا تكون كنوداً اسمحو لي أن أقول بكل صراحة ألا تكون كنوداً أمام هذه النعمة الجسيمة

(١) انظر هذا الخطاب بكامله في كتاب «محاضرات إسلامية في الفكر والدعوة للعلامة أبي الحسن علي الحسيني الندوي» .

التي أخرجت جزيرة العرب من عالم الخمول ، ومن عالم التناحر ، ومن الجاهلية الشنعاء الرذيلة الخسيسة ، الموغلة في السفالة والجهالة ، أخرجت هذه البعثة المحمدية هذه الجزيرة العربية من لا شيء إلى كل شيء . . فكل ما جاء في هذه الجزيرة هو من فضل البعثة المحمدية ، وإنني أستحضر الآن بيتاً لشاعرنا شاعر الإسلام الذي أصبح ترجماناً للفتوة الإسلامية وللشهادة الإسلامية ، الدكتور محمد إقبال ، اسمحو لي أن أنشده أولاً بلغته التي قال فيها هذا الشعر ، فإن هناك عدداً من إخواننا الباكستانيين :

ازدِم سِرابِ آلِ أمِّي لِقَب لاله رُستِ دررِیلِ صحراءِ عرب

يقول: لقد هبت نفحة من نفحات محمد النبي الأمي عليه الصلاة والسلام ، وفاضت قطرة من ماء الحياة من فمه الذي لم يكن ينطق إلا بالوحي ، فنشأت جنات وحدائق ، وفاحت روائح عبير من صحراء العرب .

قَدِّروا أيها الإخوان ، ارجعوا إلى الماضي السحيق ، وليس سحيقاً ، ارجعوا إلى الماضي القريب ، وما يوم حليلة بسير ، وما قضية أربعة عشر قرناً بقضية كبيرة معقدة ، ارجعوا إلى الماضي القريب ، أين كانت الجزيرة العربية؟ ، أين كانت الأمة العربية؟ ، أين كانت هذه الإمارات - رغم دعائي وتقديري لها - أين كانت المملكة العربية السعودية حفظها الله وصانها من الفتن^(١) ، أين كانت باكستان وأين كانت إيران؟ أين كنا؟ ، نلتقي نحن في هذا الملتقى الكريم ، ملتقى السيرة النبوية ، ملتقى السنة النبوية ، لا والله لو مرّت الآلاف من السنين ، ولو حلم الحالمون وتغنّى الشعراء ، وكتب الأدباء ، وتكهّن الكهان ، لما قُدِّر لهذه الأمة العربية ، ولما قُدِّر لهذه الجزيرة العربية أن ترتفع لها راية وأن تسمع لها كلمة .

* * *

(١) كانت هذه الكلمة على أثر حادثة الحرم المشؤومة بأربعة أيام .

رحلة إلى الجزائر عام ١٩٨٢ م والمشاركة في ملتقى الفكر الإسلامي

كان ذلك الملتقى السادس عشر للفكر الإسلامي ، وقد قرّر له أن يبدأ من ١٠/ شوال ١٤٠٢ هـ وينتهي في ١٣/ شوال ١٤٠٢ هـ ، وكثيراً ما يقع فرق يوم أو يومين في مطالع الهلال بين الهند والبلدان العربية ، فكان لزاماً عليّ أن أسافر بعد العيد مباشرة ، وكان ذلك صعباً عليّ لتوارد الضيوف ، وبدء السنة الدراسية في دار العلوم لندوة العلماء ، فكتبت للمسؤولين لعلي سأتأخر في الحضور يومين ، فقبلوا ذلك ، واستأذنتهم في تقديم محاضرتي في الملتقى بعنوان: «طبيعة هذا الدين وسماته البارزة»^(١) التي كنت كتبتها قبل مدة ، وألقيت فيها الضوء على مكانة النبوة ودورها ، وأهمية العقيدة الصحيحة ، والحاجة إلى الحديث الشريف والسنة النبوية ، فقبلوا ذلك أيضاً.

وسافرت مع العزيز الأستاذ محمد الرابع الندوي الذي كان قد تلقى دعوة مستقلة من الملتقى ، وكان قد أعدّ محاضرة بعنوان: «لمحات شعورية ونفسية في كلام الرسول ﷺ». سافرنا عن طريق دلهي ، ووصلنا الجزائر في ٢٩/ يوليو ، وكان من عادة المسؤولين أن يعقدوا الملتقى كل عام في مدينة

(١) انظر هذه المحاضرة بتفصيلها في كتاب «محاضرات إسلامية في الفكر والدعوة للعلامة أبي الحسن علي الحسيني الندوي».

من مدن الجزائر ، وقد عقد هذه المرة في مدينة تلمسان التي تبعد عن الجزائر العاصمة حوالي ٣٥٠ كيلومتراً ، وكنا قد وصلنا بعد يومين من بدء الملتقى ، وكان أصحاب الإدارة والاستقبال كلهم قد انتقلوا إلى تلمسان ، لم نجد أحداً يستقبلنا في مطار الجزائر ويوصلنا إلى المقر المطلوب ، وضاق بنا الحال حتى بعث الله رجلاً من أهل الدعوة ساعدنا في الوصول إلى مسؤولي الشؤون الدينية ، ثم تهيأت الأسباب ، وجئنا تلمسان ، ونزلنا في فندق في ضيافة وزارة الشؤون الدينية ، وعلمت هناك أنه قد حضر الملتقى الصفوة المختارة من علماء العرب والمفكرين وأساتذة الجامعات ، وقليل من المؤتمرات والملتقيات هي التي تساوي هذا الملتقى في التمثيل الموقر الضخم ، فكان عدد كبير من الأصدقاء القدامى والفضلاء العرب والعاملين في حقل الدعوة والفكر الإسلامي ، والتقى هنا أخان فرّق بينهم الزمان الطويل .

ولما حضرت الحفل علمت بأن محاضرتي بعنوان: «دور الحديث في تكوين المناخ الإسلامي وحياته»^(١) التي كنت قدمتها في الموسم الثقافي بالرابطة بمكة المكرمة قد طبعت هنا ووزعت .

وقد قرأت محاضرتي التي أعدتها لهذا الملتقى ، وقرأ الأستاذ العزيز محمد الرابع أيضاً كلمته في بعض جلسات الملتقى كما تولّت رئاسة بعضها .

وكنا عندما نخرج من مكان الملتقى يحف بنا الطلاب والشباب من أبناء الجامعات وغيرهم ، ومعهم المسجلات يوجهون الأسئلة ويسجلون الأجوبة ، ويحرصون عليها في وقت يسير حتى نركب السيارة ونتوجه إلى الفندق ، وعلمت أن مؤلفاتي العربية وكتبي الدعوية تلقت هنا استجابة كبيرة

(١) نشرت هذه المحاضرة من المجمع الإسلامي العلمي بلكهنؤ (الهند) فضّمه الأستاذ محمد بلال عبد الحي الحسني الندوي بتحقيق وتعليق عليه في كتابه «نظرات في الحديث للعلامة الشيخ السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي» صدر عن دار ابن كثير دمشق عام ٢٠٠٠ م .

قوية ، وسررت - بصفة خاصة - عندما علمت أن كتابي «الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية» الذي لا يسمح به في بعض الدول العربية قد قرئ ودرس هنا كثيراً ، وقد جاءت فيها انتقادات لحكومة الجزائر ، ويشير بعض الأساتذة والمدرسين في الجامعات على الطلاب بقراءة كتابي ومؤلفاتي .

وكنت زرت الجزائر بعد مدة طويلة من الإلحاح والشوق ، فبذلت وزارة الشؤون الدينية ووزيرها الموقر معالي الشيخ عبد الرحمن شيبان لأجل ذلك عناية كبيرة واهتماماً بالغاً بزيارتي ، وكان يعاملني معاملة خاصة ، ودعا حاكم تلمسان السيد دقسي الضيوف بعد انتهاء الملتقى إلى مأدبة في المغنية التي تبعد عن حدود المغرب ستة كيلومترات ، وعن مدينة وجدة المعروفة أحد عشر كيلومتراً .

وبلاد الجزائر كلها مخصصة جميلة ، متحضرة راقية ، ويمتاز الشباب بها بحماسهم للدين واندفاعهم إلى أهله .

وقد زرت آثار تلمسان والأمكنة التاريخية ، ورجعنا إلى الجزائر حيث أقمنا ليومين ، ثم توجهنا في ١٠/ أغسطس ١٩٨٢ م ، إلى باريس ، ومن ثمَّ إلى الهند .

* * *

السفر إلى سري لنكا عام ١٩٨٢ م

تلقيت رسالة في فبراير عام ١٩٨٢ م من معالي الشيخ محمد علي الحركان - الأمين العام للرابطة - أن الجامعة التنظيمية مؤسسة تعليمية كبيرة في سيلان ، قد رغب إلينا مؤسسها الحاج محمد نظيم ونائب رئيسها الدكتور محمد شكري أن تتكرم بزيارتهم ، فإن كتبك تدرس هناك ، ونحن نرى ضرورة سفرك إلى هذه البلاد حتى تفيد أهلها بكلماتك النافعة .

أما أهل الجامعة التنظيمية فقد بعثوا رسولهم الشيخ شهيد الله نائب مدير الجامعة ليبلغ رسالة مسؤولي الجامعة إليّ شخصياً ، ويقرر تاريخ السفر إلى سري لنكا .

وأخيراً ، قررت السفر إليها ، ورافقني فيه العزيز السيد سلمان الحسيني الندوي^(١) ، وخرجنا في ٧/ مايو ١٩٨٢ م ، عن طريق دلهي إلى بومبائي ، وغادرنا بومبائي ٩/ مايو بالخطوط السويسرية إلى كولمبو رأساً ، وكانت هذه هي الرحلة الأولى إلى سيلان ، ولم يكن في ذهني تصور واضح عن أهلها ، وكنا سمعنا منذ الصغر - وقد ذكر ذلك بعض المحققين العرب - أن سيدنا آدم عليه السلام لما أهبط من الجنة نزل على هذه الأرض .

ورأينا البلاد مخضبة كثيرة الخضرة ، وأهلها - لا سيما مضيفنا

(١) هو ابن بنت الدكتور عبد العلي الحسيني الأخ الأكبر لسماحة الشيخ الندوي ، وكيل كلية الشرعية وأصول الدين بدار العلوم - ندوة العلماء ، ورئيس جامعة الإمام أحمد بن عرفان الشهيد ، رافق سماحة الشيخ الندوي في جلّ أسفاره في الخافقين وناب عنه في المؤتمرات .

والمسؤولين عن الجامعة - أصحاب سماحة وضيافة كريمة ، وقد استقبلنا في مطار كولمبو مسؤولو الجامعة ، وقد ذهبوا بنا منه إلى منزل مؤسس الجامعة الحاج محمد تنظيم حيث مكثنا قليلاً ، ثم توجهنا إلى بيرووالا (Beruwala) التي تبعد عن كولمبو على الساحل الشرقي لبحر العرب حوالي ٣٤ ميلاً ، والحاج محمد تنظيم تاجر كبير للمجوهرات ، وقد تقدم بمهارته الفائقة في معرفة الجواهر من حالة متواضعة فقيرة إلى أن أصبح من كبار التجار المسلمين في سري لنكا ، وليس هو خريج أي مدرسة ، ولا يعرف اللغات الأجنبية ، ولكنه أسس هذه الجامعة على نفقته ، ولا يزال يقوم بنفقاتها الباهظة .

وقد أخبرني الدكتور محمد شكري نائب رئيس الجامعة أن فكرة إقامة هذه الجامعة إنما تبلورت وقويت بل ظهرت بكتابتكم : «رِدَّةٌ ولا أبا بكر لها» ، فقد أعجب الحاج المؤسس بهذا الموضوع ، وملك تفكيره وقلبه ، وخلاصته أن أهم قضية للعالم الإسلامي اليوم هي قضية الردّة العقلية والعلمية التي انتشرت في الطبقة المثقفة انتشار النار في الهشيم ، وقد تجاوزت إلى الردّة العقائدية ، ولكن المجتمع المسلم لا يُلقي لها بالاً ، ولا يهتم بها الاهتمام الذي تستحقه ، وإنه لا بدّ لها لمقاومتها من إعداد جيل صالح مُثَقَّف يؤمن بخلود الإسلام ، وصلاحيته للبقاء والقيادة من أعماق قلبه وبدلائل علمية وعقلية ويستعد لمقاومة هذه الفتنة .

فقامت هذه الجامعة بناءً على هذه الفكرة ، وتولّى الحاج محمد تنظيم مسؤوليتها في التمويل ، وبنى عمارة الجامعة المركزية ، والمكاتب ، والمجمع السكني للطلاب ، وبيوت المدرّسين ، والقاعة الفسيحة الجميلة ، وبيوت الموظفين ، ومسجداً واسعاً جميلاً ، وقد طلب مني في ذلك السفر بإرساء حجر الأساس للمكتبة المركزية للجامعة ، وقد أنفق الحاج محمد تنظيم على هذه المشروعات إلى الآن حوالي خمسة ملايين روبية من حُرّ ماله ، فجزاه الله خيراً وأجزل مثوبته .

ألقيت كلمتي في حفلة توزيع الشهادات بالعربية ، وقلت فيها: (لقد

شاع عن هذه البلاد ، ونقلت رواية مشهورة - من دون أن نقطع بصحتها أو نتحمل عهدها - أن جَدَّنَا وأبا البشرية جميعاً سيدنا آدم عليه السلام هبط من الجنة على هذه الأرض ، وقد قال رسول الله ﷺ : «أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد» .

إن هذا الإعلان الذي هو أساس محكم للأخوة الإنسانية ، وأهم بند من الدستور العالمي للحقوق البشرية - ينبغي لكونكم أهل مهبط آدم حسب الرواية المشهورة أن تعلنوه عشر مرات إذ أعلنته البلاد الإسلامية الأخرى مرة واحدة ، ولو قالوه خفية وعلى حياء ، فأنتم أحرى بأن ترفعوه مدرياً مجلجلاً ، وتكونوا دعائه وحملته .

وقد كانت لي هناك - سوى هذا الخطاب في حفلة توزيع الشهادات الذي دُعينا لها - أحاديث متعددة أمام الطلاب والمدرسين وأهل البلاد .

لقد كان هناك قديماً علاقات طيبة قوية بين بلاد سيلان والحكومات الإسلامية ، وعدد سكانها أربعة عشر مليوناً ، ونسبة المسلمين إلى سائر سكان البلاد ٧٪ ، فهو مليون ومئتا ألف نسمة ، وسكانها يشبهون جداً سكان جنوب الهند من ولايات كيرالة ، وتامل نادو ، وتشبه أرضها أرضها ، وتترأى أشجار النارجيل ممتدة على مئات الأميال على حافتي الطريق ، وكانت معاملة الحكومة - في حدود علمنا - مع المسلمين طيبة ، وتغلق جميع المحاكم والإدارات والمدارس يوم الجمعة لساعة واحدة ، وقد خصصت الإذاعة ساعة ونصف لما يهم المسلمين بصفة خاصة ، وتخصص زيادة على هذا الموعد أيام الأعياد وفي شهر رمضان ، ويشتمل البرلمان على وزيرين مسلمين ، وزير الخارجية شاه الحميد وصديقنا عضو الرابطة محمد حنيفة محمد الذي يشغل ثلاث وزارات .

الرحلة إلى إنكلترا عام ١٩٨٣ م والمشاركة في تأسيس المركز الإسلامي بجامعة أكسفورد

فاجأتني في أحد أيام شهر مايو ١٩٨٣ م رسالة من الباحث الإسلامي الكبير الأستاذ البروفيسور خليك أحمد نظامي ونجله الدكتور فرحان نظامي ، أن هنالك فكرة في إقامة مركز إسلامي بجامعة أكسفورد - هي من أكبر جامعات بريطانيا ومن أشهر جامعات العالم - وكان هذا لأول مرة في تاريخ الجامعة الممتد على سبعة قرون أن يفكر في القيام بخطوة جادة نحو دراسة الإسلام ، وبحثه وتعريف فضلاء الغرب وعلمائه ، وطلاب الحق وناشديه به ، بإقامة هذا المركز في بيئة علمية وتعليمية مسيحية ، ومن أكثر المهتمين بهذا الموضوع نائب عميد St. Croos College وأستاذها Dr. d.G. Browning الذي له صلة خاصة بالدكتور فرحان نظامي ، ويود الدكتور بروانك أن تشارك في هذا العمل الخير وتساعد في تأسيسه ، ووضع دستوره وأهدافه ، وتلقي محاضرة حول موضوع «الإسلام والغرب»^(١).

ولا بأس بأن أصرح بأنني كنت أتمنى من زمان وأدعو الله تعالى أن يتيح لي فرصة الاجتماع بفضلاء الغرب وعلمائه ومفكريه ، وأن أعرض عليهم بكل حرية وثقة آرائي في الحضارة الغربية ، وفلسفة الحياة الغربية ، وخيبة القيادة الخلقية والفكرية والحضارية الغربية للعالم البشري ، وأقدم أمامهم

(١) نشرت هذه المحاضرة فيما بعد عن المجمع الإسلامي العلمي بلكهنتو (الهند).

تلك الحقائق التي لا يوجدون فرصة سماعها أعواماً وسنين ، ولا يسمح لهم شعورهم بمركب الاستعلاء (Superioity Complex) بالتفكير فيها .

فرأيت في هذه المناسبة المتاحة تحقيقاً لأمنيتي القديمة ، ولم يمهلني هذا السرور والشعور بتحقيق هدف مهم أن أدرس دوافعه وخلفياته وأفتش عنها ، وأن أستعرض الإمكانيات البعيدة في ضوء التجارب السابقة للاستخدام الخاطيء المغرض لمثل هذه المؤسسات ، إذ أن مثل هذا التفكير والدراسة قد تحول دون أي إجراء أو خطوة أن تكون سبباً لخير كبير ، فقبلت هذه الدعوة ، وكان يصعب الوصول في الموعد المقرر ، فطلبت بعض التعديل ، ورضي به الدكتور براوننك ، وجاءني منه رسالة شكر وتقدير على قبولي لهذه الدعوة ، وأعطائها أهمية بالغة ، وأبدى إعجابه بمؤلفاتي وكتاباتي التي كان اطلع عليها ، وكنت أشرت في رسالتي بمراعاة ما ألتزم به من أصول ومبادئ ، وطريق ومنهج ، ومن أنخرط في سلوكهم من علماء الدين ودعاته في المجالس والمحافل والمآدب ، فقبل كل هذه الشروط ، وبعث بتذكريتي لي ولمرافقي العزيز محمد الرابع الندوي ، وكنت قد أعددت محاضرتي : «الإسلام والغرب» وترجمت إلى الإنكليزية .

غادرت الهند في ليلة ٢١ / يوليو ١٩٨٣ م إلى لندن ، وجاء إلى مطار أيترو بلندن الدكتور فرحان مع الدكتور براوننك بسيارته لاستقبالنا ، فذهب بنا إلى جامعة أكسفورد رأساً .

كان في اليوم التالي ٢٢ / يوليو ساعة ١٠ / ضحى حفلة عامة في قاعة الاختبارات ، دعي إليها الضيوف الأجانب ، وأصحاب العلم والفضل ورجال الفلسفة والتفكير من داخل البلد ، وكان عدد الحاضرين قليلاً للأسف ، بسبب الإجازة في الجامعة ، وعدم توجيه الدعوات إلى الفضلاء ورجال العلم في إنكلترا بنطاق واسع ، فلم يكن ما كنت أتوقعه من عدد المستمعين ، إلا أنه رغم ذلك غصت القاعة بالحاضرين .

وألقيت أولاً كلمات بالعربية للأخوة العرب الحاضرين ، ثم ألقيت محاضرتي ، وأقتطف منها ما يلي :

(لقد قال أحد العلماء المُختصين في العلوم الغربية والذي طالت إقامته في الغرب قبل أكثر من نصف قرن الدكتور محمد إقبال عن الحضارة الغربية والبيئة الغربية :

«إن نور الحضارة باهر ، وشعلة حياتها ملتهبة وهاجة ، ولكن ليس في ربوعها من يُمثّل دور موسى فيتلقّى الهداية والإلهام ، ويبدّد باليد البيضاء الظلام ، ولا من يمثل دور إبراهيم عليه السلام ، فيحطّم الأصنام ، ويحوّل النار إلى برد وسلام ، إن عقلها الجريء يغير على ثورة الحب ، وينمو على حساب العاطفة . إن عماليقها وثوارها قد طغى عليهم التقليد ، فلا يخرجون - حتى في ابتكارهم وثورتهم - عن الطريق المرسوم والدائرة المحدودة»^(١) .

إنه لا بدّ الآن لحماية الحضارة الإنسانية وحماية الغرب نفسه - الذي يَعدُّ بريطانيا فرداً كريماً محترماً من هذه الأسرة ، ويحمل تاريخاً رائعاً من قوة الإرادة ، وعلو الهمة ، والذكاء والطموح - من الجهود العلمية والفكرية الثورية الواقعية المخلصة ، والجهود الجريئة المغامرة ، التي تنفخ في هذه الحضارة المحتضرة والمجتمع المُحتضّر روحاً جديدة من الحياة ، وتؤهلها من جديد للبقاء في العالم ، وتبرر وجودها واستمرارها .

ولا شك أن جامعات هذه البلاد ومدارسها العلمية ومراكزها الفكرية ، والمؤلّفين وأصحاب الأقلام وقادة الفكر ، يستطيعون أن يقوموا في هذا المجال بدور كبير ، وأعتقد أن مشروع «المركز الإسلامي» الذي يُدرّس في هذه الجامعة والذي دعي له هذا المجلس ، يقوم في موضعه المناسب وموعده المناسب ، وسيكون حلقة في هذه السلسلة ومعلّمة في الطريق ، هذا هو الأمل الذي ساقني - رغم ضعفي وزحمة أشغالي - إلى هذه الجامعة ، ودفعني للحضور في هذه المناسبة الكريمة).

وقد قرّرت بتاريخ ٢٣ - ٢٤ / يوليه ثلاثة أمور فيما يتعلق بهذا المركز المقترح: تقرر أن الدكتور فرحان سيكون مديره الأول ، وأن الدكتور

(١) مقتبس من «روائع إقبال» لسماحة الشيخ الندوي .

بروننك يكون المسجل الأول ، وأن يُعقد مجلس استشاري آخر للبت في أمر الدستور ودراسة تفاصيله . وتقرر أيضاً أن أكثرية أعضاء المركز تكون - دائماً - من الفضلاء المسلمين ، لتبقى له طبيعته الإسلامية ، ولا يستهدف لأغراض منحرفة ، أو يكون مطية لطبقة أو فرقة .

ومكثنا في إنكلترا بعد انتهاء هذا الحفل ستة أيام ، زرنا خلالها المراكز الإسلامية في مدليند (Midland) ، وتجولنا في القرى التي يسكنها عدد كبير من المسلمين ، كما زرنا المراكز التبليغية وأهم المساجد ، وزرنا المركز الإسلامي في ليستشر (Leicester) بتفصيل ، وكان الموضوع المشترك في الخطابات والمحاضرات التي ألقيتها مسؤولية المسلمين المقيمين ببريطانيا ، والتنبيه إلى المنهج الصحيح ، وتفرض الأخطار ومقاومتها ، والحفاظ على الشخصية الإسلامية .

ورجعنا بطائرة «Pan American» يوم ٣١/ يوليو إلى الهند .

* * *

رحلة إلى الكويت والإمارات

عام ١٩٨٣ م

لقد وقع حادث وفاة سماحة الشيخ عبد الله العلي المحمود بتاريخ ٢٤/جمادى الأولى ١٤٠٢ هـ (٢٢/مارس ١٩٨٢ م) ، وكان شخصية مُحَبَّبةً موقَّرةً كريمةً في الإمارات العربية ، وكان يحتلُّ مكاناً كبيراً في أولئك الذين تأثرت بهم وأعجبت بهم في البلاد العربية ، لإخلاصهم ، وتوجههم للإسلام ، وحميتهم الدينية ، واهتمامهم الزائد بقضايا المسلمين ومنظماتهم وحركاتهم وجهودهم .

وقد بقي مدة يشغل منصب مدير الأوقاف بالشارقة ، ثم كان المشرف على «مركز الدعوة الإسلامية» بها ، وقد كان حاكم الشارقة الشيخ سلطان بن محمد القاسمي يعامله معاملةً خاصةً ، وكان مستشاراً دينياً له ، وأشدَّ ما أثر في من خصاله وصفاته ، إيمانه واحتسابه ، والتفكير في أجر الآخرة .

قد زار لكهنؤ عدة مرات ، وكان على معرفة جيدة بجماعاتها الدينية ، ومؤسساتها التعليمية والجهود الدعوية الدينية فيها ، وكانت له صلة خاصة قريبة بشخصي الضعيف ومسؤولي دار العلوم لندوة العلماء ، وكان يحب أن يصحبني في جلسات الرابطة ، وفي أي مؤتمر أو احتفال ، وكان يأتي إلى الفندق الذي أنزل فيه إلى غرفتي ليصليّ معنا ، وقد أحدثت وفاته فراغاً كبيراً في الشارقة بل في الخليج العربي ، رحمه الله تعالى وغفر له وأسكنه جنات عدن .

وقد قرّر أبناؤه البررة بعد وفاته وعلى رأسهم ابنه الكريم الصالح الدكتور

سالم عبد الله أن يحولوا مكتبته الشخصية - التي تشتمل على آلاف من الكتب - إلى مكتبة عامة ، وتكون أكبر دار للمطالعة ومكتبة عامة في الشارقة ، وقد سألني - لما كان يعرف من صداقة حميمة وصلة قوية بيني وبين والده - أن أحضر حفلتها الافتتاحية التي كانوا يريدون الاحتفال بها باهتمام بالغ ، وأردت لكثرة أشغالي وسلسلة أسفاري أن أعتذر ، وكتبت إليهم أن لا يؤجلوا الافتتاح من أجل انتظاري ، ولكنهم أصروا على حضوري حتى ولو كان ذلك بعد عام .

وتقرر عقد الحفلة الافتتاحية في ١٢/ صفر ١٤٠٤ هـ (١٦/ نوفمبر ١٩٨٣ م) ، وسافرت للحضور فيها ، ورافقني العزيز الأستاذ محمد الرابع الندوي ، وقد حضر الحفلة حاكم الشارقة الشيخ سلطان بن محمد القاسمي وحاكم عجمان الشيخ حميد بن راشد النعيمي ، وعدد من وزراء الإمارات وأعيانها ، وكان لحسن الحظ معالي الدكتور عبد الله عمر نصيف الأمين العام للرابطة موجوداً بالإمارات في زيارة ، فشارك في الافتتاح .

وألقيت خطاباً بهذه المناسبة ، يمكن أن يُقرأ في كتاب المؤلف «أحاديث صريحة لإخواننا العرب والمسلمين»^(١) .

ومكثت أسبوعاً بالإمارات في هذه الرحلة ، كان لي خلالها عدد من المحاضرات والخطب ، وكان من أهمها خطابي في قاعة جامعة العين الفسيحة بتاريخ ١٥/ صفر ١٤٠٤ هـ (١٩/ نوفمبر ١٩٨٣ م) كان موضوعه :

«أزمة هذا العصر الحقيقية»^(٢) ، وألقيت خطاباً في كلية البنات بهذه الجامعة بعنوان: «دور البنات المسلمات في المجتمع الإسلامي»^(٣) ، وخطاباً في مسجد سيدنا سعد بن أبي وقاص بأبو ظبي ، بعنوان: «إلى

(١) طبع في دار عرفات للترجمة والنشر والتوزيع ، راي بريلي (الهند) وفي دار الصحوة بالقاهرة .

(٢) انظر هذا الخطاب بكامله في كتاب «محاضرات إسلامية في الفكر والدعوة للعلامة أبي الحسن علي الحسيني الندوي» .

(٣) انظر هذا الخطاب في نفس المرجع .

الإسلام من جديد»^(١) وخطاباً في مسجد سيدنا عمر بن الخطاب بالشارقة في تفسير قوله تعالى :

﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَنَهُوتَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَجْبَنَّا مِنْهُمُ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أَتَرَفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ .

وتوجهنا من الشارقة ودبي في ٢٣/نوفمبر إلى الكويت ، وكنت تلقيت قبل أسابيع دعوة من المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب في وزارة الإعلام لإلقاء مُحاضرة بمناسبة بداية القرن الخامس عشر الهجري ، بعنوان: «الإسلام والمدنية الإنسانية»^(٢) ، فأحببت أن يتم هذا في هذه الرحلة الواحدة ، ونظّم المجلس الوطني الاحتفال العام بهذه المناسبة في ساحة كلية العلوم بجامعة الكويت ، ووجه دعوات إلى الحاضرين على نطاق واسع ، وألقيت محاضرتي بتاريخ ١٨/ صفر ١٤٠٤ هـ (٢٣/نوفمبر ١٩٨٣ م) بعد صلاة المغرب بعنوان: «الإسلام والحضارة الإنسانية» ، وقد طبعت ونشرت^(٣) ، تعرضت فيها بصورة إجمالية لتأثير الإسلام العالمي الذي تركه على المدنية الإنسانية بل الحياة البشرية كلها ، والذي أصبح جزءاً منها لا يمكن فرزه بأي طريق من التحليل الكيماوي ، والذي قام بدور ثوري كبير في تاريخ البشرية ، وقد تناولت عشرة أنواع من التأثير الإسلامي العالمي الذي كان له الفضل الأكبر في إحداث الثورة في الحياة البشرية .

وسافرنا بعد الكويت إلى الحجاز ، وقمنا بأداء العمرة وزيارة طَيِّبَةَ الرسول ﷺ ، وعدنا في ١١/ديسمبر ١٩٨٣ م إلى الهند بسلام آمين ، والحمد لله رب العالمين .

* * *

-
- (١) انظر هذا الخطاب في نفس المرجع .
 (٢) انظر هذا الخطاب في نفس المرجع .
 (٣) طبعت هذه المحاضرة أولاً في المجمع الإسلامي العلمي ، بلكهنؤ (الهند) وأخيراً في دار ابن كثير دمشق عام ١٩٩٩ م .

رحلة إلى عَمَّان (شرقي الأردن) والحجاز

عام ١٩٨٤ م

لقد كان كاتب هذه السطور منذ سنين عضواً في المؤسسة العلمية للبحث والتأليف والتحقيق الملقَّبة بمؤسسة آل البيت ، التي يعطف عليها وليّ عهد المملكة الأردنية الهاشمية المؤقّر ، سمّو الأمير حسن بن طلال^(١) ، وله اهتمام خاص بها وصلة قوية ، وكانت ترد إليّ منذ سنين بطاقة الدعوة من المؤسسة للحضور إلى مؤتمراتها السنوية ، وخطابات من الأمير حسن يبدي فيها رغبته الخاصة في حضوري ، ولكنني لم أتمكن إلى ذلك الحين من الاستجابة لهذه الدعوة الكريمة وحضور مؤتمراتها السنوية ، وجاءتني أخيراً دعوة مؤكدة في أواخر مارس أو أوائل أبريل عام ١٩٨٤ م وخطابات أخرى تحثّ على الحضور .

وأُعلِمْتُ بأن مجمع بحوث الحضارة الإسلامية - وهو قسم مهم من أقسام المؤسسة - سوف يعقد مؤتمره السنوي في عَمَّان بتاريخ ٢٥ - ٢٩ أبريل ١٩٨٤ م ، تُقدّم فيه البحوث في الحضارة والمدنية الإسلامية والأدوار التاريخية التي مرّت بها مختلف بلدان العالم الإسلامي فيما يتّصل بالحضارة

(١) هو الأمير الفاضل ، العريق في الشرف والإمارة ، الأمير الحسن بن طلال بن الملك عبد الله بن الملك حسين بن علي شريف مكة ، جمع بين الإمارة والثقافة ، وكرم الأخلاق والاهتمام بالقضايا الإسلامية ودعمها ، وإكرام العلماء وأهل الفضل ، وهو شقيق المرحوم الملك حسين بن طلال عاهل المملكة الأردنية الهاشمية الأسبق ، وهو الرئيس الأعلى للمجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية المسمّى بمؤسسة أهل البيت .

الإسلامية ، والمآثر العلمية التحقيقية التي تحققت فيها ، وتجري المناقشة حولها .

واستحييت من الاعتذار كل مرة ، لا سيّما بعد رغبة سموّ الأمير حسن الكريمة المُلحّة الذي وجّه إليّ الخطابات الشخصية عدة مرات ، وأبدى رغبته في حضوري ، فعقدت العزم على السفر إلى عمّان ، وكتبت إلى المسؤولين في المؤسسة بذلك ، وأعددت محاضرة لتقديمها هناك ، كانت تتعلق بالثقافة الإسلامية والمدنية الإسلامية في الهند ، وخدمات المسلمين ومآثرهم الجليلة ومزاياهم وخصائصهم في ذلك .

واخترت لمرافقتي في السفر ابن أختي العزيز الأستاذ محمد واضح رشيد الندوي أستاذ الأدب والتاريخ بدار العلوم التابعة لندوة العلماء ، ورئيس تحرير جريدة «الرائد» الذي كنت أتوقع أن أنال منه من المساعدة ما تيسر مهمّتي في المساهمة في ندواتها واحتفالاتها ، ولقاءاتي بالعلماء والأدباء والصحفيين والكتاب ، وتبادل الآراء معهم في القضايا العلمية والأدبية ، وقد أعانني - دائماً - بقلمه السيل في إبداء الآراء والمقابلات الصحفية وعادةً يحضر في هذا المؤتمر عدد كبير من كبار رجال العلم والأدب ، والشخصيات المرموقة العلمية والأدبية في العالم الإسلامي (لتسهيلات السفر وأريحية المملكة الهاشمية واهتمامها الخاص في استقبال الضيوف والقيام بما يلزم نحوهم) ، وتتحقّق عن طريق ذلك فرصة اللقاء بممثلي مختلف المدارس الفكرية ، وقادة الرأي ، وكبار العلماء والأدباء في العالم العربي ، وقد كنت عزمت في رحلتي هذه على أن أضمّ إليها رحلتي إلى الحجاز واليمن ، فقد كنت تلقّيت دعوة من اليمن من سابق ، أما الحجاز فلأداء العمرة والزيارة ، ولأن الرحلة إلى صنعاء ميسّرة من هناك نسبياً .

في عمّان :

سافرنا من دلهي في ٢٣/ أبريل ١٩٨٤ م على متن طائرة (B.O.A.C) إلى

الكويت ، ومكثت بها يوماً عند بعض أقبائني^(١) ، ثم سافرنا في اليوم التالي ٢٤/ أبريل بطائرة الخطوط الكويتية إلى عمّان ، وكان في مطار المملكة «عالية» بعمّان الأستاذ «فاروق جرّار» نائب رئيس المؤسسة في استقبالنا ، ورأينا عدداً من أصدقائنا وأحبابنا في المطار ، وكنت سافرت قبل ذلك إلى عمّان ثلاث مرات ، تقدم ذكرها في مواضعها من هذا الكتاب ، وكنت قابلت الملك عبد الله بن الشريف حسين جدّ الملك حسين عاهل المملكة الهاشمية الأردنية ، وجدّ ولي العهد الحالي للمملكة الأردنية الأمير حسن مرتين عام ١٩٥١ م عند عودتنا من القدس الشريف ، وكان لي لقاء بالملك حسين في أغسطس عام ١٩٧٣ م بمناسبة زيارة وفد الرابطة للمملكة ، وقد أكرم وفادتي واستقبلني بحفاوة.

في المؤتمر:

نزلنا في عمّان في أفخم فنادق العاصمة ريجنسي بالاس (REGENCY PALACE) مع ضيوف المؤتمر الآخرين ، ويتكوّن الفندق من ٢٠ طابقاً ، ويقوم على تلّ كبير ، ويمكن أن تلقي منه نظرة على مدينة عمّان كلها.

بدأ المؤتمر بتاريخ ٢٥/ أبريل ١٩٨٤ م ، وقد حضره كبار رجال العلم والأدب المعروفين ، والعلماء والباحثين المحققين في عدد كبير ، وكان قد شارك في هذا المؤتمر ممثلون من ٣٢ بلداً من كبار المفكرين الإسلاميين ، كان فيهم وفد من علماء موسكو يرأسه فضيلة الشيخ شرف الدين بابا خانوف ابن الشيخ ضياء الدين بابا خانوف رئيس الشؤون الدينية رحمه الله ، وكان يشارك فيه عدا هؤلاء المندوبين عدد من سفراء الدول المختلفة ، وأفراد الأسرة الملكية ، وأعيان البلد ووجهائه.

(١) إشارة إلى الأستاذ إبراهيم الحسيني الندوي ، والأستاذ السيد أحمد علي الحسيني الندوي اللذين هما من أعضاء أسرة سماحة الشيخ الندوي الأعزاء.

وقد نوّه بي الأمير حسن في خطاب الترحيب الذي افتتح به المؤتمر بصفة خاصة ، وأبدى سروره واغتباطه بمقدمي ، وشكرته بدوري على كلمته هذه التي أشاد بي فيها ، وقلتُ إنني أعتبر الأردن خطّ الدفاع الأخير والرباط الحساس الخطير للعالم الإسلامي الذي له حق كبير على كل مسلم ، وهذا هو الشعور الذي حملني - رغم ضعف صحتي وكثرة شواغلي - على هذا السفر وحضور المؤتمر .

المسلمون في الهند ودورهم التاريخي :

وكنت قد قدّمت بحثي إلى سكرتارية المؤسسة ، ولكنني على طلب من الأمير حسن ، ألقيت كلمة مرتجلة استعرضت فيها ملخصاً موجزاً للمدّ الإسلامي في الهند ، وذكرت كيف استطاع المسلمون في الهند أن يحافظوا على شخصيتهم الإسلامية ، وخصائصهم المليّة ، مع ما أسدّوا من خدمات وحسنات لهذه البلاد ، وأشارت أيضاً إلى صلاتهم القوية واهتمامهم البالغ باللغة العربية وآدابها وعلومها ، وأسباب هذا الاهتمام ودوافعه ، وفي مقدّمتها حبّ الرسول - ﷺ - ، والصلة القوية المتينة بالحرمين الشريفين ، وغيّرتهم على الدين ، وحميتهم للإسلام ، وقد ذكرت بهذا الصدد تلك الوصية الحكيمة التي أوصى بها الإمام أحمد بن عبد الرحيم المعروف بالشيخ ولي الله الدهلوي (١١١٤ - ١١٧٦ هـ) مسلمي الهند ، أن يبقوا على اتصال دائم مستمرّ بالحرمين الشريفين وعلى عهد متصل بزيارتهما ، للحفاظ على شخصيتهم الإسلامية ، ويعتنوا باللغة العربية وآدابها وعلومها وقواعدها وتعليمها اعتناءً خاصاً ، يقول في رسالته المسماة بـ«المقالة الوضيئة في الوصية والنصيحة» :

(نحن رجال غرباء ، هاجر آباؤنا إلى الهند ، وإن عربيّة النسب وعربيّة اللسان مفخرتان لنا ، وهي التي تقربنا إلى سيّد الأولين والآخرين ، وأفضل الأنبياء والمرسلين ، ومفخرة الوجود ﷺ ، والسعيد منا من حصلت له مشاركة في لسان العرب ، والصرف والنحو ، وكتب الأدب ، واطّلع على

الحديث ، والقرآن ، ولا بدّ لنا من حضور الحرمين الشريفين وتعلق القلب بهما ، وفي ذلك سرّ سعادتنا ، والشقيّ من أعرض عنهما^(١) .

ونوّهت بمؤلفات سيدي الوالد العلامة السيد عبد الحي الحسيني باللغة العربية التي تتناول تاريخ الهند الإسلامي من شتى نواحيه ، وقد ظهر منها ما يشتمل على تاريخ العلوم والثقافة الإسلامية وتطوّرها في شبه القارة الهندية على مدّ القرون ، وفهرسة مؤلفات علماء الهند باسم «الثقافة الإسلامية في الهند» نشره المجمع العلمي العربي^(٢) ، وصدرت له الطبعة الثانية قريباً .

خطاب الأمير حسن العلمي حول قضية فلسطين ، وبيت المقدس :

وقد كانت لقضية المسجد الأقصى والقدس الشريف وفلسطين ، والبحث في أسباب استعادتها ووسائلها ، المكانة الأولى في العناية والدراسة في بحوث المؤتمر وأحاديثه بطبيعة الحال ، علاوة على البحوث العلمية حول مواضيع الحضارة والمدنية الإسلامية وخصائصها ودورها التاريخي ، ورفقيها وازدهارها ، وسقوطها وانحطاطها ، ومظاهرها ومراكزها ، فقد كان ذلك أمراً طبيعياً بل فريضة دينية وخلقية لقرب المسجد الأقصى والقدس الشريف وصلتهما الجغرافية ، ومسؤولية شرق الأردن الخاصة فيما يتصل بمستقبلهما ، وسبب اجتماع العلماء والقادة العرب في هذا العدد الكبير ، زد إلى ذلك قيام المؤتمر في شهر رجب - الذي هو شهر الإسراء والمعراج ، وكان أول منازل المسجد الأقصى - وخصّص يوم ٢٧ من رجب كله لهذه القضية .

وقد افتتح الأمير حسن نفسه هذا الموضوع ، وألقى ضوءاً كاشفاً على مختلف جوانبه وخلفياته التاريخية ، والقضايا والأخطار المعقّدة الدقيقة

(١) المقالة الوضیئة فی الوصیة والنصیحة ، طبع من دهلي عام ١٩٦٧ م .

(٢) مجمع اللغة العربية بدمشق حالياً .

للعالم الإسلامي والعالم العربي ، التي تنشأ بسبب وجود دولة إسرائيل ، وقد قدّم على أساس الخرائط التي أُعدت خصيصاً لهذه المناسبة إحصائيات تفصيلية تتطلب من جميع المعنيين بهذه القضية ومن المسلمين في العالم كله ، تفكيراً وبحثاً ، وتبعث على القلق والاهتمام ، وكانت هذه الجلسة في قاعة البتراء ، وقد استمع إليه الجمع بأذان صاغية وقلوب واعية ، وأعجبوا بالدراسة العميقة والمعلومات الواسعة التي احتواها خطاب سموّ ولي العهد .

الشخصية المتظرة:

ورأيت من الضروري بعد خطاب الأمير حسن أن أقول شيئاً ، وكانت خلاصة ما قلت وجوهه:

إنّ هناك شواهد مستمرة في التاريخ الإنساني - وفي التاريخ الإسلامي بصفة خاصة - ، أن الحقيقة الحاسمة المغيرة لمقادير الشعوب ومصائر الأمم ، ليست هي القوة التي تعمل على تغيير خريطة البلاد السياسية ، وخطط الحرب الاستراتيجية ، والعدّد والعدّد ، والقلة والكثرة ، والأوضاع الغالبة القاهرة ، بل إن القوة التي تحدث الثورة والانقلاب ، وتجعل المستحيل ممكناً ، هي تلك الشخصية التي تمتلئ عزيمة خارقة للعادة ، وإيماناً صادقاً ، متهيئة لتغيير الأوضاع وقلبها رأساً على عقب ، ومقدمة في سبيل ذلك كل تضحية وإيثار ، والتي لا يقرّ لها قرار ، ولا يهدأ لها بال في ركوب المخاطر وخوض المغامرات والبطولات ، ويشهد التاريخ أنه لا تغني عن ذلك هذه الإحصائيات المحبوكّة الدقيقة ، وتذوب جبال المشكلات والصعوبات والمخالفات والمعارضات كما يذوب الثلج أو تذوب الشمعة ، وتطلع شمس النصر والفتح المبين وهاجة تقشع ضباب البرد ، وتقطع حجاب الظلمة وتخطف بالأبصار ، وهذا هو الدرس الذي نتلقاه من الحروب الصليبية ، وتلك هي العبرة في حياة صلاح الدين الأيوبي ، وقد أشار العلامة محمد إقبال إلى هذه الحقيقة بأسلوبه الخاص في بيتين من شعره ، يقول فيهما:

(إذا كان أحد هناك يناضل مثل «الكليم»^(١) ، فإنه لا يزال يأتيه نداء : «لا تخف» من شجرة الوادي الأيمن ، لقد انكشف عليّ بصحبة الشيخ الرومي هذا السرّ الدقيق ، إن «كليماً» واحداً مستميتاً فوق مئة ألف فيلسوف حكيم).

وخلاصة الحديث وروحه ؛ أن المسألة ليست مسألة الإحصائيات ، فإنّ الإحصائيات تتغيّر ، إن المسألة الحقيقية هي وجود الرجل المختار ، الرجل الذي يملك عزيمة وإيماناً ، واعتزازاً بالدين ، وإرادة قوية صارخة لتغيير الوضع مهما كان مدعماً بالحقائق والإحصائيات ، رجل كصلاح الدين الأيوبي .

أحمد الله تعالى على أن هذا الخطاب أشجى القلوب ، فكم من قلوب هاجت ، وكم من عيون دمعت .

شواغل عمّان وخطب ومحاضرات :

أقمنا بالأردن ثمانية أيام ، وكان موضوع الخطب والمحاضرات الرئيسي لشهود شهر رجب ، الإسراء والمعراج ، ومعانيهما ونكتهما وأغراضهما البعيدة ونتائجهما الجليلة ، وكانت هذه الخطب تشتمل على إشارات واضحة إلى انتقال الإمامة والقيادة ، ومنصب الإرشاد والهداية ، من بني إسرائيل إلى المسلمين ، وإعلان إمامة سيدنا محمد ﷺ للشعوب والأمم ، وأمة خاتم النبيين ، وما تمتاز به هذه الأمة الإسلامية من مكانة عالمية ومسؤولية قيادية .

وكان لي خطاب طويل في يوم ٢٧ رجب في مسجد سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالزرقاء ، حضره جمع كبير لخصوص تلك الليلة المباركة ، واكتظ المسجد على سعته ، ووقف الناس في الخارج إلى ساحة بعيدة .

(١) إشارة إلى سيدنا موسى كليم الله .

وكانت المحاضرة الثانية في قاعة جامعة اليرموك^(١) بإربد يوم ٢٩ من رجب ، دعوت فيها الإخوة المسلمين - وقد ذكرت معركة اليرموك الحاسمة - إلى أخذ الدروس منها ، وإيجاد الشخصية الإيمانية المميّزة التي كانت السرّ الحقيقي وراء كل المكاسب والفتوح والانتصارات .

وقد ذكر المحاضر في هذا الصدد ما يمتاز به المسلمون في شبه القارة الهندية من صلة وجدانية قوية بهذه الأماكن التاريخية والمعارك الإسلامية وساعاتها وميادينها ، وقلت : إنني لما دُعيتُ لإلقاء المحاضرات في كلية الشريعة التابعة لجامعة دمشق ، وذلك سنة ١٩٥٦ م ، الفضل في ذلك لفقيد العلم والدعوة مرشد الإخوان المسلمين في سورية صديقنا مصطفى السباعي عميد الكلية إذ ذاك في فندق اليرموك ، وكتبت رسالة إلى أحد المؤلفين الباحثين الكبار في شبه القارة الهندية ، قد أثرى المكتبة الإسلامية الهندية بمؤلفاته وبحوثه ، وكان رئيساً للقسم الديني في الجامعة العثمانية في حيدرآباد^(٢) ، وكتبت فوق الرسالة : «من فندق اليرموك» وصادف وصول هذا الكتاب وجوده في المستشفى ، فقد كان يعاني من الذبحة الصدرية ،

(١) YARMOOK UNIVERSITY سميت جامعة إربد بجامعة اليرموك لقرب

ميدان اليرموك من هذا البلد ، تقع على مقربة منه في الشمال قرية أم القيس التي تستقبل الزائر فيها مرتفعات الجولان ، وما بينه وبينها إلاّ وإد عميق يجري فيه نهر اليرموك منعطفاً ملتوياً ، وعلى ضفافه ميدان اليرموك .

(٢) هو العلامة السيد مناظر أحسن الكيلاني ، كان من أوسع العلماء في هذا العصر ثقافة ،

وأغزهم علماً ، يمتاز بالذكاء الباهر ، ودقة الاستنتاج ، وتوليد المعاني ، وسيلان القلم ، والاطلاع الواسع على العلوم الدينية ، والتاريخ والفلسفة ، ولد عام ١٣٠٩ هـ ودرس في «تونك» و«دار العلوم ديوبند الإسلامية» ورأس القسم الديني في الجامعة العثمانية بحيدرآباد ، ودرس وخطب ، وكتب وألّف ، ومن مؤلفاته البديعة : «تدوين الحديث» ، و«النبي الخاتم» و«أبو ذر الغفاري» و«حياة الإمام أبي حنيفة السياسية» و«نظام الإسلام الاقتصادي» ومقالات كثيرة قيمة ، توفي سنة ١٩٧٧ هـ رحمه الله وأثابه .

انظر ترجمته بكاملها في كتاب المحقق «الإعلام بمن في الهند من الأعلام في القرن العشرين» .

وكان رهين الفراش وكان هو مرضه الأخير الذي مات فيه ، فلما وصله هذا الكتاب واطّلع على عنوان الكتاب «فندق اليرموك» كتب إليّ ، يقول :

(إنني كنت مريضاً ، تتابني أوجاع القلب ، وكنت رهين الفراش لا أستطيع أن أنهض ، ولكن لما جاءني كتابكم نفخ فيّ روحاً جديدة ، لقراءة اسم اليرموك ، فقد حضرتني الذكريات الجميلة الحلوة ، فكادت أغلب على أمري وأخالف تعليمات الأطباء وأرقص وأطرب وأبكي).

وانتهى المؤتمر ، وانتقلت يوم ٣٠ - أبريل - بمرفقي العزيز إلى مضيف «دار البشير» .

وكان الخطاب الأخير بغرة شعبان في كلية العلوم العربية بعمّان التي يدرس فيها آلاف مؤلفة من الطلاب ، ويبدو كأنها جامعة ، ووجهت الدعوة في خطابي مستلهماً حادث الإسراء والمعراج ، إلى استعادة القوّة المعنوية للمسلمين والحفاظ على خصائص الشخصية الإسلامية للأفراد والجماعة ، التي انتصرت على حضارة الفرس والروم الراقية والمجتمع الذي كان قد وصل إلى قمة الرقيّ الماديّ ، وأرست قواعد عهد جديد وعالم جديد .

وقدّم إلى الخطيب تمثال تذكاري جميل لقبّة الصخرة كذكرى من كلية العلوم العربية .

كهف أصحاب الكهف :

مكثنا بعد المؤتمر يومين آخرين ، وزرنا مع الدكتور رفيق وفا الدجاني وفي قيادته - وهو من المتخصّصين في الآثار ، ونائب المدير لإدارتها - كهف أهل الكهف على جبل الرجيب ، ويعرف بـ «كهف الرجيب» ويقع في جنوب شرق عمان على ثمانية أميال ، ويقول الدكتور رفيق وفا الدجاني : إنه هو الكهف الذي أشار إليه القرآن الكريم ، ونزلنا في هذا الغار وشاهدناه بتفصيل في قيادة أحد المتخصّصين ودلالة باحث محقق ، وكانت صفاته وخصائصه التي ذكرت في القرآن الكريم تنطبق عليه ، وأثبت الدكتور رفيق ذلك أيضاً بقرائن وشواهد وأدلة ، وآثار أخرى ، وما أخرج من الألواح في الحفريات يُصدّق ذلك ، وقد ذكر فيها اسم الكهف بـ «كهف الرقيم» ، كما

قد عثروا على كتابات لمختلف العهود الإسلامية مع سنيها ، ولا يزال يوجد في الغار ثمانية قبور ، ويميل المقدسي والبيروني وياقوت من المؤرخين المسلمين إلى هذا الرأي ، أنه هو الكهف المذكور في القرآن ، ويؤيد ذلك المستشرق الفرنسي «كانو»^(١).

أصدقائنا بعمان ، وساعات معهم :

كنا في إقامتنا بالأردن لثمانية أيام نقضي أوقاتنا مع صاحبنا القديم وصديقنا الفاضل الأديب الأستاذ محمد إبراهيم شقرة ، الذي حضر المهرجان التعليمي بندوة العلماء عام ١٩٧٥ م ، وكانت له مشاركة خاصة في بعض لجانها ، ووضع التوصيات والقرارات ، ويشغل منصب مدير شؤون القدس في وزارة الأوقاف ، كان يصاحبنا دائماً في حضور جلسات المؤتمر والتجول في البلد .

والصديق الآخر الذي قضينا معه وقتاً كثيراً هو ناشر عدد من مؤلفاتي صاحب «مؤسسة الرسالة» و«دار البشير» الأستاذ رضوان دعبول ، الذي قد أنشأ بعمّان مركزاً للدراسات والبحوث ، يقوم عليه عالم محقق بحائه هو الأستاذ شعيب أرناؤوط ، ولم أشعر بأيّ غربة أو وحشة بوجود هذين الصديقين ، وبسبب صديقنا الإخواني القديم الأستاذ عبد الرحمن خليفة الذي كان مسؤولاً عن الإخوان وقائدهم .

وكان لي خطاب سوى كلمتي في مجمع البحوث في مسجد صلاح الدين - الذي يؤم فيه الأستاذ محمد إبراهيم شقرة - بعد صلاة الجمعة ، كان

(١) انظر كتاب «كتاب أهل الكهف» للدكتور رفيق وفا الدجاني ، الذي ألفه كرسالة للدكتوراه ، وقد أثبت فيه أن مدينة «أفيسس» التي كانت مدينة من مدن أناطولية ، وتقع الآن على ستين كيلمتراً من مدينة أزمير بتركيا ، ليست هي موضع الكهف ، كما اشتبه به ، بل إنه يقع بعمّان ، وقد أورد على ذلك شواهد وأدلة قوية لا يمكن دفعها ، وليس ذلك بعيداً ، فقد كان شرق الأردن قديماً جزءاً من الدولة الرومية ، وكان اسمه قديماً قديماً «فلادلفيا» الذي سميت به مدينة من مدن أمريكا (PHILADELPHIA).

موضوعي فيه شخصية صلاح الدين وسيرته وخصائصه ، وكانت المعاني تنثال عليّ لمكان المسجد ، ومتطلبات الأوضاع المعاصرة ، ولهذا الاسم الحبيب ، وكان الخطاب قوياً حماسياً مؤثراً.

وألقيت كلمة في مركز الدعوة والتبليغ بعمّان ، أشرت فيها على المستمعين المشتغلين بحركة الدعوة على طراز مركز التبليغ في نظام الدين دلهي الهند ، بمراعاة البلد والجوّ ، ومتطلبات العصر ، والمقتضيات المعاصرة ، وأشدتُ بأهمية الأخلاق والمعاملات مع أهمية العبادات والأذكار ، وتبتهت إلى المسؤوليات الفردية والاجتماعية للعاملين في مجال الدعوة ، كما أشرت عليهم بمطالعة الكتب ، والاهتمام بدراسة موضوعات الدعوة ، وأنه يجب عليهم معرفة أوضاعهم وعصرهم وبيئتهم ، وأن لا يتغاضوا أبداً عن حاجات العصر ومقتضياته وأخطاره ، وأنه يجب عليهم أن يطلعوا على الميول الاجتماعية والفكرية السائدة المنتشرة في عصرهم ، والحركات التي تعمل وتشتغل ، والأخطار والتحديات التي يواجهها المسلمون ، التي لا يستطيعون أن يقوموا بدون معرفتها بأداء دورهم كاملاً في الحياة والمجتمع ، وخدمة هذا الدين خدمة كبيرة لها شأنها.

وقد كان من أصدقائي القدامى سعادة الأستاذ كامل الشريف الذي يرجع في نسبه ووطنيته إلى فلسطين ، وهو أحد وجهاء عمّان وأعيانها ، بقي مدة سفيراً لشرق الأردن ، ولا يزال عضو رابطة العالم الإسلامي من بدايتها ، وقد عقد مجلساً خاصاً ببيته ، ضم صديقنا الكريم معالي الدكتور إسحاق فرحان وزير الأوقاف والتربية سابقاً بالأردن ، وأستاذ العربية وشاعرها وأديبها المعروف وحبينا الأستاذ عمر بهاء الأميري ، والأستاذ محمد إبراهيم شقرة ، والأستاذ كمال أبا المجد ، وآخرين من رجال العلم والأدب.

وكان موضوع الحديث في هذه المناسبة استعراض تجارب الحركات الإسلامية وموقفها من الحكام ، وكان موقف الأستاذ عمر بهاء الأميري أن العلاقة الطيبة مع الحكّام ومحاولات إقناعهم لا يزال فيها أمل في ظهور

نتائج طيبة خيرة ، وكان لنا لقاء آخر بليف طيب من العلماء والوجهاء على الطعام في بيت الأستاذ رضوان دعبول .

وقد كان لنا لقاءات ومجالس خاصة من بين مندوبي المؤتمر ومعارفنا القدامى مع عالم المغرب الفاضل الأستاذ مهدي بن عبود ، وسماحة الشيخ أحمد بن عبد العزيز المبارك رئيس القضاة بأبو ظبي ، وسعادة الأستاذ عمر بهاء الأميري شاعر بلاد الشام المعروف - المقيم حالياً بالرباط - وسفير الشام بدولة باكستان والمملكة السعودية سابقاً ، وفضيلة الدكتور يوسف القرضاوي عميد كلية الشريعة بقطر ، وفضيلة الشيخ محمد الغزالي الداعية والمؤلف الإخواني المعروف .

وحضرنا مأدبة أقامها سمو ولي العهد ، حضرها مفتي عُمان (مسقط) فضيلة الشيخ حمد الخليلي الذي بدأ أمام الأمير يقرأ صفحات من كتابي «روائع إقبال» عن ظهر غيب .

وخرجنا للمطار يوم ٢/ مايو الساعة الثانية حسب التوقيت المحلي ، وقد جاء لتشييعنا عدد من أصحابنا وأصدقائنا ، كان منهم رئيس المؤسسة سعادة الدكتور ناصر الدين الأسد^(١) ، ونظم لي الانتظار في الغرفة الملكية التي خرجنا منها إلى الطائرة ، كان سفرنا بالخطوط السعودية من عمان إلى جدة التي وصلناها في المساء ، وكان يرافقنا في السفر الأستاذ مختار الدين آرزو - رئيس القسم العربي بجامعة عليكراه سابقاً - الذي كان حضر المؤتمر من الهند ، وسافر من عمان إلى الهند .

في الحجاز:

كنا خرجنا بتاريخ ٢/ مايو ١٩٨٤ م من عمان ووصلنا في المساء إلى جدة ، وقد كنا نؤمنا أن نُحرم من المدينة المنورة ، وأن نزرورها أولاً ، فسافرنا إليها غير محرمين ، ومكثنا بالمدينة المنورة أربعة أيام ، ولم يكن غرضنا من هذه الزيارة إلا المسجد النبوي الشريف ، والصلاة والسلام على

(١) هو العالم المحقق الأديب ، ومؤلف الكتاب القيم «مصادر الشعر الجاهلي» .

سيد المرسلين ﷺ ، ولذلك لم ينظم هناك اجتماع أو حفل ، وكان يزورنا بمنزلنا طلاب الجامعة الإسلامية وأساتذتها ، وبعض علماء المدينة المنورة وعامة أجبابنا وأصدقائنا .

وكنا مترددين جداً في السفر إلى اليمن ، لتأخره عن الموعد ، وشدة الحرّ ، وأن الدعوة الأولى كانت من قبل مكتب التوجيه والإرشاد (الهيئة العامة للمعاهد العلمية) واتحاد طلاب اليمن ، وأن الزمن زمن الاختبارات ، وأردنا أن نلغي هذا السفر ، ولكن ألح صديقنا فضيلة الشيخ عبد الله القادري - الذي أصله من اليمن ويدرس في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، وله صلوات خاصة بالمسؤولين وأعضاء الهيئة والاتحاد هناك - على السفر إلى اليمن ، وقال سوف يكون الطقس معتدلاً ، والاختبارات لا تؤثر على البرامج هناك ، وتعهّد بأمر السفر وتسهيلاتة وأتصل بصنعاء ، كما ساعدنا في ذلك أحد المسؤولين عن اتحاد الطلبة بجدة ، وعزّمتنا أخيراً على السفر .

تأسيس رابطة الأدب الإسلامي :

رجعنا من المدينة المنورة في ٧/ مايو إلى جدة ، واعتمرنا بتاريخ ٩/ مايو ، وقابلنا في ذلك اليوم وفدٌ موقر من الأدباء بمكة المكرمة ، كان يضم أساتذة من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض والجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة وغيرهم ، وقد قدموا من الرياض والمدينة المنورة لأجل هذه المقابلة ، فتحدثوا معي وذكروا لي أهداف رابطة الأدب الإسلامي ، وعرضوا عليّ دستورها وقوانينها ، وطلبوا مني أن أكون رئيساً لهذه المنظمة ، وأن أسمح بتأسيسها كمنظمة أدبية إسلامية عالمية^(١) ، وقد

(١) لقد كان الدكتور عبد الرحمن باشا رحمه الله هو الداعي الأول لإنشاء هذه الرابطة ، وقد ذكر لسماحة الشيخ الندوي مرة أثناء مقابلة معه بالرياض أنه قد لفت نظره إلى البحث عن عناصر الأدب الإسلامي وإبرازها ، ومحل المكتبة الإسلامية الأدبية لهذا الغرض واستعراضها ، ما جاء في مقدمة كتاب سماحة الشيخ الندوي «مختارات من أدب العرب» التي كتبها سماحته على أثر اختياره عضواً للمجمع العلمي العربي بدمشق=

قررنا فيه أن يشكلوا لجنة من الأدباء العرب ، وتوجه الدعوة إلى الأدباء من أصحاب الأقلام من مراكش والجزائر ودول الإمارات وغيرها ، ويعقد حفلها الأول في لكهنؤو ، ويكون مكتبها الرئيسي بندوة العلماء ، ويتولى الأستاذ محمد الرابع الحسني الندوي مهام الأمين العام للرابطة .



= ١٩٥٧ م ، ونشر في مجلة «المجمع» وقد بدأ الدكتور باشا العمل الأدبي على هذا الخط ، ونشر عدداً من المجاميع الأدبية ، وكان يشير على طلابه في الماجستير والدكتوراه بهذا العمل ، وهكذا حقق الدكتور بواسطة أو بدون واسطة أعمالاً أدبية إسلامية جليلة ، وظهرت ثروة أدبية كبيرة ، ومما يدل على سعة نظر الأدباء العرب ورحابة صدورهم وسماحتهم أنهم اختاروا لرئاسة «رابطة الأدب الإسلامي» رجلاً هندي المولد والمنشأ من المعنئين بخدمة الدين والأدب .

رحلتي إلى اليمن

عام ١٩٨٤ م

لا شك أن الشوق والحنين إلى اليمن والصلة بها ، وزيارة أرض العلم والإيمان ، وأرض النور والريحان ، أمر طبيعي يشعر به قلب كل مسلم لما خصّ الله تعالى به أهلها من الثناء والوصف الحسن على لسان النبوة - على صاحبها الصلاة والسلام - فقد قال ﷺ لما جاءه وفد من أهل اليمن :

«أتاكم أهل اليمن ، هم أرقّ أفئدة ، وألين قلوباً. الإيمان يمان ، والحكمة يمانية» وفي رواية أخرى : «والفقه يمان ، والحكمة يمانية»^(١).

وإضافة إلى هذه الدوافع التي يشترك فيها كل مسلم اطلع على ما جاء في وصف اليمن وأهلها ، ودورهم في الإسلام ، وعلم الحديث ، كان هنالك دافع آخر ، وهو أنني أدين في عربيتي ودراستي للأدب العربي وتذوّقه ، للشيخ خليل بن محمد بن حسين اليماني^(٢) ، ويرجع الفضل الأكبر في ثقافتي العربية إليه ، فقد كان ورث كثيراً من الخصائص اليمنية التي جرت منه مجرى الدم ، فكان من الغريب لمن يصحبه أن لا يحبّ اليمن ولا يحنّ

(١) صحيح البخاري - كتاب المغازي.

(٢) أصله كان من الحديدية في اليمن ، هاجر منها جدّه العلامة المحدث الكبير حسين بن محسن الأنصاري على دعوة من الأمير السيد صديق حسن خان القنوجي ، واستوطن بهوبال كان الشيخ خليل أحمد الأنصاري من نوادر المعلمين الذين يطعون تلاميذهم النجباء بطابعهم وينقلون إليهم التذوّق بالشرّ البليغ والشعر الرقيق واستطعامهما والتلذذ بهما ، تخرج على يديه علماء خدموا اللغة العربية والعلوم الدينية ، ومنهم سماحة الشيخ الندوي الذي اختصّ بعطفه وعنايته وحبّه. توفي - رحمه الله - بكراتشي سنة

لزيارتها ، ثم إن إسنادي للحديث الشريف الذي أكرمني الله به ، هو عن طريق العلامة حيدر حسن خان الطونكي^(١) شيخ الحديث في دار العلوم التابعة لندوة العلماء وعميدها رحمه الله ، وهو تلميذ إمام الحديث وخاتمة المحدثين في الهند الشيخ حسين بن محسن الأنصاري السعدي الخزرجي اليمني البهوفالي^(٢) ، وكل الوسائط والشيوخ في هذا الإسناد يمنيون .

(١) كان من كبار المحدثين والعلماء الربانيين والمعلمين المربين بالهند في هذا القرن ، كان متضلعا من العلوم العقلية ، درسها دراسة إتقان وإمعان ، راسخا في النحو وعلوم البلاغة ، بارعا في الهيئة والهندسة ، وكان منهجه في تدريس الحديث منهجا علميا ، وهو أشبه بمنهج المحدثين منه بمنهج الفقهاء ، وكان طريقه في ذلك طريق العلامة محمد بن علي الشوكاني في «نيل الأوطار» وكان من أشياخ أشياخه ، وكان مع انتصاره للمذهب الحنفي كثير العطف على تلامذته من أهل الحديث ، شديد الود لأصدقائه الذين يذهبون هذا المذهب ، تخرج عليه خلق كثير من العلماء الكبار ، ومنهم سماحة الشيخ الندوي ، توفي - رحمه الله - سنة ١٣٦١ هـ . انظر ترجمته بكاملها في كتاب المحقق «الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام في القرن العشرين» .

(٢) كانت ولادته ببلدة الحديدية في اليمن ، حفظ القرآن في حياة والده ، وبعد وفاة والده رحل إلى قرية المراوعة ، ومكث بها ثمانين سنين ، اشتغل بعد إتقان النحو وغيره بالفقه على مذهب الإمام الشافعي حتى أتقنه حق الإتقان ، ثم بدأ بقراءة علم الحديث على الترتيب أولاً سنن ابن ماجه ثم النسائي ثم أبي داود ثم الترمذي ثم الجامع الصحيح للبخاري ومسلم ، وكل ذلك على شيخه السيد العلامة حسن بن عبد الباري الأهدل . ولازم الشيخ صفي الدين أحمد بن القاضي محمد بن علي الشوكاني واستفاد منه ، وقرأ عليه أطرافاً من الأمهات الستة ، وأجازه إجازة خاصة وعمامة .

سافر إلى الهند إثر دعوة من الأمير السيد صديق حسن خان القنوجي (أمير ولاية بهوفال) وتوطن ببهوفال ، وكان في مدة إقامته فيها قد طار صيته في جميع الأقطار الهندية ، وأقر له بالتفرد في علم الحديث وأنواعه كل أحد من كبار العلماء ، وأخذ عنه جماعة من أعيانهم كالأمير السيد صديق حسن خان القنوجي ، والعلامة عبد الحي الحسيني (والد سماحة الشيخ الندوي) والشيخ محمد بشير السهسواني ، والشيخ نذير حسين الدهلوي ، والشيخ وحيد الزمان الحيدرآبادي ، وغيرهم من العلماء الأجلاء .

لم يكن للشيخ كثرة اشتغال بالتأليف ، ولو أراد ذلك لكان له في الحديث ما لا يقدر عليه غيره ، وله رسائل حافلة ومباحث قيمة في مجلد واحد ، وله تعليقات طيبة على سنن أبي داود . توفي - رحمه الله - ببهوفال سنة ١٣٢٧ هـ .

وكان من تقدير العزيز العليم ، أنني زرت أكثر بلدان العالم العربي - من دول الخليج العربي إلى الجزائر والمغرب - وتجوّلت فيها ، وقد تكرّرت زيارتها مرات عديدة ، ولكنني لم يقدر لي أن أزور اليمن قبل هذا السفر ، وكنت تلقّيت الدعوة لزيارة اليمن عام ١٩٧٦م وجاءتني التذاكر أيضاً ، لكن وقع التأخير في الحصول على التأشيرة ، وألغي السفر إليها ، ولا يزال المثل العربي «الأمر مرهونة بأوقاتها» يصدّق اليوم كما كان يصدق قبل مئات السنين ، فهي حقيقة لا تزول ، وكانت مؤلفاتي قد سبقتنني إلى اليمن ، واختير بعضها في المناهج والمقررات الدراسية بها ، وعرفها علماءها ومؤلفوها .

وقد كان الداعي الأول الذي وجّه إليّ الدعوة لهذا السفر ، هو الشاب اليماني الفاضل الأستاذ أحمد عبده ناشر الذي تخرج في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، وقد كان مستشار مكتبة التوجيه والإرشاد (الهيئة العامة للمعاهد العلمية) ، وقد اهتمت حكومة شمالي اليمن التي يحتل فيها أصحاب الاتجاه الديني والغيرة على الإسلام مناصب هامة بهذه الرحلة ، وتعاونت مع المنظمين لشؤون السفر ، وقد أبدت من الثقة والاعتماد على الزائر ما لم ألقه في أي مملكة إسلامية أو دولة عربية ، وسمحت لي بالحديث في مراكز حسّاسة مهمّة لا يسمح للزائر من الخارج بدخولها وزيارتها عادة ، وكان الفضل في ذلك يرجع أيضاً إلى العلماء والقضاة والرؤساء الدين لهم مكانة محترمة ، وإجلال لدى العامة والمسؤولين عن الحكومة ، ويثق بهم الرئيس ورئيس الوزراء ، وعامة المسؤولين وأعضاء البرلمان ، ويثقون بإخلاصهم وجلالة شأنهم وعلو كعبهم في العلم ونصحهم للبلاد والحكام ، وسيأتي ذكرهم في محله .

في صنعاء :

سافرنا يوم ١٤/ مايو الساعة السابعة والنصف صباحاً بالخطوط السعودية من جدة ، وقد كنا قرأنا أيام الطلب قصيدة في الحماسة كان شطرها الأول :
لا بدّ من صنعاء وإن طال السفر

ولكنه أصبح الآن بالطائرة سفر ساعة وربع ، فقد وصلنا مطار صنعاء بعد ساعة وربع ، وكان في المطار من المستقبلين الأستاذ أحمد عبده ناشر ، والشيخ محمد المؤيد (مدير الدعوة والإرشاد) وعدد من الممثلين لاتحاد الطلبة ، وآخرون من أعيان البلد .

للدكتور محمد إقبال قصيدة في قرطبة ، يقول فيها: (لا تزال الروائح العطرة من اليمن الميمون تهب عليها ، ولا تزال نعمة الحجاز ترنُّ في أرجائها وتسمع في أناشيدها ونغماتها).

كنا في اليمن نشعر بهدوء وسكينة ، وبعدما استكمل المستقبلون الإجراءات الرسمية في المطار ، توجهوا بنا إلى المدينة ، وإذا بهم قد أوقفوا السيارة في حيٍّ قديم يضمُّ بيوتاً متواضعة ، واستغربت ، لأن العادة أن الناس ينزلون الضيف في فندق محترم من فنادق المدينة ، أو بيت أحد الوجهاء والأعيان ، أما البيت الذي أنزلونا فيه فقد كانت فيه الغنم ، وفتح الباب ، وخرج عالم على الطراز القديم واستقبلنا ورحب بنا ، ودخلنا البيت معه ، وعلق الشيخ على الحركات والجماعات التي تعمل للدين وتقوم بالدعوة إليه وتحكيمه في الحياة ، وقال إن هناك طريقين :

١ - أحدهما أن يصل أهل الإيمان والصلاح إلى كراسي الحكم ، أي أن يستولوا على مقاليد الحكم .

٢ - ثاني أن يصل الإيمان إلى تلك الكراسي ، أي أن يقبل أهل الحكم والسلطان الدعوة ويتحملوا مسؤولية نشرها وتنفيذها .

ثم قال : إنني قد فهمت من مطالعة كتاباتك أنك ترجِّح الطريق الثاني ، فوافقته على ذلك ، وقلت : إنني أفضل هذا الطريق ، وقد اختاره عندنا الإمام أحمد بن عبد الأحد السرهندي (م ١٠٣٤ هـ) المشهور في الهند بـ «مجدد الألف الثاني»^(١) ، ولم تلق أي حركة أو دعوة ثورية أو إصلاحية

(١) لأن عمله الإصلاحي التجديدي قد انبثق وتمَّ في مطلع القرن الحادي عشر الهجري ، واستمرَّ عن طريق خلفائه وأبنائه ، ولا يزال له نصيب وتأثير في بقاء الشخصية الإسلامية في الهند وتصحيح العقيدة وانتشار العلوم الدينية .

- حسب علمنا - في العالم الإسلامي من النجاح ما لقيته دعوة الإمام السرهندي.

ثم ذكر أوضاع شمالي اليمن وإمكانيات العمل الإسلامي ومتطلباته باختصار ، وانفضّ المجلس بعد ذلك ، وودعناه ، وعلمنا أن اسمه الشيخ ياسين عبد العزيز ، وأنه عالم داعية مخلص ، وأخبرنا مرافقونا بأنهم جاؤوا بنا إلى هذا المكان قبل منزلنا ، لنكون على بيّنة من الأمر ، وتكون لدينا صورة واضحة عن أوضاع البلاد حتى نستفيد بها أثناء إقامتنا هنا ، وقد أعجبت بهذا التصرف وحسن الاختيار ، ورأيت فيه ظلّاً من ظلال الحكمة اليمنية.

ومن ثمّ ذهبوا بنا إلى فندق الحمد السياحي ، الذي كان قصراً للأمير علي .

وقد كان فيمن نظّم برامج هذه الرحلة ، وخطّط للاستفادة منها ، واستغلال المناسبات المفيدة لها ، وإتاحة الفرص للقاء مع المسؤولين في الحكومة وتبادل الآراء معهم - بصفة خاصة - الشيخ يحيى الغُسَيْل رئيس الهيئة العامة للمعاهد العلمية ، والقاضي العرشي رئيس الجمهورية - سابقاً - ونائب رئيس الجمهورية ، ورئيس مجلس الشعب حالياً ، وهو يتمتع بشخصية محترمة ، ويُعرف بصلاحه وتقواه وعلمه وإخلاصه بوجه عام ، والشيخ حمود هاشم الذاراحي أحد أعضاء البرلمان ، والدكتور عبد العزيز المقالح نائب رئيس جامعة صنعاء .

خطاب في جامعة صنعاء :

كان لي خطاب في اليوم التالي من يوم وصولنا ١٤ شعبان ١٤٠٤ هـ ، الموافق ١٥/ مايو ١٩٨٤ بجماعة صنعاء ، وصلنا القاعة ، فإذا بها قد غصّت بالطلاب والمثقفين من أهل صنعاء ، وقد جلس على الأرض عدد كبير ممّن لم يجدوا مكاناً لهم على الكراسي ، واكتظت الساحة أيضاً بالحضور ، كانت هذه هي الفرصة الأولى في حياتي للخطاب في اليمن ،

وشعرت بأن الطبع وقاد والقريحة سيّالة ، والمعاني منهمة ، والأفكار تترى .

فأبديت انطباعي هذا وسروري الغامر ، ثم بدأت خطابي بقولي :

إخواني ، كلكم تعرفون الشلال المعروف الذي يتدفق منذ آلاف من السنين في مدينة كندا والذي يعرف بـ «شلال نياجرة»^(١) ، ويعدّ من عجائب العالم السبعة ، إنني قد زرته وهو ينزل من فوق ارتفاع مئة وثمانية أمتار ، ولكن البلاد التي وضع الله تعالى فيها هذا الشلال قد وفقت لتستخدم هذا الشلال الطبيعي في صالح الإنسانية وفي صالح المدنية ، فتأخذ منه القوة الكهربائية ، تهتئء منها خمسة ملايين من القدرة الحصانية^(٢) التي تصل به الكهرباء إلى المدن البعيدة ، وليس لهذا الشلال إلاّ هذا العمل ، وليست للمجتمع وتلك البلاد إلاّ هذه العقلية ، وليس لعملها إلاّ هذا المجال .

ولكنني أريد أن أحدثكم عن شلال لا يقاس به هذا الشلال الكندي في القوة والتأثير ، ذلك هو شلال الإيمان والإخلاص الذي أكرم الله به هذه الأمة الإسلامية بصفة عامة ، وأكرم بلادكم بصفة خاصة ، وشهد بهذا الاختصاص لسان النبوة الذي كان مجرى الوحي ، فقد قال صلى الله عليه وآله وسلم لما جاءه وفد من اليمن :

«أتاكم أهل اليمن ، أرقّ أفئدة ، وألين قلوباً ، الإيمان يمان ، والفرقة يمان ، والحكمة يمانية» كما جاء في صحيح البخاري - كتاب المغازي في باب قدوم الأشعريين وأهل اليمن .

إن الدول الكبيرة والبلاد الراقية المتحضرة عندها كل شيء ، ولكنها لا تملك هذا الشلال الإيمان ، هذا الحرمان هو الذي أنتج عندهم المادية الراجعة ، والقومية الشقية ، والأنانية البغيضة ، والعصبية الحزبية ، والسياسة الطائشة ، والفرقة والتناحر والصراع ، لقد استعرضت صورة هذه البلاد الغربية أمام أهلها ، وصارحتهم بأن البلدان الإسلامية لا تزال تملك

(١) Niagara Fall

(٢) Horse Power

الخصائص والمميّزات العظيمة ، ويمكن أن تستغل في إنجاز المهمات الكبيرة وإحداث الثورة في البلاد ، ولكن العامة يجهلون هذه الثروة ، أما قادة الفكر والرأي في كثير من البلاد الإسلامية فإنهم مع الأسف الشديد يرون في هذه الطاقة أكبر خطر عليهم ، فهم في حرب معها ، ومؤامرة لإضعافها وتذويبها ، ويرونها أو يعلنونها علامة للتخلف والرجعيّة ، وقد يسمونها في استخفاف وكرامة «التمسك بالأصول»^(١).

وخاطبت إخوتي الشباب وقلت لهم : اعرفوا نفوسكم أيها الشباب ، إذا عرفتم نفوسكم فقد عثرتم على الكنز الدفين وعلى شلال قوي هو أقوى شلال في العالم ، الشلال الإيماني الذي تستطيعون أن تقتبسوا منه التيار الكهربائي ، الذي ينير ما حولكم من بلاد الله ، وينير العالم كله ، لقد كان سلفكم هم الذي أناروا العالم ، لأنهم قد اقتبسوا وأخذوا هذا التيار الكهربائي من صدورهم المليئة بالإيمان ، وحملوه إلى أقصى الشرق وأقصى الغرب ، إن العالم في حاجة اليوم إلى أولئك المؤمنين الذين يتدفق الإيمان من صدورهم ويفيض على لسانهم .

إخواني ، إن لسان النبوة لما وصفكم بالإيمان والفقهِ والحكمة ، فإنه لا يكون شيئاً موقتاً ، لأنه إذا جرى وصف أو شهادة على لسان حكيم أو مؤرخ ، أو بصير أو طبيب ، يكون مقصوراً على ذلك الفرد أو الجيل ، ويكون محدوداً في ذلك الزمان ، ولكنها كلمة النبي الخالد ، النبي العالميّ الإنساني ، إذ قال : «الإيمان يمان» فيجب أن يكون في كل عصر ، وأنتم بدوركم تغارون على هذه الشهادة والكرامة ، وتحاولون أن ذلك لا يكون مختصاً بزمن دون زمن ، هذه شهادة لكم قائمة مسجلة في التاريخ ، حفظها الحديث النبوي الصحيح ، فيجب عليكم أن تعتزوا بهذه الشهادة .

إن كثيراً من الشعوب الإسلامية مستعدة للمساومة والمبادلة معكم ، أعطوها هذه الشهادة بالإيمان والفقهِ والحكمة ، وخذوا منها ما شئتم ، وأنا أقول بلسان مسلمي الهند على الأقل : خذوا ما شئتم من مكاتب ومدارس ،

ومن علوم ومن ثروات ، وأعطونا هذه الكرامة التي أكرمكم الله بها «الإيمان يمان ، والفقه يمان ، والحكمة يمانية» .

استمر هذا الخطاب حوالي ساعة ونصف ، وكان الحضور في غاية من الإصغاء وحسن الاستماع ، وكأنهم كلهم آذان^(١) .
مصدر قوة المسلمين :

سمعنا بعد هذا الخطاب ذكر الشلال في مناسبات مختلفة ، وأصبح حديث المجالس ، وشاع ذكره في البلد ، وكانت لي ثلاث محاضرات أخرى في صنعاء ، إحداها في كلية الطيران^(٢) وقد كانت بعد وصولنا إلى صنعاء بقليل ، كان الخطاب بعد المغرب ، وكنا وصلنا المسجد قبل المغرب ، وأعجبنا هناك بوجود عدد كبير من الشباب يتلون القرآن الكريم .

ولم أجد للأسف شريط هذا الخطاب ، وليس في الذاكرة منه شيء ، فلا أستطيع أن أذكر هنا خلاصته ، أما الخطاب الذي ألقيته في مركز المدرّعات^(٣) فهو محفوظ في الشريط ، وهنا خلاصته :

لما وصلنا إلى المركز استقبلنا ضابط كبير ، وأشار على الجنود بطريقة جنديّة بالاحتشاد في القاعة ، وكانوا في عدد المئات ، وقد كانت هذه هي المرة الأولى للمؤلف أن يخطب في مثل هذا المركز الحساس ، وكانت هذه تجربته الأولى رغم كثرة جولاته وأسفاره على دعوة من الحكومات العربية والإسلامية ، أن يلقي حديثاً في مركز حسّاس خطير ككلية الطيران ، أو مركز المدرّعات .

بدأت خطابي بقوله - تعالى - في سورة النساء : ﴿ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ

(١) انظر هذا الخطاب بكامله في كتاب «نفحات الإيمان بين صنعاء وعمان» لسماحة الشيخ الندوي طبع في المجمع الإسلامي العلمي بلكهنؤ وطبع في دار الصبحة بالقاهرة ، وفي كتاب «محاضرات إسلامية في الفكر والدعوة للعلامة أبي الحسن علي الحسيني الندوي» طبع في دار ابن كثير دمشق .

(٢) Air Force College

(٣) Artillery Center

الْقَوْمَ إِنْ تَكُونُوا تَأْمُونًا فَإِنَّهُمْ يَأْمُونُ كَمَا تَأْمُونُ ۖ وَتَرْجُونَ مِنْ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ
وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿النساء: ١٠٤﴾ .

ثم ذكرت في شرح هذه الآية الكريمة وتفسيرها أن مصدر قوة الجندي المسلم هو إيمانه وثقته بوعده الله تعالى الذي وعد به الشهداء في سبيله ، والرغبة الصادقة في الحصول على الأجر والفضل والثواب ، الذي صرّحت به الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية الصحيحة التي بلغت حدّ التواتر ، وإلا فإن الناس كلهم يحملون أجساماً من لحم ودم خاضعة لناموس السنن الإلهية ، والطبيعة البشرية ، تُجرح وتُكلم ، وتتأذى وتتألم .

وتلوت آيات من الكتاب الحكيم ، وذكرت عدة من أحاديث صحيحة في فضل الشهادة والشهيد ، ثم قلت : إن هذه هي القوة المحيّرة للعقول الخارقة للعادات التي لا تقاس بقوة ، قد امتاز بها المجاهدون المستميتون في الأمة الإسلامية ، وفاقوا بها الجيوش الجرّارة ، وهذه القوة هي التي صنعت العجائب وأتت بما يدهش العقول ، ويحير الألباب ، ويغير خريطة العالم ، ومصاير الأمم ، ويرغم التاريخ على أن ينحو نحواً جديداً ، ورويت لهم في هذا الصدد حكايات من شجاعة سيدنا جعفر الطيار وأنس بن النضر وسعد بن الربيع وخبّيب - رضي الله عنهم - وفروسيّتهم واستماتتهم وجرأتهم التي لا تساويها جرأة .

ثم قلت : إنه يمكن أن يقول بعضكم إن هذه قصص الزمان الذي كان زمن الخير والبركة والسعادة ، وإنك تقص علينا قصة الرعيل الأول الذي تربّى في أحضان النبوّة ، ومدرسة الإيمان والقرآن ، وكيف يؤمّل ذلك في أناس لم يدركوا ذلك الزمان المبارك ، ولا تلك البيئة الطاهرة والمكان الطاهر ، لذلك فإني أريد أن أقص عليكم قصصاً من حركة الدعوة والجهاد في الهند ، التي قادها الإمام السيد أحمد بن عرفان الشهيد ، ثم قصصت عليهم قصة معركة «مايار» وما أبدى السيد أبو محمد المجاهد الجريح عند احتضاره من آيات الشكر والسرور ، وقصة مشهد «المُتّهَمين» في محكمة أنباله عام ١٨٦٤ م ، الذين تلقوا حكمهم بالإعدام بالشنق في سرور وبشاشة

إيمانية ، وفي عواطف من حمد الله - تعالى - وشكره ، وقصة صبر الشيخ يحيى علي الصادق فوري ، وثباته وقوة جنانه^(١) ، واستقامته وسكينته وطماننته ، وقلت لهم :

إنه لا يجوز تضييع هذه القوة الهائلة التي هي نتيجة الوحي والتعليمات النبوية ، كذلك لا بد من تجنب المعاصي ، فقد كتب سيدنا عمر بن عبد العزيز إلى قائد جيشه :

(وَأَمْرُهُ ، أَنْ لَا يَكُونَ مِنْ شَيْءٍ مِنْ عَدُوِّهِ أَشَدَّ احْتِرَاسًا مِنْهُ لِنَفْسِهِ وَمِنْ مَعَهُ مِنْ مَعَاصِي اللَّهِ ، فَإِنَّ الذُّنُوبَ أَخْوَفُ عِنْدِي عَلَى النَّاسِ مِنْ مَكِيدَةِ عَدُوِّهِمْ ، وَإِنَّمَا نَعَادِي عَدُوَّنَا وَنُنْصِرُ عَلَيْهِمْ بِمَعْصِيَتِهِمْ ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ لَنَا قُوَّةٌ بِهِمْ لِأَنَّ عِدَدَنَا لَيْسَ كَعِدَدِهِمْ ، وَلَا عُدَّتُنَا كَعُدَّتِهِمْ ، فَلَوْ اسْتَوَيْنَا نَحْنُ وَهُمْ فِي الْمَعْصِيَةِ ، كَانُوا أَفْضَلُ مِنَّا فِي الْقُوَّةِ وَالْعِدَدِ ، فَإِنَّ لَا نُنْصِرُ عَلَيْهِمْ بِحَقِّنَا لَا نَغْلِبُهُمْ بِقُوَّتِنَا ، وَلَا تَكُونُوا لِعَدَاوَةِ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ أَحْزَرَ مِنْكُمْ لِدُنُوبِكُمْ ، وَلَا تَكُونُوا بِالْقُدْرَةِ لَكُمْ أَشَدَّ تَعَاهُدًا مِنْكُمْ لِدُنُوبِكُمْ)^(٢).

درسٌ لنا في قصة سبأ :

كان الخطاب الثالث في جامع المشهد أمام جمع كبير ، استفدت فيه من هذه الحقيقة التاريخية أن قوم سبأ ومملكة سبأ كانت لها صلة بأرض اليمن وتاريخها القديم^(٣) ، فقرأت عليهم قوله تعالى :

﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرُ سِيرُوا فِيهَا لِيَالِي وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا . . . ﴿ سبأ : ١٨ - ١٩ ﴾ .

ثم شرحت سبب نزولها وذكرت في تفسير الآية الكريمة ، أن من مواطن الضعف في طبيعة الإنسان أنه إذا استمرت به حال واحدة من النعمة والراحة

(١) يمكن للقارىء أن يطَّلِع على هذه الحكايات في كتاب سماحة الشيخ الندوي «إذا هبت ريح الإيمان» طبع منقحاً ومصححاً في دار ابن كثير - دمشق .

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لأبي عبد الله بن عبد الحكم (م ٢١٤ هـ) .

(٣) كانت عاصمة مملكة سبأ على بعد ١٧٣ كيلو متراً في شرق صنعاء ، وكان شعبها يمني الأصل .

والخير يملّها ويسأّمها - رغم ما تحمل له من لذة ورفاهية وراحة - ويريد التغيير والتبديل مهما كلفه من ثمن باهظ ، وجرّاً إليه البلاء والمحن ، وهذا هو الحال الذي أشار إليه القرآن الكريم بلفظة : «بطرت» :

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيْبَةٍ بَطَرْتِمْ مَعِشْتَهَا ۗ ﴾ [القصص : ٥٨].

وهذه هي قصة سبأ التي أنعم الله عليها بكل الخيرات ، وعبّد طرقها ، وملاها أمناً وراحة :

﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا قَرْيَةً ظَهْرَةً وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيًّ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴾ [سبأ : ١٨] ، فكفروا بهذه النعمة ولم يقدروها قدرها ، ﴿ رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا ﴾ [سبأ : ١٩].

قالو: إيش هذا السفر ، نخرج ، نأكل ونشرب ، ونتحدث ، وإذا بنا نصل إلى منزلنا؟ لا بُدَّ أن يكون السفر طويلاً ومع كلفة ومشقة ، فكان أن سلب الله تعالى منهم نعمهم وخيراتهم وجعلهم أحاديث ومزّقهم كل مُمزّق .

﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [سبأ : ١٩].

ثم عُدتُ من الماضي إلى الحال ، وقلت: إنني أشعر في كثير من البلاد الإسلامية والعربية ، والمجتمعات الإسلامية بوجود هذا المرض (البطر) ، فحيثما تلفتُ تسمع هتافاً بـ«هل من مزيد» ، «هل من جديد» ، وليس هتاف «هل من مزيد» بأشدّ خطراً من هتاف بـ«هل من جديد» ، ومهما كانت الأوضاع والظروف فإن أحب هتاف لدى الناس «عاشت الثورة» ، وليست هذه الهتافات إلاّ بمثابة أخطار وابتلاءات تحقيق بشعب أو بلاد ، فلا يبقى أيُّ تمييز بين الصالح والطالح ، والأمن والفساد ، والنصح والغش ، ولا يبقى أي تفكير في العواقب والنتائج ، إن هذا المنهج من التفكير وهذه النفسية المتقلبة التي لا تستقرّ على حال ، مُنذر خطر كبير ، وقد يؤدّي إلى مصير قوم سبأ من الدمار والهلاك :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كَفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴾

[إبراهيم : ٢٨].

لقاءات مع كبار مسؤولي الحكومة:

لقد تمّت لنا في صنعاء لقاءات مع كبار مسؤولي الدولة ، كان منهم رئيس الدولة علي عبد الله صالح ، الذي دعانا يوم الجمعة على الغداء بقصر الجمهورية ، وصلينا الجمعة مع الشيخ يحيى الغسيل وهو رئيس الهيئة العامة للمعاهد العلمية ، ويبدو أن بينه وبين رئيس الجمهورية علاقات طيبة ، وحضرنا الغداء بعد الصلاة ، وتحدث معي الرئيس في جلسة الغداء ، ورأيت فيه البساطة وعدم الكلفة ، وقد أبدى لي احتراماً وإكراماً كبيرين ، وأردت أن أقوم فطلب مني الجلوس مزيداً من الوقت .

وقمت من هناك إلى برنامج في التلفزيون والإذاعة ، وقد أشرت في حديثي بها إلى علاقاتي القديمة باليمن ، ولا سيما علاقتنا العلمية بأستاذنا الشيخ خليل بن محمد اليماني ، ونبهتهم لدى حلول شهر رمضان المبارك إلى استقباله اللائق وأداء حقه والاهتمام به .

وقد كانت لي لقاءات - سوى هذه اللقاءات - مع رئيس الوزراء عبد العزيز عبد الغني ، ووزير الخارجية الصبيحي ، وعدد من أعضاء البرلمان ، وكان الحديث مع كل واحد منهم في جوّ من الحرية والصفاء ، وأبدى كل واحد منهم الاهتمام بي وأكرمني ، ودام اتصالنا من بين العلماء بالقاضي عبد الرحمن محبوب ، والشيخ يحيى لطف الغسيل ، أولهما مشرف على مكتب التوجيه والإرشاد الذي هو مركز ديني للتوعية والإرشاد ، وثانيهما رئيس الهيئة العامة للمعاهد العلمية التي هي إدارة مسؤولة عن إقامة المدارس وإقامة الصلوات بينها ، والعناية بترقية التعليم ورفع مستواه في طول البلاد وعرضها .

الكتب الدعوية في اليمن وتأثيرها:

لقد استغربت في اليمن رغم قلة صلاتها بالعالم الخارجي ، وجود كثير من كتاباتي ورسائلي ، وقد قرئت على نطاق واسع ، وعندما خرجت لمقابلة بعض الشخصيات ، شاهدت على أبوابهم مكتبة صغيرة تشتمل على

كتبي ورسائلي ، كان منها كتابي «إذا هبَّت ريح الإيمان»^(١) وقد أخبرني بعض الثقات أنه لما زحفت جيوش اليمن الجنوبية إلى اليمن الشمالية وشنت عليها حملتها ، واستولت على بعض المواضع الحساسة ، وظهر للعيان أن حكومة اليمن الشمالية أصبحت مطوّقة لا تستطيع أن تقاوم ، وفتت في أعضاء المسؤولين ، ودبّ اليأس إلى نفوسهم ، عند ذلك قامت جماعة من الشباب كانت قد درست الكتب الفكرية والدعوية التي تُغذي العواطف الدينية ، وتؤثر على التفكير ، وتبعث على الجهاد في سبيل الدعوة إلى الله ، وغلبة الإسلام ، وتثير الشوق والحنين إليها^(٢) ، لقد كان هؤلاء الشباب على معرفة تامة بعزائم المهاجمين الاشتراكيين ونواياهم وما يُنتج استيلاؤهم وسلطتهم على البلاد ، وكانوا يعرفون أنهم لو حكموا البلاد فما للإسلام من ضمان وبقاء ، وليس إلى الحياة الإسلامية ، بل حياة العز والكرامة من سبيل ، فطلبوا من المسؤولين أن يمدوهم ببعض المعدات الحربية ويأذنوا لهم بالقتال ، ورأى المسؤولون أن هذا من تهوّرهم ، وقلة ممارستهم وتجاربهم ، وللشباب وقلة النضج حكم ، ولكنهم أصرّوا على موقفهم ، فأعطوهم عدداً من المدافع والمعدات الحربية الأخرى ، واليمن بلاد أحيطت بالجبال ، فاتخذوا معسكرهم على جبل من جبالها ، وهتفوا بالتكبير وبدؤوا الحرب ، ولقد نصرهم الله نصراً عزيزاً ، من حيث لا يحتسبون ، فهزموا الجيش الجنوبي واضطروهم للانسحاب ، وتغيّرت خريطة الحرب ، وحُميت اليمن الشمالية شرّ الشيوعية ، وخطر غزو اليمن الجنوبية .

صنعاء وما يجاورها من القرى :

لقد كان أصدقاءنا في صنعاء نظّموا لنا برنامجاً للتفرج خارج مدينة صنعاء ، من زيارة عاصمة مملكة سبأ وسدّ مأرب ، ويقع من صنعاء على

(١) طبع في المجمع الإسلامي العلمي بلكهنؤ (الهند) وفي دار القلم بالكويت ، وفي مؤسسة الرسالة ببيروت ، وفي دار ابن كثير بدمشق .

(٢) وقد سمّي من أخبر بذلك في هذا الصدد ثلاثة أسماء : الأستاذ سيد قطب ، والأستاذ أبو الأعلى المودودي ، وسماحة الشيخ الندوي ، وكانوا قد قرؤوا كتاباتهم وتأثروا بها وتكونت فكرتهم من خلالها .

١٧٣ كيلو متراً ، ولكن لم نستطع أن نستعدَّ لها لصعوبة السفر وضيق الوقت ، وأبدى المسؤولون استعدادهم لتخصيص طائرة هيلي كوبتر لهذه الزيارة ، ولكن لم يكتب لنا زيارتها ، ولم يُقَيِّضْ لنا في صنعاء أيضاً إلا زيارة قبر المحدث الجليل الشيخ عبد الرزاق بن همام الصنعاني^(١) الذي يقع على تلّ في جنب مسجد ، ولم يكن الوصول إليه - لوعورة الطريق وكثرة الأحجار - ميسراً إلا بسيارة جيب عسكرية ، فركبناها إليه ، وقرأنا الفاتحة ، ولم يتيسر لنا زيارة قبر العلامة محمد بن علي الشوكاني مؤلف «نيل الأوطار» - وهو من مشايخ سلسلتنا للإسناد - لأنه يقع بعيداً من صنعاء ، وشاهدنا قصر الإمام يحيى من الآثار التي تزار ، ويقع في حي في ناحية من أنحاء صنعاء ، والآثار التي تزار في صنعاء قليلة.

وأكثر الطرق وعرة وطينية غير معبّدة ، وقد تحاشى حكام اليمن (أئمة اليمن) رفع مستوى البلاد وترقيتها وتمدنها ، ولم يختاروا التنظيمات الصالحة ، والمدنية الجديدة النافعة ، والحاجيات الضرورية ، ورأوا إغلاق أبواب اليمن دون كل رُقِيّ حضاري ، ومدنيّ من المصلحة والسياسة ، ولكن الطبيعة البشرية قد عملت عملها ، وحدثت ثورة في اليمن ، واستولى عنصر المتجدّدين والشيعيين ، وسارع إلى تحديث اليمن وتطويرها ، وتغيرت الأوضاع ، وتقلبت على مختلف الأشكال ، حتى جاءت هذه الحكومة الحالية التي إذا لم تكن دينية الميول والمنهج ، فإنها لا تخالف الدين ، ولا تعارض العلماء ، وهم في جدّ وجهاد لترقية البلاد وترفيها ، تعبّد شوارع واسعة جيدة ، وتدخل التسهيلات العصرية ، ولوازم المدنية ، والتنظيمات الإدارية الجديدة في البلاد ، ولكن لا يُدرى مدى التخطيط والتنظيم الدقيق الذي يراعى فيها ، ومدى النجاح في

(١) من حفاظ الحديث والثقاة ، من أهل صنعاء ، كان يحفظ نحواً من سبعة عشر ألف حديث. له «الجامع الكبير» في الحديث ، قال الإمام الذهبي: «وهو خزانة علم» وكتاب في «تفسير القرآن» و«المصنف في الحديث» ويقال له الجامع الكبير ، حققه محدث الهند الكبير العلامة حبيب الرحمن الأعظمي ، توفي في صنعاء سنة ٢١١ هـ.

الاحتفاظ بالخصائص الإسلامية والخصائص اليمنية الصالحة للأجيال القادمة والنشء المسلم الجديد^(١).

كان المذهب الزيدي^(٢) سائداً في اليمن منذ زمن قديم ، ولا تزال آثاره باقية مشهودة ، ولكنك لا تجد فرقاً كبيراً في العبادات ، والاجتماع ، والأخلاق والمعاملات .

وقد وجدت في اليمن شيئين مشتركين - عدا المميزات السلالية والقبلية ، والسحنة المتشابهة - أحدهما الطريقة الخاصة للبس العمامة التي هي أقرب - فيما أرى - إلى عادة العرب القدامى ، وقد رأيت أستاذنا الشيخ خليل بن محمد اليماني البهوفالي دائماً ، يعتمّ بهذه الطريقة ، أما في نجد والمنطقة الشرقية فيضعون المنديل على الرأس ، وطريقة الحجازيين القديمة ، واليمنيين الحاليين أقرب إلى السنة المأثورة .

وثانيهما ، حمل الخنجر ووضع في الجنب ، ويسمونه «جَنْبِيَّة» وهو يختلف رخصاً وغلاءً وجودةً وبساطةً حسب حال الشخص ، ومستواه المعيشي ، وأصبح شعار اليمنيين ، ولا يستثنى منه العلماء والمشايخ ، وهكذا ظلّ الشعب اليمني شبه مسلّح .

جولة لمختلف مراكز اليمن وأثارها التاريخية :

وقد نظّم الأصدقاء في اليمن برامج الزيارة لعدد من أهم المدن التاريخية والمراكز العلمية القديمة ، ولكنهم لضيق الوقت اكتفوا بثلاثة منها «تَعَز»

(١) اقرأ للاطلاع على أوضاع اليمن وتاريخ تطورها الحديث ، والتعليق عليها كتاب «الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية» لسماحة الشيخ الندوي . طبع دار القلم الكويت .

(٢) يقول هذا المذهب بتفضيل سيدنا علي رضي الله عنه على الخلفاء الراشدين الثلاثة ، ولكنه يختلف عن المذهب الإمامي الإثني عشري فليس فيه عقيدة التبرّي من الشيخين وتكفير الصحابة واعتقاد ارتدادهم ، ولا المغالاة ضد أهل السنة والجماعة ، وقد ترك عدد من كبار المحدثين والعلماء المذهب الزيدي ودخلوا في أهل السنة والجماعة ، وخدموا الحديث الشريف خدمة جليّة .

التي تعد العاصمة الثانية لليمن ، و«زَيْد» التي كانت مركزاً حاز الشهرة العالمية لعلم الحديث واللغة ، و«حُدَيْدَة» التي هي أحد موانئ اليمن ، ومن كبرى مدنها ، وهي موطن شيخ مشايخنا الشيخ حسين بن محسن الأنصاري اليمني وأسرته .

سافرنا من صنعاء مع خمسة أو ستة من أصحابنا من علماء اليمن الفضلاء إلى «تَعَز» ، وكانت الطريق جبلية ، فكانت تسير أمامنا كدليل سيارة رائدة^(١) كان فيها عدد من الشرطة ، وقد كانت الطريق جميلة رائعة أخاذاً ، فكانت الجبال مكسوة بالخضرة ، والأودية مخضرة ناضرة يملؤها البهاء والجمال ، هي أهلة بالسكان ، وكان يخيل إلينا كأننا نمُرُّ بطرق «كشمير» .

قابلنا في «تَعَز» شخصين فاضلين من وجهاء تعز: الشيخ القاضي إسماعيل الأكوع ، والشيخ محمد علي الأكوع ، ودعا في تعز أحد كبار التجار من أهل الدين والفضل وجهاء الدين وأصحاب المناصب فيها وكبار المسؤولين إلى بيته ، وألقيت لهذه المناسبة حديث شكر وتوجيه ، وبدأ دورُ تناول «القات» بعد الغذاء حسب العادة المتبعة عندهم ، فاستأذنتهم واسترحت .

وكان لي خطاب بالمساء في المسجد الجامع (جامع المُظفَّر) حضره عدد كبير من علماء المدينة وأعيانها ، وقد اخترت لخطابي نظراً إلى الأوضاع العامة للبلاد الإسلامية والمجتمعات الإسلامية ، والأوضاع الخاصة باليمن - التي يحيط بها خطر استيلاء اليمن الجنوبية وغلبة الشيوعيين - كلمة فاتح مصر سيدنا عمرو بن العاص رضي الله عنه ، التي خاطب بها الجيش الإسلامي الفاتح والمسلمين عامة ، وجعلتها موضوع خطابي والنقطة الأساسية فيه ، وهي :

(إنكم في رباط دائم لكثرة الأعداء حولكم ، وتشوُّف قلوبهم إليكم) .

وأشرت في شرح هذه الكلمة إلى ضرورة الاستعداد المستمر ، والحدَر

الدائم من الأخطار والفتن ، واليقظة الدائمة والسهر على المصالح ،
وحذرتهم من الترف والسرف ، والمُيوعة والاسترسال إلى إشباع الرغبات ،
وحياة الدعة والراحة ، والانحطاط الخلقي ، والأمراض الاجتماعية ،
وشرحت بيتاً من شعر إقبال الذي معناه :

(تعالَ يا أخي أخبرك بسرّ مقادير الأمم والشعوب ، وسبب رقيها
وانحطاطها ، إنها تبدأ دورها بالسيوف والأسنة ، وتنتهي الحكاية بالمشايخ
والأغاني ، ورنات المثالث والمثاني ، والزخارف والأمانى).

ثم قصصت عليهم قصة ازدهار الدولة المغولية بالهند وسقوطها
وزوالها * فقد بدأت بفروسيتها وجدها وصبرها ، وفتوحها وانتصاراتها ،
وانتهت بترف محمد شاه وأخلاقه ، وبذخهم ولهوهم وطربهم .

وقرأت عليهم قوله تعالى مع تفسيره وتأنيده بوقائع من التاريخ :

﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾

[الإسراء : ١٦].

وخرجنا من تعز إلى «زبيد» ، وأفطرنا في بيت العلامة الشيخ سليمان بن
يحيى بن عمر بن مقبول الأهدل^(١) ، أحد مشايخنا اليمنيين في الحديث
الشريف ، حيث نزلنا في ضيافة أحد أفراد هذه الأسرة الشيخ الأهدل ،
وزرنا قبر العلامة مجد الدين الفيروزآبادي^(٢) وقرأنا الفاتحة ، وقد كان
مندوباً من الحكومة الإسلامية لهذه المنطقة ، ومات بها ، وقد أقام بهذه

(١) مولده ووفاته في زبيد ومن كتبه «وشي حير السمر ، في شيء من أحوال السفر» ذكر
فيه من أخذ عنهم من العلماء وله «مجموع في الأسانيد». توفي بزبيد سنة
١١٩٧ هـ.

(٢) أحد كبار أئمة اللغة والأدب ، ولد بكارزين من أعمال شيراز ، وانتقل إلى العراق ،
وجال في مصر والشام ، ودخل بلاد الروم والهند ، ورحل إلى زبيد سنة ٧٩٦ هـ
فأكرمه ملكها الأشرف إسماعيل وقرأ عليه ، فسكنها وولي قضاءها. وانتشر اسمه في
الآفاق ، حتى كان مرجع عصره في اللغة والحديث والتفسير ، وتوفي بزبيد سنة
٨١٧ هـ. له كتب قيمة ، ومن أشهرها «القاموس المحيط».

الأرض مفخرة الهند العلّامة السيد مرتضى البلكرامي (١٢٠٥ هـ) لرغبته الشديدة في إتقان علوم الأدب واللغة والحديث والبراعة فيها ، حتى لُقّب بـ«الزبيدي» ، ونسي كثير من أهل العلم والفضل ، أو غفلوا عن نسبته إلى قرية «بلكرام» في ولاية «أوده» في الهند ، وانتمائه إلى إحدى أسر الأشراف الشهيرة القاطنة في الهند .

وقد انتشر صيته في العالم العربي ، وطبّق الآفاق ، واعترف أهل اللغة وأصحابها بإمامته وجلالة شأنه في علوم الأدب واللغة ، وكان كبار الملوك والسلاطين يستنسخون كتبه ويرغبون في اقتنائها ، ويعتزون بالحصول على إجازته وشهادته^(١) ، وقد حاز بكتابه «تاج العروس شرح القاموس» اعتراف علماء العرب والعجم ، وإذعانهم له بالفضل والإمامة في معرفته وبصره باللغة وتحقيقه فيها ، ولا يوجد له نظير في قواميس أي لغة من لغات العالم ، وقد زرنا بها المسجد التاريخي القديم أيضاً .

وتوجّهنا من زَيد إلى الحُدَيْدة ، وشعرت بها بحُبِّ وانجذاب وأنس لكونها موطن أستاذي وشيخي الحبيب الشيخ خليل بن محمد اليماني ومشايخنا في علم الحديث الشريف ، وألقيت خطاباً موجزاً في مركز الدعوة والتبليغ بالحُدَيْدة ، وخطاباً آخر طويلاً في المعهد العلمي حيث أنشد الأطفال نشيداً ترحيبياً في لحن مؤثر شجي ، يتكرر فيه كلمة الترحيب بأبي الحسن ، وقد أفضت في الحديث هناك ، وذكرت علاقة شيخي الحبيب الأستاذ خليل بهذه المنطقة ، ثم تحدثت عن عالميّة اللغة العربية بفضل نزول القرآن الكريم كتاب الله الأخير بهذه اللغة وسعتها وقبولها ، وفتوحها العلميّة الشاسعة ، وشغف العجم بها وحبّهم لها ، وذكرت لهم بأنه يكفي مثلاً لذلك انصراف أحد علماء الهند السيد مرتضى البلكرامي المعروف بالزبيدي إلى شرح كتاب «القاموس»^(٢) لإمام اللغة العلامة مجد

(١) انظر ترجمته بالتفصيل في «الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام» للعلامة عبد الحي الحسني ، ج ٣ .

(٢) (معاجم) Dictionaries .

الدين الفيروز آبادي في ظرف ١٤ عاماً وشهرين في ١٠ مجلدات ضخمة لا نجد مثلها في أي لغة من لغات العالم .

ثم ذكرت العلامة عبد العزيز الميمني^(١) الذي مات قبل بضع سنوات ، الذي أخبرني عندما سألته كم تحفظ من الشعر العربي؟ بأنه يحفظ ما بين ٧٥ ألف إلى مئة ألف بيت من الشعر ، ويرجع السبب في ذلك إلى حُبِّ العجم للغة القرآنية وإيثارهم لها ، وشغفهم الزائد بها ، وأشرت لهم بهذا الصدد إلى وصية الإمام أحمد بن عبد الرحيم المعروف بولي الله الدهلوي التي تقدمت في الخطاب الأول بعمان ، ثم بيّنت علاقة الأنصار الذين كانوا يميني الأصل والمحتد ، بالرسول ﷺ ، وصلة الرسول ﷺ بهم ، ودعوتهم إلى الاعتزاز بهذه النسبة الكريمة ، وشكر الله تعالى عليها ، والاقْتباس من صفاتهم وخصائصهم ومميزاتهم .

ولعل القراء يشعرون بالإسهاب وإطالة النَّفس في الحديث عن اليمن ، فلا بأس ، فإنه حديث الحب والشوق فلا يلام على طوله .

ورجعنا من الجولة فمكثنا يومين في صنعاء ، وسافرنا في ٢١/ مايو من صنعاء إلى جدة ، وخرجنا يوم ٢٣/ مايو من جدة إلى كراتشي .

* * *

(١) قد مضت ترجمته .

رحلاتي إلى بنغلاديش وباكستان عام ١٩٨٤ م

بنغلاديش:

كانت الرحلة إلى بنغلاديش ما بين ٩ - ١٩ مارس ١٩٨٤ م قبل سفري إلى شرق الأردن ، والحجاز ، واليمن ، وكانت رحلة باكستان بعده في ما بين ٢٤ - ٢٨ مايو ١٩٨٤ م ، فكان ينبغي مراعاة للنسق التاريخي أن تُقدّم مذكرات رحلة بنغلاديش على مذكرات رحلاتي إلى شرق الأردن والحجاز واليمن ، وأن يذكر ما يتعلق بالإقامة القصيرة في كراتشي بعد هذه المذكرات ، ولكني رأيت من المناسب أن أذكر رحلاتي إلى البلدان العربية الثلاثة في باب مستقل واحد ، إذ إنها بلاد متجانسة متوافقة في اللغة ، ثم أسوق في الباب الثاني مذكرات رحلتي إلى بنغلاديش وباكستان .

من عجيب المصادفات ، بل من تقدير العزيز العليم أن وجهة أسفاري ورحلاتي ، ومجال جهودي ونشاطي العلمية والدعوية لم تزل نحو الغرب ، حيث قطعت المسافات الشاسعة إلى الجزائر ومراكش في جانب ، وإلى أمريكا وكندا في جانب آخر ، وانحصرت دنياي في جهة الشرق إلى كلكتة كبرى المدن في شرق الهند ، ولانستثني من هذا العموم إلا بورما وسري لنكا ، التي قمت بزيارتها بعد طلب مُلحّ شديد ، إلا أنني لم أجاوز في الشرق أكثر من تلك المدينة .

ومن المعلوم أن صلة حركة الإمام السيد أحمد بن عرفان الشهيد وخلفائه وأصحابه ودعوتهم وجهودهم قديمة قوية بينغال الشرقية (دكا وشيتا غونغ) ، فقد كان أحد خلفاء الإمام الشهيد الشيخ كرامت علي الجونفوري

اتخذ بإرشاد من الإمام وأمره منطقة بنغال الشرقية مجالاً لجهوده الإصلاحية والدعوية ، وحقّق فيها نجاحاً باهراً عظيماً لا يتفق إلاّ بتأييد من الله تعالى ونصره لعباده المخلصين من الدعاة المصلحين ، وقد سمعت أذناي الأمير بهادريارجنك أحد كبار القادة والخطباء في الهند قبل التقسيم ، وهو يخطب :

(إنّ عدد المستفيدين والمسترشدين ، والذين صلحت أحوالهم وحسن إسلامهم واهتدوا على أيدي الشيخ الجونفوري يبلغ - حسب علمي - إلى عشرين مليوناً من البشر). وكنت أسمع في صغري عن كبار مشايخ أسرتي أنهم يسافرون إلى «دكا» ، ولكن ضمّت هذه المنطقة من بنغال الشرقية إلى باكستان عام ١٩٤٧ م ، ثم انفصلت عنها عام ١٩٧٢ م ، ولم يقدر لي السفر إليها ، وقد أبدت - بكل صراحة - مشاعري المكرومة وانطباعاتي الحزينة الكثيرة عن تلك المأساة اللغوية والحضارية التي كانت سبب انفصال هذا الجزء عن باكستان في مختلف خطبي ومحاضراتي ، كان منها ذلك الخطاب القوي الصريح المثير الذي ألقته بمدينة كلكتة في ٢٣/ مايو عام ١٩٧٢ م ونشر بعنوان: «مأساة الجاهلية اللغوية والحضارة ودروسها»^(١) في اللغات الأردية ، والعربية ، والإنكليزية ، والبنغالية ، والذي حملته الحجاج البنغاليون من مكة المكرمة إلى بنغلاديش ، وكان له تأثير ومفعول كبير .

ضرورة إيقاظ الشعور الديني والحمية الإسلامية ومقترحات إيجابية ببناء:

وقد كان لازماً بعد إبداء رأيي الصريح في هذه المأساة الأليمة ، وما شعرت به من ضيق وألم وقلق شديد ، أن أضمد جراح هذا الشعب المسلم - الذي خلف آثاره المجيدة الرائعة ، وأثبت جدارته وكفاءته في حميته الدينية ، وخدماته الإسلامية ، وعواطف التضحية والفداء والجهاد ، وترك أمثلة نادرة لا يوجد لها نظير من الإيمان والعزيمة والبطولة إلاّ في

(١) انظر هذا الخطاب في كتاب «محاضرات إسلامية في الفكر والدعوة» للعلامة أبي الحسن علي الحسيني الندوي في الجزء الثالث .

حركة السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد - وأشير عليه بما أرى في مصلحته من توجيهات ومقترحات إيجابية بناءً ، وأرفع حميته الإسلامية التي تسري في شرايينه وعروقه إلى الحركة والعمل والبناء من جديد ، وأن يوقظ شعوره ووعيه الفكري والعقلي حتى لا يصاب مرة ثانية بالوقوع في شبكة الدعوة الجاهلية والنعرات القومية والمآسي المخزية الأليمة ، فإن الإنذار والتبشير توءمان ، ويجب على الداعي أن يراعيهما ، ولا ينفك عن أي واحد منهما .

وكان عدد من الأصدقاء في بنغلاديش يلحون عليّ منذ أعوام لزيارتها ، وقد قرئت هناك مؤلفاتي ورسائلي الأردنية والعربية في رغبة وشوق وإعجاب ، كما كان هناك عدد من خريجي دار العلوم ندوة العلماء ، لا سيما العالم الشاب الأستاذ سلطان ذوق الذي كان مدرساً في الجامعة الإسلامية بفتية شيتا غونغ ، وله ذوق أدبي للغة العربية ، وبصفة خاصة الأدب الإسلامي وبصورة أخص بشعر الدكتور محمد إقبال ، وكان له اهتمام زائد لأجل ذلك بكتابي «روائع إقبال» وكانت له صلة مراسلة قديمة بي ، وقد زار ندوة العلماء وأقام بها مدة من الزمن ، وكان على رأس المهتمين بهذه الزيارة .

وأخيراً جاءت مناسبة طيبة ، وقررنا السفر إلى بنغلاديش بدعوة من بعض جامعاتها الإسلامية الكبيرة ، وبعض الجمعيات الأخرى ، وخاصة المؤسسة الإسلامية (Islamic Foundation) بدكا ، وسافرنا مع جماعة من الرفاق ، فيهم الشيخ عبد الكريم باريكه الناكبوري^(١) ، والشيخ أبو العرفان الندوي^(٢) ، والعزيز السيد سلمان الحسيني الندوي ، ومرافقي ومساعدتي

(١) أحد كبار علماء الهند المعاصرين ، له ترجمة للقرآن الكريم باللغة الأردية ، وغيرها كتب مفيدة بها .

(٢) أحد كبار علماء الهند ، وأحد أساتذة دار العلوم لندوة العلماء البارزين ، ووكيل كلية الشريعة بها ، كان من خير من يمثل الثقافة الندوية - التي تجمع بين التاريخ والأدب ، والعقيدة والكلام ، ومعرفة طبقات الرجال ، وتمتاز بالسعة والمرونة والاعتدال والإنصاف والخبرة بواقع الحياة - وكان من يمثل دار العلوم لندوة العلماء في =

في أكثر جولاتي الحاج عبد الرزاق الرائي بريلوي ، ووصلنا يوم الجمعة ٩/ مارس ١٩٨٤ م بعدما أقلعت بنا الطائرة من مطار لكهنؤ مروراً بمطار كلكتة إلى دكا ، قرب غروب الشمس ، ونزلنا في بيت الشيخ بشير الدين (صاحب شركة Jameeluddin Limited Company) رقم ٣٦ نيواسكاتن دكا ، وهو تاجر خيّر ، ينزل عنده أكثر العلماء الضيوف في دكا .

أقمنا في بنغلاديش عشرة أيام من ٩ إلى ١٩/ مارس ١٩٨٤ م ، زرنا فيها دكا ، وشيتا غونغ ، وكوكس بازار ، ومومن شاهي (ميمن سنغ) ، وسلهت والمناطق الرئيسية بها ، وألقيت خطابات في اجتماعات كبيرة ، وزرنا المدارس الإسلامية ، وذهبنا في جولتنا في منطقة شيتا غونغ وكوكس بازار إلى «نهيلة» التي تقع على حدود بورما ، وسمع بنا هناك أهالي بورما من المسلمين ، فحضر كثير منهم إلى الاجتماع الذي عقد هناك ، وزرنا أثناء إقامتنا بدكا «سناركاؤن» التي كانت آخر الحدود الشرقية للدولة الإسلامية القديمة ، ومن هناك يبدأ الشارع الطويل الذي بناه الملك شير شاه السوري ، والذي يصل إلى «نيلاب» بالسند ، وقد سميت هذه المنطقة باسم «بينام»^(١) في مديرية دكا .

الحاجة إلى قدر نعمة الإسلام والشكر عليها :

كان أول خطاب لي يوم ١٠/ مارس ١٩٨٤ م في الجامعة الإسلامية بفتية شيتا غونغ ، كان عنوانه : «الحاجة إلى قدر نعمة الإسلام والشكر عليها»^(٢) وقد ذكرت فيه بعض الحوادث الماضية ، وشددت النكير على انتهاك الحرمات ، وتناسي نعمة الإيمان ، وصلة الإسلام ، وحقوق المسلم ،

= الملتقيات العلمية ، التي تعقدها الجامعات والمجامع العلمية ، فترك أثراً حسناً عند أهل العلم ، ويرسم صورة لائقة لعالم عصري واسع الثقافة ، كان سماحة الشيخ الندوي يحبه ، ويعطف عليه كثيراً ، توفي رحمه الله بلكهنؤ سنة ١٩٨٨ م .

Painam. (١)

(٢) انظر هذا الخطاب في «محاضرات إسلامية في الفكر والدعوة للعلامة أبي الحسن علي الحسيني الندوي» .

واحترام نفسه وعرضه وماله ، واستنكرت تلبية كل نعمة وهتاف ، والاندفاع وراء كل حركة ودعوة ، وبيّنت خطر ذلك على الدين والأمة الإسلامية ، فلا يجوز الإعجاب بكل ما يبهر الألباب ، ويخدع النفوس ، وينفّس عن العواطف المكبوتة ، وتلوت عليهم بعض قصص بني إسرائيل التي تشبه هذه الحوادث والأدواء الخلقية ، وانتقدت الجاهلية القومية واللغوية والسُّلالية التي تصل إلى حد الكفر والظلم والعُدوان ، والضراوة بالدماء وقتل المسلمين الأبرياء .

خطاب مُهمّ في المؤسسة الإسلامية :

وكان أهم خطاباتي هو ما ألقيته في حفلة الترحيب التي عقدتها المؤسسة الإسلامية - لبنغلاديش - في ١٣/ مارس بفندق «بورباني» ، وكان فيها الغداء أيضاً ، وقد حضره أعيان دكا ، وكبار رجالها ، وقد اهتم مدير المؤسسة بهذه الحفلة ، ودعوة الشخصيات الكبيرة لها ، اهتماماً بالغاً ، وألقى خطابه الترحيبي .

كان موضوع هذا الخطاب «الفتح للحبِّ الصادق والإنسانية المخلصة»^(١) ، وقد تناولت في هذا الخطاب الخصائص والمميزات التي امتاز بها الشعب المسلم عن غيره من الشعوب والأمم؛ من الإخلاص ، والعاطفة الإيمانية ، وعاطفة التضحية والفداء ، والبساطة ، والشجاعة ، وإن من المؤسف أن هذه الصلاحيات والخصائص التي هي منح ربّانية ومعجزة إسلامية مهمة مُعطّلة ، لا تُستغل ولا تُستخدم فيما كان ينبغي أن تستخدم فيه ، فلا تُسقى بهذا الشلال الإيماني الفطري ، وهذا الماء الشفاف الجاري من الحب والانقياد ، الحقول والزروع ، ولا تولد منه القوة الكهربائية التي تحلّ المشاكل المُعقّدة ، والتي يُحوّلُ بها الشعب لا إلى الذهب بل إلى الأكسير ، وتولد منه قوة جديدة لا في هذه البلاد فحسب بل في العالم الإسلامي كله .

(١) انظر هذا الخطاب بكامله في «محاضرات إسلامية في الفكر والدعوة للعلامة أبي الحسن علي الحسيني الندوي» .

ولكن ليس هذا عمل القادة السياسيين ، بل هو عمل المخلصين أصحاب القلوب المؤمنة ، وإن من الضرورة بمكان أن يُردم الخليج الواسع الذي يتسع ويعمق على مرّ الأيام بين الطبقة القديمة والطبقة الجديدة ، وبين العلماء وخرّيجي الجامعات العصرية ، وأن تتكاتف الطبقات في مجال الخدمة الإسلامية ، وأبدتُ آمالي الكبيرة في المؤسسة الإسلامية أنها ستقوم بإخراج المكتبة الإسلامية المعاصرة للطبقة العصرية المثقفة في لغتها وأسلوبها ، فهي نجمة تتألق ، ويرجى منها الخير الكثير .

الحاجة إلى براعة علماء الدين في اللغة البنغالية وقيادتهم للشعب المسلم :

وعقد احتفال كبير في الجامعة الإمدادية بكشورغنج في ١٤/ مارس ١٩٨٤ م في ساحة واسعة كبيرة ، حضره عدد كبير من العلماء والطلّاب والمثقّفين ، ألقى فيه خطاباً ، ووجهت فيه دعوة قوية إلى العلماء للتبريز والبراعة في اللغة البنغالية ، ومكانة الإمامة فيها ، وأن لا يرگزوا كل صلاحياتهم وملكاتهم على الأردية والعربية ، بل إنه يجب عليهم أن يتفوّقوا على أقرانهم في لغة البلاد ، وأشرت إلى الأخطار الكبيرة التي تكمن في قيادة الطبقة «التقدّمية» العلمانية ، والعناصر المناوئة للإسلام وللأدب واللغة واستيلائها عليها ، وتخلى العلماء وأصحاب الدين عن هذه المهمة والزعامة الأدبية واللغوية الكتابية والخطابية ، ووصفت لهم بهذا الصدد ميزة علماء الهند الذين لم يزالوا على صلة قوية باللغة والأدب ، بل أثبتوا قيادتهم فيها ، واقتدارهم على الأساليب الأدبية الجديدة ، فلم يتخلّفوا لأجل ذلك عن ركب العلم والأدب والثقافة ، فقد كان هناك أربعة أعمدة للأدب الأردني كلهم كانوا من خرّيجي المدارس الإسلامية القديمة^(١) .

لقد كانت هذه التوجيهات والآراء بعكس ما كان يتوقّعه كثير من الحضور

(١) وهم الشيخ أطاف حسين حالي ، والشيخ محمد حسين آزاد ، والشيخ نذير أحمد ، والعلامة شبلي نعماني .

والمستمعين ، فلم يكونوا يرجون أن يقوم أحد الدعاة إلى التعليم الديني وإتقان اللغة العربية ، والممثل المتحمس للمدارس والجامعات الإسلامية ، بصرف العناية إلى الاهتمام باللغة البنغالية التي تسببت في مأساة وأي مأساة ، وقد كان هذا الخطيب قد ألقى خطاباً حماسياً شديداً ضد هذه العصبية اللغوية لم يسمعه الناس من غيره ، ولكن الذي قلته هناك كان مؤسساً على نُصح وإخلاص ، وواقعية ودراسة للأوضاع ، وكان يؤيده تاريخ العلم والأدب وتجارب مختلف البلدان والمجتمعات ، ولا يجوز لبنغلاديش - التي ستبقى لغتها البنغالية لغتها الأم - أن تغفل هذه الحقيقة والواقع ولا بد لأهل العلم وأصحاب الدين أن يستعدوا لها ، ويتملكوا زمامها .

مصير هذه البلاد مرتبط بالإسلام وهي ملكه الدائم :

كان يوم الجمعة ١٦/ مارس ١٩٨٤ م ، وكان علينا أن نصلي بالناس الجمعة في مسجد «بيت المكرم» بدكا ، وكان الرئيس الجنرال محمد إرشاد يصلي الجمعة في هذا المسجد . وقد ألقى فيه خطاباً بالأردية قبل خطبة الجمعة ، صارحت الناس فيه بأن مصير هذه البلاد مرتبط بالإسلام ارتباطاً وثيقاً ، وقلت لهم إن الحُكَّام والأمراء قديماً كانوا يقطعون إقطاعات لأناس ، فكانت تخصّهم وتُعيّن لهم (Allot) ، وإذا أراد آخر أن يسطو عليها كان ذلك إعلاناً بالحرب ضد الحاكم أو الأمير ، كذلك فلتعلموا أن هذه الأرض أرض بنغلاديش مُنحت للإسلام ولمحمد ﷺ ، فأبي تغيير في هذا الوضع وأي إجراء لتقديم هذه البلاد إلى أيدي أخرى وسلطة أخرى ، ونصب راياتها وأعلامها بها ، خروج وبغي ضدَّ الله ورسوله ﷺ ، وعدوان أئيم ضدَّ الإسلام ، وإن من تقدير الله تعالى لهذه البلاد أن تبقى مسلمة ، وإن سلامة هذه البلاد وبقائها وصيانتها تعتمد عليه ، إنني أقول لكم بصراحة وأنا على منبر هذا المسجد: إنه لا يمكن أبداً أن تنعم هذه البلاد بالرفاهية والرخاء ، ويقرّ لها قرار إذا تخلّت عن الإسلام أو أضعفت صلتها به ، وإنه لا يحفظها ولا يدافع عنها أي تخطيط أو تصميم (Plan) أو مشروع (Project) أو مساعدة (Aid) داخلية أو خارجية ، أو جنود أو

حُرَّاس ، أو أي قوة داخلية أو خارجية ، ألا فليشهد الكاتبون وليسمع السامعون .

ثم أشرت عليهم بما يحفظ كيانهم الإسلامي ، ويحفظ على النَّشء الجديد إيمانهم وصلتهم بالتعاليم الإسلامية والحياة الإسلامية ، وأكّدت على ذلك حتى تستمرّ هذه السلسلة الإيمانية الدينية العقيدية والعملية .

لم يكن هذا الخطاب مؤسساً على احتمالات أو مفروضات وأخطار بعيدة ، بل كنت قد سمعت أثناء إقامتي ببنغلاديش أنه زار أحد الأدباء من غير المسلمين من بنغال الغربية هذه البلاد ، فقامت هذه البلاد وقعدت ، وبالغ أدباؤها المسلمون وفضلاؤها ومثقفوها في استقباله وإكرامه وإحلاله من قلوبهم ونفوسهم ، كأنه مَلَكٌ نازل من السماء ، هذا عدا ما يتوسّمه ، بل يقرؤه كل أحد من كتابة بارزة ، تدل على أنه لو بقي الشاعر طاغور^(١) - الذي لا يزال يذكره كثير من المسلمين بلقب «تهاكر»^(٢) ، والذي تتمتع بشعره وقصصه - يسحرُ النفوس ، ويغلب العقول ، فإنه ستبقى هذه البلاد أسيرة عقلياً وفكرياً لبنغال الغربية ، وتخضع لأفكارها وتصوراتها كخضوع كثير من بلدان أوربة وآسيا للبلاد اليونانية ، وعبوديتها لها في العقلية والتفكير ، التي انتشر منها الإلحاد ، والارتياب ، والعقلانية الجامحة في الأوساط المسيحية والإسلامية .

وقد سُررنا جداً أن المؤسسة الإسلامية أزمعت على نشر الكتاب الإسلامي والأدب الإسلامي ، وقد خططت لذلك تخطيطاً جيداً ، وقامت بترجمة العديد من كتاباتي التي طبعها المجمع الإسلامي العلمي بلكهنو الهند ، ولكن هذه الحركة - حسب ما علمنا - بطيئة تحتاج إلى عناية مزيدة واهتمام أكثر .

(١) الشاعر الهندي المعروف رابندرناث طاغور كان من أعلام الأدب العالمي ، وامتاز شعره بروح الوطنية ، نال جائزة نوبل سنة ١٩١٣ م ، مات في سنة ١٩٤١ م . له «ذكريات» و«قربان الأغاني» ورسوم وأناشيد .

(٢) لقب تعظيم واحترام في اللغة الهندية .

خطابات زملائي في السفر:

وقد استمرت أثناء إقامتنا بينغلاديش سلسلة خطب ومحاضرات لزملائي الثلاثة: الشيخ عبد الكريم باريكه ، والشيخ أبو العرفان الندوي ، والعزيز السيد سلمان الحسيني الندوي في مختلف المراكز والمدارس ، وكانت لها فائدة كبيرة ، فالشيخ عبد الكريم له قدره فائقة على بيان معاني القرآن الكريم وتسهيلها وعرضها للجُمهور ، وألقى في ضوئه خطاباً مؤثرة نافعة ، والشيخ أبو العرفان الندوي يمتاز بالدراسة الواسعة للمناهج الدراسية القديمة ، وتاريخ المنهج النظامي وواضعيه وكبار المؤلفين فيه ، وتاريخ الهند الإسلامية بصفة عامة ، قلّ من العلماء من له بصر في هذا الموضوع كالشيخ أبي العرفان ، فكانت محاضراته في ندوات العلماء وطلاب المدارس الإسلامية واحتفالاتهم مفيدة نافعة ، أما العزيز سلمان الندوي فله القدرة على اللغتين العربية والأردية على السواء ، وكانت له خطب بالعربية في المدارس الإسلامية ، وهكذا فقد كانت هذه الجولة موفقة نافعة لمختلف طبقات المجتمع البنغالي ، وكانت فيها مراعاة لمختلف الأوساط العلمية ، وتنوع في مواضيع الخطب والمحاضرات .

وقد توجّه هذا الوفد راجعاً بالطائرة في ٢٠/ مارس إلى كلكتة ، وقد تمّتّعنا في رحلتنا هذه بصحبة الأستاذ سلطان ذوق ، والأستاذ أبي الفائد محمد يحيى مدير المؤسسة الإسلامية ، والشيخ بشير الدين ، والشيخ عبيد الحق رئيس المدرسة العالية بدكا ، وابنه العزيز سعود الحق الندوي ، والشيخ محيي الدين رئيس تحرير صحيفة «المدينة» ، وضيافتهم ، ومساعدتهم في أمور السفر ، فجزاهم الله تعالى خير الجزاء .

أربعة أيام في كراتشي باكستان وأعمال شاغلة:

كنا قد رجعنا في ٢٠/ مايو ١٩٨٤ م من صنعاء إلى جدّة ، وقضينا بها يومين في اللقاءات والاجتماعات والحصول على تأشيرة الدخول لباكستان ، وسافرنا في ٢٣/ مايو إلى كراتشي ، وبما أن شهر رمضان كان قريباً ، ومن عادتي أن أصوم رمضان في قريتي راي بريلي ، حيث يجتمع

ضيوف من مختلف الأنحاء ، ويقضون هذا الشهر معي في قريتي ، فلم يكن لي متسع من أيام أفضيها في باكستان وأزور فيها مختلف المناطق ، وكانت عندنا فرصة أربعة أيام قضيناها في كراتشي وحدها ، وكانت هذه الرحلة الثانية إلى باكستان بعد ١٩٧٨ م ، العام الذي زرت فيها باكستان لحضور المؤتمر الآسيوي الذي عقدته رابطة العالم الإسلامي بباكستان ، وكنت آنذاك زرت عدداً من المدن .

كانت لي أثناء هذه الإقامة لأربعة أيام ستة خطابات كانت كلها في احتفالات مهمة ، وأمام صفوة مختارة ، وقد كانت باكستان حينذاك تمر بمرحلة سياسية عصبية ، وقد هدأت قريباً مظاهرات الطلاب (بما فيهم أعضاء جمعية الطلبة الإسلاميين) واحتجاجاتهم ، وفتحت الجامعة بعد إغلاقها لمدة طويلة ، وكانت الأوضاع السياسية والاجتماعية لا تقلق أهل باكستان فحسب ، بل تقض مضاجع جميع المخلصين وأصحاب الدعوة والفكرة في الأمة الإسلامية ، فقد قامت باكستان وبرزت إلى الوجود بعد جهود عظيمة جبارة ، وعلقت عليها آمال كبيرة ، وقد دفع المسلمون في شبه القارة الهندية - طوعاً أو كرهاً - ثمنها الباهظ الضخم .

ولما علم أصدقاؤنا في باكستان والمهتمون بقضايا الأمة الإسلامية وهذه الدولة المسلمة الناشئة - بصفة خاصة - بمقدمنا إلى باكستان ، بدأت الدعوات تطرأ للإلقاء كلمات وخطابات في مختلف المراكز والجمعيات ، ولم يكن بالمستطاع تحقيقها وتليية جميعها ، إلا أنه لم يكن مناص من قبول بعض منها .

وقد كانت خلاصة هذه الخطب كما جاءت في تقديم زميلي القديم الفاضل الأستاذ محمد ناظم الندوي لكتابي: «تحفة باكستان» - وهي مجموعة خطبي ومحاضراتي لباكستان - مما يلي :

- ١ - إشارة إلى أعمال أعداء الأمة الإسلامية وتحركاتهم .
- ٢ - إبراز الشخصية الإسلامية في باكستان التي هي سبب قيامها وبها بقاؤها .
- ٣ - انتقاد جانب يلفت النظر في الحياة الاجتماعية بباكستان ، وهو الإسراف .

والتبذير ، وارتفاع مستوى المعيشة ، وكثرة وسائل الترفيه والتنافس فيها ، مما أنتج مفاسد اجتماعية وأمراضاً خلقية كثيرة ، وقضايا متشعبة معقدة .

الحاجة إلى إقامة مجتمع إسلامي على نطاق الشعب كله والبلاد كلها :

كان الخطاب الأول في جامع بنوري تاون الكبير قبل خطبة الجمعة ، ويحضر هذا المسجد عدد كبير من العلماء والأعيان والطلاب ، وكان عنوان الخطاب : «الحاجة إلى إقامة مجتمع إسلامي على نطاق الشعب كله والبلاد كلها» وقد بيّنت فيه بتفصيل أن الناس لدى البعثة المحمدية - على صاحبها الصلاة والسلام - وطلوع الإسلام ، لم يكونوا قد فقدوا بعض الأمثلة الطيبة من الصلاح الفردي والأخلاق الطيبة ، فقد أشار إلى ذلك القرآن الكريم ، فقد قال الله تعالى :

﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتَّبِعُونَ آيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّا آتَيْنَاهُم مِّنْ سَبْحَتِهِمْ يَوْمَئِذٍ خَافُوا جَلْدَةَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ لِيَكُونَ لَهُمْ عِلْقَانٌ إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَسْحُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [آل عمران : ١١٣ - ١١٤].

ولكنه لم يكن لأولئك الأفراد تأثير على المجتمع البشري المعاصر ، ومدنية ذلك العصر ، والميول والطبائع ووجهة الحياة السائدة ، فقد كانوا كاليراعات في الليلة البهيمية الظلماء ، وكانت الحاجة إلى قيام مجتمع إسلامي صالح على مستوى الشعب والبلاد ، ليكون مجتمعاً مثالياً يقتدى به ويقود ركب الحياة ويدعو إلى التغيير والإصلاح .

ولذلك كانت نبوة محمد ﷺ وبعثته بعثة مقرونة على تعبير الإمام الدهلوي ، فقد بُعثت معه أمة بكاملها ، وأقامت مجتمعاً إنسانياً إسلامياً حراً مثالياً ، لم يكن ممثلوه يأوون إلى الكهوف والمغارات لينقطعوا عن الناس ويشتغلوا بخاصة نفوسهم ، بل كانوا يحكمون الأرض ، ويسودون العالم ، ويضطلعون بمسؤوليات الدولة والأموال والقوى والطاقات ووسائل

الكسب ، والتجارة والصلات مع العالم الخارجي ، فقدّموا مثلاً جديداً ناجحاً للحياة. وإن العالم لا يتأثر ولا يضطر للتفكير والتأمل في دعوة أو نظام إلا إذا كان له تطبيق وتنفيذ صحيح على النطاق العالمي أو على مستوى الشعب والمدنية والمجتمع على الأقل ، الذي يشاهد بالعيان ولا يحتاج إلى برهان ، وعندئذ تشعر الشعوب والبلدان بما يمتاز به الإسلام من تأثير على مجال الحياة ، وتغيير للمجتمعات ، وإنارة للقلوب البشرية وتصفية للنفوس الإنسانية ، وما تحقّقه التعاليم الربانية والشريعة الإسلامية من اتزان وسلام وأخلاق عالية وحياة صالحة ، وإنه إذا لم تتحقق هذه المظاهر الصالحة فلا يلتفت أي جانب من جوانب العالم الإنساني إليه ، فضلاً عن الإنسانية كلها.

لقد قامت بلادكم هذه على هذه الدعوى أنكم سوف تقيمون مجتمعاً إسلامياً صالحاً ، وتقدّمون مثلاً طيباً ، ولكن انظروا إلى أي حدّ تحققت هذه الدعوى وإلى أي مدى نجحتكم في هذا الاختبار؟ .

المجتمع الصالح القوي أساس الحضارة والسلطة ومنبعها الأصيل:

نظم مؤتمر العالم الإسلامي بتاريخ ٢٥/ مايو حفلة ترحيب وعشاء في أكاديمية بهادرياجنك ، وكان صاحب الدعوة لها صديقنا الدكتور إنعام الله خان (العضو التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي والأمين العام لمؤتمر العالم الإسلامي) ، وقد حضرها عدد كبير من كبار المثقفين والفضلاء والأعيان والوجهاء ، ليس على مستوى كراتشي فحسب بل على مستوى باكستان كلها وقد أقيمت فيها محاضرة أثبتت فيها في ضوء الوقائع التاريخية والحقائق وبشهادات من علم الاجتماع وعلم الأخلاق والسياسة ، أن المجتمع الصالح القوي هو أساس الحضارة والسلطة ومنبعها الأصيل . وقد أشرت في هذا الصدد إلى الأسباب والدوافع النفسية لقبول التتار الإسلام ، وهو ما امتاز به المسلمون وفاقوهم في الجوانب الروحية والخلقية والعلمية ، وذكرتُ السبب الحقيقي وراء بقاء الدولة المسلمة في السلطة والسيطرة إلى

هذه المدة الطويلة في الهند ، كما ألمحت أيضاً إلى درس الربانيين المرشدين ، والعلماء المصلحين ، والدعاة المرابين في صيانة المجتمع الإسلامي من الانهيار الكامل والدمار التام ، وصرحت أخيراً بأن تاريخ الجمهوريات الرائعة يدل أيضاً دلالة واضحة على أن المجتمع إذا فسد وانحرف ذهب تلك الجمهوريات أدراج الرياح ، وقُضِيَ على ازدهارها وإمكانيات رقيها وبقائها وأصبحت حديث كان .

مسئولية السلطة الإسلامية الصالحة ، وبركتها وخيرها :

نظمت حفلة كبيرة في ٢٧/ مايو من قبل نادي فاران في فندق كراتشي المعروف «متروبول» (Metropol) حضرها عدد كبير من الوجهاء ، والأعيان والمسؤولين والمثقفين .

وقد كانت النقطة المركزية التي دار حولها الحديث هي «مسئولية السلطة الإسلامية الصالحة وبركتها وخيرها» ، وضربت فيها أمثلة متعددة للمجتمع الإسلامي الصالح ومميزات الشعب الذي يستأهل الحكم والسيادة ، وجهوده وتضحياته وإخلاصه وإيثاره وزهده وتقشفه ، وقلت إنه لا بد من تقديم نماذج صالحة للحياة الصالحة ، وليست الحياة إلاّ عبارة عن الحركة والعمل ، والنشاط الحماس ، فالبلاد التي تمثل هذه الحياة تستحق مكان العز والكرامة بين الأمم والشعوب .

حُبُّ الجاه والحرص على السلطان أكبر خطرٍ على أيّ شعب أو أمة :

وصرحت للحضور بأن الخطر الأكبر الذي أشعر به في بلاد حُرّة مستقلة تملك زمام أمورها ، هو الهيام بالجاه والسلطان ، والتهافت على المناصب والسلطة الذي نخر في الشعوب والأمم وقضى عليها . إنكم تعلمون جميعاً أن الأضرار والخسائر التي لحقت بالبلاد والدول الإسلامية كانت عن طريق الانتهازيين والنفعيين ، فمن عهد الدولة العباسية إلى الدولة المغولية ، إلى عهد السلطان تيبو ، كان هؤلاء الانتهازيون يلعبون دورهم ، وهم الذين قَصَّوا على هذه الدول ، ثم الخطر الثاني يكمن في العصبية الإقليمية

واللغوية ، إنها أخطر حقيقة واقعية تواجهها بلادكم ، ويجب عليكم أن تتنبهوا لها .

شعور الشباب بمسؤوليتهم وسيطرتهم الخلقية على أنفسهم صمام أمان للدولة :

كان لي خطاب يوم ٢٦/ مايو في جامعة كراتشي أمام طلبتها وأساتذتها ومسؤوليها ، وكان يرأس الحفل نائب رئيس الجامعة الدكتور جميل جالبي^(١) ، وقد كنا سمعنا بما وقع من أبناء الجامعة في مظاهراتهم ، ومرت بأنظارنا لافتات وكتابات على جدران الجامعة تدل على طيشهم وتهورهم وكراهيتهم الشديدة لمسؤولي الدولة ، من كلمات وعبارات شائنة جارحة حتى في حق الرئيس ضياء الحق ، وساءني هذا المنظر وقراءة هذه اللافتات ، وتوجه الخطاب لأجل ذلك إلى موضوع سيرة الشباب وصلاحهم ودورهم القيادي ، وذكرت لهم ماهي السيرة المطلوبة والدور المرتقب منهم الذي يستطيعون به أن يحفظوا البلاد ، ويساهموا في رقيها ورفع مستواها ، وقلت : إنني لو وصف لي شخص بلداً ، وقال إنه يملك القوة العسكرية الهائلة ، والاقتصاد العادل المحكم ، والصلات الطيبة بالقوى العالمية الكبرى ، ولها إكبار واحترام في نفوس أهلها ، فسوف أسأله : إلى أي مدى يشعر فيها الشباب وطلاب الكليات والجامعات ، والنشء المثقف الجديد بمسؤوليتهم ، وإلى أي حد بلغ تملكهم لزام نفوسهم وعواطفهم وكبحهم لجماعهم ، وماهي قدرتهم وصلاحيتهم لوزن مشاعرهم وانطباعاتهم وتحكم عقولهم ، وإلى أي حد تعوّدوا احترام قوانين بلادهم ومراعاة مصالح الشعب والبلاد؟ ، فلو أجاب المجيب بأنني لا أستطيع أن أطمئنك في هذه الناحية لقلت إنني لا أثق إذأ بحال هذه البلاد ولا بمستقبلها ، إنها بلاد في خطر دائم .

وانتهزت فرصة اجتماع أهل العلم وأصحاب الاختصاص في التاريخ

(١) أحد كبار علماء اللغة الأردوية وأدائها المعاصرين في باكستان .

أيضاً ، وقلت : إنني لست صاحب دراسة واسعة واختصاص في تاريخ الشعب الإنكليزي والبريطاني^(١) ، فلا أستطيع أن أجزم بمعرفة ما هو مصدر الثورة النفسية والخلقية ، ومن هم قادتها وزعمائها الذين نفخوا روحاً جديدة في الشعب البريطاني في حين استيلائه على دولة كبيرة كالحكومة المغولية ، وسيطرته على شبه القارة الهندية والبلدان المجاورة لها ، إن هذا الموضوع يدعو تلاميذ قسم التاريخ للتأمل والدراسة والتحقيق ، ولكن الأدهش من ذلك ثورة العرب البدو الذين عاشوا في الصحارى ، وكانوا في انحطاط خلقي وعقلي وعلمي من قرون طويلة ، ولكن الإسلام أحدث فيهم ثورة عظيمة ، وغيرهم تماماً حتى أصبحوا قادة العالم وورثة الدول والحكومات القوية ، وأثبتوا قدرتهم وجدارتهم للحكم والقيادة ، ومواجهة المشاكل والقضايا الجديدة ، ولقد أحسن شاعركم المعروف ظفر علي خان إذ قال ما معناه :

(ما هو السرّ في أن عدداً من رعاة الإبل لم يخضعوا للإمبراطورية الرومية والإيرانية ، إن الذين كانوا يظنون الكافور ملحاً أصبحوا يُحوّلون التراب تبرا).

إنني أتساءل أيها الأخوة : لماذا لم يحدث فيكم أي انقلاب وثورة بعد الحصول على هذه الدولة الكبيرة ، وتحمل هذه المسؤولية الجليلة؟

مسؤولية العلماء في بلد حرّ مستقل :

ألقيت خطاباً في الجامعة الإسلامية ببनوري تاون ، وقد حضره أساتذتها وخريجوها وطلابها ، وأعيان المدينة ، وقد ألقى فيه الضوء على مسؤولية العلماء وصفاتهم ومميزاتهم المطلوبة في بلد حرّ مستقل ، وضربتُ لذلك أمثلة تاريخية متعددة ، ونَبَّهْتُ إلى الأخطار التي يشعر بها أحياناً زائر من الخارج أكثر من أبناء البلاد ، منها الفوضى الاعتقادية والسياسية ، ومنها قلة اتصال العلماء بالشعب ، ومنها بعد أكثر العلماء المعاصرين عن تقشُّف

السلف الماضين وزهدهم وإيثارهم وتوكلهم وبساطتهم وقناعتهم ، ولا يخص ذلك هذه البلاد فحسب ، بل يشاركها في ذلك البلدان الأخرى ، وذكرت لهم أمثلة من السلف الذين لم يمض على عهدهم زمن طويل .

والخطر الرابع هو خطر العصبية اللغوية والإقليمية^(١) الذي يهدد هذه البلاد ، ويجب على العلماء مقاومته بكل ما أوتوا من قوة ، ثم انتقدت مبالغتهم وتفاخرهم بالأسلاف كالتفاخر بالأنساب ، وقلت لهم إنه لا يغنيكم ولا ينفعكم التردد الدائم و«الورد» المستمر بأن سلفنا كانوا كذا وكذا ، فلا تقوم دعوة على ذكر حوادث التاريخ ، والتشدد بالثناء على الماضين ، بل إنها تقوم على الحركة والنشاط والدأب في العمل .

الحاجة إلى يقظة دائمة وحذر مستمر :

كان لي خطاب في ٢٦/ مايو في حفلة ترحيبية نظمتها جمعية نشر القرآن الكريم في مسجد الفرقانية حيدر آباد كالوني ، كان صاحب الدعوة فيهم والمنظم للحفل أخونا المحترم السيد محمد جميل - المحاسب العام^(٢) للحكومة الباكستانية سابقاً - وقد كان رائد هذا الخطاب ونقطته المركزية قوله سيدنا عمرو بن العاص الحكيمة للعرب المسلمين الفاتحين لمصر : «أنتم في رباط دائم» وقد مرّ شرح هذه الكلمة وما يتعلق بها في خطابي في اليمن .

أما هنا فقد صرحت بمسؤوليات أهل العلم وأصحاب الفكر والغيرة الإسلامية في هذه البلاد ، وذكرت لهم أن الفتن قد تكون داخلية وقد تكون خارجية ، وأن الفتن الداخلية أشدّ خطراً ، وأنكى جرحاً ، وأبعد أثراً من الفتن الخارجية ، وإذا دبّ الوهن والضعف الداخلي إلى بلاد أو شعب فإنه يأكله مثل الدود ، كالأرضة تأكل الشجرة التي تتراءى من بعيد قوية سامقة ،

(١) وقد ظهر هذا الخطر عارياً قبيحاً عام ١٩٨٧ م في الحروب والاشتباكات التي وقعت بين المهاجرين والسنديين والبنجابيين ، والأعمال الوحشية التي ارتكبوها ، والتي نكست رؤوس المسلمين في الهند حياءً وخجلاً ، وأصبح من الصعب عليهم انتقاد الاضطرابات الطائفية فيها والتعليق عليها .

(٢) Accountant General .

يستظل بها الناس ويستريحون تحتها ، وإذا بعاصفة أو ريح عاتية تطيح بها وتقلعها ، ألا فلتتمسكوا بهذا الأصل وهو «أنتم في رباط دائم» ، وكونوا في حذر مستمر وبقظة دائمة ونشاط دائم وعمل متواصل .

لقاء مع رئيس باكستان الجنرال محمد ضياء الحق ، وحديث مع صحفي باكستاني عن طريق الوصول إلى الحُكم الإسلامي :

كان لي شرف لقاء الجنرال ضياء الحق في هذه الفترة القصيرة ، ولم يكن في برنامج الرئيس ضياء الحق أن يزور كراتشي ، لكنه زار كراتشي مصادفة ، وجرى اللقاء ، وكان ممن توسط في تحقيق هذا اللقاء بل محرراً له الأستاذ ظفر أحمد الأنصاري ، وفي هذا اللقاء قدّمت إلى الرئيس تمثال قبة الصخرة الرخامي ، وكان قد أهدي إليّ في عمان ، وكانت هذه الهدية السنّية إشارة خفية إلى أن استخلاص المسجد الأقصى المبارك مسؤولية من مسؤوليات رئيس مؤمن ، لبلد مسلم كبير كباكستان .

في نفس الزيارة لباكستان كما أذكر ، وجّه إليّ أحد المراسلين لصحيفة واسعة الانتشار في باكستان سؤالاً ، وهو أن الرئيس يعد منذ مدة طويلة بأنه سيحوّل هذه البلاد إلى بلد إسلامي بالمعنى الصحيح ، ويطبّق الشريعة الإسلامية ، ولكن هذا الوعد لا يزال بعيداً عن التطبيق ، ولا يبدو أي مؤشر إليه ، فما هو رأيي في هذا الصدد؟ .

ردّاً على هذا السؤال الشائك قلت : إن هناك طريقتين أو موقفين؛ أحدهما أن يقول رجل مسلم لا يبدو في مظهر ديني علني ، أنه ينوي بناء مسجد ، فتقولون له ما شغلك ببناء المسجد وما بالك ببناء بيت من بيوت الله؟ ألا تستحيي ، هل دخلت المسجد مرة ، وهل وفق له أحد من أجدادك؟ فإنه يتخلّى عن هذه الفكرة منفِعلاً بهذه المجابهة الشنيعة ، والموقف الثاني أن تقولوا له : ما شاء الله ! يا سبحان الله ! ما أطيب هذه الفكرة ، وما أحلاها ، وفقك الله ، وقواك ، فإن أمثالك قد قاموا ويقومون ببناء المساجد ، وهنئياً لك هذا الشرف ، ندعو الله أن يقدر لنا المساهمة في هذا العمل الجليل ، فنكون عضداً لك ، فإذا كان ذلك الرجل متردداً ، أو

ضعيف الإرادة فإن إرادته تقوى بهذا الموقف ، ويعزم على تحقيقه ، ويسعد ببناء المسجد .

وتذكرت بهذه المناسبة كلمة قيمة لأحد العلماء في اليمن ، وقد تجلّت فيها الحكمة اليمانية ، إنها قصة نفس العام حين كنت في زيارة لليمن في لقاء مع أحد العلماء ، وتطرق الحديث إلى منهج الدعوة ، فقال هذا العالم : إن هناك طريقتين ، يمكن أن يختار إحداهما الدعاة ، أو لاهما إيصال الإيمان إلى رجال الحكم ، والأخرى إيصال رجال الإيمان إلى كراسي الحكم ، وبالطريق الأول واصل الإمام الرباني الإمام أحمد بن عبد الأحد السرهندي كفاحه للدعوة والتربية ، وإشعال الغيرة والحمية في قلوب رجال البلاط وحاشية الملك ، والمسؤولين عن الحكم ، يقيم بهم اتصالاً ، ويشعل فيهم جمرة الإيمان وأثمرت جهوده في مدة قريبة^(١) .

وأثبتت التجارب الأخيرة أن بعض الجماعات أو الأحزاب لا تريد إيصال أهل الإيمان إلى كراسي الحكم فحسب ، وإنما تريد أن يصل أهل الإيمان إلى الحكم في بذلة خاصة ، يحملون شعاراً أو لافتة لمنظمة خاصة ، ولا يقبلون أقل من ذلك قيد شعرة .

سافرنا في ٢٩/ مايو من كراتشي إلى دلهي ، ومن ثمّ إلى لكهنؤ ، ولم يبق بيننا وبين رمضان إلاّ يومان ، فذهبنا إلى راي بريلي حيث اشتغلنا بالاستعداد للشهر المبارك .

* * *

(١) مضى هذا الحديث مع العالم اليماني في هذه الرحلة .

رحلة إلى الحجاز عام ١٩٨٤ م وخطاب مهم وكلمة ترحيب واستقبال

كانت الجلسة السنوية للمجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي في شهر ربيع الثاني عام ١٤٠٥ هـ ، وكنت سافرت في أوائل ربيع الثاني وأواخر شهر ديسمبر عام ١٩٨٤م إلى مكة المكرمة ، وكنت قد اصطحبت معي العزيز السيد جعفر الحسيني ابن العزيز محمد واضح رشيد الندوي - رئيس تحرير جريدة «الرائد» - ولم يتفق له سفر إلى الحجاز من قبل ، وكان يرافقني ليساعدني في شؤون السفر ، وتهيأ له فرصة أداء العمرة ، وزيارة المسجد النبوي الشريف ، ومقابلة العلماء وكبار الشخصيات الإسلامية ، وقد رافقني أيضاً العزيز السيد طارق حسن عسكري الذي يشغل موظفاً في مصلحة الهاتف في المدينة المنورة الذي يهتم اهتماماً كبيراً بإراحتي .

وبعدما انتهينا من جلسات الرابطة التي استمرت كعادتها أياماً ، تمتعنا بالإقامة الطيبة بمكة المكرمة والمدينة المنورة ، وقد كانت مؤسسة ثقافية بالمدينة المنورة وهي «نادي المدينة المنورة الأدبي» يطالبي من العام السابق أن ألقى محاضرة في موضوع أدبي ، ولم أتمكن في العام الماضي من تلبية هذه الدعوة ، وأصرَّ القائمون على النادي هذه المرة عليّ ، وقرّروا موضوع المحاضرة «دور مُحمّد إقبال في توجيه الأدب والشعر»^(١) وأعلنوا لذلك تاريخ ٢٤ ربيع الثاني بمكان مكتبة الملك عبد العزيز .

(١) انظر هذه المحاضرة بكاملها في كتاب «نظرات في الأدب» لسماحة الشيخ الندوي ، وفي «محمد إقبال الشاعر المفكر الفيلسوف» للمؤلّف وفي «محاضرات إسلامية في الفكر والدعوة للعلامة أبي الحسن علي الحسيني الندوي» طبع في دار ابن كثير - دمشق .

كان موعد المحاضرة بعد صلاة المغرب ، ولم أنتبه حينئذ أن هذا الوقت ألتزم بقضائه في المسجد النبوي الشريف الذي يقع قريباً من هذا المكان ، وقد التزمت بهذا دائماً أن أقضي هذا الوقت في المسجد الحرام إذا كنت في مكة المكرمة ، وفي المسجد النبوي إذا كنت في المدينة المنورة ، ولا أذكر أنني تخلّفت عن ذلك إلا لضرورة شديدة ، ولكن خرج السهم عن القوس ، وقد أُعلِنَ عن المحاضرة وكنت أشعر بثقل في نفسي وإباء أن أقضي هذا الوقت الذي تعودتُ أن أقضيه في التلاوة والذكر والصلوات في موضوع أدبي - وإن لم يكن أدبياً خالصاً - ثم إن هذا الوقت من بعد صلاة المغرب إلى العشاء وقت ضيق قد لا يتسع للموضوع ، فلو أذن للعشاء في أثناء المحاضرة فماذا أفعل؟ لا أنا أطيق أن أترك العشاء في الحرم ولا يحسن أن أقطع المحاضرة .

وعلى كُلِّ فقد قبلتُ الطلب متوكّلاً على الله تعالى ، ولكن شاهدت في تلك المناسبة من البركة في الوقت ، ونجاح الاحتفال ، وحضور الشخصيات الممتازة حتى أولئك العلماء الذين لهم دروس يومية في المسجد الشريف ، والانتهاه من المحاضرة في الوقت المناسب والسير إلى المسجد بكل طمأنينة ، وحضور العشاء فيه ، ما لم يكن إلا بتأييد من الله تعالى وتوفيق خالص منه .

وبدأت محاضرتي بعد أن كانت تلاوة القرآن الكريم والكلمات الترحيبية بقولي :

سادتي وإخواني ، إنني أستحيي أمام الله تعالى ومن حضر من الإخوان أن أذكر في جوار الرسول ﷺ ، وفي ظلّ جدار مسجده العظيم ، شخصاً غير شخص الرسول ﷺ ، وأن أشيد به ، وقد قال الشاعر العربي القديم :
ولما نزلنا منزلاً طلّه الندى أنيقاً وبستاناً من النور حالياً
أجدّ لنا طيبُ المكان وحسنه مُنى فتمنينا ، فكنت الأمانيا
وهذا هو المكان الذي طلّه الندى ، طلّه ندى الرسالة السماوية الأخيرة ، والصحبة النبوية العطرة فلا يجوز إلا ذكر من نالت به هذه المدينة

الشرف ، ونالت به الإنسانية الحياة الجديدة ، والمعنوية الجديدة ، ولكني سأحدث عن رجل قويّ الصلة ، عميقها بالنبي ﷺ ، وهذا هو المُبرّر الوحيد للحديث عنه في هذا الجوار الكريم ونحن على غلوة سهم - كما يقول العرب - من المسجد النبوي الشريف .

إن شاعرنا العظيم محمد إقبال كان - وقد شهدت ذلك بعيني وأشهد بذلك بجوار المسجد - إذا ذُكرت المدينة فضلاً عن الرسول ﷺ - دمعت عينه ولم يتمالك ، وقد قال بيتين من الشعر بالفارسية ، اسمحوا لي أن أنسدهما بلغتهما فهنالكَ من يفهم الفارسية^(١) يقول :

باين بیری ره یثرب کرفتم نواخوان از سرور عاشقانه
جو آن مرغ که در صحرا سرشام کُشاید بر بفکر آشیانه

ومعناهما: لقد لامني إخواني ، واستغربوا توجّهي إلى مدينة الرسول ﷺ على علوّ سنيّ ، وأنا في سرور وحنين ، ونشيد ورنين ، وقالوا: هذا إرهاب ، وتكليف بما لا يطاق ، فقلت لهم: يا إخواني ، ألا تعرفون أن الطائر يهيم على وجهه في الصحراء ، ويحلّق في الفضاء ، فإذا أدبر النهار وأقبل الليل ، تذكّر وكره ورفرف بجناحيه إلى وكره ، يطير إليه ليأوي فيه ، والمدينة وكر الروح ، ووكر العقيدة ، ووكر الإيمان بالنسبة إلى المسلم ، فكيف لا أطيّر إلى وكري حين دنا أصيل حياتي !؟

ثم ألقى الضوء على دور الشاعر الإسلامي محمد إقبال القيادي الثوري في توجيه الأدب والشعر وجهة جديدة ، وتأثيره البالغ عليها ، وذكرت بصفة خاصة أن اللغة والأسلوب عدا الأفكار والنظرات تأثراً أيضاً تأثراً كبيراً في شبه القارة الهندية ، واستشهدت ببعض أبياته التي تلقي الضوء على نظرته إلى الشعر والأدب وقلت :

(واسمحوا لي أن أقرأ أمامكم سطوراً تدل على ما كان يعتقده شاعرنا

(١) قرأ سماحته هذه الأبيات بالفارسية مراعاة لعدد كبير في الحضور من الباكستانيين والهنود .

العظيم محمد إقبال ، وهي تدل على نظرته إلى الأدب ، وعليها بنى أدبه ، وعلى ذلك قامت مدرسته الشعرية الفكرية الفلسفية الهادفة ، يعتقد محمد إقبال أن الأدب لا يصل إلى حد الإعجاز ، حتى يستمد حياته وقوته من أعماق القلب الحي ، ويسقى بدمه .

نقلت هذا المعنى في كتابي «روائع إقبال» إلى العربية ، ومنه أقتبس هذه السطور :

(يا أهل الذوق والنظر العميق! أنعم وأكرم بنظركم ، ولكن أي قيمة للنظر الذي لا يدرك الحقيقة؟ لا خير في نشيد شاعر ، ولا في صوت مُعَنَّ ، إذا لم يُفيضاً على المجتمع الحياة والحماس).

أنتم تعرفون أيها السادة ، قيمة نسيم السحر عند الشعراء والأدباء ، وأهل القلوب الواعية الحية ، ولكنه يقول :

(لا بارك الله في نسيم السحر إذا لم تستفد منه الحديقة إلا الفتور والخمول والذوي والذبول ، إن غاية الإنسان في فن من فنون العلم والأدب ، لوعة الحياة الدائمة وما قيمة شرارة تلتهب سريعاً وتنطفئ سريعاً؟ ، وما قيمة لؤلؤة كريمة أو صدفة لامعة لا تحدث اضطراباً في الأمواج ولا اضطراباً في البحار؟ لا نهضة للأمم إلا بمعجزة ، ولا خير في أدب ولا شعر إذا تجرد عن تأثير عصا موسى).

وقد استمع الحاضرون إلى الخطاب في طمأنينة وسكينة ، وأبدوا انطباعاتهم الطيبة ، وقد حضر هذا الحفل نائب قاضي المدينة المنورة فضيلة الشيخ عطية سالم وعدد آخر من العلماء المدرسين في الحرم الشريف .

وكان لي خطاب آخر في طلاب الجامعة الإسلامية على دعوة من أهلها ، كان موضوعه «أزمة إيمان عالمية ومسؤولية العلماء المسلمين»^(١) ، وكانت تلك الأيام تشهد مجاعة شديدة في أثيوبيا والسودان والصومال ، وكانت

(١) انظر هذا الخطاب بكامله في «محاضرات إسلامية في الفكر والدعوة للعلامة أبي الحسن علي الحسيني الندوي» .

حديث المجالس ، فقلت : إن المجاعة التي هي أخطر وأدهى من تلك المجاعة التي يتحدث عنها الناس هي مجاعة إيمان وأخلاق ، المجاعة التي أصيبت بها أكثر البلاد ، حتى البلدان الراقية المتحضرة ، ولكنها لا تهمها هذه المجاعة ولا تفكر فيها ، كأن قيمة الجسد عندها أعلى من قيمة الروح .
وقد ألقى في هذه الرحلة خطاباً في «نادي مكة الثقافي» .

وكان من مميزات هذه الرحلة أنه نُظِّمَت لي حفلة استقبال وترحيب من قِبَل شخصية موقرة وأحد أعيان جدة الشيخ عبد المقصود خوجه ، في يوم ١٥ ربيع الثاني ١٤٠٥ هـ الموافق ٦/يناير ١٩٨٥ م ، حضر فيها من أعيان جدة ووجهائها وعلمائها وأدبائها وأصحاب الأقالام فيها ما لم يحضر من قبل ، وقد قام أربعة منهم : الداعي والمضيف الشيخ عبد المقصود خوجه ، وأحد رجال التعليم والتربية المعروفين الشيخ عبد الله البغدادي (عميد كلية تحضير البعثات بمكة المكرمة سابقاً) ، والسيد علي حسن فدق أمين البلدية بجدة سابقاً ، والشيخ عبد الله بلخير وزير الإعلام سابقاً ، بتعريف «ضيف الشرف» ، وأبدوا عواطفهم النبيلة وانطباعاتهم الطيبة ، وكان من خصائص هذا الحفل أن وزعت على الحاضرين نسخ كتابين من كتيبي وهما : «السيرة النبوية» ، و«مختارات من أدب العرب» ، وكان صدورهما من «دار الشروق في جدة» في ثوب قشيب ومظهر أنيق .

ورأيت أن هذا الحفل - الذي كان فوق مستواي ، وكانت تجربة أولى في حياتي من حيث فخفتها ومستواها - لا يجوز لي أن يبقى حفل استقبال وترحيب فحسب ، وألقي كلمة شكر وتقدير وينتهي الأمر ، بل حاولت أن أتقدم برسالة إلى هذا الحفل المنتقى الكريم ، وعلى هذه الأرض الطيبة ذات الدعوة والرسالة ، وفي ظلال الحرم المحرم ، وأن أنادي بلسان الدكتور محمد إقبال :

«قم يا باني الحرم وسادنه ، قم لبناء العالم الجديد» .

فقلت بعد تقديم كلمات الشكر والتقدير :

سادتي وإخواني ، ليست العبرة بالقامة والحجم والكثرة ، وإنما العبرة

بالقيمة ، هناك شيان يوزنان ، القامة والقيمة ، ولكن الله سبحانه وتعالى فضّل القيمة على القامة ، إنني كلما أقرأ الآيات الأخيرة من سورة الأنفال ، عجبْتُ وعجبتُ وكدت أحرار وأُغلبُ على أمرِي ، إذا قرأت قول الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ .

لمن يقال هذا؟ لهذه الحفنة البشرية التي تألفت من المهاجرين والأنصار ، تألفت من الأنصار أصحاب الدار والمهاجرين المغتربين ، الذين لم يتجاوز عددهم خمسمئة وألف ، لقد حثَّ الله على المؤاخاة الإسلامية ، وربط المهاجرين بالأنصار والأنصار بالمهاجرين ، وأثار فيهم روح الأخوة الصادقة ، وحثهم على أن يكونوا وحدة جديدة ، وحدة تقوم على الإيمان وعلى الكلمة وعلى الترحُّم للإنسانية ، تقوم على المبدأ والعقيدة ، فقال لهم : إذا قصرتم في إنشاء هذه الأخوة ، وفي تكوين هذه الوحدة التي جهلها العالم وتناساها التاريخ - وبكلمة أصح - نسيها التاريخ منذ مئات السنين ، إذا قصرتم في إنشاء هذه الوحدة التي تقوم على الرسالة الفاضلة وعلى الأخوة الصادقة المخلصة ، فإنها تكون فتنة في الأرض وفساد كبير ، ﴿ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ .

ما نسبة هذه القلة القليلة التي كانت تعيش في يثرب التي سُمّيت بعد ذلك بمدينة الرسول ﷺ ، ما وزن هذه القلة وما عدد أفرادها؟ ما وزن القلة في الميزان السياسي ، وفي الميزان الدولي ، وفي الميزان الاجتماعي ، حتى في الميزان العلمي؟ إنهم - كما أعتقد - لم يبلغ عددهم ألفين ، وقد أُجري إحصاؤهم ثلاث مرات كما ورد في صحيح البخاري ، وكان عددهم في آخر إحصاء بلغ خمسمئة وألف نسمة^(١) .

فلمن يقال هذا؟ هل يقال للرومان الذين سيطروا على نصف الأرض ،

(١) راجع صحيح البخاري ٤٣/١ ، الطبعة الهندية ، باب كتابة الإمام الناس/ كتاب الجهاد ، وتفيد بعض الروايات أن سورة الأنفال نزلت في زمن غزوة بدر ، وقد كان عدد المسلمين إذ ذاك أقل .

والذين كانوا يتمتعون بأكبر إمبراطورية وأكبر حضارة قامت في ظلّها ، وبأكبر قوة حربية وقوة دولية وقوة سياسية ، هل يقال هذا للفرس الإيرانيين الذين كانوا توزّعوا الرومان في بسط نفوذهم بالاستيلاء على الأرض المعمورة ، كان هؤلاء الرومان والفرس هم المؤثرين في مصير الإنسانية ، وهم الذين كانوا يجذّفون سفينة الحياة وسفينة الحضارة ، وهم الذين كانوا يتصرفون في وسائل الأمم - إذا صحَّ هذا التعبير - وفي أوضاع العالم ، هل يقال لهم :

﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ .

قيسوا سادتي وإخواني ، قيسوا أولاً حجم الكلمة وروعيتها ، كلمة «فتنة» في الأرض» ما أكبر حجمها وما أثقل وزنها ، لم يقل «فساد» فحسب ، بل «فساد كبير» .

إنه يقال لهذه المجموعة الصغيرة الصغيرة التي قام عليها الإسلام ، وقامت على أعناقها رسالة الإسلام ، إن قصّرتم أيها المسلمون في تكوين هذه الوحدة الإسلامية الإيمانية الرحيمة العادلة ، وإن لم تقيموا هذه الوحدة على الإخلاص ، وعلى أساس الإيمان والتضحية والإيثار والتفاني ، فلا نتيجة لذلك إلا أن تكون ﴿فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ .

هذه قيمة الأمة المسلمة حين كانت في عدد المئات في عدد ألف أو ألفين ، هذا هو التصوير الصادق ، وإعطاء هذه المجموعة هذا الوزن الكبير ، وهذه القيمة الكبيرة ، وهذه المكانة الرئيسية في خريطة العالم ومجموع الأمم ، فثبت بذلك أن المسلم بقيمته لا بقامته ، وأن الأمة المسلمة برسالتها وإيمانها وعقيدتها وفضلها الخلقي وضميرها الحي ، وبالروح المتغلغلة في الأحشاء ، المسيطرة على الشعور وعلى العقل والتفكير ، قيمة هذه الأمة في هذه الخصائص التي أكرمها الله بها ، ليست بكثرة العدد والعُدَد ، وبكثرة المساحة المكانية التي تسيطر عليها وتحكم فيها ، ولا بالفخامة وبحجم المساحة الزمانية التي تؤثر فيها .

إنني أنظر إلى هذه المجموعة بهذا المقياس ، وبمكبّرة الإسلام ،

والمكثرة التي أعطانا الإسلام والتي لها قيمة في بلادنا البعيدة عن مهد الإسلام ومركزه ، لها من القيمة هناك ما ربما لا يكون في الوسط الإسلامي وفي مهد الإسلام .

وأنا أشكر صاحب هذه الدار ، وصاحب الفضل في هذه الفرصة المباركة على أنه أكرمني بتوجيه الدعوة إلى هذه المجموعة الطيبة التي ليست كثيرة في العدد ولكنها كبيرة في القيمة ، وإنني أنتهز هذه الفرصة لأحييكم جميعاً وأشكركم على أنكم كرمتم في شخصي الحقيير هذا الاعتزاز ، ولست أدري الاعتزاز صحيح أم لا ، ولكنه ما اشتهر من الانتساب والانتماء إلى العلم والدين والدعوة ، فتكريم مثلي في هذه البلاد المقدسة في الحقيقة ، تكريمٌ للعلم وتكريم للدعوة وتكريم للأخوة الإسلامية ، وتعبير بالشعور الصادق عن النفوس الكريمة؛ وإنني أحمد الله تعالى على أنه أتاح لي هذه الفرصة قبل أن أغادر هذه البلاد المقدسة .

وودعنا الحجاز بعد ذلك إلى الرياض ، فقد وُجِّهت دعوة إليّ لزيارتها من معالي الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي^(١) نائب رئيس جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، وزرنا معه كلية الدعوة والإعلام ، وحضرنا الندوة التي تعقد في بيت الأستاذ الفاضل معالي الشيخ عبد العزيز الرفاعي^(٢) سكرتير مجلس الوزراء للمملكة السعودية سابقاً بالرياض - وهي ندوة تعقد كل أسبوع - والأستاذ الرفاعي من أفاضل الأدباء والكتّاب

(١) وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة حالياً .

(٢) أديب باحث من أهالي الحجاز ، ولد في بلدة أملج ، ونشأ بمكة المكرمة وأخذ عن علماء الحرم وتخرج بالمعهد العلمي السعودي ، عمل في عدد من الوظائف كان في آخرها مستشاراً بالديوان الملكي واختير عضواً بمجلس الشورى شارك في تأسيس مجلة «عالم الكتب» كما أسس «دار الرفاعي للنشر» أصدر من خلالها سلسلة المكتبة الصغيرة وسلاسل أخرى . وكان عضواً في كثير من المؤتمرات واللجان والمؤسسات الصحفية والإعلامية والعلمية ، ومن أهمها اللجنة التأسيسية لرابطة العالم الإسلامي ومجمع اللغة العربية بدمشق ونال عدداً من الأوسمة والجوائز داخل بلاده وخارجها . توفي سنة ١٤١٤هـ .

الإسلاميين ، حضرت في بيته هذه الأمسية الأسبوعية الأدبية ، وشاركت فيها بكلمة وجيزة ، كما كانت هناك جلسة استشارية لرابطة الأدب الإسلامي في بيت الدكتور عبد الرحمن رأفت باشا رحمه الله ، وقرّرنا فيها عقد ندوة للأدب الإسلامي في فبراير عام ١٩٨٦ م ، وبعد أن مكثنا في الرياض أياماً ، عدّنا مع سلامة الله تعالى إلى الهند .

* * *

رحلة إلى إنكلترا عام ١٩٨٥ م أيام في لندن وأكسفورد ولكسم برك

لقد مضى ذكر تأسيس المركز الإسلامي بجامعة أكسفورد ، ومذكرات الرحلة التي قمنا لأجله في الجزء الأول ، وكانت الجامعة قد سمحت بإقامة هذا المركز في رحابها وساعدت في سبيل ذلك ، ولكن بقي علينا افتتاحه ، وكان بعض الفضلاء العرب ويتقدمهم الأستاذ جمال الدين عطية ، قد أقاموا في لكسم برك «المجمع العلمي للدراسات الإسلامية» واختاروني رئيساً له ، وقرروا عقد جلسته في شهر أكتوبر بعد حفلة افتتاح المركز الإسلامي ، وبناء على هذه الدوافع العلمية والدينية قرّرنا السفر إلى بريطانيا وبلجيكا ، وقضينا تلك الأيام من ٨/ أكتوبر إلى ١٥/ أكتوبر في أوربة ، وضعت فيها خطة الضوابط والمناهج لهذا المركز ، ولم تكن قد بقيت بعد الوصول على موافقة الجامعة وتأييدها إلاّ الإجراءات القانونية الخاصة .

سافرنا إلى بريطانيا في ٨/ أكتوبر ١٩٨٥ م ، وكان من خطة العمل لهذا المركز أن يتمّ تكوينه في صورة «وقف» يتولاه لجنة من أولياء أموره ، وانتخب ١٤ كأولياء أمره ، اختير منهم اثنان كممثلين عن الجامعة ، وكلية (Saint Cross College) ، واختير ١٢ من كبار علماء العالم الإسلامي ، وقرر أن يكون ١١ منهم مسلمين والثلاثة الباقون يختارون من غيرهم ، ووضع دستور يشتمل على الأمور الأساسية ، وقدم للتسجيل حسب ضوابط المحاكم في بريطانيا ، وكان يلزم توقيع ستة أشخاص من أولياء الأمر عليه ، فوقعنا عليه في ٩/ أكتوبر وخمسة آخرون من الأعضاء بمحضر من أحد المحامين ، وهكذا برز هذا المركز للدراسات الإسلامية بأكسفورد بعد

تأمل وتفكير دام سنتين إلى الوجود ، وأعلن عنه في ١١/ أكتوبر أمام مسؤولي الجامعة وكبار رجالها وشخصياتها في جلسة موقرة مهمة .

وقد كانت الجلسة لإعلان إنشاء المركز مشجعة جداً ، افتتحها كاتب هذه السطور بكلمة مختصرة ، وقد كانت وجهت الدعوة من قبل رئيس المركز (كاتب هذه السطور) إلى مئة من الصفوة المختارة على العشاء ، حضره الدكتور والمسؤولون في الجامعة ، وكبار الرجال المثقفين في بريطانيا ، وشاركوا البرنامج في شوق واهتمام ، وقد نظم بعد العشاء حفل ألقى فيه خطب ومحاضرات ، استمع إليها الحاضرون في جو من السكينة والهدوء .

وألقيت كلمتي باللغة العربية ، ونقلها إلى اللغة الإنكليزية الدكتور فرحان ، وألقى في هذا الحفل الدكتور (David Browning) والدكتور فرحان نظامي ، والدكتور (K.B.Griffon) رئيس كلية ميك والن ، والمستر أ. سي بورد عميد كلية سنت كراس^(١) ، والدكتور عبد الله عمر نصيف الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي كلماتهم ، وكان جوهر خطابي ومُلخّصه كما يلي :

(إن قيام هذا المركز الإسلامي في جامعة أكسفورد مبشّر بالخير ، تفتح به أبواب جديدة من المعرفة الصحيحة والتفاهم ، وتكشف سبل جديدة للبحوث والدراسات العلمية ، لا بد من تعميم الوعي الصحيح لما قدّمه الإسلام من دروس الإنسانية والسعي لرفع الإنسان نحو الذروة السامقة والقمة العالية ، كانت البشرية تتنّ تحت وطأة الدمار والهلاك ، وكادت تلفظ نفسها الأخير ، فقام النبي ﷺ ، ونفخ فيها روح الحياة وبعثها من جديد ، وإن التقدّمات الهائلة التي أحرزها الإنسان في القرون التالية ، تدين لهذا الجهاد العظيم في سبيل إنقاذ البشرية ، والرسول ﷺ هو الرائد لهذا الجهاد والقائد لهذا الكفاح ، ولولا قيامه بهذه الجهود للأخذ بيد البشرية ،

لما كان لهذه الجامعات والمؤسسات عين ولا أثر ، ولا تزال أياديه رحمة للعالم إلى يومنا هذا ، فتأسس هذا المركز الإسلامي ليس فضلاً من الجامعة ومنة منها ، وإنما هو اعتراف بالجميل وأداء للواجب ، وإنما هي هدية الحب والتقدير تقدم إلى الإسلام عن طواعية وطيب نفس .

ويقال إن حفلة عشاء لا تقدم فيها الخمر لا تستقطب في أوروبية اهتماماً ، ولا تنجح ، ولكن هذه الحفلة نجحت نجاحاً منقطع النظير في تاريخ الجامعة ستبقى حفلة تذكارية ، وقام بعدي ممثل الجامعة ك . ب . كريغن ، فقال في كلمته التي ألقاها : (إن تأثير الإسلام على الحضارة البشرية والمدنية الإنسانية تأثير عميق خالد ، وذكر شيئاً عن المساجد في منطقة صينية لعلها (سنكيانك) - حيث كان قد أقام برهة من الدهر - وأنها أُسست في القرن الرابع عشر المسيحي ، وقال إن محمداً ﷺ كان في الصين قبل «ماو» و«ماركس» ، ولن يزال هناك بعد زوالهما وانقضائهما ، وقد كان من الضرورة بمكان أن يقام مثل هذا المركز الإسلامي في رحاب هذه الجامعة).

وقد انتهت هذه الحفلة في العاشرة والنصف ورجع الضيوف إلى منازلهم .

وانتهت في الحادي عشر من شهر أكتوبر أعمال المركز الإسلامي ، وانتقلنا في اليوم الثاني إلى لندن ، ونزلنا بمنزلنا القديم في بيت الأخ مسرور أحمد اللكهنوي ، وكان علينا بعد الوصول إلى لندن سفر آخر إلى لكسم برك ، حيث كان جلسة إدارية للمجمع العالمي للبحوث والدراسات الإسلامية ، وكان عليّ رئاسة الجلسة ، وقد راسلوني لأجل ذلك منذ شهور ، وكنت اعتذرت لأسباب صحية وكثرة الشواغل عن الحضور ، ولكني لما سافرت إلى أكسفورد راودني حضور جلسة لكسم برك ، فإنها تبعد بمسافة ساعة واحدة بالطائرة ، وكنت أعلمت الدكتور جمال الدين عطية - الأمين العام لهذا المجمع - بوصولي إلى لندن ، ثم فاجأني أنني لا أحمل تأشيرة الدخول إلى بلجييم ، والموعد ليس موعد فتح المكتبات والإدارات ليتمكن الحصول عليها ، وكنا ننزل «بروكسلز» ونقطع من هناك

مسافة ٢٠٠ كيلو متراً إلى لكسم برك ، وهما بلدان مستقلان منفصلان ، وكان الدكتور عطية قد نظّم لنا رقيقاً في بروكسلز يساعدنا في الدخول ، وقد رافقنا الأخ مسرور أحمد أيضاً ، ووجدنا مندوب الدكتور عطية في المطار ، وتمت إجراءات التأشيرة وسرنا إلى لكسم برك ، ووصلنا بحمد الله إليها الساعة الواحدة والنصف .

بدأت الجلسة في لكسم برك لمجمع البحوث الإسلامية الساعة العاشرة صباحاً ، وقابلت في هذه الجلسة لأول مرة الدكتور إسماعيل راجي الفاروقي رئيس الدراسات الإسلامية في قسم الديانات في جامعة تيمبل بفلادلفيا^(١) ومن كان يدري حينئذ أنه سيتعرض مع أسرته للحقد والعداوة اليهودية ، ويستشهد مع أهله وعائلته على أيدي عدو الإسلام وعدو العرب اليهودي الحاقد؟!!

وقد شكلت هذه الجلسة اللجنة المستقلة ، واختير مسؤولون جدد ، واستعرضت البحوث والدراسات ، وزع العمل للدراسة والاستعراض في المستقبل على مراكز علمية مختلفة ، وكان علينا أن نرجع في ذلك اليوم نفسه إلى لندن ، فاسترحنا قليلاً ، ثم سرنا إلى مطار لكسم برك ، وسافرنا إلى لندن ، وقد بقي لنا الآن في لندن يوم واحد وليلتان كانت أثناءها برامج وخطابات في «المركز الخيري الإسلامي» و«مركز المسلمين الخيري» و«المركز الإسلامي» شارع بيكر .

وصادفنا هناك صديقنا القديم الدكتور سعيد رمضان الذي جاء من جنيف للقائنا ، وكان قد وجه إليّ الدعوة لزيارة جنيف ، ولما اعتذرت عن السفر إلى جنيف حضر بنفسه وقابلني وضمّني وهو يبكي ، ثم جاء إلى منزلنا ، وودّعنا في اليوم التالي على المطار ، وكان موعد إقلاع الطائرة بلندن الساعة العاشرة صباحاً حسب توقيت لندن ، ورجعنا إلى دلهي سالمين آمنين ، والحمد لله رب العالمين .

الرحلة إلى تركيا

عام ١٩٨٦ م

جلسة استشارية لرابطة الأدب الإسلامي بتركية:

لقد كانت الجلسة الاستشارية الأولى لرابطة الأدب الإسلامي عُقدت في دار العلوم ندوة العلماء بلكهنؤ ، الهند ، وقرروا فيها عقد الجلسة الثانية في إستانبول بتركية ، وعَيَّنوا تاريخها ، وقد روعيت مصلحتان في اختيار تركية ، لهذه الجلسة؛ إحداهما: أهمية تركية وعظمتها الإسلامية ، وبوادرات الاتجاه الإسلامي ، علائم الخير الظاهرة فيها ، والثانية: أنَّ كثيراً من الأساتذة الفضلاء في الجامعات السعودية كانوا يقصدون لبنان للاصطياف ، ولكنَّ الظروف الجديدة لم تدع لهم مجالاً أن يقضوا أيام إجازتهم بها في طمأنينة وراحة ، ويشغلوا بالأعمال العلمية .

وكانت تركيا تمتاز بخصيصتين؛ إحداهما: استقرار الأوضاع فيها ، والثانية: الجوّ الإسلامي ، واحترام سكانها للعرب ، والرُّخْص ، وأن أكثر الأساتذة العرب من أعضاء الرابطة كانوا قد قصدوا الاصطياف بتركية ، وكان منهم من سكن هناك .

اخترنا لإستانبول طائرة تمرُّ بكراتشي ، حيث قضينا ليلة وساعات في النهار ، وقابلنا بعض الأقرباء والأحبة ، خرجنا ١٩/ يونيو ١٩٨٦ م من دلهي ، وكان يرافقني العزيز الأستاذ مُحَمَّد الرابع الحسيني الندوي ، ووصلنا مطار إستانبول ظهر ٢٠/ يونيو ، وكان ذلك يوم الجمعة ، وكان موعد وصولنا بها موعد صلاة الجمعة ، ولكن بالرغم من ذلك حضر إلى

المطار لاستقبالنا عدد من الأصدقاء العرب والأتراك ، بعد أدائهم لصلاة الجمعة وإسراعهم في الوصول إلى المطار ، كان عدد منهم من أعضاء المجلس التنفيذي للرابطة ، وصديقنا التركي القديم الشيخ أمين سراج - خطيب مسجد الفاتح - الذي كانت قد توطدت به صلاتنا أيام إقامتنا بمصر عام ١٩٥١ م ، وكان إذ ذاك يدرس في جامع الأزهر ، وقد اختار الأصدقاء العرب والأتراك لإقامتنا شقة واسعة جيدة في عمارة فيها التسهيلات الكافية ، تقع هذه الشقة في محلة «أفندي زاده» بالعمارة التي تدعى «كلستان» وعُيِّن لضيافتنا أحد الفضلاء العرب ، الدكتور مصطفى الذي يشتغل بدراسة الماجستير في الطب .

عقدت الجلسة الأولى صباح السبت في الساعة العاشرة ، وبعد كلمة الرئاسة وكلمة الافتتاح قُدمت تقارير مفصلة عن مكتب الرابطة الرئيسي بلكهنو ومكتب الرابطة للبلاد العربية ، ونوقشت القرارات والتوصيات ، واستمرت الجلسة إلى الظهر ، ثم أرجئت الجلسة لليوم التالي .

وذهب بنا الشيخ أمين سراج في السماء إلى بيت أحد التجار الفضلاء الإسلاميين السيد عثمان نوري أفندي ، كانت به أمسية أدبية ، حضرها الكاتب الإسلامي المعروف الأستاذ محمد قطب ، فألقى هو وعددٌ من الأساتذة الفضلاء كلماتهم ومقالاتهم فيها .

أما أنا فقد ذكرتُ في خطابي الشاعر الإسلامي الحكيم جلال الدين الرومي الذي كان له الفضل فيما قام به الأدب الإسلامي في تركيا من دور قيادي ثوري ، وذكرت ما كان لشعر الرومي من تأثير بالغ قوي ليس على الأدب والشعر فحسب ، بل على الفكر الإسلامي وعلم الكلام ، لا نجد له مثلاً عند أيّ أديب أو شاعر آخر ، فكم من أديب أو شاعر ملكت الفلسفة اليونانية عقله واستولى عليه الإلحاد والزندقة ، أثر فيه شعر الرومي فقلب حياته رأساً على عقب ، واهتدى به إلى الإسلام ، وأصبح ترجماناً له وداعياً إليه ، وقد كان الدكتور محمد إقبال يعتبر نفسه تلميذ الرومي يقتطف من ثماره ، ويأكل من فُتات مائدته يقول في بيت من شعره :

إنَّ المرشد الرومي مرشد بصير منير الضمير
وإنه لأميرٌ لركب الحُبِّ والعشق

ويشير إليه في مواضع كثيرة من شعره ، ويقول في بيت أردي :
إنَّ عيني مستنيرة من قبه وإنَّ كأسِي لمترعة من بحره
وإنَّ تركية لا تزال تستطيع أن تُنجب أمثال الرومي ، وإنه لم يقم بلد
بحراسة العالم الإسلامي وتمثيله القوي لهذه المدة الطويلة مثل ما قامت به
تركية ، وإن عليها أن تتقدّم للقيادة من جديد .

وشكا بعض الإخوة الأتراك ، أننا نقل كثيراً مما كُتِب في اللغات
الأخرى في الأدب الإسلامي والفكر الإسلامي إلى اللغة التركية ، ولكن
أدباء اللغات الأخرى لا يعيرون اهتماماً للأدب التركي الإسلامي ، كانت
شكوى في محلها ، فاعترفنا بذلك وأنفقنا على العناية بالأدب التركي ،
وعلمنا في هذه الجلسة أيضاً أن التيار الإسلامي ، والتمسك بالدعوة
الإسلامية وعاطفة العمل بالشرعية الإسلامية في تقدّم واندفاع الآن في
تركية ، وتنقل كتب المؤلفين الإسلاميين إلى اللغة التركية بسرعة وتنشر
هناك وتنتهي بسرعة ، تتلقّفها الأيدي المتلهّفة ، وقد صدرت لكاتب هذه
السطور عدة طبعات لكتبه باللغة التركية ، وعلمت أيضاً أن كتابي «العقيدة
والعبادة والسلوك» صدرت طبعته الأولى بخمسة آلاف نسخة ، ونفدت في
شهر واحد ، وقام اثنان من المترجمين بنقل بعض كتاباتي ، ولا يدري واحد
منهما عن عمل الآخر ، وذكر لي الأستاذ محمد قطب أن بعض كتاباته
العربية صدرت بالتركية قبل صدورهما في محلّها بالعربية ، وعلمنا أن هناك
أفراداً أصحاب اتجاهٍ إسلاميٍّ وسلوكٍ إسلاميٍّ في الجيش والحكومة ، لأجل
ذلك تراعي هذا التيار الإسلامي .

سطوة تركية ، عقلية هندية ، منطلق عربي :

عُقد يوم الأحد في الساعة العاشرة احتفال كبير للأدباء ، والمُثَقِّفين
الأتراك في قاعة فسيحة ويقدّر عدد الحاضرين من الأدباء والفضلاء في هذه
الجلسة بما يقرب من ٥٠٠ أو ٦٠٠ شخص ، قد كان منهم الصحفيون ،

ومُمثِّلو الإذاعات والتلفزيون ، وقدّرنا من ذلك أنّ الحكومة شعرت أيضاً بأهمية هذه الندوة ، وقدّمت مساعدة لها على مستواها ، وقد رأى الإسلاميون هذا الموقف من الحكومة نجاحاً للأدب الإسلامي والفكرة الإسلامية .

وقد اختار كاتب هذه السطور للقراءة في هذه الندوة فصلاً من كتابه «روائع إقبال» يشتمل على ترجمة لمنظومة إقبال القوية الحماسية الرائعة التي أسماها بـ «طلوع الإسلام» والتي تدور فكرتها حول اجتماع القوى الغربية ضدّ تركية ، وتظاهر تركية إزاءها بوفائها للإسلام ، وشجاعتها ، واستقامتها وثباتها وتضحيتها ، وقد كان في جانب منّي أحد كبار الأدباء الأتراك ، وكان في جانب آخر الأستاذ محمد قطب ، فلما وصلت إلى ترجمة هذا البيت :

عطا مومن كبهـر دركاهِ حق سهونـ والا هـ

شكوه تركماني ، ذهن هندي ، نطق أعرايبي

أشرت عند قولي : السطوة والعظمة التركية إلى الأديب التركي ، وعند قولي المنطق العربي إلى الأستاذ محمد قطب ، وقلت للعقلية الهندية : إنني إن لم أملكها فإنني أمثل الشعب الذي يملك عقلية خاصة ، وقد استخدمها للإسلام ، وكانت قد أعدت من قبل ترجمة تركية لهذه الكلمة ، فألقيت بعد كلمتي .

وقام أحد مسؤولي الرابطة ، وأعضاء المجلس التنفيذي فيها بتعريف موجز لرابطة الأدب الإسلامي وغاية تأسيسها ، وأهدافها .

ثم خطب الأستاذ محمد قطب ، وخطب أستاذان فاضلان تركيان باللغة التركية أيضاً ، افتتح أحدهما وهو الأستاذ عزّت أزود خطابه بقوله الشجيّ : إنني كنت قبل برهة من الزمن افتتحت خطابي (ببسم الله الرحمن الرحيم) فحدثت ضجّة ، ولكن الوضع اليوم يختلف عن الأمس تماماً ، وإنني أبدأ كلمتي بغاية من الطمأنينة بـ (بسم الله الرحمن الرحيم) ، وقد قامت وسائل الإعلام الحكومية بإبراز إجراءات هذه الجلسة ، وذكر بعض الأصدقاء الأتراك أنها لأول مرة سمحت الحكومة لمثل هذا البرنامج الإسلامي

الخالص أن يذاع في إذاعتها وتلفازها ، وهكذا كانت هذه الندوة فألاً طيباً لهذه البلاد ولليقظة الإسلامية فيها .

سعة نطاق «الحياة بعد الموت» :

كان هناك مجال واسع من يوم الثلاثاء إلى يوم الجمعة للقيام برحلة ترفيهية استطلاعية ، واختيرت لذلك مدينة قريبة هامة من مدن تركيا ، وهي مدينة «بورصة» التي كانت العاصمة الأولى للعثمانيين ، ولا تزال بها آثارهم العمرانية ، ويمتاز أهلها بالتدئين .

وكانت قد نُظمت من قبل ذلك جلسة عند الشاطئ الآسيوي لباسفورس ، خرجنا إليها الساعة العاشرة ، وألقينا نظرة عابرة على السواحل ، ثم شاهدنا قصر «دولمة باغيجه» للسلطان عبد العزيز ، وقد كان المقر الأخير للسلطين العثمانيين ، وعاد الآن متحفاً راقياً متقدماً ومكاناً يقصده الناس للزيارة ، وزرنا في القصر مركز الأبحاث لمنظمة المؤتمر الإسلامي لكراتشي ، وزرنا قصر يلدز الذي كان قصر آخر السلطين العثمانيين الكبار السلطان عبد الحميد خان ، وقضينا به ساعة ، ثم تقدمنا إلى الشاطئ الآسيوي لباسفورس ، وقد عبرناه بذلك الجسر العالي الطويل ، ووقفنا على هذا الشاطئ الآسيوي بموضع ، كان فيه عدد مشرف من الفضلاء الأتراك ، كان منهم الدكاترة في الجامعات ووزير الداخلية السابق ، وعدد من أعيان المدينة والفضلاء العرب ، وطلب الحاضرون مني ومن الأستاذ محمد قطب أن نخطب ، فقال الأستاذ قطب : اليوم يخطب الشيخ أبو الحسن الندوي فحسب ، وأستمع ، وبدأت كلمتي بقولي :

كنت حينما أقدم هذه المدينة تحضرني آية قرآنية وتستولي على تفكيري ، وهي قوله تعالى : ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْبَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتُ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتُ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ

نُنشِرُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لِحَمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿البقرة: ٢٥٩﴾.

قلت: إنني تلميذ من تلاميذ علوم القرآن الكريم ، وأحاول فهم معانيه وإدراك مغازيه ، وإنَّ معانيه ومفاهيمه لأوسع وأعمق مما تحتوي عليه كتب التفسير أو تُدرِّكُ بأدنى تأمل وتفكير ، إن الآية المتلوة الآن وإن أشارت إلى حادثة خاصة ، ظهرت فيها قدرة الله عزَّ وجلَّ ، بأن أحيا ميتاً بعد مئة عام غضاً طرياً ، وأبقى الطعام - الذي يفسد في الفضاء المنفتح بسرعة - مئة عام لم يفسد ولم يتعفن ، إنني أعتقد أنَّ الآية الكريمة تنطوي على معنى لطيفٍ آخر ، وهو أنَّ الله - عزَّ وجل - قد يحيي دينه ورسالته بعد خمودها وانفصام صلة الشعب والبلاد بها ، وفقدِ الدفاع عنها ، وضعف الحماية لها لمدة طويلة قد تبلغ مئة سنة ، ويعيد إليها النضارة والطراوة ، فإنه إذا كان قادراً على إبقاء الطعام طيباً شهياً لمئة عام لم يفسد ولم يأسن ، فهو قادر - جلَّ شأنه - على إبقاء دينه بعد مُضي مئة عام أو أكثر عليه في أوضاع متنكرة وظروف قاسية حياً غَضّاً صحيحاً ، وإنني أرى في هذه الآية الكريمة بشرى سارة بأنَّ هذا الشعب وهذه البلاد التي رفعت لواء الإسلام وأرهبت الغرب المستعمر قروناً من الزمن ستعود إلى الازدهار والحياة والنشاط^(١).

﴿ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَتُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ ﴾ [آل عمران: ٢٧].

ورأيتُ أنَّ هذا الخطاب الذي كان تلقائياً وارتجالاً ، وجد آذاناً صاغيةً وقلوباً واعيةً ، ورنَّتْ هذه البشرية من الدكتور محمد إقبال في أذني: (إنَّ إقبال ليس يائساً قانطاً من أرضه القاحلة ، فإنها إذا تَنَدَّتْ وبلَّلت تعود مخضرةً راويةً زاهيةً).

(١) وقد ذكر لسماحة الشيخ الندوي بعض أصدقائه الأتراك أن مدة محنة تركيا الإسلامية تكون مئة عام.

في بورصة:

غادرنا بورصة يوم الأربعاء ١٥ ، وتقع هذه المدينة في جنوب مدينة إستانبول ، ولكن الطريق البرّي ينعرج ويطول إليه لجيلولة جزء شرقي من بحر المرمرية بين المدينتين ، ويستغرق السفر لأجل ذلك إلى بورصة ٣ - ٤ ساعات بالسيارة ، وقالوا: لو قطعنا هذه المسافة بالباخرة لكانت أخصر .

ورأى السيد عثمان نوري أفندي أن نساfer برّاً في الذهاب حتى نشاهد السواحل والجبال ، ونعود بالباخرة ، وهكذا كان .

ودنّت بورصة ، فكان منظراً خلّاباً جميلاً ، امتدّت المدينة على مسافة شاسعة ، وبدت منائر المسجد كأطراف المراسم الطويلة ، لقد كانت هي مدينة رومية فتحتها مؤسسّ الدولة العثمانية السلطان عثمان خان الأول ، وكان فتحاً عظيماً ، ولما فتح السلطان محمد الفاتح إستانبول انتقلت العاصمة من بورصة إليها .

وصلنا بورصة الساعة الثانية عشر ونصفاً ، وخرجنا بعد العصر للتفرّج على الجبال والمدينة ، ثم زرنا نواحي المدينة ، وهناك مدرسة الوعّاظ والخطباء ، ومدارس لتحفيظ القرآن الكريم في عدد لا بأس به ، وقيل: إن حوالي ألف طالب يحفظون القرآن الكريم في هذه المدارس بمدينة بورصة ، ويوجد عدد كبير في هذه المدينة من المجاهدين البلغاريين الذين فرّوا بدينهم من بلغاريا وعداوتها للإسلام ، وضراوتها بدماء المسلمين وإبادتها العنصرية ، وكان نزولنا بمنزل أحد الأخوة البلغاريين ، وقد سجّل مضيفنا البلغاري انطباعاتنا عن هؤلاء الإخوة البلغاريين ومواساتنا لهم حتى يُسمعوها الإخوة الآخرين .

خرجنا من بورصة في اليوم التالي الساعة التاسعة لإستانبول ، ووصلنا بعد ساعة بالسيارة إلى «يلودا» حيث وجدنا الباخرة جاهزة ، وكانت الرحلة بها ممتعة طيبة ، واستغرقت الباخرة ساعة ونصف ساعة حتى وصلت ساحل إستانبول ، وخرجنا في سيارتنا التي كانت في الباخرة إلى الشارع ، وقد كان برنامج المساء عند الشيخ يوسف كارا بمنزله الذي قضى أياماً في دار العلوم

لندوة العلماء لكهنؤ ، ويعرف اللغة الأردوية ، وقد قام بنقل عدد من الكتب الأردوية إلى اللغة التركية ، ثم كان موعد مع الطلبة العرب ، وقد كان الوقت متأخراً جداً ، ولكنهم كانوا كلهم شوقاً وآمالاً ، فحضرنا عندهم ، وألقيت عليهم كلمةً وجيزةً .

* * *

رحلة إلى باكستان

عام ١٩٨٦ م

يومان ونصف يوم في كراتشي:

كان اليوم التالي يوم الجمعة يوم الاستعداد للعودة ، وقد ضاع وقت كثير في محاولة الحصول على التأشيرة لباكستان ، وكنا نريد أن نصلي الجمعة في مسجد الفاتح ، ثم نتغذى ونحضر مؤتمراً صحفياً ، ولكن أُخْرنا الحصول على التأشيرة حتى اضطررنا لصلاة الجمعة في مسجد قريب من السفارة ، وفاتنا البرنامج في مسجد الفاتح ، وغادرنا إلى المطار بعد العشاء ، وكان موعد الطائرة الساعة الثانية والنصف ليلاً ، ولكنها تأخرت إلى الساعة الرابعة صباحاً ، ووصلنا كراتشي قريب الظهر ، ولم ندرك من هناك الطائرة إلى دلهي ، وأخيراً اضطررنا للنزول بكراتشي وقضينا بها يومين ونصف يوم ، وفيما يلي مذكرات هذه الأيام.

كان وصولنا إلى كراتشي يوم ٢٨/ يونيو قريب وقت الظهر ، ونزلنا كعادتنا في بيت العزيز السيد رشيد الحسن إمام وخطيب المسجد الجامع بينوري تاون ، وقد كانت هذه الإقامة ليومين ونصف يوم في كراتشي حيث يسكن ثلثنا أسرتنا ، وعددٌ كبير من أصدقائنا ومعارفنا ، ويوجد بها كثير من المدارس والمعاهد الإسلامية والمراكز الدينية ، لم تكن هذه الإقامة لِتُبَلَّ غُلَّتْهم ، بل تزيدهم غليلاً ، ولكن لم يتسع لنا المجال من الوقت ، وجاء في هذه المدة القرية القليلة أصدقاء وأقرباء من إسلام آباد ، وألقيت خطابين ، كان أحدهما في فندق ميتروبول في حفلة شاي عقدت ٢٩/ يونيو من قِبَل نادي فاران ، وقد رأس الحفلة السيد عبد الستار الأفغاني رئيس

بلدية كراتشي ، وكان الخطاب الثاني بتاريخ ٣٠/ يونيو ١٩٨٦ م في المسجد الجامع العظيم بحبي بنوري تاون بعد صلاة المغرب .

الأخطار الحقيقية على المجتمع الإسلامي :

كان عنوان الخطاب بفندق متروبول (الأخطار الحقيقية على المجتمع الإسلامي وطريق مقاومتها) وكان هذا الخطاب مؤسساً على تلك الانطباعات والمشاعر التي اعتملت في النفس نتيجة مشاهداتي أثناء إقامتي المتكررة بباكستان ، وقد ظهرت هذه المرة أكثر جلاءً ووضوحاً ، وأدعى للانتباه والتفكير .

وصادف إقامتي - وكان ذلك تقدير العزيز العليم - مجيء بينيظير بوتو إلى باكستان ، وكان العدد الكبير من المثقفين والسياسيين والمعارضين لحكومة الرئيس محمد ضياء الحق ، الذين عارضوها من البداية واشتدت معارضتهم أخيراً ، يستقبلها استقبالاً رائعاً ، كأن ملكاً منقداً نزل من السماء ، حتى زالت في هذا الصدد تلك الحواجز التي فرضتها الشريعة وفرضتها الحضارة الإسلامية ، ولقد صُدمَ بهذه المظاهر قلب المؤلف الذي يستقي فكره وعلمه من نبع القرآن الكريم ، وأكبر موضوع يركز عليه عنايته ودراسته هو موضوع الديانات والملل والأخلاق ، وتاريخ سقوط الأمم وانحطاطها وريقها وازدهارها ، ونفسية المجتمع البشري وأوضاعه ، فألقيت في ضوء كل ذلك خطاباً مفصلاً مؤثراً ، ذكرت فيه أن المقياس الذي يعرضه القرآن الكريم أمامنا للمجتمع الإسلامي الصالح هو أن يكون قد أشرب في قلبه حب الأخلاق الفاضلة والمثل العالية التي تتغلغل في أحشائه ، وتنطبع بها نفسه ، وأن يرفض هذا المجتمع كل دعوة أو حركة مؤسّسة على الطغيان ، واتباع النفس والهوى ، وهدر حقوق الناس ، وترك الطبيعة البشرية حبلها على غاربها ، والتضحية بأكبر المصالح الاجتماعية والدينية لإرواء غلّة الشهوات وتسلية النفس والجري وراء العواطف الهوجاء ، والأهواء العمياء ، وأن يكرها وينفر منها ويستقذرها .

واستشهدت على ذلك بآيات من القرآن الحكيم ، وطبقتُها على الأوضاع المعاصرة وقلت : إنَّ مجتمعنا يتَّبِع كل ناعق ، ويستمع لكل صوتٍ حسن ،

ويستقبل كل لاهٍ ولاعبٍ ، يمنيّه بالأمانى المعسولة ، وينقاد لكل من يرفع لواء القيادة ويتهافت عليه كأنه كان له في انتظار ، ويعتبر أنه ملاً الفراغ ، وإذا سمع صوته الرخيم لم يملك نفسه ، وكاد أن يتصدّع صدره عن قلبه ، وفكّ جميع الأواصر والقيود ، وتعدّى الثغور والحدود ، إنه مجتمع فاسد متميّع زائل .

لقد قال سيدنا علي رضي الله عنه ، وهو يخاطب أهل الكوفة : (أنتم أتباع كل ناعق).

ثم ذكرت لهم أنّ هناك قصة ذات عبرة وعظة من عهد سيدنا موسى عليه السلام - فصّها علينا القرآن الكريم ، قال تعالى :

﴿ وَجَنّوْنَا بِنَبِيِّ إِسْرَاءَ بِلِ الْبَحْرِ فَأَتَوْا عَلَي قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَي أَصْنَآئِرٍ لَهُمْ قَالُوا يَمُوسَى أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ بَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِعُوا مَا فِيهِ وَيَطْلُبُوا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٣٨ - ١٣٩].

إنّ هذه القصة تحمل لنا في طياتها عبرةً وعظةً كبيرة .

ثم ذكرت أمرين كمثال ، فيهما خطر كبير ، ودمار لأي مملكة أو مجتمع ، أحدهما : وجود الفوضى الفكرية فيه ، والثاني : التنافس في جمع الأموال والحرص عليها ، والتظاهر بمظاهر الثروة الفاحشة ، وقلت : إنّ نجاح مجتمعكم بكم ، لا يصلح الفرد بغير صلاح المجتمع ، ولا المجتمع بغير صلاح الفرد ، فينبغي أن يصرف كُتّابكم ومفكروكم وأدباؤكم وعلماءكم ووسائل الإعلام عندكم العناية البالغة بمقاومة هذين الخطرين .

الشكر على النعم ، والموازنة الحكيمة :

وخطبت في المسجد الجامع بحي بنّوري تاون ، وكان موضوعه : «الشكر على النعم» ، فقلت : إنّ الشكر ليست كلمة تقال باللسان أو ألفاظ الحمد والثناء التي يلفظها الإنسان فحسب ، بل إنّ الشكر منهج مستقلّ للحياة وموقفٌ دائمٌ وكيفية نفسية خاصة ، ثم لفتُ أنظار الإخوة الباكستانيين لا سيما الذين نزحوا إلى باكستان من الهند ، إلى ما أنعم الله به عليهم من نعم وخيرات ، نعمة الأمن والسلام ، ونعمة المجتمع المسلم والحكومة

المسلمة ، والفرص المواتية لاستخدام صلاحياتهم وكفاءاتهم بحرّية ، كم منكم من يذكر وضعه القديم ، كيف كنّا وكيف أصبحنا بفضل من الله ونعمة ، وإلى أين وصل مستوى معيشتنا ، كم لكم من التسهيلات هنا للعمل بالتعاليم الإسلامية ، والبقاء على الشخصية الإسلامية ، وكيف حفظكم الله - تعالى - من كثير من المشاكل والمصائب والتعرض للطائفية الحاقدة ، والمذابح الجنسية الدينية ، والمضايقات الاقتصادية ، فتذكروا دائماً ما كنتم فيه من محنة وعدم هدوء واستقرار ، وما انتقلتم إليه من سلامة وكرامة ، وما أنعم الله به عليكم من رخاء وثراء .

لقد نوّه الحديث النبوي بموضع ضعف في جنس النساء ، عليكم أن تجتنبهن ، وهو أنه ﷺ قال : «يَكْفُرُنَ العشير ، لو أحسنتَ إلى إحداهنَّ دهرًا ثم رأت منك شيئًا . قالت : ما رأيت منك خيراً قط» ، فاحذروا من نكران الجميل ، والتذمُّر الدائم ، إن هتاف : «هل من مزيد» قد يؤوّل ، وقد يكون له مبرّر ، أما هتاف : «هل من جديد» دائماً فإنه ينذر بخطر ، ويجعل المجتمع في اضطراب وعدم ارتياح دائماً ، ويجعله مستعداً لقبول كل شيء جديد ، وقد أصبح هو شعار كثير من المجتمعات ، ثم ذكرت ما هو واقع في بعض الأقطار الإسلامية من التسرّع والقلق الزائد ، والنقد في محله وغير محله ، وعدم الاعتراف بما يجب الاعتراف به ، والتشكر عليه ، فيجب أن يكون منهج عملكم وتفكيركم واقعياً إيجابياً بنّاءً ، ويجب أن تقارنوا بين بلادكم والبلاد الأخرى ، وتدعوا الله تعالى أن يُديم عليكم من النعم ما آتاكم ، ويزيدكم من فضله نعماً كثيرة ، ولا يجوز مواجهة كل شيء باليأس والقنوط ، أو بالمجابهة والمعاكسة ، بل ينبغي قبل اتخاذ موقف الهجوم والمجابهة ضد الحكومة والمسؤولين عنها ، محاولة إقناعهم بما ترون ، وإفهامهم قضيتكم التي تريدون .

وضربت لهم المثل بالهند - البلاد العلمانية الديمقراطية - التي ليست أكثريتها غير مسلمة فحسب ، بل ولدت فيها نتيجة مرورها بمرحلة تاريخية خاصة (بل مراحل متعددة) وظروف وأوضاع خاصة ، حساسية زائدة تحول دون التفكير الجادّ الواقعي في قضية من قضايا الأقلية ، وعواطفها

وضرورتها الدينية ، وزد على ذلك موقف الصحافة الهندية والإنكليزية المنتكر الهجومي ، بالرغم من كل ذلك لما استخدمنا طريق الإفهام والإقناع مع رئيس الوزراء فيها ، وقدمنا قضية الدفاع عن قانون الأحوال الشخصية الخاص بالمسلمين ، بدون تلوين سياسي وحماس مثير ، أنتج ذلك أن رئيس الوزراء لم يقتنع بالقضية فحسب ، بل تبنى القضية واحتضنها ، ودافع عنها باقتناع وحماس ، وعرض المشروع في البرلمان الهندي للاحتفاظ بهذا القانون الخاص بالمسلمين ونقض ما أصدرته المحكمة العليا من حكم ، حتى وافق عليه البرلمان وأصبح تشريعاً ، ألا يمكن أن تتخذوا هذا الموقف والمنهج في بلد مسلم ومع رئيس مسلم متديّن؟ .

ثم قلت لهم: إنَّ أنجح تجربة للدعوة والإصلاح والثورة البناء هي التجربة التي قام بها الإمام أحمد بن عبد الأحد السرهندي ، فقد حاول - بتعبير أحد العلماء اليمينيين - أن يوصل الإيمان إلى أصحاب الكراسي ، بدلاً من أن يحاول وصول أصحاب الإيمان إلى الكراسي ، فقد استطاع الإمام السَّرْهَنْدِي بموقفه الدعوي الإيجابي تحويل أصحاب العرش والسلطة إلى حُماة للإسلام ، ورافعي لوائه الذين قاموا بأداء الدور ، الذي كان يريد هو أن يؤديه .

وكانت لي محاضرات أخرى غير هذين الحديثين في مدارس وجامعات ومراكز دينية ، واجتماعات إسلامية ، وقد صارت فيها الحضور بأن المدارس والدعوات الدينية لا تقوم على التاريخ الماضي وعلى الرصيد من أعمال الأجيال الماضية ، بل تقوم وتعيش على الحركة والعمل وتقديم المزيد الجديد في مجال الدعوة والقيادة ، وإنه لا يُجدي نفعاً أن نعتزّ دائماً بسلفنا وكبرائنا ، ونهتف بهم ونردّد أسماءهم ، فقد يتضجر بذلك السامعون ويملّون هذا التريد في مناسبة وغير مناسبة ، ثم أنذرتهم خطر العصبية اللغوية والإقليمية ، ونهتتهم إلى ضرورة الدعوة والإصلاح والتعليم والتربية في هذه المناطق والشعوب التي يُخشى منها هذا الاتحاد المدمر .

وعدنا بسلامة الله تعالى آمين في ٣٠/ يونيو إلى دلهي .

لقاء أخير مع الرئيس الباكستاني الجنرال محمد ضياء الحق :

في خلال الزيارة لباكستان ، ولعله كان ٢٩/ من يونيو ، وكنت في منزل أحد أحبائي ، وهو منصور بتله ، رحمه الله ، على غداء ، إذ دقَّ الجرس ، فقال لي المضيف : إن الرئيس يتكلم ويسأل عنك ، ولا أعرف كيف علم الرئيس ضياء الحق وصولي ، فالتقطتُ السَّماعة ، وكان الرئيس يتكلم بنفسه فرحَّب بي على وصولي بسلامة في بلاده ، وأعرب عن سروره ، ووجَّه الدعوة لزيارة إسلام آباد ، فاعتذرت وقلت : إن الوقت ضَيِّقٌ ، ولا يتسع لزيارة إسلام آباد ، وتمَّت المكالمة التليفونية بدون تحديد موعد ، وبالليل تلقيت مكالمة تليفونية في مقر إقامتي ببوري تاون ، تقول : إن الرئيس نفسه يصل إلى كراتشي ، وطلب مني أن أخصَّص اليوم التالي له ، ولا أعطي أي موعد ذلك اليوم لأحد ، وكان ذلك اليوم يوم عودتي إلى الهند ، وكان موعد الرحلة بعد الظهر ، وفي الصباح اتصل بي أحد الضباط العسكريين ، وقال : إن الغداء مع الرئيس ، وسألني عن أسماء من أريد أن يرافقوني ، فذكرت له بعض الأسماء منه : العزيز المقرئ السيد رشيد الحسن من أحفاد الأمير السيد صديق حسن القنوجي البوفالي ، وزميلي القديم الأديب الجليل الأستاذ محمد ناظم الندوي ، ومرافقي العزيز محمد الرابع الحسن الندوي .

ووصل الجنرال ضياء الحق كما وعد ، وتغدينا معه في القصر الرئاسي ، وصلينا الظهر في المسجد الذي يقع في ساحة القصر ، وكان هذا اللقاء متواضعاً أخوياً أبدياً فيه الجنرال ضياء الحق كل بساطة وثقة^(١) .

(١) أُستشهد في انفجار طائرة عسكرية في ١٧ أغسطس سنة ١٩٨٨ م كانت نقله في رحلة داخل باكستان . وقد سعى - رحمه الله - خلال فترة حكمه إلى تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية ، كما وقف إلى جانب المجاهدين الأفغان في حربهم ضد الاحتلال الشيوعي لبلادهم ، وسهَّل وصول المعونات إليهم عبر الأراضي الباكستانية ، كما قام عام ١٩٨١ م بدور مهم في اللجنة التي شكلها مؤتمر القمة الإسلامي لتسوية النزاع الإيراني العراقي ، كان يحبُّ سماحة الشيخ الندوي ، ويستشيره في شؤون الحكومة الدينية .

ومما أدهشني أنّ الرئيس كان على علم بما اتخذته حكومة المستر راجيف غاندي ، رئيس وزراء الهند من إجراء في قضية المرأة المطلقة التي من أجلها شنت هيئة الأحوال الشخصية الإسلامية لعموم الهند حركة شاملة عمّت جميع أرجاء الهند ، وكان العلماء قد لعبوا فيها دوراً رائداً ، فقدّمت الحكومة مشروع قانون أعد (بالتشاور مع علماء الهند ، وفي ضوء مقترحات هيئة الأحوال الشخصية) وأظهرت حكومة راجيف غاندي في هذه القضية الحكمة والاعتراف بالواقع ، وعلمت في ذلك اللقاء أنّ الرئيس ضياء الحق أعرب عن تقديره لهذا الموقف ، كما تعجبت أن بعض الضيوف في تلك المأدبة ، كانوا في ظلام بالنسبة لهذه القضية ، ولم يعرفوا إلاّ بهذا الحديث الذي جرى مع الرئيس .

* * *

رحلات إلى إنكلترا والجزائر

عام ١٩٨٦ م

المشاركة في جلسة المركز الإسلامي بأكسفورد:

كان موعد الجلسة الإدارية للمركز الإسلامي بأكسفورد ٢٧/ أغسطس ١٩٨٦ م ، وموعد ندوة مجلس البحوث الإسلامية العالمية لكسمبرغ بالقاهرة في أول سبتمبر ، وكانت لي صلة مسؤولة بها فنويث الحضور فيهما ، وأردتُ لإلحاح الأستاذ الأكبر الشيخ جاد الحق علي جاد الحق شيخ الأزهر الشريف ، على حضوري ومحاضراتي بالأزهر الشريف ، أن أعود عن طريق القاهرة إلى الهند ، فلما قرر مجلس البحوث الإسلامية العالمية - الذي كان أكثر أعضائه بمصر - عقد جلستها بالقاهرة ، كتبت إلى سماحة شيخ الأزهر بأنني أستطيع أن ألبّي دعوتكم في عودتي من لندن في الأسبوع الأول من سبتمبر ، ووصلنا - وكان مرافقي العزيز محمد الرابع الحسيني الندوي - صباح ٢٦/ أغسطس ١٩٨٦ م إلى لندن وإلى أكسفورد ظهراً ، وأقمنا من ٢٧/ إلى ٢٩/ أغسطس بأكسفورد ، ثم توجهنا إلى لندن ، وأقمنا بها يومين ٣٠-٣١/ ، وجاء اعتذار من فضيلة شيخ الأزهر عن التاريخ المُقترح من القاهرة ، وشعرت بأنهم لم يروا زيارتي لمصر في الأوضاع السياسية المتغيرة ، ونظراً إلى قرب الانتخابات العامة ، مناسبة في ذلك الوقت ، فرأينا كذلك من غير اللائق أن أسافر للمشاركة في جلسة مجلس البحوث الإسلامية ، وأقيم بمصر من غير ترحيب من جهة الأزهر وموافقة الحكومة المصرية ، وألغيتُ برنامج السفر لمصر في تلك الآونة ،

وقصدت حضور الملتقى الإسلامي العالمي بالجزائر - الذي كنت حضرته مرة من قبل في يولييه ١٩٨٢ م ، وكنت اعتذرت عنه هذه المرة لسفر مصر ودعوة الأزهر ، فلما ألغى ذلك صحَّ العزم على السفر إلى الجزائر ، ويمتاز هذه الملتقى بين الملتقيات والمؤتمرات والندوات التي تعقدها الحكومات والمنظمات بالعالم الإسلامي والعربي ، بميزات وأهمية خاصة .

في ملتقى الجزائر :

كان عنوان هذا الملتقى الإسلامي بالجزائر: «الإسلام والعلوم الإنسانية» ، وكنت قد أعددت محاضرة مفصلة بعنوان: «دور الإسلام الثوري البناء في مجال العلوم الإنسانية»^(١) وكنت بعثت بصورة منها إلى سكرتير الملتقى ، وقد كان يعقد هذا الملتقى هذه المرة بسطيف إحدى المدن المركزية بالجزائر وتقع على بعد ٣٠٠ كيلو متراً من العاصمة «الجزائر» ، وهي مدينة عامرة من عهد الرومان ، ولا يزال له اسمها الرومي ، ومن سعادة حظَّ هذه المدينة ، أنها كانت مركز حركة التحرير الجزائرية ، وموطن قائدها وزعيمها الشيخ بشير الإبراهيمي ، كما أنها عاصمة الولاية أيضاً ، وكنا حضرنا الملتقى في عام ١٩٨٢ م في تلمسان ، ويحاول المعنيون بالملتقى أن يعقدوه كل عام في مدينة رئيسية جديدة حتى يستطيع الناس من المدن الكبرى الاستفادة ، ويتيسر للمندوبين والضيوف زيارة مختلف مدن البلد والاجتماع بعلمائها وأهل الفضل فيها .

غادرنا لندن إلى الجزائر ظهر يوم الإثنين ١/ سبتمبر ، ونزلنا بمطار الجزائر وقت المغرب ، وقد كان على المطار هذه المرّة - بالعكس من المرة السابقة التي وصلنا فيها متأخرين ليومين - مستقبليون ذهبوا بنا إلى فندق كبير ، وتوجهنا صباح اليوم التالي يوم الثلاثاء ٢/ سبتمبر إلى قصر الملتقى بمدينة سطيف ، وقد أدركنا الجلسة الافتتاحية التي بدأت ساعة ١١ ضحى ، وقد أتاحوا لي فرصة إلقاء كلمتي في البرامج الأولى من الملتقى ، وكانت

(١) انظر هذه المحاضرة بكاملها في كتاب: «محاضرات إسلامية في الفكر والدعوة» للعلامة أبي الحسن علي الحسيني الندوي .

قد طُبِعَت على الآلة الكاتبة ، ووُزِّعَت على الحاضرين ، وكنت أعددت ترجمتها الإنكليزية التي كانت معي ، وكان بعد إلقاء المحاضرة نقاش ، وصلينا الجمعة مع الوالي في المسجد الذي بُني حديثاً في المدينة ، وسُمِّي باسم الشيخ بشير الإبراهيمي ، وقد قامت ببنائه وزارة الأوقاف ، وافتتح المسجد بصلاة الجمعة فيه ، وقد أُلقيت في هذا الملتقى حوالي ٢٧ - ٢٨ محاضرة أعدّها للملتقى كبار الأساتذة الجامعيين ، ورجال الدعوة والفكر الإسلامي .

محاضرتي في الملتقى :

يحلو لي أن أورد هنا موجزاً من محاضرتي ، فإنها تشتمل على نقاط مهمة .

أثبتُّ في محاضرتي أولاً أن الإسلام قام في مجال العلوم الإنسانية بدور جذري بناءً ، وقد استعرضت فيها العصر الذي بلغت فيه اليونان وإيران والهند - التي قادت العالم في فترات مختلفة علمياً وفكرياً وحضارياً - أوج ازدهارها ورقبتها وسلطتها واستيلائها ، استعراضاً واقعياً محايداً ، وذكرت في ضوء تصريحات المؤلفين والمؤرخين الغربيين ما وصلت إليه العلوم العقلية من الفلسفة والمنطق والرياضيات والأدب والشعر في هذه البلدان ، من أوج الرقي والازدهار ، وكيف كان فلاسفة هذه البلدان وعباقرتها ونوابغها يصيدون النجوم ويقتنصون المجرات ، ويشقُّون الشعرة ، وكيف كان بينها تبادل العلوم والفنون والآراء والفلسفات والحضارات .

ثم صرَّحت بنقول مقتبسة من كتابات المؤرخين الغربيين الثقات ، بأن هذا العلم والذكاء والعبقرية والدقة والعمق والطيران في الأجواء العلمية والعقلية - الذي لم يحفظ التاريخ المحفوظ مثيلاً له في التحليق في عالم الخيال والافتراضات العقلية - لم يمنع هذه البلدان الثلاثة - اليونان ، وإيران ، والهند - من التعارض والتناقض المحير في عملها وسلوكها ، وإلى أن وصل علم الأصنام والميثالوجية اليونانية من السخرية والاستخفاف بالعقل والتسفل والتردي والاعتقاد بالأوهام والخرافات والإفلاس العقلي

والعلمي الشائن القبيح ، إلى حد لا يتصور لهوله ، وأنه لم يحلّ علمها وعقلها ورقئها الفكري المزعوم دون هذا الإسفاف العقائدي والانحطاط الخلقي ، وقد كانت هذه البلدان كلها ، في هذا المضممار على قدم واحد ، ثم كانت الفوضى الخلقية والاجتماعية والانحراف والشذوذ ، بلغ إلى ما لا يُتصوّر أكثر منه في هذا العصر المليء بالفتن أيضاً ، وقد وردت في هذا الصدد تصريحات للمؤرخين الغربيين عن اليونان وشهادات المؤرخين الإيرانيين والهنود عن الهند وإيران ، يتندّى لها جبين الحياء ويحمرّ لها وجه الشرف والإنسانية .

ثم تناولت ذكر حركات قامت كردّ فعل لهذا الجنون فعالجت الجنون بجنون آخر ، وحيرة مردية وتطرّف جامح ، وفقدت تأثيرها ، ولم تحدث أي تغيير ، ثم حاولت حل هذا اللغز وكشف النقاب عن حقيقة الأمر والسبب الأصيل الكامن وراء ذلك ، وصرّحت في ضوء العلم والمعرفة والحقائق بأن السبب الأصيل وراء كل هذا التناقض العجيب ، أن هذه البلدان الثلاثة كانت قد انقطعت صلتها بتاتاً في عصر ازدهارها المادّي وتقدّمها الفلسفي عن الهداية السماوية والنبوة والرسالة ، بل كان اليونان وبعض البلدان الأخرى تعزّز بعلمومها وفلسفاتها ، وتتيه بعبقريتها العقلية المزعومة ، وتنظر إلى تعاليم الأنبياء نظرة احتقار وازدراء ، وكانوا يقولون - قاتلهم الله - صلفاً وتكبّراً: ماذا يوجد عند الأنبياء من جديد ومفيد حتى يعلّمونا ، ويزيدوا في ثروة معارفنا؟ ، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الإعجاب بأنفسهم بقوله :

﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [المؤمن : ٨٣] .

ثم شرحت الحاجة إلى النبوة والرسالة ، وذكرت مُعطيات الأنبياء ، وأنهم يرسون دعائم العقائد والأعمال والحضارة والأخلاق ، ثم ذكرت أن العلوم والثقافات والإنتاجات العقلية لم يكن لها أثر في تلك البلدان على المجتمع والحياة العامة شيئاً ، بل كانت تحدث تناقضاً عجيباً بين العلوم

والأخلاق ، ووحشة وتنافراً بين العلماء والعامّة ، وتبعثراً في الوحدات العلمية وانفصاماً بل تخاصماً وصداماً ، فلم تكن هناك أيّ صلة بين العلم والعمل ، وأي باعث ودافع للإصلاح والتغيير للمجتمع في العلماء والفلاسفة ، وأي شعور بالمسؤولية ، بل كانوا يعيشون في أبراجهم الفلسفية العاجية ، ويدورون في فلك الحياة الرخيصة المترفة ، ويهيّمون في دنيا الأحلام والفروض العقلية .

فلما جاء الإسلام تناول هذا الوضع فغيّره من أساسه ، ونفخ في العلوم الإنسانية روحاً جديدة ، ووجهها وجهةً صالحةً جديدةً ، وربط صلتها بأهدافها الحقيقية ، وأقام علاقتها بفاطر الكون ثم بالكون والحياة البشرية بجميع شعبها وفروعها ، وجمع بين الوحدات العلمية المتناثرة وجعلها متماسكة يشدّ بعضها بعضاً ، وحوّل أهل العلم والفضل وأصحاب الوعي والفهم أمناء مراقبين للمجتمع ، ومسؤولين محتسبين ، وهداة معلّمين للجهلة الأميين ، وأوجد فيهم ليس الشعور بالمسؤولية أمام الله - تعالى - فحسب ، بل اليقين الجازم والخشية القائمة من رب العالمين ، وهداهم إلى بدء سلسلة الدراسة والتعليم والبحث عن الحقائق والكشوف العلمية والحركة التربوية والتعليمية باسم الرب - عز وجل - والقيام برحلة العلم في هدايته وإرشاده ، فإن أودية العلم شائكة وعرة مليئة بقُطّاع الطرق تتعرّض فيها القوافل للغارات جهاراً نهاراً ، ويضل فيها المشاة والركبان ، فقد بدأ الكتاب الإلهي وحيه الأول بقوله :

﴿ أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ [العلق : ١] .

ثم ذكرت حركة الإسلام العلمية العالمية وخصائص قاداتها وممثليها ومميّزاتهم ، وأوردت نماذج وشواهد على ذلك وقصصت أخيراً على المستمعين - لأرفع شيئاً من الملل والسآمة في الاستماع إلى محاضرة علمية طويلة - قصة خفيفة مسلّية ، فقلت :

(يُحكى أن فريقاً من تلاميذ المدارس ركبوا سفينةً للنزهة في البحر أو الوصول إلى البر ، فتناولوا في الطريق المجدّف للسفينة موضوعاً للتنادُر

والتسلية والدعابة ، وبدؤوا يسألونه عن أسماء العلوم والمعارف التي تلقوها ، هل درست كذا ، وقرأت عن كذا؟ ، فكان يجيب بالنفي ، ويبيد جهله بهذه المواضيع ، فسألوه عن عمره فلما أخبرهم بذلك ، قالوا: إنك ضيعت نصف عمرك! ، وقدّر الله أن هاج البحر وماج ، وارتفعت الأمواج ، فجاء دور الملاح الأمي فتوجّه بالسؤال إلى أولئك الطلاب ، وقال لهم: هل تعرفون يا أبنائي السباحة في البحر؟ ، قالوا: لا والله يا عم ، هنالك قال الملاح: إذا كنتُ قد ضيعتُ نصف عمري فقد أتلفتُم عمركم كله ، لأنّ هذه العلوم لا تغني عنكم في هذا الطوفان ، إنما كان ينجدكم العلم الوحيد وهو علم السباحة الذي تجهلونهُ).

كذلك فإنّ العلم الذي تحصل به النجاة ويعبر به بحر الحياة بأمن وسلام ، إنما هو العلم الذي يقتبس من مشكاة الأنبياء - عليهم الصلوات والتسليمات^(١).

مكثنا في سطيف من ٢/ سبتمبر إلى الجلسة الختامية للملتقى عصر ٥/ سبتمبر ، وكان قد حضر هناك مجموعة طيبة من الأساتذة العرب الفضلاء ، كان منهم عدد من الأصدقاء القدامى ، التقينا بهم وجلسنا معهم ، وأجرى هناك معنا ممثل صحيفة «الأهرام» المصرية مقابلة صحفية ، كان فيها حديث حول القضايا المعاصرة المهمة .

رجعنا يوم الجمعة عصرًا بالسيارة إلى مدينة الجزائر ، وقد وصلناها وقت العشاء ، وكان المسؤولون عن الملتقى حجزوا لنا مقعدين في الدرجة الأولى من طائرة الخطوط الجزائرية إلى القاهرة ، ومنها في طائرة الخطوط السعودية إلى جدة ، ولم تكن هناك طائرة مباشرة للخطوط الجزائرية في ذلك اليوم إلى جدة ، قضينا الليلة في الفندق ، ثم غادرنا الصباح إلى

(١) نشرت هذه المحاضرة من دار الصحوة بالقاهرة ، ودار ابن كثير بدمشق بعنوان: «دور الإسلام الجذري البناء في مجال العلوم الإنسانية».

القاهرة ، وسُررنا بالإشعار المطبوع في الطائرة الجزائرية بأن اللحوم كلها مذبوحة حلال ، لا شبهة فيها .

وصلنا القاهرة في الساعة الحادية عشرة ، وقد كنت وضعت قدمي بعد ١٩٥١ م أي بعد ٣٥ - ٣٦ عاماً على أرض مصر ، وقع بصري على لافتة على واجهة المطار ، كتبت عليها الآية القرآنية : ﴿ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ ، ولعله ليس هناك بلد في الدنيا ناسبت للافتة مدخلها آية مثل بلد مصر ، ولكننا لم نجد المسؤولين والموظفين في المطار بالقاهرة من المعاملة ما كانت توحى به الآية الكريمة ، فقد كانت عندنا تذكرتان للدرجة الأولى ، وكان المقعدان محجوزين إلى جدة ، ولكن لم يكن هناك من يعتني بنا وييسر لنا مهمتنا ، فكان الموظفون يؤثرون التكلم باللغة الإنجليزية على التكلم بالعربية ، وإذا سئلوا عن شيء جاء منهم رد قانوني جاف ، ولا مكان للراحة والاستجمام ، ولا تسهيلات للوضوء والصلاة ، وإذا توجهنا بالسؤال إلى أحد ردوا علينا بأن انتظروا إقلاع الطائرة .

وهكذا قضينا ساعات من الساعة الحادية عشرة ضحى إلى الساعة السادسة مساءً ، وكان التاريخ غرة محرم و٦/ سبتمبر ، وغادرنا أرض مصر وقت المغرب ، ووصلنا العشاء إلى جدة ، حيث شعرنا كأننا وصلنا إلى وطننا ومكثنا يوماً وليلتين بجدة ، ثم توجهنا إلى المدينة المنورة في ٨/ سبتمبر حيث بقينا إلى يوم الجمعة ثم سافرنا في ١٣/ سبتمبر يوم السبت إلى مكة المكرمة .

وفرغنا بها من أداء العمرة ، وأقمنا بها من ١٣/ إلى ١٩/ سبتمبر يوم الخميس ، وخرجنا عن طريق الكويت إلى دلهي في ٢٠/ سبتمبر .

رحلة إلى ماليزيا عام ١٩٨٧ م وخطب ومحاضرات في مختلف احتفالاتها وندواتها ومنظماتها الإسلامية

تقع ماليزيا التي كانت تسمى فيما قبل ملايا ، في صورة شبه جزيرة في شرق خليج بنغال ، وتقع بمقربة منها ، وعلى جوانبها جزرٌ كثيرة تُكوّن جزءاً من الشرق البعيد ، وتقع ماليزيا في الجانب الغربي من هذه المنطقة ، ومن بلدانها المجاورة لها: أندونيسيا ، والفلبين ، وبورنيو ، وبورما ، وتايلندا .

إنَّ اتجاه رحلات المؤلف أكثر الأحيان كان إلى الشمال والغرب ، تحتوي من البلدان الإسلامية على الجزائر ومراكش والرباط ، ومن البلدان غير الإسلامية أروبة وأمريكا وكندا ، وقد سافرت مرّة إلى سري لنكا في الجنوب ، وإلى بورما ، وبنغلاديش مرة في الشرق .

لقد تخرّجَ عدد من شباب ماليزيا في دار العلوم لندوة العلماء ، وامتازوا بصلاحتهم وصلاحتهم ، كما تخرّجَ عدد من شباب أندونيسيا في دار العلوم ، ثم اختاروا ماليزيا لقربها من أندونيسيا ووحدة اللغة والجنسية والطبيعية ، مجالاً لنشاطاتهم الدينية والتعليمية والدعوية ، ويشاهد في هذا البلد في الآونة الأخيرة اهتمام زائد بالدعوة والأخوة الإسلامية وحماس بالغ لها ، وقد حاز الخريجون الندويون لعلمهم وثقافتهم وجدّهم واجتهادهم واتجاههم إلى العلم الدعوي ، مكانةً محترمة في الأوساط الإسلامية الدعوية والتربوية ، وحظوا بثقة واعتماد من منظماتها وحركاتها الإسلامية ، وقد قام وفد مكوّن من أستاذين من أساتذة دار العلوم ندوة العلماء: الشيخ

نذر الحفيظ الندوي^(١) ، والشيخ شمس الحق الندوي^(٢) بجولة في هذه البلاد ، وكانت جولتهما أيضاً من دوافع توجيه الدعوة إلينا من جهة بعض مُنظّماتها ، فقد اتصل الفضلاء الندويون ببعض المنظمات الإسلامية لا سيما حركة «أبيم» (أي حركة الشباب المسلم) النشيطة القوية ، ووجّهوا إلينا عن طريق هذه المنظمة دعوة لزيارة ماليزيا ، وإلقاء محاضرات وخطب بها ، وألحوا عليّ لصلتهم وعلاقتهم بالندوة .

وحركة «أبيم» هناك أقوى الحركات الشبابية وأكثرها تأثيراً ، تحمل الفكر الإسلامي والأهداف الإسلامية السليمة ، وتعمل في مجال الدعوة نظراً إلى الخطوط العقلية الجديدة ، وتملك عقلية متفتحة ، وإدراكاً لقضايا العصر ومشكلاته ، وبصراً بالأوضاع والظروف ، وتخطّط برامجها مع مراعاة هذه الأمور ، ويشغل رئيسها السابق السيد أنور إبراهيم الآن منصب وزارة التربية في البرلمان ، وقد أبدت المنظمات الأخرى كـ«الحزب الإسلامي» ، والعاملون في المجالات الدعوية ، وأصحاب جماعة الدعوة والتبليغ ، عناية كبيرة برحلتنا هذه ، وبذلوا جهودهم في الانتفاع بهذه الزيارة والاستفادة منها وإنجاح برامجها ، وكان على رأس الواضعين والمخطّطين للبرامج والمرافقين مدّة إقامتنا بها ، العزيزان الفاضلان من خريجي الندوة - حديثاً - : العزيز أحمد فهمي زمزم ، والعزيز علي رجب .

من دلهي إلى كوالالمبور :

اخترتُ لمرافقتي بادىء الأمر في هذا السفر إلى ماليزيا العزيز الأستاذ محمد الرابع الحسيني الندوي الذي كان الخريجون الندويون على صلة قوية به ، وكان أكثرهم من تلامذته وخريجيه ، ولكنني رأيت بناءً على التجارب

(١) أحد أكبر تلاميذ سماحة الشيخ الندوي ، وأقربهم منه وأدراهم به ، تخرج في دار العلوم - ندوة العلماء ، ثم في الأزهر ، يعمل الآن أستاذاً للأدب العربي في دار العلوم - ندوة العلماء .

(٢) أحد كبار أساتذة دار العلوم - ندوة العلماء ، ورئيس التحرير لمجلة «تعمير حياة» الأردنية .

السابقة في الأسفار الطويلة ، ولضعفي وكبر سني أن أخذ مرافقين ، ولقد كان سماحة الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي أشار عليّ بأن أستصحب في أسفاري الخارجية مرافقين ، ولم تكن قد أتضح لي أهمية ذلك ، ولكن التجارب أيدت هذا التوجيه والوصية .

وقد كان من تأييد الله - تعالى - ورحمته الخاصة في هذا السفر أن رافقني العزيز السيد غلام محمد الحيدر آبادي الذي كان يعمل مهندساً في مطار جدّة سابقاً ، ورجع إلى وطنه حيدر آباد ، وكان يحب أن يرافقني في الأسفار الخارجية ، فلما علم بهذا البرنامج تقدّم برغبته في المرافقة على نفقته ، وألحّ على ذلك ، فرأيت للصلة الخاصة به ولحاجتي قبول هذا العرض .

وسافرنا نحن الثلاثة يوم الخميس ٢/أبريل ١٩٨٧ م إلى ماليزيا بالخطوط الروسية ، ولم تكن هناك طائرة مباشرة ذلك اليوم إلى كوالالمبور إلاّ هذه الطائرة الروسية ، ووصلنا إلى مطار كوالالمبور حيث جاء نائب رئيس الجامعة العالميّة الإسلامية بكوالالمبور الدكتور عبد الرؤوف المصري ، وعدد من الأخوة الندويين والمُمثّلون لجهات مختلفة ومنظمات متعددة ، كان منهم مدير إدارة جمعية التربية الإسلامية بقَدَح الشيخ نعمت يوسف الماليزي ، ولم تأخذ الإجراءات الرسمية لمكان هؤلاء المستقبلين الذين كان لهم تأثير ونفوذ وقتاً كثيراً ، ووصلنا إلى مقرّنا الساعة الثانية والنصف .

والفرق بين الهند وماليزيا فرق ساعة ونصف ساعة ، وقد زيدت فيه ساعة لمراعاة المواقيت في زمن الصيف ، وقد استغرقت الرحلة من دلهي إلى كوالالمبور خمس ساعات أصلاً ، إلاّ أنه لو راعينا الفرق في المواقيت لكانت سبع ساعات ونصف ، كنا خرجنا في الصباح ووصلنا ظهراً .

كوالالمبور أكبر مدينة في ماليزيا ، وعدد سكّانها مليون نسمة ، ولا تقلّ في نظافتها ونظامها ومدنيّتها ومستواها المدني عن أي مدينة متوسطة في أوربة ، ومطارها كذلك يساوي مطارات أوربة ، ومستواها في عمائرها وشوارعها وأسواقها ومواصلاتها ونظامها مثل مستوى أوربة ، ولكن بما أن

أكثرية سكّانها مسلمة ، تجد هناك سِمَةً ظاهرة من أخلاق المسلمين وعاداتهم .

أما المسلمون الهنود الذين يزورونها فإنهم لا يشعرون - سوى فارق اللغة والجنسيّة - بأيّ وحشة أو غربة ، بل قد لا يشعرون في أوساط المثقفين لاشتراك اللغة الإنكليزية وشيوعها فيما بينهم بأي فارق .

لم يكن هناك أيّ برنامج لأي احتفال أو ندوة يوم وصولنا إلى ماليزيا ، إلّا أنه زارنا بعد المغرب المسؤولون عن حركة «أبيم» الذين كانوا مُضيفين وأصحاب الفكرة في هذه الزيارة ، وكانت جلسة معهم أخوية خفيفة ، وقد ألقيت بعض الكلمات حول صفات الداعية وأصول الدعوة ، وضربت لهم أمثلة من التاريخ الدّعوي الإسلامي ، وانفضّ هذا المجلس بعد التعارف والأحاديث المتبادلة .

السفر إلى ترنكانو والمحاضرات بها :

ووضع برنامج السفر يوم ٣/ أبريل إلى ترنكانو الولاية الشمالية الشرقية بماليزيا ، وكان علينا أن نتوجّه إليها صباحاً بالطائرة ونرجع إلى كوالالمبور في المساء ، وتقع هي على بعد ٢٥٠ كيلومتراً من كوالالمبور ، فخرجنا مبكرين إلى كوالا ترنكانو عاصمة ترنكانو ، ويوجد بها أحد الدعاة الفضلاء الشيخ عبد الهادي الحاج أونج الذي تخرّج من الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، ثم عمل بعد عودته إلى الوطن في المجالات التعليمية والتربوية والدعوية ، وله نفوذ وتأثير شعبيّ كبير ، يخطب كل يوم جمعة في المسجد الكبير بها ، حيث يحضر العدد الكبير من المصلين المستمعين .

وقد كان الشيخ عبد الهادي أعلن عن قدومنا ، فكان الجمع لذلك كبيراً جداً ، وألقيت قبل صلاة الجمعة خطاباً بالعربية نقله الشيخ عبد الهادي إلى اللغة الماليزية ، وكان عنوان الخطاب «إلى الإسلام من جديد» ، وقد ذكرت فيه بأمثلة مختلفة أنّ لكل شيء فائدة خاصة وضرورة مستقلة ، وتُعيّن قيمته وثمنه بناءً على فائدته وضرورته ، وأشرت بعصاي التي كنت أحملها ، وإلى الساعة التي كانت أمامي ، أنّ هذين الشيئين لو تركا عملهما

ولم يُستفدَ منهما الفائدة المطلوبة منهما ، لكانا شيئين مُهمّلين ، لا يفيد الاحتفاظ بهما .

ثم ذكرت لهم ما هو سبب بعثة هذه الأمة المسلمة ، واصطفائها وتكريمها واختيارها؟ وما هو منصبها وواجباتها؟ وما هي ضرورة هذا العصر وهذه البلاد إليها؟ وما هو الفراغ الذي يحدث إذا قَصُرَت في أداء واجبها ، وما هي الأخطار التي تواجه البلاد إذا نسيت دورها؟ ثم شرحتُ لهم أنّ المسلمين إذا اختاروا منهجهم القديم ونظامهم الصالح للحياة والمجتمع ، كانت لها آثارها الكبيرة العميقة على هذا المجتمع والبلاد ، وذكرت لهم مثال صلح الحُدَيْبية الذي كان قد هيأَ الجوَّ للقاءات المفتوحة الحرّة بين المسلمين وغير المسلمين ، واستطاع بذلك مشركو مكة - إذ لم يكن هناك خوف على الأنفس والأرواح لمعاهدة الصلح - أن يجتمعوا بأقربائهم وإخوتهم المهاجرين الذين يتصلون بهم قرابة ونسباً ولغةً وطبيعةً ، وشاهدوا التغيير الجذري الهائل الذي أحدثته صحبةُ الرسول ﷺ في أخلاقهم وعاداتهم ومعاملاتهم ، رأوا فرقاَ شاسعاً جليلاً بينهم وبينهم ، رغم الوحدة والمشاركة في اللغة واللون والدم ، والحضارة والاجتماع ، فقد بلغ إعجابهم بذلك وتأثيرهم إلى حد أنهم دخلوا في الإسلام في مدة سنتين أو ثلاث ، في عدد لم يدخلوا به في مدة ١٥ - ٢٠ سنة ، ويجب عليكم إذا أن تتظاهروا بهذا الفرق والميزة في الأخلاق والاجتماع التي ميّزكم الله تعالى بها عن طريق الإسلام ، الأمر الذي يرغب الناس في دراسة هذا الدين ، ويدعو للتفكير والتأمل في أسباب هذا الفرق الشاسع والميزة البارزة ، التي ميّرت بين طبقتين هذا التمييز الخلقي والاجتماعي ، رغم الاشتراك في اللغة والجِنسيّة والوطن .

وضربت لهم في هذا الصّدّد مثلاً بالمجاهدين الذين كانوا في عسكر الإمام أحمد بن عرفان الشهيد (١٢٤٦ هـ) وفتحوا مدينة بشاور ، فقد سأل أهلها بعض العسكريين الهنود في جيش الإمام: هل عيونكم سليمة تبصرون بها من بعيد؟ فرجعوا إليهم بالسؤال ، وما الداعي إلى هذا الاستفسار؟ فقالوا: إننا رأينا أنّ أيّ عسكريٍّ منكم رغم بُعده عن وطنه وأهله لأعوام ،

لا يرفع بصره إلى أي امرأة ، ولا يلقي لها بالاً ، ولو كانت هذه التجربة مع شخص أو شخصين ، قلنا: إنَّ بهم زهداً أو تورعاً بالغاً ، ولكن العسكريين كلهم يمثلون هذه السيرة ، فقالوا: إن ذلك فيض من تربية إمامنا وقائدنا ، إننا نعمل بقول الله تعالى :

﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ [النور: ٣٠].

ومكثنا في بيت الشيخ عبد الهادي إلى العصر ، ثم خطبتُ بعد العصر في قاعة زين العابدين خارج المدينة ، ثم كان النقاش وانتهى البرنامج قبل المغرب .

وخرجنا من هناك إلى مركز التبليغ بكوالا ترنكانو الذي يقع في مسجدٍ واسع كبير ، بناه أحد الأثرياء الماليزيين الصالحين الحاج مودة ، وتُعقد به اجتماعات حركة الدعوة والتبليغ ، وتوجد في المسجد مدرسة لتحفيظ القرآن الكريم ، وتحدّثت مع الطلاب والمدرسين ، وألقيتُ الضوء على أهميّة العلم الديني ، وبركة حفظ القرآن الكريم ، وأهميّة الدعوة الدينية ، ورجعنا بعد ذلك بالطائرة إلى كوالالمبور .

أسباب القلق في البلدان والمجابهة بين الشعب والحكومة :

كان البرنامج في اليوم التالي ٤/ أبريل زيارة قسم الشريعة في الجامعة الوطنية ، والاجتماع بأساتذتها وإلقاء خطبة فيها ، وكان خطابي في المساء في مسجد الجامعة التكنولوجية القريبة من مقرّنا ، حيث حضر عدد مُشرّف من أساتذتها وطلابها .

وذهبنا في النهار الساعة الحادية عشر إلى الجامعة الوطنية ، وهي تقوم في عمارةٍ فخمةٍ رائعةٍ ، وفي موقع جميل في ناحيةٍ من نواحي المدينة ، وقد كان هناك أساتذة كلية الشريعة والمسؤولون عنها في انتظار للاستقبال ، وكان الاحتفال في قاعة الجامعة ، وكان الحضور من الأساتذة والطلاب الذين يشتغلون ببحوثهم العلمية ، وكان الخطاب حول موضوع تعليمي ، وقد أُلقيَ فيه الضوء على أسباب المجابهة والصراع بين الطبقة الحاكمة

والشعب المسلم في البلدان المسلمة والإسلاميين وغير الإسلاميين ، وقد يؤدي ذلك إلى ثورات وانقلابات - وأمثلتها نادرة قليلة في البلدان غير الإسلامية - والسبب الحقيقي في ذلك يرجع إلى أنّ الأنظمة التعليمية المطبّقة في البلدان المسلمة لا تتفق مع عقائد الأكثرية المسلمة ومسلّماتها وعواطفها ودينها ، بل تصادمها ، فالشعب والجمهور المسلم في واد ، وأصحاب السلطة والحكومة والأنظمة التعليمية والواضعون للقانون ، ونظام المجتمع والتعليم والتربية في وادٍ آخر ، وبسبب ذلك يقوم عداءٌ ووحشة وعدم ثقة ، وصراعٌ بين هاتين الطبقتين ، فتحاول الطبقة الحاكمة أن تُجفّف منابع الدين والعواطف الدينية أو تमितها في الشعب ، وتعيش في خوف منهم وتوجّس وسوء ظن ، ويحاول الشعب والإسلاميون - كلما وجدوا فرصة - أن يطيحوا بهذا النظام ، ويثوروا عليه ، وهكذا يستمرّ الصراع والحرب الداخلية الطاحنة .

وكان بعد الخطاب نقاش وأئلةٌ مُوجّهة من الطلاب ، رددت عليها بما يناسب .

وكان الخطاب بعد العشاء في مسجد الجامعة التكنولوجية .

وتقرّر خطابٌ في اليوم التالي أي ٥/ أبريل ١٩٨٧ م في قاعة المدينة الكبيرة الواسعة التي سُمّيت بقاعة تنكو عبد الرحمن ، رئيس وزراء البلد الأسبق ، وقد حضر فيها لسعتها ومكانها ، ولأنه كان يوم الأحد عددٌ كبير من المثقفين ورجال الفكر والعلم ، بدأتُ الخطاب الساعة الحادية عشرة نهاراً ، واستغرق ساعةً كاملة ، وقام بالترجمة للخطاب نائب رئيس حركة «أبيم» الشيخ عبد الغني شمس الدين ، وهو رجل فاضل ، وبارع في اللغتين العربية والماليزية .

السفر إلى «قدح» وخطاباتي فيها :

وسافرنا اليوم التالي ٦/ أبريل إلى «قدح» وهي منطقة ذات أهمية في غرب ماليزيا ، وتكفي حاصلات الأرزّ بها لسائر البلد ، والمسلمون بها في أكثرية ساحقة ، ولم يصل إليهم كثير من سيّئات الحضارة الجديدة ،

وشخصيتها الإسلامية وصلتها بالصحة الدينية أبرز وأظهر ، فأنت ترى فيها ملابس عربية وعمائم عربية كثيرة ، والشعور بالأخوة الإسلامية أقوى ، وهي منطقة قريبة من «فطاني» الحدود الجنوبية لحكومة تايلندا ، والتي أكثرية سُكَّانها مسلمة ، وتعيش تحت وطأة ظلم الأقلية الحاكمة في البلاد .

كان موعد إقلاع الطائرة من كوالالمبور إلى قده بعد المغرب في ٥/ أبريل ، والمسافة بينهما حوالي ٢٢٠ - ٥٠٠ كيلومتراً ، وقد جاء جَمْع كبير للاستقبال على مطار قده ، استقبلنا ورحَّب بنا بحفاوة بالغة ، ومشاعر الأخوة الإسلامية ، والحب الإسلامي الصادق ، وكان مقرُّنا الذي ننزله بعيداً عن المدينة في قرية ، ووصلناها والناس وافقون صَفِّين للاستقبال ويوجد بهذه القرية «معهد التربية الإسلامية» الذي يشكِّل الخريجون الندويون أكبر جزء من مدرَّسيه ، وعلمنا بعد الوصول إلى القرية أنَّ الناس جاؤوا من مسافاتٍ شاسعة ينتظرون في الاحتفال ، وقد حملت عشرات من السيارات جموعاً من الناس إلى القرية ، وكان الاحتفال في ساحةٍ واسعة أمام مكتب المعهد ، وقد كنا بعد شواغل النهار واحتفالاته ولقاءاته وهذه الرحلة إلى قده مُتعبين ، ولكن هذا الاستقبال ، والحب الدافق ، والأخوة الصادقة وُلِّدت فينا نشاطاً وانتعاشاً وقوة .

وكان الخطاب في اليوم التالي ٦/ أبريل في الساعة العاشرة نهراً أمام أساتذة المعهد وطلابه ، ثم وضعتُ الحجر الأساسي لقسم من أقسام المعهد باسم «المعهد العالي للدعوة» ، وألقيت خطاباً في المساء في «مدا» مؤسَّسة الشؤون الزراعية المركزية بقده التي هي أكبر مؤسَّسة وطنية زراعية للبلاد ، وقد حضر هذا الاحتفال عددٌ من المسؤولين وأعيان المدينة ، فاغتنمت الفرصة للتوجيه إلى أمور مهمة ، ونَبَّهت المسلمين إلى مسؤولياتهم الدعوية والخلقية وللأمور الخيرية .

وقضينا الليل بقده ثم سافرنا صباح ٧/ أبريل بالطائرة إلى كوالالمبور ، وكان في نفس اليوم برنامج احتفال وقت الظهر في الجامعة الماليزية ، فتوجَّهنا إليها من المطار ، وكان هناك خطابان آخرا بعد العصر في نفس

اليوم أحدهما: في مركز جماعة التبليغ للمدينة ، والثاني: في مركز حركة «أبيم» .

خطورة مسؤولية الشباب الدعاة ومراحل الحياة الإيمانية :

وبما أنّ هذه الرحلة إلى ماليزيا كانت بدعوة مُوجَّهة من مسؤولي حركة «أبيم» ويؤمّل فيهم في مجال الدعوة القوية المؤثرة وتطبيقها على الحياة والمجتمع تطبيقاً عملياً في خضمّ التحديات الجديدة ، وأوضاع البلاد المتغيّرة ، ويتوقّع منهم العمل البناء القويّ أكثر من غيرهم ، لمستواهم الثقافي وعواطفهم الدينية الجياشة ، لذلك انشرح صدري في الحديث معهم أكثر بالنسبة إلى المناسبات والفرص الأخرى ، وبينني مركز هذه الحركة في منطقة واسعة في إحدى نواحي المدينة ، وقد حضر أعضاء الحركة والمسؤولون عنها من مختلف المناطق، وكانوا في أحد مُخيماتهم التربوية .

وقام أولاً رئيس الحركة الشيخ صدّيق فاضل بكلمة تمهيدية عرّف فيها بالمؤلف ، وأشار إلى أهم مؤلفاته ومواضيعها وفكرتها المركزية ، الأمر الذي يندر في كلمات التعريف بالخطيب .

ثم أقيت خطاباً وبدأت خطابي بتلاوة قوله تعالى :

﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا ﴿١٤﴾﴾ [الكهف: ١٣ - ١٤] .

وذكرت خطوة هؤلاء الفتية المؤمنين الجريئة البطولية التي خطوها ضدّ الديانة الشركية السائدة ، والسلطة القوية القائمة ، التي كان أكثر كبارهم وأقربائهم موظفين فيها متطفلين عليها .

قلت: إنّ هذه الآية الكريمة تناولت مراحل اعتناقهم للحق وإيمانهم واهتدائهم واستقامتهم وثباتهم عليه بترتيب لطيف خاص ، وهو الترتيب الصحيح لمراحل الإيمان والدعوة المتسلسلة المترابطة ، فقد صرّحت الآية الكريمة بأنهم جسّروا أولاً على نبذ دينهم السابق واعتناق الحق ، وقبول الدعوة الدينية ﴿آمَنُوا بِرَبِّهِمْ﴾ ثمّ زادهم الله هدًى وثباتاً ، ثمّ لما دخلوا

مرحلة الابتلاء والمحنة رَبَطَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَثَبَّتَهُمْ عَلَى الْإِيمَانِ وَرَزَقَهُمُ الْاسْتِقَامَةَ ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ ، وهذه هي المراحل الطبيعية الشرعية التي يأتي معها نصر الله وتأييده .

وقلت أيضاً: إنه ينبغي أَنْ يُلَاخِظَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى اسْتَعْمَلَ هُنَا جَمْعَ الْقَلَّةِ ، فقال: ﴿ إِنَّهُمْ فَتِيَةٌ ﴾ ، وذلك لِأَنَّ الشَّبَابَ الْمُسْتَمْتِمِينَ لِلدِّينِ ، الَّذِينَ يُغْفَلُونَ جَوَانِبَ رَقِيَّتِهِمُ الْمَادِّيَّ وَرَغْدَ الْعَيْشِ وَالرَّاحَةِ ، لَا يَكُونُونَ إِلَّا قَلَّةً فِي كُلِّ عَصْرٍ .

ثم لفتُ أنظارهم إلى أن الله تعالى ذكر من صفاته في هذا الموضع صفة الربوبية ، فقال: ﴿ إِنَّهُمْ فَتِيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ ﴾ ، وقال: ﴿ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ، وذلك لِأَنَّ النَّاسَ كَانُوا يَتَصَوَّرُونَ انْحِصَارَ رَقِيَّتِهِمْ وَازْدَهَارِهِمْ وَكِفَالَةَ حَاجَاتِهِمْ وَقَضَاءَ مَطْلِبَاتِهِمْ فِي الْوَفَاءِ لِلْحُكُومَةِ وَالْوِظَائِفِ وَالْمَنَاصِبِ ، وَلَمْ يَكُونُوا يَتَصَوَّرُونَ الرَّاحَةَ وَالطَّمَأْنِينَةَ وَالْعَيْشَ الْهَنِيءَ بِدُونِ ذَلِكَ ، فَإِنَّهُمْ بِقَوْلِهِمْ لَيْسَ لَنَا مُرَبٌّ وَكَافِلٌ إِلَّا اللهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا حُكُومَةَ تَرْبِينَا ، وَلَا مَخْلُوقَ يَرْزُقُنَا ، ضَرَبُوا عَلَى تِلْكَ الْعَقِيدَةِ الْجَاهِلِيَّةِ الْفَاسِدَةِ وَالتَّصَوُّرِ الْجَاهِلِيِّ الَّذِي يَشْرِكُ مَعَ اللهِ آلِهَةً وَأَرْبَاباً أُخْرَى ، وَأَعْلَنُوا أَنَّ رَزَقَهُمْ وَنَفْعَهُمْ وَضَرَرَهُمْ رَاجِعٌ إِلَى اللهِ وَحْدَهُ ، وَقَدْ أَحْيَا بِذَلِكَ مِثَالِ سَيِّدِنَا صَالِحٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَقَدْ يَكُونُ وَقَعَ فِي أُسْرِهِمْ مِنْ رَدَّةِ الْفِعْلِ لِإِعْلَانِهِمْ مَا وَقَعَ لِأُسْرَةِ صَالِحٍ حِينَما قَالُوا لَهُ :

﴿ يَصْلِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا ﴾ [هود: ٦٢] .

قلت: إِنَّ كُلَّ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مَعْجِزَةٌ بِرَأْسِهَا ، وَلَكِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ لِاشْتِمَالِهَا عَلَى بَيَانِ تَرْتِيبِ عَجِيبٍ دَقِيقٍ لِمَرَاكِلِ الْإِيمَانِ وَالدَّعْوَةِ ، وَالثَّبَاتِ وَالْاسْتِقَامَةِ ، وَإِعْلَانِ الْحَقِّ وَالصَّبْرِ عَلَيْهِ ، مَعْجِزَةٌ خَاصَّةٌ وَتَرْتِيبُ رَبَّانِي لَطِيفٌ .

ثم نَبَّهْتُ الْحَاضِرِينَ - وَكَانَ أَكْثَرُهُمْ مِنَ الشَّبَابِ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ فِي مَجَالِ الدَّعْوَةِ - إِلَى صِفَاتِ الدَّاعِيَةِ الْمُسْلِمِ وَمَرَاكِلِ الدَّعْوَةِ وَدِقَّتِهَا وَخَطَرِهَا ، وَذَكَرْتُ لَهُمْ ضَرُورَةَ صَنْعِ الْمَجْتَمَعِ الْمُسْلِمِ بِصِبْغَةِ التَّعَالِيمِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَالْحَيَاةِ

الإسلامية ، وليس في الإسلام انفصالٌ بين «الحكومة» و«الكنيسة» ،
والحياة الفردية والحياة الاجتماعية ، والعبادات والمعاملات .

وَتَرَجَمَ الخطاب إلى اللغة الماليزية نائب رئيس حركة «أبيم» الشيخ
شمس الدين الذي يملك صلاحية وملكة جيّدة في اللغتين العربية
والماليزية ، وانتهى الاحتفال بنجاح وتأثير جيد .

آخر يوم في كوالالمبور :

كان يوم الأربعاء ٨/ أبريل آخر يوم لرحلة ماليزيا ، وكان من برامج ذلك
اليوم زيارة الجامعة الإسلامية العالمية ، وخطاب في مركز الحزب
الإسلامي ، فقد ذهبنا الساعة الثانية عشرة نهاراً لزيارة الجماعة التي تقوم في
مبانٍ جميلة واسعة مبنية على أحدث طراز ، يدرس فيها ليس الطلاب
الماليزيون فحسب ، بل الطلاب الوافدون من مختلف أقطار العالم ،
وتشرف على الجامعة عدة بلدان مسلمة ، ونائب رئيسها أحد الفضلاء
العرب الدكتور عبد الرؤوف المصري الذي بقي مديراً لزمناً للمركز
الإسلامي بواشنطن ، ولعلّي كنت قابلته في واشنطن ، وقد استقبلنا بحفاوةٍ
وسرور بالغ ، وذهب بنا إلى قاعة الجامعة الحديثة الفسيحة ، حيث كان
المُوظَّفون مشغولين برقابة الاختبارات ، وعرّف هو بالخطيب ، ونقل كلمته
إلى اللغة الإنجليزية ، وكانت هناك حفلة غداء بعد الخطاب .

خرجنا بعد العصر إلى مركز «الحزب الإسلامي» ، وألقيت هناك خطاباً
ذكرت فيه أهميّة المعاملة الرفيعة الودودة في إنجاح العمل الدعوي ،
ونثأجها الطيبة المثمرة ، وكان بعد المغرب احتفال عام وكان فيه جمع كبير
من الحضور ، وقد جاؤوا من أماكن بعيدة ، وحضر فيه كبار قادة الحزب
وأعيانه .

ورجعنا اليوم التالي يوم الخميس ٩/ أبريل ١٩٨٧ م بالخطوط الماليزية
إلى مدراس ، ومكثنا ساعات عند مضيفنا القديم السيد عماد الدين
خطيب ، ثم عدنا بالخطوط الهندية إلى دلهي .

السفر إلى لندن

عام ١٩٨٧ م

قدم العزيز الدكتور فرحان أحمد النظامي مدير المركز الإسلامي بأكسفورد في الأسبوع الثاني من أغسطس إلى لكهنؤ ، وألحَّ عليَّ بالحضور إلى الجلسة السنوية لأمناء المركز الإسلامي التي كانت تعقد في ٢٧/أغسطس ١٩٨٧ م بأكسفورد ، وقد أرسلت الدعوة إلى سائر الأمناء ، وكنت لو لم أشارك فيها لكان يؤثر ذلك على بعض الإجراءات القانونية ، لأنَّ مشاركة رئيس المركز في هذه المناسبة كان أمراً لا بدَّ منه ، وحاولت الاعتذار لأجل المرض والضعف الذي حصل لي في آخر رمضان ، وبرَّح بي حتى قضيت فترة من الزمان في المستشفى في دلهي والاستجمام في بمبائي ، ولكن ألحَّ عليَّ الأصدقاء نظراً إلى أنه سيمكن هناك إجراء الفحوص الطبية أيضاً على أيدي كبار المتخصّصين ، والحصول على بعض التوجيهات الطبيّة ، ثم إنَّ الجوَّ سيتغيَّر وننجو من هذه الحرارة الزائدة ، فأستريح قليلاً ، ثم إنني لا أملك قوة مقاومة في نفسي لطلب الأصدقاء والأحباب ، وأخيراً تهيأت نفسي شعوراً بالمسؤولية ولإلحاح المخلصين وتشجيعهم للسفر ، وقد كان الدكتور فرحان حجاز مقعدّين بالدرجة الأولى في طائرة B.O.A.C. لي ولمرافقي العزيز محمد الرابع الندوي الذي هو أحد أعضاء المركز وأمنائه .

وطلب مني الدكتور فرحان نظامي أن أعدّ مقالاً في موضوع يتعلق بالإسلام وموقفه من العلم ، ألقيه في الجامعة ، فأعددت مقالاً بعنوان: «دور الإسلام التاريخي في نشر العلم النافع الصحيح وقيادة البشرية

وإصلاحها عن طريقة»^(١) وقد نقله إلى الإنكليزية الأستاذ محيي الدين بسرعة وبإجادة وإتقان .

توجّهنا في ٢٦/أغسطس الساعة ٧ صباحاً بطائرة B.O.A.C. عن طريق دبي والكويت إلى لندن ، وقد تطوّع العزيز محمد إسحاق صاحب شركة صناعة الجلود بكانفور للمرافقة والزمالة في هذه الرحلة الطويلة ، وقد طال هذا السفر لنزول الطائرة بدبي والكويت ، ومكثنا في الطائرة ١٤ ساعة ، ووصلنا لندن الساعة الرابعة مساءً حسب توقيتها المحلي والساعة الثامنة والنصف حسب توقيتها المحلي والثامنة والنصف حسب توقيت الهند ، ووصل إلى المطار الدكتور فرحان نظامي في سيارة الدكتور براوننك (DR. Browning) الذي هو من أعضاء المركز النشيطين والمسؤولين عنه ، وكان عميد إحدى كليات الجامعة سابقاً إلى المطار ، وصلنا العصر بالمطار ، ثم خرجنا معهم إلى أكسفورد التي تقع على ٧٠ - ٧٥ كيلومتراً من لندن ، ووصلنا أكسفورد مُتعبين مجهودين وشعرت لقرب برئي من مرضي ونقاته ومخلّفاتة ، والجلوس أربعة عشر ساعة في الطائرة تمّعتنا في أثنائها باستراحة قليلة ، بإعياء وإرهاق بالغ .

في أكسفورد ولندن :

عقدت جلسة المركز في ٢٧/أغسطس وسُرت بوجود معالي الدكتور عبد الله عمر نصيف ، ومعالي الدكتور عبد الله عبد المحسن التركي ، وغيرهما من كبار الأعضاء ، ورأيت أنّ مجيئي كان خيراً ، وقد حضر الجلسة الدكتور كامل الباقر نائب رئيس جامعة أمّ درمان الإسلامية سابقاً ، والشيخ عبد العزيز علي المطوّع أحد أصحاب العلم والفضل والخير بالكويت .

وقد تقرر جميع الأمور المهمة في الجلسة في سهولة ويسر وثقة

(١) انظر هذا المقال بكامله في «مقالات إسلامية في الفكر والدعوة» للعلامة أبي الحسن علي الحسيني الندوي ، جمع وتحقيق وتعليق للمحقق ، طبع عن دار ابن كثير بدمشق .

وتعاون ، ورأيت من الأنسب نظراً إلى صحتي المتدهورة وأمراضي وسني ، أن يُختار لي نائبٌ ينوب عني إذا غُبت عن الجلسات ، ورشحتُ لذلك اسم معالي الدكتور عبد الله عمر نصيف ، وقدمتُ اسمه باستشارة الأصدقاء لنيابة الرئاسة ، وقد وافق الأمناء والأعضاء عليه .

وتم افتتاح سلسلة المحاضرات باسم الشيخ عبد العزيز المطوّع بكلية سينت كراس بمقالي الذي كنت أعدده ، وألقيت أولاً كلمةً تمهيديةً باللغة العربية ، ثم طلبت من الدكتور فرحان النظامي أن يقرأ مقالي على الحضور ، فقرأه بإحسانٍ ، وأصغتُ إليه الآذان ، ويمكن تقدير محتوى المقال بعناوينه الجانبية ، وأذكر في الأخير مقتطفاً منه لأهميته :

(معجزة النبوة المحمدية ومآثرها الجذرية .

الدعوة إلى التأمل والتفكير في الأنفس والآفاق وتاريخ الشعوب والأمم وآثار ذلك وفوائده .

الربط بين الوحدات العلمية المنثورة .

دور الإسلام في يقظة الغرب وبدء عهد جديد للعلم والحضارة .

فضل المسلمين العلمي وتفوقهم في العالم القديم وقيادتهم في ميدان العلوم التجريبية .

المخترعون البارعون والمتخصّصون في العلوم من المسلمين).

وأورد فيما يلي قطعةً أخيرة من المقال :

(إنني قبل أن أختتم مقالي هذا أريد أن ألفت انتباهكم إلى هذه الحقيقة الأساسية ، أنه لا يجوز لنا أن ننسى أنّ الإنسان ليس إلّا خليفةً ، استخلفه الله - تعالى - في الأرض ، أنه ليس مصدرّاً للعلوم ولا منتهى لها ، إنّ عليه أن يحقق مرضاة الله - تعالى - ومشئته ، وأن يقوم بأداء حق الخلافة ، إنّ الله تعالى ذكر «تعليم الأسماء» لآدم بعد ذكر استخلافه وفي سياقه ، الأمر الذي يدلُّ دلالةً صريحة على أنه مأمور باستخدام علمه كخليفة .

ولقد كان من مأساة تاريخ العلوم؛ بل تاريخ العالم أن الإنسان نسي أو

تناسى أنه خليفة ، وأنه حمل أمانة هذه الأرض ، إنه لم يُبعث فيها سيّداً مطاعاً أو مالكاً مطلقاً ليستخدم خزائن الأرض المودعة في باطنها أو الظاهرة على وجهها لمصالحه الشخصية ، أو القوميّة ، أو السلالية ، أو الطبقيّة ، أو للسيادة السياسية .

ولقد كان يوماً مشؤوماً لتاريخ البشرية والعلم ، حينما اختارت هذا الطريق للهلاك والدمار ، إنّ هذا الشعور وحده بأن الإنسان مستخلفٌ في هذه الأرض وأنه ليس مالكاً لها وسيّداً ، لقادر بأن يثبته على الصراط المستقيم ، إذ أنّ إدراك هذه الحقيقة ليحول بينه وبين التصرفات العشوائية التي يملئها الهوى .

أقمنا بأكسفورد ثلاثة أيام بمنزل السيد فرحان ، وقد استفدنا أثناءها من مجالس الأستاذ الكبير البروفيسور خليق أحمد النظامي^(١) ، وتمتعنا بمجالسه العلمية المفيدة ، إذ لم يكن لنا عمل هناك غير هاتين الجلستين ، وإنّ ما يمتاز به البروفيسور خليق من الدراسة العميقة الواسعة للتاريخ الإسلامي في الهند قلّ من يشاركه في هذا المضممار في شبه القارة الهندية ، ولما أنّ كاتب هذه السطور له مشاركة في هذا الموضوع فكانت متعته لأجل ذلك مضاعفة .

وقد كنت متعوداً بلندن منذ زمن طويل أن أنزل بيت العزيز مسرور أحمد اللكهنوي ، وقد مرض منذ أيام فلم أر إرهاقه بالضيافة ، ولكنه جاء بسيارته وذهب بنا إلى بيته ، ولم يدّخر وسعاً في الضيافة والإراحة رغم مرضه وضعفه ووحدته في البيت .

العودة إلى الهند:

كنت قد أكّدتُ على الإخوة المضيفين بلندن نظراً إلى نقاهتي ومخلفات

(١) أحد كبار علماء التاريخ ، وأصحاب الاختصاص في تاريخ الهند الإسلامي ومؤلفيه ، كان رئيس قسم التاريخ في جامعة عليكره الإسلامية ، وسفير الهند في سورية . توفي عام ١٩٩٩ م .

مرضي ، أن لا ينظموا برنامجاً ، وقد أخذوا بهذه الوصية ، وأخيراً غادرنا لندن في ٦/ سبتمبر بالخطوط الكويتية ، وأحببنا النزول بالكويت ليومين تحرّزاً من طول المسافة ، واستمرار السفر إلى الهند ، وحاولنا هناك أيضاً أن لا ينظم أي حفل أو برنامج ، إلا أن سعادة الشيخ عبد الله العليّ المطوّع ألحّ على حضور حفلة غداء عنده كان قد نظّمها على نطاق واسع في منزله ، ودعا إليها معارفنا وأصدقاءنا بالكويت ، ثم حضرت في نفس اليوم ندوة عقدتها جمعية الإصلاح الاجتماعي وُجّهت فيها أكثر الأسئلة عن الصحوة الإسلامية المعاصرة في العالم وكيف تستمر ويستفاد منها ، وشارك في الإجابة عليها فضيلة الشيخ بدر الحسن القاسمي ، والعزيز محمد الرابع الحسيني الندوي ، وقد نشر تقرير عنها في مجلة «المجتمع» .

مكثنا يومين في الكويت في ضيافة العزيز السيد إبراهيم الحسيني ، والعزيز السيد منظر عالم الندوي ، ثمّ توجّهنا يوم ٨/ سبتمبر الساعة الرابعة إلى دلهي ، حيث نزلنا لعدة ساعات ثم غادرناها إلى لكهنؤ ، والحمد لله أولاً وآخراً .

* * *

السفر إلى الحجاز عام ١٩٨٧ م للمشاركة في مؤتمر رابطة العالم الإسلامي

المؤتمر العام الثالث لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة :

لقد قررت الأمانة العامة لرابطة العالم الإسلامي الذي لم يزل كاتب هذه السطور عضواً التأسيسي ، عقد مؤتمرها العام الثالث في ١١ - ١٥ / أكتوبر ١٩٨٧ م الموافق ١٨ - ٢٢ صفر ١٤٠٨ هـ تستعرض فيه الأوضاع والظروف الراهنة في العالم الإسلامي ، وتفكر في الجهود والمحاولات والخطط التي تساعد في حل القضايا المعاصرة .

وقد كان موضوع هذا المؤتمر - الذي كان يُعقد بعد فترة طويلة - تنشيط العمل الإسلامي ، والدعوة الإسلامية ، ونفخ الروح فيهما في ضوء الواقع المعاصر وإرهاصات المستقبل ، وقد بعث الدافع إلى عقد هذا المؤتمر - عدا الحاجة إلى استعراض قضايا العالم الإسلامي وأوضاعه وظروفه المعاصرة من وجهة النظر الإسلامية ، واستعراض جهود الرابطة ودورها في التوجيه والمساعدة - الحادث المشؤوم الذي وقع بسبب شغب الإيرانيين وغوغائهم في نفس أيام الحج ، أي في اليوم السادس من ذي الحجة وقررت الأمانة العامة للرابطة أن توجه الدعوة إلى كبار العلماء والموجهين والقادة في العالم الإسلامي وزعماء الحركات والمسؤولين عن المنظمات والمؤسسات الكبيرة في عدد كبير ، ليبدوا مشاعرهم وانطباعاتهم حول الحادث وحول مسؤولية الحفاظ على قداسة الحرمين الشريفين واحترامهما ، وأداء الحج في جوٍّ من الأمن والسكينة والطمأنينة ،

المسؤولية التي لا تنفرد بها الحكومة السعودية ، بل يشارك في مسؤوليتها جميع البلدان الإسلامية والمسلمون بصفة عامة .

وقد كنت متردداً غير جازم بمشاركتي في هذا المؤتمر لانحراف صحتي ولتجربتي في أكثر المؤتمرات الكبيرة ، أنها لا تُنتج ولا تؤدي إلى مُخطَّط عملي يؤخذ بالتطبيق - إلا قليلاً - ، ولكنني قررت أخيراً أن أسافر وأشارك في المؤتمر بمناسبة مهمة كهذه تجتمع فيها الشخصيات العلمية الموقرة ، وعدد من القادة والزعماء والمسؤولين من البلدان الإسلامية ، ولا سيما من المملكة السعودية ، وشعرتُ بضرورة ملحة في هذه الأوضاع الدقيقة المُعقَّدة التي ولدتها الثورة الإيرانية والحرب الخليجية ، ونظراً إلى الأخطار التي تعرَّضت لها الجزيرة العربية التي تواجه مشكلات عديدة في سبيل الاحتفاظ بماكنتها الدينية القيادية ، ووضعها الاقتصادي والاستراتيجي ، وهي في حاجة إلى صمود وإلى حركة إيمانية قوية ، تحمل روح المغامرة والمخاطرة والاستماتة والتضحية والإيثار والمثابرة - شعرت بضرورة مُلحة إلى أن تُقدِّم لهذه البلدان ولا سيما السعودية توجيهات صريحة جريئة واقعية ، وأن تُبصِّر بالحقائق والأخطار - لم أكن أتوقَّعها من المشاركين الآخرين في المؤتمر - وأخيراً تقرَّر السفر وأعددت على استعجال محاضرة بعنوان «الجهات الحاسمة للدعوة الإسلامية في العصر الحاضر ومجالاتها الرئيسية»^(١) .

وقد كانت الأمانة العامة للرابطة أيضاً أن تعقد جلسات المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي ، والمجلس الأعلى العالمي للمساجد ، والمجمع الفقهي فيها في هذه الفترة ، يستطيع أعضاء هذه المجالس المشاركون في المؤتمر أن يحضروها قبل المؤتمر وبعد المؤتمر ، وكنت من أعضاء المجالس الثلاثة .

السَّفَر إلى مكة المكرمة ومشاعل المؤتمر:

سافرت يوم الجمعة ٩/أكتوبر ١٩٨٧ م من لكةهنؤ إلى دلهي بطائرة

(١) انظر هذه المحاضرة بكاملها في «محاضرات إسلامية في الفكر والدعوة للعلامة أبي الحسن علي الحسيني الندوي» .

الصباح ، يرافقني العزيز الأستاذ محمد الرابع الحَسَنِي الندوي الذي أكثر ما يرافقني في رحلاتي إلى الحجاز وغيرها ، لمعرفة بشخصياتها ومُؤسَّساتها وظروفها وأوضاعها ، وغادرت دِلْهي عن طريق بومبائي بطائرة المساء في ١٠/ أكتوبر ، وقد كان المهندس محمد عثمان الحيدر آبادي في المستقبلين بمطار الرياض ، وانتهت بوجوده الإجراءات بسرعة ويُسر ، وتوجَّهنا من الرياض إلى جدة حيث وصلنا الساعة الثانية ليلاً ، وكان هناك على المطار مضيفنا في جدة سعادة محمد نور ولي ، وبعض أفراد أسرته ، وعدد من أصدقائنا من مكة المكرمة ، والمدينة المنورة ، وكنا قد أحرمانا من بومبائي ، وكان علينا حضور الجلسة الأولى للمؤتمر في قاعة التضامن الإسلامي بفندق أنتركونتيننتال بمكة المكرمة ، التي كان معالي الدكتور عبد الله عمر نصيف الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي يُقدِّم فيها تقرير الأمانة العامة ، وشاركنا في الجلسة الأولى للمؤتمر ، ثم جئنا إلى مقرنا القديم بيت الدكتور عبد الله عباس الندوي بشارع المنصور بمكة المكرمة .

وقمنا بأداء العمرة بين العصر والمغرب .

خطابي في موضوع حرمة الحرمين الشريفين واحترامهما :

بدأت الجلسة الثانية للمؤتمر في اليوم التالي ١٢/ أكتوبر الموافق ١٩/ صفر في الساعة الثامنة والنصف صباحاً ، ورأيت أن عدداً كبيراً من قادة وزعاء الحركات والمُنظَّمات والجماعات الإسلامية والمسؤولين عنها ، والعلماء ورجال الفكر من مراكش إلى أندونيسيا من بلدان العالم الإسلامي ، ومن أوربة وأمريكا إلى أقصى الشرق في العالم الخارجي ، حضر هذا المؤتمر ، وأنَّ عددهم لا يقل عن سبعمئة مندوب ، وعلمت هناك أنه نُشر في البطاقة المتعلقة بالبرامج والمحاضرات والخطب لهذا اليوم خطاب لي في موضوع حرمة الحرمين الشريفين ، وقد سُررت لأهمية هذا الموضوع ومناسبته ، لأنَّ أتقدِّم ببعض الكلمات المهمة الضرورية ، وقد ألقى عددٌ من المحاضرين كلماتهم في مختلف المواضيع .

وقد شعرتُ في هذا الخطاب ببركةٍ عجيبة ، لعلها بركة هذا المكان

وشعرت بنفحاتٍ طيبة منعشة من نفحات الحرم ، بدأتُ خطابي بآية من سورة الحج ، وهي قوله تعالى :

﴿ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَامِ يُظْلَمِ نُذُقُهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴾ [الحج : ٢٥].

وقد أشرتُ في كلمتي إلى أنّ من إعجاز القرآن أنه أشار إلى نوع جديد من الهجوم والغزو للبلد الأمين ، والبيت العتيق ، لم يجزبه العرب في العصر الجاهلي وفي زمن البعثة ، وهو حرب المؤامرات والدعايات والدعوة إلى إثارة الفتن ، وأشرتُ في ذلك إلى الاستراتيجية الإيرانية العقائدية والسياسية ، التي ظهرت طلائعها في موسم الحج الماضي ، وقلت : إنّ العرب لم يكونوا يعرفون إلاّ الحرب السافرة والهجوم العَلَنِي ، والذي كان من نماذجه غزو أبرهة بجيشه مكة ، الذي جعله الله هباءً منثوراً ، أما إرادة الإلحاد بظلم فلم يعرفها العرب ، وأنذر بها القرآن الكريم وهَدَّدَ عليها بقوله : ﴿ نُذُقُهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴾ ، وهو مصير هذه المُخَطَّطات الرهيبة الدقيقة التي يفكر فيها المتقنّعون بالإسلام ، الهاتفون بقيام دولته ومجده كذباً وزوراً.

وختمتُ الكلمة بقولي : (وعلى غلوة من هذا المكان الشريف ، جرى الحوار بين سيد قريش عبد المطلب ورئيس الحبشة أبرهة حين أبدى عزائمه في إهانة البيت والقضاء عليه ، واستغرب كيف لم يكلمه سيد قريش عن البيت الذي هو مركز دينه وعبادته وسأله ردّ الإبل التي استاقها رجال جيشه ، فقال عبد المُطَلِّب : (أنا ربُّ الإبل ، وإن للبيت ربّاً يحميه).

ولا يزال كذلك مهما تغيّرت الظروف وتجدّدت الأخطار والمخاوف ، فللبيت ربٌّ يحميه في كل زمان^(١).

جلسات أخرى ، ومحاضراتي وخطابي الأخير :

وجاءت نوبة محاضرتي في اليوم الرابع من المؤتمر يوم الأربعاء

(١) انظر هذه الخطاب بكامله في «محاضرات إسلامية في الفكر والدعوة» للعلامة أبي الحسن علي الحسيني الندوي ، بعنوان «مكانة الحرمين في قلوب المسلمين».

٢١/ صفر ١٤٠٨ هـ بعد صلاة المغرب ، وكنت قدّمت فيها نقاطاً معينة مرقمة للعمل على إيقاظ الوعي الإسلامي ، وإيجاد الصحوة الإسلامية ، في العامة والخاصة من الناس ، وتربيتهم ، كانت أكثرها مقتطفةً من خطابي السابق الذي نشر بعنوان: «القرن الخامس عشر الهجري الجديد في ضوء التاريخ والواقع»^(١) ولكن أهم جزء من هذا الخطاب كان الجزء الأخير الذي تجسّمت له هذا السفر ، والذي كتبت في ضوء الأوضاع المعاصرة والحقائق والأخطار التي تمرُّ بها البلدان العربية ، ولا سيما مركز الإسلام ومهبط الوحي ، وأورد هنا فيما يلي هذه القطعة من المحاضرة:

(وأخيراً لا آخرأ ، هو ما تفرضه طبيعة الإسلام وتاريخه المجيد ، وتقتضيه الفطرة السليمة ، ونفسية الإنسان الدائمة والأوضاع السائدة ، هو وجود حركة إيمانية دعوية وإيجابية قوية ، في العالم الإسلامي تقترب بصفات الرجولة والطموح وعلو الهمة وبُعد النظر ، والقدرة على مواجهة الطاقات الرئيسية القائدة التي تملكت زمام قيادة البشرية وأصبحت تتحكّم في مصائر الشعوب والأقطار الإسلامية وغير الإسلامية - من غير حق ومبرّر - وذلك بإيمان القائمين بهذه الحركة والدعوة القوي ، وثقتهم بفضل الإسلام وحاجة البشرية إليه .

ويقترب نشاط هذه الحركة أو الدعوة الإسلامية بروح التضحية والبطولة والجلادة والتكشف والقدرة على المغامرات - إن كان لا بد منها - فإنّ الناس ما زالوا مفتورين على تقدير الإيمان القوي ، والاعتزاز بالعبقيرة والمبدأ ، والاستهانة بالمادة واللذة والعزة وروح المخاطرة ، وعلى الإجلال لشيء لا يوجد عندهم ، فالضعيف مفتورٌ على احترام القوي ، والفقير مفتورٌ على احترام الغني ، والأُمّي مفتورٌ على احترام العالم ، حتى اللثيم مفتورٌ على احترام الكريم ، ولأنّ تاريخ الإسلام مليءٌ بالبطولات والمغامرات ،

(١) انظر هذه المحاضرة بكاملها في «محاضرات إسلامية في الفكر والدعوة» للعلامة أبي الحسن علي الحسيني الندوي .

ولأنَّ الواعين والمتبعين لواقع الأمم والبلاد وأصحاب الضمائر الحيّة قد سئموا وضاقوا ذرعاً بسياسة الحكومات والقيادات الغربية والشرقية ، وأصبحوا يمقتونها ويكرهونها كرهاً شديداً .

إنَّ وجود هذا الفراغ - عدم وجود حركة إيمانية دعوية إيجابية قوية ، ومجتمع قوي سليم ؛ من أدواء العصر الحديث والحضارة المادّية الراجعة ، يقوم على تعاليم الإسلام وقيمه ومثله - خطرٌ كبير على الوجود الإسلامي ، وعلى العقيدة الصحيحة ، والحياة الإسلامية ، فإنَّ وجود الفراغ في شيء ضروري وفي مصلحة بشرية ، شيء غير طبيعي لا يصلح للبقاء طويلاً ، وقد يُسبّب ذلك نشوء حركةٍ منحرفةٍ زائفةٍ فاسدة العقيدة والمنهج ، سلبية هادمةٍ مدمّرة .

ويعرف الدارسون لتاريخ الديانات والدعوات والحركات وللتاريخ العام ، أنه إذا وُجدت هذه الحركة المنحرفة واقرن نشاطها ودعاؤها بالتضحيات والمغامرات وبالتقشُّف ، ومظاهر الزهد وهتافات التحدي للطاقات الكبيرة ، ومواجهتها لتهديداتها وأخطارها بشجاعة وصمود ، ونقدها للأوضاع الفاسدة السائدة في بعض أجزاء العالم الإسلامي التي لا تتفق مع تعاليم الإسلام وقيمه ومثله - ولو كان في ذلك نصيب كبير من الدعوة ، والمظاهرة ، ووسائل الإعلام الجبّارة - كان له سحر على النفوس خاصة في أوساط المتعلمين المتألمين من الواقع المرير الذي تورّطت فيه بعض المجتمعات الإسلامية ، سحرٌ لا يبطله وعظ واعظ ، أو مقال كاتب ، أو استدلال منطقي ، أو بحث علمي .

يشهد بذلك تاريخ الخوارج في القرن الإسلامي الأول ، وتاريخ الباطنية والفتنانيين في القرن السادس والسابع الهجريين ، وحكايات حسن بن الصبّاح وما كان يجري في مركزه «قلعة الموت» ، وتاريخ كثير من الحركات العسكرية الثورية التي ظهرت باسم قلب الأوضاع الفاسدة باسم الإسلام والإصلاح كذباً وزوراً أحياناً كثيرة ، وبعض الحركات والثورات المعاصرة التي استطاعت أن تُجنّد ألوفاً من الشباب في تحقيق مآربها السلبية وأهدافها

الخطيرة ، يضحون بحياتهم في سبيلها متطوعين مندفعين ، وقد استرعت انتباه العالم واستجابت لها بعض أوساط المعنيين باليقظة الإسلامية والحاملين لمجد الإسلام وعظمته ، من غير أن ينقدوها نقداً بريئاً جريئاً في ضوء النصوص القرآنية والعقائد الإسلامية ، والدراسات المقارنة الأمانة للفرق المنتحلة للإسلام .

ويعرف قادة المسلمين ومفكرهم أنّ السبيل لا يمسه إلا سبيل مثله ، والتيار لا يدفعه إلا تيار أقوى منه ، وواقع العالم الإسلامي - ومعذرةً - اليوم في الجمود والاستنامة والإخلاق إلى الراحة ، وعدم وجود دعوة إيمانية قوية ، وروح التضحية والفداء في سبيل العقيدة الصحيحة ، والأهداف الصالحة ، وعدم اكتفائهم العسكري والفكري ، نذيرٌ خطر دائماً ، وممهّد الطريق للوقوع في شبكة هذه الدعوات المنحرفة الزائفة ، التي يجد فيها شباب المسلمين والمتذمرون من الأوضاع الحالية ، طلبتهم ومنشودهم ، وما يرضي طموحهم ويزيد قلقهم ، وإن كان ذلك ﴿ كَرَّابٍ بَقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ﴾ [النور: ٣٩] ، ولكنها نفسية الإنسان ، وتجربة الأمم ، والحقيقة الأليمة التي يجب أن يتبها لها كل معنيّ بحاضر الإسلام ومستقبله ، وسلامة العقيدة وصحة التفكير ، والإيمان بالله ورسوله وتعاليمه .

وأختم هذا الحديث القصير بقوله تعالى ، الذي خاطب فيه المجموعة الصغيرة من الأنصار والمهاجرين ، التي حثها على المؤاخاة وربط بها مصير العالم والإنسانية :

﴿ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ [الأنفال: ٧٣] .

وعقدت الجلسة الأخيرة للمؤتمر في يوم الخميس ٢٢/ صفر الموافق ١٥/ أكتوبر ، وقرئت فيها التوصيات والقرارات التي وضعتها اللجان المتخصصة ، وكان فيها خطاب موجه لسماحة الشيخ عبد العزيز بن باز ، وكلمة شكر لمعالي الدكتور عبد الله عمر نصيف ، وأخيراً أسندت كلمة الوفود النائبة عن المندوبين من ممثلي المنظمات والحركات في العالم

الإسلامي إلى كاتب هذه السطور ، وقد ذكّرت بخطابي هذا المشاركين في المؤتمر بالمسؤوليات التي تعود عليهم في الحفاظ على مكانة الحرّمين الشريفين ودعوتهما ورسالتهما ، وخلودهما وبقائهما ، كما ذكّرتهم بمسؤولياتهم تجاه الدعوة الإسلامية والعمل الإسلامي في بلدانهم التي جاؤوا يمثلون عنها ، وقلت : إنه يجب أن تكون هناك رسالة توديعية لكل مؤتمر ولكل اجتماع للمسلمين يعود بها المؤتمرين إلى بلادهم ، وتعتبر الكلمة الرائدة ، وإن أنسب كلمة وأليق رسالة لهذا المؤتمر هي كلمة سيدنا أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - الإيمانية التاريخية التي قالها يوم الردّة والتي غيرت مجرى التاريخ والوقائع ، وحفظت للشريعة الإسلامية ، والملة الإبراهيمية مكانتهما وأصالتها - في مرحلة خطيرة دقيقة حيث لم يكن قد مضى على وفاة النبي ﷺ إلا أيام - لأجيال وقرون ، لقد قال الصديق رضي الله عنه : «أينقص الدين وأنا حي؟!» .

فيجب عليكم أيها الإخوة المسلمون أن تحملوا هذه الرسالة إلى بلادكم ، وتنقشوها على ألواح قلوبكم ، وعاهدوا ربكم على أنه لا يمكن أن يتعرض للحرمين الشريفين ما دام فينا بقية من حياة ، وما دام المسلمون في العالم الإسلامي أحياء .

وكان الضيوف مسافرين في اليوم نفسه بعد الانتهاء من الجلسة الختامية إلى المدينة المنورة ، حيث كان المكث يوماً واحداً ، وصلاة الجمعة في المسجد النبوي وحضور حفلة الغداء في قصر أمير المدينة المنورة ، فأثرت أن أسافر في وقتٍ آخر ، وأمكث أياماً في المدينة المنورة ، فلم أشرك الوفد في برامجهم .

سافرنا في ٢٥/ صفر - الموافق ١٨/ أكتوبر يوم الأحد إلى المدينة المنورة على صاحبها الصلاة والسلام - وخرجنا الساعة العاشرة صباحاً من مكة المكرمة ، واخترنا للسفر طريق الهجرة ، الطريق الجديد الذي هو أخصر الطرق إلى المدينة المنورة ، وقد أعدّ له شارع واسع على الطراز الحديث الراقي ، ووضعت في طول الشارع معالم الطريق وبيانات

المسافات ، وينقسم الشارع إلى طريقين للذهاب والإياب ، مما قلَّ به إمكانيات حوادث الطريق ، وقد رُكِّبَت الأسلاك في جانبي الشارع تحرُّزاً من حوادث الصدم بأي وحش لا سيما الجمل ، الذي يُخشَى من خروجه المفاجيء على الشارع والاصطدام به ، والواقع أنَّ ما حققته الحكومة السعودية لتأمين سُبُل الحجاج ، وإراحتهم وتسهيلاتهم ، من توفير المياه ، وإعداد الشوارع الراقية ، وحفظ الأنفس ، والأموال والأعراض ، في سخاء وأريحية بالغة ، لا نجد نظيرها في التاريخ عبر عدة قرون .

ويتذكَّر كاتب هذه السطور حجته الأولى عام ١٩٤٧ م الموافق ١٣٦٦ هـ ، فلم يكن حينئذ أيَّ شارع بين جدة والمدينة المنورة ، وكان سواقو الحافلات يسرون بتقدير وتخمين ، وكانوا في أيام الحرِّ يقضون وقت الظهر ، وكانت تشتري تنكات المياه بجدة ومكة ، للشرب والوضوء والغسل ، أما قبل ذلك فكان من أحاديث وعورة الطرق ومشقَّاتها وقلة المياه ، وكثرة الأموات بمنى وعرفة ، وقلة الأمن في الطرق ، وشدة الأخطار وغارات البدو ، وسفكهم للدماء - القصص التي تروى متواترةً ، وتقرأ في مذكرات سفر الحجاج في تلك الحقبة من الزمن باللغة العربية والأردية^(١) ، وإنَّ من قلة الشكر وكتمان الحق أن لا يعترف بهذه الثورة العظيمة ، ومأثرة الحكومة السعودية - مع التوجيهات المخلصة ، والنقد

(١) سافر الأمير أحمد حسين أحد أعيان قرية «حسن بور» بمديرية «مراد آباد» عام ١٩٠٤ م للحج ، ونزل قبل الوصول إلى مكة المكرمة بمنزل ، وإذا برُكِّبه يفاجئهم البدو ، فيتحدث عن غارتهم في مذكرة رحلته :

(بدأ البدو ينتشرون هنا وهناك بينادقهم المليئة بالبارود ، وانتشر الدُّعر والخوف في سائر الركب ، وبدأت تشتدُّ الضجة والأصوات بالطلقات النارية ، واستمرت هذه الحال ساعتين ، ثم خرجت القوات التركية من القلعة ، وضرَبوا بعسكرهم في الأكمة ، وأطلقوا النيران على البدو ، فكان مشهداً كمشهد معركة ١٨٥٧ (معركة الثورة الهندية المعروفة) ، وقد استولى الدُّعر أولاً في الجاويين ، فلم يملكوا أنفسهم ، ولا حزموا أمتعتهم وحملوها على ظهورهم ورؤوسهم ، وفروا في خوف وهلع ، وتركوا شغادفهم وكثيراً من أمتعتهم).

«مذكرة رحلة الحج» ص/١٠٥ ، طبع مطبعة Curzon Steem .

المخلص ، والتمنّيات الطيبة ، والآمال المعقودة ، والتذكير بالمسؤوليات الجسيمة - في تأمين البلاد والحجاج .

وصلنا إلى المدينة المنورة بعد أربع ساعات ، وقد وقف السوّاق قليلاً في الطريق للبنزين ، وقد كنا قطعنا هذه المسافة في عام ١٩٤٧ م الموافق ١٣٦٦ هـ على الحافلة في يوم وليلتين ، وكان أخي الأكبر الدكتور السيد عبد العلي الحسيني رحمه الله قطع هذه المسافة في رحلة للحج عام ١٩٢٦ م الموافق ١٣٤٤ هـ على الإبل في ثلاثة عشر يوماً .

أيام بالمدينة المنورة:

نزلنا بالمدينة المنورة ببستان نور ولي وهو منزلنا القديم ، وقد كنا قررنا أنّ هذا السفر للمدينة المنورة ليس إلّا للمسجد النبوي والصلاة والسلام على الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، فلا خطب ولا ندوات ، وسوف نعتذر إلى من يطلب ذلك ، و نعتذر على مشاركة جلسات مجلس الأئمّاء لرابطة الأدب الإسلامي ، التي قرّر لها هذا العام لبعض المصالح أن تعقد بالمدينة المنورة ، وتكون جلسات محدودة لا يشاركها إلّا الأعضاء وهم لا يتجاوزون اثني عشر شخصاً ، وقد سافر للحضور في هذه الجلسات من دار العلوم لندوة العلماء الأستاذ سعيد الأعظمي الندوي رئيس تحرير مجلة «البعث الإسلامي» والأستاذ محمد واضح رشيد الندوي رئيس تحرير جريدة «الرائد» ، وقَدِمَ لها صديقنا القديم وزميلنا الفاضل الأديب الكبير محمد ناظم الندوي عميد دار العلوم لندوة العلماء الأسبق ، ونائب رئيس الجامعة العباسية بهاولبور - باكستان - سابقاً من كراتشي ، وكنت قد أخبرت بوصوله إلى جدة .

وصفا لي الوقت في مدينة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وجواره ، وطاب وحلا الجلوس في المسجد النبوي لا سيما بين صلاة المغرب والعشاء - كالعادة - وشعرتُ بلذة خاصة في تلاوة القرآن ، لا سيما السور التي تکرّر فيها الخطاب للرسول صلى الله عليه وآله وسلم كسورة القصص وسورة الفتح .

وقد كان مندوبو المؤتمر والضيوف من الخارج رجعوا من المدينة المنورة حسب النظام المقرّر في الضيافة الحكومية ، فلعل كثيراً من الأصدقاء بالمدينة المنورة ظنوا أنني كذلك جئت معهم ورجعت ولذلك لم يشعر كثير من الأصدقاء بوجودي بالمدينة المنورة ، ثم تسرّب الخبر إلى بعضهم فبدؤوا يحضرون بمقرّي ما بين العصر والمغرب ، فيهم العلماء والأدباء وأساتذة الجامعة الإسلامية ، والإخوة الهنود ، وطلب مني بعض المتصلين بالنوادي الأدبية محاضرة حول موضوع إسلامي أدبي ، ولكنني اعتذرت إليهم .

جلسات رابطة الأدب الإسلامي :

بدأت جلسات أمناء «رابطة الأدب الإسلامي» التي استمرت يومي الأربعاء والخميس ٢٨ - ٢٩ / صفر الموافق ٢١ - ٢٢ / أكتوبر بمنزل الدكتور عبد الباسط بدر أحد أساتذة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، الذي يقع بإحدى نواحي المدينة المنورة ، فكانت جلسة في يوم الأربعاء صباحاً ، وجلسة بعد العشاء ، وعقدت بعد العشاء ليوم الخميس ندوة أدبية شعرية ، حضرها عدد من أدباء المدينة المنورة وشعرائها ، وقد حضرها الشاعر الإسلامي الكبير عمر بهاء الأميري - الذي هو عضو فخري في «رابطة الأدب الإسلامي» ، وقدم إلى المدينة المنورة خصيصاً للمشاركة في جلسات رابطة الأدب - وحضرها الشيخ محمد ناظم الندوي وأنشد فيها بعض قصائده ، وألقى عمر بهاء الأميري خطاباً قوياً بليغاً في موضوع الأدب الإسلامي .

وسعدنا بأداء صلاة الجمعة في المسجد النبوي الشريف ، والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ثم ودّعنا المدينة المنورة الحبيبة إلى جدة حيث وصلنا الساعة التاسعة والنصف ليلاً بعد ثلاث ساعات في السفر .

إقامة يوم واحد بجدة ، وخطابي بها :

كانت الإقامة بجدة ليوم واحد يوم الأحد ٢٤ / أكتوبر ، وقد قضينا هذا اليوم في شواغل كثيرة ، كانت معها زيارة ابن أختي العزيز السيد مصباح

النبي الحسيني بمنزله ، وحضور حفلة غداء في بيت صديقنا الوفيّ القديم الشيخ محسن أحمد باروم صاحب «دار الشروق» ، وكنت أتوقع فيها اللقاء بعددٍ من الأصدقاء والأحباب القدامى ، وعلمت بعد وصولي إلى جدة أنه أعلن هنا عن محاضرة لي ، وانتشر خبرها في البلد ، ونَسِيتُ أنه قد كان طلب مني إلقاء محاضرة ، وكنت أجبت هذا الطلب ، بدون تفكير جدّي فيها ، وكان في نفس اليوم سفري إلى الرياض الساعة التاسعة والنصف ليلاً ، ومن الرياض مباشرة إلى دلهي ، ويتطلب ذلك الوصول إلى المطار قبل ساعتين تقريباً ، فكان ثقيلاً عليّ هذا البرنامج ، وكنت أفكر كيف أحاضر بعد المغرب التي تقام الساعة السادسة ، ولكن الأمر كان جدّاً ، وقالوا لي: لا يمكنك الاعتذار الآن ، فقد اشتهر في الناس أنك تحاضر الليلة ، وأعلن عن المحاضرة في البلد ، ولم أكن حَقَّقْتُ في الأمر من الداعي والمنظم للاحتفال؟ ، فقال بعضهم: إنّ الجهة المنظمة للحفل هي الندوة العالمية للشباب الإسلامي ، وذكر بعضهم غيرها ، وعلى كُُلِّ فقد طمأنني الأصدقاء وقالوا: لا يهَمُّكَ الأمر ، فإننا نحمل الحوائج إلى المطار قبل وصولك ونكمل جميع الإجراءات ، فلو وصلت قبل ساعة من موعد الإقلاع ، لا بأس .

كان المسجد مسجد منصور الشيعبي الذي أعلن عن المحاضرة فيه يقع في طريق المطار ، وليس بينه وبين المطار إلا مسافة ١٠ - ٢٠ دقيقة بالسيارة ، وتوكلنا على الله ، وتوجهنا إلى المسجد قبل المغرب وهو من أوسع المساجد بجدة ، وصلنا المسجد قرب أذان المغرب ، ورأيتُه غاصّاً مزدحماً بالناس ، وهم في شوق وانتظار ، وقد عَرَفَ إمام المسجد وخطيبه الشيخ عبد الله علي بَصْفَرٍ بخطيب الليلة تعريفاً أجاد فيه ، ودلّ علي أنه قد قرأ كتاب «في مسيرة الحياة» أو أنه يعرف الخطيب معرفةً شخصيةً مُفصَّلة .

بدأت خطابي بقول الله تعالى :

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾

وشعرت بأنّ مدد الله يأتيني ، وتنثال عليّ المعاني ، فذكرت أولاً النعمة العظيمة الجليلة بإكمال هذا الدين ، وختم النبوة ، والرسالة ، فهو من أكبر النعم ، والضمان الأكبر للحفاظ على الشريعة الإسلامية وصيانتها ووحدة الأمة ، واجتماع كلمتها ، ولم ترزق أيّ أمة من الأمم هذه النعمة الجسيمة ، ولم تُخاطَب بهذا الإعلان الكبير ، وقد قال عالم يهودي - متحسراً على عدم إدراك اليهود لهذه النعمة - لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه : آية في كتابكم يا أمير المؤمنين! تقرؤونها ، لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً.

وقد تعرّضت الملل والشرائع السماوية السابقة لعدم وجود هذه النعمة ، لمختلف الابتلاءات والمحن وظهر فيها المتنبّتون في فترات مختلفة ، وشغلت عقول علمائها ورجالها وصلاحياتهم وقواهم بالرد عليهم ، وتفنيدهم ، وقد صرّح بذلك واعترف به كُتّاب البحوث العلمية عن اليهودية والنصرانية في دائرة المعارف البريطانية ، والموسوعة اليهودية .

ثم قلت : إنه ينافي الإعلان بهذه الثقة والمنة ، وإبداء الفضل والتكريم لهذه الأمة الأخيرة ﴿ أَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣] إنه ينافي روح هذا الإعلان ، وطبيعته ومتطلباته ، وتأثيره العقلي والنفسي ، أنّ من بشروا بهذا الإعلان ، وأكرموا بهذا الفضل وخُلِعَ عليهم هذا اللباس في حجة الوداع حين وقوفهم فيها بعرفات مع نبيهم صلى الله عليه وآله وسلم أن يرتدوا على أعقابهم بعد وفاة نبيهم مباشرة ، ويختاروا طريق الكفر والردة وجحود النعمة .

إنّ الله عز وجل الذي يعلم الغيب ، ويعلم المستقبل كما يعلم الماضي ، لم يكن ليعلن هذا الإعلان ، ويبشّر بهذه النعمة ، لو كان الأمر كذلك ، وقد نصّ القرآن الكريم على كونهم ﴿ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴾ [النصر: ٢] ، ولكنه لم يذكر في أي موضع من كتابه : «يخرجون من دين الله أفراداً» فضلاً عن أن يذكر فيه عن هذه النفوس المؤمنة الطيبة ، أنهم «يخرجون من دين الله أفواجاً» ، ومن ذلك يعلم أن قصة ارتداد الصحابة

- رضي الله عنهم - جميعاً إلا فلاناً وفلاناً ، ليس إلا قصة أملاها الشيطان ،
وسوّلتها النفوس المريضة .

وقلت : إِنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى : ﴿ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ﴾
[المائدة : ٣] يقتضي منا أيضاً أن نقف عند حدود الله تعالى ، ونتمسك
بشريعته في الأخلاق والاجتماع ، والمدنية والحضارة ، فضلاً عن
المعتقدات والعبادات ، ونحصر أنفسنا في دائرة التعاليم الإسلامية والقيادة
القرآنية ، وخطوطها ومعالمها الواضحة ، ولا يجوز لنا أن نحكي الغرب
اجتماعياً وحضارياً ومدنياً ، وأن نكون ظلماً ملازماً له ، فقد رزقنا الله تعالى
مع الأسس والمعتقدات والمبادئ ، نظاماً كاملاً مستقلاً للمعاملات ،
حضارة متميزة فريدة ، ومدنيةً صالحةً مستقيمة ، يجب علينا أن نمثلها
تمثيلاً صادقاً خصوصاً في هذا البلد الذي كان ولا يزال مركزاً للإسلام ، منه
طلعت شمس الهداية ، وانتشر الإسلام ، وفيه يستقرُّ وإليه يعود .

وأحمد الله تعالى على أنني أكملتُ خطابي بهدوء ، وسرنا إلى المطار ،
ورافقنا العزيز محمد عثمان الحيدر آبادي إلى مطار الرياض حيث ودّعنا
لدلهي ، وقد وصلنا دلهي صباح اليوم التالي الساعة الثامنة والنصف يوم
الأحد .

رحلة إلى الحجاز

عام ١٩٨٨ م

لقاءات واجتماعات وأحاديث فيها

تلقى كاتب هذه السطور دعوة من أمانة رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة لحضور الجلسة السنوية لمجلسها التأسيسي التي ستبدأ من ٣/ ربيع الآخر (١٢/ نوفمبر) ، وقوّرت السفر لأهميتها واتصالي بالمجلس التأسيسي كعضوٍ من أول يوم ، رغم انحرافٍ في الصحة وإرهاق وأشغال تأليفية وعلمية ، وأخبرت بذلك الأمانة العامة برفقاً ، وكان مرافقي في هذا السفر العزيز الأستاذ محمد الرابع الحسيني الندوي الذي أوثر زمالته في مثل هذه الرحلات ، لما أتلقى منه من العون والمساعدة ، وكان المفروض أن ندرِك الجلسة الأولى ونحضر المجلس التأسيسي من أول يوم ، ولكن بسبب أزمة طيرانية وقعت في تلك الفترة ، وبسببها تأخرت الطائرة التي نركبها من كهنؤ إلى دهلي ، ثم نساfer بالطائرة السعودية إلى جدة ، تأخرت ست ساعات أو أكثر ، تفكك بها نظام السفر واضطررنا إلى أن نساfer بالطائرة السعودية يوم الأحد في ٤/ من ربيع الآخر (١٣/ من نوفمبر) وبتنا الليلة في جدة في منزل مضيفنا القديم الدائم الحاج محمد نور ولي صاحب شركة عبد الغني محمد نور ولي ، وتحركنا في الصباح يوم الإثنين في ٥/ ربيع الآخر (١٤/ من نوفمبر) مُخرمين مُعتمرين إلى مكة ، وحضرنا جلسة المجلس التأسيسي بعد أداء المناسك متأخرين بيومين ، وكان المتوقع أن يدوم المجلس أسبوعاً كاملاً ولكن فوجئنا بانتهائه ، (وقد أنهى إجراءاته والقضايا التي كانت موضع التأمل وتبادل الرأي) في اليوم الرابع يوم الثلاثاء ٦/ من

ربيع الآخر (١٥/ من نوفمبر) وأسند معالي الأمين العام كلمة الأعضاء إليّ ، فألقيتها متشكراً ومتشرفاً .

ونظّم سعادة الأستاذ أحمد محمد جمال الكاتب الإسلامي المشهور وزميلي في وفد الرابطة الذي زار أقطاراً إسلامية مختلفة في غرب آسيا كأفغانستان وإيران وسورية والأردن والعراق في سنة ١٣٩٣ هـ (١٩٧٣ م) حفلة عشاء في داره بالتزّهة تكريماً لي ، حضرها الصديق القديم الكريم سعادة الأستاذ محسن أحمد باروم ، وسماحة الشيخ محمد محمود الصوّاف ، والدكتور صالح أوزجان (عضو المجلس التأسيسي) ، والأستاذ محمد محمود الحافظ ، والدكتور عبد الله عباس الندوي ، وكان مجلساً علمياً أخوياً .

قضينا بعد ذلك ثلاثة أيام ٧ - ٨ - ٩/ من ربيع الآخر (١٦ - ١٧ - ١٨ / من نوفمبر) في مكة المكرمة وأسعدنا الله تعالى بصلاة الجمعة في الحرم الشريف ، وفي خلال هذه الأيام عقد الدكتور عبد الله عباس الندوي حفلة تكريم في منزله ، حضرها عددٌ وجيه من الأدباء والعلماء ، ومن توثقت بيننا وبينهم الصداقة حين طال المقام بمكة في سنة ٤٩ - ٥٠ م ، ومما يجدر بالذكر والشكر أن الأستاذ عبد الرحمن حبنكة كان أول من قابلنا عند وصولنا إلى مكة ، ثم أكرمنا بزيارته يوماً وأتحفنا بمؤلفاته الجديدة ، وتجددت به ذكريات والده العظيم بركة الشام سماحة الشيخ حسن حبنكة رحمه الله .

كان من خصائص هذه الرحلة التي كانت من أقصر الرحلات - التي أكرمنا الله بها إلى البلاد المقدسة - أياماً ، لقاء معالي الشيخ محمد صالح القرّاز أمين رابطة العالم الإسلامي العام الأسبق ، وكان قد لزم بيته واعتزل عن الناس من سنين لكبر سنه ، وحبه للاعتزال والانقطاع للعبادة والاشتغال الديني ، بحيث لا يطمع فيه طامع ولا يزوره زائر ، وقد كنت تواقاً لزيارته والتسليم عليه ، لما كان بيني وبين معاليه من الصلّة العميقة البعيدة عن الاعتبار السياسية والإدارية ، ولما كنت أتمتع منه بثقة وتقدير خاص ،

وقد اختارني لقيادة وفد الرابطة الذي زار ستة أقطار إسلامية كبيرة في غرب آسيا كما سبق ، وكلّما طلبتُ من الإخوان أن يُتيحوا لي فرصة لقائه ، ذكروا لي حُبّه للاعتزال والانصراف عن الزيارات واللقاءات ، ولم يُشجّعوني على تحقيق هذه الرغبة ، وكانت حاجة في نفس يعقوب ما قضاها .

ويسّر الله هذه الزيارة في هذه المرة ، فقد اتصل العزيز الدكتور عبد الله عباس الندوي بمعاليه هاتفياً وبلغه رغبتني في زيارته والتسليم عليه فقط ، فسَمَحَ بذلك مسروراً ، ودخلتُ منزله فتلقّاني بسرور وترحيب كأنه كان من ذلك على ميعاد ، وأخبرني أنني لم أُغِبَ عن خاطره ، وقد رأني في المنام عدّة مرات ، ووجدت منه ما اعتدته من حفاوة وانفتاح وتكريم ، ولا شك أنّه الرجل العامل المُوفّق الذي أسعده الله بالإشراف على عملية الزيادة والتوسّع في الحرم الشريف المكي ، ثم التوسّع في المسجد النبوي الشريف ، وأدار الأمانة العامة لرابطة العالم الإسلامي ، بحكمة وأمانة ، ولباقة وقدرة ، متمتعاً باحترام الجميع ، وأحمد الله على هذا اللقاء الذي كان بعض حقوقه عليّ واعترافاً بفضله وصلاحه وإخلاصه .

فوجئنا في اليوم الثامن عشر من نوفمبر بنبأ وفاة الشيخ أبي العرفان الندوي أحد أساتذة دار العلوم ندوة العلماء الكبار ، ووكيل كُلية الشريعة هاتفياً في الصباح الباكر ، وكان النبأ محزناً مفاجئاً ، لأننا اتصلنا بالأمس هاتفياً بندوة العلماء ، فأخبرنا بالتحسّن في صحته ، وكان الأستاذ الفقيه من خير من يمثّل الثقافة الندوية - التي تجمع بين التاريخ والأدب ، والعقيدة والكلام ، ومعرفة طبقات الرجال ، وتمتاز بالسّعة والمرونة والاعتدال والإنصاف ، والخبرة بواقع الحياة - وكان في مقدمة من يمثّل الندوة في الملتقيات العلمية ، التي تعقدّها الجامعات والمجامع العلمية ، فيترك أثراً حسناً عند أهل العلم ، ويرسم صورةً لائقةً لعالمٍ عصريّ واسع الثقافة ، رحمه الله وغفر له .

توجّهنا في ١٠ / من ربيع الآخر (١٩ / من نوفمبر) إلى المدينة المنورة ،

ومكثنا في رحابها في منزلنا القديم بستان نور ولي أسبوعاً ، تيسّرت لنا فيه صلاة الجمعة في المسجد النبوي الشريف .

وفي خلال هذه الإقامة القصيرة ، انعقدت جلسة مجلس الأئمة لرابطة الأدب الإسلامي في ١٥ - ١٦ / من ربيع الآخر (٢٤ - ٢٥ / نوفمبر) في بيت صديقنا الفاضل الدكتور عبد الباسط بدر أستاذ الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة ، حضرها (علاوة على الدكتور عبد الباسط بدر ، المُضيف الكريم) الأستاذ محمد حسن بريغش ، والدكتور عبد القدوس أبو صالح من الرياض ، والدكتور محمود إبراهيم أستاذ الجامعة الأردنية من عمّان ، والدكتور حسن الأمراني أستاذ جامعة جده من المغرب ، والدكتور عبد الله عباس الندوي ، من مكة المكرمة ، والأستاذة: الأستاذ محمد الرابع الحسني الندوي ، والأستاذ سعيد الأعظمي الندوي ، والأستاذ واضح رشيد الندوي من الهند ، واستمرت الجلسة ساعاتٍ عديدة يوم الخميس ويوم الجمعة ، وقرّرت قرارات في صالح الرابطة وتعميم رسالتها وتوسيعها .

كان نشاطنا وتحركاتنا في المدينة المنورة محدودة في الغالب بين المسجد النبوي الشريف ومنزلنا في بستان نور ولي في شارع أبي ذر ، وكان أكثر أحببتنا وأصدقائنا في المدينة المنورة لم يعرفوا وجودنا في المدينة ، لأنّ هذه الزيارة لم تكن بمناسبة جلسات المجلس الاستشاري الأعلى للجامعة الإسلامية أو مناسبة اجتماعية أخرى ، فلم يشع خبر توجّهنا إلى المدينة المنورة وإقامتنا فيها مدة أسبوع ، يستثنى من ذلك معالي الشيخ صالح الحُصَيْن ، وسعادة الشيخ محمود الحافظ ، وبعض علماء سورية الذين عرفوا وجودنا في المدينة وشرّفونا بزيارتهم .

وفي ١٧ / من ربيع الآخر (٢٦ / من نوفمبر) يوم السبت ، توجّهنا إلى جدة وتغدينا واسترحنا في منزل الأخ إشفاق حسين شيخ مهندس مصلحة الهاتف سابقاً ، والذي رافقنا من جدة إلى المدينة ، ومن المدينة إلى جدة ، وركبنا سيارته .

وبعد المغرب كان لي حديث موجز في مجلس قد نظمه فضيلة الشيخ

عبد الله علي بصفر (الذي يرجع إليه الفضل في محاضرتي المستفيضة في جامع منصور شعبي في الرحلة الماضية ، وقد مضى الحديث عنها في الصفحات الماضية) وقد تناولت في هذا الحديث (لضيق الوقت والإرهاق الذي كان بي) سورة العصر بالتفسير والحاجة إلى تطبيق ما جاء في هذه السورة من شروطٍ وصفاتٍ للخلاص من الخسران ، ونيل السعادة والنجاح في الدنيا والآخرة .

ويوم الأحد في ١٨ / من ربيع الآخر (٢٧ / من نوفمبر) كانت لي محاضرة موسّعة مستفيضة في أردو ، موجّهةً الخطاب إلى الإخوان الهنديين والباكستانيين في مسجد الجوهرة في العزيزية ، وقد غصّ الجامع الكبير الواسع بالمستمعين ، وقدم إليّ أحد الحاضرين وأنا ساع إلى منصة الخطابة ، ورقة فيها اقتراح بلفت النظر إلى مضارّ الفيديو (Video) والتلفاز (Television) اللذين انتشرا انتشاراً فظيماً ، وكان لهما أثر عميق في البيوتات والأحداث والشباب ، وكانت محاضرتي تدور حول تفسير قوله تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْخُلُوا فِي السِّلْرِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [البقرة : ٢٠٨] .

وتطرقت في الحديث إلى الفيديو والتلفزيون ، وحضرتني الآية القرآنية - من غير أن أفكر فيها سابقاً - وهي قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ يُضِلُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [لقمان : ٦] ، وقلت : إنّ هنالك نوعين من الملهيات والشواغل ، أحدهما : (لهو) ينطبق على المباريات والتفرّج عليها ، والألعاب التي أسرف الناس في التلهي بها ، والحديث عنها ، وأنواع أخرى من اللهو ومنها حديثٌ ملهٍ شاغل قد يتغافل فيه الإنسان عن الواجبات الدينية ، وعن الاشتغال بذكر الله كالسّمَر والأفاصيص والروايات المُسلّية ، ولكن الله أضاف في هذه الآية اللهو إلى الحديث ، فقال : ﴿ لَهْوَ الْحَدِيثِ ﴾ ومن إعجاز القرآن أنه ينطبق على الأساليب والآلات التي كان اكتشافها ورواجها حديثاً ، وينطبق تماماً على الفيديو والتلفاز ، فهو لهوٌ وحديثٌ في وقتٍ واحدٍ ، وزاده إيضاحاً وتطبيقاً قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي ﴾ فلا سبيل إليها إلاّ إنفاق المال والحصول عليهما عن طريق

الشراء ، وأخبرت أن المحاضرة حظيت بحسن الاستماع والتجاوب ،
وتحدّث الناس عنها في مجالسهم ، وقضينا بعض الوقت مع صديقي الكريم
الدكتور الطيب أشرف الدين في منزله في حديث ديني ولقاء أخوي .

* * *

رحلة إلى الإمارات عام ١٩٨٨ م محاضرة مهمّة في أبو ظبي

كنا تلقينا دعواتٍ متكررةً ومخلصة ملحةً ، من كرام الأصدقاء والمُحِبِّين في الإمارات ، ومن أبو ظبي خاصة ، في مقدمة هؤلاء الحريصين على زيارتنا للإمارات وعلى رأسهم معالي الشيخ أحمد خليفة السويدي الممثل الشخصي لرئيس الدولة الشيخ زايد آل نهيان ، الذي كان قد أطلع على عدد من رسائلنا الدعوية ومؤلفاتنا عن طريق الأخ الدكتور تقي الدين الندوي^(١) أستاذ جامعة العين ، وأعجب بها ، وجّهت الدعوة عن طريق الشيخ تقي الدين الندوي مراراً ، ولم أستطع أن أسافر خصيصاً لزيارة أبو ظبي والإمارات للمسؤوليات والأشغال المتواصلة ، واستجبتُ لها أخيراً ، واقترنَ بذلك دافع عاطفي إسلامي وهو عزاء أبناء سماحة الشيخ أحمد عبد العزيز المبارك رئيس قضاة أبو ظبي ، الذي كانت تربطنا به روابط دينية وأخوية ، وقد حضر مهرجان ندوة العلماء الكبير في سنة ١٩٧٥ م (بمناسبة مرور خمس وثمانين سنة على نشوء ندوة العلماء) ولا يزال دعاؤه المبتهل المرقق الذي دعا به بمناسبة وضع حجر الأساس بمكتبة ندوة العلماء العامة يُذكر ، وقد كان وقع حادث اغتيال ابنه الذي كان سفيراً بباريس قبل مدة ، فكان أثره عميقاً بحكم الطبيعة في نفسه .

وكذلك كنت أشعر بشوق إلى لقاء سموّ الشيخ سلطان بن محمد

(١) أحد أكبر تلاميذ العلامة المحدث الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي ، لازمه مدة ، واستفاد منه في الحديث ، تخرج من دار العلوم - ندوة العلماء ثم من جامعة القاهرة ، دَرَسَ في دار العلوم - ندوة العلماء ، ثم عيّن أستاذاً للحديث في جامعة الإمارات بدبي .

القاسمي ، والي الشارقة وتهنئته على العودة إلى مركزه ، وقد تكرر اللقاء معه ، ولقيت من سموه دائماً العطف والتكريم ، وجاء إلى لكهنؤ - وهو في زيارة رسمية للهند - خصيصاً للقائي وزيارة جامعة دار العلوم ندوة العلماء ، يضاف إلى ذلك الحنين إلى زيارة أسرة العالم المخلص الرباني فضيلة الشيخ عبد الله عليّ المحمود رحمه الله ، وعلى رأسها الدكتور سالم عبد الله عليّ المحمود ، وقد حضرت مناسبة افتتاح المكتبة المنسوبة إليه ، وقد مرّ ذكره ، وكذلك لقاء الشيخ سيف غرير الذي أتصل بنا هاتفياً ونحن في الهند ، وهو من المعنّين والمكرمين لمؤسسة ندوة العلماء وما يتّصل بها ، إلى آخرين من إخوان وأصدقاء في الإمارات ، في مقدمتهم فضيلة الشيخ علي صالح المحويّتي قاضي الديد .

توجّهنا من جدة إلى أبو ظبي يوم الإثنين في ١٩/ من ربيع الآخر (٢٨/ من نوفمبر) ظهراً ، ووصلنا عند المغرب ، وكان في استقبالنا على المطار معالي الشيخ أحمد خليفة السويدي ، والدكتور تقي الدين الندوي ، وعدد من وجهاء البلد وكبار الموظفين في الحكومة ، وتوجّهنا إلى فندق «شيراتون» حيث تكرّرت في اليوم القابل لزيارات في الفندق من وكيل وزارة الشؤون الإسلامية ورجالات العاصمة ، وتعدّينا عند معالي الشيخ أحمد السويدي ، حيث تشرّفنا بلقاء الشيخ علي شرفة ، مدير ديوان رئيس الدولة والشيخ فيصل بن سلطان القاسمي ، وزارنا مراراً وتكراراً أصدقاء في أبو ظبي كالدكتور محمود قيسية الندوي ، وعدد من فضلاء الندوة والمتخرّجين من دار العلوم العاملين في أبو ظبي ودُّبّي والشارقة .

وألقيت من غدٍ محاضرة بعنوان: «ترشيد الصحوة الإسلامية»^(١) في المجمع الثقافي ، وهي في الحقيقة محصول هذه الرحلة وقيمتها ، وسيأتي تلخيصها قريباً مع زيادات في الشرح والإفاضة عند الكتابة .

ويوم الأربعاء في ٢١/ من ربيع الآخر (٣٠/ من نوفمبر) توجّهنا إلى

(١) انظر هذه المحاضرة بكاملها في «محاضرات إسلامية في الفكر والدعوة» للعلامة أبي الحسن عليّ الحسيني الندوي .

الشارقة وقد حدّد لنا سموّ الشيخ سلطان القاسمي اللقاء معه عند الوصول إلى الشارقة والغداء معه ، وقد جلسنا مع سموه جلسةً خاصةً وصلّينا الظهر وتغذّينا مع نخبة كبيرة جامعةٍ من أصحاب الفضيلة والسعادة وكبار علماء أبو ظبي والقضاة والأئمة ، وتوجّهنا بعد ذلك إلى منزل الدكتور سالم عبد الله عليّ المحمود حيث تفرّز نزولنا ، ومكثنا عنده مدة إقامتنا في الشارقة ودُبي .

وكانت لي محاضرة في نفس اليوم في كُلية الدراسات الإسلامية في دُبي ، تناولت فيها تفسير آية من سورة الكهف ، وهي قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا فَتِيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِنَّ وَرَدَّ لَهُنَّ هُدًى ﴾ . . . إلى قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا ﴾ [الكهف: ١٤] ، وفسّرتها تفسيراً يستطيع الشباب الدارسون الأذكياء الطامحون ، أبناء البيوتات الغنيّة والأسر الكريمة الرسمية أن يتلقّوا دروساً من هذه الآية المسترعية لانتباه الشباب الذين لهم آمال ومطامح ، وفرصٌ ومجالات في الحصول على أسباب الرخاء والثراء ، والمجد والرئاسة ، ويقتدوا بهؤلاء الفتية المؤمنین في علوّ همّتهم ، وبُعد نظريهم ، ورباطة جأشهم ، في إثارة العقيدة الصحيحة على العقيدة الزائفة ، وإيثار الآخرة على الدنيا ، وتمردهم على الفرص المتاحة لقضاء حياة عزّ ومجد ، ورخاوة وسراوة ، ورأس الجلسة وقدّم المحاضر مدير الكلية العالم الفلسطيني والمؤلف الإسلامي الشيخ محمود الديك .

أكرمنا سعادة الشيخ سعيد لوتاه مدير بنك دُبي الإسلامي بزيارته في منزلنا ، وهو وجيه فاضل ، غيور على الإسلام ، عامل في مجال الاقتصاد الإسلامي ، وتعليم النشء الإسلامي ، بصمت وجدّ ، وزهد في الدعايات ، قوّاه الله وبارك في مجهوده .

وتغذّينا في اليوم القابل عند سعادة الشيخ سيف الغرير الذي هو من كبار تجّار دُبي ووجهائها ، وله اتصال خاص واهتمام بندوة العلماء ورجالها ، وقد حضر الغداء عددٌ كبير من علماء ووجهاء وأصدقاء يمثلون دُبي تمثيلاً لائتقاً .

كانت لي محاضرة بعد المغرب في قاعة المحاضرات بالشارقة ، تحدثت فيها عن انطباعاتي عن المدنّيات والحضارات التي تبلغ قمّتها وتتخطّى

حدودها في حياة الشعوب والأمم والديانات والرسالات ، وكنت قد أخذتني حيرةً بمشاهدة البهجة والزخرفة اللتين شاهدتها في الإمارات والسعودية ، وتحديث عن تماسك العرب المسلمين الأولين واحتفاظهما بشخصيتهم الإسلامية العربية ، والبساطة والاقتصاد ، وحياة التقشف والفروسيّة ، مقابل الحضارتين الرومية والفرسية اللتين بلغتا الغاية في التألق والتوسع والحياة المصطنعة ، وذكرت الحاجة إلى «تَمَدُّين» هذه المدنية وإخضاعها للمبادئ والغايات التي أكرمها الله تعالى بها عن طريق الإسلام وإخضاع هذه الحضارة وما لا بد منه في مسيرة العصر ومجاراة البلاد المتحضرة ، للشخصية الإسلامية ، وختمت المحاضرة بالآية التي ختم بها سيدنا الحسن بن علي بن أبي طالب - رضي الله عنهما - حديثه حين طلب منه سيدنا معاوية بن أبي سفيان أن يتكلم أمام الناس بعدما تنازل عن الخلافة في حق معاوية - رضي الله عنه - حتى يعلم الناس أن ذلك كان عن جدّ وتصميم واقتناع ، وخطب خطبة وجيزة وختمها بالآية الكريمة: ﴿وَإِنَّ أَدْرَىٰ لَعَلَّهُمْ فِتْنَةً لَّكُمْ وَمَنَعَ إِلَيْنَا جِئِينَ﴾ [الأنبياء: ١١١].

رجعنا إلى المنزل واستعدنا للرحيل إلى دلهي ، وكان موعد الطائرة الهندية الساعة الحادية عشرة ليلاً ، واتصل سموّ الشيخ سلطان بن محمد القاسمي هاتفياً ، وأخبر بقدومه للتوديع ، وراودته على عدم تجشّمه لهذا اللقاء ، فلم يقبل تكرّماً منه وتكريماً للضيف في ولايته ، وجزاه الله خيراً ورفع شأنه .

رافقنا إلى المطار الأخ عثمان الحيدر آبادي المهندس في مطار جدة الذي رافقنا من جدة إلى دبيّ لمساعدتنا والتهيئة لنا ، دأبه في أكثر الرحلات التي نقوم بها إلى السعودية ، وهو الذي قام بكل ما يلزم في الرحلة بالطائرة وفي الإقامة في البلد ، ورافقنا كذلك سعادة الشيخ سيف العُريير ، وأخوه مروان العُريير ، وقاما بكل تيسير وتسهيل للسفر حتى أخذنا مقاعدنا في الطائرة ، وأقلعت في موعدها فوصلنا إلى دلهي في الساعة الثالثة والنصف بالتوقيت الهندي في اليوم الثاني من ديسمبر يوم الجمعة ، وسافرنا بالطائرة مساءً إلى

لكهنؤ وقد تأخرت ثلاث ساعات ، فوصلنا إلى مقرنا في نصف الليل ،
والحمد لله أولاً وآخراً .

وإلى القارئ محاضرة أبو ظبي وعنوانها: «تَرْشِيدُ الصَّحْوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ» .

محاضرة في موضوع «تَرْشِيدُ الصَّحْوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ» :

أتصل الدكتور تقي الدين الندوي أستاذ جامعة العين في الإمارات من أبو
ظبي ، بكتاب هذه السطور هاتفياً وهو في «جدة» ، وسألني عن موضوع
المحاضرة التي سألقها بإذن الله في أبو ظبي مساء يوم الثلاثاء في ٢٠/ من
ربيع الآخر (٢٩/ من نوفمبر) وقد أذيع نبأها في أبو ظبي ، وشرح الله صدري
لأن يكون موضوع المحاضرة «تَرْشِيدُ الصَّحْوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ» ، وقد جاء اختيار
الموضوع عن توفيق من الله تعالى متجاوباً لأوانه والحاجة إليه ، وكانت
المحاضرة من أهم المحاضرات التي وفقني الله لها ومن وحي الساعة وحاجة
العصر .

كانت المحاضرة بقاعة المحاضرات بالمُجَمِّع الثقافي الكبير ، وغصت
الساحة الواسعة بالمستمعين ، وشهد المحاضرة معالي أحمد خليفة
السويدي ممثل صاحب السمو رئيس الدولة الشيخ زايد آل نهيان ورئيس
مجلس أمناء المجمع الثقافي ، وعدد من المسؤولين ، وجمهور غفير من
المهتمين بالثقافة والقضايا الإسلامية ، كما جاء في صحيفة «الاتحاد»
الصادرة من أبو ظبي^(١) .

بدأت المحاضرة بعد الخطبة المسنونة ، بقولي :

«سادتي وإخواني ! يسرني ويشرفني أن أتحدث عن هذا الموضوع الجليل
الذي أصبح حديث النوادي والمحافل ، وشغل الناس الشاغل ،
والموضوع دقيق كبير الحساسية ، وقد نشأ في طبائع كثير من الناس شبه
حماية أو شبه تقديس للصحوة الإسلامية ، وكثر تفاؤلهم بها حين يسمعون
بها في أي بلد ، ولكنني أتجاسر وأتناول هذا الموضوع بشيء من الصراحة

(١) عدد ٣٠/ نوفمبر ١٩٨٨ م .

والنقد الإيجابي البناء ، لأنَّ الصحوة الإسلامية في الحقيقة مسؤولية كبيرة ، وأمانةٌ دقيقة جلييلة ، فإنها إذا وجدت فهي كالسهم إذا طاش وأخطأ الهدف ، فإنه لا ينسب هذا الخطأ إلى القوس ، ولا يحمل على مصادفة أو فلتة ، بل إلى الرامي ، فإخفاق السَّهم في إصابته الهدف ، إنما يأتي من ضعف الساعد وعدم قدرة الرامي ، وكذلك الصحوة إذا اتخذت منهجاً غير دقيق وغير مُخطَّط تخطيطاً دقيقاً جامعاً ، أفقدت الثقة أو أضعفتها بصلاحيه الإسلام في إنشاء الصحوة الصالحة القويّة ، ومحاربة الأوضاع الفاسدة ، وإيجاد قيادة صالحة قوية واعية في إنشاء مجتمع صالح إسلامي مثالي ، وربما قطع الأمل في محاولة جديدة للصحوة الإسلامية في المستقبل ونجاحها وتحقيقها للأهداف والآمال ، ويعكس سلباً على الإسلام والمسلمين ، نتيجة عدم التخطيط السليم مسبقاً .

إنَّ كثيراً من الناس لهم تعبير أو تفسير خاص للصحوة ، إنهم ينظرون إليها كحرب أو ردّ فعل ضدّ البيئات الفاسدة والأوضاع المنحرفة فحسب ، أو ضدّ قيادة أو حكم لا يتفق مع تعاليم الإسلام وأسس حكمه إطلاقاً ، أو يُحبذونها ويصفقون لها إذا كانت مجرد هتاف ضدّ قوة أجنبيّة كبيرة ، أو تحدياً لها ، ولو بمجرد مناورة ومظاهرات وإعلانات .

والصحوة في الحقيقة من طبيعة الإسلام يجب أن تمتدّ وتَسَلْسَل وتتصل اتصالاً مستمرّاً ، لأنَّ هذه الأمة المختارة ، والأمة الأخيرة المبعوثة للإنسانية جمعاء ، وهو تعبير نبويّ عن هذه الأمة ، وقد أُثِرَ عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال لبعض كبار الصحابة : «إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين»^(١) ، وقال سيدنا ربعي بن عامر لرستم لما قال : (ما الذي جاء بكم؟ قال : الله ابتعثنا لنُخرجَ من شاء من عبادة الناس إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام»^(٢) ، ولا أبلغ ولا أوضح من قول الله تعالى :

(١) أخرجه الترمذي عن أبي هريرة - رضي الله عنه - .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير .

﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

فكانت بعثة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مقرونةً ببعثة أمة ، بعثة مجموعة بشرية ، داعية واعية كُتبت لها الوصاية على المجتمع البشري في كل زمان ومكان ، والحسبة الخلقية العقائدية والقيادية على الجيل الإنساني في كل عصر ، فالصحوة الإسلامية حاجةٌ بشرية الدائمة الخالدة ، لا تقلّ في الأهمية عن الحاجة البشرية إلى مقومات الحياة كالغذاء والماء والهواء معنوياً ، وهي في صالحها ومن مطالبها ، وعدم وجودها ليس خطراً على الكيان الإسلامي والمجموعة الإسلامية فقط ، بل هو خطرٌ على سلامة المجتمع البشري واتجاهه السليم ، وبدونها تبقى الشعوب والأمم كقطعان غنم من غير راعٍ ، وسفينة مشحونة بالركاب من غير مجدّف خبير قدير .

وهذا العصر يحتاج إلى الصحوة الإسلامية أكثر من أيّ زمان ، لأنّ هذا العصر هو عصر الشهوات والشبهات ، وعصر الفلسفة ، وعصر الأساليب الفكرية الأجنبية عن الإسلام ، فنحن نرحّب بالصحوة الإسلامية في كل بلد ، وندعو لها بالتوفيق ، ولكن هذا لا يمنعنا من تناول هذه الصحوة بشيء من النقد الهادف ، ومن وزن هذه الصحوة على ميزان العقيدة الإسلامية ، وعلى ميزان المقاييس والمعايير الصالحة ، وعندنا أيها الإخوة ملاحظات ربما تنفع المساهمين في هذا الصحوة والداعين إليها والعاملين لها .

إنّ أول شرط لسلامة هذه الصحوة وجدارتها بالثقة والاحترام والدفاع ، هي أن تكون الصحوة موافقةً للعقيدة الإسلامية المنبثقة من الكتاب والسنة ، بحيث تتفق وعمل الرسول عليه الصلاة والسلام وأسوته وأسوة الخلفاء الراشدين من بعده ، وفيهم الراسخون في العلم ، وعقيدة الجمهور من المسلمين ، ولا تنساق في التيارات السياسية والاتجاهات المرتجلة ، أو تكون مجرد ردّ فعل في مواجهة أوضاع محلية ، أو مجرد وعود لإقامة حكومة إسلامية ، أو سيادة سياسية ، وعرض لإمكاناتها ، فيرحّب الناس

بها ، ويتحمّس الشباب في الدفاع عنها ، بصرف النظر عن عقيدة قادة هذه الحركة وانحرافاتهم عن العقائد الإسلامية المجمع عليها ، بل محاربة لها أو ثورة عليها في بعض الأحيان .

ذلك لأنّ العقيدة في الحقيقة هي النهر الجاري المتّجه إلى الجهة الكريمة السليمة الدائمة ، لم ينقطع ماؤه ولا جريانه على الخطّ السليم ، أما الموجات التي ترتفع وترسب ، والمجاري التي تأتي وتذهب ، فلا ثقة بها ولا عمدة عليها ، فقد يكون ذلك في الصّباح ويذهب في المساء ، والذي درّس التاريخ الإسلاميّ دراسةً عميقةً محايدةً ، يعرف أنه كانت هناك تيارات على مدّ التاريخ الإسلاميّ كانت فيها جاذبيّةٌ وسحر ، وكانت لها جولةٌ وصوليّةٌ ، وكان رمزاً للتّنوّز ، ورمزاً «للعقلانية» ، ورمزاً للتفكير الحرّ ، وكان كثيرٌ من الشباب يتمجّد ويتنبّل باحتضانها والدفاع عنها كـ«موضة» عصرية ، وشعار للتّنوّز والوعي ، ثم ذهب ذلك أدراج الرياح وطُوي في صفحات التاريخ ، لا ينتبه لها ولا يعرفها إلّا المتتبّع لتاريخ علم الكلام والعقائد والحركات الفكرية .

والمعيار الثاني : أن تتصف هذه الصحوة بشيء من التوسّع والتعمّق في الدراسة الدينية ، وفي فهم الكتاب والسنة ، ويراقتها ويقترن بها الوعي المدني ، وفهم القضايا المعاصرة والحركات والتيارات العاملة النشيطة ، وموقفها من الإسلام ، وأثرها في الحياة ، وخطرها على مستقبل هذا الدين والجيل الإسلاميّ ، والاطّلاع على أهداف القيادات التي تريد أن تسيطر على هذه البلاد والبيئات وتتسلّم زمام توجيه المجتمع وفق عقائدها وقيّمها ومثُلها ، وسبك الحياة سبكاً جديداً ، فإنّ التفاضل عن هذه القوّات ، والطاقت ، والحركات والقيادات ، وانطواء الجماعات الإسلامية على نفسها ، معتمدة على تمسّكها بالدين والدعوة إليه ، والاشتغال بأداء الفرائض والواجبات الدينية ، وحياة الطهر والعفاف والعبادات والطاعات ، يحول بعد مدةٍ من الزمن بينها وبين حرية العمل بالدين ، وتطبيق أحكام الشريعة ، ويضيّق الخناق حولها ، حتى ينطبق عليهم قول الله تعالى :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ ﴾

[التوبة: ١١٨].

ويعيشون في المستقبل تحت رحمة هؤلاء المارقين من الدين أو المحاربين له ، والتَّئِنين غير الإسلامي ، والتدخُّل في الشريعة الإسلامية ، وقانون الأحوال الشخصية الخاص بالمسلمين ، وتحت مبدأ المجتمع الغربي المسيحي الذي يقول: (إنَّ الدينَ قضيةٌ شخصيةٌ ، وقضيةٌ بين الفرد والخالق ، لا شأن له بالحياة والتشريع والسياسة).

معذرتي إلى لفيف من الإخوان الذين يَرَوْنَ أن لا داعي إلى الوعي ، ولا داعي إلى التطبيق بين الصحوة الإسلامية وبين واقع الحياة وقضاياها الشاغلة للعقول والمؤثِّرة في تشكيل المجتمع ونظام التربية ومنهج التفكير .

وقد نشأ في بعض البلاد الإسلامية رجال متحمِّسون قد أهملوا هذا الجانب ، وقالوا: لا داعي إلى العناية بالقضايا المحيطة بنا ، الشاغلة للعقول والنفوس ، وإلى النظر إلى المجتمع هل يتَّجه إلى الفساد ، ويتَّجه إلى الانحراف والتحرُّز والتفسُّخ ؛ أو يتَّجه إلى الصلاح والرشاد؟ ما دمنا نحن نصلي ونصوم! فالحمد لله على ما أنعم به علينا من نعمة الإسلام والعمل بأحكامه ، فليس هذا بالفهم الصحيح للإسلام ، فلا بدُّ من تنمية الوعي الصحيح وتربيته ، والفهم للحقائق والقضايا ، والتمييز بين الصديق والعدو ، وعدم الانخداع بالشعارات والمظاهر ، حتى لا تكرر مآسي وقوع هذه الشعوب فريسةً للهتافات الجاهلية ، والنَّعرات القومية ، أو العصبية اللغوية والسلالية ، والإقليمية ، ولعبة القيادات الداهية والمؤامرات الأجنبية ، فتذهب ضحيةً سذجتها وضعفها في الوعي الديني والعقل الإيماني ، وتذهب جهودُ تكوينِ الجوّ الإسلامي ومحاولات تطبيق الشريعة والنظام الإسلامي سُدىً ، أو تتعرض لخطرِ تطبيقِ النظام العلماني والتحرُّز و«التقدمية» الغربية ، المقبولة في العصر الحاضر والمطلوبة من الجماهير التي لم تتلقَّ تربيةً إسلاميةً ، ونشأت في ظلال نظام التربية الغربي ، الذي

طبَّقه الحكم الأجنبي الطويل (الذي يسمى «الاستعمار»)، وتحت تأثير وسائل الإبلاغ المسلية الماجنة^(١).

وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين هكذا ، فقد كانوا لا يُخَدَعُونَ ولا يُخَدَعُونَ ، فأما أنهم لم يكونوا يخدعون فهو معلوم بالبدهة - وحاشاهم عن ذلك - ولكن كثيراً منا لا يعرف أنهم كانوا لا يُخَدَعُونَ ، فقد كانوا واعين متيقظين لم تكن عقولهم ونفوسهم تسبخ شيئاً لا يتفق مع روح الدين وتعاليمه ، ولا يقعون فريسةً للمغالطات والمظاهرات الخلابة والتهافتات المُغرية .

وأكبر دليل على ذلك ، والمثل الأعلى أنَّ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، الذي كانوا يؤمنون بأنه النبي المعصوم ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۗ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم : ٣ - ٤] ، والذي كان أحب إليهم من أنفسهم وآبائهم وأبنائهم ، وما عرف التاريخ جيلاً بشرياً أكثر احتراماً وإجلالاً لداع أو نبي - مع مراعاة الحدود والتجنب عن التأليه والتقديس اللائق بالإله الواحد القهار - أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال مرة : «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» وكان ذلك من أمثال الجاهلية السائرة (كما قال كبارُ الشارحين للحديث) ، وكان ذلك من الأعراف الجاهلية السائدة ، فيقول الشاعر الحماسي مادحاً لبني مازن :

لَا يَسْأَلُونَ أَخَاهُمْ حِينَ يَنْدُبُهُمْ فِي النَّائِبَاتِ عَلَى مَا قَالَ بَرهَانَا
رغماً عن كل ذلك لم يملك الصحابة الحاضرون أنفسهم ، فقال

(١) وقد ظهرت هذه الحقيقة جليةً في نتائج الانتخابات والتصويت (في شهر نوفمبر ١٩٨٨ م) في باكستان ، البلد الذي قام على اسم الإسلام وتطبيق نظامه ، وإثبات نجاح هذه التجربة للعالم ، فكانت النتائج بالعكس ، دليلاً على انتصار التقدميين وهواة التحرر من قيود الشريعة والنظام الإسلامي ، على المنادين بالنظام الإسلامي ونفاذه ، والمتقيدين بالتعاليم الإسلامية ، حتى أفضى ذلك إلى تولية امرأة متحررة على كبرى البلاد الإسلامية لأول مرة في تاريخ الإسلام الطويل ، ذلك مع وجود آلاف من العلماء ، ومئات من المدارس الدينية ، وعدد كبير من الجماعات الإسلامية الدعوية في باكستان .

أحدهم: (يا رسول الله ، هذا نصرته مظلوماً ، فكيف أنصره ظالماً؟) ، ولم يُبدِ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على ذلك استياءً أو استنكاراً ، بل قال في هدوء ورضا: «تمنعه من الظلم ، فذاك نصرك إياه»^(١).

وقد وَصَفَ رسول الله ﷺ المسلم - وبالطبع المجتمع الإسلامي السليم - بما يدلُّ على وعيه وتفوّقه ، فقال: «لا يُلدَغُ المؤمنُ مِنْ جُحْرِ مَرَّتَيْنِ»^(٢) ، وقال: «اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ»^(٣) ، وهكذا يجب أن يكون المجتمع الإسلامي في كل زمان ومكان ، لا يُخَدَعُ ولا يُخَدَعُ ، ولا يُلدَغُ من جُحْرِ مَرَّةٍ بعد مرة .

ومن عبر التاريخ المتكرّرة ودروسه التي يجب أن ينتفع بها ، أنّ حركاتٍ إصلاحية جذرية قامت لإزالة الجمود الطارىء على العقول والتفكير والحياة ، وإزالة الطحلب^(٤) عن سطح ماء النهر الإسلامي الجاري ، والقضاء على التقيّد ببعض التقاليد العرفية ، ومقاييسها ومطالبها التي ما أنزل الله بها من سلطان ، قامت لتحريك العقول والطّاقات في المجتمع الإسلامي لفهم قضايا العصر وتحقيق متطلّباته الصحيحة المقبولة ، ومسايرة العصر ، بل قيادته قيادةً صالحةً رشيدةً ، والبرهنة على صلاحية الإسلام لقيادة كل عصر وحلّ مشكلاته وقدرته على إجابة كل سؤال ، ومواجهة كلّ تحدٍّ.

ومن عبّر التاريخ أنّ كثيراً من هذه الحركات الإصلاحية الجذرية - ولا أقول الثورية - وقعت على مرّ الزمن فريسةً الجمود والركود اللذين نشأت لمحاربتهما ، وأصبحت أسيرةً منهجها الأول الذي كان مطابقاً لوضع العصر الذي نشأت فيه ، محققاً لمتطلّبات حركة إصلاحية في إطار خاص محدود ، وتمسّكت بالخطوط والحدود التي رسمها قادة هذه الحركة في

(١) حديث متفق عليه .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده .

(٣) الجامع الصحيح للبخاري .

(٤) الطحلب: خضرة تعلو الماء المزمّن .

الماضي عن إخلاص ووعي ، إجابةً لنداء العصر ، وتطبيقاً لما أنبأ به الرسول ﷺ بقوله : «يَحْمِلُ هَذَا الْعِلْمُ مِنْ كُلِّ خَلْفٍ عَدُوَّهُ يَنْفُونَ عَنْهُ تَحْرِيفَ الْغَالِبِينَ ، وَانْتِحَالَ الْمَبْطُلِينَ ، وَتَأْوِيلَ الْجَاهِلِينَ»^(١) ، وتمسكت بهذه الخطوط والحدود تَمَسُّكَ النَّاسِ بِالْمَنْصُوصِ الْقَطْعِيِّ الَّذِي لَا يَقْبَلُ حَذْفًا وَلَا زِيَادَةً ، وَلَا مَرُونَةً وَلَا تَوْسَعًا ، وسيطر على العاملين في مجال هذه الدعوة والحركة ، الركودُ الفكري والتطرّف في بعض الأحيان ، وألحوا على منهجهم كنصوص الشريعة القطعيّة ، والآيات القرآنية .

وقد كان ذلك لأنّ هذه الحركة قد فقدت عنصراً النموّ والقدرة على استعراض المحيط ، وطبيعة العصر وقضاياها الطريفة المتجدّدة ، والقدرة على التطبيق بين المنهج الإصلاحية وواقع الحياة ومتطلّباته ، ومن الحقائق أنّ الإسلام استطاع أن يساير كل زمن ويثبت جدارته لقيادة المجتمع البشري والتطبيق بين تعاليمه وحاجات العصر ، لوجود العلماء والقادة الذين لم يفقدوا - قط - التّموم الفكري ، والذكاء الممتاز والقدرة على الاجتهاد ، واستنباط الأحكام من الأصول الدينية ، ومصادر الشريعة الأولى في كل زمان ومواجهة كل تحدّ في عصرهم ومصرهم ، وتحقيق كل ما يطلبه الزمان وتحتاج إليه الأمة ، بقدرة فائقة ، وعبقريّة باهرة ، ولم يغمضوا عيونهم عن واقع الحياة ، ولم يصمّوا آذانهم على نداء العصر وطلبه ، فبقي هذا الدين حياً خالداً ، مقبولاً سائغاً ، قادراً على قيادة المجتمع وترشيده وتسييره في دائرة الإسلام على الخطّ السليم ، والصراط المستقيم^(٢) .

والمعيار والشرط الثالث : أن لا تكون هذه الحركة سلبيةً محضةً تُسرّع إلى مجابهة الحكومات والطاقت ذات القوى والوسائل ، وتحدّث لها مشكلاتٍ وعراقيل في الخطوة الأولى ، فتضيعُ بذلك كثيراً من طاقاتها

(١) مشكاة المصابيح (الفصل الثاني).

(٢) انظر للتفصيل مقدمة سماحة الشيخ الندوي في كتابه «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» الجزء الأول ، «الحاجة إلى الإصلاح والتجديد والبعث الجديد ، واتصالهما في تاريخ الإسلام» .

وأوقاتها ، وتنشئ لها أعداء ، وقد تجاهد في غير جهاد ، وفي غير عدوّ ، بل يجب أن تكون إيجابية أكثر منها سلبية ، وتفضّل العملَ بمبدأ إيصال الإيمان إلى أصحاب الكراسي وحملهم راية الإسلام ، وتطبيق النظام الإسلامي بأنفسهم ، على مبدأ إيصال أصحاب الإيمان وأعضاء حركة إصلاحية خاصّة إلى الكراسي ، واحتكار عمل تطبيق النظام الإسلامي وقلب أوضاع المجتمع ، لأفراد جماعة خاصة ودعاةٍ مخصوصين .

ولم أجد في دراستي لتاريخ الإصلاح والتجديد في الإسلام ، مجهوداً تحقّق له من النجاح ، ومصلاًحاً تمكّن من قلب الأوضاع ، وتغيير مجرى التاريخ وإرغامه على أن ينحو نحواً جديداً ، مثل ما تحقّق للإمام أحمد بن عبد الأحد السّرهندي^(١) (م ١٠٣٤ هـ) وهنا مقتطف من كتاب صاحب المحاضرة «ربّانية لا رهبانية» :

(قد أتجهت حكومة السلطان جلال الدين أكبر في الهند إلى اللادينية والإلحاد اتجاهاً سافراً ، وأراد أكبر - وكان من أكبر الملوك الذين عرفتهم الهند وأقواهم - أن يطمس على معالم الإسلام وملامحه الواضحة وميزاته البارزة ، بجميع ما عنده من وسائل ومواهب وطاقات ، وقد اجتمع عنده جمعٌ من الأذكياء وذوي الكفاءات النادرة يعينونه على هذا الباطل ، ولم يكن هناك ضعف أو هرم في الدولة يشير إلى زوالها ، أو يدل على ثورة يتأجج أوراها ، وكان العلم والمنطق ، والقياس الظاهر ، لم يكن يصدّق أنه سيقع هناك تغيير سارّ أو تحوّل بارز في الحكومة والشعب .

هنالك قيّض الله أحدَ عباده للإصلاح والتجديد ، فحمل راية الثورة بمفرده ، وبدأ في ثورةٍ داخليةٍ بقوةٍ إيمانه ويقينه ، وعزمه وتوكله ، وروحانيته وإخلاصه ، حتى أصبح كل وارث للحكم المغولي أحسن من سابقه ، ثم تربّع أخيراً على هذا العرش السلطان محيي الدين «أورنك زيب

(١) انظر للتفصيل الجزء الثالث من «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» الخاص بالإمام السرهندي ، طبع دار القلم - الكويت ، ودار ابن كثير - دمشق .

عالمكير» الملك الفاضل الصالح المجاهد المسلم الغيور الذي ينذر نظيره في تاريخ الحكومات الإسلامية ، وكان رائد هذه الثورة المباركة إمام الطريقة المجددية الشيخ أحمد السرهندي^(١).

وذلك لإيثاره الإيجابية على السلبية ، وإثارة روح الحمية الإسلامية ، وتحريك الإيمان في المتسلم لزاماً لحكومة ومن حوله من الوزراء ورجال البلاط ، وإقناعهم بأنه لا يطمح إلى السيطرة والسيادة ، بل لا يحلم بذلك في المنام ، ولا من حوله من تلاميذه وأبنائه ، وإنما يريد أن تكتب لهم السعادة في حماية الإسلام وتطبيق أحكامه وحماية البلاد - التي فتحها أبائهم لسيطرة سيطرة الإسلام ، وأراقوا في ذلك دماءهم الزكية - من خطر سيطرة البرهمية ، والفلسفة الهندوكية ، والحضارة الجاهلية ، فاقتنعوا بذلك وتحول اتجاههم من محاربة الإسلام وطمس معالمه ، إلى حماية الإسلام ومحو آثار سيطرة البرهمية والوثنية التي بدت من زمن السلطان جلال الدين أكبر .

إنَّ «أكبر» كان حرّم ذبح البقرة - لأنَّ الهنادك يعبدونها ويقدسونها - وأعتبرها جريمة يُعاقب عليها من يقترفها عقاباً شديداً ، وأحلّ لحم الخنزير ، وبالعكس من ذلك لما فتح ابنه السلطان نور الدين جهانكير - الذي تأثر بإخلاص الإمام السرهندي وحظي بصحبته فترة من الزمن - قلعة كانكره (Cangra) التي كانت قد استعصت على الفاتحين المسلمين - وكان ذلك الفتح على يد قائد هندوكي - لما دخل جهانكير في هذه القلعة ، كان أول ما أمر به هو بناء مسجدٍ فيها وذبحُ بقرة ، وبذلك يعرف الفرق الشاسع في سياسته وسياسة والده ونفسيتهما وسلوكهما .

والعنصر الرابع: هو أن يتّصف قادة الصّحوة الإسلامية بشيء من العزوف عن المناصب والرئاسات والحياة الرغيدة الناعمة ، ومناقسة أرباب المناصب والجاه فيما وسّع الله عليهم في الدنيا ، ويتّسمون بسمّة الزهد

(١) انظر «ربانية لارهبانية» لسماحة الشيخ الندوي ، ص ١٣٧ - ١٣٨ طبع دار ابن كثير بدمشق ، وقرأ رسالته «الدعوة الإسلامية في الهند وتطوراتها» .

والقناعة والتوكل - حسب طاقتهم وفي الحدود الشرعية من غير رهبانية وغلو - على قَدَمِ السلفِ الصالح وأصحاب العزيمة.

وهنا أنقل ما قلته في ترجمة الإمام أحمد بن حنبل في كتابي «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» الجزء الأول:

(وقد رأينا الزهد والتجديد مترافقين في تاريخ الإسلام ، فلا نعرف أحداً ممن قلب التيار ، وغير مجرى التاريخ ، ونفخ روحاً جديدةً في المجتمع الإسلامي أو افتتح عهداً جديداً في تاريخ الإسلام ، وخلف تراثاً خالداً في العلم والفكر والدين ، وظلّ قروناً يؤثر في الأفكار والآراء ، وسيطر على العلم والأدب ، إلّا وله نزعة في الزهد ، وتغلّب على الشهوات ، وسيطرة على المادة ورجالها ، ولعل السرّ في ذلك أنّ الزهد يُكسب الإنسان قوة المقاومة ، والاعتداد بالشخصية والعقيدة ، والاستهانة برجال المادة ، وبصرعى الشهوات وأسرى المعدة ، ولذلك ترى كثيراً من العبقريين والنوابغ في الأمم ، كانوا زهاداً في الحياة ، متمردين على الشهوات ، بعيدين عن الملوك والأمراء والأغنياء في زمانهم ، ولأنّ الزهد يثير في النفس كوامن القوة ، ويشعل المواهب ويلهب الروح ، والدعة أو الرخاوة تُبلد الحسّ ، وتنيّم النفس وتميت القلب .

وهناك تعليقات أخرى يوافق عليها علم النفس وعلم الأخلاق ، ولا أطيل بذكرها ، وأقتصر على هذه الملاحظة التاريخية ، وألح على أنّ منصب التجديد والبعث الجديد يتطلّب لا محالة زهداً وترفعاً عن المطامع وسفساف الأمور ، ويأبى الاندفاع إلى التيارات ، ويتنافى مع الحياة الوادعة الرخيّة ، والعيشة الباذخة الثرية ، إنما هو خلافة للرسول الأعظم ﷺ . وقد قيل له : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفِثَنَّهُمْ فِيهِ وَرَرَقَ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ [طه : ١٣١] ، وأمر بأن يقول لأزواجه : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْتُمْ أُمْتَعْتُمْ وَأَسْرَحْتُمْ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾ [الأحزاب : ٢٨] ، وهذه سنة الله فيمن يختاره لهذا الأمر العظيم ، ومن

يرشّح نفسه ويمنيها بهذا المنصب الخطير ، ﴿ وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب : ٦٢] ^(١) .

والعنصر الخامس: أن يقترن نشاط هذه الصحوة بروح التضحية والبطولة ، والجَلادة والتقشُّف ، والقدرة على المغامرات - وإن كان لا بدّ منها - فإنّ الناس ما زالوا مفظورين على تقدير الإيمان القوي والعزّة وروح المخاطرة ، وعلى الإجلال لشيء لا يجدونه عندهم ، وتاريخ الإسلام مليء بالبطولات والمغامرات ووجود هذا الفراغ - عدم وجود روح التضحية والبطولة ، والاعتداد بالإيمان والشخصية الإسلامية ، والدعوة الإيمانية - خطرٌ كبيرٌ على الدعوات الصحيحة والصحوة الإسلامية ، يسبّب ذلك نشوء حركةٍ منحرفةٍ زائفةٍ ، فاسدةٍ العقيدة والمنهج ، سلبيةٍ هادمةٍ مدمّرةٍ ، يكون لها سحرٌ على النفوس ، لا يبطله وعظ واعظ ، أو مقالٌ كاتب ، أو استدلالٌ منطقي ، أو بحثٌ علمي ، يشهد بذلك تاريخ كثير من الحركات العسكرية الثورية ، التي ظهرت باسم قلب الأوضاع الفاسدة ، أو باسم الإسلام والإصلاح ، كذباً وزوراً أحياناً كثيرة ، والسبيل لا يمسه إلا سيلٌ مثله ، والتيار لا يدفعه إلا تيار أقوى منه ، والباطل القوي لا يقاومه إلا الحق القوي ، وعدمٌ وجود روح التضحية والفداء في سبيل العقيدة الصحيحة والأهداف الصالحة ، يمهد الطريق للوقوع في شبكة الدعوات المنحرفة الزائفة ، فقد بلغ التذرُّر من الأوضاع الفاسدة ، وتغلّب النظم الجائرة نهايته ، ومن لم يجد ماءً زلالاً سائغاً أروى ظمأه من الماء الفاسد العكر ، وصدق الله العظيم .

﴿ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ [الأنفال : ٧٣] .

* * *

(١) رجال الفكر والدعوة في الإسلام» ج ١ ، ص ١٠٥ .

رحلتي إلى دولة الإمارات العربية المتحدة

عام ١٩٨٨ م

سنحت لي فرصة لزيارة دولة الإمارات العربية المتحدة في ١٩/ربيع الثاني ، الموافق ٢٨/نوفمبر سنة ١٩٨٨ م ، على دعوة من الشيخ أحمد خليفة ، الذي كان موضع ثقة سمو الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان ، رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة ، وكان قد وجّه إليّ الدعوة أكثر من مرة عن طريق الدكتور تقي الدين الندوي ، أستاذ الحديث بجامعة العين قبل ذلك ، لكنني لم أتمكن من القيام بزيارة الإمارات وتلبية رغبته ، لبعض مسؤولياتي ، وأشغالي المتواصلة داخل البلاد؛ وفي هذه المرة انتهزت هذه الفرصة ، فتوجّهت إلى دولة الإمارات العربية المتحدة في طريق عودتي من المملكة العربية السعودية ، ووصلت من جدة إلى أبو ظبي وقت المساء ، ونزلنا بفندق شيراتون ، وقابلني في اليوم التالي وكيل وزارة الشؤون الإسلامية ، وبعض المسؤولين عن الحكومة ، ومدير الديوان الملكي الشيخ فيصل بن سلطان القاسمي في الفندق .

ثم غادرت أبو ظبي إلى الشارقة في ٢١/ربيع الثاني ، الموافق ٣٠/نوفمبر ، والتقيت بسمو الشيخ سلطان القاسمي حكام الشارقة ، بعد وصولي إلى الشارقة على الفور ، وتحدثت معه حول قضايا المسلمين الراهنة ، ثم أدينا صلاة الظهر ، واجتمعنا بصفوة من العلماء والدعاة والأئمة والقضاة لأبو ظبي ، وتناولنا الغداء معاً ، ووصلت من هنا إلى منزل

الدكتور سالم عبد الله علي المحمود ، وأقمنا بمنزله خلال فترة إقامتي في دُبَيِّ والشارقة .

وألقيت محاضرة في كلية الدراسات الإسلامية بدُبَيِّ في نفس اليوم ، وكان موضوع حديثي: ﴿إِنَّهُمْ فَتِيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ﴾^(١) ، وقد شرحت في كلمتي صفات الفتية المؤمنین ، ودورهم ومنهجهم ، وقلت: إن هذه الآية الكريمة تقدم درساً للشباب المثقفين ، الذين يملكون همّة عالية ، وذكاءً حاداً ، وينتمون إلى أسر كريمة ثرية حاکمة ، وتثير وعيهم ، وتقوي حميتهم ، وتدعم إياهم وأنفتهم؛ وتُقدِّم إلى الذين تتوفر لديهم فرص العمل ، وتتوافر وسائل الراحة ، والعيش ، ورغد الحياة ، وأدوات البذخ والترف ، وذرائع العز والمجد ، وإمكانات الوصول إلى السلطة: قدوة وأسوة لهؤلاء الشباب الذين آمنوا بربهم فزادهم إيماناً ، ونماذج لعلو الهمة ، وبعد النظر ، والزهد في الحياة ، والاقتصاد في المعيشة ، والتشبث بالعقيدة ، والإعراض عن المنصب والجاه ، والعزوف عن الحياة الناعمة الرغيدة ، وتفضيلهم الآخرة على الدنيا .

وكان رئيس هذه الحفلة الكاتب الإسلامي المعروف ، وعميد الكلية الشيخ محمود الديك ، وقام بالتعريف عن المحاضر .

وجاء الشيخ سعيد لوتاه ، رئيس بنك دُبَيِّ الإسلامي بنفسه إلى مقرِّي ، وهو رجل يمتاز بحميته الدينية ، وجهده المستمر ، وله خدمات جليلة في مجال الاقتصاد الإسلامي ، وتعليم الشباب تعليماً دينياً ، ويحترز عن السمعة والمظاهر كل الاحتراز ، ويقضي الحياة ببساطة وسذاجة ، فأدعو الله أن يقويه ، وينصره ، وبارك في أعماله ، ويتقبلها؛ وتبادلنا وجهات النظر في جوٍّ وديٍّ أخوي .

وفي اليوم التالي أقام الشيخ سيف أحمد الغرير حفلة الغداء في منزله ،

(١) انظر هذه المحاضرة بكاملها في «محاضرات إسلامية في الفكر والدعوة» للعلامة أبي الحسن علي الحسيني الندوي .

وهو يُعدّ من كبار التجار ، ومن وجهاء دبيّ وأعيانها ، ويقوم بينه وبين المنتمين إلى ندوة العلماء ، والمؤسسات الأخرى التابعة لها؛ اهتماماً خاصّاً ، ويمدّد التعاون إليها .

وألقيتُ محاضرة في قاعة المحاضرات في الشارقة بعد صلاة المغرب في نفس اليوم ، أعربت فيها عن انطباعاتي عن الحضارة والمدنية ، اللتين بلغتا ذروتها في الرقي والازدهار ، وتخطتا حدود حياة الأقاليم والملل والأديان .

وقد تأثر قلبي ، وأهمني ما شاهدت من نضارة المدنية ، والإقبال الزائد عليها ، والتهافت على الزخارف ، وأسباب النعيم ، والحرص على محاكاة حياة المترفين الغافلين عن الآخرة ، وتجددت في ذهني ذكريات وقصص حياة المسلمين العرب من السلف ، التي كانت تتسم بالبساطة والسذاجة ، والتضحية والفداء ، والزهد والقناعة ، والجرأة والبطولة ، والغيرة والأنفة ، والتمسك بالشخصية الإسلامية العربية ، والاحتفاظ بها ، مقابل الحضارة الرومية والإيرانية المعاصرة لهم ، والتي كانت بلغت قمّتها في الرقي والسعة ، والنضارة والجودة ، والسحر والجادبية ؛ وفي تقدّم الحياة الصناعية ، واختراع أدوات الراحة والزينة ، والكماليات .

فأكدت على ضرورة إخضاع هذه المدنية المزخرفة اللامعة للأهداف والمبادئ ، وعلى ضرورة إخضاع الحضارة الحاضرة للشخصية الإسلامية لتساير العصر وتسد حاجاته ومتطلباته .

وختمت هذه المحاضرة بالآية الكريمة ، التي كان ختم بها سيدنا حسن بن علي بن أبي طالب كلمته ، التي ألقاها على رغبة من الأمير معاوية رضي الله عنه ، عند تنازله عن الخلافة ، وكان يهدف بذلك ليعرف الناس أن ما حدث حدث بالإرادة والإيقان؛ وختمت حديثي بهذه الآية كما جاء في حديثه: ﴿ وَإِنْ أَدْرَى لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَنْعٌ إِلَيَّ حِينَ ﴾ [الأنبياء : ١١١] .

وعدت إلى منزلي بعد المحاضرة ، وجعلت أستعدّ للعودة إلى دلهي ، وكان موعد إقلاع الطائرة المتّجهة إلى دلهي الساعة الحادية عشرة ليلاً ،

وكان قد اتصل بي سمو الشيخ سلطان القاسمي ، وأخبرنا بقدمه إلى المطار لتوديعنا ، وبذلت جهدي لمنعه ، ولكنه وصل إلى المطار لمروءته ، وكرمه ، وحسن خلقه ، وتكريماً لضيف بلاده ، فجزاه الله عنا خير الجزاء .

ورافقني الأخ الكريم محمد عثمان المهندس إلى مطار جدة ، وكان قد رافقني في رحلة دبي من جدة ، وهكذا وهو يساعديني في سائر رحلاتي الخارجية ، كما تفضل الشيخ سيف الغرير وأخوه الشيخ مروان الغرير ، وأشرفا على إكمال إجراءات السفر ، وتوفير التسهيلات اللازمة ، إلى موعد إقلاع الطائرة ، ولم يغادر إلا بعد الاطمئنان على إكمال إجراءات المغادرة ، فنشكرهم جميعاً على هذا الاهتمام؛ وأقلعت الطائرة في موعدها ، ووصلنا في ٢/ ديسمبر يوم الجمعة ، في الساعة الثالثة والنصف بتوقيت الهند المحلي .

وهكذا تمت هذه الرحلة المباركة الطيبة ، وتوجهت إلى لكهنؤ ، بطائرة المساء في اليوم نفسه ، وتأخرت الطائرة ثلاث ساعات فوصلنا متأخرين في الليل .

محاضرة ترشيد الصحوة الإسلامية :

اتصل بي الدكتور تقي الدين الندوي على الهاتف ، وسألني عن عنوان المحاضرة التي كان من المقرر أن ألقياها في أبو ظبي في ٢٠/ ربيع الآخر الموافق ٢٩/ نوفمبر ، وكان قد أعلن عنها من قبل ، وألقى الله في روعي أن تكون هذه المحاضرة حول عنوان: «الصحوة الإسلامية المعاصرة ، والحديث عن الحاجة إلى ترشيدها»^(١) . ووفقني الله في اختيار هذا الموضوع توفيقاً كبيراً ، فجاءت المحاضرة في حينها ، وطابقت مقتضى الحال ، وتستحق هذه المحاضرة أن تعدّ من خيرة محاضراتي ، وأهمها ، وذلك من توفيق الله وحاجة العصر .

(١) انظر هذه المحاضرة بكاملها في «محاضرات إسلامية في الفكر والدعوة» للعلامة أبي الحسن علي الحسيني الندوي .

اختيرت للمحاضرة القاعة الفسيحة للمجمع الثقافي ، وكانت القاعة مكتظة كُلياً بالحاضرين ، وكان في مقدمتهم وعلى رأسهم الشيخ خليفة السويدي ، أحد المقرّبين إلى رئيس دولة الإمارات العربية المتّحدة ، سمو الشيخ زايد بن سلطان آل نهيّان ، واشترك في هذه الجلسة أعضاء مجلس الأمناء للمجمع الثقافي ، والمسؤولون ، والمهتمّون بالشؤون الإسلامية ، ونشرت صحيفة (الاتحاد) الغزّاء ، الصادرة في أبو ظبي ملخصاً للمحاضرة فيما بعد .

مقتطفات من أهم نقاط المحاضرة :

(١) الصحوّة الإسلامية مسؤولية كبيرة وأمانه دقيقة :

إن الصحوّة الإسلامية في الحقيقة مسؤولية كبيرة ، وأمانة دقيقة جليّة ، فإنها إذا وُجدت فهي كالسهم إذا طاش وأخطأ الهدف ، فإنه لا ينسب هذا الخطأ إلى القوس ، ولا يحمل على مصادفة أو فلتة ، بل إلى الرامي ، فإخفاق السهم في إصابته الهدف ، إنما يأتي من ضعف الساعد وعدم قدرة الرامي ، وكذلك الصحوّة إذا اتّخذت منهجاً غير دقيق ، وغير مخطّط تخطيطاً دقيقاً جامعاً ، أفقدت الثقة أو أضعفتها بصلاحيّة الإسلام في إنشاء الصحوّة الصالحة القويّة .

(٢) الصحوّة من طبيعة الإسلام وواجباته ، وحاجات البشرية الدائمة :

الصحوّة في الحقيقة من طبيعة الإسلام ، يجب أن تمتد وتتسلسل وتتصل اتصالاً مستمراً ، لأن هذه الأمة هي الأمة المختارة ، والأمة الأخيرة المبعوثة للإنسانية جمعاء ، وهو تعبير نبوي عن هذه الأمة ، وقد أُثِرَ عن الرسول عليه الصلاة والسلام أنه قال لبعض كبار الصحابة :

«إنما بعثتم ميسرين ولم تُبعثوا معسرين»^(١) .

ولا أبلغ ولا أوضح من قول الله تعالى :

(١) أخرجه الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه .

﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

(٣) شروط سلامة الصحة الإسلامية:

أ- أن تكون موافقة للعقيدة الإسلامية الصحيحة:

إنّ أول شرط لسلامة هذه الصحة، وجدارتها بالثقة والاحترام والدفاع، هو أن تكون الصحة موافقة للعقيدة الإسلامية، والمنبثقة من الكتاب والسنة بحيث تتفق وعمل رسول الله ﷺ، وأسوته وأسوة الخلفاء الراشدين من بعده، وفهم الراسخين في العلم، وعقيدة الجمهور من المسلمين، ولا تنساق في التيارات السياسية والاتجاهات المرتجلة، أو تكون مجرد ردّ فعل في مواجهة أوضاع محلية، أو مجرد وعود لإقامة حكومة إسلامية، أو سيادة سياسية، وعرض لإمكاناتها.

ب- التوسّع في الدراسة الدينية، وتغذية الشباب المثقف بالغذاء الفكري الصالح القوي الدسم:

والمعيار الثاني أن تتصف هذه الصحة بشيء من التوسّع، والتعمّق في الدراسة الدينية، وفي فهم الكتاب والسنة، ويُعنى بالشباب المثقف - الذين يزداد عددهم في هذه الصحوات - عناية خاصة، فيغذّوا بالغذاء الفكري الصالح القوي الدسم، الذي ينور عقولهم، ويعيد فيهم الثقة بصلاحية الإسلام للقيادة وحلّ مشاكل الحياة، ويجب أن يُحَثُّوا على الارتباط القوي العميق الإيماني والعملية بالقرآن الكريم، ودراسة السيرة النبوية، وتاريخ الإسلام الأول، وتاريخ الإصلاح والتجديد وقادتهما؛ الذي يشغل مواهبهم، وينير لهم السبل لتوجيه طاقاتهم توجيهاً قيادياً سليماً.

ج- أن يقترن بالصحة الوعي المدني، وفهم القضايا المعاصرة والحركات والتيارات العاملة النشيطة:

ويرافق الصحة ويقترن بها الوعي المدني، وفهم القضايا المعاصرة والحركات والتيارات العاملة النشيطة، وموقفها من الإسلام، وأثرها في

الحياة ، وخطرها على مستقبل هذا الدين ، والجيل الإسلامي ، والاطلاع على أهداف القيادات التي تريد أن تسيطر على هذه البلاد والبيئات .

د - العناية ببقاء الشعور بأهمية الجهاد في سبيل الله وفضله :

كذلك تجب العناية ببقاء الشعور بأهمية الجهاد في المفهوم القرآني الشرعي الإسلامي ، وإحلاله المحل اللائق من العقل والعاطفة ، ومن الإكبار والإجلال والغبطة على من اتصف به ، ومثّل به دوراً بارزاً ، والحرص على تقليدهم ، والحنين إلى الشهادة ، فإنها ثروة إيمانية ، تمتاز بها هذه الأمة من بين الأمم قديماً وحديثاً ، وهي مصدر خوارق وروائع من البطولة والفداء .

هـ - ضرورة كون الصحوة إيجابية ، والتوقي من المجابهة وإثارة المشاكل والمعارضات من غير ضرورة :

ويجب أن لا تكون هذه الحركة سلبية محضة ، تشرع إلى مجابهة الحكومات والطاقات ذات القوى والوسائل ، وتحدث لها مشكلات وعراقيل في الخطوة الأولى ، فتضيع بذلك كثيراً من طاقاتها وأوقاتها ، وتُنشئ لها أعداء؛ وقد تجاهد في غير جهاد وفي غير عدو . . بل يجب أن تكون إيجابية أكثر منها سلبية .

و - أهمية الزهد والقناعة ، والعزوف عن حُبّ الغلوّ ، والتنافس في الدنيا في تاريخ الإصلاح والدعوة :

ويجب أن يتصف قادة الصحوة الإسلامية بشيء من العزوف عن المناصب والرئاسات ، والحياة الرغيدة الناعمة ، ومنافسة أرباب المناصب والجاه ، ويتسمون بِسِمَةِ الزهد والقناعة والتوكل ، حسب طاقاتهم ، وفي الحدود الشرعية ، من غير رهبانية وغلوّ ، على قدم السلف الصالح وأصحاب العزيمة .

(٤) كيف تقع حركات إصلاحية جذرية فريسة الجمود ، الذي تنشأ لإزالته ، وتفقد الحيوية والحركة :

ومن عبّر التاريخ المتكررة ، ودروسه التي يجب أن ينتفع بها ، أن

حركات إصلاحية جذرية قامت لإزالة الجمود الطارئ على العقول والتفكير والحياة ، وإزالة الطحلب عن سطح ماء النهر الإسلامي الجاري ، والقضاء على التقيّد ببعض التقاليد العرفية ، ومقاييسها ومطالبها التي ما أنزل الله بها من سلطان ، قامت لتحريك العقول والطاقات في المجتمع الإسلامي ، لفهم قضايا العصر ، وتحقيق مُتطلّباته الصحيحة المقبولة ، ومسايرة العصر ، بل قيادته قيادة صالحة رشيدة ، والبرهنة على صلاحية الإسلام لقيادة كل عصر وحل مشكلاته ، وقدرته على إجابة كل سؤال ، ومواجهة كل تحدّ.

ومن عبّر التاريخ أن كثيراً من هذه الحركات الإصلاحية الجذرية - ولا أقول الثورية - وقعت على مر الزمن فريسة الجمود والركود اللذين نشأت لمحاربتهما ، وأصبحت أسيرة منهجها الأول ، الذي كان مطابقاً لوضع العصر الذي نشأت فيها ، محققاً لمتطلبات حركة إصلاحية في إطار خاص محدود ، وتمسّكت بالخطوط والحدود ، التي رسمها قادة هذه الحركة في الماضي عن إخلاص ووعي ، إجابة لنداء العصر ، وتطبيقاً لما أنبأ به الرسول ﷺ بقوله: «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ، ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين»^(١) ، وتمسّكت بهذه الخطوط والحدود ، تمسك الناس بالمنصوص القطعي ، الذي لا يقبل حذفاً ولا زيادة ، ولا مرونة ولا توسّعاً ، وسيطر على العاملين في مجال هذه الدعوة والحركة: الركودُ الفكري ، والتطرّف في بعض الأحيان ، والجمود على منهجهم كنصوص الشريعة القطعية والآيات القرآنية .

السبب في ذلك :

وقد كان ذلك ؛ لأن هذه الحركة قد فقدت عنصر التّموّ والقدرة على استعراض المحيط ، وطبيعة العصر وقضاياها الطريفة المتجدّدة ، والقدرة على التطبيق بين المنهج الإصلاحي وواقع الحياة ومتطلّباته ؛ ومن الحقائق

(١) مشكاة المصابيح (الفصل الثاني).

أنّ الإسلام استطاع أن يساير كل زمن ، وهو يثبت جدارته لقيادة المجتمع البشري ، والتطبيق بين تعاليمه وحاجات العصر ، لوجود العلماء والقادة الذين لم يفقدوا - قط - النمو الفكري ، والذكاء الممتاز ، والقدرة على الاجتهاد واستنباط الأحكام من الأصول الدينية ومصادر الشريعة الأولى ، في كل زمان ، ومواجهة كل تحدّ في عصرهم ومصيرهم ، وتحقيق كل ما يطلبه الزمان وتحتاج إليه الأمة ، بقدرة فائقة ، وعبقريّة باهرة ، ولم يغمضوا عينهم عن واقع الحياة ، ولم يصمّوا آذانهم على نداء العصر وطلبه ، فبقي هذا الدين حيّاً خالداً ، مقبولاً سائغاً ، قادراً على قيادة المجتمع البشري وترشيده ، وتسييره في دائرة الإسلام على الخط السليم ، والصراط المستقيم .

* * *

رحلتي إلى تركيا وبريطانيا عام ١٩٨٩ م

كان قد تقرر عقد ندوة رابطة الأدب الإسلامي العالمية في إستانبول بتركية من ١٢ - ١٦ من أغسطس سنة ١٩٨٩ م ، وذلك لأن عدداً كبيراً من أعضاء الرابطة والأدباء العرب ، والأساتذة في الجامعات العربية ، يتوجهون إلى تركيا للاصطياف ، وبدأ الاتجاه الإسلامي يتصاعد في مجالات حياتها المختلفة ، من علمية وفكرية وأدبية ، فتقرر أن تعقد ندوة رابطة الأدب الإسلامي العالمية ، في هذا العالم في تركيا ، وعيّن موضوعها: «الأدب الإسلامي للأطفال» .

نال الموضوع لطرفته اهتماماً كبيراً من الأدباء ، الذين يحملون عاطفة دينية واتجهاً إسلامياً ، وأعربوا عن سرورهم وابتهاجهم على ذلك ، وتولوا مسؤولية تنظيمها وإدارتها وضيافتها ، وكان في مقدمتهم الروائي الشهير والكاتب المسرحي الكبير ، ورئيس تحرير مجلة أدبية الأستاذ علي نار ، ووجهت الدعوة إلى أعضاء الرابطة في الهند ، والأساتذة ورؤساء أقسام اللغة العربية في الجامعات الهندية ، للمشاركة في هذه الندوة ، فحضرها الأستاذ محمد الرابع الحسيني الندوي ، رئيس فرع الرابطة في شبه القارة الهندية ، والأستاذ سعيد الأعظمي الندوي عضو الرابطة ، ورئيس تحرير مجلة «البعث الإسلامي» ، والأستاذ نور عظيم الندوي^(١) ، مدير

(١) أحد كبار العلماء في الهند ، تخرج في دار العلوم - ندوة العلماء ثم في جامع الأزهر وجامعة القاهرة ، درّس مدةً من الزمن في دار العلوم - ندوة العلماء ، كان من كبار أساتذتها في الأدب العربي ، توفي - رحمه الله - سنة ١٩٩١ م .

مكتب الرابطة في الهند ، بالإضافة إلى الدكتور السيد إبراهيم الندوي^(١) ، رئيس قسم اللغة العربية بالجامعة العثمانية في حيدر آباد ، والدكتور محسن العثماني الأستاذ في الدراسات الشرقية بجامعة نهرو في دلهي ، والدكتور طُفيل أحمد المدني ، الأستاذ في قسم اللغة العربية بجامعة إله آباد ، وكان يرافقني في هذه الرحلة المهندس غلام محمد بجانب الأستاذ محمد الرابع الحسني ، الذي يرافقني دائماً في رحلاتي الدولية ، وكان يشارك في هذه الندوة كسكرتير الرابطة ، فكانت مرافقة هذين الزميلين مرافقةً سعيدة ، وفرت لي أقصى وسائل الراحة والطمأنينة .

توجّهنا إلى إستانبول عن طريق الكويت ، وتوقفنا على المطار برهة ، وقابلنا العزيز السيد إبراهيم الحسني ، والسيد أحمد علي الحسني ، والسيد بدر الحسن القاسمي ، ثم واصلنا الرحلة إلى إستانبول ، وفي مطار إستانبول حضر عدد وجيه من إخواننا الأتراك ، وإخواننا الهنود الذين كانوا قد وصلوا إلى إستانبول من قبل لاستقبالنا ، وأنزلونا في فندق مكة الذي كان جوّه هادئاً ، وثقافته شرقية .

عقدت الجلسة الافتتاحية لهذه الندوة في قاعة فندق مكة في ١٢ / من شهر أغسطس سنة ١٩٨٩ م ، وشارك فيها الشيخ يوسف جاسم الحجّي ، وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة الكويت سابقاً ، ومدير الهيئة الخيرية حالياً ، والكاآب الإسلامي الكبير والداعية الأستاذ محمد قطب ، والشاعر الإسلامي الأستاذ عبد الله بن إدريس ، الأستاذ بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، والدكتور حسن الأمراني ، الأستاذ بجامعة «وجدة» بالمغرب ، والدكتور عبد الباسط بدر ، الأستاذ في الجامعة

(١) من أعلام الهند المستعربين ومن كبار أساتذة الأدب العربي فيها ، ولد في أسرة معروفة بخدماتها العلمية والدينية ، تخرج في دار العلوم - ندوة العلماء ، كان رئيساً للقسم العربي بالجامعة العثمانية في حيدر آباد ، وعضواً في رابطة الأدب الإسلامي العالمية . منحه الحكومة الهندية جائزة رئيس الجمهورية اعترافاً بخدماته العظيمة وإشادة بأعماله الجليلة في اللغة العربية وآدابها له مؤلفات عديدة ، توفي رحمه الله بحيدر آباد سنة ١٤١٢ هـ .

الإسلامية بالمدينة المنورة ، وشاعر طَيْبَةَ الأستاذ ضياء الدين الصابوني ، والأستاذ الشاعر عثمان ذكي ، والأستاذ سلطان ذوق ، رئيس فرع الرابطة في بنغلادش .

بدأت الجلسة الافتتاحية بتلاوة آيات من الذكر الحكيم ، تلاها طالب تركي ، كان يسمى محمد الفاتح ، ثم ألقيت كلمتي كرئيس الندوة والرابطة ، وبينت فيها حقيقة الأدب ودوره القيادي ، وصرّحت بأن كلمة الأدب انتقلت من اللغة العربية إلى اللغة الأردية والتركية ، وكان معناها في الزمن الماضي الخُلُق والمروءة ، والقيم الإنسانية الرفيعة ، وجاء في الحديث النبوي الشريف: «إن الله أدبني فأحسن تأديبي» ، وأنا أعتقد أنه لا يوجد في لغة غير إسلامية كلمة للأدب ، تحتوي على معاني الحضارة والثقافة والخلق النبيل ، والقيم الإنسانية الرفيعة ، فينبغي للأدباء والكتّاب أن لا يغفلوا هذا الجانب للأدب ، ويضعوا الخلق موضع عنايتهم وتقديرهم ، ولا سيما في هذه الأيام التي يستعمل فيها الأدب كأداة قوية مؤثرة للهدم والبناء ، والإفساد والإصلاح ، والخير والشر ، ويجب علينا أن نقوم بدعم صلة الأدب بالخلق ، إذا تسرّب إليها الضعف والذبول .

ثم تحدّث الأستاذ محمد قطب ، وصرّح في كلمته مؤكداً على الحاجة إلى الأدب الإسلامي ، أن عدداً كبيراً من الناس يُظلمون ويُضطهدون في إفريقية وأوربة وآسيا وفي هذه الأيام ، ويعانون آلاماً ومصائب عنيفة ، وأشد أنواع العذاب ، فيستطيع الكتّاب الإسلاميون أن يعرضوا قضاياهم في كتاباتهم على مستوى رفيع من الأدب والفن ، ويعتبر هذا العمل خدمة جليلة للإنسانية البائسة المنكوبة المضطهدة ، ولفّت انتباه المشاركين في هذه الندوة إلى أدب الأطفال .

وقُدِّمت في الجلسات الأخرى لهذه الندوة بحوث ومقالات حول أدب الأطفال ، ونوقشت ، وعُيِّنت خصائص أدب الأطفال ، وحدوده الفنية والنظرية في ضوء تعاليم الإسلام .

وتحدّث الأستاذ سعيد الأعظمي الندوي عن الخصائص الأدبية والفنية

لكتابي قصص النبيين (١ - ٢ - ٣ - ٤ - ٥) ، ونال بحثه إعجاباً وتقديراً على وجه العموم ، ثم أصدرت قرارات مختلفة ، كان من بينها قرار عقد مسابقة عالمية عن أدب الأطفال ، في ضوء الأدب الإسلامي ، وقرار منح جائزة ثمينة على أفضل ما يؤلّف في هذا الموضوع من كتاب .

وعقدت احتفالات كثيرة غير جلسات الرابطة القانونية في مدينة إستانبول ، وعلى شاطئ بوسفور ، وفي بيوت بعض أعيان البلد الإسلاميين؛ وأقام العزيز يوسف قره جه (الذي نقل كثيراً من مؤلفاتي - الكتب الإسلامية والدعوية - من اللغة الأردية إلى اللغة التركية ، ويعتبر في الأوساط العلمية كمترجم بارع) مآدبة على مستوى عال في منزله ، الذي يقع في زاوية بعيدة من المدينة .

وسنح لي خلال فترة انعقاد هذه الندوة إلقاء كلمة في مسجد واسع يدعى سلام ، يقع في حي سلطان جغلي ، أمام تجمع كبير من المسؤولين في المدارس الدينية ، والعاملين في حقل الدعوة الإسلامية ، والمنتسبين إلى جماعة الدعوة والتبليغ ، الذين قدموا من المناطق البعيدة؛ لسماعهم اسم الخطيب ، ودراستهم لبعض مؤلفاته المترجمة إلى اللغة التركية ، وقد عقد هذه الحفلة بدون إعلان كبير ، فأعتبر هذه الكلمة حصاد هذه الرحلة ، ورسالة هذه الندوة إلى الشعب التركي ، الذي كان يجري في عروقه الدم الإسلامي ، والذي كان قد واجه في الزمن الماضي آلاماً شديدة ، ومصائب عنيفة ، وقضايا شائكة معقدة ، ويقوم الآن أيضاً على مفرق محجة .

ألقيت هذه الكلمة باللغة الأردية ، وقام بنقلها إلى اللغة عالم تركي ، درس في باكستان سبع سنوات ، وتعلم هناك اللغة الأردية ، وبرع فيها وأبدت في هذه الكلمة اعترافي بالخدمات العظيمة والبطولات والتضحيات ، التي قام بها الشعب التركي الأبي الغيور ، الذي كان قد شرفه الله بتولية الخلافة الإسلامية لمدة قرون .

وكانت الكلمة لموقعها ، والبيئة التي أُلقيت فيها ، ووجود عدد وجيه من المثقفين الأتراك - مثيرة ، يتأثر بها القلب والوجدان . . . ذكّرتهم

بماضيهم اللامع المشرق ، وأشرت إلى المسؤولية التي تقع على كواهلهم للحفاظ على الإسلام ، وبثّ تعاليمه ، وإعلاء كلمته ، وأنذرتهم بالمؤامرات والدسائس التي ينسجها علماء الغرب ليقطعوا صلتهم بالدين ، ويجعلوا هذه البلاد أندلساً ثانية ، ولفّت أنظارهم إلى أن يعزموا على إحباط هذه المؤامرات ، ويحتالوا لها كل الاحتيال .

وفيما يلي الجزء الأخير لهذه الكلمة تعميماً للنفع :

«تذكروا أيّها الإخوان: أن أوروبا لم تعترف بتركية قط ، هي لقمة لم تتمكن من ابتلاعها ، ولم تستطع أن تقيئها ، دفعت الدول الأوروبية ولايات البلقان إلى محاربة تركية ، والقيام بالثورة عليها ، واحتلت مناطق كثيرة لها ، ثم لم تضمها الدول المتحالفة إلى نفسها في الحرب العالمية الأولى ، سنة ١٩١٤ - ١٩١٨ م ، فاضطرت إلى أن تلحق بألمانيا ، ثم وضعت الدول المتحالفة مشروعاً لتوزيع أراضيها ، وتمزيق وحدتها ، وجعلتها دويلات صغيرة وأجزاء مبعثرة ، وحاولت بذلك الاستيلاء على مناطقها الخارجية ، فاستولت على سورية ، وفلسطين ولبنان ، والأردن (وكانت الشام تتضمن هذه الأجزاء كلّها) والعراق ، لكنها لم تستطع قط أن تسيطر على تركية مباشرة وتستولي عليها .

لكن الآن غيرت أوروبا استراتيجيتها الحربية ، فزحفت إلى العالم العربي بفلسفات جديدة ، ونظام دراسي جديد ، ووسائل الإعلام ، والحضارة الغربية وثقافتها ، والإلحاد والزندقة والتشكيك ، بدلاً من القوة العسكرية ، والأسلحة الحربية الفتاكة ، والدبّابات والصواريخ المدمّرة ، إنها لا تستطيع أن ترى تركية كدولة حرّة مستقلة ، إنها وضعت الألغام تحت الأرض ، وتحقق بوسائلها الداخلية ما لم تستطع أن تحقّقه بقواتها ومدافعها .

كتب المؤرخ الشهير والفلسفي الكبير «أرنولد توينبي»^(١) مشيراً إلى

قصة إحراق مكتبة الإسكندرية - سواء هذه القصة حقيقة أم أسطورة - فلا يحتاج الآن أحد إلى إحراق مكتبة ، أو محو لغة أو ثقافة ، إنَّما يكفي تغيير الخط ، وبذلك يمكن قطع صلة أي بلد وشعبه بالماضي كلياً .

وتحاول أوروبا وعملاؤها أن يجعلوا تركيا أندلساً ثانية ، فينبغي أن لا نخطو خطوة إلا بغاية من الحذر والحيطه ، ولا ننسى وصية سيدنا عمرو بن العاص الحكيمه ، بعدما فتح مصر بكاملها ، في ظروف كان الإسلام ينتشر ، وكان الشعب المصري القديم يقبل عليه ويعتقه ، وكانت لغة البلاد وثقافتها تتغير ، حتى الخط كان يتغير ، وكانت المساجد تُبنى ، وشعائر الإسلام تُرفع ، وكان لا يخشى في بادئ الأمر - أن تخرج مصر عن الحكم الإسلامي ، بالنظر إلى اتصالها بالجزيرة العربية ، وسيل الفتوحات والانتصارات الإسلامية ، ونجاحها المتواصل ، وتقدمها الباهر؛ لكنه قال للمسلمين بذكائه ، وبُعد نظره ، وفراسته التي حصلت له من صحبة النبي ﷺ : «أنتم في رباط دائم لأن شعوب قارة إفريقية كلها ، والحكومات غير الإسلامية وسكانها ، ينظرون إليكم ، وهم حريصون على أن تعود هذه البلاد إلى حالتها السابقة» .

فالسؤال الآن: ما هي الحيلة التي يجب أن نلجأ إليها لدعم علاقة هذه البلاد وشعبها المسلم بالإسلام؟ فأقدم لذلك ثلاث نقاط في ضوء دراستي العميقة للتاريخ وخبرتي الواسعة ، وتدبري في القرآن وتأملاتي فيه ، وأرجو أن تستمعوا لها وتهتموا بها:

١ - تحريك الإيمان في نفوس الشعب التركي المسلم ، وإثارة الشعور الديني فيه ، وتقوية العقيدة التي لا تزال شرارتها كامنة في رمادها على كل حال ، فإن تمسك هذا الشعب المسلم بالإسلام وتحمسه له ، وارتباطه به ، هو السور القوي الرفيع ، وحصن الإسلام المنيع ، الذي لا تجرأ من أجله الحكومات والقيادات المسلمة على أن تختار طرق الكفر ، وتتنحى عن الصراط السوي ، وتلقي بلادها وشعوبها المسلمة التي خضعت لها ، في حضن الإلحاد والزندقة ، فإذا هدم هذا السور - لا سمح الله بذلك - ،

وانقطعت هذه الصلة الروحية العاطفية بالإسلام ، فلا ضمان لبقاء الإسلام والحفاظ عليه ، ولا نستطيع أن نمنع هذه البلاد من أن تصبح أندلساً ثانية وتركستان الروسية .

هذه مواد خام يمكن أن يصاغ منها العلماء والدعاة والأدباء والكتّاب ، وقادة الفكر ، وولاة الأمور في العالم الإسلامي ، ومجموعة بشرية عين بها الأنبياء والرسل ، وبذل فيها الأولياء والعارفون جهوداً جبّارة ، وهي تمتاز عن المجموعات البشرية ، والشعوب الدينية المختلفة ، بالحب والإخلاص ، والعاطفة والحماس ، والموهبة والكفاءة ، والإيثار والتضحية في هذا الزمن أيضاً . ولكنه ينبغي أن يكون للإسلام مئة في المئة ، فلا يجدي العمل بالدين عشرة في المئة ، أو العشرين في المئة؛ إن هذه النسبة يمكن أن تنفع في التعليم ، ووظائف الحكومة ، ومجالات الحياة الأخرى ، لكنها لا تنفع في الدين .

إنّ العقيدة والالتزام بالفرائض والواجبات ، واختيار بعض شعائر الدين والرموز ، لا تكفي وحدها ، إنما ينبغي أن تكون الحياة بكاملها إسلامية ، والمدنية إسلامية ، والأحوال الشخصية إسلامية ، وتؤدى حقوق المخلوق بجانب حقوق الخالق ، بالإضافة إلى العاطفة الدينية ، والحب الخالص للإسلام .

إن الإيمان سور قوي ، وحارس كبير ، حصن حصين ، لا يمكن فتحه بيسر ، فأول ما يجب عليكم : أن تجعلوا الشعب كله مسلماً كاملاً ، واختاروا لذلك طريقاً عاماً ، وأن تتحملوا متاعب السفر ، وإلقاء الكلمات ، والقيام بالدعوة والإرشاد ، واتعظوا بعمل سيدنا أبي أيوب الأنصاري ، إنه كما قلت : رأى الخروج من المدينة المنورة - التي يتمنى كل مسلم أن توافيه المنية ، وهو في هذه المدينة الطيبة ، فيدفن في أرضها الطاهرة؛ للدعوة إلى الله وإعلاء كلمته ، ونشر دينه - أمراً ضرورياً رغم ما كان له من شرف ، شرف ضيافة رسول الله ﷺ ، وشرف صحبته في كل وقت ، والعبادات الجليلة التي وقّعه

الله سبحانه وتعالى لها ، وتوجّه إلى مكان بعيد كقسطنطينية ، بعدما طوى مسافة طويلة ، ودُفن هناك .

٢ - الشيء الثاني: هو تأمين بقاء جيلكم الجديد على الإسلام... .
أخشى أن لا يأتي بعدكم جيل لا يعرف إلا اللغة التركية ، ولا يدرس إلا في المدارس الحكومية ، ولا يعرف عن الإسلام شيئاً ، لو أصبحتم قوامين بالليل وأولياء الله سبحانه وتعالى - ليته يكون ذلك - ، لكن إذا أغفلتم تعليم أبنائكم تعليماً دينياً ، فالخطر باقٍ... . من يعمر المساجد بعدكم؟ وكيف تبقى هذه السلسلة التي حصلت لكم بجهود الغزاة والفاتحين ، والعلماء الربانيين ، والدعاة المخلصين؟ انظروا إلى سيدنا يعقوب عليه السلام ، الذي كان في جيل ثالث من الأنبياء ، إنه لم يكتفِ بذلك ، بل جمع أبنائه وأحفاده ، وقال لهم: ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي ﴾ .

٣ - إن نشاطاتكم الدعوية والإصلاحية ، وأعمالكم وفق الشريعة المطهرة ، ودراساتكم للحديث والفقه واللغة العربية في المدارس الدينية ، وحفظكم القرآن الكريم ، وعنايتكم بالحفاظ على عقيدة أبنائكم وإيمانهم... . كلها مباركة ، لكن هناك أمر آخر لا يقلُّ عنها أهمية ، هو أن الطبقة التي تدرس في الكليات والجامعات - وهم أكثر عدداً ونفوداً - والشباب الذين يعودون من أوروبا بعدما درسوا في جامعاتها ، هم الذين يملكون زمام البلاد ، ويستولون عليها ، ويقومون بإدارتها ، ويضعون لها القوانين ، ويعينون لها الاتجاه ، وسيطرون على وسائل الإعلام ونظام التعليم ، ويجعلون الحسن قبيحاً ، والقبيح حسناً ، ويسمحون لما يحبونه ، ويمنعون ما يكرهونه ، ويعتبرونه معارضاً للقانون ولمصلحة البلاد؛ إنهم إذا وصلوا إلى مناصب التشريع ، وسيطروا على إدارة البلاد ونظامها ، فيخضع لهم الشعب كله ، وثقافته ومدنيته ، وشؤونه الاجتماعية ، ومستقبل جيله الجديد ، حتى الفرائض الدينية ، والشعائر الاجتماعية ، وإدارة المساجد والمدارس ، والأحوال الشخصية الإسلامية تخضع لأوامرهم .

ووقعت هذه التطورات في كثير من الدول الإسلامية الحرّة ، التي يُشكّل المسلمون أغلبية سكّانها ، وكانت تعرف كمراكز للدعوة الإسلامية في زمن ما ، وتوجد فيها الآن أيضاً جامعات دينية كبرى ، لا حاجة لنا إلى سرد أسمائها؛ لأنكم تستطيعون أن تعرفوها بأنفسكم ، فلذلك أقول لكم بكل صراحة أن لا تُعرضوا عن هذه الطبقة ، ولا تقطعوا صلّتكم بها ، واسعوا إلى أن ترسّخوا في أذهانهم عظمة الإسلام والحاجة إلى فهمه ، طبقاً لنفسيتهم ومستواهم العلمي والفكري ، وأقنعوا عقولهم بخلوده ، وصدق تعاليمه ، وصلاحيته للقيادة ، في كل عصر ومصر ، ولا تنسوا أن هذا العصر عصر الأفكار والنظريات ، والعلاقات الدولية ، فلا بدّ من العمل على المستوى العلمي والفكري ، وإقناع الطبقة الجديدة ، التي تصل إلى كراسي الحكم ، وتتولى منصب القيادة والتوجيه ، بأن الإسلام هو المنقذ الوحيد للعالم ، والمنهج الفريد لقضاء الحياة السعيدة الهنيئة ، وإلا فتجري الحياة إلى طريق الانتحار ، من أجل أنها نسيت خالقها ، ونسيت بذلك نفسها ، وصدق الله العظيم القائل :

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾

[الحشر: ١٩].

* * *

زيارة لندن وأكسفورد

عام ١٩٨٩ م

كان من المقرر أن أسافر من تركيا إلى لندن للمشاركة في الجلسة الإدارية للمركز الإسلامي بأكسفورد الذي سبق ذكره في الجزء الأول والثاني في «مسيرة الحياة» أكثر من مرة. في ٢٣/أغسطس سنة ١٩٨٩ م ، وكانت عطلة المهندس غلام محمد الحيدر آبادي كادت تنتهي ، فاضطر للعودة إلى حيدر آباد على الفور ، فوصل إليّ الأخ الكريم محمد عثمان ليحلّ مكانه ، ويساعدني في هذه الرحلة ويريحني ، وهو هندي الأصل ، ويحمل الجنسية الأمريكية ، ويحمل عاطفة دينية قوية ، وهو كبير المهندسين في المطارات السعودية ، وقد أبدى رغبته في أن يرافقني في الرحلات الخارجية ليساعدني طوعياً ، وقد رافقني فعلاً في رحلاتي ، وخلال فترة إقامتي بالمملكة السعودية ، وكثيراً ما كان يرافقني في السفر إلى الرياض ، والعودة منها ، فوصل إلى إستانبول في اليوم الذي كان من المقرر أن يغادر فيه المهندس غلام محمد الحيدر آبادي إلى الهند ، وحمل معه الأدوية التي وصفها لي الدكتور أشرف الدين في جدة ، فاطمأن قلبي بقدمه في الموعد ، وسافرت مع المرافقين: العزيز الأستاذ محمد الرابع الندوي ، والمهندس محمد عثمان الحيدر آبادي.

كان قد وصل إلى أكسفورد للمشاركة في الجلسة الإدارية للمركز الإسلامي جميع أعضائه تقريباً ، وكان من بينهم معالي الدكتور عبد الله عمر نصيف الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة ، والعالم الباحث الكبير الدكتور يوسف القرضاوي ، عميد كلية الشريعة بجامعة قطر ونائب رئيس هذا المركز ، والمؤرخ الشهير الدكتور خليف أحمد النظامي مدير

جامعة عليجراه الإسلامية سابقاً ، والداعية الإسلامي الكبير الشيخ عبد العزيز العلي المطوّع .

وانعقدت جلسات المؤتمر حسب الجدول المقرر بنظام ، وتمّ فيها صياغة الخطة القادمة ، ودرس الأعضاء وضع المركز الاقتصادي ، وبحثوا طرق تحقيق الاكتفاء الذاتي ، وتمّ إنشاء وقف للمركز ، ورکز المشاركون في هذه الجلسة اهتمامهم على النقاط الثلاث الآتية بصفة خاصة :

١ - إصدار مجلة دورية باللغة الإنجليزية على المستوى العالمي .

٢ - وضع كتاب يوثق به عن التاريخ الإسلامي .

٣ - إعداد خريطة تاريخية عن الإسلام باللغة الإنجليزية ، على المستوى الرفيع .

وقُرّر أيضاً توسيع نطاق الحفلات ، التي يلقي فيها العلماء الكبار والشخصيات العلمية البارزة في العالم الإسلامي محاضرات ، حول موضوعات إسلامية ، وجرى تبادل الآراء ووجهات النظر في إمكانيات تقديم المنح الدراسية لمن يقوم بدراسة جوانب الفكر الإسلامي المفيدة ، ويقوم بالتحقيق عليها ، وكان من بواعث الارتياح أن المركز الإسلامي قد حصل على مبنى فسيح ، يتكوّن من عدّة غرف وقاعة للمؤتمر ، بالإضافة إلى توفير تسهيلات للمكتب ، ويشغل فيه الموظفون على رواتب شهرية معقولة .

مقالة (المحسن الأعظم للإنسانية والواجب الخلقى للعالم المتمدّن الشريف) :

كان يعرّف عليّ أولاً أن أسافر إلى بريطانيا في هذه الظروف ، ويشقّ عليّ بل كنت أعتبر ذلك ضد الغيرة الإيمانية والأنفة الدينية ، أن أشارك في الجلسة الإدارية للمركز الذي يقع في البلد الذي يعيش فيه سلمان رشدي^(١) . ولا يعيش بحريّة فحسب ، بل يجول ويمرح ، لا في بريطانيا فحسب ، بل في نفس البلد الذي يقع فيه المركز ؛ وما اتخذته الحكومة في

(١) صاحب كتاب في الإنجليزية فيه إهانة للرسول ﷺ ، وافتراء عليه ، وإنكار كون القرآن منزلاً من الله ومعجزة ، وقد أهدرت حكومة إيران دمه ، وعيّنت جائزة كبيرة لمن يقتله .

تلك البلاد من إجراءات لتأمين سلامته وراحته ، وخصصت له من ميزانية لهذا الغرض ، ولم تستطع الدول الإسلامية الحرّة إلا أن تعرب عن استنكارها وكرهيتها وسخطها على ما صدر منه ، ما عدا حكومة إيران التي أصدرت فتوى بقتله .

لا أملك أنا والمسلمون في الهند - الذين منحهم الله سبحانه وتعالى حظاً كبيراً من حُبّ النبي ﷺ ، ونصيياً وافرأ من الحمية الدينية ، التي يغتبط بها كثير من الدول الإسلامية العربية ، تعتبرها نموذجاً لنفسها - ما تملكه الدول الإسلامية العربية ، التي يبلغ عددها عشرات ، من وسائل وإمكانات .

لكنني عزمت رغم كل ذلك على أن أسافر ببحث علمي قيم ، إذا اضطررتني الظروف إلى الرحلة إلى بريطانيا ، يثبت أن منة سيد المرسلين وخاتم النبيين محمد بن عبد الله الأمين ﷺ؛ لم تكن على المسلمين والعالم الإسلامي فحسب ، إنما كانت منته على الإنسانية بأسرها .

ونال الجيل الجديد الذي فقد جدارته للبقاء على وجه الأرض ، من أجل الحياة الوحشية البهيمية ، والجري وراء النفس ، وجحود خالقه وعصيان ربه ، قسطاً طويلاً للحياة بعد القرن السادس المسيحي ، بفضل بعثة الرسول ﷺ ، ودعوته ، وتعاليمه ، وجهود أصحابه الذين نشؤوا في عهده ، وترّبوا عليه .

وكان قد رفع الجيل الجديد قضية مدعمة بالأدلة إلى محكمة ربه ، ضد نفسه ، وكان ينبغي أن يحكم عليه بالإعدام لذلك ، وكان من المتوقع والمعقول ، أن يطوي بساط هذا العالم الواسع المعمور ، فقامت مستعجلاً بإعداد بحث دقيق على منهج علمي دقيق ، بمراجعة المصادر الموثوق بها ، بحضور قلب ، وذهن مفتوح ، باللغة الأردنية ، ودعمته بمقتطفات المؤرخين الأوروبيين ، الذين يملكون منزلة رفيعة ، ولهم وزن في الأوساط العلمية والأدبية ، وأثبت فيها أن العالم المتحضر كان يلفظ نفسه الأخير في القرن السادس المسيحي ، من أجل موقف حكوماته الخاطيء ،

وانهيار المجتمعات وتحطّمها ، وعدم وجود حركة إصلاحية دينية قوية ، وجماعة من المصلحين والمعالجين للإنسان .

وأكتفي هنا بمقتطفين يصوران الوضع السائد في ذلك العهد إلى حدّ كبير .
يقول (روبرت بريفال):

«لقد غشي أوربة ليل حالك ، من القرن الخامس إلى القرن العاشر ، وكان هذا الليل يزداد ظلاماً وسواداً ، وقد كانت همجية ذلك العهد أشدّ هولاً وأفظع من همجية العهد القديم ، لأنها كانت تشبه جثة حضارة كبيرة قد تعفّنت ، وكانت معالم هذه الحضارة تنطمس ، وكان قد قضي عليها بالزوال ، وقد أصبحت الأقطار الكبيرة التي ازدهرت فيها هذه الحضارة ولمعت ، وأنتجت ، وبلغت ذروتها في الماضي ، كإيطاليا ، وفرنسا ، فريسة الدمار والفوضى والخراب» .

ويضيف (ج ، ج ، دينس) إلى ذلك ، فيكتب عن العالم المتمدن كله :

«كان العالم المتحضر في القرنين الخامس والسادس للميلاد ، واقفاً على حافة الفوضى والدمار ، وكان يبدو أن الحضارة التي نمت وترعرعت وازدهرت وأثمرت في مدة أربعة آلاف سنة ، على وشك الانهيار والاندثار ، ويرجع الإنسان مرة ثانية إلى تلك الوحشية والبربرية ، التي تتقاتل فيها القبائل وتتناحر؛ وتندلع نيران الحرب بين الفرق والأحزاب ، ويُفقد الأمن والسلام . . . لقد فقدت الأنظمة القبلية القديمة قوة سيطرتها ، وزالت سلطتها وهمجيتها ، وكانت التقاليد والطقوس التي تبنتها المسيحية ، وحافظت عليها ، تؤدي إلى التشتت والتمزق والهلاك ، بدل الوحدة والتضامن والتماسك والنظام . . كان ذلك العصر محزناً مؤلماً ، فقد كانت الحضارة - التي أظلت العالم كشجرة باسقة كثيفة وارقة الظلال ، والتي أثمرت أغصانها العلوم والفنون والآداب - قد تآكلت جذورها .

ثم ذكر بعثة النبي ﷺ بعدما قدّمت هذه المقتطفات ، وصورت العالم الذي كان قبل بعثة النبي ﷺ وبعدها بمدة قصيرة ، تصويراً يبعث على الخجل والندم ، ويبين المآثر الأساسية الغالية العشر لرسالة محمد ﷺ وتعاليمه ،

التي كان لها دور كبير بارز في قيادة الجيل البشري وتوجيهه ، وإصلاحه وبنائه ، ورقّيه ، وولدت عالماً مشرقاً زاهياً محل العالم الشاحب المنخور الذابل .

ثم ذكرت شهادات المؤرخين الأوروبيين البارزين ، واعترافاتهم بدور رسالة محمد ﷺ ، القيادي الثوري ، أذكر هنا شهادة واحدة منها :

يكتب (جان وليم درير) بصدد تاريخ أوروبا العلمي والفكري :

«لقد ولد في مكة إحدى مدن جزيرة العرب ، عام ٥٦٩ للميلاد ، بعد أربعة أعوام من موت جستين ، رجل عظيم كان له أكبر تأثير على الجيل البشري كله» ، ثم ذكرت هجوم التتار الذي لم يقدر حجمه ، ولم تعرف مساحته على وجه العموم على العالم المتحضّر ، في القرن الثالث عشر للميلاد ، واعتبره كثير من الناس محدوداً في تركستان وإيران والعراق .

فيكتب (هيرالدليمب) مؤرخ جنكيزخان ، وهو مؤرخ أوروبي موثوق به : «كان يتوغّل الفرسان المغول في أوروبا ، ويدوسونها بأقدامهم ، وكان قد هرب (بول سلاس) ملك بولندا ، و(بيلا) ملك النمسا من ساحة القتال منهزمين ، وقتل (ديوك هينري) من ساليسيا مقاتلاً ، مع فرسانه اليونانيين في (ليك نتس) ، وكانت الحرب هذه قد تجاوزت كل الحدود ، وبلغت في ضخامتها إلى حد الحرب العالمية الثانية . . إنها كانت مجزرة عامة لنوع البشر ، لم يكن هدفها إلا إبادة الناس والقضاء عليهم» .

يقول (هيرالدليمب) :

«إن حملة جنكيز خان وغارته العشواء المدمّرة ألحقت بالمدينة صدمة عنيفة ، وخسائر فادحة ، وقضت على الحضارة والثقافة في نصف الكرة الأرضية ، حتى عادتا بعد موتهما إلى الحياة من جديد ، واهتزّت حكومة خوارزم ، وخلافة بغداد ، ومملكة روسيا ، ودولة بولندا لأيام ، لو استمرّت هذه السلسلة الدامية ، التي لا يستطيع أحد أن يقارعها عسكرياً ، لتّم القضاء على الثروة العلمية والخلقية والفكرية ، التي كانت تبذل عليها

جهود جبارة منذ آلاف السنين ، وفقاً لبيان المؤرخين الأوروبيين ، ولاضطر العالم إلى أن يبدأ رحلته العلمية والفكرية والحضارية من جديد .

ومن الصعب أن يقال : إن استئناف هذه الحياة كان يمكن أم لا ، لكن ظهرت معجزة في هذه الظروف ، التي كان يسود فيها اليأس ، واعتنق التتار الإسلام بأسرهم ، وتحضروا ، وتأدّبوا كأى إنسان مثقف ، وأقبلوا على العلم وقَدّروه وعزّروه ، وحافظوا على الإنسانية واحترموا ونصروها ، وأسّسوا الحضارة . وأنشؤوا الحكومات الواسعة والمتحضّرة .

لا تستطيع أوروبا التي تعتز بحضارتها اعتزازاً كبيراً أن تتخلى عن هذه المنة العظيمة أبداً ، إنها ازدهرت وارتفعت في ظل تأثير الإسلام العالمي ، الذي ذكرته بإيجاز ، وفي ظل صيانة النوع البشري من المحاولات التي بُدّلت ، والغارات التي شنت للقضاء على الإنسانية ، ويتنفس اليوم أيضاً بطمأنينة وهدوء في ظلها ، وتعكف على تطوير العلم والفن وتوسيع نطاقهما ، ونحن جالسون في هذا الوقت في جوّ يسوده الهدوء والطمأنينة .

ثم انتقدت في هذا البحث الفكرة السطحية العامة التي لا ترى فرض الحظر على حرية الرأي ، أو فرض الحظر على حرية الفرد ، وتعتبره عملية استبداد وإجبار . . . والتي لجأت إليها حكومة بريطانيا ، ومنحت سلمان رشدي حرية لإبداء عواطفه وآرائه المعارضة للواقع ، المؤلمة للقلب ، المفسدة للأخلاق ، والمنكرة للجميل .

قُدّم في هذا البحث بيانان لرجال القانون الأوروبيين ، عينا فيهما حدوداً لحرية الرأي الذاتي ، ووضعاً لها شروطاً ، وصرّحاً أنه لا ينبغي أن يعطى أحد حرية مطلقة .

فقال (سينزبليك استون) في كلمته التي ألقاها في أمريكا : «إن الكتابات الخطيرة الإجرامية - التي تعتبر بعد مرافعة محايدة عادلة - ذات ضرر وخسارة ، تلزم المعاقبة والتعزيز عليها للحفاظ على الأمن والسلام والسلطة والديانة ، لأنها هي الأسس التي تقوم عليها الحرية المدنية ، فضمير الفرد

حر ، مكفولة له الحرية ، لكن التعزير على استخدامها السيئ من أهداف القوانين الجنائية» .

وذكر في هذا البحث أن المفكرين الأوربيين قد أكدوا على القيام بواجب الشكر والامتنان ، والاعتراف بالفضل والإحسان ، واعتبروا ذلك من ميزات الطبيعة البشرية ، ومن مقتضيات الكرم والنبل .

وفي نهاية الجلسة أنشدت قصيدة قوية مثيرة للدكتور محمد إقبال لترويح الأذهان ، وإنعاش الروح والقلب ، وإزالة السامة والملل .

وأقدم هنا ترجمة للبيتين الأولين منها ، فيقول الدكتور محمد إقبال :

«اكتست صحراء العرب بفضل هذا النبي الأمي - ﷺ - حلة أنيقة ،
وأنبتت زهرة يانعة ، إن عاطفة الحرية نشأت في ظل هذا النبي - ﷺ - بل
ترعرعت ونمت في حجره ، وهكذا كان يوم زهو العالم المعاصر مديناً
لأمسه» . قدم هذا البحث مساء الثاني والعشرين من شهر أغسطس سنة
١٩٨٩ للميلاد ، في قاعة المركز الإسلامي بجامعة أكسفورد بالإنجليزية ،
وقدمت أيضاً ملخص هذا البحث باللغة العربية نظراً لحضور عدد كبير من
إخواننا العرب ، وكان قد حضر بهذه المناسبة عدد وجيه من المثقفين الذين
ينتمون إلى الهند وباكستان ، وبريطانيا وإفريقية ، ونال هذا البحث أذاناً
صاغية وقلوباً واعية .

وقدم هذا البحث نفسه في المركز الإسلامي العالمي ، الذي يقع في
شارع الحديقة بلندن ، بالأردية والعربية ، ونال إعجاب المستمعين إليه ،
والشيء الذي يجدر بالذكر هنا هو أنه لم يأت اسم سلمان رشدي في أي
موضع في هذا البحث ، لأنه كان لا يليق بأن يُذكر ، لكن الذين كانوا
يستمعون لهذا البحث كانوا يعرفون الواقع الذي دفع إلى عرض هذا
البحث ، وإلى من يشار إليه بوصفه سيئ الأدب . . الوقح ، الماجن .

عدت بعدما انتهت من حفلة المركز الإسلامي بجامعة أكسفورد ، مع
مرافقي العزيز الأستاذ محمد الرابع الحسيني الندوي ، والعزيز محمد عثمان
الحيدر آبادي إلى منزل مضيفي القديم ، الأستاذ محمد مسرور طبقاً

لعادتي ، وكان من المقرر أن أسافر إلى الجزائر من هنا ، للمشاركة في الملتقى الفكري الذي كان يُقام في التاسع والعشرين من شهر أغسطس إلى الخامس من شهر سبتمبر سنة ١٩٨٩ م ، بعنوان: «نحو مجتمع إسلامي معاصر» ، كنت أرسلت مقالتي بهذا العنوان من الهند من قبل ، وكانت المقاعد قد تمّ حجزها لي وللأستاذ محمد الرابع الحسنّي الندوي ، لكن لم يستطع المهندس محمد عثمان الحيدر آبادي أن يحجز مقعده رغم ما بذل لذلك من مجهود كبير ، وكانت صحتي متدهورة في ذلك الحين ، فلذلك قرّرت أن لا أشارك في هذا الملتقى ، وأخبرت المسؤولين عن الملتقى بذلك ، ورجعنا سالمين بحمد الله سبحانه وتعالى ، من لندن إلى دلهي مباشرة.

* * *

الرحلة إلى الحجاز

عام ١٩٩٠ م

كان من المُقرَّر أن تُعقد دورة المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي في ٢٧ يناير سنة ١٩٩٠ م ، المصادف ٢٩ جمادى الآخرة سنة ١٤١٠ هـ ، وخلال فترة انعقاد هذه الدورة تعقد أيضاً اجتماعات المجلس العالمي للمساجد والمجمع الفقهي ، وأنا عضو في جميع هذه المجالس الثلاثة ، وأتخذت الرابطة إجراءات سفري ، وكان يرافقني في هذه الرحلة العزيز الأستاذ محمد الرابع الحسيني الندوي ، واخترنا طريق بومباي للسفر إلى السعودية من أجل بعض التسهيلات هناك ، فتوجهنا من لكهنؤ إلى بومباي ، في ٢٣ يناير سنة ١٩٩٠ م ، ومن ثم إلى جدّة ، وشاركنا في اجتماعات المجلس العالمي للمساجد بعدما شاركنا في جلسات المجلس التأسيسي .

ولم نتمكن من الحضور في جلسات المجمع الفقهي ، لأنني كنت على عجلة لبعض الأسباب القاهرة للعودة إلى الهند ، وكانت أوضاع الهند تستدعي عودتي عاجلاً ، فتوجهنا إلى المدينة المنورة مع نخبة من إخواننا وأصدقائنا ، ومكثنا هناك أسبوعاً كاملاً ، أدّينا خلاله صلاة الجمعة في مسجد النبي ﷺ ، واكتفينا بالحضور إلى طيبة ، والحضور في المسجد النبوي والصلاة والسلام على النبي ﷺ .

لكننا قد ذهبنا إلى مستشفى الملك فهد ، لعيادة صديقنا الفاضل الشيخ

محمود الحافظ ، بصورة استثنائية ، لأنه كان مصاباً بمرض خطير ، ويعاني من ألم شديد^(١) .

ثم عدنا من المدينة المنورة إلى مكة المكرمة ، وتوجَّهنا إلى الرياض في طائرة شخصية لسعادة خالد زينل ، مع سعادة الشيخ ومعالي الدكتور عبد الله عمر نصيف ، وعالمين كبيرين من تاشقند ، وأقمنا هناك في قصر المؤتمرات وقابلنا خلال هذه الزيارة القصيرة عدداً من المسؤولين ، وكان من بينهم صاحب السمو الأمير عبد الله بن عبد العزيز آل سعود (ولي العهد) ، وسمو الأمير سلمان (حاكم الرياض) ، وسمو الأمير أحمد (نائب وزير الداخلية).

وكان قد تقرر لقاءنا مع خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز ، لكن صادف قدوم العاهل الأردني الملك حسين ، في ذلك الوقت الذي حُدِّد لنا للقاء حول أمور مهمة عاجلة ، فلم تتحقق هذه الزيارة .

واجتمعنا خلال هذه الفترة التي دامت ثلاثة أيام بأعضاء رابطة الأدب الإسلامي العالمية ، وعقدت عدة لقاءات ، وزرنا جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية على دعوة من مديرها الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي ، وكان هناك حفل وداع للمتخرجين - من الوافدين - من هذه الجامعة في الليل ، فطلب مني معالي الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي أن ألقى كلمة في هذه المناسبة ، فألقيت كلمة استجابة لطلبه ، ودعوت المتخرجين إلى الشعور بمسؤوليتهم التي وقعت على كواهلهم ، وتأدية هذه المسؤولية بعد عودتهم إلى بلادهم ، وأن يمثلوا العلم والدين تمثيلاً صحيحاً ، ويقاوموا الأخطار والتحدّيات التي تحدق بالمجتمع الإسلامي ، ويشتغلوا بالدعوة والإرشاد ، ويقوموا بتنقية دينهم من الشوائب ، ويقدموا صورة صادقة نزيهة للحياة الإسلامية ، ويضعوا قول

(١) قد انتقل إلى رحمة الله بعد أيام من هذه الزيارة .

ال خليفة الأول أبي بكر الصديق رضي الله عنه نصب أعينهم ، وهو : «أينقص الدين وأنا حيّ؟!» .

ثم رجعنا من الرياض إلى مكة المكرمة ، وتوجهنا من جدة إلى بومباي في ١٨/يناير ، ومن هنا إلى لكهنؤ في ٢٠/فبراير .

وكان مما تمتاز به هذه الرحلة؛ هو أن أتاحت لنا فرصة للحضور في الحفلات الترحيبية الثلاث ، وإلقاء الكلمات فيها على خلاف العادة ، وذلك لأنه قد قدم الدكتور فرحان أحمد النظامي (الأمين العام للمركز الإسلامي بأكسفورد) إلى الحجاز بهذه المناسبة ، فأراد هو نفسه ومعالي الدكتور عبد الله عمر نصيف أن ينتهز هذه الفرصة للتعريف بالمركز الإسلامي ، فأقام في منزله بجدة حفلاً ، ودعا وجهاء مدينة جدة وأعيانها وتجارها الكبار إلى الحضور فيه .

فقمتم بالتعريف بالمركز الإسلامي باللغة العربية ، كما قدّم الدكتور فرحان أحمد النظامي كلمة باللغة الإنجليزية ، ذكر فيها أهمية المركز الإسلامي والحاجة إلى إنشائه ، وبعد ذلك عقد سماحة الشيخ خالد زينل اجتماعاً في منزله ، حضره أعيان مدينة جدة والتجار الكبار ، الذين يملكون عاطفة دينية ، وشعوراً إسلامياً ، وألقيت أنا والدكتور فرحان أحمد النظامي كلمة في هذه الجلسة أيضاً ، وقدّم الدكتور عبد الله عمر نصيف كلمة في التعريف بنا وبالمركز الإسلامي للمشاركين في هذه الجلسة .

وبصرف النظر عن هذا الهدف المنشود ، دعا سعادة الشيخ إبراهيم أمين فودة ، الذي كان أول مدير للإذاعة السعودية ، وخلال اشتغاله بهذا المنصب كانت أذيعت سلسلة من خطبي من الإذاعة السعودية ، على دعوة من معالي الشيخ محمد سرور الصبان وزير المالية سابقاً ، والأمين العام الأول لرابطة العالم الإسلامي ، وكان عنوانها العام: «بين العالم وجزيرة العرب» ، وكنت ألقى محاضرة بعنوان: «من غار حراء» ، ومحاضرة أخرى حول «الدكتور محمد إقبال» ، فدعا الشيخ إبراهيم أمين فودة أعيان مكة المكرمة ووجهاءها ونخبة من أدبائها وشعرائها وكتّابها ، وكان يهدف بذلك

إلى أن يقوم بالتعريف بالضيف والتكريم له والترحيب به ، فأشدت القوائد ، وألقيت الكلمات الترحيبية ، وألقيت أيضاً كلمة شكر .

وبدأت كلمتي بقولي: إن من معجزات بعثة النبي ﷺ المحضة ، ومعجزة القرآن الكريم الخالدة الخالصة ، أن يتمكن رجل هندي من الردّ على كلمات أمثالكم من العلماء والأدباء ، باللغة العربية الفصحى مع أنه لم يولد في بلد عربي بل ينتمي إلى بلد يعتز بلغته وثقافته منذ قرون طويلة ، ويتعصب لها ، بحيث أصبح من العسير أن تبقى لغة (أردو) تزدهر ، رغم أنها لغة نشأت في ذلك البلد ، وذلك بفضل الجهود الجبّارة التي قام بها علماء هذا البلد في خدمة اللغة والعلوم الدينية ، جهوداً يندر نظيرها في العالم العربي .

فالعالم الفاضل السيد مرتضى البلكرامي (المعروف بالزبيدي) ألف شرحاً في عشرة مجلدات باسم «تاج العروس في شرح القاموس المحيط» ، وهو أشهر قاموس بالعربية ، وألف الشيخ العلامة محمد علي التهانوي^(١) على المصطلحات العلمية كتاباً بعنوان: «كشاف اصطلاحات الفنون» ، وهو كتاب اعتبر من أدق الكتب وأوسعها وأوثقها في هذا الموضوع ، فلو كان في العالم خمسون دولة عربية ، لغتها الرسمية والعلمية اللغة العربية ، ويرجى من الإلمام بها والإتقان فيها لمصالح سياسية ومنافع مادية . . . لما جذبت رجلاً مسلماً هندياً إلى تعلمها والنطق بها والكتابة فيها ، مثل ما جذبت هذه اللغة بصفتها لغة القرآن الكريم ، ولغة النبي ﷺ؛ وهذا كله مما أفاض علينا محمد ﷺ ، الذي ولد في هذه الأرض المباركة الطيبة .

وفي ليلة ٢٢/ من شهر رجب ، المطابق ١٨/ فبراير ، جمع الشيخ عبد الله علي بصفر ، في دار واسعة - نخبة من كبار العلماء وقادة الفكر

(١) هو محمد بن علي ابن القاضي محمد حامد بن محمد صابر الفاروقي الحنفي التهانوي ، باحث هندي كبير ، ينتسب إلى بلدة «تهانة بهون» صاحب الكتاب القيم «كشاف اصطلاحات الفنون» الذي فرغ من تأليفه سنة ١١٥٨ هـ ، وله كتاب آخر اسمه «سبق الغايات في نسق الآيات» توفي سنة ١١٥٩ هـ .

والعاملين في حقل الدعوة الإسلامية ، وألقيت بهذه المناسبة كلمة مفصلة ، وكان موضوعها «حاجة العالم الإسلامي إلى مجتمع مثالي»^(١) ، ونقدم هنا قطعاً من هذه المحاضرة ، لما تحويه من معانٍ عميقة ، وحقائق راهنة ، وتوجيهات مثيرة .

حاجة العالم المعاصر إلى مجتمع مثالي إسلامي أفضل :

إن الحاجة الكبرى اليوم أيها السادة ، هي وجود مجتمع مثالي نموذجي ، يرضاه الله تبارك وتعالى ، ويكون في صالح الإنسانية ، ويكون نموذجاً ، بل مرآة للتعاليم الإسلامية في العقائد أولاً ، ثم الأخلاق والمعاملات وشعب الحياة .

هذا المجتمع مفقود ، لا أقول معدوم ، وإني أعيد نفسي أن أقول هذه الكلمة ، ولكنه مجتمع مطلوب في الواقع ، ومجتمع محتاج إليه ، إنه لا يغيّر وضع العالم في هذا الوقت شيء ، مثل ما يغيّر وجود هذا المجتمع المثالي الإسلامي ؛ وإنّ الإسلام ما شقّ طريقه إلى الأمم ، كما تعرفونه جميعاً - ولا أقول إني أزيد في معلوماكم - ما شقّ طريقه إلى الأمم ، وما فتح الله له هذه الفتوح العظيمة ، التي لا تزال موضع دهشة المؤرّخين والمبصّرين والناقدين ، ولم يستطع الإسلام أن ينشئ نمطاً جديداً من الحياة ، وأن يجلب الشعوب والأمم والعقول والقلوب ، والنفوس والأرواح ، في كمّ وكيف ليس لهما مثال في التاريخ الإنساني ، لم يستطع الإسلام أن يُنجز أو يحقق هذا المطلوب ، ويصل إلى ما وصل إليه في الماضي ، ولا تزال له آثار باقية - بمجرد تعاليمه وتوجيهاته ، ولا بمبادئه ومثله ؛ بل المجتمع الحيّ المتحرّك الذي يسعى على القدم ، ويتكلّم باللسان ، ويعمل باليد ، ويُشعّر بوجوده في الحياة في الخارج .

لقد كان هذا المجتمع مفقوداً بل معدوماً منذ قرون ، بل منذ آلاف

(١) انظر هذه الكلمة بكاملها في «محاضرات إسلامية في الفكر والدعوة» للعلامة أبي الحسن علي الحسيني الندوي .

السنين ، كانت التعاليم الخُلُقِيَّة في الصحف السماوية - إذا كانت هذه الصحف السماوية على أصلها ، وإلا ضاع منها الكثير وحرف منها الكثير - ولكن لم يكن يوجد مجتمع يتنفس فيه الإنسان ، ويشمُّ فيها رائحة الإيمان ، ويشعر بالنفس الإيماني والشعور الإيماني ، وتملاً جوارحه ، وتغمر قلبه نفحات ربّانية ، نفحات روحانية ، يشعر في ذلك بالسعادة الحقيقية ، ويشعر بأنه انتقل من الجحيم إلى الجنة ، ومن الشقاء إلى السعادة ، ومن العذاب إلى النعيم .

هذا المجتمع الذي أوجده محمد ﷺ ، كان منطلقه المدينة المنورة ، ثم امتدَّ هذا المجتمع حتى تخطى الحدود ، وبلغ أقصى الأرض ، هذا المجتمع هو الذي جلب القلوب والنفوس إليه ، وكان أكبر برهان ؛ وإن ألف برهان في جانب ، وألف دليل عقلي في جانب . . . وجود هذا المجتمع ، ووجود هؤلاء الأشخاص الذين كانوا يمثلون هذا المجتمع عملياً كان كافياً .

كان الإنسان إذا دخل هذا المجتمع انجذب إلى هذا المجتمع بقلبه وقلبه ، وعشق هذا المجتمع ، وما أحبَّ أن يفارق هذا المجتمع ، وأراد أن يعيش فيه ويموت فيه . . . يُروى عن سيدنا الإمام ابن شهاب الزُّهري ، وهو من كبار التابعين ، وممن عليه الاعتماد في رواية الحديث ، يقول : «لما كانت الهدنة ، ووضعت الحرب أوزارها ، وأمن الناس ، وكلم الناس بعضهم بعضاً ، والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة ، فلم يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه ، ولقد دخل في تلك الستين مثل ما كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر» .

لقد ارتقت المدنية كما تعرفون ، إنها وصلت إلى أوجها ، إلى آخر نقطة ، واستطاع الإنسان أن يسبح في الجو ، واستطاع أن يصل إلى القمر ، كما يقول الدكتور محمد إقبال ، «إن الذي أسر أشعة الشمس ، ووصل إلى القمر ، لم يعد يحسن أن يمشي على الأرض كإنسان» .

إن القادمين من الغرب لا يدهشون إذا دخلوا مطاعمنا وفنادقنا ، عندهم فنادق أكبر وأرقى من هذه الفنادق ومن هذه المنازل ، ولكنهم يجلبون

ويقدرون ويخشعون - في بعض الأحيان - إذا رأوا هناك حياة صادقة بسيطة ، بعيدة عن التصنع والتزخرف والتأنق الزائد ، وعن البهرجة المادية وعن المظاهر اللماعة؛ لأن الحقيقة تغلب على المظاهر ، أما إذا كانت المظاهر غالبية على الحقائق ، فهم الذين اخترعوا هذه المظاهر ، ومنهم استوردنا هذه المظاهر ، وهم أهل البضاعة ، فلا يقيمون لها وزناً كبيراً ، أما إذا دخلوا هنا ورأوا السكينة تغشى المدينة كلها ، بدأت قلوبهم تشعرهم بأنها تشعر بسكينة ، تشعر بالخشوع لله تبارك وتعالى ، تشعر بالاحترام للإنسانية ، تشعر بالتواضع والبساطة ، هناك يخضعون ويدخلون في الإسلام أفواجاً ، وهكذا دخل الناس في الإسلام أفواجاً ، رأوا حياة بعيدة عن مخيلاتهم ، وبعيدة عن تجاربهم كلَّ البعد . . هؤلاء بشر مثلنا لا فرق بيننا وبينهم ، يجوعون ويعطشون ويمرضون ويصحّون ، هم خاضعون للنواميس البشرية ، ولكنهم كأنّ هناك عالماً آخر أمامهم .

إن الثورة في النظام الشيوعي من أهم الأحداث وأعظم الثورات التي وقعت في هذا القرن ، الثورة التي حدثت في الاتحاد السوفيتي ، الذي كان الداعي الأول للاشتراكية والشيوعية ، وأكبر مختبر لنظامها ، ومنطلقاً لنشاطاتها ودعواتها نظرياً وأصولياً ، عملياً وتطبيقياً ، فقد حدثت هذه الثورة في هذه السنة ١٩٩٠ م ، بعدما تولى الرئيس ميخائيل غورباتشوف حكم البلاد ، وتولي قيادة الحزب الاشتراكي ، وأخذ في الإشراف على الأمور الإدارية للبلاد .

كان هذا الحادث غريباً بعيداً عن الخيال ، لم يكن أحد يستطيع أن يتصوره أو يتنبأ به قبل مدة قريبة ، وكانت الأوضاع تشير إلى بقاء ذلك النظام لمدة طويلة ، كأكبر مختبر ناجح مثالي ، وأكبر داع متحمس قوي للنظام الاشتراكي ، إلى أمد بعيد ، إن لم يمتد إلى يوم القيامة ، وإن الدول الأوروبية التي قبلت هذا النظام ، وحملت لواءه قد قرّر مصيرها ، وخُتم على حظها .

لكن انقلبت القيادة في الاتحاد السوفياتي رأساً على عقب فجأة ، ولم يكن هذا التغيير سياسياً أو إدارياً محضاً ، إنما كان فكرياً وأصولياً ، وأبدى

دولة غورباتشوف معارضة للنظام الاشتراكي القديم ، واتخذ إجراءات تصحيحية ، وصرّح بأن النظام الاشتراكي قد باء بالفشل ، وأنه لم يستطع أن يمنح البلاد الرفاهية والرخاء ، وينشئ الحماس والنشاط في العمل ، والذي يحتاج إليه كل مجتمع وكل دولة .

وفي الواقع كان يعرف المطلعون على الطبيعة البشرية ، وعلى حقائق الحياة ، وعلى الارتباط بين الأسباب والمسببات ، أن البلاد التي يُنزع من أهلها حق الملكية نزاعاً كلياً ، ويتلقى كل منهم الأرزاق والرواتب بالتساوي كالشُّجناء والأيتام ، يفقد شعبها النشاط والحماس ، والدوافع التي تدعو إلى التنافس والتسابق في العمل ، وتصبح البلاد كلها مصنعةً للآلات والماكينات ، ومعملاً لا روح فيه ولا حياة ، ولا ضمير فيه ولا وعي ، فيبدأ عمله بأمر أمر ، ويتوقف عنه بمانع ، ويفتقر للقيام بعمله إلى الزيت والكهرباء ، لكن كان لا يستطيع أحد أن يتصور أن هذه الثورة تحدث بهذه السرعة ، رغم وجود نظام دقيق للمخابرات فيها ، والحصار المفروض عليها ، ونظام حكم شبه عسكري يسيطر عليها ، ويقوم بإدارتها ، يحاول فصلها عن العالم ، لكن عملت قدرة الله تبارك وتعالى وحكمته ، وحدثت هذه الثورة التي كان لا يخطر ببال أحد أن تقع .

واعترف السيد ميخائيل غورباتشوف بإخفاق هذا النظام ونقصه ، ودعا إلى إصلاحه وإجراء التعديل فيه ، وأعطى الاتحاد السوفيتي اتجاهاً جديداً ، تزعزع به كيان الدول التي خضعت لهذا النظام ، وكانت قد اتخذت ماركس إماماً وقائداً لها ، وعرف فيما بعد أن كثيراً من هذه الدول كان لا يرضى بهذا النظام غير الطبيعي ، ولا يطمئن إليه من قبل ، لكنه كان لا يتجرأ على تغيير هذا الوضع .

ومما أثار الدهشة ، هو التأليف بين ألمانيا الشرقية وألمانيا الغربية ، واتحادهما في دولة واحدة ، رغم ما كانت بينهما من فجوة سياسية نظرية واسعة ، كان من الصعب تقلصها ، وكان بعيداً عن القياس فيما يبدو .

زرت مدينة برلين ، عاصمة ألمانيا الغربية في عام ١٩٦٤ م ، خلال رحلتي إلى أوربة ، وزرت أيضاً مدينة برلين الشرقية ، وشاهدت هناك النظام الاشتراكي ، وأدركت أنه نظام غير طبيعي ، وأنه نظام صناعي ، نظام قاهر ، نظام مفروض بالقوة ، فرأيت وجوهاً شاحبة حزينة كثيبة ، وجواً يسوده عدم الثقة والطمأنينة ، وقضاء الحياة على طراز واحد لا يعرف التغيُّر والتطور ، وحذراً في التحدُّث واللقاء ، وقد سمعنا أن كثيراً من أهل ألمانيا الشرقية ، الذين يتبرِّمون من هذه الحياة الصناعية ، يتخطَّون جدار برلين ، الذي يفصل ألمانيا الشرقية عن ألمانيا الغربية ، ويخاطرون بحياتهم للدخول في ألمانيا الغربية ، ويدفع كثير منهم لذلك ثمناً باهظاً في بعض الأحيان .

وقد كنا سمعنا أيضاً أن النوافذ والشبابيك في البيوت في ألمانيا الشرقية ، التي كان يمكن بها رؤية حياة شعب ألمانيا الغربية ورخائه ، وهنائه وحرّيته في الرأي والعمل والتنقُّل من مكان إلى مكان ، وكسب الأموال والأكل والشرب ، قد أُغلقت ، لكن تغيَّر هذا الوضع ، ورفض هذان الشعبان الجريثان هذا التقسيم الصناعي غير الطبيعي وتألّفا .

ومما يسرُّني أن بعض الدول الإسلامية العربية ، التي كانت قبلت إشراف النظام الاشتراكي ، واستيلاء الاتحاد السوفيتي ، وكان يُخشى أن يؤثر على الدول المجاورة لها ، أو يسيطر عليها عسكرياً أو سياسياً ، واليمن الجنوبي أكبر مثال له ، وقد سيطر على النظام فيه الغلاة من الاشتراكيين - الذين كانت تصدر منهم في بعض الأحيان أعمال نالت من شعائر الدين - وأساءت إلى العاملين في مجال الدعوة الإسلامية وقست معهم - قد تخلّصت منه .

كنت عرفت خلال زيارتي لدولة اليمن الشمالي في مايو سنة ١٩٨٤ م أن قوَّات اليمن الجنوبي الشيوعي زحفت إلى اليمن الشمالي (الذي كان مهدياً للإيمان والفقهِ والحكمة والخشية والرقّة ، حسبما قال النبي ﷺ) ، وكان يبدو أن قوَّات اليمن الشمالي لا تتمكن من مقاومتها والذود عن بلادها ،

وإنها سوف لا تقوى على مقاومة الغزاة . . لكن نهضت جماعة من الشباب الذين كان رائدهم الوعي الإسلامي ، والعاطفة الإيمانية ، وكانوا يدركون أخطار سيطرة الشيوعية وأبعادها ، وكانوا يعرفون أنه لا يبقى شيء إذا غلبوا على الأمر وتسلّموا زمام الأمور ، ويصعب عندئذ قضاء الحياة الإسلامية بحرية؛ فتصدّروا للدفاع عن دينهم ، وقاوموا الزاحفين باسم ربّهم ، فأيدهم الله ونصرهم . ولعلّ من نتائج هذه الثورة الرائعة المباركة الطيبة أن تم التآليف بين اليمن الجنوبي واليمن الشمالي .

وهكذا جعلت تبرز علامات الحرية المدنية ، وآثار الظهور والرقي في ألبانيا وبلغاريا حيث يسكن عدد كبير من المسلمين والأتراك؛ لكن لا يتمكن أحد من أن يقول إلى متى تستمرّ هذه التطوّرات وإلى أين تصل ، وكم يتاح للمسلمين فرص للانتفاع بها؟ .

تختلف آراء الناس عن هذه الثورة التي وقعت في روسيا وتتضارب ، فيقول بعضهم : إن قرينة ميخائيل غورباتشوف هي امرأة مسلمة ، ويدل على ذلك اسمها «رئيسة» ، وأنها هي التي أثّرت على زوجها؛ لكنه أفادني بعض العلماء الروس القادمين من تاشقند في طائرة متجهة من الرياض إلى جدة ، أثناء رحلتي إلى الحجاز ، التي مضى ذكرها في الصفحات الأولى لهذا الكتاب ، وكانوا يستطيعون التكلّم باللغة العربية ، وكانت جمعتنا هذه الطائرة ، فقالوا: إن اسم رئيسة لا يخص بالنساء المسلمات ، بل إنه يطلق أيضاً على النساء غير المسلمات في روسيا ، فالسبب الرئيسي لهذه الثورة هو الشعور بخيبة النظام الاشتراكي ، وتجربته المريرة ، فأدعو الله سبحانه وتعالى أن يبلغ هذا التطور الفكري ، وهذه الخطوة الجريئة ، ذروة الرقي والتقدّم ، وأن يزول سحر الفكر الروسي ، والنظام الاشتراكي ودعاويه عن العالم كله ، وأن يعرف الناس أنهم لا يستطيعون أن يكسبوا بها تلك المنافع ، ويحقّقوا تلك الأهداف التي تنازلوا لها عن إيمانهم وعقيدتهم وأخلاقهم .

فباستيلاء هذا النظام في بلاد ما ، تذوب أسس الأخلاق ، وتنهار دعائم

الفضيلة ، وتتلشى قدرة العمل ، ولا يُقضى على الدين وتعاليمه وشعائره
فحسب ، بل يقضى على البلاد اقتصادياً ومعيشةً ، وتتحول البلاد إلى سجن
فسيح أو دار أيتام راقية .

* * *

رحلة إلى الحجاز عام ١٩٩١ م ومقترحات وملاحظات لمعالجة الأوضاع الناشئة عن الغزو العراقي للكويت

انعقد مؤتمر رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة ، في أعقاب الغزو العراقي للكويت ، وكان الجو مكهرباً يبعث على القلق والاهتمام ، في العالم العربي الإسلامي بصفة عامة ، وفي المملكة العربية السعودية وفي الحجاز ونجد بصفة خاصة ، ونكس رأس الملة الإسلامية بكاملها ، وتندى جبينها حياءً وخجلاً ، وشوه سمعة الإسلام ، وأساء إليه .

وقصرت في المقال الذي قدّمته في هذا المؤتمر على الإشارة إلى هذا الغزو اللا ديني واللا خلقي واللا مبدي ، الذي جاء في غير أوانه ، وفي غير مكانه ، وبدون أي مبرر له ، والذي يتنافى مع الضمير الإنساني ، ومبادئ الأخلاق العامة ، والقوانين الدولية ، فضلاً عن التعاليم الإسلامية السامية النبيلة ، وأكدت بالإضافة إلى ذلك على ضرورة إيقاظ الوعي الديني ، وإنشاء الحركة الإصلاحية ، وأشرت إلى حياة البذخ والترف ، ودعوت إلى هجرها .

ولم يكن يناسب لي في هذا الوقت القصير ، وفي هذا الجو الذي يسوده الحزن والكآبة ، وفي هذا البلد الذي يملأ أرجاءه القلق والاضطراب - أن أتعرض لنقد المجتمع الذي يوجد فيه العالم العربي الإسلامي ، ولا سيما المملكة العربية السعودية ، من الناحية الدينية والخلقية ، والحديث عن الواقع بالتفصيل والصراحة ، أو أشير إلى مواضع الضعف في الحياة لهذه

الدول العربية الإسلامية ، لأنه يزيد العالم العربي ألماً ، ويكون بمثابة إثارة جرحه وآلامه ، ويبرز للمعتدي اعتدائه ، وللمؤيدين تأييدهم له ، وقد كنت جربت ذلك في بلادي .

فاكتفيت في هذا المقال باستعراض هذا الاحتلال ، ودراسة أبعاده وملاساته الخطيرة الدقيقة ، والتحديات التي تبعث على القلق والاضطراب ، وتهدد بسلامة هذه المناطق المقدسة ، وتندر بتمزق الوحدة العربية الإسلامية .

لقد سافرت إلى المملكة العربية السعودية عدة مرّات ، ومكثت كل مرة أياماً وأسابيع ، وتجوّلت خلالها في شوارعها ، ومررتُ بأسواقها وشاهدتُ قصورها ، وشهدتُ حفلاتها ، وحضرتُ نواديها ، وأقمتُ بفنادقها ، والتقيتُ بأمرائها وأعيانها بحرية ، لكنني رأيت كل مرة السباق في رفع مستوى الحياة ، والشغف الزائد بالكماليات ، والتظاهر بالثروة والمال ، ووجدت المدينة أكبر زهواً ونضارة من قبل .

رحلت أول مرّة إلى المملكة العربية السعودية سنة ١٩٤٧ م ، وأقمت بالمدينة المنورة ثلاثة شهور ، ثم رحلت إليها في عام ١٩٥٠ - ١٩٥١ م ، وقضيت في مكة المكرمة والمدينة المنورة أسابيع وشهوراً ، وكانت المدينة المنورة - بما فيها من نور وبركة - تبدو وقتئذٍ مديرية يرجع تاريخها إلى عهد تركية ، لا تترأى فيها المباني المشيئة الشامخة إلا بعدد ضئيل ، وكانت الحوانيت والأسواق بسيطة ساذجة ، لكنها كانت مشحونة بالأدوات اللازمة ، وكذلك كانت مدينة جدة التي كانت مقرّ السفارات للدول الخارجية ، وأكبر ميناء في جزيرة العرب ؛ لا تنفكّ هذه المدن الثلاث ترتقي وتزدهر لأسباب طبيعية ، ولا تزال البضائع المستوردة ، وأدوات الراحة والزينة تزداد يوماً فيوماً ، وتبنى القصور الجميلة ، والمباني الناطحة للسحاب بسرعة غريبة ، وليس هذا أمراً يبعث على الدهشة ، ويتعارض مع الطبيعة طبقاً لقانون الحياة والطبيعة البشرية .

لكن الذي بعث على القلق والاضطراب والدهشة والاستعجاب ، هو

ما رأيته من نضارة هذه المدن الثلاث ولا سيما عمران أسواق مدينة جدة وازدحامها ، والاستهانة بمال الله في سبيل اللذة والشهوة ، والفخر والزينة ، والجري وراء الحياة المصطنعة ، والمادة والمظاهر ، والغفلة عن الأخطار المحدقة بالأمة الإسلامية ، والابتعاد عن الحياة التي تمتاز بالمغامرة والمخاطرة ، وتتصف بالتقشّف والاقتصاد ، وعدم المبالاة بتهيئة الأسباب لمقاومة كيد الأعداء وإحباط مؤامراتهم .

وبالجملة أستطيع أن أقول: إنني شعرت بحاجة إلى مجتمع مثالي أفضل ، يمتاز بالبساطة والسذاجة ، ويؤمن بمبادئ الأخلاق والروحانية ، لا يعرف التكلف والتملق ، وتتجدد به ذكريات عهد الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، ويقدم نموذجاً لإيثار الباقية على الفانية ، ويجتذب الذين لا يؤمنون إلا بالمادة والمظاهر إليه ، ويسترعي انتباههم ، ويضطرهم إلى أن يقدروه ويحترموه .

هزّ ذلك قلبي ومشاعري كدارس متواضع للقرآن الكريم ، ودارس لتاريخ الأقاليم والملل ، وتاريخ المدينة العالمية القديم ، وكمؤلف له ، على أساس من العقيدة والإيمان ، والحُبّ والإخلاص؛ ودفعني إلى أن أحذّر إخواننا العرب ، ورؤساء الحكومات العربية ، وقادة الحركات الإصلاحية والدعوية ، والمسؤولين عن الدوائر الرسمية ، ورجال الفكر والسياسة ، بالأخطار المحدقة ، وأدعوهم إلى الاعتبار من الحوادث والوقائع ، والانتباه للحقائق الراهنة ، وتغيير حياة الترف والدعة ، والمجتمع المادي المحض ، وتحديد مظاهر الثروة التي يسيل برؤيتها لعباب الدول المجاورة ، التي لا تملك مثل هذه الوسائل والإمكانات ، وهي تطمع فيها ، وترنو إليها بلهفة ، وأطلب منهم أن يختاروا حياة الطهر والعفاف ، والطاعات والعبادات ، التي تجلب رحمة الله وبركته ، ويتسلموا زمام توجيه العالم الإسلامي بل العالم البشري كله ، وذلك يطابق ما قاموا به من أمجاد وبطولات ، ويتطابق مع البعثة النبوية ، والتعاليم الإسلامية ، وهم أليق بذلك وأجدد ببعض مزاياهم وخصائصهم .

ومن المفاجأة أن خطر بيالي وأنا في جدّة أن الباب الأخير لكتابي «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» يدور حول هذا الموضوع ، وهو «قيادة العالم العربي» ، فلا بدّ من أن يُنشر ما جاء في هذا الباب في رسالة مستقلة ، ويقدر من عناوين ذلك الجزء ، أنه كم يتطابق مع أوضاع الدول العربية الراهنة ، فهذه العناوين كما يلي :

- ١ - أهمية العالم العربي .
- ٢ - تضحية شباب العرب قنطرة إلى سعادة البشرية .
- ٣ - الإيمان هو قوة العالم العربي .
- ٤ - العناية بالفروسية ، والحياة العسكرية .
- ٥ - محاربة التبذير ، والفرق الهائل بين الغني والصعلوك .
- ٦ - محمد رسول الله روح العالم العربي .
- ٧ - استقلال البلاد العربية في تجارتها ومالياتها .
- ٨ - رجاء العالم الإسلامي في العالم العربي .

لم تزل تساورني هذه الأفكار ، وتشغل بالي ، ولكن لم تسنح لي فرصة لذلك خلال إقامتي بجدة ثلاثة أيام ، وعاقنتني عنه اللقاءات والحفلات والبرامج الأخرى خلال إقامتي بهذه المدينة ، لكن لما غادرت إلى لكهنؤ صباح ٢٥/ سبتمبر ، ووصلت إليها في ٢٦/ سبتمبر ، بادرت إلى هذه المهمة ، وسجّلت رسالة بعنوان «كيف يستعيد العرب مكانتهم اللائقة بهم ، ويحافظون عليها»^(١) بالعربية ، وقامت مطبعة ندوة العلماء بطبعها في مدة قصيرة ، وأرسلت نسخاً منها إلى الأوساط العربية ، ولا سيما في المملكة العربية السعودية؛ وأرجو الله تعالى أن تكون قد وجدت استجابة واهتماماً بها من القراء .

* * *

(١) قد طبع هذا الكتاب بنفس العنوان في المجمع الإسلامي العلمي بلكهنؤ (الهند) وفي دار ابن كثير بدمشق .

رحلة إلى إنكلترا عام

١٩٩٢ م

واللقاءات والمؤتمرات فيها

وصلتُ إلى لندن كعادتي في كل عام ، في الأسبوع الأول من شهر سبتمبر ١٩٩٢ م ، للاشتراك في الدورة السنوية الإدارية لمركز الدراسات الإسلامية لجامعة أكسفورد ، الذي لي شرفُ رئاسته ، مع مرافقي الأستاذ محمد الرابع الندوي ، أحد أعضاء المركز - التي انعقدت في ١٠/ سبتمبر في رئاستي ، واشتركت فيها عدّة شخصيات إسلامية بارزة من العالم الإسلامي والعربي ، كأعضاء للمركز ، وورد ذكره في الصفحات السابقة .

واتخذت في هذا الاجتماع بعد دراسة المسائل والقضايا المعروضة فيها عدة قرارات هامة ، كان منها القرار الذي كان بمثابة بشارة تبعث على الاعتزاز ، وتزيد الإيمان في القلوب ، أن المركز سيتولى تنفيذ مشروع لإنشاء تذكّار يليق بمقام إمام المحدثين ، ومؤلف كتاب ، وبتعبير «أصحّ الكتب بعد كتاب الله» الجامع الصحيح للبخاري بموجب اتفاق تمّ التوصل إليه مع حكومة أذربكستان ، وسيُعقد احتفال لافتتاح هذا المشروع في موعد يُقرّر مؤخراً باعتبار الجوّ الملائم والظروف ، ويشترك في هذا الحفل الافتتاحي وفد للمركز ، يتكوّن من رئيس المركز والأعضاء الآخرين ، ويسعد بإحياء وإنشاء مدرسة وجامع بالقرب من قبر الإمام البخاري رحمه الله ، ويقوم بإعداد خطة وتصميم هندسي لهذا المشروع ، أحد أبرز المقاولين والمصمّمين ، كما أخبر الأعضاء أنّ مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية يعمل على مشروعين هامّين من بين مشاريع أخرى ، أحدهما إعداد أطلس إسلامي تاريخي ، وآخرهما خطة إعداد جامع إسلامي موسّع .

بعد انتهاء دورة مركز أكسفورد توجّهت إلى بارك فيلدليستر سائراً على دعوة من المؤسسة الإسلامية ، وقد كنت زرت هذه المؤسسة في العام الماضي أيضاً ، وكانت قد وُجّهت إليّ الدعوة قبل ذلك لحضور الاحتفالات بمناسبة انتقال المؤسسة إلى مبنى جديد ، من الدكتور خورشيد أحمد ، والدكتور مناظر أحسن^(١) ، ولكنني لم أستطع القيام بالسفر في تلك المناسبة؛ وانتهز بعض المسؤولين عنها فرصة وجودي في أكسفورد ، فوجهوا إليّ الدعوة شخصياً للقاء محاضرة في المؤسسة ، وعقد اجتماع لهذا الغرض ، حضرته نبذة من خيرة الناس القادمين من الأماكن المجاورة ، علاوة على مدينة ليستر .

كانت القاعة مكتظة ، وكان من بين الحاضرين عدد كبير من الأساتذة وطلبة الجامعات والباحثين ، والشباب العرب ، بالإضافة إلى الهنود والباكستانيين القاطنين في بريطانيا ، وشرح الله صدري بوجود هذه النخبة الطيبة ، والوجوه النيرة ، وبما شاهدت من اهتمام الدعاة إلى هذا الاجتماع ، والمنظّمين له ، وإخلاصهم وحنينهم الغامر ، وصلتهم بهذا المتحدّث المتواضع ، وبما شعرت به من أهمية الموقع ، والجوّ ، وخاصة حضور الشباب العرب ، فانتقل ذهني إلى آية كريمة في القرآن الكريم ، وجعلتها موضوع خطابي ، فتحدّثت أولاً بالعربية ، ثم خاطبت بالأردية ، ثم قدّمت خلاصة الكلمة بالإنجليزية ، نقدّم هنا نصّ الكلمة :

دور الأمة الإسلامية في إنقاذ البشرية وإسعادها :

حضرات الإخوان والضيوف الكرام ، والمستمعين العظام! إنني أحمد الله تعالى على أنه أتاح لي فرصة أخرى^(٢) لهذا اللقاء الكريم الحبيب ، والاجتماع بهذه المجموعة الطيبة الهادفة السليمة ، المتألّمة بما يعانیه العالم بصفة عامة ولما تعانیه هذه القطعة التي كتبت لها القيادة العالمية ،

(١) مؤسس «المؤسسة الإسلامية بلندن» .

(٢) كانت المحاضرة الأولى في هذا المركز الإسلامي الواقع في (Mark Heild deierter) في سبتمبر ١٩٩١ م ، نشرها المركز المذكور بالإنجليزية .

والتوجيه - لحكمة يعلمها الله - بصفة خاصة ، إنني سعيد بأن الله سبحانه وتعالى أتاح لي هذه الفرصة للحديث في هذا المكان الرئيسي الحساس الذي لا يزال له نفوذ كبير ، والذي لا تزال له مكانة مرموقة واحترام زائد .

إخواني ! وأنا كذلك أحمد الله تبارك وتعالى على أنني أتحدّث إليكم أولاً باللغة العربية التي هي لغة القرآن ، والتي هي لغة الإيمان ، ولغة الرسالة المحمّدية ، والتي كانت ولا تزال إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، لغة لا أقول إنها لغة الإسلام الرسمية ، لأنني لا أؤمن بالرسميات ، ولكن لغة الإسلام الدينية ، ولغة الإسلام الإيمانية ، ولغة الإسلام العلمية ، ولغة الإسلام العقلية والثقافية .

إخواني : إنني تلميذ صغير من تلاميذ مدرسة القرآن العامرة الخالدة ، وإن الله يشرفني ويكرمني ويمنحني فرصة القراءة وبعض التدبّر في القرآن ، وأشعر بهذا النسب المشترك بيننا وبينكم ، النسب العقلي والإيماني ، وأقول اعتماداً على ذلك إنكم كلكم تقرؤون القرآن ، ومن طبيعة الإنسان أنه إذا رأى شيئاً غريباً تملكه الحيرة في بعض الأحيان ، لكن هذه الدهشة تزول سريعاً أو على فترة ، وهذه الحيرة تزول كذلك ، ولكنني أقول لكم بكل صراحة - وقد ألقى الله في روعي أن يكون هذا موضوع حديثي اليوم - إنني كلّمًا مررت بهذه الآية الكريمة التي من آخر آيات سورة الأنفال وهي ﴿... إَلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال : ٧٣] .

أنا أتساءل كرجل داع ، وكرجل يعيش في هذا العالم ، إنني أحرار ، ويملكني العجب ، بل تملكني الدهشة والحيرة ، لمن يقال هذا؟ ومتى يقال هذا؟ وفي أي مكان يقال هذا؟

يقال هذا لحفنة بشرية - إذا قيست إلى العالم المتمدّن المعمور ، وإلى النفوس البشرية العائشة الموجودة في ذلك الزمان - يعني في الهجرة الأولى - فقد كان المسلمون في تلك الفترة الزمنية ، قطرة

أمام البحر الإنساني الزّاهر ، كانوا حفنة بشرية فقط ، كانت حول مدينة يثرب (المدينة المنورة العزيزة المحترمة ، التي نفديها بنفوسنا وأرواحنا ، لكن اسمها القديم يثرب) ، بل كانت حول الجزيرة العربية إمبراطوريتان واسعتان ممتدّتان إلى أقصى العالم ، قد توزعتا العالم - كما يقول المؤرخون الأوروبيون - العالم المتمدن المعمور توزّعتا الإمبراطوريتان : الإمبراطورية البيزنطية التي خلّفت الإمبراطورية الرومية ، والتي كان مقرّها قسطنطينية ، والإمبراطورية الساسانية ، الإمبراطورية الإيرانية؛ قد استحوذتا وسيطرتا على العالم المتمدّن المعمور ، وكان هناك البحر المدني الحضاري يموج حول الجزيرة كلّها ، كانت هنالك حضارات ، وكانت هنالك فلسفات ، وكانت هنالك مؤسّسات علمية ، وكانت هنالك فتوح مدنية ، وعقلية وسياسية ، واقتصادية وعمرانية .

ما نسبة هذه الحفنة البشرية التي كانت قد وُجِدَت في المدينة المنورة بفضل دخول الإسلام أولاً في المدينة ، وبعد ذلك انتقال عدد قليل من مكة إليها ، وتعرفون كلّكم أنّ الهجرة ليست بالأمر الهين ، فإنّ الهجرة هي مغادرة الوطن والأهل ، والانتقال من بيئة إلى بيئة أخرى ، إنها تتطلّب تضحية كبيرة ، وهمّة عالية ، إنها تتطلّب مخاطرة بالمال ، ومخاطرة بالنفس ، ومخاطرة بالأهل .

وقد كان إحصاء المسلمين في المدينة بأمر رسول الله ﷺ لم يتجاوز عددهم ألف وخمسمئة (١٥٠٠) رجل ، وقد كان ذلك كما يرى بعض أصحاب السّير عند الخروج إلى أحد ، وقد كانت غزوة أحد في شوال سنة ثلاث من الهجرة ، فكان ذلك بعد ما مضى على الهجرة ثلاثة أعوام ، وجزم بعض علماء السّير وشراح الحديث بأن ذلك عند حفر الخندق ، وقد كانت غزوة الخندق - أو غزوة الأحزاب - في شوال سنة خمس من الهجرة ، فكان أمد الإحصاء أطول من الأول .

على كلّ حال ، كانوا حفنة بشريّة ، كانوا حفنة مغمورة في بحر هائج مائج من البشر ومن الحضارات والثقافات ، ومن الألسن واللغات ، ومن

المدنيات والزخارف ، ومن المظاهر الخلّابة ، يُقال لهذه الحفنة البشرية :
﴿... إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾... يعني : إن لم تتألفوا ، وتكونوا وحدة بشرية مميّزة تقوم على العقيدة الممتازة ، والهدف الواضح ، إلى إنقاذ البشرية وإسعادها ، وعلى نمط خاص من الحياة والقيم والأقدار الخاصّة ، وعلى التصميم بالقيام بالدعوة ، وإن لم تتخذوا الحياة الإيمانية الخلقية المثلى شعاركم ، ولم تكونوا نموذجاً فريداً للإنسانية ، ولم تصمّموا على نشر الدعوة الإسلامية إلى أقاصي الأرض ، وعلى إخراج البشرية من الظلمات إلى النور ، ومن الدمار والهلاك والشقاء إلى السعادة الأبدية : ﴿... إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال : ٧٣].

لمن يُقال هذا؟ ومتى يُقال هذا؟ وفي أي بيئة ، وفي أي محيط يقال هذا؟ ولكن يقال : «العبرة بالقيمة ليست العبرة بالقامة» ، فكان هؤلاء المسلمون لا يتجاوز عددهم ألفاً وبضع مئات ، هؤلاء كانوا صغاراً في القامة^(١) لكنهم كانوا كباراً في القيمة . فالعبرة بالقيمة لا بالقامة ، وقد أثبت التاريخ الإنساني المدوّن المحفوظ الموثوق به ، والمعتمد عليه ، أنه دائماً غلبت وانتصرت القيمة على القامة ، وانتصرت القيمة الصغيرة على القامة الكبيرة .

هذا تاريخ الديانات ، هذا تاريخ الحركات الإصلاحية ، هذا تاريخ المدنّيات ، وهذا تاريخ المغامرات ، المغامرات السياسية ، المغامرات المدنية ، المغامرات العلمية... دائماً غلبت القيمة على القامة .

فالقضية قضية قيمة ليست قضية القامة ، فكان المسلمون في المدينة المنوّرة صغاراً قليلين في القامة ، ولكنهم كانوا كبيرين شامخين في القيمة ، والعبرة بالقيمة لا بالقامة .

فيا إخواني ! أقول لكم : إنني كلّما مررت بتلك الآية الكريمة على كثرة

(١) المراد بالقامة الكمية والعدد الكبير ، والقيمة : ثروة من الوسائل والطّاقات .

مروري ، ومرور كل مسلم بها عند التلاوة - والحمد لله كلكم تقرأون القرآن ، وقد تقرأونه أكثر مني - ولكنني أقول لكم بكل صراحة ، ولا أجاملكم ولا أتملق ، ولا أظهار بالعاطفة الإيمانية ، والإجلال القرآني ؛ أقول لكم بكل إخلاص وبكل صراحة : إنني كلما مررت بتلك الآية الكريمة دهشت وقلت : يا سبحان الله ! ﴿... إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال : ٧٣] .. أيها المسلمون المعدودون بالميئات ، إن لم تقوموا بالدعوة الإيمانية ، وإن لم تقوموا بدعوة التوحيد ، إن لم تكن الدعوة إلى العبودية الخالصة لله تبارك وتعالى ، والخضوع لحُكمه ، وأنه لا خالق غيره ، ولا ربَّ غيره ، ولا معبود غيره ، ولا حاكم غيره ، ولا قويَّ غيره - إن لم تقوموا بهذه الدعوة ، تعرفوا ماذا ستكون عاقبة الإنسانية؟ .

تكون عاقبة الإنسانية وخيمة ، ذميمة ، شنيعة... هنا في الدنيا التناحر ، تناحر أفراد البشرية ، يتناحرون ويتقاتلون ، يقتل بعضهم بعضاً ، ويسفكون الدماء ، ويرتعون في الشهوات ، ويعبدون النفس ، ويعبدون الهوى ، ويبتدعون طرائق الظلم والإهانة ، والاستبداد والقهر؛ هذا سيكون مصير الإنسانية إن لم تقوموا أنتم بالواجب ، وبما أسعدكم الله به وفرَّضه عليكم .

فأنا أقول لكم : إنَّ هذه المراكز الدعوية والتربوية ، مع إجلالي ومعرفتي لقيمتها ولغنائها ولفائدتها ، إنها في الحقيقة قطرة في البحر ، ما نسبتها إلى هذا البحر الزاخر المائج الهائج ، الذي يزخر هنا في أوروبا ومن هنا تمتدُّ أمواج هذا البحر وعواصف هذا القطر إلى العالم الخارجي .. ما هي الاشتراكية؟ وما هي الرأسمالية؟ وما هي الشهوانية؟ وما هي عبادة النفس؟ ما هو استعباد الإنسان للإنسان؟ .. كلها عواصف هوجاء ، ورياح مشؤومة ، رياح تقضي على البقية الباقية من الشعور الإنساني والمبادئ الفاضلة ، والقيَم الإنسانية ، فهنا بحر موج من المادية ، وهذا البحر من ورائه ومع ثروة زاخرة ، ومقدار كبير من الرقي الثقافي ، وتقدم كبير في مراكز الطبع ، وآلات النشر ، والإذاعة .

هذه أوروبا كلها غنية في كل ما يستطيع أن يصلح الإنسان ، ويستطيع أن يفيد الإنسان ، ولكنها تحوّلت وأتجهت - لسوء قيادة الموجهين والمربين ، وللمعركة الحاسمة والحرب الشعواء التي وقعت بين الكنيسة والدولة ، وبين العلم والدين^(١) - أتجهت إلى الإفساد بدل الإصلاح ، وإلى نشر عبادة النفس ، والاندفاع وراء الشهوات اندفاعاً أهوج ، اندفاعاً متحمساً متهوراً؛ فأصبحت أوروبا تملك زمام العالم ، وترتفع راياتها على الشرق الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه . . وكانت هنالك إمبراطوريات سياسية ، وإمبراطورية فكرية . . وكان استعماراً سياسياً ، واستعمار ثقافياً ، واستعماراً فكرياً ، واستعماراً خلقياً ، واستعماراً توجيهياً.

إنّ الله سبحانه وتعالى قد مكّن لهذه الحفنة البشرية التي وجدت وتكوّنت في المدينة المنورة بفضل تعاليم الإسلام ، من انتزاع السلطة - إذا صحّ التعبير - والسيطرة على النفوس ، من جماعة إلى جماعة ، ومن أمة إلى أمة ، لا لمآرب النفس ، ولا للشهوات ، ولا للأغراض الخسيسة الفردية ، أو السيادة العنصرية أو القومية ، ولكن لصالح الإنسانية .

مكّن الله لهذه الحفنة البشرية أن تظهر وتتغلب ، وتملك زمام القيادة . . زمام القيادة العقائدية ، زمام القيادة الخلقية ، زمام القيادة الفكرية ، وزمام القيادة السياسية كذلك؛ وقد مكّن الله لهذه الحفنة البشرية في القرن الأول في عصر النبي ﷺ ، وفي عصر الخلفاء الراشدين حين فتحوا الإمبراطورية البيزنطية ، ووصلوا إلى القسطنطينية في عصر محمد الفاتح .

وكذلك امتلكوا الإمبراطورية الفارسية الساسانية ، إذا قال إنسان: إنّ هذه الإمبراطورية ستزول ، نظر الناس إليه في عجب ودهشة واستغراب ،

(١) يرجع للاطلاع إلى كتاب درابر (Drapper) المشهور «الصراع بين الدين والعلم» (Conflict Between Religion And Science).

وظنّوا بعقله سوءاً ، ما كان يُتصوّر ذلك ، ولكن كلّ ذلك وقع لإرادة الله سبحانه وتعالى .

فالذي نحتاج إليه ، والذي جرت به سُنّة الله تبارك وتعالى في تاريخ الديانات ، وفي تاريخ الحركات الإصلاحية ، حتى في النبوّات ، هو أن تقوم قلة مهمما بلغت من ضآلة العدد والعدد ، تقوم بإخلاص ، وبعزم ، وبوعي ، وبعقل ، وبحكمة وبتعاون ، وبتجريد النية لخدمة الدين فقط ، هنالك يُنزل الله نصره ، وقد جاءت في القرآن الكريم تصريحات كثيرة بأنّ الله سبحانه وتعالى ينصر الضعيف على القويّ ، وينصر القليل على الكثير ، جاءت في هذا المعنى آيات فيقول تعالى :

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن نَّصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد: ٧].

يقول :

﴿ ... كَم مِّن فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةٌ كَثِيرَةٌ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّكِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

فالمهمّ الآن أن تقوم منظمة وتقوم جماعة مؤمنة ، جماعة صاحبة دعوة ، صاحبة مبدأ ، صاحبة غاية ، تقوم بإخلاص وبإيمان وبحماس وبتعاون وباتحاد ، وبتجريد النية والقلوب من حب الدنيا ومن حب الرياسة ، ومن التنافس في القيادات والعظمة ، هنالك يُنزل الله سبحانه وتعالى نصره .

وأتجرأ وأقول لكم - وأستغفر الله ربي وأعوذ به - وأقول : ﴿ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ [الأنفال: ٧٣]. أيها المسلمون في أوربة ! أيها المسلمون في أمريكا ! أيها المسلمون في إنجلترا ! وأتشجع وأقول أيها المسلمون في البلاد العربية ! التي يُحاربُ في كثيرٍ من بقاعها الإسلام ، ويُتخوف من الإسلام ما لا يُتخوف من الشيوعية ، وما لا يُتخوف من الصهيونية ، وما لا يُتخوف من المسيحية الصليبية ، وما لا يُتخوف من فساد المجتمع ، وانهيار المبادئ الخلقية والقيم المعنوية .

يُتخوف من الإسلام أكثر مما يُتخوف من أي شيء ، أقول لكم أيها الإخوان :

﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٣]، الآن هنالك حرب واحدة تُشَنُّ وتقوم ، وهي الحرب بين الإسلام وبين اللا إسلام ، وبين عبادة الله وبين عبادة النفس ، وبين التعاليم الإسلامية وبين تقديس القيم الغربية ، وإحلالها محلَّ تعاليم الكتب السماوية ، هذه هي الحروب الوحيدة القائمة الآن ، وهي حرب مسعورة مسجورة .

هذه كلمتي التي حضرتني الآن ، وأدعو الله سبحانه وتعالى أن يمنحنا من قوّة الإرادة وحسن النية والإخلاص والعزم ، حتى نقوم بنشر الإسلام في هذه القارة التي أفسدت العالم كله زمناً طويلاً ، والتي لا تزال لها سلطة كبيرة في إفساد المسؤولين عن المعارف والتربية ، والمسؤولين عن الثقافة ، والمسؤولين عن الجامعات والكليات ، فلا يزال لها أثر في ربوعنا الشرقية وفي مناطقنا ، وفي بلادنا الشرقية بما فيها البلاد العربية .

ونختم هذه الكلمة بترجمة أبيات لشاعر الإسلام محمد إقبال بالفارسية ، مقتطفة من كتابي «روائع إقبال» .

يقول محمد إقبال مخاطباً المسلم :

أيها المسلم! أنت للناموس الأزلي حارس وأمين ، ولسيد هذا الكون يسار ويمين^(١) ، لقد كانت نشأتك من التراب ، ولكن بك قوام العالم وبقاء الأمم ، اشرب كأساً فائضاً من اليقين ، وانهض من حضيض الظن والتخمين ، انتبه من السبات العميق الذي طال أمده ، واشتدت وطأته ، الغياث من الإفرنج الذين خلبوا العقول ، وسحروا النفوس ، الغياث من هؤلاء الذين خدعوا مرة بالرقعة والدلال ، ومرة بالقيود والأغلال ، تارة مثلوا دور «شيرين» ، وطوراً لعبوا دور «أبرويز»^(٢) ، لقد أصبح العالم كله خراباً يباباً بإغارتهم وغزوهم .

(١) يعني أنه آله بيد القدرة الإلهية ، وجارحة لها .

(٢) يشير إلى قصة غرامية فارسية قديمة تمثل فيها «شيرين» دور المرأة الفاتنة التي هام بها الأبطال ، و«أبرويز» دور الملك القاهر الذي عشقها واستأثر بها .

يا باني الحرم! ويا خليفة إبراهيم! انهض لبناء العالم من جديد ، انتبه من السبات العميق الذي طال أمده ، واشتدت وطأته^(١) .
ونسأل الله أن يوفقكم ويوفّقنا لنستحقّ نصر الله ، رغم قلة عدّنا وعُدّنا ، ورغم كثرة الأعداء ، هؤلاء المنافسين للإسلام ، وأعداء الإنسانية .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

* * *

(١) زبور عجم : ١١٦ - ١١٨ باختصار ، وهي زيادة في المحاضرات عند نقلها ، وكُتبت مقتبسةً من «روائع إقبال» .

خطابي في المركز الإسلامي في لندن واجب الجالية الإسلامية في البلاد الغربية ودورها البلاغي والنموذجي

سادتي وإخواني! يحلو لي ويسعدني أن تكون كلمتي المتواضعة بالعربية ، في هذا الملتقى الجامع لجنسيات ولغات مختلفة ، وفيه العدد المرموق من إخواننا العرب .

سادتي! إنَّ دور المسلمين في بلد أجنبي لا يسود فيه الإسلام ، بل تسود فيه القيم الغربية ، والمُثل الأجنبية ، والغاية الرئيسية فيها للحياة هي الوصول إلى المنافع ، والحصول على وسائل المُتَع الشخصية ، أو الجماعية ، أو السياسية ، أو الأبيقورية^(١) .

إنَّ دور المسلمين في مثل هذه البلاد - خصوصاً إذا كانوا في قلة - دور دقيق يتطلَّب إيماناً قوياً ، وشجاعة بارزة ، وحكمة بالغة ، وقوة ثقة بالرسالة التي شرفهم الله وأكرمهم بها .

وكذلك ينبغي أن يكونوا على مستوى عالٍ ، وسموِّ فكريٍّ ، غير مصابين بمركب النقص ، لأنَّهم إذا لم يكونوا على مستوى عالٍ ، ينظرون إلى أنفسهم وأمتهم نظرة احتقار ، أو نظرة مقلِّدين يقتطفون من ثمار هذه الحضارة ، فلا يكون دورهم دوراً رائعاً خلاّباً ، لافتاً للنظر ، مسترعياً للانتباه .

أضرب لكم مثلاً يجسّم لكم هذه المعاني ، ويمثّل دور المسلم الذي يثق

(١) اللذية ، وكانت مدرسة خلقية في اليونان .

بكرامته ورسالته ، ويستهين بالمظاهر الخلابّة ، ويزدري الذين يعيشون حياة الجاهلية ، ويعتمدون المظاهر ، بل يترخّم عليهم ويرثي لهم . . أقتبسه من التاريخ الإسلامي الأول ، فيه موعظة وعبرة ودرس كبير .

إنّ القائد العام للجيوش الفارسية الإيرانية ، الذي كان يسمى «رستم» ، وكان ينوب عن الإمبراطور الفارسي ، ويليه في فخفته وعظمته ، ومكانته الاجتماعية ، طلب من قائد قوّاد المسلمين ، سيدنا سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ، أن يرسل رجلاً يشرح له الغاية التي ساقّت العرب البدو ، الذين يعيشون في صحراء العرب ، إلى هذه البلاد المتمدّنة الراقية في الحضارة ، والقوّة العسكرية .

تصوّروا رجلاً جالساً على كرسيّ عالٍ من الحُكْم والرياسة ، كيف ينظر إلى العرب البدو الذين يعيشون في الخيام أو في بيوت من مدر أو وبر ، والذين كان قوتهم إما التمر وإما لحم الإبل . . ينظر إلى هؤلاء نظرة احتقار وعدم مبالاة .

قال : أرسل إلينا رجلاً منكم يشرح لنا الغاية التي جئتم من أجلها .

وكان من معجزات الإسلام أنه جعل هؤلاء العرب البدو على مستوى موحد عال ، من الفكر والعقيدة والإيمان بالله ، والاعتزاز بالغاية التي جاء بها الإسلام .

فاختار سعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه - ربيع بن عامر^(١) لا يعرفه أحد من علماء التاريخ والسّير ، ولم يكن له حديث قبل هذا ، ولا أحكي لكم هذه القصة كحكاية طريفة فيها مُتعة ولذّة ، أو مادّة للافتخار القومي أو الجنسي ، إنما أحكي لكم هذه القصة لتقارنوا بين الإيمان القوي الذي دفع إلى هذا الحديث الجريء الحرّ ، أمام القائد العام للجيوش الفارسية ،

(١) كان من أشرف العرب ، حضر غزوة نهاوند ، ولأه الأحنف على طخارستان ، وكانوا لا يؤثرون إلاّ الصحابة ، (الإصابة في تمييز الصحابة ، للعلامة ابن حجر العسقلاني : ج ١ ، ص ٥٠٣) .

وموقف المؤمن بسمو رسالته ، وحاجة البشرية إليها ، وفقر هذه البلاد وحرمانها منها. . وبين موقفنا هنا في هذه البلاد ، ونظرتنا إلى أنفسنا ورسالتنا وواجبنا ، وإلى الحضارة الغربية التي تمثلها هذه البلاد ، وتقوم بالدور الرئيسي القيادي فيها.

جاء ربيعي بن عامر في ثياب صفيقة ، وسيف وترس وفرس قصيرة ، ولم يزل راكبها حتى داس بها على طرف البساط الذي كان قد بُسِط حول رستم ، ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد ، وأقبل وعليه سلاحه ودرعه ، وبيضته على رأسه. . . نَبَّهه بعض الناس وقال له: دع سلاحك ، فقال: «إني لم آتكم ، وإنما جئتكم حين دعوتموني ، فإن تركتموني هكذا فذاك ، وإلا رجعت» ، فقال رستم: ائذنوا له ، فأقبل يتوكأ على رمحه فوق النمارق فخرق عامتها.

ودخل على رستم فقال له رستم: ما الذي جاء بكم أيها العرب؟ فقال - بإيمان متغلغل في الأحشاء ، وثقة بالغة تقوي الأعصاب ، وتملكها ، لأن وراءها كتاب سماوي ، ونبوة صادقة وعقيدة جازمة وهمة عالية ، ونظرة هادفة - : «الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام»^(١).

سادتي وإخواني! إنني مع إيماني بما قال ربيعي بن عامر عن غاية الإسلام ورسالته الأساسية والبدائية والنهائية ، من إخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، وما أشار إليه من جور الأديان ، ومع إجلالي وتقديري له ، فإن كل ذلك كان واقعاً ملموساً ، وحقائق راهنة ، لكنني أستغرب قوله: «ومن ضيق الدنيا إلى سعتها» ، فلو قال: «من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة»؛ لما ملكني استغراب ، فإنه من العقائد التي يؤمن بها كل مسلم ، فضلاً عن هذا المتحدّث في العصر الإسلامي الأوّل. ولكنني أستغرب كلّ الاستغراب من قوله: «من ضيق الدنيا إلى سعتها» ، كأنه يقول: لم تخرجنا

(١) البداية والنهاية ، لابن كثير: ج ٧ ، ص ٣٩ - ٤٠ .

من جزيرتنا الرحمة والرثاء لأنفسنا ، والطمع في خيرات هذه البلاد ، إنما أخرجتنا إلى هذه البلاد الرحمة بكم ، أردنا أن نحرّركم من هذا السجن الضيق الصغير المظلم الذي تعيشون فيه «كبلبل غرّيد في قفص يوضع له فيه قوت وماء» ، لماذا؟ لأنكم عبيد العادات ، عبيد الحاجات ، عبيد الشهوات ، عبيد الموضوعات ، لا تستطيعون أن تمشوا وحدكم ، لا تستطيعون أن تتصرّفوا في أموركم كما تشاؤون ، تحتاجون إلى خدَم ، تحتاجون إلى مساعدين ، تحتاجون إلى حُرّاس ، تحتاجون إلى الطباخين والظّهاء.

ويشهد التاريخ أن «يزدجرد» ملك إيران ، لما خرج هارباً من عاصمته الإيرانية ، عطش ودخل في بيت رجل ، وطلب الماء ، فقُدّم له الماء في كأس متواضعة عادية ، فقال: لا أستطيع أن أشرب الماء في هذه الكأس . . لأنه اعتاد أن يشرب الماء في كأس من ذهب أو فضة ، وكان الإيرانيون يعيرون من كان يلبس من صناديدهم منطقة أو تاجاً قيمتها دون مئة ألف درهم ، أو لا يكون له قصر شامخ ، وآبزن^(١) وحمّام وبساتين^(٢).

كأنه يريد أن يقول: أنتم عبيد ، لأنكم تحتاجون إليهم أكثر مما يحتاجون هم إليكم ، فنريد أن نخرجكم من هذا السجن الضيق المظلم ، وما ساقتنا إليكم حاجتنا ، إنما ساقتنا إليكم حاجتكم ، وما ضقنا ذرعاً بالصحراء التي نعيش فيها ، فإنها مترامية الأطراف ، واسعة الأرجاء ، إنما ضقنا ذرعاً بالوضع الذي تعيشون فيه ، الوضع المصطنع غير الفطري ، وغير الطبيعي الذي تعيشونه .

أما نحن فلسنا عبيداً لشهواتنا ، لسنا عبيداً لوجباتنا ، لسنا عبيداً لملابسنا التي نلبسها ، لسنا عبيداً للخدم والحشم . . . نحن أحرار نتجول في الصحراء ، ونعيش كما نشاء ، ونأكل ما تيسّر؛ فالله ابتعثنا لنخرج من

(١) فسقية: وهي حوض من الرخام.

(٢) ملقط من كتاب «حجة الله البالغة» للإمام أحمد بن عبد الرحيم ، المعروف بالشيخ ولي الله الدهلوي (م ١١٧٦ هـ).

شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، أنتم تستهفون جور الأديان ، وهي التي تذلكم وتُهينكم وتسومكم سوء العذاب .

أيها الإخوان: لا أريد أن أطيل عليكم - فأنتم مشغولون ، وأمامكم واجبات ومسؤوليات - وأقول لكم باختصار: إنَّ موقفكم في هذه البلاد يجب أن يكون موقف الأحرار ، موقفاً مبدئياً دَعَوياً مثالياً ، يلفت النظر ويسترعي الانتباه ، ويثير تساؤلات ومقارنات ، رغبة في المعرفة والفحص والتحقيق؛ أما إذا نزلتم إلى المستوى الغربي ، والحياة الغربية السائدة ، مهما فقتم وتميَّزتم في هذا التشابه والتقليد ، فإن ذلك لا يثير تأملاً وتساؤلاً ، ولا إجلالاً واحتراماً ، فضلاً عن تأسُّ وتقليد ، وإجلال وتمجيد؛ أما إذا قدَّمتم إليهم مثلاً غير مألوف ، مثلاً يثير فيهم الدهشة . نظروا إليكم وسألوكم: ما هو المنع الذي استقيتم منه هذا النمط من الحياة ، وهذه المثل والقيم السليمة الفاضلة؟ ويرغبون في أن تقدّموا إليهم كتباً تشرح الإسلام وتشرح لهم سيرة محمد ﷺ ، وتشرح لهم الطريق التي انتهت بالمسلمين إلى هذا المستوى العالي والمكان السامي ، ينظرون إليكم كأنهم ينظرون إلى قمة الجبل .

فقدّموا أيها الإخوان المسلمون العاشون مؤقتاً في هذه البلاد - أو تجنّستم بالجنسية الغربية - نموذجاً طريفاً من الحياة يثير فيهم الطمع في دراسة الإسلام ، ومعرفة المسلك الذي وهبكم هذا الطراز من الحياة ، وهذا المنهج من التفكير ، فهذا هو الدور الفريد الذي يستطيع المسلمون أن يمثّلوه في هذه البلاد ، أما إذا كان الأسلوب واحداً ، وكانت الحياة متشابهة مطّردة في العالم الغربي ، أو في شبه القارة الهندية ، أو في إفريقية ، أو في أي بلد من بلاد الدنيا ، فإن ذلك لا يسترعي الانتباه أبداً ، وإن عاشوا هناك مئة سنة أو أكثر .

وأشكركم على حسن الاستماع ، وأعتذر إليكم إذا كان في كلمتي هذه صراحة زائدة ، فما دفعني إلى ذلك ولا حملني عليه إلا حُبُّ الجالية

الإسلامية في هذه البلاد ، ومعرفة قيمتها وأهميتها ، ودورها البلاغي والنموذجي في هذه البلاد ، ومعرفة دورها القيادي والتوجيهي المادي في الماضي ، وما تستطيع أن تقوم به من دور قيادي بناءً مفيد للإنسانية ، إذا أراد الله بها خيراً ، وشرفها بالهداية والتوفيق .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

* * *

أطول رحلة في الحياة

لقد قمت برحلات متعددة لأوربة ، وقد سبق ذكر كثير منها في الصفحات السابقة ، فقد سافرت عدة مرات لحضور جلسات المركز الإسلامي في جنيف بسويسرا ، ثم قمت خلالها بزيارة إنجلترا ، وفرنسا ، وألمانيا ، وإسبانيا ، وسبق ذكرها .

ثم قمت برحلة طويلة وبعيدة وأمريكا في عام ١٩٧٧ م ، أتيت لي فرصة لزيارة معظم المدن الكبرى في القارة الأمريكية ومراكزها ، كان منها كندا ، وقد بدأت هذه الرحلة في ٢٨/مايو ١٩٧٧ م ، وانتهت في ٦/أغسطس ١٩٧٧ م .

ثم تم تشكيل المركز الإسلامي المتفرع من جامعة أكسفورد ، في يوليو عام ١٩٨٣ م ، وعُيِّنْتُ رئيساً له ، وقمت بالرحلة لهذا الغرض ، برفقة العزيز محمد الرابع الحسيني الندوي ، في ٢٠ - ٢١/يوليو ١٩٨٣ م ، ووصلت إلى لندن ، ثم استمرت هذه السلسلة ، فكنت أسافر كل عام لحضور جلسات المركز الإسلامي ، وقمت بزيارة للكمبرج وبلجيكا ، في أكتوبر ١٩٨٥ م ، لحضور لجنة البحوث الإسلامية ، ومنذ ذلك استمرت زيارات لندن كُلَّ عام لحضور جلسات المركز الإسلامي .

ولكن في عام ١٩٩٣ م في شهري أغسطس وسبتمبر ، عندما كنت مرهقاً بالأسفار ، وكانت صحتي لا تتحمل الرحلات الطويلة ، ومسؤوليات كبرى ، والقيام بأشغال جديدة صعبة في الظاهر ، أجبرت - والغيب عند الله - على القيام بأطول وأبعد رحلة انتقلت فيها إلى بلدان مختلفة ، وحضرت فيها اجتماعات عديدة وترأست بعضها ، ولعل هذه الرحلة كانت

أطول رحلة قمت بها في حياتي وقد غطت ثلاث قارات: أوروبية ، وأمريكا ، وآسيا .

بدأت هذه الرحلة من إستانبول (القسطنطينية قديماً) فلندن ، فأكسفورد ، ثم شيكاغو ، ونيويورك (أمريكا) ، وجنيف (سويسرا) ، وفي الختام الحجاز ، حيث قمت بزيارة المدينة المنورة ، وأديت العمرة في مكة المكرمة ، فكانت هذه الرحلة مسك الختام .

وصادفت في هذه الرحلة محنة ، بعثت على القلق والاهتمام بالنسبة لي شخصياً ، وهي إصابة بعض أقاربي في أسرتي الصغيرة بجروح أدت إلى كسور في العظام في مدة قريبة ، اثنان منها في أسرتي الخاصة ، فكان القيام بالسفر أثناء إصابتهم ومرضهما ، وتركهما طريحي الفراش ، امتحاناً واختباراً ، ولكن الظروف والدواعي القاهرة للسفر اضطررتنا إلى القيام بالسفر ، فبدأنا السفر متوكّلين على الله ، إلا أن قلبي كان مشغولاً بهما ، وظللت مشغولاً بالدعاء لشفائهما .

كانت المناسبة لهذه الرحلة الطويلة ، اجتماع مجلس الأمناء لرابطة الأدب الإسلامي العالمية ، والمؤتمر العام لها في إستانبول ، في ٣/ربيع الأول ١٤١٤ هـ ، الموافق ٢٠/أغسطس ١٩٩٣ م ، أو ٨/ربيع الأول ١٤١٤ هـ (٢٥/أغسطس ١٩٩٣ م) ، وكان قد تقرر ذلك لأسباب خاصة ، وكنت مرغماً على السفر ، لكوني رئيساً للرابطة ، والعزيز محمد الرابع الحسيني الندوي ، لكونه نائب الرئيس والمسؤول عن مكتب شبه القارة الهندية ، والبلدان غير العربية ، ومن جهة أخرى ، كان من المقرر عقد اجتماع للمركز الإسلامي في ١ - ٢ من سبتمبر ، فكان من اللازم أن أصل إلى لندن في ٢٨ - ٢٩ من أغسطس .

وبالإضافة إلى ذلك ، كان من المقرر عقد اجتماع للأديان العالمية في شيكاغو (أمريكا) ، في ٢٨/أغسطس ١٩٩٣ م ، إلى ٥/سبتمبر ١٩٩٣ م ، وقد وُجّهت الدعوة لحضوره إلى خبراء الأديان العالمية ، ورجال الدين ، والزعماء والعلماء والباحثين ، ويُعقد هذا المؤتمر بعد مئة سنة ، فقد انعقد

مؤتمر من هذا القبيل هنا في عام ١٨٩٣ م ، وحضر هذا المؤتمر زعيم الدين الهندوسي المعروف سوامي وويكانند ، وتحدث فيه ، وأُخذت فيه إجراءات لائحة لهذا المؤتمر العظيم على المستوى الدولي ، وكان الهدف الرئيسي للمؤتمر التعريف بالأديان ، وإثبات فائدتها ونفعها للبشرية ، وإثبات صلاحيتها لمواجهة التحديات المادية الجامحة ، وهي: النفس ، والنفور من الدين ، والإلحاد ، والدهرية... ودراسة إمكانات تشكيل جبهة موحدة لمواجهة اللادينية والعداء للدين ، والرؤحانية في العصر^(١) .

تسلّمت الدعوة لحضور هذا المؤتمر من المدير التنفيذي للمؤتمر بعنوان ندوة العلماء (لكهنؤ) ، وقد صدرت الدعوة بإمضائه في ٥/أغسطس ١٩٩٣ م ، وجاء في الدعوة أنّ حوالي أربعة آلاف مندوب من الأديان المختلفة ، يُتوقّع أن يحضروا هذا المؤتمر ، وقد نُظّم ٧٥٠ بحثاً ، ومعملاً ، وندوة ، وبرنامجاً ثقافياً ، وستنال مداورات المؤتمر ونتائج البحث فيه تغطية إعلامية عالمية النطاق .

كنت على معرفة سابقة بنتائج مثل هذه المؤتمرات ، التي تُعقد بدون رعاية شخص مؤيد من الله ، أو جماعة تشتمل على المخلصين ، وكنت أخشى كذلك أن تكون وراء هذا المؤتمر حكومة أمريكا ، ترعى هذا المؤتمر لمحو العار الذي لحق بها بمحاربتها «الأصولية» في الدوائر الدينية ، ودعائها ضد القيم والمثل الخلقية ، وتصديها لها ، الذي ورّث في الدوائر الدينية النفور والكراهية لها .

أو يعقد هذا المؤتمر بإيعاز منها ، فلم أكن منشرح القلب لحضور المؤتمر ، لأنني لم أكن متأكداً بأن تُتاح لي فرصة كاملة للتعبير عن وجهة نظري بحرية ، وأستفيد من هذا المؤتمر ، الذي يضم شخصيات مختلفة لها زوايا فكرية مختلفة ، وماذا يكون موقفي في هذه المسابقة الدينية الصاخبة ، فكنت في غاية من التردد ، ولم أفكر في القيام بهذه الرحلة

(١) مقتبس من نشر المؤتمر U.S.A (Chiege The Parliament of (Rebigurns).

الطويلة الشاقة جدًّا ، إلا أنّ أحد أقرب معارفي وثقاتي ورفاقي الدكتور أحمد عبد الحي ، أحد أشهر أطباء بتنة بهار ، أرسل برقيات ورسائل متتالية وأصرَّ على حضوري ، وألحَّ عليّ ، وأبدى اتجاهه القلبي له ، وكان من بواعث إصراره أن السيد حامد عبد الحي الذي يقطن في شيكاغو كطبيب خبير في أمراض القلب ، كان من المتعاونين من المسلمين لهذا المؤتمر ، وكان أيضاً يعقد آمالاً طيبة لهذا المؤتمر ، ويريد أن يكون للإسلام تمثيلٌ لائق ، ولذلك كان يرغب في أن أشارك فيه ، وأمثّل الإسلام .

وازداد هذا الطلب وقوي ، فلم يعد لي مجال لأرفض طلب الدكتور أحمد عبد الحي ، الذي تقوم بيني وبينه صلة قوية ، وقد جرّبتُ حفاوته وإكرامه البالغ لي خلال إقامتي في بتنة ، والذي كان من عناصر النجاح والتوفيق لمؤتمر إصلاح المجتمع الإسلامي ، في ١٩٩٢ م ، ثم مؤتمر (رسالة الإنسانية) عام ١٩٩٣ م ، فوعده بحضور المؤتمر بتوفيق الله ؛ وهياً لي ولمرافقي العزيز محمد الرابع الحسني الندوي تسهيلات السفر ، عن طريق شقيقه في شيكاغو ، فأدخل هذا البرنامج أيضاً في برنامج رحلتي .

وكان من الطبيعي أن يُضَمَّ إلى رحلة شيكاغو ، رحلة نيويورك ، لأنَّ مرافقي في مثل هذه الرحلات الأخ المحب محمد عثمان ، حامل الجنسية الأمريكية يقطن نيويورك ، ومنزله الشخصي فيها ، يسكن فيه أعضاء أسرته ، وهو مهندس في الخطوط السعودية ، وكانت له رغبةٌ قويّةٌ منذ زمن بعيد أن أقضي بعض الوقت في منزله ، وأبدى هذه الرغبة بل الأمنية عدّة مرات ، وكان قد قدم لمرافقتي في هذا السفر خصيصاً من المملكة العربية السعودية ، ليرافقني من دلهي ، ويهتئ لي جميع التسهيلات ، ووسائل الراحة في السفر ، بالإضافة إلى مخلصين ومحبيين آخرين كانوا في نيويورك ، وكان يمكن أن تعقد هناك عدة اجتماعات لإلقاء محاضرات دعوية ؛ واشتمل برنامج السفر رحلة نيويورك أيضاً ، وكان السفر من لندن إلى شيكاغو يتطلّب المرور بنيويورك ، لأنَّ شيكاغو تقع غربها ، فكان من الأسهل اختيار طريق نيويورك .

وكان التوجُّه في العودة من نيويورك إلى الحجاز ، وإنهاء السفر بإقامة وجيزة به ، أمراً طبيعياً ، واقتضاءً شعورياً عاطفياً ودينياً ، فأدخل برنامج زيارة الحجاز في هذا البرنامج ، ولم يكن خط مباشر من نيويورك إلى جدة ، وكان يلزم التعرّيج على جنيف ، ومن جنيف إلى جدة ، فدخلت جنيف بطبيعة الحال ؛ وكان من بواعث اختيار جنيف ، لقاء الصديق القديم والعزيز الدكتور سعيد رمضان المصري (صهر الإمام حسن البنا الشهيد ، مؤسس حركة الإخوان المسلمين) مؤسس المركز الإسلامي بجنيف ، فقد انقضت مدة طويلة ولم نلتقِ .

وإلى القراء الآن تفاصيل هذه الرحلة :

من دلهي إلى إستانبول

غادرتُ دلهي في ١٦/ أغسطس ١٩٩٣ م ، في الساعة العاشرة صباحاً إلى دُبي ، لأنّه لم يكن هناك خطٌّ مباشر من دلهي إلى إستانبول ، وكان يرافقني في هذه الرحلة في طريقي إلى إستانبول العزيزان: محمد الرابع ، ومحمد واضح رشيد الندوي (أستاذ الأدب العربي في دار العلوم ندوة العلماء ورئيس تحرير صحيفة الرائد) ، والعزيز سعيد الأعظمي الندوي (عميد كلية اللغة العربية لندوة العلماء ورئيس تحرير مجلة «البعث الإسلامي») ، وكلاهما من أعضاء مجلس الأمناء لرابطة الأدب الإسلامي العالمية ، والأخ الكريم محمد عثمان المهندس الحيدر آبادي .

وصلنا إلى مطار دُبيّ الدُولي في الظهرية ، وكان في استقبالنا عدد كبير من أعيان دُبيّ والشارقة ، والعاملين في مجال الدّعوة الإسلامية ، والمعنيين بالشؤون الدينية ، وحملة الفكر والاتجاه الإسلامي ؛ وفي مقدّمهم وعلى رأسهم الشيخ عبد الله الغرير ، والشيخ سالم بن علي المحمود ، والشيخ سعيد أحمد لوتاه ، وعدد من الأصدقاء والمحبين من الهنود العاملين في الإمارات ، وكان من بينهم سعيد نوائط ، ومحمد إسماعيل ، ومولوي عبد العزيز ، والمقرئ عبد الحميد الندوي ، وكان حاكم الشارقة سموّ الشيخ سلطان بن محمد القاسمي ، الذي يقوم بيني وبينه صلة قوية ، في زيارة لأوربة في تلك الأيام ، وكذلك الشيخ سيف الغرير الذي كان خارج البلاد في تلك الفترة ، وتغدينا في منزل الشيخ عمر ، الذي كان يشغل منصباً كبيراً في وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في أبو ظبي ، وكان قد اهتمّ فيه اهتماماً بالغاً .

أدهشني خلال هذه الزيارة بريق مدينة هذه البلاد التي تكررت زياراتي

لها ، لا شك أنها قطعت أشواطاً بعيدة من الرقيّ والتقدّم في مدة قصيرة ، وتطوّرت تطوراً حضارياً كبيراً ، حتى أصبحت كمدينة من مدن أوربة ؛ لكن بالنسبة لي شخصياً ولمن يعرف مكانة الجزيرة العربية ، ويعرف رسالتها ويعرف دورها القيادي ، وإسعافها للإنسانية البائسة ، ويقوم بالدعوة والإرشاد لا يبعث على السرور والارتياح بريق مدينة إسلامية ، وشموخ مبانيها ، ووفرة وسائل الحياة الراقية ، وآثار البذخ ، والكماليات فيها ، وإنما يبعث على القلق والاهتمام ، والخوف من العواقب .

كانت إقامتنا في دبيّ ثلاث ساعات ، من الساعة الواحدة إلى الساعة الرابعة ، استرحنا فيها في دار ضيافة الشيخ عبد الله الغرير ، وتوجّهنا إلى مطار الشارقة للسفر إلى إستانبول في الساعة الخامسة ، ووصلنا إلى إستانبول في الساعة التاسعة ، حسب توقيتها المحلي ، وعلى المطار استقبلتنا مجموعة تضم عدداً كبيراً من المسؤولين في رابطة الأدب الإسلامي ، والعلماء والدعاة الأتراك ومنظمي هذا المؤتمر .

ونزلنا بفندق سلطان في حي «لاللي لي» ، وغمرني السرور حينما علمتُ أنّ زميلي القديم السيد محمد ناظم التّدوي قد وصل أيضاً إلى إستانبول لحضور هذا المؤتمر ، ويقوم الآن في الفندق الذي أقيم فيه ، فالتقينا ، فوجدته ضعيفاً نحيلاً ، لكنّه رغم ذلك كله احتمل متاعب هذا السفر الطويل . وسأحكي الذكريات القديمة التي تجددت من هذا اللقاء ، في الصفحات الآتية ، ومن حسن الحظّ كان اليوم التالي يوم الجمعة ، فأدينا صلاة الجمعة في جامع السلطان محمد الفاتح ، وكان المسجد مكتظاً بالمصلين ، وكانوا جميعاً مشغولين إما بتلاوة القرآن الكريم ، وإما بصلوات النوافل ، وكان بعضهم جالسين في أماكنهم بهدوء وصمت حسب عادتهم المعروفة ، وقرأنا الفاتحة على قبر السلطان محمد الفاتح ، الذي كان يجاور المسجد بعدما انتهينا من الصلاة ، ودعونا له .

وفي اليوم التّالي في ٢٠/ أغسطس عُقدَ اجتماع مجلس الأمناء لرابطة الأدب الإسلامي ، واستغرق هذا الاجتماع يومين ، ثم عُقدت جلسة الهيئة

العامّة لرابطة الأدب الإسلامي العالمية في ٢٢/أغسطس ، واستمرّت إلى ٢٥/أغسطس ، وعقدت الجلسة الثانية لمجلس الأمناء لرابطة الأدب الإسلامي العالمية في ٢٦ - ٢٧/أغسطس .

وكان موضوع المؤتمر (تقريب المفاهيم لقضايا الأدب الإسلامي) ، ويدلُّ على نجاح هذا المؤتمر قدوم عدد كبير من الأدباء والكتّاب والباحثين الذين كانوا يُمثلون دولاً مختلفة بعيدة ، وقد بلغ عددهم ثلاثة وأربعين مندوباً ، وكان منهم عشرة مندوبين من مصر ، وثلاثة من سورية ، وعشرة من السعودية ، وخمسة من الأردن ، ومندوبان من الكويت ، حضر بجانب هؤلاء الضيوف القادمين من الدول العربية المختلفة - عدد كبير من إخواننا الأتراك المهتمين ، بالأدب الإسلامي ، ومراسو الصُحف العربية والتركية ووكالات الأنباء ، كان منهم من يفهم اللغة العربية ومنهم من يستفيد من الترجمة التركية .

وكنّا جميعاً في فندق (سلطان) ، وكان ممن شارك في هذا المؤتمر من الهند الأستاذ ضياء الحسن الندوي (رئيس قسم اللغة العربية بالجامعة المليّة الإسلامية ، وعضو رابطة الأدب الإسلامي) ، وكان قد قدّم هذا المؤتمر بحثاً نال إعجاباً وتقديراً من المستمعين .

الجلسة الأولى للهيئة العامة لرابطة الأدب الإسلامي :

عُقدَ اجتماع مجلس الأمناء في قاعة المحاضرات لفندق سلطان ، في ٣/ربيع الأول ١٤١٤ هـ ، الموافق ٢٠/أغسطس ١٩٩٣ م ، وكانت القاعة تغصُّ بالحاضرين والمستمعين ، فبدأت الجلسة بتلاوة آي من الذكر الحكيم .

ثم ألقىت كلمتي كرئيس لهذه الجلسة ، وافتتحتها بأبيات للدكتور محمد إقبال ، لأنها تمثل الأدب الإسلامي تمثيلاً صادقاً ، وتلقي على موضوع رابطة الأدب الإسلامي العالمية ضوءاً كاملاً ، وتشرح أهدافها ، وتبين أهميتها وضرورتها .

أنشدت هذه الأبيات أولاً بالأردية ، بحماس ولحن إلى حدّ ما ، ثم ترجمتها إلى اللغة العربية ، وهي كما يلي :

«يا أهل الذوق والنظر! أنعم وأكرم بنظركم ، ولكن أي قيمة للنظر الذي لا يدرك الحقيقة ، لا خير في نشيد شاعر ، ولا في صوت مغنٍ ، إذا لم يفيضا على المجتمع الحياة والحماس» .

ويقول : «لا بارك الله في نسيم السّحر إذا لم تستفد منه الحديقة إلا الفتور والخمول ، والذوي الذبول ، إن غاية الإحسان في فنّ من فنون العلم والأدب ، لوعة الحياة الدائمة . . . ما قيمة شرارة تلتهب سريعاً وتنطفئ سريعاً؟ ، وما قيمةً لأولؤة كريمة أو صدفة لامعة لا تُحدث اضطراباً في الأمواج ، ولا اضطراباً في البحار؟ . . لا نهضة للأمم إلا بمعجزة ، ولا خير في أدب ولا شعر إذا تجرّدا عن تأثير عصا موسى» .

ثم قلت في ضوء هذه الأبيات الموجهة للأدب : إن ميزة الأدب الكبرى وقوته الحقيقية ، هي أنه يؤثر في النفوس والقلوب ، ويغيّر الاتجاهات والميول ، ويحدث الانقلاب في الأخلاق والعمل والتفكير ، ولذلك يستطيع أن يكون أداة تدمير أو بناء ، أداة خير أو شرّ ، أداة إصلاح أو إفساد ، ويمكن أن يستعمل في تحقيق الأهداف النبيلة السامية ، أو للوصول إلى الغايات الرذيلة الرديئة ، فلذلك ينبغي أن لا تغمض عنه العين ، ولا يصرف عنه البصر؛ وشوهدت نماذج هذين الصنّفين من الأدب في كل عصر . . . إنه يستطيع أن ينشئ المجتمعات ، ويؤسس الحكومات ، فلا بد أن يوجه إلى اتجاه سليم ، وينضغ لمنهج صحيح ، (كتابة ، وخطابة ، وشعراً ، ونثراً) ، ولا يعتبر مجرد وسيلة للتسلية والمتعة ، وأداة لإرضاء النفس ، وإثارة شوارد الفكر ، ودافعاً إلى مخالفة القيم والمثل ، وإنما يتخذ أداة للإصلاح والتنمية ، والتقىّ والعفاف ، والحلم والصبر ، والتوجيه والإرشاد^(١) .

وألقى الأستاذ محمد قطب كلمة أعضاء الشرف ، فتحدّث بالتفصيل عن الانحرافات والمتهاتات التي وقع فيها المسلمون منذ عهد الاستعمار في

(١) راجع كتاب «نظرات في الأدب» لسماحة الشيخ الندوي ، طبع دار القلم دمشق ، ومقال له فيه : «دور محمد إقبال في توجيه الأدب والشعر» .

السياسة والاقتصاد ، والعقيدة ، والاجتماع ، والفكر؛ ووصف هذا الانحراف بالتيه الذي ضلَّ فيه المسلمون عن جادتهم ، واتبعوا مناهج متفرقة لا تتناسب مع التصور الإسلامي ، فلم تغنهم هذه المناهج والأفكار ، والحمد لله على أن المسلمين بدؤوا يعودون إلى المجرى الحقيقي ، ويعتّمهم الشعور بأن لجوءهم إلى المناهج والمذاهب الأخرى لم يكسبهم السعادة والنجاح ، وذكر بصفة خاصة أتباع الأدباء المسلمين لمذاهب الأدب الغربية ، فبلغ تقليدهم لأوروبية إلى حدّ أن أحد الأدباء كتب أدباً لا معقولياً ، لكيلا يقال: إنّ الأدب العربي لا يوجد فيه الأدب اللامعقول .

وأشاد الأستاذ محمد قطب بتأسيس رابطة الأدب الإسلامي ، التي تقوم بتوجيه مسار الأدب ، وأبدى سروره بالالتقاء بهذه النخبة الطيبة من الكتّاب والأدباء والشعراء الإسلاميين .

وعقدت جلسة مجلس الأمناء لرابطة الأدب الإسلامي العالميين ، في قاعة فندق سلطان في ٢٠ - ٢١/أغسطس ، ثم عقدت جلسة الهيئة العامة لرابطة الأدب الإسلامي في الفترة ما بين ٢٢ - ٢٥/أغسطس ، ثم عقدت الجلسة الثانية لمجلس الأمناء في ٢٦ - ٢٧/أغسطس ، وشارك العزيز محمد الرابع الحسيني الندوي في هذه الجلسات كلها بالمدامومة ، وكنت أتمتع خلال هذه الفترات بصحبة الزميل الأستاذ محمد ناظم الندوي ، وكان يأتي إلى غرفتي ، ويقضي معي ساعتين أو ثلاث ساعات ، ونسترسل في الكلام ، ونستعرض ذكريات ، وكانت هذه المجالس وُدّية وعلمية وأدبية .

لقد قضينا أربع عشرة سنة (من ١٩٣٤ إلى ١٩٤٨ م) معاً عندما كنّا من أعضاء هيئة التدريس في ندوة العلماء ، وقضى الأستاذ محمد ناظم خلال هذه المدة فترة قصيرة كعميد لهذه الدار ، وانضمّ أيضاً إلى هيئة التدريس في الجامعة الإسلامية بداهيل ، في ولاية غجرات ، لمدة قصيرة .

فكنّا كلّما جلسنا انفتحت أوراق ذلك الكتاب الذي يضمّ الذكريات التي تمتدّ إلى أربع عشرة سنة ، وتتجدّد ذكريات ذلك العهد الذي قضيناه معاً ،

نتبادل فيه وجهات النظر ، وتبادل الموضوعات العلمية والأدبية والسياسية بالحديث والبحث ، ونتحدث حول الحركات القومية ، والحركات الدعوية والإصلاحية ، والاتجاهات الحديثة في العالم الإسلامي ، ونُبدي فيها آراءنا ، ونتغنى بأبيات الدكتور محمد إقبال ، ونشرحها ، ونتمتع بها ، ونعلّق على الأدباء والكتّاب العرب ، ونتناول مؤلفاتهم بالبحث والنقد .

وبعدما انتهينا من أعمال الجلسات المختلفة لهذا المؤتمر ، عقدت أمسية شعرية ، حسب العادة المتبعة المؤتمر رابطة الأدب الإسلامي بقرب بحيرة في غابة بلغراد ، التي كان جوّها جميلاً هادئاً ، ومنظرها بهيجاً رائعاً ، أنشد فيها عدد من الشعراء قصائدهم حول الموضوعات الإسلامية ، كان في مقدّمهم الدكتور محمد التهامي ، والدكتور جابر قميحة ، والدكتور عبد الرحمن صالح العشماوي ، وشاعر طيبة الشيخ ضياء الدين الصّابوني ، والأستاذ علي نار ، وآخرون ، وحضرت أنا هذه الأمسية الشعرية واستمعتُ إلى القصائد ، وأبدت ارتياحي وسروري بهذا المجلس الكريم ، وختم المجلس بالدعاء .

ثم ألقيت كلمتي في الجلسة الختامية للمؤتمر ، وقلت فيها : «إنّ من معجزات الإسلام الباهرة ، ومن دلائل عالميّة اللغة العربية الكبرى ، أن يُعقد مؤتمر رابطة الأدب الإسلامي العالمية ، الذي يدور حول موضوع دراسة الأدب العربي في مدينة ليست اللغة العربية فيها لغة النطق والتفاهم ، ويرأسه رجل وُلد في الهند ونشأ بها ودرس ، وينطق باللغة الأردية» .

وانتهزت هذه الفرصة ، وقلت : إنه ينبغي أن يقدم أعضاء هذه الرابطة ، والمشاركون في هذه الندوة العالمية نماذج علمية للسيرة الإسلامية المثالية ، تجذب القلوب ، وتلفت الأنظار ، وتدعو إلى دراسة الإسلام ، وتُفند الأباطيل التي تشاع حوله ، بالإضافة إلى ما يقومون به من أعمال أدبية ، وما يقدمونه من إنجازات لغوية إسلامية ، (كتابة وخطابة) .

أتاحت لنا فرصة خلال هذه الفترة التي دامت ثمانية أيام لزيارة المنطقة الشرقية المتصلة بإستانبول مرتين ، أولاً تلبيةً لدعوة أحد أصدقائنا الأعزّاء ، ومترجم مؤلفاتي إلى اللغة التركية ، الأستاذ يوسف قره جه ، (الذي تعلّم اللغة الأردنية وأتقنها خلال فترة دراسته في ندوة العلماء لكهنؤ ، وقد نقل فعلاً أكثر من عشرة كتب لي) ، وتعشّينا في منزله ، ثم عدنا إلى المنطقة الأوروبية بعد العشاء. وفي المرة الثانية ذهبنا إلى منطقة تقع بجانب بوسفور ، حيث يقع منزل الأستاذ حسن كامل إيلماز ، وتعرف هذه المنطقة بـ «واي كوي». وكانت هذه الرحلة بصحبة أحد أقدم أصدقائنا الشيخ أمين سراج ، الذي تعرفنا عليه خلال فترة إقامتي بمصر عام ١٩٥١ م ، ودامت هذه المعرفة وتوثقت بمرّ الأيام ، وصلّينا المغرب في هذا المكان الجميل المطلّ على البحر ، وكان المنظر جميلاً ، وكانت السفن البحرية تمر أمامنا بل تحتنا ، لأنّ المنزل كان على تلّ مرتفع ، تحيط به حدائق جميلة ، وكان الجوّ هادئاً رزينا ، ثم تعشّينا ، وكان في الضيوف أربعة عشر تركيا ، والشيخ محمد ناظم الندوي ، والمرافقون لي في هذه الرحلة ، ثم عدنا إلى المنطقة الأوروبية لإستانبول ، في فندق سلطان .

كان من أهم البرامج وأنفعها ، والذي يعتبر فرصة نادرة ، وحصيلة السفر إلى تركيا ، الاجتماع العام الذين انعقد في قاعة في وسط إستانبول ، أُلقيت فيه محاضرة دعوية خالصة ، وقد ألهمني الله ووفقني ، فتدفّقت في ذهني المعاني ، ويمكن أن توصف هذه الخطبة بأنها ملهمة من الله .

افتتحت حديثي بالآية القرآنية: ﴿... وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣] ، وقلت: إنني كلما أقرأ هذه الآية ينتقل ذهني إلى الشعب التركي المسلم ، وأستحضر كأنّ الله سبحانه وتعالى يخاطب الجيل الجديد من الأتراك ، ويقول: إن ما كنتم تملكونه من الثروة الإيمانية ، وما تظاهر به آبائكم وأجدادكم من الحميّة الدينية ، وما قدّموه من التضحيات الجسيمة للدفاع عن الإسلام ، وما بذلوه من جهود جبّارة للحفاظ على المقدسات الإسلامية ، كالحرمين الشريفين والقدس

الشريف ، وما أوقعه من رُعب وهيبة في نفوس أعداء الإسلام في أوربة ، فلا تذهب سُدى هذه الأمجاد والمآثر ، والبطولات والتضحيات ، ولا يحرم هذا الجيل الجديد ، أبناء هؤلاء المناضلين والمجاهدين عن الإسلام ، لأن الله بالناس لرؤوف رحيم .

وإذا قال أحد: إنه مضى على انقراض الدولة العثمانية وزوال معالم الإسلام في هذه البلاد وتمزق الوحدة الإسلامية ، وانقطاع صلة الشعب التركي عن ماضيه حضارياً وثقافياً ، وحال بينه وبين عهد الإسلام فترة طويلة لا تقلُّ عن مئة سنة ، فكيف يمكن في هذه الظروف أن يعاد ذلك العهد ، وإلى متى تراعى تلك الأمجاد والبطولات ، التي لم يرتبط بها الشعب التركي الآن إلا عنصرياً وتاريخياً ، فردّ الله سبحانه وتعالى على ذلك بحكاية قصة موسى وخضر عليهما السلام ، في سورة الكهف فقال :

﴿ فَأَنْطَلَقًا حَتَّىٰ إِذَا آتَيْنَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَفْعَمَ أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَأَقَامَهُ... ﴾ [الكهف: ٧٧].

فأقبل خضر عليه السلام على هذا الجدار ، وجعل يشيده ويحكمه ، رغم ما واجهه من معاملة قاسية جافية منكرة من أهل هذه القرية ، فأعرب سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام عن استعجابه ، وقال له : كيف اعتنيت بهذا الجدار الذي كان يملكه رجال لم يضيفوك ، ولم لم تتخذ عليه أجراً نسدُ به حاجتنا أو نشترى به طعاماً؟ فأجاب خضر عليه السلام على ذلك وبيّن سبب إقباله على بنائه فقال : ﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي... ﴾ [الكهف: ٨٢].

فإذا سقط هذا الجدار يبرز ذلك الكنز الخفي ويطلُّ عليه الناس ، ويأخذونه بالباطل ، ولا يجد الغلامان اليتيمان شيئاً منه ، فأراد الله تعالى أن لا يحرمهما من هذا الكنز ، الذي وضعه أبوهما تحت الجدار ، وذلك لأنَّ أباهما كان صالحاً .

فحكى الله سبحانه وتعالى هذه القصة ، ولم يحكها للتسلية ،

ولا قيمتها التاريخية ، ولا لمكانتها الروائية ، وإنما حكاها لنا لأنها تدل على التعاليم الإلهية ، والسيرة النبوية ، ومعرفة فضل الإنسان وإحسانه ، ولو كان هذا الفضل والإحسان يرجع زمنه إلى تاريخ قديم .

فإذا اعتنى الله سبحانه وتعالى بهذا الجدار من أجل رجل صالح ، فكيف لا يعتني بالشعب التركي الذي لم يكن أب من آباءه ، بل مئات وآلاف من الآباء كانوا أصحاب غيرة إيمانية ، وحماسة إسلامية وشجاعة نادرة ، وكانوا حُماةً للخلافة الإسلامية التي ورثوها عن بني العباس كبراً عن كابر ، وحملة راية الإسلام إلى قرون طويلة ، وقاموا بصيانة عزّ المسلمين وكرامتهم ، والحفاظ على مُقدّساتهم ، وكانوا يملكون صلاحية للقيادة البشرية ، وإسعاف الإنسانية البائسة المنكوبة .

فقصّ الله سبحانه وتعالى قصة موسى وخضر عليهما السلام هذه ، لكيلا نياس من رحمة الله ، ولا نقطن إعادة المجد الغابر ، والعقيدة الماضية ، والقيَم والموازن ، والمثُل والأقدار التي كانت تسود هذه البلاد قبل قرون ، وأوضح بحكاية هذه القصة أنّ الأعمال الصالحة التي قام بها الآباء والأجداد في عهودهم لا تذهب سُدىً ، بل ينتفع بها أولادهم وأحفادهم ، وهذا أمر لا يبعث على الدهشة والاستعجاب .

ثم قلت : إنه إذا سأل أحد أنه كيف تخضّر شجرة الإسلام التي ذبلت وذوّت؟ ، وكيف تقوى هذه الصلة التي تُنسج لها مؤامرات دقيقة متتالية ، وتعاني من هجوم عنيف مستمر . . . فقصّ الله سبحانه وتعالى للردّ على ذلك قصة أخرى ، وهي قصة عزيز عليه السلام ، فقال :

﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْبَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى جَمْرِكَ وَانْجَعَلَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة : ٢٥٩] .

فإذا كان اللحم لا يتسنّى ، وأعاد الله تعالى إلى الحياة واللذة ، وأعاد

هذا الحمار إلى الحياة ، فكيف لا يعيد الإسلام إلى الحياة ، هل قيمة الإسلام عند الله أقلُّ من الزاد الذي كان يحمله هذا النبي ، ومن الحمار الذي يركبه؟! أبداً ، إن الإسلام هو الدين الأخير الخالد ، تتوقَّف عليه سعادة البشرية ، ومستقبل الجيل الجديد ، ولا يستقيم أمر العالم إلا به .

يستفاد من هذه القصة أيضاً أنه لا ينبغي أن ييأس المسلم من عودة الحياة إلى أمة أو دين ، مهما تكاثفت المؤامرات ، وتفاقت الأحداث ، ومرّ الزمن ، وبعُد عهد المجد ، إن الله يحيي الأرض بعد موتها ، فلا يحرم أبناء الأمة التركية المسلمة الباسلة - التي تحمل تاريخاً حافلاً بالأمجاد والبطولات ، وتتميّز بالعاطفة الدينية والحمية الإسلامية - من الإيمان ، ومن إتاحة الفرص لخدمة الإسلام ، ففي هذه الآيات القرآنية درس لنا وعبرة وراحة وطمأنينة .

ثم قلت: لكن هذا الأمر يحتاج إلى جهود طبقاً للقانون الإلهي والتعليمات الإسلامية ، فيجب عليكم أن تغاروا على الإسلام ، وتعتنوا بالتعاليم الإسلامية ، وتنشئوا في بيوتكم جوّاً دينياً ، وعقائدياً وعملياً ، وخلقياً ، يسود هذه البيوت؛ وتُعلِّموا أولادكم العقيدة الإسلامية ، وتلقنوهم السيرة النبوية ، وسير الصحابة ، وتؤسسوا مدارس وكتاتيب دينية حرة ، وتدخلوا فيها موادّ دينية ، وتحكوا لهم حكايات الأتقياء والصالحين والمجاهدين والمناضلين .

وذكرت في هذا الصدد الجهود التي يبذلها المسلمون في الهند لتربية أبنائهم تربية دينية ، والخطوات التي يتخذونها لصيانتهم من الاندماج في الشعب الهندوكي ، ثقافياً وحضارياً ولغوياً .

وذكرت أيضاً بهذه المناسبة علاقة الشعب الهندي المسلم بالخلافة العثمانية ، وتحمُّسهم لها ، وأنشدت البيت الذي كان يُنشَد في الأسواق ، وفي المناسبات العائلية ، والحفلات الدينية ، وكان أشهر عندها من

«فَإِنْبِكِ» ، وهو بيت الشاعر على لسان أم الزعيم محمد علي^(١) ،
يقول:

«أيها الابن العزيز كن فداءً بنفسك وروحك لحماية الخلافة العثمانية».

وذكرت أنّ الحركة التي هبّت في الهند ، وكانت كعاصفة هوجاء لحماية
الخلافة العثمانية ، كان لها فضل كبير في الهند حتى في حركة تحرير
البلاد ، وفي طرد الإنجليز ، والقضاء على الحكم الأجنبي ، في شبه القارة
الهندية .

وأشدت أيضاً بهذه المناسبة بيتاً للعلامة شبلي النعماني^(٢) ، الذي زار
تركية ، وأكرمه السلطان عبد الحميد خان بمنح جائزة ، وذلك لما ابتليت
الخلافة هناك ، فنظم قصيدة ، وجاء إلى لكهنؤ ، وقام يُنشد هذه القصيدة
التي من أبياتها:

«إنّ انقراض الخلافة العثمانية ، انقراض مجد الأمة وشرفها ، فيا أبنائي
وأعزائي! إلى متى تفكرون في عائلاتكم وأسركم وفيما يخصكم ويخص
عائلاتكم ، اعتنوا بحماية الخلافة العثمانية أكثر من اهتمامكم بأولادكم
وصحتكم وحياتكم وشرفكم».

وكان ٢٦/أغسطس يوم الجمعة ، فأدّينا صلاة الجمعة في جامع
السلطان سليمان القانوني ، وهو من أكبر المساجد في تركيا كما يُعتَقَد ،

(١) هو زعيم المسلمين المشهور محمد علي جوهر قد مضت ترجمته .

(٢) من كبار علماء الهند ، ومن رجال الإصلاح الإسلامي فيها ، ولد في قرية «بندول» من
أعمال «أعظم كره» وتعلّم في «رامبور» و«لاهور» و«سهارنפור» ، وحج فأنصل
بكتيرين من رجال العلم . وانتدبه مؤسس جامعة عليكره الإسلامية لتدريس العلوم
العربية ، فكان عوناً له على النهوض بالجامعة ، وشارك في إنشاء دار العلوم التابعة
لندوة العلماء بلكهنؤ وأنشأ «دار المصنفين» في بلدته (أعظم كره) قبيل وفاته ،
فأصدرت مئات من الكتب ، وكان وثيق الصلة بالعالم الإسلامي ونهضاته السياسية
والاجتماعية ، له كتب جليلة بالأردوية ، وبعضها بالعربية ، ومنها «انتقاد تاريخ
التمدن الإسلامي لجرجي زيدان» و«الجزية» توفي سنة ١٣٣٢ هـ .

وكان يسوده جوّ هادىء رزين مثل ما كان يسود جامع السلطان محمد الفاتح .

وسعدنا كذلك بزيارة قبر سيدنا أبي أيّوب الأنصاري ، الذي كان يقع على طرف من ثغر قسطنطينية الحاضرة ، وقرأت الفاتحة على قبره ، وعلى لسان العلامة شبلي النعماني ، على قبر مضيف العالم .



خمسة أيام في لندن

غادرت إلى لندن في ٢٨/ أغسطس ، للمشاركة في الجلسة الإدارية لمركز أوكسفورد للدراسات الإسلامية ، وتوجه العزيز محمد واضح رشيد الندوي والعزيز سعيد الأعظمي الندوي ، والعزيز ضياء الحسن الندوي إلى الحجاز لأداء العمرة والزيارة ، وكان قد تقرّر أن يعودوا من الحجاز إلى الهند مباشرة ، وكنْتُ قد غادرتُ إستانبول إلى لندن وقت الظهر ، لكن وصلت إلى مطار لندن قبل العصر ، وذلك لأنَّ السفر كان من الشرق إلى الغرب ، فكان في المطار لاستقبالنا المؤرخ الشهير البروفيسور خليق أحمد النظامي ، والعزيز الدكتور فرحان أحمد النظامي ، والعزيزان مسرور أحمد ومحمد أكرم الندوي ، وتوجَّهت مع العزيز الدكتور فرحان أحمد النظامي إلى أوكسفورد التي تقع على بُعد خمسين ميلاً من لندن .

وأقمنا في أوكسفورد بمنزل العزيز الدكتور فرحان أحمد النظامي ، حيث كان يقيم أبوه البروفيسور خليق أحمد النظامي من قبل ، وكان من المُقرَّر أن تُعقد الجلسة الإدارية لمركز أوكسفورد للدراسات الإسلامية في ١ - ٢ سبتمبر ، فقضينا ثلاثة أيام في منزل العزيز فرحان أحمد النظامي ، تمتعنا خلالها بصحبة البروفيسور خليق أحمد النظامي ، واستفدت منه كثيراً ، ووجدته معجباً بالجزء الخامس لكتابي رجال الفكر والدعوة ، الذي يختصُّ بحياة وليّ الله الدهلوي ، وكان لا يخلو مجلس من ذكره لهذا الكتاب ، وإعجابه به ، وهو يعتبر هذا الكتاب مصدراً موثقاً به لهذا الموضوع .

وسنحت لي وللعزيز محمد الرابع الحسيني الندوي فرصة لمُشاهدة

نشاطات المركز ، وأعماله وإنجازاته خلال هذين اليومين ، وسُررتُ كثيراً بالتعرُّف على هذه النشاطات العلمية ، فكانت تجري هناك أعمال إعداد خريطة تاريخية ثقافية للعالم الإسلامي ، بالإضافة إلى تدوين كتاب يشتمل على اثني عشر جزءاً حول موضوع تاريخ الإسلام ، على مستوى عالٍ ، وكان قد وُزِعَ هذا العمل على خُبراء التاريخ الإسلامي ، وكذلك قد بدأت أعمال إعداد قائمة للمخطوطات الإسلامية النادرة التي توجد في مكتبة هذا المركز .

سررت جداً لما علمت أن كتاب نزهة الخواطر «الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام» ، لوالدي السيد عبد الحي الحسيني رحمه الله ، قد نقل إلى الحاسوب (الكمبيوتر) ، ويسهل الآن معرفة أي مكان أو ترجمة عن طريق الحاسوب ، وهناك مشروع لنقل الكتاب إلى الإنجليزية .

انعقدت الجلسة الإدارية للمركز في ١ - ٢ / سبتمبر ، وشارك فيها معالي الدكتور عبد الله عمر نصيف (الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي سابقاً ، ونائب رئيس مجلس الشورى في المملكة العربية السعودية حالياً) ، والباحث الإسلامي الكبير الدكتور يوسف القرضاوي ، عميد كلية الشريعة بجامعة قطر ، ومعالي الشيخ عبد العزيز وزير التعليم في دولة بروناي كممثل لبلاده ، وعضو للمركز .

إنني رحّبت بالمشاركين في هذه الجلسة بالعربية أولاً ، وشكرت الله سبحانه وتعالى أنه منحني هذه الفرصة للحضور في هذه الجلسة وللتحدّث فيها ، ثم فوّضت مسؤوليتي الرياسية إلى الدكتور عبد الله عمر نصيف بالإنجليزية ، لإدارة هذه الجلسة ، لأن أعمالها تجري باللغة الإنجليزية ، فهو يقدر عليها ، ويتقنها أكثر مني .

وكان مشروع إنشاء معهد علمي تذكاري ، على مقربة من قبر الإمام البخاري رحمه الله تعالى في أذربكستان تحت الدراسة منذ أمد بعيد ، فتقرر أن تُوجَّه الدعوة إلى العلماء والكتّاب الذي يتمكّنون من إلقاء الضوء على مآثر الإمام البخاري العلمية ، ومكانته ، وخدماته في فن الحديث ، وعُيِّن

لعقد هذا المؤتمر الأسبوع الأخير لشهر أكتوبر ، وقد تمّ التوصل إلى معاهدة بين رئيس جمهورية أوزبكستان وبين المسؤولين عن المركز ، تنفذها حكومة أوزبكستان .

انتهت هذه الجلسة التي كانت عُقدت في ٢/ سبتمبر ، في فندق ريندلف (Randolf Hotel) ، وتغدينا في الفندق نفسه ، وودّعنا جميع الضيوف .

وفي مساء ٢/ سبتمبر جاء العزيز عطاء الله بسيارته ، وانتقلنا بها من أوكسفورد إلى منزل العزيز مسرور في لندن ، وأدينا صلاة الجمعة في اليوم التالي في مسجد كبير كان تحت البناء (North London Mosque) ، وألقيتُ كلمة في هذا المسجد قبل صلاة الجمعة ، وعدنا إلى مقرنا بعد الصلاة مباشرة ، ومكثنا برهة ، وصلينا ، وتوجّهنا إلى نيويورك قبل غروب الشمس ، وكان قد هيأ العزيز محمد عثمان المهندس التسهيلات اللازمة ، وحجز المقاعد الأمامية للدرجة الأولى في الطائرة ، ووصلنا إلى نيويورك بعد العشاء ، على الرغم من أنّ السفر استغرق سبع ساعات ، والتقىنا هنا بأبناء أستاذي عبد السمیع الثلاثة ، وهم الدكتور أحمد مطيع الصديقي ، والأستاذ فصیح أحمد الصديقي ، والدكتور رضا أحمد الصديقي ، وابن الشيخ هداية حسين المسؤول عن القسم المالي في ندوة العلماء : الأستاذ ساجد حسين ، وابن الصحفي الكبير الشيخ أمين سلونوي : الدكتور عرفان أمين ، وغيرهم من الأصدقاء والزملاء الهنود؛ وبتنا الليلة في منزل العزيز محمد عثمان الذي يقع في (Hangs Land) ، وغادرنا إلى شيكاغو في ٤/ سبتمبر في اليوم التالي .

في شيكاغو

إنَّ مدينة شيكاغو هي أكبر مدينة من مدن أمريكا ، أو المدينة الثانية الكبرى لها ، باعتبار سُكَّانها ومساحة أرضها ، وشموخ مبانيها ، ويبلغ عدد المسلمين فيها مئتين وخمسين ألفاً؛ وعندما زرت أمريكا في عام ١٩٧٧ م ، بناءً على دعوة من اتحاد الطلبة المسلمين ، وللعملية الجراحية في العين ، وامتدَّت الإقامة إلى شهرين ، زرتُ شيكاغو ثلاث مرات ، وفي المرة الثالثة كنت ضيفاً على السيد عظمة الله القادري الحيدرآبادي ، المهندس المدني في شيكاغو ، واستغرقت هذه الزيارة عشرة أيام ، وفي هذه المرة أيضاً عندما علم بنيتي لزيارة أمريكا ، اتَّصل بي هاتفياً ، وأصرَّ على أن أقيم بمنزله ، ثمَّ سأل العزيز محمد الرابع الندوي عن نظامي ، ووظائفي اليومية ، وما أرغب فيه من أنواع الطعام ، وما لا أستطيع أن أتناوله للظروف الصحيَّة ، ونظراً لاهتمامه بهذا الموضوع ، وحرصه الشديد على الاستضافة قرَّرتُ الإقامة بمنزله في شيكاغو .

كان من المقرر أن تغادر الطائرة نيويورك إلى شيكاغو ، في الساعة السابعة أو الثامنة صباحاً ، ولكن فوجئت بإلغاء الرحلة ، فاخترت مطاراً آخر في نيويورك للسفر إلى شيكاغو برحلة أخرى ، وكان يلزم أن أخبر المستقبلين في مطار شيكاغو بتغيير الرحلة ، ولكن لم يتيسَّر لي ذلك لظروف خاصة ، فأخبر الأستاذ محمد عثمان المهندس هاتفياً خلال الطيران من الطائرة نفسها ، وعلمت لأول مرة هذا النظام الجديد ، وهو الاتِّصال هاتفياً من الطائرة أثناء الطيران .

وصلنا إلى شيكاغو في الساعة التاسعة أو العاشرة ، وكان على المطار

الدكتور أحمد عبد الحيّ وشقيقه حامد عبد الحيّ ، والسيد عظمة الله القادري ، وكان ذلك اليوم الرابع من سبتمبر ، وهو آخر يوم لمؤتمر الأديان ، ولم يكن بالإمكان أن أشارك في الجلسة الختامية ، إلا أنني علمت أن مقالتي التي أرسلت مكتوبة على الآلة الكاتبة بالإنجليزية ، وكان عنوانها: «مَنَ رسول الإسلام ودينه الذي أتى به على الإنسانية ، ومآثر عهده والثورات الحادثة به» قد وُزعت على المشتركين ، ونشر القسط الأول لهذا المقال في العدد الأخير في المجلة الإسلامية الصادرة من شيكاغو (Muslim Journal).

ولعدم تمكّني من الاشتراك في الجلسات الأولى للمؤتمر ، وإلقاء الكلمة فيها ، رغب الأخ الفاضل الدكتور أحمد عبد الحيّ وأصحابه الذين كانوا يُمثلون المسلمين ، في أن أشارك في الجلسة الختامية الخاصة بالكلمات الوداعية ، والدعاء ، وأن أتحدّث في الكلمة الختامية للدعاء عن الإسلام والدعوة الإسلامية مع المسؤولين عن المؤتمر وأقنعهم بذلك ، فأدرج ذلك البرنامج في جدول الأعمال .

ولكنني كنت في تردّد شديد ، في مسألة إلقاء الكلمة والدعاء في الجلسة الأخيرة ، لأنني كنت أخشى أن أسمع وأشاهد في هذه الجلسة ما لا يرضى به ضميري ولا ذوقي ، ثم إنني كنت أخشى أن بعض كبار قادة الأديان الأخرى «كدلّائي لاما» سيقودون جلسة الدعاء .

ولكن إصرار الأُحبة ، وقولهم بأنّ هذا السفر من أجل الاشتراك في المؤتمر ، والناس يتوقعون ذلك ، وأنهم تحملوا مصاريف السفر ، فإن لم أشارك في هذا المؤتمر كُلياً ، فإنه يُثير تساؤلات في النفوس فقبلتُ الدعوة مكرهاً .

ووصلت بعد العصر إلى محل انعقاد المؤتمر الذي كان يبعد عن محل إقامتي مع رفيقي ، فلما وصلت رأيت أن الناس يذكرون جهرياً ، ويُسبّحون بلغة غير مفهومة ، ولم أكن على ثقة بأنهم يسبحون لله ، أو لأيّ إله آخر ، وشاهدت من بعيد أن عدد النساء أكثر من عدد الرجال ، فاستوحشتُ

كثيراً ، وشعرت بالاشمئزاز بهذا المنظر ، وخشيتُ أن أشاهد ما هو أنكرُ من هذا ، وأسمع ما هو أسوأ مما أسمع .

وكان الدكتور أحمد عبد الحي قد أخبر المسؤولين عن قدومي المنصة ، ووافق المسؤولون على دعائي وكلمتي الختامية ، وتقدم قسيس مسيحي كبير لاستقبالي ، ولكن أبت نفسي ، ولم ترضَ بالاشتراك بأي حال من الأحوال ، وأردت أن أخبر الدكتور أحمد عبد الحي بذلك ، ولكن لم أستطع الوصول إليه ، وكان من الصعب الحصول على سيارة تكسي في ذلك المحل ، ولكن من حسن الحظ هياً الله لي سيارة ، كان سائقها شاباً أردنياً مسلماً ، فأخذنا التاكسي ووصلنا إلى مقرنا .

وكنت أخشى أن الدكتور أحمد عبد الحي ربما يشعر بخيبة أمل ، أو ينكر هذا الموقف مني ، فقلت للعزيز محمد الرابع الندوي في الصباح أن يقيم اتصالاً بالدكتور أحمد عبد الحي ، ويعرف ما هو شعوره ، فأتصل به هاتفياً ، وجعل يتحدثُ معه ، فأخذت السماعه منه ، وتكلمت معه مباشرة للاعتذار ، ولكن فاجأني بقوله : إن عدم الاشتراك كان أفضل ، وأن هذا القرار كان ملهماً ، ومن توفيق الله تعالى ، فإن الجلسة كانت اشتملت على برامج الرقص والغناء أيضاً ، فلو كنا حاضرين في الجلسة لكان من بواعث العار والخزي لي ، وشكرت الله على ذلك ، وقلت : «ولكن الله سلم» .

وعلمت من معارفي ومن الشواهد الأخرى خلال إقامتي بشيكاغو التي دامت ثلاثة أيام ، أن هذا المؤتمر العالمي للأديان ، كان بمثابة مطارحة شعرية ، ينشد فيها كل شاعر قصيدة في مدح ديانته ، ولم يكن هناك أي حرص أو رغبة في البحث عن طريق الحق ، ولا عزيمة أو إرادة لمكافحة الفساد والاضطراب ، والمادية الطاغية ، واتباع هوى النفس ، ولم أعرف من تحدثت من المسلمين ، وماذا كان أثره على المستمعين ، وعلى أساس هذه المعلومات والتقديرات لم يؤسفني عدم الاشتراك في هذا المؤتمر كثيراً .

في الخامس من سبتمبر كان من المقرر عقد اجتماع إسلامي باسم دولة

الأمة ، في قاعة كلية «مالكم ايكس» ، فاشتركت في هذا المؤتمر وقرأت مقالتي التي كانت حول مساوئ الحضارة الغربية ، ونقدها وإظهار اليأس منها ، واعتُبر هذا المقال ، وفرصة التعبير عن تصوراتي في هذا المؤتمر: حصيلة رحلة شيكاغو^(١) .

انعقد في اليوم نفسه قبل المغرب اجتماع في القاعة نفسها ، وكانت القاعة الواسعة مُكْتَظَّة ، وكان عليّ أن أُرأس الاجتماع ، وقام الشيخ عبد الله سليم بتعريفني ، وتقديمي ، وكان الدكتور أحمد عبد الحى مقرر الاجتماع ، فقرأت في هذا الاجتماع مقالي الطويل بالأردية ، لأن معظم المستمعين كانوا من الهند وباكستان . وكان عنوانه: «رسالة هامة إلى المقيمين في ديار الغرب من الشباب المسلمين»^(٢) ، وذكرت في المقال كيف يمكنهم أن يستفيدوا من الإقامة في أوروبا وأمريكا ، وكيف يمكنهم أن يُفيدوا ، وكيف يمكنهم أن يمثلوا الإسلام تمثيلاً صادقاً ، ويحدثوا في المواطنين - بسلوكهم وتعاملهم وأقوالهم ، ومنهج حياتهم - الشعور بالخطر المحدق بهم ، الذي يترتب عليهم ، من الحضارة الغربية ، والذي يعمّ في المجتمع الأوروبي ، وسمع الجميع هذا المقال باهتمام ورغبة .

توجهت إلى مركز التبليغ في السادس من سبتمبر ، حيث تقع دار تحفيظ القرآن ، وألقيت كلمة مناسبة للوضع والحال .

التقيت خلال إقامتي بشيكاغو ببعض المُحَبِّين والأصدقاء ، والأساتذة القدامى ، الذين حضروا للاشتراك في المؤتمر ، كان في مقدمتهم الدكتور السيد سلمان الندوي ، والدكتور مُزمل حسين الصديقي الندوي الذي

(١) كان هذا المقال مهماً وقوياً ، كان أعد سماحة الشيخ الندوي لإلقائه في المركز الإسلامي بأكسفورد عام ١٩٨٣ م أمام نخبة من رجال العلم والتعليم بعنوان: «الإسلام والغرب» وُقِرَّت ترجمة المقال بالإنجليزية في قاعة الامتحانات لجامعة أكسفورد في ٢٢/ يوليو .

(٢) انظر هذا المقال بكامله في «مقالات إسلامية في الفكر والدعوة» للعلامة أبي الحسن علي الحسنی الندوي .

يشتغل بالدعوة والتعليم في كاليفورنيا ، والدكتور أسرار أحمد خان ، قائد حركة إسلامية معروفة في باكستان ، وأُتيحت لي فرصة تبادل وجهات النظر معهم ، إضافة إلى الدكتور إسماعيل مرجنت ، الذي كان من أقرب المسترشدين والثقات للشيخ محمد زكريا الكاندهلوي ، وكان يمارس مهنة الطب منذ مدة طويلة في المدينة المنورة ، وقد أنشأ مدرسة في بوفالو (Boffalo) ، ويشرف عليها الآن ، وله صلة دائمة بي ، وقد وصل إلى شيكاغو عندما علم بقدومي ، وأقام معي في منزل السيد القادري .

* * *

في نيويورك

كان يلزم أن نتوجّه من شيكاغو إلى نيويورك مرة ثانية ، ثم نتوجه إلى الحجاز ، وكنا لم نقض هناك إلا ليلة واحدة ، وكانت مركزية هذه المدينة ، ومطالبة المحبين والأصدقاء الملحة فيها تقتضي أن أمدد إقامتي بها ، وقد كان الأخ الكريم محمد عثمان الذي رافقني في هذه الرحلة ، وهياً لي كل وسائل الراحة ، يحرص على أن أقضي بعض الوقت في منزله بنيويورك .

فتوجهنا إلى نيويورك في ٦/ سبتمبر وقت العصر ، ووصلنا إليها في الساعة التاسعة ليلاً ، وتعثّينا في منزل الأخ الكريم محمد عثمان ، الذي يقع في منطقة «آئي ليند» (aong Island) في ضاحية من ضواحي مدينة نيويورك ، وبتنا الليلة هناك ، وتغذّينا في اليوم التالي في منزل الدكتور أحمد مطيع الصديقي ابن الأستاذ محمد سميع الصديقي (أستاذ اللغة الإنجليزية في ندوة العلماء سابقاً) ، مع أشقائه وعدد من الأصدقاء والمحبتين ، واسترحنا قليلاً في منزله .

ألقيت كلمة في اجتماع عام عُقد في مسجد يُعرف بمسجد «مكي» في نيويورك مساء ٧/ سبتمبر بعد صلاة المغرب ، وكان قد نظّم هذا الاجتماع السيد ساجد حسين . . دعوت فيها المسلمين الذين يقطنون في أمريكا إلى أن يمثلوا الإسلام في هذه البلاد تمثيلاً جديراً به ، ويقدموا نموذجاً كاملاً للإسلام ، من العقيدة ، والعمل ، والمدنية ، والحضارة ، والسلوك والتعامل ؛ وأشارت عليهم أن يقضوا في هذه البلاد حياة تميّزهم عن غيرهم ، وتلفت نظر المواطنين إلى الإسلام ، وتدفعهم إلى دراسة مصادره الأصلية من الكتاب والسنة ، وتسوقهم إلى الاعتراف بمزايا الدين الحنيف

وسماته الرئيسية ، وصلاحيته لقيادة البشرية ، وإسعافه للإنسانية المضطَّهدة والمكلومة ، وما يميّز به المسلمون من الصّدق ، والعفاف ، وصفاء القلب ، وطهارة البدن ، وإنجاز الوعد ، وغضّ البصر ، والعدل والمساواة ، والرحمة والرقّة ، حتى ينكشف الغطاء عن وجه الإسلام اللّامع ، ويبتدر الناس إلى اعتناقه .

وتعشّينا في منزل الأستاذ ساجد حسين بعدما انتهت هذه الحفلة ، ووجدتُ في منزله معظم مؤلفاتي بالأردية والإنجليزية ، وعلمت أن هذه الكتب تنتقل من يد إلى يد وتطالع .

قضيت اليوم الثامن من شهر سبتمبر في نيويورك ثم غادرت إلى جدة ، وعلمنا أنه ليس هناك خطر مباشر من نيويورك إلى جدة ، فلا بد من التعرّيج على جنيف ، حيث نقضي أربع ساعات في المطار لتغيير الطائرة ، فخطر ببال العزيز محمد الرابع الندوي أن الدكتور سعيد رمضان يقطن في جنيف ، وكان من أقرب أصدقائي من العرب ، وكان يعد من كبار الدعاة والخطباء ، وكان صهر الشيخ حسن البنا (مؤسس حركة الإخوان المسلمين) ، وممثلاً كبيراً لحركته ، وداعياً متحمساً لها .

قام بإنشاء مركز إسلامي في جنيف ، لتربية الشباب الذين يقطنون في أوربة وأمريكا ، وتوجيههم في ضوء الكتاب والسنة ، وكان من أعضاء هذا المركز الشيخ أحمد الأنصاري من باكستان ، والكاتب الشهير الدكتور حميد الله من فرنسا ، وغيرهما من الكتّاب والدعاة ، والخبراء الإسلاميين ، وكان يصدر هذا المركز مجلة إسلامية ، كان اسمها «المسلمون» ، وكنت أيضاً من المساهمين فيها بالبحوث والمقالات ، وانقضت فترة طويلة دون أن نلتقي ، فرأيت من الواجب أن أخبره بقدمي إلى بلده ، فاتّصلتُ به على الهاتف ، ووصل إلى المطار قبل موعد هبوط الطائرة ، وكان معه ابنان له ، وقابلني بحفاوة بالغة وحماس كبير ، وبعواطف ودّية دعوية ، ورأيت بوادر الشيخوخة تلوح على وجهه ، ووجدت عينيه تنطقان بالكآبة التي يعاني منها ، والتجربة المريرة القاسية التي مرّ بها في حياته .

ومما يؤسف له أنه لا يستطيع أن يعود إلى مصر ، ولم تبقَ أيضاً علاقته بالسعودية ، رغم أنه كان من مؤسسي رابطة العالم الإسلامي ، ومن أهم أعضائها؛ ولم نتمكن من معرفة أعماله وأشغاله في هذا اللقاء القصير الذي يسوده الألم والحزن ، ولم يجرِ الحديثُ حول مركزه الإسلامي ، ونشاطاته وإنجازاته .

* * *

في الحجاز

كنت قَرَرْتُ في أمريكا وأوربة- نظراً لتدهور صحتي ، والبرد القارس الذي يقع في هذه المنطقة - أن أتوجّه أولاً إلى المدينة المنورة ، وألبس الإحرام هناك ، وأنوي للعمرة بدلاً من الإحرام في أوربة ، فأقلعت الطائرة بنا من مطار نيويورك وقت الظهر ، وهبطت على مطار جدّة وقت المغرب ، وآلمني ما رأيت في هذه الطائرة المتجهة إلى المدينة المنورة أن معظم ركّابها إما كانوا سائحين مسيحيين وإما كانوا عاملين في الحجاز من غير المسلمين ، وإما كانوا أناساً لا يبدو من أزيائهم ، وسلوكهم ، وتعاملهم ، وتكلّمهم ما هو دينهم وعقيدتهم ، وكان عدد النساء فيهم كثيراً ، وهُنَّ سافرات ، ولم أجد من بين ركّاب هذه الطائرة إلا ثلاثة أو أربعة رجال تشهد ملامح وجوههم ، وملابسهم وسلوكهم ، أنهم مسلمون ، وأنا أعتقد أنهم كانوا ينتمون إلى مصر .

وصلنا إلى مطار جدّة ، واستغرقت إجراءات جواز الدخول والتأشيرة وقتاً طويلاً ، فلما انتهينا من هذه الإجراءات ، خرجنا من المطار ، واستقبلنا مضيفنا القديم الذي يستضيفني دائماً خلال زيارتي لمدينة جدّة ، وهو الشيخ محمد نور عبد الغني نور ولي ، وأخوه محمد ولي عبد الله نور ولي ، وأبناؤهما البررة ، فركبنا السيارة وتوجهنا إلى منزله ، حيث أدينا صلاة المغرب والعشاء ، وتعشينا ونمنا ، وكان الشيخ محمد نور قد حجز التذاكر الثلاث لي وللعزيز محمد الرابع الندوي ، وللأخ الكريم حسن طارق العسكري ، للسفر إلى المدينة المنورة بالطائرة التي تقلع في الصباح .

وكان اليوم التالي يوم الجمعة ، فاغتسلنا وأحرمانا ثم غادرنا إلى المدينة

المنورة ، ووصلنا إليها في الساعة العاشرة ، وأدينا صلاة الجمعة في المسجد النبوي الشريف ، وكان قد خصَّ لنا الشيخ محمد نور طابقاً في المبنى الذي يقع على مقربة من المسجد النبوي في وسط السوق ، ويتكوّن هذا الطابق من ثلاث غرف مكيفة ، وحمّامين ، وتتوفر فيه تسهيلات أخرى ، وكان الأخ السيد حسن طارق العسكري (المهندس في قسم الهاتف) يأتي بالطعام لنا من منزله كعادته .

إن أكبر مشكلة أعاني منها خلال إقامتي بالمدينة المنورة هي أنني لا أستطيع أن أمشي على الأقدام بسبب ما أعانيه من مرض النقرس ، لكن الله سبحانه وتعالى قد سهّل لي هذا الأمر ، وحصل الأخ الكريم عبد الرشيد (أحد كبار المهندسين المدنيين الذي يشتغل الآن في أعمال توسعة المسجد النبوي) على رخصة المرور ليذهب بسيارته إلى باب السلام ، فكان يأتي هو نفسه أو سائقه إلى مقرّي ، ويوصلني إلى باب المسجد النبوي في سيارته .

من عادتي أن أوّدي صلاة المغرب والعشاء في المسجد النبوي الشريف ، وأصلي على النبي ﷺ ، وأسلم عليه ، ولا أتمكن من الحضور في الصلوات الأخرى في المسجد النبوي إلا في بعض الأحيان ، من أجل ما أعانيه من ضعف وعجز ، وصعوبة في المشي والجلوس طويلاً ، وحينما أحضر إلى المسجد النبوي تجري على لساني هذه الأبيات التي قالها الدكتور محمد إقبال ، وأنا أتغنّي بها :

بيا إلى هم نفس باهم بناليم من وتوكشته شان جماليم
دور حرفي بر مراد دل بكويم بيائي خواجه جشما را بماليم

كنت قررت بمناسبة زيارتي للمدينة المنورة أن لا أخرج من مقرّي إلاّ للذهاب إلى المسجد النبوي وذلك لسببين ، أولهما: أن الغيرة على هذه المدينة الطيبة ، ومكانتها كانت تمنعني من ذلك ، وثانيهما: أنني كنت عضواً للمجلس الاستشاري للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، وسنحت لي فرصة كثيرة لإلقاء المحاضرات في هذه المدينة المباركة ، ووفّقني الله تعالى للإقامة في هذه البلدة الحبيبة إقامة طويلة ، وتعرّفت خلالها على

أساتذة الجامعة ، وعلماء المدينة ، وأدبائها ودعاتها وأعيانها ، وقامت العلاقة بيني وبينهم وتوثقت بمرور الزمن ، فخشيت أنني إذا توجهت إلى أحد من الأصدقاء والمعارف ، ولم أتمكن من زيارة زميل آخر ، فسيشعر به ، ويشتكي منه ، فلذلك قررت أن لا أزور صديقاً ولا أذهب إلى بيت زميل .

ولم يعرف معارفي عادةً نبأ قدومي ، وكيف يمكن أن يعلموا؟ فإنني لم أشارك في حفلة ، ولم يُنشر خبر وصولي في صحيفة ، ولم نلتق بأحد من المسؤولين عن الحكومة ، ولم أدلِ ببيان صحفيّ تغطيه الصحف ، فلذلك لم يستطع بعض أخصّ زملائي الذين تقوم بيني وبينهم صلة قويّة أن يأتوا إليّ ، إلا فضيلة الشيخ صالح الحُصَيْن ، عضو رابطة العالم الإسلامي ، ومن أعيان المدينة المنورة ، ومن معارفي القدماء ، وهو يقدر مؤلفاتي ، ويقوم بطبعها ونشرها ، ويهتم بشؤون ندوة العلماء ، فقد علم بقدومي في الطائرة التي كان يسافر بها الأخ علي أحمد الندوي من الرياض إلى المدينة المنورة للقائي ، فجاء إليّ في اليوم الذي كنت أتأهب فيه للسفر إلى مكة المكرمة ، وقابلني بحفاوة بالغة ، وإخلاص تام ، والثاني الدكتور عبد الله زائد (نائب رئيس الجامعة سابقاً) ، الذي كان يمتاز بتيقظه ، وسعة نظره ، وسلامة فكره ، وكانت بيني وبينه صلة وثيقة قديمة ، وكان قد أتاح لي فرصة كبيرة لإلقاء المحاضرات في الجامعة الإسلامية ، فرآني في المسجد النبوي الشريف ، فأتى إلى مقرّي ، ولقيني ، وجلس معي طويلاً ، والثالث كان رجلاً متخصصاً في الحديث الشريف ، وكان هؤلاء الثلاثة بالإضافة إلى الأستاذ (ف عبد الرحيم) ، والأخ أجمل الإصلاحي الندوي ، اللذين كانا يأتيان إلى مقرّي كلّ يوم ، ويقضيان معي وقتاً طويلاً ، وتكون هذه المجالس ممتعة ومفيدة .

توجّهت إلى مكّة بنية العمرة في ١٣/ سبتمبر في يوم الإثنين مع الأخ الكريم محمد عثمان ، وكان معنا أيضاً الأخ طارق حسن العسكري ، وهو دائماً يساعدي في أمور الطواف والسعي ، والأمور الأخرى التي تتعلق بالعمرة ويهيئ التسهيلات اللازمة .

ونزلنا كالعادة في منزل الدكتور عبد الله عباس الندوي ، الذي يقع على شارع منصور ، واعتمرنا في نفس اليوم في الصُّباح على الأقدام ، رغم ضعف صحتي وعجزني عن المشي ، ولكن الله سهّل لي ، وسعينا على الكرسي ، وحضرنا المدرسة الصولتية بعدما انتهينا من العمرة ، وقمنا بزيارة أبناء الشيخ شميم رحمه الله لعزائه ، ومكثنا هناك بُرهة ، ثم عدنا إلى مقرّنا رأساً .

كان يجب عليّ أن أعزّي بهذه المناسبة زميلاً قديماً ، ومحباً كريماً كان قد رافقني في رحلة طويلة تشتمل على دول مختلفة من أفغانستان وإيران وسورية ، وهو الأستاذ أحمد محمد جمال (عضو المجلس الاستشاري للمملكة العربية السعودية ، وأستاذ الثقافة الإسلامية في جامعة الملك عبد العزيز بجدة ، والكاتب الشهير في الموضوعات الإسلامية والدعوية ، الذي كان يشترك في المؤتمرات الدولية ويمثل فيها المملكة العربية السعودية) ، لكن لم يتيسّر لي ذلك بسبب أشغالي وضعفي ومرضي ، وأنا متأسف على ذلك ، وقد سنحت لي خلال إقامتي بمكة المكرمة فرصة لزيارة الكاتب الإسلامي الكبير والأديب الأريب ، الشيخ علي الطنطاوي^(١) ، الذي يسكن في حي العزيزية ، وصار الآن ملازماً بيته ، وعجز عن المشي والتنقل ، أنا اعتبره أكبر كاتب وأقدر أديب في هذا العصر ، قد قدّم لكثير من مؤلفاتي^(٢) ، فكان قد بلغه نبأ قدومي إلى مكة المكرمة ، وكان يشناق إلى لقائي ، وينتظرني منذ ذلك اليوم .

التقى كلُّ منا بحفاوة بالغة وحماس كبير ، وأعرب عما في قلبه من حُب وإخلاص ، وجرى الحديث خلال هذا اللقاء حول أمور مختلفة .

وتوجّهت أيضاً إلى منزل الأخ الكريم الدكتور عبد الرحمن نشاط على دعوة منه ، وتعشّينا في منزله ، وكان من المقرر أن أقضي الليلة في منزله ، ولكن تغيّر هذا البرنامج ، ورجعنا إلى مقرّنا .

(١) قد انتقل إلى جوار ربه سنة ١٩٩٩ م رحمه الله وتغمده بفسيح جناته .

(٢) «المسلمون في الهند» و«في مسيرة الحياة» و«الطريق إلى المدينة المنورة» .

لم ينتشر خبر وجودي في مكة المكرمة مثل المدينة المنورة ، ولم يعلم حتى الزملاء الذين كان بين وبينهم صلة قديمة ، وكانوا يشرفوني دائماً بقدمهم ، إلا الزميلين الموقرين ، وهما الشيخ محمد ناصر العبودي (الأمين العام المساعد لرابطة العالم الإسلامي) ، والأخ الكريم محمد حافظ (مدير إدارة الصحافة والنشر في رابطة العالم الإسلامي) ، فوصلا إلى منزل الدكتور عبد الله عباس الندوي ، وكان من عادة الدكتور عبد الله عباس الندوي أن يقيم حفلة عشاء بمناسبة زيارتي لمكة المكرمة ، ويدعو إليها عدداً كبيراً من العلماء والدعاة والمعارف والأصدقاء ، وأعيان مكة ووجهاتها ، وهكذا يتيح لي فرصة للاجتماع بهذه النخبة المختارة ، والتحدث معها حول قضايا المسلمين الراهنة ، لكن لم تسنح لي فرصة للتمتع والاستفادة من هذه الصفوة الطيبة في هذه الرحلة ، لأن الدكتور عبد الله عباس الندوي كان في الهند خلال هذه الفترة .

ولا يمكن أن أنسى ما بذله الأخ الكريم عبد اللطيف الجونفوري من جهود لإراحة بالي خلال إقامتي بمكة المكرمة ، كان يأتي بسيارته قبل موعد كل صلاة ويوصلني إلى المسجد الحرام ، ثم يرجعني إلى مقرّي ، وهكذا يفعل كل يوم .

أما أبناء الدكتور عبد الله عباس الندوي ، وأفراد أسرته وعائلته الذين يقيمون في جدة والطائف ، فهم في غنى عن الشكر والثناء ، إنهم لم يألوا جهداً في توفير الراحة ، وإثبات أسباب سعادتهم وتواضعهم ، وكان في مقدمتهم العزيز طه عبد الله الندوي .

وظفت في ١٧/ سبتمبر طواف الوداع ، ورجعت مع العزيز ضياء عبد الله إلى جدة بسيارته ، وقضيت هناك ليلة ، توجهت خلالها إلى منزل العزيز السيد مصباح النبي (ابن أخي) ، وقضيت وقتاً بين أسرته ، وفي العودة اجتمع عدد كبير من المودعين في منزل الشيخ محمد نور وألقيت كلمة في هذه المناسبة ، على دعوة من الشيخ محمد نور ، استرعت فيها انتباههم إلى المسؤولية التي تقع على كواهلهم ، بسبب إقامتهم بهذا البلد الأمين ،

ولفتُ أنظارهم إلى أهمية رعاية آدابها ، ومقتضياتها ، وجلب منافعها التي هي غاية كل مسلم .

غادرت إلى دلهي صباح ١٨/ سبتمبر ، ووصلت إليها عند المغرب ، وكان في المطار الدكتور عبد الله عباس الندوي ، والأخ نياز أحمد ، وغيرهما من المحبّين والمخلصين ، فتوجهت إلى منزل الدكتور عبد الله عباس الندوي الذي يقع في حيّ «أوكهلا» بدلهي الجديدة ، وقضيت هناك يوماً ، والتقيت بأقاربي الذين يقيمون بها ، ورجعنا إلى لكهنؤ في ١٨/ سبتمبر بقطار الليل ، والله الأمر من قبل ومن بعد .

* * *

التعبير السليم

عن فكر الكاتب (سماحة الشيخ الندوي) وتجربته

بعد أن انتهيت من عرض أهم أحداث أطول رحلة في حياتي ، كانت اشتملت على ثلاث قارات ، وبعدها ذكرت زيارة الحرمين الشريفين ، كمسك الختام لهذه الرحلة الطويلة ، أقدم فيما يلي رسالة لأحد الأصدقاء ، قدّم فيها الكاتب خلاصة جيدة وعصارة لفكر هذا الكاتب ، وتجاربه ، ودراساته ، وهذه الرسالة كتبها الأخ الكريم سهيل أحمد ، نزيل أمريكا ، وذكر فيها ما جرى في أحد مجالس شيكاغو التي تحدّثتُ فيها ، وأعربت عن آرائي وأفكاري ، تجدر هذه الرسالة بأن تُعرضَ على القُرّاء ، لأنّها تشتمل على عرض سليم لأفكاري ، وتصوّراتي ودراساتي .

يقول الكاتب في رسالته :

سعدت بحضور أحد مجالس الشيخ أبي الحسن علي الحسيني الندوي ، في ٢٥/ربيع الأول ١٤١٤ هـ ، في شيكاغو ، وكان ممن حضر هذه المجالس الدكتور محمد إسماعيل ميمن (أحد مسترشيدي الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي المحدث) ، والدكتور مزمل الصديقي من كاليفورنيا ، وفي أثناء الحديث الذي جرى في ذلك المجلس ، صرّح الشيخ أبو الحسن علي الحسيني الندوي وهو يلقي الضوء على الوضع الاجتماعي العامّ للمسلمين ، أن اليهود والنصارى اتحدوا اليوم ضد المسلمين ، رغم خلافاتهم الدينية وصراعاتهم التاريخية ، وسُخّرت لمحاربة المسلمين وسائلُ النصارى والصلاحيات الذهنية لليهود ، وتستخدم لإخراج القيم الإسلامية من حياة المسلمين الاجتماعية والفردية ، فيجب في مثل هذا

الوضع الخطير أن يكون المسلم على حذر من هذا الخطر ، ويحاسب نفسه ، ويتأكد من أنه لا يقع فريسة لمكايد اليهود والنصارى وعرضة لمؤامراتهم دون أن يشعر بها .

ورداً على سؤال وُجِّهَ إليه عن إقامة نظام إسلامي ، وتنفيذه في العالم الإسلامي ، وكيفيته ، قال: هناك طريقان ، أحدهما: أن يوصل رجال الدين إلى كرسي الحكم ، وثانيهما: إيصال الدين والإيمان إلى رجال الحكم ، أما الطريق الأول ، ففيه أخطار كثيرة ، ويُخشى أن يفضل رجال الحكم تحطيم الكراسي بدلاً من أن يخلوها لرجال الدين ، وتردّي الأمور ، وتدهور الأوضاع ، وتصبح أسوأ مما عليه الآن ، فضلاً عن أن تتحسن؛ ولكن المنهج الآخر هو منهج طويل ، منهج يتطلّب وقتاً ، ويقتضي جهداً ، ولكنه ثابت ، متين ، محكم ، ولعله قد يكون لا مناص منه ، وينعكس ذلك من منهج المجدد للألف الثاني^(١) وحركته للتجديد ، أن يحتفظ رجال الحكم بكراسيهم ، ويحتفظوا بهذا الشرف لأنفسهم ، وأن رجال الدين يريدون إصلاح الكرسي ، ولا يبتغون الكرسي بذاته .

صرّح الشيخ أن لكل عصر تحدياً ، وواجه المشايخ والعلماء والصالحون هذه التحديات بهمة عالية ، وحكمة بالغة ، وأن التحدي الكبير للعالم الإسلامي في هذا العصر ، هو إعادة الثقة إلى الجيل المسلم الجديد - الذي يعيش في البيئة الجديدة ، وينشأ في جوّ الثقافة المعاصرة - بالإسلام كدين كامل يسدُّ حاجات كل عصر .

وإن زعزعة هذه الثقة تؤدي إلى الصراع الفكري بالنسبة لمكانة الإسلام ، وقدرته العملية في العالم الإسلامي ، وكنتيجة لزعزعة هذه الثقة ، لا يسوغ لخريجي المدارس العصرية الغربية ، ألا يعتبروا الإسلام الذي مرّ عليه أربعة عشر قرناً ، ديناً له مكانة في الحياة الفردية

(١) وهو الإمام أحمد بن عبد الأحد السرهندي ، المشهور بمجدد الألف الثاني ، (يراجع لسيرته ومنهج عمله كتاب سماحة الشيخ الندوي ، الجزء الثالث من سلسلة كتاب «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» طبع في دار ابن كثير بدمشق).

والاجتماعية ، ومساهمة في معالجة القضايا المعقدة الراهنة ، ونرى أن رجال هذه الطبقة هم يتولون أزمّة الأمور ، ويملكون السلطة والنفوذ ، فمنهم من يصرف جُلَّ اهتمامه إلى محاربة الإسلام ، ومجابهة العلماء والدعاة .

فالعامل المطلوب الذي يحتاج إلى الأرجحية ، والأولية ، هو أن يُتَوَصَّل إلى هذه الطبقة ، وتبذل الجهود لإعادة الثقة إليها ، ويختار لذلك أسلوب علمي يتطابق مع المستوى الفكري لرجال هذه الطبقة المثقفة ، ويعرض الإسلام كمنهج كامل حيّ سديد للحياة ، وتشرح قلوبهم له ، وتفتح عقولهم به .

وأكد الشيخ على أهمية تنقية الكتب الدراسية ، والمنهج التعليمي للطلبة المسلمين ، لتحقيق هذا الهدف ، وتنقيح الأفكار الإسلامية ، والقيم الدينية ، ومواد التربية الخلقية ، والتعاليم الإسلامية فيها ، ليكون الشباب المسلم مع تزوّده بالعلوم العصرية جندياً قوياً وسفيراً مخلصاً أميناً للإسلام ، ولكن هذا المجال للعمل لا يزال فارغاً ، وقد صرف العاملون المخلصون والعلماء الصالحون انتباههم عنه حتى الآن ، وإذا تصدى له المخلصون ، فإنه سيؤدّي إلى وجود جيل مُسلم مثقّف يتحلّى بالقيم والتربية الدينية ، ويحمل الغيرة الإسلامية ، ثم يجتهد هذا الجيل لتنفيذ الإسلام في حياته الفردية والجماعية ، تنفيذاً كاملاً .

وفي مساء ذلك اليوم تحدّث سماحته في اجتماع بعد المغرب ، وجّه فيه رسالة خاصة إلى الشباب الذين يقطنون في أوربة وأمريكا ، ويدرسون في جامعاتها ومعاهدها التعليمية ، قال فيها: إن الغرب يعرض اليوم على العالم رقيه المادي الهائل ، ولكن الحضارة الغربية داست القيم الخلقية والاجتماعية والروحية للإنسانية ، وهي تدل دلالة ناصعة على فشلها التام ، وتعود إلى الشباب المسلم اليوم مسؤولية خاصة ليصهروا حياتهم الكاملة في البوتقة الإسلامية ، ويقوموا بتربية أنفسهم الروحية والخلقية بطريق يتأثر كل من يلتقي بهم ، بأخلاقهم وسلوكهم ، ومنهج حياتهم ، وإن هذه النقطة

تكون بمثابة دعوة قويّة مجلجلة إلى الإسلام ، وقال سماحته : إن المسلمين ليسوا بمكلفين بصياغة حياتهم فحسب صياغة إسلامية ، بل يستطيعون أيضاً أن يؤدوا بهذا المنهج للحياة وظيفه دعوة الآخرين إلى دينهم ، وفي حياة الصالحين والدعاة المسلمين نماذج صارخة لهذا المنهج .
ونسأل الله التوفيق والسداد ، آمين .

* * *

رحلة سمرقند وبُخارى

عام ١٩٩٣ م

إن معرفة هذا الكاتب لتاريخ منطقة ما وراء النهر^(١) ، المنجبة لأعلام التاريخ الإسلامي في العلم والروحانية ، الحافلة بالذكريات العطرة التي يفوح شذاها دائماً ، والمليئة بالآثار العلمية التي خلّدتها ، وتغني المتتبع لآثارها بمرّ العصور والأجيال ، والتي لها منة عظيمة؛ وإن اعتراف هذا الكاتب وتقديره لأعلامها الذين لا نظير لهم ، وامتنانه لهم ، وغيرته عليهم ، أبت أن يُحرّمَ من زيارة ذلك الإقليم العامر ، رغم أسفاره البعيدة والطويلة إلى أمريكا وأوربة ، والرحلة الأطول التي قام بها وسبق ذكرها في الصفحات السابقة ، ذلك الإقليم الذي أنجب أفذاذاً في الحديث كالإمام البخاري ، والإمام الترمذي ، وفي الفقه كأبي الليث السمرقندي ، وشمس الأئمة السرخسي صاحب المبسوط ، وأبي الحسن علي بن أبي بكر المرغيناني صاحب الهداية ، وأبي يعقوب إسحاق بن إبراهيم الشاشي^(٢) صاحب أصول الشاشي ، والعالم الجليل في علم الكلام أبي منصور

(١) يعتبر نهر جيحون حداً فاصلاً بين الناطقين بالفارسية والأتراك ، وإيران وطوران وجميع الدول الواقعة وراء هذا النهر تعرف بما وراء النهر ، وما يقع في غرب النهر بخراسان ، عاصمتها خوارزم ، ويشتمل ما وراء النهر: سنكيانج ، قازقستان ، قرغيزيا ، تاجكستان ، أوزبكستان ، تركمانستان ، أذربيجان؛ ومن أهم المدن في هذه المنطقة: بخارى ، سمرقند ، فرغانة ، مرغينان ، نسف ، ترمذ ، فاراب ، شاش ، خجند ، ساباط ، أبيجاب ، أشروسة ، فربر ، أوزجند.

(٢) تُعرف الشاش الآن بتاشقند.

الماتريدي من جهة ، ومن جهة أخرى أنجب في العلوم العقلية كأبي النصر الفارابي ، والشيخ الرئيس أبي علي بن سينا ، الذين يفتخر بهم التاريخ ، ويندر وجود أمثالهم ، ويعدون عمالقة في فنونهم .

وبالإضافة إلى هؤلاء الأفاضل في الحديث والفقه ، وأعلام الفلسفة والحكمة ، أنجب أعلاماً في التربية الروحية ، وأئمة السلاسل الصوفية ، والمجددين للإخلاص والتعلق مع الله ، كالشيخ خواجه بهاء الدين النقشبندي ، مؤسس السلسلة العالية النقشبندية ، وخواجه عبد الله أحرار من أعلام المشايخ الربانيين ، وفي الجهة الأخرى أنجب الفاتحين المحظوظين من أولي العزم والهمة العالية ، ومؤسسي الإمبراطوريات كظهير الدين بابر ، مؤسس السلطنة المغولية ، فالإقليم الذي يشتمل على فرغانة ، ومرغينان ، وترمد ، وفاراب ، وخجند ، وساباط ، وفربر ، ومناطق أخرى صانعة للتاريخ ، ومُنجبة للأعلام .

وقد هُيئَتْ وسائل للسفر إلى المنطقة العامرة ، من الله تعالى ، وأتيحت له فرصة كانت تلائم مكانة هذه المنطقة ، وجديرة بها ، فقد قرَّر المركز الإسلامي بأكسفورد في الدورة السابقة له ، أنه سيقم مركزاً علمياً في جوار المسجد الواقع بقرب قبر الإمام البخاري كتذكار له ، وتخليداً لخدماته في تدوين الحديث ، والتعريف بها ، حسب اقتضاء العصر الحاضر ، يقوم الباحثون فيه ، والمقدرون لجهوده ، بالبحث والتحقيق ، ويعرضون مآثره العلمية ، وكماله العلمي - الذي ينفرد به في خدمة الدين الحنيف - على العالم ، ونال هذا المشروع رعاية السلطان حاجي حسن حاكم بُروناي ، الدولة الإسلامية الفتية الغنية بالوسائل المالية التي تفوق بعض الدول الكبرى ، واهتمام وزير تعليم بلاده الأستاذ بيهن عبد العزيز ، أحد أعضاء المركز الإسلامي ، وتعاون المتواصل .

وحَدَّد المركز الإسلامي في اجتماعه السنوي الذي سبق ذكره (٢٣ - ٢٣/أكتوبر) ، ووعد هذا الكاتب في تلك الجلسة بحضور هذه المناسبة باعتبارها مفخرة له ، وسعادة كبرى في حياته ، لكنه شعر بإرهاق

بعد إكمال رحلته إلى تركية وأوروبا وأمريكا ، والحجاز ، وتردد في هذا الأمر بعد انشغاله بالبريد الذي تراكم خلال سفره ، وزيارته المحلية لرائي بريلي ، وعكوفه على بعض أشغاله .

وصادف في هذه الفترة السفر إلى «أعظم جراه» ، استجابة لدعوة الأخ العزيز الشيخ تقي الدين الندوي ، لحضور اجتماع في مدرسته ، وسافرنا في سيارة متواضعة ، وكان الطريق غير مُعبَّد كُلياً ، ثم توجهنا إلى مئو حيث نُظِّمت أربعة برامج ، ووجدنا هناك سيارة فارهة ، بجهود الأخ العزيز الأستاذ سعيد الأعظمي الندوي ، واشتركت في اجتماع الهيئة التنفيذية لدار المصنِّفين في «أعظم جراه» .

ثم توجهنا إلى رائي بريلي ، وقطعنا مسافة أكثر من ٢٠٠ كيل بالسيارة ، ذهاباً وإياباً ، وشعرتُ في «مظفر فور» بإرهاق شديد ، وانهييار عصبي ، اضطررت إلى استدعاء طبيب ، فقام بالفحص ، وأخبر أنه نتيجة لانخفاض ضغط الدم ، وأوصى بالاستراحة كُلياً ، لكن أبت نفسي وغيرتي أن لا أشترك في البرنامج الذي تُجسِّم مشاق السفر من أجله ، فاشتركت في الاجتماع في المساء وألقيتُ كلمة مسهبة .

كان من المقرر أن نقوم بالسفر إلى أوزبكستان بعد أيام من هذه الرحلة ، ولما كان السفر بالطائرة من لكهنؤ إلى دلهي ، ومن دلهي إلى تاشقند ، فترددت كثيراً - نظراً إلى صحتي - في القيام بالسفر ، وكدت أعتذر عنه ، ولكنني علمت من دلهي أن مرافقي المحب الأستاذ محمد عثمان الحيدرآبادي قد وصل فعلاً من الرياض إلى دلهي لمرافقتي ولتسهيل سفري ، وإراحة بالي على نفقته الخاصة ، فإن أُلغيت السفر ، فإن هذه النفقات التي تحمّلها ستذهب سُدى ، وكان من المقرر أيضاً أن يرافقني في السفر العزيز محمد الرابع الحسنی الندوي أيضاً ، وقد وقع عليه الاختيار في اجتماع المركز الإسلامي ، فعزمت على السفر ، وتوكلت على الله ، نظراً إلى أهمية السفر ، وللدوق التاريخي والديني الذي ورثته ، وتأهبت للسفر ، وأخبرت العزيز نياز أحمد في دلهي ، الذي يهتم دائماً بأمور

سفري ، ويتخذ الإجراءات لأسفاري المحليّة والدوليّة ، ويقوم اتصالاً بي حيث كنت ، وأستعين به في الاتصال بأعضاء أسرتي ، والتعرف على الأحوال ، فقام بحجز المقاعد الثلاثة لنا (أنا والأخ محمد عثمان المهندس ، والعزيز محمد الرابع الندوي) في صباح ٢٢/أكتوبر ، على الخطوط الأوزبكية إلى تاشقند ، وكان أمر الله قدراً مقدوراً .

غادرتُ في ٢٢/أكتوبر في الساعة الحادية عشرة إلى تاشقند على طائرة أوزبكية ، والتقيت في الطائرة فجأة بالأستاذ الدكتور خليف أحمد النظامي ، فسُرتُ بهذه المصادفة ، ووجدتُ الشيخ السيد أسعد مدني (رئيس جمعية علماء الهند) ، ورفيقه الشيخ سعيد البالنوري ، وأُخبرتُ أنّ الرحلة إلى تاشقند ستستغرق ساعتين ونصف ، ولكن استغرقت الرحلة في الواقع ثلاث ساعات ، فوصلت في الظهر ، واستغرقت إجراءات جواز السفر والتأشيرة وقتاً طويلاً ، وعلمت في هذا السفر أن الطبيعة الشرقية تسود في هذه المنطقة كلها ، وصادفنا الكسل في العمل بدلاً من النشاط والسرعة في إنجاز العمل الذي تعودنا عليه في أسفارنا في أوروبا ، ونزلنا فندق أوزبكستان في تاشقند ، وهو فندق فاخر ، ذو خمسة عشر طابقاً ، ويبدو من ظاهره شبكةً من الحلقات .

كان يبدو أننا سنبقيت في هذا الفندق ، ولكننا أُخبرنا بعد برهة بالاستعداد للسفر إلى سمرقند ، ووصلنا إلى سمرقند بطائرة متّجهة إلى هناك خلال أربعين دقيقة (بعد المغرب) ، ونزل الضيوف من المندوبين عامة في فندق سمرقند وأقمنا نحن (أنا ورفيقي: الأستاذ محمد عثمان ، والعزيز محمد الرابع الندوي ، والدكتور عبد الله عمر نصيف الأمين العام السابق لرابطة العالم الإسلامي ، ونائب رئيس مجلس الشورى حالياً في المملكة العربية السعودية) ، في دار الضيافة الحكومية .

انعقدت الجلسة الافتتاحية في ٢٣/أكتوبر في الساعة العاشرة صباحاً ، واستمرت ساعتين ، تحدّث فيها حاكم سمرقند والنائب الأول لرئيس الوزراء ، والدكتور عبد الله نصيف ، وهذا الكاتب ، والأستاذ حامد العابد

(الأمين العام لمنظمة المؤتمر الإسلامي) ، والدكتور فرحان النظامي (أمين المركز الإسلامي لجامعة أكسفورد).

أُقيت الكلمات - كالعادة - باللغة الأوزبكية والإنكليزية ، أما كلمتي وكلمة الدكتور عبد الله نصيف فكانتا باللغة العربية .

كنت أشعر خلال انعقاد المؤتمر ، شعوراً غامراً أنّ جوّ المؤتمر لا يليق بمكانة إمام للحديث ، بل أمير المؤمنين في حديث رسول الله ﷺ ، ومؤلف أصحّ كتاب بعد كتاب الله عز وجلّ ، وبتذكاره ، والذي كان يجب أن يسود في مثل هذه المناسبة على الحاضرين جوّ من الحبّ والاحترام ، فأشرتُ في كلمتي إلى ذلك الجانب ، وقلت : إنّ الاحتفال الذي يُعقد لتخليد ذكرى بطل من الأبطال ، تلقى فيه كلمات ، وتستخدم فيه لغة يشعر بها المستمعون بالفروسية ، والفتوة والبطولة ، وتثور فيهم تلك العواطف ، وتنعكس على الجوّ تلك المزايا ، وإذا عقد احتفال للتعريف بأديب وشاعر ، أو التنويه به ، تسود البيئة الأدبية والبلاغية ، ويشعر الحاضرون بتلك المزايا ، كذلك إذا عُقد احتفال ذكرى مُصلح أو داعي انقلاب ؛ فلكل مناسبة لغة وتعبير ، وجوّ يعكس على المستمعين مزايا تلك الشخصية التي تُقدّم كنموذج .

ولكن مع الأسف أشاهد من البداية ، أنّ الإمام البخاري رحمه الله ، يُذكر في هذا المجلس الموقر ، وتُعرض خدماته ، ويُعرف بشخصيته ، ولكن لا يخيّم على الجوّ موضوعه ولا مزياه ، ولم يقدم بحث ، ولم تبين حقيقة ترشد إلى منهج للحياة ، وتحديث عاطفة لقضاء الحياة في ضوء النبوة والرسالة ، والأحاديث النبوية الشريفة ، ولذلك أقرأ عليكم الحديث الأول في صحيح البخاري ، وإنّي أعتذر أنه لا يمكن تمهيد أو تقديم أفضل منه لأيّ كتاب ، وقد أوضح الإمام البخاري رحمه الله ، بإيراده هذا الحديث سبب تأليفه هذا الكتاب ، ونيتّه ، وأرشد طلبة العلم إلى المنهج الذي يجب أن يقضوا به الحياة ، وما هي النية التي يجب أن يحملوها ، ويقصدوها ، وذلك الحديث الأول ، هو الحديث الآتي :

«إنّما الأعمال بالنيّات ، وإنّما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته

إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها ، أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه» (متفقٌ عليه).

إنَّ هذا الحديث يطالبنا بأن تكون سائر أعمالنا لرضا الله ، وأن يكون الحصول على الأجر والثواب بُغيتنا ، ودستور حياتنا ومبدأ عملنا .

وفي الختام قرأت الحديث الآتي ، وهو الحديث الذي ختم به الإمام البخاري كتابه «كلمتان حبيبتان إلى الرحمن ، خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان على الميزان ، سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم» .

انعقدت أربع جلسات في ٢٤/ أكتوبر من الساعة التاسعة والنصف إلى الساعة الثانية عشرة للمقالات ، وترأس إحدى هذه الجلسات العزيز محمد الرابع الندوي ، أما الجلسة التي ألقيت فيها مقالتي فترأسها الفاضل الجليل وأستاذ الحديث الشيخ عبد الفتاح أبو غدة ، وكان عنوان مقالتي : «الإمام محمد بن إسماعيل البخاري ، وكتابه صحيح البخاري ، مكانتهما في تاريخ الإسلام والدين والعلم والمكتبة الإسلامية العالمية»^(١) .

ذكرت في المقال الحاجة إلى جمع الحديث وتدوينه ، وذكرت دوره في وقاية الدين من التحريف ، والأمة الإسلامية من الانحراف ، ومآثره في إقامة البيئة الدينية ، والمجتمع الإسلامي السليم ، وصيانته ، وأوضحْتُ أن التاريخ يشهد أن كل بلد انقطعت صلته بالحديث ، وهجر الاشتغال والاعتناء به ، فُتح فيه باب البدع ، وتدققت التقاليد المعارضة لروح الشريعة الإسلامية ، التي لا يمكن صدُّها إلا بالحديث النبوي الشريف ، ولا يمكن أن يغلق ذلك المنفذ إلا باتِّباع السُّنة ، لأنها هي التي تميِّز بين المعروف والمنكر ، والسنة والبدعة ، وذلك هو الباعث الرئيسي لتصدي

(١) نشر هذا المقال الأستاذ بلال عبد الحي الحسني الندوي في كتابه «نظرات في الحديث» للعلامة الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي ، بتحقيق وتعليق عليه ، طبع في دار ابن كثير بدمشق عام ٢٠٠٠ م . وطبع هذا المقال أيضاً للمجمع الإسلامي العلمي بلکہنؤ بعنوان «الحديث والسنة ودورها في الصيانة عن التحريف والانحراف» .

المغتربين ومتبعي الحضارة الغربية ، للحديث والسنة ، ومحاربتهم واستهدافهم لها ، وقطع صلة المسلمين عنها لأنها هي العقبة الرئيسية في طريقهم وفي إنجاز أهدافهم؛ ثم ألقيت بعض الضوء على مزايا الإمام البخاري وخدماته الجليلة ، ومزايا الجامع الصحيح ، ومكانته العالية ، وقدمت بعض التوصيات في هذا الأمر .

وفي الختام لفتُ الانتباه إلى خطر ، وهو أن لا يصبح في مرحلة من المراحل قبر الإمام البخاري ضريحاً مثل الضرائح الأخرى ، تنشأ حوله نباتات مثل قبور الصالحين في الهند ، وتبدأ تأدية الطقوس ، وتمارس أعمال تتعارض مع السنة وعقيدة التوحيد ، والتعاليم الإسلامية وأسوة الصحابة ، فنقلت من الجزء الأخير من المقالة حديثين :

«لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» ، والحديث النبوي الشريف : «لا تجعلوا قبوري عيداً» .

والحمد لله نال المقال اهتماماً بالغاً ، وأصغى إليه الحاضرون ، وعلمت من استعراض الخطط والمشاريع الإنشائية ، أنه ليس في البرنامج إنشاء أي ضريح ، أو مكان للاحتفال السنوي ، وإنما المقصود هو توسعة المسجد ، وإنشاء مركز علمي للبحث والتحقيق ، وعُرضت مشاريع وتصميمات لها .

في ٢٤/أكتوبر خرجنا لزيارة الآثار والأماكن الأثرية ، التي تنسب إلى الأئمة والعلماء وقبورهم لقراءة الفاتحة ، وتوجهنا إلى «خرتنك» التي تقع على بعد ١٥/كم من سمرقند ، وبها قبر الإمام البخاري رحمه الله ، فقرأت الفاتحة ، وعلى بعد خطوات منه يقع مسجد صغير ، ووصل العالم المحقق الشيخ عبد الفتاح أبو غدة ، والتحق بنا ، وعلم سكان المنطقة قدومنا ، واجتمعوا في المسجد ، وأدّينا صلاة الظهر في المسجد ، وتشرّفنا بالتحدث إلى المجتمعين ، وسعدنا بالدعاء في ذلك المسجد ، وحدث ذلك مرتين ، وتحدّث الشيخ عبد الفتاح أبو غدة أيضاً ، ودعا .

وكانت هذه القافلة تتكوّن من العزيز الأستاذ سلمان الحسيني الندوي

(أستاذ دار العلوم ندوة العلماء) ، والأستاذ ناصر علي (أستاذ الحديث بدار العلوم ندوة العلماء) وآخرون ، ولم نكن نعتقد في الهند أنّ قبر الإمام البخاري يقع في ضواحي سمرقند . فقد كنا نظن أنه في بخارى ، وعلمنا بعد قدومنا أن معارضة الحكومة وبعض العلماء ومخاصمتهم للإمام البخاري - كما يحدث عادة بالنسبة للصالحين والباحثين والعلماء - أدّت إلى هجرة الإمام البخاري من وطنه ، فسعدت سمرقند بأن تكون مثواه الأخير .

وفي سمرقند تغدّينا في أحد فنادقها ، وعُدنا إلى مقرنا ، وبعد العصر توجهنا إلى أماكن أثرية أخرى ، فشهدنا المبنى الفاخر لمدرسة «الغ بك» ، وزرنا من بعيد قبر قثم بن عباس ، الذي جاء إلى سمرقند في الجهاد ، وهنا تُوفي ، ثم زرنا مدرسة خواجه عُبيد الله أحرار ومسجده ، وقبره ، وهو من كبار مشايخ السلسلة النقشبندية ، وحلقة هامة لهذه السلسلة الذهبية ، وتمثل هنا بيت للشيخ جامي :

جون فقر اندر قبائي شاهي آمد زتد بير عبيد اللهي آمد^(١)

انتهى المؤتمر رسمياً في ٢٤/ أكتوبر ، وجاء اليوم الخامس والعشرون من أكتوبر فترة بدون برنامج ، وقلنا في أنفسنا : إنه إذا لم ننتهز فرصة زيارتنا لهذا البلد الذي يعود شرفه ومكانته إلى وجود أماكن كسمرقند ، وبخارى - وخاصة بخارى - ، وخلت زيارتنا لهذا البلد من زيارة بخارى ، فإنه سيكون خسارة كبيرة ، وحرماناً ، وسوء أدب ، فعقدنا العزم على زيارة بخارى ، وأخبرانا أنها تبعد من هنا بحوالي ثلاثمئة كيل .

وحصلنا بجهود الأستاذ محمد عثمان ، ومساعدة على سيارة تسع عدداً كبيراً من الركاب ، إنها كانت أوتوبيس مصغّر ، وكان الشيخ عبد الفتاح أبو غدة أيضاً في هذا الركب ، وقد ترك مقعده ، واختار مقعداً مجاوراً لي لحبه وكرمه ، وأفادنا برفقته ، وحبه وحديثه العلمي المفيد ، فكلنا في

(١) معناه: إذا دخل الفقر (القناعة والزهد) في أبهة الملوك ، كان ذلك نتيجة الجُهد والإيثار الذي امتاز به الشيخ عبد الله أحرار السمرقندي في حياته ، التي كانت تجمع بين الإمارة والزهد والتقشُّف .

شوق كأننا نزور ديار الحبيب ، وانطلقت من ألسنتنا بعض الأبيات العربية في الشوق والهيام ، فكان الشيخ يقول لنجله الكريم سلمان: سجّل هذه الأبيات .

وأحسست بسكينة وطمأنينة في بُخارى ، وما وجدت هناك أثراً للتقاليد والعيادات الشائعة في مثل هذه الأماكن ، ولم أجد شيئاً يتنافى مع الشريعة الإسلامية ، وكانت هذه السمة اللازمة للطريقة النقشبندية منذ نشأتها .

وخرجت من مدرسة خواجه نقشبند ، ومسجده ، وتوجهت إلى المدينة ، ودخلت حظيرة كبيرة ، يقال لها مدرسة مير عرب ، ويقال: إن الإمام البخاري رحمه الله كان يدرس هنا الحديث الشريف ، وكان مير عرب شيخاً يمينياً من بني شيبان ، وكان زاهداً .

وتناولنا الفطور ، واسترحنا قليلاً ، ثم توجهنا إلى سمرقند ، ووصلنا بعد المغرب ، وقضينا الليلة في فندق سمرقند حيث كنا نقيم منذ قدومنا ، ثم توجهنا إلى المطار في ٢٦/أكتوبر صباحاً للسفر إلى تاشقند ، وكان موعد السفر للعودة إلى دلهي من تاشقند الساعة الحادية عشرة صباحاً في ٢٧/أكتوبر ، واستغرقت إجراءات السفر في العودة وقتاً طويلاً كما استغرقت لدى القدوم ، واضطرت إلى المشي على الأقدام طويلاً رغم ما أعانيه من مرض النقرس .

تحرّرت هذه المنطقة التي تُعرَفُ بأوزبكستان ، وتشتمل على تاشقند ، وسمرقند ، وبخاري ، بعد سبعين سنة من الحكم الشيوعي ، من نير العبودية لموسكو ، ولم يكن ذلك النظام ، نظاماً سياسياً وإدارياً خاصاً ، وإنما كان يتبع منهجاً خاصاً للحياة ، وفلسفة وعقيدة شيوعية ، ولم يكن من المقلّدين لتلك العقيدة والمتمسكين بها ، بل كان من الدُّعاة إليها ، وكان يؤمن بفرضها جبراً وقهراً على الشعوب الأخرى ، ولم يكن يُسمَح في ذلك النظام بالملكية الذاتية ، والحرية الذاتية وحرية الدين ، والاحتفاظ بشخصية ثقافية أو دينية ، والعمل بها بحرية ، ولا بالتعليم حسب عقيدة خاصة ، وإعداد الجيل الجديد ، حسب تلك المعتقدات

والتصوّرات ، ولا بإقامة علاقات وروابط مع العالم الخارجي ، ولا مع أتباع دين يُؤمن به .

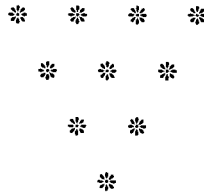
وكان المسلمون في هذه المنطقة مُورَّعين على سبع ولايات ، ولم يسجلوا صفحات خالدة في التاريخ الطويل الذي يمتد إلى قرون ، في التمسُّك بالدين والشريعة ، والانتساب إليهما فحسب ، بل إنهم أنجبوا أفذاذاً عُرفوا بخدمات رائدة ، ومزايا قومية تميّزهم عن غيرهم في تاريخ العالم الإسلامي الطويل ، وفي الساحة الواسعة للعالم ، وقد مرت أسماء بعضهم في الصفحات السابقة .

وقد انكشف هذا الكابوس إلى حدّ كبير ، وواجهت الشيوعية انحطاطاً بل تراجعاً ، لكن آثارها لا تزال تُلاحظ في أذهان الحكام والطبقات المثقفة ، ورواسبها باقية في بعض مجالات الحياة ، وذلك أمر طبيعي .

وتوجد في هذه المدن مساجد ، وبعض مدارس دينية ، يتعلّم فيها عدد محدود من الطلبة ، وقد شعرتُ خلال إقامتي أنّ هذه المنطقة تحتاج للعودة إلى ماضيها المجيد إلى وقت ، وجرأة ، وانقلاب ذهنيّ ، ونظام جديد للتعليم ، وقوة فكرية ، ومجهودات دعوية مُركّزة على المُستوى الشَّعبيّ ، وعلى مستوى المثقَّفين ، فإن ساعدت الظروف ، وكان التوفيق حليفها ، وأتت هذه المجهودات والحركات إلى الوجود ، وسُمح لها بالعمل ، فلا يُستبعد أن تعود هذه المنطقة - التي لها منَّةٌ على الإنسانية - إلى الحظيرة الإسلامية ، إذا لم تعد إلى تلك القيادة العلمية التي عرفت بها في تاريخها الماضي ، وصدق الله العظيم : ﴿ . . . يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ﴾ [الروم : ١٩] .

الخاتمة

وبعد... فذاك - عزيزي القارئ - عرض لجميع رحلات وأسفار سماحة الشيخ الندوي ، قام بها في أرجاء الأرض شرقها وغربها ، شمالها وجنوبها ، داعيةً إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، ومدكراً بشرعته ، وعاملاً لإعلاء كلمة الإسلام بالكلمة المسموعة والمقروءة وبالعمل الإيجابي البناء في كل مجالٍ ، ومنذراً بالأخطار التي تحيق بالأمة إن انحرفت أو تناست أو جهلت شرعة ربّها ، ومبشراً لها إن استقامت على طريقته ومنهجه تعالى بتبوء مراكز الريادة والقيادة للبشرية جمعاء ، ومحاضراً ، ومحدثاً ، ومحاوراً ، وواعظاً ، وهادياً ، ومشاركاً بالرأي والفكر في المجالس العلمية ، والمجامع الجامعية والمؤسسات الإسلامية ، والمؤتمرات والندوات في الخافقين .



الفهارس العلمية

- * فهرس الآيات الشريفة
- * فهرس الأحاديث النبوية
- * فهرس الأعلام
- * فهرس الأماكن والبقاع والبلدان
- * فهرس الأمم والقبائل والجماعات
- * فهرس الشعر
- * فهرس الموضوعات

فهرس الآيات الشريفة

رقم الصفحة	رقمها	الآية
(٢) سورة البقرة		
٣٣٤	١٢٠	﴿وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودَ وَلَا النَّصْرَىٰ...﴾
٦٣٣	١٣٣	﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي...﴾
٦٨٥	١٤٣	﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ...﴾
٤١٣	١٧٠	﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ...﴾
٣٢٧	٢٠٤	﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ...﴾
٣٢٧	٢٠٥	﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ...﴾
٣٢٨	٢٠٦	﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ...﴾
٣٢٨	٢٠٧	﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ...﴾
٥٩٩	٢٠٨	﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً...﴾
٦٦٥	٢٤٩	﴿كَم مِّن فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةٌ كَثِيرَةً...﴾
٦٨٧، ٥٤٨ - ٥٤٧	٢٥٩	﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ...﴾

(٣) سورة آل عمران

٢٨٢	١٩	﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ الْأَسْلَمَةُ...﴾
٥٤٨	٢٧	﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ...﴾
٢٧٦	٦٤	﴿تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَامٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ...﴾
٢٦٨	٧٩ - ٨٠	﴿مَا كَانَ لِشَرِّهِ أَنْ يُؤْيِيَهُ اللَّهُ... مُسْلِمُونَ﴾
٢٨٢	٨٥	﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن...﴾

- ﴿ وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۗ ﴾ ١٠٣ ٢٧٨
- ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ... خَالِدُونَ ﴾ ١٠٦-١٠٧ ٢٨٢
- ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ ... ﴾ ١١٠ . ٢٤٧ ، ٦٠٧ ، ٦٢٢
- ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً ۗ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ... الصَّالِحِينَ ﴾ ١١٣-١١٤ ٥٢٢
- ﴿ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُفْرِ وَالْإِيمَانِ ... ﴾ ١٣٤ ٣٢٦
- ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ ... ﴾ ١٣٩ ٢٤٩
- ﴿ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ... ﴾ ١٤٠ ٢٤٠
- ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا ... ﴾ ١٩١ ٤٢٧-٤٢٨

(٤) سورة النساء

- ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ ... ﴾ ٧٨ ٢٤٨
- ﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي ... ﴾ ٩٥ ٣٦١
- ﴿ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ ۗ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ ... ﴾ ١٠٤ . ٣٦٣ ، ٥٠٠ ، ٥٠١

(٥) سورة المائدة

- ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَمَّتْ ... ﴾ ٣ ... ٥٩٢ ، ٥٩٣ ، ٥٩٤
- ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَرَدٍ مِنْكُمْ عَنْ ... ﴾ ٥٤ ٣٢٨

(٦) سورة الأنعام

- ﴿ يُوحَىٰ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ ... ﴾ ١١٢ ٦٠

(٧) سورة الأعراف

- ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْذِنُونَ سَاعَةً ... ﴾ ٣٤ ٤٢٩
- ﴿ إِنَّكَ الْأَرْضُ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ ... ﴾ ١٢٨ ٢٣٨
- ﴿ وَجَلَّوْنَا بِبَيْتِ إِسْرَاءَ يَلِ الْبَحْرِ ... يَعْمَلُونَ ﴾ ١٣٨-١٣٩ ٥٥٣

(٨) سورة الأنفال

- ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ ... ﴾ ٧٣ ٥٣٥ ، ٥٣٦ ، ٥٨٧ ،
- ٦١٦ ، ٦٦٠ ، ٦٦٢ ، ٦٦٣ ،

(٩) سورة التوبة

- ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ... ﴾ ٣١ ٢٧٩
 ﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا... ﴾ ١٠٢ ٣٢٧
 ﴿ حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ... ﴾ ١١٨ ١٢٤ ، ٣٣٤ ، ٤٤٨ ،
 ٦٠٩

(١١) سورة هود

- ﴿ يَصْلِحْ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ... ﴾ ٦٢ ٥٧٤
 ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ... ﴾ ١١٦ ٤٧٨

(١٢) سورة يوسف

- ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ٢ ٣٥٨
 ﴿ أَدْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ ٩٩ ٥٦٤

(١٣) سورة الرعد

- ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا... ﴾ ١١ ٢٥٠
 ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ... ﴾ ١٧ ٢١٣

(١٤) سورة إبراهيم

- ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كَفْرًا... ﴾ ٢٨ ٢٥١ ، ٣٢٨ ، ٥٠٣

(١٦) سورة النحل

- ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَفْخِرُونَ سَاعَةً... ﴾ ٦١ ٢٤٨
 ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً... ﴾ ١١٢ ٣٢٨
 ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ ١١٨ ١٣٧
 ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ... ﴾ ١٢٥ ٣٥٧

(١٧) سورة الإسراء

- ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا... ﴾ ١٦ ٥٠٩
 ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَرَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ... ﴾ ٨١ ١٩٧

(١٨) سورة الكهف

- ﴿ إِنَّمْ فَنِيَهٗ ءَامَنُوا بِرَبِّيَهْمَ وَزِدْنَهْمْ هُدًى ﴾ ١٣ .. ٥٧٣ ، ٦٠٣ ، ٦١٨
 ﴿ لَقَدْ قَلْنَا إِذَا شَطَطًا ﴾ ١٤ .. ٥٧٣ ، ٦٠٣
 ﴿ فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَنِيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ... ﴾ ٧٧ .. ٦٨٦
 ﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ... ﴾ ٨٢ .. ٦٨٦

(٢٠) سورة طه

- ﴿ مِنهَا خَلَقْنَاهُمْ وَفِيهَا نُعِيدُهُمْ وَمِنْهَا نَخْرِجُهُمْ... ﴾ ٥٥ .. ١٤٧
 ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنِيَكَ إِلَىٰ مَأْمَعَنَا بِهِءَ أَرْوَجًا... ﴾ ١٣١ .. ٦١٥

(٢١) سورة الأنبياء

- ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ... ﴾ ١٠ .. ٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦
 ﴿ وَإِن أَدْرَىٰ لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَنْعٌ... ﴾ ١١١ .. ٦١٩ ، ٦٠٤

(٢٢) سورة الحج

- ﴿ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَآدِ يُظَلَمِ نُذُوقَهُ... ﴾ ٢٥ .. ٥٨٤
 ﴿ وَيَتَرِ مُعْطَلَةٌ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴾ ٤٥ .. ١٣٣

(٢٤) سورة النور

- ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوْنَ مِنْ أَبْصَرِهِمْ... ﴾ ٣٠ .. ٥٧٠
 ﴿ أَدِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيَذَكَّرَ... وَالْأَبْصَرُ ﴾ ٣٦-٣٧ .. ٢٦٩
 ﴿ كَسْرَابٍ بِقَيْعَةٍ يُحْسِبُهُ الظَّمْثَانِ مَاءً... ﴾ ٣٩ .. ٥٨٧

(٢٥) سورة الفرقان

- ﴿ يَتَّبِعُونَ لِربِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا... ﴾ ٦٤ .. ٣٢٦

(٢٦) سورة الشعراء

- ﴿ وَتَنحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ ﴾ ١٤٩ .. ٣٦٧
 ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ... مُبِينٍ ﴾ ١٩٣-١٩٥ .. ٣٥٨

(٢٧) سورة النمل

- ﴿ أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ... ﴾ ٣٧ .. ٤٢٢
 ﴿ أَمِنْ حَيْبِ الْمُضْطَرِّ إِذَا دَعَا... ﴾ ٦٢ .. ١٢٤

(٢٨) سورة القصص

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا... ﴾ ٥٨ ٣٢٨

(٢٩) سورة العنكبوت

﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا... ﴾ ٢ ٤٣٩

﴿ وَمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ... ﴾ ٦٤ ٣٤١ ، ٢٦٥

(٣٠) سورة الروم

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ... ﴾ ٩ ٢٦٥

﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَيُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ... ﴾ ١٩ ٧٢١

(٣١) سورة لقمان

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ... ﴾ ٦ ٥٩٩

(٣٢) سورة السجدة

﴿ نَسْجَا فِي جُنُوبِهِمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ... ﴾ ١٦ ٣٢٦

(٣٣) سورة الأحزاب

﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ... ﴾ ٢٣ ٣٢٨

﴿ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا... ﴾ ٢٨ ٦١٥

﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ... ﴾ ٦٢ ٦١٦ ، ٣٢٩

(٣٤) سورة سبأ

﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي بَرَكْنَا... ﴾ ١٨ ٥٠٣ ، ٥٠٢

﴿ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا... ﴾ ١٩ ٥٠٣

(٣٧) سورة الصافات

﴿ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ... الْغَالِبُونَ ﴾ ١٧٢ - ١٧٣ ٢٤٩

(٣٩) سورة الزمر

﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبٌ... ﴾ ٤٥ ٣٢٧

(٤٠) سورة غافر (المؤمن)

﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا... ﴾ ٥١ ٢٤٩

﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ... ﴾ ٨٣ ٥٦١

(٤١) سورة فصلت

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا... ﴾ ٢٦ ١٩٧

(٤٢) سورة الشورى

﴿ وَالَّذِينَ يَحْنَبُونَ كَثِيرَ الْإِثْمِ... يُفِقُونَ ﴾ ٣٧-٣٨ ٣٢٧

(٤٤) سورة الدخان

﴿ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعَيْونٍ... ءآخِرِينَ ﴾ ٢٥-٢٨ ١٣٨

(٤٧) سورة محمد

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ نَصَرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ... ﴾ ٧ ٦٦٥

(٤٨) سورة الفتح

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴾ ١ ١٤٧

﴿ وَيَنْصُرْكَ اللَّهُ نَصْرًا عَظِيمًا ﴾ ٣ ١٤٧

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى... ﴾ ٢٨ ٢٧٥

(٥١) سورة الذاريات

﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ... وَالْمُحْرَوِينَ ﴾ ١٧-١٩ ٣٢٦

(٥٣) سورة النجم

﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ ٣-٤ ٦١٠

(٥٥) سورة الرحمن

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ... ﴾ ٢٦-٢٧ ٢٦٠

(٥٧) سورة الحديد

﴿ أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَهْوٌ... ﴾ ٢٠ ٣٤١

(٥٨) سورة المجادلة

﴿ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ ٢٢ ٢٤٩

(٥٩) سورة الحشر

- ﴿ وَيُؤْتِرُونَكَ عَلَيْهِمْ نَفْسِهِمْ وَإِذْ قَالَ لَهُمُ ابْنُ مَرْثَدَةَ لَأَجِدَنَّكُمْ وَهَابِيَةً ﴾ ٩ ٣٢٦
- ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا... ﴾ ١٠ ٢٧٤
- ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ... ﴾ ١٩ ٦٣٤

(٦٢) سورة الجمعة

- ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ... ﴾ ٢ ٢٧٥-٢٧٤

(٦٣) سورة المنافقون

- ﴿ وَاللَّهِ الْعِزَّةُ لِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ... ﴾ ٨ ٢٤٩

(٦٥) سورة الطلاق

- ﴿ وَيَرْزُقُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ ٣ ١٨٨

(٧٤) سورة المدثر

- ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ﴾ ٤٢ ٣٢٧
- ﴿ قَالُوا لَوْ كُنَّا مِنَ الْمِصْلِينَ... ﴾ ٤٧-٤٣ ٣٢٧

(٩٦) سورة العلق

- ﴿ أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ ١ ٥٦٢
- ﴿ أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴾ ٣ ٤٢٦
- ﴿ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾ ٤ ٤٢٦
- ﴿ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ ٥ ٤٢٦

(١٠٨) سورة الكوثر

- ﴿ إِنَّكَ شَانِئَتَهُ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾ ٣ ٢١٠

(١١٠) سورة النصر

- ﴿ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴾ ٢ ٥٩٣

فهرس الأحاديث النبوية

طرف الحديث رقم الصفحة

- أ -

- أتاكم أهل اليمن ، هم أرق أفئدة ٤٩٣ ، ٤٩٨
 اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله ٦١١
 ألا أدلك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه ٣٦١
 إن الله أدبني فأحسن تأديبي ٦٢٨
 إن اليد العليا خير من اليد السفلى ٥٣
 انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً ٦١٠
 إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ٧١٦
 إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين ٦٠٦ ، ٦٢١
 أيها الناس إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ٤٧١

- ب -

- بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً ٢٣٦

- ر -

- رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا ٣٦١

- ع -

- عينان لا تمسهما النار ٣٦١

- ك -

- كلكم من آدم ، وآدم من تراب ٢٤٨
كلمتان حبيبتان إلى الرحمن ٧١٧

- ل -

- لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا ٧١٨
لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا ٢٦٩
لغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا ٣٦١
اللهم لا تجعل قبري وثناً يُعبد ٢٦٩
اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة ٣٤١

- م -

- ما اغبرت قدما عبد في سبيل الله فتمسه النار ٣٦١
من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا ٣٦٣

- لا -

- لا تجعلوا قبري عيداً ٧١٨ ، ٢٦٩
لا يترك دينان بجزيرة العرب ١٨٢
لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم ٣٦٢
لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين ٦١١

- ي -

- يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ٦٢٤ ، ٦١٢
يكفرن العشير ، لو أحسنت إلى إحداهن ٥٥٤
يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة ٤٣٥

فهرس الأعلام

ابن بطوطة المغربي ٧ ، ٤٠٣	- آ -
ابن تيمية الحراني ٢٩٤	آدم البنوري ١٤
ابن جامع ٣٨٨	آدم عليه السلام ٤٦٩ ، ٤٧١ ،
ابن جبير الأندلسي ٧	٥٧٨
ابن الجوزي ٣٣ ، ٣١٤ ، ٣٥٨	آزمون ٢٥٦
ابن حزم ٣٧٢	آغا محمد شاه ٢٦٣
ابن خلدون ٣٧٢ ، ٣٧٣ ، ٤١٩	- أ -
ابن رشد ٣٨٧ ، ٤١٩ ، ٤٤٥	إبراهيم أحمد المظاهري ١٧٩
ابن رشيق القيرواني ٤٠٣	إبراهيم أمين فودة ٦٤٥
ابن شداد ٧٧	إبراهيم الحسيني ٣٣٠ ، ٥٨٠ ،
ابن شهاب الزهري ٦٤٨	٦٢٧
ابن الطفيل ٤١٩	إبراهيم عليه السلام ٣٣ ، ٤٧٤ ،
ابن الغروم المرادي ٤١٨	٦٦٧
ابن قلاوون ٣٦٦	إبراهيم الندوي ٦٢٧
ابن القيم ٢٣٤	أبرهة ٥٨٤
ابن هشام ٣٦٥ ، ٤٠٣ ، ٤٤٤	أبرويز ٦٦٦
أبو إسحاق الشيرازي ٢٦٣	ابن الأحمر ٣٨٩
أبو الأعلى المودودي ١٧٢ ، ١٨٨	ابن إسحاق ٤١٩
أبو أيوب الأنصاري ١٢٧ ، ١٥٩ ،	
٦٩٠ ، ٦٣٢	

- أبو بكر ٤٥٧
أبو بكر بن العربي ٤٠٣
أبو بكر بن عمر اللمتوني ٣٨٥
أبو بكر الجزائري ٤٠٧ ، ٤٠٩ ،
٤١٠ ، ٤١٣ ، ٤٣١
أبو بكر الصديق ٢٢٦ ، ٤٥٩ ،
٤٧٠ ، ٥٨٨ ، ٦٤٥
أبو بكر الغزنوي ٤٢٩
أبو بكر القادري ٤٢٣ ، ٤٢٤ ،
٤٣٠ ، ٤٤٠
أبو بكر محمد بن الطفيل ٣٨٧
أبو بكر محمد بن فورك ٢٦٢
أبو تمام حبيب بن أوس الطائي
٢٨٤ ، ٢٨٧ ، ٣٥٨
أبو حامد الغزالي ، محمد بن محمد
٩٦ ، ١٦٢ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ،
٣١٤ ، ٣٨٦
أبو الحسن الشاذلي ٤٠٠ ، ٤٠٣
أبو الحسن علي الحسن الندوي ٥ ،
٨ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ ،
١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ٤٣ ، ٧٤ ،
١٥٥ ، ١٨٤ ، ١٩٩ ، ٣٥٥ ،
٣٥٦ ، ٤٦٣ ، ٥١٠ ، ٥٤٧ ،
٧٠٨ ، ٧٢٢
أبو حسون ٣٩١
أبو حنيفة النعمان ١٢ ، ٣٣ ، ٢٨٤
أبو الخير الميداني ٧٢
- أبو داود ١٦ ، ٢٦
أبو ذر ٤٣٧
أبو الريحان البيروني ٢٣٧
أبو العباس أحمد المنصور بالله ٣٩٢
أبو العباس البستي ٤٤٤
أبو عبد الله بن الأحمر ٣٩٠
أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن
تومرت ٣٨٥ ، ٣٨٦
أبو عبد الله محمد بن نصر المروزي
٣٢٦
أبو عبد الله محمد الشيخ ٣٩٠
أبو عبد الله محمد المتوكل على الله
٣٤٢
أبو عبيد الثقفي ٣٣
أبو عبيدة ١٣٠
أبو العرفان الندوي ٥١٤ ، ٥١٩ ،
٥٩٧
أبو علي بن سينا ٧١٣
أبو علي الفارسي ٢٦٣
أبو عمر ١٠١ ، ١٠٤ ، ١٠٨ ،
١٠٩
أبو عمران ٣٨٤
أبو الفائد محمد يحيى ٥٢٠
أبو الفرج الأصفهاني ٢٦٢ ، ٣١٤
أبو القاسم ٤٠٣
أبو الليث السمرقندي ٧١٢
أبو محجن الثقفي ٣٧٩

- أبو محمد ٥٠١
أبو محمد عبد الله الغالب ٣٩٢
أبو مدين ٤٠٠
أبو المعالي زيدان ٣٩٣ ، ٣٩٢
أبو معروف بن عبد الحق ٣٨٩
أبو منصور الماتريدي ٧١٢
أبو المهاجر دينار ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٣٧٩
أبو النصر الفارابي ٧١٣
أبو نعيم الأصفهاني ٢٦٢ ، ٣١٤
أبو الوليد الباجي ٤٠٢
أبو يزيد البسطامي ٢٨٤
أبو اليسر عابدين ٧٢
أبو يعقوب يوسف بن علي ٤٤٤
أبو يوسف ٣١٦
أبو يوسف يعقوب المنصور ٤٢١ ، ٤٢٢
أتاتورك = كمال أتاتورك
أترابرديش ٤٤٤
أجمل إصلاحى الندوي ٧٠٤
أحمد ١١٧ ، ٦٤٤
أحمد أمين بك ٤٣ ، ٤٤ ، ٥٤
أحمد الأنصاري ٧٠٠
أحمد برنسخ ١٦٥
أحمد بن حنبل ١٢ ، ٣٣ ، ٣١٤ ، ٣٢٦ ، ٦١٥
أحمد بن سودة ٤٤٧
أحمد بن عبد الأحد السرهندي
١٣١ ، ٢٩٤ ، ٤٩٦ ، ٤٩٧ ،
٥٢٩ ، ٥٥٥ ، ٦١٣ ، ٦١٤
أحمد بن عبد الرحيم ، ولي الله
الدهلوي ١٢ ، ٤٤٠ ، ٤٨٢ ،
٥١١
أحمد بن عبد العزيز المبارك ٤٩٠
أحمد بن عرفان الشهيد ١٤ ، ١٧ ،
٢٢٠ ، ٣٦٢ ، ٥٠١ ، ٥١٢ ،
٥١٤ ، ٥٦٩
أحمد بن محمد التيجاني ٤٠١
أحمد حسن البكر ٣١٦
أحمد حسن الزيات ١٨ ، ٤٣ ، ٤٤
أحمد خليفة السويدي ٦٠١ ،
٦٠٢ ، ٦٠٥ ، ٦١٧
أحمد الدقر ٧٢ ، ٧٦
أحمد السمان ٩٦
أحمد شاه أبدالي ٢١٨ ، ٢٤٥
أحمد الشرباصي ٤٤ ، ٤٨ ، ٥٤
أحمد عبد الحي ٦٧٧ ، ٦٩٥ ،
٦٩٦ ، ٦٩٧
أحمد عبد الرحمن البنا الساعاتي
٤٣ ، ٥٥
أحمد عبد الستار الجواري ٣١٦
أحمد عبد العزيز المبارك ٦٠١
أحمد عبد الغفور عطار ٣٧ ، ٣٨ ،
٤٠ ، ٩١

- أحمد عبد الله السدوسي ٣٧١
 أحمد عبده ناشر ٤٩٥ ، ٤٩٦
 أحمد علي الحسيني ٦٢٧
 أحمد علي اللاهوري ١٦
 أحمد علي الموكاتي ١٧٩
 أحمد فهمي زمزم ٥٦٦
 أحمد كفتارو ٧٢ ، ٧٤ ، ٧٦ ،
 ٣١٠ ، ٣٠٩
 أحمد لطفي السيد باشا ٤٤
 أحمد محمد جمال ٢٢٢ ، ٢٢٣ ،
 ٢٢٦ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣١ ،
 ٢٣٢ ، ٢٣٦ ، ٢٤٣ ، ٢٥٨ ،
 ٢٧٨ ، ٢٨٤ ، ٢٩٩ ، ٣٣٥ ،
 ٣٥١ ، ٣٦٣ ، ٥٩٦ ، ٧٠٥
 أحمد محمد شاكر ٤٣ ، ٥٤
 أحمد مطيع الصديقي ٦٩٣ ، ٦٩٩
 أحمد وبلو ٢٠٤
 الأحف بن قيس ٣٢٥ ، ٣٢٦
 إدريس ١٣٤ ، ١٣٨ ، ٤٠٠
 إدريس بن إدريس ٣٨٤
 إدريس بن عبد الله بن الحسن ٣٨٤
 إدريس الحسيني الثاني ٤١٤ ، ٤١٦
 إدريس السنوسي ١٨٧
 أديب الشيشكلي ٣٠٥
 أديب صالح ٣٦٨
 أديب كامل ١٦٠
 أرنولد توينبي ٦٣٠
 إسحاق بن إبراهيم ٣٨٨
 إسحاق بن إبراهيم الشاشي ٧١٢
 إسحاق بن محمد ٣٨٤
 إسحاق جليس ٤٥٨
 إسحاق الفرحان ٣٣١ ، ٣٦٨ ،
 ٤٨٩
 أسدي ٢٣٧
 أسرار أحمد خان ٦٩٨
 أسعد الحسيني ٣٦٨
 أسعد مدني ٧١٥
 أسكات ٣٩٣
 إسماعيل ١٣٣ ، ١٤٥ ، ٣٩٢ ،
 ٣٩٤ ، ٣٩٣
 إسماعيل الأكوغ ٥٠٨
 إسماعيل بك الأزهري ٦٦
 إسماعيل حامي دانشمند ١٤١
 إسماعيل حقي ١٥٨ ، ١٥٩
 إسماعيل راجي الفاروقي ٥٤٢
 إسماعيل الصفوي ٢٦٢
 إسماعيل مرجنت ٦٩٨
 أ. سي بوررد ٥٤٠
 اشتياق حسين القرشي ١٩٤
 أشرف الدين ٦٠٠ ، ٦٣٥
 إشفاق حسين ٥٩٨
 إقبال = محمد إقبال
 أكبر ١٣١
 أكرم حوراني ٨٧

البحري ٢٨٤ ، ٣٥٨ ،
 بحر العلوم ١٦٦
 البخاري ١٦ ، ٣٩١ ، ٤٩٨ ،
 ٥٣٥ ، ٦٥٨ ، ٦٩٢ ، ٧١٢ ،
 ٧١٣ ، ٧١٦ ، ٧١٧ ، ٧١٨ ،
 ٧٢٠ ، ٧١٩
 بختنصر ٢٦٥
 بدر الحسن القاسمي ٥٨٠ ، ٦٢٧ ،
 بديع الزمان الهمذاني ٢٣٧
 براونك ٤٧٢ ، ٤٧٣ ، ٤٧٥ ،
 ٥٤٠ ، ٥٧٧
 برهان الدين رباني ٢٢٥
 بشار ٢٣١
 بشار بن برد ٢٦٣
 بشر بن مروان ٣٨٢
 بشير الإبراهيمي ٥٥٩ ، ٥٦٠ ،
 بشير الباني ٣٠٩
 بشير حنون ١٥١
 بشير الدين ٥١٥ ، ٥٢٠ ،
 بليات ٣٧٨
 بهاء الأميري ١١٤
 بهاء الدين النقشبندي ٧١٣
 بهاء الدين ولد ١٦٧
 بهادر ياجنك ٥١٣
 بهرام خان ٣٦٢
 بهرام شاه ٢٣٨
 بهلول ٢٣٩

الفونس ٤٢١ ، ٤٢٢
 الفونس التاسع ٣٨٧ ، ٣٨٩ ،
 إليزابت ٣٩٢
 أمان الله خان ٢١٨ ، ٢١٩ ،
 ٢٢٧ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤
 امرؤ القيس ١٦٤
 أمين بروسك ٣٤٤
 أمين الحسيني ٤٤ ، ٥٤ ، ٢١٣ ،
 ٢٩٥
 أمين الريحاني ٢٨٨
 أمين سراج ٥٤٤ ، ٦٨٥
 أمين سلونوي ٦٩٣
 أمين الكتبي ٢٨
 أمين محمود خطاب ٤٤
 أمين المصري ٧٦
 أنس بن النضر ٥٠١
 إنعام الله خان ٥٢٣
 أنور إبراهيم ٥٦٦
 أنور باشا ١٣٩ ، ١٤٨ ،
 أنيس أحمد ٤٥٥
 أوردنك زيب عالمكير ١٣٢ ، ٢٦١ ،
 الأوزاعي ١٠٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٧ ،
 أويس القرني ٤٣٧
 أي كي بروهي ٤٥٧
 أيوب صبري خير أوغلو ١٥٦
 - ب -
 بال شويكي ١٤٤

- تيسير ظبيان ٧٢ ، ٣٤٣ ، ٣٦٨
- ج -
- ج ، ج ، دنيس ٦٣٨
- جابر قميحة ٦٨٤
- جاد الحق علي جاد الحق ٥٥٨
- جامي ٧١٩
- جان وليم درير ٦٣٩
- جرجير ٣٧٣
- الجزولي ٤١٨
- جستين ٦٣٩
- جعفر بن أبي طالب ٣٦٤ ، ٣٦٦
- جعفر الحسيني ٥٣٠
- جعفر الطيار ٥٠١
- جلال الدين أكبر ٦١٣ ، ٦١٤
- جلال الدين الرومي ١٠٦ ، ١٦٢ ،
- ١٦٤ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ،
- ٢٧٧ ، ٥٤٤ ، ٥٤٥
- جمال الدين الأفغاني ١٣٨
- جمال الدين عطية ٥٣٩ ، ٥٤١ ،
- ٥٤٢
- جمال عبد الناصر ١٨٥ ، ١٩١ ،
- ٢٠٩ ، ٤٤٩
- جميل جالبي ٥٢٥
- جنكيز خان ٦٣٩
- جهان سوز ٢٣٨
- جهانكير ١٣١
- جيليان ٣٨٢ ، ٣٨٣
- بهي الخولي ٥٥ ، ٥٨
- بوب ٢٦٠
- بول سلاس ٦٣٩
- بونة موري ٤٠٠
- البيروني ٣٥٠ ، ٤٨٨
- البيضاوي ١٦
- بيلا ٦٣٩
- بينظور بوتو ٥٥٢
- بيهن عبد العزيز ٧١٣
- ت -
- تاج الدين السبكي ٢٦٠
- الترمذي ١٦ ، ١٠٣ ، ٧١٢
- تقي الدين بن تيمية ١٢
- تقي الدين الصلح ٢٩٨
- تقي الدين الندوي ٦٠١ ، ٦٠٢ ،
- ٦٠٥ ، ٦١٧ ، ٦٢٠ ، ٧١٤
- تقي الدين الهلالي المراكشي ١٦ ،
- ٤٠٣ ، ٤١٠ ، ٤١٣ ، ٤١٤ ،
- ٤١٦
- تلمذ حسين ١٦٦
- تنكو عبد الرحمن ٥٧١
- التهانوي ١٦٦
- توفيق ١٠٤
- توفيق الحكيم ٤٣
- توفيق حوري ١٠١
- توينبي ١٧٥

حسن البنا ٤١ ، ٤٣ ، ٥٥ ، ٥٧ ،
 ٥٨ ، ٦١ ، ٤٠٧ ، ٦٧٨ ، ٧٠٠
 حسن التل ٣٣٢
 الحسن الثاني ٣٩٨ ، ٤٠٤ ،
 ٤٢٣ ، ٤٤١
 حسن حبنكة ٣١١ ، ٥٩٦
 حسن خالد ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٩٨ ،
 ٣٠٢ ، ٤٢٤
 حسن طارق العسكري ٧٠٢ ، ٧٠٣
 حسن كامل إيلماز ٦٨٥
 حسن الكواء ١٠٥ ، ١٠٨ ،
 حسن مشاط ٢٨
 حسنين محمد مخلوف ٤١ ، ٤٣ ،
 ٥٤ ، ٢٨٤
 حسين ٣٣١ ، ٣٣٣ ، ٣٣٥ ،
 ٣٧٤ ، ٤٨١ ، ٦٤٤
 حسين أحمد المدني ١٦ ، ١٥٦
 حسين بن علي ٢٧١
 حسين بن محسن الأنصاري
 الخزرجي ٤٩٤ ، ٥٠٨
 حسين الجسر الطرابلسي ٢٩١
 حسين الشاوي ٣١٦
 حسين عرب ٣٨
 حسين القوتلي ٢٨٥ ، ٢٩٠
 حسين يوسف ٤٤
 الحكيم السناني ٢٣٧ ، ٢٣٨ ،
 حمد الخليلي ٤٩٠

-ح-

حاجي حسن ٧١٣
 حافظ ٢٥٥
 حامد العابد ٧١٥
 حامد عبد الحي ٦٧٧ ، ٦٩٥
 حامد الفقهي ٤٣
 الحبيب بلخوجة ٤٣٧ ، ٤٣٨
 حبيب الله خان بن عبد الرحمن خان
 ٢١٨ ، ٢١٩
 حبيب الله ميلاني ٢٥٦ ، ٢٥٨
 حبيبة البورقادي ٤٣١ ، ٤٣٤
 الحجاج بن يوسف الثقفي ٣٨٢
 الحريري ٣٥٨
 حسان بن ثابت ٩٩
 حسان بن النعمان الأزدي ٣٨٠ ،
 ٣٨١ ، ٣٨٢
 الحسن ٣٧٤ ، ٤٤٤
 حسن إمامي ٢٥٦
 حسن الأمراني ٥٩٨ ، ٦٢٧
 حسن البصري ٩٦ ، ٢٩٤ ، ٣٢٩
 حسن بصري أفندي ١٣٩ ، ١٤٠
 حسن بن الصباح ٥٨٦
 حسن بن طلال ٤٧٩ ، ٤٨٠ ،
 ٤٨١ ، ٤٨٢ ، ٤٨٣ ، ٤٨٤
 الحسن بن علي ٤٦٠ ، ٦٠٤ ،
 ٦١٩
 حسن بن قاسم ٣٩٣

خليل بن محمد الأنصاري اليماني
١٥

خليل بن محمد اليماني ٤٩٣ ،
٥١٠ ، ٥٠٧ ، ٥٠٤

خليل الرحمن ١٩٦

خليل مردم بك ٧٢ ، ١٧٤

خليل الميس ٢٨٦

خورشيد أحمد ٦٥٩

خير الدين بيبرس ١٢٩

- د -

دار الأول ٢٦٤

دانشمند ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ،
١٤٥

داود الظاهري ٢٦٢

داود عليه السلام ٣٧٢

داود محمود ١٧٩

دقسي ٤٦٨

ديوك هنري ٦٣٩

- ذ -

ذو القرنين ٢٦٥

- ر -

راجيف غاندي ٥٥٧

الرازي ١٦٢

راشد الحوري ١٠٨

الراغب الأصفهاني ٢٦٢

ربيعي بن عامر ٦٠٦ ، ٦٦٩ ، ٦٧٠

الحمداوي ٤٣١ ، ٤٤٣ ، ٤٤٤ ،
٤٥٠

حمود هاشم الذاراحي ٤٩٧

حميد بن راشد النعيمي ٤٧٧

حميد الله ١٩٥ ، ٧٠٠

حنيفة محمد حنيفة ٢٢١

حيدر باشا ١٤٥

حيدر حسن خان الطونكي ١٦ ،
٤٩٤

حي بن يقظان ٤١٩

- خ -

خاجا بلغار ٢٣٩

خاجا حافظ ٢٦٣

خاجا فريد الدين عطار ٢٦٢

خالد بن الوليد ٧٩ ، ١١١ ،
١٣٠ ، ٣٦٤ ، ٣٦٥ ، ٤٦٠

خالد الرومي ٨٩

خالد زينل ٦٤٤ ، ٦٤٥

خبيب ٥٠١

خسرو ١٦٨

الخضر ٦٨٦ ، ٦٨٧

خليفة بن حمد آل ثاني ٤٦٤

خليفة السويدي ٦٢١

خليق أحمد نظامي ٤٧٢ ، ٥٧٩ ،
٦٣٥ ، ٦٩١ ، ٧١٥

خليل ٢٩٢

- زهير شاويش ٣٠٣
 زويمير ٢٦٠
 زيدان بن أحمد ٣٩١
 زيد بن حارثة ٣٦٤ ، ٣٦٥
 زين العابدين خير الله ٣٧ ، ١٢٦ ،
 ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٣ ، ١٣٥ ،
 ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤٥ ،
 ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٥٠ ، ١٥١ ،
 ١٦٠ ، ١٧١
- س -
- ساجد حسين ٦٩٣ ، ٦٩٩ ، ٧٠٠
 سالم الرشيدى ١٥٨ ، ١٥٩
 سالم عبد الله علي المحمود ٤٧٧ ،
 ٦٠٢ ، ٦٠٣ ، ٦١٨ ، ٦٧٩
 السرخسي ٧١٢
 سردار داود خان ٢٤٠
 سعادة ٣٩٠
 سعد ١٠٠
 سعد البغدادى ٤١٨
 سعد بن أبي وقاص ٣٣ ، ٢٤٩ ،
 ٦٦٩
 سعد بن الربيع ٥٠١
 سعد الدين ١٠٨
 سعد الدين الوليلي ١٠٧ ، ١٠٨ ،
 ١١١
 سعد الراوي ٣١٨
 سعدي ٢٥٥
- رستم ٤٣٦ ، ٦٠٦ ، ٦٦٩ ، ٦٧٠
 رشدي ٤٥٧
 رشدي فكار ٤٢٤ ، ٤٢٥
 رشدي الكخيا ٨٨
 الرشيد بن الشريف ٣٩٣
 رشيد الحسن ٥٥١ ، ٥٥٦
 رشيد رضا ١٧ ، ١٠٥ ، ١٠٧
 رشيد الميقاتي ٢٩٢
 رضا أحمد الصديقي ٦٩٣
 رضوان دعبول ٤٨٨ ، ٤٩٠
 رضوان الندوي ٣٤
 رفيق وفا الدجاني ٣٤٩ ، ٣٦٠ ،
 ٣٦٧ ، ٤٨٧
 روبرت بريغال ٦٣٨
 روم لاندو ٣٩٧ ، ٣٩٨
 الرومي = جلال الدين الرومي
 رئيسة ٦٥٢
 ريوهاند غلام محمد نيازي ٢٢٤
- ز -
- زاهد الكوثري ٤٣ ، ١٣٩
 زاهر كفتارو ٣٠٩
 زايد آل نهيان ٦٠١ ، ٦٠٥ ،
 ٦١٧ ، ٦٢٧
 زعيم الدين الهندوسي (سوامي)
 دويكانند ٦٧٦
 زكي علي ١٩٥
 زهير بن قيس البلوي ٣٧٧ ، ٣٨٠

- سليم جلال الدين ٢٩٤
 سليم سوسان ٢٩٢
 سليمان ٣٩٥ ، ٤٤٤
 سليمان بن يحيى بن عمر مقبول
 الأهدل ٥٠٩
 سليمان بن داود ٤٢٢
 سليمان بن عبد الملك ٣٨٣
 سليمان حسن ربيع المصري ٤٣٣ ،
 ٤٤٨
 سليمان القانوني ١٣٦ ، ٣٩١
 سليمان موسى ٧٠
 سليمان الندوي ١٤٠ ، ١٥٧ ،
 ١٦٥ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٣ ،
 ٢٣٦
 سميع الدين زوند ٢٣٢
 سنان ١٦٥
 السنائي ٢٣٧
 سهيل أحمد ٧٠٨
 السهيلي ٤٤٤
 سيويه ٢٨٤
 سيد حسين نصر ٢٥٧
 سيد قطب ٤٤ ، ٥٣ ، ٢٢٤
 سيف ٦٠٢
 سيف الدين ٢٣٨
 سيف العزيز ٦٠٣ ، ٦٠٤ ، ٦١٨ ،
 ٦٢٠ ، ٦٧٩
 سينز بليك استون ٦٤٠
 سعدي ياسين ٢٢١ ، ٢٨٥
 سعود ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٢ ، ١٠٢ ،
 ١٠٧ ، ١٨٧ ، ١٩١
 سعود الحق الندوي ٥٢٠
 سعيد الأعظمي الندوي ٣٦٩ ،
 ٣٧٠ ، ٥٩٠ ، ٥٩٨ ، ٦٢٦ ،
 ٦٢٧ ، ٦٩١ ، ٧١٤
 سعيد الأفغاني ٧٦
 سعيد البالنوري ٧١٥
 سعيد رمضان ٤٤ ، ٥٦ ، ٩٧ ، ٩٩ ،
 ١٢٥ ، ١٧١ ، ١٩٤ ، ٢٠٧ ،
 ٣٣٧ ، ٥٤٢ ، ٦٧٨ ، ٧٠٠
 سعيد شعبان ١٠٦
 سعيد العامودي ٣٨
 سعيد عثمان بن عبد الحق ٣٨٩
 سعيد لوتاه ٦٠٣ ، ٦١٨ ، ٦٧٩
 سعيد نوائظ ٦٧٩
 سلطان بن محمد القاسمي ٣٦٩ ،
 ٤٦٧ ، ٤٧٧ ، ٦٠١ ، ٦٠٣ ،
 ٦٠٤ ، ٦١٧ ، ٦٢٠ ، ٦٧٩
 سلطان ذوق ٥١٤ ، ٥٢٠ ، ٦٢٨
 سلطان ولد ١٦٧
 سلمان ٦٤٤ ، ٧٢٠
 سلمان الحسيني الندوي ٤٦٩ ،
 ٥١٤ ، ٥٢٠ ، ٦٩٧ ، ٧١٨
 سلمان رشدي ٦٣٦ ، ٦٤٠ ، ٦٤١
 سلمان الفارسي ٢٤٩

شیر شاه السوری ٥١٥
شیرین ٦٦٦
- ص -
الصابی ٣٥٨
صالح الأشر ٤١٧
صالح أوزجان ٥٩٦
صالح بن شریف الرندی ٣٤٥
صالح حرب باشا ٤٤ ، ٤٨ ، ٥٤ ،
٣٩١
صالح الحصین ٥٩٨
صالح العشماوی ٤٤ ، ٥٦
صالح علیه السلام ٥٧٤
صالح القزاز ٤٠٥
صاوی شعلان المصری ٢٥٨
صائب سلام ٢٩٨
صبحی صالح ٢٩٨ ، ٤٢٤ ، ٤٢٦
صبغة الله المجددی ٢٣٥ ، ٢٩٠
الصبیحی ٥٠٤
صدر الدین الشیرازی ٢٦٤
صدر الدین القونوی ١٦٨
صدري مقصودی ١٤٤
صدیق حسن القنوجی البوفالی ٥٥٦
صدیق فاضل ٥٧٣
صلاح الدین الأیوبی ٧٧ ، ٣٤٠ ،
٤٨٤ ، ٤٨٥ ، ٤٨٩
الصمة بن عبد الله ٣٠٥

- ش -

شاه الحمید ٤٧١
شاهجهان ١٣٢
شاهد بوشیخی ٤٢٠
شبلی النعمانی ٩ ، ١٤٠ ، ١٦٦ ،
٣٨٦ ، ٦٩٠ ، ٦٨٩
شرف الدین بابا خانوف ٤٨١
شریعة مداري ٢٥٨
الشریف الرضی ٣٥٨
الشریف محمد ٣٩٣
شعیب أرناؤوط ٤٨٨
شفیع ١٠٧
شفیق یموت ١٠٢
شکری القوتلی ٩٤ ، ١٧٣ ، ٣٠٥
شکيب أرسلان ٢١٥ ، ٤٠٠
شمس الحق الندوی ٥٦٦
شمس الدین ٥٧٥
شمیم ٧٠٥
شهاب بن عبد اللطیف ٤٤٥
شهاب الدین محمد الغوری ٢٣٨ ،
٢٤٥ ، ٤٢١
شهاب عبد اللطیف محمد ٤٤٣
شهداء ١٥٦
شهید الله ٤٦٩
شوقی ٣٠٥ ، ٣١٠
شوقی أسد ٦٦

- ض -

الضحاك بن قيس الفهري ٣٨١

ضياء الحسن الندوي ٦٨١ ، ٦٩١

ضياء الدين بابا خانوف ٣١٧ ، ٤٨١

ضياء الدين الصابولي ٦٢٨ ، ٦٨٤

ضياء عبد الله ٧٠٦

- ط -

طارق بن زياد ٣٨٢ ، ٣٨٣ ،

٤٣٦ ، ٤٠٢

طارق حسن عسكري ٥٣٠ ، ٧٠٤

طاغور ٥١٩

الطبري ٢٤٩

طفيل أحمد المدني ٦٢٧

طه ١٥١

طه حسين ٣٨ ، ٤٣ ، ٥٤

طه الصابونجي ٢٩٢

طه عبد الله الندوي ٧٠٦

طه العراقي ١٢٦

طه الموصللي ١٣٥

طيب عبد المقصود ٦٥

- ظ -

ظفر أحمد الأنصاري ١٧٢ ، ٥٢٨

ظفر إسحاق الأنصاري ١٩٥

ظفر علي خان ٥٢٦

ظهور الإسلام الندوي ٤٢٣ ، ٤٣٤

ظهير الدين محمد بار ٢٣٦ ، ٧١٣

- ع -

عالي باشا ١٤٣

عائشة ١٤٤

عباس الصفوي ٢٦٢

عباس محمود العقاد ٣٨ ، ٤٣

عباس المهاجراني ٢٥٧

عباس هويدي ٢٥٦

عبد الباسط بدر ٥٩١ ، ٥٩٨ ،

٦٢٧

عبد الباقي جمو ٣٥٠

عبد الحق بن محيو ٣٨٩

عبد الحكيم عابدين ٥٦ ، ٢٨٥

عبد الحميد ٤١٢

عبد الحميد خان ١٢٩ ، ١٣٤ ،

١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٢ ،

١٤٤ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ٣٤٠ ،

٥٤٧ ، ٦٨٩

عبد الحميد سعيد ٤٦

عبد الحميد سورتلي ١٧٩

عبد الحميد الندوي ٦٧٩

عبد الحي بن فخر الدين الحسيني

١٥ ، ٤٣٤ ، ٤٨٣ ، ٦٩٢

عبد خلف ٣٣١ ، ٣٥٩

عبد الرحمن ٣٩٥ ، ٤٠٦

عبد الرحمن الباني ٧٢

عبد الرحمن بن خلدون ٤٠٣

عبد الرحمن بن هشام ٣٩٥

- عبد السلام بن مشيش ٤٠٠
عبد السلام المجدد ٢٣٥
عبد السلام الهراس ٤١٧ ، ٤٢٠ ،
عبد السميع ٦٩٣
عبد العزيز ١٢٩ ، ١٣٣ ، ١٤٥ ،
١٤٧ ، ٥٤٧ ، ٦٩٢
عبد العزيز أحمد بن موسى ٤٤٤
عبد العزيز بن باز ١٨٩ ، ١٩١ ،
٥٨٧
عبد العزيز بن سيف الرحمن الطوكي
٢٣٥
عبد العزيز بن عبد الله ٤٣٠
عبد العزيز بن مروان ٣٨٢
عبد العزيز الخياط ٣٦٨
عبد العزيز دباغ ٤٠٣ ، ٤١٦ ،
عبد العزيز الرابع ٣٩٧
عبد العزيز الرفاعي ٥٣٧
عبد العزيز عبد الغني ٥٠٤
عبد العزيز علي ٥٧٧
عبد العزيز العلي المطوع ٥٧٨ ،
٦٣٦
عبد العزيز المقالح ٤٩٧
عبد العزيز الميمني ١٧٤ ، ٥١١ ،
عبد العلي الحسيني ١٥٠ ، ٥٩٠ ،
عبد الغني شمس الدين ٥٧١
عبد الغني محمد نورولي ٥٩٥
عبد الفتاح ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ ،
- عبد الرحمن حبنكة ٥٩٦
عبد الرحمن خليفة ٤٨٨
عبد الرحمن الدوسري ١٨١
عبد الرحمن رأفت باشا ٥٣٨
عبد الرحمن السهيلي ٤٠٢
عبد الرحمن شيبان ٤٦٨
عبد الرحمن صالح العشماوي ٦٨٤
عبد الرحمن الغازي ٢٢٣
عبد الرحمن عزام باشا ٤٤
عبد الرحمن القاسمي ١٧٨ ، ١٧٩ ،
عبد الرحمن محبوب ٥٠٤
عبد الرحمن نشاط ٧٠٥
عبد الرزاق بن همام الصنعاني ٥٠٦
عبد الرزاق حمزة ٢٨
عبد الرزاق الرائي بريلوي ٥١٥
عبد الرزاق صالح ١٨٠ ، ١٨١ ،
٣٣٠
عبد الرزاق الفياض ٣١٥ ، ٣١٦ ،
عبد الرزاق محيي الدين ٣١٨
عبد الرسول سيف ٢٢٣ ، ٢٢٤ ،
٢٣٢
عبد الرشيد الندوي ٣٤ ، ٤٢ ،
٧٠٣
عبد الرؤوف المصري ٥٦٧ ، ٥٧٥ ،
عبد الستار الأفغاني ٥٥١
عبد الستار السيد ٣١١ ، ٤٦٢ ،
عبد الستار سيرت ٢٣٢

- عبد اللطيف خان ٣٣٠ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٦ ، ١٥٠ ، ١٥١
- عبد الله ٣٨٥
- عبد الله أحرار ٧١٣ ، ١١٤ ، ١١١ ، ١١٤ ، ١١٤ ، ١١٤
- عبد الله إدريس ٦٢٧ ، ٧١٧ ، ٧١٨ ، ٧١٩
- عبد الله الأشر بن محمد ١٤
- عبد الله الأنصاري ٢٣٤ ، ٢٨٤ ، ٣٩٥
- عبد الله باهبري ٢٨٤
- عبد الله البغدادي ٥٣٤
- عبد الله بلخير ٥٣٤
- عبد الله بن أبي المهاجر ٣٨٤
- عبد الله بن جعفر ٣٧٤
- عبد الله بن الحسن ٢٩
- عبد الله بن حسين ٣٣٣ ، ٣٣٤
- عبد الله بن رواحة ٣٦٤ ، ٣٦٥ ، ٣٦٦
- عبد الله بن الزبير ٣٧٤ ، ٣٧٥
- عبد الله بن زيد المحمود ٤٦٤
- عبد الله بن زين العابدين ١٤٩
- عبد الله بن سعد بن أبي السرح ٣٧٣ ، ٣٧٤
- عبد الله بن الشريف حسين ٧٤ ، ٤٨١
- عبد الله بن عباس ٣٧٣
- عبد الله بن عبد العزيز آل سعود ٦٤٤
- عبد الله بن عبد المحسن التركي ٥٣٧ ، ٥٧٧ ، ٦٤٤
- عبد الله بن عمر ٣٧٣
- عبد القادر السبسي ١١٢
- عبد القادر الفاسي ٤١٦
- عبد القادر الكيلاني ٢٨٤ ، ٢٩٤ ، ٣١٤ ، ٣١٦ ، ٣١٧ ، ٣٢٠ ، ٣٢١
- عبد القادر المغربي ٧٢
- عبد القدوس أبو صالح ٥٩٨
- عبد القدوس الأنصاري ٣٨
- عبد الكريم ٣١٧
- عبد الكريم باريكه الناكبوري ٥١٤ ، ٥١٩
- عبد الكريم الخطابي ٤٨
- عبد الكريم الخطيب ٤٢٤ ، ٤٢٩
- عبد الكريم الريفي ٤٤
- عبد الكريم قاسم ٣٢٣
- عبد الكريم نيازي ٢١١
- عبد اللطيف ١٨٠
- عبد اللطيف بن عبد الجليل ٤٢٦
- عبد اللطيف الجونفوري ٧٠٦

- عبد الله بن عمرو بن العاص ٣٧٤ ،
٣٧٥
- عبد الله التل ٣٤٨ ، ٣٤٩ ،
عبد الله الثالث ٣٩٠
- عبد الله الحسيني ٤٦٢
عبد الله دراز ٤٣
- عبد الله الدهلوي ٨٩
عبد الله زين العابدين ١٢٣
- عبد الله السالم الصباح ١٨٢
عبد الله سليم ٦٩٧
- عبد الله عباس الندوي ٣٤ ، ١٨٤ ،
١٩٥ ، ٢٢١ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ،
٥٨٣ ، ٥٩٦ ، ٥٩٧ ، ٥٩٨ ،
٧٠٥ ، ٧٠٦ ، ٧٠٧
- عبد الله عبد المحسن التركي ٤٢٨
عبد الله عزام ٣٣٢ ، ٣٦٨ ،
عبد الله علي بصفر ٥٩٢ ، ٥٩٩ ،
٦٤٦
- عبد الله العلي المحمود ٤٧٦ ، ٦٠٢ ،
عبد الله العلي المطوع ٥٨٠
- عبد الله عمر نصيف ٤٧٧ ، ٥٤٠ ،
٥٧٧ ، ٥٧٨ ، ٥٨٣ ، ٥٨٧ ،
٦٣٥ ، ٦٤٤ ، ٦٤٥ ، ٦٩٢ ،
٧١٥ ، ٧١٦
- عبد الله الغرير ٦٧٩ ، ٦٨٠ ،
عبد الله القادري ٤٩١
عبد الله كنون ٤٥١
- عبد الماجد الدرايبادي ١٦٧
عبد الماجد الغوري ٦ ، ٩ ،
عبد المتعال الصعيدي ٤٨
عبد المجيد سليم ٤٣ ، ٥٠ ، ١٤٥ ،
عبد المحسن عباد ٤٠٧ ، ٤٠٩ ،
٤١٠
- عبد المحسن السمان ٢٨٥
عبد المطلب ٥٨٤
عبد المقصود خوجة ٥٣٤
عبد الملك بن الشيخ ٣٩٢
عبد الملك بن مروان ٣٨٠ ،
٣٨١ ، ٣٨٢ ، ٣٨٥
عبد المنعم خلاف ٤٨
عبد المؤمن بن علي ٣٧٣ ، ٣٨٦ ،
٤٢١ ، ٤٢٢
عبد الناصر ٤٣
عبد الهادي ٢٢٧
عبد الهادي التازي ٤٢٩
عبد الهادي الحاج أونج ٥٦٨ ،
٥٧٠
عبد الهادي هدايت ٢٣٢
عبد الواحد العلوي ٤١٧
عبد الودود ١٠٤
عبد الوهاب بك خلاف ٤٣
عبد الوهاب الصلاحي ٧١ ، ٩٥ ،
عبد الوهاب عبد الواسع ٤٦٢ ،
٤٦٣

عطية سالم ٥٣٣
 عظمة الله القادري الحيدر آبادي
 ٦٩٥ ، ٦٩٤
 عقبه بن نافع ٣٧٥ ، ٣٧٦ ، ٣٧٨ ،
 ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٩٩ ، ٤٣٦
 علاء الدين الحسين بن الحسن ٢٣٨
 علال الفاسي ٤١٨ ، ٤٢٤ ،
 ٤٣٠ ، ٤٣٨ ، ٤٣٩ ، ٤٤٠
 علم الله بن فضيل الحسني النقشبندي
 ١٤ ، ٤٤٣
 علوي المالكي ٢٧
 علي ٤٣٩ ، ٤٩٧
 علي أحمد الندوي ٧٠٤
 علي بن أبي بكر المرغيناني ٧١٢
 علي بن أبي طالب ١٨ ، ٣٣ ،
 ٢٣١ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٨٢ ،
 ٣٢٥ ، ٣٧٤ ، ٤٢٥ ، ٥٥٣
 علي بن عيسى أبو الحسن الربيعي
 ٢٦٣
 علي بن يوسف ٣٨٥
 علي بن يوسف بن تاشفين ٤٤٥
 علي حسن فدعق ٣٨ ، ٣٠٣ ،
 ٥٣٤
 علي رجب ٥٦٦
 علي الرضا بن موسى الكاظم
 ٢٥٧ ، ٢٦١ ، ٢٦٩
 علي شرفة ٦٠٢

عبيد الحق ٥٢٠
 عبيد الله أحرار ٧١٩
 عبيد الله البليادي ٣١ ، ٤٥ ، ٦٥ ،
 ٩٠
 عبيد الله السندي ١٩٩
 عتيق الرحمن ٤٥٨
 عثمان أفندي ١٥٥
 عثمان بن عفان ٣٧٣ ، ٣٧٤ ،
 ٣٧٥ ، ٤٢٥
 عثمان الحيدر آبادي ٦٠٤
 عثمان خان الأول ٥٤٩
 عثمان ذكي ٦٢٨
 عثمان الساعاتي ٢٧
 عثمان نوري أفندي ٥٤٤ ، ٥٤٩
 عدنان الجسر ٢٩٠
 عدنان الحلبي ١٢٦
 عدنان فيدرس ١٥٢
 العربي الدرقاوي ٤٠١
 عرفان أمين ٦٩٣
 عز الدين الخطيب ٣٣٢
 عزت أزود ٥٤٦
 عزت حسن ١٦١
 عزيز ٦٨٧
 عسجدي ٢٣٧
 عصمت أنونو ١٥٣
 عطاء الله ٦٩٣
 العطار ١٦٢

- علي صالح المحويبي ٦٠٢
 علي الصقير ٣١٥
 علي الطنطاوي ٧٠٥
 علي عبد الله صالح ٥٠٤
 علي علوي ١٥٥ ، ١٥٨
 علي مزيج ٣٣٢
 علي فؤاد باشكيل ١٤٧ ، ١٤٨ ،
 ١٤٩
 علي الفوزان ٢٢٣
 علي كمال ١٦٥ ، ١٦٩
 علي لالا ٢٣٩
 علي المثني ٣٩٣
 علي ميرغني باشا ٦٦ ، ٦٩
 علي نار ٦٢٦ ، ٦٨٤
 عماد الدين خطيب ٥٧٥
 عمر ٤٠١ ، ٦٧٩
 عمر بهاء الأميري ٧٦ ، ١١٢ ،
 ٤٢٣ ، ٤٨٩ ، ٤٩٠ ، ٥٩١
 عمر بن الحسن آل الشيخ ٢٩ ،
 ٣٠ ، ٣١
 عمر بن الخطاب ٣٣ ، ١٣٠ ،
 ٣٧٣ ، ٣٨١ ، ٣٦٠ ، ٥٩٣
 عمر بن عبد العزيز ٣١ ، ٣٦٣ ،
 ٣٨٣ ، ٤٦٠ ، ٥٠٢
 عمر بيلين ١٦٣ ، ١٦٤
 عمر الخيام ٢٦٢ ، ٤٠١ ، ٦٧٩
 عمر الداوق ١٠١ ، ٢٠٤
 عمر رضا ١٤٠
 عمر محسن بن محمد ٤١٣
 عمرو بن العاص ٣٧٣ ، ٣٧٤ ،
 ٣٧٥ ، ٥٠٨ ، ٥٢٧ ، ٦٣١
 عياض (القاضي) ٤٠٣ ، ٤٤٤
 عيسى صديق ٢٦٠
 - غ -
 الغزالي = أبو حامد الغزالي
 غفاري ٢٣٧
 غفور ٤٦٠
 غلام رباني ٢٣٥
 غلام محمد ٦٢٧
 غلام محمد الحيدر آبادي ٥٦٧ ،
 ٦٣٥
 غلام محمد نيازي ٢٢٣ ، ٢٢٦
 غياث الدين منصور ٢٦٤
 - ف -
 ف. عبد الرحيم ٧٠٤
 فاروق ٤٤
 فاروق جرار ٤٨١
 فاضل الطائي ٣١٨
 فاطمة الزهراء ٤٣٧
 فتح الله الشيرازي ٢٦٤
 فتحي شريف ١٠٦
 فرانكو ١٩٦
 فرحان نظامي ٤٧٢ ، ٤٧٣ ،

- ٤٧٤ ، ٥٤٠ ، ٥٧٦ ، ٥٧٧ ،
 ٥٧٨ ، ٥٧٩ ، ٦٤٥ ، ٦٩١ ،
 ٧١٦
 فرّخي ٢٣٨
 فردوسي ٢٣٧ ، ٢٥٩
 فرعون ٣٢٨
 فريد الدين عطار ٢٨٠
 فريد عبد الخالق ٥٦
 فريد وجدي ٤٤
 فصيح أحمد الصديقي ٦٩٣
 فضل عمر المجددي ٢٣٤
 الفضيل الورتلاني ١٠٥ ، ١٠٧
 فكري أباطة باشا ٤٣
 فهد ٢٠٤
 فهد بن عبد العزيز ٦٤٤
 فوزي باشا ١١٦
 فولتير ١٤٢
 فيصل ١٩ ، ١٨٩ ، ١٩١ ، ٢٠٤ ،
 ٢٤٤ ، ٣٣٥
 فيصل بن سلطان القاسمي ٦٠٢ ،
 ٦١٧
 فيصل بن غازي ٣٢٣
 فيصل العسلي ٨٧
 فيصل مولوي ٢٩٢
 فيليب الثاني ٣٩٢
 - ق -
 القادري ٦٩٨
- قارون ٣٢٩
 قاري محمد طيب ٤٥٧
 قاسم الأمعري ٣٣٤
 قاسم باشا ١٥٨
 القائم بأمر الله ١٤٥
 قثم بن عباس ٧١٩
 قسطنطين بن هرقل ٣٧٤
 قسطنطين زريق ٧٦
 قطب الدين المدني ١٤
 - ك -
 ك . ب . كريفن ٥٤١
 كاظم زاده ٢٥٦
 كامل تركي ١٢٠
 كامل الشريف ٣٣١ ، ٣٣٣ ، ٣٣٥ ،
 ٣٣٧ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٥١ ،
 ٣٥٦ ، ٣٦٨ ، ٤٦٢ ، ٤٨٩
 كامل الباقر ٥٧٧
 كانو ٤٨٨
 كرامت علي الجونفوري ٥١٢ ،
 ٥١٣
 كرد علي ١٩٦
 كرها ٤٣٢
 الكسائي ٢٨٤
 كسيلة ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨١
 الكلیم = موسى عليه السلام
 كمال أبوالمجد ٤٨٩
 كمال أتاتورك ٥٠ ، ١١٦ ، ١١٨ ،

- محمد أحمد بك الغمراوي ٤٤ ، ١٢٨ ، ١٣٤ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ،
 محمد أحمد دهمان ٧٢ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ،
 محمد إرشاد ٥١٨ ، ١٥٣ ، ١٦٠ ، ١٧٥ ،
 محمد أرشد البشوري ١٨٦ كمال أديب ١٦١
 محمد إسحاق ٥٧٧ كمال شنوازي ٢٣٢
 محمد أسد ١٠٤ ، ١٩٥ ، ٣٠٧ - م -
 محمد أسعد المدني ٤٥٨ ماركس ٥٤١
 محمد إسلام تسليم ٢٢٣ ، ٢٣٢ مالك ٤٤٥ ، ٤١٨
 محمد إسماعيل ٦٧٩ مالك بن أنس ١٢
 محمد إسماعيل ميمن ٧٠٨ مأمون ١٥١ ، ١٥٤
 محمد إقبال ١٢ ، ١٣ ، ٤٩ ، ٥٤ ، ماو ٥٤١
 ٥٧ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٨ ، ٩٩ ، مبشر الطرازي ٤٤
 ١١٦ ، ١١٨ ، ١٣٠ ، ١٣٢ ، متعب بن عبد العزيز ٣٠٣
 ١٤٠ ، ١٦١ ، ١٦٩ ، ١٩٧ ، متمم بن نوية ٣٤٣
 ١٩٨ ، ٢٠١ ، ٢١٩ ، ٢٢٣ ، المتنبى ٣١٧ ، ٣٥٨ ، ٣٩١
 ٢٣٣ ، ٢٣٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، مثنى بن حارثة الفزار ٣٣
 ٢٥٨ ، ٢٧٧ ، ٢٨٠ ، ٤٣٣ ، مجد الدين الفيروز آبادي ٥٠٩ ،
 ٤٣٦ ، ٤٣٧ ، ٤٤٠ ، ٤٦٥ ، ٥١٠
 ٤٧٤ ، ٤٨٤ ، ٤٩٠ ، ٤٩٦ ، محب الدين الخطيب ١٨ ، ٤٤ ، ٤٨
 ٥٠٩ ، ٥١٤ ، ٥٣٠ ، ٥٣٢ ، محجم مسلم ١٠٦
 ٥٣٣ ، ٥٣٤ ، ٥٤٤ ، ٥٤٦ ، محسن أحمد باروم ٣٨ ، ٥٩٢ ،
 ٥٤٨ ، ٦٤١ ، ٦٤٥ ، ٦٤٨ ، ٥٩٦
 ٦٦٦ ، ٦٨١ ، ٦٨٤ ، ٧٠٣ ، محسن العثماني ٦٢٧
 محمد أكرم الندوي ٦٩١ محمد إبراهيم شقرة ٣٣٢ ، ٣٥١ ،
 محمد إلياس الكاندهلوي ١٧ ، ٤٨٨ ، ٤٨٩
 ٤٢٠ محمد إبراهيم المجددي ٢٣٥
 محمد أمين الشنقيطي ٣٣٣ ، ٣٤٤ محمد أبو عبد الله المهدي ٣٩١

محمد أنيس حمود ٢٩٢
 محمد البرتغالي ٣٩٠
 محمد بركات ٢٨٦
 محمد بشير الإبراهيمي ٩٧
 محمد بن إبراهيم آل الشيخ ١٨٧
 محمد بن إدريس ٤٤٥
 محمد بن إدريس الشافعي ١٢
 محمد بن البشير ٤٢٨ ، ٤٤٦
 محمد بن تومرت ٤٢١
 محمد بن راشد المكتوم ٢٠
 محمد بن سليمان الجزدلي ٤٠٣ ،
 ٤٤٤
 محمد بن عبد الرحمن ٣٩٥
 محمد بن عبد الوهاب ٢٩ ، ١٨٩
 محمد بن علي الشوكاني ٥٠٦
 محمد بن القاسم الثقفي ٩٨ ، ١٣١
 محمد بن محمد الإدريسي ٤٠٣
 محمد بهجة البيطار ٧٢ ، ٧٦ ، ٩٦
 محمد التازي ٤١٧
 محمد تقي القمي ٢٥٦ ، ٢٥٨
 محمد التهامي ٦٨٤
 محمد الثاني ٢٣ ، ٢٧
 محمد جميل ٥٢٧
 محمد حافظ ٧٠٦
 محمد الحريري الوراق ٤١٠ ، ٤١٢
 محمد حسن بريغش ٥٩٨
 محمد الحسنسي ١٠٠ ، ٢٠٠ ،
 ٤٥٨ ، ٤٦٢
 محمد حسين هيكل ٤٣ ، ٥٤
 محمد الحمد الشبيلي ٢٢٣ ،
 ٢٤٠ ، ٢٤٣
 محمد حمودة ١١٤
 محمد حنيفة محمد ٤٧١
 محمد الخامس ٣٩٨ ، ٤١٢ ،
 ٤٤٨ ، ٤٤٩ ، ٤٥٠
 محمد خليل كمرآني ٢٥٨
 محمد خليل كمره آي ٢٥٦
 محمد داود الغزنوي ٤٢٩
 محمد الرابع الحسنسي الندوي ٥ ،
 ٦ ، ٣٥ ، ٩٠ ، ٩١ ، ١٨٠ ،
 ١٨٤ ، ١٨٩ ، ٢٠١ ، ٢٠٣ ،
 ٢٨٥ ، ٤٠٥ ، ٤١٠ ، ٤٣٤ ،
 ٤٦٦ ، ٤٦٧ ، ٤٧٣ ، ٤٧٧ ،
 ٤٩٢ ، ٥٤٣ ، ٥٥٦ ، ٥٥٨ ،
 ٥٦٦ ، ٥٧٦ ، ٥٨٠ ، ٥٨٣ ،
 ٥٩٥ ، ٥٩٨ ، ٦٢٦ ، ٦٢٧ ،
 ٦٣٥ ، ٦٤١ ، ٦٤٢ ، ٦٤٣ ،
 ٦٥٨ ، ٦٧٤ ، ٦٧٥ ، ٦٧٧ ،
 ٦٧٩ ، ٦٨٢ ، ٦٩١ ، ٦٩٤ ،
 ٦٩٦ ، ٧٠٠ ، ٧٠٢ ، ٧١٤ ،
 ٧١٥ ، ٧١٧
 محمد رشاد ١٤٤
 محمد رضوان الندوي ٩٧

محمد أنيس حمود ٢٩٢
 محمد البرتغالي ٣٩٠
 محمد بركات ٢٨٦
 محمد بشير الإبراهيمي ٩٧
 محمد بن إبراهيم آل الشيخ ١٨٧
 محمد بن إدريس ٤٤٥
 محمد بن إدريس الشافعي ١٢
 محمد بن البشير ٤٢٨ ، ٤٤٦
 محمد بن تومرت ٤٢١
 محمد بن راشد المكتوم ٢٠
 محمد بن سليمان الجزدلي ٤٠٣ ،
 ٤٤٤
 محمد بن عبد الرحمن ٣٩٥
 محمد بن عبد الوهاب ٢٩ ، ١٨٩
 محمد بن علي الشوكاني ٥٠٦
 محمد بن القاسم الثقفي ٩٨ ، ١٣١
 محمد بن محمد الإدريسي ٤٠٣
 محمد بهجة البيطار ٧٢ ، ٧٦ ، ٩٦
 محمد التازي ٤١٧
 محمد تقي القمي ٢٥٦ ، ٢٥٨
 محمد التهامي ٦٨٤
 محمد الثاني ٢٣ ، ٢٧
 محمد جميل ٥٢٧
 محمد حافظ ٧٠٦
 محمد الحريري الوراق ٤١٠ ، ٤١٢
 محمد حسن بريغش ٥٩٨

- محمد زكريا ٢٢ ، ٢٤ ، ٤٢ ،
 محمد زكريا الكاندهلوي ٢٠٦ ،
 ٥٦٧ ، ٦٩٨ ، ٧٠٨ ،
 محمد سرور الصبان ٣٩ ، ٩١ ،
 ١٨٣ ، ٢٠٢ ، ٦٤٥ ،
 محمد سعيد ٤١٨
 محمد سعيد البرهاني ٧٢
 محمد سليم ٣٩
 محمد سليمان المنصور فوري
 الهندي ٣٨٦
 محمد سميع الصديقي ٦٩٩
 محمد سيلاني ٢٢٥
 محمد الشامي ١١٢ ، ١١٤ ،
 محمد شاه ٢٦١
 محمد الشرييني ٤١
 محمد شطا ٩٠
 محمد شفيع الديوبندي ١٧٢
 محمد شكري ٤٦٩ ، ٤٧٠ ،
 محمد صادق المجددي ٧٤ ،
 ٢٣٤ ، ٢٣٥ ،
 محمد صالح القزاز ١٨٧ ، ٢٢٢ ،
 ٥٩٦
 محمد صديق كباري ٢٣١ ، ٢٣٢ ،
 محمد صفوت السقا الأميني ٢٨٥
 محمد ضياء الحق ٤٥٧ ، ٤٦١ ،
 ٥٢٥ ، ٥٢٨ ، ٥٥٢ ، ٥٥٦ ،
 ٥٥٧
 محمد طاهر ٩٠
 محمد طاهر المظاهري المنصور
 فوري ٣٥
 محمد طبخي ١٦١
 محمد ظاهر شاه ٢٤٠
 محمد عاكف ١٤٠ ، ١٦٦ ،
 محمد عبد الرحمن خليفة ٣٣٦ ،
 ٣٣٧
 محمد عبد اللطيف دراز ٤٣ ، ٤٨ ،
 محمد عبد الله القحطاني ٤٦٣
 محمد عثمان ٦٣٥ ، ٦٧٧ ،
 ٦٩٩ ، ٧٠٤ ، ٧١٩ ،
 محمد عثمان الحيدر آبادي ٥٨٢ ،
 ٥٩٤ ، ٦٤١ ، ٦٤٢ ، ٦٧٩ ،
 ٧١٤
 محمد عثمان المهندس ٦٢٠ ،
 ٦٩٣ ، ٦٩٤ ، ٧١٥ ،
 محمد العربي التّبّاتي ٢٨
 محمد العربي الهلالي ٤٠٤ ، ٤٥١ ،
 محمد عزة دروزة ٧٢
 محمد عليا ١٠٢
 محمد علي ١٥٩ ، ٦٨٩ ،
 محمد علي الأكوع ٥٠٨
 محمد علي التهانوي ٦٤٦
 محمد علي جوزو ٢٨٥
 محمد علي جوهر ٧٣

- محمد علي الحركان ٢٦ ، ٩١ ، ٤٦٢ ، ٤٦٩
- محمد علي الحوماني ٧٢
- محمد علي ضناوي ٢٩٢
- محمد علي الطاهر ٣٤٨
- محمد علي علوية باشا ٤٤
- محمد عمر الداوق ، أبو عمر ٣٠٣ ، ١٠٠
- محمد عوض ٦٦
- محمد العنياني ٢٨٥
- محمد الغزالي ٤٤ ، ٤٨ ، ٥١ ، ٥٧ ، ٤٩٠ ، ٤٢٠ ، ٤٠٨ ، ٤٠٧
- محمد الفاتح ١٣١ ، ١٤٦ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦١ ، ٥٤٩ ، ٦٢٨ ، ٦٦٤ ، ٦٨٠
- محمد الفاسي ٤٠٥ ، ٤٢٣ ، ٤٤٧ ، ٤٤٦ ، ٤٢٨ ، ٤٢٦
- محمد فريد وجدي ٣٨٧ ، ٣٨٨ ، ٣٩٥
- محمد فؤاد عبد الباقي ٤٣
- محمد قطب ٥٤٤ ، ٥٤٥ ، ٥٤٦ ، ٥٤٧ ، ٦٢٧ ، ٦٢٨ ، ٦٨٢ ، ٦٨٣
- محمد كاظم شريفة مداري ٢٥٦
- محمد كرد علي ٧٢
- محمد كل ٢٢٦ ، ٢٣٥
- محمد كمال خطيب ٧٢
- محمد المبارك ٧٢ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٣٠٢
- محمد محمود الحافظ ٥٩٦ ، ٥٩٨
- محمد محمود الصواف ١٨٤ ، ١٨٥ ، ٢٨٤ ، ٥٩٦
- محمد مسرور ٦٤١
- محمد المطلق ٣٠٩
- محمد معروف الدواليبي ١٧١ ، ١٧٣
- محمد معين الندوي ٣٤ ، ٤٢ ، ١٧٨ ، ١٨٠ ، ١٨٤ ، ٢٠٤ ، ٤٥٨ ، ٢٠٧
- محمد منظور النعماني ٩٠ ، ١٩٣ ، ٤٥٨ ، ٢٠٤
- محمد مهدي شمس الدين ٤٢٩
- محمد موسى توانا ٢٢٥
- محمد موسى سليمان ٦٦
- محمد موسى شفيق ٢٢٥
- محمد المؤيد ٤٩٦
- محمد ميمش ٣٣١ ، ٣٥٩ ، ٣٦٨
- محمد نادرخان ٢١٨
- محمد ناصر ١٧٢
- محمد ناصر العبودي ٧٠٦
- محمد الناصر لدين الله ٣٨٧ ، ٣٨٨
- محمد ناظم الندوي ٥٢١ ، ٥٥٦ ، ٥٩٠ ، ٥٩١ ، ٦٨٠ ، ٦٨٣ ، ٦٨٥

- محمد تنظيم ٤٦٩ ، ٤٧٠
 محمد النفس الزكية بن عبد الله ٣٩١
 محمد نمر الخطيب ٣٠٢
 محمد نور عبد الغني نورولي
 ٤٦٢ ، ٧٠٢ ، ٧٠٣ ، ٧٠٦
 محمد نورولي ١٨٨ ، ٤٠٦ ،
 ٥٨٣ ، ٥٩٥
 محمد هاشم الحجددي ٢٣١ ، ٢٣٥
 محمد واضح رشيد الندوي ٤٨٠ ،
 ٥٩٠ ، ٦٧٩ ، ٦٩١
 محمد ودا ١٦٧
 محمد ولي ٤٠٦
 محمد ولي عبد الله نورولي ٧٠٢
 محمد ياسين عظيم ٢٣١
 محمد يعقوب الهاشمي ٢٢٣ ، ٢٢٥
 محمد يوسف ٤٥٨
 محمد يوسف الكاندهلوي ٢٧
 محمد يوسف موسى ٥٤
 محمدي ٢٥٦
 محمود ٢٣٧
 محمود إبراهيم ٥٩٨
 محمود الأفغاني ٣٦٦
 محمود باشا ١٤٣
 محمود حافظ ٣٧ ، ٧١ ، ٦٤٤
 محمود الديك ٦٠٣ ، ٦١٨
 محمود شلتوت ٤٣ ، ٥٠
 محمود شويل ٢٨
 محمود عباس ١٠٦
 محمود الغزنوي ٢٣٦ ، ٢٤٥ ،
 ٢٤٩ ، ٤٤١
 محمود قيسية الندوي ٦٠٢
 محمود محمد شاعر ٤٤
 محيي الدين ٥٢٠ ، ٥٧٧
 محيي الدين أورنك زيب عالمكير
 ٦١٣
 مختار الدين آرزو ٤٩٠
 مدحت باشا ١٣٩ ، ١٤٣
 مدحت بلحوص ١٠٦
 المرتضى ٣٨٨
 مرتضى البلكرامي الزبيدي ٥١٠ ،
 ٦٤٦
 مروان بن الحكم ٣٨١
 مروان الغرير ٦٠٤ ، ٦٢٠
 مزمل حسين الصديقي الندوي ٦٩٧
 مسرور أحمد اللكهنوي ٥٤١ ،
 ٥٤٢ ، ٥٧٩ ، ٦٩١ ، ٦٩٣
 مسعود ٢١٩
 مسعود بن محمد ٢٣٨
 مسعود علي الندوي ٣٢ ، ١٥٧
 مسلم ١٦ ، ٢٦ ، ٤١٢
 مسلمة بن مخلد الأنصاري ٣٧٦ ،
 ٣٨٠
 مسيح الملك حكيم أجمل خان ١٧٤
 مشهور حسن حمود ٣٣٦

معاوية بن أبي سفيان ٨٩ ، ٣٧٤ ،
 ٣٧٥ ، ٣٧٧ ، ٣٨١ ،
 ٤٦٠ ، ٦٠٤ ، ٦١٩
 معاوية بن خديج الكوني ٣٧٤
 المعتصم ٤٦١
 المعتصم بالله ٤٢٢
 المعتمد بن عباد ٤٤١ ، ٤٤٢ ، ٤٤٣
 معروف الدواليبي ٧٦ ، ٩٦
 معروف زيادة ٣١٩
 المعري ٢٣٨ ، ٢٨٤ ، ٣٥٨
 معين الندوي ٩١
 المقدسي ٣٥٠ ، ٤٨٨
 مكّي الكتاني ٧٢ ، ٧٦ ، ٣١١
 ملائي ٢٢٦
 ملك شاه السلجوقي ٢٦٢
 مناظر حسن ٦٥٩
 المنصور ٣٨٤
 منصور بتله ٥٥٦
 المنصور بالله أبو الحسن علي ٣٩٠
 منصور فهمي باشا ٤٣
 منظر عالم الندوي ٥٨٠
 منوهر آزمون ٢٥٥
 منوهرجي ٢٣٨
 منور حسين البهاري ٢٠٢
 منير دلّه ٥٦٠
 المهدي بن عبود ٤٢٤ ، ٤٢٩ ،
 ٤٩٠

مصباح النبي حسني ٤٠٦ ، ٥٩١ ،
 ٧٠٦
 مصدق ٣٤٤
 مصطفى ١٥٦ ، ٤٢٠ ، ٥٤٤
 مصطفى أحمد الزرقاء ٧٢ ، ٩٥ ،
 ٩٦ ، ٣٤٣
 مصطفى إيوانس ١٩٥
 مصطفى بن سعيد ٤١٤
 مصطفى بن هاشم ٤١٢ ، ٤١٦
 مصطفى الخالدي ١٠٤
 مصطفى رضا ١٥٥ ، ١٥٧ ،
 ١٦٠ ، ١٦٥
 مصطفى رينون ١٥٥ ، ١٦٤
 مصطفى السباعي ١٨ ، ٧٢ ، ٧٧ ،
 ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ١٢٨ ،
 ٤٨٦
 مصطفى صبري ٤٣
 مصطفى العثماني ٣٩٤
 مصطفى العلوي ٤٢٠ ، ٤٢٩ ،
 ٤٣٧
 مصطفى الغلالي ٤١٩
 مصطفى كمال ٢١٩
 مصلح الدين الشيرازي (سعدي)
 ٢٦٣ ، ٤٢٦
 المظفر بالله أبو النصر الشريف
 إسماعيل ٣٩٣
 معاذ بن جبل ٣٦١

- نافذ دانشمن ١٦٠ ، ١٦١
 نجم الدين الواعظ ٣١٦
 نديم الجسر ٢٩١
 نذر الحفيظ الندوي ٥٦٦
 نشأة جفنائى ١٦١
 نصير الدين الطوسي ٢٥٩
 نظام الملك الطوسي ٢٥٩
 نظيف جلبي ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ،
 ١٢٦ ، ١٢٧
 نعمت يوسف الماليزى ٥٦٧
 نمر المصري ٧٦
 نور الدين جهانكير ٦١٤
 نور الدين طوبجى ١٤٥
 نور الدين علي بن سلطان ،
 الملاعلي القاري ٢٣٤
 ثور عظيم الندوي ٦٢٦
 نوري السعيد باشا ٣٢٣
 النوي ٧٣ ، ١٥٧
 نياز أحمد ٧٠٧ ، ٧١٤
 - ه -
 هاوي خسرو شاهي ٢٥٧
 هارون الرشيد ٢٦٠ ، ٢٦١ ،
 ٢٨٤ ، ٣٨٤
 هامان ٣٢٨
 هاني فاخوري ١٠٠
 هداية حسين ٦٩٣
 هرتزل ٣٤٠
- مودة ٥٧٠
 المودودي ٢٢٤ ، ٤٦١
 موسى بن نصير اللخمي ٣٧٣ ،
 ٣٨١ ، ٣٨٢ ، ٣٨٣ ، ٤٣٦
 موسى الصدر ٤٢٩
 موسى عليه السلام ٤٨٥ ، ٥٣٣ ،
 ٥٥٣ ، ٦٨٢ ، ٦٨٦ ، ٦٨٧
 موسى الهادي ٣٨٤
 مولاي الحسن ٣٩٦
 مولاي عبد الحفيظ ٣٩٧
 مولاي يوسف ٣٩٧
 مولوي عبد العزيز ٦٧٩
 ميخائيل غورباتشوف ٦٤٩ ،
 ٦٥٠ ، ٦٥٢
 ميرعرب ٧٢٠
 ميرغزى باشا ٦٥
 - ن -
 نابولين ١٢٩ ، ١٤٦ ، ٣٩٥
 ناجى معروف ٣١٨
 نادر خان ٢٣٤
 نادر شاه أفشار ٢٦٠
 الناصر ٣٩٠
 ناصر الدين الأسد ٤٩٠
 ناصر الصالح ٢٩٢
 ناصر علي ٧١٩
 ناظم القدسي ٨٨ ، ١٧٣
 ناظم الندوي ١٥٧

- هرقل ٨٠ ، ٣٦٥
الهروي ٣٥٠ ، ٤١٨
هنو ٣٧٢
هيرالد ليمب ٦٣٩
- و -
واضح رشيد الندوي ٣٦٩ ، ٣٧٠ ،
٥٩٨
الواقدي ٧٩ ، ٣٣٨
دالتير ٣٩٤
وحيدي ٢٥٦
ولي الله بن عبد الرحيم الدهلوي
١٤٠ ، ٦٩١
الوليد ٢٨٤
وليد الأعظمي ٣١٩
الوليد بن عبد الملك ٩٨ ، ٣٨٣
- ي -
ياسين ١٥١
ياسين عبد العزيز ٤٩٧
ياقوت ٣٥٠ ، ٤٨٨
ياقوت المستعصي ١٣٨
يحيى ٥٠٦
يحيى بن إبراهيم الصنهاجي ٣٨٤
يحيى علي الصادق نوري ٥٠٢
يحيى الغسيل ٤٩٧ ، ٥٠٤
يزدجرد ٢٥٢ ، ٦٧١
يزيد بن حاتم ٣٨٤
يعقوب ٥٩٧
يعقوب بن عبد الحق ٣٨٩
يعقوب بن يوسف ٣٨٨
يعقوب عبد الحق ٣٨٨
يعقوب عليه السلام ٦٣٣
يعقوب المريني ٤١٨
يعقوب المنصور الموحي ٤٤٤
يوحنا ٣٨١
يوسف أبو يعقوب ٣٨٧
يوسف بن تاشفين ٣٧٣ ، ٣٨٥ ،
٤٤٤ ، ٤٤٢ ، ٤٤١ ، ٤٢١
يوسف بن عبد المؤمن ٣٨٧
يوسف جاسم الحجري ٦٢٧
يوسف ضياء ١٢٣ ، ١٤٩
يوسف العظم ٣٤٣
يوسف الفوزان ١٨٣
يوسف القرضاوي ٤٩٠ ، ٦٣٥ ،
٦٩٢
يوسف قره ٦٢٩ ، ٦٨٥
يوسف كارا ٥٤٩
Arbery ١٩٥
Basham ١٩٥
Beeston ١٩٥
Ericberth ١٩٥
Guillet ١٥٩
K.B.Griffon ٥٤٠

فهرس الأماكن والبقاع والبلدان

- آ -

أثوبيا ٥٣٣
 أجم ٣٧٥
 أحد ٦٦١
 أدرنه ١٥٨
 إربد ٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، ٣٤٨ ،
 ٤٨٦ ، ٣٤٩
 الأردن ١٩ ، ٢١ ، ٧٤ ، ٨٠ ،
 ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ،
 ٣٣٣ ، ٣٣٧ ، ٣٤٤ ، ٣٤٦ ،
 ٣٤٩ ، ٣٥٩ ، ٤٢٨ ، ٤٧٩ ،
 ٤٨١ ، ٤٨٢ ، ٤٨٣ ، ٤٨٥ ،
 ٤٨٨ ، ٤٨٩ ، ٥١٢ ، ٥٩٦ ،
 ٦٣٠ ، ٦٨١
 إرم ذات العماد ٣٢٩
 أذربكستان ٦٥٨ ، ٦٩٢ ، ٦٩٣ ،
 أزمير ٣٥٠
 الأزهر ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٨ ،
 ٤٩ ، ٥٠ ، ٥٣ ، ٦٠ ، ١٠٢ ،

آخن ٢٠٢
 أزمور ٣٩١
 آسفي ٣٧٢ ، ٣٩٠ ، ٣٩١ ،
 آسيا ١٢٩ ، ١٥١ ، ٣٥٧ ، ٥١٩ ،
 ٥٩٦ ، ٥٩٧ ، ٦٢٨ ، ٦٧٥ ،
 آسيا الصغرى ١٣٩ ، ٣٥٠ ،
 آمد ٧١٩
 آن آرير ٤٥٣
 آئي ليند ٦٩٩

- أ -

أبو سمرة ١٠٦
 أبو ظبي ٣٦٥ ، ٣٧٠ ، ٤٧٧ ، ٤٩٠ ،
 ٦٠١ ، ٦٠٢ ، ٦٠٣ ، ٦٠٥ ،
 ٦١٧ ، ٦٢٠ ، ٦٢١ ، ٦٧٩ ،
 الاتحاد السوفيتي ٤٢٨ ، ٦٤٩ ،
 ٦٥٠ ، ٦٥١ ،
 أترابرديش ١٥ ، ١٧ ، ٢٠ ،

أصفهان ٢٥٥ ، ٢٥٨ ، ٢٦٢	١٠٦ ، ١٥٨ ، ٢٣٢ ، ٢٤٢
إصلاحية ١١٥ ، ١١٦	٢٤٣ ، ٤٠١ ، ٤٣٣ ، ٤٤٨
أصيلا ٣٩٠ ، ٣٩٦	٥٤٤ ، ٥٥٨ ، ٥٥٩
أطنة ١١٧ ، ١٥٠ ، ١٧١	إسبانيا ١٩٤ ، ١٩٥ ، ٢٢٠
أعظم جراه ٧١٤	٣٧١ ، ٣٨٢ ، ٣٨٥ ، ٣٨٦
أغادير ٣٧٢ ، ٣٩١	٣٨٧ ، ٣٨٩ ، ٣٩٢ ، ٣٩٥
أغمات ٤٤٢	٣٩٦ ، ٣٩٧ ، ٣٩٨ ، ٣٩٩
أفران ٤٢٠	٤٠٠ ، ٤٠٢ ، ٤٠٣ ، ٤٢٢
إفريقية ٥١ ، ٥٢ ، ٦٦ ، ٦٧	٤٢٥ ، ٤٣٣ ، ٤٤٢ ، ٤٤٩
٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٧٥ ، ٣٧٦	٤٥١ ، ٦٧٤
٣٧٧ ، ٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٣٨٢	إستانبول ٢٠ ، ١١٤ ، ١١٥
٣٩٧ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤٠٢	١١٧ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١
٤٠٣ ، ٤١٢ ، ٤٢١ ، ٦٢٨	١٢٢ ، ١٢٤ ، ١٣٤ ، ١٣٥
٦٣١ ، ٦٤١ ، ٦٧٢	١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٧ ، ١٤٩
أفسوس ٣٥٠	١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٤ ، ١٥٥
أفغانستان ٧٤ ، ٢١٥ ، ٢١٦	١٥٩ ، ١٦٤ ، ١٧٠ ، ٢٠٢
٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٠	٥٤٣ ، ٥٤٩ ، ٦٢٦ ، ٦٢٧
٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣	٦٢٩ ، ٦٣٥ ، ٦٧٥ ، ٦٧٩
٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧	٦٨٠ ، ٦٨٥ ، ٦٩١
٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٥	إسرائيل ١٨٥ ، ٢١٠ ، ٣٠٩
٢٥٢ ، ٢٥٤ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤	٣٤٦ ، ٣٤٩ ، ٤٤٩ ، ٤٨٤
٤٢٨ ، ٥٩٦ ، ٧٠٥	إسكندرونة ١١٢ ، ١٧٠ ، ١٧١
أفيسس ٣٥٠	الإسكندرية ٣٧٤ ، ٤٢٢ ، ٦٣١
أقصر ٦٥	اسكي شهر ١١٨
أكسفورد ١٩ ، ١٩٤ ، ٥٣٧	إسلام آباد ٢١ ، ٥٥١ ، ٥٥٦
٥٤٠ ، ٥٤١ ، ٥٥٨ ، ٥٧٦	أسوان ٥٨
٥٧٧ ، ٥٧٩ ، ٦٣٥ ، ٦٤١	إشبيليا ١٩٤ ، ٣٨٨ ، ٤٤٢

الأندلس ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ،
١٩٧ ، ٣٨٢ ، ٣٨٥ ، ٣٧١ ،
٣٨٧ ، ٣٨٩ ، ٣٩٠ ،
٣٩٢ ، ٤٢١ ، ٤٠٢ ، ٤٢٢ ،
٤٢٥

أندونيسيا ١٧٢ ، ٤٥٧ ، ٥٦٥ ،
٥٨٣

إنديانابولس ٤٥٢

أنقرة ١١٧ ، ١١٨ ، ١٥٠ ،
١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٨ ،
١٦٠ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٥ .

أود ٥١٠

أوربة ٤٥ ، ٩٥ ، ١٢٩ ، ١٣٢ ،
١٤٦ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٦٣ ،
١٦٤ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ،
٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ،
٢٢٠ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣٣٩ ،
٣٤٥ ، ٣٥٧ ، ٣٨٨ ،
٤٠٢ ، ٤١١ ، ٤٣٧ ، ٤٤٦ ،
٤٦٤ ، ٥١٩ ، ٥٣٩ ، ٥٤١ ،
٥٦٥ ، ٥٦٧ ، ٥٨٣ ، ٦٢٨ ،
٦٣٠ ، ٦٣١ ، ٦٣٣ ، ٦٣٨ ،
٦٣٩ ، ٦٤٠ ، ٦٥١ ، ٦٦٤ ،
٦٧٤ ، ٦٧٥ ، ٦٧٩ ، ٦٨٠ ،
٦٨٦ ، ٦٩٧ ، ٧٠٠ ، ٧٠٢ ،
٧١٠ ، ٧١٢ ، ٧١٤ ، ٧١٥

أوزبكستان ٧١٤ ، ٧١٥ ، ٧٢٠

٦٤٥ ، ٦٥٨ ، ٦٥٩ ، ٦٧٤ ،
٦٧٥ ، ٦٩١ ، ٦٩٣ ، ٧١٣ ،
٧١٦

ألمانيا ١٤٧ ، ١٥٦ ، ١٦٤ ،
٢٠٢ ، ٣٩٦ ، ٣٩٧ ، ٦٣٠ ،
٦٥٠ ، ٦٥١ ، ٦٧٤

أم درمان ٦٨

أم القيس ٣٤٥ ، ٣٤٦

الإمارات العربية ١٨٢ ، ٤٧٦ ،
٤٧٧ ، ٤٩٢ ، ٦٠١ ، ٦٠٢ ،
٦٠٤ ، ٦١٧ ، ٦٢١ ، ٦٧٩

أمريكا ١٩٥ ، ٢٠٣ ، ٢٨٩ ،
٢٩٧ ، ٣١١ ، ٣٤٩ ، ٤٥٢ ،
٤٥٣ ، ٤٥٤ ، ٤٥٥ ، ٤٦٤ ،
٥١٢ ، ٥٦٥ ، ٥٨٣ ، ٦٤٠ ،
٦٦٥ ، ٦٧٤ ، ٦٧٥ ، ٦٧٦ ،
٦٩٤ ، ٦٩٧ ، ٦٩٩ ، ٧٠٠ ،
٧٠٢ ، ٧٠٨ ، ٧١٠ ، ٧١٢ ،
٧١٤

الأناتول ٣٥٠

أناتولية ١٢٩ ، ١٦٢ ، ١٦٤ ،
إنجلترا (إنكلترا) ٢٠ ، ١٢٩ ،
١٤٣ ، ٢٠٧ ، ٢١٧ ، ٣٩٥ ،
٣٩٧ ، ٤٧٢ ، ٤٧٣ ، ٤٧٥ ،
٥٣٩ ، ٥٥٨ ، ٦٥٨ ، ٦٦٥ ،
٦٧٤

بالاكوت ١٤	إيدامبرا ١٩٤
بالتى مور ٤٥٣	إيران ٦٣ ، ٢٢١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٤ ،
بالي ١٠٦	٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٥٩ ،
البترء ٣٦٦ ، ٣٦٧	٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ،
بتنة بهار ٦٧٧	٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ،
بجاية ٤٠٠	٢٧١ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ،
البحر الأسود ١٥٨	٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ،
البحر الأبيض المتوسط ٤٢ ، ٨٦ ،	٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٤ ، ٣٤٤ ، ٣٦٩ ،
٣٨٢ ، ٣٧١ ، ٢٩٠	٤٢٣ ، ٤٢٨ ، ٤٦٥ ، ٥٦٠ ،
البحر الأحمر ٤٢ ، ٦٧	٥٦١ ، ٥٩٦ ، ٦٣٧ ، ٦٣٩ ،
بحر الروم ٣٨٨	٦٧١ ، ٧٠٥ ،
بحر سلا ٤٢٢	- ب -
بحر الظلمات ٣٨٨	باب المنذب ٦٧
بحر العرب ٨٦ ، ٤٧٠	باريس ١٤٢ ، ١٩٤ ، ١٩٩ ،
البحرين ٢٠٤ ، ٢٠٥	٢٨٨ ، ٤٦٨ ، ٦٠١ ،
بحمدون ١٠٠ ، ١٨٦ ، ٢٩٢ ،	باسفورس ٥٤٧
٢٩٥	باكستان ١٧ ، ٢١ ، ٣٧ ، ٦٣ ،
بحيرة باسفورس ١٢٩	٧٦ ، ١٠٧ ، ١١٢ ، ١٢٦ ،
بحيرة طبرية ٣٤٦	١٦٦ ، ١٧٢ ، ١٨٨ ، ٢٣٤ ،
بحيرة مرامر ١١٩	٢٤٢ ، ٢٤٥ ، ٢٦٧ ، ٣٣١ ،
بحيرة ممر ١٥١ ، ١٥٨ ،	٤٢٣ ، ٤٢٨ ، ٤٢٩ ، ٤٥٣ ،
بخارى ٢٣٩ ، ٧١٢ ، ٧١٩ ، ٧٢٠ ،	٤٥٧ ، ٤٦٠ ، ٤٦١ ، ٤٦٥ ،
بختونستان ٢٣٢	٤٩٠ ، ٥١٢ ، ٥١٣ ، ٥٢٠ ،
بربر ٦٨	٥٢١ ، ٥٢٣ ، ٥٢٨ ، ٥٥١ ،
البرتغال ٣٨٨ ، ٣٩٤ ، ٣٩٧ ،	٥٥٢ ، ٥٥٣ ، ٥٥٦ ، ٥٩٠ ،
بردى ٩٩	٦٢٩ ، ٦٤١ ، ٦٩٧ ، ٦٩٨ ،
برقة ٣٧٦ ، ٣٨٠ ، ٤٠٢ ، ٤٢١ ،	٧٠٠

بلجيكا ٥٣٩ ، ٦٧٤	برلن ٢٠٢ ، ٦٥١
بلغاريا ٥٤٩	برلن الشرقية ٢٠٢
البلقاء ٣٦٥	برمنغم ٢٠٧
البلقان ٦٣٠	برن ١٩٤
بلكرام ٥١٠	بروكسلز ٥٤١ ، ٥٤٢
بلوختان ٢٣٢	بروناي ٦٩٢ ، ٧١٣
بلومنختن ٤٥٢	بريطانيا ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٥ ، ٢١٨ ،
بليك برن ٢٠٧	٤٧٢ ، ٤٧٤ ، ٤٧٥ ، ٥٣٩ ،
بمبائي ٥٧٦	٦٢٦ ، ٦٣٦ ، ٦٣٧ ، ٦٤٠ ،
البنجاب ١٦٩	٦٥٩ ، ٦٤١
بنزرت ٣٧٥	بستان بخاري ٣٨ ، ٩٠
بنغال ٥١٢ ، ٥١٣ ، ٥١٩	بشاور ٥٦٩
بنغلاديش ٥١٢ ، ٥١٣ ، ٥١٤ ،	البصرة ٢٨٤ ، ٣١٤ ، ٣٢٩ ،
٥١٥ ، ٥١٦ ، ٥١٨ ، ٥١٩ ،	٣٨٢ ، ٣٣٠
٥٢٠ ، ٥٦٥ ، ٦٢٨	بعلبك ٢٩٥ ، ٣٠٢
بنها ٥١	بغداد ١١٥ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ،
بنوري ثاون ٥٢٦ ، ٥٥١ ، ٥٥٢ ،	٢٣٧ ، ٢٣٩ ، ٢٦٣ ، ٢٦٦ ،
٥٥٣ ، ٥٥٦	٢٨٤ ، ٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ،
بهادر ياخبك ٥٢٣	٣١٦ ، ٣١٨ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ ،
بوبريت ٤٠١	٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٣٢٦ ، ٣٢٩ ،
بور سودان ٦٨	٣٣٠ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٤٤٣ ،
بورصة ٥٤٧ ، ٥٤٩	٦٣٩
بورما ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ،	بغمت ٢٣٦ ، ٢٤٠
٥١٢ ، ٥١٥ ، ٥٦٥	البقاع ٢٩٥ ، ٣٠٢
بورنيو ٥٦٥	البقيع ٤٤٥
بوستن ٤٥٣	بكرامي ٢٢٥
بوسفور ٦٢٩ ، ٦٨٥	البلاد السوفيتية ٢٤٢

تايلند ٥٦٥ ، ٥٧٢
 تبريز ٢٦٢ ، ٢٧٧
 تخت جمشيد ٢٦٤
 ترشيش ٣٨١
 تركستان ٦٣٢ ، ٦٣٩
 تركية ٢٠ ، ٦٣ ، ٩٣ ،
 ١١٠ ، ١١٢ ، ١١٤ ، ١١٥ ،
 ١١٦ ، ١١٧ ، ١٢٥ ، ١٢٩ ،
 ١٣١ ، ١٣٤ ، ١٣٦ ، ١٣٨ ،
 ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٢ ،
 ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ،
 ١٤٧ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥١ ،
 ١٥٢ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ،
 ١٥٧ ، ١٦١ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ،
 ١٦٥ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧١ ،
 ١٧٥ ، ٢٢٠ ، ٣٥٠ ، ٤٢٨ ،
 ٤٦٤ ، ٥٤٣ ، ٥٤٤ ، ٥٤٥ ،
 ٥٤٦ ، ٥٤٧ ، ٦٢٦ ، ٦٣٠ ،
 ٦٣١ ، ٦٣٥ ، ٦٨٥ ، ٦٨٩ ،
 ٧١٤
 ترمز ٧١٣
 ترنكانو ٥٦٨
 تطوان ٣٧٢ ، ٣٩٢ ، ٣٩٦ ،
 ٤٢١ ، ٤٥٠ ، ٤٥١
 تغز ٥٠٧ ، ٥٠٨ ، ٥٠٩
 تكية كلان ١٥ ، ٢١
 تلمسان ٣٧٧ ، ٣٨٤ ، ٣٨٥

بوفالو ٦٩٨
 بولندا ٦٣٩
 بوميائي ٣٤ ، ١٨٠ ، ١٨٤ ،
 ٤٠٦ ، ٤٥٢ ، ٤٦٩ ، ٥٨٣ ،
 ٦٤٣ ، ٦٤٥
 بون ٢٠٢
 البيت الحرام ٤٠٠
 بيت لحم ٧٣
 بيت المقدس ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ،
 ٧٦ ، ١٨٥ ، ٤٨٣
 بيروت ١٥ ، ١٠٠ ، ١٠١ ،
 ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ،
 ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ٢١٤ ،
 ٢٢١ ، ٢٥٥ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ،
 ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ،
 ٢٩٢ ، ٢٩٥ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ،
 ٣٠٤ ، ٣١٥ ، ٣٣٦
 بيرو والالا ٤٧٠
 بينام ٥١٥
 - ت -
 تاشكباب ١٥٠
 تاش كساب ١١٩
 تاشقند ٦٤٤ ، ٦٥٢ ، ٧١٤ ،
 ٧١٥ ، ٧٢٠
 تافيلات ٣٧٢
 تامل نادو ٤٧١
 تاهرت ٣٧٧

- جامع السلطان محمد الفاتح ٦٨٠ ،
٦٩٠
- الجامع السليماني ١٢٨ ، ١٣٥ ،
١٣٨ ، ١٣٦
- جامع الشهداء ٣١٦ ، ٣٢٤
- جامع الشيخ محيي الدين بن عربي
٧٥
- جامع قرادائي ١٦٩
- جامع القرويين ٤٠١ ، ٤١٨ ،
٤٤٤ ، ٤٣٩ ، ٤١٩
- جامع القيروان ٣٨٤
- جامع كابل ٢٣٥
- جامع الكتبية ٤٤٦
- الجامع المحمدي ٤١٣
- جامع المظفر ٥٠٨
- جامع منصور شعبي ٥٩٩
- جامع يلغا ٣٠٩
- جامعة آرية مهر ٢٥٧
- الجامعة الأردنية ٥٩٨
- جامعة إكسفورد ١٩٥ ، ٤٧٢ ،
٤٧٣
- جامعة إله آباد ٦٢٧
- جامعة أم درمان ٥٧٧
- جامعة الإمام محمد بن سعود
الإسلامية ٤٢٨ ، ٤٩١ ، ٥٣٧ ،
٦٤٤ ، ٦٢٧
- الجامعة الإمدادية ٥١٧
- ٣٩٢ ، ٣٩٤ ، ٤٦٧ ، ٤٦٨ ،
٥٥٩
- تهوذة ٣٧٩
- تورنتو ٤٥٣
- تومبكتو ٣٩٢ ، ٤٠١
- تونس ٣٧٣ ، ٣٨٠ ، ٣٨٨ ،
٣٩٠ ، ٤٠٠ ، ٤٠٦ ، ٤٠٩ ،
٤٣٧ ، ٤٢٨
- تويبارك ستي ٤٥٣
- ج -
- جاكرتا ٣٣٩
- جامع الإمام محمد الخامس ٤٣٨
- الجامع الأموي ٣١٠
- جامع أياصوفيا ١٢٧ ، ١٢٨ ،
١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٥٩
- جامع إيران ٤١٣
- جامع بايزيد ١٣٨ ، ١٤٩
- جامع بنوري تاون الكبير ٥٢٢
- جامع الحاج بيرم ١٥٤ ، ١٥٧ ،
١٦٣ ، ١٥٩
- جامع الدفاق ٧٢
- جامع السلطان أحمد ١٢٧
- جامع السلطان سليم ١٦٥
- جامع السلطان سليمان القانوني
٦٨٩
- جامع السلطان علاء الدين
السلجوقي ١٦٨

- جامعة كابل ٣٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٤٤
 جامعة كراتشي ٥٢٥
 جامعة كشمير ١٩
 جامعة كولومبيا ٤٥٣
 جامعة الكويت ٤٧٨
 جامعة لندن ١٠١ ، ١٩٤
 جامعة ليدس ٢٠٧
 جامعة محمد الخامس ٤٢٣
 جامعة الملك عبد العزيز ٢٢٢ ،
 ٢٩٩ ، ٤٠٧ ، ٤٠٩ ، ٧٠٥
 جامعة نهر و ٦٢٧
 جامعة وجده ٥٩٨ ، ٦٢٧
 جامعة اليرموك ٤٨٦
 جبال الأطلس ٢٨٣
 جبال أفغانستان ٣٣٣
 جبال بشتكويه ٨٦
 جبال الحبشة ٨٦
 جبال طوروس ٨٦ ، ١٤١ ، ١٧٠
 جبال لبنان ١٠٠
 جبال الهملايا ٢١٥
 جبال هندوكش ٢٨٣
 جبل تينملل ٣٨٦ ، ٣٨٨
 جبل الدوز ٨١
 جبل الرقيب ٤٨٧
 جبل زرهون ٣٧٨
 جبل زناتة ٣٨٨
- الجامعة الأمريكية ١٠٤ ، ٢٨٩
 جامعة أوتا ٤٥٣
 جامعة إيدامبرا ١٩٤
 جامعة برمنغم ٢٠٧
 جامعة بغداد ٣١٨
 جامعة بها ولبور ٤٢٩
 جامعة بيسفك ٣٩٧
 جامعة تيمبل ٥٤٢
 جامعة جنوب كيبي فورينا ٤٥٣
 جامعة دترايت ٤٥٣
 جامعة دمشق ١٨ ، ٧٦ ، ٧٩ ،
 ٩٣ ، ١٨٤ ، ٤١٧ ، ٤٨٦
 جامعة ديوبند ٢٣٣
 الجامعة السورية ٨٤ ، ٨٩ ، ٩٣ ،
 ٣٠٥ ، ٣٨٦
 جامعة صنعاء ٤٩٧
 جامعة طهران ٢٥٨ ، ٢٦٠
 الجامعة العثمانية ٤٨٦
 الجامعة العثمانية حيدر آباد ٦٢٧
 جامعة عليجراه ٦٣٦
 جامعة عليكراه ٤٩٠
 جامعة العين ٤٧٧ ، ٦٠٠ ، ٦٠٥ ،
 ٦١٧
 جامعة فؤاد الأول ٤٩
 جامعة القرويين ٤١٤ ، ٤١٦ ،
 ٤١٧
 جامعة قطر ٦٣٥ ، ٦٩٢

، ٤٠ ، ٤٢ ، ٥١ ، ٥٤ ، ٦٧ ،

، ٦٨ ، ٧٤ ، ٨٠ ، ٨١ ، ١٨٢ ،

، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨٣ ، ٣١٣ ،

، ٤١١ ، ٤٦٥ ، ٥٨٢ ، ٦٣٩ ،

٦٤٥ ، ٦٥٥ ، ٦٦١ ، ٦٨٠ ،

الجزيرة العربية = جزيرة العرب

الجمهورية القازانية ١٤٤

جنانة ٣٦٦

جنييف ١٩٤ ، ٢٠٢ ، ٢٠٧ ،

، ٤١٢ ، ٥٤٢ ، ٦٧٤ ، ٦٧٥ ،

٦٧٨ ، ٧٠٠ ،

جوبا ٦٧

الجولان ٣٤٥ ، ٣٤٦ ،

-ح-

حارم ٧٤

حاصبيا ٢٩٥

حامول ٥١

الحبشة ٦٩

الحجاز ١٣ ، ٢٢ ، ٢٤ ، ٢٥ ،

، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٣٠ ، ٣٢ ،

، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٧ ، ٤١ ، ٤٣ ،

، ٨١ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٣ ، ١٥٢ ،

، ١٨٣ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩١ ،

، ١٩٢ ، ١٩٧ ، ٢٠٤ ، ٢٠٦ ،

، ٢٠٨ ، ٢١٠ ، ٢٨٣ ، ٣٩٣ ،

، ٣٩٤ ، ٤٠٤ ، ٤٠٨ ، ٤١١ ،

، ٤٧٨ ، ٤٧٩ ، ٤٨٠ ، ٤٩٠ ،

جبل طارق ٣٧٢ ، ٣٨٣ ، ٣٨٧ ،

٣٨٨

جبل لبنان ٢٨٥ ، ٢٩٥ ،

جدة ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٧ ، ٣١ ، ٣٦ ،

، ٤٢ ، ٩١ ، ١٨٥ ، ١٩٢ ،

، ٢٢٢ ، ٢٥٥ ، ٢٨٥ ، ٢٩٩ ،

، ٣٠٣ ، ٤٠٦ ، ٤٠٧ ، ٤٦٢ ،

، ٤٩٠ ، ٤٩١ ، ٤٩٥ ، ٥١١ ،

، ٥٢٠ ، ٥٣٤ ، ٥٦٣ ، ٥٦٤ ،

، ٥٦٧ ، ٥٨٣ ، ٥٨٩ ، ٥٩٠ ،

، ٥٩١ ، ٥٩٢ ، ٥٩٥ ، ٥٩٨ ،

، ٦٠٢ ، ٦٠٤ ، ٦٠٥ ، ٦١٧ ،

، ٦٢٠ ، ٦٣٥ ، ٦٤٣ ، ٦٤٥ ،

، ٦٥٢ ، ٦٥٥ ، ٦٥٦ ، ٦٥٧ ،

، ٦٧٨ ، ٧٠٠ ، ٧٠٢ ، ٧٠٥ ،

٧٠٦

الجديدة ٣٧٢

جرانة ٤٢١

جرسي ستي ٤٥٣

جرش ٣٤٥

الجزائر ٩٧ ، ١٠٥ ، ٣٨٥ ،

، ٣٩١ ، ٣٩٢ ، ٣٩٥ ، ٣٩٩ ،

، ٤٠٠ ، ٤٠٦ ، ٤٠٩ ، ٤٦٦ ،

، ٤٦٧ ، ٤٦٨ ، ٤٩٢ ، ٤٩٥ ،

، ٥١٢ ، ٥٥٨ ، ٥٥٩ ، ٥٦٣ ،

٥٦٥ ، ٦٤٢ ،

جزيرة العرب ١٢ ، ٣٥ ، ٣٩ ،

حمص ٧٤ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ،
 ٣١١ ، ١١١
 الحمة ٣٤٦
 حوران ٨١
 حيدر آباد ٤١٨ ، ٤٨٦ ، ٥٢٧ ،
 ٦٣٥ ، ٦٢٧ ، ٥٦٧
 حيدر باشا ١١٥ ، ١١٩ ،
 - خ -
 خجند ٧١٣
 خراسان ٢٥٢
 خرتنك ٧١٨
 الخرطوم ٦٥ ، ٦٨ ،
 خط الاستواء ٦٧ ، ٦٨ ،
 خليج البصرة ٨٦
 خليج بنغال ٥٦٤
 الخليج العربي ٣٦٩ ، ٣٧٠ ،
 ٤٩٥ ، ٤٧٦
 خليج القرن الذهبي ١٥١ ، ١٥٨ ،
 الخليل ٧٣
 خوارزم ٦٣٩
 - د -
 دابهيل ٦٨٣
 دادنول ٣٩٤
 الدار البيضاء ٣٧٢ ، ٣٩٧ ،
 ٤٠٥ ، ٤٠٦ ، ٤٠٩ ، ٤١٠ ،
 ٤١١ ، ٤١٢ ، ٤١٣ ، ٤٣٨ ،
 ٤٤٦ ، ٤٥٠

٤٩٦ ، ٥١٢ ، ٥٣٠ ، ٥٣٧ ،
 ٥٨١ ، ٥٨٣ ، ٥٩٥ ، ٦٤٣ ،
 ٦٤٥ ، ٦٥٢ ، ٦٥٤ ، ٦٧٥ ،
 ٦٧٨ ، ٦٩١ ، ٦٩٩ ، ٧٠٢ ،
 ٧١٤
 حديدة ٥٠٨ ، ٥١٠
 حديقة دولمة باغجه ١٣٣
 حديقة شلامار ٢٣٦
 حديقة كلهانة ١٢٨
 حديقة هائيد ١٢٩
 الحرم ٢٨ ، ١٨٧ ، ٢٧٠ ، ٤٦٢ ،
 ٤٦٣ ، ٥٣٣ ، ٥٣٤ ، ٥٨٤ ،
 ٥٩٦ ، ٥٩٧ ، ٦٦٧ ،
 الحرمان الشريفان ٢٢ ، ١٧٣ ،
 ١٩١ ، ٢٠٦ ، ٢٧٢ ، ٣٠٤ ،
 ٤٨٢ ، ٤٨٣ ، ٥٨١ ، ٥٨٣ ،
 ٥٨٨ ، ٦٨٥ ، ٧٠٨ ،
 حصارانا ضولو ١٢٩
 حصاروملي ١٢٩ ، ١٣٠ ،
 حلب ٧٤ ، ٨٠ ، ٨١ ، ١١٠ ،
 ١١١ ، ١١٢ ، ١١٥ ، ١١٩ ،
 ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٤٩ ، ١٧٠ ،
 ١٧١ ، ٣١١
 حلوان ٥١
 حماة ٧٤ ، ٨٠ ، ١١١ ، ٣١١ ،
 الحمراء ١٩٦ ، ٣٨٩

٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ ،

٣١١ ، ٣١٥ ، ٣٢٩ ، ٣٣١ ،

٣٣٧ ، ٣٤٦ ، ٤١٧ ،

دهلي ٨٩ ، ١٨٤ ، ٢١٨ ، ٢٢٣ ،

٢٦٠ ، ٤٢٠ ، ٤٤٣ ، ٥٩٥ .

الدوحة ٤٦٣ ، ٤٦٤ ،

دومة الجندل ٤٥٩

ديوبند ١٥ ، ١٦ ، ٢١ ، ١٧٨ ، ٤٥٧ ،

ديوزبري ٢٠٧

- ر -

راشيا ٢٩٥

راي بريلي ١٥ ، ٤٠٤ ، ٤٤٤ ،

٥٢٠ ، ٥٢٩ ، ٧١٤ ،

الرباط ٢١ ، ٣٧٢ ، ٣٨٥ ،

٣٩٧ ، ٤٠٤ ، ٤٠٥ ، ٤٠٩ ،

٤١٢ ، ٤١٣ ، ٤١٤ ، ٤٢٠ ،

٤٢٣ ، ٤٢٤ ، ٤٢٩ ، ٤٣٠ ،

٤٣١ ، ٤٣٢ ، ٤٤٤ ، ٤٤٥ ،

٤٥١ ، ٤٩٠ ، ٥٦٥ ،

الربوة ٩٩

الرصافة ٢٨٤ ، ٣٢٢ ،

الرمادي ٣١٧

الرملة ٣٧٤

رنجون ١٧٨ ، ١٧٩ ،

روسيا ١٤٣ ، ٣١١ ، ٣١٦ ،

٦٣٩ ، ٦٥٢ ،

روملي ١٣٣

دارفور ٦٧ ، ٦٨ ،

دبي ٣٦٩ ، ٣٧٠ ، ٤٧٨ ، ٥٧٧ ،

٦٠٢ ، ٦٠٣ ، ٦٠٤ ، ٦١٨ ،

٦١٩ ، ٦٢٠ ، ٦٧٩ ، ٦٨٠ ،

دترایت ٤٥٣

دجلة ٣٣ ، ٢٤٩ ، ٣١٥ ، ٣١٨ ،

٣٢٣

درعة ٣٩١

دگا ٥١٢ ، ٥١٣ ، ٥١٤ ، ٥١٥ ،

٥١٦ ، ٥١٧ ، ٥٢٠ ،

دهلي ٢٥ ، ١٨٤ ، ٣٣٩ ، ٤١٤ ،

٤٦٦ ، ٤٦٩ ، ٤٨٠ ، ٤٨٩ ،

٥٢٩ ، ٥٤٢ ، ٥٤٣ ، ٥٥١ ،

٥٥٥ ، ٥٦٤ ، ٥٦٧ ، ٥٧٥ ،

٥٧٦ ، ٥٨٠ ، ٥٨٢ ، ٥٩٢ ،

٥٩٤ ، ٦٠٤ ، ٦١٩ ، ٦٢٧ ،

٦٤٢ ، ٦٧٧ ، ٦٧٩ ، ٧٠٧ ،

٧١٤ ، ٧٢٠ ،

دمر ٩٩

دمشق ٩ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٧١ ،

٧٢ ، ٧٣ ، ٧٥ ، ٧٨ ، ٨١ ،

٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩٥ ، ٩٦ ،

٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ ،

١١٠ ، ١١١ ، ١٢٥ ، ١٥٥ ،

١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ،

١٧٦ ، ٢٠٢ ، ٢١٤ ، ٢٨٤ ،

٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ،

السعودية ٢٧ ، ٢٩ ، ٣٢ ، ٣٨ ،
 ٣٩ ، ٩١ ، ١٠٣ ، ١٨٣ ،
 ١٨٤ ، ١٨٧ ، ١٩٠ ، ١٩١ ،
 ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٧ ، ٢٤٠ ،
 ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٨٥ ، ٢٩٩ ،
 ٣٠٣ ، ٣١٥ ، ٣٣٠ ، ٣٣٣ ،
 ٤٠٧ ، ٤٢٨ ، ٤٦٥ ، ٤٩٠ ،
 ٥٣٧ ، ٥٨٢ ، ٦٠٤ ، ٦١٧ ،
 ٦٣٥ ، ٦٤٣ ، ٦٥٤ ، ٦٥٥ ،
 ٦٥٧ ، ٦٧٧ ، ٦٨١ ، ٦٩٢ ،
 ٧٠١ ، ٧٠٥ ، ٧١٥ ،
 سلا ٣٧٢ ، ٣٨٤ ، ٣٩٢ ، ٤٢٢ ،
 ٤٣٣
 السلط ٣٤٤
 سلهت ٥١٥
 سمرقند ٢٣٩ ، ٧١٢ ، ٧١٥ ،
 ٧١٨ ، ٧١٩ ، ٧٢٠ ،
 سناركاؤن ٥١٥
 سستريس ٥١
 السند ١٣١ ، ٥١٥ ،
 سنكيانك ٥٤١
 سواكن ٦٨
 السودان ٤٥ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ،
 ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٣٨٥ ،
 ٣٩٢ ، ٤٠٣ ، ٤٠٣ ، ٥٣٣ ،
 سورت ١٧٨
 سورية ٦٣ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٣ ،

رويسات ١٠٠
 الرياض ٥ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢٩ ، ٤٢٨ ،
 ٤٩١ ، ٥٣٧ ، ٥٣٨ ، ٥٨٣ ،
 ٥٩٢ ، ٥٩٤ ، ٥٩٨ ، ٦٣٥ ،
 ٦٤٤ ، ٦٤٥ ، ٦٥٢ ، ٧٠٤ ، ٧١٤
 - ز -
 الزاب ٣٧٩
 الزبداني ٣١١
 زبيد ٥٠٩ ، ٥١٠ ،
 الزرقاء ٣٥٠ ، ٤٨٥ ،
 الزلاقة ٤٢١ ، ٤٤١ ، ٤٤٢ ،
 الزهراء ١٩٦
 زويلة ٣٧٥
 - س -
 ساباط ٧١٣
 سالت ليك ستي ٤٥٣
 سان جوزي ٤٥٣
 سان فرانسيسكو ٤٥٣
 سانت كروز ٣٩٦
 ساليسيا ٦٣٩
 سبأ ٥٠٢ ، ٥٠٣ ، ٥٠٥ ،
 سبتة ٣٧٢ ، ٣٨٢ ، ٣٩٠ ،
 ٣٩٤ ، ٣٩٥ ، ٣٩٦ ،
 سد مأرب ٥٠٥
 سري لنكا ٤٦٩ ، ٤٧٠ ، ٥١٢ ،
 ٥٦٥
 سطيف ٥٥٩ ، ٥٦٣ ،

٣٦٥ ، ٣٧٧ ، ٤١١ ، ٤٢٨ ،
٤٩٠ ، ٥٩٦ ، ٦٣٠

شبه القارة الهندية ٧٣ ، ١١٠ ،
١٧٤ ، ٢٣٠ ، ٢٧٩ ، ٢٩١ ،

٣٣٨ ، ٣٦٢ ، ٤١٤ ، ٤٨٦ ،

٥٢١ ، ٥٢٦ ، ٥٣٢ ، ٥٧٩ ،

٦٢٦ ، ٦٧٢ ، ٦٧٥ ، ٦٨٩

شتورة ٣٠٤

شلال نياجرة ٤٩٨

شندي ٦٨

الشوبك ٣٦٦

شيتاغونغ ٥١٢ ، ٥١٤ ، ٥١٥ ،

شيراز ٢٥٥ ، ٢٥٧ ، ٢٦٣ ،

٢٦٤ ، ٢٦٥

شيغلد ٢٠٧

شيكاغو ٤٥٣ ، ٦٧٥ ، ٦٧٧ ،

٦٩٣ ، ٦٩٤ ، ٦٩٥ ، ٦٩٦ ،

٦٩٧ ، ٦٩٨ ، ٦٩٩ ، ٧٠٨

- ص -

الصحراء الإفريقية الكبرى ٨٦ ،

٣٨٨ ، ٣٩٩

صحراء النوبة ٦٧

صخرة الروشة ١٠٣

صفر ٣٧٦

صقلية ٣٧٥

صنعاء ٣١٣ ، ٤٨٠ ، ٤٩٥ ،

٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ،

٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٦ ، ١١٦ ، ١١٧ ،

١١٨ ، ١٢١ ، ١٣٤ ، ١٤١ ،

١٤٥ ، ١٥٢ ، ١٦١ ، ١٧١ ،

٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٩٥ ، ٣٠٤ ،

٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٨ ، ٣٤٦ ،

٤٢٢ ، ٤٢٣ ، ٤٨٦ ، ٥٩٦ ،

٥٩٨ ، ٦٣٠ ، ٦٨١ ، ٧٠٥

السوس ٣٨٦ ، ٣٩٠

سوسة ٣٧٥

سومنا ٤٤١

السويس ٤٢

سويسرا ٤١٢ ، ٦٧٤ ، ٦٧٥ ،

سير ٢٩١

سيلان ٢٢١ ، ٤٦٩ ، ٤٧١ ،

- ش -

الشارقة ٣٦٩ ، ٤٧٦ ، ٤٧٧ ،

٤٧٨ ، ٦٠٢ ، ٦٠٣ ، ٦١٧ ،

٦١٨ ، ٦١٩ ، ٦٧٩ ، ٦٨٠

الشام ٣٠ ، ٤٣ ، ٤٥ ، ٧٢ ،

٧٥ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٦ ، ٨٩ ،

٩٠ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٨ ، ٩٩ ،

١١٢ ، ١١٣ ، ١١٥ ، ١١٧ ،

١٤٥ ، ١٥٢ ، ١٧٣ ، ١٩٧ ،

٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٨ ، ٢٩١ ،

٢٩٥ ، ٣١٠ ، ٣٣٨ ، ٣٤٦ ،

طنطا ٥١ ، ٤٩٦ ، ٤٩٧ ، ٥٠٠ ، ٥٠٤ ،
 طهران ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٥٢٠ ، ٥١١ ، ٥٠٨ ، ٥٠٦ ، ٥٠٥
 ٢٦١ ، ٢٦٣
 طوس ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦١
 - ظ -
 ظهر البيدر ١٠٠
 الظهران ١٨٤
 - ع -
 عاليه ١٠٠ ، ١٠٤
 العتبة الخضراء ٤٥
 عجمان ٤٧٧
 العراق ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٤٣ ،
 ٦٤ ، ٨٩ ، ١٣٤ ، ١٤٥ ،
 ١٥٣ ، ١٨٤ ، ٢٨٣ ، ٣١٦ ،
 ٣١٧ ، ٣٢٢ ، ٣٨٢ ، ٤١١ ،
 ٤٢٨ ، ٥٩٦ ، ٦٣٠ ، ٦٣٩
 العرائش ٣٧٢
 عرفة ٥٨٩
 العزيزية ٥١ ، ٥٩٩
 عسقلان ٣٧٤
 عليكراه ١٨٣ ، ٢١٩
 عُمان ٤٩٠
 عمَّان ٩ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ،
 ٣١١ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣٢ ،
 ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٤٣ ،

صنهاجة ٣٨٤
 صوفر ١٠٠
 الصومال ٥٣٣
 صيدا ٢٨٧ ، ٢٩٠ ، ٢٩٢ ،
 ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٣٠١
 الصين ٢٤٢ ، ٢٥٨ ، ٥٤١
 - ض -
 الضفة الغربية ١٨٥
 - ط -
 الطائف ٩١ ، ٧٠٦
 طرابلس ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ،
 ١٣٤ ، ٢٨٧ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ،
 ٢٩٢ ، ٢٩٥
 طرابلس الغرب ٣٩٠ ، ٤٠٠ ،
 ٤٠١ ، ٤٠٢ ، ٤٠٣ ، ٤٠٦ ،
 ٤٠٨ ، ٤٢١
 طرسوس ٣٥٠
 طليطلة ١٩٤ ، ١٩٦ ، ٤٢١ ،
 ٤٤١
 طنبه ٣٧٩
 طنجة ١٦١ ، ٣٧٢ ، ٣٧٨ ،
 ٣٨٢ ، ٣٩٠ ، ٣٩٥ ، ٣٩٦ ،
 ٣٩٧ ، ٣٩٨ ، ٤٠٣ ، ٤٢١ ،
 ٤٥٠ ، ٤٥١

٤٠٠ ، ٤٠١ ، ٤١٤ ، ٤١٦ ،
٤٣٩

الفرات ٣٣ ، ٨١

فريير ٧١٣

فرغانة ٧١٣

فرنسا ١٤١ ، ١٤٢ ، ٢٠٢ ،

٢٢٧ ، ٢٨٨ ، ٢٩٦ ، ٣٩٥ ،

٣٩٦ ، ٣٩٨ ، ٤١٢ ،

٤١٦ ، ٤٢٤ ، ٦٣٨ ، ٦٧٤ ،

٧٠٠

فطاني ٥٧٢

فكتورية ١٤٦

فلادلفيا ٤٥٣ ، ٤٥٥ ، ٥٤٢ ،

الفلبين ٤٢٨ ، ٤٥٧ ، ٥٦٥ ،

فلسطين ٥٨ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ،

٨٠ ، ٩٢ ، ١٠٥ ، ١٤٢ ،

١٧٢ ، ١٨٥ ، ٢١٠ ، ٢١٣ ،

٢١٤ ، ٢٦٥ ، ٢٨٣ ، ٢٨٧ ،

٢٩٥ ، ٣٢٣ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩ ،

٣٧٢ ، ٤٨٣ ، ٤٨٩ ، ٦٣٠ ،

-ق-

القاهرة ١٩ ، ٢٠ ، ٤٢ ، ٤٥ ،

٤٦ ، ٤٩ ، ٥٢ ، ٥٨ ، ٦٥ ،

٧١ ، ٢٣٥ ، ٢٨٩ ، ٣٣٦ ،

٤٠٨ ، ٤١٢ ، ٥٥٨ ، ٤٦٣ ،

٥٦٤

٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩ ،

٣٥٠ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦٧ ،

٣٦٨ ، ٤٧٩ ، ٤٨٠ ، ٤٨١ ،

٤٨٥ ، ٤٨٧ ، ٤٨٨ ، ٤٨٩ ،

٤٩٠ ، ٥١١ ، ٥٢٨ ، ٥٩٨ ،

العيون ٣٩٩

-غ-

غابة بلغراد (تركية) ٦٨٤

غار حراء ٩٠ ، ٩١ ، ٤٢٦ ،

٦٤٥ .

غدامس ٣٧٦

غرناطة ١٩٤ ، ١٩٨ ، ٢٣٧ ،

٣٨٨ ، ٣٩٠ ، ٣٩٢ ، ٤٠٠ ،

٤٢٥

غزني ٤٤٣

غزنين ٢٢٠ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ،

٢٠٧ ، ١٩٤ ، ٢٠٧ ،

غلطة ١٥١

غوطة دمشق ٧٣ ، ٣٠٦ ، ٣١٠ ،

-ف-

الفاتيكان ٢٩٧ ، ٣٤٩ ،

فاراب ٧١٣

فارقلي ١١٧

فاس ٣٧٢ ، ٣٨٤ ، ٣٨٩ ،

٣٩٠ ، ٣٩١ ، ٣٩٢ ، ٣٩٧ ،

قم ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٦٧ ، ٢٧٠	قبرص ٣٦٨ ، ٣٨١
القناطر الخيرية ٥١	قبة الصخرة ٤٨٧
قناة السويس ١٨٥	قدح ٥٧١
قندهار ٢٣٢	القدس ٣٤٠ ، ٤٨١ ، ٤٨٣ ، ٦٨٥
القنيطرة ٣٧٢	قرطاجنة ٣٧٢ ، ٣٨١
قونية ١٥٠ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ،	قرطبة ١٩٤ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ،
١٧٠ ، ١٦٩	٢٣٧ ، ٢٣٩ ، ٣٨٨ ، ٤٢١ ،
قويسغا ٥١	٤٤٢ ، ٤٤٣ ، ٤٩٦
القيروان ٣٧٥ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ ،	قزوين ٢٦٢
٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨٢ ، ٣٨٤ ،	القسطنطينية ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٧ ،
٤٠١	١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣١ ، ١٣٥ ،
- ك -	١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ،
كابيل ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٢ ،	٢٠٢ ، ٣٨٠ ، ٦٣٣ ، ٦٦١ ،
٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٧ ،	٦٦٤ ، ٦٧٥ ، ٦٩٠
٢٢٩ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ،	قسطلية ٣٧٦
٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٤٠ ،	قشتالة ٣٨٧
٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٩٠ ، ٣٣٢	قصر دولمة باغيجه ١٢٩ ، ١٤٥ ،
كاريزمير ٢٣٦	٥٤٧
الكاظمية ٣١٦	قصر رعدان ٣٣٣
كاغو ٣٩٢	قصر فرساي ١٤٥
كاليفورنيا ٦٩٨ ، ٧٠٨ ،	قصر فرعون ٣٧٨
كامران ٢٥	قصر يلدز ١٣٧ ، ٥٤٧
كانم ٣٩٢	قطر ٤٦٢ ، ٤٦٣ ، ٤٦٤ ،
كاورا ٣٧٥	قفصة ٣٧٦
كجرات ١٧٨	قلعة جواد ٢٣٤ ، ٢٣٥ ،
	قلعة كانكره ٦١٤
	قلمون ١٠٥ ، ١٠٧ ،

الكويت ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٢ ،
 ١٨٣ ، ٢٠٨ ، ٢١٠ ، ٣٢٩ ،
 ٣٣٠ ، ٤٢٢ ، ٤٢٨ ، ٤٧٨ ،
 ٤٨١ ، ٥٦٤ ، ٥٧٧ ، ٥٨٠ ،
 ٦٢٧ ، ٦٥٤ ، ٦٨١

كبرالة ٤٧١

كيلي فورينا ٤٥٣

كيمبرج ١٦٤ ، ٤٥٣

- ل -

اللاذقية ٨١

لاس أنجلس ٤٥٣

لاهور ١٦٦ ، ٢٣٦ ، ٤١٤ ، ٤٦١ ،

لبنان ٨٠ ، ٨١ ، ٨٧ ، ٩٣ ،

٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠٢ ، ١٠٥ ،

١٠٦ ، ١٠٧ ، ٢٠٤ ، ٢٨٣ ،

٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ،

٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ،

٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ،

٢٩٩ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ،

٤٢٤ ، ٤٢٨ ، ٤٢٩ ، ٥٤٣ ،

٦٣٠

لحظة ٣٦٦

لكسم برك ٥٣٩ ، ٥٤١٠ ، ٣٤٢ ،

٥٥٨

لكهنؤ ٥ ، ٩ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٩ ،

٥١ ، ٩١ ، ١٦٤ ، ١٨٤ ،

١٨٧ ، ١٩٩ ، ٢٢٠ ، ٢٨٥ ،

كراتشي ٢٢ ، ٢٥ ، ١٧٦ ، ٢٠٢ ،

٢٠٥ ، ٣٣٩ ، ٤٥٧ ، ٥١١ ،

٥١٢ ، ٥٢٠ ، ٥٢١ ، ٥٢٤ ،

٥٢٨ ، ٥٢٩ ، ٥٤٣ ، ٥٤٧ ،

٥٥١ ، ٥٥٢ ، ٥٥٦ ، ٥٩٠

كربلاء ٢٧٢ ، ٣١٨

الكرخ ٢٨٢ ، ٣٢٢

كردفان ٦٨

الكرك ٣٥٩ ، ٣٦٤ ، ٣٦٦

كركوك ١٥١

كسلا ٦٨

كشمير ٢٣٦ ، ٤١٣ ، ٤٢٠ ، ٥٠٨ ،

كشور غنج ٥١٧

الكعبة ٢٨٣

كلكتة ٥١٢ ، ٥١٣ ، ٥١٥ ، ٥٢٠ ،

كمبرج ١٩٤ ، ٦٧٤

كندا ٤٩٨ ، ٥١٢ ، ٥٦٥ ، ٦٧٤ ،

كوالا ترنكانو ٥٦٨ ، ٥٧٠ ، ٥٧٢ ،

كوالالمبور ٥٦٧ ، ٥٦٨ ، ٥٧٠ ،

٥٧٥

كورسيكا ٣٩٨

كوريا ١٥٦

الكوفة ٢٨٤ ، ٣١٤ ، ٣١٨ ،

٣٨٢ ، ٥٥٣

كوكس بازار ٥١٥

كولمبو ٤٦٩ ، ٤٧٠

ماليزيا ٥٦٥ ، ٥٦٦ ، ٥٦٧ ،
 ٥٦٨ ، ٥٧١ ، ٥٧٣ ، ٥٧٥
 مانشستر ٢٠٧
 متحف توبي كابي ١٣٦ ، ١٤٩
 المجمع العلمي بدمشق ١٧٤ ،
 ٤٨٣
 المجمع العلمي العراقي ٣١٨
 المجمع العلمي الكردي ٣١٨ ،
 ٣١٩
 مجمع فؤاد الأول (مجمع اللغة
 العربية بالقاهرة) ٤٤ ، ٤٢٣
 المحلة الكبرى ٥١
 المحيط الأطلسي ٨٦ ، ٣٧١ ،
 ٣٧٦ ، ٣٧٨ ، ٣٨٥ ، ٣٩٦ ،
 ٤٠٢ ، ٤١١ ، ٤٢١ ، ٤٣٣ ،
 ٤٣٧
 المحيط الأطلنطي = المحيط
 الأطلسي
 المحيط الهندي ٢٢٠
 مدائن صالح ٣٦٧
 مدراس ٥٧٥
 مدريد ١٩٤ ، ١٩٦
 مدغشقر ٣٩٨
 مدليند ٤٧٥
 المدينة المنورة ١٣ ، ١٩ ، ٢١ ،
 ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٧ ، ٩٠ ،
 ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٧٦ ، ١٨٣ ،

٤١٤ ، ٤١٦ ، ٤١٨ ، ٤٥٥ ،
 ٤٧٦ ، ٤٩٢ ، ٥١٥ ، ٥١٩ ،
 ٥٢٩ ، ٥٤٣ ، ٥٥٠ ، ٥٧٦ ،
 ٥٨٠ ، ٥٨٢ ، ٥٩٥ ، ٦٠٢ ،
 ٦٠٥ ، ٦٢٠ ، ٦٤٣ ، ٦٤٥ ،
 ٦٥٧ ، ٦٧٦ ، ٦٨٥ ، ٦٨٩ ،
 ٧١٤ ، ٧٠٧
 لندن ١٩ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ٢٠٠ ،
 ٢٠٢ ، ٢٠٧ ، ٤٠٦ ، ٤٢٩ ،
 ٤٣٢ ، ٤٤٦ ، ٤٥٠ ، ٤٧٣ ،
 ٥٣٩ ، ٥٤١ ، ٥٤٢ ، ٥٥٨ ،
 ٥٥٩ ، ٥٧٦ ، ٥٧٧ ، ٥٧٩ ،
 ٥٨٠ ، ٦٣٥ ، ٦٤١ ، ٦٤٢ ،
 ٦٥٨ ، ٦٦٨ ، ٦٧٤ ، ٦٧٥ ،
 ٦٧٧ ، ٦٩١ ، ٦٩٣
 لوزان ١٩٤
 ليبيا ١٣٤ ، ١٨٧ ، ٣٧٣
 ليدس ٢٠٧
 ليستشتر ٤٧٥
 ليستر ٦٥٩
 ليك نتس ٦٣٩
 -٢-
 مآب ٣٦٥
 ماسينه ٤٠١
 ماليان ٣٧٨
 مالقه ٣٨٨

٥٢٨ ، ٤٨٣ ، ٣٦٨ ، ٢٣٥	٢٠٥ ، ١٩١ ، ١٨٨ ، ١٨٤
مسجد بيت المكرم ٥١٨	٢١٠ ، ٢٠٩ ، ٢٠٧ ، ٢٠٦
مسجد الجامعة الأردنية ٣٣٦	٣٦٥ ، ٣١٤ ، ٢٨٣ ، ٢٣٢
مسجد جهار باغ ٢٥٨	٤٢٠ ، ٤٠٧ ، ٤٠٥ ، ٣٩٤
مسجد الجوهرة ٥٩٩	٥٣٠ ، ٤٩٥ ، ٤٩١ ، ٤٩٠
المسجد الحرام ٥٣١ ، ٧٠٦	٥٦٤ ، ٥٣٥ ، ٥٣٣ ، ٥٣١
مسجد سبه سالار ٢٥٦ ، ٢٥٨ ، ٢٧٠	٥٨٩ ، ٥٨٨ ، ٥٨٣ ، ٥٦٨
مسجد سعد بن أبي وقاص ٤٧٧	٥٩٨ ، ٥٩٧ ، ٥٩١ ، ٥٩٠
مسجد سورتى ١٧٩	٦٤٤ ، ٦٤٣ ، ٦٣٢ ، ٦٢٨
مسجد السيدة معصومة ٢٥٧ ، ٢٧٠	٦٦٤ ، ٦٦١ ، ٦٥٥ ، ٦٤٨
مسجد سيدي عبد الله البقال ٣٩٦	٧٠٣ ، ٧٠٢ ، ٦٩٨ ، ٦٧٥
مسجد شاه عباس الصفدي ٢٥٨	٧٠٦ ، ٧٠٤
مسجد شيخ لطف الله ٢٥٨	مراد آباد ٢٣
مسجد صلاح الدين ٤٨٨	مراكش ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٨٥
مسجد علي بن أبي طالب ٣٦٩	٣٨٦ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩ ، ٣٩٠
مسجد علي بن يوسف ٤٤٤	٣٩٢ ، ٣٩٦ ، ٣٩٨ ، ٣٩٥
مسجد عمر بن الخطاب ٤٧٨ ، ٤٨٥	٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤٠١ ، ٤٠٤
مسجد الفاتح ٥٤٤ ، ٥٥١	٤١٦ ، ٤٣٨ ، ٤٤٠ ، ٤٤١
مسجد كوهر ٢٥٨	٤٤٢ ، ٤٤٣ ، ٤٤٤ ، ٤٤٦
مسجد مكى ٦٩٩	٤٩٢ ، ٥١٢ ، ٥٦٥ ، ٥٨٣
المسجد النبوي الشريف ١٣ ، ٢٦ ، ٢٧٠ ، ٢٨٣ ، ٤٩٠	مرج راهط ٣٨١
٥٣٠ ، ٥٣١ ، ٥٣٢ ، ٥٨٨	المرجة ٧١
٥٩٠ ، ٥٩٧ ، ٥٩١ ، ٥٩٨	مرغينان ٧١٣
٧٠٤ ، ٦٤٣	المرية ٣٨٨
	مزغان ٣٩١
	مسجد أحمد قارة ٣٣٦
	المسجد الأقصى ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥

معرة النعمان ٧٤
 مغادور ٣٩١
 المغرب ٥٢ ، ١٦١ ، ٣٧٦ ،
 ٣٧٧ ، ٣٧٨ ، ٣٨٠ ، ٣٨١ ،
 ٣٨٢ ، ٣٨٤ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩ ،
 ٣٩٠ ، ٣٩١ ، ٣٩٣ ، ٣٩٦ ،
 ٣٩٧ ، ٤٠٠ ، ٤٠١ ، ٤٠٢ ،
 ٤٠٣ ، ٤٠٤ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦ ،
 ٤٠٧ ، ٤١٢ ، ٤١٣ ، ٤١٤ ،
 ٤١٨ ، ٤٢٠ ، ٤٢٣ ، ٤٢٤ ،
 ٤٢٥ ، ٤٢٨ ، ٤٣٠ ، ٤٣١ ،
 ٤٣٣ ، ٤٣٦ ، ٤٣٧ ، ٤٣٨ ،
 ٤٣٩ ، ٤٤٠ ، ٤٤١ ، ٤٤٣ ،
 ٤٤٤ ، ٤٤٦ ، ٤٤٩ ، ٤٥٠ ،
 ٤٥١ ، ٤٦٤ ، ٤٦٨ ، ٤٩٠ ،
 ٤٨٥ ، ٥٩٨ ، ٦٢٧ ،
 المغرب الأقصى ٤٣ ، ١٩٨ ،
 ٣٧٥ ، ٣٧٤ ، ٣٧٢ ، ٣٧١
 مكتبة راغب باشا ١٤٠
 المكتبة السليمانية ١٣٥
 المكتبة الظاهرية ٧٢
 مكتبة القرويين ٤١٨
 المكلا ٣٥
 مكناس ٣٧٢ ، ٣٧٣ ، ٤١٠ ،
 ٤١٣
 مكناسة ٣٨٩ ، ٣٩١ ، ٣٩٣ ،
 مكة المكرمة ٢٠ ، ٢٧ ، ٢٩ ،

مسجد نور ٤٣١
 مسجد وكيل ٢٥٨
 مسجد يعقوب بن منصور السعدي
 ٤٤٤
 مسقط ٤٩٠
 مشهد ٢٥٨ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ،
 مصر ١٨ ، ٢٦ ، ٣٠ ، ٣٨ ، ٤١ ،
 ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ،
 ٤٧ ، ٤٨ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ،
 ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٧ ، ٥٩ ، ٦١ ،
 ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ،
 ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٢ ، ٧٤ ، ٨١ ،
 ٨٦ ، ٨٨ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ١٠٥ ،
 ١٢١ ، ١٤١ ، ١٥٧ ، ١٨٥ ،
 ١٩١ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢٣٢ ،
 ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٣٧٣ ، ٣٧٤ ،
 ٣٧٥ ، ٣٧٦ ، ٣٨٢ ، ٣٨٤ ،
 ٣٨٨ ، ٣٩٠ ، ٤٠٠ ، ٤٠١ ،
 ٤٠٣ ، ٤٠٧ ، ٤١١ ، ٤٢٢ ،
 ٤٢٨ ، ٤٣٣ ، ٥٠٨ ، ٥٢٧ ،
 ٥٥٨ ، ٥٥٩ ، ٥٦٤ ، ٦٣١ ،
 ٦٨١ ، ٦٨٥ ، ٧٠١ ، ٧٠٢ ،
 مضيق البوسفور ١٤٥
 مضيق بوسفورس ١٥١
 مضيق خيبر ٢١٨
 مظفر فور ٧١٤
 معان ٣٦٥ ، ٣٦٦ ،

ميدان مرج الحديد ٤٢٢	٣١ ، ٩٠ ، ١٠٤ ، ١٧٦ ، ١٨٤ ،
مين هاتف ٤٥٣	١٨٧ ، ١٩٢ ، ٢٠٨ ، ٢١١ ،
ميوات ٢٣	٢٢٢ ، ٢٥٥ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ،
ميونج ٢٠٢	٣٠٣ ، ٣٠٧ ، ٣١٤ ، ٣٦٩ ،
- ن -	٣٩٤ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦ ، ٤٠٧ ،
نايجيريا ٢٠٤	٤٠٨ ، ٤٠٩ ، ٤٢٤ ، ٤٢٦ ،
نبروه ٥١	٤٦٢ ، ٤٦٣ ، ٤٦٧ ، ٤٩١ ،
نجد ٢٦ ، ٤٣ ، ٥٠٧ ، ٦٥٤	٥١٣ ، ٥٣٠ ، ٥٣٤ ، ٥٦٤ ،
النجف ٢٧٢ ، ٣١٨	٥٦٩ ، ٥٨١ ، ٥٨٢ ، ٥٨٣ ،
نكله ٥١	٥٨٤ ، ٥٨٨ ، ٥٨٩ ، ٥٩٥ ،
النمسا ٦٣٩	٥٩٦ ، ٥٩٨ ، ٦٣٥ ، ٦٣٩ ،
نهر أبو علي ١٠٦	٦٤٤ ، ٦٤٥ ، ٦٥٤ ، ٦٧٥ ،
نهر درعة ٣٧٨	٧٠٤ ، ٧٠٥ ، ٧٠٦ ،
نهر سبو ٣٧٨	ملتان ٤١٤
نهر قسيطرة ٣٥٠	مليلة ٣٧٢
نهر كابل ٢٥٠	منى ٥٨٩
نهر نيني ٣٨١	منارة قطب الدين أبيك ٤٤٧
نهر اليرموك ٣٤٥ ، ٣٤٦	منارة الكتبية ٤٤٧
نهيلة ٥١٥	منصوري ١٧١
نيسابور ٢٦٢	مؤتة ٣٦٤ ، ٣٦٥ ، ٣٦٦ ،
النوبة ٣٧٤	موريتانيا ٣٩٩ ، ٤٠٥ ، ٤٢٨ ،
النيل ٦٨	موسكو ٣١٦ ، ٧٢٠ ،
النيل الأبيض ٦٧ ، ٦٨	الموصل ١٥١
النيل الأزرق ٦٧ ، ٦٨	مومن شاهي ٥١٥
نيلاب ٥١٥	مونتريال ٤٥٣
نيني تال ١٧١	ميدان أكبس ١١٥
نيويورك ٤٥٢ ، ٦٧٧ ، ٦٧٨ ،	ميدان بانبي بت ٤٢٢

، ٤٣٨ ، ٤٢٤ ، ٤٢٢ ، ٤٢١
 ، ٤٥٦ ، ٤٤٧ ، ٤٤٤ ، ٤٤٠
 ، ٤٦٦ ، ٤٦١ ، ٤٥٨ ، ٤٥٧
 ، ٤٧٥ ، ٤٧٣ ، ٤٧١ ، ٤٦٨
 ، ٤٨٣ ، ٤٨٢ ، ٤٨٠ ، ٤٧٨
 ، ٤٩٦ ، ٤٩٤ ، ٤٩٠ ، ٤٨٩
 ، ٥١٢ ، ٥١٠ ، ٥٠٩ ، ٤٩٩
 ، ٥٣٨ ، ٥٢٠ ، ٥١٩ ، ٥١٣
 ، ٥٥٦ ، ٥٥٤ ، ٥٥٣ ، ٥٤٣
 ، ٥٦١ ، ٥٦٠ ، ٥٥٨ ، ٥٥٧
 ، ٥٩٨ ، ٥٨٠ ، ٥٧٩ ، ٥٦٧
 ، ٦٢٦ ، ٦٢٠ ، ٦١٣ ، ٦٠٢
 ، ٦٤١ ، ٦٣٧ ، ٦٣٥ ، ٦٢٧
 ، ٦٨٤ ، ٦٨١ ، ٦٤٣ ، ٦٤٢
 ، ٦٩٢ ، ٦٩١ ، ٦٨٩ ، ٦٨٨
 ، ٧١٨ ، ٧١٥ ، ٧٠٦ ، ٦٩٧

٧١٩

هوارة ٣٧٦

- و -

وادي حلفا ٦٧

وادي عربية ٣٦٦

وادي فاطمة ٩١

وادي القرى ٣٨٣

وادي نهر السند ٢٨٣

وادي النيل ٦٨

واشنطن ٤٢٤ ، ٤٥٣ ، ٥٧٥

وجدة ٣٧٢ ، ٤٦٨

، ٧٠٠ ، ٦٩٩ ، ٦٩٤ ، ٦٩٣
 ٧٠٢

- ه -

الهامة ٩٩

هاولبور ٥٩٠

هرات ٣٩٢ ، ٢٣٤

الهند ٥ ، ٩ ، ١٠ ، ١٤ ، ١٥

، ٢١ ، ٢٠ ، ١٩ ، ١٧ ، ١٦

، ٤٢ ، ٣٩ ، ٣٧ ، ٢٩ ، ٢٤

، ٦٣ ، ٦١ ، ٥٢ ، ٥٠ ، ٤٨

، ٩٨ ، ٩١ ، ٧٩ ، ٦٩ ، ٦٦

، ١٠٦ ، ١٠٥ ، ١٠٢ ، ١٠١

، ١٢٦ ، ١١٦ ، ١١٣ ، ١٠٧

، ١٥٢ ، ١٤٦ ، ١٤٢ ، ١٣١

، ١٦٧ ، ١٦٦ ، ١٦٤ ، ١٥٦

، ١٨٧ ، ١٧٥ ، ١٧٤ ، ١٧٠

، ٢٠٦ ، ٢٠٢ ، ١٩٥ ، ١٨٨

، ٢١٧ ، ٢١٦ ، ٢١٥ ، ٢٠٨

، ٢٢٣ ، ٢٢٢ ، ٢٢٠ ، ٢١٩

، ٢٣٩ ، ٢٣٦ ، ٢٣٤ ، ٢٣٣

، ٢٤٩ ، ٢٤٥ ، ٢٤٤ ، ٢٤٢

، ٢٦٤ ، ٢٦١ ، ٢٦٠ ، ٢٥٢

، ٢٨٠ ، ٢٧٥ ، ٢٧١ ، ٢٦٧

، ٣٠٨ ، ٢٩٨ ، ٢٩١ ، ٢٨٥

، ٣٣٧ ، ٣٣١ ، ٣١٨ ، ٣١٦

، ٤٢٠ ، ٤١٥ ، ٤٠٤ ، ٣٦٨

٤٩١ ، ٤٩٣ ، ٤٩٥ ، ٤٩٦ ،

٤٩٧ ، ٤٩٨ ، ٥٠٢ ، ٥٠٤ ،

٥٠٥ ، ٥٠٦ ، ٥٠٧ ، ٥٠٨ ،

٥١١ ، ٥١٢ ، ٥٢٧ ، ٥٢٩ ،

٦٥١ ، ٦٥٢

اليونان ٣٧٣

وليلي ٣٧٨ ، ٣٨٤

- ي -

يثرب = المدينة المنورة

اليرموك ٤٦٠ ، ٤٨٦ ، ٤٨٧ ،

يلودا ٥٤٩

اليمن ١٩٥ ، ١٩٧ ، ٤٨٠ ،

فهرس الأمم والقبائل والجماعات

الأمويون ٨٩
 الأنباط ٣٦٧
 الإنجليز (الإنكليز) ٧٥ ، ١٤٢ ،
 ١٤٣ ، ٢٠١ ، ٢١٩ ، ٢٢٤ ،
 ٢٣٣ ، ٣٩٣ ، ٣٩٧ ، ٦٨٩
 الأندلسيون ٥٠
 الأنصار ٥١١ ، ٥٣٥
 الأوربيون ١٥٤ ، ٢٦٠ ، ٣٩٧ ،
 ٤١٢ ، ٦٣٧ ، ٦٣٩ ، ٦٤٠ ،
 ٦٦١ ، ٦٤١
 الإيرانيون ٢٥٧ ، ٢٦٦ ، ٢٦٨ ،
 ٢٧٥ ، ٤٦٢ ، ٥٣٦ ، ٥٦١ ،
 ٥٨١ ، ٦٧١

- ب -

الباكستانيون ٣٧ ، ٤٢٩ ، ٤٥٣ ،
 ٤٦٠ ، ٤٦٥ ، ٥٥٣ ، ٥٩٩ ،
 ٦٥٩
 البربر ٥٢ ، ٣٧٢ ، ٣٧٣ ، ٣٧٥ ،

- آ -

آل عثمان ١٤٤

- أ -

الأتراك ٢٧ ، ٥٠ ، ٥٢ ، ١١٤ ،
 ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ ،
 ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ،
 ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٤١ ،
 ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٥٢ ،
 ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٩ ، ١٦٣ ،
 ١٦٨ ، ٢٤٨ ، ٢٦٧ ، ٣٤٠ ،
 ٣٩١ ، ٣٩٢ ، ٥٤٤ ، ٥٤٥ ،
 ٥٤٦ ، ٥٤٧ ، ٦٢٧ ، ٦٢٩ ،
 ٦٥٢ ، ٦٨١

الأريثيون ٥٠

الإسبانيون ٣٩٠ ، ٣٩٢ ، ٣٩٥ ،
 ٣٩٦
 الأفغان ٢٢٢ ، ٢٣٣ ، ٢٤٧ ،
 ٢٥٠ ، ٣٦٢

- ج -	٣٦٥ جذام	٣٧٧ ، ٣٧٨ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٣٨٢ ، ٣٨٤ ، ٣٨٨ ، ٣٩٥ ، ٤٠٠ ، ٤٠٢ ، ٤١٥ ، ٤١٦
- ح -	٥٠٧ الحجازيون	البذقيون ١٥٨
- خ -	٢١٦ الخليج	البرتغاليون ٣٩٠ ، ٣٩١ ، ٣٩٢ ، ٣٩٤ ، ٤١١
- ر -	الروم ٨٩ ، ١٦٤ ، ٣٦٤ ، ٣٦٥ ، ٣٧٥ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٤٨٧ ، الرومان ٣٣٩ ، ٣٤٥ ، ٣٧٢ ، ٣٧٣ ، ٥٣٥ ، ٥٣٦ ، ٥٥٩	البلغاريون ٥٤٩ بنو الأحمر ٣٨٩ بنو إدريس ٣٨٤ بنو إسرائيل ٢١٣ ، ٤٨٥ ، ٥١٦ ، بنو أمية ١٤٢ ، ١٩٢ بنو جفنة ٩٩ بنو شيبان ٧٢٠ بنو مازن ٦١٠ بنو مرين ٣٨٨ ، ٣٨٩ ، ٣٩٠ ، ٤٤٤ بنو ناهيد ٤٤٥ بنو وطاس ٣٩٠ البهراء ٣٦٥ البيزنطيون ١٥٨
- س -	السجلماسيون ٣٩٣ السعوديون ٤٦٣ السلاجقة ١٤١ ، ١٦٨ ، ٢٦٢ السنوسيون ٤٠٨ السودانيون ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٩ السوريون ٨٧ ، ٨٨ ، ١١٦ ، ١١٩ ، ١٢٤ ، ٣٠٨ ، ٣٥٣	- ت - التتار ٦٣٩ ، ٦٤٠ التغالقة ٢١٦
- ص -	الصفويون ٢٥٥ ، ٢٥٧ ، ٢٦٢ ، ٢٦٤ ، ٢٦٣ الصنهاجيون ٣٨٥	- ث - ثمود ٣٢٩ ، ٣٦٧

٦٥٦ ، ٦٥٧ ، ٦٥٩ ، ٦٦٨ ،
٦٦٩ ، ٦٧٠ ، ٦٨٤ ، ٧٠٠

- ف -

الفرس ٢٤٨ ، ٣٧٣ ، ٤٣٦ ،
٤٨٧ ، ٥٣٦
الفرنسيون ٣٩٤ ، ٣٩٥ ، ٤١٢ ،
٤٤٩ ، ٤١٥
الفلسطينيون ٧٤ ، ١٠٢ ، ١٧٣ ،
٢٨٧ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٤٥

- ق -

القاجاريون ٢٦٣
قريش ٥٨٤
القين ٣٦٥

- ك -

الكرد ٨٩

- ل -

لخم ٣٦٥
اللبنانيون ١٠٠
الليبيون ١٥٠

- م -

الماليزيون ٥٧٥
المرابطون ٣٨٤ ، ٣٨٥ ، ٣٨٦ ،
٣٨٧ ، ٤٠٢ ، ٤٢١ ، ٤٤١ ،
٤٤٤
المراكشيون ٣٩٥ ، ٤٤٢
مزنة ٢٧٩

- ع -

عاد ٣٢٩

العثمانيون = الأتراك

العرب ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٥٢ ،
٦٧ ، ٧٥ ، ٨٠ ، ٩١ ، ٩٧ ،
١٠٢ ، ١٠٥ ، ١١٠ ، ١١٣ ،
١١٥ ، ١١٧ ، ١٢٦ ، ١٢٩ ،
١٣٠ ، ١٣٤ ، ١٤١ ، ١٤٥ ،
١٥٠ ، ١٨٢ ، ١٨٥ ، ١٨٧ ،
١٩٤ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ،
٢٠٧ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١٣ ،
٢٤٣ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ،
٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٨ ، ٢٦٤ ،
٢٨٠ ، ٢٨٢ ، ٢٨٤ ، ٢٨٧ ،
٢٨٩ ، ٢٩٥ ، ٣٣٤ ، ٣٣٨ ،
٣٣٩ ، ٣٤٤ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨ ،
٣٦٠ ، ٣٦٤ ، ٣٦٧ ، ٣٧٠ ،
٣٧٣ ، ٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٣٨٢ ،
٣٨٧ ، ٣٨٨ ، ٣٩٠ ، ٤٠٠ ،
٤٠٢ ، ٤٠٩ ، ٤١٢ ، ٤١٥ ،
٤٣٣ ، ٤٤٢ ، ٤٤٩ ، ٤٥٣ ،
٤٦٣ ، ٤٦٧ ، ٤٦٩ ، ٤٧٣ ،
٤٧٧ ، ٤٨٢ ، ٤٨٣ ، ٤٩٢ ،
٥٠٧ ، ٥١٠ ، ٥٢٦ ، ٥٢٧ ،
٥٣٢ ، ٥٣٤ ، ٥٣٩ ، ٥٤٢ ،
٥٤٣ ، ٥٤٤ ، ٥٤٧ ، ٥٥٠ ،
٥٨٤ ، ٦٠٤ ، ٦١٩ ، ٦٢٦ ،

١٥٢ ، ٢٧٩ ، ٤٠٦ ، ٤٠٩ ،
 ٤٣٤ ، ٤٥٣ ، ٤٦٠ ، ٥٦١ ،
 ٥٦٨ ، ٥٦٩ ، ٥٩١ ، ٦٢٧ ،
 ٦٥٩ ، ٦٧٩ ، ٦٩٣

- ي -

اليمنيون ٥٠٧ ، ٥٥٥ ،
 اليهود ٧٥ ، ٨٩ ، ١٤٢ ، ١٥٢ ،
 ٢١٣ ، ٢٦٥ ، ٢٦٩ ، ٣٢١ ،
 ٣٤٠ ، ٥٩٣ ، ٧٠٨ ، ٧٠٩ ،

٧١٨

اليونانيون ٦٣٩

المصريون ٢٦٧
 المغاربة ٤٠٣ ، ٤١١ ، ٤١٨ ،
 ٤٣١

المغول ٢١٦ ، ٦٣٩

المماليك ٢١٦

المهاجرون ٥٣٥

الموحدون ٣٨٥ ، ٣٨٧ ، ٣٨٨ ،

٣٨٩ ، ٤٠٢ ، ٤٠٣ ، ٤٢١ ،

٤٤٣ ، ٤٤٤ ، ٤٤٥

- ه -

الهنود ٣٧ ، ١١٦ ، ١٣٠ ، ١٤٢ ،

فهرس الشعر

رقم الصفحة	الشاعر	القافية
	- الهمزة -	
١٩٠	-	بالماء
	- الباء -	
١١٤	-	أصابا
٤٦٥	-	عرب
	- التاء -	
٢٧٩	-	يكيسُت
	- الدال -	
٧١٩	-	آمد
٢٣٨	المعري	الأجداد
٢٣٨	المعري	الأجساد
٢٣٨	المعري	العباد
٢٥٠	-	خوارند
٢٥٠	-	دارند
٢٩٣	-	فسد
	- الراء -	
٢٨٠	فريد الدين عطار	خاك را

١١١	-	الديارا
٢٧٩	-	الأوعارُ
٢٨٧	أبو تمام	منظرُ
٥٤٥	إقبال	بحره
٣١٣	-	السفرُ
- السين -		
١٩٧	-	الأندلسِ
- العين -		
٣٠٥	الصمة بن عبد الله	تدمعا
٣٠٥	الصمة بن عبد الله	المتربعا
٣١٧	المتنبي	طبعُ
٤٥٩	-	مسمع
- القاف -		
٣٤٤	-	مصدقُ
- الكاف -		
٣٤٣	متمم بن نويرة	السوافك
٣٤٣	متمم بن نويرة	فالدكادك
٣٤٣	متمم بن نويرة	مالك
- اللام -		
٢٤٧	-	تأكله
٩٩	حسان بن ثابت	السلسلِ
- الميم -		
٧٠٣	إقبال	بماليم
٧٠٣	إقبال	جماليم

- النون -

٥٣٢ -	أشيانه
٢٦٣ بشار بن برد	أحياناً
٢٤٦ -	أخانا
٢٣٩ -	بآخرينا
٦١٠ -	برهانا
٢٥٢ -	خراسانا
٥٣٢ -	عاشقانه
٢٣٩ -	لقينا
٣١٠ شوقي	آذانُ
٣٤٥ صالح الرندي	إيمان
٣١٠ شوقي	عبدانُ
٣٤٥ صالح الرندي	عيدانُ
٣١٠ شوقي	مروانُ
١٩٦ -	بزمانِ
١٩٦ -	تدانِ
٣٠٥ شوقي	ريحانِ

- الياء -

٥٣١ ، ٢٥٢ ، ١٨٨ -	الأمانيا
٥٣١ ، ٢٥٢ ، ١٨٨ -	حاليا
٣٧٩ أبو محجن الثقفي	المناديا
٣٧٩ أبو محجن الثقفي	وثاقيا
٤٣٩ -	هيا

فهرس الموضوعات

٥	تقديم بقلم الأستاذ محمد الرابع الحسنى الندوى
٧	مقدمة الكتاب
١٠	العلامة أبو الحسن الندوى وأدب الرحلة
١٤	ملاح من حياة العلامة أبى الحسن الندوى وشخصيته
١٤	اسمه ونسبه وأسرته
١٥	ميلاده ونشأته
١٦	جهوده العلمى ونشاطاته الدعوىة
١٧	أهم مؤلفاته
١٩	تقدير وتكرىم
٢٠	رئاسته وعضويته للجامعات والمجامع
٢١	وفاته
٢٢	الرحلة الأولى للحج عام ١٩٤٧ م
٢٢	الرحلة إلى الحجاز والإقامة بالحرمن الشرفىن
٢٤	رسالة إلى ممثلى البلاد الإسلامىة
٢٧	تقرير موجز عن إقامتى بالحج
٣٠	رسالة بين الجباىة والهداىة
٣٢	حماس القىام بالدعوة بين العرب
٣٤	الرحلة الثانية للحج عام ١٩٥٠ م

- ٣٥ تأثير التعليم والحضارة الغربية في الحجاز
- ٣٧ جلسة مع الأدباء وأصحاب الأقلام في الحجاز
- ٣٩ أحاديث في الإذاعة السعودية
- ٤١ الرحلة إلى مصر والشرق العربي عام ١٩٥١ م
- ٤١ مصر مركز العالم العربي العلمي والفكري
- ٤٢ على أرض مصر
- ٤٣ مصر قبل عهد عبد الناصر
- ٤٥ التعرف على الأوساط العلمية والأدبية وتبادل الآراء
- ٤٦ أحاديث ومحاضرات مهمة
- ٤٩ اللقاءات مع الطلاب ، والجولات في القرى والأرياف
- ٥٢ اسمعي يا مصر
- ٥٤ رسائل أخرى
- ٥٤ الصلات الخاصة
- ٥٤ الإخوان المسلمون في مصر وصلتي بهم
- ٦١ توديع لمصر
- ٦٥ في السودان
- ٦٦ السودان طبيعياً وجغرافياً وسياسياً ودينياً
- ٧٠ وداع السودان
- ٧١ في دمشق
- ٧٣ في بيت المقدس والخليل
- ٧٤ مدن وأمكنة تاريخية أخرى
- ٧٤ لقاء الملك عبد الله حاكم الأردن والقدس
- ٧٥ معلومات موثوق بها وشهادات عينية عن مأساة فلسطين
- ٧٥ خطاب حول قضية فلسطين
- ٧٨ محاضرات وأحاديث أخرى في الشام
- ٧٩ خطاب في حمص بلد سيف الله سيدنا خالد بن الوليد
- ٨٠ نظرة شاملة على سورية

- ٨٨ سورية مالها وما عليها
- ٩٠ العودة إلى الحجاز والأعمال فيها
- ٩٣ الرحلة إلى الشام ولبنان وتركيا عام ١٩٥٦ م
- ٩٣ محاضرات في جامعة دمشق
- ٩٣ دعوة من جامعة دمشق
- ٩٧ حديثان في الإذاعة السورية
- ٩٩ رحلة إلى لبنان وثلاثة أيام فيها
- ١٠٨ كلمة وداع عن بيروت
- ١١٠ رحلة إلى تركيا
- ١١٤ الزملاء الأتراك وعاطفتهم الدينية
- ١١٨ من أنقرة إلى القسطنطينية
- ١٢٧ زيارة سيدنا أبي أيوب الأنصاري
- ١٢٧ في جامع أيا صوفيا
- ١٢٩ خطابي في حفل الشباب الأتراك
- ١٣٤ في حفل الطلبة العرب
- ١٣٩ زيارة الشيخ حسن بصري كبير علماء تركيا
- ١٤١ زيارة المؤرخ التركي إسماعيل حامي دانشمند
- ١٤٢ عن السلطان عبد الحميد خان
- ١٤٨ حول الدينية واللا دينية
- ١٥١ نظرة على استانبول
- ١٥٤ في أنقرة
- ١٧١ العودة من تركيا والمشاركة في المؤتمر الإسلامي بدمشق
- ١٧٣ الأيام الأخيرة من الإقامة بدمشق ومغادرتها
- ١٧٥ إبداء رأي في أتاتورك
- ١٧٦ في بغداد
- ١٧٨ رحلة إلى بورما عام ١٩٦٠ م
- ١٨٠ رحلة إلى الكويت عام ١٩٦٢ م

- ١٨٣ الرحلة الثالثة إلى الحجاز عام ١٩٦٢ م
- ١٨٣ تأسيس الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة
- ١٨٧ تأسيس رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة
- ١٨٨ سلسلة المحاضرات بالجامعة الإسلامية
- ١٨٩ لقاءات مع جلالة الملك فيصل
- ١٩٣ في طريق الصحافة الإسلامية
- ١٩٤ الرحلة الأولى إلى أوربة وزيارة الأندلس عام ١٩٦٣ م
- ١٩٥ على أرض الأندلس
- ١٩٨ انطباعات عن رحلة أوربة
- ٢٠٢ الرحلة الثانية إلى أوربة عام ١٩٦٤ م
- ٢٠٤ الرحلة إلى الحجاز عام ١٩٦٥ م
- ٢٠٤ ومشاركة مؤتمر رابطة العالم الإسلامي
- ٢٠٤ جلسات المؤتمر
- ٢٠٦ رحلة تذكارية إلى الحجاز عام ١٩٦٩ م
- ٢٠٧ رحلة ثالثة إلى إنكلترا عام ١٩٦٩ م
- ٢٠٨ الرحلة إلى الحجاز والكويت عام ١٩٦٧ م وأحاديثي فيهما
- ٢١١ مقابلة صحفية مهمة
- ٢١٣ الفتح للعرب المسلمين
- زيارة ستة أقطار إسلامية وعربية في غرب آسيا والشرق العربي
- ٢١٥ عام ١٩٧٣ م
- ٢١٥ في أرض الغزاة والفاتحين
- ٢١٥ دور أفغانستان في تاريخ الإسلام وفي تاريخ الهند
- ٢١٧ نظرة مسلمي الهند إلى أفغانستان
- ٢٢١ في وفد رابطة العالم الإسلامي
- ٢٢٣ في كابل
- ٢٢٩ حديث مع علماء كابل
- ٢٤١ مسؤولية الأقطار الإسلامية

- ٢٥٤ في أرض النوابع والشعراء
- ٢٥٤ داعي الشوق لزيارة إيران
- ٢٥٦ لقاء مع الوزراء والعلماء
- ٢٥٧ زيارة المراكز الدينية والعلمية والمدن التاريخية الأثرية
- ٢٥٨ الندوات والمحافل
- ٢٥٩ في طوس مينة
- ٢٦٢ في أصفهان
- ٢٦٣ في شيراز
- ٢٦٦ انطباعات ، ملاحظات ، اقتراحات
- ٢٨٣ في لبنان ملتقى الشرق والغرب
- ٢٨٣ على آثار دعاة الإسلام
- ٢٨٥ في بيروت
- ٢٩٢ في صيدا
- ٣٠٤ زيارة خاطفة لدمشق
- ٣٠٤ من بيروت إلى دمشق
- ٣٠٤ صلتي القديمة بدمشق
- ٣٠٩ في دمشق
- ٣١٣ في عاصمة الرشيد
- ٣١٥ من بيروت إلى بغداد
- ٣١٨ في جامعة بغداد والمجمعين العلميين العراقي والكردي
- ٣٣٠ في أرض الشهداء والمرابطين
- ٣٣٠ من بغداد إلى عمان
- ٣٣٣ لقاء مع الملك حسين
- ٣٣٦ نظرة على اللاجئين الفلسطينيين
- ٣٤٤ محاضرة في السلط
- ٣٤٤ بين عمان وإربد
- ٣٥٩ من عمان إلى الكرك

- ٣٦٤ وقفة عند شهداء مؤتة
- ٣٦٨ مغادرة عمان
- ٣٦٩ رحلة إلى الخليج العربي عام ١٩٧٤ م
- ٣٧١ زيارة المغرب الأقصى عام ١٩٧٦ م
- ٣٧١ مراكش استعراض تاريخي موجز
- ٣٧٣ البربر
- ٣٨٤ بنو إدريس
- ٣٨٤ المرابطون
- ٣٨٥ الموحدون
- ٣٨٨ دولة بني مرين
- ٣٩٣ دولة الأشراف السجلماسيين
- ٤٠٢ أسبوعان في المغرب الأقصى
- ٤٠٢ الحنين إلى زيارة المغرب وتحقيق هذه الأمنية
- ٤٠٥ من جدة إلى الدار البيضاء ١٩٧٦ م
- ٤١٤ مدينة فاس التاريخية
- ٤٢٠ زيارة أفران
- ٤٢٠ في الرباط عاصمة المغرب
- ٤٢٦ افتتاح المؤتمر ، وحديثي فيه
- ٤٤٦ المأدبة الملكية ، وزيارة الملك
- ٤٥٢ رحلة إلى أمريكا عام ١٩٧٧ م
- ٤٥٥ عملية جراحية ناجحة
- ٤٥٧ رحلة باكستان عام ١٩٧٨ م
- ٤٥٧ المؤتمر الآسيوي لرابطة العالم الإسلامي
- ٤٦٢ رحلة إلى قطر عام ١٩٧٩ م لمشاركة مؤتمر السيرة
- ٤٦٣ مؤتمر السيرة بقطر
- ٤٦٤ منة البعثة المحمدية على الإنسانية
- ٤٦٦ رحلة إلى الجزائر عام ١٩٨٢ م

- ٤٦٦ المشاركة في ملتقى الفكر الإسلامي
- ٤٦٩ السفر إلى سري لنكا عام ١٩٨٢ م
- ٤٧٢ الرحلة إلى إنكلترا عام ١٩٨٣ م
- ٤٧٢ المشاركة في تأسيس المركز الإسلامي بجامعة أكسفورد
- ٤٧٦ رحلة إلى الكويت والإمارات عام ١٩٨٣ م
- ٤٧٩ رحلة إلى عمّان (شرقي الأردن) والحجاز عام ١٩٨٤ م
- ٤٨٠ في عمّان
- ٤٨١ في المؤتمر
- ٤٨٢ المسلمون في الهند ودورهم التاريخي
- ٤٨٣ خطاب الأمير حسن العلمي حول قضية فلسطين
- ٤٨٤ الشخصية المنتظرة
- ٤٨٥ شواغل عمّان وخطب ومحاضرات
- ٤٨٧ كهف أصحاب الكهف
- ٤٨٨ أصدقاؤنا بعمان ، وساعات معهم
- ٤٩٠ في الحجاز
- ٤٩١ تأسيس رابطة الأدب الإسلامي
- ٤٩٣ رحلتي إلى اليمن عام ١٩٨٤ م
- ٤٩٥ في صنعاء
- ٤٩٧ خطاب في جامعة صنعاء
- ٥٠٠ مصدر قوة المسلمين
- ٥٠٢ درس لنا في قصة سبأ
- ٥٠٤ لقاءات مع كبار مسؤولي الحكومة
- ٥٠٤ الكتب الدعوية في اليمن وتأثيرها
- ٥٠٥ صنعاء وما يجاورها من القرى
- ٥٠٧ جولة لمختلف مراكز اليمن وآثارها التاريخية
- ٥١٢ رحلتي إلى بنغلاديش وباكستان عام ١٩٨٤ م
- ٥١٢ بنغلاديش

- ٥١٣ ضرورة إيقاظ الشعور الديني والحمية الإسلامية
- ٥١٥ الحاجة إلى قدر نعمة الإسلام والشكر عليها
- ٥١٦ خطاب مهم في المؤسسة الإسلامية
- ٥١٧ الحاجة إلى براعة الدين في اللغة البنغالية
- ٥١٨ مصير هذه البلاد مرتبط بالإسلام وهي ملكه الدائم
- ٥٢٠ خطابات زملائي في السفر
- ٥٢٠ أربعة أيام في كراتشي باكستان وأعمال شاغلة
- ٥٢٢ الحاجة إلى إقامة مجتمع إسلامي على نطاق الشعب كله
- ٥٢٣ المجتمع الصالح القوي أساس الحضارة والسلطة ومنبعها
- ٥٢٤ مسؤولية السلطة الإسلامية الصالحة ، وبركتها وخيرها
- ٥٢٤ حب الجاه والحرص على السلطان أكبر خطر على أي شعب أو أمة
- ٥٢٥ شعور الشباب بمسؤوليتهم وسيطرتهم الخلقية على أنفسهم
- ٥٢٦ مسؤولية العلماء في بلد حر مستقل
- ٥٢٧ الحاجة إلى يقظة دائمة وحذر مستمر
- ٥٢٨ لقاء مع رئيس باكستان الجنرال محمد ضياء الحق
- ٥٣٠ رحلة إلى الحجاز عام ١٩٨٤ م
- ٥٣٠ خطاب مهم وكلمة ترحيب واستقبال
- ٥٣٩ رحلة إلى إنكلترا عام ١٩٨٥ م
- ٥٣٩ أيام في لندن وأكسفورد ولكسم برك
- ٥٤٣ الرحلة إلى تركيا عام ١٩٨٦ م
- ٥٤٣ جلسة استشارية لرابطة الأدب الإسلامي في تركيا
- ٥٤٥ سطوة تركية ، عقلية هندية ، منطق عربي
- ٥٤٧ سعة نطاق الحياة بعد الموت
- ٥٤٩ في بورصة
- ٥٥١ رحلة إلى باكستان عام ١٩٨٦ م
- ٥٥١ يومان ونصف يوم في كراتشي
- ٥٥٢ الأخطار الحقيقية على المجتمع الإسلامي

- ٥٥٦ لقاء أخير مع الرئيس الباكستاني محمد ضياء الحق
- ٥٥٨ رحلات إلى إنكلترا والجزائر عام ١٩٨٦ م
- ٥٥٨ المشاركة في جلسة المركز الإسلامي بأكسفورد
- ٥٥٩ في ملتقى الجزائر
- ٥٦٠ محاضرتي في الملتقى
- ٥٦٥ رحلة إلى ماليزيا عام ١٩٨٧ م
- خطب ومحاضرات في مختلف احتفالاتها وندواتها ومنظماتها
الإسلامية
- ٥٦٥
- ٥٦٦ من دلهي إلى كوالالمبور
- ٥٦٨ السفر إلى ترنكانو والمحاضرات فيها
- ٥٧٠ أسباب القلق في البلدان والمجابهة بين الشعب والحكومة
- ٥٧١ السفر إلى قدح وخطاباتي فيها
- ٥٧٣ خطورة مسؤولية الشباب الدعاة ومراحل الحياة الإيمانية
- ٥٧٥ آخر يوم في كوالالمبور
- ٥٧٦ السفر إلى لندن عام ١٩٨٧ م
- ٥٧٩ العودة إلى الهند
- ٥٨١ السفر إلى الحجاز عام ١٩٨٧ م
- ٥٨١ المشاركة في مؤتمر رابطة العالم الإسلامي
- ٥٨١ المؤتمر العام الثالث لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة
- ٥٨٢ السفر إلى مكة المكرمة ومشاغل المؤتمر
- ٥٨٣ خطابي في موضوع حرمة الحرمين الشريفين واحترامهما
- ٥٨٤ جلسات أخرى ، ومحاضراتي وخطابي الأخير
- ٥٩٠ أيام بالمدينة المنورة
- ٥٩١ جلسات رابطة الأدب الإسلامي
- ٥٩١ إقامة يوم واحد بجدة ، وخطابي بها
- ٥٩٥ رحلة إلى الحجاز عام ١٩٨٨ م
- ٥٩٥ لقاءات واجتماعات وأحاديث فيها

- ٦٠١ رحلة إلى الإمارات عام ١٩٨٨ م
- ٦٠١ محاضرة مهمة في أبوظبي
- ٦٠٥ محاضرة في موضوع ترشيد الصحوة الإسلامية
- ٦١٧ رحلتي إلى دولة الإمارات العربية المتحدة عام ١٩٨٨ م
- ٦٢٠ محاضرة ترشيد الصحوة الإسلامية
- ٦٢٦ رحلتي إلى تركيا وبريطانيا عام ١٩٨٩ م
- ٦٣٥ زيارة لندن وأكسفورد عام ١٩٨٩ م
- ٦٤٣ الرحلة إلى الحجاز عام ١٩٩٠
- ٦٤٧ حاجة العالم المعاصر إلى مجتمع مثالي إسلامي أفضل
- ٦٥٤ رحلة إلى الحجاز عام ١٩٩١ م
- مقترحات وملاحظات لمعالجة الأوضاع الناشئة عن الغزو العراقي للكويت
- ٦٥٤
- ٦٥٨ رحلة إلى إنكترا عام ١٩٩٢ واللقاءات والمؤتمرات فيها
- ٦٥٩ دور الأمة الإسلامية في إنقاذ البشرية
- ٦٦٨ خطابي في المركز الإسلامي في لندن ، واجب الجالية الإسلامية ..
- ٦٧٤ أطول رحلة في الحياة ١٩٩٣ م
- ٦٧٩ من دلهي إلى إستانبول ١٩٩٣ م
- ٦٨١ الجلسة الأولى للهيئة العامة لرابطة العالم الإسلامي
- ٦٩١ خمسة أيام في لندن
- ٦٩٤ في شيكاغو
- ٦٩٩ في نيويورك
- ٧٠٢ في الحجاز
- ٧٠٨ التعبير السليم عن فكر الكاتب (سماحة الشيخ الندوي) وتجربته ...
- ٧١٢ رحلة سمرقند وبخارى عام ١٩٩٣
- ٧٢٢ الخاتمة
- ٧٢٣ الفهارس العلمية
- ٧٢٥ فهرس الآيات الشريفة

٧٣٢	فهرس الأحاديث النبوية
٧٣٤	فهرس الأعلام
٧٦٠	فهرس الأماكن والبقاع والبلدان
٧٨٣	فهرس الأمم والقبائل والجماعات
٧٨٧	فهرس الشعر
٧٩٠	فهرس الموضوعات